

المُسْتَظَرَفُ

فِي كُلِّ فَرْقٍ مُسْتَظَرَفٌ

لِلإِمَامِ الْعَلَّامَةِ

شَرَاهُ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الْأُبُسَيْرِيِّ

مُحَقِّقَهُ وَعَلَوَهُ عَلَيْهِ وَقَدَّمَ لَهُ

مُحَمَّدُ ابْرَاهِيمُ سَلِيمٌ





للنشر والتوزيع والتصدير

نافذتك على الفكر العربي
والعالمي من خلال ما تقدمه
لك من روائع الفكر العالمي
والكتب العلمية والأدبية
والطبية ونوادير التراث
واللغات الحية. شعارنا:
قدم الجديد..

وبسعر أرخص

يشرف عليها ويديرها

مهندس

مصطفى عاشور

٧٦ شارع محمد فريد - النهضة - مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: ٢٦٢٧٨٩٦٣ - فاكس: ٢٦٢٨٩٢٧٢

Web site: www.ibnsina-eg.com

E-mail: info@ibnsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للناس

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو
تسجيل أو اقتباس أي جزء من
الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة
ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن
كتابي سابق من الناشر.

الأبشيهي، محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي ١٣٨٨ - ١٤٤٨.
المستطرف في كل فن مستظرف / لشهاب الدين محمد بن أحمد
الأبشيهي: حققه وعلق عليه وقدم له محمد إبراهيم سليم.

ط١ - القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠١١

٥٩٢ ص: ٢٧ سم

تدمك ٨ ١١ ٥٠٨٤ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الأدب العربي - مجموعات.

١ - سليم، محمد إبراهيم (محقق وعلق ومقدم)

ب - العنوان. ٨١٠٨

رقم الإيداع: ٢٠١١/١٤٠١٨

الترقيم الدولي: 8-11-5084-977-978

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم

تطلب جميع مطبوعاتنا من وكيلنا الوحيد بالملكة العربية السعودية

مكتبة الساعي للنشر والتوزيع

ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ - هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ - ٤٣٥١٩٦٦ - ٤٣٥٩٠٦٦

فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٦٧

جدة: هاتف/ فاكس: ٦٢٩٤٣٧٧ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٧٦

E-mail: alsaa99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة - القاهرة

تليفون: ٤٦٦٥١٠١٣ فاكس: ٤٦٦٥١٠٩٩

بسم الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

ها هو ذا كتاب « **المستطرف... ذكرك من مشظوف** » في حُلَّتِهِ الجديدة ، بعد أن مضت عليه سنوات وسنوات دون أن يجد من العناية ما يستحقه في مختلف الطبعات ! وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه ؛ فإن كتابنا هذا يوحى عنوانه إلينا بمحتواه ؛ حيث اشتمل على كل فن ظريف ، وحوى لطائف ، وطرائف عديدة ، من منتخبات الكتب النفيسة ، إلى جانب ما أودعه مؤلفه من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وأمثال شعرية ، وألفاظ لغوية ، وحكايات جَدِيَّة ، ونوادر هزلية ، وغيرها من غرائب ، ولطائف ، وعجائب ينشرح لها الصدر ، وتقرُّ بها العين .

وكيف لا ، وقد ضمنه صاحبه - كما يقول : كل لطيفة ونظمه بكل طريفة ، وقرون الأصول فيه بالفروع ، وجعل أبوابه « الأربعة والثمانين » مُقَدِّمة ، وفصلها في مواضعها مرتبة منظمّة !

الحقُّ أقول : إن كتاباً يضم أربعة وثمانين باباً ، وفي كل باب فصول تحيط بشتى النواحي ، وتلّم ببعض الجوانب ، فلا تترك شاردة ولا أبدّة إلا ضمّتها ، وأحسنّت عرضها واحتوتها - مثل هذا الكتاب جدير به أن يكون « كتاب الكتب » ، ومرجع التراث ، وخزانة الأدب !

إنه ليس فقط كتاب سمر ، وإنما هو كتاب علم ونظر !

ولقد صدق عليه المثل القائل : « كل الصيد في جوف القُرَا » .

إنه بأبوابه « الأربعة والثمانين » يغنينا عن غيره ولا يغني غيره عنه . . إنه موسوعة كبرى تجلّى فيها سعة العلم ، وحضور الذهن ، وحسن الاختيار بما اشتملت عليه من فنون الشر والشعر . وحسب الإيشيى فخراً - وقد عاش عصر الانحطاط - أن يقدم لنا هذه الموسوعة الكبرى بعد أن رأى جماعة من ذوى الهمم جمعوا أشياء كثيرة من الآداب ، والمواعظ ، والحكم ، وبسطوا مجلدات في التواريخ والنوادر ، والأخبار ، والحكايات ، واللطائف ، ورقائق الأشعار ، وألّفوا في ذلك كتباً كثيرة ، تفرّد كل منها بفرائد ، وفوائد ، لم تكن في غيره من الكتب محصورة ، فاستخار الله ، وجمع من مجموعها « مُسْتَظَرَفُهُ هذا » ليكون مشتملاً على كل فن ظريف ، وخبر لطيف ! وكان له ما أراد ، وها هو ذا بين يديك في ثوبه الجديد . .

* الإيشيى وعصره *

المؤلف وعصره وكتابه:

أما المؤلف فقد قال عنه صاحب المنجد ، وكذلك صاحب معجم المؤلفين : هو بهاء الدين محمد بن أحمد الإيشيى [٧٩٠ - ٨٥٢ هـ] ، [١٣٨٨ - ١٤٤٨ م] ، ولد في أبشويه (مصر) . أديب واعظ : « له المستطرف في كل فن مستظرف » في الأدب ، والحكم ، وأخبار العرب .

بينما تذكر الطبعة الأولى على غلافها اسم « شهاب الدين أحمد الإيشيى » . وهو غلط كما جاء في الخزانة التيمورية : « نسبة كتاب المستظرف في النسخ التي بالأيدى لأبيه أحمد غلط » . ويذكر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة في موسوعته « قصة الأدب في مصر - الجزء الثاني » أن اسمه . « محمد بن أحمد الإيشيى » .

وأنه توفي سنة ٨٤٧هـ . ليلة الجمعة الحادى عشر من شهر ذى الحجة . ويجعل صاحب الأعلام تاريخ وفاته سنة ٨٥٢هـ . ويذكر صاحب معجم المؤلفين أن تاريخ الوفاة هو ٨٥٠هـ . وعلى كل فهو شهاب الدين ، وهو بهاء الدين لقب بهما معاً . وجاء فى معجم المؤلفين : هو محمد بن أحمد بن منصور بن أحمد بن عيسى الإشبهى المحلى ، الشافعى (بهاء الدين أبو الفتح) وشأن المؤرخين أن يختلفوا فى تاريخ الميلاد ، والوفاة ، والذي نختاره أنه عاش ثمانية وخمسين عامًا ، حيث نشأ فى القرية التى ولد فيها وهى « أبشويه » بمحافظة الغربية التى عاصمتها طنطا بلد العلم والعلماء . وكانت إقامته فى المحلة الكبرى .

ولقد أتيح له أن يمارس الإمامة والخطابة فى بلدته ، وأن يتردد على القاهرة للتزود بنصيب وافر ممن عُرفوا بالتقى والورع ، بعد أن أدى فريضة الحج ، وزار مدينة الرسول ﷺ . وكان ممن تلقى العلم على أيديهم « جلال الدين البلقينى » الذى حضر دروسه . ولقد عاصر « ابن خلدون » وأطلع على مقدمته ، ونقل عنها ، وفتح عينه على علماء عصره من أصحاب الموسوعات ، فلم لا يكون مثلهم ؟ !

ولم لا يقوم بعمل فريد ينفرده به ، ويشهد له يكون شاهداً على العصر ، ويرى الدور الذى كانت تقوم به مصر فى حفظ العلوم والفنون أمام الزحف التترى والمغولى ، بل أمام تلك الموجات العدوانية الشرسة التى هبت على وطننا العربى ! لقد أثبت للدنيا أن مصر كانت بحق حامية الثقافة الإسلامية ، وملاذ اللغة العربية والأدب بفنونه وألوانه بعد أن خرب التتار بلاد المسلمين ، ودور العلم والمكتبات فيها !

لقد تطلع العلماء والأدباء والشعراء شرقاً وغرباً فلم يجدوا - آنذاك - غير مصر خصوصاً بعد أن أصبحت موطن الخلافة ، ومقر الإسلام ، فرحلوا إليها من جميع الأقطار ، فكنّت ترى القاهرة ، ومراكز العلم الأخرى بالديار المصرية ، تموج بهم موجاً ، وكنّت ترى بينهم العراقي ، والشامى ، والفارسى ، والأندلسى ، والإفريقى ، والحجازى . وكان لهؤلاء وأولئك أثرهم فجددوا شباب النهضة العلمية فى العالم الإسلامى ! ومن أولئك العلماء والأدباء على سبيل المثال لا الحصر :

* ابن عقيل المصرى المتوفى عام ٧٦٩هـ .

* والفيروز أبادى « صاحب القاموس المحيط » المتوفى سنة ٨١٧هـ .

* والقلقشندي صاحب « صبح الأعشى » المتوفى عام ٨٢١هـ .

* والنويرى صاحب « نهاية الأرب » المتوفى عام ٧٣٢هـ .

* وابن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار » المتوفى عام ٧٤٨هـ .

* وتقى الدين حجة الحموى صاحب « خزانة الأدب » المتوفى عام ٨٣٧هـ .

* والدميرى صاحب « حياة الحيوان » المتوفى عام ٨٠٨هـ .

* والمقرىزى صاحب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المتوفى سنة ٨٤٥هـ .

هؤلاء جميعاً وغيرهم من عمالقة المؤلفين كان له معهم لقاء ، فراح يُدلى بدلوه بين الدلاء ! .

لقد تملكهم جميعاً شعور دينى دفعهم إلى العمل على إعادة ذلك التراث الذى عبث به كوارث الغزو يوم خربت بغداد صريعة تحت أقدام المخربين من التتار عام ٦٥٦هـ حيث أحرقوا كثيراً من الكتب ، ودمروا دور العلم والحضارة والثقافة تدميرًا ! لقد آلى العلماء على أنفسهم أن يجددوا ذلك المجد الإسلامى الذى بنى فى دهور ، وانهار فى لحظات ! فأخذوا يبذلون الجهد فى التأليف والتصنيف لإصلاح ما أفسدته الأيام ، وإنشاء كتب جديدة فى اللغة ، والدين ،

والأدب ، وراحوا يتنافسون في هذا المجال ، ويدعون . ومن عجب أن هذا العصر الذي يسمى « عصر الانحطاط » - الذي شهده الإبيهي ، وعاشه - هو بعينه عصر الموسوعات حيث ألف العلماء والأدباء موسوعات أدبية وثقافية عامة ، تعد من أهم مصادر الأدب في هذا العصر ، وتمتاز بالضخامة والغزارة فيما تضمنته من المادة العلمية والثقافية لقد قرأ الإبيهي الكثير والكثير ، واطلع على مؤلفات أولئك العمالقة ، وكان كالإسفنجة التي امتصت الآراء والأفكار من كل نبع ! لقد ذكر لنا من تلك المصادر العقد الفريد لابن عبد ربه ، وربع الأبرار للزمخشري ، وما خفي كان أعظم وأكثر ! حسبه أنه جمع . . وحسبه أنه حفظ لنا تراثاً غالياً ، ولا عليه إن كان قد نقل فيما نقل ما لا يصدق العقل ، أو لا يلائم ثقافة العصر ، أو يחדش الحياء ! فلم يكن « المستطرف » إلا مرآة يرى فيها اللاحقون كيف كان السابقون يفكرون ؟! وماذا كان لديهم من فنون ؟! لقد جمع التراث ، وكتب في كل فن وعلم مما يدل على اطلاعه ، وفقهه ، وتمكنه !

ولولا أن ثورة العلم والتكنولوجيا مست بعصاها السحرية كل بلاد العالم ، وأصبح العالم أمامها كأنه قرية صغيرة - لكنا ما نزال نجتر بعض تلك المعلومات التي تبدو لنا اليوم أشبه بالخرافات ! جزى الله الإبيهي عما جمعه وألفه خيراً ، ونفع بمؤلفه الإسلام والمسلمين آمين .

❁ هذه الطبعة وما سبقها من طبعات !

كان لا بد أن نرجع إلى الكتاب في طبعته الأولى لنعرف من مُصححه تاريخ صدورها ، ومن أصدرها ؟ ويقول مصحح الكتاب - في نهاية الجزء الثاني - السيد « حماد الفيومي العجاوي » : تم طبع هذا الكتاب الجليل ، على ذمة الهمام الأكرم الشيخ شرف موسى بمطبعة حضرته السنية التي مركزها في مصر خان أبي طافية في أوائل شهر الله رجب الحرام من عام ألف وثلثمائة واثنين من هجرة سيد الأنعام ﷺ . وتوالت طبعات الكتاب بطيئة متاقلة ، ومع أنه ترجم إلى اللغة التركية والفرنسية إلا أن طبعته العربية ظلت تفتقر إلى تحقيق دقيق يعالج ما تضمنته الطبعات من أخطاء ، ويسلط الضوء على بعض المفردات والعبارات التي يتوقف الفهم عليها ، ولقد خلت طبعته المحققة من تخريج ما ساقه المؤلف من أحاديث ، مع إغفال لضبط الشعر ، وإهمال لعزو بعض الآيات إلى سورها ، مما دعاني إلى إعادة النظر في تحقيقه من جديد ليبدو في صورة لائقة بقرائه من الباحثين والمثقفين ، وليظل مرجعهم في كل فن !

وحسبي الله ونعم الدليل . . .

محمد إبراهيم سليم



oboi.kandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الملك العظيم ، العليّ الكبير ، الغنيّ الحميد ، اللطيف الخبير ، المنفرد بالعرّ والبقاء ، والإرادة والتدبير ، الحَقّ العليم الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . أَحْمَدُهُ حمدَ عبدٍ معترفٍ بالعجز والتقصير ، وأشكره على ما أعان عليه من قصد وَيَسَّرَ من عسير .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا مشير ، ولا ظهير له ولا وزير . وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله البشير النذير ، السراج المنير ، المبعوث إلى كافّة الخلق من غنى وفقير ، ومأمور وأمير - صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه - صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير ، وينجو بها في الآخرة من عذاب السعير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير .

❖ أما بعد:

فقد رأيت جماعة من ذوى الهَمِّ جَمَعُوا أشياء كثيرة من الآداب والمواعظ والحكم ، وبسطوا مجلدات في التواريخ ، والنوادر ، والأخبار ، والحكايات ، واللطائف ، ورقائق الأشعار ، وألفوا في ذلك كتباً كثيرة ، وتفرّد كل منها بفرائد وفوائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة فاستخرتُ الله تعالى وجمعتُ من مجموعها هذا المجموع اللطيف ، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف ، وسميته المستظرف في كل فن مُسْتَظَرَف ، واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم ، وأحاديث صحيحة من أحاديث النبي الكريم ، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار ، ونقلت فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري في كتابه « ربيع الأبرار » وكثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه « العقد الفريد » ورجوت أن يجد مطالعته فيه كل ما يقصد ويُريد ، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة من منتخبات الكتب النفيسة المفيدة وأودعته من الأحاديث النبوية ، والأمثال الشعرية ، والألغاز اللغوية ، والحكايات الجديّة والنوادر الهزلية ، ومن الغرائب والدقائق والأشعار والرقائق ما تُشَفُّ بذكره الأسماع^(١) ، وتقرّ برؤيته العيونُ وينشرح بمطالعتة كل قلب محزون :

مِنْ كُلِّ مَعْنَى يَكَادُ الْمَيْتُ^(٢) يَفْهَمُهُ حَسَنًا وَيَغْشَقُهُ الْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين باباً من أحسن الفنون ، متوّجةً بألغاز ، كأنها الدُرّ المكنون ، كما قال بعضهم شعراً في المعنى :

فَفِي كُلِّ بَابٍ مِنْهُ دُرٌّ مُؤَلَّفٌ كُنْظَمُ عُقُودٍ زَيَّنَتْهَا الْجَوَاهِرُ
فَإِنْ نَظُمَ الْعِقْدُ الَّذِي فِيهِ جَوْهَرٌ عَلَى غَيْرِ تَأْلِيفٍ فَمَا الدُّرُّ فَآخِرُ
وضمته كل لطيفة ، ونظمتها بكل ظريفة ، وقرنت الأصول فيه بالفصول ، ورجوت أن يتيسر لى ما رُمته من الوصول ، وجعلت أبوابه مقدّمة ، وفصلتها في مواضعها مرتبة منظمة ، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج إليه ؛ ويعرف مكانه بالاستدلال عليه ، فيجد كل معنى في بابه - إن شاء الله تعالى - والله المسئول في تيسير المطلوب ، وأن يُلْهِمَ الناظر فيه ستر ما يراه من خَللٍ وعُيوب . إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وهذه فهرسة الكتاب ، والله المهوّن للصعاب .

* (الباب الأول) : في مباني الإسلام ، وفيه خمسة فصول .

(١) الرقائق: جمع رقيقة، والرقيقة قصيدة تبعث على الزهد، وتذكر باليوم الآخر. وتشف الآذان: تمتعها بالكلام المشتّف المزيّن.

(٢) الميت: مَنْ فِي حَكْمِ الْمَيْتِ وَلَيْسَ بِهِ. والقِرطاس: الورق.

- * (الباب الثاني) : في العقل والذكاء ، والحمق والذم ، وغير ذلك .
- * (الباب الثالث) : في القرآن العظيم ، وفضله ، وحُرْمته ، وما أعدَّ الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم ، والأجر الجسيم .
- * (الباب الرابع) : في العلم والأدب ، وفضل العالم والمتعلم .
- * (الباب الخامس) : في الآداب والحكم وما أشبه ذلك .
- * (الباب السادس) : في الأمثال السائرة وفيه فصول .
- * (الباب السابع) : في البيان والبلاغة والفصاحة ، وذكر الفصحاء من الرجال والنساء ، وفيه فصول .
- * (الباب الثامن) : في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك .
- * (الباب التاسع) : في ذكر الخطب والخطباء والشعراء وسرفاتهم ، وكَبَوات الجياد ، وهفوات الأمجاد .
- * (الباب العاشر) : في التوكل على الله - تعالى - والرضا بما قسم ، والقناعة وذم الحرص والطمع ، وما أشبه ذلك ، وفيه فصول .
- * (الباب الحادي عشر) : في المشورة والنصيحة ، والتجارب ، والنظر في العواقب .
- * (الباب الثاني عشر) : في الوصايا الحسنة ، والمواعظ المستحسنة ، وما أشبه ذلك .
- * (الباب الثالث عشر) : في الصمت ، وصون اللسان ، والنهي عن الغيبة ، والسعي بالنميمة ، ومدح العزلة ، وذم الشهرة ، وفيه فصول .
- * (الباب الرابع عشر) : في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام ، وما يجب للسلطان على الرعية ، وما يجب لهم عليه .
- * (الباب الخامس عشر) : فيما يجب على من صحب السلطان ، والتحذير من صحبته .
- * (الباب السادس عشر) : في الوزراء وصفاتهم وأحوالهم ، وما أشبه ذلك .
- * (الباب السابع عشر) : في ذكر الحجاب والولاية ، وما فيها من العَرَر^(١) والخطَر .
- * (الباب الثامن عشر) : فيما جاء في القضاء ، وذكر القضاة ، وقَبُول الرِّشوة والهدية على الحكم ، وما يتعلق بالديون ، وذكر القُصَّاص ، والمتصوِّفة وفيه فصول .
- * (الباب التاسع عشر) : في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك .
- * (الباب العشرون) : في الظلم وشؤمه ، وسوء عواقبه ، وذكر الظَّلمة وأحوالهم ، وغير ذلك .
- * (الباب الحادي والعشرون) : في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال ، وسيرة السلطان في استجاء الخراج ، وأحكام أهل الذمة ، وفيه فصلان .
- * (الباب الثاني والعشرون) : في اصطناع المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وقضاء الحوائج للمسلمين وإدخال السرور عليهم .
- * (الباب الثالث والعشرون) : في محاسن الأخلاق ومساوئها .
- * (الباب الرابع والعشرون) : في حسن المعاشرة والمودة ، والأخوة ، والزيارة وما أشبه ذلك .
- * (الباب الخامس والعشرون) : في الشفقة على خلق الله تعالى ، والرحمة بهم ، وفضل الشفاعة ، وإصلاح ذات البين ، وفيه فصلان .
- * (الباب السادس والعشرون) : في الحياء ، والتواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح ، وفيه فصلان .
- * (الباب السابع والعشرون) : في العُجْب والكِبَر والخِيَلَاء وما أشبه ذلك .

(١) العَرَر: الخطر، والتعريض للهلكة.

- * (الباب الثامن والعشرون) : فى الفخر والمفاخرة ، والتفاضل والتفاوت .
- * (الباب التاسع والعشرون) : فى الشرف والسُّؤدُّد وعلو الهمة .
- * (الباب الثلاثون) : فى الخير والصلاح ، وذكر السادة الصحابة ، وذكر الأولياء والصالحين .
- * (الباب الحادى والثلاثون) : فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء .
- * (الباب الثانى والثلاثون) : فى ذكر الأشرار والفُجَّار وما يرتكبون من الفواحش ، والوقاحة والسفاهة .
- * (الباب الثالث والثلاثون) : فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق ، واصطناع المعروف وذكر الأمجاد ، وأحاديث الأجواد .
- * (الباب الرابع والثلاثون) : فى البخل والشح ، وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم .
- * (الباب الخامس والثلاثون) : فى الطعام وآدابه ، والضيافة وآداب المضيف والضيف ، وأخبار الأكلة ، وما جاء عنهم ، وغير ذلك .
- * (الباب السادس والثلاثون) : فى العفو ، والحلم ، والصفح ، وكَظْم الغَيْظ ، والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك .
- * (الباب السابع والثلاثون) : فى الوفاء بالوعد ، وحسن العهد ، ورعاية الذمم .
- * (الباب الثامن والثلاثون) : فى كتمان السرِّ وتحصينه ، وذم إفشائه .
- * (الباب التاسع والثلاثون) : فى الغُدر والخيانة ، والسرقة والعداوة والبغضاء ، والحسد ، وفيه فصول .
- * (الباب الأربعون) : فى الشجاعة وثمرتها ، والحروب وتدبيرها ، وفضل الجهاد وشدة البأس ، والتحريض على القتال وفيه فصول .
- * (الباب الحادى والأربعون) : فى ذكر أسماء الشجعان ، وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم ، وذكر الجبناء وأخبارهم ، وذم الجبن .
- * (الباب الثانى والأربعون) : فى المدح والثناء ، وشكر النعمة ، والمكافأة ، وفيه فصول .
- * (الباب الثالث والأربعون) : فى الهجاء ومقدماته .
- * (الباب الرابع والأربعون) : فى الصدق والكذب ، وفيه فصلان .
- * (الباب الخامس والأربعون) : فى بر الوالدين ، وذم العقوق ، وذكر الأولاد ، وما يجب لهم وعليهم ، وصلة الرحم والقربات ، وذكر الأنساب ، وفيه فصول .
- * (الباب السادس والأربعون) : فى الخلق وصفاتهم ، وأحوالهم ، وذكر الحُسن والقبح ، والطول والقصر ، والألوان واللباس ، وما أشبه ذلك .
- * (الباب السابع والأربعون) : فى ذكر الحُلَى والمصوغ ، والطَّيب والتَّطْيِب ، وما جاء فى التخنم .
- * (الباب الثامن والأربعون) : فى الشباب والشَّيب ، والصحة والعافية ، وأخبار المعمرين ، وما أشبه ذلك ، وفيه فصول .
- * (الباب التاسع والأربعون) : فى الأسماء والكنى والألقاب ، وما استحسن منها .
- * (الباب الخمسون) : فى الأسفار والاعتراب ، وما قيل فى الوداع والفراق ، والحث على ترك الإقامة بدار الهوان ، وحب الوطن والحنين إلى الأوطان .
- * (الباب الحادى والخمسون) : فى ذكر الغنى وحب المال ، والافتخار بجسمه .
- * (الباب الثانى والخمسون) : فى ذكر الفقر ومدحه .
- * (الباب الثالث والخمسون) : فى ذكر التلطف فى السؤال ، وذكر من سُئِلَ فجاد .
- * (الباب الرابع والخمسون) : فى ذكر الهدايا والتحف ، وما أشبه ذلك .

- * (الباب الخامس والخمسون) : في العمل والكسب ، والصناعات والحرف ، والعجز والتواني ، وما أشبه ذلك .
- * (الباب السادس والخمسون) : في شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلي عن نوائب الدهر ، وفيه ثلاثة فصول .
- * (الباب السابع والخمسون) : فيما جاء في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والسرور بعد الحزن ونحو ذلك .
- * (الباب الثامن والخمسون) : في ذكر العبيد والإماء والخدم ، وفيه فصلان .
- * (الباب التاسع والخمسون) : في أخبار العرب وذكر غرائب من عوائدهم وعجائب أمرهم .
- * (الباب الستون) : في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية .
- * (الباب الحادي والستون) : في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد ، والتيقظ والتبصر ونحو ذلك .
- * (الباب الثاني والستون) : في ذكر الدواب والوحوش ، والطيور والهوام والحشرات ، مرتباً على حروف المعجم .
- * (الباب الثالث والستون) : في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم .
- * (الباب الرابع والستون) : في خلق الجن وصفاتهم .
- * (الباب الخامس والستون) : في ذكر البحار وما فيها من العجائب ، وذكر الأنهار والآبار ، وفيه فصول .
- * (الباب السادس والستون) : في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان ، وغرائب البنيان ، وفيه فصول .
- * (الباب السابع والستون) : في ذكر المعادن والأحجار وخواصها .
- * (الباب الثامن والستون) : في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس ومن كرهه واستحسنه .
- * (الباب التاسع والستون) : في ذكر المغنين والمطربين ، وأخبارهم ، ونوادير الجلساء في مجالس الخلفاء .
- * (الباب السبعون) : في ذكر القينات والأغاني .
- * (الباب الحادي والسبعون) : في ذكر العشق ، ومن بلى به ، والافتخار به ، والعفاف ، وأخبار من مات بالعشق ، وما في معنى ذلك ، وفيه فصول .
- * (الباب الثاني والسبعون) : في ذكر رقائق الشعر والمواليا ، والدوييت ، وكان وكان ، والموشحات ، والزجل ، والقومة والألغاز ، ومدح الأسماء والصفات . وفيه فصول .
- * (الباب الثالث والسبعون) : في ذكر النساء وصفاتهم ، ونكاحهن وطلاقهن ، وما يمدح وما يذم من عشرتهن ، وفيه فصول .
- * (الباب الرابع والسبعون) : في ذم الخمر وتحريمها ، والنهي عنها .
- * (الباب الخامس والسبعون) : في المزاح والنهي عنه ، وما جاء في الترخيص فيه ، والبسط والتعجم ، وفيه فصول .
- * (الباب السادس والسبعون) : في النوادر والحكايات ، وفيه فصول .
- * (الباب السابع والسبعون) : في الدعاء وآدابه ، وشروطه ، وفيه فصول .
- * (الباب الثامن والسبعون) : في القضاء والقدر وأحكامهما ، والتوكل على الله .
- * (الباب التاسع والسبعون) : في التوبة ، وشروطها ، والندم والاستغفار .
- * (الباب الثمانون) : في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء من السنة ، والعيادة ، وثوابها وما أشبه ذلك ، وفيه فصول .
- * (الباب الحادي والثمانون) : في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله .
- * (الباب الثاني والثمانون) : في الصبر والتأسي والتعازي والمرائي ونحو ذلك وفيه فصول .
- * (الباب الثالث والثمانون) : في ذكر الدنيا وأحوالها ، وتقلبها بأهلها ، والزهد فيها ، ونحو ذلك .
- * (الباب الرابع والثمانون) : في فضل الصلاة على النبي ﷺ وهو آخر الأبواب : ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته يوم المعاد .

الباب الأول

في مباني الإسلام ، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول : في الإخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له ، فرد لا مثل له ، صمد لا ند له ، أزلي قائم ، أبدى دائم ، لا أول لوجوده ، ولا آخر لأبدية ، قیوم لا يفنيه الأبد ، ولا يغيره الأمد ، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، منزه عن الجسمية ، ليس كمثله شيء ، وهو فوق كل شيء ، فوقيته لا تزيده بُعداً عن عباد ، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد ، وهو على كل شيء شهيد ، وهو معكم أينما كنتم لا يشابهه قرب الأجسام ، كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام^(١) ، منزّه عن أن يحده زمان ، مقدس عن أن يحيط به مكان ، تراه أبصار الأبرار^(٢) في دار القرار ، على ما دلت عليه الآيات والأخبار ، حيّ قادر ، جبار قاهر ، لا يعتره عجز ولا قصور ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، له الملك والملكوت^(٣) ، والعزة والجبروت ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وأجالهم ، لا تحصي مقدوراته ، ولا تنتهي معلوماته ، عالم بجميع المعلومات ، لا يعزب^(٤) عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ، يعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وخفيات السرائر ، مُريد للكائنات ، مُدبر للحادثات ، لا يجري في ملكه قليل ، ولا كثير ولا جليل ، ولا حقير ، خير أو شر ، نفع أو ضرر إلا بقضائه وقدره ، وحكمه ومشيته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فهو المبدئ المعيد ، الفاعل لما يريد ، لا مُعقّب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ، ولا مهزّب لعبيد عن معصيته إلا بتوقيفه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته ، لو اجتمع الإنس والجنّ والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يُسكنوها دون إرادته لعجزوا ، سميع بصير ، متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه ، وكل ما سواه - سبحانه وتعالى - فهو حادث ، أوجده بقدرته ، وما من حركة وسكون إلا وله في ذلك حكمة دالة على وحدانيته ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] .

وقال أبو العتاهية^(٥) :

أَمْ كَيْفَ يَجْهَدُ الْجَاهِدُ ؟
تَذُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ
وَتُسْكِنُهُ فِي الْوَرَى شَاهِدُ

فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يُغْضَى إِلَهُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَخْرِيكَةٍ

وقال غيره :

مِنْ جَلَالٍ وَقُدْرَةٍ وَسَنَاءٍ
مِنْهُ سَبْحَانَ مُبْدِعِ الْأَشْيَاءِ !

كُلُّ مَا تَزْتَقِي إِلَيْهِ يُوْهِمُ^(٦)
فَالَّذِي أَبْدَعَ الْبَرِيَّةَ أَغْلَى

وقال علي عليه السلام في بعض وصاياہ لولده : اعلم يا بني ، إنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد لا يُضادّه في ملكه أحد .

وعنه عليه السلام : « كل ما يتصور في الأذهان فالله سبحانه بخلافه »^(٧) .

(١) الأجرام : «يفتح الهمزة» جمع جرم وهو الجسد .

(٢) الأبرار : واحداً برّ وهو الصالح غير الفاجر ، وهو بارّ والجمع برّرة . ودار القرار : الجنة .

(٣) الملكوت : السلطان والعز ، وملكوت الله : سلطانه وعظمته ، وأما الملك فهو ما يملك ويتصرف فيه خاصة .

(٤) لا يعزب : لا يغيب . (٥) أبو العتاهية : شاعر عباسي أثر النسك والعبادة بعد حياة لاهية .

(٦) الوهم : ما يقع في الذهن من الخاطر .

(٧) حديث «كل ما يتصور في الأذهان» . إلخ . لم أقف على هذا الحديث فيما بين يدي من كتب الحديث والتخریجات .

وقال نبيد بن ربيعة^(١) :

ألا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ ابْنِ آدَمَ لَوْ تَطَاوَلَ عَمْرُهُ
وَكُلُّ أَنْاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا سَيَعْرِفُ سَعْيُهُ

وروى أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر : « إِنَّ أَسْعَرَ كَلِمَةٍ قَالَتْهَا الْعَرَبُ : أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ »^(٢) . ثم بعد هذا الاعتقاد الإقرار بالشهادة بأن محمداً رسول الله ﷺ بعثه برسالاته إلى الخلائق كافة ، وجعله خاتماً الأنبياء ، ونسخ بشريعته الشرائع ، وجعله سيد البشر ، والشفيع المشفع في المحشر ، وجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة فلا يصح إيماناً عبداً حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت من سؤال مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وهما ملكان من ملائكة الله - تعالى - يسألان العبد في قبره عن التوحيد ، والرسالة ، ويقولان له : مَنْ رَبُّكَ ؟ وما دينك ؟ وَمَنْ نَبِيِّكَ ؟ ويؤمن بعذاب القبر ، وأنه حق ، وأن الميزان حق ، والصراط حق ، والحساب حق ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، وأن الله - تعالى - يدخل الجنة من يشاء بغير حساب ، وهم المقربون ، وأنه يُخْرِجُ عُصَاةَ الْمُوحِدِينَ من النار ، بعد الانتقام ، حتى لا يبقى في جهنم مَنْ في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ، ويؤمن بشفاعة الأنبياء ، ثم بشفاعة العلماء ، ثم بشفاعة الشهداء ، وأن يعتقد فضل الصحابة ﷺ وَيُحَسِّنُ الظَّنَّ بِجَمِيعِهِمْ على ما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار ؛ فمن اعتقد جميع ذلك مؤمناً به ، موقناً فهو من أهل الحق والسنة ، مفارق لعصابة الضلال والبدعة ، رزقنا الله الثبات ، على هذه العقيدة ، وجعلنا من أهلها ، ووقفنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بجعلها ، إنه سميع مجيب . فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة . قال رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامَ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمَ رَمَضَانَ ، وَحُجَّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا »^(٣) .

الفصل الثاني: في الصلاة وفضلها

قال الله تعالى - : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي تَقُومُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقال - تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ١١٠] وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء: ١٠٣] .

واختلفوا في اشتقاق اسم الصلاة مم هو ؟ فقيل : هو من الدعاء وتسمية الصلاة دعاءً معروفة في كلام العرب ، فسميت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء ، وقيل : سميت بذلك من الرحمة ؛ قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فهي من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن الناس دعاء .

قال ﷺ : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى »^(٤) أي : ارحمهم . وقيل : سميت بذلك من الاستقامة من قولهم : صَلَّيْتُ الْعُودَ عَلَى النَّارِ إِذَا قَوْمَتْهُ . والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته ، وتنهيه عن خلافه ؛ قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّكَ الصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقيل : لأنها صلة بين العبد وربّه . وعن رسول الله ﷺ قال : « عِلْمُ الْإِيمَانِ الصَّلَاةُ فَمَنْ فَرَّغَ لَهَا قَلْبَهُ وَحَافِظَ عَلَيْهَا بِحُدُودِهَا فَهُوَ مُؤْمِنٌ »^(٥) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضاً^(٦) في الإسلام ، وما أكمل لله - تعالى - صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا وَخُشُوعَهَا وَتَوَاضُعَهَا وَإِقْبَالَهَ عَلَى اللَّهِ فِيهَا . وقالت

(١) شاعر جاهلي من المعمرين الصادقين في شعرهم . والدُّوْبِيَّةُ : الموت .

(٢) حديث : « إِنَّ أَسْعَرَ كَلِمَةٍ قَالَتْهَا الْعَرَبُ » . إلخ . صحيح : أخرجه مسلم برقم [٢٢٥٦] .

(٣) حديث : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ » . إلخ . ذكره المنذري في الصلوات الخمس والترغيب في المحافظة عليها وقال : رواه البخاري في الإيمان برقم ٨ ومسلم في الإيمان برقم ١٩ وغيرهما .

(٤) حديث : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » أخرجه أحمد [٣٥٥ / ٤] ، [٣٨١] .

(٥) حديث « عِلْمُ الْإِيمَانِ الصَّلَاةُ » . إلخ . عزاه المتقي الهندي في « كثر العمال » [٤٢٣] ، إلى ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد عن أبي سعيد الخدري .

(٦) عارضاه : صفحتها خده .

عائشة رضي الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » ^(١) . وقيل للحسن : ما بال المتجهدين من أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن ، فألبسهم نوراً من نوره . وقال بعضهم : لا تفوت أحداً صلاةً في جماعة إلا بذنب . وكانت رابعة العدوية تصلى في اليوم والليلة ألف ركعة ، وتقول : واللله ما أريد بها ثواباً ، ولكن ليُسَرَّ ذلك رسول الله ﷺ ، ويقول للأنبياء عليهم السلام : انظروا إلى امرأة من أمتي ! هذا عملها في اليوم والليلة . وقال بعضهم : صليت خلف ذي النون المصري ^(٢) ، فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال : الله ثم بُهت ، وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظاماً لربه - جلّ وعلا - ثم قال : الله أكبر فظننت أن قلبي انخلع من هية تكبيره ! وقيل : أوحى الله - تعالى - إلى داود عليه السلام يا داود كذب من ادّعى محبتي ، وإذا جن عليه الليل نام عنى ، أليس كلُّ مُحب يُحبُّ الخلوة بحبيبه ^(٣) ؟ ! ولعبد الله بن المبارك رحمته الله :

إذا ما الليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم رُكوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هُجوع

وكان سيدي الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم النحري - رحمه الله - كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

يأئها الراقذ كم ترقد قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخذ من الليل ولو ساعة تحظى إذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضي ليله لم يبلغ المنزل لو يجهد

وكان سيدي أويس ^(٤) القرني لا ينام ليلة ويقول : ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر؟ وقال حذيفة رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة » ^(٥) وقال هشام بن عروة : كان أبي يطيل المكتوبة ، ويقول : هي رأس المال .

وقال أبو الطفيل : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يقول يأيها الناس قوموا إلى نيرانكم فأطفئوها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر » ^(٦) .

وجزاً محمد بن المنكدر عليه ، وعلى أمه ، وعلى أخته الليل أثلاثاً فماتت أخته ، فجزأه عليه وعلى أمه ، فماتت أمه فقام الليل كله . وكان مسلم بن بشار إذا أراد أن يصلي في بيته يقول لأهله : تحدثوا فليست أسمع حديثكم ، وكان إذا دخل البيت سكّت أهله فلا يُسمع لهم كلام فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا ، ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة فما شعر به حتى أطفئ ! وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير في المسجد الحرام يحسبه جذعاً ^(٧) منصوباً لطول انتصابه في الصلاة ، وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد ، كما تقع على الحائط . وختم القرآن في ركعة واحدة أربعة من الأئمة : عثمان بن عفان ، وتميم الداري ، وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة رضي الله عنهم .

ورأى الأوزاعي شاباً بين القبر والمثبر ، فلما طلع الفجر استلقى ثم قال : عند الصباح يَحْمَدُ القوم السرى ^(٨) فقال يابن أخى لك ولأصحابك لا للجَمالين .

وكان خلف بن أيوب لا يطرد الذباب عن وجهه في الصلاة ؛ ف قيل له : كيف تصبر ؟ فقال : بلغني أن الفساق

(١) حديث عائشة رضي الله عنها : « كان الرسول ﷺ يحدثنا ونحدثه » . إلخ . قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلاً : « كان النبي ﷺ إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحداً من الناس » .

(٢) ذو النون المصري : أحد العابدين الزاهدين وترجم له المؤلف في باب التصوف . . وبُهِت : اعترته دهشة وحيرة .

(٣) « أوحى الله إلى داود » . إلخ . لم أعتد إليه ، ويبدو أنه من الإسرائيليات .

(٤) أويس القرني : أحد الزهاد العابدين . ترجم له المؤلف في باب التصوف .

(٥) حديث : « كان الرسول ﷺ إذا حزبه أمر إلخ . » أخرجه أحمد وأبو داود وانظر صحيح الجامع [٤٥٧٩] .

(٦) حديث : « الصلاة إلى الصلاة » . إلخ . قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة [٢٣٣/١] .

(٧) الجذع : ساق النخلة ونحوها ، والجمع أجذاع وجذوع .

(٨) السرى : المشي ليلاً ، وهو مثل يضرب في احتمال المشقة ، والحث على الصبر حتى تحمد العاقبة .

يتصبرون تحت السياط ليقال: فلان صبور، وأنا بين يدي ربي أفلا أصبر على ذباب يقع على؟ وقال أبو صفوان بن عوانة: ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض، وهو قائم يصلي في القمر، كأنه يشبه الملائكة!

وقال الحسن: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة - عليها السلام - بنت رسول الله ﷺ: كانت تقوم بالأسحار حتى تورمت قدمها، وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه ^(١) «وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» ^(٢) وكانت دموعه تقع في مصلاه كوكف المطر ^(٣)، وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يسمع لقلبه خفقاناً وغلّياناً! هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام. فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الأثام؟! وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له: ادع الله أن يجعلني رفيقك في الجنة فقال: «أعني على نفسك بكثرة السجود» ^(٤)

وقال حاتم الأصم - رحمه الله تعالى - فاتتني صلاة الجماعة مرة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا! وكان السلف عليه السلام يعززون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبير الأولى، وسبعا إذا فاتتهم الجماعة وقال: ابن عباس عليه السلام ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه! وأنشد بعضهم:

خَيْرَ الَّذِي تَرَكَ الصَّلَاةَ وَخَابَا وَأَبَى مَعَاذًا صَالِحًا وَمَا بَا
إِنْ كَانَ يَجْعَلُهَا فَحْسَبُكَ أَنَّهُ أَضْحَى بِرَبِّكَ كَافِرًا مُرْتَابَا
أَوْ كَانَ يَتْرُكُهَا لِنَوْعِ تَكَاسُلِ غَطَى عَلَى وَجْهِ الصَّوَابِ حِجَابَا
فَالشَّافِعِيَّ وَمَالِكَ رَأْيَا لَهُ إِنْ لَمْ يَتَّبِعْ خَذَّ الْحُسَامِ عِقَابَا
وَالرَّأْيَ عِنْدِي لِلْإِمَامِ عَذَابُهُ بِجَمِيعِ تَأْدِيبِ يَرَاهُ صَوَابَا

اللهم أعنا على الصلاة، وتقبلها منا بكرمك، ولا تجعلنا من الغافلين برحمتك، يا أرحم الراحمين! وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

فضل السواك والأذان

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شيء من فضل السواك والأذان: أما السواك فقد قال الرسول ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَشَقُّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرِهِمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ» ^(٥) قال أيضًا: «صلاة على إثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة على غير سواك» ^(٦) وقال حذيفة بن اليمان عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ إذا قام ليتجهج شاص فاه بالسواك» ^(٧)

وقال: ﷺ: «السواك مطهرة للضم مرصاة للرب» ^(٨) وعنه ﷺ أنه قال: «لو يعلم الناس ما في السواك لبات مع الرجل في لحافه» ^(٩) وقال أيضًا: «أفواهكم طرق لكلام ربكم فنظفوها» ^(١٠)

- (١) حديث قام رسول الله ﷺ يصلي إلخ.. ذكره المنذري في الترغيب في قيام الليل، وهو جزء من حديث رواه البخاري ومسلم والنسائي.
- (٢) قوله: «وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» بناء على ما تضمنته الآية الكريمة رقم ٢ من سورة الفتح ﴿يَغْفِرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.
- (٣) يقال: وكف الماء يكف: سال وقطر قليلاً قليلاً ووكفت العين الدمع: أسالته.
- (٤) حديث: «أعني على نفسك».. إلخ. قال المنذري: رواه الطبراني في الكبير من رواية ابن إسحاق، ورواه مسلم وأبو داود، مختصراً.
- (٥) حديث: «لولا أن أشق.. إلخ. هذه رواية مسلم، كما قال المنذري في الترغيب في السواك، ورواه البخاري بلفظ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة».
- (٦) حديث: «صلاة على إثر سواك».. إلخ. قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه أبو نعيم في كتاب السواك من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف، ورواه أبو داود والحاكم والبيهقي وضعفه من حديث عائشة، وضعفه بلفظ: «من سبعين صلاة».
- (٧) حديث: «كان الرسول ﷺ إذا قام ليتجهج.. إلخ. أخرجه البخاري [٦٤/٢]، ومسلم [٤٦/١-٤٧].
- (٨) حديث: «السواك مطهرة للضم».. إلخ. ذكره شهاب الدين القسطلاني فيما زاد على الترغيب والترهيب في حديث طويل عن أنس بن مالك ثم قال: رواه الحاكم أبو عبد الله وقال: متصل الإسناد.
- (٩) «لو يعلم الناس ما في السواك».. إلخ. هذا الحديث موضوع. ولوائح الوضع تفوح منه.
- (١٠) «أفواهكم طرق للرب».. إلخ. ضعيف: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم [٢١١٩] وفيه غياث بن كلوب الكوفي، مجهول. انظر: «ميزان الاعتدال» [٣٣٨/٣].

والاختيار في السواك أن يكون بمُود الأراك ويُجزى بغيره من العيدان ، بالسعد والأشنان والخِرقة الحَشِنة وغير ذلك مما ينظف ، ويستاك عَرْضًا مبتدئًا بالجانب الأيمن من فيه وينوى به الإتيان بالسُّنة . والسواك بعود الزيتون يُزِيل الحفر من الأسنان . وقال الأصحاب : يقول عند السواك : اللهم بارك لي فيه يا أرحم الراحمين . ويستاك في ظاهر الأسنان وباطنها ، ويمرّ السواك على أطراف أسنانه وأضراسه وسقف حلقة إمرارًا لطيفًا ، ويستاك بعود متوسط لا شديد اليابوسة ولا شديد اللين فإن اشتد يُسَه لِيَنه بالماء . وقد قيل : إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت ، ويسهل خروج الروح .

وأما الأذان فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه » (١) قيل : في قوله - تعالى - : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا » نزلت في المؤذنين . وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « يَغْفِرُ اللَّهُ لِلْمُؤَذِّنِ مَدَى صَوْتِهِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ مَا سَمِعَهُ مِنْ رُطْبٍ وَنَابِسٍ » (٢) وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَغْنَاءًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٣) رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَذْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأَذِينَ » (٤) رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جِنَّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » [رواه البخاري] . والأحاديث في فضله كثيرة مشهورة والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

الفصل الثالث : في الزكاة وفضلها

قرن الله - سبحانه وتعالى - الزكاة بالصلاة في مواضع شتى من كتابه . قال الله - تعالى - : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » [البقرة: ٤٣] وقال - تعالى - : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ » [النور: ٣٧] وقال - تعالى - : « وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ » [البينة: ٥] وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا حَبَسَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْقَطْرَ » (٥) وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « مَا خَالَطَتِ الزَّكَاةَ مَا لَا قُطْ إِلَّا أَهْلَكَتْ » (٦) وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « مَنْ كَانَ عَنْده مَا يُزَكِّي وَلَمْ يَزَكْ ، وَمَنْ كَانَ عَنْده مَا يَحِجُّ وَلَمْ يَحِجَّ سَأَلَ الرَّجْعَةَ » (٧) يعني قوله - تعالى - : « ... قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي » [آل عمران: ٩٩-١٠٠] .

ولنلحق بهذا الفصل ذكر شيء من الصدقة وفضلها ، وما جاء فيها وما أعد الله - تعالى - للمتصدقين من الأجر والثواب ودفع البلاء . قال الله - تعالى - : « إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » [يوسف: ٨٨] . وقال - تعالى - : « وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ » [الأحزاب: ٣٥] وآيات الكريمة في ذلك كثيرة ، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة . وروى الترمذي في جامعه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ » . وفي صحيح مسلم ، وموطأ مالك ، وجامع الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ » أو قال : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ عَبْدٌ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى » .

- (١) حديث : « يد الرحمن .. » إلخ . ذكره المنذري في الترغيب والترهيب عن أنس ، ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ : « يد الرحمن فوق رأس المؤذن وإنه ليغفر له مدى صوته أين بلغ » .
- (٢) قال المنذري : رواه أحمد بإسناد صحيح .
- (٣) حديث : « المؤذنون أطول الناس » .. إلخ . قال المنذري في الترغيب والترهيب : رواه مسلم برقم [٨٩/٤] ، ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وقيل معناه : أكثر الناس تشوقًا إلى الله .
- (٤) حديث : « إذا نودي للصلاة .. » إلخ . ذكره المنذري في الترغيب والترهيب « باب ما ورد في الأذان وفضله » ، وقال : رواه مالك والبخاري ومسلم برقم [٢٩١/١] وأبو داود والنسائي .
- (٥) حديث : « ما حبس قوم .. » إلخ . قال المنذري رواه الطبراني في الأوسط ورواته كلهم ثقات ، والحاكم والبيهقي إلا أنهما قالوا : « ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر » وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .
- (٦) قال المنذري : روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما خالطت الصدقة » أو قال : « الزكاة مالا إلا أفسدته » ثم قال : رواه البزار والبيهقي .
- (٧) حديث : « من كان عنده .. » إلخ . ضعيف : أخرجه ابن عدي في « الكامل » [٢٦٧٠/٧] .

ودخلت امرأة شلاء على عائشة رضي الله عنها فقالت: كان أبي يُحب الصدقة وأمي تبغضها لم تصدق في عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة؛ فرأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، وكأن أُمِّي قد غطت عورتها بالخلقة، وفي يدها الشحمة تلحسها من العطش، فذهبت إلى أبي وهو على حافة حوض يسقي الناس فطلبت منه قدحاً من ماء فسقيت أُمِّي فتوديت من فوقى ألا من سقاها فثلّ الله يدها فانتبهت كما ترين. ووقف سائل على امرأة وهي تتعشى، فقامت فوضعت لُقْمَةً في فيه، ثم بكرت إلى زوجها في مَزْرَعته فوضعت ولدها عنده، وقامت لحاجة تريد قضاءها، فاخترسه الذئب، فوقفت وقالت: يا رب ولدي! فأتاها آت فأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر، فقال لها: هذه اللقمة بتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل.

وعشش ورشان^(١) في شجرة في دار رجل فلما همت أفرأخه بالطيران، زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفرأخ ذلك الورشان، ففعل ذلك مراراً وكلما فرّخ الورشان أخذوا أفرأخه، فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال: يا رسول الله، أردت أن يكون لى أولاد يذكرون الله - تعالى - من بعدى، فأخذها الرجل بأمر امرأته ثم أعاد الورشان الشكوى، فقال سليمان لشيطنين إذا رأيتاه يصعد الشجرة فشقا نصفين فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل؛ فأطعمه كسرة^(٢) من خبز شعير، ثم صعد وأخذ الأفرأخ على عادته فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام فقال للشيطنين: ألم تفعل ما أمرتكما به؟ فقالا: اعترضنا ملكان؛ فطرحانا في الخافقين^(٣).

وقال النخعي^(٤): كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء، وكان الرجل يضع الصدقة في يد الفقير، ويمثل قائماً بين يديه، ويسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائل. وقال رسول الله ﷺ: «الصدقة تسد سبعين باباً من الشر»^(٥)، وعنه ﷺ قال: «ردوا صدقة البلاء ولو بمثل رأس الطائر من طعام»^(٦). وروى عنه ﷺ أنه قال: «رُدُّوا مَذْمَةَ السَّائِلِ وَلَوْ بِظُلْفٍ مُحْرِقٍ»^(٧).

وعنه أيضاً ﷺ «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(٨). وقال عيسى عليه السلام: «من رد سائلاً خائباً لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام»^(٩). وكان نبينا محمد ﷺ يناول المسكين بيده^(١٠)، وعنه ﷺ: «ما من مُسْلِمٍ يَكْسُو مُسْلِمًا ثَوْبًا إِلَّا كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْهُ رُقْعَةٌ»^(١١).

وقال عبد العزيز بن عُمَيْرٍ: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه. وعن الربيع بن خيثم أنه خرج في ليلة شاتية وعليه بُرُتْس خَزْ فرأى سائلاً فأعطاه إياه وتلا قوله - تعالى - ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا يَزِدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءَ وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبَرُّ، وَإِنْ سَوَّاءُ الْخُلُقِ شَوْمٌ، وَحَسَنُ الْمَلِكَةِ نَمَاءٌ، وَالصَّدَقَةُ تَدْفَعُ مِثَّةَ السُّوءِ»^(١٢).

(١) الورشان: نوع من الحمام البري أكدر اللون، فيه بياض فوق ذنبه.

(٢) كسرة: قطعة صغيرة.

(٣) الخافقين: الخافق، هو الأفق، والخافقان، أفق المشرق والمغرب.

(٤) حديث: «الصدقة...» إلخ. ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» [ج ٤ برقم ٤٤٠٢]، وفيه حماد بن شعيب، وجبارة بن المغلس، ضعيفان.

(٥) قوله: «ردوا صدقة البلاء...» إلخ. لم أقف عليه بهذا اللفظ وجدت قريباً منه في اللفظ عند العقيلي [١٠٥/١] من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ: «ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الذباب» وهو موضوع. فيه إسحاق بن نجيع المطلي، كذاب، وانظر: «الضعيفة» برقم [١٩٧٤].

(٦) قوله: «ردوا مذمة السائل...» إلخ. أخرجه الترمذي [٦٦٠]. والنسائي [٨١/٥].

(٧) قوله: «اتقوا النار ولو بشق تمرة...» رواه الشيخان وأحمد في مسنده عن عدي بن حاتم.

(٨) قال عيسى: من رد سائلاً خائباً... إلخ لم أقف عليه.

(٩) «وكان نبينا محمد ﷺ يناول المسكين...» إلخ... أخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» للهيثمي [١١٢/٣] أن رسول الله قال: «مناولة المسكين تقى ميثمة السوء»، وقال عقبه: «وفيه من لم أعرفه»، فالحديث ضعيف.

(١٠) قوله: «ما من مسلم يكسو مسلماً إلخ...» أخرجه الترمذي برقم [٢٤٨٣]، عن ابن عباس.

(١٢) قوله: لا يرد القضاء إلا الدعاء إلخ هذا الحديث مكون من أربع فقرات، الأول: لا يرد القضاء إلا الدعاء وهو عند الترمذي بإسناد حسن، انظر الصحيحة رقم [١٥٤]، والثاني: إن سوء الخلق شؤم ضعيف، انظر الضعيفة [٧٩٤-٧٩٧]. والثالث: حسن الملكة نماء، ضعيف. انظر السلسلة الضعيفة [٧٩٦]، والرابع: الصدقة... الضعيفة [٦٦٤].

وقال يحيى بن معاذ^(١) : ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة .

وعن عمر رضي الله عنه : إن الأعمال : تباها ؛ فقالت الصدقة ، أنا أفضلكن . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تداركوا الهموم والهموم بالصدقات يدفع الله ضرركم وينصركم على عدوكم » ^(٢) وعن عبيد بن عمير قال : يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأعطش ما كانوا قط فمن أطعم لله أشبعه الله ، ومن سقى لله سقاه الله ، ومن كسا لله كساه الله .

وقال الشعبي ^(٣) من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه . وكان الحسن بن صالح إذا جاء سائل فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنًا أو غيره مما يتففع به ، فإن لم يكن عند شيء أعطاه كحلًا أو أخرج إبرة وخيطًا فرقع بهما ثوب السائل ، ووجه رجل ابنه في تجارة فمضت أشهر ، ولم يقع له على خبر ، فتصدق برغيفين ، وأرخ ذلك اليوم ، فلما كان بعد سنة رجع ابنه سالمًا رابحًا فسأله أبوه هل أصابك في سفرك بلاء ؟ قال : نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر ، وغرقت في جملة الناس وإذا بشابين أخذاني ، فطرحاني على الشط ، وقالوا لي : قل لوالدك هذا برغيفين ! فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك !! وقال علي رضي الله عنه إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به حيث تحتاج إليه فاغتنم حمله إياه ؛ ولله در القائل حيث قال :

يَبْكِي عَلَى الذَّاهِبِ مِنْ مَالِهِ وَإِنَّمَا يَبْقَى الَّذِي يَذْهَبُ

وحكى : أن رجلاً عبد الله سبعين سنة فينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت إليها ، وأقبل على عبادته ، فولت المرأة فنظر إليها فأعجبته فملك قلبه ، وسلبت له ، فترك العبادة وتبعها ، وقال : إلى أين ؟ فقالت : إلى حيث أريد ! فقال : هيهات ! صار المراد مريدًا ، والأحرار عبيدًا ، ثم جذبها فأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام ، فعند ذلك تفكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام ، فبكى حتى غشى عليه ؛ فلما أفاق قالت له : يا هذا ؛ والله أنت ما عصيت الله مع غيري ، وأنا ما عصيت الله مع غيرك ، وإنني أرى في وجهك أثر الصلاح فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرني ! قال : فخرج هائمًا على وجهه فأواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان ، وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم في كل ليلة بعشرة أرغفة فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز ، فمد ذلك الرجل العاصي يده فأخذ رغيفًا فبقى منهم رجل لم يأخذ شيئًا فقال : أين رغيفي ؟ فقال الغلام : قد فرقت عليكم العشرة ! فقال : أبيت طاويا . فبكى الرجل العاصي ، وناول الرغيف لصاحبه ، وقال لنفسه : أنا أحق أن أبيت طاويا لأنني عاص ، وهذا مطيع ، فنام ، واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك ؛ فأمر الله - تعالى - ملك الموت بقبض روحه فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ؛ فقالت ملائكة الرحمة : هذا رجل فر من ذنبه وجاء طائعًا ، وقالت ملائكة العذاب بل هو رجل عاص ، فأوحى الله - تعالى - إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة ، فأوحى الله إليهم أن زنوا بمعصية السبع ليال بالرغيف الذي أثر به على نفسه فوزنوا ذلك فرجح الرغيف ، فتوفته ملائكة الرحمة ، وقبل الله توبته .

وحكى : أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته ، وبين أيديهما دجاجة مشوية ، فوقف سائل ببابه ، فخرج وانتهره ، فذهب ، فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتقر ، وزالت نعمته ، وطلق زوجته ، وتزوجت بعده برجل آخر ، فجلس يأكل معها في بعض الأيام ، وبين أيديهما دجاجة مشوية ، وإذا بسائل يطرق الباب ، فقال الرجل لزوجته : ادفعي إليه هذه الدجاجة ، فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول ، فدفعته إليه الدجاجة ورجعت وهي باكية ، فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها ، وذكرت له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول ، فقال لها زوجها : أنا والله ذلك السائل .

(١) يحيى بن معاذ هو أبو زكريا بن جعفر الرازي الواعظ الزاهد ، لم يكن له نظير في وقته من أهل الرِّي .

(٢) قوله : « تداركوا الهموم . . إلخ » لم أقف عليه .

(٣) عامر بن شراحيل : حافظ ثقة تابعي مُحدث أخذ عنه الإمام أبو حنيفة .

وذكر عن مكحول^(١) أن رجلاً أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقال : ادع الله لابني فقد وقع في نفسى الخوف من هلاكه ، فقال : له : ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائى وأنجع وأسرع إجابة ؟ قال : بلى . قال : تصدق عنه بصدقة تنوى بها نجاة ولدك وسلامة ما معه فخرج الرجل من عنده ، وتصدق على سائل بدرهم ، وقال : هذا خلاص ولدى وسلامته ، وما معه ، فنادى فى تلك الساعة مناد فى البحر : ألا إن الفداء مقبول ، وزيد مغاث ! فلما قدم سألوه أبوه عن حاله فقال : يا أبت لقد رأيت فى البحر عجبا يوم كذا وكذا فى وقت كذا وكذا ، وهو اليوم الذى تصدق فيه والده عنه بالدرهم ، وذلك أنا أشرفنا على الهلاك والتلف ، فسمعنا صوتاً من الهواء ألا إن الفداء مقبول ، وزيد مغاث ، وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض ، فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا ، وسلمنا وصرنا بخير أجمعين ! والآثار والحكايات فى ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم: ٣٩] . والله أعلم .

الفصل الرابع: فى الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله - تعالى - : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَكُمْ تَنَقُّونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] . قيل : الصوم صوم عموم ، وخصوص ، وخصوص الخصوص : فصوم العموم هو : كف البطن والفرج ، وسائر الجوارح عن قصد الشهوة . وصوم الخصوص هو : كف السمع ، والبصر ، واللسان ، واليد ، والرجل ، وسائر الجوارح عن الآثام . وصوم خصوص الخصوص هو : صوم القلب عن الهمم الدنية ، وكفه عما سوى الله بالكلية . قال رسول الله ﷺ : « زَكَاةُ الْجَسَدِ الصِّيَامُ »^(٢) وعنه ﷺ أنه قال : « لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرْحَةٌ عِنْدَ إِفْطَارِهِ ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ »^(٣) . وقال وكيع فى قوله - تعالى - : ﴿ كُفُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِئَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤] إنها أيام الصوم ، تركوا فيها الأكل والشرب ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ أَفْطَرَ يَوْمًا فِي رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ رُخْصَةٍ رَخَّصَهَا اللَّهُ لَهُ لَمْ يَقْضِ عَنْهُ صِيَامَ الدَّهْرِ »^(٤) . وروى فى صحيح النسائي عنه أيضا ﷺ أنه قال : « إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فَتَحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ »^(٥) . وَرَوَى الزَّهْرِيُّ : « أَنْ تَسْبِيحَةً وَاحِدَةً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ تَسْبِيحَةٍ فِي غَيْرِهِ »^(٦) . وَرَوَى عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : مَنْ لَمْ يَغْفِرْ لَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ فِي غَيْرِهِ .

وقال رسول الله ﷺ : « لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ الْخَيْرِ لَمُنِمَتْ أُمْتِي أَنْ يَكُونَ رَمَضَانَ السَّنَةَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَدْنَى اللَّهُ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَتَكَلَّمَا لَشَهِدْتَا لِمَنْ صَامَ رَمَضَانَ بِالْجَنَّةِ »^(٧) . وقال ﷺ : « لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي فِي لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ رَكْعَةٍ أَلْفًا وَخَمْسِمِائَةَ حَسَنَةٍ وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ مِنْ يَاقُوتَةٍ حُمْرَاءَ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ بَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهَا مَصْرَاعَانِ مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَهُ بِكُلِّ سَجْدَةٍ يَسْجُدُهَا شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ »^(٨) . وقال ﷺ : « إِنْ لِكُلِّ صَائِمٍ دَعْوَةٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ تَقْبَلَ فَلْيَقُلْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ عِنْدَ فِطْرِهِ يَا وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ اغْفِرْ لِي »^(٩) وعن

(١) مكحول: مولى رسول الله ﷺ الإصابة [٤٥٦/١] .

(٢) حديث: «زكاة الجسد.. إلخ» أخرجه ابن ماجه، والبيهقي والطبراني، واللفظ عن ابن ماجه «لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم، والصيام نصف الصبر» [المنتخب في السنة الجزء الخامس] .

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مالك فى الموطأ، وابن ماجه فى سننه [المنتخب من السنة المجلد الخامس] .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، وصححه ابن خزيمة، وذكره البخاري تعليقا «من أفطر يوما من رمضان من غير عذر، ولا مرض لم يقضه صيام الدهر. وإن صامه» .

(٥) أخرجه البخاري فى الصوم برقم ١٨٩٩ ومسلم فى الصوم برقم ١ .

(٦) روى الزهري أن تسبيحة إلخ ضعيف، وذلك لأن الزهري من صفار التابعين، والإسناد معضل .

(٧) قوله: «لو يعلم الناس ما فى رمضان.. إلخ» . ضعيف جداً: أخرجه ابن خزيمة [١٨٨٦]، والشجري فى الأمالي [٢٩١/١] عن ابن مسعود، وفيه جرير بن أيوب، متروك الحديث. انظر: «الميزان» [٣٩١/١] .

(٨) قوله: «ليس من عبد.. إلخ» ضعيف جداً: أخرجه البيهقي فى «الشعب» [٣٣٦٢] . عن أبي سعيد، وفيه محمد بن مروان السدي، متروك .

(٩) إن لكل صائم دعوة.. إلخ لم أهد إليه أخرجه الديلمي فى «مسنده» كما فى «كنز العمال» برقم [٢٣٧٣٢] . عن ابن عمر، ولوائح الوضع ظاهرة عليه .

عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « من صام يوماً من رمضان خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه فإذا انسلخ عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول، ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة ^(١) » .

وقال بعضهم : الصيام زكاة البدن ، ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله - تعالى - .

وروي في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الصَّلَاةُ الْخُمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنَبْتَ الْكَبَائِرَ ^(٢) » وعنه رضي الله عنه أنه قال : « صِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ كَصِيَامِ الدَّهْرِ ^(٣) » وهي الأيام البيض ، وهي : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر من كل شهر .

وفي صحيح البخاري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاجْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ^(٤) » . وفضل الصوم غزير لأنه خصه الله - تعالى - بالإضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال مخبراً عن ربه - عز وجل - : « كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزَى بِهِ ^(٥) » وقد يكتفى في فضله بهذا الحديث الجليل وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الفصل الخامس: في الحج وفضله

قال الله - تعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات أجرى الله له أجر الحجاج والمعتمر إلى يوم القيامة ^(٦) » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً ^(٧) » . وفي الحديث : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة ^(٨) » .

وفيه : « أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له ^(٩) » وهو أفضل يوم في الدنيا وفي الخبر : « إن الحَجَرَ الْأَسْوَدَ يَأْقُوْتُهُ مِنْ يَوَاقِيْتِ الْجَنَّةِ ^(١٠) » وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عينان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق .

وجاء في الحديث الصحيح أن آدم عليه السلام لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام ^(١١) وقال مجاهد : إن الحجاج إذا قدموا مكة لحققتهم الملائكة ، فسلموا على ركباني الإبل ، وصافحوا ركباني الحُمُرَ واعتنقوا المشاة اعتناقاً . وكان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يُسَيِّعُوا الغُزَاةَ ، ويستقبلوا الحجاج ، ويقبلوا بين أعينهم ، ويسألوهم الدعاء لهم ، ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد وعد هذا البيت أن يحججه كل سنة ستمائة ألف ، فإن نقصوا كملهم الله - تعالى - من الملائكة وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها حتى تدخل الجنة فيدخل معها ^(١٢) » .

(١) لم أهد إليه .

(٢) وكذلك قال الحافظ المنذري : رواه مسلم .

(٣) « صيام ثلاثة أيام .. » إلخ ذكره المنذري في الترغيب في الصوم وفضله وقال : رواه النسائي بإسناد جيد والبيهقي .

(٤) مما اتفق عليه الشيخان كما قال النووي في رياض الصالحين . (٥) رواه مسلم في باب فضل الصوم [٣/١٥٨] .

(٦) من خرج من بيته حاجاً . . إلخ أورده الهيثمي في مجمع الزوائد [٣/٢٠٨] وعزاه للطبراني في الأوسط .

(٧) من استطاع الحج . . إلخ ذكره الغزالي مطولاً في الإحياء ، وقال العراقي : أخرجه البيهقي في الشعب وهو ضعيف .

(٨) إن من الذنوب . . إلخ قال العراقي : لم أجد له أصلاً وقال الغزالي : أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٩) أعظم الناس . . إلخ قال العراقي : أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف .

(١٠) إن الحجر . . إلخ قال العراقي : أخرجه الترمذي وصححه النسائي من حديث ابن عباس «الحجر الأسود من الجنة» لفظ النسائي ، وباقي الحديث رواه الترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن حبان والحاكم ، وصحح إسناده من حديث ابن عباس أيضاً .

(١١) قال العراقي : رواه المفضل الجعدي ومن طريقه ابن الجوزي في الملل . وقال : لا يصح ورواه الأزرق في تاريخ مكة موقفاً على ابن عباس .

(١٢) قال العراقي : لم أجد له أصلاً .

وحكى : أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان حَجَّت سنة ست وثمانين وثلاثمائة فصارت تاريخاً مذكوراً . قيل : إنها سقت أهل الموسم كلهم السويق بالطبرزد والثلج ، واستصحبت البقول المزروعة في المراكن^(١) على الجمال ، وأعدت خمسمائة راحلة للمنتقلين ، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار ، ولم تستصحب^(٢) فيها وعندها إلا بشموخ العُبر ، وأعتقت ثلاثمائة عبد ومائتي جارية ، وأغنت الفقراء والمجاورين^(٣) . ولما بنى آدم ﷺ البيت وقال : يارب إن لكل عامل أجراً ، فما أجر عملي ؟ قال : إذا طفت به غفرت لك ذنوبك ، قال : زدني ، قال : جعلته قبله لك ولأولادك ، قال : يارب زدني قال : أغفر لكل من استغفرني من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك قال يارب حسبي^(٤) .

وفي الحديث : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »^(٥) . وقيل للحسن : ما الحج المبرور ؟ قال : أن ترجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة . وأول من كسا الكعبة الديباج^(٦) عبد الله بن الزبير ، وكانت كسوتها المسحوق والأنطاع^(٧) وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم ، وكان حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة ، ومائة رقبة فيعتق الرقاب عشية عرفة ، وينحر البُذَن يوم النحر ، وكان يطوف بالبيت فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الرب ، ونعم الإله ؛ أحبه وأخشاه . رضى الحسن بن علي ﷺ يطوف بالبيت ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين ثم وضع خدّه على المقام ، فجعل يبكي ، ويقول : عبيدك يبابك ، خويدك يبابك ، سائلك يبابك ، مُسيكك يبابك ، يردّد ذلك مراراً ثم انصرف ﷺ فمرّ بمساكين معهم فلق خبز يأكلون فسلم عليهم ، فدعوه إلى الطعام ، فجلس معهم وقال : لولا أنه صدقة لأكلت معكم ثم قال : قوموا بنا إلى منزلي فتوجهوا معه ، فأطعمهم ، وكساهم وأمر لهم بدراهم . وحج عبد الله بن جعفر ﷺ ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجله ، حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكاً ، وحملهم على ثلاثين راحلة ، وأمر لهم بثلاثين ألفاً ، وقال : أعتقتهم لله - تعالى - لعله يعتقني من النار . وقال الحسن بن علي ﷺ إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرة . ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حبان الضرير حين لم يهد إليه الحجاج شيئاً :

كأن الحجاج الآن لم يقربوا مني ولم يحملوا منها سواك ولا نعلًا
أتونا فما جادوا بعود أراك ولا وضعوا في كف طفل لنا نعلًا !

وقال غيره :

يحجون بالمال الذي يجمعونه حراماً إلى البيت العتيق المحرم
ويزعم كل منهم أن وزره يحط ولكن فوقه في جهنم

وقال آخر :

حج في الدهر حجة حج فيها وأخرما
وأنا من الحجاج زكما راخ مُحَرِّمًا
فهو ذو الحجة الذي ما توقى مُحَرِّمًا

وتخاصم بدوي مع حاج مُنْصَرَف الناس ، فقيل له : أتخاصم رجلاً من الحجاج ؟ فقال :

يحج لك كما يغفر الله ذنبه ويرجع قد حطت عليه ذنوب

وقال أبو الشمقمق^(٨) :

(١) السويق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير سمي بذلك لانسياقه في الحلق ، وإذا أضيف إليه السكر والثلج كان شرباً جميلاً . والطبرزد : السكر الذي نحت من حوافيه [القاموس] . والمراكن : جمع مركن ، وهو الوعاء الواسع .

(٢) تستصحب : تستضيء ، وكان هناك غاز يسمى غاز الاستصباح يستضاء به .

(٣) من يجاورون البيت الحرام ، ويعتمدون في عيشهم على المساعدات .

(٤) قال العراقي : أخرجاه من حديث أبي هريرة ابن ماجة في كتاب المناسك [٢/ ٢٥] .

(٥) الديباج : ضرب من الثياب سده ولحمته حرير «فارسي معرب» .

(٦) المسحوق : جمع مسح ، وهو الكساء من شعر ، والأنطاع : جمع نطع ، وهو بساط من الجلد . وقد كسى بيت الله بالأنطاع .

(٨) أبو الشمقمق : مروان بن محمد خراساني الأصل ، شاعر هجاء خبيث اللسان له نوادر وأخبار مع شعراء عصره مات سنة ٢٠٠هـ [الأعلام ٨ : ٩٧] .

إذا حججت بمال أصله دنس فما حججت ولكن حجبت العيز
ما يقبل الله إلا كل طيبة ما كل من حج بيت الله مبرور
والله - سبحانه وتعالى - أعلم .



الباب الثاني

في العقل والذكاء ، والحق وذمه ، وغير ذلك

نصّ الله - سبحانه وتعالى - في مُحكم كتابه العزيز ، ومنزل خطابه الوجيز ، على شرف العقل ، وقد ضرب الله - سبحانه وتعالى - الأمثال وأوضحها ، وبين بدائع مصنوعاته وشرحها فقال - تعالى - : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . [النحل: ١٢] وروى عن النبي ﷺ : أنه قال : « أول ما خلق الله - تعالى - العقل فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال عز من قائل : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز علي منك ، بك آخذ ، وبك أعطي ، وبك أحاسب ، وبك أعاقب » ^(١) .

وقال أهل المعرفة والعلم : العقل جوهر مضيء خلقه الله - عز وجل - في الدماغ ، وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط ، والمحسوسات بالمشاهدة . واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين : قسم لا يقبل الزيادة والنقصان ، وقسم يقبلهما .

فأما الأول : فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء .

وأما الثاني : فهو العقل التجريبي وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع ، وباعتبار هذه الحالة يقال : إن الشيخ أكمل عقلاً ، وأتم دراية ، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة ، ولهذا قيل : من بيضت الحوادث سواد لمتة ^(٢) ، وأخلقت التجارب لباس جدته ، وأراه الله - تعالى - لكثرة ممارسته تصاريق أقداره وأقضيته ، كان جديراً برزاة العقل ، ورجاحة الدراية .

وقد يخص الله - تعالى - بألطافه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزاة عقل ، وزيادة معرفة تُخرجه عن حد الاكتساب ، ويصير بها راجحاً على ذوى التجارب والآداب ، ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا ﷺ فيما أخبر الله - تعالى - به في مُحكم كتابه العزيز حيث يقول : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢] . فمن سبقت له سابقة من الله - تعالى - في قسَم السعادة ، وأدركته عناية أزلية أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية ، وهداية ربانية ، فاتصف بالذكاء والفتنة قلبه ، وأسفر عن وجه الإصابة ظنه ، وإن كان حديث السن قليل التجربة ؛ كما نقل في قصة سليمان بن داود ﷺ وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث وشرح ذلك فيما نقله المفسرون ^(٣) أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم ، والآخر صاحب حرث ، فقال أحدهما : إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته وأكلته ولم تُبق لي فيه شيئاً . فقال داود عليه السلام : الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه ؛ فلما خرجا من عنده مرّا على سليمان عليه السلام وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة ! فقال لهما : ما حكم بينكما الملك ؟ فذكرا له ذلك ؛ فقال غير هذا أرفق بالفريقين ! فعادا إلى داود عليه السلام وقالوا له : ما قاله ولده سليمان عليه السلام فدعاه داود عليه السلام وقال له : ما هو الأرفق بالفريقين ؟ فقال : سليمان : تسلم الغنم إلى صاحب الحرث وكان الحرث كرمًا قد تدلت عناقيده في قول أكثر المفسرين فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها ، ويتنفع بدورها

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في العقل وفضله ، حديث رقم ١٤ ، وإسناده موضوع . وقال العراقي : ذكره الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة ، وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين . وقال ابن القيم : أحاديث العقل كلها كذب كقوله « لَمَّا خلق الله العقل » [المنار ص ٢٥] .

(٢) يُقْتَلُ : اللُّمَّة هي شعر رأس المجاوز شحمة الأذن . (٣) ارجع إلى ابن كثير ، والقرطبي ، والطبري ، والدر المنثور .

وَسَلَّمَهَا ، وَوَسَّلَمَ الْكَرْمَ إِلَى صَاحِبِ الْأَغْنَامِ لِيَقُومَ بِهِ فَإِذَا عَادَ الْكَرْمُ إِلَى هَيْئَتِهِ وَصُورَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا لَيْلَةَ دَخَلَتْ الْغَنَمُ إِلَيْهِ ، سَلَّمَ صَاحِبُ الْكَرْمِ الْغَنَمَ إِلَى صَاحِبِهَا وَوَسَّلَمَ كَرْمَهُ كَمَا كَانَ بَعْنَاقِيدِهِ وَصُورَتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ : الْقَضَاءُ كَمَا قُلْتَ ، وَحَكَمَ بِهِ كَمَا قَالَ سَلِيمَانُ ۖ

وفى هذه القصة نزل (١) - قوله تعالى - : ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لَهُمَا شَاهِدِينَ ۖ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩] فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة بل حصلت بعناية ربانية ، وألطف إلهية ، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب ، ورجح على ذوى التجارب والاكْتِسَابِ ، فى كثير من الأسباب ، ويستدل على حصول كمال العقل فى الرجل ، بما يُوجَدُ منه ، وما يصدر عنه ، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته فإن المشاهدة من خصائص الأجسام ، فأقول : يستدل على عقل الرجل بأمر متعدد ، منها : ميله إلى محاسن الأخلاق ، وإعراضه عن رذائل الأعمال ، ورغبته فى إسداء صنائع المعروف ، وتجنبه ما يُكْسِبُهُ عَارًا ويورثه سوء السمعة .

وقد قيل لبعض الحكماء : بم يعرف عقل الرجل ؟ فقال : بقلة سَقَطِهِ فى الكلام ، وكثرة إصابته فيه فقليل له : فإن كان غائبًا فقال : بإحدى ثلاث : إما برسوله ، وإما بكتابه ، وإما بهديته ؛ فإن رسوله قائم مقام نفسه ، وكتابه يصف نطق لسانه ، وهديته عنوان هيمته ؛ فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها .

وقيل : من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس ، ويكفى أن حسن الإدارة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى - إياه ؛ فإنه روى عن النبى ﷺ أنه قال : « مَنْ حَرَّمَ مَدَارَةَ النَّاسِ فَقَدْ حَرَّمَ التَّوْفِيقَ » (٢) ؛ فمقتضاه أن مَنْ رُزِقَ المَدَارَةَ لم يُحَرِّمِ التَّوْفِيقَ . وقالوا : العاقل الذى يُحَسِّنُ المَدَارَةَ مع أهل زمانه ، وقال رسول الله ﷺ : « الجنة مائة درجة ، تسع وتسعون منها لأهل العقل ، وواحدة لسائر الناس » (٣) .

وقال علي بن عبيدة : العقل ملك ، والخصال رعيّة ؛ فإذا ضَعُفَ عن القيام عليها وصل الخلل إليها ؛ فسمعه أعرابى فقال هذا كلام يقطر عسله ! وقيل : بأيدى العقول تُمسك أعتة النفوس ، وكل شيء إذا كثرت رخص إلا العقل فإنه كلما كثر غلا . وقيل : لكل شيء غاية وحد ، والعقل لا غاية له ولا حد ، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار فى المروج . واختلف الحكماء فى ماهيته ، فقال قوم : هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة فى القلب كالنور فى العين ، وهو يزيد وينقص ، ويذهب ويعود ، وكما يدرك بالبصر شواهد الأمور كذلك يدرك بنور القلب المحجوب والمستور .

وعنى القلب كعمى البصر ، قال الله تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۖ﴾ [الحج: ٤٦] . وقيل : محل العقل الدماغ ، وهو قول أبى حنيفة - رحمه الله - وذهب جماعة إلى أنه فى القلب كما روى عن الشافعى - رحمه الله - ، واستدلوا بقوله - تعالى - : ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ۖ﴾ [الحج: ٤٦] . ويقولون - تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ۖ﴾ [ق: ٣٧] . أى عقل .

وقالوا : التجربة مرآة العقل ، ولذلك حُمدت آراء المشايخ حتى قالوا : المشايخ أشجار الوُفَار لا يطيش لهم سهم ، ولا يسقط لهم فهم ، وعليكم بآراء الشيوخ فإنهم إن عَدِمُوا ذكاء الطبع ، فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة . قال الشاعر :

ألم تر أن العقل زين لأهله ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر :

إذا طال عمر المرء فى غير آفة أفادت له الأيام فى كرها عقلاً

وقال عامر بن عبد قيس : إذا عقلك عقلك عما لا يعينك فأنت عاقل ، ويقال : لا شرف إلا شرف العقل ، ولا غنى إلا غنى النفس .

وقيل : يعيش العاقل بعقله حيث كان ؛ كما يعيش الأسد بقوته حيث كان . قال الشاعر :

(١) أسباب النزول للسيوطي . والنيسابوري .

(٢) «من حُرِّمَ .. إلخ» لم أهد إلى .

(٣) «الجنة مائة درجة .. إلخ» موضوع : أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» [١٣٩/٤] عن عمر ، وفيه غالب ابن عبيد الله منكر الحديث .

إذا لم يكن للمرء عقل فإنه وإن كان ذا بيت علي الناس هين
ومن كان ذا عقل أجل لعقله وأفضل عقل من يتدين

وقالوا : العاقل لا تُبْطِره المَنزلة السَّيِّئة كالجبل لا يتزعزع ، وإن اشتدَّت عليه الريح ، والجاهل تبطِره أدنى منزلة كالْحَشِيش يحرّكه أدنى ريح ، وقيل لعلي عليه السلام : صف لنا العاقل . قال : هو الذي يَضَعُ الشَّيْءَ مواضعه . قيل : فصِّف لنا الجاهل قال : قد فعلت ، يعني الذي لا يضع الشَّيْءَ مواضعه ، وقال المنصور لولده : خُذْ عَنِّي ثَنَيْنِ : لا تقل من غير تفكير ، ولا تعمل بغير تدبير . وقال أردشير : أربعة تحتاج إلى أربعة : الحسب إلى الأدب ، والسرور إلى الأمن ، والقربة إلى المودة ، والعقل إلى التجربة ، وقال كسرى أنوشروان : أربعة تؤدِّي إلى أربعة : العقل إلى الرياسة ، والرأى إلى السياسة ، والعلم إلى التصدير ، والحلم إلى التوقيف .

وقال القاسم بن محمد : من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه كان حَقُّه من أغلب الخصال عليه .

وقيل : أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه ، وقيل : ثلاثة هن رأس العقل : مداراة الناس ، والاقتصاد في المعيشة ، والتجيب إلى الناس . وقيل : من أعجِبَ برأى نفسه بطل رأيه ، ومن ترك الاستماع من ذوى العقول مات عقله .

وعن عمرو بن العاص عليه السلام أنه قال : أهل مصر أعقل الناس صغارًا ، وأرحمهم كبارًا .

وقيل : العاقل المحروم خير من الأحمق الممزوق .

وقيل : لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت ، ولا طعامًا حتى يستمرته ، ولا يثق بخليل حتى يستقرضه .

وقيل : طول اللحية أمان من العقل . وسئل بعضهم : أيُّهما أحمدُ في الصِّبا الحياء أم الخوف ؟ قال : الحياء ؛ لأن الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على الجبن .

وقيل : غضب العاقل على فعله ، وغضب الجاهل على قوله وقال أبو الدرداء عليه السلام قال لي رسول الله ﷺ : « يا عُوْنَمِر ، ازدد عقلًا تزدد من الله تعالى قربًا » . قلت : بأبي وأمي ، ومن لي بالعقل ؟ قال : « اجتنب محارم الله تعالى ، وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلًا » ، ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزدد في الدنيا عقلًا وتزدد من الله قربًا وعزًّا »^(١) .

وحكى بعض أهل المعرفة قال : حياة النفس بالروح ، وحياة الروح بالذكر ، وحياة القلب بالعقل ، وحياة العقل بالعلم .

ويروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه كان يُشَدُّ هذه الأبيات ويترنم بها :

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مَطَهَّرَةٌ	فَالْعَقْلُ أَوْلُهَا وَالِدَيْنِ ثَانِيهَا
وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا	وَالْجُودُ خَامِسُهَا وَالْعُرْفُ سَادِيهَا
وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا	وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللِّينُ عَاشِيهَا
وَالْعَيْنُ تَعْلَمُ مِنْ عَيْنَيْنِ مُحَدَّثُهَا	إِنْ كَانَ مِنْ حَزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا
وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَضَدِّقُهَا	وَلَسْتُ أَرْشُدُ إِلَّا حِينَ أَعْصِيهَا

وقال بعض الحكماء : العاقل من عقله في إرشاد ، ورأيه في إمداد ؛ فقلوه سديد ، وفعله حميد . والجاهل من جهله في إغراء ، فقلوه سقيم ، وفعله ذميم . ولا يكفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه ، وملاحقة سمته ، وتسريح لحيته ، وكثرة صلفته^(٢) ، ونظافة برّيته ، إذ كم من كنيف مبيض وجلد مفضض ، وقد قال الأصمعي : رأيت بالبصرة شيخًا له منظر حسن ، وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرج^(٣) ، وعنده دخل وخرج ، فأردت أن أختبر عقله ، فسلمت عليه ، وقلت له : ما كُنِيَّةُ سيدنا ؟ فقال : أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين . قال الأصمعي : فضحكت منه ، وعلمت قلة عقله ، وكثرة جهله ، ولم يدفع ذلك عنه غزاة خرجته ودخله .

(١) حديث أبي الدرداء . موضوع : أخرجه الحارث في «مسنده» برقم [٨٣٧-بغية] ، والمتهم به : داود ابن المجبر .

(٢) يقال : صف فلان : لم يحظ عند الناس وأبغضوه .

(٣) الهرج : الكثرة في الشيء والاختلاط والفتنة ، يقال : أصبح القوم في هرج : في شدة القتال والفتنة .

وقد يكون الرجل موسوما بالعقل مرموقاً بعين الفضل ، فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله ، وتشهد عليه بقلة عقله واختلاله .

وقيل : إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء ، وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها ، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه ، وشهدت له بالعقل الراجح ، والفكر القادح ، أنه كان في زمانه رجلاً مشهوراً بين الناس بالأمانة ، فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيساً فيه جملة من الذهب ، ثم حج فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل ، وطلب كيسه منه فأنكره ، وجحدته ، فجاء إلى القاضي إياس ، وقص عليه القصة فقال له القاضي هل أخبرت بذلك أحداً غيري .

قال : لا . قال : فهل علم الرجل أنك أتيت إلي؟ قال : لا . انصرف واكتم أمرك ثم عد إلى بعد غد ، فانصرف ، ثم إن القاضي دعا ذلك الرجل المستودع فقال له : قد حصل عندي أموال كثيرة ورأيت أن أودعها عندك فاذهب وهيئ لها موضعاً حصيناً ، فمضى ذلك الرجل ، وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضي إياس : امض إلى خصمك ، واطلب منه وديعتك فإن جحدك فقل له : امض معي إلى القاضي إياس أتحاكم أنا وأنت عنده ، فلما جاء إليه دفع إليه وديعته ، فجاء إلى القاضي ، وأعلمه بذلك ، ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعاً في تسليم المال فسيبه القاضي وطرده ، وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله ، وصحة فكره . ولما مات بعض الخلفاء ، اختلفت الروم ، واجتمعت ملوكها ، فقالوا : الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض ، فتمكنا الغيرة منهم ، والوثبة عليهم ، وعقدوا لذلك المشورات ، وتراجعوا فيه بالمناظرات ، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر ، وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة والرأى غائباً عنهم ، فقالوا من الحزم عرض الرأي عليه ، فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال : لا أرى ذلك صواباً ، فسألوه عن علة ذلك ؟ فقال : في غد أخبركم إن شاء الله - تعالى - فلما أصبحوا أتوا إليه وقالوا : قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه ، فقال : سمعاً وطاعة ، وأمر بإحضار كليين عظيمين كان قد أعدهما ، ثم حرش بينهما ، وحرش كل واحد منهما على الآخر ؛ فتواثبا وتهاشرا حتى سالت دماؤهما ، فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده ، وأرسل على الكليين ذئباً كان قد أعد له لذلك فلما أبصره تركا ما كانا عليه ، وتألقت قلوبهما ، ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه ، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال : مثلكم مع المسلمين مثل هذا الذئب مع الكلاب لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتألّفوا على العدو .

فاستحسنوا قوله ، واستصوبوا رأيه فهذه صفة العقلاء . وأما ذم الحمق فقد قال ابن الأعرابي : الحماقَةُ مأخوذة من حَمَقَتِ السُّوقُ إذا كَسَدَتْ ، فكأنه كاسد العقل والرأى ، فلا يُشاور ، ولا يُلتَفَتُ إليه في أمر من الأمور . والحمقُ غريزة لا تنفع فيها الحيلة وهو داء دواؤه الموت .

قال الشاعر :

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إِلَّا الْحِمَاةَ أَغَيَتْ مِنْ يُدَاوِيهَا

والحمقُ مذموم ، قال رسول الله ﷺ : « الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى إذ حرمه أعز الأشياء عليه ، وهو العقل »^(١) . ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة بطول اللحية^(٢) ؛ لأن مخرجها من الدماغ فمن أفرط طول لحيته قل دماغه ، وَمَنْ قَلَّ دماغه قَلَّ عقله ، وَمَنْ قَلَّ عقله فهو أحمق .

وأما صفته من حيث الأفعال فترك نظره في العواقب ، وثقته بمن لا يعرفه ، والعُجْبُ ، وكثرة الكلام ، وسرعة الجواب ، وكثرة الالتفات ، والخلو من العلم ، والعجلة ، والخفة ، والسّفه ، والظلم ، والغفلة ، والسهو ، والخيلاء ، إن استغنى ببطر ، وإن افتقر قنط ، وإن قال أفحش ، وإن سُئِلَ ببخل ، وإن سأل ألح ، وإن قال لم

(١) «الأحمق» . إلخ» أحاديث العقل كلها موضوعة كما قال ابن القيم في «المنار المنيف» [ص ٢٥] .

(٢) ليس لهذا القول سند علمي ، إنما هو تصور القدامى ، ولذا يقول المؤلف بعد ذكره لصفات الأحمق : وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق !

يحسن ، وإن قيل له لم يفقه ، وإن ضحك فقهه ، وإن بكى صرخ ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق .

قال عيسى عليه السلام : عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتهم ، وعالجت الأحمق فأعيانى ، والسكوت عن الأحمق جوابه . ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر فقال : حجر على حجر .

وحكى : أن أحمقين اصطحبا في طريق فقال أحدهما للآخر : تعال نتمن على الله ، فإن الطريق تُقطع بالحديث ، فقال أحدهما : أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ، ولحمها ، وصوفها . وقال الآخر : أنا أتمنى قطائع ذئب أرسلها على غنمك حتى لا تترك منها شيئاً . قال : ونحك أهدا من حق الصُحبة ، وحرمة العشرة ! فتصايحا ، وتخاصما واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق ، ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما فطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان^(١) من عسل ، فحدثاه بحديثهما فنزل بالزقين ، وفتحهما حتى سال العسل على التراب ، ثم قال : صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين .

وعن جابر بن عبد الله عليه السلام قال : كان رجل يتعبد في صومعة فأمطرت السماء ، وأعشبت الأرض ، فرأى حماره يرعى في ذلك العشب ، فقال : يارب لو كان لك حمار لرعيته مع حمارى هذا ، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليه السلام فهم أن يدعو عليه ، فأوحى الله إليه لا تدع عليه فإنى أجازى العباد على قدر عقولهم .

ويقال : « فلان ذو حمق وافر ، وعقل نافر » . ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه .

وخطب سهل هنداً بنت عتبة فحمقته فقال :

وما هو جى^(٢) يا هند إلا سجيئة ولو شئت خادعت الفتى عن قلوبه
أجر لها ذيلى بحسن الخلائق ولا طمت^(٣) فى البطحاء^(٤) من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب : هو من بقر الجنة ، لا ينطح ولا يرمح . والأحمق المؤذى : هو من بقر سقر ! والله سبحانه وتعالى أعلم - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم - .



الباب الثالث

فى القرآن وفضله ، وحرمته ،

وما أعز الله - تعالى - ثقارته من الثواب العظيم ، والأجر الجسيم

قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧] . وسَمَّى الله - تعالى - القرآن كريماً فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧] . وسماه حكيماً فقال - تعالى - : ﴿ يَسَّ ۝ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴾ [يس: ١، ٢] . وسماه مجيداً فقال - تعالى - : ﴿ قَدْ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ﴾ [ق: ١] . أنزله الله - تعالى - على سيد الأنام ، وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ؛ فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته ، وعن الإتيان بآية من مثله قال - تعالى - : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] . وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْمَعَتِ الْآلِشُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨] فهو النور المبين ، والحق

(١) زقان : مثنى زق ، وهو وعاء من جلد يجز شعره ولا ينتف يستخدم للين والعسل ونحوهما .

(٢) هو جى : هوج ، أي حمق وطال في حمق وطيش ، فهو أهوج .

(٣) لا طمت : لطم أحدهما الآخر .

(٤) البطحاء : الأبطح ، هو المكان المتسع ، ومنه بطحاء مكة .

المستبين ، لا شيء أسطع من أعلامه ، ولا أصدع من أحكامه ، ولا أفصح من بلاغته ، ولا أرجح من فصاحته ، ولا أكثر من إفادته ، ولا ألد من تلاوته ، قال رسول الله ﷺ : « القرآن فيه خبر من قبلكم ، ونبا من بعدكم ، وحكم ما بينكم »^(١) . وقال أيضا ﷺ : « أصغر البيوت بيت صفر من كتاب الله - تعالى - »^(٢) .

وقال الشعبي : الذي يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه - عز وجل - .

وفد غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب عليه السلام ومعه ابنه الفرزدق فقال له : من أنت ؟ قال : غالب بن صعصعة . قال : ذو الإبل الكثيرة ؟ قال : نعم . قال : فما فعلت بإيلك ؟ قال : أذهبها النوائب ، وزعزعتها الحقوق . قال : ذلك خير سئله . ثم قال له : يا أبا الأخطل ، من هذا الذي معك ؟ قال : ابني وهو شاعر . قال علمه القرآن ؛ فهو خير له من الشعر فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة وفي ذلك قال :

وما صب رجلى في حديد مجاشع مع القيد إلا حاجة لي أريدها

وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يا بني ، لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ؛ فإن القرآن يحيى القلب الميت ، وينهى عن الفحشاء والمنكر »^(٣) .

وحكى الزمخشري في كتابه « ربيع الأبرار » قال : ومن حكايات الحشوية^(٤) ما قيل : إن إبراهيم الخواص مر بمصروع فأذن فناداه الشيطان من جوفه : دعني أقتله فإنه يقول : القرآن مخلوق^(٥) .

وكان سفيان الثوري - رحمه الله - إذا دخل رمضان ترك جميع العباد ، وأقبل على قراءة القرآن .

وكان الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - إذا دخل شهر رمضان ، يفر من مذاكرة الحديث ، ومجالسة أهل العلم ، ويقبل على القراءة في المصحف .

وكان أبو حنيفة والشعبي - رحمهما الله تعالى - يخرمان في رمضان ستين ختمة .

وقال علي رضي الله عنه : من قرأ القرآن فمات ، فدخل النار ، فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزوا .

وقال الشعبي : اللسان عدل على الأذن والقلب ، فاقروا قراءة تسمعها أذنك ، ويفهمها قلبك .

وقال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله »^(٦) .

وعنه ﷺ أنه قال : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد » . قيل يا رسول الله ، وما جلاؤها ؟ ! قال : « قراءة القرآن وذكر الموت »^(٧) .

وقال عمر بن ميمون : من نشر مصحفاً حين يصلى الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا ، وقال علي كرم الله وجهه : من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ، ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمسة وعشرون حسنة ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرثلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هزيمة^(٨) .

وقال رسول الله ﷺ : « اقرءوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا »^(٩) .

(١) القرآن فيه نبا .. إلخ . ضعيف : أخرجه الدارمي [٢/٤٣٥] ، والبيهقي في « الشعب » [١٧٨٨] ، وفيه محمد بن يزيد الرفاعي ، ضعيف .

(٢) ذكره المنذري ، وقال رواه الحاكم موقوفاً ، وقال : رفعه بعضهم . (٣) « يابني .. إلخ » لم أقف على من أخرجه .

(٤) الحشوية - بسكون الشين ويفتحها - نسبة إلى الحشو أو الحشا : طائفة تمسكوا بالظواهر ، وذهبوا إلى التجسيم وغيره .

(٥) من قال : القرآن ، أو شيء منه مخلوق ؛ فهو كافر كفراً أكبر يخرج من الإسلام بالكلية ، لأن القرآن كلام الله - تعالى ، منه بدأ ، وإليه يعود ، وكلامه صفته .

(٦) « من قرأ القرآن .. إلخ » قال العراقي : أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .

(٧) « إن القلوب لتصدأ .. إلخ » قال العراقي : أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

(٨) هزيمة : أي مسرعاً في القراءة دون تدبر للمعاني ، وهو سلوك غير محمود .

(٩) « اقرءوا القرآن .. إلخ » أورده النووي في كتاب التبيان . وإسناده ضعيف . وأخرجه ابن ماجه [١٣٣٧] في إسناده إسماعيل بن رافع من الضعفاء ، وقال العراقي : حديث : « اتلوا القرآن .. إلخ » أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد .

وعن صالح المزني قال : قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام ، فقال لي : « يا صالح ، هذه القراءة فائنة البكاء » (١). وكان عثمان رضي الله عنه يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الإثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتزئيل إلى الرحمن ، ويختتم ليلة الخميس . وعن علي رضي الله عنه لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها . وكان عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ولعن أباه إذا نشر المصحف أغمى عليه ويقول : هو كلام ربي !

وأبطأت عائشة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة فقال : « ما حبسك ؟ » قالت : قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه ؛ فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال : « هذا سالم مولى أبي حذيفة . الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله » (٢). وقال ابن عينة رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت : يا رسول الله ، قد اختلفت على القراءات فعلى قراءة من تأمرني ؟ فقال : على قراءة أبي عمرو (٣).

وعن أبي عمرو إنني لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ ، وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأوا على الصحابة رضي الله عنهم فقرأت عليهم فاشدد بها يدك . فينبغي للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً سفرًا وحضرًا .

وقال الشيخ محيي الدين النووي - رحمه الله - في كتابه الأذكار : قد كان للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يهتمون فيه ؛ فكانت جماعة منهم يهتمون في كل شهر ختمة ، وآخرون في كل عشر ليال ختمة ، وآخرون في كل ثلاث ليال ختمة ، وكان كثيرون في كل يوم وليلة ختمة ، وختم جماعة في كل يوم وليلة ختمتين ، وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمان ختمات : أربعاً في الليل ، وأربعاً في النهار .

وروي أنّ مجاهدًا - رحمه الله - كان يهتم القرآن في شهر رمضان فيما بين المغرب والعشاء . وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان ، وتميم الداري ، وسعيد بن جبيرة رضي الله عنهم وروينا في مسند الإمام المجمع على حفظه وجلالته وإتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي - رحمه الله - عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : إذا وفق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح ، وإذا وافق أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي . قال الدارمي : هذا حديث حسن عن سعد .

وأفضل القراءة ما كان في الصلاة ، وأما في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل ، والنصف الأخير أفضل من الأول والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ، ولا كراهة في وقت من الأوقات ، ولا في أوقات النهي عن الصلاة .

ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة ، وقيل : إنّ الدعاء يستجاب عند ختم القرآن ، وإن الرحمة تنزل عند ختمه ، ويستحب الدعاء عقب الختم استحباباً مؤكداً تأكيداً شديداً . ويجب على القارئ الإخلاص في قراءته ، وأن يريد بها وجه الله - تعالى - وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شيء سوى ذلك ، وأن يتأدب مع القرآن ، ويستحضر في ذهنه أنه يناجي ربه سبحانه - وتعالى - ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله - تعالى - فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه .

وينبغي للقارئ إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك . وأن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب ، وبه تنشرح الصدور ويتيسر المرغوب ، ودلائله أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، وقد كان الواحد من السلف رضي الله عنه يتلو آية واحدة ليلة كاملة يتدبرها ، ويستحب البكاء والتباكى لمن لا يقدر على البكاء فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين ، وشعار عباد الله الصالحين قال الله - تعالى - : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩] .

وقال السيد الجليل صاحب الكرامات ، والمعارف ، والمواهب ، واللطائف إبراهيم الخواص رضي الله عنه دواء القلب

(١) جاء في الحديث المتفق عليه ، ورواه ابن ماجه ، ورواه أحمد . « من رأي في المنام فقد رأى الحق » . بزيادة عن أبي قتادة « فإن الشيطان لا يتزيا بي » .

(٢) قال العراقي : أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات .

(٣) رؤيا منامية ، ومن رآه رضي الله عنه في المنام فقد رأى الحق كما سبق . قال النووي : ولا يكره أن يقال : هذه قراءة أبي عمرو أو قراءة نافع ، أو حمزة ، أو الكسائي .

خمس أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلو البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين . وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة ، وآثار بفضيلة الإسرار ؛ قال العلماء : إن أراد القارئ بالإسرار بُعد الرياء ، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك ، فإن لم يخف الرياء ، فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذى غيره من مُصَلٍّ أو نائم ، أو غيرهما . والأحاديث في فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة ومن أراد الزيادة فليُنظر في كتاب « التبيان في آداب حملة القرآن » لشيخ مشايخ الإسلام محيي الدين النووي قدس الله روحه ونور ضريحه ، وقد جاء في فضل القرآن أحاديث كثيرة .

وروى في فضل قراءة سور من القرآن في اليوم والليلة فضل كبير منها : « يس » . و « تبارك الملك » ، و « الواقعة » ، و « الدخان » ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له » ^(١) . وفي رواية له : « مَنْ قرأ سورة الدُّخَانِ فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ مَغْفُورًا لَهُ » ^(٢) . وفي رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة » ^(٣) . وعن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ : « أَلَمْ تَنْزِلْ الْكِتَابَ » ، و « تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلُوكَ » ^(٤) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : من قرأ في ليلة : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » كانت له كعدل نصف القرآن ، ومن قرأ : « قُلْ يَتَائِبُ الْكَاذِبِينَ » كانت له كعدل ربع القرآن ، ومن قرأ : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » كانت له كعدل الثلث ^(٥) . والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة ؛ وقد أشرنا إلى المقاصد منها والله - تعالى - أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الرابع

في العلم والأدب ، وفضل العالم والمتعلم

قال الله - تعالى - : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتْلِمُونَ » [فاطر: ٢٨] . وقال - تعالى - : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » [المجادلة: ١١] . وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، ودراسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه عبادة ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة » ^(٦) . لأنه معالم الحلال والحرام ، وبيان سبيل الجنة ، والمؤنس في الوحشة ، والمحدث في الخلوة ، والجلس في الوحدة ، والصاحب في الغربة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والزين عند الأخلاء ، والسلاح على الأعداء ، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار في الدرجات العلى ، ومجالسة الملوك في الدنيا ، ومرافقة الأبرار في الآخرة ، والفكر في العلم يعدل الصيام ، ومذاكرته تعدل القيام ، وبالعلم تُوصَل الأرحام ، وتفصل الأحكام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وبالعلم يعرف الله ويوحد ، وبالعلم يطاع الله ويعبد .

قيل : العلم درك حقائق الأشياء مسموعاً ومعقولاً . قال النبي ﷺ : « خير الدنيا والآخرة مع العلم ، وشر الدنيا

(١) ذكره المنذري في الترغيب بلفظ : « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له » رواه مالك وابن السني، وابن حبان في صحيحه .

(٢) « من قرأ سورة الدخان . إلخ » . أخرجه الترمذي [٣٠٥٠/٤] .

(٣) « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة . إلخ » . ضعيف : أخرجه ابن السني برقم [٦٧٨] .

(٤) كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ : « أَلَمْ تَنْزِلْ الْكِتَابَ » و « تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلُوكَ » . ضعيف : أخرجه الترمذي [٣٠٥٤] ، وفيه ليث بن أبي سليم ، مدلس .

(٥) من قرأ : « قُلْ يَتَائِبُ الْكَاذِبِينَ » . إلخ . ضعيف : أخرجه البيهقي في « الشعب » [٢٢٨٤] ، وفيه إسناده ضعيف .

(٦) حديث معاذ « تعلموا العلم . إلخ » . عزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » برقم [٢٨٨٦٧] ، للخطيب في المتفق والمفترق .

والآخرة مع الجهل»^(١). وعنه عليه السلام : « يوزن مداد العلماء والشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر ، ولغدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة ، ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا ومالك موكل به يشره بالجنة ، ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة »^(٢). وقال علي عليه السلام : « أقل الناس قيمة أقلهم علماً ». وقال أيضاً عليه السلام : « العلم نهر ، والحكمة بحر ، والعلماء حول النهر يطوفون ، والحكماء وسط البحر يغوصون ، والعارفون في سفن النجاة يسرون ». وقال موسى عليه السلام في مناجاته : « إلهي من أحب الناس إليك . قال : عالم يطلب علماً » .

وقال بعض السلف عليه السلام : « العلوم أربعة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والنجوم للأزمان ، والنحو لللسان » . وقيل : العالم طبيب هذه الأمة والدنيا داؤها فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يرى غيره . وسئل الشعبي عن مسألة فقال : لا علم لي بها . فقيل له : ألا تستحي ؟ فقال : ولم أستحي مما لم تستحي الملائكة منه حين قالت : « لَا عِلْمَ لَنَا » [المائدة: ١٠٩] ؟ ! وعن النبي صلى الله عليه وآله : « فضل العالم على العابد كفضل علي أذنناكم »^(٣). وروى : « كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » . وقال علي عليه السلام : « من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه » ، وقيل : مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم . وأنشدوا :

هلا لنفسيك كان ذا التعليم
كيما يصح به وأنت سقيم
أبدا وأنت من الرشاد عديم
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
بالقول منك وينفع التعليم
عار عليك إذا فعلت عظيم

يأئها الرجل المعلم غيره
تصف الدواء لذي السقام وذی الضنى
ونراك تضح بالرشاد عقولنا
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فهناك يقبل ما تقول ويهتدي
لأنه عن خلق وتأتى مثله
وقال بعضهم :

لا يطلبون العلم للعلم
وعدة للغش والظلم

إنى رأيت الناس فى عصرنا
إلا مباحاة لأصحابه

ونظر رجل إلى امرأته وهى صاعدة فى السلم فقال لها : أنت طالق إن صعدت ، وطالق إن نزلت ، وطالق إن وقفت ، فرمت نفسها إلى الأرض . فقال لها : فذاك أبى وأمى ، إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة فى أحكامهم .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : « هلاك أمتي فى شيئين : ترك العلم ، وجمع المال »^(٤) وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن أفضل الأعمال فقال : « العلم بالله ، والفقه فى دينه » . وكررها عليه ، فقال : يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرنى عن العلم ! فقال : « إن العلم ينفعك معه قليل العمل ، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل »^(٥) . وقال عيسى عليه السلام : « من علم وعمل عتد فى الملكوت الأعظم عظيماً » .

وقال الخليل عليه السلام : « العلوم أقفال ، والأسئلة مفاتيحها » . وعنه عليه السلام : « زلة العالم مضروب بها الطبل ، وزلة الجاهل يخفيها الجهل » .

(١) حديث «خير الدنيا .. إلخ» . أخرجه محمد بن علي المذكر كما فى اللآلئ المصنوعة [١/ ٢٠٠-٢٠١] ، عن عمر ، وفيه أحمد بن عبد الله الهروي المعروف بالجوياري ، وضاع ، وشيخه إسحاق بن نجيج الملقبى مثله .

(٢) حديث «يوزن مداد العلماء .. إلخ» ذكره السيوطي فى الدرر المنتثرة [برقم ٣٦٤] ، بلفظ «مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء» وقال : هو من كلام الحسن البصري : وروى مرفوعاً بلفظ : «وزن حبر العلماء بدم الشهداء فرجح عليهم» . قال الخطيب : هو موضوع .

(٣) فضل العالم .. إلخ .. ذكره صاحب كشف الخفاء [برقم ١٨٢٨] وقال : رواه الترمذي وحسنه عن أبي أمامة مرفوعاً ، ونقل النجم عن الترمذي أنه صحيح .

(٤) «هلاك أمتي فى شيئين .. إلخ» . لم أقف عليه .

(٥) سئل الرسول صلى الله عليه وآله عن أفضل الأعمال إلخ .. لم أقف عليه .

قال الحسن : « رأيت أقوامًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : من عمل بغير علم كان ما يُفسده أكثر مما يُصلحه ، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق ، فاطلبوا العلم طلبًا لا يضر بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضر بالعلم » .

وقال يزيد بن ميسرة : من أراد بعلمه وجه الله - تعالى - أقبل الله بوجهه ووجوه العباد إليه ، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله وجهه ووجوه العباد عنه .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا أخبركم بأجود الأجواد » ^(١) . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الله أجود الأجواد ، وأنا أجود ولد آدم ، وأجود من بعدى رجل علم علمًا فنشره يبعث يوم القيامة أمة وحده ، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله حتى قُتل » .

وقال الثوري : كان يُقال : العالمُ الفاجرُ فتنَةٌ لكل مفتون . وعن الفضيل ^(٢) - رحمه الله تعالى - أنه قال : لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم ، وصانوه وأنزلوه ، حيث أنزله الله إذا لخضعت لهم رقاب الجبابرة ، واثقأ لهم الناس ، وكانوا لهم تبعًا ، ولكنهم أدلوا أنفسهم ، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا فإننا لله وإننا إليه راجعون ؛ فاعظم بها مصيبة والله أعلم .

وللقاضي العلامة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ^(٣) وقد أحسن كل الإحسان كأنما طرزت في خلع جسان :

لَمْ أَقْضِ حَقَّ الْعِلْمِ إِنْ كُنْتُ كَلِمًا	بَدَأْتُ طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلْمًا
وَلَمْ أَبْتَدِلْ فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ مُهْجَتِي	لَأَخْدُمَ مَنْ لَا قِيَتْ لَكِنْ لَأَخْدِمَا
أَلْشَقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذَلَّةٌ	إِذَا فَاتَبَاعَ الْجَهْلُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَا
فَإِنْ قَلْتُ زَنْدَ الْعِلْمِ ^(٤) كَابَ فَإِنَّمَا	كَبَا حِينَ لَمْ نَحْرُسْ حِمَاهُ وَأَظْلَمَا
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ	وَلَوْ عَظُمُوهُ فِي النَفُوسِ لِعُظُمَا
وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَذُنُسُوا	مُحْيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجْهَمَا

وقيل : من لم يتعلم في صغره ، لم يتقدم في كبره ، وقال الفضيل : شر العلماء من يجالس الأمراء ، وخير الأمراء من يجالس العلماء .

وقال لقمان : جالس العلماء وزاجفهم بركبتك فإن الله يُحيي القلوب بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض بماء السماء . وقيل : من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طالب العلم قال : مرحبًا بكم ينابيع الحكمة ، ومصابيح الظلمة ، خلقان الثياب جدد القلوب رياحين كل قبيلة .

وقال علي رضي الله عنه : « كفى بالعلم شرفًا أن يدعيه من لا يُحْسِنُهُ ، ويفرح به إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ضعة أن يتبرا منه من هو فيه ، ويغضب إذا نسب إليه » .

وعن النبي ﷺ : « ما أتى الله أحدًا علمًا إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحدًا » ^(٥) .

ودعا بعضهم لآخر فقال : جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية ، وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمل به .

وعن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « على باب الجنة شجرة تحمل ثمارًا كُئِدَى النساء ، يخرج من تحتها عين ماء

(١) «ألا أخبركم بأجود الأجواد.. إلخ» ضعيف جدًا: أخرجه أبو يعلى [٢٧٩٠]، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» [١٣٢/١]، وفيه نوح بن ذكوان ضعيف جدًا.

(٢) هو أبو علي الفضيل بن عياض المتوفى بمكة سنة ٧١٧هـ. وكان تصوفه نفقًا من الشوائب، وهو تصوف العلماء.

(٣) القاضي الجرجاني له ديوان شعر [٣٣٧-٣٩٢هـ] وتوفي في نيسابور.

(٤) الزند: العود الأعلى الذي تقدح به النار، والأسفل هو الزندة، والجمع زند وأزناد، وتقول لمن أنجدك: ورت بك زنداي. كاب: خدمت ناره فخلا من النار.

(٥) «ما أتى الله أحدًا علمًا.. إلخ». أورده المتقي الهندي في «كتر العمال» [٢٩٠٠٠].

يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب ، والناس عطاش » (١) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « من تعلم باباً من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً » (٢) .
وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : « ويل لأمتي من علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم » (٣) :

العلم أنفُسُ شَيْءٍ أَنْتَ دَاخِرُهُ من يدرس العلم لم تدرُسْ مَفَاخِرُهُ
أَقْبِلْ عَلَى الْعِلْمِ وَاسْتَقْبِلْ مَقَاصِدَهُ فأول المعلم إقبالٌ وآخرُهُ

قال الشعبي : دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألني عن اسمي ، فأخبرته ، ثم قال : يا شعبي ؛ كيف علمك بكتاب الله ؟ قلت : عنى يؤخذ . قال : كيف علمك بالفرائض ؟ قلت : إلى فيها المنتهى . قال : كيف علمك بأنساب الناس ؟ قلت : أنا الفصيل فيها . قال : كيف علمك بالشعر ؟ قلت : أنا ديوانه . قال : لله أبوك وفرض لى أموالاً وسودنى على قومي ، فدخلت عليه ، وأنا صعلوك من صعاليك همدان ، وخرجت وأنا سيدهم ، قال البستي :

إِذَا لَمْ يَزِدْ عِلْمُ الْفَتَى قَلْبَهُ هُدًى وسيرته عدلاً وأخلاقه حسناً
فَبَشِّرْهُ أَنْ اللَّهَ أَوْلَاهُ فِتْنَةً تُغَشِّيه حِرْمَانًا وَتُوسِّعُهُ حُرْنًا

وقال الهيثم بن جميل : شهدت مالك بن أنس رضي الله عنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال : فى ثنتين وثلاثين منها لا أدري . وقال الأوزاعي : شكت النواويس إلى الله - تعالى - ما تجد من تنن ربح الكفار ، فأوحى الله إليها : بطون علماء السوء أنتن مما أنتم فيه .

وقال علي رضي الله عنه : مَنْ أَفْتَى النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَعَنَتْهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .
ولصالح اللخمي :

تَعَلَّمَ إِذَا مَا كُنْتَ لَسْتَ بِعَالِمٍ فما العلم إلا عند أهل التَّعَلُّمِ
تَعَلَّمَ فَإِنَّ الْعِلْمَ أَزِينُ لِلْفَتَى من الحلة الحسناء عند التكلم

ودخل عبد الله بن مسلم الهذلي على المهدي في القراء فأخذ عشرة آلاف درهم ، ثم دخل في المغنين فأخذ كذلك ، ثم دخل في القصاص ، فأخذ كذلك ! فقال المهدي : لم أرَ كاليوم أجمع لما يجمع الله في أحد منك . ومل جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه في بيت ، فرقى السطح ، وجعل يستمع من كوة حتى وقع عليه الثلج ، فصبر فشكر الله له ذلك ، فجعله إمام الحكماء لا يختلفون في شيء إلا صدروا عن رأيه . وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له : استعن على الحفظ بترك المعاصي ، فأنشأ يقول :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وذلك أن حفظ العلم فضل وفضل الله لا يؤتى لعاصي

ووجد في بعض الآثار عن بعضهم : أنه قال : إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب ، أو المصحف ، أو ابتداء القراءة في كل شيء : أردت باسم الله ، وسبحان الله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عدد كل حرف كُتِبَ ويكتب أبد الأبد ، ودهر الدهرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قيل : وإذا أردت أن لا تنسى حرفاً فقل قبل القراءة : اللهم افتح علينا حكمتك ، وانشر علينا رحمتك ، يا ذا

(١) حديث : «على باب الجنة شجرة... إلخ» . لم أقف عليه .

(٢) حديث : «من تعلم باباً من العلم... إلخ» . قال المنذري في «الترغيب» [١/١٢٦] . «رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس ، وفيه نكارة» ، وانظر هامش الإحياء [١/٢١] .

(٣) «ويل لأمتي... إلخ» . عزاه المتقي الهندي في «كتر العمال» [٢٩٠٨٤] للحاكم في تاريخه عن أنس .

الجلال والإكرام . وإذا أردت أن تُرزقَ الحفظَ فقل خلفَ كُلِّ صلاةٍ مكتوبة : آمَنتُ بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له ، وَكَفَرْتُ بما سواه .

ومن فوائد سيدى الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل - رحمه الله تعالى - فى الحفظ يقرأ فى كل يوم عشر مرات ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكَلَّأَ آدَمَ حُكْمًا وَعَلَّمَهُ ﴾ [الأنبياء: ٧٩] إلى قوله - تعالى - : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ . يا حَيُّ يا قَيُّومُ يارب موسى وهارون ، يارب إبراهيم ، يارب محمد - عليه وعليهم الصلاة والسلام - أَلْزَمْنِي الْفَهْمَ ، وارزقنى العلم والحكمة والعقل ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

وعن أبى يوسف ^(١) قال : مات لى ولد فأمرت من يتولى دفنه ولم أدع مجلس أبى حنيفة خوفاً أن يفوتنى منه يوم . وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة : ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث ، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخارى حتى كان يقال : إن حديثاً لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث . وقال البخارى - رحمه الله تعالى - : أحفظُ مائة ألف حديث صحيح ومائتى ألف حديث غير صحيح . وقال : ما وضعت فى كتابى الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين . وقال أخرجته من ستمائة ألف حديث ، وصنفته فى ست عشرة سنة ، وجعلته حجة فيما بينى وبين الله - تعالى - .

وقال مجاهد : أتينا عمرَ بن عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه . وكان يقال : الليث بن سعد - رحمه الله تعالى - ذهب علمه كله بموته ، ولهذا قال الشافعى لما قدم مصر بعد موته : والله لأنت أعلم من مالك وإنما أصحابك ضيعوك ! وقال الليث بن سعد ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثا علمه ، ولو حرص الناس ! ويقال : إذا سُئِلَ العالم فلا تُجِبْ أنت ، فإن ذلك استخفاف بالسائل والمسئول وقالوا : مَنْ خَدَمَ المحابر ، خَدَمَتِ المنابر :

لا تذخر غيرَ العلو
فالمراء لوربح البقا
م فإنها نعم الذخائر !
مع الجهالة كان خاسر !
وللشافعى :

أخى لن تنال العلم إلا بسنة
ذكاء وجرص واجتهاد وبُلغة
سأُتيك عن تفصيلها ببيان
وضحة أستاذ وطول زمان

وقال الزهرى : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، وعامر الشعبى بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشام ، وقال بعضهم : العلماء سُرُجُ الأزمنة كل عالم سراجُ زمانه يستضيء به أهل عصره . وقيل لإبراهيم بن عُثينة : أى الناس أطولُ ندامة ؟ قال : أما فى الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره ! وأما فى الآخرة فعالم مفرط :

كن عالماً وارضَ بصف النعال
فإن تصدّرت بلا آلة
ولا تكن صدراً بغير الكمال
صيرت ذاك الصدر صف النعال

وقيل : لما اجتمع موسى بالخضر ^(عليه السلام) جاء عُصْفُور فأخذ بمنقاره من البحر قطرة ، ثم حطَّ على وَرِكِ الخضر ، ثم طار ؛ فنظر الخضرُ إلى موسى ^(عليه السلام) وقال : يا نبي الله إن هذا العصفور يقول : يا موسى أنت على علم من علم الله علمك الله لا يعلمه الخضر ، والخضر على علم من علم الله علمه الله إياه لا تعلمه أنت ، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، ولا الخضر ، وما علمى وعلمك وعلم الخضر فى علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر . قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] . قال عبد الله بن عباس ^(عليه السلام) خلق الله - تعالى - أربعين ألف عالم : الإنس والجن عالمان ، والبواقي لا يعلمها إلا هو . وقال موسى ^(عليه السلام) يارب قد قلت للسموات والأرض :

(١) أبو يوسف : صاحب أبى حنيفة ، وإمام المذهب بعده ، وكان قاضي القضاة فى زمن هارون الرشيد وله كتاب الخراج .

«أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» [فصلت: ١١] فَلَوْ لَمْ تَطْعَكَ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ مَاذَا كُنْتَ فَاعِلًا بِهِمَا ؟ قال يا موسى ؛ كنت آمر دابة من دوابي أن تبتلعهما . قال موسى : يارب وأين تلك الدابة ؟ قال في مَرْجٍ من مروجي . قال موسى : يارب وأين تلك المرج ؟ قال : في علم من علمي لا يعلمه إلا أنا^(١) . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ ونحن في فكرة فقال : « فيم تفكرون ؟ تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله ، فإن الله خلق من جانب الغرب أرضًا يقال لها : البيضاء تقطعها الشمس في أربعين يومًا فيها خلق ما عَصُوا الله طرفه عين » فقال ابن عمر : يا رسول الله ؛ أين إبليس منهم ؟ قال : « ما علموا بإبليس خلق أم لا » . قال : أمن بنى آدم ؟ قال : « ما علموا بآدم خلق أم لا ؟ فهذه كلها مما أعدّها الله في علم غيبه »^(٢) . « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(٣) فَسَبَّحَنَ الَّذِي يَدُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يس: ٨٢-٨٣] .

وقال قتادة : لو كان أحدٌ منا مكتفياً من العلم لاكتفى نبيُّ الله موسى عليه السلام إذ قال : « هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مَا عُلِّمْتُ رُشْدًا » [الكهف: ٢٦] وقال الحكماء : أفضل العلم وقوفُ العالم عند علمه . وقال بعضهم : ليس العلم ما خزنته الدفاتر ، وإنما العلم ما خزنته الصدور . وقيل : العلم يؤدي إلى التصدير^(٣) ، وقيل : من تواضع للعلم ناله ، ومن لم يتواضع له لم يتلّه . وقيل : من برق علمه برق وجهه ، ومن لم يستفد بالعلم مالاً اكتسب به جمالاً .

العلم نور وهدى ، والجهل غي ووردي . قال بعضهم : العالم يعرف الجاهل ، والجاهل لا يعرف العالم ، لأن العالم كان جاهلاً ، والجاهل لم يكن عالماً . وقيل : أربعة يسودن العبد : العلم ، والأدب ، والصدق ، والأمانة . وقيل : أهل العراق أطلب الناس للعلم . وقال حماد ابن سلمة : مثل الذي يطلب الحديث ، ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها . ولإبراهيم بن خلف المهراني :

النحو يصلح من لسان الأَلَكَن
وإذا طلبت من العلوم أجَلَهَا

وقال علي بن بشار :

رأيت لسان المرء آية عقله
ولا تغدُ إصلاح اللسان فإنه
ويعجبني زى الفتى وجماله

ودخل أعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال : سبحان الله ! يلحنون ويَرْبَحُونَ ؟ ! وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن فقال : لم لا تنظر في العربية ؟ فقال : بلغني أن من نظر فيها قل كلامه ! فقال : ويحك ! لأن يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ .

وكان يقال : مجالسة الجاهل مرض للعاقل . وقال أبو الأسود الدؤلي : إذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً ، وقال الشاعر :

جهلت ولم تدري بأنك جاهلٌ
ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

وقال رجل للحسن : أنا أفصح الناس ، قال : لاتقل هذا . قال : فخذ علي كلمة واحدة . قال : هذه واحدة . أبو جهل كناه المسلمون بذلك ، وكانت قریش تكتبه أبا الحكم فقال حسان رضي الله عنه :

الناس كنّوه أبا حكم
والله كنّاه أبا جهل

وأما ما جاء في الأدب فقد قال بعض الحكماء : العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام ، وقال علي رضي الله عنه الأدب كنز عند الحاجة ، عون على المروءة ، صاحب في المجلس ، وأنيس في الوحدة

(١) حديث : «وقال موسى» . إلخ لم آتف عليه ، وهو من الإسرائيليات .

(٢) «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة . إلخ» . قال العجلوني : رواه أحمد مرفوعاً والطبراني وأبو نعيم ، ثم قال بعد أن ذكر روايات متعددة : وأسانيد ضعيفة لكن اجتماعها يكسبه قوة ، ومعناه صحيح .

(٣) أي : التصدر والتقدم .

تعمر به القلوب الواهية ، وتحيا به الألباب الميتة وينال به الطالبون ما حاولوا . وقيل : عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح .

وحكى : أن رجلا تكلم بين يدي المأمون فأحسن فقال : ابن من أنت ؟ قال : ابن الأدب يا أمير المؤمنين . قال : نعم النسب انتسب إليه ! ولهذا قيل : المرء من حيث يثبت ، لا من حيث ينبت ، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد . قال الشاعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يُغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول : هأنذا ليس الفتى من يقول : كان أبى
وقال بعض الحكماء : من كثر أدبه ، كثر شرفه ، وإن كان ضيعا وتعد صيته وإن كان خاملا ، وساد وإن كان غريبا ، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيرا . قال بعض الشعراء :

لكل شيء زينة في الوري وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرء بأدابه فينا وإن كان ضيع النسب
وقال بعض الأعاجم مفتخرا :

مالي عقلي وهمتي حسبي ما أنا مؤلى وما أنا عري
إذا انتمى منتم إلى أحد فإنني منتم إلى أدبي
وقيل : الفضل بالعقل والأدب ، لا بالأصل والحسب . وقيل : المرء بفضيلته ، لا بفضيلته ، وبكماله لا بجماله ، وبأدابه لا بشيابه ، وقيل لرجل : من أدبك ؟ قال : رأيت جهل الجهال قبيحا فاجتنبته فتأدبت . ومن أدب ولده صغيرا سر به كبيرا . من عرف الأدب اكتسب به المال والجاه . خير الخلال الأدب ، وشر المقال الكذب . وقيل لبقرط : ما الفرق بين من له أدب ، ومن لا أدب له ؟ قال : كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذي ليس بناطق . ودخل أبو العالية على ابن عباس (ع) فأقعده معه على السرير ، وأقعد رجلا من قریش تحته ، فرأى سوء نظرهم إليه . وحموضة وجوههم ، فقال : ما لكم تنظرون إلى نظر الشحيح إلى الغريم المفلس ، هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير ، ويرفع المملوك على المولى ، ويُعبد العبد على الأسرة ، وقال جالينوس : إن ابن الوضع إذا كان أدبيا كان نقص أبيه زائدا في منزلته ، وابن الشريف إذا كان غير أديب كان شرف أبيه زائدا في سقوطه . وقيل : أحسن الأدب أن لا يفتخر المرء بأدبه . وسمع معاوية رجلا يقول : أنا غريب . فقال : كلاً الغريب من لا أدب له ! ويقال : إذا فاتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب ولعبد الملك بن صالح :

في الناس قوم أضاعوا مجد أولهم ما في المكارم والتقوى لهم أرب
سوء التادب أرذاهم وأرذلهم وقد يزين صحيح المنصب الأدب
وقيل : أربعة تسود العبد : الأدب ، والعلم ، والصدق ، والأمانة . وقال بعض الحكماء : خمسة لا تقيم إلا بخمسة : لا يتم الحسب إلا بالأدب ، ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة ، ولا يتم الغنى إلا بالجود ، ولا يتم البطش إلا بالجرأة ، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق . والله - تعالى - أعلم .



(١) بقراط : طبيب يوناني قديم وُلِدَ سنة ٤٦٠ ق.م وهو ابن إقليس بن أبقرط ، وورث علوم الطب عن أبيه وجده .

(٢) فؤاد حمض ، ونفس حمضة : تنفر من الشيء أول ما تسمعه .

الباب الخامس

في الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء : إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة ، وألزمه القناعة ، وفقّهه في الدين ، وعصّده باليقين ، فاكتمى بالكفاف ، واكتسب بالعفاف ، وإذا أراد به شراً حبّب إليه المال ، وبسط منه الآمال وشغله بديناه ، ووكله إلى هواه فركب الفساد ، وظلم العباد* الثقة بالله أزكى أمل ، والتوكل عليه أوقى عمل* من لم يكن له من دينه واعظ لم تنفعه المواعظ* من سرّه الفساد ساء المعاد* كل يحصد ما زرع ، ويُجزى بما صنع* لا يغرّتك صحة نفسك ، وسلامة أمسك ، فمدة العمر قليلة ، وصحة النفس مستحيلة* من أطاع هواه باع دينه بديناه ثمرة العلوم العمل بالمعلوم* من رضى بقضاء الله لم يُسخطه أحدٌ ، ومن قنع بعطائه لم يذخله حسدٌ* أفضل الناس من لم تُفْسِد الشهوة دينه* خير الناس من أخرج الجرح من قلبه ، وعصى هواه في طاعة ربّه* نصرة الحق شرف ، ونصرة الباطل سرف* البخيل حارس نعمته ، وخازن لورثته* من لزم الطمع عديم الورع* إذا ذهب الحياء حلّ البلاء* علم لا ينفع كدواء لا ينفع* من جهل المرء أن يعصى ربّه في طاعة هواه ، ويهين نفسه في إكرام دُنياه* أيام الدهر ثلاثة : يوم مضى لا يعود إليك ، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك ، ويوم مستقبل لا تدري ما حاله ، ولا تعرف من أهله* من كثر ابتهاجه بالمواهب^(٢) اشتد انزعاجه للمصائب* لا تبت على غير وصية وإن كنت من جسمك في صحة ، ومن عُمرِكَ في فسحة^(٣)* عِظ المسيء بحسن أفعالك ، ودل على الجميل بجميل خيالك .

إياك وفضول الكلام^(٤) فإنه يُظهر من غيوبك ما بطن ، ويُحرّك من عدوك ما سكن* لا يجد العجول فرحاً ، ولا الغصوب سروراً ، ولا الملول صديقاً* حسن النية من العباد* حُسن الجلوس من السياسة* من زاد في خُلُقهِ نقص في حظه* من اتّمن الزمان خانة* أظهر الناس محبة أحسنهم لقاء* لا يكمل للإنسان دينه حتى يكون فيه أربع خصال : يقطع رجاءه مما في أيدي الناس ، ويسمع شتم نفسه ويصبر ، ويحب للناس ما يوجب لنفسه ، ويثق بمواعيد الله* إياك والحسد ، فإنه يُفسد الدين ، ويُضعف اليقين ، ويُذهب المروءة* قيل لأفلاطون : ما الشيء الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقاً ؟ قال : مدح الإنسان نفسه* أربعة تؤدي إلى أربعة : الصمت إلى السلامة ، والبر إلى الكرامة ، والجود إلى السيادة ، والشكر إلى الزيادة* من ساء تديبره أهلكه جده* العرة^(٥) ثمرة الجهل* آفة القوة استضعاف الخصم* آفة النعم قبح المن* آفة الذنب حسن الظن* الحزم أسد الآراء ، والغفلة أضّر الأعداء* من قعد عن حيلته أقامته الشدائد ، ومن نام عن عدوه أيقظته المكائد* من قرب السفلة وأطرح ذوى الأحساب والمروءات استحق الخذلان* من عفا تفضل* من كظم غيظه فقد حلم* من حلم فقد صبر ومن صبر فقد ظفر* من ملك نفسه عند أربع حرّمه الله على النار : حين يغضب ، وحين يرغب ، وحين يرهب ، وحين يشتهي* من طلب الدنيا بعمل الآخرة فقد خسرهما ، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما* كلام المرء بيان فضله ، وتُرْجُمَانُ عقله ؛ فاقصّره على الجميل ، واقتصر منه على القليل* كل امرئ يُعرفُ بقوله ، ويوصفُ بفعله ؛ فقل سديداً ، وافعل حميداً* من عرف شأنه ، وحفظ لسانه ، وأعرض عما لا يعنيه ، وكف عن عرض أخيه دامت سلامته ، وقلت ندامته* كن صموتاً وصدوقاً فالصمت جرز ، والصدق عز* من أكثر مقاله سُئِم ، ومن أكثر سؤاله حُرِم* من استخف بإخوانه خذل ، ومن اجترأ على سلطانه قُتل* ما عزّ من أدل جيرانه ، ولا سَعِدَ من حرم إخوانه* خير التوال ما وصل قبل السؤال* أولى الناس بالنوال أزهدهم في السؤال* من حسن صفاه ، وجب اصطفاؤه* من غاظك بقبیح الشّم منه فغظه بحسن الجلم عنه* من يخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه* إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اضطنعت إليك

(٢) المواهب : جمع موهبة ، وهي ما يهبه الله لنا .

(٤) فضول الكلام : ما زاد على المطلوب ، وكان لغواً .

(١) لا ينفع : لا يشفي الداء ، ولا يستأصل المرض .

(٣) فسحة : امتداد في العمر .

(٥) العرة : بفتح العين ، هي الشدة والخلة القبيحة .

فانشره * من جاور الكرام أمن من الإعدام * من طاب أصله زكا فرعُه ، من أنكر الصنعة ، استوجب القطيعة * من منَّ بمعروفه سقط شكرُه ، ومن أعجب بعمله حَبطَ أجرُه * من رضى من نفسه بالإساءة شَهد على أصله بالرداءة * من رجع في هبته ، بالغ في خسته * من رقى في درجات الهمم عَظُم في عيون الأمم * من كبرت همته كثرت قيمته * من ساء خلقه ضاق رزقه * من صدق في مقالِه زاد في جماله * من هان عليه المال توجهت إليه الآمال * من جاد بماله جلَّ ، ومن جاد بعرضه ذلَّ * خير المال ما أُخذ من الحلال ، وصُرف في التَّوال ، وشرَّ المال ما أُخذ من الحرام ، وصُرف في الآثام * أفضل المعروف إغاثة الملهوف * من تمام المروءة أن تنسى الحقَّ لك ، وتذكر الحقَّ عليك ، وتستعبر الإساءة منك ، وتستصغرها من غيرك * من أحسن المكارم عفوُ المقندر * جودُ الرَّجل يُحبِّبه إلى أصدقائه ، وبخلُه يبغضه إلى أودائِه ^(١) * لا تُسئْ إلى من أحسن إليك ، ولا تُعنْ على من أنعم عليك * من كثر ظلمه واعتداؤه ، قرب هلاكُه وفناؤه * من طال تغديه ، كثرت أعاديهِ * شرَّ الناس من ينصرُ الظُّلوم ، ويخذلُ المظلوم * من حفر حفيرا لأخيه ، كان حتفه فيه * من سلَّ سيفَ العدوان أُعْمِدَ في رأسه * من لم يرحم العبرة ^(٢) سلب النعمة ، ومن لم يُقلِّ العثرة سلب القدرة * لا تُحاجَّ ^(٣) من يُذهلك خوفُه ، ويملكك سيفُه * صمتٌ تسلم به خيرٌ من نطقٍ تندم عليه * من قال ما لا ينبغي ، سمع ما لا يشتهي * جُرْحُ الكلام أصعب من جُرْحِ الحُسام * من سكت عن جاهل فقد أوسعَه جوابا ، وأرجعه عتابا * من أمارت شهوته ، أحميا مروءته * من كثرت عوارفه ^(٤) ، كثرت معارفه * من لم تقبل توبته عظمَتْ خطيئته * إياك والبغى ، فإنه يصرعُ الرجال ، ويقطعُ الآجال * الناسُ في الخير أربعة أقسام : منهم من يفعله ابتداء ، ومنهم من يفعله اقتداء ، ومنهم من يتركه جرمانا ، ومنهم من يتركه استحسانا ؛ فمن فعله ابتداء فهو كريم ، ومن فعله اقتداء فهو حكيم ، ومن تركه حرمانا فهو شقي ، ومن تركه استحسانا فهو ذنبي * من سالم سليم ، ومن قدَّم الخير غنم * من لزم الرقاد عديمُ المراد ، ومن دام كسلُه خاب أمله * العجولُ مُخطئ وإن ملك ، والمتأنى مصيب وإن هلك * من أمارات الخذلان مُعاداة الإخوان * استفساد ^(٥) الصديق من عديم التوفيق * الرِّفقُ مفتاح الرِّزق * من نظر في العواقب سليم من النوائب ، ومن أسرع في الجواب ، أخطأ في الصواب * من ركب العجل أدركه الزَّلل * من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه * من قلت فضائله ، ضعفت وسائله * من فعل ما شاء ، لقي ما ساء * من كثر اعتباره ، قل عثاره * من ركب جدّه غلب ضده * القليل مع التدبير أبقي من الكثير مع التبذير * ظن العاقل أصبح من يقين الجاهل * قليل تحمد آخرته خير من كثير تُذمُّ عاقبته * من خاف سطوتك ، تمنى موتك * إذا استشرت الجاهل ، اختار لك الباطل * من أعجبه آراؤه ، غلبته أعداؤه * من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة * لا تشتك ضعفك إلى عدوك فإنك تشمت بك وتطمعُ فيك * من لم يعمل لنفسه عمل للناس ، ومن لم يصبر على كدّه صبر على الإفلاس * من أفشى سره ، أفسد أمره * الحازم من حفظ ما في يده ، ولم يؤخر شغل يومه لعدّه * من طلب ما لا يكون طال تبعه * لا تفتح بابا يعيك سدّه ، ولا ترم سَهْمًا يُعجزك ردّه * سوء التدبير سببُ التدمير * أعمد سيفك ما ناب عنك لسانك * ليس العجب من جاهل يصحب جاهلا ، ولكن العجب من عاقل يصحبه ، لأنَّ كلَّ شيء يفر من ضده ، ويميل إلى جنسه * إذا نزل القدر بطل الحذر * رب عطب تحت طلب ، وميّت تحت أمنية * لا يخلو المرء من ودود يمدح ، وعدو يَفدح * الجوع خير من الخضوع * الكذب مُتهم وإن صدقت لهجته ، ووضحت حجته * من طأوعه طُرْفُه ^(٦) ، اشتدَّ خُفُّه * من لم تسر حياته ، لم تغم وفاته * من أعظم الذنوب ، تحسينُ العيوب * الشرفُ بالهمم العالية ، لا بالرَّمم البالية * إذا ملك الأراذل ، هلك الأفاضل * من ساءت أخلاقه ، طاب فراقه * من حسنت خصاله ، طاب وصاله * بُعدُ يورث الصفاء ، خيرٌ من قُرب يُوجب الجفاء * اللسانُ سيفٌ قاطع لا يؤمن حدّه ، والكلام سَهْمٌ نافذ لا يمكن ردّه * من اطلع على جاره انْهَتَكَتْ حُجُبُ أَسْتاره * أجهلُ الناس من قلَّ صوابه ، وكثر إعجابه * أظهرُ الناس نفاقًا من أمر بالطاعة ، ولم

(١) أودائه: جمع ودود وهو المحب والصديق.

(٢) لا تحاج: لا تتجادل ولا تخاصم.

(٣) العبرة: الدُّمعة، والجمع عبر.

(٤) استفساد الصديق: الإساءة إليه.

(٥) الطُّرف: النظر، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ عِنْدَ عِلْمٍ مِنَ الْكِتَابِ أَنَّا آتَيْنَاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [التمل: ٤٠].

(٦) العوارف: جمع عارفة، وهي الإحسان.

يَأْتَمُرُ بِهَا ، وَنَهَى عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَمْ يَنْتَهَ عَنْهَا * مِنْ سَلَا عَنِ الْمُسْلُوبِ كَمَنْ لَمْ يُسَلِّبْ ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى النِّكْبَةِ ، كَمَنْ لَمْ يُنْكَبْ * الْفَضِيلَةُ بِكَثْرَةِ الْأَدَابِ لَا بِفَرَاهَةِ^(١) الدُّوَابِ * مِنْ زَادَتْ شَهْوَتُهُ نَقَصَتْ مَرْوَتُهُ * مِنْ عُرِفَ بِشَيْءٍ نُسِبَ إِلَيْهِ ، وَمِنْ اعْتَادَ شَيْئًا حَرَصَ عَلَيْهِ * عِنْدَ الْجِدَالِ يَظْهَرُ فَضْلُ الرِّجَالِ * مِنْ آخِرِ الْأَكْلِ لَذَّةُ طَعَامِهِ ، وَمِنْ آخِرِ النَّوْمِ طَابَ مَنَامُهُ * مَوْتَ فِي دَوْلَةٍ وَعِزٌّ ، خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي ذَلَّةٍ وَعَجْزٌ * مُقَاسَاةُ الْفَقْرِ هِيَ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ ، وَمُسْأَلَةُ النَّاسِ هِيَ الْعَارُ الْأَكْبَرُ * حَقٌّ يَضُرُّ ، خَيْرٌ مِنْ بَاطِلٍ يَسُرُّ * كَمْ مِنْ مَرْغُوبٍ فِيهِ يَسُوءُ ، وَلَا يَسُرُّ ، وَمَرْهُوبٍ مِنْهُ يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ * عَثْرَةُ الرَّجُلِ تُزِيلُ الْقَدَمَ ، وَعَثْرَةُ اللِّسَانِ تُزِيلُ النِّعَمَ * الْمُزَاحُ يورثُ الضَّغَائِنَ * مِنْ حَلُمٍ سَادَ ، وَمِنْ تَفَهَّمٍ ازدَادَ * مُعَاشِرَةُ ذَوِي الْأَلْبَابِ ، عِمَارَةُ الْقُلُوبِ * شَرٌّ مَا صَجَبَ الْمَرْءُ الْحَسَدَ * رُبَّمَا أَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدُهُ ، وَأَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ * الْيَأْسُ خَيْرٌ مِنَ التَّضَرُّعِ إِلَى النَّاسِ * لَا تَكُنْ ضَاحِكًا فِي غَيْرِ عَجَبٍ ، وَلَا مَاشِيًا فِي غَيْرِ أَرْبٍ^(٢) * مِنْ سَعَى بِالنَّمِيمَةِ حَذِرَهُ الْقَرِيبُ ، وَمَقَتَهُ الْغَرِيبُ * الْاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهَدَايَةِ ، وَقَدْ خَاطَرَ مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ * أَشْرَفُ الْغِنَى تَرْكُ الْمَنَى * مَنْ ضَاقَ خُلُقُهُ مَلَهُ أَهْلُهُ * الْحَسَدُ لِلصَّدِيقِ مِنْ سَقَمِ الْمَوَدَّةِ * كُلُّ النَّاسِ رَاضٍ عَنْ عَقْلِهِ * دُنْيَاكَ كُلُّهَا وَقْتُكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ * اسْتُرْ سَوَاءَ أَخِيكَ ؛ لِمَا يَعْلَمُ فِيكَ * خَمُولُ الذِّكْرِ أَسْنَى مِنَ الذِّكْرِ الذَّمِيمِ ، الْعَجَلَةُ أَخْتُ النَّدَامَةِ * مَنْ كَرُمَ أَصْلُهُ لَا يَنْقُصُ قَلْبُهُ ، وَمَنْ قَلَّ لُبُّهُ ، زَادَ عَجْبُهُ * رُبَّمَا أُدْرِكَ بِالظَّنِّ الصَّوَابُ * لَيْسَ لِمُعْجَبٍ رَأْيٌ ، وَلَا لِمُتَكَبِّرٍ صَدِيقٌ * سَلِّ عَنْ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَعَنْ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ * لَا تُعَادِيَنَّ أَحَدًا فَإِنَّكَ لَا تَخْلُو مِنْ عِدَاوَةِ جَاهِلٍ أَوْ عَاقِلٍ ؛ فَالْحَذَرُ مِنْ حِكْمَةِ الْعَاقِلِ ، وَجَهْلُ الْجَاهِلِ * ضَاحِكٌ مُعْتَرِفٌ بِذَنْبِهِ ، خَيْرٌ مِنْ بَاكِ مُدِلٍّ عَلَى رَبِّهِ * مَنْ قَلَّ سُرُورُهُ كَانَ الْمَوْتُ رَاحَتَهُ * لَا تَرَدَّدْ عَلَى ذِي خَطَايَاهُ فَيَسْتَفِيدَ مِنْكَ عِلْمًا ، وَيَتَخَذَكَ عِدْوًا * اسْتَحْ مِنْ دَمٍ مَنْ لَوْ كَانَ حَاضِرًا لِبَالَعْتَ فِي مَدْحِهِ ، وَمَدَحُ مَنْ لَوْ كَانَ غَائِبًا لَسَارَعَتْ إِلَى ذَمِّهِ * وَقِيلَ : الْمَنْفَعَةُ تَوْجِبُ الْمَحَبَّةَ ، وَالْمَضَرَّةُ تَوْجِبُ الْبَغْضَةَ^(٣) وَالْمُخَالَفَةُ تَوْجِبُ الْعِدَاوَةَ ، وَالْمَتَابَعَةُ تَوْجِبُ الْأَلْفَةَ ، وَالْعَدْلُ يَوْجِبُ اجْتِمَاعَ الْقُلُوبِ ، وَالْجَوْرُ يَوْجِبُ الْفُرْقَةَ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ يَوْجِبُ الْمَوَدَّةَ وَسُوءُ الْخُلُقِ يَوْجِبُ الْمُبَاعَدَةَ ، وَالْإِنْبِسَاطُ يَوْجِبُ الْمُؤَانَسَةَ ، وَالْإِنْقِبَاضُ يَوْجِبُ الْوَحْشَةَ ، وَالْكِبَرُ يَوْجِبُ الْمَقْتَ ، وَالتَّوَاضُّعُ يَوْجِبُ الرَّفْعَةَ ، وَالْجُودُ يَوْجِبُ الْمَدْحَ ، وَالْبَخْلُ يَوْجِبُ الذَّمَّ ، وَالتَّوَانِي^(٤) يَوْجِبُ التَّضْيِيعَ ، وَالْحَزْمُ يَوْجِبُ السَّرُورَ وَالْحَذَرُ يَوْجِبُ السَّلَامَةَ ، وَإِصَابَةُ التَّدْبِيرِ تَوْجِبُ بَقَاءَ النِّعْمَةِ ، وَبِالتَّأْنِي تَسَهَّلُ الْمَطَالِبُ ، وَبِحُسْنِ الْمَعَاشِرَةِ تَدُومُ الْمَحَبَّةُ ، وَبِخَفْضِ الْجَانِبِ تَأْنَسُ النُّفُوسُ ، وَبِسَعَةِ خُلُقِ الْمَرْءِ يَطْيِبُ عَيْشُهُ ، وَبِالاسْتِهَانَةِ تَوْجِبُ التَّبَاعُدَ ، وَبِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الْهَيْبَةُ ، وَيَعْدِلُ الْمَنْطِقُ تُجَلِّبُ الْجَلَالَةَ ، وَبِالنُّصْفَةِ^(٥) تَكْثُرُ الْمَوَاصِلَةُ ، وَبِالْإِفْضَالِ يَعْظُمُ الْقَدْرُ ، وَبِصَالِحِ الْأَخْلَاقِ تَزْكُو الْأَعْمَالُ ، وَبِاحْتِمَالِ الْمُؤْنِ يَجِبُ السُّؤْدُودُ ، وَبِالْحِلْمِ عَلَى السَّفِيهِ تَكْثُرُ أَنْصَارُكَ عَلَيْهِ ، وَبِالرَّفْقِ وَالتَّوَدُّدِ تَسْتَحِقُّ اسْمَ الْكِرَامَةِ ، وَبِتَرْكِ مَا لَا يَعْنِيكَ يَتِمُّ لَكَ الْفَضْلُ * وَاعْلَمْ أَنَّ السِّيَاسَةَ تَكْسُو أَهْلَهَا الْمَحَبَّةَ * وَمَنْ صَغُرَ الْهِمَّةُ الْحَسَدُ لِلصَّدِيقِ عَلَى النِّعْمَةِ * وَالنَّظَرُ فِي الْعَوَاقِبِ نَجَاةٌ * وَمَنْ لَمْ يَحْلُمْ نَدَمَ * وَمَنْ صَبَرَ غَنِمَ * وَمَنْ سَكَتَ سَلِمَ * وَمَنْ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ * وَمَنْ أَبْصَرَ فَهَمَّ * وَمَنْ فَهَمَ عِلْمٌ * وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ ضَلَّ * وَمَعَ الْعَجَلَةِ النَّدَامَةُ * وَمَعَ التَّأْنِي السَّلَامَةُ * وَزَارَعَ الْبَرَّ يَحْصُدُ السَّرُورَ * وَصَاحِبُ الْعَقْلِ مَغْبُوطٌ * وَصَدَاقَةُ الْجَاهِلِ تَعَبٌ * إِذَا جَهَلْتُمْ فَاسْأَلُوا ، وَإِذَا زَلَلْتُمْ فَارْجِعُوا ، وَإِذَا أَسَأْتُمْ فَانْدَمُوا * إِذَا نَدِمْتَ فَأَقْلَعْ * الْمَرْءُ مَا تَبِعَ لِلْعَقْلِ * وَالرَّأْيُ تَبِعَ لِلتَّجَرِبَةِ * وَالْعَقْلُ أَصْلُهُ التَّثَبُّتُ ، وَثَمَرَتُهُ السَّلَامَةُ ، وَالْأَعْمَالُ كُلُّهَا تَتَّبِعُ الْقَدْرَ * وَاخْتَارَ الْعُلَمَاءُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ مِنْ أَرْبَعِ كُتُبٍ : فَمِنْ التَّوَادُّعِ : قَنَعَ شَيْعٌ ، وَمِنْ الْإِنْجِيلِ : مَنْ اعْتَزَلَ نَجَا ، وَمِنْ الزَّبُورِ : مَنْ سَكَتَ سَلِمَ ، وَمِنْ الْقُرْآنِ : وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ . وَاجْتَمَعَتْ حِكْمَةُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ عَلَى أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : لَا تُحْمَلْ بَطْنُكَ مَا لَا يُطِيقُ ، وَلَا تَعْمَلْ عَمَلًا لَا يَنْفَعُكَ ، وَلَا تَغْتَرَّ بِامْرَأَةٍ ، وَلَا تَتَّقِ بِمَالٍ وَلَوْ كَثُرَ . وَاللَّهُ - تَعَالَى - أَعْلَمُ .



(١) بفراهة الدواب: جمالها وحسنها وخفتها ونشاطها.

(٢) الأرب: الهدف، والأمنية.

(٣) البغضة - بكسر الباء - البغض والكراهية.

(٥) النصف: الإنصاف.

(٤) التواني: التراخي والتكاسل والإهمال.

الباب السادس

في الأمثال السائرة وفيه فصول

الفصل الأول: فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم، وأحاديث النبي الكريم

اعلم أنَّ الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه ، وحلّى بجواهره كتابه ، وقد نطق كتاب الله - تعالى - وهو أشرف الكتب المنزلة بكثير منها ، ولم يخلُ كلام سيدنا رسول الله ﷺ عنها ، وهو أفصح العرب لساناً ، وأكملهم بياناً ، فكم في إيراده وإصداره من مثلي يعجز عن مباراته في البلاغة كل بطل . وسنذكر إن شاء الله - تعالى - بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين^(١) والعامّة .

فمن أمثال كتاب الله - تعالى - قوله - تعالى - : ﴿ لَنْ نَأْتُوا آلَ حَتَّى تُفْعَلُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] ﴿ أَلَنْ حَصَصَ الْحَقُّ ﴾ [يوسف: ٥١] ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١] ﴿ أَلَيْسَ الْأَصْنَعُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] ﴿ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيْتَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ [الأعراف: ٩٥] ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: ٥٨] ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿ وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبا: ٥٤] ﴿ لِكُلِّ نَبَلٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام: ٦٧] ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكْلِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٤] ﴿ فَهَسَى أَنْ تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَبَرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩] ﴿ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ [آل عمران: ١٢٠] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤] ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَاسٌ ﴾ [المائدة: ٩٩] ﴿ كَمْ مِنْ فَتْرَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [التوبة: ٩١] ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر: ١٩] ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] ﴿ وَلَا يَنْتَفِكُ عَنْ يَدَيْهِ ﴾ [فاطر: ١٤] ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣] ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢] ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ [المائدة: ١٠٠] ﴿ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَنَا خِفَتِكُمْ ﴾ [الشعراء: ٢١] ﴿ وَإِنْ كَبُرَ مِنْ الظَّالِمَةِ لَبِئْسَ بِمَعْصِيَةٍ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [ص: ٢٤] ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصف: ٢] ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٩] ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سَأؤُكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١] ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [يس: ٤٦] ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨] ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَفْنَا مَا بِيَهُمْ مِنْ شَرِّ لَلْجَوِّ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٥] ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢] ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَثَرِ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣] ﴿ بَلِّغْتَ بِنْتِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرْيُنَ ﴾ [الزخرف: ٣٨] ﴿ فَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٦] ﴿ لَا يَجْلِبِهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢] ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٠] ﴿ وَمَا رَيْكَ يَفْعَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٣] ﴿ وَأَهْبِزَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [الزمل: ١٠] ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَلَنْ أُفْلَكَنَّ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ١٠] ﴿ فَتَنَّاكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ﴿ فَأَعْتَبُوا بِأَوَّلِي الْأَنْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفَسَّوْا لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الرواقع: ٧٦] ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾ [الملك: ٣] ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ جَمِينٍ ﴾ [ص: ٨٨] ﴿ وَكَانَ يَتْلُو ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] ﴿ لِيُثِلَّ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١] ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ﴿ أَفَيْحَرُ هَٰذَا أَمْ أَنْتَ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور: ١٥] .

(١) المولدين: الذين جاءوا بعد عصر الرواية عندما اختلط العرب بالعجم .

ومن الأمثال من الحديث النبوي: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »^(١) « نية المرء خير من عمله »^(٢) « آفة العلم النسيان »^(٣) « من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »^(٤) « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه »^(٥) « أَنْزَلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ »^(٦) « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى »^(٧) « من مات غريباً مات شهيداً »^(٨) « مُطْلُ الْغَنَى ظَلَمٌ »^(٩) « يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ »^(١٠) « الْجَارُ قَبْلَ الدَّارِ » ، والرفيق قبل الطريق^(١١) « مَنْ غَشَّائًا فَلَيْسَ مِنَّا »^(١٢) « سيد القوم خادمهم »^(١٣) « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ »^(١٤) « تَخَيَّرُوا لِنُطْفِقَكُمْ »^(١٥) « ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ »^(١٦) « حدث عن البحر ولا حرج »^(١٧) « الْمَجَالِسُ بِالْأَمَانَاتِ »^(١٨) « كُلُّ مُنْسَرٍّ لِمَا خُلِقَ لَهُ »^(١٩) « اطلبوا الخير من حسان الوجوه »^(٢٠) « إِيَّاكَ وَمَا يَعْتَدِرُ مِنْهُ »^(٢١) « الْوَحْدَةُ خَيْرٌ مِنَ الْجَلِيسِ السَّوِّءِ »^(٢٢) « اسْتَعِينُوا عَلَى الْحَوَائِجِ بِالْكَتْمَانِ »^(٢٣) « الندم توبة »^(٢٤) « لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ طَعَانًا وَلَا لَعَانًا »^(٢٥) « دَغْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ »^(٢٦) « من كثر سواد قوم فهو

- (١) حديث: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ .. إلخ » مسلم [٤٨/٦] وقال في كشف الخفاء. رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب.
- (٢) حديث: « نية المرء خير من عمله » أخرجه البيهقي في الشعب، وهو ضعيف كما قال السيوطي في الدرر المنتشرة.
- (٣) حديث: « آفة العلم النسيان » أورده صاحب كشف الخفاء، في مقدمة كتابه، ونقل عن صاحب التمييز قوله: أورده جمع من الحفاظ عن علي مرفوعاً بلفظ « آفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان » وسند ضعيف، لكنه صحيح المعنى.
- (٤) حديث: « من حسن إسلام المرء .. إلخ » قال النووي في الأذكار « باب حفظ اللسان » ص [١٤٧]، وهو حسن انظر الترمذي [٢٦٠/٣]، وابن ماجه [١٣١٥/٢]، والموطأ [٩٠٢/٢]، وصحيح الجامع الصغير [٥/ برقم ٥٧٨٧].
- (٥) حديث: « إذا أتاكم كريم قوم .. إلخ » قال السيوطي في الدرر المنتشرة. أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر واليزار من حديث جرير وأبي هريرة. وللحديث طرق كثيرة، ولكنها ضعيفة. وقال السخاوي: وبهذه الطرق يقوى الحديث.
- (٦) حديث: « أنزلوا الناس .. إلخ » قال العجلوني: رواه مسلم وأبو داود عن عائشة، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق عن معاذ.
- (٧) حديث: « اليد العليا .. إلخ » قال العجلوني: رواه أحمد والنسائي عن ابن عمر.
- (٨) حديث: « من مات غريباً .. إلخ » ضعيف: أخرجه البيهقي في «الشعب» [٩٨٩٥]، وفيه إبراهيم بن محمد، ضعيف، وابن جريج مدلس وقد عنعنه.
- (٩) حديث: « مطل الغنى .. إلخ » قال العجلوني متفق عليه عن أبي هريرة.
- (١٠) « يد الله مع الجماعة .. إلخ » أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» [٣٨٣/٧]، وابن أبي عاصم في السنة [٣٩/١]، [٤٠]، والحاكم [١١٥/١]، والطبراني في «الكبير» [١٤٤/١٧]، [١٤٥].
- (١١) « حديث الجار قبل الدار .. إلخ » ذكره السيوطي بنحوه في الدرر المنتشرة بلفظ « جار الدار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، والزاد قبل الرحيل » وقال: أخرجه الخطيب في الجامع من حديث علي ورافع بن خديج بسند ضعيف، وأورده السخاوي بلفظ « التمسوا الرفيق قبل الطريق والجار قبل الدار ».
- (١٢) حديث: « من غشنا فليس منا » أخرجه مسلم بلفظ « من غش فليس مني » [٦٩/١] من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ « مر على صبرة طعام .. إلخ ».
- (١٣) حديث « سيد القوم خادمهم » ذكره العجلوني برقم [١٥١٥]، وقال: في سنده ضعف وانقطاع. على أنه قد يقال: إنه حسن لغيره لتعدد طرقه.
- (١٤) حديث « الحياء شعبة .. إلخ » أخرجه الشيخان عن ابن عمر، بلفظ « الحياء من الإيمان » وأخرجه الترمذي أيضاً ومسلم والحاكم في المستدرک والبيهقي في شعب الإيمان.
- (١٥) حديث « تخيروا لنطفكم .. إلخ » قال العجلوني: رواه ابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.
- (١٦) حديث: « ابدأ بنفسك .. إلخ » ذكره العجلوني تحت رقم [٣١١] « ابدأ بمن تعول » رواه الطبراني عن حكيم بن حزام، ورواه مسلم [٧٨-٧٩/٣] بلفظ « ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك .. ».
- (١٧) حديث « حدث عن البحر .. إلخ » ذكره صاحب كشف الخفاء برقم [١١١٧] وقال: قال النجم: مثل وليس بحديث.
- (١٨) حديث « المجالس بالأمانات » أورده السيوطي في الدرر المنتشرة بلفظ « المجالس بالأمانة » وقال: أخرجه أبو داود من حديث جابر بن عبد الله.
- (١٩) حديث: « .. كل ميسر لما خلق له .. » أخرجه مسلم [٢٠٤١/٤].
- (٢٠) حديث « اطلبوا الخير من حسان الوجوه » ذكره السيوطي في الدرر المنتشرة وقال: أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس، والبيهقي من حديث عائشة.
- (٢١) حديث « إياك وما يعتذر منه » قال السيوطي في الدرر المنتشرة: أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً، وابن عساكر في تاريخه.
- (٢٢) حديث « الوحدة خير .. إلخ » قال السيوطي: أخرجه الحاكم من حديث أبي ذر.
- (٢٣) حديث « استعينوا على قضاء حوائجكم .. إلخ » أورده السيوطي في الدرر المنتشرة بلفظ « استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود » أخرجه البيهقي في الشعب، والطبراني في الأوسط، ولا بأس به.
- (٢٤) حديث « الندم توبة » في الدرر المنتشرة برقم [٤٢٧]. أخرجه أحمد وابن ماجه، وأورده السيوطي في الجامع الصغير وصححه.
- (٢٥) حديث « لا يكون المؤمن .. إلخ ». الأدب المفرد للبخاري بلفظ « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي ».
- (٢٦) حديث « دغ ما يريك .. إلخ » قال السيوطي في الدرر المنتشرة أخرجه الترمذي والنسائي. وقال: حسن صحيح.

منهم»^(١) «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»^(٢) (انتظار الفرج عبادة)^(٣) «كاد الفقر أن يكون كفرا»^(٤) «نعم صومعة الرجل بيته»^(٥) «الأعمال بخواتيمها»^(٦).

الفصل الثاني: في أمثال العرب

إن من البيان لسحرا^(٧). إن الجواد قد يعثر * إن البلاء موكّل بالمنطق * إن أخا الهيجاء^(٨) من يسعى معك ، ومن يضّر لينفعك * أنف في السماء واست^(٩) في الماء ، إن الذليل الذي ليست له عضد * أي الرجال المهذب ؟ إنما هو كبرق خلّب^(١٠) إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم * إياك أعنى فاسمعي يا جارة ، إن لم يكن وفاق ففراق . إنك لا تجني من الشوك العنب * إذا حان القضاء ضاق القضاء * إن المناكح خيرها الأ Bakar * إذا كنت مناطحا فناطق بذوات القرون * أوى إلى ركن بلا قواعد ، إياك أن تضرب بلسانك عنقك ، أكل وحمد خير من أكل وذم * آفة المروءة خلف الوعد * إذا قلت له زن طاطأ رأسه وحزن * إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقت عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقت عيناه * ترك الذنب أيسر من طلب التوبة ، اتق شر من تحسن إليه * الناس إخوان وشتي في الشيم^(١١) * بلغ السيل الزبى^(١٢) * أجع كلبك يتبعك * حافظ على الصديق ولو في الحريق * اشتدى أزمة تنفرجى ، أتبع السيئة الحسنة تمحها^(١٣) * الخيل أعرف بفُرسانها .

رمتي بطرفها وانسلت ، رُب رمية من غير رام * الرباح مع السماح * رُب أكلة تمنع أكالات * استراح من لا عقل له * رُب أخ لم تلده أمك * رُب طمع أدى إلى عطب * ربما كان السكوت جوابا * رُب ملوم لا ذنب له * رُب عين أنم من لسان * رحم الله من هدانى إلى عيوبى * رُكوب الخنافس ولا المشى على الطنافس^(١٤) ، سبق السيف العدل^(١٥) * رُوج من عود خير من قعود * سبك من بلغك * السب سحابة صيف عن قليل تفسح * شر أيام الديك يوم تُفسل رجلاه * طاعة النساء ندامة * اطلب تطفر * طرف الفتى يُخبر عن لسانه * ظاهر العتاب خير من باطن الحقد * عند الصباح يحمد القوم السرى^(١٦) * الظلم مرتعة وخيم * عند النطاح يغلب الكبش الأجم^(١٧).

العبد يُقرع بالعصا والحُر تكفيه الملامه

اعقل وتوكل * العتاب قبل العقاب * عند الرّهان تُعرف السوابق * عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان * عند النازلة تُعرف أخاك * فى القمر ضياء ، والشمس أضوأ منه * القول ما قالت حذام * لقد أسمعت لو ناديت حيا * أقلل طعامك يُحمد منامك كل فتاة بأبيها مُعجبة * كل كلب ببابه نباح * كاد العروس أن يكون ملكا * كثرة العتاب توجب البغضاء * أكثر

(١) «من كثر سواد قوم... إلخ» عزاه المتقي في كثر العمال [٢٤٧٣٥] عن ابن مسعود، وانظر: «مسند الفردوس» [٥١٩/٣]. ونصب الراية للزبيلى [٣٤٦/٤].

(٢) حديث: «انصر أخاك... إلخ» قال السيوطي في الدرر المنتشرة: أخرجه البخاري عن أنس.

(٣) حديث: «انتظار الفرج... إلخ» قال السيوطي في الدرر المنتشرة: أخرجه الخليلي في الإرشاد عن أنس وهو عند الترمذي من حديث ابن مسعود في أثناء حديث بسند صحيح.

(٤) حديث: «كاد الفقر... إلخ» قال السيوطي: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس، وتكملته: «وكاد الحسد أن يغلب القدر».

(٥) حديث: «نعم صومعة الرجل... إلخ» قال صاحب كشف الخفاء: رواه العسكري عن أبي الدرداء رفعه، والبيهقي موقفاً، وله شواهد كثيرة.

(٦) حديث: «الأعمال بخواتيمها» أخرجه البخاري [١٠٥-١٠٦] بلفظ «إنما الأعمال بالخواتيم».

(٧) «إن من البيان لسحرا» قال العجلوني: رواه أحمد وأبو داود عن ابن عباس بلفظ «إن من البيان سحرا» وهو عند مالك وأحمد والبخاري وأبي داود والترمذي عن ابن عمر بلفظ «إن من البيان لسحرا».

(٨) الهيجاء: الحرب.

(٩) الخلب: السحاب يومض برقه حتر يُرجى مطره.

(١٠) الزبى: جمع زبية، وهي الراية لا يعلوها الماء، يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد.

(١١) هذا المثل بعض حديث رواه الحاكم وقال: على شرطهما «اتق الله حيثما كنت»، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن» كما ذكر صاحب كشف الخفاء [٨٣/١].

(١٢) الطنافس: جمع طنفسة، وهي البساط.

(١٣) عدله: أي لأمه، وهذا المثل يضرب لما قد فات ولا يُستردك، فهو عاذل.

(١٤) الأجم: الذي هو بغير قرون.

(١٥) السرى: السير ليلاً.

مصارع الرجال تحت بروق المطامع * الكلام أنثى والجواب ذكر * كل إناء يرشح بما فيه * كما تزرع تحصد كل امرئ في بيته صبي * كلب جوال خير من أسد رابض * لقد ذل من بالث عليه الثعالب * ليس الخبر كالعيان لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة * لكل قادم دهشة * لعل لها عذراً وأنت تلوم * لكل ساقطة لاقطة * لكل مقام مقال * لك لسان من رطب ، ويدان من خشب للباطل جولة ثم يضمحل ليست النائحة الشكلى مثل المستأجرة * لكل غيد طعام لكل دهر دولة ورجال * لا عطر بعد عروس * لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين * لا يضرب السحاب نباح الكلاب * لا تقتني من كلب سوء جزوا * مقتل الرجل بين فكيه ماحك جلدك مثل ظفرك من عتب على الدهر طال عتبه * معاتبة الإخوان خير من فقههم * النفس مولعة بحب العاجل * هذه بتلك والبادى أظلم * يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة * يكسو الناس واسته عارية^(١) يدك منك وإن كانت شلاء .

الفصل الثالث : فى أمثال العامة والمولدين

التسلط على الممالك دناءة * اجلس حيث يؤخذ بيدك وثبر ، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجر * أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية * الحاجة تفتق الحيلة * الحاوى لا ينجو من الحيات * الحبة تدور وإلى الرحى ترجع * المؤذى ردى ، كلما جلوته صدى * السلامة إحدى الغنيمتين * الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ * الطير بالطير يصاد * أطلع القرد فى الكنيف فقال هذه المرأة لهذا الوجه الظريف * العادة طبيعة خامسة * الغائب حجه معه * الخضوع عند الحاجة * رجولية الناس أتباع لمن غلب * النكاح يُفسد الحب * النصيح بين الملأ تقريع * الحر حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ملك * الدر الثقل إذا تخفف صار طاعونا * أضيع من حلى على زنجية * العمل للزنيخ والاسم^(٢) للثورة * البغل الهرم لا يفزعه صوت الجمل * بدن وافر وقلب كافر * تزاوروا ولا تجاوروا * تعاشروا كالأخوان وتعاملوا كالأجانب * ثمره العجلة الندامة * جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة ، حيثما سقط لقط * خذ اللص قبل أن يأخذك * خذ القليل من اللثيم وذمه * ذل من لا سفيه له * ريق العدو سُم قاتل * رب ساع كفاعد * زكاة البدن العلل * زلق الحمام * وكان من سهوة المكاري^(٣) * زلة الرجل عظم يجبر ، وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر * سلطان غشوم خير من فتنة تدوم * سواء قوله وبوله سفير * الشؤ يفسد ذات البين * شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه * صديق الوالد عم الولد * ضرب الطبل تحت الكسا * طاعة الولا بقاء العز * طفلى ويقترح * عناية القاضى خير من شاهدة عدل * دلت على أهلها براقش (وهو اسم كلبة نبحت فدلّت على الجيش فقتلوهم) غش القلوب يظهر فى فلتات الألسن ، وصفحات الوجوه غنى المرء * فى العربة وطن * فر من الموت وفى الموت وقع فم يسبح وقلب يذبح * لأنه كالكةبة يزار ولا يزور * قيل للزمار تهيا للزمر قال : المزمار فى كفى ، والريح فى فمى * كل قليلا تعيش كثيرا * كلامه ريح فى قفص كالإبرة تكسو الناس وهى عريانة * كلمة حكمة من جوف خرب كاد المريب يقول : خذونى كنت سنداناً فصرت مطرقة * كل ما فاتك فى الدنيا فهو غنيمة * كلما طار قصوا جناحه * لو كان المزاح فحلا لم ينتج إلا شر * لسان الجاهل مفتاح حتفه * لكل جديد لذة * لو ضاعت صفقة ما وجدت إلا فى قفاه * لو كان فى اليوم خير ما فات الصياد * من اعتمد على شرف آبائه فقد عقمهم * من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً وبالله التوفيق .

الفصل الرابع : فى الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

* حرف الألف :

- | | |
|--------------------------------|------------------------|
| ١ - ألا كل شئ ما خلا الله باطل | وكل نعيم لا محالة زائل |
| ٢ - إذا جاء موسى وألقى العصا | فقد بطل السحر والساحر |
| ٣ - إذا لم يكن فيك ظل ولا خبا | فأبعدك الله من شجرات |

(١) الاست : الدبر . (٢) الزنيخ : عنصر مركبته سامة أما الثورة فهي أخلاط تستخدم فى إزالة الشعر .

(٣) المكاري : من يؤجر الحمير للركوب والحمل ، ويتولى رعايتها [الحمار] .

٤- إذا كنت في فكري وقلبي ومقلتي
 ٥- إذا أراد كريمٌ منعَ صاحبه
 ٦- إذا ما أتيت الأمر من غير بابيه
 ٧- إذا أنت لم تُنصف أخاك وجدته
 ٨- إذا لم يكن عندي نوال هجرتني
 ٩- الناس في طلب المعاش وإنما
 ١٠- أيها السائل عما قد مضى
 ١١- إنما أنفسنا عارضة
 ١٢- إن العدو وإن أبدى مُسالمة
 ١٣- أتمنى على الزمان مُحالاً
 ١٤- إذا ملك لم يكن ذا هبة
 ١٥- إذا ثارت خطوب الدهر يوماً
 ١٦- إذا كنت لا ترضى بما قد ترى
 ١٧- إن الأمور إذا بدت لِزوالها
 ١٨- إذا ضاع شيء بين أم وبناتها
 ١٩- إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً
 ٢٠- إذا ما أراد الله إهلاك نملة
 ٢١- إذا أنت لم تُغرض عن الجهل والخنى
 ٢٢- إذا لم تستطع أمراً فدعه
 ٢٣- إذا صوت العصفور طار فواده
 ٢٤- أهن عامراً تكرم عليه فإنما
 ٢٥- إذا محاسنى اللاتى أتيت بها
 ٢٦- إخوان صدق ما رأوك بغبطة
 ٢٧- إذا اعتاد الفتى خوض المنايا
 ٢٨- ألم تر أن المرأة تدوى يمينه
 ٢٩- إذا أنت لم تُعلم طبيبك كل ما
 ٣٠- إذا أنت حملت الخئون أمانة
 ٣١- أكل خليل هكذا غير منصف
 ٣٢- إذا أنت عبت المرأة ثم أتيت
 ٣٣- أسأت إذ أحسنت ظنى بكم
 ٣٤- الحادثات إذا ألم خطوبها
 ٣٥- الخير لا يأتىك مُتصلاً
 ٣٦- العلم ينهض بالخسيس إلى العلا
 ٣٧- الكفر بالنعمة يدعو إلى
 ٣٨- أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم
 ٣٩- أقلب طرقي لا أرى غير صاحب
 ٤٠- إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن

فأى مكان من مكانك ألطف ؟ !
 فليس يخفى عليه كيف ينفعه ؟
 ضللت وإن تقصد إلى الباب تهتدي
 على طرف الهجران إن كان يغفل
 وإن كان لى مال فأنت صديقي
 بالجدة يزرق منهم من يزرق
 هل جديد مثل ملبوس خلق ؟ !
 والعواري حكمها أن تُسترد
 إذا رأى منك يوماً غرة وثبتا
 أن ترى مُقلتاي طلعة حر
 فدعه فدولته ذاهبه
 عليك فكن لها ثبت الجنان
 فدونك الحبل به فاختنق
 فعلمة الإديار فيها تظهر
 فإحدهما لاشك ذلك آخذه
 فلا تلم الصبيان فيه على الرقص
 سمت بجناحيها إلى الجوّ تضعد
 أصبت حليماً أو أصابك جاهل
 وجاوزه إلى ما تستطيع
 ولكن حديد الثاب عند الشرائد
 أخو عامر من مسه بهوان
 عذت ذنوباً فقل لى كيف أعذر ؟
 فإذا افتقرت فقد هوى بك من هوى
 فأيسر ما يمر به الوحول
 فيقطعها عمداً ليسلم سائرته ؟ !
 يسوءك أبعدت الدواء عن السقم
 فإنك قد أسندتها شر مُسند
 وكل زمان بالكرام بخيل ؟ !
 فأنت ومن تُزرى عليه سواء
 والحزم سوء الظن بالناس !
 فلها مساو مرة ومحاسن
 والشر يسبق سيله مطره
 والجهل يقعد بالفتى المنسوب
 زوالها والشكر أبقى لها
 ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا !
 يميل مع الثغماء حيث تميل
 قضاء ولكن ذاك غرم علم غرم

٤- إذا كنت في فكري وقلبي ومقلتي
 ٥- إذا أراد كريمٌ منعَ صاحبه
 ٦- إذا ما أتيت الأمر من غير بابيه
 ٧- إذا أنت لم تُنصف أخاك وجدته
 ٨- إذا لم يكن عندي نوال هجرتني
 ٩- الناس في طلب المعاش وإنما
 ١٠- أيها السائل عما قد مضى
 ١١- إنما أنفسنا عارضة
 ١٢- إن العدو وإن أبدى مُسالمة
 ١٣- أتمنى على الزمان مُحالاً
 ١٤- إذا ملك لم يكن ذا هبة
 ١٥- إذا ثارت خطوب الدهر يوماً
 ١٦- إذا كنت لا ترضى بما قد ترى
 ١٧- إن الأمور إذا بدت لِزوالها
 ١٨- إذا ضاع شيء بين أم وبناتها
 ١٩- إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً
 ٢٠- إذا ما أراد الله إهلاك نملة
 ٢١- إذا أنت لم تُغرض عن الجهل والخنى
 ٢٢- إذا لم تستطع أمراً فدعه
 ٢٣- إذا صوت العصفور طار فواده
 ٢٤- أهن عامراً تكرم عليه فإنما
 ٢٥- إذا محاسنى اللاتى أتيت بها
 ٢٦- إخوان صدق ما رأوك بغبطة
 ٢٧- إذا اعتاد الفتى خوض المنايا
 ٢٨- ألم تر أن المرأة تدوى يمينه
 ٢٩- إذا أنت لم تُعلم طبيبك كل ما
 ٣٠- إذا أنت حملت الخئون أمانة
 ٣١- أكل خليل هكذا غير منصف
 ٣٢- إذا أنت عبت المرأة ثم أتيت
 ٣٣- أسأت إذ أحسنت ظنى بكم
 ٣٤- الحادثات إذا ألم خطوبها
 ٣٥- الخير لا يأتىك مُتصلاً
 ٣٦- العلم ينهض بالخسيس إلى العلا
 ٣٧- الكفر بالنعمة يدعو إلى
 ٣٨- أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم
 ٣٩- أقلب طرقي لا أرى غير صاحب
 ٤٠- إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن

* حرف الباء الموحدة:

- ١- بِنَا فَوْقَ مَا نَشْكُو فَصَبْرًا لَعَلَّنَا
- ٢- بِالْمِلْحِ نُضْلِحُ مَا نَخْشَى تَغْيِيرَهُ
- ٣- بَنَى عَمْنَا إِنْ الْعَدَاوَةُ شَأْنُهَا

* حرف التاء المثناة الفوقية:

- ١- تَحْنُ إِلَيْهِ أَفْنَدَةُ الْبِرَائِيَا
- ٢- تَلُومُ عَلَى الْقَطِيعَةِ مَنْ أَتَاهَا
- ٣- تُلْجَى الضَّرُورَاتُ فِي الْأُمُورِ إِلَى
- ٤- تَفَرَّقَتِ الظُّبَاءُ عَلَى خِرَاشٍ
- ٥- تَجْتَلَى الْأَذُنُ مِنْهُ أَحْسَنُ مِمَّا

* حرف الجيم:

- ١- جَنَ لَهُ الدَّهْرُ فَنَالَ الْغِنَى
- ٢- جَزَيْتُ أَهْلِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكْتُ

* حرف الحاء المهملة:

- ١- حَيَّاكَ مَنْ لَمْ تَكُنْ تَرْجُو تَحِيَّتَهُ

* حرف الخاء المعجمة:

- ١- خَفَضَ الْجَاشُ وَأَصْبَرَ زُوَيْدًا
- ٢- خَلِيلِي إِنْ الْحُبِّ صَغَبَ مِرَاسُهُ
- ٣- خَاطِرُ بِنَفْسِكَ كَيْ تَصِيبَ غَنِيمَةً
- ٤- خِيَالِكَ فِي عَيْنِي وَذَكَرِكَ فِي فَمِي
- ٥- خُنْ مِنْ أَمْنَتٍ وَلَا تَزْكَنْ إِلَى أَحَدٍ

* حرف الدال المهملة:

- ١- دَاوُدَ مُحَمَّدٌ وَأَنْتَ مَذْمُومٌ
- ٢- دَعَيْتَنِي أَنْهَبَ الْأَمْوَالَ حَتَّى

* حرف الذال المعجمة:

- ١- ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ

* حرف الراء:

- ١- رَبُّ مَهْزُولٍ سَمِينٌ عَرَضُهُ
- ٢- رُدُّوا عَلَيَّ صَحَائِفَا سَوْذَتْهَا
- ٣- رَضِيْتُ وَلَا أَرْضَى إِذَا كَانَ مُسْخَطِي
- ٤- رَبُّ يَوْمٍ بَكَيْتَ مِنْهُ فَلَمَّا

- وَسَمِينِ الْجِسْمِ مَهْزُولُ الْحَسَبِ
- فِيكُمْ بِلَا حَقٍّ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ
- مِنَ الْأَمْرِ مَا فِيهِ رِضَا صَاحِبِ الْأَمْرِ
- صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بِكَيْتٍ عَلَيْهِ !

حرف الزاي:

- ١- زَنِيمٌ لَيْسَ يَغْرِفُ مَنْ أَبُوهُ
بَغَى الْأُمُّ ذُو حَسْبٍ لئِيمٍ

حرف السين المهملة:

- ١- سُورَى أَنْ تَبْقَى بِخَيْرٍ وَنِعْمَةٌ
٢- سَوْءٌ حَظِي أَنَا لَنِي مِنْكَ هَجْرًا
٣- سَبَكْنَاهُ وَنَحْسَبُهُ لَجِيْنًا
٤- سَتَذْكُرْنِي إِذَا جَرَبْتَ غَيْرِي
- وَأَنى مِنَ الدُّنْيَا بِذَلِكَ قَانِعٌ
فَعَلَى الْحِظِّ لَا عَلَيْكَ الْعِتَابُ
فَأَبْدَى الْكَبِيرُ عَنْ خُبْتِ الْحَدِيدِ
وَتَعْلَمُ أَنَّنِي نَعَمُ الصَّدِيقُ !

حرف الشين المعجمة:

- ١- شَفِيعِي إِلَيْكَ اللَّهُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
٢- شَكَرْتُكَ قَبْلَ الْخَيْرِ إِنْ كُنْتَ وَائِقًا
- وَلَيْسَ إِلَى رَدِّ الشَّفِيعِ سَبِيلُ
بَأْنِي بَعْدَ الْخَيْرِ لَا شَكَّ شَاكِرُ

حرف الصاد المهملة:

- ١- صَخَخَ لَنَا وَالِدَهُ أَوْلَا
- وَأَنْتَ فِي جِلٍّ مِنَ الْوَالِدَةِ

حرف الضاد المعجمة:

- ١- ضَاقَتْ وَلَوْ لَمْ تَضُقْ لَمَا انْفَرَجَتْ
- وَالْعُسْرُ مِفْتَاحُ كُلِّ مَيْسُورٍ

حرف الطاء المهملة:

- ١- طَوِيلُ عَمْرِ الْمَعَالِي وَالثَّدْيِ أَبَدًا
٢- طُوبَى لِأَعْيُنِ قَوْمٍ أَنْتَ بَيْنَهُمْ
- قَصِيرُ عَمْرِ الْأَعَادِي وَالْمَوَاعِيدِ
الْقَوْمُ فِي نَزْهَةٍ مِنْ وَجْهِكَ الْحَسَنِ

حرف الظاء المشالة:

- ١- ظَهَرَتْ خِيَانَاتُ الثَّقَاتِ وَغَيْرِهِمْ
٢- ظَلَمْتَ امْرَأً كَلَفْتَهُ غَيْرَ خُلُقِهِ
- حَتَّى اتَّهَمْنَا رُؤْيَا الْأَبْصَارِ
وَهَلْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ إِلَّا غَرَائِزًا ؟ !

حرف العين المهملة:

- ١- عَلِمَ اللَّهُ كَيْفَ أَنْتَ فَأَعْطَا
٢- عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَسْعَى لِمَا فِيهِ نَفْعُهُ
٣- عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ
٤- عَتَبْتُ عَلَى عَمْرٍو فَلَمَّا تَرَكْتُهُ
- كَ الْمَحَلِّ الْجَلِيلِ مِنْ سُلْطَانِهِ
وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَسَاعِدَهُ الدَّهْرُ
لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرُ
وَجَرَبْتَ أَقْوَامًا بِكَيْثٍ عَلَى عَمْرٍو

حرف الغين المعجمة:

- ١- غَنَى بِلَا دِينَ عَنِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
٢- غَلَامٌ أَتَاهُ اللَّوْمُ مِنْ شَطْرِ نَفْسِهِ
- وَأِنْ الْغَنَى إِلَّا عَنِ الشَّيْءِ لَا بِهِ
وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ شَطْرِ أُمٍّ وَلَا أَبٍ

حرف الفاء:

- ١- فَلَمْ أَرَ كَالْأَيَّامِ لِلْمَرْءِ وَاعْظَا
- وَلَا كَصُرُوفِ الدَّهْرِ لِلْمَرْءِ هَادِيَا

عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً
إذا الغيث لم يُمطر بلادك ماطره
ولكنهم في النائبات قليل
فإن المدى بين القلوب قريب
ولكن حمد المرء غير مخلد
فإن المسك بعض دم الغزال

٢- فنفسك أكرمها فإنك إن تهن
٣- فصبر جميل إن في اليأس راحة
٤- فما أكثر الأصحاب حين تعدهم
٥- فإن كانت الأجسام منا تباعدت
٦- فلو كان حمداً يخلد المرء لم يمت
٧- فإن تفق الأنام وأنت منهم

حرف القاف:

ويأكل المال غير من جمعة
والشمس تنحط في المجرى وترتفع
وقد يكون مع المستعجل الزل
خلق وجيب قميصه مرقوع

١- قد يجمع المال غير أكله
٢- قد زال ملك سليمان فعاوده
٣- قد يدرك المتأني نجح حاجته
٤- قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه

حرف الكاف:

فإن على الخلاق رزقكم غدا
تروح له بالوعظاظ وتفتدي
فهم كزيتي فأين الفرار ؟
عدم العقول وخفة الأحلام
فتهون غير شماتة الأعداء
فأنت إلى كل الأنام حبيب
وإن ينل شبعاً ينبخ من الأشر

١- كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا
٢- كفى زاجراً للمرء أيام دهره
٣- كنت من كزيتي أفر إليهم
٤- كانوا بني أم ففرق شملهم
٥- كل المضائب قد تمر على الفتى
٦- كأنك من كل النفوس مركب
٧- كالكلب إن جاع لم يمنعك بضبة

حرف اللام:

إذا هو لم يجعل له الله واقياً
ولكن أخلاق الرجال تضيق
من فاته اليوم سهم لم يفته غدا
سبق الغزال ولم يفته الأرنب
فكيف يخمله خلق من الطين
فما اسطعت من مغروفها فتزود
وأعطفهم في النائبات أقارب

١- لعمرك ما يدرى الفتى كيف يتقى
٢- لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها
٣- للموت فينا سهام وهي صائبة
٤- لو أن خفة عقله في رجله
٥- لو كان ما بي في صخر لأتحله
٦- لعمرك ما الأيام إلا معارة
٧- لكل امرئ حالان بؤس ونعمة

حرف الميم:

والناس من عابهم يعاب
إن مات لم نشهد الجنازة
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم ؟
فليس يرفعه شيء ولا يضع
ويشقى به حتى الممات أقارب
فإنه في المسجد الجامع

١- من يحمّد الناس يحمّدوه
٢- من لم يعدنا إذا مرضنا
٣- متى يبلغ البنيان يوماً تمامه
٤- من كان فوق مجل الشمس رتبته
٥- من الناس من يغشى الأبعاد نفعه
٦- ما كان في المخدع من أمركم

ية قائما حتى قعد

٧- ما قام عمرو في الولا

حرف النون:

وليس إلى رة الشباب سبيل
نعاف ما لا بد من شربه
رأت عيناه ما صنعت يده

١- تسود أعلاها وتأبى أصولها
٢- نحن بنو الموتى فما بالناس
٣- ندمت ندامة الكسعي لما

حرف الهاء:

بما تحب لكم منها ونزاه
أم هل إلى رة ما قد فات من طلب
أليس مصير ذاك إلى الزوال ؟ !
ولم تأخذ الأيام منه نصيبا
حتى على الموت لا أخلو من الحسد

١- هناك الله بالدنيا ومتعمكم
٢- هل بالحوادث والأيام من عجب
٣- هب الدنيا تقاد إليك عفوا
٤- هنيئا لمن لا ذاق للذهر لوعة
٥- هم يخسدونى على موتى فوا حزنى

حرف الواو:

فخلو وأما وجهه فجميل
وهزيت منه فنحوه تتوجه
ويبيت بوابا بباب الأحمق
فما أبدا تصادفنى حلما
على نائبات الدهر حين تنوب
فهى الشهادة لى بأنى كامل
إذا ما عذ من سقط المتاع
يوافى تمام الشهر ثم يغيب
وتعدو على أسد الرجال الثعالب
دخرا يكون كصالح الأعمال
يمر به على جيف الكلاب
من الزاد يطرح نفسه أى مطرح
بخل ولكن سوء حظ الطالب
وهذا جزا من بات ضيف الضفادع
من العيش ما يصفو وما يتكدر
رعايا ولكن ما لهن دوام
وانك مجزئ بما كنت ساعيا
وان كنت صفر الكف والبطن طاويا
يخلده طول الثنايا فيخلد
دزعا وعند الله منها المخرج
فصار رجائى أن أعود مسلما
أنى لرب الدهر لا أتضعع
يواسيك أو يسليك أو يشوجع

١- ولم أر كالمغروف أما مذاقه
٢- وإذا خشيت من الأمور مقدرا
٣- والرزق يخطئ باب عاقل قومه
٤- ولا يغرزك طول الجلم منى
٥- ولا خير فيمن لا يوطن نفسه
٦- وإذا أتتك مذمتى من ناقص
٧- وما للمرء خير فى حياة
٨- وما المرء إلا كاللهال وضوئه
٩- وقد تسلب الأيام حالات أهلها
١٠- وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجذ
١١- ومن يكن الغراب له دليلا
١٢- ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا
١٣- ولربما منع الكريم وما به
١٤- ولا بات يسقينا سوى الماء وخده
١٥- ومن عاش فى الدنيا فلا بد أن يرى
١٦- ولو دامت الدولات دامت لغيرنا
١٧- وأحسن فإن المرء لا بد ميت
١٨- ولا ترين الناس إلا تجملا
١٩- وما لامرئ طول الخلود وإنما
٢٠- ولرب نازلة يضيق بها الفتى
٢١- وكان رجائى أن أعود ممتعا
٢٢- وتجلدى للشامتين أريهم
٢٣- ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة

إذا شئت لاقيت الذي مات صاحبه
ويوم نساء ويوم نسر

٢٤- وهون حزني عن خليلي أتني
٢٥- ويوم علينا ويوم لنا

حرف الالام ألف:

وانظر إلى الإقبال والإدبار
في وجهه شاهد من الخبر
وإنما يضبر الجمار
عار عليك إذا فعلت عظيم
كلُّه شئتكم وذم
وانظر إلى أفعاله ثم احكم
إلا من العجز أو من قلة الجليل
نعمًا يكون لها الثناء تبعا
ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

١- لا تنظرن إلى الجهالة والحجى
٢- لا تسأل المرء عن خلائقه
٣- لا يضبر الحر تحت ضيم
٤- لاتنه عن خلق وتأتى مثله
٥- لا يبالى الشتم عرض
٦- لا تنظرن إلى امرئ ما أضله
٧- لا يسكن المرء في أرض يهان بها
٨- لا يقبلون الشكر ما لم ينعموا
٩- لا أسأل الناس عما في ضمائرهم

حرف الياء المثناة التحتية:

ولا ينجى من القدر الجدار
وقد تنطق العينان والفم ساكت
وينفيس إن رأى وجه اللحام
ويضحبنى فى الناس من لا أريده
وذلك دأبه أبدا ودأبى
وما صارت الغربان فى سعف النخل
وتسلم أعراض لنا وعقول
وهن به عما قليل غوائر
والمرء فى غيظ سواء حليم
وينبريك فى السر بزى القلم

١- يفر من المنية كل حى
٢- يريك الرضا والغل حشؤ جفونه
٣- يهمنهم للشعير إذا رآه
٤- يفارقنى من لا أطيع فراقه
٥- يزيد تفضلا وازيد شكرا
٦- يواسى الغراب الذئب فى كل صيده
٧- يهون علينا أن نصاب جسومنا
٨- يغر الفتى مزالىالى سليمة
٩- يغيظنى وهو على وسيله
١٠- يريك البشاشة عند اللقاء

(الفصل الخامس) : فى الأمثال السائرة بين الرجال والنساء

مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف:

إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك* إذا أبغضك جارك حول باب دارك . إذا كان صاحبك عسل لا تلحسه كله* المستعجل والبطيء عند المعديّة يلتقى ألف ذقن ولا سلام عليكم ألف ذقن ولا ذقنى إذا غاب عنك أصله كانت دلائل نسبته فعله* إذا وصلت وسلم الله بغ بما قسم الله* إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش* إذا كان البقل فول حار ، والعشاء يسار ، أيش يكون الحال ؟ الفشر والمغر والعشاء خبيزة* أكل الدقة ، والنوم فى الأزقة ، ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة* أيش أنت فى الحارة ؟ يا منخل بلا طارة* الرجم بالطوب ولا الهروب* إذا وقعت يا فصيح لا تصيح* أقرع يقول لأقرع : امش بنا نزرع فى بركة القرعان أيش ما يطلع النصف لى والربع لى والثلث لى والثلث الآخر لك ولى* العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طيب* اقعد يا حمار حتى ينبت لك الشعر* أى موضع راح الحزين يلقي جنازة* قال الشاعر :

إِنْ دَامَ هَذَا السَّيْرُ يَأْمَسُ عُدُودَ لَا جَمَلَ يَبْقَى وَلَا قَعُودَ^(١)
غيره :

إِذَا لَمْ تَكُنْ لِي وَالزَّمَانُ شَرْمُ بُرْمٍ فَلَا خَيْرَ فَيْكَ وَالزَّمَانُ تَرْلَى^(٢)
غيره :

إِذَا أَتَيْتَ كَادَتِ تَقَادُ بِشَعْرَةٍ وَإِنْ أَدْبَرْتَ كَادَتِ تَقْدُ السَّلَاسِلُ

✽ حرف الباء الموحدة:

بينما يترَوَّى البخيل قضى الكريم حاجته * بينما يسعد المعتر فرغ^(٣) عمره * بينما أصل قبره نسيت همه * بينما يعدل المعتر حاله جا الموت شاله * بينما يقطع الجريد يفعل الله ما يريد * بينما يجيء الدرياق^(٤) من العراق يكون الملسوع مات * بين حانه وبانه حلقت لحنه * بدوى مقروح لقي التمر مطروح أين يخلى ويروح * بدال لحمتك وقلقاسك هات لك شدّ على رأسك * بدال اللحمة والبادنجان هات لك قميص يا عريان * بدال لحمتك الثلاثه هات لك شدّ ياشماته * بقى للكلب سرج وغاشيه وغللمان وحاشيه * بقى لِلْخَرَا مَرَا ويحلف بالطلاق * بعد الجوع والقلة بقى لك حمار وبغلة .

✽ حرف التاء المثناة فوق:

تموت الحدادی وعينها في الصيد * تعالوا بنا نقتبح ونرجع غدا نصطلح * تدحرج الخرا لعند البعر قال له : ايش أنت ؟ قال له : بزم قردش * ترك الفضول من حزم العقول * تراب العمل ولا زعفران البطالة * تجارة الأحق على أهل بيته * تضارب الريح مع الموج جا الهم على النواتية^(٥) * تزاوروا ولا تجاوروا * تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها .

✽ حرف الثاء المثناة:

ثوب العيرة^(٦) ما يدفى * ثقیل واسمه صخر بن جبل * ثور علقوه أغمى عليه قال : حتى يطلع شيء يرشوه عليه * ثور عاجز ما يدور ساقيه * ثقیل من أولاد الزنا مَرَّ العنا^(٧) * ثوب عليه وثوب على الودت قال : أنا اليوم أحسن من كل من في البلد .

✽ حرف الجيم:

جَوْرُ^(٨) القط ولَا عَدْلُ الفار * جمل موضع جمل يبرك * جهل المقل دموعه * جمل بحبه قال : وأين المحبة ؟ * جيت اصطاد صادوني * جار له حق ، وجار ما له حق ، وجار لا صحبته عافية * جارك مرآك إن لم ينظهر وجهك نظر قفاك * جا كتاب من عند خاله قال : كل من هو في حاله ، جاكتاب من عند عمه قال كل من ملهى بهم * جاءوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قويق رجلها * جوزوها له مالها إلا له * جوزوا مشكاح لريمة ما على الاثنين قيمة .

(١) القعود: ولد الجمل وهو البكر إلى أن يصير في السادسة، والجمع أقعود.

(٢) [شُرْمُ بُرْمٍ] كناية عن اضطراب الأحوال ولعل أصلها شرمبرم. أما [ترلّی] فإيراد بها سعة العيش وكثرة الخير ويقول الدكتور أحمد عيسى في كتابه [المحكم]: «شرم» له من ماله: أعطاه قليلاً من المال لرقّة حاله، و[بُرْمٍ] اتباع لشرم. وفي السريانية: شرم بمعنى قطع. خرق وترلّی: مزعزع لا ثبات له كما يقول.

(٣) المعترّ: الفقير، والمتعرض للمعروف من غير أن يسأل.

(٤) الدرياق: هو الترياق، ويطلق على ما يمنع امتصاص السم في الأمعاء.

(٥) النواتية: الذين يديرون السفن في البحر من الملاحين.

(٦) العيرة: المستعار.

(٧) غنى غنًا: أي تعب الرجل وأصابته مشقة، وعنى الرجل: أي وقع في الأسر، والحنّا بكسر العين: أخلاط القوم من قبائل شتى.

(٨) الجور: الظلم.

* حرف الحاء المهملة:

حاجة لا تهكم وصّى عليها زوج أمك * حول حبيبي ما عؤنه وقدرته مع كانونه * حمار حنكوه بالتوت على باب الغيط يموت * حلينا القلوع وارسينا وأصبحنا على ما أمسينا * حب ووارى واكره ودارى * حدثني ونصحتني عايرتني وفرحتني * حط فليساتك في كمك واشتر أبوك وأمك * حبة قرض تخرب أرض *

* حرف الخاء المعجمة:

خبث لي وصلحت لك * خذ ذا الصبي فوق صبيانك تمام لأحزانك * خزينة في جره وملحه في صره * خبزه بلا إدام ويعزم على الجيران .

* حرف الدال المهملة:

دار الظالم خراب ولو بعد حين * درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك * دواء ما لا تشتهي النفوس تعجيل الفراق .

* حرف الذال المعجمة:

ذا درب ما يسد ريح * ذى ما هي رمانة إلا قلوب ملانة * ذالى وذال يدي عليه * ذى مايدة^(١) ما يقعد عليها طفيلي * ذا الخبز ما هو من ذا العجين ، الولد خرا من ظرفه كل من شال رجله حك أنفه * ذكروا المدن جاءت القرى تحجل^(٢) .

* حرف الراء المهملة:

راح ذاك الزمان بناسه وجا هذا الزمان بفاسه وكل من تكلم بالحق كسروا راسه * رأوا حجار راكب حيط قالوا : إلى أين يا حجار ؟ قال : مسافر قالوا : من كانت هذه المطية مطيته لا بشرق ولا يغرب * رأوا سكران يقرأ قالوا : غني تشاكل روحك * رأوا شيخا يتهجى قالوا : يختم على الصراط * رأوا وردانه على سنداس قالوا : ما لذي الفسقية إلا ذى البلطية * رأوا على قبر مكتوب يا سعادة ساكنه قالوا : أبصر من يزاحمه * ركبك وراى حطيت يدك فى الخرج * راح الجندى ، وخلقى خلقه عندى * راسين فى عمامة ما يكون * راحت على جمل وجات على قطة قال : ما لذي الشيلة إلا ذى الحطة .

رَاحَ الَّذِي كُنَّا نَعِيشُ بِفَضْلِهِ بَيْنَ الْوَرَى
وَبَقِيَ الَّذِينَ حَيَّائُهُمْ وَوَجُودُهُمْ مِثْلُ الْخَرَا

* حرف الزاى المعجمة:

زقزوق على بركة يضحك وهو ضحكة * زاوية بلا عيش بنيت ليش * زوج القصيرة يحسبها صغيرة * زوّجت بنتى أقعد فى دزاهها جاتنى وأربعة وراها .
قال الشاعر :

زَوَّجْتُ بِنْتِي تَنْسْتَر وَيَمْتَلِي بَيْتِي قُمَاشُ
جَاغَزْلُهَا فِي أَكْلِهَا وَنِيْكُهَا طَلَع بَلَّاشُ

زنبور زن على حجر مسن قال له : أيش تريد؟ قال : ألحسك ؛ قال : أنا ألحس الفولاذ * زنبور زن على فلس جحش قال له : أيش تطلب؟ قال له : عسل ؛ قال له : قصدت معدن يا دندن .

(١) مايدة : مائدة كناية عن بُخل مقدمها ، وقلة ما عليها من الطعام وشراب .

(٢) خجل : أي مشى على رجل رافعاً الأخرى ، ويقال : يحجل في مشيته : إذا تبخر .

• حرف السين المهملة:

سل المجرب ولا تنس الطيب * سموك مسخر قال : فرغ رمضان * سموك خبل قال : وطولت * سموك راجح قال : إن شاء الله تجي الحق * سبع وزر ولا استتر .
قال الشاعر :

سُيْغِنِي اللّهُ عَنْ بَقْرَاطِ دَنْ وَيَأْتِي اللّهُ بِاللَّبَنِ الحَلِيبِ
وقال آخر :

سُيْغِنِي اللّهُ عَنْ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَيَأْتِي اللّهُ بِالفَرْجِ القَرِيبِ

• حرف الشين المعجمة:

شرة ووضيع ، ويغضب سريع * شيء ما نأبه وتقطعت ثيابه * شعر يحلق وشعر ما يحلق * شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفلى * شيء ما يجي على القلب عنايته صعبة * شيرا العبد ولا تربيته * شحنت بغلة عامت زبله^(١) ركبت خنفسة زمر زنبور * قال : ماذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل .

• حرف الصاد المهملة:

صام سنة وفطر على بضلة * صبرى على الحبيب ولا فقدته * صاحب يضر عدو مبين * صباح الفؤال ولا صباح العطار * صباحك يا أعور قال : ذى خناقة بايته * صباح الخير يا جارى أنت فى دارك وأنا فى دارى .

• حرف الضاد المعجمة:

ضرب الحبيب كأكل الزبيب * ضربتين فى الراس تعمى * ضرب وبكى ، وسبق يشتكى * ضربة على كيس غيرى كأنها فى عدل حنا * ضمنوا حداية لغراب قال : الكل يطيروا * ضربوا يباع الكسيرة خرباع التوم قال : دى داهية جات على الخضرية .

• حرف الطاء المهملة:

طار الطيور بأرزاقها * طفلى ويجلس فى الصدر * طفلى ويقترح * طويل الكم خطار قليل الفرح فى الدار * طبق وجارية على صحن بسارية^(٢) * طلبوا جاكم عثمان يد من ورا يد من قدام * طعامك ما جاني ودخانك أعماني * طار طيرك وأخذته غيرك * طول ما أعيش يكفينى رعى الحشيش * طول الغيبة وجانا بالخيبة .

• حرف الظاء المعجمة:

ظهرك عندى نصف الليل .

• حرف العين المهملة:

عنقود مدلى فى الهوا من لا يصل إليه يقول حامض ولا استوى * عشق بداله لا أباله * عاشق ما يسمع بكاء صغير * عاشق ما يسمع كلام مفارق * عاشق مقل شى ما زرع أيش جا يستغل * عزومة حسبت عليك كل ويحلق عينيك * عند المخاضة يان القليط^(٣) عند الطعان يان الفارس من الجبان * عريان التينة وفى حزامه سكينه * عريان وفى كفه ميزان

(١) الزبل : المزجين وما أشبهه، ويقال : زبل الزرع، أي سنده بالزبل .

(٢) بسارية : من أسماك المياه العذبة، من فصيلة الشبايط، ومنه بمصر عدة أنواع، أشهرها النوع النيلى، ومن أسمائه ليس وصير، وحجمه صغير جدًا . الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٣٧٠ .

(٣) القليط : يسموع ورم الأنثيين العظيم : [قليطة] ويقال لصاحبها : القليط : المتفخ الخصية . والكلمة يونانية الأصل بمعنى ورم .

✽ حرف الغين المعجمة:

غابت السباع ولُغبت الضباع . غربة وكربة ما يحمل الحال . غطاس وقلقاس نحسين في قدره * غالى السوق ولا رخيص البيت .

✽ حرف الفاء:

فرجة بلا كسر تعمي البصر * فقير ونفير وكلامه كثير ويقول : هاتوا عشا من يخنى * فوق الشراطه مَلَخ أودانه * فارس خرا ويسوق في الوحل * فارس خرا واسمه عتتر * فارس خرا ويسابق الخيل فرد ضربة في الراس تكفى * فصدوا فرد ضرط قالوا : به دم زايد * فرغت الرعاية يا جانم .

✽ حرف القاف:

قالوا للأعمى : زوّق عصاتك قال : هو أنا محب فيها * قالوا للحمار : اجتر قال : مضغ المحال ما ينطلى * قالوا للقرد : شب . قال : أيادي ملاح وتمسك الماصول * قالوا للجمل : زمر ؛ قال : لا شفف ملموثة ولا أيادي مفرودة * قالوا : للدبة طرّزي ؛ قالت : دى خضت أيادي * قالوا للكلاب احرنوا قالوا ما جرت بهذا عادة * قالوا للغراب : مالك تسرق الصابون ؟ قال : الأذى طَبعى * قالوا لبقر الديوان : إذا متم يكفونكم في حرير ، قالوا : اشتهينا نروح بجلودنا * قالوا : للغزالة : ارحلى حرّكت ذنبها * قالوا للعرب : ارحلوا حملوا المناسف^(١) .

✽ حرف الكاف:

كل من عودته بأكلك كلما نظرك جاع . كشكار دائم ولا علامة مقطوعة^(٢) . كل كره واشرب كره ولا تعاشر كره . كل هم كاوى عند همى ياوى . كل شيء لا يشبه قانيه حرام^(٣) . كل مائة عصفور ما يجوا حدّاية . كل ألف مصّة ما يجوا بغصة . كل ألف بوسة ما يجوا بعبوسة . كملت بالحمّان بالشعره والصنان . كمل حبيبي كل المعانى : أعرج وقليط ومعجباني . كمل حبيبي وأكمل : أعرج وقليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا . كأنه خان للغجر لا يوحشه من غاب ولا يؤانسه من حضر . كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار !

✽ حرف اللام:

لولاك ياكى ما أكلت يا فمى . لولاك يا لسانى ما انسكيت يا قفاى . لولا الغيرة والحسد كانت عجوزة كفت بلد . لولا أختك ماصرت ابن عمك . لو قليناها بلية ما جات هكذا . لو كان فيها خير ما رماها طير . لك عليك ما يصعب عليك . لك أسوة بغيرك . لقمة بدقة ولا خروف بزقة . لقمة تحت حيلة ولا خروف بعيلة . لوسلم الكرم من حارسه طابت مغارسه . لو تقطع يده وتدلّيه من فيه صنعه ما يخلّيه . لو عمل لى من الذهب وليمة هو عندى بتلك العين القديمة . لو شال راسه إلى السما كان عصيده بما . لو نظر الجمل لصنمه كان كدمه . لولا الكشط والبراية ما كانت أولاد الخرا كتاب .

✽ حرف الميم:

محبه بلا حبه ما تساوى حبه . ما شلتك يا دمتى إلا لشدتى . من عاشر غير جنسه دق الهم صدره . من قدم النحس تعب فى تأخيره . من عاشر الحداد احترق بتاره . من عاشر الزبدانى فاحت عليه روايحه . من ركب فى غير سرجه وغرزه دخل الهوا استه وهزه . من لا يحط يده لزنده ما يعرف حرّه من برده . ما رأيته يا نور حتى ابيضت العيون . مالى على فراقكم جلد إلا هجاجى من البلد . ما كفانا هم أبونا قام أبونا جاب أبوه قال : خذوا جدكم ربوه .

(١) المناسف: جمع منسف، وهو ما يتسف به الحبر كالغريال ونحوه.

(٢) الكشكار: ما كان من دقيق القمح من الشعير وغيره بلا نخل. أما [العلامة] ففراد بها دقيق القمح الخالي من السن بعد نخله.

(٣) قانيه: صاحبه ومقتنيه.

من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به * من يكلم القبح يروح عرضه وينفضح * ما تنقد وهم كلهم زغليه ما فيهم من يعجب النقاد .

حرف النون:

نواية تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير * نفسك أتلقت أى شىء أخلفت * نصف البلاء ولا البلاء كله * ناقص ونحاس * ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول : خاطرك : قالت لها : وأنت كنت على أى ورقة * نيتك مطيتك * نسيت يا فلاح ما كنت : فيه كعبك المشقق والوحل فيه .

حرف الهاء:

هانت الزلاية حتى أكلها بنو وائل * هان المسك وانتثر * هدية تعرّ قومها تخليتها ولا لومها * هدية الأجاب على ورق السداب !! ! قال : هو أعمى عن ورق الموز * هو عرس تاكل وتُسلّ * أهدوا هدية وأعينهم فيها يقولوا الله يردها * هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل .

حرف الواو:

واحد جائز رأى قرد يجرش ترمس قال : ما لذى الفاكهة البدرية إلا ذى الصورة القمرية * واحد سموه عنبر وصنعتة سرباتي^(١) قال : الذى كسبه فى الاسم خسره فى الصنعة * وحش ويكش ويقعد فى الوش ويغنى بلينا بكم * وقت أكل الدجاج ما يفتكرونى وفى وقت شيل التراب هات يدك * وأيش قام على تومة بفصل الحكومة * وقت الشوا واليخنى ما قلت يا أخى الحقنى * ووقت ضرب الدرة قلت : اصفعوا واصفعنى .

حرف اللام ألف:

لا تعيرنى ولا أعيرك ، الدهر حيرنى وحيرك * لا أصل شريف ، ولا وجه ظريف * لا أخوك ولا ابن عمك تشق ثوبك على أيش ؟ ! * لا عاش يليق^(٢) لا حراس ولا درّاس * لا عاش العار ولا بنى له دار * لا ربح ثوابه ولا خلاه لأصحابه * لا فى الفراق نجد راحة ولا فى الوصل * لا تشكرن فتى حتى تجربّه * لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجى * لا يضر السحاب نبج الكلاب * لا يغرك تطريفى الأصل فى ريقى .

حرف الياء:

يا شب مليح ما أحسن وصفك لا فى يدك ولا فى طرفك * يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه ، يموت وفى قلبه من الهم واجس * يا من ملنا ما كان حلنا لسا مالنا فى العشرة سنة * يهنىكم قدومه قد جاكم بشومة^(٣) * يا ليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا * ياويل من كان عشيه من بيت خيه * يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر .

[أمثال النساء]

حرف الألف:

أحبك يا سيّارى مثل معصمى * الذى فى قلب أم حنين تحلم به فى الليل * إن كنت حرة لا تضعى نقابك بره * إن لم تعملى وتفتخرى ، وإلا اقعدى وانعفى^(٤) * إن كانت الداية أحن من الوالدة ، قال دى داهية عيارة * الكلام لك يا جاره * ألا أنتى حمارة ؟ ! * أيش تعمل الماشطة فى الوجه المشوم * أيش قام على الحزينة بالنقش والزينة * أيش

(١) سرباتي: يصلح النعال صرمة: جزمة كلمة فارسية لنوع من النعال. أو هو نازح المراحض.

(٢) من لا يليق أن يكون حارساً أو دارساً فلا عاش.

(٣) الشومة: العصا الغليظة.

(٤) انعفر: أي تمزغ في العفر، وانعفر الشيء أي تترّب.

ينفع النفخ في الوجه الأصم * أرملة عدس ومتزوجة عدس اقعدى بعدسك * اسم الزوج ولا طعم الترميل * العاقلة فينا تزني بيقطينا^(١) إذا كان زوجي راضى أيش فضول القاضي^(٢) ؟ * استعارت الرعنة شيء حسبته لها أخذت المقص ودارته لها .

✽ حرف الباء الموحدة:

بعد أن كنت لي وحدي بقيت أسمع أخبارك * بعد سنه وشهرين جابت بنت بشفرين * بعد أن كان زوجها بقي طباخ في عرسها * بعد مشيك في الحلفه^(٣) بقي لك سلالم وغرفه واسمك ستيته * بعد أمي وأختي الكل جيرانى * بينما تنتقب الحولة انصرف القاضي * بنت الخرا تزف لابن الخرا بدف * باتت ناموسة على جميزة قالت : صبحك الله بالخير ، قالت : مين درى بك قبله ؟ * بدال ما تمشى وتهزى كتفك رقعى فردة خفك * بخرا وتزاحم بالبوس . بقي لأم سيسى برقع وللضفدة زماره * بعد مشيك في الحلافى لبستى الصافى * بعيد على الحزينة تستعمل الزينة .

✽ حرف التاء:

تضاربت المجنونة والحمقا حسبته الرعنة من حقا * تأخذوا أبونا وتكابروا * ترثانة وبيبانه ومفاتيح الخزانه * تباهت الرعنة^(٤) بشعر بنت أختها * تنغمى بالخرج^(٥) ولا تخلقى الغنج * تقعد عيوشة في ديارتها مالا حد حاجة في زيارتها .

✽ حرف الثاء:

ثوب سيدى ثوب حبيبي * ثوب ستي ثوب قحية .

✽ حرف الجيم:

جارة بجارة ، والعداوة خسارة * جاني عذولي ورتالى ما هي محبة إلا شماته لى * جارية وزبديّة على باذنجانة مقلية * جاتنا العدو مكحلة قطران لا غيره وقلبها فرحان * جاب ثيابه يغسلهم بلا صابونة معهم .

✽ حرف الحاء المهملة:

حوّله وتتنّب بنخ^(٦) * حزانى ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق * حزانى ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية * حزينة وواعية * جبلة ومُرّضة ، وعلى كتفها أربعة ، وطلعت الجبل تجيب دوا للجبل * حزينة مالها مملوك سمّت زنبورها خوشككدم * حزينة مالها ملك اكرت لها بواب * حزينة ما لها كاملية طلبت لها خف وشعرية .

✽ حرف الخاء المعجمة:

خطبوها تعززت وكان زمان البوار * خلت زوجها مكروب ، وراحت تشوف المصلوب * خذى قطيفة واكتمى سرى قالت : ما يطوعنى قلبى * خلت ما يعينها ، واتبعت حك رجلها .

✽ حرف الدال المهملة:

درى زوجك بكتبك تمي نهارك مع ليلتك * دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب .

(١) يقطينا: القرع [الكوسة].

(٢) فضول: تدخله بيني وبين زوجي.

(٣) الحلفة: بفتح الحاء وكسر اللام، واحدة الحلف، وهو نبت أطرافه محدّدة كأطراف سعف النخل ينبت في مغايض الماء.

(٤) رعنته الشمس، أي ضربته في رأسه، فيحصل للرأس تأثير دماغي من هذا الأمر، ويقال: امرأة رُغناء، ورجل أرغن والجمع رُغْن.

(٥) الخرج: بضم الخاء وسكون الراء، وعاء من شعر أو جلد، يوضع على ظهر الدابة لوضع الأمتعة فيه، والجمع خِرَجَة وأخزاج. والغنج: بضم العين المعجمة وسكون النون معناها الدلال، وملاحة العينين.

(٦) النخ: نوع من الحصير، وهي كلمة فارسية بمعنى بساط، وسيأتي مثل مماثل في حرف الراء: [رأوا جاموسة منقبة بحصيرة] قالوا: ما لذا الشكل الوضع إلا ذا القماش الرفيع.

✽ حرف الذال المعجمة:

ذكرت العجوز أطلالها .

✽ حرف الراء:

رقصتي ما أحسنتي كان قعادك أجمل * رعنا يضحكوا بها وهى تضحك تساعدهم * رأوا جاموسة منقبة بحصيرة قالوا : ما لذا الشكل الوضع إلا ذا القماش الرفيع * راحت تبيع رُبعة^(١) غابت جمعة * راحت رجال الهيبة وبقيت رجال الخيبة * راحت رجال اللحم والقلقاس وبقيت رجال الخبز بالفسفاس^(٢) * رأوا خنفسه على مكنسة قالوا : ما لذى الصيفة إلا ذا الحمار الأزعر .

✽ حرف الزاي:

زمر بالزُميرة تبان لك العاقلة من المجينية * زوجوا بنت نشادى لسرباتي قالوا : قليلات الخرا تتدحرج لبعضها .

✽ حرف السين المهملة:

سودا وتتنقش بسباخ * سألوها عن أبيها قالت جدى شعيب .

✽ حرف الشين المعجمة:

شدّى قرطاسك من عند موسى ، قالوا : دا شى ما فرحت به وأنت عروسة * شامنة ومعزّية .

✽ حرف الصاد المهملة:

صارت القعبة واعظة * صارت القويقة شاعرة .

✽ حرف الضاد المعجمة:

ضحك ابن سنة غمى على أمه قالت : ما أخفّ دمه !

✽ حرف الطاء:

طلعت ترحم نزلت تتوحم .

✽ حرف الظاء:

ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة .

✽ حرف العين المهملة:

عميا تحففا^(٣) مجنونة ، تقول : حواجبك سود مقرونة * عاقلة وجابت طفلة وجاتها خطر واشتروا لها قلقالس ذكر وحطب أخضر فى نهار مطر وقالوا لها : اطبخى على قدر لَمَحَة تقع الصلحة * عجوزة وجابت غلام ، إذا جنت لا تلام * عجوزة وخرفانة ، دى داهية كمانه .

(١) الرُبْع: جزء من أربعة أجزاء، ويطلق عُرْفًا على مكبال يسع أربعة أقداح.

(٢) الفُسْفاس: بُيْتٌ أخضر خبيث الريح، له زهرة بيضاء، يثبت في مسابيل الماء.

(٣) حَتَّتِ المرأة وجهها: أزالته ما عليه من شعر.

* حرف الغين المعجمة:

غيرك يقوم مقامك عlish قلبى أعذبه ؟ !

* حرف الفاء:

فرحت حزينة خربت مدينة .

* حرف القاف:

قالوا للمغانى اتزوقوا قلبوا عصايهم .

* حرف الكاف:

كل من تبعت هواها ، صارت سراويلها رداها * كبرت يا برقوقة وبقي لك دبوقة^(١) * كانوا مغانى صاروا ملاهى ،
لا راحت ولا جات كما هى * كلى قلية وباتى هنية * كأنها من الباسطية قماش على جريدة * كأنها حزمة فجمل أصفر
وعرقها أخضر * كأنها من عمايم اليهود صفرا طويلة رفيعة * كأنها من بيت الوالى ما يتحدث فيها سوى الحاشية * كأنها
ضبة جعيدى مخلوعة ولا تاخذ شىء .

* حرف اللام:

لو كان ما ينقش إلا السمان ، بارت المواشط من زمان * للساعة ما جبلت جابت المسين * لولا المعايير ما كانت
الحراير .

* حرف الميم:

ماشطه وتمشط بتها * من افكرنا بياسميننا ما نسينا .

* حرف النون:

نواية تسند الجرة قال : وتسند الزير الكبير .

* حرف الهاء:

هش يا دبانة ، أنا حبلى من مولانا .

* حرف الواو:

وجه لا يرى ، بالذهب يشتري .

* حرف اللام ألف:

لا انت مليحة ولا تغنى بايش تدلى .

* حرف الياء:

يعيش المدلل بلا مكلل * يا غزالة الأقمار أين كُنت بالنهار ؟ ! * يا من ملنا ما كان حلنا * ياناطر فى الساعة ما لنا
فى العشرة سنة .



(١) الدبوقة: الشعر المفتول المنسوج، أو المضفور.

الباب السابع

في البيان والبلاغة والفصاحة، وذكر الفصحاء من الرجال والنساء، وفيه فصول

الفصل الأول : في البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله - تعالى - : ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ﴾ . وقال : ﴿إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِخْرًا﴾ ^(١) . قال ابن المعتز : البيان : ترجمان القلوب وصيقل العقول . وأما حدّه ^(٢) فقد قال الجاحظ : البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى . وأما البلاغة : فإنها من حيث اللغة هي أن يقال : بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله ، قال الله - تعالى - : ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ . وقال بعض المفسرين في قوله - تعالى - : ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْتَانُ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ﴾ . أى : وثيقة كأنها قد بلغت النهاية . وقال اليوناني : البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة . وقال الهندي : البلاغة تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام . وقال الكندي : يجب للبلغ أن يكون قليل اللفظ ، كثير المعاني . وقيل : إن معاوية سأل عمرو بن العاص : من أبلغ الناس ؟ فقال : أقلهم لفظا ، وأسهلهم معنى ، وأحسنهم بديهة ، ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل ، لما خصّ به سيد العرب والعجم ، وافتخر به حيث يقول : «نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ» ^(٣) ، وذلك أنه كان يتلفظ باللفظ اليسير ، الدال على المعاني الكثيرة .

وقيل : ثلاثة تدل على عقول أصحابها : الرسول على عقل المرسل ، والهدية على عقل المهدي ، والكتاب على عقل الكاتب . وقال أبو عبد الله وزير المهدي : البلاغة ما فهمته العامة ورُضيت به الخاصة . وقال البحرى : خير الكلام ما قلّ وجلّ ، ودلّ ولم يُمل . وقالوا : البلاغة مِيزَانٌ لَا يَقْطَعُ إِلَّا بِسَوَابِقِ الْأَذْهَانِ ، وَلَا يُسَلِّكُ إِلَّا بِبَصَائِرِ الْبَيَانِ .

قال الشاعر :

لَكَ الْبَلَاغَةُ مِيزَانٌ نَشَأَتْ بِهِ وَكُلُّنَا بِقُصُورِ عَنْكَ نَعْتَرِفُ
مَهْدٍ لِي فِي نَظْمٍ بَعَثَتْ بِهِ مَنْ عِنْدَهُ الدَّرُّ لَا يُهْدِي لَهُ الصَّدْفُ

وروى : أن ليلى الأخيلية مدحت الحجاج فقال : يا غلام اذهب إلى فلان فقل له : يقطع لسانها . قال : طلب حجاجا فقالت : ثكلتك أمك ، إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصلة : فلو لا تبصّرها بأنحاء الكلام ، ومذاهب العرب ، والتوسعة في اللفظ ومعاني الخطاب ، لثَمَّ عليها جهل هذا الرجل .

وقال الثعالبي البليغ من يُحول الكلام على حسب الأمالي ، ويخطط الألفاظ على قدر المعاني ، والكلام البليغ ما كان لفظه فحلا ومعناه بكرا . وقال الإمام فخر الدين الرازى ^(٤) - رحمه الله تعالى عليه - في حدّ البلاغة : إنها بلوغ الرجل

(١) سبق تخريجه [برقم ١] في الفصل الثاني من أمثال العرب .

(٢) حدّه : أي تعريفه .

(٣) حديث : نصرت بالعرب إلخ ذكر العجلوني الشطر الثاني منه [أوتيت جوامع الكلام ، واختصر لي الكلام اختصارا] . رواه العسكري ، ورواه النسائي وله شواهد في الصحيح . وذكر العجلوني حديثا آخر رقم [٢٨٠٩/٢] [نصرت بالصبأ ، وأهلكت عاد بالدُّبُور] رواه أحمد والشيخان .

(٤) هو : محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ، أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، ولد ٥٤٤ هـ وهو قرشي النسب وأصله من طبرستان ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر ، أقبل الناس على كتبه يتدارسونها ، وكان يحسن الفارسية ، توفى في هراة سنة ٦٠٦ هـ . (الأعلام للزركلي ٦/٣١٣) .

بعبارة كُتبه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل والتطويل الممل ؛ ولهذه الأصول شُعَب وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ، ويحصل الغرض بهذا القدر ، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق .

الفصل الثاني : في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازي - رحمه الله تعالى عليه - اعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد . وأصلها من قولهم : أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة . وأكثر البُلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة ، بل يستعملونها استعمال الشئيين المترادين على معنى واحد ، في تسوية الحكم بينهما . ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني ، والفصاحة في الألفاظ ، ويستدل بقولهم : معنى بليغ ، ولفظ فصيح .

وقال يحيى بن خالد : ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم ؛ فإن كان فصيحاً عَظُم في صدرى ، وإن قَصُر سقط من عيني . وقد اختلف الناس في الفصاحة فمنهم من قال : إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني ، ومنهم من قال : إنها لا تخص الألفاظ وحدها ، واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال : ترى الناس يقولون : هذا لفظ فصيح ، وهذه الألفاظ فصيحة ، ولا ترى قائلاً يقول : هذا معنى فصيح ، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني ، وإن قلنا : إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح ، وذلك غير مألوف في كلام الناس . والذي أراه في ذلك : أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً . ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف ، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قِلَقَةٍ ولا مكدودة والمعيب من ذلك كقول القائل :

لَوْ كُنْتُ كُنْتُ كَتَمْتُ الْحُبَّ كُنْتُ كَمَا كُنَّا وَكُنْتُ وَلَكِنْ ذَاكَ لَمْ يَكُنْ
وكقول بعضهم أيضاً :

وَلَا الضَّعْفُ حَتَّى يَبْلُغَ الضَّعْفُ ضِعْفَهُ وَلَا الضَّعْفُ ضَعْفُ الضَّعْفِ بَلْ مِثْلُهُ أَلْفُ
وكقول الآخر :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرِ وَلَيْسَ قُرْبُ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرِ

قيل : إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه ، لأن القرب في المخارج يُحدث ثِقَلًا في النطق به . وقيل : من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار ، وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق (عليه السلام) على مصر ، وملك زمام الأمور ، وأطلعه ملكها على الخفى من أمره والمستور قال الشاعر :

لِسَانَ الْفَتَى نَضَفَ وَنَضَفَ فُؤَادَهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ

وسمع النبي (ﷺ) من عمه العباس كلاماً فصيحاً فقال : « بارك الله لك يا عم في جمالك ^(١) أي فصاحتك . وعرضت على المتوكل جارية شاعرة فقال أبو العناء يستجيزها ^(٢) : * أحمد الله كثيراً * فقالت : * حيث أنشاك ضريرا * فقال : يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها . وقال فيلسوف : كما أن الآنية تمتحن بإطنانها ^(٣) فيعرف صحيحها من مكسورها فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقته . وقال المبرد : قلت للمجنون أجزني هذا البيت :

أَرَى النَّيُّومَ يَوْمًا قَدْ تَكَاثَفَ غَيْمُهُ وَإِبْرَاقُهُ فَالْيَوْمَ لَا شَكَّ مَاطَرُ
فقال :

وَقَدْ حَجَبَتْ فِيهِ السَّحَابُ شَمْسَهُ كَمَا حَجَبَتْ وَرْدَ الْخُدُودِ الْمَحَاجِرُ

وقال عبد الملك لرجل : حَدَّثْنِي فَقَالَ : يا أمير المؤمنين ، أَفْتَحِ فَإِنَّ الْحَدِيثَ يَفْتَحُ بَعْضُهُ بَعْضًا . وقال الهيثم بن

(١) حديث [وسمع النبي (ﷺ) من عمه العباس إلخ]. لم أقف عليه .

(٢) يستجيزها : يطلب منها أن تُتم بيتاً أتى هو بصدده ، وتلك مطارحة لطيفة كانت تدور بين محبي الأدب ، وعشاق الشعر .

(٣) إطنان : مصدر أطنه ، جعله يطن ، والطنين : الصوت .

صالح لابه : يا بُنى إذا قللت من الكلام أكثر من الصواب . قال : يا أبت فإن أنا أكثر ، وأكثر ، يعني : كلاماً وصواباً ؟ . قال : يا بُنى ما رأيت موعوفاً أحق بأن يكون واعظاً منك .

وقال الشعبي : كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة ، فأقول أجزها أصلحك الله فإن الحديث من وراء ذلك ، فيقول : والله لأحدثك أحب إليّ منها .

وقال ابن عيينة : الصمت منام العلم ، والنطق ، يقظته ، ولا منام إلا بتيقظ ، ولا يقظة إلا بمنام . قال ابن المبارك : **وَهَذَا اللِّسَانُ بِرِيدُ الْفَوَازِ يَذُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْلِهِ** ومر رجل بأبي بكر الصديق عليه السلام ومعه ثوب ، فقال له أبو بكر : أتبيعه ؟ فقال : لا ، رحمك الله . فقال أبو بكر : لو تستقيمون لقومت ألسنتكم هلاً قلت : لا ورحمك الله .

ومنه ما حكى أن المأمون سأل يحيى بن أكثم عن شيء فقال : لا ، وأيد الله أمير المؤمنين فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها ! وكان صاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ ، ويقال : اللسان سبغ صغير الجرم عظيم الجرم ، وقال بعضهم شعراً :

سَخْبَانُ يَقْصُرُ عَنْ بَحُورِ بَيَانِهِ عَجْزًا وَيَفْرُقُ مِنْهُ تَحْتَ عُيَابِ
وَكَذَاكَ قُسٌّ نَاطِقٌ بِعُكَاظِهِ يَغِيَالِدُنِي بِحُجَّةٍ وَجَوَابِ^(١)

وقيل : إنه حج مع ابن المنكدر شابان . فكانا إذا رأيا امرأة جميلة قالَا : قد أبرقنا ، وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يظفن ، فرأيا قبة فيها امرأة فقالا بارقة ، وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر : بل صاعقة .

وكان أصحاب أبي عليّ الثقفي إذا رأوا امرأة جميلة يقولون : حُجة ، فعرضت لهم قبيحة فقالوا : داحضة^(٢) . وكتب إبراهيم بن المهدي : إياك والتبغ لوحشتي الكلام طمعا في نيل البلاغة ، فإن ذلك العناء الأكبر ، وعليك بما سهّل ، مع تجنبك لألفاظ السُّقُل . ويقال : القول على حسب همة القائل يقع ، والسيف بقدر عضد الضارب يقطع . وقال الأحنف : سمعت كلام أبي بكر حتى مضى ، وكلام عمر حتى مضى ، وكلام عثمان حتى مضى ، وكلام علي حتى مضى عليه السلام ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة .

وقال معاوية عليه السلام : ما رأيت أبلغ من عائشة عليها السلام ما أغلقت باباً فأرادت فتحه إلا فتحت ، ولا فتحت باباً فأرادت إغلاقه إلا أغلقت .

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ، وهو من الذكاء والفصاحة ما حكى أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر ابن وائل ، وعزموا على غزو قومه ، فسألهم في رسول يُرسله إلى قومه ، فقالوا : لا تُرسله إلا بحضرتنا لثلاث تنذرهم وتحذرهم ، فجاءوا بعبد أسود ، فقال له : أتعتل ما أقوله لك ؟ قال : نعم إني لعاقِل ؛ فأشار بيده إلى الليل ؛ فقال ما هذا ؟ قال : الليل . قال ما أراك إلا عاقلاً . ثم ملا كفيه من الرمل وقال : كم هذا ؟ قال : لا أدري ، وإنه لكثير ؛ فقال : أيهما أكثر : النجوم أم النيران ؟ قال كلٌ كثير . فقال : أبلغ قومي التحية ، وقل لهم : يكرموا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من بني بكر بن وائل ؛ فإن قومه لي مكرمون ، وقل لهم : إن العرفج^(٣) قد دنا ، وشكت النساء ، وأمرهم أن يُعَرِّوا ناقتي الحمراء ، فقد أطلوا ركوبها ، وأن يركبوا جملي الأصهب بأمانة ما أكلت معكم خيساً^(٤) ، وأسألوا عن خبري أخى الحارث فلما أدّى العبد الرسالة إليهم قالوا : لقد جنّ الأعور والله ما نعرف له ناقة حمراء ، ولا جملاً أصهب ، ثم دعوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة فقال : قد أنذرکم ؛ أما قوله : قد دنا العرفج ؛ يريد أن الرجال قد استلأموا ولبسوا السلاح . وأما قوله شكت النساء ، أى أخذت الشكاء^(٥) للسفر . وأما قوله أعروا ناقتي الحمراء : أى ارتحلوا عن الدهناء^(٦) ، واركبوا الجمال الأصهب : أى الجبل . وأما قوله : أكلت معكم خيساً أى أن

(١) سخبان وقُسٌّ : يضرب بهما المثل في الفصاحة .

(٢) داحضة : باطلة .

(٣) العرفج : شجر سهلي واحدته عرفة .

(٤) الخيس : تمر وأقط وسمن تخلط وتمجن وتسوى كالثرید .

(٥) الشكاء : جمع الشكوة ، وهي وعاء صغير للماء واللبن يتخذ من جلد ، وقد يستعمل لتبريد الماء .

(٦) الدهناء : بتشديد الدال المفتوحة وإسكان الهاء ، أي الفلاة .

أخلاقاً من الناس قد عزموا على غزوكم ، لأن الحيس يجمع التمر والسمن ، والأقط^(١) ، فامتثلوا أمره ، وعرفوا لحن الكلام^(٢) وعملوا به ، فنجوا .

وأُسرت طيئ غلاماً من العرب ، فقدم أبوه ليفديه ، فاشتطوا عليه ، فقال أبوه : والذي جعل الفرقدين^(٣) يُمسيان ويُصبحان على جبل طيء ، ما عندي غير ما بذلته ، ثم انصرف وقال : لقد أعطيتُه كلاماً إن كان فيه خير فهمه فكأنه قال له : الزم الفرقدين يعني في هروبك على جبل طيء ؛ فهمم الابن ما أراده أبوه ، وفعل ذلك فنجا .

وكانت غُلية بنت المهدي تهوى غلاماً خادماً اسمه طَلّ فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها فاطلع الرشيد يوماً عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة : ﴿ فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فالذي نهى عنه أمير المؤمنين . ومن ذلك قولهم : تركت فلاناً يأمر وينهى ، وهو على شرف الموت ، أى يأمر بالوصية ، وينهى عن النوح .

ويقال : ما رأيت فلاناً : أى ما ضربته فى رثته ، ولا كلمته : أى ما جرحته ، فإنّ الكلام الجراح ، وما رأيت ربيعاً ، فالربيع حظ الأرض من الماء ، والربيع النهر ، وما رأيت كافراً ولا فاسقاً ، فالكافر السحاب ، والفاسق الذى تجرد من ثيابه . وما رأيت فلاناً راكعاً ولا ساجداً ، ولا مصلياً فالراكي العائر الذى كبا لوجهه ، والساجد المدمن النظر ، والمصلّى الذى يجىء^(٤) بعد السَّابِق . وما أخذت لفلان دجاجة ولا قَرْوَجاً فالدجاجة الكُبة من الغزل ، والفروجة الدُّرَاعَة^(٥) وما أخذت لفلان بقرة ولا ثورا ؛ فالبقرة العيال الكثيرة ؛ يقال جاء فلان يسوق بقره أى عياله ، والثور القطعة الكبيرة من الأقط .

وحكى : أن معاوية رضي الله عنه بينما هو جالس فى بعض مجالسه وعنده وجوه الناس فيهم الأحنف بن قيس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً ، وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله عنه ولعن لاعنه فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ، إن هذا القائل لو يعلم أن رضاك فى لعن المرسلين للعنهم ، فائق الله يا أمير المؤمنين ، ودع عنك علياً رضي الله عنه فلقد لقي ربه ، وأفرد فى قبره ، وخلا بعمله ، وكان - والله - المبرور سيفه الطاهر ثوبه ، العظيمة مصيبته ، فقال معاوية ، يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت ، وإيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرها فقال له الأحنف : يا أمير المؤمنين ، إن تُعفى فهو خير لك ، وإن تجبرنى على ذلك فوالله لا تجرى شفتاى به أبداً ، فقال : قم فاصعد ، قال : أما والله لأنصفنك فى القول ، والفعل . قال : وما أنت قائل إن أنصفتنى ؟ قال : أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه ، وأصلى على نبيه محمد رضي الله عنه ثم أقول : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن علياً ، ألا إن معاوية وعلياً اقتتلا فاختلعا فادعى كل واحد منهما أنه مَبْغِيٌّ عليه ، وعلى ففته ، فإذا دعوتُ فأمنوا - رحمكم الله - ثم أقول : اللهم العن أنت وملائكك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ، والعن الفئة الباغية ، اللهم العنهم لعناً كثيراً ، آمَنُوا رحمكم الله ، يا معاوية لا أزيد على هذا ، ولا أنقص حرفاً ، ولو كان فيه ذهابٌ روحى ، فقال معاوية : إذا نعفيك يا أبا بحر .

وقال معاوية لعقيل بن أبى طالب : إن علياً قد قطعك ، وأنا وصلتك ، ولا يُرضينى منك إلا أن تلعه على المنبر . قال : أفعل ؛ فصعد المنبر ثم قال : بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه رضي الله عنه أيها الناس ، إن معاوية بن أبى سفيان ، قد أمرنى أن ألعن علياً بن أبى طالب ، فالعنوه فعليه لعنة الله ، ثم نزل فقال له معاوية : إنك لم تبين من لعنتَ منهما ؛ بيته . فقال : والله لا زدتُ حرفاً ، ولا نقصتُ حرفاً والكلام إلى نية المتكلم .

ودخلت امرأة على هارون الرشيد ، وعنده جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ؛ أقر الله عينك ، وفرحك بما آتاك ، وأتم سعدك ، لقد حكمت ، فقسطت ، فقال لها : من تكونين أيتها المرأة ؟ فقالت : من آل برمك ، ممن قتلت رجالهم ، وأخذت أموالهم ، وسلبت نوالهم^(٦) ؛ فقال : أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ،

(١) الأقط : لبن محمض يجمد حتى يستحجر ويُطبخ ، أو يُطبخ به .

(٢) لحن الكلام : فحواه ، وما يفهمه السامع بالتأمل فيه ، من وراء لفظه .

(٣) الفرقدين : نجمين فى السماء ، واشتطوا عليه : أي جاوزوا الحد فيما طلبوه من مال .

(٤) فى ترتيب سباق الخيل وجريها .

(٥) الدُّرَاعَة : ثوب من تحته ثوب ؛ وَجَبَةٌ مشقوقة المقدم .

(٦) نوالهم : عطائهم .

ونفذ فيهم قدره ، وأما المال فمردود إليك ، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه ، فقال : أتدرون ما قالت هذه المرأة ؟ فقالوا : ما نراها قالت إلا خيرا . قال : ما أظنكم فهمتم ذلك ؟ أم قولها : أقر الله عينك أى : أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت . وأما قولها : وفَرَخَكَ بما آتاك فأخذته من قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤] . وأما قولها : وأتم الله سَعْدَكَ فأخذته من قول الشاعر :

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْضُهُ تَرَقَّبَ زَوَالاً إِذَا قِيلَ : تَمَّ

وأما قولها : لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَأَنَّهُمْ لِحُبِّهِمْ خَطَبًا ﴾ [الجن: ١٥] . فتعجبوا من ذلك .

وحكى : أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى ؛ فقال له : أطل الله بقاءك وأقر عينك وجعل يومى قبل يومك ، والله إنه ليسرنى ما يسرك فأحسن إليه ، وأجازه على دعائه ، وأمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه ، لأن معنى قوله : أطل الله بقاءك حصول منفعة المسلمين به فى أداء الجزية ، وأما قوله : وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها ، أى أعمامها ، وأما قوله : وجعل يومى قبل يومك ، أى : جعل الله يومى الذى أدخل فيه الجنة قبل يومك الذى تدخل فيه النار . وأما قوله : إنه ليسرنى ما يسرك فإن العافية تسره كما تسر الآخر .

فانظر إلى الاشتراك وفائدته ، ولولا الاشتراك^(١) ما تهيأ لمتستر مراد ، ولا سلم له فى التخلص قياد . وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن ، فكلفه بعض الخلفاء القراءة فى المصحف ، فصحف فى نيف وعشرين^(٢) موضعا من جملتها قوله - تعالى - : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل: ٦٨] . بالغين المعجمة والسين المهملة . وقوله : ﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارًا لِّرَبِّهِمْ أُولَئِكَ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة: ١١٤] بالباء الموحدة . وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوٌّ وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨] . بالخاء بدلا من الحاء . وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ ﴾ [لقمان: ٣٢] بالجيم والباء الموحدة . ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعًا ﴾ [مريم: ٧٤] . بالزاي وترك الهمزة . ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] . بالسين المهملة . ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨] . بالنون والعين المهملة . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي ﴾ [القصص: ٥٥] بإسقاط التاء . ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ﴾ [ص: ٢] بالغين المعجمة والراء المهملة قرن الشقاق بالغيرة ، وهذا لا يقع إلا من الأذكياء .

وحكى : أن المأمون ولّى عاملا على بلاد ، وكان يعرف منه الجور^(٣) فى حكمه ، فأرسل إليه رجلا من أرباب دولته ليمتحنه ، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم فى تجارة لنفسه ، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزلَه ، وأحسن إليه ، وسأله أن يكتب كتابا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ، ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة ، فكتب كتابا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد : فقد قدمنا على فلان ، فوجدناه آخذا بالعزم ، عاملا بالحزم ، قد عدل بين رعيته ، وساوى فى أقضيته ، أغنى القاصد ، وأرضى الوارد ، وأنزلهم من منازل الأولاد ، وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد ، وعمر منهم المساجد الدائرة^(٤) ، وأفرغهم من عمل الدنيا ، وشغلهم بعمل الآخرة ، وهم مع ذلك داعون لأمر المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام . فكان معنى قوله : آخذا بالعزم أى إذا عزم على ظلم أو جور فعله فى الحال ، وقوله : قد عدل بين رعيته ، وساوى فى أقضيته أى أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغنى والفقير ، وقوله : عمر منهم المساجد الدائرة ، وأفرغهم من عمل الدنيا ، وشغلهم بعمل الآخرة يعنى : أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئا من الدنيا . ومعنى قوله : يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين ، أى ليشكوا حالهم ، وما نزل بهم ، فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته ، وولى عليهم غيره .

ومن ذلك ما حكى : أن القاضى الفاضل كان له صديق خصب به ، وكان صديقه هذا قريبا من الملك الناصر صلاح الدين ، وكان فيه فضيلة تامة ، فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه ، وهَمَّ بقتله ، فتسحب إلى بلاد التتر

(١) يقال: لفظ مشترك: له أكثر من معنى.

(٢) فضحف: أي: قرأ الكلمة على غير صحتها لاشتباه في الحروف كأن يقرأ الباء ياء، وكما يقع في القراءة يقع في الكتابة أيضا.

(٣) الجور: الظلم.

(٤) أي الخالية من الزينة والأذهان.

وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم ، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه ، فلما بلغه ذلك نفر منه وقال للفاضل : اكتب إليه كتاباً عرفه فيه أنني أرضى عليه ، وأستعطفه غاية الاستعطاف إلى أن يحضر ، فإذا حضر قتلته ، واسترحته منه ، فتحير الفاضل بين الاثنين ، صديقه يعز عليه ، والملك لا يمكنه مخالفته ، فكتب إليه كتاباً ، واستعطفه غاية الاستعطاف ، ووعده بكل خير من الملك ، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة^(١) والصلاة والسلام على النبي ﷺ وكتب إن شاء الله - تعالى - ، كما جرت به العادة في الكتب ، فشدد « إن » ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في غاية الكمال ، وما فهم إن ، وكان قصد الفاضل : ﴿ إِنَّكَ أَلَمَلًا بِأَتَمُّونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [الفصل: ٢٠] . فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه ، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً ؛ فلما أراد أن يُنهي الكتاب . ويكتب إن شاء الله - تعالى - مد النون وجعل في آخرها ألفاً ، وأراد بذلك : ﴿ إِنَّا لَنَنذِرُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ﴾ [المائدة: ٢٤] فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ، ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك .

وحكى : أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج فلاحته منه التفاتة ، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الرءاؤن أحسن منها فالتفت إلى بعض جواريه ، فقال لها : لمن هذه ؟ فقالت : يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز قال : فنزل الملك وقد خامره حُبُّها وشغفٌ بها فاستدعى بفيزوز ، وقال له : يا فيروز ، قال : لبيك يا مولاي . قال : خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلد الفلانية واتننى بالجواب فأخذ فيروز الكتاب ، وتوجه إلى منزله ، فوضع الكتاب تحت رأسه وجهاز أمره ، وبات ليلته ، فلما أصبح ودّع أهله ، وسار طالباً لحاجة الملك ، ولم يعلم بما قد دبره الملك ، وأما الملك فإنه لما توجه فيروز قام مسرعاً وتوجه مختفياً إلى دار فيروز ، فقرع الباب قرعاً خفيفاً ، فقالت امرأة فيروز : مَنْ بالباب ؟ قال : أنا الملك سيد زوجك ففتحت له ، فدخل ، وجلس ، فقالت له : أرى مولانا اليوم عندنا ؟ فقال : زائراً ، فقالت : أعوذ بالله من هذه الزيارة ! وما أظن فيها خيراً ، فقال لها : ويحك إنني أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتني ، فقالت : بل عرفتك يا مولاي ، ولقد علمت أنك الملك ولكن سبقتك الأوائل في قولهم :

وَذَاكَ لِكَثْرَةِ الْوَرَادِ فِيهِ
رَفَعْتُ يَدِي وَنَفْسِي تَشْتَهِيهِ
إِذَا كَانَ الْكِلَابُ وَلَغْنُ فِيهِ
وَلَا يَرْضَى مُسَاهِمَةَ السَّفِيهِ

سَأَتْرُكُ مَاءَكُمْ مِنْ غَيْرِ وَرْدٍ
إِذَا سَقَطَ الذُّبَابُ عَلَى طَعَامٍ
وَيَجْتَنِبُ الْأَسْوَدَ وَرُودَ مَاءٍ
وَيَرْتَجِعُ الْكَرِيمُ خَمِيصَ بَطْنٍ^(٢)
وما أحسن يا مولاي قول الشاعر :

وصاحبُ الغدْرِ غَيْرُ مَضْحُوبٍ
قَدْ أَكَلَ اللَّيْثُ فَضْلَةَ الذَّيْبِ

قُلْ لِلَّذِي شَقَّهَ الْغَرَامُ بِنَا
وَاللَّهِ لَا قَالِ قَائِلٌ أَبَدًا

ثم قالت : أيها الملك ، تأتي إلى موضع شُرْبِ كلبك تشرب منه ؟ قال : فاستحيا الملك من كلامها ، وخرج وتركها فنسى نعله في الدار . هذا ما كان من الملك ، وأما ما كَانَ من فيروز : فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب ، فلم يجده معه في رأسه ، فتذكر أنه نسيه تحت فراشه فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره ، فوجد نعل الملك في الدار ، فطاش عقله ، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله ، فسكت ولم يُبِدِ كلاماً وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك ، فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار ، فمضى فيروز إلى السوق واشترى ما يليق بالنساء ، وهياً هدية حسنة ، وأتى إلى زوجته فسلم عليها ، وقال لها : قومي إلى زيارة بيت أبيك . قالت : وما ذاك ؟ قال : إن الملك أنعم علينا ، وأريد أن تظهرى لأهلك ذلك . قالت : حبا وكرامة ، ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها ، وبما جاءت به معها فأقامت عند أهلها مدة شهر ، فلم يذكرها زوجها ولا أَلَمَ بها ، فأتى إليه أخوها ، وقال له : يا فيروز ، إما أن تخبرنا بسبب غضبك ، وإما أن تحاكمنا إلى الملك ، فقال : إن شئتكم الحكم ، فافعلوا فما تركت لها على حقا ، فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم ، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالسا إلى جانبه فقال

(١) الْخَمْدَلَةُ : أَنْ يُقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ .

(٢) خَمِيصُ الْبَطْنِ : طَاوِيَا .

أخو الصبية : أيد الله مولانا قاضى القضاة ، إنى أجرت هذا الغلام بستانا سالم الحيطان بيثر ماء معين عامرة ، وأشجار مثمرة ، فأكل ثمره ، وهدم حيطانه ، وأخرب بثره فالتفت القاضى إلى فيروز ، وقال له : ما تقول يا غلام ؟ فقال فيروز : أيها القاضى ، قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان ، فقال القاضى : هل سلم إليك البستان كما كان ؟ قال : نعم ، ولكن أريد منه السبب لرده ، قال القاضى : ما قولك ؟ قال : والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه وإنما جئت يوما من الأيام فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يغتالني ، فحرمت دخول البستان إكراما للأسد . قال وكان الملك متكئا فاستوى جالسا وقال : يا فيروز ، ارجع إلى بستانك آمنا مطمئنا ، فوالله إن الأسد دخل البستان ، ولم يؤثر فيه أثرا ، ولا التمس منه ورقا ولا ثمرا ، ولا شيئا ، ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة ، وخرج من غير بأس ، ووالله ما رأيت مثل بستانك ، ولا أشد احترازا من حيطانه على شجره ، قال : فرجع فيروز إلى داره ، ورد زوجته ، ولم يعلم القاضى ، ولا غيره بشيء من ذلك . والله أعلم .

وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكنايات الواردة على سبيل الرمز ، ومنه ما يجده ، المتستر في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق ، ورضا الخصم بما وافق مراده ؛ لأن في المعاريض مندوحة عن الكذب كما روى في غزوة بدر أن النبي ﷺ . كان سائرا^(١) بأصحابه يقصد بدرًا ، فلقيه رجل من العرب فقال : ممن القوم ؟ فقال له النبي ﷺ : « من ماء » فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول : من ماء ، من ماء يرددها لينظر أي العرب يقال لهم : ماء ففسار النبي ﷺ بأصحابه لوجهته ، وكان قصده أن يكتم أمره ، وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله : « فإن الله - عز وجل - قال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُخْلَقُ ۖ خَلْقَ بَيْنَ ثَمَوٍ ذَاقِ ۖ ﴾ » [الطارق: ٥-٦] وكما روى عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار : هو رجل يهديني السبيل ، وقد صدق فيما قال ﷺ فقد هداه وهدانا السبيل ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام . وكما حكى عن الإمام الشافعى ﷺ أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد ما تقول في القرآن ؟ فقال الشافعى : إياي تعنى ؟ قال : نعم . قال : مخلوق فرضى خصمه منه بذلك ، ولم يرد الشافعى إلا نفسه ، وكما حكى عن ابن الجوزى - رحمه الله تعالى - أنه سأل وهو على المنبر ، وتحت جماعة من مماليك الخليفة وخاصته ، وهم فريقان : قوم سُتِيَّة ، وقوم شيعة فقليل له : من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر أم علي ؟ فقال : أفضلهما بعده من كانت ابنته تحتها ، فأرضى الفريقين ، ولم يرد إلا أبا بكر ﷺ لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر ﷺ ، وهي عائشة ﷺ ، وكانت تحت رسول الله ﷺ ، والشعبة ظنوا أن الضمير في ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ ، وهي فاطمة ﷺ ، وكانت تحت علي ﷺ ، فهذه منه جيدة حسنة ، وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة^(٢) . والله أعلم .

الفصل الثالث : في ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم ، فأحب الحسن أن يتكلم فجزه وقال : يا صبي ، تتكلم في هذا المقام ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت صبيبا فلسْتُ بأصغر من هُذُهد سليمان ، ولا أنت بأكبر من سليمان ﷺ حين قال : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ ﴾ [النمل: ٢٢] ثم قال : ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ، ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى .

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن العزيز أتته الوفود فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صغير السن ، وقد أراد أن يتكلم فقال : ليتكلم من هو أسن منك^(٣) ، فإنه أحق بالكلام منك ؛ فقال الصبي : يا أمير المؤمنين ، لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك . قال : صدقت ، فتكلم ، فقال يا أمير المؤمنين ، إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي من علينا بك ، ما قدمنا عليك رغبة منا ، ولا رهبة منك ؛ أما عدم الرغبة فقد أمتنا بك في منازلنا ، وأما عدم الرهبة فقد أمتنا جورك بعدلك فنحن وفد الشكر والسلام .

(١) ما روي في غزوة بدر أن النبي ﷺ . إلخ . ضعيف : أخرجه ابن إسحاق في السيرة كما في سيرة ابن هشام [٤٠٨/١] وسنده منقطع .

(٢) أي حل بها الوسن وهو النوم . والمراد : هدأت واستراحت .

(٣) أسن : أكبر سنًا .

فقال له عمر رضي الله عنه عظمي يا غلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرهم حلم الله ، وثناء الناس عليهم ، فلا تكن ممن يُغرّه حلم الله ، وثناء الناس عليه فتزل قدمك ، وتكون من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١] فنظر عمر في سنّ الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة ، فأنشدهم عمر رضي الله عنه :

تَعْلَمُ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوَلَّدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
فَإِنْ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيرٌ إِذَا التَّقَتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ

وحكى : أن البادية قحطت ^(١) في أيام هشام ، فقدمت عليه العرب ، فهابوا أن يكلموه ، وكان فيهم ذرواس بن حبيب ، وهو ابن ستّ عشرة سنة له ذؤابة ^(٢) وعليه شملتان ^(٣) ، فوقعت عليه عينُ هشام ، فقال لحاجبه : ما شاء أحد أن يدخل عليّ إلا دخل حتى الصبيان ، فوثب ذرواس ، حتى وقف بين يديه مطرقاً فقال : يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرًا وطبًا ، وإنه لا يُعرفُ ما في طبّه إلا بنشره ، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته فأعجبه كلامه ، وقال : أنشره لله دَرَكٌ ^(٤) فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه أصابتنا سنون ثلاث : سنة أذابت الشحم ، وسنة أكلت اللحم ، وسنة دقت العظم ، وفي أيديكم فضول مال فإن كانت لله ففرقوها على عباده ، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم ؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ، فإن الله يجزي المتصدقين ، فقال هشام : ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرا فأمر للبوادي بمائة ألف دينار ، وله بمائة ألف درهم ، ثم قال : ألك حاجة قال : ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين ، فخرج من عنده وهو من أجلّ القوم .

وقيل : إن سعد بن ضمرة الأسديّ لم يزل يُغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره ، فبعث إليه يقول : إنّ لك عندي ألف ناقة على أنك تدخل في طاعتي ، فوفد عليه ، وكان صغير الجثة ، فاقتحمته عينه ، وتنقصه ، فقال : مهلاً أيها الملك ، إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم ، وإنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان ، وإن صال صال بجنان ، ثم أنشأ يقول :

يَأْيُهَا الْمَلِكُ الْمَرْجُوُّ نَائِلُهُ إِنِّي لِمِنْ مَغْشَرِ شَمِّ الذَّرَى زُهْرٍ
فَلَا تُغَرِّنْكَ الْأَجْسَامُ إِنَّ لَنَا أَخْلَامَ عَادٍ وَإِنْ كُنَّا إِلَى قِصْرِ
فَكَمْ طَوِيلٍ إِذَا أَبْصَرْتَ جُثَّتَهُ تَقُولُ هَذَا غَدَاةَ الرُّوْعِ ذُو ظَفَرٍ
فَإِنَّ أَلَمَ بِهِ أَمْرٌ فَأَفْظَمُهُ رَأَيْتَهُ خَاذِلًا لِلْأَهْلِ وَالزُّمَرِ

فقال : صدقت ؛ فهل لك علم بالأمر ؟ قال : إني لأنقض منها المفتول ، وأبرم منها المحلول ، وأجبلها حتى تجول ، ثم أنظر فيها إلى ما تتول ، وليس للدهر بصاحب من لا ينظر في العواقب . قال : فتعجب النعمان من فصاحته وعقله ، ثم أمر له بألف ناقة ، وقال له : يا سعدُ ، إن أقمت واسيتك ، وإن رحلت وصلناك ^(٥) ، فقال : قُرْبُ الْمَلِكِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، فأنعم عليه وأداناه ، وجعله من أخصّ ندمائه .

وحكى : أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن : الشيء ولا شيء ، وعن دين لا يقبل الله غيره ، وعن مفتاح الصلاة ، وعن غُرس الجنة ، وعن صلاة كل شيء ، وعن أربعة فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، وعن رجل لا أب له ، وعن رجل لا أم له ، وعن قبر جرجع بصاحبه ، وعن قوس قُزَح ما هو ؟ وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها ! وعن ظاعن ^(٦) ظعن مرة واحدة ولم يقطن قبلها ولا بعدها ، وعن شجرة نبئت من غير ماء ، وعن شيء تنفس ولا روح له ، وعن اليوم وأمس ، وغد وبعد غد ، وعن البرق والرعد وصوته ، وعن المحو الذي في القمر . فقبل لمعاوية : لست هناك ^(٧) ، ومتى أخطأت في شيء من ذلك سَقَطَتْ من عينه ! فكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل فكتب إليه فأجابه :

(١) البادية : الصحراء . قحطت : أصيبت بالقحط والجفاف .

(٢) الشملة : كساء من صوف أو شعر يتغطي به ويتلفع .

(٣) وصلناك : أعطيناك صلة وعطية تصلك بنا .

(٤) ظعن ظعنًا : أي سار وارتحل .

(٥) لست هناك : أي لست أهلاً للإجابة عن هذه الأسئلة فإنها تحتاج إلى عالم متخصص كابن عباس .

(٦) ذؤابة : شعر مقدم الرأس .

(٧) لله دَرَكٌ : أسلوب تعجبي من حسن بيانه .

أما الشيء : فالماء . قال الله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣١].
وأما لا شيء : فإنها الدنيا تبيد وتفتنى . أما دين لا يقبل الله غيره فلا إله إلا الله ، وأما مفتاح الصلاة : فإله أكبر ، وأما غرس الجنة : فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأما صلاة كل شيء : فسبحان الله ويحمده . وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء : فآدم وحواء ، وناقصة صالح ، وكبش إسماعيل . وأما الرجل الذي لا أب له : فالمسيح ، وأما الرجل الذي لا أم له فآدم عليه السلام . وأما القبر الذي جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام . سار به في البحر ، وأما قوس قزح : فأمان من الله لعباده من الغرق ، وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة فبطن البحر حين انفلق لبنى إسرائيل ، وأما الظاعن ، الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها ، فجبيل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال ، فلما عصت بنو إسرائيل أطواره الله - تعالى - بجناحين فنادى مناد : إن قبلتم التوراة كشفته عنكم ، وإلا ألقيتها عليكم ، فأخذوا التوراة معذرين فرده الله - تعالى - إلى موضعه ، فذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ نَفَقْنَا لَبْلَجًا فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٧١] الآية . وأما الشجرة التي نبتت من غير ماء فشجرة البقطين التي أنبتها الله - تعالى - على يونس عليه السلام ، وأما الشيء الذي تنفس بلا روح فالصبح . قال الله - تعالى - : ﴿ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٨] . وأما اليوم فعمل ، وأمس فمثل ، وغد فأجل ، وبعد غد فأمل ، وأما البرق فمخاريق^(١) بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب ، وأما الرعد فاسم الملك الذي يسوق السحاب ، وصوته زجره ، وأما المحو الذي في القمر فقول الله - تعالى - : ﴿ وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَتَحَوَّنَا أَيَّةَ الْآلِيلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٣] لولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل .

ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال : تَمَّ الله عليك ما أنت فيه ، وحقَّق ظَنُّكَ فيما ترجوه ، وتفضل عليك بما لم تَحْتَسِبْهُ .

وحكى : أَنَّ الحجاج سأل يوما الغضبان بن القُيعثري عن مسائل يمتحنه فيها ، من جملتها : أن قال له : من أكرم الناس ؟ قال : أفقههم في الدين ، وأصدقهم لليمين ، وأبذلهم للمسلمين ، وأكرمهم للمهانين ، وأطعمهم للمساكين . قال : فمن أَلَمَّ الناس ؟ قال : المعطى على الهوان ، المقتر على الإخوان ، الكثير الألوان . قال : فمن شر الناس ؟ قال : أطولهم جفوة ، وأدومهم صَبُوة^(٢) ، وأكثرهم خلوة ، وأشدهم قسوة . قال : فمن أشجع الناس ؟ قال : أضربهم بالسيف ، وأقراهم للضيف ، وأتركهم للحَيِّف . قال : فمن أجبن الناس ؟ قال : المتأخر عن الصفوف ، المتقبض عن الرُّخوف ، المرتعش عند الوقوف ، المحب ظلال السقوف ، الكاره لضرب السيوف ، قال : فمن أثقل الناس ؟ قال : المتفنن في الملام ، الضنين بالسلام ، المهذار^(٣) في الكلام ، المقبَّب على الطعام^(٤) . قال : فمن خير الناس ؟ قال : أكثرهم إحسانا ، وأقومهم ميزانا ، وأدومهم غفرانا ، وأوسعهم ميدانا ، قال : لله أبوك فكيف يعرف الرجل الغريب ، أحسب هو أم غير حسيب ؟ قال : أصلح الله الأمير : إنَّ الرجلَ الحسيبَ يَدُلُّكَ أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله ، وبشاشته ، وحسن مداراته على أصله ، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شمائله ، والنذل الجاهل يجهله فمثله كمثل الدُّرَّة^(٥) إذا وقعت عند من لا يعرفها ازدراها ، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها ، وأكرموها فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة . فقال الحجاج لله أبوك ! فما العاقل والجاهل ؟ قال : أصلح الله الأمير العاقل : الذي لا يتكلم هَذَرًا ولا ينظر شَرَرًا ، ولا يُضمر غَدَرًا ولا يطلب عَذَرًا . والجاهل هو المهذار في كلامه ، المنان بطعامه ، الضنين بسلامه ، المتطاول على إمامه ، الفاحش على غلام . قال : لله أبوك ، فما الحازم الكيس ؟ قال : المقبل على شأنه ، التارك لما لا يعنيه قال : فما العاجز ؟ قال : المعجب بآرائه ، الملتفت إلى ورائه . قال : هل عندك من النساء خبر ؟ قال : أصلح الله الأمير إني بشأنهن خبير إن شاء الله - تعالى - إن النساء من

(١) مخاريق: مفرد ما يخراق ، وهو السيف ، أو منديل ونحوه يُلوى فيضرب به أو يُقَرَّع به في لُعبة للصبيان .

(٢) أدومهم صَبُوة: أي أدومهم لَهْوًَا .

(٣) المهذار: المتكلم بما لا ينبغي !

(٤) المُقَبَّب على الطعام : الذي يجمع اللحم أمامه كالثقة .

(٥) الدُّرَّة: اللؤلؤة العظيمة .

أمهات الأولاد بمنزلة الأضلاع إن عدلتها انكسرت ولهنّ جوهر لا يصلح إلا على المداراة فمن دارهنّ انتفع بهنّ ، وقرّت عينه ، ومن شاورهنّ كدّرهنّ عيشه ، وتكدّرت عليه حياته ، وتنغصت لذاته فأكرههنّ أعقهنّ ، وأفخر أحسابهنّ العفة ، فإذا زلنّ عنها فهنّ أنثن من الجيفة . فقال له الحجاج : يا غضبان ، إني موجهك إلى ابن الأشعث وأفدا فماذا أنت قائل له ؟ قال : أصلح الله الأمير أقول : ما يُرديه ، ويؤذيه ، ويضنيه ، فقال : إني أظنك لا تقول له ما قلت ، وكأنني بصوت جلالك تجلجل في قصرى هذا . قال : كلاً ، أصلح الله الأمير سأحدد له لسانى ، وأجره في ميدانى . قال : فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان ، فلما توجه إلى ابن الأشعث ، وهو على كرمان بعث الحجاج عينا عليه ، أى جاسوساً ، وكان يفعل ذلك مع جميع رسله ، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث ^(١) قال له : إن الحجاج قد همّ بخلعك وعزلك ، فخذ حذرَكَ وتغذبه قبل أن يتعشى بك ، فأخذ حذره عند ذلك ثم أمر للغضبان بجائزة سنّة ^(٢) وخلع ^(٣) فاخرة فأخذها وانصرف راجعاً فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر والقيظ وهى رملة شديدة الرمضاء فضرب قبتَه فيها ، وحط عن رواجله فبينما هو كذلك إذا بأعرابى من بنى بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصدا نحوه ، وقد اشتد الحر ، وحملت الغزاة وقت الظهيرة وقد ظمى ظمأ شديداً ؛ فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقال الغضبان : هذه سنّة ، وردّها فريضة قد فاز قائلها ، وخسر تاركها ، ما حاجتك يا أعرابى ؟ قال : أصابتنى الرمضاء ^(٤) ، وشدة الحر والظمأ ، فتممت قبتك ^(٥) أرجو بركتها . قال الغضبان : فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم . قال : أيتها تعنى ؟ قال : قبة الأمير ابن الأشعث . قال : تلك لا يوصل إليها . قال إن هذه أمني منها . فقال الأعرابى : ما اسمك يا عبدالله ؟ قال : آخذ ؛ فقال : وما تعطى ؟ قال : أكره أن يكون لى اسمان . قال : بالله من أين أنت ؟ قال : من الأرض . قال : فأين تريد ؟ قال : أمشى فى مناكبها ، فقال الأعرابى وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر : أتقرض الشعر ؟ قال : إنما يقرض الفأر فقال : أفتسجع ؟ قال : إنما تسجع الحمامة . فقال : يا هذا، ائذن لى أن أدخل قبتك . قال : خلّفك أوسع لك . فقال : قد أحرقتى حر الشمس ! قال : ما لى عليها من سلطان ، فقال : الرمضاء أحرقت قدمى . قال : بلّ عليها تبرّد ^(٦) فقال : إني لا أريد طعامك ولا شرباك . قال : لا تتعرض لما لا تصل إليه ، ولو تلفت روحك فقال الأعرابى : سبحان الله ! قال : نعم من قبل أن تطلع أضراسك . فقال الأعرابى : ما عندك غير هذا ؟ قال : بلى هراوة ^(٧) أضرب بها رأسك فاستغاث الأعرابى يا جار بنى كعب ! قال الغضبان بشّ الشيخ أنت ، فوالله ما ظلمك أحد فتستغيث ! فقال الأعرابى : ما رأيت رجلاً أقسى منك ، أثبتك مستغيثاً فحجبتنى وطردتنى ، هلاً أدخلتنى قبتك ، وطارحتنى القريض ؟ ! قال : ما لى بمحادثتك من حاجة . فقال الأعرابى : بالله ما اسمك ؟ ومن أنت ؟ فقال : أنا الغضبان بن القُبَعَثْرِى ، فقال : اسمان منكراً خُلِقَا من غضب ! قال : قف متوكئاً لى باب قبتى برجلك هذه العوجاء ، فقال : قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشنعاء . قال الغضبان : لو كنت حاكماً لجُرت فى حكومتك ، لأن رجلى فى الظل قاعدة ، ورجلك فى الرمضاء قائمة ! فقال الأعرابى : إني لأظنك حُرُورِيّاً ^(٨) . قال : اللهم اجعلنى ممن يتحرى الخير ويريد . فقال : إني لأظن عنصرك فاسداً . قال : ما أقدرنى على إصلاحه فقال الأعرابى : لا أرضاك الله ولا حيّاك ثم ولّى ، وهو يقول :

لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي قَوْمٍ تَسْوَدُهُمْ إِنِّي أَظُنُّكَ وَالرَّحْمَنُ شَيْطَانَا
أَتَيْتُ قُبَّتَهُ أَرْجُو ضِيافتهُ فَأَظْهَرَ الشَّيْخَ ذُو الْقَرْنَيْنِ جَرْمَانَا

فلما قدم الغضبان على الحجاج ، وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث ، وبين الأعرابى قال له

(١) ابن الأشعث هو : عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي ، كانت بينه وبين الحجاج حروب انتهت بقتله سنة ٨٥ هـ .

(٢) سنّة : أي ربيعة ذات قدر .

(٣) الخلع : جمع خلعة : ما يخلعه السلطان على الولاة والمقربين لديه من ثياب غالية ، وملابس فاخرة !

(٤) شدة الحر والأرض ، والرمال الملتهبة في الصيف ، ويقال في المثل «كالمستجير من الرمضاء بالنار» .

(٥) تيممت قبتك : قصدتها .

(٦) هراوة : عصا غليظة .

(٧) طارحتنى : أي حاورتنى وناظرتنى ، والقريض : الشعر .

(٨) حُرُورِيّاً : منسوباً إلى الحرورية تنسب إلى حروراء بقرب الكوفة اجتمع بها جماعة من الخوارج حين خالفوا عليّاً ؑ .

الحجاج : يا غضبان كيف وجدت أرض كِرمَان قال : أصلح الله الأمير ، أرض يابسة الجيش بها ضِعَافٌ ، هُزَلَاءٌ ، إن كثروا جاعوا وإن قلوا ضاعوا ؛ فقال له الحجاج : أُلست صاحب الكلمة التي بلغتني أنك قلت لابن الأشعث تغذ بالحجاج قبل أن يتعشى بك ؟ فوالله لأجبتك عن الوساد ^(١) ، ولأنزلتك عن الجياد ، ولأشهرتك في البلاد . قال : الأمان أيها الأمير فوالله ما ضرت من قِلت فيه ، ولا نفعت من قِلت له . فقال له : ألم أقل لك كأني بصوت جلالك تجلجل في قصرى هذا ؟ اذهبوا به إلى السجن ، فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله ، ثم إن الحجاج ابنتي الخضراء بواسط ، فأعجب بها فقال لمن حوله : كيف ترون قِبتى هذه وبناءها فقالوا : أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة ، نفصرة بهجة ، قليل عيبها ، كثير خيرها قال : لِمَ لَمْ تخبروني بنصح ؟ قالوا : لا يصفها لك إلا الغضبان فيبعث إلى الغضبان فأحضره . وقال له : كيف ترى قِبتى هذه وبناءها ، قال : أصلح الله الأمير بنيتها في غير بلدك ، لا لك ولا لولدك ، لا تدوم لك ، ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك ، وما أنت لها بياق فقال الحجاج : قد صدق الغضبان ، ردوه إلى السجن فلما حملوه قال : **سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** . [الزخرف: ١٣] فقال : أنزلوه ، فلما أنزلوه ، قال : **رَبِّ أَنْزِلْنِي مُزَلًّا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ** . [المؤمنون: ٢٩] فقال : اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض قال : **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** . [طه: ٥٥] فقال : جروه ، فأقبلوا يجرونه وهو يقول : **بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِبُهَا وَرَسُولُهَا إِنَّ رَبِّي لَقَفُورٌ رَحِيمٌ** . [هود: ٤١] فقال الحجاج : ويلكم اتركوه ! فقد غلبني دهاء وخبثا ثم عفا عنه ، وأنعم عليه ، وخلص سيله .

وحدث الزبير : قال : دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون وقد كانت ضياعهم أخذت ! فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك سليل نعمتك ، وغصن من أغصان دوحك ! أتأذن له في الكلام ؟ فقال : تكلم ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، ولا إله إلا الله رب العرش العظيم ، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ، ونستمع الله لحياطة ديننا ودينانا ، ورعاية أدياننا وأقسانا ، ببقائك يا أمير المؤمنين ، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا ، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، فإن الحق لا تعفو آثاره ، ولا ينهدم مناره ، ولا يُبْتِ حبله ، ولا يزول ، ما دمت بين الله وبين عباده ، والأمين على بلاده ، يا أمير المؤمنين هذا المقام مقام العائذ بظلك ، الهارب إلى كنفك ^(٢) ، الفقير إلى رحمتك وعدلك من تعاور النوائب ^(٣) ، وسهام المصائب ، وكلب الدهر ، وذهاب النعمة ، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب ويبرد غليل القلوب ، وقد نَقَذَ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آبائه الطيبين ، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين ، وقد قمت مقامى هذا متوسلا إليك بآبائك الطيبين ، وبالرشيد خير الهداة الراشدين ، والمهدى ناصر المسلمين ، والمنصور مُنْكَلِ الظالمين ، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين ، مزدلفا ^(٤) إليك بالطاعة التي أفرع عليها غصنى ، واحتنكت بها ^(٥) سنى ، وریش ^(٦) بها جناحى ، متعوذا من شماتة الأعداء وحلول البلاء ، ومقارفة ^(٧) الشدة بعد الرخاء ، يا أمير المؤمنين قد مضى جدك المنصور ، وعمك صالح بن علي جدى ، وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين وعرفه ، وقد أثبت الله الحق في نصابه ، وأقره في داره وأربابه ، يا أمير المؤمنين ، إن الدهر ذو اغتيال ، وقد يقلب حالا بعد حال ، فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار ، والعجائز الكبار ، الذين سقاهاهم الدهر كدرًا بعد صفو ، ومرا بعد حلو ، وهبنا نعم آباءك اللاتي غدتنا صغارا وكبارا وشبابا وأشيانا وأمشاجا في الأصلاب ، ونطفنا في الأرحام ، وقَدَّمْنَا في القرابة حيث قَدَّمْنَا الله منك في الرحم ، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك ، ووجوهنا قد عنت لطاعتك ، فأقلنا

(١) الوساد: بكسر الواو وفتح السين هو المُكَا وكل ما يوضع تحت الرأس كالمخدة وغيرها.

(٢) الكنف: بفتح الكاف والنون: جانب الشيء، وكُنْفَا الرجل: أي جِصَّاهُ عن يمينه وشماله.

(٣) تعاور النوائب: تداولها عليه واحدة بعد أخرى.

(٤) مُزْدَلِفًا إليك بالطاعة: أي مُقَرَّبًا إليك بها.

(٥) احتنكت بها: يقال احتنكت الرجل، أي صار حكيما مهذبًا.

(٦) كناية عن القوة والمعونة وصلاح الحال.

(٧) قارف الشيء: أي قاربه وخالطه.

عشرتنا يا أمير المؤمنين ، إن الله سهل بك الوعور ^(١) ، وجلا بك الديجور ^(٢) ، وملأ من خوفك القلوب والصُدور ، بك يُرَدِّع الفاسق ويقمع بك المنافق ، فارتبط نعم الله عندك بالعمو والإحسان ، فإن كل راع مسئول عن رعيته ، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها ، يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن مذنّب عاثر ، وقد قال الله - جل ثناؤه وتعالّت قدرته - : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].
أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي ، ومنعه الكافي ، ثم أنشد يقول :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَاكَ رَكْبٌ لَهُم قُرْبَى وَلَيْسَ لَهُمْ بِلَادٌ ^(٣)
هُمْ الصَّدْرُ الْمُقَدَّمُ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَنْتَ الرَّأْسُ تَنْبَعُكَ الْعِبَادُ
لَقَدْ طَابَتْ بِكَ الدُّنْيَا وَلَدَتْ وَأَرْجُو أَنْ يَطِيبَ بِكَ الْمَعَادُ
فَكَيْفَ تَنَالُكُمْ لِحَظَاتٍ عَيْنٍ وَكَيْفَ يَقْلُ سُوْدُوكَ الْبِلَادُ

قال : فاستحسن المأمون كلامه . وأمر له بالحلل الفاخرة ، والجوائز السنية ، وأمر برّد ضياعه ، وقرب منزلته ، وأدناه ، ودفع إليه من المال ما أغناه .

• ومن حكايات الفصحاء ونوادر البلغاء :

[١] ما حكى : أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصّه ، وأهل مسامرته فقال : أيكم يأتي بحروف المعجم ^(٤) في بدنه وله على ما يتمناه ، فقام إليه سويد بن غفلة ، فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين . قال : هات فقال : نعم يا أمير المؤمنين : أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغر ، جمجمة ، حلق ، خد ، دماغ ، ذكر ، رقة ، زند ، ساق ، شفة ، صدر ، ضلع ، طحال ، ظهر ، عين ، غيب ، فم ، قفا ، كف ، لسان ، منخر ، نغونغ ، هامة ، وجه ، يد ، وهذه آخر حروف المعجم ، والسلام على أمير المؤمنين . فقام بعض أصحاب عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين فضحك عبد الملك ، وقال لسويد : أسمعت ما قال ؟ قال : أصلح الله الأمير أنا أقولها ثلاثاً فقال : هات ، ولك ما تتمناه ؛ فابتدأ يقول : أنف ، أسنان ، أذن * بطن ، بنصر ثدية * ترقوة ، تمرّة ، تربية * ثغر ، ثنايا ، ثدى * جمجمة ، جنب ، جهة * حلق ، حنك ، حاجب * خد ، خنصر ، خاصرة * دبر ، دماغ ، درادير * ذقن ، ذكر ، ذراع * رقة ، رأس ، ركة * زند ، زلقوم ، زور - فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه - ساق ، سرّة ، سبابة * شفة ، شفر ، شارب * صدر ، صدغ ، صلعة * ضلع ، ضفيرة ، ضرس * طحال ، طرة ، طرف * ظهر ، ظفر ، ظلم * عين ، عنق ، عاتق * غيب ، غلصمة ، غنة * فم ، فك ، فؤاد * قلب ، قفا ، قدم * كف ، كتف ، كعب * لسان ، لحية ، لوح * منخر ، مرفق ، منكب * نغونغ ، ناب ، نن * هامة ، هيئة ، هيف * وجه ، وجنة ، ورك * يمين ، يسار ، يافوخ * ثم نهض مسرعاً فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين ، قال : فعندها ضحك عبد الملك وقال : والله ما تريدنا عليهم شيئاً أعطوه ما يتمناه ثم أجازاه ، وأنعم عليه وبالغ في الإحسان إليه .

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عُتُوّه وإسرافه جواداً ، وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك أتبع ذلك بالاستغفار مرات ، وكان يُطعم على ألف خوان ^(٥) ، وكان يطوف على الموائد ويقول يا أهل الشام مزقوا الخبز لثلاثي يعود إليكم ثانياً وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال ، وذلك في كل يوم ، وكان يقول ، أرى الناس يتخلفون عن طعامي ، فليل له : إنهم يكرهون الحضور قبل أن يُدْعَوْا فقال : قد جعلت رسولي إليهم كل يوم الشمس إذا طلعت ، وعند المساء إذا غربت .

[٢] وحكى : عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق ،

(١) الوعور : بضم الواو والعين مفرداً وعر ، وهو المكان الصّلب والمُخيف .

(٢) الديجور : الظلام .

(٣) التّلاذ : المال الموروث والأصلي القديم .

(٤) المراد بحروف المعجم : حروف الهجاء من الهمزة إلى الياء .

(٥) الخوان : بكسر الخاء وضمها : ما يؤكل عليه ، والجمع أخوته ، وخونٌ ، وأخاوين .

جمع أهل بيته وأولى النجدة من جُنْدِه وقال : أيها الناس ، إن العراق كدر ماؤها ، وكثر غوغاؤها ، واملوح عذُْبُها^(١) ، وعظم خطيها ، وظهر ضرامها^(٢) ، وعسر إخماد نيرانها ، فهل من ممهد لهم بسيف قاطع ، وذهن جامع ، وقلب ذكي ، وأنف حمى فيخمد نيرانها ، ويردع غيلانها ، وينصف مظلومها ، ويداوى الجرح حتى يندمل ، فتصفو البلاد وتأمين العباد ؟ ! فسكت القوم ولم يتكلم أحد ، فقام الحجاج وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا للعراق . قال : ومن أنت . لله أبوك . ؟ قال : أنا الليث الضمضام^(٣) ، والهزبر الهشام^(٤) ، أنا الحجاج بن يوسف . قال : ومن أين ؟ قال : من ثقيف ، كهوف الضيوف ، ومستعملى السيوف . قال : اجلس لا أم لك ، فلست هناك ثم قال : ما لى أرى الرءوسَ مُطْرِقَةً ، والألسن معتقلة ؟ فلم يجبه أحد ، فقام إليه الحجاج وقال : أنا مُجْبِدُّ الفُسَّاق . ومُطْفِئُ نار النفاق . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا قاصم الظلمة ، ومعدن الحكمة ، الحجاج بن يوسف ، معدن العفو والعقوبة ، وآفة الكفر والريبة . قال : إليك عنى وذلك فلست هناك .

ثم قال : من للعراق ؟ فسكت القوم ، وقام الحجاج ، وقال : أنا للعراق ؛ فقال : إذن أظنك صاحبها ، والظافر بغنائمها ، وإن لكل شيء يابن يوسف آية وعلامة ، فما آيتك وما علامتك ؟ قال : العقوبة والعفو ، والاعتذار والبسط والازورار^(٥) ، والإدناء والإبعاد ، والجفاء والبر ، والتأهب والحزم ، وخوض غمرات الحروب بجنان^(٦) غير هَيُوب ، فمن جادلنى قطعته ، ومن نازعنى قصمته ، ومن خالفنى نزعته ، ومن دنا منى أكرمته ، ومن طلب الأمان أعطيته ، ومن سارع إلى الطاعة بجلته ؛ فهذه آيتى وعلامتى ، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبلونى ، فإن كنت للأعناق قَطَاعًا ، وللأموال جَمَاعًا ، وللأرواح نَزَاعًا ، ولك فى الأشياء نَقَاعًا ، وإلا فليستبدل بى أمير المؤمنين فإن الناس كثير ، لكن من يقوم بهذا الأمر قليل ، فقال عبد الملك : أنت لها ، فما الذى تحتاج إليه ؟ قال : قليل من الجند والمال ؛ فدعا عبد الملك صاحب جُنْدِه فقال : هبى له من الجند شهوته ، وألزمهم طاعته ، وحذرهم مخالفته ، ثم دعا الخازن ، فأمره بمثل ذلك ، فخرج الحجاج قاصدا ، نحو العراق ، قال عبد الملك بن عمير : فبينما نحن فى المسجد الجامع بالكوفة ، إذ أتانا آت ، فقال : هذا الحجاج قدم أميرًا على العراق . فطاولت الأعناق نحوه ، وأفرجوا له عن صحن المسجد ، فإذا نحن به يمشى وعليه عمامة حمراء مثلثا بها ؛ ثم صعد المنبر . فلم يتكلم كلمة واحدة ، ولا نطق بحرف حتى غُصَّ المسجد بأهله ، وأهل الكوفة يومئذ دَوُّو حالة حسنة ، وهيئة جميلة ، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه عليهم الخز والديباج^(٧) ، قال : وكان فى المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي ، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له : أسبه لكم . قال : اكفف حتى نسمع ما يقول ، فأبى ابن صابئ وقال : لعن الله بنى أمية حيث يولون ويستعملون مثل هذا على العراق ، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميرها ، فوالله لو دام هذا أميرا كما هو ما كان بشيء ، والحجاج ساكت ينظر يمينا وشمالا ، فلما رأى المسجد قد غُصَّ بأهله قال : هل اجتمعتم فلم يدل عليه أحد شئت فقال : إني لا أعرف قدر اجتماعكم . هل اجتمعتم ؟ فقال رجل من القوم : قد اجتمعنا أصلح الله الأمير ، فكشف عن لثامه ، ونهض قائما ، فكان أول شيء نطق به أن قال : والله إني لأرى رءوسا أينعت ، وقد حان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وإنى لأرى الدماء تترقق بين العمائم واللحى ، والله يأهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته^(٨) بين يديه ، فعجم^(٩) عيدانها ، فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فرماكم بى لأنكم طالما آثرتم الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال ، والله لأنكُلن

(١) املوح : صار ملحا بعد عذوبة .

(٢) ضرامها : الضرام بتشديد الضاد المكسورة : ما تُضرم به النار من الحطب وغيره .

(٣) الضمضام : بتشديد الضاد المفتوحة وإسكان الميم أى الشجاع ، والجمع ضماضم .

(٤) أى الأسد الكاسر والضحخ الصلب .

(٥) الأزورار : الميل والانحراف .

(٦) جنان : الجنان بفتح الجيم والنون ، من كل شيء جوفه ، وهو القلب ، وفي المثل : «إذا قرح الجنان بكت العينان» .

(٧) الخَزْ : ما ينسج من صوف وإبريسم ، وما ينسج من إبريسم خالص ، أما الديباج من الثياب فسده ولحمته حرير ، وهو فارسي معرب .

(٨) الكنانة : [جعبة الرماح] ويعد الحجاج بن يوسف ثالث ثلاثة طبعوا الخطابة الإسلامية بطابع خاص : أولهم : علي بن أبي طالب وثانيهم : زياد ،

وقد شب الحجاج شجاعا داهية عنيقا ، وحاكما مستبدا وطدَّ الملك لبني أمية ومات سنة [٩٥هـ] .

(٩) عجم عيدانها : يقال عَجِمَ عودُه : أى امتحنه واختبره .

بكم في البلاد ، ولأجعلنكم مثلاً في كل واد ، ولأضربنكم ضرب غرائب^(١) الإبل ، وإنى يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت ، ولا أعزم إلا أمضيت ، فإياي وهذه الزرافات^(٢) والجماعات ، وقيل وقال وكان ويكون ، يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأثاها وعيد القرى من ربه فاستوثقوا واستقيموا ، واعملوا ولا تملوا ، وتابعوا وبايعوا ، واجتمعوا واستمعوا ، فليس مني الإهذار^(٣) والإكثار إنما هو هذا السيف ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمر المؤمنين صعبكم ، ويقيم له أودكم^(٤) ، ثم إنى وجدت الصدق مع البر ، ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ، ووجدت الفجور في النار .

وقد وجهني أمير المؤمنين إليكم وأمرني أن أنفق فيكم ، وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه ، يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين ؛ فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يرد أحد شيئاً . فقال الحجاج : أكف يا غلام ، ثم أقبل على الناس فقال : أسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه ؟ ! هذا أدبكم الذي تأدبتم به ! أما والله لأؤدبكنم أدبا غير هذا الأدب . اقرأ يا غلام فقرأ حتى بلغ قوله : سلام عليكم ؛ فلم يبق أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل بعد ما فرغ من خطبته وقراءته ، ووضع للناس عطاياهم ، فجعلوا يأخذونها حتى أتاه شيخ يرعش فقال : أيها الأمير إنى على الضعف كما ترى ، ولى ابن هو أقوى منى على الأسفار أفتقبله بديلاً منى ؟ فقال : تقبله أيها الشيخ ، فلما ولى قال له قائل : أتدري من هذا أيها الأمير ؟ قال : لا . قال : هذا عمير بن صابئ الذي يقول :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالُهُ

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان وهو مقتول فوطئ في بطنه ، فكسر ضلعين من أضلعه ، فقال الحجاج : ردوه ، فلما ردوه قال له الحجاج : أنت الفاعل بأمر المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار ؟ إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين ! يا سيف ؛ اضرب عنقه ! فاضرب عنقه ! وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وسطر .

ومن حكايات الحجاج ما حكى أنه لما أسرف في قتل أسرى « دير الجماجم »^(٥) وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق عليه وكتب إليه أما بعد : فقد بلغنى عنك إسراف في الدماء ، وتبذير في العطاء ، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية ، وفي العمد بالقود^(٦) ، وفي الأموال أن تردها إلى مواضعها ثم تعمل فيها برأى ، فإنما هو مال الله - تعالى - ، ونحن أماناؤه فإن كنت أردت الناس لى فما أغنانى عنهم ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم وسيأتيك عنى أمران : لين وشدة فلا يؤمنك إلا الطاعة ، ولا يوحشك إلا المعصية ، وإذا أعطاك الله - عز وجل - الظفر فلا تقتلن جانحاً^(٧) ولا أسيراً ، وكتب في أسفل الكتاب :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُشْرِكْ أَمْوَالاً كَرِهَتْهَا فَإِنْ تَرَمَنْتَنِي غَفْلَةً فُرْشِيَّةً وَإِنْ تَرَمَنْتَنِي وَلُبَّةً أَمْوِيَّةً فَلَا تَأْمَنْتَنِي وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ فَلَا تَعُدُّ مَا يَأْتِيكَ مِنِّي وَإِنْ تَعُدُّ فَلَا تَمْنَعَنَّ النَّاسَ حَقًّا عِلْمَتَهُ

وَتَطْلُبُ رِضَائِي بِالَّذِي أَنَا طَالِبُهُ فَيَا رَبِّمَا قَدْ غَضَّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ فَهَذَا وَهَذَا كُلُّ ذَا أَنَا صَاحِبُهُ فَإِنَّكَ تُجْزَى بِالَّذِي أَنْتَ كَاسِبُهُ يَقْضَى بِهِ يَوْمًا عَلَيْكَ نَوَادِبُهُ وَلَا تُعْطِينَ مَا لَيْسَ لِلنَّاسِ وَاجِبُهُ

(١) غرائب الإبل : جمع غريبة ، وهي التي تبعد عن موطنها وتشرذ عن جماعتها .

(٢) الزرافات : واحدها الزرافة ، وهي الجماعوة من الناس .

(٣) الإهذار والإكثار : الإكثار من الهذيان وقالوا : من أكثر أهذر .

(٤) أودكم : بفتح الألف والواو والذال ، أي اعوجاجكم .

(٥) دير الجماجم : موضع بالعراق قريب من الكوفة انتصر فيه الحجاج على ابن الأشعث .

(٦) القود : بفتح القاف والواو ، أي القصاص .

(٧) جانحاً : المراد ، أي الرجل المُقَاد .

فإنك إن تُعطى الحقوق فإنما الثوابل شيء لا يثيبك وإهبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج ، كتب إلى أمير المؤمنين أما بعد : فقد ورد كتاب أمير المؤمنين يذكر إسرائي في الدماء ، وتبذيري في الأموال ، ولعمري ما بالغت في عقوبة أهل المعصية ، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة ، فإن كان قتلى العصاة إسرائا ، وإعطائي المطيعين تبذيرا فليمض لى أمير المؤمنين ما سلف ، ووالله ما أصبت القوم خطأ فأديهم^(١) ، ولا ظلمتهم عمدا فأقأذ بهم^(٢) ، ولا قتلت إلا لك ، ولا أعطيت إلا فيك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . وكتب في أسفل الكتاب :

إذا أنا لا أبغى رضاك وأتقى
وما لامرئ بغد الخليفة جنة
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة
إذا أنا لم أذن الشفيق لنصح
وأعطى المواسي في البلاء عطية
فمن يتقى بؤسى ويرجو مودته
وأمرى إليك اليوم ما قلت قلته
ومهما أردت اليوم منى أردته
وقف بى على حد الرضا لا أجوزه
ولا فدغنى والأمور فإننى

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صولتى ، ولم يعاود لأمر كرهته إن شاء الله - تعالى - ، فمن يلومنى على محبته ؟ ! يا غلام ، واكتب إليه : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنت أعلى عينا بما هناك .

وفى مروج الذهب للمسعودى : أن أم الحجاج ، وهى الفارعة بنت همام ولدته مشوها لا دبر له فثقب له دبر ، وأبى أن يقبل الثدي ، وأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصوّر لهم فى صورة الحارث بن كلدة حكيم العرب ، فسألهم عن ذلك ، فأخبره مخبر من أهله فقال لهم : اذهبوا له تيسا ، وألقوه من دمه ، وأولغوه فيه . ثم اطلوا به وجهه ، ففعلوا ذلك فقبل الثدي ؛ فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء ، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء ، وارتكاب أمور لا يقدر غيره عليها ، وكانت أمة متزوجة قبل أبيه الحارث ابن كلدة ، فدخل عليها يوما فى السحر ، فوجدها تخلل أسنانها ، فطلقها ، فسألته لِمَ فعلت ؟ فقال لها : إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كان بقايا طعام فبك فأت قدره ، فقالت : كل ذلك لم يكن ، وإنما تخللت من شظايا السواك ؛ فقال : قُضى الأمر ، فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفى فأولدها الحجاج .

وقيل : إن الحجاج تقلد الإمارة ، وهو ابن عشرين سنة ، ومات وله ثلاث وخمسون سنة ، وكان من عنف السياسة ، وثقل الوطأة^(٣) ، وظلم الرعية ، والإسراف فى القتل على ما لا يبلغه وصف ، أحصى من قتله الحجاج بأمره سوى من قتله فى حروبه فكانوا مائة ألف وعشرين ألفا ، ووجد فى سجنه ٥٠ ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل ، وكان يحبس الرجال والنساء فى موضع واحد ، ولم يكن لحبسه سقف يستر الناس من الحر والبرد .

وقيل للشعبى : أكان الحجاج مؤمنا ؟ قال : نعم بالطاغوت . وقال : لو جاءت كل أمة بخبيثها وفاسقها ، وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم . والله أعلم .

(٢) أقاد بهم : القود : القصاص . أي : فيقتص منى .

(٤) مُجانيه : تاركه .

(١) فأديهم : أتحمّل ديّاتهم ، وأدفعها لأولياء أمورهم .

(٣) قارف : مارس وارتكب .

(٥) الوطأة : بفتح الداء ، الطاء ، أء ، السائلة ، السائلة : الطريق المسلوك .

وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال ، وحكاياتهم ، وما أعان الله - تعالى - عليه ، واستحضرتهم من أخبارهم وأنا قائل إن شاء الله - تعالى - ما استحضرتهم من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن . والله المستعان .

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكى : عن أبي عبد الله النميري أنه قال : كنت يوماً مع المأمون ، وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة^(١) فأطلق عنان جواده ، وكان على سابق من الخيل ، فأشرف على نهر ماء من الفرات . فإذا هو بجارية عربية خماسية^(٢) القد ، قاعدة النهدي ، كأنها القمر ليلة تمامة ، ويدها قرية قد ملأها ماء ، وحملتها على كتفها وصعدت من حافة النهر فانحلت وكاؤها^(٣) ، فصاحت برفع صوتها يا أبت أدرك فأها ، قد غلبني فوها لا طاقة لي بفيها ! قال : فعجب المأمون من فصاحتها ، ورمت الجارية القرية من يدها ، فقال لها المأمون : يا جارية ، من أي العرب أنت ؟ قالت : أنا من بنى كلاب . قال : وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب ؟ فقالت : والله لست من الكلاب ، وإنما أنا من قوم كرام غير لثام ، يقرون الضيف ، ويضربون بالسيف ، ثم قالت : يا فتى ، من أي الناس أنت ؟ فقال : أو عندك علم بالأنساب ؟ قالت : نعم . قال لها : أنا من مضر الحمراء . قالت : من أي مضر ؟ قال من أكرمها نسبا وأعظمها حسبا ، وخيرها أما وأبا ، ممن تهابه مضر كلها ، قالت : أظنك من كنانة ، قال : أنا من كنانة . قالت : فمن أي كنانة ؟ قال : من أكرمها مولدا ، وأشرفها محتدا ، وأطولها في المكرمات يدا ، ممن تهابه كنانة ، وتخافه . فقالت : إذن أنت من قريش . قال : أنا من قريش . قالت : من أي قريش ؟ قال : من أجملها ذكرا ، وأعظمها فخرا ، ممن تهابه قريش كلها ، وتخشاها . قالت : أنت - والله - من بنى هاشم . قال : أنا من بنى هاشم . قالت : من أي هاشم ؟ قال : من أعلاها منزلة ، وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخافه . قال : فعند ذلك قتلت الأرض ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين . قال : فعجب المأمون ، وطرب طربا عظيما ، وقال : والله لا تزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم ، ووقف حتى تلاحقته العساكر فنزل هناك ، وأنفذ خلف أبيها ، وخطبها منه ، فزوجه بها وأخذها وعاد مسرورا وهي الدة ولده العباس . والله أعلم .

وحكى : أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حسنها فأنفذ إليها يخطبها ، وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها ، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ، ودخل بها ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة^(٤) وكانت هند فصيحة أدبية ، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق ، فأقامت معه ما شاء الله ، ثم دخل عليها في بعض الأيام ، وهي تنظر في المرأة تقول :

وَمَا هُنْدُ إِلَّا مُهْرٌ عَرَبِيَّةٌ سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَحَلَّلَهَا بِثُلْ
فَإِنْ وَلَدَتْ فَخَلَّ قَلْبُهُ دَرَاهِمًا وَإِنْ وَلَدَتْ بِغُلٍّ فَجَاءَ بِهِ الْبَغْلُ

فانصرف الحجاج راجعا ولم يدخل عليها ، ولم تكن علمت به ، فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر ، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم ، وهي التي كانت لها عليه ، وقال : يا بن طاهر ، طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها : يقول لك أبو محمد الحجاج : كنت فينب^(٥) ، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبلة فقالت : اعلم يا بن طاهر أنا والله كنا فما حمدنا ، وبنا فما ندمنا ! وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها بشارة لك بخلاصى من كلب بنى ثقيف . ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ، ووصف له جمالها فأرسل إليها يخطبها فأرسلت إليه كتابا تقول فيه : بعد الثناء عليه ، اعلم يا أمير المؤمنين أن الإناء ولغ فيه

(١) طريدة: ما طارده من صيد وغيره.

(٢) الخماسي: من الغلمان والشباب: ما طوله خمسة أشبار.

(٣) المعرة: بلد أبي العلاء المعري وإليه ينسب وهي بالشام. وهي معرة النعمان: مدينة بسورية الآن.

(٤) وكاؤها: يقال واكأ على يديه مواكأة وكأء: تحامل عليهما ورفعهما ومدهما في الدعاء.

(٥) كنت: أي كنت زوجة، فينبت: فأصبحت مطلقة طلاقا بانئا.

الكلب ! فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها ، وكتب إليها يقول : إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سيعا إحداهن بالتراب^(١) ، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال ، فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة فكتبت إليه : بعد الثناء عليه ، يا أمير المؤمنين والله لا أجل العقد إلا بشرط ، فإن قلت : ما هو الشرط ؟ قلت : أن يقود الحجاج محملى من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التي كان فيها أولا ، فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكا شديدا ، وأنفذ إلى الحجاج ، وأمره بذلك فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب ، وامثل الأمر ، ولم يخالف ، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز ، فتجهزت وسار الحجاج في موكبه ، حتى وصل المعرة بلد هند ، فركبت هند في محمل الزفاف ، وركب حولها جواربها وخدمها ، وأخذ الحجاج بزمam البعير يقوده ويسير بها ، فجعلت هند تتواغد عليه^(٢) ، وتضحك مع الهيفاء دايتها ، ثم إنها قالت للهيفاء : يا داية أكشفي لى سجع^(٣) المحمل ، فكشفته فوق وجهها في وجه الحجاج ، فضحكت عليه فأنشد يقول :

فإن تضحكى منى فيا طول ليلة تركت فيها كالقبا المفرج
فأجابه هند تقول :

وما نبالى إذا أرواخنا سلمت بما فقدناه من مال ومن نسب^(٤)
فالمال مكتسب والعز مرتجع إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل كذلك تضحك وتلعب ، إلى أن قربت من بلد الخليفة ، فرمت بدينار على الأرض ، ونادت يا جمال ، وإنه قد سقط منا درهم فارعه إلينا فنظر الحجاج إلى الأرض ، فلم يجد إلا دينارا فقال : إنما هو دينار ، فقالت : بل هو درهم ، قال : بل دينار ، فقالت : الحمد لله سقط منا درهم فعوضنا الله دينارا . فحجل الحجاج وسكت ، ولم يرد جوابا ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها ، وكان من أمرها ما كان . وقد وجدت في بعض النسخ ما هو أوسع من هذا ولكن اقتصر على القليل منه إذ فيه الغرض . والله أعلم .

وقيل : إن جارية عرضت على الرشيد ليشتريها ، فتأملها ؛ وقال لمولاها : خذ جاريك فلولا كلف بوجهها^(٥) وخس بأنفها لاشتريتها ، فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة : يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول . فقال : قولى ، فأنشدت تقول :

ما سلم الظننى على حسنه كلاً ولا البذر الذى يوصف
الظننى فيه خنس بيّن والبذر فيه كلف يغرف

قال : فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها .

وقيل : عرضت على المأمون جارية بارعة فى الجمال فائقة فى الكمال ، غير أنها كانت تعرج برجلها ، فقال لمولاها : خذ بيدها ، وارجع فلولا عرج بها لاشتريتها ، فقالت الجارية : يا أمير المؤمنين ، إنه فى وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه ، فأعجبه سرعة جوابها ، وأمر بشرائها . ومن ذلك ما حكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوما تحت جوسق^(٦) ببستان ، فرأى جارية ذات وجه زاهر ، وكمال باهر ، لا يستطيع أحد وصفها ؛ فلما نظر إليها ذهل عقله ، وطار لبه ، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه ، وكانت الجارية عزبا ، وكتب إليها رقعة يعرض إليها بالزيارة فى جوسقها ، فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية ، ثم أرسلت إليه مع العجوز عنبرا

(١) حديث : «إذا ولغ الكلب . . . إلخ قال العجلوني [٣٠٢/١] رواه البزار بإسناد حسن عن أبي هريرة ورواه أحمد والنسائي بلفظ . . . «أولاهن» .

(٢) تتواغد عليه : تسبه وتشتبه كما يفعل الأوغاد اللثام .

(٣) السجع : بفتح السين المشددة وكسرهما وسكون الجيم : أحد السّثرين المقرونين بينهما فرجة ، والجمع أسجاف ، وسجوف .

(٤) المفرج : من بان مرفقه عن إبطه .

(٥) الكلف : يقع تكون فى الوجه ، والخنس فى الأنف : انحناء .

(٦) الجوسق : القصر الصغير والحسن ، والجمع جواسق .

وجعلت فيه زُرَّ^(١) ذهب ، وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز : هذا جواب رقعتي ، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه ، وتحير في أمره وكانت له ابنة صغيرة السن ، فلما رأت أباه متحيراً في ذلك قالت له : يا أبت ، أنا علمت معناه . قال : وما لله درك ؟ قالت :

أَهْدَتْ لَكَ الْعَنْبِرَ فِي جَوْفِهِ زُرٌّ مِنَ التَّبَرِ خَفِيَ اللَّحَامُ^(٢)
فَالزُّرُّ وَالْعَنْبِرُ مَعْنَاهُمَا زُرٌّ هَكَذَا مُخْتَفِيًا فِي الظَّلَامِ

قال : فعجب من فطنتها وفصاحتها واستحسن ذلك منها .

وحكى : أنَّ شاعراً كان له عدو ، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدوه فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة ، فقال له : يا هذا ، أنا أعلم أن المنية قد حضرت ، ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتنى فامضِ إلى داري ، وقف بالباب ، وقل : * ألا أيها البتان إنَّ أباكما * فقال : سمعا وطاعة ثم إنه قتله . فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال : * ألا أيها البتان إنَّ أباكما * وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل : * ألا أيها البتان إنَّ أباكما * أجابته بضم واحد * قَتِيلٌ خُذَا بِالثَّارِ مِمَّنْ أَتَاكُمَا * ثم تعلقتا بالرجل ورفعته إلى الحاكم فاستقرره فأقر بقتله فقتله . والله أعلم .

وقيل : بينما كُتِرَ عزة ماراً بالطريق يوماً إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي ، فقال لها : تتخى عن الطريق ، فقالت له : ويحك ومن تكون ؟ ! قال : أنا كثير عزة . قالت : فيحكك الله ، وهل مثلك يُتَنَحَّى له عن الطريق ؟ ! قال : ولم . قالت : ألسن القاتل :

وما روضة بالحسن طيبة الثرى يَمْجُ النَّدى جُثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا^(٣)
بِأُطْيَبِ مَنْ أَرْدَانِ عَزَّةٌ مُوهِنَا إِذَا أَوْقَدَتْ بِالْمَجْمَرِ اللَّذْنَ نَارُهَا
ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها لم لا قلت مثل سيدك امرئ القيس :
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ بِاللَّيْلِ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيْبًا وَإِنْ لَمْ تَطْيِبْ
فقطعته ولم يَرُدَّ جواباً .

وقيل : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا : عاجلها بالقتل أيها الأمير . فقالت الخارجية : لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج . قال : ومن هو صاحبى ؟ قالت : فرعون . استشارهم في موسى عليه السلام فقالوا : أرجئه وأخاه . وأتى بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه ، فقيل لها : الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه . فقالت : إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه .

وحكى ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما ولى عمر رضي الله عنه الخلافة بلغه أن أصدقه^(٤) أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة درهم ، وأن فاطمة رضي الله عنها كان صدقها على علي بن أبي طالب رضي الله عنه أربعمئة درهم ، فأدى اجتهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صدق البضعة النبوية فاطمة - رضى الله عنها - فصعد المنبر وحمد الله - تعالى - وأثنى عليه وقال : أيها الناس لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمئة درهم فمن زاد ألقى زيادته في بيت مال المسلمين ، فهاب الناس أن يكلموه ، فقامت امرأة في يدها طول فقالت له : كيف يحل لك هذا ، والله - تعالى - يقول : ﴿وَمَا كُنْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: ٢٠] . فقال عمر رضي الله عنه : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

وقيل : جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنَّ زوجي يصوم النهار ، ويقوم الليل ، فقال لها : نعم الرجل زوجك ! وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذه المرأة تشكو

(١) الزر : بتشديد الزاي المكسورة ، شيء كالحة أو القرص يُدخل في العروة .

(٢) التبر : ثبات الذهب أو الفضة قبل أن يصاغا . (٣) الجثجات والغرار من نباتات الصحراء ذات الرائحة الجميلة .

(٤) أصدقه : جمع صدق [المهر] .

زوجها في أمر مباحته إياها عن فراشه فقال له : كما فهمت كلامها احكم بينهما ، فقال كعب : على بزوجه فأحضر ، فقال له : إن هذه المرأة تشكوك . قال : أفي أمر طعام أم شراب ؟ قال : بل في أمر مباحتك إياها عن فراشك ، فأنشأت المرأة تقول :

يَأْيُهَا الْقَاضِي الْحَكِيمُ ، أَنَشْدُهُ
نَهَارُهُ وَلَيْلُهُ لَا يَرْقُدُهُ
فَأَنشَأَ الزَّوْجُ يَقُولُ :

زَهَدَنِي فِي فَرَشِهَا وَفِي الْحِلَلِ
فِي سُورَةِ الثَّمَلِ وَفِي السَّبْعِ الطُّوَلِ
فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي :

إِنَّ لَهَا عَلَيْكَ حَقًّا لَمْ يَزَلْ
فَعَاطِطَهَا ذَاكَ وَدَغَ عَنْكَ الْعِلَلُ

ثم قال : إن الله - تعالى - أحل لك من النساء مثنى ، وثلاث ^(١) ، ورباع ، فلك ثلاثة أيام بلياليهن ، ولها يوم وليلة ، فقال عمر رضي الله عنه : لا أدري من أيكم أعجب ؟ أمن كلامها ، أم من حكمك بينهما ؟ اذهب فقد وليتك البصرة . حكاية المتكلمة بالقرآن : قال عبد الله بن المبارك - رحمه الله تعالى - خرجت حاجًا إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبي صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا في بعض الطريق إذا أنا بسواد على الطريق ، فتميزت ذاك ، فإذا هي عجوز عليها درع من صوف ، وخمار من صوف ، فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقالت : **سَلِّمْ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ** [يس: ٥٨] . قال : فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان ؟ قالت : **مَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ فَكَلَّا هَادِيَ لَمْ** . [الأعراف: ١٨٦] فعلمت أنها ضالة عن الطريق ، فقلت لها : أين تريدين ؟ قالت : **سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا** [الإسراء: ١] . فعلمت أنها قد قضت حجها ، وهي تريد بيت المقدس ، فقلت لها : أنت منذ كم في هذا الموضع وقالت : **ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا** [مريم: ١٠] . فقلت : ما أرى معك طعاما تأكلين . قالت : **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي** . [الشعراء: ٧٩] فقلت : فبأي شيء تتوضئين ؟ قالت : **فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** [المائدة: ٦] . فقلت لها : إن معي طعاما فهل لك في الأكل ؟ قالت : **ثُمَّ أَوْتُوا الْغِيَامَ إِلَى آلِيٍّ** . [البقرة: ١٨٧] فقلت : ليس هذا شهر رمضان . قالت : **وَمَنْ تَطَوَّعَ حَرًّا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** [البقرة: ١٥٨] . فقلت : قد أبيع لنا الإفطار في السفر . قالت : **وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** . [البقرة: ١٨٤] فقلت : لم لا تكلميني مثل ما أكلمك ؟ قالت : **بَلَيْطُ مِنْ قَوْلِي إِلَّا لَدَيْ رَبِّي عَذَابٌ** [ق: ١٨] فقلت : فمن أي الناس أنت ؟ قالت : **وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** [الإسراء: ٣٦] . فقلت : قد أخطأت فاجعليني في حل . قالت : **لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ** [يوسف: ٩٢] . فقلت : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة ؟ قالت : **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعَهُ اللَّهُ** [البقرة: ١٩٧] . قال : فأنخت ناقتي . قالت : **قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُونَ مِنْ آبْصَرِهِمْ** [النور: ٣٠] . ففضضت بصرى عنها ، وقلت لها : اركبي ، فلما أرادت أن تركب نفرت الناقة ، فمزقت ثيابها فقالت : **وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصِيبِكُمْ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** [الشورى: ٣٠] . فقلت لها : اصبري حتى أعقلها ، قالت : **فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ** [الأنبياء: ٧٩] . فعقلت الناقة ، وقلت لها : اركبي فلما ركبت قالت : **سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** [٣٠] **وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُسْقِلُونَ** [الزخرف: ١٣-١٤] قال : فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح فقالت : **وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ** [لقمان: ١٩] . فجعلت أمشي رويدا رويدا ، وأترنم بالشعر ، فقالت : **فَافْرُدْ مَا تَنْسَرُ مِنَ الْقُرْآنِ** [المزمل: ٢٠] . فقلت لها :

(١) طبقا لما جاء بالآية الكريمة رقم [٣] من سورة النساء ، وأولها : **فَأَنْكِحُوا مَا بَلَغَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ** .

لقد أوتيت خيرا كثيرا ، قالت : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] . فلما مشيت بها قليلا قلت : ألك زوج ؟ قالت : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْشَوْنَ عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّلَكُمْ تَسْوَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١] . فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها : أهذه القافلة ، فمن لك فيها ؟ فقالت : ﴿ أَمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦] . فعلمت أن لها أولادا فقلت : وما شأنهم في الحج ؟ قالت : ﴿ وَعَلَّمْنِي وَابْتَغِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ . [النحل: ١٦] فعلمت أنهم أدلاء الركب ، فقصدت بها القباب ، والعمارات فقلت : هذه القباب فمن لك فيها ؟ قالت : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] . وكلم الله موسى تكليما ﴿ [النساء: ١٦٤] . يَبْتَغِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢] . فنادت يا إبراهيم ، ياموسى ، يا يحيى ، فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا فلما استقر بهم الجلوس قالت : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَنَ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ [الكهف: ١٩] فمضى أحدهم ، فاشترى طعاما فقدمه بين يدي فقالت : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ ﴾ . [الحاقة: ٢٤] فقلت : الآن طعامكم على حرام حتى تخبروني بأمرها فقالوا : هذه أمنا لها منذ أربعين سنة لم نتكلم إلا بالقرآن مخافة أن نزل فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاء ، فقلت : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ . [الجمعة: ٤٠] والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن

في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

[١] قيل : إن معن بن زائدة^(١) دخل على المنصور فقال له : هيه يا معن^(٢) تُعْطَى مروان بن أبى حفصة^(٣) مائة ألف على قوله :

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الَّذِي زَادَتْ بِهِ شَرَفًا عَلَى شَرَفِ بَنُو شَيْبَانَ
فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته على قوله :
مَا زِلْتُ يَوْمَ الْهَاشِمِيَّةِ مُغْلِنًا بِالسَّيْفِ دُونَ خَلِيفَةِ الرَّحْمَنِ^(٤)
فَمَنْعْتَ حُوزَتَهُ وَكُنْتُ وَقَاءَهُ مِنْ وَقَعِ كُلِّ مُهْتَدٍ وَسِنَانٍ
فقال : أحسنت والله يا معن ، وأمر له بالجوائز والخلع .

[٢] : ووفد ابن أبى محجن على معاوية فقام خطيبا فأحسن ، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه ، فقال له : أنت الذى أوصاك أبوك بقوله :

إِذَا مِتُّ فَأَذْفِنْنِي إِلَى جَنْبِ كَرَمَةٍ تَرَوْنِي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُروْقَهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي فِي الْفُلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَذْوَقَهَا
قال : بل أنا الذى يقول أبى :

(١) معن بن زائدة من أجواد العرب ولأه أبو جعفر المنصور خراسان بعد أن وقف إلى جانبه ، ولكن الخوارج قتلوه [١٥٢هـ-٧٦٩م] .

(٢) هيه : كلمة تقال للاستزادة من الكلام .

(٣) مروان بن حفصة من شعراء بغداد .

(٤) الهاشمية : عاصمة العباسيين أيام السفاح ، وحوزة الرجل : ما في ملكه . والمنع : الحماية والدفاع . والمهتد : السيف الهندي . والسنان : الرمح .

لا تسأل الناس ما مالى وكثرته ؟
أعطى الحسام غداة الروع حصته
وأطعن الطعنة الثجلاء عن عرض
ويعلم الناس أنى من سراتهم
[٣] : فقال معاوية : أحسنت والله يا بن أبى محجن ، وأمر له بصلة وجائزة .

وقيل : أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شبيب الحارثى فقال له : ألسنت القاتل :
ومنا شريد والبطين وقغنب
فقال : يا أمير المؤمنين إنما قلت : ومنا أمير المؤمنين شبيب وأردت بذلك مناداة لك فكان ذلك سببا لنجاته .
[٤] : ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميما فقال له معاوية : إنك لدميم ، والجميل خير من الدميم ،
وإنك لشريك ، وما لله من شريك ، وإن أباك لأعور ، والصحيح خير من الأعور ، فكيف سدت قومك ؟ فقال له :
إنك معاوية ، وما معاوية إلا كلبة عوت ، فاستعوت الكلاب ، وإنك لابن صخر ، والسهل خير من الصخر ، وإنك
لابن حرب ، والسلم خير من الحرب ، وإنك لابن أمية ، وما أمية إلا أمة صغرت ، فكيف صرت أمير المؤمنين ؟ ثم
خرج وهو يقول :

أيشتمنى معاوية بن حرب
وحولى من ذوى يزن ليوث
يسير بالدمامة من سفاه
وسيفى صارم ومعى لسانى
ضراغمة تهش إلى الطعان
وربات الحجال من الغوانى (٢)

[٥] : ودخل يزيد بن أبى مسلم ، صاحب شرطة الحجاج على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج فقال له
سليمان : قبح الله رجلاً أجرك رسنه (٣) ، وأولاك أمانته فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيتنى والأمر لك وهو عنى مدبر فلو
رأيتنى وهو على مقبل لاستكبرت منى ما استصغرت ، واستعظمت منى ما استحققت . فقال سليمان : أترى الحجاج
استقر فى جهنم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تقل ذلك ، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر ، وأذل لكم الجابرة ، وهو
يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك ، وشمال أخيك ، فحيثما كانا كان .

[٦] : وقال يهودى لعلى بن أبى طالب : ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمس عشرة سنة حتى تقاتلتكم ؟ فقال
على : ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلت : ﴿يَمْوَسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] .
[٧] : ووجد الحجاج على منبره مكتوباً : ﴿قُلْ تَمَنَّعَ بِكَفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] . فكتب تحته :
﴿قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] .

[٨] : ودخل عقيل (٤) على معاوية وقد كف بصره (٥) فأجلسه معه على سريريه ، ثم قال : أنتم معشر بنى هاشم
تصابون فى أبصاركم ، فقال عقيل : وأنتم معشر بنى أمية تصابون فى بصائركم .

[٩] وقيل : اجتمعت بنو هاشم يوما عند معاوية فأقبل عليهم ، وقال : يا بنى هاشم ، إن خيرى لكم لممنوح ،
وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيرى عنكم ، ولا يرد بابى دونكم ، ولما نظرت فى أمرى وأمركم رأيت أمرا
مختلفا ، إنكم ترون أنكم أحق بما فى يدي منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم ، قلت : أعطانا دون حقنا ،

(١) أبو محجن : أحد شعراء الإسلام ، وهذا ابنه ، والرعيد : الجبان ، والفرق : الخوف ، والطعنة النجلاء : الغائرة . والعلق : الدم . وغداة الروع : عند
اللقاء للحرب .

(٢) صارم : قاطع . ليوث : جمع ليث وهو الأسد . وكذلك الضراغمة جمع ضراغم . تهش : ينشرح صدرهم سرورا به ، وربات الحجال : النساء
والغوانى : من استغنين بجمالهن عن الزينة .

(٣) الرُسْن : ما كان من الأرملة على الأنف . والمراد : أعطاك سلطة قيادة . وأجرك رسنه ترك الحبل على الغارب .

(٤) عقيل بن أبى طالب : أخو علي ، كان خيبراً بالأنساب ، وتوفى سنة ٤٤ هـ .

(٥) وشتان ما بين عمى البصر ، وعمى البصيرة !

وقصر بنا عن قدرنا ، فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له . هذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم . قال : فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنه فقال : والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك فخير الله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابا لنكفن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما للرجل من المسلمين ، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خوف ولا حافر ^(١) . أكفأك أم أزيدك ؟ قال : كفاني يا بن عباس .

[١٠] وقال معاوية يوما : أيها الناس إن الله جبا قريشا بثلاث ؛ فقال لنبه رضي الله عنه : **﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾** [الشعراء: ١١٤] ونحن عشيرته الأقربون . وقال - تعالى - : **﴿وَأَنْتُمْ لَكُمْ وَلَقَوْمُكُمْ﴾** [الزخرف: ٤٤] ونحن قومه . وقال - تعالى - : **﴿لَا يَلْفِيفُ فَرَسٌ إِلَّا لَفِيفٌ﴾** [قريش: ١-٢] ونحن قريش فأجابه رجل من الأنصار فقال : على رسلك يا معاوية ، فإن الله - تعالى - يقول : **﴿وَكَذَّبَ بِرَبِّهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾** [الأنعام: ٦٦] وأنتم قومه . وقال - تعالى - : **﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْثَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾** [الزخرف: ٥٧] وأنتم قومه . وقال - تعالى - : **﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾** [الفرقان: ٣٠] وأنتم قومه ثلاثة بثلاثة ؛ ولو زدنا لزدناك .

[١١] وقال معاوية أيضا لرجل من اليمن ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! فقال : أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ : **﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقٌ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنًا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾** [الأنفال: ٣٢] ولم يقولوا : اللهم إن كان هذا الحق من عندك فاهدنا إليه .

[١٢] وقال يوما لجارية بن قدامة : ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية ! فقال : ما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية ! وهى الأنثى من الكلاب . قال : اسكت لا أم لك ^(٢) . قال : لى أم ولدتنى . أما والله إن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا والسيوف التى قاتلناك بها لفى أيدينا ، وإنك لم تهلكنا قسوة ، ولم تملكنا عنوة ، ولكنك أعطيتنا عهدا وميثاقا ، وأعطيناك سمعا وطاعة ، فإن وفيت لنا وقينا لك ، وإن نزعنا إلى غير ذلك فإننا تركنا وراءنا رجالا شدادا ، وأسنة حدادا . فقال معاوية : لا أكثر الله فى الناس مثلك يا جارية ! فقال له : قل معروفًا ، فإن شر الدعاء مُحيط بأهله .

[١٣] وخطب معاوية يوما فقال : إن الله - تعالى - يقول : **﴿وَلَنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾** [الحجر: ٢١] فعلام تلومونى إذا قصرت فى عطاياكم ؟ فقال له الأحنف : وإنا والله لا نلومك على ما فى خزائن الله ، ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه ، فجعلته فى خزائنك ، وحلت بيننا وبينه .

[١٤] وقيل : دخل مجنون الطاق يوما إلى الحمام وكان بغير مئزر ^(٣) فرآه أبو حنيفة رضي الله عنه وكان فى الحمام فغمض عينيه فقال له المجنون : متى أعماك الله ؟ قال : حين هتك سترك .

[١٥] ومن ذلك ما حكى أن الحجاج خرج يوما متنزهًا فلما فرغ من نزته ، صرف عنه أصحابه ، وانفرد بنفسه ، فإذا هو بشيخ من بنى ^(٤) عجل ، فقال له : من أين الشيخ ؟ قال : من هذه القرية . قال : كيف تروون عمالكم ^(٥) ؟ قال : شر عمال ، يظلمون الناس ، ويستحلون أموالهم . قال : فكيف قولك فى الحجاج ؟ قال : ذاك ما ولى العراق شر منه ، قَبَّحه الله ، وقَبَّح من استعمله . قال : أعرف من أنا ؟ قال : لا . قال : أنا الحجاج . قال : جُعِلْتُ فداك . أو تعرف من أنا ؟ قال : لا . قال : أنا فلان ابن فلان مجنون بنى عجل ؛ أصرع فى كل يوم مرتين . قال : فضحك الحجاج منه ، وأمر له بصلة .

(١) يركب جملاً أو غيره من دواب الانتقال، والمراد: لم يأتك منا زائر.

(٢) لا أم لك. يقال فى الذم والسب، وقد تكون للمدح والتعجب كقولهم: لا أب لك.

(٣) مئزر أو إزار: ما يستر النصف الأسفل.

(٤) بنو عجل: إحدى القبائل العربية التى كانت تقيم فى اليمامة والبلاد الواقعة بين الكوفة والبصرة.

(٥) العمال: الولاة جمع عامل.

[١٦] وقال رجل لصاحب منزل : أضلح خشب هذا السقف فإنه يُفرقع ^(١) . قال : لا تخف ، فإنه يُسبح . قال : إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد .

[١٧] وقالت عجوز لزوجها : أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب ؟ قال : أما حلال فنعم ، وأما طيب فلا .

[١٨] وقال ملك لوزير ماخير ما يُرزقه العبد ! قال : عقل يعيش به . قال : فإن عُدته ؟ قال : أدب يتحلى به . قال : فإن عُدته . قال : مال يستره . قال : فإن عُدته . قال : فصاعقة تحرقه ، وتُريح منه العباد والبلاد .

[١٩] وتنبأ رجل ^(٢) في زمن المنصور ، فقال له المنصور : أنت نبى سفلة . فقال : جعلت فداك ، كل نبى يبعث إلى شكله .

[٢٠] ومن الأجوبة المسكتة المستحسنة : ما ذكر أن إبراهيم مغنى الرشيد غنى يوما بين يديه . فقال له : أحسنت أحسن الله إليك ، فقال له : يا أمير المؤمنين إنما يحسن الله إلى بك فأمر له بمائة ألف درهم .

[٢١] وقال رجل لبعض العلوية : أنت بُستان ، فقال العلوى : وأنت النهر الذى يسقى منه البستان .

[٢٢] وذبحت عائشة رضي الله عنها شاة وتصدقت بها ، وأفضلت منها كتفا ، فقال لها النبى ﷺ : « ما عندك منها ؟ » فقالت : ما بقى منها إلا كتف ، فقال : « كُلْهَا قَدْ بَقِيَ إِلَّا كَتِفُهَا » ^(٣) .

[٢٣] وقال : عبد الله بن يحيى لأبى العيناء : كيف الحال ؟ قال : أنت الحال فانظر كيف أنت لنا ؟ فأمر له بمال جزيل ، وأحسن صلته .

[٢٤] وكان عمرو بن سعد بن سالم فى حرس المأمون ليلة ، فخرج المأمون يتفقد الحرس ، فقال لعمرو : ومن أنت ؟ قال : عمرو ، عمرك الله ابن سعد ، أسعدك الله ، ابن سالم سلمك الله . قال : أنت تكلوننا الليلة . قال : الله يكلوك يا أمير المؤمنين ، وهو خير حافظا ، وهو أرحم الراحمين ، فقال المأمون :

إِنَّ أَخَا الْهَيْجَاءِ مَنْ يَسْعَى مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا رَيْبُ زَمَانٍ صَدَعَكَ شَتَّتَ فِيكَ شَمْلَهُ لِيَجْمَعَكَ ^(٤)

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار . قال عمرو : وددت لو أن الأبيات طالت .

[٢٥] وقال المعتصم للفتح بن خاقان وهو صبي صغير : أرأيت يا فتى أحسن من هذا الفص ؟ لفص كان فى يده قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اليد التى هو فيها أحسن منه ، فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة .

[٢٦] وقيل : إن رجلا سأل العباس رضي الله عنه : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر ، وأنا ولِدْتُ قبله .

[٢٧] وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندى : أنت سعيد ؟ قال : أمير المؤمنين السعيد ، وأنا ابن مرة .

[٢٨] وقال المأمون للسيد بن أنس : أنت السيد ؟ قال : أمير المؤمنين السيد وأنا ابن أنس .

[٢٩] وقال الحجاج للمهلب وهو يماشيه : أنا أطول أم أنت ؟ قال : الأمير أطول ، وأنا أبسط قامة أراد الطول ، وهو الفضل . والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعناها لعجزت عنها ولكنى اقتصرت على هذا وأوجزت وفيما ذكرته من ذلك كفاية ، وأسأل الله - تعالى - العون والعناية .



(١) يفرقع - بالفاء - لا - بالقاف - يُسمع له صوت ودويّ، وفرقة .

(٢) تنبأ : ادعى النبوة . والسفلة : أراذل الناس وغوغاؤهم وكذلك السفلة .

(٣) حديث : «وذبحت عائشة . الخ» أخرجه الترمذى [٢٥٧٨] ، وأحمد [٥٠/٦] .

(٤) تكلوننا : تحفظنا - والهيجا - ممدودة ، ومقصورة - الحرب ، ورب الزمان : مصائبه وحوادثه .

الباب التاسع

في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم ،
وكبوات الجياد ، وهفوات الأمجاد

قيل : خطب المأمون فقال : اتقوا الله عباد الله وأنتم في مهل ، بادروا الأجل ، ولا يغرنكم الأمل ، فكأنى بالموت قد نزل ، فشعلت المرة شواغله ، وتولت عنه فواصله ، وهيث أكفانه ، وبكاه جيرانه ، وصار إلى التراب الخالي ، بجسده البالي ، فهو في التراب عفير ، وإلى ما قدم فقير .

وقال الشعبي ^(١) : ما سمعت أحداً يخطب إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطئ ما خلا زياداً ^(٢) فإنه لا يزداد إكثاراً إلا ازداد إحساناً . وخطب عليٌّ عليه السلام فقال في خطبته : عباد الله ، الموت الموت ، ليس منه فوت ، إن أقمتكم أخذكم ، وإن فررتكم منه أدرككم ، الموت معقود بنواصيك ، فالتجأ التجأ ، والوحي الوحي ^(٣) ، فإن وراءكم طالبا حثيثاً وهو القبر ، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة ^(٤) من حفر النار . ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات : فيقول : أنا بيت الظلمة . أنا بيت الوحشة . أنا بيت الديدان ^(٥) ! ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه يوماً يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير ، ﴿يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢٠] ^(٦) . ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه ، فيه نار تسعر حرّها شديد ، وقعرها بعيد ، وحليها حديد ، وماؤها صديد ، ليس لله فيها رحمة ! قال : فبكى المسلمون بكاء شديداً ، ثم قال : ألا وإن وراء ذلك اليوم جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ^(٧) ، أدخلنا الله وإياكم دار النعيم ، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم .

وخطب الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه : إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن عليه السلام خطب بالبصرة فقال : أيها الناس ، كل كلام في غير ذكر فهو لغو ، وكل صمت في غير فكر فهو سهو ، والدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والموت متوسط بينهما ، ونحن في أضغاث أحلام ^(٨) .

قيل : اجتمع الناس عند معاوية ، وقام الخطباء لبيعة يزيد ، وأظهر قوم الكراهة فقام رجل من الخطباء من عذرة ^(٩) يقال له : يزيد بن المقنع ، فاخترط من سيفه ^(١٠) شبرا ، ثم قال : أمير المؤمنين هذا ، وأشار إلى معاوية . ثم قال : فإن يهلك فهذا وأشار إلى يزيد ، ثم قال : فمن أبي فهذا ، وأشار إلى سيفه ، فقال له معاوية : أنت سيد الخطباء .

فصل في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل : ما استندى شارد الشعر بمثل الماء الجاري ، والشرف العالي ، والمكان الخضر الخالي ^(١١) .

- (١) الشعبي : علامة عصره في الكوفة ، وفضله لا ينكر على الأدب والأدباء ، تتلمذ عليه الإمام أبو حنيفة النعمان ، وكان موضع شوري الخلفاء .
- (٢) ما خلا زياداً : هو ابن أبيه ، وكان واحداً من دهاة العرب الأربعة . انظر إلى كتابنا «دهاة العرب» مكتبة ابن سينا .
- (٣) الوحي الوحي : البدار البدار ، ويقال أيضاً : الوحاك الوحاك [والكاف للخطاب] .
- (٤) كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي والطبراني عن أبي سعيد «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» وقال العجلوني : ورواه الطبراني أيضاً عن أبي هريرة ، وكلاهما به مرفوعاً بسند ضعيف .
- (٥) يريد : الديدان التي تسري في أجسام الموتى .
- (٦) وتذهل : تنسى وتترك . وتضع : تسقط .
- (٧) اقتباس من الآية الكريمة ﴿وَسَادِعُوا إِلَىٰ مَقْبَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَعَلُوا لَهَا سَمَوَاتٍ وَأَلْأَرْضَ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .
- (٨) أضغاث أحلام : ما كان منها ملتبساً مضطرباً يصعب تأويله . والضغث أصله الحزمة من الحشيش المختلط ببعضه ببعض .
- (٩) عذرة : قبيلة عربية عرف محبوبها بالحب العفيف العذري ، وإليها ينسب حبهم !
- (١٠) اخترط السيف : استله من غمده . والمراد : استر منه جزءاً .
- (١١) وقد قال قائلهم : ثلاثة تجلو عن القلب الحزن : الماء والخضرة والوجه الحسن .

وقيل : أُمِسِكَ عَلَى النَّابِغَةِ^(١) الجعدي أربعين يوما فلم ينطق بالشعر ، ثم إن بنى جعدة غَزَوْا فظفروا فاستخفَّه الطَّرب والفرح ، فَرَامَ الشعر ، فَذَلَّ لَهُ ما استصعب عليه ؛ فقال له قومه : والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أَسْرَ منا بالظفر بعدونا . وقال أبو نواس : ما قلت الشعر حتى رويتُ لستين امرأةً منهن الخنساء ، وليلى ، فما ظنك بالرجال ؟ ! وقال الخليل : الشعراء أمراء الكلام ، يتصرفون فيه كيف شاءوا ، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده .

وقيل : وفد زياد بن عبد الله على معاوية . فقال له : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال أقرضت القريض^(٢) ؟ قال : نعم . قال : أروييت الشعر ؟ قال : لا . فكتب إلى عبد الله : أبا زياد بارك الله لك في ابنتك ، فأزوه الشعر ، فقد وجدته كاملا ، وإنني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : أرووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق ، ويقى مساويها ، وتعلموا الأنساب ، فربَّ رحم مجهولة قد وصلت بعرفان النسب ، وتعلموا من النجوم ما يدلکم على سُبُلکم فی البرِّ والبحر ، ولقد هممت بالهرب يوم صُفِين فما ثبتي إلا قولُ القائل :

أَقُولُ لَهَا : إِذَا جَشَّاتُ وَجَاشَتْ مَكَانِكَ تُخَمِّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي^(٣)

وقيل : لم يُرَ قطُّ أعلم بالشعر والشعراء من خَلَفَ الأحمر^(٤) ، كان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء فلا يتميز عن مقولهم^(٥) ، ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم وليلة ، وبذل له بعض الملوك مالا جزيلا على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى . وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يُعْطَى الشعراء فقيلا له في ذلك ؛ فقال : خير مالك ما وقيت به عرضك . قال أبو الزناد : ما رأيت أروى للشعر من عروة ، قلت له : ما أَرَوَاكَ يا أبا عبد الله ! فقال : وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعرا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بقول القائل : * كفى الإسلام والشيبُ للمرء ناهيا * ولم ينطق به موزونا فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه أشهد أنك رسول الله حقا ، وتلا قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ [يس: ٦٩] . ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسَقَطَاتِهِمْ . فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأوس وشجاعها :

وَمَا الْمَالُ وَالْأَخْلَاقُ إِلَّا مَعَارَةٌ فَمَا اسْطَغْتُ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدَ^(٦)

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتها قسيده طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة^(٧) يقول فيها :

لَمَمَرُكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا مَعَارَةٌ فَمَا اسْطَغْتُ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدَ

ومن ذلك قول عبدة بن الطبيب :

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هَلَكُهُ هَلَكٌ وَاحِدٌ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانٌ قَوْمٌ تَهْدُمَا

أخذه من قول امرئ القيس :

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ شَرِيَّتِهَا وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقُطُ أَنْفُسَا

ويقال : من سرق شيئا واسترقه فقد استحققه ، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ ؛ فمن السرقة الفاحشة قول كثير في عبد الملك بن مروان :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوُ لَمْ يَثْنِ هُمُّهُ خَصَانٌ عَلَيْهَا عَقْدُ دُرٍّ يَزِينُهَا^(٨)

(١) النابغة الجعدي [ت ٦٨٤م]، شاعر مخضرم من الكبار . كان في الجاهلية حنيفيا ، وكان سيد قومه ، شهد فتح فارس ، وحارب مع علي في صفين . مات معمرا بأصبهان .

(٢) أقرضت القريض : قرض القريض ، أي قال الشعر ، أو نظمه .

(٣) جشأت : جاشت من الحزن أو الفزع . مكانك : اسم فعل أمر : معناه : الزمي مكانك والثبتي ، فلما نصر وإما شهادة .

(٤) خلف الأحمر : من رواة الشعر ونقاده ، وأحد الشعراء المحسنين ، روى عنه الأصمعي القصائد القديمة .

(٥) أي فكأنما شعره هو شعرهم في الجزالة والقوة مما يدل على براعته . (٦) استطعت : أصله استطعت ، واستطاع الشيء قدر عليه وأطاق .

(٧) قيل في تسمية المعلقات كلام كثير ، والذي نميل إليه أنها كانت جذيرة بأن تعلق بالذهن ، أو لأنها شبه عقود الدر التي تعلق على صدور الحسانوات ، وطرفة : أحد أصحاب المعلقات .

(٨) الخصان : المرأة العفيفة والزوجة .

أخذه من قول الحطينة ، ولم يغير سوى الروي^(١) :

إذا ما أراد الغزو لم يثن همّه
وجريز على سعة تبخره وقدرته على غرر الشعر^(٢) وابتكار الكلام نقل قوله :

فلو كان الخلود بفضل قوم
من قول زهير ، وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان ، وترويه السوان وهو :
فلو كان حمدٌ يخلد المرء لم يمت
ولكن حمد المرء غير مخلص
وقد قال الشماخ :

وأمر ترجى النفس ليس بنافع
وهو مأخوذ من قول الآخر :

ترجى النفوس الشيء لا تستطيعه
وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول :

وأحسن من نور تفتح الصبا
أخذه من قول الأخطل :

رأيت بياضا في سواد كائه
بياض العطايا في سواد المطالب !

ومن سقطات الشعراء ما قيل : إن أبا العتاهية كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط ؛ روى أنه لقي محمد بن مبادر بمكة فمازحه وضاحكه ، ثم إنه دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البصرة ، يقول قصيدة في كل سنة ، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة فأدخله الرشيد إليه ، وقال : ما هذا الذي يقول أبو العتاهية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لو كنت أقول كما يقول :

ألا يا عتبة الساعة
لقلت كثيرا ولكني أقول :

أبن عبد الحميد يوم توفى
مادري نعمته ولا حاملوه

فأعجب الرشيد قوله ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، فكاد أبو العتاهية يموت غما وأسفا . وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق ، وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ، ومع ذلك قال :

إنما عظم سلمي حيتي
وإذا أدنيت منها بصلا

هذا مع قوله :

إذا قامت لمشيئتها تثنت
ومع قوله في الفخر :

كأن مئاز الثقع فوق رءوسنا
ومع قوله أيضا :

وأسياقنا ليل تهاوى كواكبها

(١) الروي : الحرف الذي بنيت عليه القصيدة ، وإليه تنسب ؛ فقصيدة الحطينة هذه فائتة ، وقصيدة كثير نونية .

(٢) الشنوف : جمع شنف وهو القُرط .

(٣) غرر الشعر : أعلاه . والغرر جمع غرة وغرة الشيء : أعلاه .

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ^(١) ظمئت وأنى الناس تصفؤ مشاربه ؟ !
وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور ، وأخذه بزمام الكلام ، وقوته على رقائق المعاني ، وعلى ما فى شعره من
الحكم والأمثال السائرة يقول :

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم إذا رأى غير شيء ظننه رجلاً
وغير شيء : معناه المعدم ، والمعدم لا يرى فهذا سقط فاحش . ومما يستهجن من قوله وتكاد أن تمجه الأسماع
قوله :

تَقَلَّقْتُ ^(٢) بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَّلَ الْحِشَا
وقوله وقد جمع بين فج اللفظ وبرودة المعنى :

إن كان مثلك كان أو هو كائن
ومن معانيه المسروقة قوله :

ونهب نفوس أهل النّهب أولى
أخذه من قول أبي تمام :

إنّ الأسود أسود الغاب همّتها يوم الكريهة ^(٣) فى المسلوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيرى : اجتمع رواية جرير ، ورواية جميل ورواية الأخوص ، ورواية نُصَيْب ،
فاختار كل منهم ، وقال : صاحبي أشعر ، فحكموا السيدة سُكَيْنَةُ بنت الحسين بينهم لعقلها ، وتبصرها بالشعر ،
فخرجوا حتى استأذنوا عليها ، وذكروا لها أمرهم ، فقالت لرواية جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فازجعى بسلام
وأنى ساعة أحلى من الزيارة بالطروق ؟ ! قبح الله صاحبك ، وقبح شعره فهلاً قال : فادخلنى بسلام ! ثم قالت
لرواية نُصَيْب أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت
فما له همة إلا من يتعشقه بعده قبحه الله ، وقبح شعره ! هلا قال :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت
ثم قالت لرواية الأخوص أليس صاحبك الذى يقول :

من عاشقين تواعدا وتراسلا
باتا باتعم ليلة وألذها

قبحه الله ، وقبح شعره ، هلا قال : تعانقاً فلم تُثْنِ على واحد منهم ، وأحجم رُؤاؤهم عن جوابها ^(٤) .
ثم قالت لرواية كثير : ليس صاحبك الذى يقول :

يقر بعينى ما يقر بعينها وأحسن شيء ما به العين قرّت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح ، أوجب صاحبك أن يُنكح ؟ ! قبح الله صاحبك وقبح شعره ! ثم قالت لرواية
جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

(١) القذى : بفتح القاف والذال جمع القذاة وهو ما يتكون في العين من رَمَص وغمص ونحوهما . ويقال : هو يغص على القذى : إذا سكت على الدّل
والضّمّ ولم يشك .

(٢) تقلقل الشيء : تحرك .

(٣) البراءة من الإسلام لسبب أو لآخر مما لا يليق بالمسلم أن يجربها على لسانه ، حتى ولا في المبالغات الشعرية !

(٤) الكريهة : الحرب ، أو الشدة في الحرب .

فلو تركت عقلی معی ما طلبتها ولكن طلاخم بينها لما فات من عقلی
فما أراه هوى ، وإنما طلب عقله قبح الله صاحبك ، وقبح شعره !

وروى ابن الكلبي قال : لما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبله ، فأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم في الدخول حتى قدم عدی بن أرطاة عليه - وكان منه بمكانه - فتعرض له جرير وقال :

يأئها الرجل المزجي مطيئة هذا زمانك إنى قد خلا زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لأقيه أنى لدى الباب كالمشدود في قرن
لا تنس حاجتنا لأقيت مغفرة قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فقال : نعم يا أبا عبد الله ، فلما دخل على عمر بن عبد العزيز ^(١) قال يا أمير المؤمنين ، الشعراء ببابك ، وألستهم مسمومة ، وسهامهم صائبة ، فقال عمر ^(٢) : ما لى ولشعراء ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ^(٣) مديح فأعطى ، وفيه أسوة لكل مسلم . قال : صدقت فمن بالباب منهم ؟ قال : ابن عمك عمر بن أبى ربيعة القرشى . قال : لا قرب الله قرابته ، ولا حيا وجهه ! أليس هو القائل :

ألا ليتنى فى يوم تدنو منيتي شمنت الذى ما بين عينيك والفم
وليت طهوري كان ريقك كله وليت خنوطي من مشاشيك والدم
وياليت سلمى فى القبور ضجيعتى هنالك أو فى جنة أو جهنم

فليت عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا ، ثم يعمل عملاً صالحاً ، والله لا يدخل على أبداً فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : جميل بن معمر العذرى ، قال : أليس هو القائل :

ألا ليتنا نحيا جميعا فإن نمت يوافي لدى الموتى ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب إذا قيل قد سوى عليها صفيحها
أظل نهاري لا أراها وتلتقى مع الليل روى فى المنام وروحها

والله لا يدخل على أبداً فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : كثير عزة : قال : أليس هو القائل :

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب فعودا
لو يسمعون - كما سمعت - حديثها خروا المعزة ركمًا وسجودا

أبعده الله ، فوالله لا يدخل على أبداً فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : الأصوص الأنصارى . قال : أبعده الله والله لا دخل على أبداً ! أليس هو القائل : وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه :

الله بينى وبين سيدها يفر منى بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : همام بن غالب الفرزدق . قال : أليس هو القائل يفتخر بالزنا فى قوله :

هما دليانى من ثمانين قامة كما انقض باز لئن الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالت أحي فيرجى أم قتيل نحاذره ؟ !
فقلت ارفعوا الأحراس لا يفتنونا بنا ووليت فى أعقاب ليل أبادره

والله لا دخل على أبداً ! فمن بالباب غيره ممن ذكرت ؟ قال : الأخطل التغلبي . قال : أليس هو القائل :

ولست بصائم رمضان عمري ولست بأكل لحم الأضاحي

(١) الحنوط : كل ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم من يشك وعبر وكافور ، وغير ذلك .

(٢) الأخرس : الأخرس من الأبنية الأصم ، والقديم الذي أتى عليه الدفر .

ولست بزاجر عيسا بكورا
ولست بقائم كالعبد يدعو
ولكنى سأشربها شمولاً
أبعده الله عني ، فوالله لا دخل عليّ أبداً ، ولا وطئ لي بساطاً وهو كافر ، فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت ؟ قال : جرير ! قال : أليس هو القائل :

طرتك صائدة القلوب وليس ذا
فإن كان ولا بد فهذا فأذن له : قال عدي بن أرطاة فخرجت فقلت : ادخل يا جرير ، فدخل وهو يقول :
إن الذي بعث النبي محمداً
وسع الخلائق عدله ووقاره
إنى لأرجو منه نفعا عاجلاً
والله أنزل في الكتاب فريضةً
فلما مثل بين يديه قال : يا جرير ، اتق الله ولا تقل إلا حقاً فأنشأ يقول :

كم باليمامة من شعناء أرملة
ممن بعذلك يكفى فقد والده
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا
إن الخلافة جاءت على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا
فقال : والله يا جرير ، لقد وافيت الأمر ، ولا أملك إلا ثلاثين ديناراً ، فعشرة أخذها عبد الله ابني ، وعشرة أخذتها أم عبد الله ، ثم قال لخادمه : ادفع إليه العشرة الثالثة ، فقال : والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته ، ثم خرج فقال له الشعراء : ما وراءك يا جرير ؟ ! فقال : ورائي ما يسوءكم ؛ خرجت من عند أمير يُعطي الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإنني عنه لراضٍ ثم أنشأ يقول :

رأيت رقي الجن لا يستفزه
وقد كان شيطاني من الجن راقيا

ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف : الشريف من عُدَّت سقطاته ، وقَلَّت عثراته ، وقالوا : كل صارم ينبو ، وكل جواد يكبو ، وكان الأحنف بن قيس حليماً سيداً يُضرب به المثل ، وقد عُدَّت له سقطه وهو أن عمرو بن الأهتم دس إليه رجلاً يسفّهه فقال : يا أبا بحر ، ما كان أبوك في قومه ؟ قال : كان أوسطهم ، وسيدهم ، ولم يتخلف عنهم . فرجع إليه ثانياً ففطن أنه من قبل عمرو بن الأهتم فقال : ما كان أبوك ؟ قال : كانت له فتوة ومروءة ومكارم أخلاق ولم يكن أهتم سلاًجاً^(٣) . قال سعيد بن المسيب ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة ، ثم قام يريد الصلاة ، فوجد الناس قد خرجوا من المسجد .

وقال قتادة : ما نسيت شيئاً قط ، ثم قال : يا غلام ، ناولني نعلِي . قال : النعل في رجلك . وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودّهاتهم ، وقد عُدَّت له سقطات منها : أن الحادي حداً به يوماً فقال :

(٢) الثُمُول : الخمر ، ومُتَبَلِّج الصباح : وقت إنارته وإسفاره .

(١) العيْسُ : الجمال .

(٣) السَلَّاج : الذي يتلغ الطعام ويلتهمه دون مضغ .

إِنَّ عَلَيْكَ أَيْهَا النَّجِيُّ أَكْرَمَ مَنْ يَمْشِي بِهِ الْمَطِيُّ^(١)

فقال هشام : صدقت . وذكر عنده سليمان وأخوه فقال : والله لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك . ولما ولي الخلافة قال : الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام . قال النابغة : أي الرجال المهذب ؟ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب العاشر

التوكل على الله - تعالى - والرضا بما قسم ،
والقناعة وذم الحرص والطمع ، وما أشبه ذلك ، وفيه فصول

الفصل الأول : في التوكل على الله - تعالى

قال الله - تعالى - : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] . وقال - تعالى - : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] . وقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْتَدَتْهُمْ مِثْلُ أَفْتِدَةِ الطَّيْرِ »^(٢) . رواه مسلم . قيل : معناه متوكلون وقيل : قلوبهم رقيقة . وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَعُودُ بَطَانًا »^(٣) . وأوحى الله - تعالى - إلى داود عليه السلام : يا داود : من دعاني أجبت ، ومن استغاثني أغثته ، ومن استنصرني نصرته ، ومن توكل عليّ كفيته ، فأنا كافي المتوكلين ، وناصر المستنصرين ، وغياث المستغيثين ، ومجيب الداعين^(٤) .

وحكى : أنه كان في زمن هارون الرشيد قد حصل للناس غلاء سِعْرٍ وضيقُ حال ، حتى اشتد الكرب على الناس اشتداداً عظيماً ، فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء ، وأمر بكسر آلات الطرب ، ففي بعض الأيام رأى عبد يصفق ويرقص ويغنى ، فُحْمِلَ إلى الخليفة هارون الرشيد ، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال : إن سيدى عنده خزانة بُرٌّ ، وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها فلماذا أنا إذا لا أبالي ، فأنا أرقص ، وأفرح فعند ذلك قال الخليفة : إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله ، فالتوكل على الله أولى ، فسلم للناس أحوالهم ، وأمرهم بالتوكل على الله - تعالى - .

وحكى : أن حاتماً الأصم^(٥) كان رجلاً كثير العيال ، وكان له أولاد ذكور وإناث ، ولم يكن يملك حبة واحدة ، وكان قدمه التوكل ، فجلس ذات ليلة مع أصحاب يتحدث معهم ، فتعرضوا لذكر الحج فدخل الشوق قلبه ، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم ، ثم قال لهم : لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً ، ويدعو

(١) يقال : بعير نجى : سريع .

(٢) حديث : «يدخل الجنة أقوام .. إلخ» رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري كتاب صفة الجنة . والمراد أنهم يشبهون الطير في الرقة والضعف ، أو في الخوف والهينة ، والطير أكثر الحيوانات خوفاً .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند [٥٢/١] ، قال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله : إسناده صحيح [٢٠٦/١] .

(٤) أوحى الله تعالى إلى داود .. إلخ . لم أقف عليه ، وهو من الإسرائيليات .

(٥) حاتم الأصم : هو أبو عبد الرحمن حاتم المعروف بالأصم . زاهد من أهل بلخ ، كان يقال له : لقمان هذه الأمة توفى سنة [٢٣٧هـ] ، [حلية الأولياء ٧٢/٨] .

لكم ماذا عليكم لو فعلتم ؟ ! فقالت زوجته ، وأولاده : أنت على هذه الحالة لا تملك شيئا ، ونحن على ما ترى من الفاقة ، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة ؟ ! وكان له ابنة صغيرة فقالت : ماذا عليكم لو أذنتم له ، ولا يهكم ذلك ، دعوه يذهب حيث شاء ، فإنه مُتَاوِل للرزق ، وليس برزاق ، فذكرتهم ذلك ، صدقتُ والله هذه الصغيرة ! يا أبانا، انطلق حيث أحببت ، فقام من وقته وساعته ، وأحرم بالحج ؟ وخرج مسافرا ، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يذبحونهم حين أذنوا له بالحج ! وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه ، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ، ويقولون : لو سكّ ما تكلمنا فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء ، وقالت : إلهي وسيدى ومولاي ، عودت القوم بفضلك ، وإنك لا تضعيهم ، فلا تخيهم ، ولا تخجلني معهم ، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيدا فانقطع عن عسكره وأصحابه فحصل له عطش شديد فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم ، فاستسقى منهم ماء ، وقرع الباب ، فقالوا : من أنت ؟ قال : الأمير بياكم يستسقيكم ، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت : إلهي وسيدى سبحانك ، البارحة بتنا جياعا واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقيننا ! ثم إنها أخذت كوزا جديدا وملأته ماء ، وقالت ، للمتناول منها : اعذرونا فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء ، فقال هذه الدار لأمر ؟ فقالوا : لا والله ، بل لعبد من عباد الله الصالحين ، يعرف بحاتم الأصم ، فقال الأمير : لقد سمعت به ، فقال الوزير : يا سيدى ، لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج ، وسافر ولم يخلف لعياله شيئا ، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعا ، فقال الأمير : ونحن أيضا قد ثقلنا عليهم اليوم ، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم ، ثم حلّ الأمير منطقتهم من وسطه ، ورمى بها في الدار ، ثم قال لأصحابه : من أجنبني فليلق منطقتهم فحل جميع أصحابه مناطقهم ، ورموا بها إليهم ، ثم انصرفوا ، فقال الوزير : السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق ، فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير ودفع إليهم ثمن المناطق مالا جزيلا ، واستردها منهم فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديدا ، فقالوا لها : ما هذا البكاء ؟ ! إنما يجب أن تفرحي ؛ فإن الله قد وسع علينا ، فقالت : يا أمّ، والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعا ، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة فأغنانا بعد فقرنا ، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين ، اللهم انظر إلى أيّنا ، ودبره بأحسن التدبير ، هذا ما كان من أمرهم .

وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج مُخرما ، ولحق بالقوم توجع أمير الركب ، فطلبوا له طبيبا فلم يجدوا ، فقال : هل من عبد صالح ؟ فدلّ على حاتم ، فلما دخل عليه وكلمه دعا له ، فعوفى الأمير من وقته ، فأمر له بما يركب ، وما يأكل ، وما يشرب ، فنام تلك الليلة مفكرا في عياله ، فقيل له في منامه : يا حاتم ، من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه ! ثم أخبر بما كان من أمر عياله ، فأكثر الثناء على الله - تعالى - ، فلما قضى حجه ، ورجع تلقته أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ! ثم قال : صغار قوم كبار قوم آخرين ، إن الله لا ينظر إلى أكبركم ، ولكن ينظر إلى أعرفكم به ، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه ، فإنه من توكل على الله فهو حسبه .

ومن كلام الحكماء : من أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة ، ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع ، ومن علم أن مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه ، وجمع شمله .

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كنت عند النبي ﷺ يوما فقال : « يا غلام ، إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تُفعلَ بِشئٍ لم يُفْعَمْ بِشئٍ إلا بِشئٍ قد كتبه الله عليكم رُفِعَتِ الصُّحُفُ وَجَبَتِ الْأَقْلَامُ » ^(١) . ورفع إلى الرشيد أن بدمشق رجلا من بنى أمية عظيم المال والجاه ، كثير الخيل والجند ، يُخشى على المملكة منه ، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة . قال منارة خادم الرشيد : فاستدعاني الرشيد ، وقال : اركب الساعة إلى دمشق ، وخذ معك مائة غلام ، واثنى بفلان الأموى ، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك ، فإذا أجاب فقيده ، وعُدْ به بعد أن تحصي جميع ما تراه ، وما يتكلم به ، واذكر لى حاله وما له وقد أجلت لك لذهابك ستا ، ولمجيئك ستا ، ولإقامتك يوما أفهمت ؟ قلت : نعم . قال : فسر على بركة الله ،

(١) حديث ابن عباس ، رواه أحمد في المسند [رقم ٦٦٩م] ، وإسناده صحيح كما قال الأستاذ أحمد شاكر .

فخرجت أطوى المنازل ليلاً ونهاراً ، لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة ، حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق ، فلما فتح الباب دخلت قاصداً نحو دار الأموى ، فإذا هى دار عظيمة هائلة ، ونعمة طائلة ، وخدم وحشم وهيبة ظاهرة ، وحشمة وافرة ومصاطب متسعة ، وغللمان فيها جلوس فهجمت على الدار بغير إذن فبهتوا ، وسألوا عنى فقيل لهم : إن هذا رسول أمير المؤمنين فلما سرت فى وسط الدار رأيت أقواما محتشمين ، فظننت أن المطلوب فيهم ، فسألت عنه فقيل لى : هو فى الحمام ، فأكرموني ، وأجلسوني ، وأمروا بمن معى ، ومن صحبني إلى مكان آخر ، وأنا أنفقُ الدار وأناأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ، ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان وحفدة وغللمان ، فسلم على وسألني عن أمير المؤمنين فأخبرته أنه بعافية ، فحمد الله - تعالى - ، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال : تقدم يا منارة كُل معنا ، فتأملت تأملاً كثيراً إذ لم يُكَنَّى^(١) ، فقلت : ما أكل ، فلم يعاودني ، ورأيت ما لم أره إلا فى دار الخلافة ، ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيباً ولا أعطر رائحة ، ولا أكثر آنية منه ، فقال : تقدم يا منارة فكل ، قلت : ليست لى به حاجة فلم يعاودني ، ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحداً منهم عندى فحرت لكثرة حفدته ، وعدم من عندى فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ؛ ثم قام فصلى الظهر فاتم الركوع والسجود ، وأكثر من الركوع بعدها ، فلما فرغ استقبلني وقال : ما أقدمك يا منارة ؟ فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ، ووضع على رأسه ، ثم فضه وقرأه فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بني ، وخواص أصحابه وغلمانه ، وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها فطار عقلى ، وما شككت أنه يريد القبض على ، فقال : الطلاق يلزمه ، والحج والعق والصدقة ، وسائر أيمان البيعة لا يجتمع منكم اثنان فى مكان واحد حتى ينكشف أمره ، ثم أوصاهم على الحريم ، ثم استقبلني وقدم رجله وقال : هات يا منارة قيودك فدعوت الحداد فقيده ، وحمل حتى وضع فى المحمل ، وركبت معه فى المحمل وسرنا فلما صرنا فى ظاهر دمشق ابتداء يحدثنى بانسباط ، ويقول : هذه الضيعة لى تعمل فى كل سنة بكذا وكذا ، وهذا البستان لى وفيه من غرائب الأشجار وطيب الثمار كذا وكذا ، وهذه المزارع يحصل لى منها كل سنة كذا وكذا ، فقلت : يا هذا أأست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أنفذنى خلفك ، وهو بالكوفة ينتظرك ، وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه ، وقد أخرجتك من منزلك ، ومن بين أهلك ونعمتك وحيداً فريداً ، وأنت تحدثنى حديثاً غير مفيد ، ولا نافع لك ، ولا سألتك عنه ، وكان شغلك بنفسك أولى بك ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد أخطأت فراستى فيك يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة ، إلا لوفور عقلك ، فإذا أنت جاهل عامى لا تصلح لمخاطبة الخلفاء ، أما خروجى على ما ذكرت فلانى على ثقة من ربي الذى بيده ناصيتى وناصية أمير المؤمنين ، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله - تعالى - ، فإذا كان قد قضى على بأمر فلا حيلة لى بدفعه ، ولا قدرة لى على منعه ، وإن لم يكن قد قدر الله على بشيء فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضرولى لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله - تعالى - ، وما لى ذنب فأخاف ، وإنما هذا واش ، وشئى عند أمير المؤمنين بيهتان ، وأمير المؤمنين كامل العقل ، فإذا اطلع على براءتى فهو لا يستحل مضرتى ، وعلى عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جواباً ، ثم أعرض عنى ، وأقبل على التلاوة ومازال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر ، وإذا النجب^(٢) قد استقبلتنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا ، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض فقال : هات يا منارة أخبرنى من يوم خروجك عنى إلى يوم قدمك على ، فابتدأت أحدثه بأمورى كلها مفصلة . والغضب يظهر فى وجهه ، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلمانه وخواصه وضيق الدار بهم ، وتفقدى لأصحابي ، فلم أجد منهم أحداً اسود وجهه ، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه ، فلما قلت : إنه قدم رجله أسفر وجهه واستبشر ، فلما أخبرته بحديثى معه فى ضياعه وبسائتته ، وما قلت له ، وما قال لى ، قال : هذا رجل محسود على نعمته ، ومكذوبٌ عليه ، وقد أزعجناه ، وأرعبناه وشوشنا عليه وعلى أولاده وأهله أخرج إليه وانزع قيوده ، وفكه وأدخله على مكرماً ، ففعلت ، فلما دخل قبل الأرض ، فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه ، واعتذر إليه ، فتكلم بكلام فصيح ، فقال له أمير المؤمنين : سل حوائجك فقال : سرعة رجوعى إلى بلدى ، وجمع شملى بأهلى وولدى . قال : هذا كائن فسل غيره ، قال : عدل

(١) أي لم ينادني بكينيتي قائلاً: يا أبا فلان كما هي عادة العرب في تكريم غيرهم.

(٢) النجب: جمع نجيب، وهو الفاضل بالنسبة لمثله، النفيس في نوعه، ويقال: سادة نجب.

أمير المؤمنين في عماله ما أحوجنى إلى سؤال . قال : فخلع عليه أمير المؤمنين ثم قال : يا منارة ، اركب الساعة معه حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه ، قم في حفظ الله ووداعه ورعايته ، ولا تقطع أخبارك عنا وحوادثك . فانظر إلى حسن توكله على خالقه ، فإنه من توكل عليه كفاه ، ومن دعاه لباه ، ومن سأله أعطاه ما تمناه . وروى أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة في التوراة فكتبها وهي : يا بن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقيا ، وسلطاني لا ينفد أبداً . يا بن آدم ، لا تخش من ضيق الرزق مادامت خزائني ملائمة وخزائني لا تنفذ أبداً ، يا بن آدم ، لا تأنس بغيري وأنا لك فإن طلبتني وجدتني ، وإن أنست بغيري فتك وفاتك الخير كله . يا بن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وقسمت رزقك فلا تتعب ، وفي أكثر منه فلا تطمع ، ومن أقل منه لا تجزع ، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحت قلبك وبدنك ، وكنت عندي محموداً ، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر ، ولا ينالك منها إلا ما قد قسمته لك ، وكنت عندي مذموماً يا بن آدم ، خلقت السموات السبع والأرضين السبع ، ولم أعنى بخلقهن ، أيعينني رغي أسوقه لك من غير تعب ؟! يا بن آدم ، أنا لك محب ، فبحق عليك كن لي محباً . يا بن آدم ، لا تطالبني برزق غد ، كما لا أطلبك بعمل غد ، فإني لم أنس من عصاني ، فكيف من أطاعني وأنا على كل شيء قدير وبكل شيء محيط . قال الشاعر :

وما نسم إلا الله في كل حالة
فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى
ولمؤلفه - رحمه الله تعالى - :

توكل على الرحمن في الأمر كله
وكن واثقاً بالله واصبر لحكمه
فما خاب حقاً من عليه توكل
تفر بالذي ترجوه منه تفضلاً

الفصل الثاني: في القناعة والرضا بما قسم الله

جاء في تفسير قوله - تعالى - : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ ﴾ [النحل: ٩٧] أن المراد بها القناعة^(١) . وقال عليه السلام : « القناعة مال لا ينفد »^(٢) . وقيل : يا رسول الله ما القناعة ؟ قال : « الإيأس مما في أيدي الناس ، وإيناكم والطمع ، فإنه الفقر الحاضر »^(٣) . وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من القناعة بالجانب الأوفر ، وإنه كان يشتهي الشيء فيدافعه سنة . قال الكندي : العبد حر ما قنع ، والحر عبد ما طمع . وقال بشر بن الحارث : خرج فتى في طلب الرزق ، فبينما هو يمشى ، فأعيا فأوى إلى خراب يستريح فيه ، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فإذا هي :

إنى رأيتك قاعداً مستقبلي
هون عليك وكن بربك واثقاً
طرح الأذى عن نفسه في رزقه
فعلمت أنك لهموم قرين
فأخو التوكل شأنه التهوين
لمأتيقن أنه مضمون

قال : فرجع الفتى إلى بيته ، ولزم التوكل وقال : اللهم أدبنا أنت . قال الجاحظ : إنما خالف الله - تعالى - بين طبائع الناس ، ليوفق بينهم في مصالحهم ، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك والسياسة والتجارة والفلاحة ، وفي ذلك بطلان المصالح ، وذهاب المعاش ، فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه ، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيراً

(١) نقله صاحب كشف الخفاء عن علي .

(٢) رواه الطبراني والعسكري عن جابر وزاد عليه : « وكنت لا يفنى » وإسناده كما قال الذهبي واو ، والمشهور : « القناعة كنز لا يفنى » وفي القناعة أحاديث كثيرة كما قال المجولوني .

(٣) حديث : وقيل يا رسول الله ، ما القناعة . . إلخ . الشطر الثاني من الحديث أورده السيوطي في الدرر المنتشرة برقم [١٤١] ، بلفظ « إياك والطمع » أخرجه الحاكم عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً ، وزاد . . فإنه الفقر الحاضر » وأخرجه العسكري في الأمثال كاملاً متضمناً الشطرين بلفظ « أن رجلاً قال : يا رسول الله أوصني » قال : « عليك باليأس » . . إلخ ، وأخرجه الحاكم في الرقاق وقال : صحيح الإسناد .

أو خلقاً قال : ويلك يا حجام ، والحجّام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال : ويلك يا حائك فجعل الله - تعالى - الاختلاف سبباً للاتلاف ، فسبحانه مدير قادر حكيم ، ألا ترى إلى البدوى فى بيت من قطعة خيش معمد بعظام الجيف ، كلبه معه فى بيته ، لباسه شملة من وبر أو شعر ، ودواؤه بعر الإبل ، وطيبه القطران وبعير الطباء ، وحلى زوجته الودع ، وثماره ^(١) المقل وصيده اليربوع ^(٢) ، وهو فى مفازة ^(٣) لا يسمع فيها إلا صوت بومة ، وعواء ذئب ، وهو قانع بذلك مفتخر به .

وقال سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه : يا بنى ؛ إذا طلبت الغنى فاطلبه فى القناعة . فإنها مال لا ينفد ، وإياك والطمع ، فإنه فقر حاضر ، وعليك بالياس فإنك لم تياس من شيء إلا أغناك الله عنه ، وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة ، فجاءه حماد ابن أبى حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه وقال : هى من مال رجل ما أقدم عليه أحدا فى زهده وورعه وطيب كسبه ، فقال : لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبقتها تعظيماً للميت ، وإكراماً للحى ، ولكنى أحب أن أعيش فى عز القناعة .

وقال عيسى عليه السلام : اتخذوا البيوت منازل ، والمساجد مساكن ، وكلوا من بقل البرية ، واشربوا من الماء القراح ، واخرجوا من الدنيا بسلام ^(٤) . وأنشد المبرد :

إِنْ ضَنَّ زَيْدٌ بِمَا فِي بَطْنِ رَاحَتِهِ فِالْأَرْضِ وَاسِعَةٌ وَالرِّزْقُ مَبْسُوطٌ
إِنَّ الَّذِي قَدَّرَ الْأَشْيَاءَ بِحُكْمَتِهِ لَمْ يَنْسِنِ قَاعِدَا الرَّحْلِ مَخْطُوطٌ

قال عبد الواحد بن زيد : ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا ، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا ، وهو رأس المحبة ، قيل له : متى يكون العبد راضياً عن ربه ، قال : إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة . وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي ، فسكر يوماً ، ففاته الصلاة ، فجاءته جارية له بجمره ، فوضعتها على رجله ، فانتبه مذعوراً فقالت له : إذا لم تصبر على نار الدنيا فكيف تصبر على نار الآخرة ؟! فقام فصلّى الصلوات ، وتصدّق بما يملكه ، وذهب يبيع البقل ، فدخل عليه فضيل وابن عيينة ، فإذا تحت رأسه لبنة ، وما تحت جنبه شيء فقالا له : إنه لم يدع أحد شيئاً لله إلا عوّضه الله منه بديلاً ، فما عوّضك عما تركت له ، قال : الرضا بما أنا فيه .

وقال الثوري : ما وضع أحد يده فى قصعة غيره إلا ذلّ له . وقال الفضيل : من رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه . وكان عيسى عليه السلام يقول : الشمس فى الشتاء جلالى ^(٥) ونور القمر سراجى ، وبقل البرية فاكهتى ، وشعر الغنم لباسى ، أبيت حيث يدركنى الليل ، ليس لى ولد يموت ، ولا بيت يخرب أنا الذى كبيت الدنيا على وجهها .

إِنَّ الْقَنَاعَةَ مَنْ يَخْلُلُ بِسَاحَتِهَا لَمْ يَلْقَ فِي ظِلِّهَا هَمًّا يَوْرُقُهُ

وقال عيسى عليه السلام : انظروا إلى الطير ، تغدو وتروح ، ليس معها شيء من أرزاقها ، لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها فإن زعمتم أنكم أكبر بطوناً من الطير ، فهذه الوحوش والبقر والحمر لا تحرث ، ولا تحصد ، والله يرزقها ^(٦) .

وقيل : وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته ^(٧) فقال له : أأنت القائل :

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الْإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي أَنَّ الَّذِي هُوَ رَزَقِي سَوْفَ يَأْتِينِي
أَسْعَى إِلَيْهِ فَيُعِينِي تَطْلُبُهُ وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لَيْسَ يُعِينِي

وقد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد وعظت فأبلغت ، وخرج فركب ناقته وكرّ إلى الحجاز راجعاً ، فلما كان من الليل نام هشام على فراشه ، فذكر عروة ، فقال فى نفسه : رجل من

(١) المقل : حمل الدوم ، وهو يشبه النخل .

(٢) اليربوع : حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير ، وله ذنب طويل ينتهي بخصلة من الشعر وهو قصير اليدين ، طويل الرجلين .

(٣) المفازة : الصحراء المهلكة ، وسميت مفازة تفاؤلاً .

(٤) قول عيسى عليه السلام : اتخذوا البيوت . . إلخ . أخرجه ابن عدي فى الكامل [١٨/٤] .

(٥) الجلال من كل شيء غطاؤه .

(٦) أخرجه ابن المبارك فى الزهد [٨٤٨] .

(٧) خلته : فقره وفاقة .

قريش . قال : حكمة ، ووفد على فجيته ورددته خائبا ، فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار ، ففرع عليه الرسول باب داره بالمدينة ، وأعطاه المال ، فقال : أبلغ أمير المؤمنين مني السلام ، وقل له : كيف رأيت قولي ؟! سعت فأكدت^(١) فرجعت فأتاني رزقي في منزلي ! ولما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له ، أنصاري ، وثقفي ، فلما سارا تخلف الأنصاري ، وقال : الذي أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني ، فوفد الثقفي ، وقال : أخوز الحظين ؛ فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له : ما فعل زميلك الأنصاري ؟ قال : رجع إلى أهله . فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار ، وبعث إلى الأنصاري بشمانيه آلاف دينار ، فخرج الثقفي وهو يقول :

فوالله ما جزض الحريص بنافع
خرجنا جميعا من مساقط رؤسنا
فلما أنخنا الناجعات ببابه
وقال : ستكفيني عطية قادر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر
فقلت : خلالي وجهه ولعله
فلما رآني سال عنه صباية
فأبئت وقد أيقنت أن ليس نافعا
قيل : أوحى الله - تعالى - إلى موسى عليه السلام أتدري لم رزقت الأحق ؟ قال : لا يارب . قال : ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيا^(٥) . ولبعث العرب :

ولا تجزع إذا أعسرت يوما
ولا تظنن بربك ظن سوء
وإن العسر يتبعه يسار
فلو أن العقول تسوق رزقا
وأوحى الله - تعالى - إلى يوسف عليه السلام انظر إلى الأرض ، فنظر إليها ، فانفجرت ، فرأى دودة على صخرة ، ومعها الطعام ، فقال له : أتراني لم أغفل عنها ، وأغفل عنك وأنت نبي^(٦) وابن نبي ؟! ودخل على بن أبي طالب عليه السلام المسجد ، وقال لرجل كان واقفا على باب المسجد : أميك على بغلتي ، فأخذ الرجل لجامها ، ومضى وترك البغلة ، فخرج على يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على إمساكه بغلته ، فوجد البغلة واقفة بغير لجام ، فركبها ومضى ودفع لغلامه الدرهمين يشتري بهما لجاما ، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين ، فقال على عليه السلام : إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر ، ولا يزداد على ما قدر له .
وقيل لراهب : من أين تأكل ؟ فأشار إلى فيه ، وقال : الذي خلق هذه الرحي يأتيها بالطحين . وقال سليم بن المهاجر الجيلي :

كسوت جميل الصبر وجهي فصائه
فما عشت لم آت البخيل ولم أقم
وإن قليلا يسئر الوجه أن يرى
به الله عن غشيان كل بخيل
على بابه يوما مقام ذليل
إلى الناس مبذولا لغير قليل

(١) فأكدت: أي فعدت خائب المسمى .

(٢) مساقط رؤسنا: أماكن ولادتنا، وخففت همزة رهوس فنطقت بدونها .

(٣) أنخنا: حططنا رحالنا ونزلنا . والناجعات: الإبل التي تحمل قضاة، وطلاب معروفة .

(٤) ظوار الأباعر: جمع بعير، ويضرب المثل بالإبل في الحنين، وظوارها: عطفها وحنينها على ولد غيرها .

(٥) أوحى الله إلى موسى عليه السلام أتدري إلخ . لم أقف عليه : وهو من الإسرائيليات .

(٦) أوحى الله إلى يوسف عليه السلام . إلخ لم أقف عليه وهو من الإسرائيليات .

وصلى معروف الكرخي خلفَ إمام ، فلما قرع من صلاته ؛ قال الإمام لمعروف : من أين تأكل ؟ قال : اصبر حتى أُعيدَ صلاتي التي صليتها خلفك ! قال : ولم ؟ قال : لأن من شك في رزقه شك في خالقه . وقال أبو حازم : ما لم يُكتب لي لو ركبُ الرياح ما أدركته . وقال عمر بن أبي عمر اليوناني :

غلا السعُرُ في بغدادَ من بعد رخصه وإنني في الحالين بالله واثقُ
فلست أخاف الضيقَ والله واسع غناه ولا الحرمانُ والله رازقُ
وقال القهستاني :

غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم وإن الغنى الأعلى عن الشيء لا به
وقال منصور الفقيه :

الموت أسهلُّ عندي بين القنا والأسِنَّه
والخيْلُ تسجى سِراعاً مقطّعات الأعِنَّه
مِن أن يكونَ لِنَذلٍ على فضلٍ ومِنَّه
وأنشد أعرابي :

أيا مالك لا تسأل الناسَ والشمس بكفّيك فضلَ الله فالله أوسعُ
ولو تسأل الناسَ الترابَ لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يَمَلّوا ويَمْنَعوا
وقال رجل لرسول الله ﷺ أوصني ، قال : «عليك بالنّاسِ ممّا في أيدي النّاسِ ، وإِنَّكَ والطَّمَعُ ، فَإِنَّهُ فَقْرٌ خَاصِرٌ»^(١) .

وقيل : إذا وجدت الشيء في السوق ، فلا تطلبه من صديقك .
وقيل : لأعرابية ، من أين معاشكم ؟ قالت : لو لم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش .
وقال أعرابي : أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرّك معها من فوقك .
وقال المعري :

إذا كنت تبغى العيش فابغِ توسّطاً فعند التناهي يقصُرُ المتطاوُلُ
توقى البذورَ النقصَ وهى أهلةٌ ويدركها النقصانُ وهى كوامِلُ
وقال آخر :

افنّع بأيسرِ رزقي أنت نائله واحذِرْ ولا تنمِرْضْ للإِراداتِ
فما صفا البحر إلا وهو منتقصُ ولا تَمَكّرْ إلا فى الزِياداتِ
وقال أعرابي : استظهر على الدهر بخفة الظهر^(٢) . قال هشام بن إبراهيم البصري :

وكم مَلِكٌ جانبُهُ عن كراهة لإغلاق باب أو لتشديد حاجِبِ
ولى فى غنى نفسى مرادٌ ومذهبُ إذا انصرفت عنى وجوه المَذهبِ

وقيل : ينبغي أن يكون المرء فى دنياه كالمدعو إلى الوليمة ، إن أتته صحفة تناولها ، وإن لم تأت لم يرصدها ولم يطلبها . وقال شقيق بن إبراهيم البلخي : قال لى إبراهيم بن أدهم - رحمه الله تعالى - أخبرنى عما أنت عليه . قلت : إن رُزقت أكلت وإن منعت صبرت . قال : هكذا تعمل كلابٌ بلخ ! فقلت : كيف تعمل أنت ؟ قال : إن رُزقت آثرت ، وإن مُنعت شكرت . وقال بعضهم :

هى القناعة فالزمها تعش مَلِكُ لو لم يكن منك إلا راحة البدنِ
وانظر لمن مَلِكُ الدنْيا بأجمعها هل راح منها بغير القُطنِ والكُفَنِ

(٢) استظهر: استعن ، والمراد بخفة الظهر: التخفف والاكفاء بما يسد الرمح.

(١) سبق تخريجه برقم [٤]، في هذا الباب.

وقال آخر :

وإن القناعة كنز لا يغنى
فلا ذا يرانى على بابـه
فصرت غنيا بلا درهم
أمر على الناس شبه الملك
جاء فتح الموصل إلى أهله بعد العتمة ، فلم يجد عندهم شيئا للغشاء ، ووجدهم بغير سراج ، فجلس ليته ييكي
من الفرح ، ويقول : بأى يد كانت منى تركت مثلى على هذه الحالة ؟! والله - تعالى - أعلم .

الفصل الثالث : فى ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله - تعالى - : ﴿ أَلْهَنَكُمْ الْكَافُّرُ ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ التكاثر : ١-٢ ﴾ . وروى أن النبى ﷺ قرأ : ﴿ أَلْهَنَكُمْ
الْكَافُّرُ ﴾ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ قال : « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْتَ ، وَلَيْسَتْ
فَأَبْلَيْتَ ، وَتَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » (١) . وروى عروة بن الزبير عن عائشة ؓ أن النبى ﷺ قال : « يا عائشة ، إن أردت
اللَّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكَ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاحِبِ ، وَإِيَّاكَ وَمَجَالِسَةَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَلَا تَسْتَخْلِفْنِي ثَوْبًا حَتَّى تَرْفَعِيهِ » (٢) . وروى عن
رسول الله ﷺ أنه قال : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل » (٣) .

وقيل : الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد فى رزقه وقيل لحكيم : ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من
الشاب ؟ قال : لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب ، وما أحسن ما قال بعضهم :

إذا طاوعت حرصك كنت عبداً لكل دنيسة تدعى إليها
وقال آخر وأجاد :

قد شاب رأسى ، ورأس الدهر لم يشب
إن الحريص على الدنيا لفى تعب
وقيل للإسكندر : ما سرور الدنيا ؟ قال : الرضا بما رزقت منها . قيل : فما غمها ؟ قال : الحرص عليها . وقال
الحسن : لو رأيت الأجل ومروزه لنسيت الأمل وغروزه . وقال أبو سعيد الخدرى ؓ اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة
دينار إلى شهر ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا تعجبون من أسامة اشترى ؟! إلى شهر ! إن أسامة لطويل الأمل » (٤) .
وقال ابن عباس ؓ كان نبى الله ﷺ يخرج فيبول ، ثم يمسح بالتراب فأقول : إن الماء منك قريب ، فيقول : « ما
يدرينى لعلى ما أبلغه » (٥) . وعن أبى هريرة ؓ يرفعه : « لا يزال قلب الشيخ شاباً فى اثنين : حُب المال ، وطول
الأمل » (٦) . وقيل لمحمد بن واسع : كيف تجدك ؟ قال : قصير الأجل ، طويل الأمل ، مسيء العمل .
وقيل : من جرى فى عنان أمله ، كان عاثراً بأجله ، لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال . ولقد أحسن أبو العباس
أحمد بن مروان فى قوله :

وذى حرص تراه يلمّ وفرا
ككلب الصيد يمسك وهو طاوٍ
لوارثه ويدفع عن حماه
فريسته ليأكلها سواه

(١) حديث : «يقول ابن آدم .. إلخ» رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق [٢١١/٨] ، عن عبد الله بن الشخير .

(٢) حديث با عائشة إلخ .. ضعيف جداً : أخرجه الترمذي [١٧٨٠] ، والحاكم [٣١٢/٤] ، وفيه صالح بن حسان الأنصاري متروك الحديث .

(٣) حديث : «صلاح أول هذه الأمة .. إلخ» . ضعيف : أخرجه الطبراني فى الأوسط [٥٠٥١-٥٠٥٢ مجمع البحرين] ، وفي إسناده عصمة بن المتوكل
ضعيف .

(٤) حديث : «ألا تعجبون .. إلخ» . ضعيف : أخرجه أبو نعيم فى «الحلية» [٩١/٦] ، والبيهقى فى شعب الإيمان [١٠٥٦٤] ، وفي إسناده أبو بكر بن
أبى مريم ، ضعيف الحديث .

(٥) حديث : «كان نبى الله .. إلخ» . ضعيف : أخرجه الحارث فى «مسنده» برقم [٩٥-٩٦ بغية] ، وانظر تخريجه هناك ، بتحقيق الأخ / مسعد السعدني ،
ط . مكتبة القرآن .

(٦) عن أبى هريرة : «لا يزال قلب الشيخ شاباً .. إلخ» . أخرجه مسلم [١٠٤٦] .

ولقد أحسن من قال في الجناس الحقيقي :

إذا ما نازعتك النفس حرصاً ولا تحرص ليوم أنت فيه
ومن كلام الحكماء : إياكم وطول الأمل ، فإن من ألهاه أمله ، أخزاه عمله . قال عبد الصمد بن المعدل :
ولى أمل قطعت به الليالى وقال الحسن : إياكم وهذه الأمانى ؛ فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيراً قط فى الدنيا ولا فى الآخرة قال قس بن ساعدة :
وما قد تولى فهو لا شك فائت وقال آخر :

ولا تتعلل بالأمانى فإنها وقال آخر وأجاد :
الله أصدق والآمال كاذبة وقال آخر وأجاد :

شط المزار بسعدى وانتهى الأمل إلا رجاء فما ندري أندركه
وقال أبو العتاهية :

لقد لعبت وجد الموت فى طلبى لو شمريت فكرتى فيما خلقت له
وله أيضاً :

تعالى الله يا سلم بن عمرو هب الدنيا تقاد إليك عفوا
وقد ضمنت البيت^(٣) الأخير فقلت :

أيا من عاش فى الدنيا طويلا وأتعب نفسه فيما سيفنى
هب الدنيا تقاد إليك عفوا

ومما جاء فى الطمع وذمه

قال على بن أبى طالب عليه السلام أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع ، وقال عليه السلام : ما الخمر صِرْفاً^(٤) بأذهب لعقول الرجال من الطمع وفى الحديث : « إياك والطمع ، فإنه الفقر الحاضر »^(٥) . وقال فيلسوف : العيب ثلاثة : عيب رُق ، وعيب شهوة ، وعيب طمع . وقال بعضهم : من أراد أن يعيش حرّاً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع . وقيل : اجتمع كعب وعبد الله بن سلام ، فقال له كعب : يا بن سلام ، مَنْ أرباب العلم ؟ قال : الذين يعملون به ، قال :

(١) الجناس الحقيقي بين «أمسك» الأولى ، و«أمسك» الثانية ، فالأولى فعل أمر من الإمساك ، والثانية اسم ، وهو اليوم الذي قبل يومك ، ولا يخفى أن الجناس الحقيقي اختلاف اللفظين فى المعنى مع اتفاقهما فى عدد الحروف وترتيبها ونطقها .

(٢) شط المزمار : بعد ونأى .

(٣) ضمنت البيت الأخير ، أي : جعلته ضمن شعري متفقاً مع شعري فى الوزن والقافية حتى ليحسب أنه لى . وهو كالاقتباس من القرآن والحديث فى النشر .

(٤) صِرْفاً : غير مشوبة بالماء أو غيره أي : خالصة .

(٥) تكرر هذا الحديث وسبق تخريجه .

فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن عَلِمُوهُ ؟ قال : الطمع ، وشرة النفس ، وطلب الحوائج إلى الناس . واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي فتواصوا ثم افترقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال : الحلم عند الغضب ، والصبر عند الطمع . وقيل : لما خلق الله آدم عليه السلام عجن بطينه ثلاثة أشياء : الحرص ، والطمع ، والحسد ، فهي تجرى في أولاده إلى يوم القيامة ، فالعاقل يُخفيها ، والجاهل يبيدها . ومعناه أن الله - تعالى - خلق شهوتها فيه ، قال إسماعيل بن قطري القراطيسي :

حَسْبِيَ بِعِلْمِي إِنْ نَفَعُ مَا الذَّلْ إِلَّا فِي الطَّمَعِ
مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ نَزَغَ عَنْ سُوءِ مَا كَانَ صَنِيعِ
مَا طَارَ طَيْرٌ وَارْتَفَعَ إِلَّا كَمَا طَارَ وَقَفَعَ

وقال سابق البربري :

يَخَادِعُ رَيْبُ الدَّهْرِ عَنْ نَفْسِهِ الْفَتَى سِفَاهَا وَرَيْبُ الدَّهْرِ عَنْهَا يَخَادِعُ
وَيَطْمَعُ فِي سَوْفٍ وَيَهْلِكُ دُونَهَا وَكَمْ مِنْ حَرِيصٍ أَهْلَكَتْهُ مَطَامِعُهُ
وقيل لأشعب ^(١) : ما بلغ من طمعك ؟ قال : أرى دُخَانًا جَارِيًّا فَأَفْتَتْ خَبْرِي . وقال أيضا : ما رأيت رجلين يتساران في جنازة إلا قَدَّرَتْ أَنَّ المِيتَ أَوْصَى لِي بِشَيْءٍ مِنْ مَالِهِ ، وَمَا زُفَّتْ عُرُوسٌ إِلَّا كُنْتُ بَيْتِي رَجَاءً أَنْ يَغْلُطُوا فَيَدْخُلُوا بِهَا إِلَيَّ . قال بعضهم :

لَا تَغْضِبْ بَنَ عَلِيٍّ أَمْرِي لَكَ مَنَاعٌ مَا فِي يَدَيْهِ
وَإِغْضِبْ عَلَى الطَّمَعِ الَّذِي اسْتَدْعَاكَ تَطْلُبُ مَا لَدَيْهِ
والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب العاوي عشر

في المشورة والنصيحة ، والتجارب ، والنظر في العواقب

قال الله - تعالى - لنبيه ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] . واختلف أهل التأويل ^(٢) في أمره بالمشاورة مع ما أمده الله - تعالى - من التوفيق على ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح ، فيعمل عليه ، وهذا قول الحسن .

ثانيها : أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل . وهذا قول الضحاك .

ثالثها : أنه أمره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ^(٣) ، وإن كان في غنية عن مشورتهم . وهذا قول سفيان . وقال ابن عيينة كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال ، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين من الخالق مُبْدَأُ أمره ولكنه تعليم منه ليشاور الرجل الناس وإن كان عالماً .

وقال ﷺ : « ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ، ولا افتقر من اقتصد » ^(٤) . وقال ﷺ : « من أعجب برأيه

(١) أشعب : أمير الطفيليين في عصره .

(٢) التأويل : قد يراد به التفسير .

(٣) ليشأت المسلمون به : أي ليقصدوا ويعملوا بهذه السنة .

(٤) قوله : « ما خاب من استخار » إلخ قال في الكشف : رواه الطبراني في الصغير ، والقضاعي عن أنس رفعه ، وفي سنده ضعف . انظر صحيح الجامع

[٥/٥٠٥٨] .

ضل ، ومن استغنى بعقله زل «^(١) . وكان يقال : ما استنبط الصواب بمثل المشاورة . وقال حكيم : المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأي . وقال الحسن : الناس ثلاثة : فرجل رجل ، ورجل نصف رجل ، ورجل لا رجل . فأما الرجلُ الرجلُ فذلُّ الرأي والمشورة . وأما الرجل الذي هو نصف رجل فالذي له رأى ولا يشاور ، وأما الرجل الذي ليس برجل فالذي ليس له رأى ولا يشاور . وقال المنصور لولده : خذ عنى ثنتين : لا تقل فى غير تفكير ، ولا تعمل بغير تدبير . وقال الفضل : المشورة فيها بركة ، وإنى لأستشير حتى هذه الحبشية الأعجمية .

وقال أعرابى : لا مال أوفر من العقل ، ولا فقر أعظم من الجهل ، ولا ظهر أقوى من المشورة ، وقيل : من بدأ بالاستشارة ، وثنى بالإشارة ، فحقيق أن لا يخيب رأيه . وقيل : رأى السديد أحمى من البطل الشديد . قال أبو القاسم النُّهْرَوْنْدَى :

وما ألف مطرور السنان مسدد يعارض يوم الروع رأيا مسددا^(٢)
وقال على : خاطر من استغنى برأيه ، وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل :
إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن يترددا
فأضاف إليه قوله :

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلا ولمحمد بن إدريس الطائى :
ذهب الصواب برأيه فكأنما إذا دجا خطب تبلج رأيه
فإن فساد العزم أن يتقيدا
آراؤه اشتقت من التأيد
صبحا من التوفيق والتسديد^(٣)
ولمحمد الوراق :

إن اللبيب إذا تفرق أمره وأخو الجهالة يستبد برأيه
وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون فى العهد :
لقد بان وجه الرأى لى غير أننى فكيف يرد الذر فى الضرع بعدما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه
وقال آخر :

خليلى ليس الرأى فى جنب واحد أشيرا على اليوم ما تريان
ووصف رجل عضد الدولة . فقال : له وجه فيه ألف عين ، وفم فيه ألف لسان ، وصدر فيه ألف قلب . وقال
أردشير ابن : أربعة تحتاج إلى أربعة : الحسب إلى الأدب ، والسرور إلى الأمن ، والقرابة إلى المودة ، والعقل إلى
التجربة . وقال : لا تستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقيق ، فإن الدرة لا يستهان بها ليهوان غائصها . وقال جعفر بن
محمد لا تكونن أول مشير ، وإياك والرأى الفطير ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تشيرن على مستبد برأيه ، ولا على
مثلون ، ولا على لحوح . وقيل : ينبغى أن يكون المستشار صحيح العلم ، مهذب الرأى ، فليس كل عالم يعرف
الرأى الصائب وكما ناقد فى شىء ضعيف فى غيره ، قال أبو الأسود الدؤلى :

وما كل ذى نضح بمؤتيك نضح وما كل مؤت نضح بلبيب

(١) حديث : «من أعجب برأيه .. إلخ» تقدم أن أحاديث العقل كلها موضوعة . وهذا منها .

(٢) مطرور السنان : حادها ، وقريب منه قوله القائل : الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي اغل الثاني .

(٣) دجا خطب : أظلمت الشدائد ، وحلت الكوارث ، هو الذي أبدى بلا تثبت .

ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب

وكان اليونان والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه ، وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به ، لمعان شتى : منها ؛ لثلا يقع بين المستشارين منافسة فتذهب إصابة الرأي لأن من طباع المشتركين في الأمر التنافس ، والطعن من بعضهم في بعض ، وربما سبق أحدهم بالرأي الصواب ، فحسدوه وعارضوه ، وفي اجتماعهم أيضا للمشورة تعريض السر للإذاعة ، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه للإبهام فإن عاقب الكل عاقبهم بذنب واحد ، وإن عفا عنهم ألحق الجاني بمن لا ذنب له .

وقيل : إذا أشار عليك صاحبك برأى ، ولم تحمد عاقبته ، فلا تجعل ذلك عليه لوما وعتابا بأن تقول أنت فعلت ، وأنت أمرتني ، ولولا أنت ، فهذا كله ضجر ولوم وخفة .

وقال أفلاطون : إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة ، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاةك . وقيل : من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره ، فهو كمن بذر في السباخ . قال الشاعر يمدح من له رأى وبصيرة :

بصير بأعقاب الأمور كأنما يخاطبه من كل أمر عواقبه

وقال ابن المعتز : المشورة راحة لك ، وتعب على غيرك . وقال الأحنف : لا تشاور الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يروى . ولا الأسير حتى يُطلق ولا المقل حتى يجد .

ولما أراد نوح ابن مريم قاضى مرو أن يزوج ابنته استشار جارا له مجوسيا ؛ فقال : سبحان الله ، الناس يستفتونك وأنت تستفتيني ! قال : لا بد أن تشير على . قال : إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال ، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال ، ورئيس العرب كان يختار الحسب ، ورئيسكم محمد كان يختار الدين ، فانظر لنفسك بمن تقتدى ؟ ! وكان يقال : من أعطى أربعا لم يمنع أربعا من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الاستشارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب . وقيل : إذا استخار الرجل ربه ، واستشار صحبه ، وأجهد رأيه ، فقد قضى ما عليه ، ويقض الله في أمره ما يجب .

وقال بعضهم : خمير الرأي خير من فطيره^(١) ، وتقديمه خير من تأخيرهِ . وقالت الحكماء : لا تشاور معلما ولا راعى غنم ، ولا كثير القعود مع النساء ، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها ولا خائفا ولا حاقنا^(٢) .

وقيل : سبعة لا ينبغي لصاحب لب أن يشاورهم : جاهل ، وعدو ، وحسود ، ومراء ، وجبان ، وبخيل ، وذو هوى ؛ فإن الجاهل يضل ، والعدو يريد الهلاك ، والحسود يتمنى زوال النعمة ، والمراءى واقف مع رضا الناس ، والجبان من رأيه الهرب ، والبخيل حريص على جمع المال فلا رأى له في غيره ، وذو الهوى أسير هواه . فلا يقدر على مخالفته .

وحكى : أن رجلا من أهل يثرب يعرف بالأسلمى قال : ركبني دَيْنٌ أثقل كاهلي ، وطالبني به مستحقوه ، واشتدت حاجتي إلى ما لا يد منه ، وضائق على الأرض ، ولم أهد إلى ما أصنع فشاورت من أثق به من ذوى المودة والرأى ، فأشار على بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق ، فقلت له : تمنعني المشقة وبعد الشقة ، وتبه المهلب . ثم إنني عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره ، فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الأولُ فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها ، فركبت ناقتي ، وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق ، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه ، وقلت له : أصلح الله الأمير إنني قطعت إليك الدهناء ، وضربت أكباد الإبل^(٣) من يثرب ، فإنه أشار على بعض ذوى الحجى والرأى بقصدك لقضاء حاجتي ، فقال : هل أتيتنا بوسيلة أو بقرابة وعشيرة ؟ فقلت : لا ، ولكني رأيتك أهلا لقضاء حاجتي ، فإن قمت بها فأهل لذلك أنت ، وإن يحل دونها حائل لم أذم يومك ولم أياس من غدك ، فقال المهلب لحاجبه : اذهب به ، وادفع إليه ما في خزانة مالنا الساعة ، فأخذني معه ، فوجدت في خزائنه ثمانين ألف

(١) خمير الرأي : ما اخترت ، وقتل بحثا ، وقلب على وجوهه كما يختبر العجين ، والفطير الذي لم ينضج بعد .

(٢) الحاقن : الذي احتبس بوله فتجمع ، يقال : لا رأي لحاقن !

(٣) الدهناء : الصحراء . وضربت إليك أكباد الإبل : قطعت إليك المسافات البعيدة أسوق الإبل لتسرع .

درهم ، فدفعها إليّ ، فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحا وسرورا . ثم عاد الحاجب بي إليه مسرعا فقال : هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك ؟ فقلت : نعم أيها الأمير وزيادة ، فقال : الحمد لله عليّ نُجح سعيك ، واجتئناك جني^(١) مشورتك وتحقق ظنّ من أشار عليك بقصدنا . قال الأسلمي : فلما سمعت كلامه ، وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه :

يا من على الجُود صاغ الله راحته فليس يُخسِنُ غيرَ البذل والجُود^(٢)
عمّت عطايك أهل الأرض قاطبة فأنت والجود منحوتان من عود
من استشار فباب النُجَحِ منفتح لديه فيما ابتغاه غير مردود

ثم عدت إلى المدينة فقضيت دَينِي ووسّعت على أهلي ، وجازيت المشير عليّ ، وعاهدت الله - تعالى - أن لا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت .

وحكى : عن الخليفة المنصور أنه كان صدّر من عمه عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحملها حراسة الخلافة ، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك ، فحبسه عنده ، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي - وكان واليا على الكوفة - ما أفسد عقيدته فيه ، وأوحشه منه ، وصرف وجه ميله إليه عنه ، فتألم المنصور من ذلك ، وساء ظنه ، وتأرق جَفَنُه ، وقل أمنه ، وتزايد خوفه وحزنه فأذنت فكرته إلى أمر دبره ، وكتبه عن جميع حاشيته ، وستره واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى ، وأجراه على عادة إكرامه ثم أخرج من كان بحضرته ، وأقبل على عيسى ، وقال له : يا بن العم ، إني مطلقك على أمر لا أجد غيرك من أهله ، ولا أرى سواك مساعدا لي على حمل ثقله ، فهل أنت في موضع ظني بك ، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي ؟ ! فقال له عيسى بن موسى : أنا عبد أمير المؤمنين ، ونفسي طوع أمره ونهيه ، فقال : إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته ، واعتمد على ما بعضه يُبيح دمه ، وفي قتله صلاح ملكنا ، فخذ إليك ، واقتله سرا ثم سلمه إليه وعزم المنصور على الحج ، مضمرا أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص ، وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصا فيكون قد استراح من الاثنين : عبد الله ، وعيسى . وقال عيسى : فلما أخذت عمي وأفكرت^(٣) في قتله ، رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته من له رأى ، عسى أن أصيب الصواب في ذلك ، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب ، وكان لي حسن ظن في رأيه ، وعقيدة صالحة في معرفته ، فقلت له : إن أمير المؤمنين دفع إليّ عمه عبد الله ، وأمرني بقتله ، وإخفاء أمره ، فما رأيك في ذلك ؟ وما تشير به ؟ فقال لي يونس : أيها الأمير ، احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين ، فإني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه ، وتجعل دونه مغالقي ، وأبوابا ، وأظهر لأمر المؤمنين أنك قتلتهم ، وأنفذت أمره فيه وانتهيت إلى العمل بطاعته ، فكأنني به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رؤوس الأشهاد فإن اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك ، وأخذك بقتله ، وقتلك . قال عيسى بن موسى : فقبلت مشورة يونس ، وعملت بها وأظهرت لأمر المؤمنين أنني أنفذت أمره ، ثم حج المنصور فلما قدم من حجه ، وقد استقر في نفسه أنني قد قتلت عمه عبد الله ، دس إلى عمومته إخوة عبد الله ، وحثهم على أن يسألوه في أخيهم ، ويستوهبوه منه فجاءوا إليه - وقد جلس ، والناس بين يديه على مراتبهم - فسألوه في عبد الله ، فقال : نعم إن حقوقكم تقتضي إسعافكم بحاجتكم ؛ كيف وفيها صلة رحم وإحسان إلى من هو في مقام الوالد ! ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى ، فأحضر لوقته فقال : يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجي إلى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي ، فقال عيسى : قد فعلت يا أمير المؤمنين ، فقال المنصور : قد سألني فيه عمومك ، وقد رأيت الصصح عنه ، وقضاء حاجتهم وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه ، فائتنا به الساعة .

(٢) الراحة : باطن الكف ، وقد صاغها الله على الجود ، فهي معطاء .

(١) الجَنِي : ما يجنى . والمراد : ثمرة مشورتك .

(٣) أفكرت فيه : أفكر في الأمر : فُكر فيه ، أي عمل العقل فيه ورُتب بعض ما يعلم ليصل به إلى مجهول .

قال عيسى : فقلت يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرني بقتله والمبادرة إلى ذلك ؟ قال : كذبت ، لم أمرك بذلك ، ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك ، ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته : قد أقر بقتل أخيكم مدعياً أنني أمرته بقتله ، وقد كذب عليّ . قالوا : يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به ، ونقتص منه . فقال : شأنكم به . قال عيسى : فأخذوني إلى الرحبة واجتمع الناس عليّ ، فقام واحد من عمومى إلىّ وسلّ سيفه ليضربني به ، فقلت له : يا عم ، أفاعل أنت ؟ قال : إى والله وكيف لا أقتلك وقد قتلت أخى ؟ ! فقال لهم : لا تعجلوا وردّوني إلى أمير المؤمنين ، فردّوني إليه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنما أردت قتلى بقتله ، والذي دبرته عليّ عصمنى الله - تعالى - من فعله ، وهذا عمك باق حتّى سوى ، فإن أمرتنى بدفعه إليهم دفعته إليهم الساعة ، فأطرق المنصور ، وعلم أن ريح فكر صادفت إعصاراً ، وإنّ انفراده بتدبيره قارف خساراً^(١) ، ثم رفع رأسه ، وقال : اثنا به فمضى عيسى ، وأحضر عبد الله ، فلما رآه المنصور قال لعمومته : اتركوه عندى ، وانصرفوا حتّى أرى فيه رأياً ، قال عيسى : فتركته وانصرفت ، وانصرف إخوته فسلمت روحى ، وزالت كربتى ، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس ، وقبول مشورته ، والعمل بها ثم إنّ المنصور أسكن عبد الله فى بيت أساسه قد بنى على الملح ، ثم أرسل الماء حوله ليلا فذاب الملح وسقط البيت ، فمات عبد الله ودفن بمقابر الشام ، وسلم عيسى من هذه المكيدة ، ومن سهام مراعيها البعيدة .

ومما جاء في النصيحة

اعلموا أن النصيحة للمسلمين ، وللخلائق أجمعين من سنن المرسلين ، قال الله - تعالى - إخبارا عن نوح عليه السلام :
﴿وَلَا يَعْصِيكُمْ فِئْتَىٰ إِن أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنَّ كَانَ اللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] وقال
شعيب عليه السلام : ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آتَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣] . وقال صالح عليه السلام : ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ
لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ [الأعراف: ٧٩] . وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِنْ الدِّينَ النَّصِيحَةُ إِنْ الدِّينَ النَّصِيحَةُ
إِنْ الدِّينَ النَّصِيحَةُ ، قَالُوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلِعَامَتِهِمْ » ^(٢) . فالنصح
لله هو : وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما ليس له بأهل ، والقيام بتعظيمه ، والخضوع له ظاهرا وباطنا ، والرغبة في
محبته ، والبعد من مساخطه ، وموالاته من أطاعه ، ومعاداة من عصاه ، والجهاد في ردّ العصاة إلى طاعته قولاً وفعلاً .
والنصيحة لكتابه إقامة في التلاوة وتحسينه عند القراءة ، وتفهم ما فيه ، والذب عنه من تأويل المحرفين ، وطعن
الطاعنين ، وتعليم ما فيه للخلائق أجمعين . قال الله - تعالى - : ﴿كَتَبَ أَرْزَلُهُ إِلَيْكَ مَبْرُكٌ لِّدَعَاؤِكَ إِيَّاهُ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] .

والنصيحة للرسول ﷺ : إحياء سنته بالطلب لها ، وإحياء طريقته في بث الدعوة وتأليف الكلمة ، والتخلق بالأخلاق الطاهرة .

والنصيحة للأئمة : معاونتهم على ما كلفوا القيام به بتبنيهم عند الغفلة ، وإرشادهم عند الهفوة ، وتعليمهم ما جهلوا ، وتحذيرهم ممن يريد بهم سوء ، وإعلامهم بأخلاق عمالهم وسيرتهم في الرعية ، وسدّ خلتهم عند الحاجة ، ورد القلوب النافرة إليهم .

والنصيحة لعامة المسلمين : الشفقة عليهم ، وتوقير كبيرهم ، والرحمة لصغيرهم ، وتفريج كربهم ، وتوقى ما يشغل خواطرهم ، ويفتح باب الوسواس عليهم .

واعلم أن جرعة النصيحة مُرة لا يقبلها إلا أولو العزم . وقال ميمون بن مهران : قال لى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : قل : لى فى وجهى ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره ، وفى مثور الحكم : وذلك من

(۱) قارف خسارًا: خالطه ووقع فيه.

(٢) قوله: «إن الدين النصيحة» قال صاحب الكشف: رواه أحمد عن ابن عباس وهو مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة. والمشهور بإسقاط إن في أوله، وهو ما في صحيح البخاري في كتاب الإيمان معلقاً.

نصحك ، وفلاك من مَشَى في هواك^(١) . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إن شتمت لأنصحن لكم : إن أحبَّ عباد الله إلى الله الذين يحبون الله - تعالى - إلى عباده ، ويعملون في الأرض نصحا . ولورقة بن نوفل :

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
إني التذير فلا يفرزكم أحد
إلا الإله ويردّي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما ذخائره
والخلد قد حاولت عادّ فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجريز بن يزيد : إني قد أعددتك لأمر . قال : يا أمير المؤمنين : إن الله - تعالى - قد أعد لك مني قلبا معقودا بنصيحتك ، ويدّا مبسوطة لطاعتك ، وسيفا مجردا على عدوك . وأنشد الأصمعي :

النصح أرخص ما باع الرجال فلا
إن النصائح لا تخفى مناهلها
تردّد على ناصح نصحا ولا تلم
على الرجال ذوي الألباب والفهم
ولمعاذ بن مسلم :

نصحتك والنصيحة إن تعدت
فخالفت الذي لك فيه حظ
هو المنصوح عز لها القبول
فنالك دون ما أمّلت غول

وقيل : أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج ، فلم يقبل منه ، وسار إليه فحبسه ، وحبس أهله فقال فيروز :

أمرتك أمرا حازما فعصيتني
أمرتك بالحجاج إذ أنت قادر
فأنا بالباكي عليك صباية
وما أنا بالداعي لترجع سالما

ويقال : من أصرّ وجهه من النصيحة ، اسودّ لونه من الفضيحة ! وقال طرفة :

ولا ترفدن النصح من ليس أهله
وإن امرا يوما تولى برأيه
وكُن حين تستغنى برأيك غانيا
فدعه يصيب الرشد أو يك غاويا
وفي مثله قال بعضهم :

من الناس من إن يستشرك فتجتهد
فلا تمنحن الرأي من ليس أهله
له الرأي يستغششك ما لم تتابعه
فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

والله أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثاني عشر

في الوصايا الحسنة ، والمواعظ المستحسنة ، وما أشبه ذلك

قال الله - تعالى - : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] . وقال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] . وقال - تعالى - : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ الْعُرْفِ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

(١) فلاك : كرمك ، عكس : ودك .

الْمُنْكَرُ [آل عمران: ١٠٤] . وقال - تعالى - : ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٤] . والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة منشورة . وروينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ يَدُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » . وقال شيخنا محيي الدين النووي - رحمه الله تعالى - في قوله - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] . إن هذه الآية الكريمة مما يغتر بها أكثر الجاهلين ويحملونها على غير وجهها بل الصواب في معناها : إنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضرركم ضلالة من ضل ، ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والآية مرتبة في المعنى على قوله - تعالى - : ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩] .

وقال محمد بن تمام : الموعظة جند من جنود الله - تعالى - ، ومثلها مثل الطين يضرب به الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر . ومن كلام علي عليه السلام : لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة إلا إذا بلغت في إيلاسه ، فإن العاقل يتعظ بالأدب . والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب وأنشد الجاحظ :

وليس يزجركم ما تُوعظون به والبُهم يزجرها الراعي فتزجر
وكتب رجل إلى صديق له : أما بعد ، فِعِظْ النَّاسَ بِفَعْلِكَ ، ولا تعظهم بقولك ، واستحي من الله بقدر قربه منك ، وخفه بقدر قدرته عليك ، والسلام .

وقيل : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ . وقال لقمان : الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير . قيل : أوحى الله - تعالى - إلى داود عليه السلام : إنك أن أتيتني بعدد آبق كتبتك عندي حميدا ، ومن كتبتك عندي حميدا لم أعذبه بعدها أبدا . وقال الرشيد لمنصور بن عمار : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هل أحد أحب إليك من نفسك ؟ قال : لا . قال : إن أردت أن لا تسيء إلى من تحب فافعل . وقال النبي ﷺ في بعض خطبه : « أيها الناس الأيام تطوى ، والأعمار تنفى ، والأبدان فى الثرى تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد ، ويقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد ، وفى ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهوات ، ورغب فى الباقيات الصالحات » (١) . ولما لقي ميمون بن مهران الحسن البصرى قال له : لقد كنت أحب أن ألقاك فعضنى ، فقرأ الحسن البصرى : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [البجاية: ٢٣] . ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] . فقال - عليك السلام - أبا سعيد لقد وعظتني أحسن موعظة . ولما ضرب ابن ملجم - لعنه الله - عليا عليه السلام دخل منزله فاغترته عشيّة ، ثم أفاق فدعا الحسن والحسين عليهما السلام وقال : أوصيكمما بتقوى الله - تعالى - والرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها فإنكما عنها راحلان ، افعلوا الخير ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم عوناً ، ثم دعا محمدا ولده وقال له : أما سمعت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : بلى . قال : فإني أوصيك به ، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمرا دونهما ، ثم أقبل عليهما وقال : أوصيكمما به خيرا فإنه أخوكما وابن أبيكم ، وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه فأحياه . ثم قال : يا بنى أوصيكم بتقوى الله فى الغيب والشهادة ، وكلمة الحق فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الصديق والعَدُو ، والعمل فى النشاط والكسل ، والرضا عن الله فى الشدة والرخاء .

يا بنى ، ما شرّ بعده الجنة بشر ، ولا خير بعده النار بخير ، وكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، يا نَبِيَّ من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضى بما قسم الله له لم يحزن على ما فاتته ، ومن سل سيف البغى قُتل به ، ومن حفر لأخيه بئرا وقع فيها ، ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه ، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئته غيره ، ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تكبر على الناس ذل ، ومن خالط الأندال احتقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن جالس العلماء وُقر ، ومن مزَّح استُخِفَّ به ، ومن أكثر من شيء عُرف به ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قَلَّ حياؤه ، ومن قَلَّ حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ،

(١) قال في بعض خطبه : لم آف علي .

ومن مات قلبه دخل النار . يا بنى الأدب ميزان الرجل ، وحسن الخلق خير قرين ، يا بنى العافية عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت إلا عن ذكر الله - تعالى - وواحد فى ترك مجالسة السفهاء . يا بنى ، زينة الفقر الصبر ، وزينة الغنى الشكر ، يا بنى ، لا شرف أعلى من الإسلام ، ولا كرم أعز من التقوى ، ولا شفيح أنجح من التوبة ، ولا لباس أجمل من العافية . يا بنى ، الحرص مفتاح التعب ، ومطية النَّصَب . ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله يكون حوله فقال : أجاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء ، وترك لكم جميع ما جمع ، وتركتم عليه ما حمل ! ما أعظم مُتَقَلِّبِ هشام إن لم يغفر الله له ! وقال الأوزاعي للمنصور فى بعض كلامه : يا أمير المؤمنين ، أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريدة يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : « يا محمد ، ما هذه الجريدة التى بيدك ؟ اقذفها لا تملأ قلوبهم رعباً » (١) . فكيف بمن سفك دماء المسلمين ، وانتهب أموالهم . يا أمير المؤمنين ، إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابيا من غير تعمد (٢) يا أمير المؤمنين لو أن دُنُوباً من النار (٣) صب ووضعت على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتجرعه ؟ ! ولو أن ثوباً من النار وضع على الأرض لأحرقها فكيف بمن يتقمصه ؟ لو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ! فكيف بمن يتسلسل بها ، ويرد فضلها على عاتقه ؟ !

وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال : قلت لجعفر بن أبى طالب عليه السلام وكان والى المدينة : احذر أن يأتي رجل غدا ليس له فى الإسلام نسب ولا أب ولا جد ، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك ، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى ، وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه . وروى زياد عن مالك بن أنس عليه السلام قال : لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس وابن طاوس قال : دخلنا عليه وهو جالس على فرش ، وبين يديه أنطاع (٤) قد بسطت ، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا ، فأطرق زمانا طويلا ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس ، وقال : حدثنى عن أبيك قال : سمعت أبى يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله - تعالى - فى ملكه فأدخل عليه الجور فى حكمه » (٥) . فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه . قال مالك : فاضمت ثيابى مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس . ثم قال : يا ابن طاوس ، ناولنى هذه الدواة ، فأمسك عنه ، فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال : أخاف أن تكتب بها معصية ، فأكون شريكك فيها ! فلما سمع ذلك قال : قوما عني ؛ فقال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغي . قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم .

وروى أن عمر بن الخطاب عليه السلام قال لكعب الأحبار : يا كعب ، خوّفنا . قال : أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ؟ ! قال : بلى يا كعب ، ولكن خوّفنا ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، اعمل فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبيا لازدريت عملهم مما ترى ؛ فنكس عمر عليه السلام رأسه وأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال : يا كعب خوّفنا ! فقال : يا أمير المؤمنين ، لو فتح من جهنم قدر منثور ثور بالمشرق ، ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها ؛ فنكس عمر ، ثم أفاق فقال : يا كعب ، زدنا . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة ، فلا يبقى ملك مقرب ، ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسى !

وقال سيدى الشيخ أبو بكر الطرطوشى (٦) - رحمة الله تعالى عليه - دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش ، وهو أمير على مصر فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد السلام على نحو ما سلمت ردّا جميلا ، وأكرمنى إكراما جزيلا ، وأمرنى بدخول مجلسه ، وأمرنى بالجلوس فيه ، فقلت : أيها الملك ، إن الله - تعالى - قد أحلك

(١) وقال الأوزاعي . . إلخ لم أفق علي .

(٢) دُنُوباً : ذُنُوباً .

(٣) دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة لم أفق عليه .

(٤) أنطاع : جمع نطع «بفتح النون وكسرها» بساط من جلد ، كثيرا ما كان يقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل .

(٥) قوله : إن أشد الناس عذابا . . إلخ قريبا منه ما أخرجه الترمذى [١٣٢٩] ، بسند ضعيف ، فيه عطية الوفي ، وهو عن أبي سعيد .

(٦) الطرطوشى صاحب كتاب «سراج الملوك» وعنه نقل الإشبهى إلى جانب من نقل عنهم ، ولد فى الأندلس ونسب إلى طرطوشة التى ولد فيها ومات بالإسكندرية .

محلا عليًا شامخا ، وأنزلك منزلا شريفا باذخا ، وملكت طائفة من ملكه ، وأشركك في حكمه ولم يرض أن يكون أمرٌ أحدٍ فوق أمرك فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وليس الشكر باللسان ، وإنما هو بالفعال والإحسان ؛ قال الله - تعالى - : ﴿اعْمَلُوا مَالَكُمْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبا: ١٣] . واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله - تعالى - سائلك عن الفتيل^(١) والنقيير والقطمير ؛ قال الله - تعالى - : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهِنَّ أَجْمَعِينَ﴾ عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ٩٢-٩٣] . وقال الله - تعالى - : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِتُّمُوكُمْ مِنْ خَدَلٍ أَلَيْسَ بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] . واعلم أيها الملك أن الله - تعالى - قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليه السلام فسخر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم ، وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له : ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] فوالله ما عدها نعمة كما عدتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجا من الله - تعالى - ومكرًا به ؛ فقال : ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وأغث الملهوف ، أعانك الله على نصر المظلوم ، وجعلك كهفا للملهوف ، وأمانا للخائف ، ثم أتممت المجلس بأن قلت : قد رحلت البلاد شرقا وغربا ، فما اخترت مملكة وارتحت إليها ، ولذت لى الإقامة فيها غير هذه المملكة ثم أنشدته :

والناس أكيس من أن يَحْمَدُوا رجلاً حتى يَروا عنده آثارَ إحسان

وقال الفضل بن الربيع : حج هارون الرشيد سنة من السنين فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك ، فقال : ويحك قد حاك في نفسي شيء لا يخرجني إلا عالم ، فانظر لي رجلا أسأله عنه ، فقلت : ههنا سفيان بن عيينة ، فقال : امض بنا إليه فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ؛ فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليّ أتيتك ، فقال جدّ لما جئنا له ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : أعليك دين ؟ قال : نعم . فقال : يا أبا العباس ، اقض دينه ، ثم انصرفنا فقال : ما أغنى عنى صاحبك شيئا . فانظر لي رجلا أسأله ، فقلت : ههنا عبد الرزاق بن همام ، فقال : امض بنا إليه ، فأتيناه فقرعت عليه الباب ؛ فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعا ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليّ أتيتك ؛ فقال : جدّ لما جئنا له ، فحادثه ساعة ثم قال له : أعليك دين ؟ قال : نعم . فقال : يا أبا العباس ، اقض دينه ، ثم انصرفنا ، فقال : ما أغنى عنى صاحبك شيئا فانظر لي رجلا أسأله ، قلت : ههنا الفضيل^(٢) بن عياض ، فقال : امض بنا إليه فأتيناه ، فإذا هو قائم يصلى في غرفته يتلو آية من كتاب الله - تعالى - وهو يردددها ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ، فقلت : سبحان الله ! أما تجب عليك طاعته ؟ ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة ، فأطفا السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف الرشيد كفى إليه ، فقال : أواه من كف ما أليها إن نجت غدا من عذاب الله - تعالى - ، فقلت في نفسي : ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقى ، فقال : جدّ لما جئنا له - رحمك الله تعالى - فقال : وفيم جئت ؟ حملت على نفسك وجميع من معك حملوا عليك حتى لو سألتهم ، أن يتحملوا عنك شِقْصًا^(٣) من ذنب ، ما فعلوا ولكن أشدهم حُبًّا لك أشدهم هربا منك ، ثم قال : إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله : ومحمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حيوة فقال لهم : إني قد

(١) الفتيل : الخيط الذي في شق النواة ، يقال : ما أغنى عنه فتيلًا : أي شيئًا . والنقيير : النكتة في ظهر النواة ، أما القطمير فهو القشرة الرقيقة بين النواة والتمر . يقال : ما أصبت منه قطميرًا : أي شيئًا .

(٢) هو الفضيل بن عياض التميمي : شيخ الحرم ومن أكابر العباد ، كان ثقة في الحديث ، وعليه تلقى الإمام الشافعي ولد سنة ١٠٥ هـ ، وتوفي سنة ١٨٧ هـ [شذرات الذهب : ٣١٦/١] .

(٣) الشَّقْصُ : بتشديد الشين المكسورة وإسكان القاف ، أي القطعة من الشيء ، والنصيب . والجمع أشقاص وشقاص .

ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ ، فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصُصْ عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها على الموت .

وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله - تعالى - ، فليكن كبير المسلمين عندك أبا وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم عندك ولداً ، فبذ أباك وأرحم أخاك ، وتحسن على ولدك . وقال رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله - تعالى - فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واکره لهم ما تكره لنفسك ، ثم متى شئت مت ، وإنني لأقول هذا ، وإنني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام ، فهل معك - رحمك الله - مثل هؤلاء القوم من يأمر بك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاء شديداً حتى غشى عليه ! فقلت له : ارفق بأمر المؤمنين ، فقال : يا بن الربيع ، قتلته أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا ؟! ثم أفاق هارون الرشيد فقال : زدني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكاً إليه سهرًا فكتب له عمر يقول : يا أخى اذكر سهر أهل النار في النار ، وخلود الأبدان ، فإن ذلك يقربك إلى ربك نائماً ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك ، ومنقطع الرجاء منك ، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ فقال له : لقد خلعت قلبي بكتابك ، لا وُلِيْتُ ولايَةً أبداً حتى ألقى الله - عز وجل - فبكى هارون بكاء شديداً ، ثم قال : زدني ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم النبي صلى الله عليه وآله جاء إليه فقال : يا رسول الله أَمَرَنِي إمارة ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله : « يا عباس ، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها . إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل » ^(١) . فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً ثم قال : زدني - يرحمك الله - فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذى يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح وتمسى ، وفى قلبك غش لرعيك ، فإن النبي صلى الله عليه وآله قال : « من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة » ^(٢) . فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً ثم قال له : أعليك دَينٌ ؟ قال : نعم دَينٌ لربى يحاسبني عليه ، فالويل لى إن ناقشني ، والويل لى إن سألتني ، والويل لى إن لم يلهمنى حجتى . قال هارون : إنما أعنى دين العباد ، قال : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، وإنما أمرنى أن أصدق وعده ، وأطيع أمره ، قال - تعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(٣) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ^(٤) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ^(٥) [الذاريات: ٥٦-٥٨] . فقال له هارون : هذه ألف دينار ، فخذها ، وأنفقها على عيالك ، وتقو بها على عبادة ربك ، فقال : سبحان الله أنا دللتك على سبيل الرشاد ، تكافئني أنت بمثل هذا ! سلمك الله ، ووفقك ، ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده ، فقال لى هارون : إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا ، فإن هذا سيد المسلكين اليوم . واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات . قال سليمان الخواص : من وعظ أخاه فيما بينه وبينه ، فهي نصيحة ، ومن وعظه على رءوس الأشهاد فإنما بكتة . وقالت أم الدرداء رضي الله عنها : من وعظه أخاه سرّاً فقد سوره وزانه ، ومن وعظه علانية فقد ساءه وشانه . ويقال : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وسره ، ومن وعظه جهراً فقد فضحه وضّره .

وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال : كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئاً أمره فى ستر ، ونهاه فى ستر فيؤجر فى ستره ، ويؤجر فى أمره ، ويؤجر فى نهيه ، وعن عمر رضي الله عنه إذا رأيتم أخاكم ذا زلة فقوموه ، وسدّوه ، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة فيتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيك ، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) حديث : يا عباس .. إلخ أخرجه ابن سعد عن الضحاك مرسلًا ، انظر جمع الجوامع [٩٦٥/١] .

(٢) حديث : من أصبح غاشاً .. إلخ أخرجه الطبراني كما في «المجمع» [٢١١/٥] ، وقال الهيثمي : «عن شيخه ثابت بن نعيم الهوجي ، ولم أعرفه» .

الباب الثالث عشر

في الصمت ، وصون اللسان ، والنهي عن الغيبة ،
والسعي بالنميمة ، ومدح الغزلة ، وذم الشهرة ، وفيه فصول

الفصل الأول : في الصمت وصون اللسان

قال الله - تعالى - : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] . وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ رَقِيبَكَ لِجَانِبِكَ ﴾ [الفجر: ١٤] . واعلم أنه ينبغي للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلام تظهر المصلحة فيه ، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، بل هذا كثير ، وغالب في العادة ، والسلامة لا يعادلها شيء .

وروي في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » . قال الشافعي في الأم : إذا أراد أحدكم الكلام ، فعليه أن يفكر في كلامه ، فإن ظهرت المصلحة تكلم وإن شك لم يتكلم حتى تظهر . وروي في صحيحيهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي المسلمين أفضل ؟ قال : « مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » . وروي في كتاب الترمذي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، ما النجاة ؟ قال : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَلْيَسْغُكْ يَتِّكَ ، وَابْكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ » . قال الترمذي حديث حسن . وروي في كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ » والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفقه الله - تعالى - . وأما الآثار عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكثيرة لا تحصر لكن نبه على شيء منها : فما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا فقال أحدهما لصاحبه : كم وجدت في ابن آدم من العيوب ؟ فقال : هي أكثر من أن تحصر ، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها ؛ قال : وما هي ؟ قال حفظ اللسان .

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع : يا ربيع ، لا تتكلم فيما لا يعينك ، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها ! وقال بعضهم : مثل اللسان مثل السبع إن لم توثقه عدا عليك ولحقك شره . ومما أنشدوه في هذا الباب :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنيك إنه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان
وقال الفارسي :

لَعَمْرُكَ إِنَّ فِي ذَنْبِي لَشُغْلًا لنفسي عن ذنوب بني أُمَيَّة
عَلَى رَبِّي حَسَابُهُمْ إِلَيْهِ تناهى علم ذلك لا إِلَهَ

وقال علي رضي الله عنه : إذا تم العقل نقص الكلام . وقال أعرابي : رب منطق صدع جمعا ، وسكوت شعب صدعا^(١) . وقال وهب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء : تسعة منها في الصمت ، والعاشر في عزلة الناس .

وقال علي بن هشام - رحمه الله تعالى عليه - :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْحِلْمَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ وما الحلم إلا عادة وتحلم
إِذَا لَمْ يَكُنْ صَمْتُ الْفَتَى عَنْ نَدَامَةٍ وعى فإن الصمت أولى وأسلم

وقال ابن عيينة : من حُرِمَ الخير فليصمت ، فإن حُرِمَها فالموت خير له . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال

(١) الصدع : الشق ، والتفريق والشعب : الإصلاح يقال : شعب الصدع : لثمه وأصلحه وهو من الأضداد .

لأبى ذر رضي الله عنه : « عليك بالصمت إلا من خير فإنه مَطْرَدَةٌ للشيطان ، وغَوْنٌ على أمر دينك » ^(١) . ومن كلام الحكماء : من نطق في غير خير فقد لغا ، ومن نظر في غير اعتبار فقد سها ، ومن سكت في غير فكر فقد لها ، وقيل : لو قرأت صحيفتك ، لأغمدت صفيحتك ، ولو رأيت ما في ميزانك ، لختمت على لسانك .

ولما خرج يونس رضي الله عنه من بطن الحوت طال صمته ، فقيل له : ألا تتكلم ؟ فقال : الكلام صيرني في بطن الحوت . وقال حكيم : إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم . وكان يقال : من السكوت ما هو أبلغ من الكلام ، لأن السفية إذا سكت عنه كان في اغتنام .

وقيل لرجل : بم سادكم الأحف ؟ فوالله ما كان بأكبركم سنا ، ولا بأكثركم مالا ؟ ! فقال : بقوة سلطانه على لسانه .

وقيل : الكلمة أسيرة في وثاق الرجل فإذا تكلم بها صار في وثاقها . وقيل : اجتمع أربعة ملوك ، فتكلموا فقال ملك الفرس : ما ندمت على ما لم أقل مرة ، وندمت على ما قلت مرارا . وقال قيصر : أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت . وقال ملك الصين : ما لم أتكلم بكلمة ملكتها ، فإذا تكلمت بها ملكتنى . وقال ملك الهند : العجب ممن يتكلم بكلمة ؛ إن رفعت ضرت ، وإن لم ترفع لم تنفع . وكان بهرام جالسا ذات ليلة تحت شجرة ، فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه ، فقال : ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والإنسان ! لو حفظ هذا لسانه ما هلك . وقال علي رضي الله عنه : بكثرة الصمت تكون الهيبة . وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : الكلام كاللدواء إن أقللت منه نفع ، وإن أكثرته منه قتل . وقال لقمان لولده : يا بني ، إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك ، يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح : كيف أنتن ؟ فيقلن : بخير إن تركتنا . قال الشاعر :

احفظ لسانك لا تقول فثبتلى إن البلاء موكل بالمنطق

الفصل الثاني : في تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبائح . وأكثرها انتشارا في الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس . وهي ذكرك الإنسان بما يكره ولو بما فيه سواء كان في دينه أو بدنه ، أو نفسه ، أو خلقه ، أو خلقه ، أو ماله أو ولده ، أو والده ، أو زوجته ، أو خادمه ، أو عمامته ، أو ثوبه ، أو مشيته ، أو حركته ، أو بشاشته ، أو خلاعته ، أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته بلفظك أو بكتابك ، أو رمزت إليه بعينيك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك .

فأما الدين : فكقولك أعمى ، أو أعرج ، أو أعمش ، أو قصير ، أو طويل ، أو أسود ، أو أصفر . وأما غيرها فكقولك : سارق ، خائن ، ظالم ، متهاون بالصلاة ، متساهل في النجاسات ، ليس بارًا بوالديه ، قليل الأدب ، لا يضع الزكاة مواضعها ، لا يجتنب الغيبة .

وأما البدن : فكقولك : فلان قليل الأدب ، متهاون بالناس ، لا يرى لأحد عليه حقا ، كثير النوم ، كثير الأكل وما أشبه ذلك ، أو كقولك : فلان أبوه نجار ، أو إسكاف ، أو حداد ، أو حائك ، تريد تنقيصه بذلك ، أو فلان سيئ الخلق متكبر ، وراء معجب ، عجول ، جبار ، ونحو ذلك . أو فلان واسع الكم ، طويل الذيل ، وسخ الثوب ، ونحو ذلك . وقد رويناه في صحيح مسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتذرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : وإن كانت في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وروي في سنن أبي داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا . قال بعض الرواة : تعنى « قصيرة » فقال : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » أى : خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه لكثرة ننتها .

ورويانا في سنن أبي داود عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم » . وروى عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ : أنه قال : إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا ^(١) ثم قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليزني فيتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبها » . وعن أنس رضي الله عنه قال : « من اغتاب المسلمين ، وأكل لحومهم بغير حق ، وسعى بهم إلى السلطان جيء به يوم القيامة مزقة عيناه ، ينادى بالويل والثبور ، يعرف أهله ولا يعرفونه » ^(٢) . وقال معاوية بن قرة : أفضل الناس عند الله أسلمهم صدرا وأقلهم غيبة . وقال الأحنف : فئ خصلتان : لا اغتاب جلسي إذا غاب عني ، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه . وقيل للربيع بن خثيم : ما نراك تعيب أحدا ؟ فقال : لست عن نفسي راضيا فأنفرغ لذنم الناس ، وأنشد :

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها لنفسي من نفسي عن الناس شاغل
وقال كثير عزة :

وسعى إلى بعيب عزة نسوة جعل الإله خدودهن نعالها

وقال محمد بن حزم : أول من عمل الصابون سليمان ، وأول من عمل السوق ذو القرنين ، وأول من عمل الخس ^(٣) يوسف ، وأول من عمل خبز الجرداق ^(٤) نمرود ، وأول من كتب في القراطيس الحجاج ، وأول من اغتاب إبليس لعنه الله ؛ اغتاب آدم عليه السلام وأوحى الله - تعالى - إلى موسى عليه السلام : (إن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة ، وإن أصر فهو أول من يدخل النار) ^(٥) ويقال : لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك ، ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك . وقيل للحسن البصري رضي الله عنه : إن فلانا اغتابك فأهدى إليه طبقا من رطب ، فأناه الرجل وقال له : اغتبتك فأهديت إلي ؟ ! فقال الحسن : أهديت إلي حسناتك فأردت أن أكافئك ! وعن ابن المبارك - رحمه الله تعالى - قال : لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والدتي لأنهما أحق بحسناتي . وإذا حاكى إنسان إنسانا بأن يمشى متعارجا أو متطائلا أو غير ذلك من الهيئات يريد تنقيصه بذلك فهو حرام . وبعض المتفقهين والمتعبدین يعرضون بالغيبة تعريضا تفهم به كما تفهم بالتصريح فيقال لأحدهم : كيف حال فلان ؟ فيقول : الله يصلحنا ، الله يغفر لنا ، الله يصلحنا نسال الله العافية ، نحمد الله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة ، نعوذ بالله من الكبر ، يعافينا الله من قلة الحياء ، الله يتوب علينا ، وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه ؛ فكل ذلك غيبة محرمة . واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة ، كذلك يحرم على السامع استماعها ، فيجب على من يسمع إنسانا يتدنى بغيبة أن ينهأ أن لم يخف ضرر فإن خافه ، وجب عليه الإنكار بقلبه ، ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقتها ، فإن قال بلسانه : اسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك ؛ قال بعض العلماء : إن ذلك نفاق . قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي مَآبِنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام: ٦٨] . ومما أنشدوه في هذا المعنى :

وسمعت صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانتبه
وكم أزعج الحرص من طالب فوافيمنية في مطلبه

الفصل الثالث : في تحريم السعاية بالنميمة

قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَطْغَوْا كُلَّ حَلَالٍ مَّحْلٍ ﴾ هَكَذَا مَشْلَمٌ نَمِيمٌ ﴿ [القلم: ١٠-١١] الآية وحسبك بالتمام خسة

(١) وروى عن جابر .. إلخ أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» برقم [١٦٤] ، وإسناده ضعيف ، فيه عباد ابن كثير ، ضعيف .

(٢) من اغتاب المسلمين .. إلخ لم أهد إلى من أخرجه .

(٣) الخس : تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثرید .

(٤) الجرداق : الرغبة «فارسية» .

(٥) أوحى الله إلى موسى .. إلخ لم أقف عليه ، وهو من الإسرائيليات .

ورذيلة سقوطه وضعته ، والهماز : المغتاب الذي يأكل لحوم الناس الطاعن فيهم ، وقال الحسن البصري : هو الذي يغمز بأخيه في المجلس ، وهو الهَمْزَةُ اللَّمْزَةُ ، وقال علي والحسن البصري عليه السلام العُتْلُ : الفاحش السيئ الخلق ، وقال ابن عباس عليه السلام العُتْلُ : الفاتك الشديد المناق . وقال عبيد بن عمير : العُتْلُ الأَكُولُ الشَّرُوبُ القوي الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة . وقال الكلبي : هو الشديد في كفره : وقيل : العُتْلُ الشديد الخصومة بالباطل ، والزنيم هو الذي لا يعرف من أبوه . قال الشاعر :

زَنِيمٌ لَيْسَ يَغْرِفُ مَنْ أَبُوهُ بَغَى الْأُمُّ ذُو حَسَبٍ لَنِيمٍ

وروي في صحيح البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَامٌ » وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال : « إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِعُ مِنْ بَوْلِهِ » ^(١) . قال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله تعالى عليه - : النَمِيمَةُ إنما تطلق في الغالب على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ؛ كقوله : فلان يقول فيك : كذا ؛ فينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس ، إلا ما في حكايته فائدة لمسلم ، أو دفع معصية . وينبغي لمن حملت إليه نَمِيمَةٌ ، وقيل له : قال فيك فلان : كذا أن لا يصدق من نم إليه ، لأن النمام فاسق ، وهو مردود الخبر ، وأن ينهاء عن ذلك ، وينصحه ، ويقبح فعله ، وَيَتَغَضَّه في الله - تعالى - فإنه بغض عند الله ، والبغض في الله واجب ، وأن لا يظن بالمنقول عنه السوء لقول الله - تعالى - : « أَحَبُّنَا كَثِيرًا مَنْ أَظْلَمَ لَكَ بَعْضَ الظُّلَمِ إِنَّهُ » [الحجرات: ١٢] وسعى رجل إلى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له : انصرف حتى أكشف عنك ؛ فكشف عنه فإذا هو ابن بغى . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : شِرَارُكُمْ الْمَشَاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ ، الْبَاغُونَ الْعُيُوبَ » ^(٢) . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ملعون ذو الوجهين ، ملعون كل شفاذ ، ملعون كل قتات ، ملعون كل نمام ، ملعون كل منان » ^(٣) . والشفاذ : المحرش بين الناس ، يُلْقَى بينهم العداوة ، والقتات : النمام ، والمنان : الذي يعمل الخير ويمن به .

وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذي قدرة فهي المهلكة والحالقة لأنهار تجمع الخصال الذميمة من الغيبة ، وشؤم النَمِيمَةِ ، والتغريز بالنفوس والأموال في النوازل والأحوال ، وتسلب العزيز عزه ، وتحط المكين عن مكانته ، والسيد عن مرتبته فكم دم أراقه سعى ساع ، وكم حريم استبيح بنميمة نمام ، وكم من صفيين تباعدا ، وكم من متواصلين تقاطعا ، وكم من محبين افترقا ، وكم من إلفين تهاجرا ، وكم من زوجين تطالقا ، فليتنق الله ربه - عز وجل - رجل ساعدته الأيام ، وتراخت عنه الأقدار ، أن يصغى لساع ، أو يستمع لنمام . ووُجِدَ في حكم القدماء : أبغض الناس عند الله المثلث ؛ قال الأصمعي هو الرجل يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه ، وأخاه وإمامه . وقال بعض الحكماء : احذروا أعداء العقول ، ولصوص المودات ، وهم السعاة ، والنمامون إذا سرق للصوص المتاع سرقوا هم المودات . وفي المثل السائر : من أطاع الواشي ضيع الصديق . وقد تُقَطَّعُ الشجرة فتنبت ، ويقطع اللحم السيف فيندمل ، واللسان لا يندمل جرحه ، ودفع إنسان رقعة إلى صاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم ، وكان مالا كثيرا ، فكتب إليه على ظهرها النَمِيمَةُ قبيحة - وإن كانت صحيحة - والميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والساعي لعنه الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وروي في كتاب أبي داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا يُلْفَنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمٌ الصَّدْرِ » ومن الناس من يتلون ألوانا ، ويكون بوجهين ولسانين ، فيأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها ؛ قال صالح بن عبد القدوس - رحمه الله تعالى - :

(١) حديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر .. إلخ أخرجه البخاري [١١٩/٢] ، ومسلم [١٦٦/١] ، وأحمد [٢٢٥/١] ، من حديث ابن عباس رضي الله عنه .
(٢) حديث : ألا أخبركم .. إلخ البخاري . الأدب المفرد من حديث أوله «ألا أخبركم بخياركم» وجاء في النهاية «الباغون البرء» العنت بدلًا من «الباغون العيوب» .
(٣) حديث : ملعون .. إلخ لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وكتاب المستطرف مشحون بهذه النوعية من الأحاديث ، مثله كمثل إحياء علوم الدين .

قُلْ لِلَّذِي لَسْتُ أَدرى مِنْ تَلْوَنِهِ أَنصَحْ أُمَ عَلَى غَشٍّ يُنَاجِينِي
إِنِّي لَأَكْثَرُ مِمَّا سُمْتُنِي عَجَبَا يَدُ تَشَجٍّ وَأُخْرَى مِنْكَ تَأْسُونِي
تَغْتَابُنِي عِنْدَ أَقْوَامٍ وَتَمْدُحُنِي فِي آخِرِينَ وَكُلِّ عَنكَ يَأْتِينِي
هَذَانِ شَيْئَانِ قَدْ نَافَيْتَ بَيْنَهُمَا فَاكْفُفْ لِسَانَكَ عَنْ شَتْمِي وَتَزْيِينِي

وقيل: لَأَلْفُ لَحُوحٍ جَمُوحٌ^(١) خير من واحد متلون، وكان يشبه المتلون بأبى براقش، وأبى قلمون، فأبو براقش طائر منقط بألوان النقوش يتلون في اليوم ألوانا، وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانا. ويقال للطنائش الذي لا ثبات معه: أبو رياح تشبها بمثال فارس من نحاس بمدينة جُمُص على عمود حديد فوق قبة بباب الجامع، يدور مع الرياح، ويمناه ممدودة وأصابعها مضمومة إلا السبابة، فإذا أشكل عليهم مهبّ الرياح عرفوه به، فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه، والذي يعمل الصبيان من قرطاس على قصبة يسمى أبا رياح أيضا. ويقال: أخلاق الملوك مثل في المتلون. قال بعضهم:

وَيُوسَمُ كَأَخْلَاقِ الْمُلُوكِ تَلَوْنَا فَصَحْوٌ وَتَغْيِيمٌ وَطُلٌّ وَوَابِلٌ
أَشْبَهَهُ إِيَّاكَ يَا مَنْ صَفَاتِهِ دَنُوقٌ وَإِعْرَاضٌ وَمَنْعٌ وَنَائِلٌ

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه، فأنكره الأحنف، فقال له معاوية: بلغني عنك الثقة، فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروها. وكان الفضل بن سهل يبغض السعاية، وإذا أتاه ساع يقول له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كذبتنا عاقبتنا، وإن استقلتنا أقلناك. وكتب في جواب كتاب ساع: نحن نرى أن قبول السعاية شرٌّ من السعاية لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء وأخبر به، كمن قبل وأجازه، فاتقوا الساعي، فإنه لو كان في سعائته صادقا، لكان في صدقه لثيما، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة.

وقيل: من سعى بالنميمة حذره الغريب، ومقته القريب. قال المأمون النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلا جددتها، ولا جماعة إلا بددتها، ثم لا بد لمن عُرِفَ بها ونسب إليها أن يجتنب ويخاف من معرفته، ولا يوثق بمكانه، وأنشد بعضهم:

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِيهِ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفْعَالِيهِ
كَالسَّيْلِ بِاللَّيْلِ لَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ مَنْ أَيْنَ جَاءَ وَلَا مَنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ
الْوَيْلُ لِلْعَهْدِ مِنْهُ كَيْفَ يَنْقُضُهُ وَالْوَيْلُ لِلوَدِّ مِنْهُ كَيْفَ يَفْنِيهِ

وقال آخر:

يَسْمَعِي عَلَيْكَ كَمَا يَسْمَعِي إِلَيْكَ فَلَا تَأْمَنْ غَوَائِلَ ذِي الْوَجْهَيْنِ كَيْدَا
وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُوسِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فَهُوَ الشَّائِمُ لَا مَنْ شَتَمَكَ
مَنْ يَخْبِرُكَ بِشَتَمٍ عَنْ أَخٍ إِنَّمَا اللُّومُ عَلَى مَنْ أَعْلَمَكَ
ذَلِكَ شَيْءٌ لَمْ يَوَاجِهِكَ بِهِ وَقَالَ آخَرُ:

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ أَخْفَوْهُ، وَإِنْ عَلِمُوا شَرًّا أَذَاعُوا، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

وقال آخر:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيْبَةً طَارَوْا بِهَا فَرَحًا مِنْى وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ ذَفَنُوا
صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَّرَتْ بِهِ وَإِنْ ذَكَرَتْ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(٢)

(١) جموح: يقال جمح الرجل، أي ركب هواه فلا يمكن رده، فهو جامع وجموح.

(٢) أذنوا: سمعوا.

وقال الحسن ستر ما عانت ، أحسن من إشاعة ما ظننت . وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من سمع بفاحشة فأفشأها فهو كالذي أتاها . ومما جاء في النهي عن اللعن : ما روي في صحيح البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَكُونُ اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وروينا في صحيح مسلم أيضا عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ الْعَبْدَ إِذَا لَعِنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا ، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا ، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعِنَ إِنْ كَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا » . ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله : لعن الله الظالمين . لعن الله الكافرين . لعن الله اليهود والنصارى . لعن الله الفاسقين . لعن الله المصوِّرين . ونحو ذلك .

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله الواصلة والمستوصلة » ^(١) . وأنه قال : « لعن الله آكل الربا » ^(٢) وأنه قال : « لعن الله المصوِّرين » وأنه قال : « لعن الله من لدن والدنيه » ^(٣) وأنه قال : « لعن الله من ذبح لبغير الله » ^(٤) وأنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » ^(٥) وأنه قال : « لعن الله المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ » ^(٦) . وجميع هذه الألفاظ في البخاري ومسلم . بعضها فيهما وبعضها في أحدهما . والله أعلم .

ومما جاء في العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة : قال رسول الله ﷺ : « الخمول نعمة وكل يتبرأ ، والظهور نقمة وكل يتمنى » ^(٧) . وقال بعضهم :

تَلَحَّفَ بِالْخُمُولِ تَعِيشَ سَلِيمًا وَجَالَسَ كُلَّ ذِي أَدَبٍ كَرِيمٍ
وقال جعفر بن الفراء :

مَنْ أَخْمَلَ النَّفْسَ أَحْيَاهَا وَرَوَّحَهَا وَلَمْ يَبْثْ طَاوِيًا مِنْهَا عَلَى ضَجَرٍ
إِنَّ الرِّيحَ إِذَا اشْتَدَّتْ عَوَاصِفُهَا فَلَيْسَ تَرْمِي سِوَى الْعَالِي مِنَ الشَّجَرِ

وقال أعرابي : رُبَّ وَحْدَةٍ أَنْفَعُ مِنْ جَلِيسٍ ، ووحشة أنفع من أنيس . وكان أبو معاوية الضرير يقول : في خصلتان ما يسرنى بهما رد بصري : قلة الإعجاب بنفسي ، وخلو قلبي من اجتماع الناس إلي . وقال عمر رضي الله عنه : خذوا حظكم من العزلة . وصعد حسان على أطم ^(٨) من أطام المدينة ونادى بأعلى صوته يا صَبَاحَاهُ فَاجْتَمَعَتِ الْخَزْرَجُ ، فقالوا : ما عندك ؟ قال : قلت : بيت شعر فأحببت أن تسمعه . قالوا : هات يا حسان فقال :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالما من الناس إلا ما جئني لسعيد

ولما بنى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه منزله بالعقيق قيل له : تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ، ونزلت بالعقيق فقال : رأيت أسواقهم لاغية ، ومجالسهم لاهية ، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية ، وقيل لعروة أخى مرداس : لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم ؟ فقال : أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلى حب الرياسة فأخسر الدارين . وقال سفيان بن عيينة : دخلنا على الفضل في مرضه نعوذ ، فقال : ما جاء بكم ؟ والله لو لم تجيئوا لكان أحب إلي . ثم قال : نعم الشيء المرض ، لولا العيادة . وقيل للفضل : إن ابنك يقول : وددت لو أنى بالمكان الذي أرى الناس فيه ولا يروني ، فقال : ويح ابني لم لا أتمها ؟ فقال : لا أراهم ولا يروني . وقال علي - رضي الله تعالى عنه - : طوبى

(١) ثبت في الأحاديث الصحيحة . . إلخ أخرجه البخاري [٥٩٣١] ، ومسلم [١٢٠/٢١٢٥] .

(٢) مسلم [١٢١٨/٣] .

(٣) مسلم [١٩٧٨/٣] .

(٤) مسلم [١٩٧٨/٣] .

(٥) مسلم [٢١٠٥٣٠/١] .

(٦) البخاري [٣٥٦/٧] .

(٧) الخمول نعمة . . إلخ . ليس بحديث ، بل هو من كلام بعض المشايخ ، وانظر : «تميز الطيب من الخبيث» لابن البديع [ص ١٢٥ ، ١٢٦ برقم ٥٧٤] ، ط مكتبة القرآن .

(٨) حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ والأطم . والأطم : الحصن أو البيت المرتفع .

لمن شغله عيُّه عن عيوب الناس ، وطوبى لمن لزم بيته ، وأكل قوته ، واشتغل بطاعته ، وبكى على خطيئته ، فكان من نفسه في شغل ، والناس منه في راحة .

وقال سفيان : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس .

وقيل لراهب في صومعته : ألا تنزل ؟ فقال : من مشى على وجه الأرض عشر . والكلام في مثل هذا كثير وقد اكتفينا بهذا . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الرابع عشر

في الملك والسلطان وطاعة ولاية أمور الإسلام ، وما يجب للسلطان على الرعية ، وما يجب لهم عليه

روى عن الحسن أنه قال للحجاج : سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « وَقَرُّوا السُّلَاطِينَ وَبَجَلُوهُمْ فَإِنَّهُمْ عِزُّ اللَّهِ وَظِلُّهُ فِي الْأَرْضِ إِذَا كَانُوا عَدُولًا » ^(١) . فقال الحجاج : ألم تكن فيهم إذا كانوا عدولا ؟ قال : قلت : بلى .

وعن عمر رضي الله عنه قال : قلت للنبي ﷺ : أخبرني عن السلطان الذي ذلت له الرقاب ، وخضعت له الأجساد ما هو ؟ قال : « ظَلَّ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ ، فَإِذَا أَحْسَنَ فَلَهُ الْأَجْرُ ، وَعَلَيْكُمْ الشُّكْرُ ، وَإِذَا أَسَاءَ فَعَلَيْهِ الْإِصْرُ ، وَعَلَيْكُمْ الصَّبْرُ » ^(٢) . وعنه رضي الله عنه : « أَيُّمَا رَاعٍ اسْتَرَعَى رَعِيَّتَهُ وَلَمْ يُحِطْهَا بِالْأَمَانَةِ وَالنَّصِيحَةِ مِنْ وَرَائِهَا إِلَّا ضَاقَتْ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ - تَعَالَى - الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » ^(٣) . وقال مالك بن دينار رضي الله عنه ^(٤) وجدت في بعض الكتب يقول الله - تَعَالَى - : « أَنَا مَلِكُ الْمُلُوكِ رِقَابُ الْمُلُوكِ بِيَدِي ، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً ، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نَقْمَةً ، لَا تَشْغَلُوا أَلْسِنَتَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ ، وَلَكِنْ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ يَعْظِفْهُمْ عَلَيْكُمْ » . وقال جعفر بن محمد - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ - كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان . وقال كسرى لسيرين : ما أحسن هذا الملك لو دام ! فقال : لو دام لأحد ما انتقل إلينا ، ومر طارق الشرطي بابن شبرمة في موكبه فقال :

أَرَاهَا - وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّ - فَإِنَّهَا سَحَابَةٌ صَنِيفٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ

وجلس الإسكندر يوما فما رفع إليه حاجة ، فقال : لا أعد هذا اليوم من أيام ملكي . وقال الجاحظ ليس شيء ألد ولا أسر من عز الأمر والنهي ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن تقليد المنزاع الرجال لأن هذه الأمور نصيب الروح ، وحظ الذهن ، وقسمة النفس ، وقيل : الملك خليفة الله في عبادته . ولن يستقيم أمر خلافة مع مخالفته . وقال الحجاج : سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها . وقال أردشير لابنه : يا بني ، الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أس ، والملك حارس ، وما لم يكن له أس فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع . وقيل : لما دنت وفاة هرمز وامراته حامل ، عقد التاج على بطنها ، وأمر الوزراء بتدبير المملكة حتى ولد له ولد فتملك ، وأغار العرب على نواحي فارس في صباه ، فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرسانا ، وأغار على

(١) حديث : «وقروا .. إلخ» . لم أقف عليه .

(٢) حديث : «أخبرني عن هذا السلطان .. إلخ» . موضوع : أخرجه الديلمي في مسنده ، وفيه عمرو بن عبد الغفار ، متروك ، بل منهم بوضع الحديث . وانظر : تخريج أحاديث العادلي ، لأبي نعيم ، تخريج السخاوي [ص ٨٠-٨١] .

(٣) حديث : «أيما راع .. إلخ» أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد [١٠/١٢٧] ، من حديث عبد الرحمن بن سمرة .

(٤) هو أبو يحيى مالك بن دينار رضي الله عنه كان من سادات التابعين وطبقة الأخبار توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة .

العرب فانتبهكم بالقتل ، ثم خلع أكتاف سبعين ألفا فقيل له : ذو الأكتاف وأمر العرب حينئذ بإرخاء الشعور ، ولبس المصبغات ، وأن يسكنوا بيوت الشعر ، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة . وقيل : من أخلاق الملوك حب التفرد كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ريحان ، وإذا لبس حلة لم ير على أحد مثلها ، وإذا تختم بخاتم كان حراما على أهل المملكة أن يتختموا بمثله . وكان سعيد بن العاص بمكة إذا اعتّم لم يعتّم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها . وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد مثله حتى ينزعه . وأخبرني من سافر إلى اليمن أنه لا يأكل الإوز بها أحد غير الملك . وقيل : من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فحصى المرضعة عن ابنها . وكان أردشير متى شاء قال لأرفع أهل مملكته وأوضعهم : كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت حتى كان يقال : يأتيه ملك من السماء وما ذاك إلا بتفحصه وتيقظه . وكان علم عمر رضي الله عنه ، بمن نأى عنه ، كعلمه بمن بات معه على وساد واحد ، ولقد اقتفى معاوية أثره . وتعرف إلى زياد رجل فقال : أنتعرف إلي وأنا أعرف بك من أبيك وأمك ، وأعرف هذا البرد الذي عليك ؟ ! ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه . وعن بعض العباسيين قال : كلمت المأمون - رحمه الله تعالى - في امرأة خطبتها وسألته النظر إليها ، فقال : يا أبا فلان من قصبتها وجلّيتها وفعلها وشأنها كيت وكيت ، فوالله ما زال يصفها ، ويصف أحوالها حتى أبهتني ! !

ومما جاء في طاعة ولاة أمور الإسلام : أمر الله - تعالى - بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] . وروينا في صحيح البخاري عن جابر ابن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال : « بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَالنَّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » . وسئل كعب الأحمري عن السلطان فقال : ظل الله في أرضه ، من ناصحه اهتدى ، ومن غشه ضل . وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : لا تسبوا السلطان ، فإنه ظل الله في الأرض ، به يقوم الحق ، ويظهر الدين ، وبه يدفع الله الظلم ، ويهلك الفاسقين . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : كيف كانت طاعتي لك ؟ قال : الأحسن طاعة ، قال : فأطعني كما كنت أطيعك . خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك ، ومن ثوبك حتى تبدو عقباك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي » ^(٢) . وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ، ومناصحته ، ومحبة والدعاء له ، ولو تتبعنا ذلك لطال الكلام . لكن اعلم - أرشدني الله وإياك إلى الاتباع ، وجنبنا الزيغ والابتداع - أن من قواعد الشريعة المطهرة ، والملة الحنيفية المحررة ، أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين ، وتنظم أمور المسلمين ، وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان ، وأن طاعته عصمة من كل فتنه ، وبطاعة السلطان تقام الحدود ، وتؤدى الفروض ، وتحقق الدماء ، وتؤمن السبل ، وما أحسن ما قالت العلماء : إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها ، وإن الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة ، برىء من الذمة ، وإن طاعة السلطان جبل الله المتين ، ودينه القويم ، وإن الخروج منها خروج من أسس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ومن غش السلطان ضلّ وزلّ ، ومن أخلص له المحبة والنصح حلّ من الدين والدنيا في أرفع محل ، وإن طاعة السلطان واجبة ، أمر الله - تعالى - بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم ، وقد اقتصرنا من ذلك على ما أوردناه ، واكتفينا بما بيناه ، ونسأل الله - تعالى - أن يلهمنا رشدنا ، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وأن يصلح شأننا ، إنه قريب مجيب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



(١) هو خامس الراشدين أئمة الدنيا وهي راغمة، فتركها وزهد فيها وأخباره مشهورة في الحلية لأبي نعيم، وكانت خلافته ستين وأربعة عشر يوما.

(٢) حديث: «من أطاعني.. إلخ» أخرجه البخاري [٢٩٥٧]، ومسلم [١٨٨٤١]، وأبو عوانة [٤٥٧/٤].

الباب الخامس عشر

فيما يجب على من صحب السلطان ، والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان : فقد قال ابن عباس رضي الله عنه قال لى أبى : يا بنى ، إني أرى أمير المؤمنين يستخليك ^(١) ويستشيرك ، ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنى أوصيك بخلال ثلاث : لا تُفشيَنَّ له سرا ، ولا تجربن عليه كذبا ، ولا تغتابن عنده أحدا . قال الشعبي - رحمه الله تعالى - : قلت لابن عباس : كل واحدة منهن خير من ألف ؟ فقال : أى والله ومن عشرة آلاف . وقال بعض الحكماء : إذا زادك السلطان تأنيسا ^(٢) ، فزده إجلالا ، وإذا جعلك أخا فاجعله أبا ، وإذا زادك إحسانا ، فزده فعل العبد مع سيده ، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس فأخذوا فى الثناء عليه ، فعليك بالدعاء له ، ولا تكثر فى الدعاء له عند كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة ^(٣) . وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان : لا تغتر بالسلطان إذا أدناك ، ولا تتغير منه إذا أقصاك ^(٤) . وروى أن بعض الملوك استصحب حكيمًا فقال له : أصحبك على ثلاث خصال : قال : وما هن ؟ قال : لا تهتك لى سترًا ، ولا تشتم لى عرضًا ، ولا تقبل فى قول قائل حتى تستشيرنى . قال : هذا لك ، فماذا لى عليك ؟ قال : لا أفسى لك سرا ، ولا أذخر عنك نصيحة ، ولا أؤثر عليك أحدا ، قال : نغم الصاحب للمستصحب أنت . وقال بزرجمهر ^(٥) : إذا خدمت ملكًا من الملوك فلا تطعه فى معصية خالفك ، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك ، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه . وقالوا : اصحب الملوك بالهبة لهم والوقار ، لأنهم إنما احتجوا عن الناس لقيام الهبة ، فلا ترك الهبة وإن طال أنسك بهم تزدد غما . وقالوا : علّم السلطان ، وكأنك تتعلم منه ، وأشير عليه وكأنك تستشيريه ، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحيث يسمع منك ، ويثق بك فأياك والدخول بينه وبين بطانته ، فإنك لا تدري متى يتغير منك ، فيكونون عونًا عليك ، وإياك أن تعادى من إذا شاء أن يطرح ثيابه ، ويدخل مع الملك فى ثيابه فعل . وفى الأمثال القديمة : احذروا زمارة المخدة ، وفيه قيل بيت مفرد :

ليس الشفيع الذى يأتيك مئزرًا مثل الشفيع الذى يأتيك عُريانا

وقال يحيى بن خالد إذا صحبت السلطان فدار مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحق .

وأما ما جاء فى التحذير من صحبة السلطان : فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهى عن صحبة السلطان ، قال فى كتاب كليله ودمنة : ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل : صحبة السلطان ، واتتمان النساء على الأسرار ، وشرب السم على التجربة . وكان يقال : قد خاطر بنفسه من ركب البحر ، وأعظم منه خطرا من صحب السلطان . وكان بعض الحكماء يقول : أحق الأمور بالتثبت فيها أمور السلطان ، فإن من صحب السلطان بغير عقل فقد لبس شعار الغرور . وفى حكم الهند ، صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر .

وقيل للعتابى : لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب ؟ قال : لأنى رأيتُه يُعطى عشرة آلاف فى غير شيء ، ويرمى من السور فى غير شيء ، ولا أدرى أى الرجلين أكون ؟ ! وقال معاوية لرجل من قريش : إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبى ، ويطش بطش الأسد . وقال ميمون بن مهران قال لى عمر بن عبد العزيز : يا ميمون ، احفظ عنى أربعا : لاتصحب السلطان وإن أمرته بالمعروف ، ونهيته عن المنكر ، ولا تخلون بامرأة وإن أقرأتها القرآن ، ولا تَصِلْ من قطع رحمه فإنه لك أقطع ، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غدا . وكم رأينا وبلغنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل :

(١) يستخليك : يخلو بك .

(٢) تأنيسا : أنسا ، وأزال ما لديك من الوحشة وعاملك بغير كلفة .

(٣) حيث تصيح أشبه بمن لا يعرفون السلطان !

(٤) أدناك : قريك ، وأقصاك : أبعدك .

(٥) بزرجمهر بن البختكان : الوزير العادل لكسرى أنو شروان ، وواضع كتاب برزويه من كليله ودمنة ، اشتهر برجاحة عقله وحكمته [انظر قاموس

الأعلام لشمس الدين سامي] .

عَدُوِّي البليد إلى الجليد سريعةً والجمر يوضع في الرماد فيخمدُ ^(١)
ومثل من صحب السلطان ليصلحه مثل من ذهب ليقيم حائطًا مائلا ، فاعتمد عليه لقيمه ، فخر الحائط عليه ،
فأهلكه ، قال الشاعر :

ومعاشِرُ السلطان شبه سفينة في البحر ترجف دائما من خوفه
إن أدخلت من مائه في جوفها يغتالها مع أنها في جوفه

وفى كتاب كليله ودمته : لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك ، فإنهم لا عهد لهم ولا وفاء ولا قريب ولا حميم ولا
يرغبون فيك إلا أن يطمعوا فيما عندك ، فيقربوك عند ذلك ، فإذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك ، ولا ودَّ
للسلطان ولا إخاء ، والذنب عنده لا يغفر .

وقالت الحكماء : صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه أخوف . وقال محمد بن واسع : والله
لَسَفُّ التراب ولقضم العظم ، خير من الدنو من أبواب السلاطين . وقال محمد بن السماك : الذباب على العذرة خير
من العابر على أبواب الملوك .

وقيل : من صحب السلطان قبل أن يتأذب فقد غرر بنفسه . وقال ابن المعتز من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه
في ذل الآخرة . وعنه : إذا زادك السلطان تأنيسا وإكراما فزده تهيبا واحتشاما . وقال أبو علي الصغاني : إياك والملوك
فإن من والاهم أخذوا ماله ، ومن عاداهم أخذوا رأسه ، وقيل : مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار :
أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة : عقل ، وصبر ، ومال . وتحت مكتوب كذب عدو الله ، من كان له واحد منها لم
يقرب باب السلطان . وقال حسان بن ربيع الحميري : لا تثقن بالملك فإنه ملول ، ولا بالمرأة فإنها خثون ، ولا بالدابة
فإنها شرود ، وقال عبيد بن عمير : ما ازداد رجل من السلطان قربا ، إلا ازداد من الله بعدا ، ولا كثرت أتباعه ، إلا
كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه ، وقال ابن المبارك - رحمه الله - :

أرى الملوكة بأذنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رَضُوا في العيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
وقال بعضهم في وفاة بني مروان :

إذا ما قطعتم ليلكم بمدامكم وأفنيتموا أيامكم بمنام
فمن ذا الذي يغشاكم في ملمة ؟ ومن ذا الذي يغشاكم بسلام ؟
رضيتم من الدنيا بأيسر بُلغة بلثتم غلام أو بشرب مُدام ^(٢)
ولم تعلموا أن اللسان موكل بمنح كرام أو بدم لئام !

نهت الحكماء عن خدمة الملوك ، فقالوا : إن الملوك يستعظمون في الثواب ردّ الجواب ، ويستقلون في العقاب
ضرب الرقاب . وقيل : شر الملوك من أمنه الجريء ، وخافه البريء ! والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ،
وحسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) البليد : من حرم الذكاء والمضاء في الأمور ، أما الجليد فهو من قوى ، وصبر على المكروه .

(٢) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة ، ولا يفضل عنها ، والمدامة : الخمر .

الباب السادس عشر

في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم ، وما أشبه ذلك

قال الله - تعالى - حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿وَجَعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩] . فلو كان السلطان يستغنى عن الوزراء ، لكان أحقَّ الناس بذلك كليمُ الله موسى بن عمران عليه السلام ؛ ثم ذكر حكمة الوزارة فقال : ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ [طه: ٣١-٣٢] دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة ثم قال : ﴿كَيْ سَمِعَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤] دلت هذه الآية على أن بصحة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تنتظم أمور الدنيا والآخرة ، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح ، وأفره الخيل إلى السوط ^(١) ، وأحد الشُّفار ^(٢) إلى المسن ، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم ، وأعلمهم إلى الوزير . وروى أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه قال : « مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ : بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنْهُ ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحْضِيهِ عَلَيْهِ . وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ » ^(٣) . وقال وهب بن منبه : قال موسى لفرعون : آمَنَ وَلَكَ الْجَنَّةُ ، وَلَكَ مَلِكُكَ ، قَالَ : حَتَّى أَشَاورَ هَامَانَ فَشَاورَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ هَامَانُ : بَيْنَمَا أَنْتَ إِلَهٌ تُعْبَدُ إِذْ صُرْتَ تُعْبَدُ ، فَأَنْفَ وَاسْتَكْبَرَ ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ . وَعَلَى هَذَا النَّمطِ كَانَ وَزِيرَ الْحِجَاجِ يَزِيدُ بْنُ مَسْلَمٍ لَا يَأْلُوهُ خَبَالًا ، وَلِبَاسُ الْقِرْنَاءِ شَرِّ قَرِينٍ لَشَرِّ خَدِينٍ ^(٤) ، وأشرف منازل الآدميين النبوة ، ثم الخلافة ، ثم الوزارة ، وفي الأمثال : نعم الظهير الوزير ، وأول ما يظهر نبيل السلطان ، وقوة تمييزه ، وجودة عقله في انتخاب الوزراء ، واستقاء الجلساء ، ومحادثة العقلاء ، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله ، وبهذه الخلال يجمل في الخلق ذكره ، وترسخ في النفوس عظمته ، والمرء موسوم بقرينه ، وكان يقال : حليَّة الملوك وزيتهم وزراؤهم ، وفي كتاب كيلة ودمنة : لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان .

وقال شريح بن عبيد لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه رجل حكيم ، إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف في كل صحيفة : ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة ، فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه . ومثل الملك الخير والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ، ولا يمكنهم من الدنومنه ، كالماء الصافي فيه التمساح ، فلا يستطيع المرء دخوله ، وإن كان سابحا وإلى الماء محتاجا ، ومثل السلطان كمثل الطبيب ، ومثل الرعية كمثل المرضى ، ومثل الوزير كمثل السفير بين المرضى والأطباء . فإذا كذب السفير ، بطل التدبير ، وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحدا من المرضى وصف للطبيب نقيض دائه فإذا سقاه الطبيب على صفة السفير هلك العليل ، كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك ، فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقا في لسانه ، عدلا في دينه ، مأمونا في أخلاقه ، بصيرا بأمور الرعية ، وتكون بطانة الوزير أيضا من أهل الأمانة والبصيرة ، وليحذر الملك أن يولى الوزارة لثيما ، فالثيم إذا ارتفع جفا أقاربه ، وأنكر معارفه ، واستخف بالأشراف ، وتكبر على ذوى الفضل . ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء ، وكان الوزير من أهل العقل والأدب ، فوجد عنده رجلا ذميا كان الخليفة يميل إليه ويقربه ، فقال الوزير منشدا :

يَا مَلِكًا طَاعَتُهُ لَازِمَةٌ وَخُبُّهُ مُفْتَرَضٌ وَاجِبٌ
إِنَّ السَّيِّئَ شُرِّفَتْ مِنْ أَجْلِهِ يَزْعُمُ هَذَا أَنَّهُ كَاذِبٌ

وأشار إلى الذمى ؛ فاسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك ، فسأله فلم يجد بدا من أن يقول : هو صادق فاعترف

(١) الفراهة: الجمال والحسن، والخفة والنشاط.

(٢) الشُّفار: جمع شفرة، السكين وما أشبهه.

(٣) حديث: «ما بعث الله... إلخ» أخرجه البخاري [٧١٩٨]، والنسائي [١٥٨/٧]، وأحمد [٣٩/٣، ٨٨]، والطحاوي في مشكل الآثار [٢٢/٣]، والبيهقي في شرح السنة برقم [٢٤٨٣].

(٤) خدين: خادنه، أي صادقه، فهو مُخَادِن، وخدين.

بالإسلام . وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقا ، وقال لوزيره : إذا رأيتني غضبان فادفع إلى رقعة بعد رقعة ؛ وكان في الأولى : إنك لست بإله ، وإنك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضا ، وفي الثانية : ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء ، وفي الثالثة : اقض بين الناس بحكم الله فإنه لا يصلحهم إلا ذلك . ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء ، وأزمة الملوك في أكف الوزراء سبق فيهم من العقلاء المثل السائر فقالوا : لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير ، وإذا أحبك الوزير فتم ولا تخش الأمير ، ومثل السلطان كالدار والوزير بابها ، فمن أتى الدار من بابها ولج ، ومن أتاها من غير بابها انزعج . وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرأة من البصر ؛ فكما أن من لم ينظر في المرأة لا يرى محاسن وجهه وعيوبه ، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير لا يعلم محاسن دولته وعيوبها . ومن شروط الوزير : أن يكون كثير الرحمة للخلق رءوفا بهم . واعلم أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وإن استقلها ، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس ، وكما أن المرأة لا تريك وجهك إلا بصفاء جوهرها وجودة صقلها ونقاها من الصدأ كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير ، وصحة فهمه ونقاء قلبه والله - تعالى - أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .



الباب السابع عشر

في ذكر الحجاب والولاية ، وما فيها من الفرر والخطر

أما الحجاب : فقد قيل : لا شيء أضيع للمملكة ، وأهلك للرعية من شدة الحجاب . وقيل : إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم ، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم . وقال ميمون بن مهران كنت عند عمر بن عبد العزيز ، فقال لحاجبه من الباب ؟ فقال : رجل أناخ ناقته الآن يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ ، فأذن له أن يدخل ، فلما دخل قال : حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من ولي شيئا من أمور المسلمين ، ثم حجب عنه ، حجب الله عنه يوم القيامة »^(١) . فقال عمر لحاجبه : الزم بيتك ، فما روى على بابه بعد ذلك حاجب ، وكان خالد ابن عبد الله القسري يقول لحاجبه : إذا أخذت مجلسي فلا تحجب عني أحدا ، فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث : عيب يكره أن يطلع عليه أحد ، أو ريبة يخاف منها أن تظهر ، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئا . وكانت العجم تقول : لا شيء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك ، ولا شيء أهيب للرعية وأكف لهم عن الظلم من سهولته . وقيل لبعض الحكماء : ما الجرح الذي لا يندمل ؟ قال : حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يرده بغير قضائها . قيل : فما الذي هو أشد منه ؟ قال : وقوف الشريف بباب الدنيء ، ثم لا يؤذن له . ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوي على باب المأمون يوما فنظر إليه الحاجب ، ثم أطرقت فقال عبد الله لقوم معه : إنه لو أذن لنا لدخلنا ، ولو صرفنا لانصرفنا ، ولو اعتذر إلينا لقبنا ، وأما النظرة بعد النظرة ، والتوقف بعد التعرف ، فلا أفهم معناه ثم تمثل بهذا البيت :

وما عن رضا كان الجمار مطيتي ولكن من يمشى سيرضى بما ركب

ثم انصرف ؛ فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضربا شديدا وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب . قال الشاعر :

رأيت أناسا يسرعون تبادرا إذا فتح البواب بابك إصبعا
ونحن جلوس ساكتون رزاة وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا

(١) حديث : « من ولي .. إلخ » . ورد بلفظ قريب منه عن معاذ ، أخرجه أحمد [٢٣٩/٥] .

ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي حيناً ، فلم يؤذن له ، فكتب رقعة وتلطف في وصولها إليه وفيها :
إذا كان الكريم له حجاب فاجابه أبو دلف بقوله :

إذا كان الكريم قليل مال وأبواب المملوك محجبات ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم :
سأهجركم حتى يلين حجابكم خذوا جذركم من صفوة الدهر إنها وقال آخر :

ماذا على بواب داركم الذي لو ردتنا رداً جميلاً عنكم وقال آخر :

أمرت بالتسهيل في الإذن لي فلن تراني بعدها عائداً وقال آخر :

ولقد رأيتُ بباب دارك جفوة ما بال دارك حين تدخل جنة وقال آخر :

إذا جئتُ ألقى عند بابك حاجباً ومن عجب مغناك جنة قاصد وقال آخر :

سأترك باباً أنت تملك إذنه فلو كنت بواب الجنان تركتها وقال آخر :

ماذا يفيدك أن تكون محجباً ما أنت إلا في الحصار معي فلا وقال أبو تمام :

سأترك هذا الباب ما دام إذنه فما خاب من لم يأتته متعمداً إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً

واستأذن رجل على أمير فقال الحاجب : قل له : إن الكرى^(١) قد خطب إلى نفسي ، وإنما هي هجعة وأهْبُ ، فخرج الحاجب فقال له الرجل : ما الذي قال لك ؟ قال : قال كلاماً لا أفهمه ، وهو يريد أن لا يأذن لك . وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية ؛ لسهولة إذنه ، وبذل طعامه ، وقال عمرو بن مرة الجهني

لمعاوية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من أمير يغلُقُ بابَهُ دُونَ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْحَلَّةِ وَالْمَسْأَلَةِ إِلَّا أَغْلَقَ اللَّهُ أَبْوَابَ السَّمَوَاتِ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتْهُ وَمَسَّأَلَتِهِ » ^(١) وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال :

سأصبرُ إن جفوت فكم صَبَرْنَا لمثلك من أمير أو وزير !
رجُونَاهُمْ فَلَمَّا أَخْلَفُونَا تمادت فيهم غيرَ الدهور
فَبِئْسْنَا بِالسَّلَامَةِ وَهِيَ غُثْم وبأثوا في المحابس والقبور
وَلَمَّا لَمْ نَنْلُ مِنْهُمْ سُرُورًا رأينا فيهم كل السرور
وَأَشْدُوا فِي ذَلِكَ أَيْضًا :

قُلْ لِلَّذِينَ تَحَجَّجُوا عَنْ رَاغِبٍ بمنازلٍ من دونها الحُجَّابِ
إِنْ حَالَ عَنْ لُفْيَاكُم بِوَابِكُمْ فالله ليس لبابه بوابِ

واستأذن سعد بن مالك على معاوية ، فحجبه ، فهتف بالبكاء ، فأتى إليه الناس - وفيهم كعب - فقال : وما يبيك يا سعد ؟ فقال : وما لي لا أبكي ، وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة ؟ ! فقال كعب : لا تبك فإن في الجنة قصرا من ذهب يقال له : عدن أهله الصديقون والشهداء ، وأنا أرجو أن تكون من أهله . واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لثيم فحجبه فقال :

فِي كُلِّ يَوْمٍ لِي بِبَابِكَ وَقِفَةٌ أظوى إليه سائر الأبواب
وَإِذَا حَضَرْتَ رَغِبْتَ عَنْكَ فَإِنَّهُ ذنبٌ عُقُوبَتُهُ عَلَى الْبَوَابِ

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم : فقد قال الله - تعالى - لداود ﷺ : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْفُسُ ﴾ [ص: ٢٦] . جاء في التفسير أن من اتبع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك ، فتود أن يكون الحق للذي في قلبك حبه خاصة ، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه ؛ قال ابن عباس ﷺ كان الذي أصاب سليمان بن داود ﷺ أن ناسا من أهل جرادة امرأته ، وكانت من أكرم نسائه عليه تحاكموا إليه مع غيرهم ، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضى لهم ، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحداً . وروى عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعْطِيتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلَّتْ إِلَيْهَا » ^(٢) . وقال معقل بن يسار ﷺ : سمعت النبي ﷺ يقول : « ما من عبدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحْطَها بِنَصِيحَتِهِ إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ » ^(٣) . وفي الحديث : « من ولي من أمور المسلمين شيئا ثم لم يحطهم بنصيحته كما يحوط أهل بيته ، فليتبوا مقعده من النار » ^(٤) . وروى أن عمر بن الخطاب ﷺ بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى ، وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالى ، فيقف على جسر جهنم ، فيأمر الله - تعالى - الجسر فينتفض اتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه ، ثم يأمر الله - تعالى - بالعظام فترجع إلى أماكنها فإن كان لله مطيعا أخذ بيده ، وأعطاه كفلين من رحمته ، وإن كان لله عاصيا انخرق به الجسر فهو به في نار جهنم مقدار سبعين خريفاً » ^(٥) فقال عمر ﷺ سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع ؟ ! قال : نعم . وكان سلمان وأبو ذر حاضرين - فقال سلمان : أى والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفاً فى وادٍ يلتهب التهاً بضرب عمر ﷺ بيده على جبهته وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون مَنْ يأخذها بما فيها ؟ ! فقال سلمان : من أرغم الله أنفه ، وألصق خذّه بالأرض . وروى أبو داود فى السنن قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أبى عريف على

(١) « ما من أمير .. إلخ » أخرجه الترمذي [١٣٤٩] .

(٢) حديث : « يا عبد الرحمن .. إلخ » أخرجه البخاري [٧١٤٦] ، ومسلم [١٦٥٢] .

(٣) حديث : « ما من عبد .. إلخ » أخرجه البخاري [٧١٥٠] .

(٤) حديث : « من ولي .. إلخ » أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » [ج ٢٠ برقم ٥١٣] ، عن معقل بن يسار .

(٥) حديث : « إذا كان يوم القيامة .. إلخ » رواه الطبراني ، وفيه من لم أعرفه ، هكذا قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » [٢٠٦/٥] .

الماء^(١) ، وإنني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده ، فقال النبي ﷺ : « العُرَاءُ في النار » وروى أبو سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الإمام الجائر »^(٢) . وقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة ، فيلقى من شدة الحساب ما يؤذ أنه لم يقض بين اثنين في تمرة »^(٣) . وقال الحسن البصري : إن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله ، فقال : يا رسول الله ، خِر لي ، فقال : « اقعِد في بيتك »^(٤) وقال أبو هريرة رضي الله عنه : ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جرى به يوم القيامة مغلولاً أنجاه عمله أو أهلكه . وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك : هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة ؟ قال سليمان : قل : فقال طاوس : أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه ، فجار في حكمه ، فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي ، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه . وقال ابن سيرين جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيرون إليه في ألواحهم فلم ينظر إليهم ، وقال هذا حكم ؛ لا أتولى حكماً أبداً . وقال أبو بكر بن أبي مريم حج قوم ، فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل ، فقالوا له : دلنا على الماء . فقال : احلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يمينا أنه لم يكن صرافاً ولا مكاساً^(٥) ولا عريفاً . وروى : ولا عرافاً ولا بريداً وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثاً وثلاثين يمينا كما قال ، فدلهم على الماء ، فقالوا له : أعنّا على غُسله فقال : لا حتى تحلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يمينا كما تقدم ، فحلفوا له فأعانهم على غسله ، ثم قالوا له : تقدم فصلّ عليه ، فقال : لا حتى تحلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يمينا كما تقدم فحلفوا له فصلّى عليه ، ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً فكانوا يرون أنه الخضر رضي الله عنه . وقال أبو ذر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَحْبَبْتُ لَكَ مَا أَحْبَبْتُ لِنَفْسِي وَإِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا فَلَا تَتَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ ، وَلَا تَلِيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ »^(٦) . ومن غريب ما اتفق ، وعجيب ما سبق ، ما حكى أن ملكاً من ملوك الفرس يقال له : أردشير^(٧) وكان ذا مملكة متسعة ، وجند كثير وكان ذا بأس شديد ، وقد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البار ، وأن هذه البنت بكر ذات خدر فسّير أردشير يخطبها من أبيها فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك ، فعظم ذلك على أردشير ، وأقسم بالآيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة ، وليمثّلن بهما أخبث مثلة ، فسار إليه أردشير في جيوشه ، فقاتله فقتله أردشير ، وقتل سائر خواصه ، ثم سأل عن ابنته المخطوبة ، فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء ، وأكمل البنات حسناً وجمالاً ، وقدّ واعتدالا ، فبهت أردشير من رؤيته إياها فقالت له : أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني ، ملك المدينة الفلانية ، وإن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا ، وقتل أبي وقتل سائر أصحابه قبل أن تقتله أنت ، وإنه أسرنى في جملة الأسارى وأتى بي في هذا القصر ، فلما رأتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحببتني ، وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي فتركني لها فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحد ، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك ، فأرسلها إلي بعض الجزائر في البحر الملح عند بعض أقاربه من الملوك ، فقال أردشير وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة ! ثم أنه تأمل الجارية فرأها فائقة في الجمال فمالت نفسه إليها ، فأخذها للتسرى وقال : هذه أجنبية من الملك ولا أحت في يميني بأخذها ، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها ، فحملت منه ، فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوماً وقد رآته منشرح الصدر فقالت له : أنت غلبت أبي ، وأنا غلبتك ؛ فقال لها : ومن أبوك ؟ فقالت له : هو ملك بحر الأردن ، وأنا ابنته التي خطبتها منه ، وإنني سمعت أنك أقسمت لتقتلني ؛ فتحيلت عليك بما سمعت ، والآن هذا ولدك في بطني ، فلا يتهياً لك قتلي ، فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة ، وتحيلت عليه ، حتى تخلصت من يديه ، فانتهرها وخرج من عندها مغضبا ، وعول على قتلها ، ثم ذكر لوزيرها ما اتفق له معها فلما رأى الوزير عزمه قويا على قتلها ، خشى أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا ، وأنه لا يقبل فيها شفاعا

(١) العريف : القيم بامر القوم وسيدهم .

(٢) حديث : « إن أشد الناس عذاباً .. إلخ » أخرجه الطبراني في الأوسط « كما في مجمع الزوائد » للهيثمي [١٩٧/٥] ، وفيه عطية العوفي ضعيف .

(٣) حديث : « يؤتى بالقاضي .. إلخ » لم أقف عليه ، وقريب منه ما أخرجه البزار [١٣٥١ : كشف] ، وسنده ضعيف .

(٤) وقال الحسن البصري .. إلخ . ضعيف : وذلك لأنه مرسل ، فالحسن لم يدرك تلك القصة .

(٥) المكاسي : الذي يقدر الضريبة وجبها من الأسواق والتجار .

(٦) حديث : قال لي رسول الله ﷺ .. إلخ . أخرجه مسلم [١٨٢٦] .

(٧) أردشير بن بابك بن ساسات أول ملوك الفرس الساسانيين ، وهو أحد ملوك الطوائف وملك أربع عشرة سنة وستة أشهر [الطبراني : ٣٧٢] .

شافع ؛ فقال : أيها الملك ، إن الرأي هو الذى خطر لك ، والمصلحة هى التى رأيتها أنت ، وقتل هذه الجارية فى هذا الوقت أولى ، وهو عين الصواب ، لأنه أحق من أن يقال : إن امرأة قهرت رأى الملك ، وحنثته فى يمينه لأجل شهوة النفس . ثم قال : أيها الملك ، إن صورتها مرحومة ، وحمل الملك معها وهى أولى بالستر ، ولا أرى فى قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق ، فقال له الملك : نعم ما رأيت ، فخذها غرقها فأخذها الوزير ، ثم خرج بها ليلا إلى بحر الأردن ، ومعه ضوء ورجال وأعوان فتحيل إلى أن طرح شيئا فى البحر أوهم من كان معه أنها الجارية ، ثم إنه أخفاها عنده ، فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرقها فشكره على ما فعل ثم إن الوزير ناول الملك حقا مختوما ، وقال : أيها الملك إنى نظرت مولدى فرأيت أجلى قد دنا على ما يقتضيه حساب حكماء الفرس فى النجوم ، وإن لى أولادا ، وعندى مال قد آذخرته من نعمتك فخذة إذا أنا مت إن رأيت وهذا الحق فيه جوهر ، أسأل الملك أن يقسمه بين أولادى بالسوية فإنه إرثى قد ورثته من أبى ، وليس عندى شيء اكتسبته منه إلا هذا الجوهر ، فقال له الملك بطول الرب فى عمرك ، ومالك لك ولأولادك سواء كنت حيا أو ميتا ، فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة ، فأخذ الملك وأودعه عنده فى صندوق ، ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولدا ذكرا جميلا حسن الخلقة مثل فلقة القمر ، فلاحظ الوزير جانب الأدب ، فى تسميته فرأى أنه إن اخترع له اسما وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب ، وإن هو تركه بلا اسم لم يتهيا له ذلك ، فسماه « شاه بور » ومعنى شاه بور بالفارسية ابن الملك ، فإن « شاه » ملك و« بور » ابن ، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم ، وتقديم المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذه ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم ، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط والحكمة والفروسية وهو يوهم أنه مملوك له اسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ ، هذا كله وأردشير ليس له ولد ، وقد طعن فى السن وأقعده الهرم ، فمرض وأشرف على الموت ، فقال للوزير : أيها الوزير قد هرم جسمى ، وضعفت قوتى ، وإن أرى أنى ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه من بعدى من قضى له به ؛ فقال الوزير : لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولى بعده الملك ، ثم ذكره بأمربنت ملك بحر الأردن وبحملها ، فقال الملك لقد ندمت على تغريقها ، ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكرا ؛ فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال : أيها الملك إنها عندى حية ، ولقد وضعت ولدا ذكرا من أحسن الغلمان خلقا ، وخلقا فقال الملك : أحق ما تقول ؟ فأقسم الوزير أن نعم ، ثم قال : أيها الملك إن فى الولد روحانية تشهد بأبوة الأب ، وفى الوالد رد ما شهد ببنة الابن لا يكاد ذلك ينخرم أبدا ، مؤنها أتى بهذا الغلام بين عشرين غلاما فى سنه وهيته ولباسه وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو ، وإنى أعطى كل واحد منهم صولجانا وكرة ، وأمرهم أن يلعبوا بين يديك فى مجلسك هذا ، ويتأمل الملك صورهم وخلقتهم وشماثلهم ، فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو ، فقال الملك : نعم التدبير الذى قلت ؛ فأحضرهم الوزير على هذه الصورة ، ولعبوا بين يدي الملك ، فكان الصبى منهم إذا ضرب الكرة ، وقرب من مجلس الملك تمنعه الهيئة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فإنه كان إذا ضربها وجاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ، ولا تأخذ الهيئة منه ، فلاحظ أردشير ذلك منه مرارا ؛ فقال له : أيها الغلام ، ما اسمك ؟ قال : شاه بور ، فقال له : صدقت أنت ابنى حقا ، ثم ضمه إليه ، وقبله بين عينيه ، فقال له الوزير : هذا هو ابنك أيها الملك ، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول ، فأثبت لكل صبى منهم ولدا بحضرة الملك ، فتحقق الصديق فى ذلك ، ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسننها وجمالها ، فقبلت يد الملك ، فرضى عنها ، فقال الوزير : أيها الملك قد دعت الضرورة فى هذا الوقت إلى إحضار الحق المختوم ، فأمر الملك بإحضاره ثم أخذ الوزير وفك ختمه ، وفتحه ، فإذا فيه ذكر الوزير وأنشاه مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك ، وأحضر عدولا من الحكماء ، وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة ، قال : فدهش الملك أردشير وبُهِت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس ، فى الخدمة وشدة مناصحته ، فزاد سروره ، وتضاعف فرحه لصيانة الجارية وإثبات نسب الولد ولحوقه به ، ثم إن الملك عوفى من مرضه الذى كان به وصح جسمه ، ولم يزل يتقلب فى نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه ، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير وشاه بور يحفظ مقامه ، ويرعى منزلته حتى توفاه الله - تعالى - والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصل الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

الباب الثامن عشر

فيما جاء في القضاء ، وذكر القضاة ، وقبول الرشوة والهدية على الحكم ، وما يتعلق بالديون ، وذكر القصاص ، والمتصوفة وفيه فصول

الفصل الأول : فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

وقال الله - تعالى - : ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] . وقال - تعالى - : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ [ص: ٢٢] وقال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] . وقال رسول الله ﷺ : « من حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله » ^(١) .

وعن أبي حازم قال : دخل عمر على أبي بكر رضي الله عنه فسلم عليه ، فلم يرد عليه ، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : أخاف أن يكون وجد علي خليفة رسول الله ﷺ فكلم عبد الرحمن أبا بكر فقال : أتاني وبين يدي خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري ، وعلمت أن الله سألني عنهما ، وعما قالا وقلت . وادعى رجل على علي عند عمر رضي الله عنه وعلي جالس ، فالتفت عمر إليه وقال : يا أبا الحسن ، قم فاجلس مع خصمك ، فقام فجلس مع خصمه ، فتناظرا ، وانصرف الرجل ورجع علي إلى مجلسه ، فتبين لعمر التغير في وجه علي ، فقال : يا أبا الحسن ، ما لي أراك متغيراً ؟ أكرهت ما كان ؟ قال : نعم . قال : وما ذاك ؟ قال : كتبتني بحضرة خصمي ، هلاً قلت : يا علي ، قم فاجلس مع خصمك ، فأخذ عمر برأس عمر رضي الله عنه فقبله بين عينيه ، ثم قال : بأبي أنتم ! بكم هدانا الله ، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور .

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه : القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحاً ؟ وأراد عمر بن هبيرة أن يولى أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربه بالسياط ، وليسجنته ، فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب ، فقال : الضرب بالسياط في الدنيا أهون علي من الضرب بمقامع الحديد ^(٢) في الآخرة . وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال : أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكشف عن باب مغلق ، فظنناه كنزاً ، فكتبنا إلى أبي بكر رضي الله عنه فكتب إلينا : لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي ، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان البيتان :

إذا خان الأمير وكاتباه وقاضى الأرض داهن في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل لقاضى الأرض من قاضى السماء

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه : هذا سيف عاد بن إرم . وعن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْقَاضِي مَا لَمْ يَجْرُ ، فَإِذَا جَارَ بَرَأَ اللَّهُ مِنْهُ وَلَزِمَهُ الشَّيْطَانُ » ^(٣) . وقال محمد بن حريث : بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة ، واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم ، فلما ألحوا عليه دخل بيته ، ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أني لهذا الأمر كاره ، فاقبضني إليك ؛ فقبض . وعن

(١) قوله : « من حكم بين اثنين . . إلخ » لم أقف عليه .

(٢) المقامع جمع مقمعة وهي خشبة أو حديدة معوجة الرأس يضرب بهارأس الفيل ونحوه لذل ويهان ، وقد جاء ذكر المقامع في القرآن ، في قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مَقْصُوعٌ بِزَيْنِ حَبِيبٍ ﴾ [الحج: ٢١] .

(٣) حديث : « إن الله مع القاضي . . إلخ » . حسن : أخرجه الترمذي [١٣٣٠] ، وابن حبان [٥٠٦٢] ، والحاكم [٩٣/٤] .

أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة » ^(١) ! وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله عن مسائل القضاء : لعلك تريد أن تكون قاضيا ! لأن يدخل الرجل أصبعه في عينيه فيقلعهما ويرمى بهما خير له من أن يكون قاضيا . وقيل : أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعرى كان أمير البصرة ، وقاضيا فيها وكان يقول : إن الرجلين يتقدّمان إلى فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر ، فأقضى له . وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه ثلاثين ألف دينار ، فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه ، فقال له يحيى : لا تأخذ على خصمك شرف المجلس ، ولم يكن للرجل بيعة فأراد أن يحلف المأمون ، فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار ، وقال : والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة : إني تناولتك من جهة القدرة ، ثم أمر ليحيى بمال ، وأجزل عطاءه . وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس ، فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل فقال أبو يوسف : قم . أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع ؟ ! يا غلام اتنى بعمر بن أبي عمرو النخاس فإنه إن قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد ، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين ، ثم إن الحاجب أخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه ، فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد ، وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له : لو باعك لأجزت بيعه ، ولم أردك إلى ملكي ، فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم ، فإن ذلك عمود السلطان ، وقوام الأديان ، والله - تعالى - أعلم .

وقال الأبرش العلكي يمدح بعض القضاة :

رفضت وعطلت الحكومة قبله
حتى إذا ما قام ألف بينها
وفي ضد قول بعضهم :

أبكى وأندب ملة الإسلام
إن الحوادث ما علمت كثيرة
إذ صرّت تقعد مقعد الحكام
وأراك ببعض حوادث الأيام

وتقدّمت امرأة إلى قاض فقال لها : جامعك شهودك ؟ فسكت ! فقال كاتبه : إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك ؟ قالت : نعم . هلا قلت مثل ما قال كاتبك ! كبر سنك ، وقُل عقلك ، وعظمت لحيّتك حتى غطت على لُبّك ! ما رأيت ميتا يقضى بين الأحياء غيرك ؟ وقيل : المضروب بهم المثل في الجهل وتحريف الأحكام : قاضى منى ، وقاضى كسكر ، وقاضى أيدج ، وهو الذى قال فيه أبو إسحاق الصابى :

ياربّ علج علج
رأيتنه مطلقا
وخلفه عذوبة
فقلت : من هذا ترى
وقاضى شلبة وهو الذى قال فيه الحسن الجوهري :

رأيت رأسا كذبته
فقلت : من أنت قل : لى
وتقدّمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادّعت عنده : فقضى لها فقال هذيل الأشجعي :

فُتن الشعبي لما
فتنته ببنان
رفع الطرف إليها
كيف لو رأى معصمها ؟ !

(١) حديث أنس : « القضاة جسور . . إلخ » لم أهد إلى من خرجة .

(٢) العليج : كل جاف شديد من الرجال . ومرتج : مغلق ، والعذبة : طرف العمامة .

ومشيت مشيا رويدا ثم هزت مئكبيها
فقضى جورا على الخصم ولم يقض عليها
فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي ، فضرب الأشجعي ثلاثين سوطا . وحكى ابن أبي ليلى قال :
انصرف الشعبي يوما من مجلس القضاء ، ونحن معه فمررنا بخدمة تغسل الثياب ، وهي تقول : فتن الشعبي لما فتن
الشعبي لما .. ولم تعرف بقية البيت فلقتها الشعبي ، وقال : رفع الطرف إليها ، ثم قال : أبعد الله ! أما أنا فما
قضيت إلا بالحق ، وأنشد بعضهم في أمين الحكم :
تتماوتن إذا مشيت تخشعا حتى تُصيبَ وديعةً لیتيم

الفصل الثاني: في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون

أما الرشوة فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « لَعَنَ اللَّهُ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ » ^(١) . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تؤلوا
اليهود ولا النصارى ؛ فإنهم يقبلون الرشا ، ولا يحل في دين الله الرشا . قال الشهيدى : وأصحابنا اليوم أقبل للرشا
منهم . وفي نوايغ الحكم : أن البراطيل تنصر ^(٢) الأباطيل . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من شفع شفاعة ليرد بها حقا أو
يدفع بها ظلما فأهدى له فقبل : فذلك السحت ! فقبل له : ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم . قال : الأخذ
على الحكم كفر وأنشد المبرد - رحمه الله تعالى - :

وكنت إذا خاصمت خصما كبته على الوجه حتى خاصمتني الدراهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت على وقالت : قم فإنك ظالم

وأما الدين وما جاء فيه ، نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال : فقد روى عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه
قال : « مَنْ تَدَايَنَ بِدَيْنٍ وَفِي نَفْسِهِ وَفَاؤُهُ ، ثُمَّ مَاتَ تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَأَرْضَى غَرِيمَهُ بِمَا شَاءَ ، وَمَنْ تَدَايَنَ بِدَيْنٍ ، وَلَيْسَ
فِي نَفْسِهِ وَفَاؤُهُ ثُمَّ مَاتَ ، اقْتَصَصَ اللَّهُ لَغْرِيمِهِ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » رواه الحاكم . وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كان
رسول الله ﷺ إذا أتى له بجزاة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ، ويسأل عن دينه ، فإن قيل : عليه دين كف عن
الصلاة عليه ، وإن قيل : ليس عليه دين صلى عليه ، فأتى بجزاة فلما قام ليكبر سأل ﷺ : « هل على صاحبكم من
دين ؟ » فقالوا : ديناران يا رسول الله ؛ فعذر النبي ﷺ عنه وقال : « صلوا على صاحبكم » فقال علي رضي الله عنه هما
عليّ يا رسول الله ، وهو برىء منهما فتقدم رسول الله ﷺ ، فصلى عليه ، ثم قال لعلي رضي الله عنه : « جزاك الله عنه خيرا فك
الله رهانك كما فككت رهان أخيك ، إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتتهن بدينه ، ومن فك رهان ميت
فك الله رهانه يوم القيامة » ^(٣) .

وقال بعض الحكماء : الدين هم بالليل ، وذو بالنهار وهو غل جعله الله في أرضه ، فإذا أراد الله أن يذل عبدا
جعل طوقا في عنقه ، وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى ديننا له على رجل فقالوا : خرج إلى الغزو فقال :
أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن رجلا قتل في سبيل الله ، ثم أحيى ، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضى
دينه » ^(٤) . وعن الزهري قال : لم يكن رسول الله ﷺ يصلى على أحد عليه دين ، ثم قال بعده : « أنا أولى
بالمؤمنين من أنفسهم ، من مات وعليه دين فعلى قضاؤه ، ثم صلى عليهم » ^(٥) . وعن جابر لا هم إلا هم الدين ،
ولا وجع إلا وجع العين .

(١) حديث : « لعن الله الراشي .. إلخ » . قال المنذري : رواه الطبراني بإسناد جيد .

(٢) البراطيل : جمع برطيل وهو الرشوة .

(٣) حديث علي : كان رسول الله ﷺ . إلخ . ضعيف : أخرجه الدارقطني [٧٨/٣] .

(٤) حديث : « أشهد أن رسول الله ﷺ قال : .. إلخ ضعيف : أخرجه أبو داود [١٤٦٩-١٤٧٠] ، وأحمد [١٧٢/١] والحميدي ٧٦-٧٧ وعبد
ابن حميد في «المنتخب من المسند» برقم [١٥٠] ، وفي سنده رجل مجهول .

(٥) حديث الزهري : « لم يكن رسول الله ﷺ .. إلخ » انظر : «مسند النسائي» [٦٦/٤] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من تزوج امرأة بصداق بنوى أن لا يؤديه إليها فهو زان ، ومن استدان ديناً بنوى أن لا يؤديه فهو سارق » (١) . وقال حبيب بن ثابت : ما احتجت إلى شيء أستقرضه إلا استقرضته من نفسي ، أراد : أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة ، ونظيره قول القائل :

وإذا غلا شيء على تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا
وقال بعضهم أيضاً :

لقد كان القريض سميحاً قلبي فألهتني القروض عن القريض
وقال غيلان بن مرة التميمي :

وإنى لأقضى الدين بالدين بعدما يرى طالبى بالدين أن لست قاضياً
فأجابه ثعلبة بن عمير :

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن قضاء ولكن ذاك غرم على غرم !
واستقرض من الأصمعي خليل له فقال : حباً وكرامة ، ولكن سكن قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه ، فقال : يا أبا سعيد أما تثق بي ؟ قال : بلى وإن خليل الله كان واثقاً بربه ، وقد قال له : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ . [البقرة: ٢٦٠]

الفصل الثالث: في ذكر القصاص والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء في ذكر القصاص والمتصوفة : فقد روى عن حبيب بن الأرت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن بني إسرائيل لما هلكوا قُضوا » (٢) . وروى أن كعباً كان يقص ، فلما سمع الحديث ترك القصص ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : لم يقص أحد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وإنما كان القصص حين كانت الفتنة . وقال ابن المبارك سألت الثوري : من الناس ؟ قال : العلماء . قلت : فمن الأشراف ؟ قال : المتقون . قلت : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قلت : فمن الغوغاء ؟ قال : القصاص الذين يستأصلون أموال الناس بالكلام . قلت : فمن السفهاء ؟ قال : الظلمة .

قيل : وهب رجل لقاص خاتماً بلا قص فقال : وهب الله لك في الجنة غرفة بلا سقف .

وقال قيس بن جبير النهلشي : الصعقة التي عند القصاص من الشيطان . وقيل لعائشة رضي الله عنها : إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صُعِقُوا فقالت : القرآن : القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال ! وسئل ابن سيرين عن أقوام ، يُصعقون عند سماع القرآن ، فقال : معاذ ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره فإن صعقوا فهو كما قالوا . وكان بمرور قاص يُبكي بمواعظه فإذا طال مجلسه بالبكاء أخرج من كفه طنبوراً (٣) صغيراً فيحركه ويقول : مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة .

وقال بعضهم : قلت لصوفيٍّ يعني جُبْتُك ، فقال : إذا باع الصياد شبكته فبأى شيء يصيد ؟ ! وسئل بعض العلماء عن المتصوفة فقال : أكله رقيقة . وعظ عيسى عليه السلام بني إسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب ، فقال : ما ذنب الثياب ؟ ! أقبلوا على القلوب فعاتبوها ! !

وأما ما جاء في الرياء : فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] . وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معاذ ، احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأنت تخلو من ذلك فتحشر مع

(١) حديث أبي هريرة : « من تزوج امرأة .. إلخ » . ضعيف : أخرجه البزار [١٤٣٠ - كشف] ، وانظر : « مجمع الزوائد » [٤ / ١٣١] .

(٢) حديث حبيب : « إن بني إسرائيل .. إلخ » صحيح : أخرجه الطبراني في « الكبير » [ج ٤ برقم ٣٧٠٥] ، وأبو نعيم في « الحلية » [٤ / ٣١٢] .

(٣) طنبوراً : آلة من آلات اللهب واللهو والطرب ذات عنق وأوتار [وهي كلمة معربة] .

المراثين»^(١) وقيل : لو أن رجلا عمل عملا من البر فكتمه ، ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتبه فهو من أقبح الرياء .
وقيل : كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله في شيء . وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : ما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء »^(٢) .
وقيل : بينما عابد يمشي ومعه غمامة على رأسه تظله ، فجاء رجل يريد أن يستظل معه فمنعه ، وقال : إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظلني ، فقال له الرجل : قد علم الناس أنني لست ممن تظله الغمامة ، فحولها الله - تعالى - إلى ذلك الرجل . وقال عبد الأعلى السلمي يوما : الناس يزعمون أنني مُراءٍ ، وكنت أمسي - والله - صائما ، ولا أخبرتك بذلك أحدا . اللهم أصلح فساد قلوبنا واستر فضائحتنا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب التاسع عشر

في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

اعلم أرشدك الله أن الله - تعالى - أمر بالعدل ، علم سبحانه - وتعالى - أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل ، بل تطلب الإحسان ، وهو فوق العدل فقال - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠] . الآية فلو وسع الخلائق العدل ما قرن الله به الإحسان ، والعدل ميزان الله - تعالى - في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوى ، والمحقوق من المبطل ، واعلم أن عدل الملك يوجب محبته ، وجوره يوجب الافتراق عنه ، وأفضل الأزمنة أيام العدل ، وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « لعمل الإمام العادل في رعيته يوما واحدا أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عاما »^(٣) . وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « عدل ساعة خير من من عبادة سبعين سنة »^(٤) وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم ، تحمل على الغمام »^(٥) ، وتفتح لها أبواب السماء »^(٦) . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحمري : أخبرني عن جنة عدن ، قال : يا أمير المؤمنين لا يسكنها إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عادل فقال عمر : والله ما أنا نبي ، وقد صدقت رسول الله ﷺ ، وأما الإمام العادل ، فإني أرجو أن لا أجور ، وأما الشهادة فأنت لي بها ؟ قال الحسن : فجعله الله صديقا شهيدا ، حكما عدلا . وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل : أيما أبلغ عنكم : الشجاعة ، أو العدل ؟ قالوا : إذا استعملنا العدل استغنينا به عن الشجاعة . ويقال : عدل السلطان أنفع من خصب الزمان وقيل : إذا رغب السلطان عن العدل رغب الرعية عن طاعته ، وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته ، ويسأله مالا يرميها به ، فكتب إليه عمر : قد فهمت كتابك فإذا قرأت كتابي فحصن مدينتك بالعدل ، ونق طرقها من الظلم ، فإنه مرمتها ،

(١) حديث معاذ «يا معاذ» . إلخ . لم أقف عليه .

(٢) حديث شداد : «إن أخوف .. إلخ» حسن : أخرجه أحمد [٤٢٨/٥] والبيهقي في «الشعب» [٤٨٣١] ، من حديث محمود بن لبيد . وأخرجه الطبراني في الكبير برقم [٧١٤٤ - ٧١٤٥] .

(٣) حديث أبي نعيم «لعمل الإمام العادل .. إلخ» ضعيف : أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» [٥٩٦ - بغية] ، من طريق زياد بن مخراق ، عن رجل عن أبي هريرة وسنده ضعيف لجهالة الرجل .

(٤) «عدل ساعة .. إلخ» . ضعيف جدا : أخرجه المجلدي ، والأصبهاني في الترغيب ، وابن عساكر في أماليه ، وفيه أحمد بن عيسى الخشاب ، متروك وانظر تخريج أحاديث العادلين للسخاوي [ص ٥٢ - ٥٣] .

(٥) الغمام : السحاب .

(٦) «ثلاثة لا ترد دعوتهم .. إلخ» أخرجه أحمد [٨٠٣٠ - ٨٠٣١] ، ط . شاكرك ، والترمذي [٣٥٩٨] ، وابن ماجه [١٧٥٢] ، والبيهقي في السنن الكبرى [١٦٢/٨] .

والسلام . ويقال : إن الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه السلام كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف ، فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عليه السلام ارتفع في السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف ، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف ، وقيل : أكثر ، وقال : إن عشت لأبلغنه إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه السلام فمات في تلك السنة . ومن كلام كسرى لأمك إلا بالجند ، ولا جند إلا بالمال ، ولا مال إلا بالبلاد ، ولا بلاد إلا بالرعايا ، ولا رعايا إلا بالعدل .

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون للناس ولأمير المؤمنين المنصور فكتب المنصور لعامله : استوف لأمر المؤمنين حقه ، وفرق ما بقي بين الغرماء ، فلم يلتفت إلى كتابه ، وضرب للمنصور بسهم من المال كما ضرب لأحد الغرماء ثم كتب للمنصور . إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء فكتب إليه المنصور ملئت الأرض بك عدلا . وكان أحمد بن طولون والى مصر متحليا بالعدل مع تجبره ، وسفكه للدماء ، وكان يجلس للمظالم ، وينصف المظلوم من الظالم .

حكى : أن ولده العباس استدعى بمغنية ، وهو يصطبغ يوما فلقبها بعض صالحى مصر ، ومعها غلام يحمل عودها ، فكسره ، فدخل العباس إليه ، وأخبره بذلك فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح ، فلما أحضر إليه قال : أنت الذى كسرت العود ؟ قال : نعم . قال : أفعلت لمن هو ؟ قال : نعم . هو لابنك العباس . قال : أفما أكرمته لى ؟ فقال : أكرمتك بمعصية الله - عز وجل - والله - تعالى - يقول : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١] . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا طاعة لمخلوق في مفسية الخلق » ^(١) . فأتى أحمد بن طولون عند ذلك ، ثم قال : كل منكر رأيته فغيره وأنا من ورائك !

ووقف يهودى لعبد الملك بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بعض خاصتك ظلمنى ، فأنصفتنى منه ، وأذقنى حلاوة العدل ، فأعرض عنه ، فوقف له ثانيا ، فلم يلتفت إليه ، فوقف له مرة ثالثة وقال : يا أمير المؤمنين إنا نجد فى التوراة المنزلة على كليم الله موسى عليه السلام : أن الإمام لا يكون شريكا فى ظلم أحد حتى يرفع إليه ، فإذا رفع إليه ذلك ولم يُزلْه فقد شاركه فى الظلم والجور ، فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث فى الحال إلى من ظلمه فعزله ، وأخذ لليهودى حقه منه .

وروى أن رجلا من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيقة له ، فأتى إلى المنصور فقال له : أصلحك الله يا أمير المؤمنين أأذكر لك حاجتى أم أضرب لك قبلها مثلا ؟ فقال : بل اضرب المثل ، فقال : إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفزع إلى أمه إذ لا يعرف غيرها ، وظننا منه أن لا ناصر له غيرها ، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه ، فإذا زاد عقله شكا إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه ، فإن لم ينصفه السلطان شكا إلى الله - تعالى - لعلمه أنه أقوى من السلطان ، وقد نزلت بى نازلة وليس أحد فوقك أقوى منك إلا الله - تعالى - فإن أنصفتنى ، وإلا رفعت أمري إلى الله - تعالى - فى الموسم ، فإنى متوجه إلى بيته وحرمة فقال المنصور : بل نصفك وأمر أن يكتب إلى واليه برد ضيعته إليه . وكان الإسكندر يقول : يا عباد الله إنما إلهكم الله الذى فى السماء الذى نصر نوحا بعد حين ، والذى يسقيكم الغيث عند الحاجة ، وإليه مفزعكم عند الكرب ، والله لا يبلغنى ، أن الله - تعالى - أحب شيئا إلا أحببته واستعملته إلى يوم أجلي ولا أبغض شيئا إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي وقد أنبئت أن الله - تعالى - يحب العدل فى عباده ، ويبغض الجور من بعضهم على بعض ، فويل للظالم من سيفى وسوطى ، ومن ظهر منه العدل من عمالى فليتكى فى مجلسى كيف شاء ، وليتمنى على ما شاء ، فلن تخطئه أمنيته ، والله - تعالى - المجازى كلا بعمله .

ويقال : إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان .

وقيل : مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سبطا ^(٢) ففتح فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها . هذه من حب رمان عمل فى خراجه بالعدل .

(١) الإمام أحمد فى مسنده ٤٠٩/١ .

(٢) السبط : بتشديد السين المفتوحة وفتح الفاء ، هو : وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها .

وقيل : تظلم أهل الكوفة من واليهم فشكوه إلى المأمون ، فقال : ما علمت في عمالي أعدل ولا أقوم بأمر الرعية ، وأعود بالرفق عليهم منه ، فقال رجل منهم : يا أمير المؤمنين ما أحد أولى بالعدل والإنصاف منك ، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلدا بلدا حتى يلحق كل بلد من عدله مثل الذي لحقنا ، ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا ، وإذا فعل ذلك لم يصيبنا منه أكثر من ثلاث سنين ، فضحك المأمون من قوله ، وعزله عنهم .

وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فنزل بواصل بن عطاء^(١) وقال : بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل ، فقم بنا إليه ، فأشرف عليهم من غرفة ، فقال لواصل : من هذا الذي معك ؟ قال عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال : رحب على رحب ، وقرب على قرب ، فقال : إنه يحب أن يسمع أبياتك في العدل فقال : سمعا وطاعة ، وأنشد يقول :

حتى متى لا نرى عدلاً نسرُّ به
مستمسكين بحق قائمين به
يال لرجال لداء لا دواء له
ولا نرى لؤلاً الحق أعواناً
إذا تلون أهل الجور ألواناً
وقائد ذي عَمَى يقتاد عمياناً

فقال المنصور : وددت لو أني رأيت يوم عدل ثم مت . وقيل : لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم فابتدأ بأهل بيته ، فاجتمعوا إلى عمة له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها : إن رسول الله ﷺ سلك طريقاً فلما قبض سلك أصحابه ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ فلما أفضى الأمر إلى معاوية جرّه يمينا وشمالاً ، وإيم الله لئن مدّ في عمري لأردّنه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقالت له : يا بن أخي ، إني أخاف عليك منهم يوماً عصياً ، فقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة ، فلا أمتنيه الله . وقال وهب بن منبه : إذا هم الوالي بالجور ، أو عمل به أدخل الله النقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع ، والضروع ، وكل شيء . وإذا هم بالخير والعدل ، أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك .

وقال الوليد بن هشام : إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي ، وتفسد بفساده . وقال ابن عباس رضي الله عنه : إن ملكاً من الملوك خرج يسير في مملكته متتكرراً ، فنزل على رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات ، فتعجب الملك من ذلك وحدثه نفسه بأخذها ، فلما كان من الغد حلبت له النصف ، مما حلبت بالأمس فقال له الملك : ما بال حلبها نقص ؟ أرعت في غير مرعاها بالأمس فقال : لا ، ولكن أظن أن ملكاً رآها أو وصله خبرها ، ففهم بأخذها ، فنقص لبنها ، فإن الملك إذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة ، فتاب الملك ، وعاهد ربه في نفسه أن لا يأخذها ، ولا يحسد أحداً من الرعية فلما كان الغد حلبت عادتها .

ومن المشهور بأرض المغرب أن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلو وأن كل قصبة منها تعصر قدحا ، فعزم الملك على أخذها منها ، ثم أتاها وسألها عن ذلك ، فقالت : نعم . ثم إنها عصرت قصبة ، فلم يخرج منها نصف قدح ، فقال لها : أين الذي كان يقال ؟ فقالت : هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت البركة منها ، فتاب الملك ، وأخلص لله النية وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبداً ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح .

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي - رحمه الله - في كتابه «سراج الملوك» قال : حدثني بعض الشيوخ ممن كان يروى الأخبار بمصر قال : كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرداب ، ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك ، فغضبها السلطان ، فلم تحمل شيئاً في ذلك العام ، ولا ثمرة واحدة ! وقال لي شيخ من أشياخ الصعيد : أعرف هذه النخلة ، وقد شاهدتها وهي تحمل عشرة أرداب ستين وية^(٢) ، وكان صاحبها يبيعها في سني الغلاء كل وية بدينار .

(١) واصل بن عطاء [أبو حذيفة] ، [١٣١ - ٧٤٨م] ، رأس متكلمي المعتزلة ، وأكبر أركان هذه النحلة ، وإليه تنسب «الواصلية» ولد بالمدينة ، وانتقل إلى البصرة ، حيث اتصل بالحسن البصري ، وعمر بن عبد الله .

(٢) الوية : كيلتان ، والأردب ست ويات .

وحكى أيضا - رحمه الله تعالى - قال: شهدت في الإسكندرية ، الصيد مطلق للرعية ، السمك يطفو على الماء لكثرتة وكانت الأطفال تصيده بالخزق من جانب البحر ، ثم حجزه الوالى ، ومنع الناس من صيده ، فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا ، وهكذا تتعدى سرائر الملوك ، وعزائمهم ، ومكنون ضمائرهم إلى الرعية إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وروى أصحاب التواريخ فى كتبهم ، قالوا : كان الناس إذا أصبحوا فى زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا : مَنْ قُتِلَ البارحة ؟ وَمَنْ صُلِبَ ؟ وَمَنْ جُلِدَ ؟ وَمَنْ قُطِعَ ؟ وما أشبه ذلك . وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع ، واتخاذ مصانع^(١) فكان الناس يتساءلون فى زمانه : عن البنيان ، والمصانع ، والضياع ، وشق الأنهار ، وغرس الأشجار ، ولما ولى سليمان بن عبد الملك - وكان صاحب طعام ونكاح - كان الناس يتحدثون ويتساءلون فى الأطعمة الرفيعة ، ويتغالون فى المناكح والسراى ، ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك ! ولما ولى عمر بن عبد العزيز كان الناس يتساءلون : كم تحفظ من القرآن ؟ وكم وُردك كل ليلة ؟ وكم يحفظ فلان ؟ وكم يختم ؟ وكم يصوم من الشهر ؟ وما أشبه ذلك ، فينبغى للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف ويقتدى بهم فى الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك ، فهو لا محالة هالك ، وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل ، أو ملك مقرب ، وقد قيل : إن مثله كمثل الرياح التى يرسلها الله - تعالى - نشرًا بين يدي رحمته ، فيسوق بها السحاب ، ويجعلها لقاحا للثمرات ، وروحا للعباد ، ولو تتبع ما جاء فى العدل والإنصاف ، وفضل الإمام العادل لألفت فى ذلك مجموعا جامعًا لهذا المعنى ، ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يملأ الناظر ، ويسأمه السامع ، وبالله التوفيق ، إلى أقوم طريق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب العشرون

فى الظلم وشؤمه ، وسوء عواقبه ، وذكر الظلمة وأحوالهم ، وغير ذلك

قال الله - تعالى - : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ١٨] وقال - تعالى - : ﴿ وَلَا تَحْسَبِ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢] . قيل : هذا تسلية للمظلوم ، ووعيد للظالم . وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩] . وقال - تعالى - : ﴿ وَسَيَعْلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَنْفَعُ مُنْفَعًا يُنْفَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] . وقال رسول الله ﷺ : « من مشى مع ظالم ليعينه ، وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام »^(٢) . وقال أيضا ﷺ : « رَجِمَ اللَّهُ عَبْدًا كَانَ لِأَخِيهِ قَبْلَهُ مَظْلَمَةٌ فَبِغَضْضِ عَيْنَيْهِ أَوْ مَالٍ فَاتَاهُ فَتَحَلَّلَهُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ مَعَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ »^(٣) . وقال أيضا ﷺ : « مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَوْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا ؟ قَالَ : وَلَوْ كَانَ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكَ »^(٤) . وعن حذيفة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « أوحى الله - تعالى - إلى يا أخا المرسلين ، يا أخا المنذرين ، أنذر قومك فلا يدخلوا بيتا من بيوتى ولأحد من عبادى عند أحد منهم مظلمة ، فإنى ألعنه ما دام قائما يصلى بين يدي حتى يرد تلك الظلمة إلى أهلها فأكون سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويكون من أوليائى وأصفيائى ويكون جارى مع

(١) المصانع : يراد بها المباني من الدور والقصور والحصون والقرى والآبار وغيرها من الأمكنة العظيمة .

(٢) حديث : « من مشى مع ظالم .. إلخ » . قال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ٢٠٥/٤ : « رواه الطبراني فى الكبير » ، وفيه عياش بن مؤنس ، ولم أجد من ترجمه ، وبقيّة رجاله وثقوا ، وفي بعضهم كلام^١ . هـ . والحديث عن أوس بن شرحبيل .

(٣) حديث : « رحم الله عبدا .. إلخ » . أخرجه الترمذى [٢٥٣٤] .

(٤) حديث : « من اقتطع .. إلخ » . أخرجه مسلم [١٣٧] ، وأحمد [٢٦٠/٥] ، والنسائى [٢٤٦/٨] .

النبيين والصديقين ، والشهداء ، والصالحين في الجنة » ^(١) . وعن عليٍّ عليه السلام عن النبي ﷺ : « إياك ودعوة المظلوم ؛ فإنما يسأل الله - تعالى - حقه » ^(٢) . وعنه عليه السلام أنه قال : « ما من عبد ظلم فشخص ببصره إلى السماء إلا قال الله - عز وجل - لبيك عبدى حقا لأنصرتك ولو بعد حين » ^(٣) . وعنه أيضا أنه قال : « ألا إن الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفر ، وظلم لا يترك ، وظلم مغفور لا يطلب ، فأما الظلم الذي لا يغفر ، فالشرك بالله والعباد بالله - تعالى - ، قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ١١٦] وأما الظلم الذي لا يترك ، فظلم العباد بعضهم بعضا ، وأما الظلم المغفور الذي لا يطلب فظلم العبد نفسه » ^(٤) .

ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال : يارب إن جِلمك على الظالمين قد أضرَّ بالمظلومين ، فنام تلك الليلة ، فرأى في منامه أن القيامة قد قامت ، وكأنه قد دخل الجنة ، فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين ، وإذا مناد ينادى : جِلمى على الظالمين ، أحل المظلومين في أعلى عليين .

وقيل : من سَلَبَ نِعْمَةً غيره سَلَبَ نِعْمَتَهُ غيره . وسمع مسلم بن بشار رجلا يدعو على من ظلمه ، فقال له : كل الظالم إلى ظلمه فهو أسرع فيه من دعائك . ويقال : من طال عدوانه ، زال سلطانه . وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم . ورُئي لوح في أفق السماء مكتوب فيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتحت هذا البيت :

فَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْعَدْلِ لِلْمَرْءِ رَافِعًا وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْجَوْرِ لِلْمَرْءِ وَاضِعًا
وقال الشاعر :

كنت الصحيح وكُنا منك في سَقَم فَإِنْ سَقَمْتَ فَإِنَّا السَّالِمُونَ غَدًا
دعت عليك أكف طالما ظلمت وَلَنْ تَرَدَّ يَدُ مَظْلُومَةٍ أَبَدًا

وكان معاوية يقول : إني لأستحي أن أظلم من لا يجد على ناصرا إلا الله . وقال أبو العيئة : كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي دواد ، وقلت : قد تظافروا علي ، وصاروا يدا واحدة . فقال : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠] فقلت له : إن لهم مكرًا فقال : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣] قلت : هم فئة كثيرة فقال : ﴿ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

وقال يوسف بن أسباط : من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه . وعن أبي هريرة عليه السلام قال : قال أبو القاسم عليه السلام : « مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُلْعَنُهُ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ » ^(٥) وقال مجاهد : يسلط الله على أهل النار الجرب ؛ فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام فيقال لهم : هل يؤذيك هذا ؟ فيقولون : إي والله ! فيقال لهم : هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين .

وقال ابن مسعود عليه السلام : لَمَّا كُشِفَ اللَّهُ الْعَذَابَ عَنْ قَوْمِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَرَادَوْا الْمَظَالِمَ بَيْنَهُمْ حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ لِيَقْلَعَ الْحَجَرَ مِنْ أَسَاسِهِ ، فِيرُدَّهُ إِلَى صَاحِبِهِ وَقَالَ أَبُو ثَوْرٍ بْنُ يَزِيدَ : الْحَجَرُ فِي الْبَنِيَانِ مِنْ غَيْرِ جِلَّةٍ عَرَبُونَ عَلَى خَرَابِهِ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : لَوْ أَنَّ الْجَنَّةَ وَهِيَ دَارُ الْبَقَاءِ أَسَسَتْ عَلَى حَجَرٍ مِنَ الظُّلْمِ لَأَوْشَكَ أَنْ تَخْرُبَ ، وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : أَذْكَرُ عِنْدَ الظُّلْمِ عَدْلُ اللَّهِ فَيْكَ ، وَعِنْدَ الْقُدْرَةِ قُدْرَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ، لَا يُعْجِبُكَ رَحْبُ الذَّرَاعِينَ سَفَاكَ الدَّمَاءِ فَإِنْ لَه قَاتِلًا لَا يَمُوت . وقال سحنون ابن سعيد : كان يزيد بن حاتم يقول : مَا هَبْتُ شَيْئًا قَطُّ هَبْتِي مِنْ رَجُلٍ ظَلَمْتَهُ ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ لَا نَاصِرَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ فَيَقُولُ حَسْبُكَ اللَّهُ ، اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ . وقال بلال بن مسعود : اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله .

(١) حديث حذيفة : «أوحى الله تعالى . . إلخ» عزاه المتقي الهندي في كنز العمال برقم [٤٣٦٠٠] إلى أبي نعيم في «الحلية» ، وابن عساكر، والديلمي، عن حذيفة.

(٢) حديث علي : إياك ودعوة المظلوم . . إلخ ضعيف جدًا : أخرجه الخرائطي في «مساوي الأخلاق» برقم [٦٣٩] ط . مكتبة القرآن ، وفي سننه صالح ابن حسان ، متروك انظر : «التقريب» [٣٥٨/١] .

(٣) حديث : «ما من عبد . . إلخ» عزاه المتقي الهندي في «كنزه» [٧٦٤٨] للحاكم في تاريخه ، والديلمي .

(٤) الحديث : «ألا إن الظلم . . إلخ» حسن : أخرجه الطيالسي [١٠/٢٢] ، وأبو نعيم في «الحلية» [٣٠٩/٦] من حديث أنس عليه السلام .

(٥) قال أبو القاسم . . إلخ أخرجه مسلم [٢٦١٦] .

وبكى على بن الفضل يوما ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكى على من ظلمني إذا وقف غدا بين يدي الله - تعالى - ، ولم تكن له حجة . وروى أن النبي ﷺ قال : « يقول الله - تعالى - اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له نصرا غيري »^(١) . ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر : يا سليمان ، اذكر يوم الأذان فنزل سليمان من على المنبر ، ودعا بالرجل ، فقال له : ما يوم الأذان ؟ فقال : قال الله - تعالى - : ﴿ فَاذْنُؤُنَّ يَنْهَمُ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤] قال : فما ظلامتك ؟ قال : أرض لى بمكان كذا وكذا أخذها وكيلك ، فكتب إلى وكيله : ادفع إليه أرضه ، وأرضا مع أرضه . وروى أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب ، يعلمه حتى فاق في العلوم ، فضربه المعلم يوما من غير ذنب ، فأوجعه ، فحقد أنوشروان عليه ، فلما ولي الملك قال للمعلم : ما حملك على ضربى يوم كذا وكذا ظلما ؟ فقال له : لما رأيتك ترغب فى العلم ، رجوت لك الملك بعد أبيك ، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم ، لئلا تظلم ! فقال أنوشروان زه زه^(٢) .

وقال محمد بن سويد وزير المأمون :

فلا تأمنن الدهر حُرًّا ظلمته فما ليل حُرٌّ إن ظلمت بنائم
وروى أن بعض الملوك رقم على بساطه :
لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم مصدره يُفْضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم
وما أحسن ما قال الآخر :

أتهزأ بالدعاء وتزدريه وما تدرى بما صنع الدعاء ؟
سهام الليل نافذة ولكن لها أمد وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربى ويرسلها إذا نفذ القضاء
وقال أبو الدرداء : إياك ودعة اليتيم ، ودعوة المظلوم ، فإنها تسرى بالليل ، والناس نيام . وقال الهيثم بن فراس السامى من بنى سامة بن لؤى فى الفضل بن مروان :

تجبرت يا فضل بن مروان فاعتبر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم أبادهم الموت المشئت والقتل
يريد الفضل بن الربيع ، والفضل بن يحيى ، والفضل بن سهل . ووجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكى رقعة مكتوب فيها :

وَحَقَّ لِلَّهِ إِنَّ الظَّلْمَ لُؤْمٌ وَإِنَّ الظَّلْمَ مَزْتَمُهُ وَخِيمٌ
إِلَى دِيَانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمُضَى وَعِنْدَ اللَّهِ يَجْتَمِعُ الْخَصُومُ
ووجد القاسم بن عبيد الله ووزير المكتفى فى مُصْلَاهُ رَقْعَةً مكتوبًا فيها :

بَغَى وَلِلْبَغَى سِهَامٌ تَنْتَظَرُ أَنْفَذَ فِي الْأَحْشَاءِ مِنْ وَخْزِ الْإِبْرِ
سهام أيدي القانتين فى السَّحَرِ

وقال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يوليه القضاء : ما كنت لألئى هذا بعد ما حدثني إبراهيم ، قال : وما حدثك إبراهيم ؟ قال حدثني عن علقمة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الظلمة ، وأعوان الظلمة وأشياء الظلمة ، حتى من يرى لهم قلما ، أو لاق لهم دواة ، فيجمعون فى تابوت

(١) حديث يقول الله تعالى «اشتد غضبي... إلخ» ضعيف : أخرجه الطبراني فى «الصغير» . [٣١/١] ، والأوسط ، وقال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» . [٢٠٦/٤] : «وفيه مسعر بن الحجاج النهدي ، كذا هو فى الطبراني ، ولم أجده غير مسعر ، بن يحيى الهندي ، ضعفه الذهبي بخبر ذكره له ، والله أعلم» .

(٢) زه : كلمة فارسية تقال عند الاستحسان ، وقد تقال عند الاستهجان تهكمًا وسخرية .

من حديد ، ثم يرمى بهم في نار جهنم ^(١) . وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال : جلس أبى للمظالم يوماً ، فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالساً ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال : نعم . أدنى إليك فأنى مظلوم ، وقد أعوزنى العدل والإنصاف : قال : ومن ظلمك ؟ قال : أنت ولست أصل إليك فأذكر حاجتى ؟ قال : وما يحجبك وقد ترى مجلسى مبدولاً ؟ قال : يحجبنى عنك هييتك ، وطول لسانك ، وفصاحتك ، قال : ففيم ظلمتك ؟ قال : فى ضيعتى الفلانية أخذها وكيلك غصباً منى بغير ثمن ، فإذا وجب عليها خراج أدبته باسمى لثلا يثبت لك اسم فى ملكها ، فيبطل ملكى ، فوكيلك يأخذ غلتها ، وأنا أؤدى خراجها ، وهذا لم يسمع بمثله فى المظالم ، فقال له محمد : هذا قول تحتاج معه إلى بينة وشهود وأشياء ، فقال له الرجل : أيؤمننى الوزير من غضبه حتى أجيب ؟ قال : نعم قد أمتك ، قال : البينة هم الشهود ، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شىء آخر ، فما معنى قولك : بينة وشهود وأشياء ؟ وأى شىء هذه الأشياء ؟! إن هى إلا الجور ، وعدوك عن العدل ! فضحك محمد وقال : صدقت والبلاء موكل بالمنطق ، وإنى لأرى فيك مصطنعاً ، ثم وقع له بردٌ ضيعته ، وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته ، وصيره من أصحابه ، فكان قبل أن يتوصل إلى الإنصاف ، وإعادة ضيعته له ، يقال له : يا فلان : كيف الناس ؟ فيقول بشر بين مظلوم لا يُنصّر ، وظالم لا ينتصر منه ، فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك ورد عليه ضيعته وأنصفه قال له ليلة : كيف الناس الآن ؟ قال : بخير قد اعتمدت معهم الإنصاف ، ورفعت عنهم الإجحاف ، وردت عليهم العُصوب ^(٢) ، وكشفت عنهم الكُروب ، وأنا أرجو لهم بيقائك نيل كل مرغوب ، والفوز بكل مطلوب .

ومما نقل فى الآثار الإسرائيلية فى زمان موسى عليه السلام أن رجلاً من ضعفاء بنى إسرائيل ، كان له عائلة ، وكان صياداً يصطاد السمك ، ويقوّ منه أطفاله وزوجته ، فخرج يوماً للصيد ، فوقع فى شبكته سمكة كبيرة ، ففرح بها ، ثم أخذها ومضى إلى السوق لبيعها ، ويصرف ثمنها فى مصالح عياله ، فلقى بعض العوانية ^(٣) ، فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد ، فرفع العوانى خشبة كانت بيده ، فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة ، وأخذ السمكة منه غصباً بلا ثمن ، فدعا الصياد عليه وقال : إلهى جعلتنى ضعيفاً ، وجعلته قوياً عنيفاً فخذ لى بحقى منه عاجلاً ، فقد ظلمنى ولا صبر لى إلى الآخرة ، ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله ، وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها ، فلما شوتها قدمتها له ، ووضعها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فاهاً ونكرته ^(٤) فى أصبع يده نكرة طار بها عقله ، وصار لا يقربها قراره ، فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده ، وما حلّ به ، فلما رآها قال له : دواؤها أن تقطع الإصبع ، لثلا يسرى الألم إلى بقية الكف ، فقطع أصبعه ، فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد ، وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائضه ، فقال له الطبيب : ينبغى أن تقطع اليد إلى المعصم ، لثلا يسرى الألم إلى الساعد فقطعها ، فانتقل الألم إلى الساعد فما زال هكذا كلما قطع عضواً انتقل الألم إلى العضو الآخر الذى يليه ، فخرج هائماً على وجهه مستغيثاً إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به ، فرأى شجرة فقصدها فأخذها النوم عندها ، فنام فرأى فى منامه قائلاً يقول له : يا مسكين ، إلى كم تقطع أعضائك ؟! امض إلى خصمك الذى ظلمته ، فأرضه ، فانتبه من النوم وفكر فى أمره ، فعلم أن الذى أصابه من جهة الصياد ، فدخل المدينة ، وسأل عن الصياد ، وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه ، وطلب منه الإقالة ^(٥) مما جناه ، ودفع إليه شيئاً من ماله ، وتاب من فعله فرضى عنه خصمه الصياد ، فسكن فى الحال ألمه ، وبات تلك الليلة ، فردّ الله - تعالى - عليه يده كما كانت ، ونزل الوحي على موسى عليه السلام يا موسى : وعزتى وجلالى لولا أن ذلك الرجل أَرْضَى خصمه ، لعذبته مهما امتدت به حياته .

ومما تضمنته أخبار الأخيار : ما رواه أنس رضي الله عنه قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقد عُذْتُ بمجير ، فما شأنك ؟ فقال : سابت بفرسى ابنا لعمر بن العاص - وهو يومئذ أمير على مصر - فجعل يُقْتَعْنى ^(٦) بسوطه ،

(٢) ما أخذ منهم غصباً وعدواناً بالقهر والغلبة بلا ثمن .

(٤) نكرت الدابة الشىء : عضته .

(٦) قنعه بالسوط أو السيف أو العصا : علاه به .

(١) حديث : «إذا كان يوم القيامة . إلخ لم أقف عليه .

(٣) العوانية : الأشداء ممن هم فى منتصف العمر .

(٥) الإقالة : المسامحة والعفو .

ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فبلغ ذلك عمراً أباه فخشى أن آتيك ، فحبسني في السجن ، فانفلت منه ، فهذا الحين أتيتك ، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان ، وقال للمصري : أقم حتى يأتيتك ، فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج ، فلما قضى عمر الحج ، وهو قاعد مع الناس ، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرمى إليه عمر ^(١) بالدرة ، قال أنس ^(٢) : فلقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين . قال : يا أمير المؤمنين ، قد استوفيت واشتفيت ، قال : ضعها على ضلع عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد ضربت الذي ضربني . قال : أما والله لو فعلت ما منعك أحد ، حتى تكون أنت الذي تنزع ، ثم أقبل على عمرو بن العاص ، وقال : يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، فجعل عمرو يعتذر إليه ، ويقول : إنني لم أشعر بهذا .

وقيل : لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه ، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة ^(١) يشكونه إليها فقالت لهم : متى يركب ؟ قالوا : في غد ، فكتبت رقعة ، ووقفت بها في طريقه ، وقالت : يا أحمد يا بن طولون ، فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه ، وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها : ملكتم فأسرتم ، وقدرتم فقهرتم ، وخولتم فعسفتم ، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم . هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة ، لا سيما من قلوب أوجعتموها ، وأكباد جوعتموها ، وأجساد عريتوها ، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم ، اعملوا ما شئتم فإننا صابرون ، وجوروا فإننا بالله مستجيرون ، واطلموا فإننا إلى الله متظلمون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . قال فعدل لوقته .

وحكى : أن الحجاج حبس رجلاً في حبسه ظلماً ، فكتب إليه رقعة فيها قد مضى من بؤسنا أيام . ومن نعيمك أيام ، والموعود يوم القيامة ، والسجن جهنم ، والحاكم لا يحتاج إلى بينة ، وكتب في آخرها :

سَتَعْلَمُ يَا لَوْمُ إِذَا التَّقِيْنَا غَدَا عِنْدَ الْإِلَهِ مَنَ الظُّلُومُ ؟!
أَمَّا وَاللَّهِ إِنْ الظَّلْمَ لُؤْمُ وَمَا زَالَ الظُّلُومُ هُوَ الْمَلُومُ
سَيَنْقَطِعُ التَّلَذُّذُ عَنْ أَنْاسٍ أَدَامُوهُ وَيَنْقَطِعُ النُّعِيمُ
إِلَى دِيَانِ يَوْمِ الدِّينِ نَمْضَى وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى ، قال : كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم ، نصف النهار فنام بعد أن أكل ، فأنبته منزعجاً ، وقال : يا خدام فأسرعنا الجواب ، فقال : ويلكم أعينوني والحقوا بالشط فأول ملاح ترونه منحدراً في سفينة فارغة فاقبضوا عليه ، واتنوني به ووكّلوا بالسفينة من يحفظها ، فأسرعنا فوجدنا ملاحاً في سفينة منحدرة ، وهى فارغة فقبضنا عليه ووكّلنا بها من يحفظها ، وصعدنا به إلى المعتضد فلما رآه الملاح ، كاد يتلف ^(٢) فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها ، وقال : أصدقنى يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التى قتلتها اليوم ، وإلا ضربت عنقك ، فتلعثم ، وقال : نعم كنت سحرّاً فى المشرعة ^(٣) الفلانية ، فنزلت امرأة لم أر مثلاً ، عليها ثياب فاخرة ، وحلى كثير ، وجواهر فطمعت فيها ، واحتلت عليها حتى سددت فمها وغرقتها ، وأخذت جميع ما كان عليها ، ثم طرحتها فى الماء ، ولم أجسر على حمل سلبها ^(٤) إلى دارى لثلا يفشو الخبر على ، فعولت على الهروب والانحدار إلى واسط ^(٥) فصبرت إلى أن خلا الشط فى هذه الساعة من الملاحين ، وأخذت فى الانحدار ، فتعلق بى هؤلاء القوم ، فحملونى إليك فقال : وأين الحلى والسلب ؟ قال : فى صدر السفينة تحت البوارى ، قال المعتضد : على به الساعة فحضروا به ، فأمر بتغريق الملاح ، ثم أمر أن ينادى ببغداد : من خرجت له امرأة إلى

(١) عابدة زاهدة بنت الحسن بن زيد بن الحسين لها مسجد فى القاهرة لقيت ربها سنة [٢٠٩هـ] .

(٢) يتلف : يهلك من الخوف .

(٣) المشرعة : شريعة الماء والموضع الذي يستقى منه بلا رشا حيث شط النهر .

(٤) سلبها : ملابسها وحليها ، وما سلب منه ، وكل ما على القتل فهو «سلب» .

(٥) واسط : مدينة بين الكوفة والبصرة .

المشرعة الفلانية سحرًا ، وعليها ثياب فاخرة وحلى ، فليحضر ؛ فحضر في اليوم الثاني أهلها ، وأعطوا صفتها وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم . قال : فقلت : يا مولاي ، من أعلمك أأوحى إليك بهذه الحالة ، وأمر هذه الصبية ؟ فقال : بل رأيت في منامى رجلاً شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب ، وهو ينادى : يا أحمد ، أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه ، وقرّره على المرأة التي قتلها اليوم ظلماً وسلبها ثيابها ، وأقم عليه الحد ولا يفتك . فكان ما شهدتم .

فيتعين على كل ولي أمر أن يعدل في الأحكام ، وأن يتبصر في رعيته ، وعلى كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ، ويسلك سنن العدل ، ويعامل بالنصفة ، ويراقب الله في السر والعلانية ، ويعلم أن الله يجازى على الخير والشر ، ويعاقب الظالم على ظلمه ، ويتصبر للمظلوم ، ويأخذ له حقه ممن ظلمه ، وإذا أخذ الظالم لم يفلته ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .



الباب الحادي والعشرون

في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال ، وسيرة السلطان
في استجباء الخراج ، وأحكام أهل الذمة، وفيه فصلان

الفصل الأول: في سيرة السلطان في استجباء الخراج^(١) والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى : الخراج عماد الملوك ، وما استعزوا بمثل العدل ، وما استندروا بمثل الظلم ، وأسرع الأمور في خراب البلاد ، تعطيل الأرضين ، وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور ، ومثل السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثل من يقطع لحمه ، ويأكله من الجوع ، فهو إن شيع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى ، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم وجوع ، ومثل من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذي يُطَيّن سطحه بتراب أساس بيته ، وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين ؛ فيتركونها فتخرب الأرض ، ويهرب المزارعون ، فتضعف العمارة ، ويضعف الخراج ، وينتج من ذلك ضعف الأجناد ، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان .

وروى أن المأمون أرق ذات ليلة ، فاستدعى سميرًا يحدثه ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، كان بالموصل بومة ، وبالبصرة بومة ، فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها ، فقالت بومة البصرة : لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعل لي في صداق ابنتي مائة ضيعة خربة ، فقالت بومة الموصل : لا أقدر عليها ، ولكن إن دام والينا - سلمه الله - علينا سنة واحدة فعلت ذلك ! قال : فاستيقظ لها المأمون ، وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض ، وتفقد أمور الولاة والعمال والرعية .

وقال أبو الحسن بن علي الأسدي : أخبرني أبي قال : وجدت في كتاب قبطي ، باللغة الصعيدية ، مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون في زمن يوسف الصديق عليه السلام من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف دينار ، من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد ، كحفر الخلجان ، والإنفاق على

(١) استجباء: جباية وتحصيل حق بيت مال المسلمين من غلة الأرض الزراعية وخراجها.

الجسور ، وسد الترع ، وتقوية من يحتاج إلى التقوية ، من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل ، والتوسعة في البلدان ، وغير ذلك من الآلات ، وأجرة من يستعان به لحمل البذر ، وسائر نفقات تطبيق الأرض ثمانمائة ألف دينار ولما ينصرف للأرامل والأيتام ، وإن كانوا غير محتاجين حتى لا يخلو أمثالهم من بر فرعون أربعمائة ألف دينار ، ولما ينصرف لكهنتهم وبيوت صلاتهم مائتا ألف دينار ، ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا ، وينادي عليه : برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ، ولم يحضر فيحضر لذلك جمع كثير مائتا ألف دينار ، فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمناء فرعون إليه وهناؤه بتفرقة الأموال ، ودعوا له بطول البقاء ، ودوام العز والتعماء والسلامة ، وأنها إلى حال الفقراء ، فيأمر بإحضارهم ، وتغيير شعثهم^(١) ، ويمد لهم السماط ، فيأكلون بين يديه ويشربون ، ويستفهم من كل واحد منهم عن سبب^(٢) فاقته ، فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذي كان له ، ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتب في كل سنة مائتا ألف دينار ، ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك ، ويجعله في بيت المال لنواب الزمان أربعة عشر ألف ألف وستمائة ألف دينار . وقال أبو رهم : كانت أرض مصر أرضا مدبرة^(٣) حتى إن الماء ليجرى تحت منازلها وأفئتها فيحبسونه حيث شاءوا ، ويرسلونه حيث شاءوا وذلك قول فرعون : **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي** [الزخرف: ٥١] . وكان ملك مصر عظيما لم يكن في الأرض أعظم منه ملكا ، وكانت الجنان بحافتي النيل متصلة ، لا ينقطع منها شيء عن شيء ، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد ، وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا لما دبروا^(٤) من جسورها وحافاتها ، والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها وذلك قوله - تعالى - : **كَمْ تَرَكُوا مِّنَ حَبْنٍ وَعَيْونَ** (٥) **وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ** [الدخان: ٢٥-٢٦] . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدييره ، فجعل أهل القرى يسألونه أن يُجرى لهم الخليج تحت قراهم ، ويعطوه مالا فكان يذهب به من قرية إلى قرية من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى القبلة ، ويسوقه كيف أرادوا إلى حيث قصد ، فليس خليج بمصر أكثر عطوفا منه ، فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة فحملها إلى فرعون ، وأخبره بالخبر فقال له فرعون : إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ، ويفض عليهم من خزائنه وذخائره ، ولا يرغب فيما بأيديهم رُدَّ على أهل القرى أموالهم ، فرد عليهم ما أخذه منهم ، فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ، ولا يرجو لقاءه ، ولا يخاف عذابه ، ولا يؤمن بيوم الحساب ، فكيف تكون سيرة من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ويوقن بالحساب والثواب والعقاب !؟

وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله - تعالى - : **أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ** (٦) [يوسف: ٥٥] . قال : هي خزائن مصر . ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام وكمل ، وصارت الأشياء إليه ، وأراد الله - تعالى - أن يعوضه على صبره لما لم يرتكب محارمه ، وكانت مصر أربعين فرسخا في مثلها ، وما أطاع يوسف فرعون ، وهو الريان بن مصعب وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلم ، وكانت السنون التي حصل فيها الغلاء والجوع مات العزيز ، وتملك يوسف وافتقرت زليخا وعمى بصرها ، فجعلت تتكفف الناس فقيل لها : لو تعرضت للملك لعله يرحمك ويعينك ويغنيك ، فطالما كنت تحفظينه وتكرمينه ، ثم قيل لها : لا تفعلين لأنه ربما يتذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس ، فيسئ إليك ، ويكافئك على ما سبق منك إليه فقالت : أنا أعلم بحلمه وكرمه ، فجلست له على رابية في طريقه يوم خروجه ، وكان يركب في زهاء مائة ألف من عظماء قومه ، وأهل مملكته ، فلما أحست به قامت ونادت : سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم ، والعبيد ملوكا بطاعتهم ، فقال يوسف عليه السلام : مَنْ أَنْتِ ؟ فقالت : أنا التي كنت أخدمك بنفسى ، وأرجل شعرك بيدي ، وأكرم مثواك بجهدى ، وكان منى ما كان ، وقد ذقت وبال أمرى ، وذهبت قوتى ، وتلف مالى ، وعمى بصرى ، وصرت أسأل الناس ، فمنهم من يرحمنى ، ومنهم من لا يرحمنى ، وبعد ما كنت مغبوظة أهل مصر كلها ، صرت مرحومتهم ، بل محرومتهم . وهذا جزاء المفسدين . فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديدا ، وقال لها : هل بقى فى قلبك من حبك إياى شيء ؟ قالت : نعم ، والذي اتخذ إبراهيم خليلا لنظرة إليك

(١) تغيير شعثهم : إزالة ما اتسخ من شعرهم وبدنهم استعدادا لحضور مائدة السلطان وسماطه .

(٢) فاقته : فقره .

(٣) مدبرة : صالحة للزراعة ، يعلوها الماء وينحسر عنها .

(٤) دبروا : زرعوا واستصلحوا .

أحب إلي من ملء الأرض ذهباً وفضة ، فمضى يوسف وأرسل إليها يقول : إن كنت أيمًا تزوجناك ، وإن كنت ذات بعل أغنياناك ، فقالت لرسول الملك : أنا أعرف أنه يستهزئ بي ، هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي ، فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟! فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت ، وتزوج بها ، وأدخلت عليه ، فصنف يوسف عليه السلام قدميه ، وقام يصلي ، ودعا الله - تعالى - باسمه العظيم الأعظم ، فردّ الله عليها حسننها وجمالها وشبابها وبصرها كهيتها يوم راودته ، فواقعها ، فإذا هي بكر ، فولدت له : إفرائيم بن يوسف ، ومنشا بن يوسف ، وطاب في الإسلام عيشهما ، حتى فرّق الموت بينهما ^(١) .

فينبغي للقوى أن لا ينسى الضعيف ، وللغنى أن لا ينسى الفقير ، فرب مطلوب يصير طالباً ، ومرغوب فيه يصير راغباً ، ومستول يصير سائلاً ، وراحم يصير مرحوماً ، فنسأل الله - تعالى - أن يرحمنا برحمته ، ويغنينا بفضله . ولما ملك يوسف عليه السلام خزان الأرض كان يجوع ، ويأكل من خبز الشعير ، فقيل له : أتجوع ويملك خزان الأرض ؟! فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع .

ومن حسن سيرة العمال ما روى أن عمر رضي الله عنه استعمل على جمص رجلاً يقال له : عُمَيْرُ بن سعد ، فلما مضت السنة ، كتب إليه عمر رضي الله عنه أن أقدم علينا ، فلم يشعر عمر إلا وقد قدم عليه ماشياً حافياً عكازته بيده ، وإداوته ومزودته ^(٢) وقصعته على ظهره ، فلما نظر إليه عمر قال له : يا عمير ، أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أما نهالك الله أن تجهر بالسوء ، وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدينيا أجزها بقرابها ، فقال له : وما معك من الدنيا ، قال : عكازة أتوكأ عليها ، وأدفع بها عدوا إن لقيته ، ومزود أحمل فيه طعامي ، وإداوة أحمل فيها ماء لشربي ولطهوري ، وقصعة أتوضأ فيها ، وأغسل فيها رأسي ، وآكل فيها طعامي ، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي ، قال : فقام عمر رضي الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وأبى بكر رضي الله عنه فبكى بكاء شديداً ، ثم قال : اللهم ألحقني بصاحبي غير مفتضح ، ولا مبدل ، ثم عاد إلى مجلسه فقال : ما صنعت في عملك يا عمير ، فقال : أخذت الإبل من أهل الإبل ، والجزية من أهل الزمة عن يد وهم صاغرون ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به ! فقال عمر : عُدْ إلى عملك يا عُمَيْرُ ؛ قال : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي ، فأذن له ، فأتى أهله فبعث عمر رجلاً يقال له : حبيب بمائة دينار ، وقال له : اختر لي عُمَيْرًا ، وانزل عليه ثلاثة أيام ، حتى ترى حاله ، هل هو في سعة أم ضيق ؟ فإن كان في ضيق فادفع إليه المائة دينار ، فاتاه حبيب فترى به ثلاثاً فلم ير له عيشاً إلا الشعير والزيت ، فلما مضت ثلاثة أيام قال : يا حبيب إن رأيت أن تتحول إلى جيراننا فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشاً منا فإننا والله ، وتالله لو كان عندنا غير هذا لأثرناك به ، قال : فدفع إليه المائة دينار وقال : قد بعث بها أمير المؤمنين إليك ، فدعا بفرو خلق لامرأته فجعل يصير منها الخمسة دنانير والسيعة ويبعث إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفد ما فقدم حبيب على عمر ، وقال : جئتكم يا أمير المؤمنين من عند أزهد الناس وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير ، فأمر له عمر رضي الله عنه بوسقين ^(٣) من طعام ، وثوبين فقال : يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما ، وأما الوسقان فلا حاجة لي بهما ، عند أهلي صاع من بُر هو كافيهما حتى أرجع إليهم .

وروى أن عمر رضي الله عنه صر أربعمئة دينار ، وقال للغلام : اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم تربص عنده في البيت ساعة ، حتى تنظر ما يصنع بها فذهب بها الغلام إليه وقال له : يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : اجعل هذه في بعض حوائجك . قال : وصله الله ورحمه ، ثم دعا بجاريته ، وقال لها : اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفد ما فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عدّ مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال له : انطلق بها إلى معاذ بن جبل ، وانظر ما يكون من أمره فمضى إليه ، وقال له : كما قال لأبي عبيدة بن الجراح ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة ، فرجع الغلام ، فأخبره عمر . فقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض - رضى الله تعالى عنهم أجمعين - .

(١) يكفينا من قصص الأنبياء ما حدثنا عنه القرآن الكريم ، وجاءت به السنة المطهرة ، أما ما زاد على ذلك فعلمه عند ربي .

(٢) سيأتي تفسير لهذه الأدوات الأربعة في نهاية هذا الحوار .

(٣) الوُسْنُ : مكيكة معلومة ، وهي ستون صاعاً ، والصاع خمسة أرتال وثلاث ، وجمل البعير أو العربة والسفينة .

الفصل الثاني: في أحكام أهل الذمة

روى عن عبد الرحمن بن غنم قال : كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا ، وذرائعنا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حوالينا كنيسة ، ولا ديورا ، ولا قلية^(١) ، ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ولا ما كان مختطا منها في خطط المسلمين في ليل ولا في نهار ، وأن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل ، وأن ننزل من مربنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نؤوى في كنايسنا ولا في منازلنا جاسوسا ولا نكتمه عن المسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شرعنا ، ولا ندعو إليه أحدا ، ولا نمنع أحدا من ذوى قرابتنا الدخول في دين الإسلام إن أراد ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، وأن لا نتشبه بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نتكلم^(٢) بكتابهم ، ولا نركب في السروج ، ولا نتقلد بالسيوف ، ولا نتخذ شيئا من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا نقش على خواتمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمر ، وأن نجزم مقام رءوسنا ونلزم زينا حيثما كنا ، وأن نشد الزنار^(٣) على أوساطنا ، ولا نظهر صلبانا ولا كتبنا في شيء من أسواق المسلمين ، وطرقهم ، ولا نضرب بالنواقيس في كنايسنا إلا ضربا خفيفا ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، ولا نتطلع على منازلهم ، وقد شرطنا ذلك على أنفسنا ، وعلى أهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمنناه على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق ، فكتب إليه عمر رضي الله عنه : أن أمض ما سألوه ، وألحق فيه حرفين^(٤) واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم : أن لا يشتروا شيئا من سبایا المسلمين ، ومن ضرب مسلما عمدا فقد خلع عهده .

وروى أن بنى ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنا قوم من العرب ، افرض لنا . قال : نصارى ؟ قالوا : نصارى . قال : ادعوا إلى حجاجا ففعلوا فجزّ نواصيهم ، وشق من أرديتهم حزما يحترمون بها وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج ، وأن يركبوا على الأكف^(٥) من شق واحد .

وروى أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى ، ولم يستعملهم وأذلهم ، وأبعدهم وخالف بين زعيمهم وزى المسلمين ، وقرب منه أهل الحق ، وأبعد عنه أهل الباطل فأحيا الله به الحق ، وأمات به الباطل فهو يذكر بذلك ، ويترحم عليه ما دامت الدنيا . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لا تستعملوا اليهود والنصارى ، فإنهم أهل رشا في دينهم ، ولا يحل في دين الله الرشا^(٦) .

ولما استقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري رضي الله عنه من البصرة وكان عاملا عليها ، للحساب دخل على عمر ، وهو في المسجد ، فاستأذن لكتابه ، وكان نصرايا فقال له عمر : قاتلك الله وضرب يده على فخذه ، ولت ذميا على المسلمين ، أما سمعت الله - تعالى - يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١] الآية . هلا اتخذت حنيفيا فقال : يا أمير المؤمنين ، لى كتابته ، وله دينه ، فقال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله . وكتب بعض العمال إلى عمر - رضى الله عنه - : إن العدو قد كثر ، وإن الجزية^(٧) قد كثرت ، أفنستعين بالأعاجم ؟ فكتب إليه إنهم أعداء الله ، وإنهم لنا غششة فأنزلوهم

(١) القلية : شبه الصومعة [المعجم الوسيط] .

(٢) الكنى جمع كنية وهي ما بدئ بآب أو أم وفيها تعظيم لمن نخاطبه بقولنا : يا أبا فلان ، ويا أم فلان .

(٣) الزنار : حزام يشده النصراني على وسطه . والجمع زنابير .

(٤) الأكف : جمع إكاف والإكاف : البرذعة توضع على الحمار والبغل .

(٥) الرشا : جمع رشوة وهي ما يعطى لقضاء مصلحة ، أو ما يعطى لإحقاق باطل ، أو إبطال حق .

(٦) الجزية : خراج الأرض ، وما يؤخذ من أهل الذمة .

حيث أنزلهم الله . ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرّة فقال : إني أريد أن أتبعك وأصيب معك ، قال : « أَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؟ » قال : لا . قال : « اَرْجِعْ فَلَنْ نُسْتَعِينَ بِمُشْرِكِكَ » . ثم لحقه عند الشجرة ، قال : جئتكَ لأتبعك ، وأصيب معك ، قال : « أَتُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؟ » قال : لا . قال : « فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكِكَ » . ثم لحقه عند ظهر البيداء ، فقال له مثل ذلك ، فأجابته بمثل الأول . فقال : نعم فخرج به ، وفرح به المسلمون ، وكان له قوّة وجلد^(١) وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بكافر . هذا وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ ويراق دمه ، فكيف استعملهم على رقاب المسلمين . وكتب عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى عمّاله : أن لا تولوا على أعمالكم إلا أهل القرآن ، فكتبوا إليه : إنا قد وجدنا فيهم خيانة ، فكتب إليهم : إن لم يكن في أهل القرآن خير فأجذب أن لا يكون في غيرهم . قال أصحاب الشافعي : ويلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين ، وأن يلبسوا قلانس يميزونها عن قلانس^(٢) المسلمين بالحمرة ، ويشدوا الزنابير على أوساطهم ، ويكون في رقابهم خاتم من نحاس ، أو رصاص ، أو جرس يدخلون به الحمام ، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات^(٣) ، وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الإزار ، وقيل فوق الإزار وهو الأولى ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام ، ويكون أحد خفيها أسود ، والآخر أبيض ، ولا يركبون الخيل ولا البغال ولا الحمير إلا بالأكف عرّضا ، ولا يركبون بالسروج ، ولا يتصدّرون في المجالس ، ولا يبدؤون بالسلام ، ويلجئون إلى أضيق الطرق ويمنعون أن يتطاولوا على المسلمين في البناء ، وتجوز المساواة ، وقيل : لا تجوز وإن تملكوا دار عالية أقروا عليها ، ويمنعون من إظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس ، والجهر بالتوراة والإنجيل ، ويمنعون من المقام في أرض الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة ، وإن امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم ، وإن زنى أحد منهم بمسلمة ، أو أصابها بنكاح ، أو أوى عينا^(٤) للكفار ، أو دل على عورة المسلمين ، أو فتن مسلما عن دينه ، أو قتله ، أو قطع عليه الطريق ، تنتقض ذمته .

وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء ، فمنهم من قال : إنها مقدّرة الأقل والأكثر على ما كتب به عمر ﷺ إلى عثمان بن حنيف بالكوفة ، فوضع على الغني ثمانية وأربعين درهما ، وعلى من دونه أربعة وعشرين درهما ، وعلى من دونه اثني عشر درهما ، وذلك بمحض من الصحابة ﷺ ولم يخالفه أحد ، وكان الصرف اثني عشر دينارا ، وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل ، وأحد قولي الشافعي . ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر ، ولا يجوز أن ينقص عنه ، ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين ، وأما الكنائس بأمر عمر بن الخطاب ﷺ أنه تهدم كل كنيسة بعد الإسلام ، ومنع أن تجدد كنيسة ، وأمر أن لا تظهر عُلية^(٥) خارجة من كنيسة ، ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه ، وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء ، وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين ، وشدد في ذلك عمر بن عبد العزيز ، وأمر أن لا يترك في دار الإسلام بيعة ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة ، والله - تعالى - أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) حديث : لما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر إلخ . أخرجه مسلم [١٨١٧] ، وأحمد [٦٨/٦] ، [١٤٩] .

(٢) القلانس : جمع قلنسوة وهي غطاء الرأس ، أما الزنار فقد سبق بيانه .

(٣) الطيلسانات : جمع طيلسان : كساء من لباس العجم مما يلبسه مشايخنا «العمامة والجبّة والقفطان والكاكولة» .

(٤) عينا للكفار : أي جاسوسا لهم علينا .

(٥) العُلية : بضم العين مع تشديد اللام : الغرفة في الطبقة الثانية من الدار وما فوقها .

الباب الثاني والعشرون

في اصطناع المعروف ، واغاثة الملهوف ، وقضاء الحوائج للمسلمين وإدخال السرور عليهم

قال الله - تعالى - : ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال - تعالى - : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] وقال رسول الله ﷺ : « من مشى في عِزٍّ أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين في سبيل الله » ^(١) وعن أنس رضي الله عنه قال : « الخلق كلهم عيال الله فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله » رواه البزار والطبراني في معجمه ومعنى عيال الله : فقراء الله - تعالى - والخلق كلهم فقراء لله - تعالى - وهو يعولهم .

وروي في مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « خير الناس أنفعهم للناس » وعن كثير ابن عبيد بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس ، آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار ، فإذا كان يوم القيامة وضعت لهم منابر من نور يحدثون الله - تعالى - والناس في الحساب » ^(٢) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من سعى لأخيه المسلم في حاجة فقضيت له أو لم تقض ، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكتب له براءة من النار ، وبراءة من النفاق » ^(٣) وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من قضى لأخيه المسلم حاجة كنت واقفاً عند ميزانه فإن رجح ، وإلا شفعت له » رواه أبو نعيم في الحلية .

وروي في مكارم الأخلاق لأبي بكر الخرائطي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من مشى في حاجة أخيه المسلم ، كتب الله له بكل خطوة سبعين حسنة ، وكفر عنه سبعين سيئة ، فإن قضيت حاجته على يديه ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فإن مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من مشى مع أخيه في حاجة ، فناصره فيها جعل الله بينه وبين النار سبعة خنادق ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض » رواه أبو نعيم وابن أبي الدنيا . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عند أقوام نعماً يقرؤها عندهم ماداموا في حوائج الناس ما لم يملوا فإذا ملوا نقلها الله إلى غيرهم » رواه الطبراني . وروي في طريق الطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد أنعم الله عليه نعمة ، فأسبغها عليه ، ثم جعل حوائج الناس إليه ، فتيروم فقد عرّض تلك النعمة للزوال » وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين حسنة ، واحدة منها يصلح بها آخرته ودينه ، والباقي في الدرجات » ^(٤) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما يقول الأسد في زئيره ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « يقول : اللهم لا تسلطن على أحد من أهل المعروف » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل : يا رسول الله ، أى الناس أحب إليك ؟ قال : « أنفع الناس للناس » ، قيل : يا رسول الله ، فأى الأعمال أفضل ؟ قال : « إدخال السرور على المؤمن » . قيل : وما سرور المؤمن ؟ قال : « إشباع جوعته ، وتنفيس كربته ، وقضاء دينه ، ومن مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه ، ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام ، ومن كف غضبه ستر الله عورته ، وإن الخلق السيئ يفسد العمل ،

(١) حديث : « من مشى » . إلخ . عزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » [١٦٤٦٦] لابن النجار من رواية علي .

(٢) حديث « إن لله خلقاً » . إلخ . موضوع : أخرجه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » برقم [٩٤] ، وفيه داود بن المحبر ، متهم بوضع الحديث ، والحديث مرسل من مراسيل الحسن البصري .

(٣) « من سعى لأخيه المسلم » . إلخ . موضوع : انظر : « الفوائد المجموعة » للشوكاني [ص ٨٤] .

(٤) « من أغاث ملهوفاً » إلخ . ضعيف : أخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » [٣/ ٣٥٠] ، وابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » برقم [٢٩ ، ٩٦] . وانظر : « السلسلة الضعيفة » برقم [٦٢١ ، ٧٥٠] .

كما يفسد الخل العسل»^(١). وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسرّه بذلك ، سرّه الله يوم القيامة » رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن . وروى عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له سروراً دون الجنة » . رواه الطبراني ، وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أدخل رجل على مؤمن سروراً إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله - تعالى - ويوحده ، فإذا صار العبد في قبره أتاه ذلك السرور فيقول له : أما تعرفني ؟! فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا السرور الذي أدخلتني على فلان ، أنا اليوم أؤانس وحشتك ، وألقنك حجتك ، وأثبتك بالقول الثابت ، وأشهد مشاهدك يوم القيامة ، وأشفع لك إلى ربك ، وأريك منزلك في الجنة » رواه ابن أبي الدنيا .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرفعه : « إذا أراد أحدكم الحاجة فليكر لها يوم الخميس ، وليقرأ إذا خرج من منزله ، آخر سورة آل عمران ، وآية الكرسي ، وإنا أنزلناه في ليلة القدر ، وأم الكتاب ، فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة »^(٢) . وهو حديث مرفوع . ومن كلام الحكماء : إذا سألت كريماً حاجة ، فدعه يفكر ، فإنه لا يفكر إلا في خير ، وإذا سألت لثيماً حاجة ، فعاجله لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل . وسأل رجل رجلاً حاجة ثم توانى عن طلبها فقال له المستول : أنمت عن حاجتك ؟ فقال : ما نام عن حاجته من أسهرك لها ، ولا عدل بها عن محجة النجاح من قصدك بها ، فعجب من فصاحته ، وقضى حاجته ، وأمر له بمال جزيل . وقال مسلمة لثصيب : سئلت فقال : كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة ، فأمر له بألف دينار . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : فوّث الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها ، وعنه أيضاً قال : لا تكثر على أخيك الحوائج ، فإن العجل إذا أفرط في مصّ ثدى أمّه نطحته . وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس : ما أدري ما أصنع بكثرة الطلاب ؟! فقال : زلّ عن موضعك ، وعلى أن لا يلقاك منهم أحد ! فقال له : صدقت . وجلس لهم في قضاء حوائجهم . وحدث أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي قال : عرضت على أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات رقعة في حاجة لي ، فقرأها ووضعها من يده ، ولم يوقع فيها بشيء فأخذتها ، وقمت وأنا أقول متمثلاً من حيث يسمع هذين البيتين :

وإذا خطبت إلى كريم حاجةً وأبى فلا تعقد عليه بحاجب
فلربما منع الكريم وما به بخل ولكن سوء حظ الطالب

فقال وقد سمع ما قلت : ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب ، ولكن إذا سألتهمونا الحاجة ؛ فعاودونا فإن القلوب بيد الله - تعالى - فأخذ الرقعة ، ووقع فيها بما أردت . وسأل إسحاق بن ربيع إسحاق بن إبراهيم المصعبي أن يوصل له رقعة إلى المأمون ، فقال لكتابه ضمها إلى رقعة فلان فقال :

تأن لحاجتي واشدّ عَراها فقد أضحت بمنزلة الضياع
إذا شاركتها بلبان أخرى أضربها مشاركة الرضاع

وقال أبو دقاقة البصري :

أضحت حوائجنا إليك مُناخةً معقولةً برحابك الوصال
أطلق - فديتك - بالنجاح عقالها حتى تشور معاً بغير عقال

وقال سلم الخاسر :

إذا أذن الله في حاجة أذاك النجاح على رسله
فلا تسأل الناس من فضلهم ولكن سل الله من فضله

ولله در القائل حيث قال :

(١) حديث : « قيل يا رسول الله ! إلخ . ضعيف : أخرجه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » برقم [٣٦] ، والأصبهاني في « الترغيب والترهيب » برقم [١١٣٥] ، وفي سنده مسكين بن سراج ، ضعيف .

(٢) حديث علي : « إذا أراد أحدكم الحاجة » . إلخ . انظر : « تنزيه الشريعة » لابن عراق [٣٠٩/١] .

أيها المادخ العباد ليغظي إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم وارج فرض المقسم الجواد

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين عليه السلام قال : أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال : إذا كانت لك حاجة إلى فأرسل إلى رسولاً أو اكتب لي كتاباً فإنني لأستحي من الله أن يراك يبأي . وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : والذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله - تعالى - من ذلك السرور لطفاً فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه كما تُطردُ غريبة الإبل . وقال لجابر بن عبد الله الأنصاري عليه السلام يا جابر ، من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه ، فإن قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء ، وإن لم يبق فيها بما يجب لله عرضها للزوال . نعوذ بالله من زوال النعمة ، ونسأله التوفيق والعصمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .



الباب الثالث والعشرون

في محاسن الأخلاق ومساوئها

قال الله - تعالى - لنبيه عليه السلام : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] فخص الله - تعالى - نبيه عليه السلام من كريم الطباع ، ومحاسن الأخلاق من الحياء والكرم ، والصفح ، وحسن العهد ، بما لم يؤته غيره ، ثم ما أثنى الله - تعالى - عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق ، فقال - تعالى - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها : « كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ ، يَغْضَبُ لِفَضْبِهِ ، وَيَرْضَى لِرِضَاؤِهِ ^(١) . وكان الحسن عليه السلام إذا ذكر رسول الله عليه السلام قال : أكرم ولد آدم على الله - عز وجل - أعظم الأنبياء عليهم السلام منزلة عند الله ، أتى بمفاتيح الدنيا ، فاختار ما عند الله - تعالى - ، وكان يأكل على الأرض ، ويجلس على الأرض ويقول : « إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » ، ولا يأكل متكئاً ، ولا على خوان وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل القثاء بالرطب ويقول : « برد هذا يطفى حر هذا » وكان أحب الطعام إليه اللحم ، ويقول : « هذا يزيد في السمع ، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل » ، وكان يحب الدباء ^(٢) ويقول : « يا عائشة إذا طبختم قدرًا فأكثروا فيه من الدباء فإنها تشد قلب الحزين » ، وكان يقول : « إذا طبختم الدباء فأكثروا من مرقها » ، وكان يكتحل بالإثمد ^(٣) ، ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن ، والكحل ، والمرأة ، والمشط ، والإبرة ، يخطط ثوبه بيده . وكان يضحك من غير قهقهة ويرى اللعب المباح ، ولا ينكره . وكان يسابق أهله . قالت عائشة رضي الله عنها : سابقته فسبقته ، فلما كثر لحمي سابقته فسبقني فضرب بكتفي وقال : « هذه بتلك » ^(٤) وكان له عبيد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب ولا ملبس ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل والصحارى يتيمًا لا أب له ولا أم ، فعلمه الله - تعالى - جميع محاسن الأخلاق ، وكان أفصح الناس منطقًا وأحلامهم كلامًا ، وكان يقول : « أنا أفصح الغرب » ^(٥) . وقال أنس رضي الله عنه : والذي بعثه بالحق نبياً ما

(١) حديث عائشة : « كان خلقه القرآن » . إلخ . أخرجه مسلم [١٣٩/٧٤٦] ، مقتصرًا على قوله : « كان خلق رسول الله عليه السلام القرآن » وانظر : « كنز العمال » للهندي [١٨٧١٨] .

(٢) الدباء : بتشديد الدال المضمومة ، وتشديد الباء المفتوحة ، أي القُرْع .

(٣) الإثمد : عنصر معدني بلوري الشكل ، قصديري اللون ، يوجد في حالة نقية ، وغالبًا متحدًا مع غيره من العناصر ، يكتحل به .

(٤) الوفا بأحوال المصطفى ج٢ لابن الجوزي الباب الحادي عشر .

(٥) « وكان الحسن » إلخ . ارجع إلى ابن كثير في البداية والنهاية والمواهب اللدنية ، وابن هشام ، وأبي نعيم في الحلية .

قال لى فى شىء قط كرهه لم فعلته ^(١)؟ ولا فى شىء لم أفعله لم لا فعلته ؟ ولا لامنى أحد من أهله إلا قال : « دعوه إنما كان هذا بقضاء وقدر » وقال بعض مشايخنا رحمهم الله - تعالى - لا مانع من أن النبى ﷺ إذا هضم نفسه ، وتواضع لا يمنع من المرتبة التى هى أعلى مرتبة من العبودية ، فالنبى ﷺ أعطاه الله - تعالى - مرتبة الملك مع كونه عبدًا له متواضعًا ، فحاز المرتبتين : مرتبة العبودية ، ومرتبة الملكية ، ومع ذلك كان يلبس المرقع ، والصوف ويرقع ثوبه ، ويخصف ^(٢) نعله ، ويركب الحمار بلا إكاف ^(٣) ، ويؤدب خلقه ، ويأكل الخشن من الطعام ، وما شيع قط من خبز بر ثلاثة أيام متوالية ، حتى لقى الله - تعالى - من دعاه لباه ، ومن صافحه لم يرفع يده حتى يكون هو الذى يرفعها ، يعود المريض ، ويتبع الجنائز ، ويجالس الفقراء أعظم الناس من الله مخافة ، وأتبعهم لله - عز وجل - بدنا وأجدهم فى أمر الله لا تأخذه فى الله لومة لائم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أما والله ما كانت تغلق من دونه الأبواب ، ولا كان دونه حجاب ﷻ .

وقالت عائشة رضي الله عنها : « مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ امْرَأَةً قَطُّ ، وَلَا خَادِمًا لَهُ ، وَلَا ضَرَبَ بِيَدِهِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَلَا خَيْرَ يَنْ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ إِثْمًا أَوْ قِطِيعَةً رَحِمَ ، فَيَكُونَ أَبْعَدُ النَّاسِ مِنْهُ » ^(٤) .

وقال إبراهيم بن عباس لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجحت وهى قوله ﷺ : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعواهم بأخلاقكم » ^(٥) . وفى رواية أخرى : « فسعواهم بيسط الوجه والخلق الحسن » . وعنه ﷺ : « حسن الخلق زمام من رحمة الله - تعالى - فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الملك ، والملك يجره إلى الخير ، والخير يجره إلى الجنة . وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى فى أنف صاحبه ، والزمام بيد الشيطان والشيطان يجره إلى الشر ، والشر يجره إلى النار » ^(٦) . وقال بعض السلف : الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب ، والسئى الخلق أجنبى عند أهله . وقال الفضيل : لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إلى من أن يصحبني عابد سئى الخلق ، لأن الفاجر إذا حسن خلقه خف على الناس ، وأحبوه ، والعابد إذا ساء خلقه مقتوه :

إذا رام التَّخَلُّقَ جاذبته خلأته إلى السَّطْبَعِ القديم !

قيل : أبى الله لسئى الخلق التوبة ، لأنه لا يخرج من ذنب إلا دخل فى ذنب آخر لسوء خلقه ! وعن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شىء لم يقل : ما بال فلان ؟ ! ولكن يقول : « ما بال أقوام يقولون حتى لا يفضح أحدا » ^(٧) وعنه ﷺ : « ما شئٌ فى الميزان أثقل من حسن الخلق » ^(٨) . وعنه أيضا ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه كن له : من صدق لسانه زكا عمله ، ومن حسنت نيته زيد فى رزقه ، ومن حسن بره لأهل بيته زيد له فى عمره » ، ثم قال : « وحسن الخلق ، وكف الأذى يزيدان فى الرزق » ^(٩) . وقيل : سوء الخلق يُعدى لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله .

وكتب الحسن بن على إلى أخيه الحسين ﷺ فى إعطائه الشعراء فكتب إليه الحسين أنت أعلم منى بأن خير المال ما وقى به العرض ، فانظر إلى شرف أدبه وحسن خلقه ، كيف ابتداء كتابه بأنت أعلم منى . وكان بينه وبين أخيه كلام فقل له : ادخل على أخيك فهو أكبر منك ، فقال : إني سمعت جدى رسول الله ﷺ يقول : « أيما اثنين جرى بينهما كلام

(١) حديث أسن : «والذي بعثه بالحق .. إلخ» قريبا منه ما أخرجه البخاري [١٩٧٣ ، ٢٧٦٨] ، ومسلم [٢٣٩٠] ، وغيرهما من حديثه . أما لفظنا هذا ، فأخرجه أبو الشيخ فى أخلاق النبى ﷺ [ص ٣٥] ، بسند ضعيف .

(٢) خصف نعله : أى خرزها بالخصف .

(٣) الإكاف : البرذعة ، والجمع أكاف .

(٤) حديث عائشة رضي الله عنها : «ما ضرب رسول الله ﷺ .. إلخ» هذا الحديث مكون من حديثين ، الأول ينتهي عند قوله .. سبيل الله أخرجه مسلم [٢٣٢٨] ، وغيره ، والثاني ، أخرجه البخاري [٣٥٦٠ ، ٦١٢٦] ، ومسلم [٢٣٢٧] ، وكلاهما من حديث عائشة .

(٥) حديث : «إنكم لم تسعوا الناس» .. إلخ أخرجه الحاكم [١٢٤/١] ، وأبو نعيم فى الحلية [١٠/٢٥] .

(٦) حديث : «حسن الخلق زمام» .. إلخ ضعيف : أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان برقم [٨٠٣٧] ، وضعفه ، وهو من حديث أبي موسى الأشعري .

(٧) حديث عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا بلغه .. إلخ أخرجه البخاري [٦١٠١] ، ومسلم [ج ٢ برقم ١٢٧-١٢٨] فى كتاب الفضائل بنحوه .

(٨) «ما شئٌ أثقل فى الميزان» .. إلخ صحيح : أخرجه الترمذي [٢٠٠٢] عن أبي الدرداء ، وكذا أبو داود [٤٧٩٩] .

(٩) ثلاث من كن فيه كن له : لم أهد إلى من خرجه .

فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة «^(١)». وأنا أكره أن أسبق أخى الأكبر إلى الجنة فبلغ ذلك الحسن فجاءه عاجلاً  وأنشد في المعنى :

وإني لألقى المرء أعلم أنه عدو وفي أحشائه الضغن كامن
فأمنحه بشراً فيرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه الضغائن

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان جوهرة نفيسة ، وباعها بمال جزيل ، فأنفذ إلى الجوهريين بصفتها ، فقالوا :
باعها فلان من مدة ، ثم إن ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليه ، وأحضر بين يدي جعفر ، فلما رأى ما ظهر عليه قال
له : أراك قد تغير لونك ، ألسنت يوم كذا طلبت مني هذه الجوهرة فوهبتها لك ؟ وأقسم بالله لقد أنسيت هذا ، ثم أمر
للجوهري بثمانها ، وقال للرجل : خذها الآن حلالاً طيباً ، وبعها بالثمن الذي يطيب خاطرك به لا تبع بيع خائف !
ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تبسم ، فقال لها المأمون : مم تضحكين ؟
فقال ابن عباد ، أنا أخبرك يا أمير المؤمنين ، تتعجب من قبحي ، وإكرامك إياي ، فقال : لا تعجبي فإن تحت هذه
العمامة كرمًا ومجدًا. قال الشاعر :

وهل ينفع الفتیان حُسن وجُوههم إذا كانت الأغراض غير جسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كل مصقول الحديد يمانى

وحكى : أن بهرام الملك خرج يوماً للصيد ، فانفرد عن أصحابه ، فرأى صيدا فتبعه طامعاً في لحاقه ، حتى بعد
عن عسكريه ، فنظر إلى راعٍ تحت شجرة ، فنزل عن فرسه ليول ، وقال للراعي : احفظ على فرسي حتى أبول فعمد
الراعي إلى العنان ، وكان ملبساً ذهباً كثيراً ، فاستغفل بهرام ، وأخرج سكيناً فقطع أطراف اللجام ، وأخذ الذهب الذي
عليه ، فرفع بهرام نظره إليه فرآه فغض بصره ، وأطرق برأسه إلى الأرض ، وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته ،
ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه ، وقال للراعي : قدّم إلى فرسي ، فإنه قد دخل في عيني من سافى الريح فلا أقدر
على فتحهما ، فقدمه إليه فركب وسار إلى أن وصل إلى عسكريه ، فقال لصاحب مراكبه : إن أطراف اللجام قد وهبتها ،
فلا تتهم بها أحداً .

وذكر أن أنوشروان : وضع المواعيد للناس في يوم نوروز ، وجلس ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان ، فلما
فرغوا من الطعام جاءوا بالشراب ، وأحضرت الفواكه والمشموم في آنية الذهب والفضة ، فلما رفعت آنية المجلس أخذ
بعض من حضر جام ذهب^(٢) وزنه ألف مثقال ، وخبأه تحت ثيابه ، وأنوشروان يراه ، فلما فقد الشرابي^(٣) صاح
بصوت عال : لا يخرج أحد حتى يفشش ، فقال كسرى : ولم ؟ فأخبره بالقضية فقال : وقد أخذه من لا يردّه ، ورآه
من لا ينم عليه ، فلا تفتش أحداً ، فأخذ الرجل الجام ومضى فكسره ، وصاغ منه منطقة وجليه لسيفه ، وجدد له كسوة
جميلة ، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك ، ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية فدعاه كسرى ، وقال له : هذا من
ذاك فقبل الأرض وقال : نعم أصلحك الله .

وقال عبد الله بن طاهر : كنت عند المأمون يوماً فنادى بالخدام يا غلام ، فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانياً وصاح :
يا غلام ، فدخل غلام تركي ، وهو يقول : ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب ، كلما خرجنا من عندك تصيح :
يا غلام ، يا غلام إلى كم يا غلام !! فنكس المأمون رأسه طويلاً ، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه ، ثم نظر إلى
فقال : يا عبد الله ، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه ، وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه ،
وإننا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا . وقال ابن عباس  : ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان
المدينة واليا ، وكان وجهه ورقة من ورق المصحف ، فوالله ما ترك فينا فقيراً إلا أغناه ، ولا مديوناً إلا أدى عنه دينه ،

(١) «أيما اثنين جرى بينهما».. إلخ لم أقف عليه .

(٢) الجام : إناء للشراب والطعام من فضاة أو نحوها وهي مؤنثة .

(٣) الشرابي : من يقدم الشراب .

وكان ينظر إلينا بعين أرقٍّ من الماء ، ويكلمنا بكلام أحلى من الجنى ^(١) ، ولقد شهدت منه مشهدًا لو كان من معاوية لذكرته ، تغدينا يوما عنده ، فأقبل الفراش بصحفة ، فغثر في وسادة ، فوقعت الصحيفة من يده ، فوالله ما ردها إلا ذقن الوليد ، وانكب جميع ما فيها في حجره ، فبقى الغلام متمثلا واقفا ما معه من روحه ، إلا ما يقيم رجله فقام الوليد فدخل فغَيَّر ثيابه وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته ، فأقبل على الفراش وقال : يا بأش ، ما أَرانا إلا رَوْعناك اذهب فأنت وأولادك أحرار لوجه الله - تعالى - .

ومرض أحمد بن أبي دواد ، فعاده المعتصم ، وقال : نذرت إن عافاك الله - تعالى - أن أتصدق بعشرة آلاف دينار ، فقال له أحمد : يا أمير المؤمنين ، فاجعلها في أهل الحرمين ، فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة ، فقال : نويت أن أتصدق بها على من ههنا ، وأطلق لأهل الحرمين مثلها ، فقال أحمد : متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين ، فإنك كما قال النيرى لأبيك الرشيد - رحمة الله تعالى عليه - :

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَغْرُوفَ أَوْدِيَّةٌ أَحْلَكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ اللَّهِ مَعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ

وقيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت حسن الخلق ؟ فقال : من قيس بن عاصم ، بينما هو ذات يوم جالس في داره إذ جاءته خادم له بسَقُود ^(٢) عليه شواء حار ، فترعت السفود من اللحم ، وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقته ، فدهشت الجارية ، فقال : لا رَوْعَ عليك ! أنت حرة لوجه الله - تعالى - .

وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى أحدا من عبيده يُحسن صلاته يَغْتَفُّهُ ، فعرفوا ذلك من خلقه فكانوا يحسنون الصلاة مراعاة له ؛ فكان يعتقهم فليل له ذلك : فقال : من خدعنا في الله انخدعنا له ! وروى أن أبا عثمان الزاهد ، اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة فألقى من فوق سطح طست رمد ، فتغير أصحابه ، وبسطوا ألبستهم في الملقى للرماد ، فقال أبو عثمان : لا تقولوا شيئا ، فإن من استحق أن يُصَبَّ عليه النار ، فصولح بالرماد لم يجز له أن يغضب .

وقيل لإبراهيم بن أدهم - تغمده الله تعالى برحمته - هل فرحت في الدنيا قط ؟ قال : نعم مرتين : إحداهما أني كنت قاعداً ذات يوم ، فجاء إنسان فبال عليّ ، والثانية كنت جالسا ، فجاء إنسان فصفعني . وروى أن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه دعا غلاما له فلم يجبه ، فدعاه ثانيا وثالثا ، فرآه مضطجعا ، فقال : أما تسمع يا غلام !؟ قال : نعم . قال : فما حملك على ترك جوابي ؟ قال : أَمِنْتُ عَقوبَتَكَ ، فتكاسلت ، فقال : اذهب فأنت حر لوجه الله - تعالى - .

وحكى : أن أبا عثمان الحيرى دعاه إنسان إلى ضيافة ، فلما وافى باب الدار قال له الرجل : يا أستاذ ليس لى وجه فى دخولك ، فانصرف - رحمك الله - فانصرف أبو عثمان ، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه ، وقال : يا أستاذ ندمت ، وأخذ يعتذر له ، وقال : احضر الساعة ، فقام معه ، فلما وافى داره ، قال له مثل ما قال فى الأولى ، ثم فعل به ذلك أربع مرات وأبو عثمان ينصرف ويحضر ، ثم قال له : يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك ، والوقوف على أخلاقك ثم جعل يعتذر له ويمدحه ، فقال أبو عثمان : لا تمدحنى على خلق تجده فى الكلاب ، فإن الكلب إذا دعى حضر ، وإذا رُجِرَ انزجر .

وقال الحارث بن قُصَي : يعجبني من القراء كل فصيح مضحك ، فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس ، فلا كثر الله فى المسلمين مثله . ومن محاسن الأخلاق ما حكى عن القاضى يحيى بن أكثم قال : كنت نائما ذات ليلة عند المأمون ، فغطش ، فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه ، وأنا نائم فينقص على نومى ، فرأيت ، وقد قام يمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء ، وبينه وبين المكان الذى فيه الكيزان نحو ثلثمائة خطوة ، فأخذ منها كوزا فشرب ، ثم رجع يمشى على أطراف أصابعه ، حتى قرب من الفراش الذى أنا عليه ، فخطا خطوات خائف ، لئلا ينهينى حتى صار إلى فراشه ، ثم رأيته آخر الليل قام يبول ، وكان يقوم فى أوّل الليل وآخره ، فقعد طويلا يحاول أن أتحرّك فيصيح

(١) الجنى : ما يُجنى الله من الشجر ، والعسل .

(٢) سَقُود : عود من حديد يشوى عليه اللحم .

بالغلام ، فلما تحرّكت وثب قائما ، وصاح يا غلام ، وتأهب للصلاة ، ثم جاءني فقال لي : كيف أصبحت يا أبا محمد ؟ وكيف كان مبيتك ؟ قلت : خير مبيت - جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين - قال : لقد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصبح بالغلام ، فأزعجتك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد خصك الله - تعالى - بأخلاق الأنبياء ، وأحب لك سيرتهم ، فهناك الله - تعالى - بهذه النعمة ، وأنمها عليك ، فأمر لي بألف دينار فأخذتها ، وانصرفت . قال : وبت عنده ذات ليلة فانتبه - وقد عرض له السعال - فجعلت أرمقه وهو يحشو فمه بكم قميصه ، يدفع به السعال ، حتى غلبه فسل ، وأكب على الأرض لثلا يعلو صوته ، فأنته .

قال يحيى : وكنت معه يوما في بستان ، ندور فيه ، فجعلنا نمر بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ، ويقول لقيّم البستان : أصلح هذا الحوض ، ولا تغرس في هذا الحوض شيئا من البقول . قال يحيى : ومشينا في البستان ، من أوله إلى آخره ، وكنت أنا مما يلي الشمس ، والمأمون مما يلي الظل ، فكان يجذبني أن أتحوّل أنا في الظل ، ويكون هو في الشمس ، فأمتنع من ذلك ، حتى بلغنا آخر البستان ، فلما رجعنا ، قال : يا يحيى والله لتكونن في مكاني ، ولأكونن في مكانك ، حتى آخذ نصيبي من الشمس ، كما أخذت نصيبك وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، لو قدرت أن أفيك يوم الهول بنفسى لفعلت ، فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل ، وتحول هو إلى الشمس ، ووضع يده على عاتقي وقال : بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف . فانظر إلى أخلاقهم ﷺ ما أحسنها ! وإلى أفعالهم ما أزينها ! نسأل الله - تعالى - أن يحسن أخلاقنا ، وأن يبارك لنا في أرزاقنا ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الرابع والعشرون

في حسن المعاشرة والمودة ، والأخوة ، والزيارة وما أشبه ذلك

اعلم أن المودة والأخوة ، والزيارة سبب التآلف ، والتآلف سبب القوة ، والقوة سبب التقوى ، والتقوى حصن منيع ، وركن شديد بها يمنع الضيم ، وتنال الرغائب ، وتنجح المقاصد ، وقد من الله - تعالى - على قوم ، وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء ، وردّها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء ، فقال - تعالى - : ﴿ وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] . ووصف نعيم الجنة ، وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة إذ جعلهم إخوانا على سرر متقابلين^(١) ، وقد سنّ رسول الله ﷺ الإخاء وندب إليه ، وأخى بين الصحابة ﷺ وقد ذكر الله - تعالى - أهل جهنم ، وما يلقون فيها من الألم إذ يقولون : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿ [الشعراء: ١٠٠-١٠١] . وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ : الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين ، وأنشدوا في ذلك :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا بِإِخْوَانِهِ كَمَا يَقْبِضُ الْكَفُ بِالْمِغْصَمِ
وَلَا خَيْرَ فِي الْكَفِ مَقْطُوعَةً وَلَا خَيْرَ فِي السَّاعِدِ الْأَجْذَمِ^(٢)

وقال زياد : خير ما اكتسب المرء الإخوان ، فإنهم معونة على حوادث الزمان ، ونوابه الحداث^(٣) ، وعون في السراء والضراء ، ومن كلام عليّ ﷺ :

عَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الصَّفَاءِ فَإِنَّهُمْ عِمَادُ إِذَا اسْتَنْجَدْتَهُمْ وَظُهُورُ

(١) كما جاء في الآية رقم [٤٧] من سورة الحجر : ﴿ وَزَعَمْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ .

(٢) الحداث : الليل والنهار .

(٣) الأجذم : المقطوع .

وإن قليلا ألف خل وصاحب وإن عدوا واحدا لكثير
وقال الأوزاعي : الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب إن لم تكن مثله شاته . وقال عبد الله بن طاهر : المال غاد
ورائح ، والسلطان ظل زائل ، والإخوان كنوز وافرة . وقال المأمون للحسن بن سهل : نظرت في اللذات ، فوجدتها
كلها مملولة سوى سبعة ؛ قال : وما السبعة يا أمير المؤمنين ؟ قال : خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد ،
والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش الوطء ، والنظر إلى الحسن من كل شيء . قال : فأين أنت يا أمير
المؤمنين من محادثة الرجال ؟ قال : صدقت وهي أولاًهن .

وقال سليمان بن عبد الملك : أكلت الطيب ، ولبست اللين ، وركبت الفاره ، وافتضضت العذارى ، فلم يبق
من لذاتي إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ . وكذلك قال معاوية عليه السلام : نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة
وحائط ، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمره ، وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء ، وركبت المطايا حتى
اخرت نعلى ، ولبست الثياب حتى البياض ، فما بقى من اللذات ما تتوق إليه نفسى إلا محادثة أخ كريم ، وأنشدوا
في معنى ذلك :

وما بقيت من اللذات إلا وقد كُنا نعدهم قليلا
وقال لبيد :

ما عاتب المرء اللبيب كنفه
وقال آخر :

إذا ما أتت من صاحب لك زلة
وقيل لابن السماك : أى الإخوان أحق ببقاء المودة ؟ قال : الوافر دينه ، الوافى عقله ، الذى لا يملك على
القرب ، ولا ينسلك على البعد ، إن دنوت منه دانك ، وإن بعدت عنه راعاك ، وإن استعنت به عضدك ، وإن احتجت
إليه رفدك ، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله ، وأنشدوا في المعنى :

إن أخاك الصّدق من يسعى معك
وقال غيره :

وليس أخى من ودنى بلسانه
وقال أبو تمام :

ومن لى بإنسان إذا أغضبته
وتراه يصغى للحديث بطرفه

وقيل لخالد بن صفوان : أتى إخوانك أحب إليك ؟ قال : الذى يسدّ خلتي ^(١) ، ويغفر زلّتى ، ويُقبل عثرتى .
وقيل : من لا يؤاخى إلا من لا عيب فيه ، قلّ صديقه ، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام
سخطه ، ومن عاتب على ذنب ضاع عتبه ، وكثر تعبه ، قال الشاعر :

ومن لم يغمض عينه عن صديقه
وقال آخر :

إذا كُنت فى كل الأمور مُعاتبا
صديقك لم تلق الذى لا تُعاتبه

(١) الخلّة : بفتح الخاء وتشديد اللام المفتوحة ، المقصود بها : الحاجة والفقر ، ويقال في الدعاء للميت : «اللهم اسدّد خلّته» .

وإن أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربته^(١) ؟
وقالوا : إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه ، أو خلة لا تحبها ، فلا تقطع حبله ، ولا تصرم وده ، ولكن داو كلمته ، واستر عورته ، وأبقه وابراً من عمله .

قال الله - تعالى - : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٦] . فلم يأمره بقطعهم ، وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيئ . قال : ﴿ الْأَرْوَاحُ أَجْنَادُ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَازَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ ﴾^(٢) . وقال : ﴿ إِنَّ رُوحِي مُؤْمِنِينَ لِيَلْتَقِيَانِ مِنْ مَسِيرَةِ يَوْمٍ ، وَمَا زَأَى أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ﴾^(٣) . وفي ذلك قال بعضهم :

هويتكم بالسمع قبل لقائكم وسمعت الفتى يهوى لعمرى كظرفه
وخبرت عنكم كل جود ورفعته فلما التقينا كنتم فوق وصفه
وقال آخر :

تبسم الثغر عن أوصافكم فغداً من طيب ذكركم نشرأ فأحياناً
فمن هناك عشقناكم ولم نركم والأذن تعشق قبل العين أحياناً
ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حباً لصاحبه ، ما زار أخ أخاً في الله شوقاً إليه ، ورغبة في لقائه ، إلا نادته ملائكة من ورائه ، طبت وطابت لك الجنة . وقالوا : ليس سرور يعدل لقاء الإخوان ، ولا غم يعدل فراقهم . وقالوا : شر الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة . وقالوا : إن من الوفاء أن تكون لصديق صديقك صديقاً ، ولعدو صديقك عدواً . وقالوا : أعجب الأشياء ود من يهودى ، وحفظ من نصراني ، ورياضة من دهرى^(٤) ، وكرم من أعجمي ، والحذر من الكريم إذا أهنته ، واللئيم إذا أكرمته ، والعاقل إذا أخرجته ، والأحمق إذا مازحته ، والفاجر إذا عاشرته . وقالوا : اصحب من الإخوان من أولاك جمائل كثيرة ، فكافأته بجميلة واحدة ، ففسى جمائله ، وبقي شاكراً ناشراً ذاكراً لجميلتك ، يوليک عليها الإحسان الكثير الجزيل ، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل .
وقال ابن عائشة : لقاء الخليل شفاء الغليل . وقال بعض الحكماء : إذا وقع بصرك على شخص فكرهته ، فاحذره جهداً . قال عبد الله بن طاهر :

خليلى للبغضاء حالاً مبينةً وللحب آثار ترى ومعارف
فما تنكر العينان فالقلب منكر وما تعرف العينان فالقلب عارف
وقال آخر :

وكنت إذا الصديق أراد غيظي وشرقنى على ظمأ بريقى
غفرت ذنوبه وكظمت غيظي مخافة أن أعيش بلا صديق
وقال آخر :

وليس فتى الفتیان من جل همّه صبح وإن أمسى ففضل غبوق^(٥)
ولكن فتى الفتیان من راح أو غدا لضرّ عدوّ أو لنفع صديق
وأما آداب المعاشرة : فالباشاشة ، والبشر ، وحسن الخلق ، والأدب ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من أخلاق النبين والصديقين البشاشة إذا تراءوا والمصافحة إذا تلاقوا »^(٦) . وكان القعقاع بن شور الهذلي إذا

(١) في المطبوعة : على الأذى ، والصواب على القذى : جمع القذاة ، ما يتكون في العين من رمص وغمص وغيرهما ، ويقال : هو يُغصى على القذى : إذا سكت على الذل والضم ولم يشك .

(٢) «الأرواح» . . إلخ أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود ، والخطيب من حديث سليمان . الدرر المنتثرة [١٥] .

(٣) إن رُوحِي المؤمنین . . إلخ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» [٢٦١] .

(٤) الدهري : الذي يقول ببقاء الدهر الذي لا يؤمن بالآخرة ، فهو ملحد .

(٥) الغبوق : ما يُشرب بالعشي ، وما يُحلب بالعشي ، والجمع غبائق .

(٦) من أخلاق النبين . . إلخ . لم أقف عليه .

جالسه رجل يجعل له نصيبا من ماله ، ويُعينه على حوائجه . ودخل يوما على معاوية فأمر له بألف دينار ، وكان هناك رجل قد فَسَحَ له في المجلس ، فدفعها للذي فسح له فقال :

وكننت جليس قعقاع بن شور وما يشقى بقعقاع جليس
ضحوك السنن إن نطقوا بخير وعند الشر مطراق عبوس

وقال ابن عباس رضي الله عنه : لجليسى على ثلاث : أن أرمقه بطرفي إذا أقبل ، وأوسع له إذا جلس ، وأضعى له إذا حدث ، ويقال : لكل شيء محل ، ومحل العقل مجالسة الناس ، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته ومثل الجليس السوء مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره ، أذاك بدخانه .

وكانت تحية العرب صَبَحْتَكَ الأنعمة ، وطيبُ الأطعمة ، وتقول أيضا : صبحتك الأفالخ ، وكل طير صالح . ووصف المأمون ثُمَامَةَ بحسن المعاشرة ؛ فقال : إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب . وقيل : أول ما يتعين على الجليس الإنصاف في المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه ، فيكون كل منهما في محله . وقال رحمه الله : « ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل » ^(١) وقال جعفر الصادق عليه السلام : إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر وينبغي للإنسان أن لا يُقبل بحديثه على من لا يُقبل عليه ، فقد قيل : إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع ، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله ، ولا يتندع كلاما لا يليق بالمجلس ، فقد قيل : لكل مقام مقال ، وخير القول ما وافق الحال . وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مَرَّ بسمعه أو لا أن لا يقطع عليه ما يقوله ، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول ، وعدوا ذلك من باب الأدب ، ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه . وقيل : ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم : الجالس في مجلس ليس له بأهل ، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه ، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخله فيه ، والمتعرض لما لا يعنيه ، والمتأمر على رب البيت في بيته ، والآتي إلى مائدة بلا دعوة ، وطالب الخير من أعدائه ، والمستخف بقدر السلطان . ويتعين على الجليس أن يراعى ألفاظه ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصا إذا كان جليسه ذا هية ؛ فقد قيل : رب كلمة سلبت نعمة .

وقال أبو العباس السفاح : ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي ؛ لم يُعَدَّ على حديثا قط . وقيل : إن أبا العباس كان يحدثه يوما إذ عصفت الريح فأرمت طُستًا من سطح إلى المجلس ، فارتاع من حضر ، ولم يتحرك الهذلي ، ولم تزل عينه ، مطابقة لعين السفاح ، فقال : ما أعجب شأنك يا هذلي ! فقال : إن الله يقول : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب: ٤١] وإنما لى قلب واحد ، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين ، لم يكن فيه لحادث مجال ، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ، ما أحسست بها ، ولا وجمت لها ، فقال السفاح : لئن بقيت لك ، لأرفعن مكانك ، ثم أمر له بمال جزيل ، وصلة كبيرة . وكان ابن خازن يقول : ما غلبني أحد قط غلبة رجل يُصغى إلى حديثي ، وفي نوايغ الحكم ، أكرم حديث أخيك بإنصاتك ، وصنه من وصمة التفاتك .

وقيل : من حق الملك إذا تئاب ، أو ألقى المروحة من يده ، أو مدرجليه ، أو تمطى ، أو اتكأ ، أو فعل ما يدل على كسله ، أن يقوم من حضرته . وكان أردشير إذا تمطى قام سماره . ومن حق الملك أن لا يُعَادَ عليه حديث وإن طال الدهر . قال رَوْحُ بْنُ زَيْبَاعٍ أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة فما أعدت عليه حديثا إلا مرة واحدة ، فقال لى : سمعته منك . وعن الشعبي قال : ما حدثت بحديث مرتين ، رجلاً بعينه . وقال عطاء بن أبي رباح : إن الرجل ليحدثني بالحديث ، فأنصت له ، كأني لم أسمعه قط ، وقد سمعت به من قبل أن يولد .

وقيل : المودة طلاقة الوجه ، والتودد إلى الناس . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إن المسلمین إذا التقيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ، ثم أخذ بيده تحاتت ^(٢) ذنوبهما كتحات ورق الشجر . وقيل : البشريدل على السخاء ، كما يدل التور على الثمر . وقيل : من السنة إذا حدثت القوم أن لا تُقبل على واحد منهم ، ولكن اجعل لكل واحد

(١) «ذو العلم».. إلخ. أورده الديلمي في «مسند الفردوس» برقم [٣١٥٧].

(٢) حَتَّ الورق عن الشجر حَتًّا، أي سقط.

منهم نصيباً ، وقالوا : إذا أردت حسن المعاشرة فالتقِ عدوك وصدقك بالطلاقة ، ووجه الرضا والبشاشة ، ولا تنظر في عِطْفِكَ^(١) ولا تكثر الالتفات ، ولا تقف على الجماعات ، وإذا جلست فلا تتكبر على أحد ، وتحفظ من تشبيك أصابعك ، ومن العبث بلحيتك ، ومن اللعب بخاتمك ، وتخليل أسنانك ، وإدخال إصبعك في أنفك ، وكثرة بصافك ، وكثرة التمثلي والتثاؤب في وجوه الناس ، وفي الصلاة ، وليكن مجلسك هادئاً ، وحديثك منظوماً مرتباً ، واصغ إلى كلام مجالسك ، واسكت عن المضاحك ، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ، ولا تُلج في الحاجات ، ولا تشجع أحداً على الظلم ، ولا تُهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك عندهما ، وإذا خاصمت فأنصف ، وتحفظ من جهلك ، وتجنب عجلتك ، وتفكر في حجتك ، ولا تكثر الإشارة بيدك ، ولا الالتفات إلى من وراءك ، وأهدئ غضبك وتكلم ، وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر واحذر انقلابه عليك ، وكلمه بما يشتهي ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه ، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده ، وإياك وصديق العافية ، فإنه أعدى الأعداء ، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، ولا تجالس الملوك ، فإن فعلت فالتزم ترك الغيبة ، ومجانبة الكذب ، وصيانة السر ، وقلة الحوائج ، وتهذيب الألفاظ ، والمذاكرة بأخلاق الملوك ، والحذر منهم ، وإن ظهرت المودة ، ولا تتجشأ بحضرتهم ، ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم . ولا تجالس العامة ، فإن فعلت ، فأدب ذلك : ترك الخوض في حديثهم ، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم^(٢) ، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم ، وإياك أن تمازح لبيباً أو سفيهاً ، فإن اللبيب يَحْقِدُ عليك ، والسفيه يتجرأ عليك ، ولأن المزاح يحرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ، ويُعَقِّبُ الحقد ، ويذهب بحلاوة الإيمان والود ، ويشين فقه الفقيه ، ويُجَرِّئُ السفيه ، ويُمِيت القلب ، ويباعد عن الرب - تعالى - ويكسب الغفلة والذلة ، ومن بلى في مجلس بمزاح أو لغف فليذكر الله عند قيامه ، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ ، فَكَثُرَ فِيهِ لَفْظُهُ ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ »^(٣) .

وأما آداب المسيرة : فقد روى أن رسول الله ﷺ تعاقب هو وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ورجل آخر من الصحابة ، في سفر على بعير فكان إذا جاءت نوبته في المشي مشى ، فيعزمان عليه أن لا يمشى ، فيأبى ، ويقول : « ما أنتم بأقدر مني على مشي ، وما أنا بأغنى منكم عن أجر »^(٤) . وقال ﷺ : « لَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَ الدُّوَابِّ كُرَاسِي »^(٥) . وقيل : لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث : إذا ساروا ليلاً ، أو خافوا سيلاً ، أو واجهوا خيلاً .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكبته ، وغيبته ، ووفاته . وأما ما جاء في الإخوان القليلي الموافاة ، العديمي المكافاة الذين ليس عندهم لصديق مصافاة : فقال وهب بن منبه : صحبت الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة ، ولا أقالني عثرة ، ولا ستر لي عورة . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا كان الغدر طبعاً فالثقة بكل أحد عجز ، وقيل لبعضهم : ما الصديق ؟ قال : اسم وضع على غير مسمى ، وحيوان غير موجود ، قال الشاعر :

سَمِعْنَا بِالصَّدِيقِ وَلَا نَرَاهُ عَلَى التَّحْقِيقِ يُوجَدُ فِي الْأَنَامِ
وَأَحْسَبُهُ مُحَالًا نَمُقُّوهُ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ مِنَ الْكَلَامِ

وقال أبو الدرداء : كان الناس ورعاً لا شوك فيه ، فصاروا شوكاً لا ورق فيه . وقال جعفر الصادق^(٦) لبعض

(١) عطفك : العطف : بكسر العين وسكون الطاء ، عطف كل شيء : جانبه ، وهو من الإنسان من لُدُن رأسه إلى وركه .

(٢) أراجيفهم : الإرجاف : الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب ، والجمع أراجيف ، والأراجيف في السوق التجارية ، هي شوائع تُنشر للتأثير في الأسعار .

(٣) حديث : « من جلس في مجلس .. إلخ . حسن : رواه الترمذي [٣٤٣٣] ، والنسائي في عمل اليوم [٣٩٧ مكرر] ، وابن حبان [٥٩٣ - موارد] ، والحاكم [٣٥٧-٥٣٦/١] من حديث أبي هريرة .

(٤) روي « أن رسول الله ﷺ تعاقب هو وعلي .. إلخ » أخرجه أحمد [٤١١/١] ، [٤٢٤] والمراد : تبادل ركوب البعير .

(٥) « لا تتخذوا ظهور الدواب » .. إلخ » أخرجه أحمد [٢٣٤/٤] .

(٦) هو أبو عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه ، ابن محمد الباقر ، بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ترجم له الشعراني في طبقاته الكبرى . توفي في المدينة سنة ثمان وأربعين ومائة .

إخوانه : أقلل من معرفة الناس ، وأنكر من عرفت منهم ، وإن كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين ، وكن من الواحد على حذر . وقيل لبعض الولاة : كم لك صديق ؟ فقال : أما في حال الولاية فكثير ، وأنشد :

الناسُ إخوانٌ من دامت له نِعَمُ والويلُ للمرء إن زَلَّتْ به القَدَمُ
ولما نكب عليّ بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحدًا من أصحابه الذين يألّفونه في ولايته ، فلما ردت إليه الوزارة ، وقف أصحابه ببابه ثانية فقال :

ما الناسُ إلا مع الدنيا وصاحبها فكلّما انقلبت يوما به انقلبوا
يُعْظَمُونَ أخا الدنيا فإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا
وقال آخر :

فما أكثر الأصحاب حين نعدّهم ولكنهم في النائبات قليل
وقال البُحرى :

إِيَّاكَ تَغْتَرُّ أو تَخْدَعُكَ بَارِقَةٌ من ذى خداع يُرى بشرا وألطفًا
فلو قلبت جميع الأرض قاطبة وسرت في الأرض أوساطا وأطرافا
لم تلقَ فيها صديقًا صادقًا أبدًا ولا أخا يبذل الإنصاف إن صافى
وقال بعضهم في المعنى أيضا :

خليلِي جَرَبْتُ الزَّمَانَ وأهْلَهُ فما نالني منهم سوى الهَمِّ والعنا
وعاشَرْتُ أبناءَ الزَّمَانِ فلمْ أجد خليلًا يوفى بالمعهود ولا أنا
وقال آخر :

لما رأيت بنى الزمان وما بهم خلٌّ وفي للشدائد أصطَفَى
فعلمت أن المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخلّ الوَفَى
بيت مفرد :

وكل خليل ليس في الله وُدّه فإنسى به في وُدّه غير واثق
وقال آخر :

إذا ما كنت متخذًا خليلًا فلا تأمن خليلك أن يخونا
فإنك لم يخنك أخ أمين ولكن قلما تلقى أمينًا !
وقال آخر :

تجبُّ عدوى ثم تزعم أننى أودك إن الرأى عنك لعازب !
وليس أخى من وُدنى وهو غائب ولكن أخى من وُدنى وهو غائب
ومن ماله مالى إذا كنت مُغْدِمًا ومالى له إن أغوزته التَّوائبُ

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة ، وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زور عنه كتابا إلى أعدائه ، وعزله لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ، ولا توجع له ، ثم إن السلطان ظهر له في بقية يومه أنه برىء مما نسب إليه ، فخلع^(١) عليه ، ورد إليه وظائفه ، فأنشد يقول هذه الأبيات :

تَحَالَفَ النَّاسُ والزَّمَانُ فحيثُ كان الزمانُ كانوا
عاداني الدهرُ نصف يوم فانكشف الناسُ لى وبانوا

(١) خلع عليه من ملابسه ، ومنحه ثيابًا كما هو تقليد السلاطين إذا ما رضوا . وابن مقلة هو صاحب الخط الذهبي .

يأئها المَغْرَضُونَ عَنَّا عودوا فقد عاد لى الزَّمانُ
ومثله فى المعنى :

أخوك أخوك من يدنو وترجو مودته وإن دعى استجابا
إذا حاربت حارب من تُعَادى وزاد سلاحه منك اقترابا
وقال أبو بكر الخالدى :

وأخ رخصت عليه حتى ملنى والشئ مملول إذا ما يزخص
ما فى زمانك من يعز وجوده إن رُمته إلا صديق مُخلص
فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلا من له دين وتقوى ، فإن المحبة فى الله تنفع فى الدنيا والآخرة ، وما أحسن ما قال بعضهم :

وكلُّ محبة فى الله تبقى على الحالين من فرج وضيق
وكل محبة فيما سواه فكالحلفاء فى لهب الحريق

فينبغى للإنسان أن يجتنب معاشره الأشرار ، ويترك مصاحبة الفجار ، ويهجر من ساءت خلته وقبحت بين الناس سيرته ، قال الله - تعالى - : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] . وقال - تعالى - : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُنْثَى لَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣٨] فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم ، وذلك إنما هو فى الأخلاق خاصة فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم ، ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة . فإذا رأيت الرجل جاهلا فى خلائقه ، غليظا فى طبائعه ، قويا فى بدنه ، لا تؤمن صفاته ، فألحقه بعالم الثمورة ، والعرب تقول : أجهل من نمر . وإذا رأيت الرجل هجاما على أعراض الناس ، فقد مائل عالم الكلاب ، فإن دأب الكلب أن يجفو من لا يجفوه ، ويؤذى من لا يؤذيه ، فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبج ؛ ألسنت تذهب وتركه . وإذا رأيت إنسانا قد جُبل على الخلاف ؛ إن قلت : نعم قال : لا . وإن قلت : لا . قال : نعم فألحقه بعالم الحمير ، فإن دأب الحمار أن أدنيه بُعد ، وإن أبعدته قرب ، فلا تنتفع به ولا يمكنك مفارقتها . وإن رأيت إنسانا يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود وخذ حذرك منه ، كما تأخذ حذرك من الأسد . وإذا بليت بإنسان خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب . وإذا رأيت من يمشى بين الناس بالنميمة ، ويفرق بين الأحبة ، فألحقه بعالم الظربان وهى دابة صغيرة ، تقول العرب عند تفرق الجماعة فسا بينهم ظربان فتفرقوا . وإذا رأيت إنسانا لا يسمع الحكمة والعلم وينفر من مجالسة العلماء ، ويألف أخبار أهل الدنيا ، فألحقه بعالم الخنافس ، فإنه يعجبها أكل العذرات ، وملاسة النجاسات ، وتنفر من ريح المسك والورد ، وإذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقيتها . وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعها ، يبيّض ثيابه ، ويدلّ عمامته ، وينظر فى عطفيه فألحقه بعالم الطواويس ، وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ، ويجازى بعد المدة الطويلة على السقطات ، فألحقه بعالم الجمال ، والعرب تقول : أحقد من جمل فتجنب قرب الرجل الحقود . وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ، ومن لا وفاء لهم ، فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكاييد الخلق وأراح قلبه وبدنه . والله أعلم .

وأما الزيارة والاستدعاء إليها : فقد قال رسول الله ﷺ : « يقول الله - تعالى - : (وَجِبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِي ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِي ، الْيَوْمِ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي) » ^(١) . وقال ﷺ : « من عاد مريضا أو زار أخا نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوات من الجنة منزلا » ^(٢) . وقيل : المحبة شجرة أصلها الزيارة ؛ قال الشاعر :

رُز من تُحب وإن شطّ بك الدارُ وحال من دونه حُجب وأستارُ

(١) يقول الله تعالى «وجبت محبتي» . إلخ أخرجه مالك [٩٥٤/٢] ، وأحمد [٢٩٢/٢] .

(٢) «من عاد مريضا» . إلخ ضعيف : أخرجه أحمد [٣٢٦/٢] ، والترمذي [٢٠٠٨] ، وابن ماجه [١٤٤٣] ، وابن حبان برقم [٢٩٥٠] .

لا يَمْنَعُكَ بَعْدَ مَنْ زيارته إن المَحْبَبَّ لَمَنْ يَهْوَاهُ زَوَارُ
ولتكن الزيارة غِبًّا لقوله ﴿ رَزَّ غِبًّا تَزِدُّ حَبًّا ﴾ ^(١) . قال الشاعر في معنى ذلك :

عليك بإغياب الزيارة إنها إذا كَثُرَتْ صارت إلى الهجر مَسْلُكا
ألم تر أن الغيْثَ يُسَامُ دائما ويُسَالُ بالأيدى إذا هو أَمْسكا
ويقال : الإكثار من الزيارة ممل ، والإقلال منها مخل .
وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت :

إذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة فما فَضْلُ قُرب الدار منا على البُعد ؟!

وإنَّ مروري بالديار التي بها سُلِّمَ ولم أَلَمَّ بها لجفاء !
وقال آخر :

قد أتانا من آل سُعدى رسولٌ حبذا ما يقول لى وأقول !
وقال آخر :

أزور بيوتا لاصقات ببيتها وقلبي في البيت الذى لا أزوره
وزار محمد بن يزيد المهلبى المستعين ووهب له مائتى ألف درهم وأقطعه أرضا فقال :

وخصصتني بزيارة أضحى لنا مَجْدُ بها طول الزمان مُؤَثِّلُ
وقضيت دينى ؛ وهو دين وافر لم يقضه - مع جوده - المتوكلُ
وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة :

نحن في أفضل السرور ولكن ليس إلا بِكُمْ يتم السرورُ
غيبُ ما نحن فيه يا أهل ودى أنكم غبتم ونحن حضورُ
فأجدوا المسير بل إن قدرتم أن تطيروا مع الرياح فطيروا

وقيل لفيلسوف : أى الرسل أنجح ؟ قال : الذى له جمال وعقل . وقيل : إذا أرسلتم رسولا في حاجة فاتخذوه
حسنَ الوجه حسنَ الاسم . وقال لقمان لابنه : يا بنى ، لا تبعث رسولا جاهلا فإن لم تجد حكيما عارفا ، فكن رسولَ
نفسك . وقال بعضهم :

إذا أبطأ الرسول فقل نجاح ولا تفرخ إذا عجل الرسولُ
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) «رَزَّ غِبًّا» . إلخ قال العجلوني : رواه البزار وأبو نعيم والعسكري في الأمثال والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة وقال : سنده طلحة غير قوي ، وروى هذا الحديث بأسانيد أمثلها هذا ، والغيب : يوما بعد يوم .

الباب الخامس والعشرون

في الشفقة على خلق الله تعالى ، والرحمة بهم ،
وفضل الشفاعة ، وإصلاح ذات البين ، وفيه فصلان

الفصل الأول: في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه لعباده فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَاقَ تَجْرَىٰ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥] وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الرحمن: ٢-٣] قال المفسرون. الرحمن اسم رقيق يدل على العطف، والرفقة، واللطف، والكرم، والجنة، والحلم على الخلق، والرحيم مثله. وقيل: يقال رحمنا الدنيا ورحيم الآخرة. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم قلنا: يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: ليس الرحيم الذي يرحم نفسه، وأهله خاصة ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين». رواه أبو يعلى والطبراني.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ، وَمَنْ لَا يَغْفِرُ لَا يُغْفَرُ لَهُ» ^(١) وعنه رضي الله عنه قال: «ارْحَمُوا تَرْحَمُوا وَاغْفِرُوا يَغْفَرَ لَكُمْ» ^(٢). وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي» رواه أبو محمد ابن عدى في كتاب الكامل. وروينا من طريق الطبراني عن الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاخُمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُجْمِ وَالسَّهْرِ» قال الطبراني إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام فسألته عن هذا الحديث، فقال النبي ﷺ: وأشار بيده صحيح صحيح صحيح ثلاثا. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة» ^(٣). ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فوجده مستلقيا على ظهره، وصبيان يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق، فقال له: اعتزل، فإنك لا ترفق بأهلك ولذلك فكيف ترفق بأمة محمد ﷺ؟! وروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبدال أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن يدخلونها برحمة الله، وسخاوة النفس، وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين» ^(٤).

الفصل الثاني: في الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَّكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَّكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾ [النساء: ٨٥] ^(٥). وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره، فيقول

(١) حديث: «من لا يرحم.. إلخ» رواه البخاري [٦٠١٣]، ومسلم [٢٣١٩]، مقتصرًا على قوله: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» أما زيادة «ومن لا يغفر لا يغفر له» أخرجها أحمد [٤٠/٣] من حديث ابن سعيد، وفيه عطية العوفي، ضعيف.

(٢) حديث: «ارحموا.. إلخ» حسن: أخرجه أحمد [١٦٥/٢]، [٢١٩].

(٣) حديث: «من مسح على رأس يتيم.. إلخ» ضعيف: أخرجه أحمد [٢٥٠/٥]، من حديث أبي أمامة، وفيه علي بن يزيد الألهاني، ضعيف.

(٤) حديث: «إن أبدال أمتي.. إلخ» ضعيف جدًا: أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم [١٠٨٩٣]، وفيه صالح المري، متروك الحديث، والحسن مدلس وقد عنعنه، وهو عن أبي سعيد الخدري.

(٥) مُقْبِلًا: قديرًا وقيل: شهيدًا، وحسبًا [مختصر تفسير الطبري] وقيل: يُقْبِت الناس والمخلوقات، ويتكل بأقواتها. يقال: أقاته: أعطاه قوته، وأقَات الشيء: أطاقه واقتدر عليه.

له : جعلت لك جاها فهل نصرت به مظلوما ، أو قمعت به ظالما ، أو أغثت به مكروبا . وقال ﷺ : « أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لاجاه له »^(١) وعن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا ويقضى الله تعالى على لسان نبيه ما شاء »^(٢) وعن سمرة بن جندب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة صدقة اللسان ، قيل : يا رسول الله ، وما صدقة اللسان ؟ قال : الشفاعة تفك بها الأسير ، وتحقق بها الدماء ، وتجرب بها المعروف والإحسان إلى أخيك ، وتدفع عنه بها كربة » رواه الطبراني في المكارم ، وقال على ﷺ : الشفيع جناح الطالب ، وقال رجل لبعض الولاة : إن الناس يتوسلون إليك بغيرك فينالون معروفك ، ويشكرون غيرك ، وأنا أتوسل إليك بك ليكون شكرى لك لا لغيرك . وقيل : كان المنصور معجبا بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس ﷺ وكان الناس لعظم قدره يفزعون إليه في الشفاعات ، فثقل ذلك على المنصور ، فحجبه مدة ثم لم يصبر عنه فأمر الربيع أن يكلمه في ذلك فكلمه ، وقال : أغف أمير المؤمنين لا تثقل عليه في الشفاعات فقبل ذلك منه ، فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع^(٣) فسألوه إيصالها إلى المنصور فقص عليهم القصة ، فأبوا إلا أن يأخذها ، فقال : اقدفوها في كمي ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين فقال له : أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك فيما أتاك ، وهناك بإتمام نعمته عليك فيما أعطاك ، فما بنت العرب في دولة الإسلام ولا العجم في سالف الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك ، ولكن سمعتها في عيني خصلتي ، قال : وما هي ؟ قال : ليس فيها ضيعة ، فتبسم ، وقال : قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها ، فقال : أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد كريم المصادر ، فجعل الله تعالى باقى عمرك أكثر من ماضيه ، ثم أقام معه يومه ذلك فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كفه ، فجعل يردهن ويقول : ارجعن خائبات خاسرات ، فضحك المنصور وقال : بحقى عليك إلا أخبرتنى وأعلمتنى بخبر هذه الرقاع ، فأعلمه ، وقال : ما أتيت يا بن معلم الخير إلا كريما ، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابِنَا كَرُمَتْ
يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكُلُ
نَبْنَى كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا
تَبْنَى وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

ثم تصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها . قال محمد : فخرت من عنده وقد ربحت وأربحت . وقال المبرد : أتاني رجل لأشفع له في حاجة ، فأنشدني لنفسه :

إِنِّي قَصَدْتُكَ لَا أَذْلَى بِمَعْرِفَةٍ
فَبِتُّ حَيْرَانَ مَكْرُوبًا يَوْزُقُنِي
مَازَلْتُ أَنْكَبُ حَتَّى زُلْزَلْتُ قَدَمِي
فَلَوْ هَمَمْتُ بِغَيْرِ الْعَرَفِ مَا عَلِقْتُ

قال : فشفعت له ، وأنته من الإحسان ما قدرت عليه .

وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت :

شَفِيعِي إِلَيْكَ اللَّهُ لَا شَيْءَ غَيْرِهِ
وَلَيْسَ إِلَيَّ رَدُّ الشَّفِيعِ سَبِيلُ

فأمره بلزوم الدهليز فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم فلما استوفى ثلاثين ألفا ذهب الرجل ، فقال يحيى : والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعها عنه :

وَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالْمُصْطَفَى مُتَشَفِّعًا
إِلَى بَابِ مَوْلَانَا رَفَعْتُ ظُلَامَتِي

وقال آخر :

(١) حديث : « إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه . . إلخ » لم أقف عليه .

(٢) « إذا جاءني طالب حاجة . . إلخ » لم أقف عليه .

(٣) رقاع : جمع رُقعة ، وهي الأوراق التي يعرض فيها أصحاب الحاجات مظلمتهم ، وما يطلبونه من الخليفة .

تَشْفَعُ بِالنَّبِيِّ فَكُلْ عَبْدٌ يَجَارُ إِذَا تَشَفَّعَ بِالنَّبِيِّ
وَلَا تَجْرُعُ إِذَا ضَاقَتْ أُمُورٌ فَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيِّ

وروي أن جبريل عليه السلام قال : « يا محمد ، لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعمَلْنَا ثلاث خصال : سَقَى الماء للمسلمين ، وإعانة أصحاب العيال ، وستر الذنوب على المسلمين إذا أذنبوا » ^(١) اللهم استر ذنوبنا ؛ واقض عنا تبتعاتنا ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب السادس والعشرون

في الحياء ، والتواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح ، وفيه فصلان

الفصل الأول : في الحياء

قالت عائشة رضي الله عنها : مكارم الأخلاق عشرة : صدق الحديث ، وصدق اللسان ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، والمكافأة بالصنيع ، وبذل المعروف ، وحفظ الزمام للجار ، وحفظ الزمام للمصاحب ، وقِرى الضيف ، ورأسهن الحياء ^(٢) . وقال رسول الله ﷺ : « الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » ^(٣) . وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مِمَّا أَذْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأَوَّلَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ » ^(٤) مَا شِئْتَ . وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه . من كسا بالحياء ثوبه لم ير الناس عيبه . وعن زيد بن علي عن آبائه يرفعونه « من لم يستح فهو كافر » ^(٥) . وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : إني لأدخل البيت المظلم أغتسل فيه من الجنابة ، فأحني فيه صُلْبِي حياء من ربي . وقال بعضهم : الوجه المصون بالحياء كالجوهر المكنون في الوعاء . وقال الخوَّاص : إن العباد عملوا على أربع منازل : على الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والحياء ، فأرفعها منزلة الحياء ، لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال قالوا : سواء علينا رأيناه أو رأنا ، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه . ويقال : القناعة دليل الأمانة ، والأمانة دليل الشكر ، والشكر دليل الزيادة ، والزيادة دليل بقاء النعمة ، والحياء دليل الخير كله .

الفصل الثاني : في التواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح

قال الله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨] . وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ أَلْفُ نَفْسٍ جَاءَتْكَ مِنَ الْآخِرَةِ فَعَمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] . وقال رسول الله ﷺ : « أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ التَّوَاضُّعُ » ^(٦) وقال ﷺ : « لَا تَرْفَعُونِي فَوْقَ قُدْرِي ، فَتَقُولُوا فِي مَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ ، فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - اتَّخَذَنِي عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَنِي رَسُولًا » ^(٧) وَأَتَاهُ ﷺ رَجُلٌ فَكَلِمَةً فَأَخَذَتْهُ رِعْدَةٌ فَقَالَ ﷺ لَهُ : « هُوَ نَ عَلَيْكَ . فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ . إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ

(١) وروي أن جبريل عليه السلام قال : يا محمد . . إلخ . لم أهدأ إلى من خرج .

(٢) قال عائشة رضي الله عنها : « مكارم الأخلاق » . . إلخ عزاء المتقي الهندي في « كنز العمال » برقم [٥١٢٩] للبيهقي في « شعب الإيمان » .

(٣) حديث : « الحياء » . . إلخ أخرجه البخاري [٩] ، ومسلم [٣٥] من حديث أبي هريرة .

(٤) « إن مما أدرَك الناس » . . إلخ البخاري . الأدب المفرد باب « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

(٥) « من لم يستح فهو كافر » أورده المتقي الهندي في « كنز العمال » [٥٧٩٠] ، بلفظ : « قلة الحياء كفر » ، وعزاه للحكيم الترمذي ، والشيرازي في « الألقاب » عن عقبة بن عامر .

(٦) « أفضل العبادة » . . إلخ إسناده واه : أخرجه ابن الجوزي في « العلل المتناهية » [٣٢٧/٢] .

(٧) لا ترفعوني . . إلخ . حسن : أخرجه الطبراني في « الكبير » برقم [٢٨٨٩] ، عن الحسين بن علي رضي الله عنه .

قُرَيْشٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ» ^(١) وكان یرقع ثوبه ، ویخصف نعله ، ویخدم فی مهنة أهله ، ولم یکن متکبراً ، ولا متجبراً ، أشد الناس حیاءً ، وأكثرهم تواضعاً ، وكان إذا حدث بشيء مما آتاه الله تعالى قال : ولا فخر ^(٢) . وقال ۞ : « إن العفو لا یزید العبد إلا عزاً فاعفوا یعزکم الله ، وإن التواضع لا یزید العبد إلا رفعة ، فتواضعوا یرفعکم الله ، وإن الصدقة لا تزید المال إلا نماء ، فتصدقوا یزدکم الله » فتصدقا ^(٣) . وقال عدی بن أرطاة لإیاس بن معاوية : إنك لسریع المشیة ؛ قال : ذلك أبعد من الكبیر ، وأسرع فی الحاجة . وخرج معاوية علی ابن الزبیر ، وابن عامر فقام أبی عامر وجلس ابن الزبیر ؛ فقال معاوية لابن عامر : اجلس ؛ فإنی سمعت رسول الله ۞ یقول : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ یَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِیَامًا فَلْیَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ^(٤) . وقیل : التواضع سُلْمُ الشرف . ولبس مطرف بن عبد الله الصوف ، وجلس مع المساکین فقیل له فی ذلك ؛ فقال : إن أبی کان جباراً فأحببت أن أتواضع لربی لعله أن یخفف عن أبی تجبره . وقال مجاهد : إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح ؛ شمخت الجبال ، وتواضع الجودی ، فرفعه فوق الجبال ، وجعل قرار السفینة علیه . وقال الله تعالى لموسیٰ ۑ هل تعرف لِمَ کلمتک من بین الناس ؟ قال : لا یا رب ؛ قال : لأنی رأیتک تتمرغ بین یدی فی التراب تواضعاً لی ^(٥) . وقیل : من رفع نفسه فوق قدره استجلب مقت الناس . وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة : ما تاه إلا وضيع ، ولا فاخر إلا لقيط . وكل من تواضع لله رفعه الله . فسبحان من تواضع كل شيء لعز جبروت عظمته ، وصلى الله علی سیدنا محمد وعلی آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والعشرون

فی العُجب والكبر والخیلاء وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب یسلبان الفضائل ، ویكسبان الرذائل ، وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصيح ؛ وقبول التأديب ، والكبر یكسب المقت ، ویمنع من التألف . قال رسول الله ۞ : « لَا یَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِی قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » ^(٦) . وقال رسول الله ۞ : « مَنْ جَرَّ ثُوبَهُ خِیْلًا لَا یَنْظُرُ اللَّهُ إِلَیْهِ » ^(٧) . وقال الأحنف بن قیس : ماتکبر أحد إلا من ذلة یجدها فی نفسه .

ولم تزل الحكماء تتحامى ^(٨) الكبر ، وتأنف منه ، ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل مُعجَب بنفسه فقال : وددت أنى مثلك فی ظنك ، وأن أعدائی مثلك فی الحقيقة . ورأى رجل رجلاً یختال فی مشیه فقال : جعلنی الله مثلك فی نفسك ، ولا جعلنی مثلك فی نفسی . وقال الأحنف : عجبت لمن جرى فی مجرى البول مرتین کیف یتكبر ؟! ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دینار وهو یتبختر فی مشیه ، فقال له مالك : یا بنی لو تركت هذه الخیلاء لكان أجمل بك ! فقال : أو ما تعرفنی ؟ قال : أعرفك معرفة جيدة : أولك نطفة مَذْرُوءة وأخرك جيفة قذرة ، وأنت بین ذلك تحمل العذرة فأرخى الفتی رأسه وكف عما كان علیه . وقالوا : لا یدوم الملك مع الكبر ، وحسبك من رذيلة تسلب

(١) «هون عليك .. إلخ» صحیح: أخرجه ابن ماجه برقم [٣٣١٢]، عن أبی مسعود.

(٢) «وكان یرقع ثوبه .. إلخ» هذا لیس بحديث ، وأظن أن المؤلف قاله بالاستقراء من أحوال الرسول ۞ ، وينظر كتب الشرائع ، للترمذي وغيره.

(٣) «إن العفو .. إلخ» لم أقف علیه بهذا اللفظ ویغنی عنه ما أخرجه مسلم [٢٠٠١/٤] ، والترمذي [٢٠٢٩] ، وغيرهما عن أبی هريرة مرفوعاً بلفظ : «ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عز وجل عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع عبد لله عز وجل إلا رفعه الله عز وجل» .

(٤) «من أحب .. إلخ» صحیح : أخرجه أبو داود [٥٢٢٩] ، والترمذي [٢٧٥٥] ، وأحمد [٩١/٤] ، من حديث معاوية بن أبی سفيان رضی الله عنه .

(٥) «قال الله لموسیٰ .. إلخ» . لم أقف علیه . وهو من الإسرائيليات .

(٦) «لا یدخل الجنة .. إلخ» قال العجلوني فی الكشف [٢/٣١١٧] ، رواه مسلم عن ابن مسعود .

(٧) حديث : «من جر ثوبه خیلاء .. إلخ» . أخرجه البخاري [٥٧٨٤] ، ومسلم [١٦٥٢/٣] .

(٨) تتحامى : أي تتجنب .

الرياسة ، والسيادة ، وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين ، فقال تعالى : ﴿ تِلْكَ أَدَارُ الْأَخْزَرِ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣] . فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى : ﴿ سَاءَ صِرْفٌ عَنِ الْإِنِّ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] . قال بعض الحكماء : ما رأيت متكبرا إلا تحول ما به بي ، يعني : أتكبر عليه .

واعلم أن الكبر يوجب المقت ، ومن مقت رجاله لم يستقم حاله . والعرب تجعل جذيمة الأبراش غاية في الكبر يقال : إنه كان لا ينادم أحداً لتكبر . ويقول : إنما ينادمني المرقدان^(١) . وكان ابن عوانة من أفبح الناس كبرا ! روى أنه قال لغلامه : اسقني ماء فقال : نعم ، فقال : إنما يقول نعم من يقدّر أن يقول لا . اصفعوه ؛ فصفع . ودعا أكاراً^(٢) فكلّمه فلما فرغ ، دعا بماء فتضمنض به استقذاراً لمخاطبته .

ويقال : فلان وضع نفسه في درجة لو سقط منها لتكسر . قال الجاحظ : المشهورون بالكبر من قريش : بنو مخزوم ، وبنو أمية ، ومن العرب : بنو جعفر بن كلاب ، وبنو زرارة بن عدى ، وأما الأكاسرة : فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيدا ، وأنفسهم إلا أربابا . وقيل لرجل من بني عبد الدار : ألا تأتى الخليفة ؟ فقال : أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي . وقيل للحجاج بن أوطاة : ما لك لا تحضر الجماعة ؟ قال : أخشى أن يزاغمني البقالون . وقيل : أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعته أرضا : وقال لمعاوية : « اعرض هذه الأرض عليه ، واكتبها له »^(٣) . فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة ، ومشى خلف ناقته ، فأحرقه حر الشمس فقال له : أردفني خلفك على ناقتك . قال : لست من أرداف الملوك . قال : فأعطني نعليك . قال : ما بخل يمنعني يا بن أبي سفيان ، ولكن أكره أن يبلغ أقبال^(٤) اليمن أنك لبست نعلي ، ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفا . وقيل : إنه لحق زمن معاوية ، ودخل عليه فأقعده معه على السرير ، وحدثه . وقال المسرور بن هند لرجل : أتعرفني . قال : لا . قال : أنا المسرور بن هند ، قال : ما أعرفك . قال : فتعسا ونكسا^(٥) لمن لم يعرف القمر . قال الشاعر :

قولا لأحمق يلوى التّيه أخدعه لو كنت تعلم ما فى التّيه لم ته
التّيه مفسدة للدين منقصة للعقل مهلكة للعرض فانتبه
وقيل : لا يتكبر إلا كل وضع ، ولا يتواضع إلا كل رفيع ، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثامن والعشرون

فى الفخر والمفاخرة ، والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨] . نزلت في علي بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وعقبة بن أبى معيط وكانا تفاخرا ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بِنَارٍ مِّنْ أَيْمَانٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت: ٤٠] . نزلت في أبى جهل ، وعمار بن ياسر . والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب . وقد

(١) الفرقدان : يراد بها نجمان : النجم القطبي ويقربه نجم آخر مماثل له وأصغر منه . والنجم القطبي قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريبا ولذا يهتدى به [المعجم الوسيط] .

(٢) الأكار : الحرث . والجمع أكرّة .

(٣) «أتى وائل بن حجر النبي ﷺ .. إلخ» لم أهد إلى من خرّجه .

(٤) أقبال : مفردا قَبْل ، وهو من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الأعظم .

(٥) تعسا ونكسا : دعاء عليه بالشر .

قال : « أنا سيند ولد آدم ولا فخر » ^(١). وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَوُّكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالفخر في الإسلام بالتقوى وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ نَبِيَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّهُ لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى أَعْجَمِي ، وَلَا لِأَحْمَرٍ عَلَى أَسْوَدٍ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ » ^(٢). وقال الأصمعي بينما أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شابا متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول :

يا من نجيب دُعا المضطر في الظلم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
أدعوك ربي حزينا هائما قلقا
إن كان جودك لا يرجوه ذو سفيه
ثم بكى بكاء شديدا وأنشد يقول :

ألا أيها المقصود في كل حاجة
ألا يا رجائي أنت تكشف كُرْبتي
أتيت بأعمال قباح رديئة
أنحرقني بالنار يا غاية المني
شكوت إليك الضر فإرحم شكايتي
فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
وما في الوري عبد جنى كجنايتي
فأين رجائي ، ثم أين مخافتي

ثم سقط على الأرض مغشيا عليه ، فدنوت منه ، فإذا هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي أبي طالب ، فرفعت رأسه في حجرى ، وبكيت فقطرت دمعة من دموى على خده ، ففتح عينيه ، وقال : من هذا الذى يهجم علينا ؟ قلت : عبيدك الأصمعي . سیدی ، ما هذا البكاء والجزع ؟ وأنت من أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة أليس الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ؟ فقال : هيهات يا أصمعي ! إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ، ولو كان عبدا حبشيا ، وخلق النار لمن عصاه ، ولو كان حُرًا قرشيا ، أليس الله تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا فُجِعَ فِي الْأُصُورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ ﴾ ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾

[المؤمنون: ١٠١-١٠٣] .

والفخر وإن نهت عنه الأخبار النبوية ، ومجته العقول الذكية ، إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعا لا تكلفا ، وجيلة لا تعلموا ، ولم يكن لهم من ينطق بفضلهم إلا هم ، ولا ينبه على مناقبهم سواهم ؛ وكان كعب بن زهير إذا أنشد شعرا قال لنفسه : أحسنت ، وجاوزت والله الإحسان . فيقال له ، أنتحلف على شعرك ؟ فيقول : نعم ، لأنى أبصر به منكم . وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها ، ويقول عند إنشادها : أى علم بين جنبي ، وأى لسان بين فكي . وقال الجاحظ : لو لم يصف الطبيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب . ولما أبدع ابن المقفع فى رسالته التى سماها باليتمة تنزيها لها عن المثل ، سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها ، ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله .

وسنذكر فى هذا الباب - إن شاء الله تعالى - شيئا من نظم البلغاء ونثرهم فى الافتخار ، ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره :

قال أبو بكر الهذلى : سائرت المنصور ، فعرض لنا رجل على ناقية حمراء تطوى الفلاة ^(٣) ، وعليه جبة خز وعمامة عديّة ، وفى يده سوط يكاد يمس الأرض ، فلما رآه المنصور أمرنى بإحضاره ، فدعوته وسألته عن نسبه

(١) مسلم فى كتاب الفضائل ٤ / ٢٢٨٧ .

(٢) «إن نبيكم واحد.. إلخ» أخرجه أحمد [٤١١/٥] ، عن رجل من الصحابة ، لكن بدون قوله : «إن نبيكم واحد» .

(٣) الفلاة : الصحاري الواسعة .

وبلاده وعن قومه وعشيرته ، وعن ولاية الصدقة فأحسن الجواب ، فأعجبه ما رأى منه ، فقال : أشدني شعراً فأشده شعراً لأوس بن حجر ، وغيره من الشعراء من بنى عمرو بن تميم ، وحديثه حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله :

إن الأمور إذا أوردتها صدرت
إن الأمور لها ورد وإصدار
فقال : ويحك : ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت ؟ قال : كان أثقل العرب على عدوه وطأة ، وأقراهم لضيفه ، وأحوطهم من وراء جاره ، اجتمعت العرب بعكاظ ، فكلهم أقروا له بهذه الخلائ ، فقال له : والله يا أخا بني تميم ، لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك ، ولكني أحق ببيتته منه .
ومن شعر أبي الطحان :

وإنى من القوم الذين هم هم
نجوم سماء كلما غاب كوكب
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم
وما زال فيهم حيث كان مسود
إذا مات منهم سيد قام صاحبه
بدا كوكب تأوى إليه كواكبه
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
تسير المنايا حيث سارت ركائبه
ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب ، وقال : من ابن علي ؟ - فقام الحسن فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : إن الله - عز وجل - لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين ، فأنا ابن علي ، وأنت ابن صخر ، وأمك هند ، وأمي فاطمة ، وجدتك قيلة ، وجدتي خديجة ، فلعن الله ألأنا حسبا ، وأحملنا ذكرا ، وأعظمنا كفراً ، وأشدنا نفاقاً ، فصاح أهل المسجد آمين آمين فقطع معاوية خطبته ، ودخل منزله .

وروى أن معاوية خرج حاجاً فمر بالمدينة ، ففرق على أهلها أموالاً ، ولم يحضر الحسن بن علي ، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي ، فقال له معاوية : مرحباً برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا لبيخلنا : فقال له الحسن : ولم ينفد ما عندك وخارج الدنيا يجبى إليك ؟! فقال معاوية : إني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة ، وأنا ابن هند . فقال الحسن : قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة .

ودخل الحسين يوماً على يزيد بن معاوية ، فجعل يزيد يفتخر ويقول : نحن ونحن ، ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا ، والحسين ساكت ، فأذن المؤذن ، فلما قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، قال الحسين : يا يزيد ، جد من هذا ؟ فخجل يزيد ولم يرد جواباً . وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر :

لقد فاخرتنا من قريش عصابة
فلما تنازعنا الفخار قضى لنا
ترانا سكوئاً والشهيد بفضلنا
وله أيضاً :

إنى وقومى من أنساب قومهم
ما علق السيف منا بابن عاشرة
كمسجد الخيف^(١) من بحبوحة الخيف
إلا وهمة أمضى من السيف

وتفاخر العباس بن عبد المطلب ، وطلحة بن شيبه ، وعلي بن أبي طالب فقال العباس : أنا صاحب السقاية ، والقائم عليها ، وقال طلحة : أنا خادم البيت ، ومعى مفتاحه ، فقال علي : ما أدري ما تقولان : أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بسة أشهر ، فنزلت ﴿ أَجْعَلُكُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة : ١٩] .

وتفاخر رجلاً على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما : أنا فلان ابن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين ، فقال الآخر : أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أما الذى عد تسعة آباء مشركين ، فحق على الله

(١) الخيف : بفتح الخاء وسكون الباء ، هو الناحية ، ويقال : هو ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء .

أن يجعل عاشرهم في النار ، والذي انتسب إلى أب مسلم ، فحق على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنة . قال سلمان الفارسي :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم
وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك ، فقال الفرزدق : أنا ابن مُحْيَى الموتى ، فأنكر سليمان قوله .
فقال : يا أمير المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢] وجدى فدى
الموءودات^(١) فاستحياهن فقال سليمان : إنك مع شعرك لفقيه .

وكان صعصعة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات وللعباس بن عبد المطلب :

إن القبائل من قريش كلها ليرون أنا هأم أهل الأبطح
وترى لنا فضلا على ساداتها فضل المنار على الطريق الأوضح
وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر :

ألسنا بنى مروان كيف تبدلت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منا تهلت له الأرض واهتزت إليه المنابر
وكتب إليه كتاباً يهجو فيه ويسبه ، فكتب إليه صاحب مصر أما بعد ، فإنك عرفتنا ، فهجوتنا ولو عرفناك لأجبنك ،
والسلام . وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ، ومنازعة الرجال بعضهم بعضاً ، فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن
مخرمة الكندي ، وخالد بن صفوان ابن الأهم ، فخاضوا في الحديث وتذكروا مضر واليمن ، فقال إبراهيم بن
مخرمة : يا أمير المؤمنين ، إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ، ولم يزلوا ملوكاً ورثوا الملك كابراً عن
كابر ، وآخرها عن أول منهم النعمان والمنذر ، ومنهم عياض صاحب البحرين ، ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصبا ،
وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب ، إن سئلوا أعطوا ، وإن نزل بهم ضيف قروه ، فهم العرب العاربة ، وغيرهم
المتعربة .

فقال أبو العباس : ما أظن التميمي رضى بقولك ، ثم قال : ما تقول أنت يا خالد ؟ قال : إن أذن لى أمير المؤمنين
فى الكلام تكلمت ، قال : تكلم ، ولا تهب أحداً . قال : أخطأ المقتحم بغير علم ، ونطق بغير صواب ، وكيف
يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ، ولا لغة صحيحة ، نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنة ، يفتخرون علينا
بالنعمان والمنذر ، ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام ، محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فله المنة به علينا ،
وعليهم فمنا النبى المصطفى ، والخليفة المرتضى ، ولنا البيت المعمور ، وزمزم ، والحطيم^(٢) ، والمقام ،
والحجابه^(٣) ، والبطحاء^(٤) ، ولا يحصى من المآثر ، ومنا الصديق والفاروق ، وذو النورين ، والرضا ، والولى وأسد
الله ، وسيد الشهداء ، وبنا عرفوا الدين ، وأتاهم اليقين ، فمن زاحمنا زاحمناه ، ومن عادانا اضطلمناه^(٥) ، ثم أقبل
خالد على إبراهيم ، فقال : ألك علم بلغة قومك ؟ قال : نعم ، قال : فما اسم العين عندكم ؟ قال : الجمجمة .
قال : فما اسم السن ؟ قال : الميدن . قال : فما اسم الأذن ؟ قال : الصنارة .

قال : فما اسم الأصابع ؟ قال : الشناتير . قال : فما اسم الذئب ؟ قال : الكنع . قال : أفعلتم أنت بكتاب الله
عز وجل ؟ قال : نعم . قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢] وقال تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤] فنحن العرب ، والقرآن بلساننا

(١) الموءودات : وآد الرجل ابته ، أي دفنها حية ، فهو وائد وهي وئيد ، وئيدة ، وموءودة ، وكان ذلك في الجاهلية ، قال تعالى : ﴿ إِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِئْسَ يَأْتِي دُفْنٍ قِيلَتْ ﴾ [التكوير: ٨-٩] .

(٢) الحطيم : بفتح الحاء وكسر الطاء بناء قبالة الميزاب من خارج الكعبة .

(٣) الحجابه : حرفة الحاجب .

(٤) البطحاء : المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار ، ومنه بطحاء مكة .

(٥) اضطلمناه : اضطلمه ، أي استأصله وأباده .

أنزل ، ألم تر أن الله تعالى قال : ﴿وَالْعَرَبُ بِالْعِزِّ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل : والجمجمة بالجمجمة . وقال تعالى : ﴿وَالْيَسَنَ بِالْيَسَنِ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل : والميدان بالميدان . وقال تعالى : ﴿وَالْأَذُنُ بِالْأَذُنِ﴾ [المائدة: ٤٥] ولم يقل : والصنارة بالصنارة . وقال تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي ذُرَاهِهِمْ﴾ [البقرة: ١٩] ولم يقل : شتايرهم في صناراتهم ، وقال تعالى : ﴿فَأَكْكَلَهُ الذُّنْبُ﴾ [يوسف: ١٧] ولم يقل : فأكله الكنع ، ثم قال لإبراهيم : إني أسألك عن أربع ، إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت قال : وما هن ؟ قال : الرسول منا أو منكم ؟ قال : منكم . قال : فالقرآن أنزل علينا أو عليكم ؟ قال : عليكم . قال : فالمنبر فينا أو فيكم ؟ قال : فيكم . قال : فاليث لنا أو لكم ؟ قال : لكم . قال : فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم ، بل ما أنتم إلا سائس قرد ، أو دابغ جلد ، أو ناسج بُرد . قال : فضحك أبو العباس وأقرّ لخالد وحياهما جميعاً . وقال بشار بن برد يفتخر :

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
دُرّا منبر صلي علينا وسلما

إذا نحن ضلنا صولة مضرية
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة
وقال السَّمُوءَلُ بن عادِيَاء :

فكل رداء يرتديه جميل
فليس إلى حسن الثناء سبيل
فقلت لها : إن الكرام قليل
شباب تَسَامِي للعلل وكهول
عزيز وجار الأكثرين ذليل
منبع يرذ الطرف وهو كليل
إلى النجم فرع لا يزال طويل
إذا ما رآته عامر وسَلُولُ
وتكرهه آجالهم فتطول
ولا طُل مِنّا حيث كان قتيلُ
وليست على غير الظّبات تسيلُ
كهام^(٢) ولا فينا يُعَدّ بخيل
ولا يُنكرون القول حين نقول
قُتُول بما قال الكرام فعمل
ولا ذمنا في النازلين نزيلُ
لها غرر مشهورة وحُجُول^(٣)
بها من قراع الدارعين فلول
فتغمد حتى يستباح قتيل
فليس سواء عالم وجهول
تدور رحاهم حولهم وتجول

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
تُعِيرنا أنا قليل عديدنا
وما قل من كانت بقاياها مثلنا
وما ضرنا أنا قليل وجارنا
لنا جبل يحتله من نُجيره
رسا أصله تحت الثرى وسما به
وإنّا أناس لا نرى القتل سُبّة
يقرب حب الموت آجالنا لنا
وما مات منا سيد حتف أنفه
تسيل على حدّ الظّبات^(١) نفوسنا
ونحن كماء المزن ما في نصابنا
وننكر إن شئنا على الناس قولهم
إذا سيد منا خلا قام سيد
وما خمدت نار لنا دون طارق
وأيامنا مشهورة في عدونا
وأسيافنا في كل شرق ومغرب
معوّدة أن لا تسلم نصالها
سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم
فإنّا بنى الريان قُطِب لقومهم

(١) الظّبات : مفردا ظبّة ، وهي حدّ السيف والسنان والخنجر ، وما أشبهها .

(٢) كهام : كهَم الرجل ، أي بَطُو عن الثّصرة والحرب ، فهو كهام .

(٣) غُرر : مفردا غُرّة ، وهي من كل شيء أوله ، ومن الشهر ليلة استهلال القمر . وحُجُول : مفردا حجل بفتح الحاء وكسرها ، وهو القيد .

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ^(١). ومعهم خطيبهم وشاعرهم ، خطب خطيبهم فافتخر ، فلما سكت أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم ، فخطب ثابت بن قيس ، فأحسن ، ثم قام شاعرهم وهو الزبير بن بدر فقال :

نحن المملوك فلا حتى يفاخرنا
ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا
وننحر الكوم^(٢) عبطا في أرومتنا^(٣)
تلك المكارم حزناتها مقارعة
ثم جلس ، فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : قم ، فقام ، فقال :

قد بينوا سنننا للناس تُتَّبِعُ
تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
أو حاولوا النفع في أشياءهم نفعوا
إن الخلائق - فاعلم - شرها البدع
فكل سبق لأدنى سبقهم تبغ
عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ولا يمسهم في مطمع طمع
ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
إذا تفرقت الأهواء والشيع
فقال التميميون عند ذلك : وربكم إن خطيب القوم أخطب من خطيبنا وإن شاعرهم أشعر من شاعرنا وما انتصفنا ولا قاربنا ؛ وقال شاعر من بني تميم :

أبغى آل شداد علينا
فإن تغمد مناصلنا تجدها
وقال سالم بن أبي وابصة :

عليك بالقصد فيما أنت فاعله
وموقف مثل حد السيف قمت به
فما زلقت^(٧) ولا أبديت فاحشة

❁ وأما التفاضل والتفاوت :

فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل قال : **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ**

(١) قوله : ولما قدم وفد إلخ أخرجه ابن مندة ، وأبو نعيم كما في «كنز العمال» [٣٠٣١٦] ، وفيه المعلي بن عبد الرحمن كذبه الدارقطني ، فالإسناد موضوع .

(٢) العبيط : يقال لحم عبيط ، أي طري غير ناضج .

(٣) الكوم : كوم الشيء كَوَمًا ، أي عظم . وغلب استعماله في سنام البعير .

(٤) أرومتنا : الأروم ، والأرومة : أصل الشجرة ، واستعملت للحسب ، يقال : هو طيب الأرومة ، أي كريم الأصل .

(٥) الذوائب : مفردا ذؤابة ، وهي من كل شيء أعلاه ، ويقال : فلان ذؤابة قومه أي شريفهم والمقدم فيهم .

(٦) الذمار : بتشديد الال المكسورة وفتح الميم ، هو ما ينفي حياته والذود عنه كالأهل والعرض . والحدق : يقال هو من رُماة الحدق ، أي حاذق ماهر في النضال .

(٧) زلقت : زلقت القدم ، أي زلّت ولم تثبت . ويقال : زلق فلان بمكانه ، أي ملّ منه فتنحى عنه وتباعد .

أَلَيْتَ مِنَ الْخَيِّ [الروم: ١٩] ^(١) لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله - ومن كلام علي لمعاوية رضي الله عنه أما قولك إنا بنو عبد مناف ، فكذلك نحن ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبي طالب .

وقال أحمد بن سهل : الرجال ثلاثة : سابق ، ولاحق ، ولاحق ، فالسابق الذي سبق بفضلته ، واللاحق الذي لحق بأبيه في شرفه ، واللاحق الذي محق شرف آبائه .

وقيل : إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث ، وأشعب الطماع وربتهما قال أشعب : فكنت أسفل ، وكان يعلو ، حتى بلغت أنا وهو هاتين الغايتين . وقال أبو العواد زكريا بن هارون :

على وعبد الله بينهما أب
ألم تر عبد الله يلحى ^(٢) على الندى
وَحَجَّ أبو الأسود الدؤلي بامرأته ، وكانت شابة جميلة ، فعرض لها عمر بن أبي ربيعة ، فغازلها فأخبرت أبا الأسود فأتاه فقال :

وإني لينهاني عن الجهل والخنى ^(٣)
حياء وإسلام وتقوى وأننى
فشتان ما بينى وبينك إننى
وقال ربيعة البرقى :

لشتان ما بين اليزيديين فى الندى
يزيدُ سليم سالم المال والفتى
فهْمُ الفتى الأزديّ إتلافُ ماله
فلا يحسب القيسى أنى هجوته
وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى أخيه الحسين :

يقول أنا الكبير فعظمونى
إذا كان الصغير أعم نفعا
ولم يأت الكبير بيوم خير
والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ألا ثكلتك أمك من كبير
وأجلد عند نائبة الأمور
فما فضل الكبير على الصغير ؟!

(١) روي . . إلخ لم أقف عليه ، وقد صدره الإشبهي بصيغة التضعيف ، والإشبهي ليس بمحدث كما هو معروف ، وشأنه شأن الأدباء يكتب الحديث ولا يعرف مدى صحته .

(٢) يلحى : لَحَا فُلَانًا ، أي لَامَهُ وَعَذَلَهُ ، فهو لاح ، وهي لاجية .

(٣) الخنى : الفُحْش فى الكلام . وخنا الدهر : إفاته ونوابه .

الباب التاسع والعشرون

في الشرف والسؤدد وعلو الهمة

قال رسول الله ﷺ: « من رزقه الله مالاً ، فبذل معروفه ، وكف أذاه فذلك السيد »^(١) . وقيل لقيس بن عاصم : بم سدت قومك ؟ قال : لم أخاصم أحداً إلا تركت للصُلح موضعاً . وقال سعيد بن العاص : ما شامت رجلاً مَدُّ كنت رجلاً ، لأنني لم أشاتم إلا أحد رجلين : إما كريم فأنا أحق أن أجله ، وإما لثيم ، فأنا أولى أن أرفع نفسي عنه . وقالوا : من نعت السيد أن يكون يملأ العينَ جمالا ، والسمع مقالا وقيل : قدم وفد من العرب على معاوية ، وفيهم الأحنف بن قيس ؛ فقال الحاجب : إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم منكم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه ، قال الأحنف : لولا عزم أمير المؤمنين لأخبرته أن رادفة ردت ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابت ، والكل بهم حاجة إلى المعروف من أمير المؤمنين ، فقال له معاوية : حسبك يا أبا بحر ، فقد كفيت الشاهد والغائب . وقال رجل للأحنف : بم سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتاً ، ولا أضبحهم وجهاً ، ولا أحسنهم خلقاً ؟ فقال : بخلاف ما فيك . قال : وما ذاك ؟ قال : تركي من أمرك ما لا يعنيني ، كما عناك من أمري ما لا يعينك . وقيل : السيد من يكون للأولياء كالغيث الغادي ، وعلى الأعداء كالليث العادي . وكان سبب ارتفاع عرابة الأوسى وسؤدده أنه قدم من سفر ، فجمعه والشماع بن ضرار المزني الطريق ، فتحدثا ؛ فقال له عرابة : ما الذي أقدمك المدينة يا شماع ؟ قال : قدمتها لأمتار منها^(٢) ، فملأ له عرابة راحله بُرا ، وتمراً وأتحفه بتحف غير ذلك فأشدد يقول :

رأيت عرابة الأوسى يسُمو إلى الخيرات مُنْقَطِعَ القرين
إذا ما راية رُفعت بمجد تلقاها عرابة باليمين

❖ وأما علو الهمة فهو أصل الرياسة :

فيمتن علت همته ، وشرفت نفسه عمارة بن حمزة ، قيل : إنه دخل يوماً على المنصور ، وقعد في مجلسه ، فقام رجل ، وقال : مظلوم يا أمير المؤمنين ! قال : من ظلمك ؟ قال : عمارة بن حمزة غصيني ضيعتي ، فقال المنصور : يا عمارة ، قم فاقعد مع خصمك ، فقال : ما هو لي بخصم ، إن كانت الضيعة له فلست أنازع فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ! ولا أقوم من مقام شرفني به أمير المؤمنين ورفعني ، وأقعد في أدنى منه لأجل ضيعة . وتحدث السفاح هو وأم سلمة يوماً في نزاهة نفس عمارة وكبره فقالت له : ادع به وأنا أهب له سبحتي هذه ، فإن ثمنها خمسون ألف دينار ، فإن هو قبلها علمنا أنه غير نزه النفس ، فوجه إليه فحضر ، فحادثته ساعة ، ثم رمت إليه بالسبحة وقالت : هي من الطرف ، وهي لك فجعلها عمارة بين يديه ، ثم قام وتركها ، فقالت : لعله نسيها ، فبعث بها إليه مع خادم ، فقال للخادم : هي لك ، فرجع الخادم ، فقال : قد وهبها لي فأعطت أم سلمة للخادم ألف دينار ، واستعادتها منه . وأهدى عبيد الله بن السري إلى عبد الله بن طاهر ، لما ولي مصر مائة وصيف ، مع كل وصيف ألف دينار ، ووجه إليه بذلك ليلاً فردّه ، وكتب إليه : لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهاراً : ﴿ فَمَا أَتَيْنَ اللَّهَ خَيْرَ مِمَّا آتَيْنَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ فِرْقَانٌ ﴾^(٣) . وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سبيت فنادت . وامحمداه ! وامعتصماه ! فبلغه الخبر فركب لوقته ، وتبعه الجيش ، فلما فتحها قال : لييك أيتها المنادية .

وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة قيل له في مرضه : إن المريض يستريح إلى الأئين ؛ وإلى شرح ما به إلى الطبيب ، فقال : أما الأئين ، فهو جَرَجٌ وعَارٌ والله لا يسمع الله مني أنيتاً فأكون عنده جزوعاً ، وأما وصف ما بي إلى الطبيب ، فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، إن شاء أمسكها ، وإن شاء قبضها .

(٢) أمتار : أحصل على الميرة وهي الطعام .

(١) من رزقه . . إلخ لم أفد عليه .

(٣) تضمين لطيف حيث ضمن كلامه بعض الآية الكريمة رقم [٢٧] من سورة النمل وهي تحكي رد سيدنا سليمان ﷺ على هدية بلقيس له .

ومن كبر النفس : ما روى عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة ، واحتاج فكان يأكل الحنظل ، حتى قتله ، ولم يخبر أحداً بحاجته .

ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار ، وجمي الزمار ، وكانت العرب ترى ذلك ديناً تدعو إليه ، وحققاً واجباً تحافظ عليه ، وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال : يا هذا إنك اخترتني جاراً ، واخترت داري داراً ، فجناية يديك عليّ دونك ، وإن جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبي على أهله . وكان الفرزدق يجير من عاذ بقبر أبيه غالب بن صعصعة ، فممن استجار بقبر أبيه فأجاره ؛ فأجار امرأة من بني جعفر بن كلاب ، خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسميها ، وينسبها فعادت بقبر أبيه ، فلم يذكر لها اسماً ولا نسباً ، ولكن قال :

عَجُوزٌ تَصَلَّى الْخُمْسَ عَاذَتْ بِغَالِبٍ فَلَا وَالَّذِي عَاذَتْ بِهِ لَا أَضِيرُهَا
وقال مروان بن أبي حفصة :

هَمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا لَجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَائِينَ^(١) مَنْزِلُ
وقال ابن نباتة :

وَلَوْ يَكُونُ سَوَادُ الشَّعْرِ فِي ذِمِّهِ مَا كَانَ لِلشَّيْبِ سُلْطَانٌ عَلَى الْقِمَمِ

وقيل : إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه ، واستأصل موجوده ، وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه ، وأرغب السجن واستماله ، وهرب هو والسجان ، وقصد الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك ، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك ، أكرمه وأحسن إليه ، وأقامه عنده ، فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن ، وأنه عند سليمان ابن عبد الملك أخى أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ، وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك ، فكتب سليمان إلى أخيه يقول : يا أمير المؤمنين ، إنى ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديماً وحديثاً ، ولم أجز عدواً لأمر المؤمنين ، وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً ، ثم طالبه بعدها بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد صار إلى واستجار بى ، فأجرتة ، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يخزنى فى ضيفى ، فليفعل فإنه أهل الفضل والكرم ، فكتب إليه الوليد إنه لابد أن ترسل إلى يزيد مغلولاً مقيداً ، فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب ، فقيده ، ودعا يزيد بن المهلب فقيده ، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلها جميعاً بغيرين وأرسلهما إلى أخيه الوليد ، وكتب إليه : أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان ، ولقد هممت أن أكون ثالثهما فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ابدأ بأيوب من قبله ، ثم اجعل يزيد ثانياً ، واجعلنى إذا شئت ثالثاً ، والسلام . فلما دخل يزيد بن المهلب ، وأيوب بن سليمان فى سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء ، وقال : لقد أسأنا إلى أبى أيوب ، إذ بلغنا به هذا المبلغ ، فأخذ يزيد ليتكلم ، ويحتج لنفسه ، فقال له الوليد ، ما يحتاج إلى كلام ، فقد قبلنا عذرک ، وعلمنا ظلم الحجاج ، ثم إنه أحضر حداً ، وأزال عنهما الحديد ، وأحسن إليهما ، ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم ، ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم ، وردّهما إلى سليمان ، وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له : لا سبيل لك على يزيد بن المهلب ؛ فإياك أن تعاودنى فيه بعد اليوم ؛ فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك ، وأقام عنده فى أعلى المراتب وأرفع المنازل .

وحكى أن رجلاً من الشيعة كان يسعى فى فساد الدولة ، فجعل المهدي لمن دل عليه ، أو أتى به مائة ألف درهم ، فأخذه رجل من بغداد ، فأيس من نفسه ، فمر به معن بن زائدة ، فقال له : يا أبا الوليد ، أجرنى أجاك الله ؛ فقال معن للرجل : مالك وماله ؟ فقال : إن أمير المؤمنين طالبه ، قال : خل سبيله ، قال : لا أفعل ، فأمر معن غلمان

(١) السماكان : نجمان نيران : أحدهما فى الشمال ، وهو السماك الرامح ، والآخر فى الجنوب ، وهو السماك الأعزل ، ويضرب بهما المثل فى علو الشأن .

فأخذه غصبا ، وأردفه بعضهم خلفه ، ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة ، فأرسل خلف معن ، فأحضره فلما دخل عليه قال له : يا معن ، أتجير عليّ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قتلت في يوم واحد في طاعتكم خمسة آلاف رجل هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيها طاعتي ، أفما تروني أهلا أن تجيروا إلى رجلاً واحداً استجار بي ؟ فاستحيا المهدي وأطرق طويلاً ، ثم رفع رأسه وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد . قال : إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بي ، فيكون قد أجاره وحباه ، قال : قد أمرت له بخمسين ألف درهم فقال معن : يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنایات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يعزل صلته فليفعل ، قال : قد أمرت له بمائة ألف درهم ، فرجع معن إلى منزله ، ودعا بالرجل ، ودفع له المال ، ووعظه ، وقال له : لا تتعرض لمساخط الخلفاء .

وكان جعفر بن أبي طالب يقول لأبيه : يا أبت ، إنني لأستحي أن أطمع طعاماً وجيرانى لا يقدرّون على مثله ، فكان أبوه يقول : إنني لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب .

وسقط الجراد قريباً من بيت بعض العرب ، فجاء أهل الحى ، فقالوا : نريد جارك ، فقال : أما إذ جعلتموه جارى ، فوالله لا تصلون إليه ، وأجاره حتى طار ، فسمى مجير الجراد ، وقيل : هو أبو حنبل ، والحكايات فى معنى ذلك كثيرة ، والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثلاثون

فى الخير والصلاح ، وذكر السادة الصحابة ، وذكر الأولياء والصالحين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على . وفضائلهم أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، وإنى - والله - أحبهم ، وأحب من يحبهم ، وأسأل الله أن يمتتي على محبة نبي محمد ﷺ ، ومحبتهم وأن يحشرنا فى زمرةهم ، وتحت ألويتهم إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير :

إننى أحبُّ أبا حفص وشيعته كما أحبُّ عتيقاً صاحب الغار
وقد رضيتُ علياً قدوةً علماً وما رضيتُ بقتل الشيخ فى الدار
كلُّ الصحابة ساداتى ومُعْتَقَدِي فهل علىّ بهذا القول من عارٍ ؟!

وروى عن أبى هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ ضَائِماً ؟ » فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : « فَمَنْ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِنْكُمْ مِسْكِيناً ؟ » فقال أبو بكر : أنا . قال : « فَمَنْ غَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضاً ؟ » قال أبو بكر : أنا . فقال رسول الله ﷺ : « مَا اجْتَمَعْنَ فِي أَحَدٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ » ^(٢) . وقال : « لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرُ » ^(٣) . وقال النبي ﷺ : « وَالَّذِي بَعَثْنِي بِالْحَقِّ بَشِيراً مَا سَلَكَتُ وَادِياً إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ وَادِياً غَيْرَهُ » ^(٤) . ولما أسلم . قال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق قال : « بلى » . قال : والذى بعثك بالحق نبياً لا تعبد الله سراً بعد هذا اليوم ^(٥) . ولما قدم عمر . الشام وقف على طور سيناء ، فأرسل البطريق عطيماً لهم ، وقال :

(١) أبو حفص : عمر . أما عتيق فهو أبو بكر ، والشيخ عثمان .

(٢) حديث : « من أصبح منكم .. إلخ » أخرجه البخاري فى « الأدب المفرد » [ص ١٨١] ، ومسلم [٧١٣/٢] ، ١٨٥٧/٤ .

(٣) « لو كان بعدى .. إلخ » أخرجه أحمد [١٥٤/٤] ، والترمذي [٣٦٨٦] ، والفسوى فى « تاريخه » [٥٠٠/٢] ، والحاكم [٨٥١٣] من حديث عتبة بن عامر .

(٤) « والذى بعثني بالحق .. إلخ » أخرجه قريباً منه البخاري [٢٣٩/٦] ، [٤١/٧] ، [٥٠٣/١٠] ، ومسلم [١٨٦٣/٤] .

(٥) حديث قال رسول الله ﷺ : « إلخ انظر : فضائل الصحابة للإمام أحمد [ص ٢٧٩-٢٨٠] .

انظر إلى ملك العرب ، فرآه على فرس ، وعليه جبة صوف مرقعة مستقبل الشمس بوجهه ، ومخلاته في قربوس^(١) السرج ، وعمر يدخل يده فيها ، ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ، ويلوكها ، فوصفه للبطريق ، فقال : لا نرى بمحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء . وأما أمير المؤمنين عثمان ؓ ففضائله كثيرة ، ومناقبه شهيرة ، فهو جامع القرآن ، ومن استحيت منه ملائكة الرحمن ؑ وقال جميع بن عمير : دخلت على عائشة ؓ فقلت لها : أخبريني : من كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ؟ قالت : فاطمة . قلت : إنما أسألك عن الرجال ؟ قالت : زوجها ، فوالله لقد كان صواماً قواماً ، ولقد سألت نفس رسول الله ﷺ في يده ، فردّها إلى فيه ، قلت : فما حملك على ما كان ؟ فأرسلت خمارها على وجهها ، وبكت وقالت : أمر قضي عليّ . وقال معاوية لضرار بن حمزة الكناني : صف لي عليّاً : فاستعفى ، فألح عليه ، فقال : أما إذن فلا بدّ أنه والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويعاتب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان والله يُجيبنا إذا سألناه ، ويأتينا إذا دعوانه ، ونحن والله مع تربيته لنا ، وقربه منا لا نكلمه هيبه له ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى في باطله ، ولا يياس الضعيف من عدله ، فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تملعل الخائف ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنني الآن أسمعه يقول : يا دنيا أليّ تعرّضت ؟ أم إليّ تشوّقت ؟! هيهات هيهات : غرى غرى : لقد أبنتك ثلاثاً لا رجعة إلى فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، ووحشة الطريق ، قال : فوكفت دموع معاوية ، حتى ما يملكها على لحيته ، وهو يمسحها وقد اختنق القوم بالبكاء ؛ وقال : رحم الله أبا الحسن ؛ كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزني عليه والله حزن من دُبح ولُذها في حجرها ، فلا ترقأ عبرتها^(٢) ولا تسكن حيرتها ثم قام فخرج .

وقيل : أول من سلّ سيفاً في سبيل الله تعالى الزبير بن العوام ؓ وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح ، فقال : قُتل محمد ، فخرج متجرّداً وسيفه معه صلّنا^(٣) ، فتلّقه رسول الله ﷺ ، فقال : « ما لك يا زبير ؟ » قال : سمعت أنك قُتلت ! قال : « فماذا أردت أن تصنع ؟ » قال : أردت والله أن أستعرض أهل مكة ، وروى : أخط بسيفي من قدرت عليه ؛ فضمه رسول الله ﷺ إليه ، وأعطاه إزاراً له فاستتر به ، وقال له : « أنت حوارتي ، ودعا له »^(٤) . قال الأوزاعي : كان للزبير ألف مملوك يؤدّون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها ، وباع داراً له بستمائة ألف درهم ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، غبت ، قال : كلا ؛ والله إني لم أغبن ، أشهدكم أنها في سبيل الله تعالى . وهبط جبريل ؑ على رسول الله ﷺ يوم أحد ، فقال : مَنْ حملك على ظهره ؟ وكان حمله على ظهره طلحة حتى استقل على الصخرة ، قال : طلحة ، قال : أقرئه السلام ، وأعلمه أنني لا أراه يوم القيامة في هول من أهوالها إلا استنقذته منه . من هذا الذي عن يمينك ؟ قال : المقداد بن الأسود . قال : إن الله يحبه ، ويأمرك أن تحبه . من هذا الذي بين يديك يتقى عنك ؟ قال : عمار بن ياسر . قال : بشّره بالجنة حرمت النار على عمار^(٥) . ومر أبو ذر على النبي ﷺ ، ومعه جبريل ؑ في صورة دحية الكلبي ، فلم يسلم ، فقال جبريل : هذا أبو ذر لو سلم لردنا عليه ، فقال : أتعرفه يا جبريل ؟ قال : والذي بعثك بالحق نبياً لهو في ملكوت السموات السبع أشهر منه في الأرض ، قال : بَم نال هذه المنزلة ؟ قال : بزهد في هذه الحطام الفانية^(٦) . وقال ابن عمر ؓ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء »^(٧) . ثم قرأ : وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

(١) قَرْبُوسُ السَّرج : جنو السرج ، وهما قَرْبُوسَان ، والجمع قرابيس [المعجم الوسيط].

(٢) يقصد موقعة الجمل .

(٣) لا ترقأ عبرتها : لا تجف دموعها [ص ٢٥٠].

(٤) وقيل : أول من سلّ سيفاً .. إلخ انظر : «فضائل الصحابة» للإمام أحمد [١٢٦٠].

(٥) وهبط جبريل .. إلخ انظر : «مجمع الزوائد» للهيتمي [١٤٩/٩].

(٦) سمعت رسول الله ﷺ يقول .. إلخ . ضعيف جداً : أخرجه ابن جرير في «التفسير» [٥٧٤/٥ برقم ٥٧٥٣ ط . شاکر ، وفي سنده يحيى بن سعيد

الطار ، منكر الحديث ، وانظر : السلسلة الضعيفة» برقم [٨١٥].

بَعْضُهُمْ يَبْقَى [البقرة: ٢٥١] ^(١) . الآية . وقال أبو بكر السفاح لأبي بكر الهذلي : بم بلغ الحسن ما بلغ ؟ قال : جمع كتاب الله تعالى ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، لم يجاوز سورة إلى غيرها حتى يعرف تأويلها ، ولم يقلب درهما قط في تجارة ، ولم يل عملاً لسلطان ، ولم يأمر بشيء حتى يفعله ، ولم ينه عن شيء حتى يدعه . قال السفاح : بهذا بلغ . وقال الجاحظ : كان الحسن يُستثنى من كل غاية ، فيقال : فلان أزهّد الناس إلا الحسن ، وأفقه الناس إلا الحسن ، وأفصح الناس إلا الحسن ، وأخطب الناس إلا الحسن .

وقال بعضهم : كان عمر بن عبد العزيز أزهّد من أويس ^(٢) ، لأن عمر ملك الدنيا فزهّد فيها وأويس لم يملكها فقيل : لو ملكها لفعل كما فعل عمر ، فقال : ليس من لم يجرب كمن جرب . وقال أنس في ثابت البناني : إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتاً من مفاتيح الخير ، وكان حبيب الفارسي من أخيار الناس ، وهو الذي اشترى نفسه من ربه أربع مرات بأربعين ألفاً ، كان يخرج البذرة ^(٣) فيقول : يارب اشترت نفسي منك بهذه ، ثم يتصدق بها ، وكان أيوب السخيتاني من أزهّد الناس وأورعهم ، ذكر عند أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - فقال : رحم الله أيوب لقد شهدت منه مقاماً عند منبر النبي ﷺ لا أذكر ذلك المقام إلا أقشعر جلدي .

وقال سفيان الثوري : جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر . وكان الخليل بن أحمد النحوي من أزهّد الناس وأعلاهم نفساً ، وكان الملوك يقصدونه ، ويذلون له الأموال فلا يقبل منها شيئاً ، وكان يحج سنة ، ويغزو سنة ، حتى مات رحمه الله .

وقال ابن خارجة : جالست ابن عون عشرين سنة ، فما أظن الملكين كتباً عليه شيئاً ، وروى أنه غسل كرز بن وبرة ، فلم يوجد على جسده مثقال لحم . وعن محمد بن الحسن قال : كان أبو حنيفة واحد زمانه ، لو انشقت عنه الأرض لانشتت عن جبل من الجبال في العلم والكرم والزهد والورع . وحج وكيع بن الجراح أربعين حجة ورابط في عبّادان أربعين ليلة ، وختم بها القرآن أربعين ختمة ، وتصدق بأربعين ألفاً ، وروى أربعة آلاف حديث ، وما روى واضعاً جنبه قط . ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح وهو أسود مفلفل الشعر ، يفتي الناس في الحلال والحرام فتمثل يقول : تلك المكارم لا قعبان ^(٤) من لبن ! ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين سيدي أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي أستاذ إبراهيم بن شيان كان عجيب الشأن لم يأكل مما وصلت إليه أيدي بني آدم سنين كثيرة ، وكان أكله من أصول العشب شيئاً تعود أكله .

ومنهم : « سيدي فتح بن شحرف بن داود » يكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة . قال أحمد بن عبد الجبار : سمعت أبي يقول : صحبت فتح بن شحرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء ، ثم رفعها يوماً فقال : طال شوقي إليك فعجل قدومي عليك ، وقال محمد بن جعفر : سمعت إنساناً يقول : غسلنا فتح بن شحرف ، فرأينا مكتوباً على فخذه لا إله إلا الله ، فتوهّمناه مكتوباً ، وإذا هو عرق داخل الجلد ، ومات ببغداد فصلى عليه ثلاثاً وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه ، كانوا نحواً من خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً . ومنهم « سيدي فتح بن سعيد الموصلي » ؛ يكنى أبا نصر من أقران بشر الحافي ، وسرى السقطي كبير الشأن في باب الورع والمجاهدات . قال إبراهيم بن نوح الموصلي : رجع فتح الموصلي إلى أهله بعد صلاة العتمة ، وكان صائماً ، فقال : عشوني ، فقالوا : ما عندنا شيء نعشيك به ، فقال : ما بالكم جلوس في الظلمة ؟ فقالوا : ما عندنا شيء نسرج به ؟ فجعل يبكي من الفرح ، ويقول : إلهي مثلي يترك بلا عشاء ولا سراج بأي يد كانت مني ؟ فما زال يبكي إلى الصباح ! وقال فتح : رأيت بالبادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ، ويحرك شفثيه فسلمت عليه ، فردّ على

(١) جواب الشرط [لفسدت الأرض] ، وقد تكرر الشرط في الآية رقم [٤٠] من سورة الحج واختلف الجواب فجاء [لهدمت صوامع وبيع] .

(٢) أويس القرني ؓ أول سادات التابعين ، كان من أكابر الزهاد قليل المتاع كان إذا أمسى يقول : اللهم إني أعترض إليك من كل كبد جائع ، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني وروى الحاكم عن علي ؓ « خير التابعين أويس » .

(٣) البذرة : بفتح الباء وسكون الدال : كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ، ويُقدّم في العطايا .

(٤) قعبان : القُبْ قُدَح ضخم غليظ ، والجمع قعباب ، وأقْبَب .

السلام ، فقلت : إلى أين ؟ فقال : إلى بيت ربي عز وجل ! فقلت : بماذا تحرّك شفتيك ؟ قال : أتلو كلام ربي ! فقلت : إنه لم يجر عليك قلم التكليف ؟ قال : رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنّاً مني ! فقلت : خطاك قصيرة ، وطريقك بعيدة ، فقال : إنما عليّ نقل الخطأ ، وعليه البلاغ . فقلت : أين الزاد والراحلة ؟ قال : زادي يقيني ، وراحلتي رجلاي ، فقلت : أسألك عن الخبز والماء . قال : يا عماء ، أرايت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله ؟ قلت : لا . فقال : إن سيدي دعا عباده إلى بيته ، وأذن لهم في زيارته ، فحملهم ضعف يقينهم ، على حمل أزوادهم ، وإنني استقيحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيّعني ؟ فقلت : حاشا وكلا . ثم غاب عن بصرى فلم أراه إلا بمكة ، فلما رأيته قال : أنت أيها الشيخ بعد على ذلك الضعف من اليقين ؟!

ومنها : « سيدي أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبري » صاحب شاه الكرمانى ، ويحيى ابن معاذ الرازى . وكان يقال فى الدنيا ثلاثة لا رابع لهم : أبو عثمان الجبري بنيسابور والجندب بغداد ، وأبو عبد الله الحلاج بالشام ، ومن كلامه : لا يكمل الرجل حتى يستوى فى قلبه أربعة أشياء : المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل . وقال : منذ أربعين سنة ، ما أقامنى الله تعالى فى حال فكرهته ، ولا نقلنى إلى شيء فسخطه .

ومنها : « سيدي سليمان الخوّاص » يكنى أبا تراب ، كان أحد الزهاد المعروفين ، والعباد الموصوفين ، سكن الشام ، ودخل بيروت ، وكان أكثر مقامه ببيت المقدس . قيل : اجتمع حذيفة المرعشى ، وإبراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط ، فتذاكروا الفقر والغنى ، وسليمان ساكت ، فقال بعضهم : الغنى من كان له بيت يسكنه ، وثوب يستره ، وسداد من عيش يكفه عن فضول الدنيا ، وقال بعضهم : الغنى من لم يحتاج إلى الناس ، فليل لسليمان : ما تقول أنت فى ذلك ؟ فبكى وقال : رأيت جوامع الغنى فى التوكل ، ورأيت جوامع الفقر فى القنوط ، والغنى حقّ الغنى من أسكن الله فى قلبه من غناه يقيناً ، ومن معرفته توكلّاً ، ومن قسمته رضا ، فذلك الغنى حقّ الغنى ، وإن أمسى طاوياً ، وأصبح معوزاً فبكى القوم من كلامه .

ومنها : « سيدي أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني » أحد رجال الطريقة - قدس الله سره - كان من أجل السادات ، وأرباب الجد فى المجاهدات ، ومن كلامه : من أحسن فى نهاره كُفى فى ليله ، ومن أحسن فى ليله ، كُفى فى نهاره ، ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له .

وقال : لكل شيء علامة ، وعلامة الخذلان ترك البكاء ، وقال : لكل شيء صدى ، وصدأ نور القلب شيع البطن . وقال أحمد بن أبي الحواري : شكوت إلى أبى سليمان الوسواس فقال : إذا أردت أن ينقطع عنك فأى وقت أحسست به ، فافرح فإنك إذا فرحت به انقطع عنك لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن ، وإذا اغتممت به زادك .

وقال ذو النون المصري - رحمه الله تعالى - اجتمعوا ليلاً على أبى سليمان الداراني فسمعه يقول : يارب إن طالبتى بسريرتى طالبتك بتوحيديك ، وإن طالبتى بذنوبى طالبتك بكرمك ، وإن جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبى إياك .

وقال على بن الحسين الحذاد : سألت أبا سليمان : بأى شيء تعرف الأبرار ؟ قال : بكتمان المصائب ، وصيانة الكرامات . وروى عنه أنه قال : نمت ليلة عن وردي فإذا حوراء تقول لى : أتنام وأنا أربى لك فى الخدور منذ خمسمائة عام !!

ومنها : سيدي أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة ، كوفى الأصل ، ولكنه سكن أنطاكية ، ومن كلامه : لا تغتم إلا من شيء يضرك غذاً ، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غذاً ، وله كرامات ظاهرة ، وبركات متواترة .

ومنها : « سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء » أصبهانى الأصل ، كتب عن ستمائة شيخ ، ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف ، وقطع البادية على التجريد ، وكان فى ابتداء أمره يكسب فى كل

يوم ثلاثة دراهم وثلاثا ، فيأخذ من ذلك لنفسه دانقا^(١) ، ويتصدق بالباقي ، ويختم مع العمل كل يوم ختمة ، فإذا صلى العتمة^(٢) في مسجده ، خرج إلى الجبل إلى قريب الصبح ، ثم يرجع إلى العمل ، وكان يقول في الجبل : يارب إما أن تهب لي معرفتك أو تأمر الجبل أن ينطبق عليّ ، فإني لا أريد الحياة بلا معرفتك .

ومنهم : « سيدى يحيى بن معاذ الرازى » - قدس الله سره - يكنى أبا زكريا أحد رجال الطريق ، كان أوحد وقته ، ومن كلامه : لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه ، ويوم حشره ميزانه .

وقال : ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال : إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تسره فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه .

وقال : الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص ، وقال : بش الصديق صديقاً يحتاج إلى أن يقال له : اذكرني في دعائك ، وقال : على قدر حبك يحبك الخلق ، وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق ، وعلى قدر شغلك بالله تشتغل في أمرك الخلق . وقال : من كان غناه في كيسه ، لم يزل فقيراً ، ومن كان غناه في قلبه لم يزل غنياً ، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً ، وروى أنه قدم شيراز فجعل يتكلم على الناس في علم الأسرار فأثته امرأة من نسائها ، فقالت : كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة ؟ قال : ثلاثون ألفاً أصرفها في دين عليّ بخراسان ، فقالت : لك عليّ ذلك على أن تأخذها وتخرج من ساعتك ، فرضى بذلك ، فحملت إليه المال ، فخرج من الغد ، فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت ، فقالت : إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامّة فغرت على ذلك .

ومنهم : « سيدى يوسف بن الحسين الرازى » يكنى أبا يعقوب كان وحيد وقته في إسقاط التصنع عالماً أديباً صاحب ذا النون المصرى ، وأبا تراب النخشبى . من كلامه : إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال ، فإن قبل فاعلم أنه أحمق . وقال : إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص ، فاعلم أنه لا يجىء منه شيء ، وقال : لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصي أحبّ إليّ من أن ألقاه بذرة من التصنع ، وقال أبو الحسن الدراج : قصدت زيارة ابن الحسين الرازى من بغداد ، فلما دخلت بلده ، سألت عن منزله ، فكل من سألته يقول : أى شيء تريد من هذا الزنديق ؟ فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف ، فبت تلك الليلة في مسجد ، ثم قلت في نفسى : جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته ، فلم أزل أسأل عنه ، حتى وصلت إلى مسجده ، فوجدته جالسا في المحراب ، وبين يديه مصحف يقرأ فيه ، فدنوت منه ، وسلمت عليه فردّ عليّ السلام وقال : « من أين ؟ » قلت : من بغداد . فقال : أتحسن من قولهم شيئاً ؟ قلت : نعم ، وأنشدته :

رَأَيْتُكَ تَبْنِى دَائِمًا فِي قَطِيعَتِي وَلَوْ كُنْتَ ذَا حَزْمٍ لَهَدَمْتَ مَا تَبْنِى

فأطبق المصحف ، ولم يزل ييكى حتى ابتلت لحيته وثوبه ، ورحمته من كثرة بكائه ، ثم التفت إليّ وقال : يا بنى ، أتلوم أهل البلد على قولهم : يوسف بن الحسين زنديق ؟! وهأنذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن ، ولم تقطر من عيني قطرة ، وقد قامت عليّ القيامة بهذا البيت .

ومنهم : « سيدى حاتم بن علوان الأصم » - قدس الله سره - يكنى « أبا عبد الرحمن » من أكابر مشايخ خراسان ، صاحب شقيقاً البلخى ، ومن كلامه : الزم خدمة مولاك تأتلك الدنيا راغمة ، والآخرة راغبة . وقال : من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب . من ادعى حبّ الله تعالى من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى محبة النبى ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب ، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب . وسأله رجل : علام بنيت أمرك في التوكل على الله - عز وجل - ؟ قال : على أربع خصال : علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأنت به نفسى ، وعلمت أن عملى لا يعمل به غيرى ، فأنا مشغول به ؛ وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله - عز وجل - حيث كنت فأنا أستحي منه .

وسبب تسميته بالأصم : ما حكاه أبو على الدقاق أنّ امرأة جاءت تسأله عن مسألة ، فانفق أنه خرج منها صوت

(١) الدانق: سُدس الدرهم، والجمع دوائق، ودوائق.

(٢) المقصود صلاة الوشاء.

ريح ، فخرجت المرأة ، فقال حاتم : ارفعى صوتك ، وأراها أنه أصم ؛ فسرت المرأة بذلك وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه هذا الاسم ، رحمة الله تعالى عليه .

ومنهم : « الحسن بن أحمد الكاتب » من كبار مشايخ المصريين ، صحب أبا بكر المصري ، وأبا على الروذباري ، وكان أواحد مشايخ وقته . من كلامه : روائح نسيم المحبة ، تفوح من المحبين ، وإن كتموها ، وتظهر عليهم دلائلها ، وإن أخفوها ، وتدل عليهم ، وإن ستروها وأنشدوا في هذا المعنى :

إذا ما أسرت أنفس الناس ذكره تبينه فيهم ، ولم يتكلموا
تطيب به أنفاسهم فتذيعها وهل سرُّ منك أودع الريح يكتم ؟

ومن كلامه أيضًا : إذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالكلية ، فأول ما يفيد الاستغناء به عن الناس . وقال : صحة الفساق داء ، ودواؤها مفارقتهم . وقال : إذا سكن الخوف في القلب لا ينطق اللسان بما لا يعنيه .

ومنهم : « سيدى جعفر بن نصر الخلدی » يكنى بأبى محمد ، بغدادى المنشأ والمولد ، صاحب الجُنْدِ وانتفى إليه ، وحج قريبًا من ستين حجة ، روى أنه مرَّ بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتبكي بكاء بحرقة فقال لها : ما لك تبكين ؟ فقالت : ثكلى بولدى ؛ فأنشأ يقول :

يقولون : ثكلى ، ومن لم يذق فراق الأحبة لم يثكل
لقد جرّعتنى لىالى الفراق شراباً أمر من الحنظل !

وروى أنه كان له فصّ فوق منه يومًا فى الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت فدعا به ، فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتصفحها ، وصورة الدعاء أن تقول : « يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع على ضالتي » .

وقد روى أنه يقرأ قبله سورة : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ثلاثًا . وروى الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخه قال : ودعت فى بعض حجّاتى المزين الكبير الصوفى ، فقلت : زودنى شيئًا فقال : إن فقدت شيئًا أو أردت أن يجمع الله بينى وبينك أو بينك وبين إنسان فقل : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بينى وبين كذا ؛ فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو الإنسان .

ومنهم : « سيدى معروف بن فيروز الكرخى » - قدس الله سره - يكنى « أبا محفوظ » من كبار المشايخ مجاب الدعوة ، وهو أستاذ السرى ، وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبى فكان المؤدب يقول له : قل : هو ثالث ثلاثة ، فيقول : بل هو الواحد الصمد ، فضربه المؤدب على ذلك ضربًا موجعًا ، فهرب منه ، فكان أبواه يقولان : ليته يرجع إلينا على أى دين شاء ، فتوافقه عليه ، فرجع إلى أبويه ، فدق الباب ، فقيل : من بالباب ؟ فقال : معروف ، فقيل : على أى دين ؟ فقال : على دين الإسلام ، فأسلم أبواه ، وكان مشهورًا بإجابة الدعوة ، ومن كلامه : ﴿ إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح له باب العمل ، وأغلق عليه باب الفترة ^(١) والكسل ، وكان يعاتب نفسه ، ويقول : يا مسكين ، كم تبكى وتندب ، أخلص تخلص . وقال سرى : سألت معروفًا عن الطائعين ، بأى شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل ؟ قال : بخروج حب الدنيا من قلوبهم ، ولو كانت فى قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن إنشاداته :

الماء يغسل ما بالثوب من دَرٍ وليس يغسل قلب المذنب الماء

وقال إبراهيم الأطروش : كان معروف قاعدًا يومًا على الدجلة ببغداد ، فمرّ بنا صبيان فى زورق يضربون بالملاهى ، ويشربون ، فقال له أصحابه : أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء ؟! فادع عليهم ، فرفع يديه إلى السماء وقال : إلهى وسيدى ، كما فرحتهم فى الدنيا ، أسألك أن تفرحهم فى الآخرة ! فقال له أصحابه : إنما سألناك أن تدعو عليهم ، ولم نقل لك : ادع لهم ، فقال : إذا فرحتهم فى الآخرة ، تاب عليهم فى الدنيا ، ولم يضرهم ذلك .

(١) الفترة : بفتح الفاء وسكون التاء : الضعف والانكسار .

وقال سري : رأيت معروفاً في المنام كأنه تحت العرش ، والله تعالى يقول لملائكته : مَنْ هذا ؟ فقالوا : أنت أعلم يارب ، قال : هذا معروف الكرخي ، سكر بحبي ، لا يفيق إلا بقلاني . وقيل له في مرضه : أوص فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصي هذا ، فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريان كما دخلتها عريان ! وقال أبو بكر الخياط : رأيت في المنام كأنني دخلت المقابر ، فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم ، وبين أيديهم الرياحان ، وإذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويحيى ، فقلت : يا أبا محفوظ ، ما فعل الله بك ؟ أو ليس قد مت ؟ قال : بلى . ثم أنشد يقول :

مَوْتُ الثَّقِيِّ حَيَاةٌ لَا نَفَادَ لَهَا قَدَمَاتُ قَوْمٍ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ

ومنهم : « قاسم بن عثمان الكرخي » يكنى « أبا عبد الملك » من أجلاء المشايخ صحب « أبا سليمان الداراني » وغيره ، وكان من أقران السري ، والحارث المحاسبي ، وكان أبو تراب النخشي يصحبه ، ومن كلامه : من أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى وما بقي ، ومن أفسد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي .

وقال : السلامة كلها في اعتزال الناس ، والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل . وسئل عن التوبة فقال : التوبة رد المظالم ، وترك المعاصي ، وطلب الحلال ، وأداء الفرائض . وقال لأصحابه : أوصيكم بخمس : إن ظلمتم فلا تظلموا ، وإن مدحتم فلا تفرحوا ، وإن دُمتم فلا تحزنوا ، وإن كُذبتُم فلا تغضبوا ، وإن خانوكم فلا تخونوا .

وقال محمد بن الفرج : سمعت قاسم بن عثمان يقول : إنَّ لله عبادةً قصدوا الله بهمهم ، فأفردوه بطاعتهم ، واكتفوا به في توكلهم ، ورضوا به عوضاً عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا فليس لهم حبيب غيره ، ولا قرّة عين إلا فيما قرب إليه . وكان يقول : قليل العمل مع المعرفة ، خير من كثير العمل بلا معرفة ، ثم قال : اعرف وضع رأسك ونم ، فما عبد الله الخلق بشيء أفضل من المعرفة ، وروى عنه أنه قال : رأيت في الطواف حول البيت رجلاً فتقرّبت منه فإذا هو لا يزيد على قوله : اللهم قضيت حاجة المحتاجين ، وحاجتي لم تقض ، فقلت له : ما لك لا تزيد على هذا الكلام ؟ فقال : أحذّك : كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلّنا فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا فنظرت إلى السماء فإذا سبعة أبواب مفتحة عليها سبع جوار من الحور العين ، على كل باب جارية ، فقدم رجل منا فضربت عنقه ، فرأيت جارية في يدها منديل ، قد هبطت إلى الأرض فضربت أعناق الستة ، وبقيت أنا وبقي باب وجارية ، فلما قدمت لتضرب عنقي ، استوهبني ^(١) بعض خواص الملك ، فوهبني له ، فسمعتها تقول : بأي شيء فاتك هذا يا محروم ؟ وأغلقت الباب ، فأنا يا أخي متحسر على ما فاتني ! قال قاسم بن عثمان : أراه أفضلهم لأنه رأى ما لم يروا ، وترك يعمل على الشوق .

ومنهم : « سيدى أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي » كان جليل القدر ، مالكي المذهب ، عظيم الشأن ، صحب « الجند » ومن في عصره ، وكان يبالي في تعظيم الشرع المطهر ، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جدّ في الطاعات ، ويقول : هذا الشهر عظمه ربي فأنا أولى بتعظيمه . وسئل عن قول النبي ﷺ : « خير عمل المرء كسب يمينه » ^(٢) . فقال : إذا كان الليل فخدماء ، ونهياً للصلاة ، وصلّ ماشئت ، ومديديك وسلّ الله - عز وجل - فذلك كسب يمينك . ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها - الله تعالى - وقع مغشياً عليه ، فلما أفاق أنشد يقول :

هَذِهِ دَارُ هَمٍّ وَأَنْتَ مُجِبٌّ مَا بَقَاءُ الدَّمْعِ فِي الْأَمَاقِ ^(٣) !

وروى أنه قال : كنت يوماً جالساً فجرى في خاطري أني بخيل ، فقلت : مهما فتح الله عليّ به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقاني ، قال : فبينما أنا متفكر ، إذ دخل عليّ شخص ، ومعه خمسون ديناراً فقال : اجعل هذه في مصالحك ، فأخذتها ، وخرجت ، وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه ، فتقدّمت إليه وناولته الصرة فقال له : ادفعها للمزين ، فقلت له : إنها دنائير ، فقال : إنك لبخيل ! قال : فناولتها للمزين ، فقال المزين : إن من عادتنا أنّ الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً قال : فرميتها في الدجلة ، وقلت : ما أعزك أحدٌ إلا أذله الله تعالى .

(١) استوهبني : طلب من الملك أن يهبني له .

(٢) خير عمل المرء . . إلخ . لم أقف عليه .

(٣) الأماق : جمع أمق ، وأمق العين هو طرفها الذي يلي الأنف .

ومنهم : « سيدى زرقان بن محمد » أخو ذى النون المصرى ، صاحب سياحة ، كان بجبل لبنان (حكى) عن يوسف بن الحسين الرازى قال : بينما أنا بجبل لبنان أدور ، إذ أبصرت « زرقان » أخا « ذى النون المصرى » جالساً على عين ماء ، وقت صلاة العصر ، فسلمت عليه ، وجلست من ورائه ، فالتفت إلى وقال : ما حاجتك ؟ فقلت : بيتاً شعير سمعتهما من أخيك ذى النون المصرى أعرضهما عليك ، فقال : قل : فقلت : سمعته يقول :

قد بقينا مذبذبين حيارى نطلب الوصول ما إليه سبيل
فدواعى الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقل !
فقال زرقان ولكنى أقول :

قد بقينا مذهلين حيارى حسبنا ربنا ونعم الوكيل
حيثما الفوز كان ذاك منانا وإليه فى كل أمر نميل

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسى ، فقال : رحم الله ذا النون المصرى ، رجع إلى نفسه فقال ما قال : ورجع زرقان إلى ربه فقال ما قال ! وقال أبو عبد الرحمن السلمى : زرقان بن محمد أخو ذى النون المصرى وأظن أنه أخوه مؤاخاة لا أخوة نسب ، وكان من أقرانه ورفقائه .

ومنهم : « سيدى أبو عبد الله النباجى سعيد بن بريد » كان من أقران ذى النون المصرى ، ومن أقران أستاذى أحمد ابن أبى الحوارى له كلام حسن فى المعرفة وغيرها ، روى عنه أنه قال : أصابنى ضيق وشدة فبت وأنا مفكر فى المسير إلى بعض إخوانى ، فسمعت قائلاً يقول لى فى النوم : أيجمل بالحر المرید إذا وجد عند الله ما يريد ، أن يميل بقلبه إلى العبيد ؟ فانتبهت ، وأنا من أغنى الناس !

ومنهم : « سيدى بشر بن الحارث الحافى » - قدس الله روحه - يكنى أبا نصر ، أحد رجال الطريقة ، أصله من مرو ، وسكن بغداد ، وكان من كبار الصالحين ، وأعيان الأتقياء المتورعين ، صحب الفضيل بن عياض وروى عن سرى السقطى وغيره ، ومن كلامه : لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك ، وكيف يكون فيك خير ، وأنت لا يأمنك صديقك ؟! وقال : أول عقوبة يعاقبها ابن آدم فى الدنيا مفارقة الأحباب ، وقال : غنمة المؤمن غفلة الناس عنه ، وخفاء مكانه عنهم . وقال : التكبر على المتكبر من التواضع . وسئل عن الصبر الجميل : فقال : الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه إلى الناس ! وقيل : إنه لقى رجلاً سكران ، فجعل الرجل يقبل يد بشر ، ويقول : يا سيدى يا أبا نصر ، وبشر لا يدفعه عن نفسه ، فلما ولّى الرجل تغرغرت عينا بشر ، وجعل يقول : رجل أحب رجلاً على خير توهمه ، لعل المحب قد نجا ، والمحبوب لا يدرى ما حاله ؟! وروى أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت : إني امرأة أغزل بالليل والنهار ، وأبيعه ، ولا أبيعن غزل الليل من غزل النهار ، فهل علئ فى ذلك شيء ؟ فقال : يجب أن تبينى ! فلما انصرفت ، قال أحمد : لابنه اذهب فانظر أين تدخل ؟ فرجع ، فقال : دخلت دار بشر ، فقال : قد عجبت أن تكون هذه السائلة من غير بيت بشر .

ولما مرض مرضه الذى مات فيه قال له أهله : نرفع ماءك إلى الطبيب ، قال : أنا بعين الطبيب يفعل بى ما يريد ، فالحوا عليه فقال لأخته : ادفعى إليهم الماء فدفعته إليهم فى قارورة ، وكان بالقرب منهم طبيب نصرانى ، فدفعوا إليه القارورة ، فقال : حرّكوا الماء ، فحرّكوه ، فقال : ضعوه ، فوضعوه ، فقالوا له : ما بهذا وصفت لنا ، قال : وبماذا وصفت لكم ؟ قالوا : وصفت بأنك أحذق أهل زمانك فى الطب ، قال : هو كما وصفت لكم ؛ إن هذا الماء إن كان ماء نصرانى فهو ماء راهب ، قدفت الخوف كبده ، وإن كان ماء مسلم فماء بشر الحافى ، لأن ما فى زمانه أخوف منه قالوا : هو ماء بشر ، فقال : أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فلما رجعوا إلى بشر قال لهم : أسلم الطبيب ، قالوا له : ومن أعلمك بهذا ؟ قال لما خرجتم من عندى ، نوديت يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب . توفى سنة سبع وعشرين ومائتين .

ومنهم : « سيدى أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى » من أجلّ المشايخ كبير الشأن . ومن كلامه : مازلت أسوق إلى الله تعالى نفسى ، وهى تبكى إلى أن سقتها وهى تضحك .

وسئل بأى شيء وجدت هذه المعرفة ؟ فقال : ببطن جائع ، وبدن عار . وقيل له : ما أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى ؟ فقال : لا يمكن وصفه . فقيل له : ما أهون ما لقيته نفسك منك ؟! فقال : أما هذا فنعم : دعوتها إلى شيء من الطاعات ، فلم تجبني فمنعتها الماء سنة .

وقال : الناس كلهم يهربون من الحساب ، ويتجافون عنه ، وأنا أسأل - الله تعالى - أن يحاسبني ، فقيل له : لم ؟ فقال : لعله يقول : فيما بين ذلك يا عبدى ، فأقول : لبيك . فقله لى : يا عبدى أحب إلى من الدنيا وما فيها ، ثم بعد ذلك يفعل بى ما يشاء . وقال له رجل : دلنى على عمل أقرب به إلى ربى ، فقال : أحب أولياء الله ليحبوك ، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه ، فلعله ينظر إلى اسمك فى قلب ولى فيغفر لك . وسئل عن المحبة فقال : استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك ، توفى سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى .

ومنهم : شيخ الطائفة « سيدى أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى » شيخ وقته ، وفريد عصره ، أصله من نهاوند ، ومولده ، ومنشؤه ببغداد ، صاحب جماعة من المشايخ ، وصاحب خاله السرى ، والحارث المحاسبى ، ودرس الفقه على أبى ثور ، وكان يُفتى فى مجلسه بحضرته ، وهو ابن عشرين سنة . ومن كلامه : علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه . وقال : الأدب أدبان : أدب السر ، وأدب العلانية ، فأدب السر طهارة القلوب ، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب . ورؤى فى يده يوما سبحة فقيل له : أنت مع تمكثك وشرفك تأخذ بيدك سبحة ، فقال : نعم . سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا تركه أبدا . وقال حسن بن محمد السراج : سمعت الجنيد يقول : رأيت إبليس فى منامى ، وكأنه عريان ، فقلت له : ألا تستحيى من الناس فقال : بالله هؤلاء عندك من الناس ؟! لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم ، كما يتلاعب الصبيان بالكرة ، ولكن الناس عندى ثلاثة نفر ، فقلت : ومن هم ؟ قال : هم فى مسجد الشونيزى قد أضنوا قلبى ، وأنجلوا جسمى ، كلما هممت بهم أشاروا إلى الله - عز وجل - ، فأكاد أن أحرق . قال الجنيد : فانتبهت من نومى ، ولبست ثيابى ، وجئت إلى مسجد الشونيزى لبليل ، فلما دخلت المسجد إذا أنا بثلاثة أنفس جلوس ، ورءوسهم فى مرقعاتهم ، فلما أحسوا بى قد دخلت أخرج أحدهم رأسه ، وقال : يا أبا القاسم ، أنت كلما قيل لك شيء تقبل ؟ قيل : إن الثلاثة الذين كانوا فى مسجد الشونيزى : أبو حمزة ، وأبو الحسن الثورى ، وأبو بكر الدقاق .

وقال محمد بن القاسم الفارسى : بات الجنيد ليلة العيد فى الموضع الذى كان يعتاده فى البرية ، فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف فى عباءة ، وهو يبكى ويقول :

بحُرْمَةِ غُرْبَتِي كَمْ ذَا الصَّدُودُ ؟! أَلَا تَحْنُو عَلَيَّ أَلَا تَجُودُ ؟!
سرور العيد قد عمَّ النُّواحِي وحُزْنِي فِي ازْدِيَادٍ لَا يَبِيدُ !!
فإن كنت اقترفت خلال سوء فعُذْرِي فِي الْهَوَى أَنْ لَا أَعُودُ

توفى الجنيد - رحمه الله تعالى - سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد ، وصلى عليه نحو ستين ألفا - رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن صحبته وانتفعت بصحبته ، وفاضت الخيرات على ببركته سيدى الشيخ الإمام العالم العامل أبو المعالى ، وأبو الصدق « أبو بكر بن عمر الطرينى » المالكى - قدس الله سره وروحه ونور ضريحه - كان أو حد زمانه فى الزهد والورع ، قامعا لأهل الضلال والبدع ، وله أسرار ظاهرة ، وبركات متواترة ، قد أطاع أمره الخلائق عجما وعربا ، وانتشر ذكره فى البلاد شرقا وغربا ، وأنت الملوك إلى بابه ، واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه ، ما أتاه مكروب إلا فرج الله كربته ، ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته . كان محافظا على النوافل ، ملازما للفرص ، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض ، لم يمتع نفسه فى الدنيا بالمأكّل والمشارب اللذيذة ، بل قيل : إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهوَرًا عديدة! وكان ﷺ كثير الشفقة والحنو على أصحابه ، نصوحا لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه ، يدخل إليه أعدى عدوه ، فيقبل ببشره وبرّه عليه ، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه! كما قال بعضهم :

وإنسى لألقى المرء أعلم أنه عذوى وفى أحشائه الضغن كامن

فأمنحه بشرى فيرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه الضغائن
وكانت حملة أهل زمانه عليه ، وأحوالهم في كل أمر راجعة إليه ، وكنت كثيراً ما أسمعهم يتمثل بهذا البيت :
وما حملوني الضيم الإحمله لأننى محبٌ والمحبُّ حمول !

وكان كثير المصافاة ، عظيم الموافاة ، شأنه الحلم والستر ، لم يهتك حرمة مسلم ، ولا فضحه ، وما استشاره أحد في أمر إلا أرشده إلى الخير ونصحه ، صحبته نحو خمس عشرة سنة فكانها من طيبها كانت سنة ، ما قطع بره يوماً واحداً عنى ، حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص منى ، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة يبض الله وجهه في القيامة وبلغه من فضل ربه مآربه . وكان فقيهاً في مذهب الإمام مالك وهو إمام كبير ، لم ير له في زمانه من شبيه ولا نظير ، وله في علم الحقيقة أقوال ، وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال ، ولو تتبعنا مناقبه لاتسع الكلام ، ولكنى أقول : كان أوجد عصره والسلام . عاش نيفاً وستين سنة ، وكان الناس في زمانه في عيشة راضية ، وأحوال حسنة ، وكان كثير الأمراض والأسقام حصل له في آخر عمره ضعف شديد ، أقام به نحو سنة ، ثم تزايد مرضه في العشر الأول من ذى الحجة الحرام ، فلما كانت ليلة الحادى عشر ، اشتد به الأمر ، واحتضر ، ولم يزل في النزاع إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة ، ثم توفي - رحمه الله تعالى - سعيداً حميداً في ليلة الجمعة حادى عشر ذى الحجة الحرام ، سنة سبع وعشرين وثمانمائة . ولما أخبر الناس بوفاته عظم مصابه على المسلمين ، ووقع النوح والبكاء والأسف في أقطار البلدان ، حتى طوائف المخالفين للملة من النصارى وغيرهم ، وصاروا يبكون ويتوجعون ، ويتأسفون ، على فراقه ، وكيف لا وهو إمام العصر ، علامة الدهر ، حق فيه قول القائل :

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان ف كفر

رضى الله عنه ، ورضى عنا به ؛ ونفعنا ببركته في الدين والدنيا والآخرة - فشرعوا في تجهيزه وغسله ، فكنتم ممن حضر غسله ، ولكن لم يكن ذهني معى في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقدته ، كيف لا؟ وقد كان لى والدا شقيقاً ، وباراً محسناً عشوقاً ، فلما انتهى غسله جاء القضاة والنواب والكشاف والولاة ، وحملوه على أعناقهم ، ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة ، فضاقت بهم الجامع على سعته ، وضافت الشوارع والسكك والطرق من كثرة الناس ، فلم ير أكثر جمعا ، ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم ، وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه .

قال الإمام أحمد بن حنبل : بيننا وبينهم الجنائز يريد بذلك اجتماع الناس . والله أعلم فارتفع نعشه على أعناقهم ، وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى : « سيدى سليمان الدواخلى » - نفعنا الله ببركته - ودفن يوم الجمعة بزاويته التى أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتى المسلمين ، سراج الدين ، أبى حفص عمر الطرینی المالکی فى قبر واحد نفعنا الله ببركته ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ، وحشرنا وإياه فى زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبیین ، وأفضل المرسلین صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، ونسأله التوفيق والإعانة ، وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطرینی ، أدام الله أيامه للمسلمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الباب الحادى والثلاثون

فى مناقب الصالحين وكراسات الأولياء

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر ، ومناقبهم أكثر من أن تحصر ، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم فى زمرة نبينا محمد يوم المحشر ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير وهو حسبنا ونعم الوكيل .
(حكاية) قال مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - احتسبنا عن المطر بالبصرة فخرجنا نستسقى مرارا فلم نر للإجابة

أثرا ، فخرجت أنا وعطاء السلمى ، وثابت البنانى ، ويحيى البكاء ، ومحمد بن واسع وأبو محمد السخيتانى ، وحبيب الفارسى ، وحسان بن ثابت بن أبى سنان ، وعتبة الغلام ، وصالح المزنى ، حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة ، خرج الصبيان من المكاتب ، ثم استسقين فلم نر للإجابة أثرا ، حتى انتصف النهار ، وانصرف الناس ، وبقيت أنا وثابت البنانى بالمصلى ، فلما أظلم الليل إذا أنا بعد أسود مليح ، رقيق الساقين ، عليه جبة صوف ، قومت ما عليه بدرهمين ، فجاء بماء فتوضأ ، ثم جاء إلى المحراب ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : إلهى ، وسيدى ، ومولاي ، إلى كم تردّ عبادك فيما لا يتفك ؟! أنفد ما عندك ؟! أم نقص ما فى خزائنك ؟! أقسمت عليك بحبك لى إلا ما أسقين غيثك الساعة . قال : فما تم كلامه ، حتى تغيمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب . قال مالك : فتعزّضت له ، وقلت له : يا أسود ، أما تستحى مما قلت ؟! قال : وما قلت ؟ قلت : قولك بحبك لى ، وما يدريك أنه يحبك ؟ قال : تنح عني يا من اشتغل عنه بنفسه ، أفتراه بدأنى بذلك إلا لمحبهته إياى ، ثم قال : محبهته لى على قدره ، ومحبهته لى على قدرى ، فقلت له : يرحمك الله ! ارفق قليلا ، فقال : إني مملوك ، وعلى فرض من طاعة مالكى الصغير . قال : فانصرف ، وجعلنا نقفو أثره على البعد ، حتى دخل دار نخاس^(١) ، فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت : يرحمك الله ! عندك غلام تبيعه لنا للخدمة ؟ قال : نعم عندي مائة غلام للبيع ، فجعل يعرض علينا غلاما بعد غلام ، حتى عرض علينا سبعين غلاما ، فلم ألق حبيبي فيهم ، فقال : عودا إلى غير هذا الوقت ، فلما أردنا الخروج من عنده دخلنا حجرة خربة خلف داره وإذا بالأسود قائم يصلى ، فقلت : حبيبي ورب الكعبة فجئت إلى النخاس ، فقلت له : بعنى هذا الغلام ، فقال : يا أبأ يحيى هذا غلام ليست له همة فى الليل ، إلا البكاء ، وفى النهار إلا الخلوة والوحدة ، فقلت له : لا بد من أخذه منك ، ولك الثمن ، وما عليك منه ، فدعاه فجاء وهو يتناعس ، فقال : خذه بما شئت ، بعد أن تبرئنى من عيوبه كلها فاشتريته منه بعشرين دينارا وقلت له : ما اسمك ؟ قال : ميمون ، فأخذت بيده أريد المنزل ، فالتفت إلى ، وقال : يا مولاي الصغير ، لماذا اشتريتنى وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين ؟! فقلت له : والله يا سيدى إنما اشتريتك لأخدمك بنفسى ، قال : ولم ذلك ؟ فقلت : أأست صاحبا البارحة بالمصلى ؟! قال : وقد اطلعت على ذلك ؟! قلت : نعم . وأنا الذى عارضتك البارحة فى الكلام بالمصلى . قال : بلى فجعل يمشى حتى أتى إلى مسجد فاستأذنى ، ودخل المسجد ، فصلى فيه ركعتين خفيفتين ، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : إلهى وسيدى ومولاي سر كان بيني وبينك ، أطلعت عليه غيرك ، فكيف يطيب الآن عيشى ؟! أقسمت عليك بك ، إلا ما قبضتنى إليك الساعة ثم سجد فانتظرت ساعة فلم يرفع رأسه ، فجئت إليه ، وحركته ، فإذا هو قد مات - رحمة الله تعالى عليه - قال : فمددت يديه ورجليه ، فإذا هو ضاحك مستبشر ، وقد غلب البياض على السواد ، وجهه كالقمر ليلة البدر ، وإذا شاب قد دخل من الباب وقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أعظم الله أجورنا وأجوركم فى أختنا ميمون ، هاكم الكفن ، فناولنى ثوبين ما رأيت مثلهما قط ، فغسلناه ، وكفناه فيهما ودفناه .

(وحكى) عن حذيفة المرعى رضي الله عنه وكان قد خدم إبراهيم الخواص رضي الله عنه وصحبه مدة فقبل له : ما أعجب ما رأيت منه ؟! فقال : بقينا فى طريق مكة أياما لم نأكل طعاما ، فدخلنا الكوفة ، فأوينا إلى مسجد خرب ، فنظر إلى إبراهيم وقال : يا حذيفة ، أرى بك أثر الجوع ؟ فقلت هو كما ترى ، فقال : على بدواة وقرطاس فأحضرتهما إليه ، فكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى ثم قال :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى
هى ستة وأنا الضّمين لنصفها
مرحى لغيرك لهب نار خضتها فأجى عبيدك من لهيب النار

قال حذيفة : ثم دفع إلى الرقعة ، وقال : اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفعها إلى أول من يلقاك ، قال : فخرجت فأول من لقينى رجل على بغلة ، فناولته الرقعة فأخذها فقرأها وبكى ، وقال : ما فعل بصاحب هذه الرقعة ؟ قلت : هو فى المسجد الفلانى ، فدفع إلى صرة فيها ستمائة درهم ، فأخذتها ، ومضيت فوجدت رجلا ،

(١) النخاس : بتشديد النون والخاء مع فتحهما : بائع الدواب والرقيق .

فسأله : من هذا الراكب على البغلة ؟ فقال : هو رجل نصراني ، قال : فجنّت إبراهيم ، وأخبرته بالقصة فقال : لا تمس الدراهم ، فإنّ صاحبها يأتي الساعة ، فلما كان بعد ساعة أقبل النصراني راكبا على بغلته ، فترجل على باب المسجد ، ودخل فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ، ويديه ، ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال : فبكى إبراهيم الخواص فرحاً به وسروراً وقال : الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .

(وحكى) أبو إسحاق الصعلوكي قال : خرجت سنة إلى الحج ، فبينما أنا في البادية تائه ، وقد جُنّ الليل ، وكانت ليلة مقمرة إذ سمعت صوت شخص ضعيف يقول : يا أبا إسحق ، قد انتظرتك من الغداة ، فدنوت منه ، فإذا هو شاب نحيف الجسم ، وقد أشرف على الموت ، وحوله رياحين كثيرة ، منها ما أعرف ، ومنها ما لا أعرف ؛ فقلت له : من أنت ؟ ومن أين أنت ؟ قال : من مدينة شمشاط . كنت في عزة ورفعة فطالبتني نفسي بالغربة والعزلة ، فخرجت ، وقد أشرفت الآن على الموت ، فدعوت - الله تعالى - أن يقيض لي ولياً من أوليائه ، وأرجو أن تكون أنت هو ، فقلت : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، لي والدة وإخوة وأخوات فقلت : هل اشتقت إليهم قط ؟ قال : لا ، إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم ، فهممت أريدهم ، فاحتوشتي^(١) السباع والهوام وبكين معي ، وحملوا إلى هذه الرياحين التي تراها . قال أبو إسحق : فبينما أنا معه ، يرق له قلبي ، وإذا بحية عظيمة في فمها باقة نرجس كبيرة ، فقلت : دع وليّ الله تعالى ، فإنّ الله يغار على أوليائه ؛ قال : فغشى عليه ، وغشى عليّ ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه - رحمه الله - . قال : فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت ، فاستقبلتني امرأة بيدها ركوة^(٢) ، ما رأيت أشبه بالشاب منها ، فلما رأتني نادى يا أبا إسحاق ؛ ما شأن الشاب الغريب الذي مات غريباً ، فإني منتظرتك منذ كذا وكذا ، فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها : أشم ريحهم ، فصاحت أواه أواه ، قد بلغ والله الشم ، ثم شهقت شهقة خرجت روحها ، فخرج إليها بنات أتراب عليهنّ مرقعات ومروط ، فكفلن أمرها ، وتولين دفنها ، وهنّ مستترات رضوان الله على الجميع :

يا نسيماً هبّ من وادي قبا خبرني كيف حال الغربا ؟
كم سألت الدهر أن يجمعنا مثل ما كنا عليه فأبى !!

(وحكى) أن رجلاً كان يعرف بدینار العیار ، وكان له والدة صالحة تعظه ، وهو لا يتعظ فمرّ في بعض الأيام بمقبرة فأخذ منها عظماً ، فتفتت في يده ، ففكر في نفسه وقال : ويحك يا دينار كأنى بك وقد صار عظمك هكذا رفاتا ، والجسم تراباً ، فندم على تفريطه ، وعزم على التوبة ، ورفع رأسه إلى السماء ، وقال : إلهي وسيدي ، ألقيت إليك مقاليد أمري ، فأقبلني وارحمي ، ثم أقبل نحو أمه متغير اللون ، منكسر القلب ، فقال : يا أماه ، ما يُصنعُ بالبعد^(٣) الآبق إذا أخذه سيده ؟ قالت : يخشن ملبسه ، ومطعمه ، ويغل يديه وقدميه ، فقال : أريد جبة من صوف ، وأقراصاً من شعير ، وغلّين^(٤) ، وافعلی بی كما یفعل بالبعد الآبق ، لعل مولای یرى ذلی فیرحمنی ، ففعلت به ما أراد ، فكان إذا جنّ عليه الليل أخذ في البكاء والعويل ، ويقول لنفسه : ويحك يا دينار ؛ ألك قوّة على النار ؟ كيف تعرّضت لغضب الجبار ؟! ولا يزال كذلك إلى الصباح ، فقالت له أمه : يا بني ارفق بنفسك فقال : دعيني أتعب قليلاً لعلی أستريح طويلاً ، يا أماه ، إن لي غداً موقفاً طويلاً بين يدي رب جليل ، ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل ، أو إلى شر مقيّل ؟! قالت : يا بني خذ لنفسك راحة قال : لست للراحة أطلب ، كأنك يا أماه غداً بالخلاق يساقون إلى الجنة ، وأنا أساق إلى النار مع أهلها ، فتركته وما هو عليه فأخذ في البكاء والعبادة ، وقراءة القرآن ، فقرأ في بعض الليالي : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗ أَعْمَیْنِ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] . ففكر فيها ، وجعل يبكي ، حتى غشى عليه ، فجاءت أمه إليه ، فنادته ، فلم يجبها ، فقالت له : يا حبيبي وقرة عيني ، أين الملتقى ؟ فقال بصوت

(١) احتوشتي: اختوش الشيء، أي أحاطه.

(٢) ركوة: بكسر الراء وسكون الكاف: إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء، والدُّلو الصغير.

(٣) الآبق: الهارب.

(٤) غلّين: مثني الغلّ، وهو طوق من حديد يجعل في عنق الأسير أو المجرم أو في أيديهما.

ضعيف : يا أماه إن لم تجديني في عرصات^(١) القيامة ، فاسألي مالكا خازن النار عني ، ثم شهق شهقة فمات - رحمه الله تعالى - فغسلته أمه ، وجهزته ، وخرجت تنادي : أيها الناس ، هلموا إلى الصلاة على قتيل النار ، فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعا ، ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم ؛ فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة ، فرآه يتبخر في الجنة ، وعليه حلة خضراء ، وهو يقرأ الآية : ﴿وَرَبِّكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ويقول : وعزته وجلاله سألتني ، ورحماني ، وغفر لي ، وتجاوز عني ، ألا أخبروا عني والدتي بذلك .

(وحكى) عن الحسن البصري قال : نزل سائل بمسجد قال : فسأل الناس أن يطعموه كسرة ، فلم يطعموه ، فقال الله تعالى - لملك الموت : اقبض روحه فإنه جائع ، فقبض روحه ، فلما جاء المؤذن رآه ميتا ، فأخبر الناس بذلك فتعاونوا على دفنه ، فلما دخل المؤذن المسجد ، وجد الكفن في المحراب مكتوبا عليه ، هذا الكفن مردود عليكم ، بشئ القوم أنتم استطعتمكم فقير ، فلم تطعموه حتى مات جوعا ، من كان من أحبائنا لا نكله إلى غيرنا .

(وحكى) أبو على المصري قال : كان لي جار شيخ ، يغسل الموتى ؛ فقلت له يوما : حدثني بأعجب ما رأيت من الموتى ! فقال : جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه ، حسن الثياب ، فقال لي : أتغسل لنا هذا الميت ؟ قلت : نعم . فنبعته حتى أوقفني على باب ، فدخل هنيئة ، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشباب قد خرجت ، وهي تمسح عينيها ، فقالت : أنت الغاسل ؟ قلت : نعم . قالت : باسم الله ادخل ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فدخلت الدار . وإذا أنا بالشباب الذي جاءني يعالج سكرات الموت ، وروحه في لبتة^(٢) ، وقد شخص بصره ، وقد وضع كفنه وحنوطه عند رأسه ، فلم أجلس إليه حتى قبض ، فقلت : سبحان الله ! هذا ولي من أولياء الله تعالى ، حيث عرف وقت وفاته ، فأخذت في غسله : وأنا أرتعد ، فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته قبلته ، وقالت : أما إنني سألحق بك عن قريب ، فلما أردت الانصراف شكرت لي ، وقالت : أرسل إلي زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت ، فارتعدت من كلامها ، وعلمت أنها لاحقة به ، فلما فرغت من دفنه ، جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية ، فوفقت بالباب ، واستأذنت فقالت : باسم الله تدخل زوجتك ، فدخلت زوجتي ، وإذا بالجارية مستقبلة القبلة ، وقد ماتت ، فغسلتها زوجتي وأنزلتها على أخيها رحمة الله عليهما :

لبعدكم أصالها وضحاها
رسوم مبانيتها وفاح كلاها
بنومي فعييني لا تُصيب كراها
فقد صرْتُ سمحا بعدكم بدمائها
سرورا وأحشائ السقام ملاها
يشب لظاها لو كشفت غطاها
تقضت وحيائها الحيا وسقاها
من الناس إلا قال قلبي : آها^(٣)

أحبابنا بنتم عن الدار فاشتكت
وفارقتُم الدار الأنيسة فاستوت
كأنكم يوم الفراق رحلتُم
وكنْتُ شحيحا من دموعي بقطرة
يراني بساما خليلي يظن بي
وكم ضحكة في القلب منها حرارة
رعى الله أياما بطيب حديثكم
فما قلت : إيها بعدها لمسامر

(وحكى) سري السقطي - رحمه الله تعالى - قال : أرقت ليلة ، ولم أقدر على النوم ، فلما طلع الفجر صليت ، فلما أصبحت دخلت المارستان فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة ، وهي تقول :

وما خاننت وما سَرَقْتُ !
أجسُّ بها قد احترقْتُ !

تُغفل يدي إلى عُثْقِي
وبين جوانحي كبد

قال : فقلت للقيم : ما هذه الجارية ؟ قال : هذه جارية اختل عقلها ، فحبست لعلها تصلح فلما سمعت كلامه تبسمت وقالت :

(١) عرصات : الغرصة هي ساحة الدار ، أو قرص من الطين المحروق ، أو صفيحة من الحديد تثبت في التنور لينضج عليها الخبز وغيرها .

(٢) لبتة : اللبَّة : موضع القلادة من العنق ، والقلادة نفسها ، والجمع لبَّات ، ولياب .

(٣) إيها : كلمة تعجب ، وآها : كلمة توجع .

أنا سكرانة وقلبي صاحي
غير هتكي في حبه وافتضاحي !
لست أبغى عن بابيه من براح^(١)
وارتضاه لنفسه من جناح !

معشر الناس ما جننت ولكن
لم غللتهم يدي ؟ ولم آت ذنبا
أنا مفتونة بحب حبيب
ما على من أحب مولى الموالى

قال : فلما سمعت كلامها ، بكيت بكاء شديدا ، فقالت : يا سرى هذا بكاؤك من الصفة ، فكيف لو عرفته حق المعرفة ؟ قال : فينما هي تكلمني ، إذ جاء سيدها ، فلما رآني عظمي ، فقلت : والله هي أحق مني بالتعظيم ، فلم فعلت بها هذا ؟ قال : لتقصيرها في الخدمة ، وكثرة بكاؤها ، وشدة حنينها ، وأنيها ، كأنها تكلى لا تنام ، ولا تدعنا ننام ، وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة ، قلت : فما كان بدء أمرها ؟ قال : كان العود في حجرها يوما فجعلت تقول :

ولا كدزْتُ بعد الصَّفْوَ وذا
فكيف أقرّ ياسكنى وأهدا ؟
تراك رضيتنى بالباب عبدا !!

وحَقُّكَ لا نقضتُ الدهر عهدًا
ملأت جوانحي والقلب وجدا
فيا من ليس لى مولى سواه

فقلت لسيدها : أطلقها ، وعلى ثمنها ، فصاح : وافقراه : من أين لك عشرون ألفا يا سرى ؟ فقلت : لا تعجل على ، فقال : تكون في المارستان^(٢) حتى توفيئني ثمنها ، فقلت : نعم . قال سرى : فانصرفت ، وعيني تدمع ، وقلبي يخشع ، وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها ، فبت طول ليلتي أتضرع إلى الله تعالى ، فإذا بطارق يطرق الباب ، ففتحت ، فدخل على رجل ومعه ستة من الخدم ، ومعهم خمس بدر ، فقال : أتعرفني يا سرى ؟ قلت : لا . قال : أنا أحمد بن المثنى ، كنت نائما فهتف بي هاتف ، وقال لى : يا أحمد ، هل لك في معاملتنا ؟ فقلت : ومن أولى مني بذلك ؟ فقال : احمل إلى سرى السقطى خمس بدر من أجل الجارية القلانية ، فإن لنا بها عناية ، قال سرى : فسجدت لله شكرا ، وجلست أتوقع طلوع الفجر ، فلما طلع صلينا ، وذكرنا وانصرفنا ، نحوها فسمعناها تقول :

عيل من حُبِّكَ صَبْرِي
وامتهاننى منك صَدْرِي
يامننى قلبى وذخري
وتفك اليوم أسرى !

قد تصببرت إلى أن
ضاق من غلى وقبىدى
ليس يخفى عنك أمرى
أنت قد تعتق رقى

قال سرى فينما أنا أسمعها ، وإذا بمولاهما قد جاء وهو يبكي ، فقلت : لا بأس عليك ، قد جئناك برأس مالك . وريح عشرة آلاف درهم ! فقال : والله لا فعلت ذلك ! قلت : نزيك . قال : والله لو أعطيتني ما بين الخافقين^(٣) ما فعلت ، وهي حرة لوجه الله تعالى ، قال : فتعجبت من ذلك ، وقلت : ما كان هذا كلامك بالأمس ، فقال : حبيبي لا توبخنى ، فالذى وقع لى من التوبيخ كفى ، وأشهدك أنى قد خرجت من جميع مالى صدقة فى سبيل الله تعالى ، وأنى هارب إلى الله تعالى ، فبالله لا تردنى عن صحبتك ، فقلت : نعم . ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : يا أستاذى ما قبلنى مولاي لما ندبني إليه ، وردّ على ما بذلت ، أشهدك أنى قد خرجت من جميع ما أملكه تعالى فى سبيل الله ، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى ، قال سرى : فقلت : ما أعظم بركتك يا جارية . قال : فنزعنا الغل من عنقها ، والقيد من رجلها ، وأخرجناها من المارستان فزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ، ولبست خمارا من صوف ، ومدرعة^(٤) من شعر ، وولت ! قال سرى : فتوجهت أنا ومولاهما وصاحب المال إلى مكة ، فينما نحن نطوف إذ سمعنا صوتا فتبعناه فإذا هى امرأة كالخيال ، فلما رأتنى قالت : السلام عليك يا سرى ؟ فقلت لها : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، من أنت ؟ فقالت : لا إله إلا الله وقع الشك بعد المعرفة فتأملتُها فإذا هى الجارية ، فقلت لها : ما الذى أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق ؟ فقالت : أنسى به ووحشتى من

(٢) المارستان : المصحّة ، أو المستشفى .

(٤) المدرعة : الدَّرَاعة ، وهي ثوب من صوف .

(١) أي من زوال .

(٣) أي ما بين المشرق والمغرب .

غيره ، ثم توجهت إلى البيت وقالت : إلهي كم تخلفني في دار لا أرى فيها أنيساً قد طال شوقي إليك ، فعجل قدومي عليك ، ثم شهمت شهقة وخرت ميتة- رحمة الله تعالى عليها - فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ، ويضعف كلامه إلى أن خرّ إلى جانبها ميتاً رحمة الله عليه ، فدفنهما في قبر واحد :

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم من الود إلا ما رجعتم إلى وضيلى
ولا تحرموني نظرة من جمالكم فلن تجدوا عبداً ذليلاً لكم مثلى
فوالله ما يهوى فؤادى سواكم ولو رشقوه بالأسنة والنبل

(وحكى) أنه كان في زمن بنى إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد ، وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير ، فاعتراه فتور في بعض الأيام فأزال الله عنه سحابته ، وحجب إجابته ، فكثر لذلك حزنه وشجونه ، وطال كمدّه وأنيته ، وما زال يشاق إلى زمن الكرامة ، ويبكى ويتأسف ، ويتحسر ، ويتلهف ؛ فقام ليلة من الليالي فصلى ما شاء الله وبكى ، وتضرع ، ودعا الله تعالى ، ونام ، ف قيل له في المنام : إذا أردت أن يردّ الله تعالى عليك سحابتك ، فانت الملك الفلاني في بلد كذا ، واسأله أن يدعو الله لك أن يردّ عليك سحابتك ، قال : فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلد التي ذكرت له في المنام ، فدخلها ، وسأل من يرشده إلى قصر الملك ، فجاء إلى القصر ، وإذا عند بابه غلام جالس على كرسى عظيم من الذهب الأحمر ، مرصع بالدر والجوهر ، والناس بين يديه يسألونه حوائجهم . وهو يصرف الناس ، فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه ، فقال له الغلام : من أين أنت ؟ وما حاجتك ؟ فقال : من بلاد بعيدة ، وقصدي الاجتماع بالملك ، فقال له الغلام : لا سبيل لك إليه اليوم : فسأل حاجتك أفضها لك إن استطعت ، فقال : إن حاجتي لا يقضيها إلا الملك ، فقال الغلام : إن الملك ليس له إلا يوم واحد في الجمعة ، يجتمع إليه الناس فيه ، فاذهب حتى يأتي ذلك اليوم ، فانصرف الرجل إلى مسجد دائر ، وأقام لعبد الله تعالى فيه ، وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس ، فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء إلى القصر ، فوجد خلقاً كثيراً عند الباب ينتظرون الإذن ، فوقف مع جملة الناس ، فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول ، فدخل أرباب الحوائج . ودخل صاحب السحابة معهم ، وإذا بالملك جالس ، وبين يديه أرباب دولته على قدر مراتبهم ، فجعل رأس النوبة ^(١) يقدم الناس واحداً بعد واحد ، حتى وصلت النوبة لصاحب السحابة ، فلما نظر إليه الملك قال : مرحباً بصاحب السحابة اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس ، وأنظر في أمرك ، قال : فتحير صاحب السحابة في أمره فلما فرغ الملك من حوائج الناس ، قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره ، ثم مشى به في دهليز القصر ، فلم يجد في طريقه إلا مملوكاً واحداً فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد ، وإذا به بناء مهديم وحيطان مائلة ، وبیت خرب فيه برش ^(٢) ، وليس هناك ما يساوى عشرة دراهم إلا سجادة خلقة ، وقدر للوضوء ، وحصير رثة ، وشيء من الخوص ، فأنخلع الملك من ثياب الملك ، ولبس مرقعة من صوف وجعل على رأسه قلنسوة من شعر ، ثم جلس ، وأجلس صاحب السحابة ، ونادى يا فلانة ، قالت : لبيك . قال : أتدري من هو الليلة ضيفنا ؟ قالت : نعم . هو صاحب السحابة ، فدعا بها لحاجة ، فخرجت فإذا هي امرأة كالشن ^(٣) البالى عليها مسح من شعر خشن ، وهي شابة صغيرة ، قال الرجل : فالتفت إلى الملك وقال : يا أخى نطلعك على حالنا ، أو نقضى حاجتك وتنصرف ، فقلت : والله لقد شغلني حالكما عما جئت بسببه ، فقال الملك : الله يعلم أنه كان لى في هذا الأمر آباء كرام صالحون ، يتوارثون المملكة كابراً عن كابر ، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى ، ووصل الأمر إلى بغض الله إلى الدنيا وأهلها ، فأردت أن أسبح في الأرض ، وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم ، فيمَلَكُونَهُ عليهم ، فخفت عليهم دخول الفتنة ، وتضييع الدين والشرائع ، وتبديد شمل الدين ، فبايعوني وأنا والله كاره ، فتركت أمورهم على ما كانت عليه ، وجعلت السماط ^(٤) على عادته ، والحراس على حالها والمماليك على دأبها ، ولم أغير شيئاً ، وأقعدت

(١) النوبة : بتشديد النون المفتوحة وسكون الواو ، أي الجماعة من الناس .

(٢) البرش : بضم الباء وسكون الراء : حصير صغير من سعف النخل يُجلس عليه .

(٣) أي المعجوز .

(٤) السماط : الضف ، ويقال : هم على سماط واحد ، أي نظم واحد .

الممالك على الأبواب بالسلح إرهاباً لأهل الشرور ، وردعا عن أهل الخير ، وتركت القصر مزينا على حاله ، وفتحت له بابا ، وهو الذي رأيته يوصلني إلى هذه الخربة ، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا ، وأضفر الخوص ، وأبيعه ، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيته ، وهي ابنة عمي زهدت في الدنيا كزهدي ، واجتهدت حتى صارت كالشن البالي ، والناس لا يعلمون ما نحن فيه ، ثم إنني أقمت لي نائبا ينوب عني طول الجمعة ، وعلمت أنني مسئول فجعلت لي يوما في الجمعة أبرز للناس فيه ، وأكشف عن مظالمهم كما رأيت وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله ، حتى نبيع خويصاتنا ، نبتاع من ثمنها طعاما ، وتغفر معنا ، وتبيت عندنا الليلة ، ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى ، فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسي العمر ، فأخذ ما عملناه من خوص ، وسار به إلى السوق فباعه ، واشترى من ثمنه خبزا وفولا ، واشترى بباقي ثمنه خوصا ، فلما كان عند الغروب أفطرا ، وأفطرت معهما وبت عندهما قال : فقاما في نصف الليل يصليان ويبيكان ، فلما كان عند السحر ، قال الملك ، اللهم إن عبدك هذا يطلب منك ردّ سحابه ، وإنك قد دللته علينا ، اللهم اردها عليه ، إنك على كل شيء قدير ، والمرأة تؤمن على دعائه ، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء ، فقال لي : لك البشارة بقضاء حاجتك ، وتعجيل إجابتك قال : فودّعتهما وانصرفت ، والسحابة معي كما كانت فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئا إلا أعطاني إياه رحمة الله تعالى عليهما :

ولازم الباب حتى تبلغ الأملأ
واحمل لمرضاته في الحب كل بلا^(١)
صلب لثقل الهوى والوجد قد حملا
فانهض وكن رجلا بالسعى قد وصلا

استعمل الضبر تجني بعده العسلا
ومرغ الخذف في أعنابه سحرأ
فما يفوز بوصل يا أخى سوى
هذا الحبيب ينادى في الدجى سحرأ

(وحكى) عن مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - قال ، خرجت إلى مكة حاجا ، فبينما أنا سائر إذ رأيت شابا ساكتا لا يذكر الله تعالى ، فلما جنّ الليل رفع وجهه نحو السماء ، وقال : يا من لا تُسرّه الطاعات ، ولا تضره المعاصي ، هب لي مالا يسرك ، واغفر لي مالا يضرك ، ثم رأيته بذى الحليفة ، وقد لبس إحرامه والناس يلبون ، وهو لا يلبى ، فقلت : هذا جاهل ؟ فدنوت منه ، فقلت له : يا فتى ، قال : لييك . قلت : لم لا تلبى ، فقال : يا شيخ ، وما تغني التلبية ؟ وقد بارزته بذنوب سالفات ، وجرائم مكتوبات ، والله إنني لأخشى أن أقول : لييك ، فيقول : لا لييك ولا سعديك ، لا أسمع كلامك ، ولا أنظر إليك ، فقلت له ، لا تقل ؛ فإنه حلیم إذا غضب رضى ، وإذا رضى لم يغضب ، وإذا وعد وفى ومتى تواعد عفا ، فقال : يا شيخ أتشير على بالتلبية ، قلت : نعم . فبادر إلى الأرض ، واضطجع ووضع خده على التراب ، وأخذ حجرا فوضعه على خده الآخر ، وأسبل دموعه وقال : لييك اللهم لييك ، قد خضعت لك ، وهذا مصرعى بين يديك ، فأقام كذلك ساعة ثم مضى فما رأيته إلا بمنى ، وهو يقول : اللهم إن الناس قد ذبحوا ونحروا وتقربوا إليك ، وليس لي شيء أتقرب به إليك سوى نفسي ، فتقبلها منى ، ثم شق شهقة ، وخر ميتا رحمة الله تعالى عليه .

(وحكى) أنه كان بمدينة بغداد رجل ، يُعرف بأبى عبد الله الأندلسي ، وكان شيخا لكل من بالعراق ، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات ، فخرج في بعض السنين إلى السياحة ، ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق ، قال الشبلي فلم نزل في خدمته ، ونحن مكرمون بعناية الله تعالى ، إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار ، فطلبنا ماء نتوضأ به ، فلم نجد فجعلنا ندور بتلك القرية ، وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة وقساوسة ، ورهبان ، وهم يعبدون الأصنام والصلبان ، فتعجبنا منهم ، ومن قلة عقلهم ، ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية ، وإذا نحن بجوار يستقي الماء على البئر ، وبينهن جارية حسنة الوجه ، ما فيهن أحسن ولا أجمل منها ، وفي عنقها قلاند الذهب ، فلما رآها الشيخ تغير وجهه ، وقال : هذه ابنة من ؟ فقيل له هذه ابنة ملك هذه القرية ، فقال الشيخ فلم لا يدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقى الماء ؟! فقيل له : أبوها يفعل

ذلك بها حتى إذا تزوّجها رجل أكرمه ، وخدمته ، ولا تعجبها نفسها فجلس الشيخ ونكس رأسه ، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، ولا يكلم أحدا غير أنه يؤدى الفريضة ، والمشايخ واقفون بين يديه ، ولا يدرون ما يصنعون ، قال الشبلى : فتقدمتُ إليه وقلت له : يا سيدى إن أصحابك ومريدك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام ! وأنت ساكت لم تكلم أحدا ؟ قال : فأقبل علينا ، وقال : يا قوم ، اعلموا أن الجارية التي رأيتها بالأمس قد شغفت بها حبا واشتغل قلبى بها ، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض . قال الشبلى : فقلت له : يا سيدى أنت شيخ أهل العراق ، ومعروف بالزهد فى سائر الآفاق ، وعدد مريدك اثنا عشر ألفا فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز ، فقال : يا قوم جرى القلم بما حكم ، ووقعت فى بحار العدم ، وقد انحلت عنى غزى الولاية ، وطويت عنى أعلام الهداية ، ثم إنه بكى بكاء شديدا ، وقال : يا قوم : انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر ، فتعجبنا من أمره ، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره ، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب ، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد ، فخرج الناس إلى لقائه ، ومريده فى جملة الناس ، فلم يروه فسألوا عنه ، فعرفناهم بما جرى ، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنا عليه ، وأسفا ، وجعل الناس يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم ، وغلقت الرباطات والزوايا والخوانق ^(١) ، ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة ، وخرجت مع بعض أصحابى لا تكشف خبره ، فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ ، فقيل لنا : إنه فى البرية يرعى الخنازير ، قلنا : وما السبب فى ذلك ؟ قالوا : إنه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوّجها إلا ممن هو على دينها ، ويلبس العباءة ، ويشدّ الزنار ^(٢) ، ويخدم الكنائس ، ويرعى الخنازير ، ففعل ذلك كله وما هو فى البرية يرعى الخنازير ! قال الشبلى : فانصدعت قلوبنا ، وانهملت بالبكاء عيوننا ، وسرنا إليه ، وإذا به قائم قدام الخنازير ، فلما رآنا نكس رأسه ، وإذا عليه قلنسوة النصارى ، وفى وسطه زنار ، وهو متوكئ على العصا التى كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب ، فسلمنا عليه فردّ علينا السلام ، فقلنا : يا شيخ ، ماذا ؟ وماذا ؟ وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم ؟ فقال : يا إخوانى وأحبابى ، ليس لى من الأمر شيء ، سيدى تصرف فى كيف شاء ، وحيث أراد ، أبعدنى عن بابيه ، بعد أن كنت من جملة أحبائه ، فالحذر الحذر يا أهل وداده ! من صده وإبعاده ، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء ! ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : يا مولاي ما كان ظنى فيك هذا ! ثم جعل يستغيث ويبكى ، ونادى يا شبلى اتعظ بغيرك ، فنادى الشبلى بأعلى صوته بك المستعان ، وأنت المستغاث ، عليك التكلان ، اكشف عنا هذه الغمة بحلمك ، فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك ، قال : فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم ، وجعلت تمرّغ وجوهها بين أيديهم ، وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال ! قال الشبلى : فظننت أن القيامة قد قامت ، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديدا ، قال الشبلى : فقلنا له : هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد ؟ فقال : كيف لى بذلك وقد استرعت الخنازير بعد أن كنت أرى القلوب ؟! فقلت : يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع ، فهل بقيت تحفظ منه شيئا ؟! فقال : نسيته كله إلا آيتين ، فقلت ، وما هما ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨] والثانية قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِدْ لِّلْكَفْرِ الْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ الْكَيْلِ ﴾ [البقرة: ١٠٨] فقلت : يا شيخ ، كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ فهل تحفظ منها شيئا ؟! قال حديثا واحدا وهو قوله ﷺ « مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ » ^(٣) . قال الشبلى فتركناه وانصرفنا ، ونحن متعجبون من أمره ، فسرنا ثلاثة أيام ، وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر ، وطلع وهو يشهد شهادة الحق ، ويجدد إسلامه ، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور فنظر إلينا وقال : يا قوم أعطوني ثوبا طاهرا فأعطيناه ثوبا فلبسه ، ثم صلى وجلس ، فقلنا له : الحمد الذى ردّك علينا ، وجمع شملنا بك ، فصف لنا ما جرى لك وكيف كان أمرك ؟ فقال : يا قوم ، لما وليتم من عندى سألته بالوداد القديم ، وقلت له : يا مولاي أنا المذنب الجانى ، فعفا عني بجوده وبستره غطاني فقلنا له : بالله نسألك هل كان لمحتك من سبب ؟ قال : نعم لما وردنا القرية ، وجعلتم تدورون حول الكنائس ، قلت فى نفسى : ما قدر هؤلاء عندى وأنا مؤمن موحد ؟! فنوديت فى سرى ليس هذا منك ولو شئت

(١) الخوانق: الخائى هو الشعب الضيق بين جبلين، أو الزقاق (لغة يمانية).

(٢) الزنار: بتشديد الزاي المضمومة وتشديد التون المفتوحة هو حزام يشده النصراي على وسطه والجمع زناير.

(٣) «من بدل دينه.. إلخ» أخرجه أحمد [٢١٧/١].

عَرَفْنَاكَ ، ثم أَحَسَسْتُ بطائر قد خرج من قلبي ، فكان ذلك الطائر هو الإيمان . قال الشبلي : ففرحنا به فرحاً شديداً ، وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً ، وفتحت الزوايا ، والرباطات ، والخوانق ، ونزل الخليفة للقاء الشيخ ، وأرسل إليه الهدايا ، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً ، وأقام على ذلك زماناً طويلاً ، ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث ، وزاده على ذلك ، فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح ، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية ، فنظرت من الباب فإذا شخص ملتف بكساء أسود ، فقلت له : ما الذي تريد ؟ فقال : قل لشيخكم : إنَّ الجارية الرومية التي تركها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك : قال : فدخلت فعرفت الشيخ ، فاصفر لونه ، وارتعد ، ثم أمر بدخولها ، فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً : فقال لها الشيخ : كيف كان مجيئك ؟ ومن أوصلك إلى ههنا ؟ قالت : يا سيدي لما وليت من قريتنا ، جاءني من أخبرني بك ، فبت ولم يأخذني قرار ، فرأيت في منامي شخصاً وهو يقول : إن أحببت أن تكوني من المؤمنات ، فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام ، واتبعي ذلك الشيخ ، وادخلي في دينه ، فقلت وما دينه ، قال : دين الإسلام . قلت : وما هو ؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فقلت : كيف لي بالوصول إليه ؟ قال : أغمضي عينيك وأعطيني يدك ، ففعلت فمشى قليلاً ، ثم قال : افتحي عينيك ففتحتهما ، فإذا أنا بشاطئ الدجلة ، فقال : امضي إلى تلك الزاوية ، وأقرئي الشيخ مني السلام ، وقولي له : إنَّ أخاك الخضر يسلم عليك ، قال : فأدخلها الشيخ إلى جواره ، وقال : تعبدى هاهنا فكانت أعبد أهل زمانها ، تصوم النهار ، وتقوم الليل ، حتى نحل جسمها ، وتغير لونها فمرضت مرض الموت ، وأشرفت على الوفاة ، ومع ذلك لم يرها الشيخ ، فقالت . قولوا للشيخ يدخل عليّ قبل الموت ، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها ، فلما رأته بكت ، فقال لها : لا تبكي ، فإنَّ اجتماعنا غدا في القيامة ، في دار الكرامة ، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى ، فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل ، حتى مات - رحمة الله تعالى عليه - قال الشبلي : فرأيت في المنام ، وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية ، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثاني والثلاثون

في ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش، والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً طَيِّبَةً ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، وَيَبْقَى شَرَارُ الْخَلْقِ ، يَتَهَارَجُونَ تَهَارُجَ الْحَمِيرِ ، وَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ » ^(١) .
وقال مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - كفى بالمرء شرّاً أن لا يكون صالحاً ، ويقع في الصالحين . وقال لقمان لابنه : يا بُنَيَّ كذب من قال : الشرُّ يُطْفِئُ الشرَّ فإن كان صادقاً فليؤدِّد نارين ، ثم ينظر هل تُطْفِئُ إحداهما الأخرى ؟ ! وإنما يُطْفِئُ الشرُّ الخيرُ كما يُطْفِئُ الماءُ النارَ . ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر ، فقال : فلان عُورَى من حُلَّةِ التقوى ، ومُجِنِّي عنه طابع الهدى لا تشبه يد المراقبة ، ولا تكفه خيفة المحاسبة ، وهو لدعائمه دينه مضيع ، ولدواعي شيطانه مطيع :

كَأَنَّهُ التَّيْسُ قَدْ أَوْدَى بِهِ هَرَمٌ فَلَا لَحْمَ وَلَا صَوْفَ وَلَا ثَمَرُ

(١) «قبل قيام الساعة.. إلخ». أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي. يتهاجون: يتقاتلون.

وقيل : من فعل ما شاء لقي ما ساء ، وقيل : زنى رجل بجارية ، فأجلها ، فقالوا له : يا عدو الله ، هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت ؟ قال : قد بلغني أنّ العزل مكروه ! قالوا : فما بلغك أنّ الزنا حرام ؟! وقيل لأعرابي كان يتعشق^(١) قينة : ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها؟ قال : فمن لي إذا ذاك بلذة الخلسة ، ولقاء المسارقة ، وانتظار الموعد؟! وقال أبو العيئة : رأيت جارية مع النخاس^(٢) ، وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها ، فسألتها عن ذلك ، فقالت : يا سيدى إنه يواقعني من قيام ، ويصلى من قعود ، ويشتمني بإعراب ، ويلحن في القرآن ، ويصوم الخميس والاثنين ، ويفطر رمضان ، ويصلى الضحى ، ويترك الفرض ! فقلت : لا أكثر الله في المسلمين مثله ! وكانت ظلمة القوادة ، وهي صغيرة في المكتب تسرق دوايات الصبيان وأقلامهم ، فلما شبت زنت ، فلما كبرت قادت . وقال صاحب المسالك والممالك : إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً خلا ملك قمار . وقال الزمخشري - رحمه الله - أقمت بقمار سنين ، فلما أر ملكاً أغير منه ، وكان يعاقب على الزنا ، وشرب الخمر بالقتل ، وقمار ينسب إليها العود القمارى ، كما ينسب إلى مندل ، قال مسكين الدارمي :

ولا ذنب للعود القمارى أنه يحرق إن نمت عليه روائحه

وقال ابن عباس رضي الله عنه : عهدت الناس وهوام تبع لأديانهم ، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم . وقال رسول الله ﷺ : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »^(٣) .

✽ ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء:

قال رسول الله ﷺ : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت »^(٤) وفي ذلك قيل :

إذا لم تَصْنِ عرضاً ولم تَخْشِ خالقاً وتستح مخلوقاً فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام : العاقل شجاع القلب ، والأحمق شجاع الوجه . وذم رجل قومًا فقال : وجوههم وأيديهم حديد أى : وقاح بخلاء . ووصف رجل وقحًا فقال : لو دق الحجارة بوجهه لرضها ، ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها قال الشاعر :

لو أن لى من جلد وجهك رقعةً لجعلت منها حافرًا للأشهب^(٥)
وقال آخر :

إذا رزق الفتى وجهها وقاحاً تقلب فى الأمور كما يشاء

وقال أنو شيروان : أربعة قبائح وهي فى أربعة أقبح : البخل فى الملوك ، والكذب فى القضاء ، والحسد فى العلماء ، والوقاحة فى النساء . ويقال من جسر أيسر ، ومن هاب خاب . وقال الشاعر :

لا تكونن فى الأمور هيوباً فإلى خيبة يصير الهيوب

وقال على رضي الله عنه : إذا هبت أمرا فقع فيه ، فإن شر توقيه أعظم مما تخاف منه . وقال رضي الله عنه : الغوغاء إذا اجتمعوا ضروا وإذا افرقوا نفعوا ؛ فليل قد علمنا مضرة اجتماعهم ، فما منفعة افتراقهم ؟! قال : يرجع أهل المهن إلى مهنهم ، فينتفع الناس بهم ، كرجوع البناء إلى بنائه ، والنساج إلى منسجه ، والخباز إلى مخبزه . وقال بعض السلف : لا تسبوا الغوغاء فإنهم يطفئون الحريق ، ويخرجون الغريق . وقال الأحنف : ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا . وقال حكيم : لا يخرج أحد من بيته إلا وقد أخذ فى حجره قيراطين من جهل ، فإن الجاهل لا يدفعه إلى الجهل إلا إرادة السفه قال الشاعر :

ألا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلین

(٢) النخاس : بائع الرقيق.

(١) قينة : جارية / مغنية.

(٣) «بحسب امرئ... إلخ» أخرجه مسلم [٢٥٦٤]. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) البخاري في الأدب المفرد . وقد سبق تخريجه.

(٥) المقصود بالأشهب : حيوان خالط بياض شعره سواد.

وقيل : الجاهل من لا جاهل له أى من لا سفيه له يدفع عنه . وقيل : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذ جاء أعرابي فلطمه ، فقام إليه واقد بن عمر ، فجلد به الأرض ، فقال عمر : ليس بعزيز من ليس فى قومه سفيه ، وقال الشاعر :

ولا يلبث الجهال أن يتهضموا^(١)
وقال صالح بن جناح^(٢) :

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعدا
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً
وقال الأخف بن قيس :

وذى ضغن أبى القول عنه
ومن يحلم وليس له سفيه
وقال آخر :

فإن كنت محتاجاً إلى الحلم إننى
ولى فرس للخير بالخير ملجم
فمن رام تقويمى فإنى مقوم
وقال آخر :

فإن قيل : حلم قلت : للحلم موضع وحلم الفتى فى غير موضعه جهل !
اللهم إنا نعوذ بك أن نجعل أو نجعل علينا برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثالث والثلاثون

فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق ، واصطناع المعروف وذكر الأمجاد ، وأحاديث الأجواد

اعلم أن الجود بذل المال : وأنفعه ما صرف فى وجه استحقاقه ، وقد ندب الله تعالى إليه فى قوله تعالى : ﴿ لَنْ نَسْأَلَكَ الْآلِ وَالْأَرْحَامَ حَتَّى تَبْقُوا بِمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [آل عمران: ٩٢] قيل : إن الجود والسخاء ، والإيثار بمعنى واحد ، وقيل : من أعطى البعض ، وأمسك البعض ، فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود ، ومن أثر غيره بالحاضر ، وبقي هو فى مقاساة الضرر ، فهو صاحب إيثار .

وأصل السخاء هو السماحة ، وقد يكون المعطى بخيلاً إذا صعب عليه البذل ، والممسك سخياً إذا كان لا يستصعب العطاء (فمن الإيثار ما حكى) : عن حذيفة العدوى أنه قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى فى القتلى ، ومعى شئ من الماء ، وأنا أقول : إن كان به رفق سقيته ، فإذا أنا به بين القتلى ، فقلت له : أسقيك ، فأشار إلى أن نعم ، فإذا برجل يقول ، آه فأشار إلى ابن عمى أن انطلق إليه واسقه فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك .

(١) يتهضموا : يقال هضم فلاناً ، أى ظلمه وغصبه . وتهضم فلان لفلان ، أى انقاد له ، وتهضم نفسه له : رضى منه بدون النصفة .

(٢) ارجع إلى كتابنا «المروءة الغائبة» تجد الكثير عنه .

فأشار إلى أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه ، فأشار إلى أن انطلق إليه فجثته ، فإذا هو قد مات ، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت إلى ابن عمي ، فإذا هو قد مات !! (ومن عجائب ما ذكر في الإيثار) : ما حكاه أبو محمد الأزدي قال : لما احترق المسجد بمرو ظن المسلمون أن النصارى أحرقوه ، فأحرقوا خاناتهم ، فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات ، وكتب رقاعاً^(١) فيها القطع ، والجلد ، والقتل ونثرها عليهم ، فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها فوقعت رقعة فيها القتل ، بيد رجل ، فقال : والله ما كنت أبالي لولا أم لي وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له : في رقعتي الجلد ، وليس لي أم ، فخذ أنت رقعتي ، وأعطيت رقعتك ففعل ، فقتل ذلك الفتى ، وتخلص هذا الرجل . وقيل لقيس بن سعد : هل رأيت قط أسخى منك ؟ قال : نعم نزلنا بالبادية على امرأة ، فجاء زوجها ، فقالت له : إنه نزل بنا ضيفان ، فجاء بناقة فنحرها ، وقال : شأنكم ، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها ، وقال : شأنكم ، فقلنا ، ما أكلنا من التي نحرنا البارحة إلا القليل ، فقال : إني لا أطعم ضيفاني البائت ، فبقينا عنده أياما والسماء تمطر ، وهو يفعل كذلك ، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا : قفوا أيها الركب اللثام ، أعطيتمونا ثمن قرانا ، ثم إنه لحقنا وقال : خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا ، فأخذناها وانصرفنا . وقال بعض الحكماء : أصل المحاسن كلها الكرم ، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام ، وسخاؤها بما تملك على الخاص العام ، وجميع خصال الخير من فروعه ، وقال رسول الله ﷺ : « تجاوزوا عن ذنب السخي ؛ فإن الله أخذ بيده كلما عثر ، وفتح له كلما افتقر »^(٢) . وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : « مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ ، فَقَالَ : لَا »^(٣) . وعنه ﷺ أنه قال : « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، يَبْعِدُ مِنَ النَّارِ ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، يَبْعِدُ مِنَ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ ، وَالْجَاهِلُ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بِخِيلٍ »^(٤) . وقال بعض السلف : منع الموجد سوء ظن بالمعبود ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩] . وقال الفضيل : ما كانوا يعدون القرض معروفاً ، وقال أكثم بن صيفي : صاحب المعروف لا يقع ، وإن وقع وجد له متكأ . وقيل للحسن بن سهل : لا خير في السرف ؛ فقال لا سرف في الخير ، فقلب اللفظ واستوفى المعنى ، ووجد مكتوباً على حجر : انتهب الفرص عند إمكانها ، ولا تحمل نفسك هم ما لم يأتك ، واعلم أن تقثيرك على نفسك ، توفير لخزانة غيرك ، فكم من جامع لبعل حليلته ! وقال علي ﷺ : ما جمعت من المال فوق قوتك ، فإنما أنت فيه خازن لغيرك ، وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه : من أفضل الناس عيشاً ، وأنعمهم بالاً ، وأكرمهم طباعاً ، وأجلهم في النفوس قدراً ؟ فسكت القوم ، فقام فتى ، فقال : أبيت اللعن أفضل الناس من عاش الناس في فضله ، فقال : صدقت . وكان أسماء بن خارجة يقول : ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة لأنه إن كان كريماً أصون عرضه ، أو ليثماً أصون عته عرضي .

وكان مروق العجلى يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه فيضع عند أحدهم البذرة^(٥) . يقول له : أمسكها حتى أعود إليك ، ثم يرسل يقول له : أنت منها في حل^(٦) . وقال الحسن ﷺ : باع طلحة بن عثمان ﷺ أرضاً بسبعمائة ألف درهم ، فلما جاءه المال قال : إن رجلاً يبيت هذا عنده لا يدرى ما يطرقة لغرير^(٧) بالله تعالى ، ثم قسمه في المسلمين . ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها : يا أم المؤمنين ، أصابتنى فاقة^(٨) ، فقالت ماعندي شيء ، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعت بها إليك ، فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد ، فأرسلت بها إليه في أثره ، فأخذها ودخل بها السوق ، فاشتري جارية بألف درهم ، فولدت له ثلاثة أولاد ، فكانوا عبداً المدينة وهم : محمد ، وأبو بكر ، وعمر بنو المنكدر ، وأكرم العرب في الإسلام : طلحة بن

(١) رقاعاً: جمع رقعة، وهي القطعة من الورق أو ما يكتب فيه؛ والمراد بالقطع: حد السرقة، وهو قطع اليد.

(٢) ضعيف: أخرجه الأصبهاني في الترغيب [١٥٥٢] والبيهقي [١٠٨٦٧-الشعب] من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري [٦٠٣٤]، ومسلم [٢٣١١].

(٤) السخي... إلخ. أخرجه الترمذي [١٩٦١] وانظر كتاب البخلاء للخطيب، تحقيق.

(٥) البذرة: «بفتح الباء» قدر من المال في صرة.

(٦) أي: هي حلال لك وعليك.

(٧) غرير بالله: يجهله، ويغفل عن كرمه، ويقال: ما غرك بكذا؟ أي: ما جراك عليه؟

(٨) فاقة: فقر.

عبيد الله ﷺ جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه ، فقال : هذا حائطي بمكان كذا وكذا ، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح إلى بالمال العشية ، فإن شئت فالمال ! وإن شئت فالحائط^(١) . وقال زياد بن جرير : رأيت طلحة بن عبيد الله فرّق مائة ألف في مجلس ، وإنه ليخيظ إزاره بيده . وذكر الإمام أبو علي القالي في كتاب الأمالي : أن رجلاً جاء إلى معاوية ﷺ فقال له : سألتك بالرحم^(٢) . التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي ، فقال له معاوية أمن قريش أنت ؟ قال : لا . قال : فأى رحم بيني وبينك ؟ قال رحم آدم عليه السلام ! قال : رحم مجفوة^(٣) ، والله لأكونن أول من وصلها ، ثم قضى حاجته ، (وروى) أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدى بن حاتم يستعير منه قدوراً^(٤) كانت لأبيه حاتم ، فملأها مالا ، وبعث بها إليه ، وقال : إنا لا نغيرها فارغة ، وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد لم يناول أحدا شيئاً ، وإنما كان يطرحه في الأرض ، فيتناوله الآخذ من الأرض ، وكان يقول : الدنيا أقل خطراً^(٥) من أن ترى من أجلها يد فوق أخرى .

وقد قال النبي ﷺ : « اليَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى »^(٦) . وسأل معاوية الحسن بن علي ﷺ عن الكرم فقال : هو التبرع بالمعروف قبل السؤال ، والرأفة بالسائل مع البذل . وقدم رجل من قريش من سفر ، فمرّ على رجل من الأعراب على قارة الطريق ، قد أقعده الدهر ، وأضرّبه المرض فقال له : يا هذا أعنا على الدهر ؟ فقال لغلّامه : ما بقى معك من النفقة فادفعه إليه ، فصب في حجره أربعة آلاف درهم ، فهم ليقوم فلم يقدر من الضعف ، فبكى ، فقال له الرجل . ما ييكيك لعلك استقلت ما دفعناه إليك ؟ فقال : لا والله ، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك ، فأبكاني . وقال بعضهم : قصد رجل إلى صديق له فدقّ عليه الباب ، فخرج إليه ، وسأله عن حاجته ، فقال : علّى دين كذا وكذا ، فدخل الدار ، وأخرج إليه ما كان عليه ، ثم دخل الدار باكياً فقالت له زوجته : هلا تعلّلت^(٧) . حيث شئت عليك الإجابة ؟ فقال : إنما أبكى لأنى لم أتقدّ حاله حتى احتاج إلى أن سألنى ! ويروى أن عبد الله بن أبي بكر - وكان من أجود الأجواد - عطش يوماً في طريقه ، فاستسقى من منزل امرأة فأخرجت له كوزاً ، وقامت خلف الباب ، وقالت تنحوا عن الباب ، وليأخذ بعض غلمانكم فإني امرأة عذب مات زوجي منذ أيام ، فشرب عبد الله الماء ، وقال : يا غلام ، احمل إليها عشرة آلاف درهم ، فقالت : سبحان الله ! أتسخر بي ؟ فقال : يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً ! فقالت أسأل الله العافية ، فقال : يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً ؛ فما أمست حتى كثر خطاها !! وكان ﷺ ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه ، وأربعين عن يساره ، وأربعين أمامه ، وأربعين خلفه ، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد ، ويعتق في كل عيد مائة مملوك ﷺ .

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة^(٨) ، فسأل عنهم ، فقبل له . إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال : أخزى الله مالا يمنع عنى الإخوان من الزيارة ، ثم أمر منادياً ينادى : من كان لقيس عنده مال فهو منه في جِلٍّ ، فكسرت عتبة بابه بالعشي^(٩) . لكثرة العواد . وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود ! وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود ، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة ، فيفرّقها في الناس ، ولا يرى إلا وعليه دين . وسمن رجل بهيمة ثم خرج بها لبيعها ، فمرّ بعبد الله بن جعفر ﷺ فقال : يا صاحب البهيمة ، أتبيعها ؟ قال : لا . ولكنها هي لك هبة ، ثم تركها له وانصرف إلى بيته ، فلم يلبث إلا يسيراً وإذا بالحمالين على بابه عشرين نفراً عشرة منهم يحملون حنطة ، وخمسة لحماً وكسوة ، وأربعة يحملون فاكهة ونقلًا^(١٠) ، وواحد يحمل مالا ، فأعطاه جميع ذلك ، واعتذر إليه ﷺ . ولما مات معاوية ﷺ وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه

(١) الحائط : البستان ، والجمع حيطان ، وحوايط .

(٢) مجفوة : مقطوعة غير موصولة .

(٣) خطراً : شأن ، وأهمية .

(٤) مسلم في فضل الصدقة ١٠٣٣/٢ .

(٥) تعلّلت : اعتذرت بعلّة يقبلها السائل .

(٦) مسلم في فضل الصدقة ١٠٣٣/٢ .

(٧) تعلّلت : اعتذرت بعلّة يقبلها السائل .

(٨) العيادة : زيارة المريض .

(٩) العشي : آخر النهار .

(١٠) النقل : بتشديد النون المضمومة وسكون القاف ، هو ما يُنقل به على الشراب من فواكه وغيرها ، وما يُنفّكه به من جوز ولوز وبنّاق ونحوها ، وأكثر ما يكون ذلك في ليالي رمضان .

(٢) الرحم : صلة القرى .

(٤) قدوراً : جمع قدر . آنية الطبخ وحفظ الطعام .

فقال : كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك ؟ فقال : كان - رحمه الله - يعطيني ألف ألف ، فقال يزيد ، قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف ، فقال بأبي وأمي أنت فقال : ولهذه ألف ألف ، فقال : أما إنني لا أقولها لأحد بعدك ، فقيل ليزيد : أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد ، فقال والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة ، ثم وكل به يزيد من صحبه ، وهو لا يعلم ، لينظر ما يفعل ، فلما وصل المدينة ، فرّق جميع المال ، حتى احتاج بعد شهر إلى الدين ، وخرج ﷺ هو والحسن ، وأبو دحية الأنصاري ﷺ من مكة إلى المدينة ، فأصابتهم السماء بمطر فلبثوا إلى خباء أعرابي ، فأقاموا عنده ثلاثة أيام ، حتى سكنت السماء ، فذبح لهم الأعرابي شاة ، فلما ارتحلوا ، قال عبد الله للأعرابي : إن قدمت المدينة ، فسل عنا ، فاحتاج الأعرابي بعد سنين ، فقالت له امرأته : لو أتيت المدينة ، فلقيت أولئك الفتيان ، فقال : قد نسيت أسماءهم ، فقالت : سل عن ابن الطيار ، فأتى المدينة فلقى سيدنا الحسن ﷺ ، فأمر له بمائة ناقة بفحولها ورعاتها ، ثم أتى الحسين ﷺ فقال : كفانا أبو محمد مؤنة الإبل ، فأمر له بألف شاة ، ثم أتى عبد الله بن جعفر ﷺ فقال : كفاني إخواني الإبل والشياه فأمر له بمائة ألف درهم ، ثم أتى أبا دحية ﷺ فقال : والله ما عندي مثل ما أعطوك ولكن اتنى بإبلك فأقرها^(١) لك تمرا ؛ فلم يزل اليسار في عقب الأعرابي من ذلك اليوم .

وقال الحسن والحسين يوما لعبد الله بن جعفر ﷺ إنك قد أسرفت في بذل المال . فقال : بأبي أنتما إن الله - عز وجل - عودني أن يتفضل عليّ وعودته أن أنفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني المأنة . وامتنحه نصيب ، فأمر له بخيل وأثاث ودنانير ودراهم ، فقال له رجل : مثل هذا الأسود تعطى له هذا المال ؟ فقال : إن كان أسود فإنّ ثنائه أبيض ، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال ، وهل أعطيناها إلا ثيابا تبلى ، ومالاً يفنى ؟! وأعطانا مدحا يروى ، وثناء يبقى .

وخرج عبد الله ﷺ يوما إلى ضيعة له ، فنزل على حائط به نخيل لقوم ، وفيه غلام أسود يقوم عليه ، فأنى بقوته ثلاثة أقراص ، فدخل كلب ، فدنا من الغلام ، فرمى إليه بقرص فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلهما ، وعبد الله ينظر إليه ، فقال : يا غلام كم قوتك كل يوم ، قال : ما رأيت . قال : فلم أثرت هذا الكلب ؟ قال : أرضنا ما هي بأرض كلاب ، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعا ، فكرهت أن أردّه . قال : فما أنت صانع اليوم ؟ قال : أطوى يومى هذا ، فقال عبد الله بن جعفر ، ألام على السخاء وإن هذا لأسخى منى ؟! فاشتري الحائط وما فيه من النخيل والآلات ، واشترى الغلام ، ثم أعتقه ، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات ، فقال الغلام : إن كان ذلك لى فهو فى سبيل الله تعالى ، فاستعظم عبد الله ذلك منه . فقال : يوجد هذا ، وأبخل أنا لا كان ذلك أبدا ! وكان عبد الله بن عباس ﷺ من الأجواد أنه رجل - وهو بفناء داره - فقام بين يديه وقال : يا بن عباس ، إن لى عندك يدا ، وقد احتجت إليها فصعد فيه بصرة فلم يعرفه ، فقال : ما يدك ؟ قال : رأيتك واقفا بفناء زمزم ، وغلماك يمتح^(٢) لك من مائتها ، والشمس قد صهرتك ، فظلمت بك بفضل كسائى حتى شربت ، فقال : أجل إننى لأذكرك ذلك ، ثم قال لغلماه : ما عندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة آلاف درهم ، فقال : ادفعها إليه ، وما أراها تفى بحق يده . وقدم عبد الله بن عباس ﷺ على معاوية مرة فأهدى إليه من هدايا الثوروز^(٣) خللا كثيرة ، ومسكا وآنية من ذهب وفضة ، ووجهها إليه مع حاجبه ، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب . وهو ينظر إليها فقال له : هل فى نفسك منها شيء ؟ قال : نعم والله إن فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف ﷺ فضحك عبد الله ، وقال : خذها فهى لك ، قال : جعلت فداءك أخاف أن يبلغ ذلك معاوية ، فيحقد على ، قال : فاختمها بخاتمك وسلمها إلى الخازن فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلا ، فقال الحاجب : والله لهذه الحيلة فى الكرم أكثر من الكرم .

وحبس معاوية عن الحسين بن على ﷺ صلاته ، فقيل له : لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن عباس فإنه قدم بنحو ألف ألف . فقال الحسين : وأنى تقع ألف ألف من عبد الله ؟! فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت ، وأسخى

(١) أوفر فلاّن الدابة إيقارًا: حملها حملًا ثقيلاً.

(٢) يمتح: يقال: تمتح الدلو، أي جذب رشاءها. وفتح الماء: نزع واستخرجه.

(٣) الثوروز: أو الثيروز: يوم من أيام السنة الشمسية الإيرانية ويوافق الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية، وهو أكبر الأعياد عند الفرس.

من البحر إذا زخر ، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه ، وضيق حاله ، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم ، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه ، وقال : ويلك يا معاوية أصبحت لين المهادر ، رفيع العمادر ، والحسين يشكو ضيق الحال ، وكثرة العيال . ثم قال لوكيله : احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة ودواب وأخبره أنني شاطرته فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني ، فلما أتاه الرسول قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ثقلت والله على ابن عمي ، وما حسبت أنه يسمح لنا بهذا كله .

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال له : يا بن عم محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود ، وإنى سميت به باسمك تبركاً بك ، وإن أمه ماتت ، فقال له : بارك الله لك في الهبة ، وأجرك على المصيبة ، ثم دعا بوكيله وقال له : انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضه ، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته ، ثم قال للأنصاري : عد إلينا بعد أيام ، فإنك جئتنا وفي العيش ييس ، وفي المال قلة ، فقال الأنصاري : جعلت فداك لو سبقت حاجتاً بيوم ما ذكرته العرب . وقال أبو جهم بن حذيفة يوماً لمعاوية : أنت عندنا يا أمير المؤمنين كما قال ابن عبد كلال :

يقينا ما نخاف وإن ظننا به خيرا أرناءه يقيننا
نميل على جوانبه كأننا إذا ملنا نميل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرمنا ولينا
فأمر له بمائة ألف درهم . وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله عنه :

بلوث الناس قرنا بعد قرن فلم أر غير ختال وقال ^(١)
ولم أر في الخطوب أشد وقعاً وأمضى من معادة الرجال
وذقت مرارة الأشياء طراً ^(٢) فما شيء أمر من السؤال !
فأعطاه مائة ألف درهم .

ودخل عليه الحسن يوماً وهو مضطجع على سريريه ، فسلم عليه وأقعده عند رجله ، وقال له : ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تزعم أنني لست للخلافة أهلاً ، ولا لها موضعاً ؟! فقال الحسن : أو عجباً مما قالت ؟! قال : كل العجب . قال الحسن : وأعجب من هذا كله جلوسى عند رجلك ، فاستحيا معاوية ، واستوى جالسا ، ثم قال : أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتنى : كم عليك ديناً ؟! قال مائة ألف درهم ، فقال : يا غلام ، أعط أبا محمد ثلاثمائة ألف درهم ، مائة ألف يقضى بها دينه ، ومائة ألف يفرقها على مواليه ، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوغها إليه الساعة . وكان معن بن زائدة من الأجواد ، وكان عاملاً على العراق بالبصرة ، قيل إنه أتى إليه بعض الشعراء ، فأقام بيابه مدة يريد الدخول عليه فلم يتهياً له ذلك ، فقال يوماً لبعض الخدم ، إذا دخل الأمير البستان فعرّفني ، فلما دخل أعلمه بذلك فكتب الشاعر بيتاً ، ونقشه على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، وكان معن جالساً على القنطرة ، فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها بيت مفرد :

أيا جود مَن نَاج معنًا بحاجتي فليس إلى مَن سواك شفيع
فقال : من الرجل صاحب هذه ؟ فأتى به إليه ، فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف ، ووضع معن الخشبة تحت بساطه ، فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ، ونظر فيها وقال : على بالرجل صاحب هذه ، فأتى به ، فقال له : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بدر ، فأخذها وانصرف ، ووضع معن الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال على بالرجل صاحب هذه ، فأتى به إليه فقال له : كيف قلت ؟ فأنشده البيت ، فأمر له بعشر بدر فأخذها ، وتفكر في نفسه ، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه

(١) ختال : مكار خداع ، وقال : كاره وجاحد .

(٢) الطُّرُّ : الطُّرف ، والجانب والناحية ، والجماعة .

فخرج من البلد بما معه ، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده فقال معن : لقد ساء والله ظنه ، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالى درهم ولا دينار وفيه يقول القائل :

يقولون معن لا زكاة لماله
إذا حال حول لم تجد في دياره
تراه إذا ما جئته متهللاً
تعود بسط الكف حتى لو أنه
فلو لم يكن في كفه غير نفسه
ومن قول معن :

دعيني أنهب الأموال حتى أعف الأكرمين عن اللئام

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء ، وله أخبار في الجود عجيبة ، من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب قال : لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أنيته فقلت : أيها الأمير ، إن رأيت أن تأذن لي فأصحبك ؟ قال : إذا قدمت واسطاً فائتنا - إن شاء الله تعالى - فسافر ، وأقمت فقال لي بعض إخواني : اذهب إليه فقلت : كان جوابه فيه ضعف . قالوا : أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال ؟ قال فسرت حتى قدمت عليه ، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى فالتفت إليّ يزيد وقال : إيه يا عقيل فقلت :

أفاض القوم في ذكر الجوارى فأما الأعزبون فلن يقولوا

قال : إنك لم تبق عزبا ، فلما رجعت إلى منزلي إذا أنا بخادم قد أتاني ، ومعه جارية وفرش بيت وبدره عشرة آلاف درهم ، وفي الليلة الثانية كذلك فمكثت عشر ليال ، وأنا على هذه الحالة ؛ فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر فقلت : أيها الأمير قد والله أغنيت وأقنيت^(٢) . فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع ، فأكتب عدوي^(٣) ، وأسر صديقي ، فقال : إنما أخيرك بين خلتين : إما أن تقيم فتؤليك أو ترحل فنغنيك ؛ فقلت : أو لم تغنني أيها الأمير ؟! قال : إنما هذا أثاث المنزل ، ومصلحة القدوم ، فنالني من فضله مالا أقدر على وصفه .

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال : حجّ يزيد بن المهلب ، فطلب حلاًفاً يحلق رأسه فجاءوه بحلاق ، فحلق رأسه ، فأمر له بخمسة آلاف درهم ، فتحير الحلاق ودهش ، وقال : آخذ هذه الخمسة الآلاف ، وأمضى إلى أم فلان أخبرها أنني قد استغنيت ، فقال : أعطوه خمسة آلاف أخرى ، فقال : امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك .

وقيل : إن الحجاج حبسه على خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم ، فجمعت له وهو في السجن ، فجاءه الفرزدق يزوره ، فقال للحاجب : استأذن لي عليه فقال : إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه ، فقال : الفرزدق : إنما أتيت متوجعاً لما هو فيه ، ولم آت ممتدحاً فأذن له ، فلما أبصره قال :

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة
وما لسرور بعد عزك بهجة
وقال ذوو الحاجات : أين يزيد ؟
ولا اخضر بالمروين بعدك عود
وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب : ادفع إليّ المائة ألف درهم التي جمعت لنا ، ودع الحجاج ولحمي يفعل فيه ما يشاء . فقال الحاجب للفرزدق : هذا الذي خفت منه لما منعك من دخولك عليه ، ثم دفعها إليه ، فأخذها وانصرف ، ومرّ يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عزراً ، فقال لانيه : ما معك من النفقة ؟ قال : مائة دينار قال : ادفعها إليها ، فقال : هذه يرضيها اليسير ، وهي لا تعرفك . قال إن كان يرضيها اليسير ، فأنا لا أَرْضِي إلا بالكثير ،

(١) في الرواية المحفوظة «الذي أنت سائله» .

(٢) أقنيت : أرضيت .

(٣) كبت فلائاً فلائاً : أذله وأخزاه ، وكبت الله العدو : رده بغضه ، قال تعالى : ﴿ لَيَقَطَعَنَّ عَنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَتَلْقُوا حَاسِبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢٧] .

وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي . وقال مروان بن أبي الحبوب الشاعر أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألف وخمسين ثوباً ، ورواحل كثيرة ، فقلت أبياتاً في شكره ، فلما بلغت قولی :

فأمسك ندى كفيك عني ولا تزدد
فقد خفت أن أطغى وأن أتجبراً !
فقال والله لا أمسك ، حتى أغرقك بجودي ، وأمر له بضياغ تقوم بألف ألف .

وقال أبو العيناء تذاكروا السخاء ، فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية ، وعلى البرامكة في الدولة العباسية ، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي دؤاد أسخى منهم جميعاً ، وأفضل وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال : أما الفضل فيرضيك فعله ، وأما جعفر فيرضيك قوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وفي يحيى يقول القائل :

سألت الندى هل أنت حر فقال : لا
فقلت : شراء قال : لابل وراثه
وفي الفضل يقول القائل :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة
فليس بسؤال إذا سيل حاجة
وفي محمد يقول القائل :

سألت الندى والجود مالى أراكما
وما بال ركن المجد أمسى مهذماً
فقلت : فهلا متما بعد موته
فقال : أقمنا كي نعزى بفقدته

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام من كانت له إلى حاجة ، فليرفعها إلى في كتاب لأصون وجهه عن المسألة ، وجاءه أعرابي فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لي إليك حاجة ، الحياء يمنعني أن أذكرها ، فقال : خطها في الأرض فكتب : إنه فقير ، فقال : يا قنبر ، اكسه خلتي ، فقال الأعرابي :

كسوتني حلة تبلى محاسنها
إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمة
إن الثناء لي يحيى ذكر صاحبه
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به

فقال يا قنبر زده مائة دينار ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو فرقتهما في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم ، فقال عليه السلام صه يا قنبر فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اشكروا لمن أثنى عليكم ، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » ^(١) . ولعبد الله بن جدعان :

إنى وإن لم ينل مالى مداخلتى
لا أحبس المال إلا حيث أنفقته

وقال بعض العرب لولده : يا بني لا تزهدن في معروف فإن الدهر ذو صروف ، فكم راغب كان مرغوباً إليه ، وطالب كان مطلوباً ما لديه ، وكن كما قال القائل :

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة
عليك إذا ما جاء للخير طالب

(١) كان البخلاء يسعلون عندما يسألون حاجة أو يتشاغلون بنكت الأرض بعضاً ونحو هذا وذلك دأبهم ، أما الممدوح فلا .

(٢) حديث علي : « سمعت رسول الله ﷺ يقول » . إلخ . الجزء الأول من الحديث لم أقف عليه ، والقسم الثاني منه تقدم تخريجه .

فإنك لا تدري متى أنت راغب ؟!

ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغبا
وقال بعضهم :

وأثر بالزاد الرفيق على نفسى
وأجعل ستر الليل من دونه لبسى
إذا ضمنى يوما إلى صدره رمسى^(١)

أبيت خميص البطن غريان طاويا
وأمنحه فرشى وأفترش الثرى
حذار أحاديث المحافل فى غد

وقال يحيى البرمكى : أعط من الدنيا وهى مقبلة فإن ذلك لا ينقصك منها شيئا ، وأعط منها وهى مدبرة فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئا فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ، ويقول : دره . ما أطبعه على الكرم ، وأعلمه بالدنيا ، وقد أمر يحيى من نظمه فقال :

فليس ينقصها التبذير والسرف
فليس تبقى ولكن شكرها خلف
وقال يحيى لولده جعفر : يا بنى ، ما دام قلمك يردد ، فأمطر معروفا ، وقال بعضهم :

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة
فإن تولت فأحرى أن تجود بها

وإذا بخلت فأكثرى لؤمى
ما عشت هم غد إلى يومى

لا تكثرى فى الجود لائمتى
كفى فليت بحامل أبدا

وقال علي بن أبي طالب لا تستحى من عطاء القليل ، فالحرمان أقل منه . وسئل إسحاق الموصلى عن المخلوع : فقال : كان أمره كله عجا ، كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه ، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر ، كان عند سليمان بن أبى جعفر يوما فأراد الرجوع إلى أهله ، فقال له : سفر البر أحب إليك أم سفر البحر ؟ قال : البحر ألين علي . فقال : أوقروا^(٢) له زورقه ذهبيا ، وأمر له بألف ألف درهم . وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك وقال : قد هجاني يا أمير المؤمنين ، فاستحضره سليمان وقال : لا أم لك ، أتتهجو سعيدا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أخبرك الخبر ، عشقت جارية مدنية ، وأتيت سعيدا فقلت : إنى أحب هذه الجارية ، وإن مولاتها أعطيت فيها مائتى دينار ، وقد أتيتك ، فقال لى : بورك فيك ، فقال سليمان : ليس هذا موضع بورك فيك ، قال : فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالى فقال : يا جارية ، هاتى مطرفا^(٣) ، فأتته بمطرف خز ، فصر لى فى كل زاوية مائتى دينار ، فخرجت وأنا أقول :

أخا العرف لا أعنى ابن بنت سعيد
أبو أبويه خالد بن أسيد
فإن مات لم يرض الندى بعقيد
وما هو عن إحسانكم برؤود^(٤)

أبا خالد أغنى سعيد بن خالد
ولكننى أعنى ابن عائشة الذى
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى
ذروه ذروه إنكم قد رقدتمو
فقال سليمان : قل ما شئت .

وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها :

تقدر على سعة لم يظهر الجود
فكل ماسد فقرا فهو محمود

إذا تكرهت أن تعطى القليل ولم
بث النوال ولا تمنعك قلته
فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه ، وفردة نعله .

(٢) أوقروا : املثوا .

(١) الرمس : القبر .

(٣) المطرف : بضم الميم وكسرها : رداء ، أو ثوب من خز مربع ذو أعلام .

(٤) يقال : رقد عن الأمر ، أي قعد وتأخر .

وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بثمانين ألفاً ففعل له : لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً . فقال : بل اجعله ذخراً لي . واجعل الله ذخراً لولدي ، وقسمه بين ذوى الحاجات . وكان ابن مالك القشيري من الأجواد قيل : إنه أنهب ^(١) . الناس ماله بعكاظ ثلاث مرات فعاتبه خاله فقال :

يا خال ذرني ومالي ما فعلت به وخذ نصيبك منه إنني مودى
فلن أطيعك إلا أن تخلصني فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي ؟
الحمد لا يشتري إلا بمكرمة ولن أعيش بمال غير محمود

وقال المهلب : عجبت لمن يشتري الممالك بماله ، كيف لا يشتري الأحرار بفعاله ؟! ونزل بأبي البحرى وهب ابن وهب القرشي ضيفاً فسارع عبيده إلى إنزاله ، وخدموه أحسن خدمة ، وفعلوا به كل جميل ، فلما هم بالرحيل لم يقربه أحد منهم وتجنبوه فأنكر ذلك عليهم ، فقالوا : نحن إنما نعين النازل على الإقامة ، ولا نعينه على الرحيل . ووفدت ليلي الأخيلية على الحجاج فقالت فيه :

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تتبّع أقصى دائها فشفاهها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها
فقال : لا تقولى « غلام » ولكن قولى « همام يا غلام » أعطها خمسمائة ، فقالت : أيها الأمير ، اجعلها نعمة ^(٢)
فجعلها إبلاً إناء . وقال أبو الفياض الطبرى :

والعز ضيف لا يراه برئعه ^(٣) من لا يرى بذل التلاد تلاداً ^(٤)
والجود أغلى كعب كعب قبلنا فمضى جواداً يوم مات جواداً
وقال آخر :

أيقنت أن من السماح شجاعة وعلمت أن من السماحة جوداً

وقال أحمد بن حمدون النديم : علمت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب ، وأعينها يواقيت ، وجواهر أنفقت عليه مائة ألف ألف دينار ، وثلاثين ألف دينار ، وسألته أن يقف عليه وينظر إليه فكسل ذلك اليوم عن رؤيته قال أحمد بن حمدون ، فقال لى ، ولأترجة الهاشمي : اذهب ، فانظرا إليه ، وكان معنا الحاجب ، فمضينا ورأيناه ، فوالله ما رأينا فى الدنيا شيئاً أحسن منه ، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل فيه ، فمددت أنا يدي إلى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعت فى كمي ، ثم جئناه فوصفنا له حسن ما رأيناه ، فقال أترجة . يا أمير المؤمنين إنه قد سرق منه شيئاً ، وغمزه على كمي ، فأريته الغزال ، فقال : بحياتي عليكما أرجعا فخذوا ما أحببتما فمضينا فملأنا أكمامنا ، وأقبينا ، وأقبلنا نمشى كالحبالى ، فلما رأنا ضحك ، فقال بقية الجلساء : ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : قوموا فخذوا ماشتم ، ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك !! ونظر يزيد المهلبى سطلا من ذهب مملوءاً مسكاً فأخذه بيده ، وخرج فقال له المستعين : إلى أين ؟ فقال : إلى الحمام يا أمير المؤمنين ، فضحك من قوله ، وأمر الفراشين والخدم أن يتهبوا الباقي فانتهبوه ، فوجهت إليه أمه تقول : سرّ الله أمير المؤمنين ، لقد كنت أحب أن يراه قبل أن يفرقه ، فإننى أنفقت عليه مائة ألف ألف وثلثين ألف دينار فقال : يحمل إليها مثل ذلك حتى تعيد مثله . ففعلت ومضى ، حتى رآه وفعل به كفعله بالأول . ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوماً ، فوافق فيه الفرزدق فقال : يا أبا فراس اختر عشراً من الإبل ، ففعل ، فقال : ضم إليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك ، حتى بلغت مائة ، فقال : هى لك فقال :

يا طلح أنت أخو الندى وعقيده إن الندى ما مات طلحة ماتا !

(١) أي جعل نهباً لهم يأخذون منه ما شاءوا.

(٢) النعم : المال السائم ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل .

(٣) الربيع : بتشديد الراء المفتوحة وسكون الباء : الدار ، وما حول الدار ، والمنزل ، والحي .

(٤) التلاد : المال الأصلي القديم .

إِنَّ النَّدَى أَلْقَى إِلَيْكَ رَحَالَهُ فَبَحِثْ بَثَّ مِنَ الْمَنَازِلِ بَاتَا
وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشر بنيسابور ، فأكرمه وأنعم عليه ، وبعث إليه بألف دينار فقال :
إِنَّ السَّمَاةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قَبَةِ ضَرَبْتَ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ
فقال : زدني ، فقال : كل شيء وثمنه . ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله
وأحسن إليه وقال : ما عندك يا أبا عطاء ؟ فقال : وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب ؟ غير أنني قلت : بيتين قال :
هات . ما قلت . فقال :

يَا طَالِبَ الْجُودِ إِمَّا كُنْتَ تَطْلُبُهُ فَاطْلُبْ عَلَى بَابِهِ نَصْرَ بَنِ سِيَارِ
الْوَاهِبِ الْخَيْلِ تَغْدُو فِي أَعْنَتِهَا مَعَ الْقِيَانِ وَفِيهَا أَلْفُ دِينَارِ
فأعطاه ألف دينار ، ووصائف^(١) ، وكساه كسوة جميلة ، فقسم ذلك بين رفيقيه ، ولم يأخذ منه شيئا فبلغ ذلك
نصرا ، فقال : ياله قاتله الله من سيد ! ما أضخم قدره ! ثم أمر له بمثله ، وقال العتيبي : أشرف عمرو بن هيرة يوما
من قصره فإذا هو بأعرابي يرقل^(٢) . فلو صه ، فقال عمرو لحاجبه : إن أردني هذا الأعرابي فأوصله إلي ، فلما وصل
الأعرابي ، سأله الحاجب ، فقال : أردت الأمير : فدخل به إليه ، فلما مثل بين يديه قال له : ما حاجتك ؟ فأنشد
الأعرابي يقول :

أَصْلَحَكَ اللَّهُ قَلَّ مَا بِيَدِي وَلَا أَطِيقُ الْعِيَالُ إِذْ كَثُرُوا
أَنَاخَ دَهْرِي عَلَى كُلِّكَلَةٍ^(٣) فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا
فأخذت عمرا الأريحية ، فجعل يهتز في مجلسه ، ثم قال . أرسلوك إلي وانتظروا ، إذن والله لا تجلس حتى ترجع
إليهم ، ثم أمر له بألف دينار .

وقيل : أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجرى القلم بخمسمائة ألف ، فراجع الخازن في ذلك
فقال : أنفذه فما بقي إلا نفاذه وإن خروج المال أحب إلي من الاعتذار ، فاستشرفه الخازن فقال : إذا أراد الله بعبد خيرا
صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه ، إلى إرادته ، وأنا أردت شيئا وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه ،
فكانت إرادة الله الغالبة وأمره النافذ .

ووقف أعرابي على ابن عامر فقال : يا قمر البصرة ، وشمس الحجاز ، ويا بن ذؤرة العرب ، وابن بطحاء^(٤)
مكة ، برحت بي الحاجة وأكدت بي الآمال إلا بفنائك فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر المجد والشرف والهمة ، فأمر له
بمائتي ألف درهم . وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل :

أَتَرَكْ إِنْ قُلْتُ دَرَاهِمَ خَالِدٍ زِيَارَتِهِ إِنِّي إِذَا لَلْتُيْمِ
فقال : أو قلت دراهم خالد ؟! احملوا إليه مائة ألف درهم ، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة بن عقيل وقال : هذه
قطرة من سبحاتك . ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى ، ثم قال . والله ما بكائي جزعا من العزل ،
ولا أسفا على الولاية ، ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها من لا يعرف لها حقا .

وأراد الرشيد أن يخرج إلى بعض المتفرجات^(٥) ، فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز ، وكان على نفقاته : ما
عند وكلائنا من الأموال ؟ قال : سبعمائة ألف درهم ، قال : فاقبضها إليك يا رجاء ، فلما كان من الغد ، ودخل عليه
رجاء ، فقبل يده وعنده منصور ابن زياد ، فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور : قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا

(١) وصائف : جمع وصيفة ، وهي الخادمة .

(٢) يرقل قلوصة : القلوص من الإبل : الفتية المجتمععة الخلق ويرقله : يدعو إلى الإسراع في سيره .

(٣) الكلكل ، والكلكال : الصدر ، أو هو ما بين الترقوتين .

(٤) البطحاء : الأبطح : المكان المتسع يمر به السيل ، فيترك فيه الرمل والحصى الصغار .

(٥) المتفرجات : المتنزهات ، وأماكن الفرجة .

المال له ، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا . فقال منصور : أنا أستخير لك هذا ، فقال يحيى : إذن يقول لك : قل له : يقبل يدي ، كما قبلت يده ، فلا تقل له شيئاً فقد تركتها له .
وقيل : إن الرشيد وصل^(١) في يوم واحد بألف ألف وثلاثمائة وخمسين ألفاً ، ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر .

وعن الأخفش الصغير قال : كان أسيد بن عقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدراً ، وأكثرهم أدباً ، وأفصحهم لساناً ، وأثبتهم جناناً^(٢) ، فطال عمره ، ونكبه دهره فخرج عشية ينتفل^(٣) لأهله فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه ، وقال : ما أشارك^(٤) يا عم إلى ما أرى ؟! فقال : بخل مثلك بماله ، وصون وجهي عن مسألة الناس ، فقال : والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك ، فرجع ابن عقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة ، فقالت له : لقد غرّك^(٥) كلام غلام في جنح ليل ، قال : فكأنما ألقمت فاه حجراً وبات متملماً بين رجاء ويأس ، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل ، وصهيل الخيل تحت الأموال فقال : ما هذا ؟ قالوا : عميلة قد قسم ماله شطرين ، وبعث إليك بشطره فأنشأ يقول :

رأتني على ما بي عميلة فاشتكى
ولما رأى المجد استعيرت ثيابه
غلام حباه الله بالحسن يافعا
كأن الثريا علقت في جبينه
إلى ما له حالي فواسى وما هجر
تردى رداء سابغ الذيل واتزر
له سيمياء^(٦) لا تشق على البصر
وفي أنفه الشعري وفي جيده القمر^(٧)

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي من الأجواد ، قيل : إنه كان لرجل جارية يهواها ، فاحتاج إلى بيعها ، فابتاعها منه ابن معمر بمال جزيل ، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول :

هنيئاً لك المال الذي قد قبضته
أبوء بحزن من فراقك موجه
فأجابها يقول :

ولو لا قعود الدهر بي عنك لم يكن
عليك سلام لا زيارة بيننا

فقال ابن معمر : قد شئت ، وقد وهبتك الجارية وثمنها فخذها وانصرف .

ووفد أبو الشمقمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده في دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجه له فلما رآه محمد قال :

ولقد قدمت على رجال طالما
أخنى^(٨) الزمان عليهم فكأنما
فقال أبو الشمقمق :

قدم الرجال عليهم فتمولوا
كانوا بأرض أقفرت فتحولوا

(١) وصل : أعطى صلة .

(٢) الجنان : من كل شيء : جوفه ، والقلب ، وجنان الناس : جماعتهم تستر الداخل فيها .

(٣) ينتفل : يقال نفل فلاناً : أعطاه زيادة على نصيبه الواجب له .

(٤) ما أشارك : ما صيرك وحولك .

(٥) رغاء الإبل : أي صوت الإبل .

(٦) سيمياء : أي علامة . قال تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الشُّجُورِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

(٧) الثريا : مجموعة من النجوم في صورة الثور ، وكلمة النجم علم عليها . والشعري : كوكب نير ، يطلق عند شدة الحر ، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم ، وهما شعريان : الشعري الغيور ، والشعري الغميضاء .

(٨) أخنى الزمان عليهم : أخنى عليه الدهر ، أي طال ، وأهلكه وأتى عليه .

الجود أفلسهم ، وأذهب مالهم فاليوم إن راموا السماحة ببخلوا
قال فخلع محمد ثوبه وخاتمه ، ودفعهما إليه ؛ فكتب بذلك مستوفى الخراج إلى الخليفة ، فوقّع إلى عامله بإسقاط
الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة ، وإسقاط ما عليه من البقايا ، وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على
مروءته .

وقال أبو العيناء : حصلت لى ضيقة شديدة ، فكتمتها عن أصدقائي ، فدخلت يوما على يحيى بن أكثم القاضى ،
فقال : إنّ أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم ، وأخذ القصاص ، فهل لك فى الحضور ؟ قلت : نعم . فمضيت
معه إلى دار أمير المؤمنين ، فلما دخلنا عليه أجلسه ، وأجلسنى ، ثم قال : يا أبا العيناء ، بالآلفة والمحبة ما الذى جاء
بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم وللرجاء حقوق كلّها تجب
إن لم يكن لى أسباب أعيش بها ففى العلل لك أخلاق هى السبب

فقال : يا سلامة ، انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ؟ فقال : بقية من مال ، قال : فادفع له منها مائة
ألف درهم ، وابعث له بمثلها فى كل شهر ، فلما كان بعد أحد عشر شهرا مات المأمون ، فبكى عليه أبو العيناء ، حتى
تقرّحت أجفانه ، فدخل عليه بعض أولاده ، فقال : يا أبتاه ، بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء ؟ فأنشأ أبو العيناء
يقول :

شيثان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة ؛ وكان راتبه منها فى الشهر ألف دينار سوى ما يطرأ عليه من نذر أوصله ،
وسوى ما يطبخ فى دار الصدقة ، وكان الموكل بصدقته سليم الخادم ، فقال له سليم يوما : أيها الأمير ، إني أطوف
القبائل ، وأدق الأبواب لصدقاتك ، وإن اليد تمدّ إلى وفيها الحياء ، وربما كان فيها الخاتم الذهب ، والسوار
الذهب ، فأعطى أم أردّ ؟ قال : فأطرق طويلا ، ثم قال : كل يد امتدّت إليك فلا تردّها .

وقال سلمة بن عياش فى جعفر بن سليمان :

وما شم أنفى ريح كف شممتها من الناس إلا ريح كفك أطيب
فأمر له بألف دينار ، ومائة مثقال مسك ، ومائة مثقال عنبر .

وكان عبد العزيز بن عبد الله جوادا مضيافا ، فتغدى عنده أعرابى يوما فلما كان من الغد ، مر على بابه فرأى الناس
فى الدخول على هيتهم بالأمس ، فقال : أو كل يوم يُطعم الأمير الناس ؟ قالوا ؟ نعم . فأنشأ يقول :

كل يوم كأنه عيد أضحى عند عبد العزيز أو عيد فطر
وله ألف جفنة^(١) مترعات^(٢) كل قدر يمدّها ألف قدر

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص ، فلما خرجوا بقى فتى من الشام قاعدا ، فقال له سعيد : ألك حاجة ؟ وأطفا
الشمعة كراهة أن يخجل الفتى ، فذكر أن أباه مات ، وخلف دينًا ، وعيالًا . وسأله أن يكتب له كتابا إلى أهل دمشق ، ليقوموا
ببعض إصلاح حاله ، فدفع له عشرة آلاف دينار ، وقال له : لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم .

ودخل رجل على على بن سليمان الوزير ، فقال له : سألتك بالله العظيم ، ونبيه الكريم ، إلا ما أجزتنى من
خصمى ، فقال : ومن خصمك حتى أجريك منه ؟ فقال : الفقر ، فأطرق الوزير ساعة ، وقال : قد أمرت لك بمائة
ألف درهم ، فأخذها وانصرف ، فبينما هو فى الطريق إذا أمر الوزير برده إليه ، فلما رجع قال له : سألتك بالله
العظيم ، ونبيه الكريم متى أتاك خصمك مُعْتَقًا فارجع إلينا متظلمًا .

(١) الجفنة : بفتح الجيم وسكون الفاء : القصعة ، والجمع جفّان ، وجفّن .

(٢) مترعات : مليئات .

وقال الأعمش : كانت عندى شاة ، فمرضت ، وفقدت الصبيان لبنها ، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ، ويسألنى هل استوفت علفها ، وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟! وكان تحتى لبد^(١) أجلس عليه ، فكان إذا خرج يقول : خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلى من علة الشاة أكثر من ثلاثمائة دينار من برّه ، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرا .

(وحكى) أبو قدامة القشيري قال : كنا مع يزيد بن مزيد يوما ، فسمع صائحا يقول : يا يزيد بن مزيد فطلبه فأتى به إليه ، فقال : ما حملك على هذا الصباح ؟ قال : فقدت دابتي ، وفقدت نفقتى ، وسمعت قول الشاعر :

إذا قيل : مَنْ للجود والمجد والندى فنادى بصوت : يا يزيد بن مزيد
فأمر له بفرس أبلق^(٢) ، كان معجبا به ، وبمائة دينار ، وخلعة سنية ، فأخذها وانصرف .

(وحكى) أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخياتهم يزورونه ، فباتوا عند قبره ، فرأى رجل منهم صاحب القبر فى المنام وهو يقول له : هل لك أن تبيعنى بعيرك ، بنجيبى ، وكان الميت قد خلف نجيبا^(٣) ، وكان للرأى بعير سمين ، فقال : نعم ، وباعه فى النوم بعيره بنجيبه ، فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى البعير فنحره فى النوم ، فانتبه الرأى من نومه ، فوجد الدم يسبح من نحر بعيره ، فقام وأتم نحره وقطع لحمه ، وطبخوه ، وأكلوا ثم رحلوا ، وساروا فلما كان اليوم الثانى - وهم فى الطريق سائرون - استقبلهم ركب ، فتقدم منهم شاب ، فنادى : هل فيكم فلان ابن فلان ؟ فقال صاحب البعير : نعم . ها أنا فلان ابن فلان ، فقال : هل بعث من فلان الميت شيئا ؟ قال : نعم . بعته بعيرى بنجيبه فى النوم ، فقال : هذا نجيبه ، فحذه وأنا ولده ، وقد رأيت فى النوم وهو يقول : إن كنت ولدى ، فادفع نجيبى إلى فلان ، فانظر إلى هذا الرجل الكريم ، كيف أكرم أضيافه بعد موته ؟!

وروى عن الهيثم بن عدى أنه قال : تمارى^(٤) ثلاثة نفر فى الأجواد فقال رجل : أسخى الناس فى عصرنا هذا عبد الله بن جعفر ، فقال الآخر : أسخى الناس قيس بن سعد بن عبادة ، فقال الآخر : بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسى ، فتنازعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم رجل : لقد أفرطتم فى الكلام ، فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ينظر بم يعود ؟ فتحكم على العيان ، فقام صاحب ابن جعفر فوافاه ، وقد وضع رجله فى ركاب راحلته يريد ضيعة له ، فقال الرجل : يا بن عم رسول الله ﷺ ، ابن سبيل ومنقطع به ، قال : فأخرج رجله ، وقال : ضع رجلك ، واستو على الناقة ، وخذ ما فى الحقيبة ، وكان فيها مطارف خز وأربعة آلاف دينار .

ومضى صاحب قيس فوجده نائما فقالت له جارية لقيس : ما حاجتك ؟ فقال : ابن سبيل ومنقطع به ، فقالت له الجارية : حاجتك أهون من إيقاظه ، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما فى دار قيس اليوم غيرها ، وامض إلى معاطن الإبل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها ، وعبدا وامض لشأنك . قيل : إن قيسا لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت ، فأعتقها ، ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت تفعله ، فخلق خدام الرجل مقتبس من خلقه ؛ قال بعض الشعراء :

وإذا ما اختبرت ودّ صديق فاختر برودّه من الغلمان

ومضى صاحب عرابة ، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة ، فقال : يا عرابة ، ابن سبيل ، ومنقطع به ، وكان معه عبدان فضقق بيده اليمنى على اليسرى ، وقال : أواه أواه ، والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء ، ولا تركت له الحقوق مالا ، ولكن خذ هذين العبدين ، فقال الرجل : والله ما كنت بالذى يسلبك عبدك ، فقال : إن أخذتهما وإلا فهما حرّان لوجه الله تعالى : فإن شئت فخذ ، وإن شئت فأعتق فأخذ الرجل العبدين ومضى . ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكموا لعرابة لأنه أعطى على جهد . وقيل : إن شاعرا قصد خالد بن يزيد ، فأنشده شعرا يقول فيه :

(١) اللبد : كل شعر أو صوف متلبّد ، وضرب من البسط ، والجمع ألباد ، ولُبود .

(٢) الأبلق : ما كان فيه سواد وبياض .

(٣) النجيب : الفاضل على مثله النفيس فى نوعه ، ونجائب الإبل : خيارها .

(٤) تمارى : تجادل واختلف .

سألت الندى والجود : حُرَّان أنتما ؟
فقلت : ومن مولاكما ؟ فتطاولا
فقال : يا غلام ، أعطه مائة ألف درهم ، وقل له : إن زدتنا زدناك فأنشد يقول :

تدفق يمناه الندى وشمائله
فلجته المعروف ، والجود ساحله
دعاها لقبض لم تجبه أنامله
فقال : يا غلام ، أعطه مائة ألف درهم ، وقل له : إن زدتنا زدناك ، فأنشد يقول :

تبرعت لى بالجود حتى نعشتنى
وأثبت ريشا فى الجناحين بعدما
فأنت الندى ، وابن الندى ، وأخو الندى
وأعطيتنى حتى حسبك تلعب
تساقط منى الریش أو كاد يذهب
خليف الندى ما للندى عنك مذهب !

فقال : يا غلام أعطه مائة ألف درهم ، وقل له : إن زدتنا زدناك ، فقال : حسب الأمير ماسمع ، وحسى ما أخذت وانصرف . وأما الذين انتهى إليهم الجود فى الجاهلية فهم : حاتم بن عبد الله الطائي ، وهرم بن سنان ، وخالد ابن عبيد الله ، وكعب بن امامة الإيادى ، وضرب المثل بحاتم وكعب ، وحاتم أشهرهما فأما كعب فجاد بنفسه ، وأثر رفيقه بالماء فى المفازة ، ومات عطشا وليس له خبر مشهور .

وأما خالد بن عبيد الله فإنه جاء إليه بعض الشعراء ، ورجله فى الركاب يريد الغزو ، فقال له : إني قلت فيك بيتين من الشعر ، فقال : فى مثل هذا الحال ؟ قال : نعم . فقال هاتهما ، فأنشده يقول :

يا واحد العرب الذى
لو كان مثلك آخر
ما فى الأنام له نظير
ما كان فى الدنيا فقير

فقال : يا غلام ، أعطه عشرين ألف دينار ، فأخذها وانصرف .

وأما حاتم فأخباره كثيرة ، وآثاره فى الجود شهيرة ، ويكنى أبا سفانة ، وأبا عدى ، وكان يسير فى قومه بالمرباع ، والمرباع ربع الغنيمة ، وكان ولده عدى يعادى النبی ﷺ ، فبعث النبی ﷺ عليا إلى طيء ، فهرب عدى بأهله وولده ، ولحق بالشام ، وخلف أخته سفانة فأسرتها خيل رسول الله ﷺ ، فلما أتى بها إلى النبی ﷺ قالت : يا محمد هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فإن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإن أبى كان سيد قومه ، يفك العاني^(١) ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمى الدمار^(٢) ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكل^(٣) ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فردّه خائبا ، أنا بنت حاتم الطائي ، فقال لها النبی ﷺ : « يا جارية ، هذه صفات المؤمنين حقًا ، لو كان أبوك مُسلمًا لترحمنا عليه ، خلّوا عنها فإن أباهما كان يُحب مكارم الأخلاق » ، وقال فيها : « ارحموا عزيزًا ذلّ ، وغنيًا افتقر ، وعالمًا ضاع بين جهال » ، فأطلقها ، ومن عليها ، فاستأذنته فى الدعاء له ، فأذن لها ، وقال لأصحابه : « اسمعوا وعوا » ، فقالت : أصاب الله ببرك موقعه ، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم قوم إلا وجعلك سببا فى ردّها عليه . فلما أطلقها رجعت إلى قومها فأنت أخاها عديا وهو بدومة الجندل ، فقالت له : يا أخى انت هذا الرجل قبل أن تعلقك حباله ، فإني قد رأيت هديًا ، ورأيا سيغلب أهل الغلبة ، رأيت خصالا تعجبني ، رأيت يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ ، وإنى أرى أن تلحق به ، فإن يك نبيا فللسابق فضله ، وإن يك ملكا فلن نذل فى عز اليمن ، فقدم عدى إلى النبی ﷺ ، فألقى له وسادة محشوة ليفا ، وجلس النبی ﷺ على الأرض

(١) العاني : الأسير .

(٢) الدمار : ما ينهني حياته والدؤد عنه كالأهل والعرض .

(٣) الكل : الضعيف .

فأسلم عدي بن حاتم ، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها ^(١) ، وكانت من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها وتعطيها الناس ، فقال لها أبوها : يا بنية ، إن الكريمين إذا اجتمعا في المال أتلغاه ، فإما أن أعطى وتمسكى ، وإما أن أمسك ، وتعطى فإنه لا يبقى على هذا شيء ، فقالت له : منك تعلمت مكارم الأخلاق . قال ابن الأعرابي . كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية ، وكان جواداً يشبه جوده شعره ، ويصدق قوله فعله ، وكان حينما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً إذا قاتل غلب ، وإذا سئل وهب ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق ، وكان إذا أهل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية ، نحر كل يوم عشراً من الإبل ، وأطعم الناس ، واجتمعوا إليه . وكان قد تزوج ماوية بنت عفير ، وكانت تلومه على إتلاف المال ، فلا يلتفت لقولها ، وكان لها ابن عم يقال له : مالك ، فقال لها يوماً : ما تصنعين بحاتم ، فوالله لئن وجد مالاً ليتلفنه ، وإن لم يجد ليتكلفن ، ولئن مات ليركن أولاده عالة على قومك ؟! فقالت ماوية : صدقت إنه كذلك ، وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية ، وكان طلاقهن أن يكرن في بيوت من شعر ، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حوّله إلى المغرب ، وإن كان من قبل المغرب حوّله إلى المشرق ، وإن كان من قبل اليمن حوّله إلى الشام ، وإن كان من قبل الشام حوّله إلى اليمن ، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتها ؛ ثم قال لها ابن عمها : طلقى حاتم ، وأنا أتزوجك ، وأنا خير لك منه ، وأكثر مالاً ، وأنا أمسك عليك ، وعلى ولدك ، فلم يزل بها حتى طلقتها ، فأتاها حاتم وقد حوّلت باب الخباء ، فقال حاتم لولده : يا عدي ما ترى ما فعلت أمك ؟! فقال : قد رأيت ذلك ، قال : فأخذ ابنه وهبط بطن واد ، فنزل فيه ، فجاء قوم فترلوا على باب الخباء ، كما كانوا ينزلون وكانت عدتهم خمسين فارساً ، فضاقت بهم ماوية ذرعاً وقالت لجاريتهما : اذهبي إلى ابن عمي مالك ، وقولي له : إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً ، فأرسل إلينا بشيء نقرّهم ، ولبن نسقيهم ، وقالت لها : انظري إلى جبينه وفمه ، فإن شافهك بالمعروف فأقبلي منه ، وإن ضرب بلحيته على زوره ، ولطم رأسه ، فأقبلي ودعيه ، فلما أتته وجدته متوسداً وطباً من لبن ، فأيقظته وأبلغته الرسالة ، وقالت له : إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم ، فلطم رأسه بيده وضرب بلحيته ، وقال : أقرئها السلام ، وقولي لها : هذا الذي أمرتك أن تطلقى حاتم لأجله ، وما عندي لبن يكفى أضياف حاتم ، فرجعت الجارية ، فأخبرتها بما رأت ، وبما قال لها ، فقالت لها : اذهبي إلى حاتم وقولي له : إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة ، ولم يعلموا مكانك فأرسل إلينا بناقة نقرّهم ، ولبن نسقيهم فأتت الجارية حاتم فصاحت به ، فقال : لييك ، قريباً دعوت فأخبرته بما جاءت بسببه ، فقال لها : حُباً وكرامة ، ثم قام إلى الإبل فأطلق اثنتين من عقاليهما ، وصاح بهما حتى أتيا الخباء ، ثم ضرب عراقيهما فطفقت ماوية تصيح : هذا الذي طلقتك بسببه ، ترك أولادنا وليس لهم شيء ! فقال لها : ويحك يا ماوية ! الذي خلقهم ، وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم .

وكان إذا اشتدّ البرد ، وغلب الشتاء أمر غلمانته بنار فيوقدونّها في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلا فيقصدها ، ولم يكن حاتم يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه فإنه كان لا يجود بهما ، ثم جاد بفرسه في سنة مجدية . (حكى) أنّ ملكاً ابن أخى ماوية قال : قلت لها يوماً : يا عمّة ، حدثيني ببعض عجائب حاتم ، وبعض مكارم أخلاقه ، فقالت : يا بن أخى أعجب ما رأيت منه أصابت الناس سنةً أذهبت الخف والظلف ، وقد أخذني وإياه الجوع ، وأسهرنا ، فأخذت سفانة وأخذ عدياً وجعلنا نعللهم حتى ناما ، فأقبل عليّ يحدثني ، ويعلّني بالحديث حتى أنام ، فرفقت به لما به من الجوع ، فأمسكت عن كلامه لينام ، فقال لي : أنمت ؟ فلم أجبه ، فسكت ، ونظر في فناء الخباء فإذا شيء قد أقبل ، فرفع رأسه فإذا امرأة ، فقال : ما هذا ؟ فقالت : يا أبا عدي ، أتيتك من عند صبية يتعاونون كالكلاب أو كالذئاب جوعاً ، فقال لها : أحضري صبيانك فوالله لأشبعنهم ، فقامت سريعة لأولادها فرفعت رأسي ، وقلت له : يا حاتم بماذا تشبع أطفالها ؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل ^(٢) ، فقال : والله لأشبعنك ، وأشبعن صبيانك وصبيانها ، فلما جاءت المرأة نهض قائماً وأخذ المدينة بيده وعمد إلى فرسه فذبحه ، ثم أجاج نازاً ودفع

(١) قصة إسلام عدي بن حاتم وأخته سفانة . . قصة إسلام عدي أخرجه أحمد (٤/٢٥٧) ، وابن حبان (٢٢٨٠) ، والطبراني في الأحاديث الطوال برقم [٢-١] ، في الجزء [٢٥] .

(٢) التعليل : الإلهاء بشيء حتى يناموا وينسوا جوعهم .

إليها شفرة ، وقال : قطعى واشوى وكلى ، وأطعمى صبيانك ، فأكلت المرأة وأشبع صبيانها ، فأيقظت أولادى وأكلت وأطعمتهم ، فقال : والله إن هذا لهو اللوم تأكلون وأهل الحى حالهم مثل حالكم !؟ ثم أتى الحى بيتاً يقول لهم : انهضوا عليكم بالنار ، فاجتمعوا حول الفرس وتفتح حاتم بكسائه ، وجلس ناحية فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ، ولا كثير إلا العظم والحافر ، ولا والله ماذا قها حاتم ، وإنه لأشدهم جوعاً . وأخباره كثيرة مشهورة ومن شعره :

أماوى إن المال غادٍ ورائحُ ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
وقد علم الأقوامُ لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وقر^(١)
وأغار قوم على طيئ ، فركب حاتم فرسه ، وأخذ رمحه ، ونادى فى جيشه ، وأهل عشيرته ، ولقى القوم ، فهزمهم وتبعهم ، فقال له كبيرهم : يا حاتم هب لى رمحك . فرمى به إليه ، فقيل لحاتم : عرّضت نفسك للهلاك ، ولو عطف^(٢) عليك لقتلك ، فقال : قد علمت ذلك ، ولكن ما جواب من يقول : هب لى ؟! ولما مات عظم على طيئ موته ، فادعى أخوه أنه يخلفه ، فقالت له أمه : هيهات شتان ، والله ما بين خلقتكما وضعته ، فبقى والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلاً من الجيران ، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر فأنى لك ذلك ؟ قال الشاعر :

يعيش الندى ما عاش حاتم طيئ وإن مات قامت للسّخاء مآثمُ
وكانت العرب تسمى الكلب : داعى الضمير ، ومتمم النعم ، ومُشيد الذكر ، لما يجلب من الأضياف بنباحه ، والضمير : الغريب . وكانوا إذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب النيران فرّقوا الكلاب حوالى الحى وربطوها إلى العُمد لتستوحش^(٣) ، فتنبج ، فتهدى الضلال ، وتأتى الأضياف على نباحها . والحكايات فى ذكر الأجواد والكرماء والأسخياء ، وأهل المعروف ، وما كانوا عليه من السخاء والكرم أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، ففى مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون ، ولمثلها فليعمل العاملون ، فإن فيها عز الدنيا وشرف الآخرة ، وحسن الصيت ، وخلود جميل الذكر ، فإنما لم نجد شيئاً يبقى على ممر الدهر إلا الذكر حسناً كان أو قبيحاً وقد قال الشاعر :

ولا شيء يدومُ فكن حديثاً جميل الذكر فالدنيا حديثُ
فانتهاز فرصة العمر ، ومساعدة الدنيا ، ونفوذ الأمر ، وقدم لنفسك كما قدموا تذكر بالصالحات كما ذكروا ، وادّخر لنفسك فى القيامة كما ادّخروا ، واعلم أنّ المأكول للبدن ، والموهوب للمعاد ، والمتروك للعدوّ ؛ فاختر أى الثلاث شئت . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الرابع والثلاثون

فى البخل والشح ، وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٣٧] ، الآية وقال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »^(٤) . وعنه ﷺ أنه قال - : « البخل جامع لمساوى

(١) الوقْر : الحمل الثقيل .

(٢) عطف عليك : مال وانحنى .

(٣) لتستوحش : لتُحسّ بالوحشة والغربة والوحدة .

(٤) حديث : « إِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ » . إلخ بعض حديث جاء فيه « وإِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشَّحِّ » . قال فى الترغيب والترهيب رواه أبو داود مختصراً والحاكم واللفظ له ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

القلوب ، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء ^(١) وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز : إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته أو كان طريقاً ما سلكته .

وقيل : بخلاء العرب أربعة : الحطيئة ، وحמיד الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان .
فأما الحطيئة : فمرّ به إنسان وهو على باب داره ، ويده عصا فقال : أنا ضيف فأشار إلى العصا وقال : لكعب الضيفان أعددتها .

وأما حميد الأرقط : فكان هجاء للضيفان ، فحاشا عليهم ، نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمرًا ، وهجاهم ، وذكر أنهم أكلوه بنواه .

وأما أبو الأسود : فتصدق على سائل بثمرة ، فقال له : جعل الله نصيبك من الجنة مثلها ، وكان يقول لو أطعنا المساكين فى أموالنا كنّا أسوأ حالاً منهم .

وأما خالد بن صفوان : فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه : يا عيَّار ، كم تعير وكم تطوف وتطير؟! ، لأطيلن حبسك ، ثم يطرحه فى الصندوق ، ويقفل عليه . وقيل له : لِمَ لا تنفق ومالك عريض ؟ فقال : الدهر أعرض منه ، وأنشد بعضهم :

وهبنى جمعتُ المالَ ثم خزنتُهُ وحانت وفاتى هل أزايد به عُمرًا ؟!

إذا خزن المالَ البخيلُ فإنّه سيورثُهُ غمًّا ويُعقبه وزرًا

واستأذن حنظلة على صديق له بخيل ، فقيل : هو محموم ، فقال : كلوا بين يديه حتى يعرق .

وكتب سهل بن هارون كتاباً فى مدح البخل ، وأهداه إلى الحسن بن سهل ، فوقع على ظهره : قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه ، وقال ابن أبى فتن :

ذرينى وإتلافى لمالى فإننى أحب من الأخلاق ما هو أجمل

وإن أحق الناس باللوم شاعرٌ يلوم على البخل الرجال ويبخل

وكان عمر بن يزيد الأسدى : بخيلاً جداً أصابه القولنج فى بطنه ^(٢) ، فحقنه الطبيب بدهن كثير فانحل ما فى بطنه فى الطست ، فقال لغلامه : اجمع الدهن الذى نزل من الحقنة وأسرج به ^(٣) . وكان المنصور شديد البخل جداً ، مرّ به مسلم الحادى فى طريقه إلى الحج ، فحدا له يوماً بقول الشاعر :

أغرّب بين الحاجبين نوره يزيئُه حياؤه وخيئه

ومسكّه يشوبه كافوره إذا تغدى زُفعت ستوره

فطرب حتى ضرب برجله المحمل ثم قال : يا ربيع ، أعطه نصف درهم ، فقال مسلم : نصف درهم يا أمير المؤمنين ؛ والله لقد حدث ^(٤) لهشام فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقال : تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم؟! يا ربيع ، وكَلَل به من يستخلص منه هذا المال . قال الربيع : فمازلت أمشى بينهما ، وأروضة حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له فى ذهابه وإيابه بغير مؤنة . وكان أبو العتاهية ، ومروان بن أبى حفصة بخيلين ، يضرب بيخلهما المثل ، قال مروان : ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها لى المهدي ، فوزنتها فرجحت درهماً ، فاشتريت به لحماً . واشترى يوماً لحماً بدرهم فلم يضعه فى القدر دعاه صديقه ، فردّ اللحم على القصاب بنقصان دانقين ^(٥) ، فجعل القصاب ينادى على اللحم ويقول : هذا لحم مروان . واجتاز يوماً بأعرابية

(١) وعنه البخل .. إلخ لم أقف عليه .

(٢) القولنج : وقد تكسر لأمه : مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثقل والريح .

(٣) أسرج به : أوقد به السراج .

(٤) حدث : حدا فلاناً على كذا : بعثه عليه ، وحدا الشيء : تبعه ، وتعمّده وتحزّاه .

(٥) دانقين : منى دانق ، وهو سدس الدرهم .

فأضافته ، فقال : إن وهب لى أمير المؤمنين مائة ألف درهم ، وهبت لك درهمًا ؛ فوهبه سبعين ألف درهم ، فوهبها أربعة دوانق .

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو ، يقال : إن من عادتهم إذا ترافقوا فى سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ، ويشكها فى خيط ، ويجمعون اللحم كله فى قدر ويسمك كل واحد منهم طرف خيطه ، فإذا استوى جرَّ كل منهم خيطه ، وأكل لحمه ، وتقاسموا المرق ، وقيل لبخيل : من أشجع الناس ؟ قال من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ، ولم تشق مرارته .

وقيل لبعضهم : أما يكسوك محمد بن يحيى ؟! فقال : والله لو كان له بيت مملوء إبرًا وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء ، والملائكة ضمناء يستعير منه إبرة ليخط بها قميص يوسف الذى قُذ من دبر ما أعاره إياها ، فكيف يكسونى ؟! وقد نظم ذلك من قال :

لو أن دارك أنبت لك واحتشت
إبرًا يضيقُ بها فناء المنزل
وأناك يوسف يستعيرك إبرة
ليخط قَدَ قميصه لم تفعل !

وكان المتنبي بخيلًا جدًا مدحه إنسان بقصيدة فقال له : كم أملت منا على مدحك ؟ قال : عشرة دنائير . قال له : والله لو نذفت قطن الأرض بقوس السماء ، على جباه الملائكة ، ما دفعت دانقًا . وقال دعبل : كنا عند سهل بن هارون فلم نبرح حتى كاد يموت من الجوع ، فقال : ويلك يا غلام آتنا غداءنا ، فأنتى بقصعة فيها ديك مطبوخ تحته ثريد قليل ، فتأمل الديك فرآه بغير رأس فقال للغلام : وأين الرأس ؟ فقال : رميته ، فقال : والله إنى لأكره من يرمى برجله فكيف برأسه ؟! ويحك ! أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ؟ ومنه يصبح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه عُرفه الذى يتبرك به ، وعينه التى يضرب بها المثل ، فيقال : شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكلى ، ولم نر عظمًا أهدش تحت الأسنان من عظم رأسه ، وهبك ظننت أنى لا آكله ، أما قلت عنده من يأكله ؟! انظر فى أى مكان رَميته فأنتى به فقال : والله لا أدري أين رميته ، فقال : لكنى أنا أعرف أين رميته ؛ رميته فى بطنك ، الله حسبك . وقيل : من الناس من يبخل بالطعام ، ويوجد بالمال وبالعكس . قال بعضهم فى أبى دلف :

أبو دلف يُضَيِّع ألف ألف
ويضربُ بالحسام على الرغيف
أبو دلف لم يطبخه قنَّار
ولكن دونه سَل السيوف^(١)

واشتكى رجل مروزى^(٢) ، صدره من سُعال ، فوصفوا له سويق اللوز ، فاستثقل النفقة ، ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء ، فبينما هو يماطل الأيام ، ويدافع الآلام ، إذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة ، وقال : إنه يجلو الصدر فأمر بالنخالة ، فطبخت له ، وشرب من مائها فجلا صدره ، ووجدته يعصم ، فلما حضر غداؤه أمر به فزُفِع إلى العشاء وقال لامرأته : اطبخى لأهل بيتنا النخالة ، فإنى وجدت ماءها يعصم ، ويجلو الصدر ، فقالت : لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة . وعن خاقان بن صبح قال : دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا فأتانا بمسرجة فيها فتيلة فى غاية الرقة ، وقد علق فيها عودا بخيط ، فقلت له : ما بال هذا العود مربوطًا قال : قد شرب الدهن ، وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عودًا عطشانًا ، ونخشى أن يشرب الدهن ، قال فبينما أنا أتعجب ، وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود ، فقال للرجل : يا فلان ، لقد فررت من شىء ووقعت فيما هو شر منه ، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء ، وينشفان هذا العود ؟! لم لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد ، فإن الحديد أملس ، وهو مع ذلك غير نشاف ، والعود أيضًا ربما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها ، فقال له الرجل الخراسانى ، أرشدك الله ، ونفع بك ، فلقد كنت فى ذلك من المسرفين .

(١) القنَّار : الرائحة المنبعثة مع دخان من الطبخ أو الشواء ، أو العظم المحروق .

(٢) مروزى : منسوب إلى مَرُوز .

وقال الهيثم بن عدي نزل على أبي حفصة الشاعر رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ، ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه ^(١) ، في هذه الليلة ، فخرج الضيف ، واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكتب إليه :

يَأْتِيهَا الْخَارِجُ مِنْ بَيْتِهِ وَهَارِبًا مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ
ضَيْفُكَ قَدْ جَاءَ بِزَادٍ لَهُ فَارْجِعْ وَكُنْ ضَيْفًا عَلَى الضَّيْفِ

واشترى رجل من البخلاء دارًا وانتقل إليها ، فوقف ببابه سائل فقال له : فتح الله عليك ، ثم وقف ثان فقال له : مثل ذلك ، ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك ، ثم التفت إلى ابنته فقال لها : ما أكثر السؤال في هذا المكان : قالت : يا أبت ما دمت مستمسكًا لهم بهذه الكلمة فما تبالي كثروا أم قلوا .

والأم اللثام ، وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له : هَجَاءُ الْأُضْيَافِ ، وهو القائل في ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له :

مَا بَيْنَ لَقْمَتِهِ الْأُولَى إِذَا انْحَدَرَتْ وَبَيْنَ أُخْرَى تَلِيهَا قَيْدُ أَظْفُورِ ^(٢)
وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا :

تُجَهِّزُ كَفَّاهُ وَيَحْدُرُ حَلْقُهُ إِلَى الزَّوْرِ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ الْأَنَامِلُ
وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطبًا فأكثر ، ومد أبو الأسود يده إلى رتبة ليأخذها فسبقه الأعرابي إليها ، فسقطت منه في التراب ، فأخذها أبو الأسود وقال : لا أدعها للشيطان يأكلها ، فقال الأعرابي : والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزلا من السماء ما تركتها ! وقال أعرابي لتزيل نزل به : نزلت بواد غير ممطور ، ورجل بك غير مسرور ، فأقم بعدم ، أو ارحل بندم . وللحمدوني :

رَأَيْتُ أَبَا زُرَّارَةَ قَالَ يَوْمًا لئن وضع الخوان ^(٣) ولاح شخص
فَقَالَ : سَوَى أَبِيكَ فَذَاكَ شَيْخٌ فَقَامَ وَقَالَ : مَنْ حَنَقَ ^(٤) إِلَيْهِ
أَبَى وَابْنَا أَبَى وَالْكَلْبُ عِنْدِي وَقَالَ لَهُ : ابْنُ لَسَى يَا بَنَ كَلْبٍ
إِذَا حَضَرَ الطَّعَامَ فَلَا حَقُوقَ فَمَا فِي الْأَرْضِ أَقْبَحُ مِنْ خُوانٍ
فَأَيْنَ هَذَا مِنَ الْقَاتِلِ :

بخيل يرى في الجود عارًا وإنما إذا المرء أثرى ثم لم يرج نفعه
وقال آخر :

وَأَمْرَةٌ بِالْبَخْلِ قَلَّتْ لَهَا : اقْصِرِي أَرَى النَّاسَ إِخْوَانَ الْكَرِيمِ وَمَا أَرَى
فليس إليه ما حييت سبيل بخيلًا له في العالمين خليل

(١) القوي : ما يقدم للضيف .

(٢) قيد أظفور : القيد - بكسر القاف - المقدار يقال : بينهما قيد رمح ، ويضرب المثل بالأظفور في القلة .

(٣) الخوان : المائدة . ما يؤكل عليه .

(٤) حنق عليه حقًا : اشتد غيظه ، فهو حنق ، وحنيق .

(٥) ضامه ضيمًا ، أي ظلمه ، وأذله . ويقال : ضام فلانًا حقًا : انتقصه وغبنه .

(٦) اللثام : العهد ، والأمان ، والكفالة .

وقالوا : إذا سألت لثيماً شيئاً فعاجله ولا تدعه يفكر ، فإنه كلما فكر ازداد بعداً ، وقال ربى الهدانى :
 جمعت صنوف المال من كل وجهة
 وإنسى لأرجو أن أموت وتنقضى
 وأنشد الجاحظ لأبى الشمقمق :

ممن تعلمت هذا
 أما سررت بمعبود
 وما قالته الشعراء فى البخلاء وطعامهم : فمن أهجى
 والتغلبى إذا تنحنح للقرى
 وله أيضاً فيهم :

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم
 قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم
 فتمنع البول شحاً أن تجود به
 والخبز كالعنبر الهندي عندهم
 فأين هؤلاء من الذى قال فيه الشاعر :
 أبلج^(٣) بين حاجبيه نوره
 وقال بعضهم فى بخيل :

أتانا بخيلٌ بخبز له
 إذا ما تنفّس حول الخوان
 وقال آخر :

تراهم خشية الأضياف خرساً
 وقال آخر وقد بات عند بخيل :
 فبتنا كأنا بينهم أهل مأثم
 يحدث بعضنا بعضنا بمصابه
 وقال آخر :

وجيرة لا نرى فى الناس مثلهم
 إن يوقدوا يوسعونا من دخانهم
 وقال آخر وأجاد :

فصدق أيمانه إن قال مجتهداً :
 فإن هممت به فاعبث بخبزته
 قد كان يعجبني لو أن غيرته
 وقال آخر :

أن لا تجود بشئ
 لمعبود حاتم طي
 ما قيل فيهم بيت جرير فى بنى تغلب :
 حك استه وتمثل الأمثال^(١)

واستوثقوا من رتاج^(٢) الباب والدار
 قالوا لأمهم : بولى على النار
 وما تبول لهم إلا بمقدار
 والقمح خمسون إردباً بدينار

إذا تغدى رُفعت سُتُورُه

كمثل الدراهم فى رقته
 تطاير فى البيت من خفته

يقيمون الصلابة بلا أذان

على ميت مستودع بطن ملحد
 ويأمر بعضنا بعضنا بالتجلد

إذا يكون لهم عيد وإفطار
 وليس يبلغنا ما تطبخ النار

لا والרגيف فذاك البر من قسمه
 فإن موقعها من لحمه ودمه
 على جرادقه كانت على حُرْمه^(٤)

(٢) الرتاج: الغلب [الترباس].

(١) القرى: ما يقدم للضيف، والامت: حلقة الدبر.

(٣) أبلج: بليغ الإنسان: بعد ما بين حاجبيه، فهو أبلج، وهي بلجاء، والجمع بُلج. وكل واضح بُلج، وفي المثل: «الحق أبلج والباطل لَجْلج».

(٤) الجرادق: الأرغفة الغليظة والخبز الجاف.

وبقى العضاريط اللئام^(١)
ولا يُشتم له طعمام

على دهره إن الكريم مُعين
مخافة أن يُرجى نداء حزين
فلم تلقه إلا وأنت كمين

يسل السيف فيه من القرب^(٢)
وأما سيفه فعلى الكلاب

عروسا غدا بطن الكتاب لها صدرا
فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

فى ليلة مُظلمة باردة
ما سقطت من كفه واحده

من غير معنى لا ولا فائدة
فاقرأ عليهم سورة المائدة

وخبزك كالثريا فى السعد^(٤)
لحرمت الرقاد إلى المعاد

فقلت : وكيف لى بفتى كريم ؟!
وحسبك بالمجرب من عليم
ولا أحد يجود على عديم

ومن رؤساء أهل البخل محمد بن الجهم : وهو الذى قال : وددت لو أن عشرة من الفقهاء ، وعشرة من الخطباء وعشرة من الشعراء ، وعشرة من الأدباء تواطئوا على ذمى ، واستسهلوا شتمى ، حتى يتشر ذلك فى الآفاق فلا يمتد إلى أمل أمل ، ولا يسط نحوى رجاء راج .

وقال له أصحابه يوما : إنا نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك ، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استئمالك لمجالستنا ، فقال : علامة ذلك أن أقول : يا غلام هات الغداء .

وقال عمر بن ميمون : مررت ببعض طرق الكوفة ، فإذا أنا برجل يخاصم جارا له ، فقلت : ما بالكما ؟ فقال

ذهب الكرام فلا كرام
من لا يُقيل ولا يُنيل
وقال آخر :

خليلى من كعب أعينا أحاكما
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه
إذا جئته فى حاجة سد بابيه
وقال آخر :

له يومان : يوم ندى ويوم
فأما جوده فعلى قحاب^(٣)
وقال آخر :

زفت إلى نبهان من صفو فكرتى
فقبلها عشرا ، وهام بحبها
وقال آخر :

لو عبر البحر بأواجه
وكفه مملوءة خردلا
وقال آخر :

يا قائما فى داره قاعدا
قد مات أضيافك من جوعهم
وقال آخر :

نوالك دونه شوك القتاد
فلو أبصرت ضيفا فى منام
وقال ابن أبى حازم :

وقالوا : قد مدحت فتى كريما
بلوث ومر بى خمسون حولا
فلا أحد يُعذل يوم خير

(١) العضاريط : جمع عضرك وهو اللثيم الخسيس والصعلوك .

(٢) القرب : غمد السيف ، ونحوه . والجمع قُرْب ، وأقربة .

(٣) قحاب : يقال قحب الرجل إذا سعل من لومه ، وقحاب جمع قُحْب ، وهو السُّين يأخذه السعال .

(٤) النوال : العطاء ، والقتاد : نبات صلب له شوك كالإبر وفي المثل «من دونه خراط القتاد» يضرب للشيء ولا ينال إلا بمشقة عظيمة .

أحدهما : إن صديقاً لي زارني ، فاشتبهى رأساً فاشتريته ، وتغدينا ، وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري ، أتجمل بها ، فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس أنه هو الذي اشترى الرأس .

وقال رجل من البخلاء لأولاده : اشترؤا لي لحماً ، فاشترؤوه ، فأمر بطبخه ، فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق في يده إلا عظمة ، وعيون أولاده ترمقه ، فقال : ما أعطى أحداً منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها ، فقال ولده الأكبر أمشمشها يا أبت وأمصها حتى لا أدع للذر فيها مقيلاً . قال : لست بصاحبها . فقال الأوسط : ألوكها يا أبت ، وألحسها حتى لا يدرى أحد لعام هي أم لعامين ! قال : لست بصاحبها ، فقال الأصغر : يا أبت أمصها ، ثم أدقها وأسفها سفا . قال : أنت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزماً .

ووقف أعرابي على أبي الأسود : وهو يتغدى ، فسلم فرد عليه ثم أقبل على الأكل ولم يعزم عليه ، فقال له الأعرابي : أما إني قد مررت بأهلك قال : كذلك كان طريقك ، قال : وامرأتك حُبلى ، قال : كذلك كان عهدي بها ، قال : قد ولدت ، قال : كان لابد لها أن تلد . قال : ولدت غلامين ، قال : كذلك كانت أمها . قال : مات أحدهما . قال : ما كانت تقوى على إرضاع اثنين ، قال : ثم مات الآخر . قال : ما كان ليبقى بعد موت أخيه ، قال : وماتت الأم . قال : حزناً على ولديها . قال : ما أطيب طعامك . قال : لأجل ذلك أكلته وحدي ، ووالله لا ذقتها يا أعرابي . وقيل : خرج أعرابي قد ولاه الحجاج بعض النواحي ، فأقام بها مدة طويلة ، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيه ، فقدم إليه الطعام ، وكان إذ ذاك جائعاً فسأله عن أهله وقال : ما حال ابني عمير ؟ قال : على ما تحب قد ملأ الأرض والحي رجالاً ونساء . قال : فما فعلت أم عمير ؟ قال : صالحة أيضاً قال : فما حال الدار ؟ قال : عامرة بأهلها . قال : وكلبنا إيقاع ، قال : قد ملأ الحي نبأ قال : فما حال جملي زريق ؟ قال : على ما يسرك ، قال : فالتفت إلى خادمه . وقال : ارفع الطعام ، فرفعه ولم يشبع الأعرابي . ثم أقبل عليه يسأله . وقال : يا مبارك الناصية أعد على ما ذكرت . قال : سل عما بدا لك ، قال : فما حال كلبى إيقاع ؟ قال : مات . قال : وما الذي أماته ؟ قال : اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات ، قال : أو مات جملي زريق ؟ قال : نعم . قال : وما الذي أماته ؟ قال : كثرة نقل الماء إلى قبر أم عمير ، قال : أو ماتت أم عمير ؟ قال : نعم . قال : وما الذي أماته ؟ قال : كثرة بكائها على عمير ! قال : أو مات عمير ؟ قال : نعم . قال : وما الذي أماته ؟ قال : سقطت عليه الدار ! قال : أو سقطت الدار ؟ قال : نعم . قال : فقام له بالعصا ضارباً فولى من بين يديه هارباً .

(وحكى) بعضهم قال : كنت في سفر فضللنا عن الطريق ، فرأيت بيتاً في الفلاة ، فأتيته ، فإذا به أعرابية ، فلما رأته قالت : من تكون ؟ قلت : ضيف . قالت : أهلاً ومرحباً بالضيف ، انزل على الرحب والسعة ، قال : فنزلت ، فقدمت لي طعاماً فأكلت ، وماء فشربت ، فبينما أنا على ذلك ، إذ أقبل صاحب البيت . فقال : من هذا ؟ فقالت : ضيف ، فقال : لا أهلاً ولا مرحباً ما لنا وللضيف ، فلما سمعتُ كلامه ، ركبت من ساعتى وسرت فلما كان من الغد رأيت بيتاً في الفلاة ، فقصدته فإذا فيه أعرابية ، فلما رأته قالت : من تكون ؟ قلت : ضيف ، قالت : لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف ، مالنا وللضيف ، فبينما هي تكلمني إذ أقبل صاحب البيت ، فلما رأيته قال : من هذا ؟ قالت : ضيف . قال : مرحباً وأهلاً بالضيف ، ثم أتى بطعام حسن فأكلت ، وماء فشربت فتذكرت ما مر بي بالأمس فتبسمت ، فقال : مم تبسمك ؟ فقصصت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلمها ، وما سمعت منه ومن زوجته ، فقال : لا تعجب ، إن تلك الأعرابية التي رأيته هي أختي ، وإن بعلمها أخو امرأتى هذه فغلب على كل طبع أهله ، وحكايات هؤلاء وأمثالهم كثيرة ، وأخبارهم ونواديرهم شهيرة ، وفيما ذكرته كفاية ، وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الخامس والثلاثون

في الطعام وآدابه ، والضيافة وآداب المضيف والضيف ،
وأخبار الأكلة ، وما جاء عنهم ، وغير ذلك

أما إباحة الطيب من المطاعم : فقد قال الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِنَاءً فَنُفِثُوا ﴾ [البقرة: ١٧٢] وقال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ [المائدة: ٤] وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقال رسول الله ﷺ : « مُحَرَّمُ الْحَلَالِ كُمُحَلَّلِ الْحَرَامِ » ^(١) . وقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ فِي مَأْكَلِهِ وَشَرِبِهِ » ^(٢) . وكان الحسن يقول : ليس في اتخاذ الطعام سرف . وسئل الفضل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص ^(٣) للزهد ، فقال : ما للزهد وأكل الخبيص ؟ ليتك تأكل وتتقى الله ، إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذ اتقيت الحرام ، انظر كيف برك بوالديك وصلتك للرحم ؟ وكيف عطفك على الجار ؟ وكيف رحمتك للمسلمين ؟ وكيف كظمك للغيط ؟ وكيف عفوك عمن ظلمك ؟ وكيف إحسانك إلى من أساء إليك ؟ وكيف صبرك واحتمالك للأذى ، أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص .

أما نعوت الأطعمة وما جاء فيها : فقد نقل عن الرشيد أنه سأل أبا الحارث عن الفالودج ^(٤) واللوزينج ، أيهما أطيب ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا أقضى على غائب ، فأحضرهما إليه ، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن هذا لقمة ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، كلما أردت أن أقضى لأحدهما أتى الآخر بحجته ! واختلف الرشيد وأم جعفر في الفالودج واللوزينج أيهما أطيب ؟! فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين لا يقضى على غائب ، فأحضرهما ، فأكل حتى اكتفى فقال له الرشيد : احكم ، قال : قد اصطلاح الخصمان يا أمير المؤمنين ، فضحك الرشيد ، وأمر له بألف دينار . فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا ديناراً . وسمع الحسن البصري رجلاً يعيب الفالودج ، فقال : لباب البر بلعاب النحل ، بخالص السمن . ما أظن عاقلاً يعيبه . وقال الأصمعي : أول من صنع الفالودج عبد الله بن جدعان ، وأتى أعرابي بالفالودج فأكل منه لقمة ، فقيل له : هل تعرف هذا ؟ فقال : هذا وحياتك الصراط المستقيم ، « وَكَانَ أَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّحْمُ » ^(٥) ، وعن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم » ^(٦) . وكان ﷺ يقول : « هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ، وهو يزيد في السمع ، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل » ^(٧) . وكان ﷺ يحب الدباء ويقول : « يا عائشة إذا طبختم قدرًا فأكثرُوا فيها من الدباء » ^(٨) ، فإنها تشد القلب الحزين ، وهو شجرة أخى يونس ^(٩) . وعنه ﷺ أنه قال : « عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ، ويزيد في الدماغ ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب ، ويفرز الدمعة » ^(١٠) ، وعن أبي رافع

(١) «محرم الحلال كمحلل الحرام». أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» [٣٤/٦].

(٢) «إن الله يحب... إلخ». قال العجلوني: رواه الترمذي وحسنه. (٣) الخبيص: الحلواء المخبوضة من التمر والسمن.

(٤) الفالودج واللوزينج: الفالودج نوع من الحلوى يعمل من الدقيق والعلس. [الألفاظ الفارسية ١٢٠]، أما اللوزينج: من الحلوى شبه القطائف يؤدم بدهن اللوز. [معربة]، وكما سيأتي [الباب البر، بلعاب النحل، بخالص السمن].

(٥) وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ... إلخ. أخرجه مسلم [٣٢٧-٣٢٨/٣] كتاب الإيمان، والترمذي [١٨٣٧-٢٤٣٤]، وابن ماجه [٣٣٠٧]، وأحمد [٤٣٥/٢].

(٦) سيد الطعام... إلخ. ضعيف جداً: أخرجه ابن ماجه [٣٣٠٥]، وانظر: ميزان الاعتدال [٢/٢١٥].

(٧) هو سيد الطعام... إلخ. أورده المتقي الهندي في «كتر العمال» [٤١٠١]، وعزه لأبي نعيم في «الطب» عن علي.

(٨) الدباء: بتشديد الدال المضمومة مع فتح الباء: القرع.

(٩) وكان ﷺ يقول: «يا عائشة... إلخ». ضعيف: أخرجه أبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» [١٢٨/٢] - مخطوط، وسنده ضعيف، وانظر: «فيض القدير» [٣٩٧/١-٣٩٨].

(١٠) «عليكم بالقرع... إلخ» موضوع: أخرجه الطبراني في «الكبير» عن وائلة بن الأسقع، وفيه: عمرو بن الحصين، متروك، وانظر: «مجمع الزوائد» للهيتمي [٤٤/٥]، والسلسلة الضعيفة للألباني [٧، ٦/٢].

قال : كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : أكل التمر أمان من القولنج ، وشرب العسل على الريق أمان من الفالج ^(١) ، وأكل السفرجل يحسن الولد ، وأكل الرمان يصلح الكبد ، والزبيب يشد العصب ، ويذهب بالنصب والوصب ^(٢) ، والكرفس يقوى المعدة ويطيب النكهة ، وأطيب اللحم الكتف ، وكان يُديم أكل الهريسة ، وكان يأكل على سباط معاوية ، ويصلى خلف على ، ويجلس وحده ، فستل عن ذلك فقال : طعام معاوية أدم ، والصلاة خلف على أفضل ، وهو أعلم ، والجلوس وحدي لى أسلم .

وسميت المتوكلية بالمتوكل ، والمأمونية بالمأمون .

وقال الحسن بن سهيل يوماً على مائدة المأمون : الأرز يزيد في العمر ، فسأله المأمون عن ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طلب الهند صحيح وهم يقولون : إن الأرز يرى منامات حسنة ، ومن رأى مناماً حسناً ، كان في نهارين فاستحسن قوله ، ووصله .

وقال أبو صفوان : الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا وكانت العرب لا تعرف الألوان إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح ، حتى كان زمن معاوية رضي الله عنه فاتخذ الألوان ، ويقال للمرقة المسخنة بنت نارين ، وكان بعض المترفهين يقول : جنبوا مائدتي بنت نارين . وقالوا : كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد ، وقيل : إذا ألقى اللحم في العسل ، ثم أخرج بعد شهر طرياً ، فإنه لا يتغير ، ويقال للسكبا ^(٣) : سيد المرق ، وشيخ الأطعمة ، وزين الموائد . ويقال : إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت عن معدتك ثلث المؤنة . ويقال للخبز ابن حبة قال بعضهم :

فى حبة القلب منى زرعيت حُب ابسن حَبّه

وعن ابن عباس رضي الله عنه رفعه « أكرموا الخبز » ، قالوا : وما كرامته يا رسول الله ؟ قال : « لا يتنظر به الإدام إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤنوا بغيره » ^(٤) . وفي الحديث : « من داوم على اللحم أربعين يوماً قسا قلبه ، ومن تركه أربعين يوماً ساء خلقه » ^(٥) . وقيل : المائدة التي أنزلت على بنى إسرائيل ، كان عليها كل البقول إلا الكراث ، وسمكة عند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان . ودخل ابن قزعة يوماً على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه ، فقال : ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز بأكل الموز ؟ فقال صفة حتى أطعمك منه ، فقال : ما الذى أصف من حسن لونه فيه سبائك ذهبية ، كأنها حشيت زبداً وعسلاً ، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم ، سهل المقشر ، لين المكسر ، عذب المطعم بين الطعوم ، سلس فى الحلقوم ، ثم مد يده وأكل .

وسمع رجلاً يذم الزبد ، فقال له : ما الذى ذممت منه ؟! سواد لونه ، أم بشاعة طعمه ، أم صعوبة مدخله ، أم خشونة ملمسه ؟! وقيل له : ما تقول فى الباذنجان ؟ قال : أذئاب المحاجم ^(٦) ، ويطون العقارب ، وبزور الزقوم ^(٧) . قيل له : إنه يُحشى باللحم ، فيكون طيباً ، فقال : لو حُشى بالتقوى والمغفرة ما أفلح .

وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ، ثم قال لزازان : هل عمل كسرى مثلها ؟ فاستعفاه ، فأقسم عليه ، فقال : أولم عبد عند كسرى ، فأقام على رءوس الناس ألف وصيفة ^(٨) ، فى يد كل واحدة إبريق من ذهب . فقال الحجاج : أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفاً .

(١) الفالج : شلل يصيب أحد شقي الجسم طولاً .

(٢) النَّصَب : التعب . والوصب : الوجع والمرض ، والتعب أيضاً .

(٣) السكبا : مرق يعمل من لحم وخَلْ معرب «سكباً» [الألفاظ الفارسية ٩٨] .

(٤) «أكرموا الخبز» . إلخ : انظر : «مجمع الزوائد» [٣٤/٥] ، والموضوعات لابن الجوزي [٢٩٠-٢٩١/٢] ، والضعفاء الكبير للعقيلي [٢٨/٣] ، وابن عدي في «الكامل» [٢٥٠٨/٧] ، والخطيب في «التاريخ» [٣٢٣/١٢] ، والمجروحين لابن جابر [١٣٤/٢] .

(٥) «من داوم على اللحم» . إلخ : ليس بحديث ، وانظر : «الطب النبوي» لابن القيم [ص ٢٨٩] ، «زاد المعاد» الجزء الرابع له طبع . مكتبة القرآن .

(٦) المحاجم : مفردا يُحجم ، وهي أداة الحجم ، والقارورة التي يُجمع فيها دم الحجامة .

(٧) الزقوم : شجرة مؤنة كريهة الرائحة ، ثمرها طعام أهل النار .

(٨) وصيفة : خادمة ، والجمع وصائف .

وأهدى رجل إلى آخر فالودجة زَنخة وكتب إليه : إني اخترت لعملها السكر السوسى ، والعسل الماردانى ، والزعفران الأصهبانى ، فأجابه : والله العظيم ما عُمِلْتُ إلا قبل أن توجد أصبهان ، وقبل أن تفتح السوس .
وقيل : إن أبا جهم بن عطية كان عينا لأبى مسلم الخولانى على المنصور ، فأحس المنصور بذلك ، فطاوله الحديث يوما حتى عطش ، فاستسقى ، فدعا له بقدر من سوق اللوز فيه السم ، فناولوه إياه فشرب منه ، فما بلغ داره حتى مات فقيل فى ذلك :

تجنب سوق اللوز لا تقربنه فُشِرْبَ سَوِيقِ اللُّوزِ أَرْدَى أَبَا جَهِمٍ
وقال أبو طالب المأمونى :

فما حملت كف امرئ مُتَطَعَمًا الذُّ وَأَشْهَى مِنْ أَصَابِعِ زَيْنَبِ
(وأصابع زينب) ضرب من الحلوى ، يعمل ببغداد يشبه أصابع النساء المنقوشة .
ودخل السائب على عليّ عليه السلام فى يوم شاتٍ ، فناولوه قدحا فيه عسل وسمن ولبن ، فأباه ، فقال : أما إنك لو شربته لم تزل دفئا شعبان سائر يومك .
وعن نافع بن أبى نعيم قال : كان أبو طالب يعطى عليّا قدحا من اللبن يصبه على اللات ، فكان على يشرب اللبن ، ويبول على اللات .

(وأما الزهد فى المآكل) ، فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه ، ومنهم من لا يقدر عليه ، قالت عائشة رضي الله عنها : « والذى بعث محمداً عليه السلام بالحق ما كان لنا منخل ، ولا أكل رسول الله - خبزاً منخولاً منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض . قيل : فكيف كنتم تأكلون الشعير ؟ قالت : كنا نقول أف أف ^(١) . وعن جابر رضي الله عنه رفعه « نَعَمْ الأدم الخل وكفى بالمرء سرفاً أن يتسخط ما قرب إليه ^(٢) » ، وقال عمر رضي الله عنه : « ما اجتمع عند رسول الله عليه السلام أدمان إلا أكل أحدهما ، وتصدق بالآخر ^(٣) » . وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما كان يجتمع لوانان فى لقمة فى فم رسول الله عليه السلام إن كان لحمًا لم يكن خبزاً ، وإن كان خبزاً لم يكن لحمًا ^(٤) » . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا على ابدأ بالملح ، واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء ^(٥) » . وروى أن نبياً من الأنبياء عليه السلام شكى إلى الله الضعف ، فأمره أن يطبخ اللحم باللبن ، فإن القوة فيها ^(٦) . وسنذكر فضل الزهد فى المآكل والمشارب فى باب مدح الفقراء إن شاء الله تعالى .

(وأما ما جاء فى آداب الأكل) . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال عند مطعمه ومشربه باسم الله خير الأسماء باسم الله رب الأرض والسماء ، لم يضره ما أكل وما شرب ^(٧) » ، وكان عليه السلام إذا وضع بين يديه الطعام قال : « باسم الله ، اللهم بارك لنا فيما رزقنا ، وعليك خلقه ^(٨) » . وقال عليه السلام : « مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ ، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَمَنْ لَبَسَ ثَوْبًا فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ^(٩) » . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا

(١) والذي بعث محمداً بالحق . إلخ . لم أقف عليه من حديث عائشة ، ووجدته من حديث سهل بن سعد عند البخاري [٥٤١٠ ، ٥٤١٣] ، والترمذي [٢٤٦٩٩] ، وابن ماجه [٣٣٥] ، وغيره .

(٢) نعم الأدم الخل . إلخ . لم أجد إلا قوله : « نعم الإدام الخل » من حديث جابر عند مسلم [٢٠٥٢] ، وأبو داود ، [٣٨٢١] ، وغيرهم ، أما بقيته ، فلم أعتد إليه .

(٣) « ما اجتمع . . إلخ » أورده المتقي الهندي فى « الكتر » [٤١٦٨٩] ، وعزاه للعسكري .

(٤) « ما كان يجتمع . . إلخ » لم أقف عليه .

(٥) « يا على . . إلخ » أورده السيوطي فى « اللآلئ المصنوعة » [١١/٢] من رواية علي ، وسنده موضوع المتهم به عبد الله أحمد بن عامر ، أو أبوه ، فإنهما كان يرويان نسخة باطلة عن أهل البيت ، وهذه منها .

(٦) روى أن نبياً من الأنبياء عليه السلام . إلخ . لم أقف على من خرج . ما جاء فى آداب الأكل ص ٢/٢ .

(٧) « من قال عند مطعمه . . إلخ » لم أقف عليه .

(٨) « وكان عليه السلام إذا وضع . . إلخ » أخرجه أبو داود [٣٧٣٠] ، والترمذي [٣٤٥١] وحسنه ، وكذا أحمد فى « مسنده » [٢٢٥/١] .

(٩) « من أكل طعاماً . . إلخ » حسن : أخرجه أبو داود [٤٠٢٣] ، والترمذي . [٣٤٥٨ - الشطر الأول] ، وكذا ابن ماجه [٣٢٨٥] .

أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ ، فَإِنْ نَسِيَ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ » (١). وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِمِثْنِهِ ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِمِثْنِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ » (٢). وقال ﷺ : « الْأَكْلُ فِي السُّوقِ دَنَاءَةٌ » (٣).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ زجر عن الشرب قائما ، قال : فسألناه عن الأكل قائما ، فقال : « هُوَ شَرُّ مِنَ الشَّرْبِ » (٤). وأوصى رجل من خدام الملوك ابنه فقال : إِذَا أَكَلْتَ فُضِمَ شَفْتِيكَ ، وَلَا تَلْتَفِتَنَّ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ، وَلَا تَلْقَمَنَّ بِسَكِينٍ ، وَلَا تَجْلِسَ فَوْقَ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ مِنْكَ ، وَأَرْفَعْ مَنْزِلَهُ ، وَلَا تَبْصُقْ فِي الْأَمَاكِنِ النَّظِيفَةِ . وَمِنْ هَذَا مَا رَوَاهُ الزَّهْرِيُّ (٥) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ « نَهَى عَنِ النَّفْخِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ » . وقال علي رضي الله عنه : « نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُؤْكَلَ الطَّعَامُ حَارًا » (٦). وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : « مَا عَابَ النَّبِيُّ ﷺ طَعَامًا قَطَّ إِلَّا شَتَّاهُ أَكَلَهُ وَإِلَّا تَرَكَّهُ » (٧). وقال عمرو بن هيرة : عليكم بمباكرة الغداء فَإِنْ مَبَاكَرْتَهُ تَطِيبَ النَّكْهَةُ . وتعين على المروءة . وقيل : وما إِعَانَتَهُ عَلَى الْمَرْوَةِ ؟ قال : أَنْ لَا تَتَوَقَّ نَفْسُكَ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِكَ . وعن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَكَلَ مِنْ سَقَطِ الْمَائِدَةِ عَاشَ فِي سَعَةٍ ، وَعُوفِيَ فِي وَلَدِهِ وَوُلْدُ وَلَدِهِ مِنَ الْحَقِّ » (٨). وعنه ﷺ : « مَنْ لَفَظَ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَكَلَهُ حَرَّمَ اللَّهُ جِلْدَهُ مِنَ النَّارِ » (٩). وكان الحارث بن كلدة يقول : إِذَا تَغَدَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَنْهَمْ عَلَى غَدَائِهِ ، وَإِذَا تَعَشَّى فَلْيَخْطُ أَرْبَعِينَ خُطْوَةً . وقيل : خَيْرُ الْغَدَاءِ بَوَاكِرُهُ ، وَخَيْرُ الْعِشَاءِ سَوَافِرُهُ (١٠). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُتَّبَعَ الرَّجُلُ بَصَرَهُ لِقَمَةِ أَخِيهِ » (١١). وقال الحجاج لأعرابي يوما على سماطه (١٢) : ارفق بنفسك ، فقال : وَأَنْتَ يَا حَجَّاجَ اغْضُضْ مِنْ بَصْرِكَ . وقال معاوية لرجل على مائدته : خذ الشعرة من لقمتك ، فقال : وَإِنْكَ تَرَاعِنِي مِرَاعَةً مِنْ يَرَى الشَّعْرَةَ فِي لَقْمَتِي لَا أَكَلْتُ لَكَ طَعَامًا أَبَدًا . ووضع معاوية بين يدي الحسن ابن علي رضي الله عنهما دجاجة ففكها . فقال معاوية : هَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أُمِّهَا عَدَاوَةٌ ؟ فقال الحسن : بَيْنَ أُمِّهَا قَرَابَةٌ ؟ أَرَادَ مُعَاوِيَةَ أَنْ الْحَسَنُ يَقُورَ مَجْلِسَهُ كَمَا تَقُورُ مَجَالِسُ الْمُلُوكِ ، وَالْحَسَنُ أَعْلَمُ مِنْهُ بِالْآدَابِ وَالرُّسُومِ الْمُسْتَحْسَنَةِ رضي الله عنه وحضر أعرابي على مائدة بعض الخلفاء ، فَقَدَّمَ جَدِي مَشْوًى ، فَجَعَلَ الْأَعْرَابِيُّ يَسْرِعُ فِي أَكْلِهِ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ : أَرَأَيْكَ تَأْكُلُهُ بِحَرْدٍ (١٣) ، كَانَ أُمُّهُ نَطَحَتْكَ ، فَقَالَ : أَرَأَيْكَ تَشْفُقُ عَلَيْهِ ، كَانَ أُمُّهُ أَرْضَعَتْكَ .

(وَأَمَّا مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْأَكْلِ) ، فَقَدْ رَوَى عَنْ حَذِيفَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : « مَنْ قَلَّ طَعَامُهُ صَحَّ بَطْنُهُ ، وَصَفَا قَلْبُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ طَعَامُهُ سَقَمَ بَطْنُهُ ، وَقَسَا قَلْبُهُ » (١٤). وعنه ﷺ : « لَا تَمِيتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ الْقَلْبَ كَالزَّرْعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ مَاتَ » (١٥). وقال ﷺ : « مَا زَيْنَ اللَّهُ رَجُلًا بِزِينَةِ أَفْضَلٍ مِنْ عِفَافِ بَطْنِهِ » (١٦). وقال عمرو بن عبيد : مَا رَأَيْتُ الْحَسَنَ ضَاحِكًا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ، قَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ : مَا أَذَانِي طَعَامٌ قَطُّ ، فَقَالَ لَهُ آخَرٌ : أَنْتَ لَوْ كَانَتْ فِي

(١) « إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ .. إلخ » . أخرجه أبو داود [٣٧٦٧] ، والترمذي [١٨٥٨] ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) حديث ابن عمر رضي الله عنهما : « إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ .. إلخ » . عزاه المتقي الهندي في « كنز » [٤٠٧٦٦] ، للحسن بن سفيان في « مسنده » من حديث أبي هريرة .

(٣) « الْأَكْلُ فِي السُّوقِ .. إلخ » . موضوع : أخرجه العقيلي في « الضعفاء الكبير » في ترجمة عمر بن موسى الوجيهي الكذاب ، وانظر : « السلسلة الموضوعية » برقم [٢٦٦٥] .

(٤) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ زجر .. إلخ . أورده المتقي الهندي في « كنز العمال » [٤١٨١٩] ، وعزاه لابن جرير الطبري .

(٥) من هذا ما رواه الزهري .. إلخ . ثبت هذا موصولاً عن ابن عباس عند أبي داود [٣٧٢٨] ، والترمذي [١٨٨٨] .

(٦) حديث : أخرجه البيهقي في « الشعب » برقم [٥٩١٢] ، عن صهيب ، بسند ضعيف .

(٧) وفي الصحيحين .. إلخ . أخرجه البخاري [٣٥٦٣] ، ومسلم [ج ٣ كتاب الأشربة برقم ١٨٧] .

(٨) « مَنْ أَكَلَ مِنْ سَقَطِ الْمَائِدَةِ .. إلخ » موضوع : أخرجه ابن عساکر عن أبي هريرة ، وفيه إسحاق بن أبي نجیح ، كذاب .

(٩) « مَنْ لَفَظَ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ .. إلخ » . انظر : « كنز العمال » للهندي برقم [٤٠٨٢٥] .

(١٠) سوافره : يقال : فرسٌ سافر اللحم ، أي : قليله . وخير العشاء سوافره ، أي : قليله .

(١١) « نَهَى أَنْ يُتَّبَعَ الرَّجُلُ .. إلخ » . أورده المتقي الهندي في « كنز » [٤٠٨١٦] ، وعزاه للحسن بن سفيان ، عن أبي عمر مولى عمر .

(١٢) السماط : ما يُقَدُّ لِيُوضَعَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ فِي الْمَادَبِّ وَنَحْوِهَا . (١٣) بِحَرْدٍ : بغضب .

(١٤) « مَنْ قَلَّ طَعَامُهُ .. إلخ » . انظر : « تهذيب تاريخ ابن عساکر » [٢٠٦/٢] .

(١٥) « لَا تَمِيتُوا الْقُلُوبَ .. إلخ » . قال العراقي في « تخريج الإحياء » [٧٠/٣] - هامش الإحياء ، « لَمْ أَقِفْ لَهُ عَلَى أَصْلٍ » .

(١٦) « مَا زَيْنَ اللَّهُ رَجُلًا .. إلخ » . لم أعتد إليه .

معدتك الحجارة . لطحتتها ! وقال على كرم الله وجهه : البُطْنَةُ تُذهب البُطْنَةُ . وقال ابن المقفع : كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نَهَمًا شرهاً أخرجوه من طبقة الجد إلى باب الهزل ، ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار ، وتقول العرب : أقلل طعاما ، تجد مناما ، وكانت العرب تعبر بعضها بكثرة الأكل وأنشدوا :

لست بأَكْالٍ كأكل العبد ولا بنوَامٍ كنوم السَّفْهَدِ
وأنشد الأصمعي لرجل من بني فهد :

إذا لم أُرْزَ إلا لأَكْلٍ أَكَلَةٍ فلا رَفَعَتْ كَفِّي إلى طعامي
فما أَكَلَةٍ إن نلتُها بغنيمة ولا جوعَةٍ إن جُعْتُها بغرام^(١)

وقالت عائشة رضي الله عنها : أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلامًا فألقى بين يديه تمرًا ، فأكل ، فأكثر فقال ﷺ : «إن كثرة الأكل شؤم»^(٢) وقالوا : الوحدة خير من الجليس السوء ، والجليس السوء ، خير من الأكل السوء . وشكا أبو العيْناء إلى صديق له سوء الحال فقال : اشكر . فإن الله قد رزقك الإسلام والعافية . قال : أجل ، ولكن بينهما جُوع يُقلِّل الكبد .

ودعت أبا الحارث حبيبة له فحدثته ساعة ، فجاع فطلب الأكل ، فقالت له : أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل ؟ قال : جُعلْتُ فداك لو أن جميلًا وبشينة قعدا ساعة لا يأكلان لبطق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا .

(وأما أخبار الأكلة) ، فقد قيل : إن وهب بن جرير ، سأل ميسرة البراش ، عن أعجب ما أكل ، فقال : أكلت مائة رغيف^(٣) بمكوك بلح . ومر ميسرة المذكور يوما يقوم وهو راكب حمارا فدعوه للضيافة ، فذبحوا له حماره وطبخوه ، وقدموه له ، فأكله كله فلما أصبح طلب حماره ليركبه فقيل له : هو في بطنك .

وقال المعتمر بن سليمان : قلت لهلال المازني : ما أكلة بلغتني عنك ؟ قال : جعت مرة ، ومعى بعير لى فنحرته وشويته وأكلته ، ولم أبق منه إلا شيئا يسيرا حملته على ظهري ، فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لى فلم أقدر أصل إليها ، فقالت : كيف تصل إلى وبيننا جمل ؟ ! فقلت له : كم تكفيك هذه الأكلة ؟ فقال : أربعة أيام . وقال الأصمعي : إن سليمان بن عبد الملك كان شرها نهما ، وكان من شره أنه إذا أتى بالسفود^(٤) ، وعليه الدجاج السمين المشوى لا يصبر إلى أن يبرد ، ولا أن يؤتى بمنديل فيأخذ بكمه ، فيأكل واحدة واحدة حتى يأتى عليها . فقال الرشيد : ويحك يا أصمعي ! ما أعلمك بأخبار الناس . إني عُرِضْتُ على جباب^(٥) ، سليمان فرأيت فيها آثار الدهن ، فظننته طيبًا حتى حدثتني ، ثم أمر لى بجبة منها فكنت إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك .

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص قدم سليمان بن عبد الملك الطائف ، فدخل هو وعمر ابن عبد العزيز إلى وقال : يا شمردل ، ما عندك ما تطعمني ؟ قلت : عندي جذئ كاعظم ما يكون سِمَنًا ، قال : عجل به ، فأتيته به كأنه عَكَّة^(٦) سمن ، فجعل يأكل منه ، ولا يدعو عمر حتى إذا لم يبق منه إلا فخذ قال : هلم يا أبا جعفر ، فقال : إني صائم ، فأكله ، ثم قال : يا شمردل ، ويليك . أما عندك شيء ؟ قلت : ست دجاجات ، كأنهن أفخاذ نعام فأتيته بهن فأتى عليهن ، ثم قال : يا شمردل ، أما عندك شيء ؟ قلت : سوق^(٧) كأنه قراضة الذهب ، فأتيته به ، فعبه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا غلام ، أفرغت من غدائنا ؟ قال : نعم . قال : ما هو ؟ قال : نيف وثلاثون قدرا ، قال : اتنى بقدر قدر فأتاه بها ومعها الرقاق ، فأكل من كل قدر ثلثه ، ثم مسح يده ، واستلقى على فراشه ، وأذن للناس ، فدخلوا وُصِفَ الخوان ، فقعد ، وأكل مع الناس . وكان هلال بن الأسعر يضع القمع على فيه ، ويصب اللبن أو النبيذ ، وكان غليظا عَنَلًا . وقال أعرابي لرجل رآه سمينًا : أرى عليك قطيفة من نسج أضرارك .

(١) بغرام : بعباد شديد.

(٢) «إن كثرة الأكل .. إلخ» . لم أقف عليه .

(٣) المكوك : مكيال قديم قيل : يسع صاعا ونصفا .

(٤) السفود : عود من حديد [سيخ] ، ينظم عليه اللحم والدجاج ليشوى .

(٥) الجباب جمع جبة وهي ثوب سابغ واسع الكمين ، مشقوق المقدم ، يلبس فوق الثياب . (٦) العَكَّة : [بضم العين] ، زق صغير للسمن .

(٧) السوق : طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، سمي بذلك لانسباقه في الحلق ، وقد يجعل شرابًا مثلجًا فيصير لذيق الطعم [سويبا] .

وقال أبو المحسر الأعرابي : كانت لى بنت تجلس معى على المائدة فُتَبَرُّزُ كَفًّا كأنها صدفة^(١) ، فى ذراع كأنه جُمارة ، فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتنى بها ، فكبرت وزوجتها وصرت أجلس على المائدة ، مع ابن لى فيبرز كفا كأنها كُرْنافة^(٢) ، فوالله لن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها . وقال مسلم بن قتيبة عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفا مع كل رغيف سمكة . ويقال : فلان يحاكي حوت يونس فى جودة الالتقام ، وعصا موسى فى سرعة الالتهام .

وقيل لأبى مرة : أى الطعام أحب إليك ؟ قال لحم سمين ، وخبز سميد^(٣) . أضرب فيه ضرب ولّى السوء فى مال اليتيم .

وقال صدقة بن عبيد المازني أولم لى أبى لما تزوجت فعمل عشر جفان ثريد من جَزُور فكان أول من جاءنا هلال المازني فقدمنا له جَفَنَةً مترعة^(٤) ، فأكلها ، ثم أخرى فأكلها ، حتى أتى على الجميع ، ثم أتى بقربة مملوءة من السوق فوضع طرفها فى شدقه ، وفرغها فى جوفه ، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام . وكان عبيد الله بن زياد يأكل فى كل يوم خمس أكلات ، فخرج يوما يريد الكوفة ، فقال له رجل من بنى شيان : الغداء - أصلح الله الأمير - فنزل فذبح له عشرين طائرا من الإوزَ فأكلها ، ثم قدم الطعام فأكل ، ثم أتى بزنبيلين : فى أحدهما تين ، وفى الآخر بيض ، فجعل يأكل من هذا تينة ومن هذا بيضة ، حتى أتى على ذلك جميعه ، ثم رجع وهو جائع .

وكان ميسرة البراش يأكل الكبش العظيم ، ومائة رغيف ، فذكر ذلك للمهدى ، فقال : دعوت يوما بالفيل ، وأمرت فألقى إليه رغيف رغيف فأكل تسعة وتسعين ، وألقى إليه تمام المائة ، فلم يأكله .

وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهري : أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول : إن معاوية بن أبى سفيان كان يأكل فى كل يوم مائة رطل بالدمشقى ولا يشبع .

ونزل رجل بصومعة راهب فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة وذهب ليحضر إليه العدس ، فحملة وجاء فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز فوجده قد أكل العدس ، ففعل معه ذلك عشر مرات ، فسأله الراهب أين مقصده ؟ قال : إلى الأردن . قال : لماذا ؟ قال بلغنى أن بها طبيبا حاذقا ، أسأله عما يصلح معدتى فإنى قليل الشهوة للطعام . فقال له الراهب : إن لى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قال : إذا ذهبت ، وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك على .

(وأما المهازلة على الطعام) ، فقد روى عن يحيى بن عبد الرحمن ؓ قال : قالت عائشة ؓ : « كان عندى رسول الله ﷺ وسودة ، فصنعت حريرة ، فجئت به فقلت لسودة : كلى ؛ فقالت : لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلين أو لأطخن وجهك ، فقالت : ما أنا بذائقتة ، فأخذت من الصحيفة شيئا فلطخت به وجهى ، ورسول الله ﷺ جالس بينى وبينها ، فتناولت من الصحيفة شيئا فلطخت به وجهى وجعل رسول الله ﷺ يضحك^(٥) » .

واشترى غنذر يوما سمكا وقال لأهله : أصلحوه ونام فأكل عياله السمك ولطخوا يده فلما انتبه ، قال : قدموا إلى السمك ، قالوا : قد أكلته قال : لا . قالوا : شم يدك ، ففعل ، فقال : صدقتم ولكن ما شبعتم .

ودخل الحمدونى على رجل وعنده أقوام بين أيديهم أطباق الحلوى ولا يمدون أيديهم فقال : لقد ذكرتونى ضيف إبراهيم ، وقول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠] . ثم قال : كلوا - رحمكم الله - فضحكوا وأكلوا . والحكايات فى ذلك كثيرة .

(وأما الضيافة وإطعام الطعام) فقد قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤] . وقال

(١) الصدفة: غشاء الدر والجمع أصداف وفي المطبوعة «صلفة» وما اخترناه يناسب كأنها جُمارة وهي القطعة من قلب النخلة.

(٢) كُرْنافة: أصول الكُرب: [الأصل العريض للسعف إذا بيس] حين يبقى في الجذع بعد قطع السعف «كُرْناف» والواحدة كُرْنافة.

(٣) سميد: ما كان من لباب الدقيق.

(٤) الجفان جمع جفنة وعاء كبير متسع يقدم فيه الثريد [الفتة]. والجَزُور: الجمل. ومترعة: ملأى.

(٥) قالت عائشة . . إلخ. لم أقف عليه. والحريرة: دقيق يطبخ بلبن أو دسم.

رسول الله ﷺ: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَلَا يُؤْذِ جَارَهُ » ^(١) . وقال ﷺ: « مَنْ أَكَلَ وَذُوَعَيْنَيْنِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَلَمْ يُوَاسِهِ ابْتَلَى بَدَاءَ لَا دَوَاءَ لَهُ » ^(٢) . وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة إطعام الأخ المسلم الجائع . وقيل لإبراهيم الخليل ﷺ: بم اتخذك الله خليلاً ؟ قال : بثلاث : ما خيرت بين شيئين إلا اخترت الذي على غيره ، ولا اهتممت بما تكفل لي به ، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف . ويقولون : ما خلا مضيف الخليل ﷺ إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف . وكان الزهري إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام . وقالوا . المائدة مرزوقة أى من كان مضيفاً وسع الله عليه .

وقالوا: أول من سن القرى إبراهيم الخليل ﷺ، وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم ، وأول من أفطر جيرانه على طعامه في الإسلام عبد الله بن عباس ؓ وهو أول من وضع موائده على الطريق ، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق ، وقيل لبعض الكرماء : كيف اكتسبت مكارم الأخلاق ، والتأذب مع الأضياف ؟ فقال : كانت الأسفار تحوجني إلى أن أفد على الناس ، فما استحسنته من أخلاقهم اتبعته ، وما استقبحت اجتنبتها .

(وأما آداب المضيف) ، فهو أن يخدم أضيافه ويظهر لهم الغنى ، ويسط الوجه ، فقد قيل : البشاشة في الوجه خير من القرى ، قالوا : فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك ، وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديوي - رحمه الله - هذا الكلام بأبيات فقال :

قِرَاكَ أَرْمَتَهُ لَدَيْكَ الْمَسَالِكُ
وَقُلْ : مَرْحَبًا أَهْلًا وَيَوْمَ مَبَارِكُ
عَجُولًا وَلَا تَبْخُلْ بِمَا هُوَ هَالِكُ
تَدَاوُلُهُ زَيْدٌ وَعَمْرٌ وَمَالِكُ
فَكَيْفَ بِمَنْ يَأْتِي بِهِ وَهُوَ ضَا حَكُ
وَإِطَالَةُ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْمُوَآكِلَةِ ، وَقَالَ حَاتِمُ الطَّائِي :
إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ نَارِي وَمَجْزَرِي ^(٣)

إِذَا الْمَرْءُ وَافَى مَنْزِلًا مِنْكَ قَاصِدًا
فَكُنْ بِاسْمَا فِي وَجْهِهِ مُتَهَلِّلًا
وَقَدِّمْ لَهُ مَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْقَرَى
فَقَدْ قِيلَ : بَيْتٌ سَالَفٌ مُتَقَدِّمٌ
بِشَاشَةِ وَجْهِ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنَ الْقَرَى
وَقَالَتِ الْعَرَبُ : تَمَامُ الضِّيَافَةِ الطَّلَاقَةُ عِنْدَ أَوَّلِ وَهْلَةٍ ،
سَلَى الطَّارِقُ الْمَعْتَرِيَ أَمْ مَالِكُ
وَقَالَ آخَرُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ :
إِنَّكَ يَا بَنَ جَعْفَرَ خَيْرُ فِتَى
وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَاتِلِ :

وَخَيْرُهُمْ لَطَّارِقُ إِذَا أَتَى

شَيْءٌ كَطَارِقَةِ الضِّيُوفِ النِّزْلِ
ضَيْفَالَهُ وَالضَّيْفُ رَبُّ الْمَنْزِلِ

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا سَرَنِي
مَا زِلْتُ بِالْتَرَحُّيبِ حَتَّى خَلَّتْنِي
أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ :

نَحْنُ الضِّيُوفُ وَأَنْتَ رَبُّ الْمَنْزِلِ

يَا ضَيْفُنَا لَوْ زَرْتَنَا لَوَجَدْتَنَا
وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ :

نَحْنُ سَوَاءٌ فِيهِ وَالطَّارِقُ
إِلَّا الَّذِي حَرَمَهُ الْخَالِقُ

مَنْزَلُنَا رَحْبٌ لِمَنْ زَارَهُ
وَكُلُّ مَا فِيهِ حَلَالٌ لَهُ

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : سَأَلْتُ عَيْنَةَ بْنَ وَهْبٍ الدَّارِمِيَّ عَنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَقَالَ : أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ عَاصِمِ بْنِ وَائِلٍ :

(١) « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ .. إلخ » . صحيح أخرجه البخاري [٦٠١٨] ، ومسلم [٤٨] .

(٢) « مَنْ أَكَلَ وَذُوَعَيْنَيْنِ .. إلخ » . لم أقف عليه .

(٣) المعتز : الفقير ، والضيف الزائر ، والمتعرض للمعروف من غير أن يسأل .

وإننا لنُقرى الضيف قبل نزوله
وقال بعض الكرام :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله
وما الخضب للأضياف أن تكثر القرى
وقال آخر :

عوذت نفسي إذا ما الضيفُ نبهني
ومن آداب المضيف : أن يتفقد دابة ضيفه ويكرمها قبل إكرام الضيف ، قال الشاعر :

مطية^(١) الضيف عندي تلو صاحبها
لن يأمن الضيف حتى تُكرم الفرسان

وقال علي بن الحسين (عليه السلام) : من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل (عليه السلام) بنفسه وأهله أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَآيَمَةٌ ﴾ [هود: ٧١] .

ومن آداب المضيف : أن يحدث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم ، ولا ينام قبلهم ، ولا يشكو الزمان بحضورهم ، ويش عند قدومهم ، ويتألم عند وداعهم ، وأن لا يحدث بما يروغهم به ، كما حكى بعضهم ، قال : استدعاني إسحاق ابن إبراهيم الظاهري إلى أكل هريسة في بكرة نهار ، فدخلت فأحضرت لنا الهريسة ، فأكلنا فإذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طبخه ، فاستدعني خادمه فأسرّ إليه شيئاً لم نعلمه ، فعاد الخادم ، ومعه صينية مغطاة فكشف عن الصينية ، فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج^(٢) ، فتكدر علينا عيشنا ، وقمنا من عنده ، ونحن لا نعقل فيجب على المضيف أن يراعى خواطر أضيافه ، كيفما أمكن ، ولا يغضب على أحد بحضورهم ، ولا ينغص عيشهم بما يكرهونه ولا يعبس بوجهه ولا يظهر نكدا ، ولا ينهر أحداً ولا يشتمه بحضورهم بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن .

كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه ، وعمل لهم سماطاً ، وكان له ولد جميل الطلعة ، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم ، ويأنسون به ، ففي آخر النهار صعد إلى السطح فسقط فمات لوقته ، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ ولا تبكي ، إلى أن تصبح ، فلما كان الليل سأله أضيافه عن ولده فقال ، هو نائم فلما أصبحوا وأرادوا الخروج قال لهم : إن رأيتم أن تصلوا على ولدي ، فإنه بالأمس سقط من على السطح فمات لساعته ، فقالوا له : لم لا أخبرتنا حين سألناك ؟! فقال : ما ينبغي لعاقل أن ينغص على أضيافه في التذاهم ، ولا يكدر عليهم في عيشهم فتعجبوا من صبره وتجلده ، ومكارم أخلاقه ، ثم صلوا على الغلام ، وحضروا دفنه ، وبكوا عليه وانصرفوا . وعلى المضيف ، أن يأمر غلمانته بحفظ نعال أضيافه ، وتفقد غلمانهم بما يكفيهم ويسهل حجابهم وقت الطعام ، ولا يمنع وارداً .

وقيل لبعض الأمراء الكرام : لا بأس بالحجاب لئلا يدخل من لا يعرفه الأمير ، ويحترز عن العدو ؛ فقال : إن عدواً يأكل طعامنا ، ولا يتخذع لا يمكنه الله منا .

والأليق بالكريم الرئيس ، أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام ، فإن ذلك أول الشناعة عليه ، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيق المحادثة ، وغريب الحكايات ، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف ، إن كان من أهل ذلك ، وأن يرى أضيافه مكان الخلاء ؛ فقد قيل عن ملك الهند : إنه قال : إذا ضافك أحد فأره الكنيف ، فإنني ابتليت به مرة فوضعت في قلنسوتي ، وقالوا : لا بأس أن يدخل الرجل دار أخيه يستطعم^(٣) ، للصدقة الوكيدة ، وقد قصد النبي ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان ، وأبى أيوب الأنصاري^(٤) ، وكذلك كانت عادة

(١) المطية : من الدواب ، ما يُمتطى تُذكر وتؤنث ، فالبعير مطية والناقة مطية .

(٢) تختلج : اختلج الشيء ، أي خلج ، وخلج خلجاً ، أي اشكى لحمه وعظمه من عمل عمله .

(٣) يستطعم : يطلب الطعام .

(٤) وقد قصد النبي ﷺ . إلخ . أخرجه الترمذي بدون ذكر أبي أيوب ، وأما قصده لأبي أيوب فعند الطبراني في «الصغير» بسند ضعيف ، انظر تخريج العراقي للإحياء [١٠/٢] .

السلف عليه السلام. وكان لعون بن عبد الله المسعودي ثلاثمائة وستون صديقاً فكان يدور عليهم في السنة ، ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل ، وهو غائب فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضي الله عنه ، فأكل طعامها وهي غائبة ^(١) ، وكان الحسن عليه السلام يوماً عند بقال ، فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة ^(٢) ، ومن هذه فستقة ، فيأكلها فقال له هشام : ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع ؟! فقال له : يالكع اتل علي آية الأكل فتلا **﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾** . إلى قوله : **﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾** ^(٣) . فقال : الصديق من استرَوحت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب . وعلى المضيف الكريم أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما في يده بل يحضر إليهم ما وجد ، فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة ، وحشف التمر ^(٤) ، ويقولون : ما ندرى أيهما أعظم وزراً : الذي يحتقر ما قدم إليه ، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه ؟! وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من لقم أخاه لقمة حلوة صرف الله عنه مرارة الموقف » ^(٥) .

(وحكى) عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه كان نازلاً عند الزعفراني ببغداد ، فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية ، فأخذها الشافعي منها يوماً ، وألحق فيها لونا آخر فعرف الزعفراني ذلك فأعقت الجارية سرورها بذلك . وكانت سنة السلف عليهم السلام أن يقدموا جملة الألوان دفعة ليأكل كل شخص ما يشتهي . ومن السنة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار ^(٦) ، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا ينتظر من يحضر من عشيرته ، فقد قيل : ثلاثة تضنى : سراج لا يضيء ، ورسول بطيء ، ومائدة ينتظر لها من يجيء .

ونزل الإمام الشافعي رحمه الله بالإمام مالك رحمه الله فصب بنفسه الماء على يديه ، وقال له : لا يركع ما رأيت مني فخدمة الضيف على المضيف فرض :

اعرض طعامك وابذله لمن أكل
واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري العرض محتشما
من القليل فليست الدهر محتفلا ^(٧)

ومن البخلاء من يعزم على الضيف ، فيعتذر له ، فيمسك عنه بمجرد الاعتذار ، كأنه تخلص من ورطة وقيل لبعض البخلاء : ما الفرج بعد الشدة ؟ قال : أن يعتذر الضيف بالصوم .

ومن البخلاء من يعجبه طعامه ، ويصف زيادته ، ويشتهي أن تبقى على حالها . ومنهم من يحضر طعامه ، فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع منها أطيبها وأشهاها إلى النفوس ويعتذر أن في أصحابه من يحضر بالغداة عنده .

(وحكى) : عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف ، وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل ، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل ، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز فقال له : ترى أن تأكل عسلاً بلا خبز قال : نعم ؛ وجعل يلحق العسل لعقة بعد لعقة ، فقال له البخيل : مهلاً يا أخى . والله إنه يحرق القلب قال : نعم صدقت ، ولكنه قلبك .

(وحكى) : عن بعضهم أنه قال : غلب على الجوع مرة فقلت : أمضى إلى دار فلان لأنغدى عنده ، فجئت إلى باب بيته ، فوجدت غلامه ، فقلت له : أين سيدك ؟! فقال : والله لا قلت لك عليه إلا إن أعطيتني كسرة ، قال : فرجعت هارباً . ومن البخل تقديم الشيء اليسير وتفخيمه .

(حكى) : عن بعض البخلاء أنه حلف يوماً على صديقه ، وأحضر له خبزاً وجبناً ، وقال له : لا تستقل الجبن

(١) فقد دخل الرسول ﷺ دار بريرة . إلخ . متفق عليه من حديث عائشة ، انظر «الإحياء» [١٠/٢] ، وهامشه للحافظ العراقي .

(٢) الجونة : شئيلة مستديرة مغطاة بالجلد .

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة رقم [٦١] من سورة النور ، وأولها : **﴿لَيْسَ عَلَى الْآعْمَى حَرَجٌ﴾** . وقد جاء فيها : **﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾** . إلخ .

(٤) الحشف من التمر : أردؤه ، وهو الذي يجف ويصلب ويتشقق قبل نضجه فلا يكون له نوى ولا لحاء ولا حلاوة ولا لحم .

(٥) وعن أنس : « من لقم . إلخ » منكر : أخرجه الخطيب كما في «اللائل المصنوعة» [٢/٢٤٥] ، وقال الخطيب : « هذا الحديث منكر جداً » ، وانظر اللائل .

(٦) ومن السنة أن يشيع . إلخ . لم أقف عليه .

(٧) سابري العرض : بخيلاً كأهل سابور الذين رُموا بالبخل .

فإن الرطل منه بثلاثة دراهم ، فقال له ضيفه : أنا أجعله بدرهم ونصف ، قال : وكيف ذلك؟ قال : أكل لقمة بجبن ، ولقمة بلا جبن ، فأين هؤلاء من الذى يقول :

قالت : أما ترحل تبغى الغنى
قالت : فهل عندك شيء له ؟
فكم وحق الله من ليلة
إن الغنى بالنفس يا هذه
وقال بعض البخلاء :

سرى نحونا ببغى القرى طاوى الحشى^(١)
فبات له منا إلى الصبح شاتم
فستان ما بين القائلين .

(وأما آداب الضيف) : فهو أن يبادر إلى موافقة المضيف فى أمور : منها أكل الطعام ، ولا يعتذر بشيء بل يأكل كيف أمكن . فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام فقال الضيف ، لست بجائع وإنما أحتاج إلى مكان أبيت فيه ، فقال الأعرابى : إذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيرى ، فأنى لا أرى أن تمدحنى فى البلاد وتهجونى فيما بينى وبينك .

(وحكى) : عن بعض التجار قال : استدعانى أبو حفص محمد بن القاسم الكرخى لأعرض عليه قماشاً من تجارتي ، فبينما أنا بين يديه وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرت ، فقامت من مجلسه فقال : يا فلان ما هذا الخلق العامى ؟ اجلس ، فجلست وتحققت كرمه ، وجعلت أكل الكمثرى فى لقمة ، والتفاحة فى لقمة ، ثم قدم الطعام وكنت جائعاً فأكلت أكلاً جيداً ، ثم انصرفت فلم أشعر فى اليوم الثانى إلا وقد جاءنى غلامه ببغلة ، فاستدعانى إليه فقال لى : يا فلان ، إنى قليل الأكل بطيء الهضم ، ولقد طابت لى مؤاكلتك بالأمس فأريد أن لا تنقطع بعدها عنى ، قال : فكنت متى انقطعت حضر غلامه فى طلبى ، فحصل لى بقربى منه مال كثير وجاء عريض .

ومن آداب الضيف أيضاً : أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبلة ، وموضع قضاء الحاجة ، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحرم ، وأن لا يخالفه إذا أجلسه فى مكان ، وأكرمه به وأن لا يمتنع من غسل يديه ، وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها ، فقد نقل فى بعض المجاميع ، أن بعض الكرماء كان عربيداً على أضيافه ، سعى الخلق بهم ، فبلغ ذلك بعض الأذكياء فقال : الذى يظهر لى من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق ، وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف . ولا بد أن أنظف عليه لأرى حقيقة أمره ، قال : فقصدته ، وسلمت عليه : فقال ، هل لك أن تكون ضيفى ؟ قلت : نعم . فسار بين يدي إلى أن جاء باب داره ، فأذن لى فدخلت فأجلسنى فى صدر مجلسه ، فجلست حيث أجلسنى وأعطانى مسنداً فاستندت إليه ، فأخرج لى شطرنجاً وقال : أنتن شيئاً ؟ قلت : نعم . فلعبت معه ، فلما حضر الطعام جعل يقدم لى ما استطابه وأنا أكل فلما فرغنا قدم طسنتاً وإبريقاً وأراد أن يسكب الماء على يدي فلم أمنعه من ذلك ، وأراد الخروج بين يدي بعد أن قدم نعلى فلم أردّه عن ذلك ، فلما أراد الرجوع ، قلت : يا سيدى أنشدك الله إلا فرجت عنى كربة ، قال : وما هى ؟ فأخبرته الخبر ، فقال والله ما يحوجنى لذلك إلا سوء أدبهم ، يصل الضيف إلى دارى فأجلسه فى الصدر ، فأبى ذلك ، ثم أقدم إليه الطعام فلا أتخفه بشيء مستظرف إلا ردّه على ، ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل ، فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل ، ثم أريد أن أشيعه فلا يمكننى من ذلك ، فأقول فى نفسى ، لا يحكم الإنسان على نفسه حتى فى بيته ، فعند ذلك أشتمه ، وألعنه ، بل وأضربه .

(١) يقال : أنا ضيف عاتم ، أى بطيء مُسّ . وقَرَى عاتم : بطيء

(٢) الحشى : ما دون الحجاب مما يلي البطن كله من الكبد والطحال والكرش وما تبع ذلك .

وفي معنى ذلك يقول بعضهم :

لا ينبغي للضيف أن يعترض إن كان ذا حزم وطبع لطيف
فالأمر للإنسان في بيته إن شاء أن ينصف أو أن يحيف

ومما يعاب على الضيف أمور منها : كثرة الأكل المفرط ، إلا أن يكون بدويا فإنها عادته .
ومنها : أن يتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة^(١) ، مشمعة يقلب فيها الزبادى ، والأوراق ، والحلوى وغير ذلك .

ومنها : أن يأخذ معه ولده الصغير ، ويعلمه أن يبكى وقت الانصراف من الطعام ، ليعطى على اسم ولده الصغير .
ومنها : قبح المؤكلة ، وقد عد فيها عيوب كثيرة ، فمنها المتشاوف^(٢) ، والعداد ، والجراف ، والرشاف ، والنفاض ، والقراض ، والبهات ، واللثات ، والعوام ، والقسام ، والمخلل ، والمزبد ، والمرنخ ، والمرشش ، والمفتش ، والمنشف ، والملبب ، والصباب ، والتفاح ، والحامى ، والمجنح ، والشطنجى ، والمهندس ، والمتمنى ، والفضولى .

فأما المتشاوف : فهو الذى يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام : فلا تراه إلا متطلعا لناحية الباب يظن أن كل ما دخل هو الطعام .

وأما العداد : فهو الذى يستغرق فى عد الزبادى ، ويعد على أصابعه ، ويشير إليها ، وينسى نفسه .
والجراف : هو الذى يجعل اللقم فى جانب الزبدية ، ويجرف بها إلى الجانب الآخر .
والرشاف : هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ، ويرتشفها ، فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك .
والنفاض : هو الذى يجعل اللقمة فى فيه ، وينفض أصابعه فى الزبدية .
والقراض : هو الذى يقرض اللقمة بأطراف أسنانه حتى يهذبها ، ويضعها فى الطعام بعد ذلك .
والبهات : هو الذى يبهت فى وجوه الآكلين ، حتى يبهتهم^(٣) ، ويأخذ اللحم من بين أيديهم .
واللثات : هو الذى يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها فى الطعام .
والعوام : هو الذى يُميل ذراعيه ، يمته ويسرة لأخذ الزبادى .
والقسام : هو الذى يأكل نصف اللقمة ، ويعيد باقيها فى الطعام من فيه .
والمخلل : هو الذى يخلل أسنانه بأظفاره .
والمزبد : هو الذى يحمل معه الطعام .
والمرنخ : هو الذى يرنخ اللقمة فى الأوراق ، فلا يبلع الأولى حتى تلين الثانية .
والمرشش : هو الذى يفسخ الدجاج بغير خبرة ، فيرش على مؤاكله .
والمفتش : هو الذى يفتش على اللحم بأصابعه .
والمنشف : هو الذى ينشف يديه من الدهن باللحم ثم يأكلها .
والملبب : هو الذى يملأ الطعام لبابا .
والصباب : هو الذى ينقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليبرده .
والتفاح : هو الذى ينفخ فى الطعام .
والحامى : هو الذى يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤاكله .

(١) الخريطة : يراد بها هنا وعاء من جلد يشد على ما فيه . (٢) سيقوم المؤلف بشرح هذه الألوان من العيوب عقب سردها مباشرة .

(٣) يبهتهم : ينظر إليهم نظرات تجعلهم يرتبون ويصابون بالحيرة والبهتة ليخلو له الجو .

والمجنح : هو الذى يزاحم مؤاكله بجناحيه حتى يفسح له فى المجلس فلا يشق عليه الأكل .

والشطرنجى : هو الذى يرفع زبديه ، ويضع زبديه أخرى مكانها .

والمهندس : هو الذى يقول لمن يضع الزبادى ضع هذه هنا وهذه هاهنا ، حتى يأتى قدامه ما يحب .

والمتمنى : هو الذى يقول : ليتنى لم يكن معى من يأكل .

والفضولى : هو الذى يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام إن كان قد بقى عندك فى القدور شيء فأطعم الناس فإن فيهم من لم يأكل .

ومن الأضياف من لا يلذ له حديث إلا وقت غسل يديه ، فيبقى الغلام واقفا ، والإبريق فى يده ، والناس ينتظرونه . ومنهم من يغسل يديه بالأشنان مرة واحدة^(١) ، فإذا اجتمع الوسخ والزفر تسوك بهما ، ومنهم من يدخل الدار فيبتدئ بالهندسة أولا : فيقول : كان ينبغى أن يكون باب المجلس من هاهنا ، والإيوان^(٢) كان ينبغى أن يكون هاهنا ، وينتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس ، فينقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر ، وإن كان ما استحكم جوعه استعفى من الطعام ، وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم .

ومنهم : من يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم ، ويستوحش من غيبتهم ويسلطهم على عرض صاحبهم .

ولقد حكى عن مُعَنَّ غير مُجيد أنه لم يبطل ولا ليلة واحدة ، وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل أين كنت ؟ قال : كنت عند الناس ، وإذا قيل له أين أكلت ؟ قال : أكلت فى بطنى ، وإذا قيل له أين شربت ؟ قال شربت فى فمى .

ومنهم : من يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه : اشتر كذا فيقول والله العظيم ، أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئا فأذوقه ، فيعجز صاحب المنزل ، ويخجله إذا لم يكن فى بيته شيء موجود ، وليت شعري إذا كان لا يأكل فلاى شيء حضر ؟ ومنهم من يرى صاحب البيت قد أسر إلى صديقه شيئا فيقول : ما الذى قال المولى لصاحبنا ؟ وهو لا يريد أن يعلمه .

ومنهم : من يستعجل صاحب المنزل بالأكل ، ويشكو الجوع ، ويظن أن ذلك بسط ، ومكارم أخلاق وإنما ذلك يكون فى بيته لا فى بيوت الناس .

ومنهم : من يقول لصاحب الدعوة : من يغنى لنا ؟ فيقول : فلان ، فيقول له : غلظت لم لا دعوت فلانا ؟ ومنهم : من يسأل صاحب البيت كيف قوته فى النكاح ؟ فيقول له : أنا رجل كبير قد ضعفت قوتى وشهوتى ، أو يقول : ما لى قوة طائلة فى ذلك ، فيقول : أنا والله كلما مر على عام تزايدت شهوتى ، وكثر لهذا الفن تشوقى ، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت .

ومنهم : من يشكو حاله مع أهل بيته ، ويذكر نفقته عليهن ، وكسوته لهن ، وكثرة إنعامه وإحسانه إليهن ، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق ، وكبر النفس ؛ لتستقل زوجة صاحب البيت ما هى فيه مع زوجها ، وربما كان ذلك سببا لفراقها منه .

ومنهم : من تعجبه نفسه ، ويستحسن لباسه ، ويستطيب رائحته ، وإذا سمع الغناء تواجد ، وأظهر الطرب ، وحرك رأسه ، ويقوم قائما يتمايل ، حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل ، بديع الحركات ، ويظن فى نفسه أنه يُعشَق ، وأن رسول صاحبة البيت لا يُعطى عنه .

ومنهم : من يقال له : لعب الشطرنج ، فيأباه ، ويشغل بالالدندنة فيقع فى الفضول .

ومنهم : من يتأمر على غلمان صاحب البيت ، ويهين أولاده ، ويظن أنه يدلل عليهم .

(١) الأشنان : [بضم الهمزة وكسرهما] شجر ينبت فى الأرض ، يستعمل هو أو رماده فى غسل الثياب والأيدي مثل الصابون .

(٢) الإيوان : مجلس كبير على هيئة صُفَّة واسعة ، لها سقف محمول من الأمام على عقد ، يجلس فيه كبار القوم .

ومنهم : من يقول له صاحب البيت كل ، فيقول : ما أكل إلا أنا ورفيقي .
ومنهم : من يسمع السائل على باب فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه ، أو يقول للسائل : فتح الله عليك .

ومنهم : من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه ويقلده بذلك المنن . وأكثر الناس واقع في ذلك ، نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه إنه جواد كريم رءوف رحيم . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب السادس والثلاثون

في العفو ، والحلم ، والصفح ، وكظم الغيظ ، والاعتذار وقبول المذرة والعتاب وما أشبه ذلك

قد نذب الله - عز وجل - نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى : ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْحَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] قيل : هو الرضا بلا عتب ، وقال تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقال تعالى : ﴿وَالْكُفْرَ وَالْعَيْشَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقال تعالى : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزِيزٍ الْأَمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] وعن أنس بن مالك ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت : يا جبريل لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »^(١) . وقال معاذ بن جبل ؓ لما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قال : « ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالعفو ، فلولا علمي بالله لظننت أنه يوصيني بترك الحدود »^(٢) . وقال الحسن بن أبي الحسن : إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقيم فلا يقوم إلا العافون عن الناس . وتلا قوله تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال علي ؓ : أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وكان المأمون - رحمه الله تعالى - يحب العفو ، ويؤثره ، ويقول : لقد حُببَ إلي العفو حتى إنني أخاف أن لا أثاب عليه . وكان يقول : لو علم أهل الجرائم لذتى في العفو لارتكبوها ، وقال : لو علم الناس حبي للعفو لما تقربوا إلي إلا بالجنايات . وقال علي ؓ : إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه . وقال ؓ : أقبلوا ذوى المروءات عثراتهم^(٣) ، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله يرفعه . وقال ؓ : إن أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل : وقال المنتصر : لذة العفو يلحقها حمد العاقبة ، ولذة التشفى يلحقها ذم الندم ، وقال ابن المعتز : لا تثن^(٤) وجه العفو بالتقريع . وقيل : ما عفا عن الذنب من قرع^(٥) به . وقال رجل لرجل سبه : إياك أعنى فقال له : وعنك أعرض . وكان الأحنف - رحمه الله تعالى - كثير العفو والحلم ، وكان يقول : ما أذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث : إن كان فوقى عرفت له فضله ، وإن كان مثلى تفضلت عليه . وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه ، وكان مشهورا بين الناس بالحلم ، وبذلك ساد عشيرته ، وكان يقول : وجدت الاحتمال أنصر لى من الرجال . وقيل له : ممن تعلمت الحلم ؟ فقال : من قيس بن عاصم ، كنا نختلف^(٦) .

(١) وعن أنس بن مالك .. إلخ . أخرجه الديلمي وابن لال عن أنس كما في «الدر المنثور» [٧٦-٧٧/٢] .

(٢) وقال معاذ بن جبل .. إلخ لم أفق عليه .

(٣) أقبلوهم عثراتهم : خذوا بأيديهم ، وقفوا إلى جانبهم في الملمات والعثرات .

(٤) شناه : أي أبغضه وتجنه .

(٥) قرع به : أوجعه باللوم والعتاب .

(٦) نختلف إليه : نرجع إليه ، ونتردد عليه .

إليه في الحلم ، كما يختلف إلى الفقهاء في الفقه ، ولقد حضرت عنده يوما وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه ، فجاءوا به مكتوفاً فقال : ذعرتم أخى ، أطلقوه ، واحملوا إلى أم ولدى ديتي ، فإنها ليست من قومنا ، ثم أنشأ يقول :

أقول للنفس تصبيرا وتعزية إحدى يدي أصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى

وقيل : من عادة الكريم إذا قدر غفر وإذا رأى زلة ستر ، وقالوا : ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام .
وقيل : من انتقم فقد شفى غيظه ، وأخذ حقه ، فلم يجب شكره ، ولم يحمد في العالمين ذكره ، والعرب تقول . لا
سؤدد مع الانتقام ، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته ، وإن كان ولا بد من الانتقام
فليفرق في انتقامه ، إلا أن يكون حدا من حدود الله تعالى .

وقال المنصور لجنان عجز عن العذر : ما هذا الوجوم ، وعهدى بك خطيبا لستأ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ليس
هذا موقف مباهاة ، ولكنه موقف توبة ، والتوبة بالاستكانة ، والخضوع ، فرق له وعفا عنه .

وسعى إلى المنصور برجل من ولد الأشتر النخعي^(١) . ذكر له عنه أنه يميل إلى بني علي ، والتعصب لهم ، فأمر بإحضاره ،
فلما مثل بين يديه ، قال : يا أمير المؤمنين ذنبى أعظم من نعمتك ، وعفوك أعظم من ذنبى ، ثم قال :

فهبني مُسيئا كالذى قلت ظالما فعفوا جميلا كي يكون لك الفضلُ
فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما أتيتُ به أهلاً فأنت له أهل
فعفا عنه ، وأمر له بصلة .

وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنباً فقال له : أنت الذى فعلت كذا وكذا ؟ قال : نعم . يا أمير المؤمنين
أنا ذاك الذى أسرف على نفسه ، واتكل على عفوك ، فعفا عنه ، وخلق سبيله ، وأحضر إلى الهادى رجل من أصحاب
عبد الله بن مالك فوبخه على ذنب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن إقرارى يُلزمنى ذنباً لم أفعله ، ويلحق بى جرماً لم
أقف عليه ، وإنكارى ردّ عليك ومعارضة لك ، ولكنى أقول :

فإن كنت تبغى بالعقاب تشقياً فلا ترهّدن عند التجاوز فى الأجر

فقال : لله درك من معتذر ، بحق أو باطل ، ما أمضى لسانك ؟ وأثبت جنانك^(٢) ، وعفا عنه ، وخلق سبيله .
وركب يوما عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء^(٣) ، ومر على قوم فقال بعضهم : من يقوم للأمير ، فيسأله عن أمه
وله عشرة آلاف ؟ فقال واحد منهم : أنا . فقام وأخذ بعنان بغلته وقال : أصلح الله الأمير أنت أكرم الناس خيلاً فلم
ركبت دابة اشهاب وجهها ؟ فقال : إنى لا أمل دابتي ، حتى تملنى ، ولا أمل رفيقى حتى يملنى ، فقال : أصلح الله
الأمير ، أما العاص فقد عرفناه ، وعلمنا شرفه ، فمن الأم ؟ قال : على الخير سقطت ، أمى النابغة بنت حرملة بن
عزة ، سبتها^(٤) رماح العرب ، فأتى بها سوق عكاظ ، فبيعت فاشتراها عبد الله بن جدعان ، ووهبها للعاص بن
وائل ، فولدت وأنجبت فإن كان قد جعل لك جُعل^(٥) ، فارجع وخذه ، وأرسل عنان الدابة .

وكان معاوية رضي الله عنه يعرف بالحلم ، وله فيه أخبار مشهورة ، وآثار مذكورة . وكان يقول : إنى لا أنف أن يكون فى
الأرض جهل لا يسعه حلمى ، وذنب لا يسعه عفوى ، وحاجة لا يسعها جودى ، وهذه مروءة عالية المرتبة .
وقال له رجل يوما : ما أشبه استك باست أمك !! فقال : ذاك الذى أعجب أبا سفيان منها . وكتب معاوية إلى عقيل بن
أبى طالب رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما يقول : من معاوية بن أبى سفيان إلى عقيل بن أبى طالب ، أما بعد :
يا بنى عبد المطلب ، فأنتم والله فروع قصى ، ولباب عبد مناف ، وصفوة هاشم ، فأين أخلاقكم الراسية^(٦) ،

(١) الأشتر النخعي : قائد شجاع من أصحاب مصعب بن الزبير . قتل بمكان قرب سامراء .

(٢) الجنان : بفتح الجيم والنون : القلب . (٣) شهباء : بياضها مختلط بالسواد .

(٤) السبت : بفتح السين المشدودة : من الخيل ما كان جواداً كثير العدو . وبكر السين المشدودة : كل جل مبدوغ ، ومنه النعال السبئية .

(٥) جُعل : ما جعل على العمل من أجر أو رشوة .

(٦) أي الراسخة الثابتة .

وعقولكم الكاسية^(١)؟ وقد والله أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ، ولن يعود لمثله إلى أن يغيب في الثرى ، فكتب إليه عقيل يقول :

صدقت وقلت حقا غير أنى أرى أن لا أراك ولا تــــرانى
ولست أقول سوءا فى صديقى ولكنى أصد إذا جفانى
فركب إليه معاوية رضي الله عنه ، وناشده فى الصفح عنه ، واستعطفه حتى رجع .

(وحكى) عنه رضي الله عنه أنه : انتظمت إليه الأمور ، وامتألت منه الصدور ، وأذعن لأمره الجمهور ، وساعده فى مراده القدر المقدور . استحسن ليلة خواص أصحابه ، وذاكرهم وقائع أيام صفين ، ومن كان يتولى كبر الكربة^(٢) من المعروفين ، فأنهمكوا فى القول الصحيح والمريض ، وآل حديثهم إلى من كان يجتهد فى إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض ، فقالوا : امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدى ، كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف ، وترفع صوتها صارخة . يا أصحاب على ، تسمعهم كلاما كالصوارم^(٣) ، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل ، والمدير لأقبل ، والمسالم لحارب ، والفار لكر ، والمتزلزل لاستقر . فقال لهم معاوية رضي الله عنه : أيكم يحفظ كلامها ؟ فقالوا : كلنا نحفظه . قال : فما تشيرون على فيها ، قالوا : نشير بقتلها فإنها أهل لذلك ، فقال لهم معاوية رضي الله عنه : بشما أشرتم به ، وقبحا لما قلتم ، أيحسن أن يشتهر عنى أننى بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وفيت لصاحبها ؟! إني إذا للثيم . لا والله لا فعلت ذلك أبدا . ثم دعا بكاتبه ، فكتب كتابا إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدى ، مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها ، ومهد لها وطاء لينا ، ومركبا ذلولا ، فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها ، وقرأه عليها ، فقالت بعد قراءة الكتاب : ما أنا بزائغة عن الطاعة ، فحملها فى هودج ، وجعل غشاه خزا مبطنا ثم أحسن صحبتها ، فلما قدمت على معاوية ، قال لها : مرحبا وأهلا خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك يا خالة ؟ وكيف رأيت سيرك ؟ قالت : خير مسير ، فقال : هل تعلمين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله - سبحانه وتعالى - . قال : ألسنت راكبة الجمل الأحمر يوم صفين ، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب ، وتحرضين على القتال ؟ قالت : نعم . قال : فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، إنه قد مات الرأس ، ويثر الذئب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر ، فقال : صدقت . فهل تعرفين كلامك : وتحفظين ما قلت ؟ قالت : لا والله ؟ قال : لله أبوك . فلقد سمعتك تقولين : أيها الناس ، إن المصباح لا يضىء فى الشمس ، وإن الكواكب لا تضىء مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، ولا يقطع الحديد إلا بالحديد ، ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالّة فأصابها ، فصبوا يا معشر المهاجرين والأنصار ، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات ، وظهرت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فإنه لا يستوى المحق والمبطل ، ﴿ أَقَمْنِ كَانُ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوِينَ ﴾^(٤) . فالتزال النزال ، والصبر الصبر ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خير الأمور عاقبة ، اثنا الحرب غير ناكسين^(٥) فهذا يوم له ما بعده يا زرقاء أليس هذا قولك ، وتحريضك ؟ قالت : لقد كان ذلك ، قال : لقد شاركت عليا فى كل دم سفكه ، فقالت : أحسن الله بشارتك ، يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك مثلك من ييشر بخير ، ويسر جليسه ، فقال معاوية : أوقد سرك ذلك ؟ قالت : نعم . والله لقد سرنى قولك ، وأنى لى بتصديقه . فقال لها معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب إلى من حبكم له فى حياته ، فاذكرى حوائجك تقصص ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنى آليت على نفسى ، أن لا أسأل أحدا بعد على حاجة ، فقال : قد أشار على بعض من عرفك بقتلك ، فقالت : لؤم من المشير ، ولو أطعته لشاركتك . قال : كلا ، بل نعوذ عنك ، ونحسن إليك ، ونرعاك ، فقالت : يا أمير المؤمنين كرم منك ، ومثلك من قدر فعفا ، وتجاوز عمن

(١) أي عقولكم الفظة . (٢) الكربة: الحرب ، أو الشدة فى الحرب .

(٣) يقال : سيف صارم ، أي قاطع . ورجل صارم ، أي جلد شجاع ماضٍ فى أمره قاطع فيه .

(٤) تضمين جميل من القرآن الكريم ، سورة السجدة : الآية [١٨] .

(٥) ناكسين : نكص نكصا ونكوصا ، أي رجع إلى خلف ، ونكص عن الأمر ، أي أخجم ، ويقال : نكص علف عقيه : رجع عما كان قد اعتمزمه وأحجم عنه .

أساء ، وأعطى من غير مسألة ، قال : فأعطاهما كسوة ودرهم ، وأقطعها ضيعة تُغَلّ لها في كل سنة عشرة آلاف درهم ، وأعادها إلى وطنها سالمة ، وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها .

وقيل : كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنه أرض ، وكان له فيها عبيد يعملون فيها ، وإلى جانبها أرض لمعاوية ، وفيها أيضا عبيد يعملون فيها فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير ، فكتب عبد الله كتابا إلى معاوية يقول له فيه : أما بعد : يا معاوية إن عبيدك قد دخلوا في أرضي ، فانههم عن ذلك ، وإلا كان لي ولك شأن والسلام . فلما وقف معاوية على كتابه ، وقرأه دفعه إلى ولده يزيد فلما قرأه ، قال له معاوية : يا بني ، ما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث إليه جيشا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه ، فقال : بل غير ذلك خير منه ، يا بني ، ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه : أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله ﷺ وسأني ما ساءه ، والدنيا بأسرها هيئة عندى في جنب رضاه ، نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال ، والسلام . فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنه على كتاب معاوية رضي الله عنه كتب إليه قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - ولا أعدمه الرأي الذى أحله من قریش هذا المحل ، والسلام . فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه تهلل وجهه ، وأسفر ، فقال له أبوه : يا بني ، من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء ^(١) . فداوه بمثل هذا الدواء .

ولما دخل الفيل دمشق ، واجتمع الناس لرؤيته ، صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه ، فبينما هو كذلك إذ نظر في بعض الحجر من قصره رجلا مع بعض حرمه ، فأتى الحجرة ودق الباب ، فلم يكن من فتحه بد ، فوقعت عينه على الرجل ، فقال له : يا هذا في قصرى ، وتحت جناحى تهتك حرمتى ، وأنت في قبضتى ؟! ما حملك على هذا ؟ قال : فبهت الرجل . وقال : حلمك أوقعنى ، فقال له معاوية : فإن عفوت عنك تسترها على ؟ قال : نعم . ففعا عنه ، وخلي سبيله ، وهذا من الحلم الواسع ، أن يطلب السر من الجانى ، وهو عروض ^(٢) ، قول الشاعر :

إذا مرضتم أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتىكم ونعتذر

(وحكى) عن الربيع مولى الخليفة المنصور قال : ما رأيت رجلا أربط جأشا وأثبت جنانا من رجل سعى به إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالاً لبنى أمية ، فأمرنى بإحضاره ، فأحضرتة إليه فقال له المنصور ، قد رفع إلينا خبر الودائع والأموال التى عندك لبنى أمية ، فأخرج لنا منها وأحضرها ، ولا تكتم منها شيئا ، فقال : يا أمير المؤمنين أنت وارث بنى أمية ؟ قال : لا . قال : فوصى لهم فى أموالهم ورباعهم ؟ قال : لا . قال : فما ساءتلك عما فى يدى من ذلك ؟ قال فأطرق المنصور ، وتفكر ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : إن بنى أمية ظلموا المسلمين فيها ، وأنا وكيل المسلمين فى حقوقهم ، وأريد أن أخذ ما ظلموا المسلمين فيه ، فأجعله فى بيت أموالهم ، فقال : يا أمير المؤمنين فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما فى يدى لبنى أمية مما خانوه وظلموه ، فإن بنى أمية قد كانت لهم أموال غير أموال المسلمين . قال : فأطرق المنصور ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : يا ربيع ، ما أرى الشيخ إلا قد صدق ، وما يجب عليه شيء وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه ، ثم قال : هل لك من حاجة ؟ قال : نعم . حاجتى يا أمير المؤمنين أن تجمع بينى وبين من سعى فى إليك ، فوالله الذى لا إله إلا هو ما فى يدى لبنى أمية مال ولا ودیعة ، ولكننى لما مثلت بين يديك وسألتنى عما سألتنى عنه قابلت بين هذا القول الذى ذكرته الآن ، وبين ذلك القول الذى ذكرته أولا فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة فقال : يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به ، فجمعت بينهما فلما رآه قال : هذا غلامى اختلس لى ثلاثة آلاف دينار فى مالى ، وأبق منى ^(٣) ، وخاف من طلبى له ، فسعى بى عند أمير المؤمنين ، قال : فشدد المنصور على الغلام ، وخوفه فأقر بأنه غلامه ، وأنه أخذ المال الذى ذكره ، وسعى به كذبا عليه ، وخوفا من أن يقع فى يده ، فقال له المنصور : سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه ، فقال : قد عفوت عنه ، وأعتقته ، ووهبته ، الثلاثة

(١) الأدواء : جمع داء وهو يشمل الأمراض النفسية والاجتماعية .

(٢) العَرُوض من البيت : آخر شرطه الأول . وهو هنا . وتذنبون فنأتىكم ونعتذر .

(٣) أبق : أي هرب ، فهو أبق وأبوق .

آلاف التي أخذها ، وثلاثة آلاف أخرى أدفعها إليه ، فقال له المنصور : ما على ما فعلت من مزيد قال : بلى يا أمير المؤمنين ، إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لى ، وعفوك عني ، ثم انصرف . قال الربيع : فكان المنصور يتعجب منه ، وكلما ذكره يقول : ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع . وغضب الرشيد على حميد الطوسي فدعا له بالنطع والسيف ، فبكى فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بدّ منه ، وإنما بكيت أسفا على خروجي من الدنيا ، وأمير المؤمنين ساخط عليّ ، فضحك وعفا عنه ، وقال : إن الكريم إذا خادعته انخدع .

وأمر زياد بضرب عنق رجل ، فقال : أيها الأمير ، إن لى بك حرمة ، قال : وما هي ؟ قال : إنى جارك بالبصرة . قال : ومن أبوك ؟ قال : يا مولاي ، إنى نسيت اسم نفسى ، فكيف لا أنسى اسم أبى ، فرد زياد كفه على فمه وضحك وعفا عنه .

وأمر الحجاج بقتل رجل ، فقال : أسألك بالذى أنت غدا بين يديه أذلّ موقفاً منى بين يديك ، إلا عفوت عني فعفا عنه . ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث ، أتى رجل من بنى تميم فقال : والله يا حجاج ، لئن كنا أسأنا فى الذنب أحسنت فى العفو ، فقال : الحجاج : أف لهذه الجيف ، أما كان فيهم من يُحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه وخلقى سبيله .

وكان إبراهيم بن المهدي يقول : والله ما عفا عني المأمون تقرباً إلى الله تعالى ، ولا صلة للرحم . ولكن له سوق فى العفو يكره أن تكسد بقتلى .

وسئل الفضل عن الفتوة فقال الصفح عن عثرات الإخوان . وفى بعض الكتب المنزلة إن كثرة العفو زيادة فى العمر ، وأصله قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَا بَالُكَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧] وقال يزيد بن مزيد : أرسل إلى الرشيد ليلاً يدعونى ، فأوجست منه خيفة ، فقال لى : أنت القاتل أنا ركن الدولة ، والثائر لها ، والضارب أعناق بُغاتها ؟! لا أم لك أى ركن ، وأى ثائر أنت ؟! قلت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت هذا ، إنما قلت : أنا عبد الدولة ، والثائر لها ، فأطرق ، وجعل ينحل غضبه عن وجهه ، ثم ضحك فقلت : أحسن من هذا قولى :

خِلاَفَةُ اللَّهِ فِي هَارُونَ ثَابِتَةٌ وَفِي بَنِيهِ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ الصُّورُ

فقال : يا فضل ، أعطه مائتى ألف درهم قبل أن يصبح .

وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل ، فقال : ما أقبح بى أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنه ، ووجهك هذا الذى يستضاء به ، فأتعلق بأطواقك ، وأقول : أى رب سل مُصْعَباً لم تقتلنى ؟ فقال : أطلقوه ، فلما أطلقوه قال : أيها الأمير ، اجعل ما وهبت لى من حياتى فى خفض عيش ، قال : قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال :

أَنَا الْمَذْنِبُ الْخَطَاءُ وَالْعَفْوُ وَاسِعٌ وَلَوْلَمْ يَكُنْ ذَنْبٌ لِمَا عُرِفَ الْعَفْوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال : والله إن أمكنتى الله منه لأفعلن به كذا وكذا ، فلما صار بين يديه قال له رجاء ابن حيوة : يا أمير المؤمنين ، قد صنع الله ما أحببت ، فاصنع ما أحب الله ، فعفا عنه وأمر له بصلة .

وقال الحسن : إن أفضل رداء تردى به الإنسان الحلم ، وهو والله عليك أحسن من برد الحبر ^(٢) ، وفيه قال أبو تمام .

رَقِيقُ حَوَاشِيِ الْحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ بِكَفَيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بَرْدٌ

ويقال : الحليم سليم ، والسفيه كليم . وقال محمد بن عجلان : ما شيء أشد على الشيطان من عالم معه حلم ، إن تكلم تكلم بعلم ، وإن سكت سكت بحلم ، يقول الشيطان . سكوته أشد على من كلامه :

(١) النطع : بتشديد النون المكسورة ، وسكون الطاء وفتحها : بساط من الجلد ، كثيرًا ما كان يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل .

(٢) الحبر : بفتح الحاء وسكون الباء : العالم .

(٣) يقال : رجل رقيق الحواشي : لطيف الصُّحْبة ، ويقال : عيش رقيق الحواشي : أي ناعم في دِعة ، وكلام رقيق الحواشي أي لَين .

إذا كنت تبغى شيمة^(١) غير شيمة طُبِعَتْ عليها لم تطعمك الضرائبُ
وعن علي بن الحسين عليه السلام أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب . وفي التوراة اذكرني إذا غضبت أذكرك
إذا غضبت ، فلا أمحقك^(٢) فيما أمحق ، وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتي ، فإن نصرتي لك خير من نصرتك
لنفسك .

وكان ابن عون إذا غضب على إنسان ، قال له ، بارك الله فيك ، وكانت له ناقة كريمة ، فضربها الغلام ، فأندر
عيناها^(٣) ، فقالوا : إن غضب ابن عون فإنه يغضب اليوم ، فقال للغلام : غفر الله لك .

وقال رجل لرسول الله ﷺ : أى شيء أشد ؟ قال : غضب الله . قال : فما يواعدني من غضب الله ؟ قال : « أن لا
تغضب »^(٤) . ويقال : من أطاع الغضب^(٥) ، أضاع الأرب . قال أبو العتاهية :

ولم أرفى الأعداء حين اختبرتهم عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب
وروى أبو هريرة رضي الله عنه : « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ »^(٦) . وقال ابن مسعود رضي الله عنه :
« كفى بالمرء إثماً أن يقال له : اتق الله ، فيغضب ، ويقول : عليك نفسك ! »^(٧) . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى
عامل من عماله : أن لا تعاقب عند غضبك ، وإذا غضبت على رجل فاحبسه ، فإذا سكن غضبك فأخرجه ، فعاقبه
على قدر ذنبه ، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً .

وقيل لابن المبارك - رحمه الله تعالى - اجتمع لنا حُسن الخُلُق في كلمة واحدة ، قال : ترك الغضب .

وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم يغضب ، ويشدت غضبه فكتب ثلاث صحائف فأعطى كل
صحيفة رجلاً وقال للأول : إذا اشتد غضبي فقم إلى بهذه الصحيفة وناولنيها ، وقال للثاني : إذا سكن بعض غضبي
فناولنيها ، وقال للثالث : إذا ذهب غضبي فناولنيها ، وكان في الأولى : أَقْصِرْ^(٨) فما أنت وهذا الغضب ، إنك لست
بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً . وفي الثانية : ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء . وفي الثالثة :
احمل عباد الله على كتاب الله ، فإنه لا يصلحهم إلا ذاك . روى أنه أنوشروان وكان الشعي أولع شيء بهذا البيت .

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب
وعن معاذ بن جبل عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « مَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ السَّمَاوَاتِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّزَهُ فِي أُنَى الْحُورِ شَاءَ »^(٩) . وروى : « ملأه الله أمناً وإيماناً » . وقال ابن السماك : أذنب غلام
لامرأة من قريش ، فأخذت السوط ، ومضت خلفه ، حتى إذا قاربت رمت بالسوط وقالت : ما تركت التقوى أحداً
يشقى غيظه .

وقال أبو ذر لغلामه : لم أرسلت الشاة على علف الفرس ؟ قال : أردت أن أغيظك . قال : لأجمعن مع الغيظ
أجراً أنت حر لوجه الله تعالى .

واستأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فأذن لهم فقالوا : السام عليك يا محمد فقالت عائشة رضي الله عنها : بل السام
عليكم ، واللعنة ، فقال : « يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ ، فَقَالَتْ : أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟ قَالَ : قَدْ قُلْتُ
« وَعَلَيْكُمْ »^(١٠) .

(٣) أنذر عيناها : أخرجه .

(٢) أمحق الشيء : هلك .

(١) شيمة : خُلُق ، والجمع شيم .

(٤) وقال رجل . إلخ . وقال العراقي في «تخريج الإحياء» [٣/ ١٦٥] : أخرجه الطبراني في [مكارم الأخلاق] ، وابن عبد البر في التمهيد «إسناد حسن» . . . والحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

(٥) الأرب : الحاجة ، والبُغية والأمنية .

(٦) وقال أبو هريرة رضي الله عنه : « ليس الشديد إلخ » . الأدب المفرد للبخاري «باب الغضب» ورواه أبو هريرة .

(٧) وقال ابن مسعود : كفى بالمرء إثماً إلخ . لم أقف عليه .

(٨) أَقْصِرْ : أَقْصِرْ عن الشيء أي كَفْ ونزع عنه وهو يقدر عليه .

(٩) وعن معاذ بن جبل إلخ . أخرجه أحمد [٣/ ٤٤٠] ، وابن ماجه [٤١٨٦] .

(١٠) واستأذن رهط من اليهود . إلخ . البخاري . الأدب المفرد «إذا قال أهل الكتاب السام عليكم» .

ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابى يقال له : حمزة ؛ سرق ، وقامت عليه البيعة ، فهم عبد الملك بقطع يده ، فكتب إليه حمزة من السجن يقول :

يدى يا أمير المؤمنين أعيذها بعفوك أن تلقى مقاماً يشينها
فلا خير فى الدنيا وكانت خبيثة إذا ما شمال فارقتها يمينها
قال فأبى عبد الملك إلا قطعه ، فدخلت عليه أم حمزة وقالت : يا أمير المؤمنين ، بُنى وكاسى ، وواحدى ، فقال لها عبد الملك ، بش الكاسب لك ! هذا حد من حدود الله تعالى ، فقالت يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التى تستغفر الله منها ، فقال عبد الملك ادفعهوا إليها ، وخلقى سبيله .

إذا ما طاش حلمك عن عدو ولا لأخ على عهد وثيق
فلست إذاً أخا عفو وصفح بلا رفق بقيت بلا رفيق
إذا زل الرفيق وأنت ممن لما أنكرت من خلق عتيق
إذا أنت اتخذت أخا جديداً من الرمضاء^(١) فز إلى الحريق
فما تدري لعلك مستجير أتاه ما يحاذر فى الطريق
فكم من سالك لطريق أمن وشتم رجل رجلا ، فقال له : يا هذا ، لا تفرق فى شمتنا ، ودع للصالح موضعاً ، فإنى أبيت مشامة الرجال صغيراً ، فلن أجيئها كبيراً ، وإنى لا أكافئ من عصى الله فى بأكثر من أن أطيع الله فيه .

(وحكى) عن جعفر الصادق عليه السلام أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه ، فوقع الإبريق من يد الغلام فى الطست ، فطار الرشاش فى وجهه ، فنظر جعفر إليه نظر مغضب فقال : يا مولاي ، ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال : كظمت غيظي . قال : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ . قال : قد عفوت عنك ، قال : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . قال : اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى .

وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يدى الخليفة - وكان قد أمر بضرب عنقه - قال : يا أمير المؤمنين ، اسمع منى كلمات أقولها ، قال : قل : فأشد يقول :

زعموا بأن الصقر صادف مرة عصفور بر ساقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه يطير
إنى لمثلك لا أتمم لقمة ولئن شويت فإننى لحقير
فتهاون الصقر المدل بصيده كرمًا وأفلت ذلك العصفور
قال : فعفا عنه وخلقى سبيله ، قال الشاعر :

أقرز بذنوبك ثم اطلب تجاوزهم عنه فإن جحود الذنب ذنبان
قال بعضهم :

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف وتاب عما قد جناه واقترف
لقلوله : قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف^(٢)
وقال آخر :

إذا ذكرت أياديك التى سلفت مع قبح فعلى وزلاتى ومجترمى^(٣)

(١) الرمضاء : بتشديد الراء المفتوحة وسكون الميم : شدة الحر .

(٢) ضمن البيت الثانى الآية الكريمة رقم [٣٨] من سورة الأنفال : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

(٣) مجترمى : ما ارتكبه من جرم : جريمتي فى حقك وحق الناس . ومجبول : مخلوق ومطبوع .

أكاد أقتل نفسي ثم يدركني علمي بأنك مجبول على الكرم
وروى أن عمر رضي الله عنه رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزّره ، فشمته السكران ، فرجع عنه فقيل له : يا أمير المؤمنين ،
لما شتمك تركته ، قال : إنما تركته لأنه أغضبني ، فلو عزّرتي ^(١) ، لكنت قد انتصرت لنفسي ، فلا أحب أن أضرب
مسلمًا لحمية نفسي .

وغضب المنصور على رجل من الكتاب فأمر بضرب عنقه ، فأشدد يقول :

وأنا الكاتبون وإن أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا ^(٢)
فعفا عنه وخلي سبيله وأكرمه .

وقال الرشيد لأعرابي : بم بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة ؟ قال : بحلمه عن سفيها ، وعفوه عن مسيئنا ، وحمله
عن ضعيفنا لا منان إذا وهب ، ولا حقوق إذا غضب ، ربح الجنان ^(٣) ، سمح البنان ^(٤) ، ماضى اللسان ^(٥) ، قال : فأوما
الرشيد إلى كلب صيد ، كان بين يديه وقال : والله لو كانت هذه في هذا الكلب ، لاستحق بها السؤدد .

وقيل لمعن بن زائدة : المؤاخذة بالذنب من السؤدد ؟ قال : لا ولكن أحسن ما يكون الصفح عمن عظم جرمه ،
وقل شفعاؤه ولم يجد ناصرا . وقال محمود الوراق :

سألزمت نفسي الصفح عن كل مذنب
فما الناس إلا واحد من ثلاثة
فأما الذي فوقى فأعرف قدره
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا

وقال الأحنف بن قيس لابنه : يا بني ، إذا أردت أن تواخي رجلا ، فأغضبه فإن أنصفك ، وإلا فاحذره . قال الشاعر :

إذا كنت مختصا لنفسك صاحبًا
فإن كان في حال القطيعة مُنصفا
ومن أمثال العرب احلم تسد ، قال الشاعر :

إن يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا
ويشتموا فتري الألوان مسفرة ^(٦)
وقال آخر :

وجهل رددناه بفضل حلومنا ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وقال الأحنف : إياكم ورأى الأوغاد ، قالوا : وما رأى الأوغاد ، قال : الذين يرون الصفح والعفو عارا . وقال
رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : لأُسبِّكَ سبًّا يدخل معك قبرك ، فقال : معك والله يدخل لا معي .

وقيل : إن الأحنف سبَّ رجل وهو يمشيه في الطريق ، فلما قرب من المنزل ، وقف الأحنف وقال له : يا هذا ،
إن كان قد بقي معك شيء فهات وقله هاهنا ، فإني أخاف أن يسمعك فتیان الحى فيؤذوك ونحن لا نحب الانتصار
لأنفسنا . وقال لقمان لابنه : يا بني ، ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا
عند الحرب ، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه . ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير :

(٢) الكرام الكاتبين : الملائكة الذين يكتبون ما نقوله وما نفعله .

(١) التعزير : عقاب أقل من الحد متروك تقديره للإمام .

(٣) رَحِب الجنان : أي واسع الصدر .

(٤) سَمَحُ البنان : كناية عن الجوة والسَّخاء .

(٥) أي حاد اللسان .

(٦) سَفَر الشيء : كشفه وأوضحه .

إذا أنت لم تُعرض عن الجهل والخنا^(١) أصبت حليماً أو أصابك جاهل
وقال آخر :

وإذا بغى باغ عليك بجهله فاقته بالمعروف لا بالمنكر
وقال آخر :

قل ما بدا لك من صدق ومن كذب حلمي أصم ، وأذنى غير صماء
ويروى في بعض الأخبار : أن ملكاً من الملوك أمر أن يصنع له طعام ، وأحضر قوماً من خاصته ، فلما مُد السَّمَطُ أقبل الخادم ، وعلى كفه صحن فيه طعام ، فلما قرب من الملك أدركته الهيبة ، فعرّث فوق من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك ، فقال له : ويحك . ما هذا ؟ فقال : أيها الملك إنما صنعت هذا شُحاً على عرضك ، وغيره عليك لتلا يقول الناس إذا سمعوا ذنبى الذى به تقتلنى قتله فى ذنب خفيف لم يضره ، وأخطأ فيه العبد ولم يقصده ، فتنسب إلى الظلم والجور ، فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر فى قتلى ، وترفع عنك الملامة .
قال : فأطرق الملك ملياً ثم رفع رأسه إليه ، وقال : يا قبيح الفعل ، يا حسن الاعتذار ، قد وهبنا قبيح فعلك ، وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك ، اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى .

(وحكى) عن أمير المؤمنين المأمون - وهو المشهود له بالاتفاق على علمه ، والمشهور فى الآفاق بعفوه وحلمه - أنه لما خرج عمه إبراهيم بن المهدي عليه ، وبإيعاه العباسيون بالخلافة ببغداد ، وخلعوا المأمون ، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان ، فلما بلغه الخبر ، قصد العراق فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ، ولم يزل المأمون مطلباً لإبراهيم حتى أخذه وهو متنقب مع نسوة فحبس ، ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال المأمون : لا سلم الله عليك ، ولا قرب دارك ، استغواك الشيطان حتى حدثك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام ، فقال له إبراهيم : مهلاً يا أمير المؤمنين ، فإن ولى الثأر محكمٌ فى القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة وعدل السياسة ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فإن أخذت فيحققك ، وإن عفوت فبفضلك والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال هذه الأبيات :

ذنبى إليك عظيم وأنى أعظم مننه
فخذ بحققك أو لا فاصفح بعفوك عنه
لم أكن فى فعالى من الكرام فكِنَّه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ، ظهرت الدموع فى عينيه ، وقال : يا إبراهيم ، الندم توبة ، وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول ، وأكثر مما تأمل ، ولقد حُبب إلى العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه لا تثريب عليك اليوم ، ثم أمر بفك قيوده ، وإدخاله الحمام ، وإزالة شعته ، وخلع^(٢) عليه ، ورد أمواله جميعها إليه فقال فيه مخاطباً :

رددت مالى . ولم تبخل على به وقبل ردك مالى قد حَقَنْتْ دُمى
فإن جحدتُك ما أوليت من كرم إنى لبِالْأُلُومِ أولى منك بالكرم

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكرى ، فقال له عباد : أيها الأمير ، أنشدك الله ، لا تقتلنى فوالله إنى لأعول أربعاً وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى فرق لهن واستحضرهن ، وإذا واحدة منهن كالبدْر فقال لها الحجاج : ما أنت منه ؟ قالت : أنا بنته ، فاسمع يا حجاج منى ما أقول ثم قالت :

أحجاجُ إما أن تَمُنَّ بتركه علينا وإما أن تقتلنا معاً

(١) الخنا: الفُحش فى الكلام.

(٢) خلع عليه ثوبه : أعطاه إياه.

أحجاج لا تفجع به إن قتلتَه ثمانا وعشرا واثنتين وأربعا
أحجاج لا تترك عليه بناته وخالاته يندبنه الدهر أجمعا
فبكى الحجاج ، ورق له ، واستوهبه^(١) من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصله .

ولما قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحرّ بن قيس ، وكان من النفر الذي يدينهم عمر رضي الله عنه وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولا ، كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه : يا بن أخ ، ي لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه فاستأذن فأذن لهم عمر ، فلما دخل قال : هيه يا بن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل^(٢) ، ولا تحكم فينا بالعدل ، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، إن الله سبحانه وتعالى قال لنبية عليها السلام خُذِ الْقَوَى وَأْمُرِي بِأَلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله تعالى .

(وحكى) : أن رجلا زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع تتضمن أنه أطلق له ألف دينار ، ثم جاء بها إلى وكيل الفضل ، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل ، فشرع في أن يزن له الألف دينار ، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم ، فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل ، وأوقفه على الورقة ، فنظر الفضل فيها ، ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل والخجل ، فأطرق الفضل بوجهه ، ثم قال للوكيل : أتدرى لم أتيتك في هذا الوقت ؟ قال : لا . قال : جئت لأستهضك^(٣) . حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال ، وناول الرجل قبضه وصار متحيرا في أمره ، فالتفت إليه الفضل ، وقال له : طب نفسا وامض إلى سبيك آنا على نفسك فقبل الرجل يده ، وقال : له سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة ، ثم أخذ المال ومضى . فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة ، والأفعال الجليلة ، ويقتفى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فقد كان أكثر الناس حلما وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم خلقا ، وأكثرهم تجاوزا وصفحا وأبرهم للمعتر^(٤) عليه نجحا . صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .
وأما ما جاء في العتاب : فقد قيل : العتاب خير من الحقد ، ولا يكون العتاب إلا على زلة . وقد مدحه قوم فقالوا : العتاب حدائق المتحابين ، ودليل على بقاء المودة وقد قال أبو الحسن بن منقذ .

أسطو عليه وقلبي لو تمكن من يدي غلّهما غيظًا إلى عنقي
وأستعير له من سطوتي حنقا وأين ذل الهوى من عزة الحنق ؟!

وذمه بعضهم : قال إياس بن معاوية : خرجت في سفر ، ومعى رجل من الأعراب ، فلما كان في بعض المناهل لقيه ابن عم له ، فتعانقا وتعتبا ، وإلى جانبهما شيخ من الحى فقال لهما . أتبعما عيشا ، إن المعاتبة تبعث التجنى والتجنى يبعث المخاصمة ، والمخاصمة تبعث العداوة ، ولا خير في شيء ثمرته العداوة . قال الشاعر :

فدع ذكر المعتاب فرب شر طويل هاج أوله المعتاب
وقيل : العتاب من حركات الشوق ، وإنما يكون هذا بين المتحابين . قال الشاعر :

علامة ما بين المحبين فى الهوى عتابهم فى كل حق وباطل
وكتب بعضهم يعاتب صديقه على تغير حاله معه . يقول :

عرضنا أنفسنا عزت علينا عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا رفعناها لم عزت ولكن كل معروض مهان

وقال آخر يعاتب صديقه :

وكنّت إذا ما جئت أدنيت مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر

(١) استوهب: استوهب الهبة، أي سألها.

(٢) الجزل: الكثير . (٣) أستنهضك: أطلب منك أن تنهض وتسرع وتعجل . (٤) المعتر: المتعرض للمعروف من غير أن يسأل.

إلى بها في سالف الدهر تنظر !؟

فمن لى بالعين التي كنت مرة

وقال أبو الحسن بن منقذ :

حملت قذى^(١) الواشين وهي سلاف^(٢) !؟

أخلاقك الغر السجايا ما لها

صدئت وأنت الجوهر الشفاف !؟

ومرأة رأيك في عبيدك ما لها

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه حظ عليه :

فكفى بنفسك لى عليك حسيبا

اقرأ كتابك واعتبره قريبا

إن أرسلوا جعلوا الخطاب خطوبا^(٣)

أكذا يكون خطاب إخوان الصفا

أو كنت بالعتب العنيف مجيبا

ما كان عذري إن أجبت بمثله

فيعد إحساني إليك ذنوبا

لكنني خفت انتقاص مودتي

وقال آخر :

وليس لأقوالى لديك قبول

أراك إذا ما قلت قولا قبلته

بأهل الوفا والظن فيك جميل

وما ذاك إلا أن ظنك سيئ

بنفسك عجباً وهو منك قليل

فكن قائلاً قول الحماسي تائها

ولا ينكرون القول حين نقول

وننكر إن شئنا على الناس قولهم

وكان لمحمد بن الحسن بن سهل صديق فنالته إضاعة ، ثم ولي عملاً فأثرى ، فقصدته محمد مُسلماً فرأى منه تغيراً فكتب إليه :

فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر

لئن كانت الدنيا أنالتك ثروة

من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

فقد كشف الإثراء منك خلائقا

وقال آخر في المعنى :

علو النجم في أفق السماء

دعوت الله أن تسمو وتعلو

فكان إذا على نفسي دعائي

فلما أن سموت بعدت عني

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان ، وكان له مكرما ، وابن عرادة يتجنى عليه ، فقارقه وصاحب غيره ، ثم ندم ورجع إليه وقال :

وصاحبت أقواما بكيت على سلم

عتبت على سلم فلما فقدته

فكان كبرء بعد طول من السقم^(٤)

رجعت إليه بعد تجريب غيره

وقال مسلم بن الوليد :

ديارى عنك تجربة الرجال

وإرجعني إليك إذا نأت بي

وقال أبو الحسن القابسي :

أخط بأقلامى على الماء أحرفا

إذا أنا عاتبت الملول فإنما

مودته طبعاً فصارت تكلفا !؟

وهبه^(٥) ارعوى بعد العتاب ألم تكن

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : معاتبه الصديق أهون من فقده ، وما أحسن ما قيل في العتاب :

(١) القذى : ما يتكوّن في العين من رمص وغمص وغيرهما ، ويقال : هو يغضي على القذى : إذا سكت عن الدّل والضم.

(٢) السلاف : الخالص الصافي من كل شيء .

(٣) الخطوب : جمع خطب وهو المصيبة .

(٤) سقم سقماً : طال مرضه .

(٥) ارعوى : رجع ، وكفّ عما فيه وأثر فيه العتاب .

وفى العتاب حياة بين أقوام وهو المحك لدى لبس وإيهام
فما ثم شيء أحسن من معاتبة الأحياء ، ولا ألد من مخاطبة ذوى الألباب ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى
الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب السابع والثلاثون

فى الوفاء بالوعد ، وحفظ العهد ، ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى الذى من تمسك به هداه ، ومن استدل به أرشده وهداه ، وقال الله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَاثُورًا ءَالْمَقُودِ﴾ [المائدة: ١] وقال جل ذكره وتقدس اسمه : ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ ءَآلِيَتَهُ﴾ [الرعد: ٢٠] وقال جل وعلا : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا ءَآلِيَتَكُمْ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١] وقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ إِذَا عَاهَدْتُمْ كَانَتْ مَثَولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] والآيات فى ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣] .

وروى فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اتَّخَذَ خَانَ» . فالوفاء من شيم النفوس الشريفة ، والأخلاق الكريمة ، والخلال الحميدة يعظم صاحبه فى العيون ، وتصدق فيه خطرات الظنون ، ويقال : الوعد وجه ، والإنجاز محاسنه ، والوعد سحابة والإنجاز مطره . وقال عمر بن الخطاب ؓ لكل شيء رأس ورأس المعروف تعجيله ، وأنشدوا :

إذا قلت فى شيء نعم فأتّمه فإن نعم دينٌ على الحر واجبٌ
وإلا فقل : لا تسترخ وتُرخ بها لئلا يقول الناس : إنك كاذبٌ
وقال آخر :

لا كلف الله نفساً فوق طاقتها ولا تجود يد إلا بما تجدد
فلا تعد عدة إلا وفيت بها واحذر خلاف مقالٍ للذى تعدد

وقال أعرابى : وعد الكريم نقد وتعجيل ، ووعد اللئيم مطل وتعليل ، وقال أعرابى أيضا : العذر الجميل ، خير من المطل الطويل . ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفا ، فأبطأت عليه فقال لقائده : أقمنى حيث يمر فأقامه ، فمر فأخذ بلجام بغلته ، وأنشأ يقول :

أظلت علينا منك يوما سحابة أضاء لها برق وأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلى فيبأس طامع ولا غيثها يأتى فتروى عطاشها
فقال لا تبرح حتى تؤتى بها . وقال صالح اللخمي :

لئن جمع الآفات فالبخل شرها وشرُّ من البخل المواعيدُ والمطل
ولا خير فى وعد إذا كان كاذبا ولا خير فى قول إذا لم يكن فِعْلٌ

وقيل : ماتت للهذلى أم ولد ، فأمر المنصور الربيع أن يعزىه ويقول له : إن أمير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها ، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصيلة ، فلم يزل الهذلى يتوقع وعد أمير المؤمنين ، ونسيه المنصور ، فحج المنصور ومعه الهذلى ، فقال المنصور ، وهو بالمدينة ، إنى أحب أن أطوف الليلة المدينة ، فاطلب لى من يطوف بى . فقال الهذلى : أنا لها يا أمير المؤمنين فطاف به حتى وصل بيت عاتكة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وهذا بيت عاتكة الذى يقول فيه الأحوص :

حذر العدا وبه الفؤاد موكل
قسما إليك مع الصدود لأميل
فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها :
مذق اللسان يقول ما لا يفعل
فذكر المنصور الوعد الذي كان وعد به الهذلي ، فأنجزه له ، واعتذر إليه ، وقال الشاعر :

تنشر عنه أطيب الذكر
ولا يليق المطل بالحر

لا خير في وعد بغير تمام
فالمطل يذهب بهجة الإنعام

فأوله حمد وآخره شكر
فمالك عن تأخير مكرمة عذر

فلا تزد الكريم على السلام
ويُفنيك السلام عن الكلام

فنصف لسانى بامتداحك ينطق
وباقى لسانى بالمزمة مُطلق

والليل حنى الدياجي^(٢) منبت السحر
فكيف لو بت من هجر على حذر !؟

ويأبى الله أن تنسى الكرام

وأما الوفاء بالعهد ، ورعاية الذمم : فقد نقل فيه عجائب الوقائع ، وغرائب البدائع ما يطرب السامع ويشنف^(٣) المسامع ، كقصية الطائي ، وشريك نديم النعمان بن المنذر .

وتخليص معناها : أن النعمان كان قد جعل له يومين : يوم يؤس من صادفه فيه قتله وأرداه ، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه ، وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره ، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ، ليرتاد شيئا لصيبته وصغاره ، فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان فى يوم يؤسه ، فلما رآه الطائي علم أنه مقتول ، وأن دمه مطلوب^(٤) ، فقال : حيا الله الملك ، إن لى صبية صغارا وأهلا جياعا ، وقد أرقت ماء وجهى فى حصول شيء من البلغة لهم^(٥) ، وقد أقدمنى منى سوء الحظ على الملك فى هذا اليوم العبوس ، وقد قربت من مقر الصبية ، والأهل وهم

يا بيت عاتكة الذى أتعرزل^(١)
إنى لأمنحك الصدود وإننى
فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه ،
وأراك تفعل ما تقول وبعضهم
فذكر المنصور الوعد الذى كان وعد به الهذلي ، فأنجزه له ، واعتذر إليه ، وقال الشاعر :

تعجيل وعد المرء أكرومة
والحر لا يمتل معرفه
وقال آخر :

ولقد وعدت وأنت أكرم واعد
أنعم على بما وعدت تكرما
وقال آخر :

لعبدك وعد قد تقدم ذكره
وقد جمعت فيك المكارم كلها
وقال آخر :

وميعاد الكريم عليه دين
يُذكّره سلامك ما عليه
وقال آخر :

شكاك لسانى ثم أمسكت نصفه
فإن لم تُنجز ما وعدت تركتني
وقال آخر :

باتت لوعدك عينى غير راقدة
هذا وقد بت من وعد على ثقة
وقال آخر :

نذكر بالرقاع إذا تسينا

(١) تعرزل: اعتزل، واعتزل: بعد وتتحى.

(٢) الدياجي: بتشديد الدال المفتوحة، أي الظلمات.

(٣) يشنف الآذان: يسعدها.

(٤) البلغة: ما يكفي لسد الحاجة، ولا يفضل عنها.

(٥) مطلوب: مهدر.

على شفا تلف من الطوى^(١) ، ولن يتفاوت الحال في قتلى بين أول النهار وآخره ، فإن رأى الملك أن يأذن لى فى أن أوصل إليهم هذا القوت ، وأوصى بهم أهل المروءة من الحى لثلا يهلكوا ضياعا ، ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسى لنفاذ أمره ، فلما سمع النعمان صورة مقاله ، وفهم حقيقة حاله ، ورأى تلهفه على ضياع أطفاله ، رق له ورثى لحاله ، غير أنه قال له : لا أذن لك حتى يضمّنك رجل معنا ، فإن لم ترجع قتلناه ، وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه ، فالتفت الطائى إلى شريك وقال له :

يا شريك بن عدى
من لأطفال ضعاف
بين جوع وانتظار
يا أخا كل كريم
يا أخا النعمان جذلى
ولك الله بأنسى
ما من الموت انهزام
عديموا طعم الطعام
وافتنقار وسق سام
وأنت من قوم كرام
بضممان والتزام
راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدى : أصلح الله الملك على ضمانه ، فمر الطائى مسرعا ، وصار النعمان يقول لشريك : إن صدر النهار قد ولى ولم يرجع ، وشريك يقول : ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء ، فلما قرب المساء قال النعمان لشريك : قد جاء وقتك ، قم فتأهب للقتل ! فقال شريك : هذا شخص قد لاح مُقبلا ، وأرجو أن يكون الطائى ، فإن لم يكن فأمر الملك ممثلا ، قال : فينما هم كذلك وإذا بالطائى قد اشتد عدوه في سيره مسرعا ، حتى وصل فقال : خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى ، ثم وقف قائما . وقال أيها الملك : مر بأمرك فأطرق النعمان ، ثم رفع رأسه ، وقال : والله ما رأيت أعجب منكما ! أما أنت يا طائى فما تركت لأحد فى الوفاء مقاما يقوم فيه ، ولا ذكرا يفتخر به ، وأما أنت يا شريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء ، فلا أكون أنا الأُم الثلاثة ، ألا وإنى قد رفعت يوم يؤسى عن الناس ، ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائى ، وكرم شريك فقال الطائى :

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى
إنى امرؤ متى الوفاء سجيئة
فعددت قولهمو من الإضلال
وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان : ما حملك على الوفاء ، وفيه إتلاف نفسك ؟ فقال دينى فمن لا وفاء فيه لا دين له ، فأحسن إليه النعمان ، ووصله بما أغناه . وأعادته مكرما إلى أهله وأناله ما تمناه .

ومن ذلك ما حكى أن الخليفة المأمون لما ولى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام ، وأطلق حكمه ، دخل على المأمون بعض إخوانه يوما ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبى طالب ، وهواه مع العلويين ، وكذلك كان أبوه قبله ، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر ، فتشوش فكره وضاق صدره ، فاستحضر شخصا وجعله فى زى الزهاد والنسك الغزاة ، ودسه إلى عبد الله بن طاهر وقال له : امض إلى مصر ، وخالط أهلها ، وداخل كبراءها ، واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوى ، واذكر مناقبه ، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك ، وادعه إلى القاسم بن محمد العلوى ، واكشف لى باطنه ، وابحث عن دفين نيته ، واثنى بما تسمع ، ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون وتوجه إلى مصر ، ودعا جماعة من أهلها ، ثم كتب ورقة لطيفة ، ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه ، فلما نزل من الركوب ، وجلس فى مجلسه ، خرج الحاجب إليه ، وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده ، فقال له : لقد فهمت ما قصدته ، فهات ما عندك ، فقال : ولى الأمان ؟ قال : نعم . فأظهر له ما أراده ، ودعاه إلى القاسم بن محمد ، فقال له عبد الله : أوتصفنى فيما أقوله لك ؟ قال : نعم . قال : فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة ؟ قال : نعم . قال : فيجب على وأنا فى هذه الحالة التى تراها من الحكم ، والنعمة ، والولاية ، ولى خاتم فى المشرق ، وخاتم فى المغرب ، وأمرى فيما بينهما مطاع ، وقولى مقبول ، ثم إنى ألتفت يمينا وشمالا فأرى نعمة

(١) الطوى: بتشديد الطاء المفتوحة مع فتح الواو: الجوع.

هذا الرجل غامرة ، وإحسانه فائضا على ، أفتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة ، وتقول : اغدر ، وجانب الوفاء ؟! والله لو دعوتني إلى الجنة عياناً لما غدرت أو نكثت بيعته ، وتركت الوفاء له فسكت الرجل ، فقال له عبدالله : والله ما أخاف إلا على نفسك ، فارحل من هذا البلد ، فلما يش الرجل منه ، وكشف باطنه ، وسمع كلامه ، رجع إلى المأمون ، فأخبره بصورة الحال ، فسر ذلك ، وزاد في إحسانه إليه ، وضاعف إنعامه عليه .

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق ، وأخبرت به الثقات في الآفاق ، وظهرت روايته بالشام والعراق ، وضرب به الأمثال في الوفاء بالاتفاق : حديث السمومل بن عاديا ، وتلخيص معناه أن امرأ القيس الكندي ، لما أراد المضى إلى قيصر ملك الروم ، أودع عند السمومل دروعا وسلاحا ، وأمتعة تساوى من المال جملة كثيرة ، فلما مات امرؤ القيس ، أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السمومل فقال السمومل : لا أدفعها إلا لمستحقها ، وأبى أن يدفع إليه منها شيئا فعاوده فأبى ، وقال : لا أغدر بدمتي ، ولا أخون أمانتي ، ولا أترك الوفاء الواجب على ، فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره ، فدخل السمومل في حصنه ، وامتنع به فحاصره ذلك الملك ، وكان ولد السمومل خارج الحصن ، فظفر به ذلك الملك ، فأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسمومل فأشرف عليه من أعلى الحصن ، فلما رآه قال له : إن ولدك قد أسرته ، وها هو معي فإن سلمت إلى الدروع والسلاح التي لامرئ القيس عندك ، رحلت عنك ، وسلمت إليك ولدك ، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر ، فاختر أيهما شئت ، فقال له السمومل : ما كنت لأخفر ذمامي ، وأبطل وفائي ، فاصنع ما شئت ، فذبح ولده وهو ينظر ، ثم لما عجز عن الحصن ، رجع خائبا ، واحتسب السمومل ذبح ولده ، وصبر محافظة على وفائه ، فلما جاء الموسم ، وحضر ورثة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح ، ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه ؛ فصارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسمومل ، وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنعام ذكروا السمومل في الأول ، وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتلقه بيديه ، وأعلى قيمة من جعله نصب عينيه ، واستنطق الأفواه لفاعله بالثناء عليه ، واستطلق الأيدي المقبوضة عنه بالإحسان إليه .

ومما وضع في بطون الدفاتر ، واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، وتداولته الألسنة من الأوائل والأواخر ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال : طلبني أمير المؤمنين ليلة ، وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لي : خذ معك فلانا ، وفلانا ، وسماهما : أحدهما علي بن محمد ، والآخر دينار الخادم واذهب مسرعا لما أقوله لك ، فإنه قد بلغني أن شيخا يحضر ليلا إلى دور البرامكة ، وينشد شعرا ، ويذكرهم ذكرا كثيرا ، ويندبهم ، ويبكي عليهم ثم ينصرف فامض الآن أنت وعلى ودينار حتى تروا هذه الخرابات ، فاستتروا خلف بعض الجدران ، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئا ، فأتوني به ، قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات ، وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسى حديد ، وإذا شيخ وسيم له جمال وعليه مهابة ووقار قد أقبل ، فجلس على الكرسي ، وجعل يبكي ، ويتحب ، ويقول :

ولما رأيت السيف جندل^(١) جعفرًا ونادى مناد للخليفة في يخين
بكبئت على الدنيا وزاد تأسفى عليهم وقلت : الآن لا تنفع الدنيا !

مع أبيات أطالها ، ورددها فلما فرغ قبضنا عليه ، وقلنا له : أجب أمير المؤمنين ، ففزع فزعا شديدا ، وقال : دعوني حتى أوصي وصية فإنني لا أوقن بعدها بحياة ، ثم تقدم : إلى بعض الدكاكين ، فاستفتح ، وأخذ ورقة ، وكتب فيها وصية ، ودفعها إلى غلامه ، ثم سرنا به ، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين ، زجره وقال له : من أنت ؟ وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم وما تقوله فيها ؟ قال الخادم - ونحن وقوف نسمع - فقال : يا أمير المؤمنين ، إن للبرامكة عندي أياد خطيرة ، أفتأذن لي أن أحدثك حديثي معهم ؟! قال : قل . قال : يا أمير المؤمنين ، أنا المنذر بن المغيرة ، من أولاد الملوك ، وقد زالت عني نعمتي ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركبنى

(١) جندل: الجندل في الأصل مكان في مجرى النهر، فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر، وفي المثل: «جندلنان اصطكتنا» يضرب للقرنين يتصاولان، والجمع جندال.

الدين ، واحتجت إلى بيع مسقط رأسى ، ورءوس أهلى ، أشاروا على بالخروج إلى البرامكة ، فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصيبا وصيبة ، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد ، فدعوت بثويات لى كنت قد أعددتها لأستمنح^(١) بها الناس ، فلبستها وخرجت ، وتركتهن جياعا لا شئ عندهم ، ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف ، وفيه مائة شيخ بأحسن زى وزينة ، وعلى الباب خادمان ، فطمعت فى القوم ، وولجت المسجد ، وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم وأؤخر ، والعرق يسيل منى ، لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا بخادم قد أقبل ، فدعا القوم فقاموا ، وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ، ودخلت معهم ، وإذا بيحى جالس على دكة له فى وسط بستان ، فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا ، وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا غلام أمرد عذر خداه ، قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم ممنطقون ، فى وسط كل خادم منطقة من ذهب ، يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل خادم مجمرة^(٢) من ذهب فى كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر ، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني ، فوضعه بين يدى الغلام ، وجلس الغلام إلى جانب يحيى ، ثم قال يحيى للقاضى . تكلم ، وزوج بنتى عائشة من ابن عمى هذا ، فخطب القاضى ، وزوجه ، وشهد أولئك الجماعة ، وأقبلوا علينا بالشار^(٣) ، بينادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كفى ، ونظرت فإذا نحن فى المكان ما بين يحيى والمشايخ ، وولده والغلام مائة واثنى عشر رجلا ، فخرج إلينا مائة واثنى عشر خادما مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت أباطهم ، ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدى بين يدى يحيى لا أجسر على أخذ الصينية ، فغمزنى الخادم ، فجسرت وأخذتها ، وجعلت الذهب فى كفى وأخذت الصينية فى يدى ، وقمت وجعلت ألتفت إلى ورائى مخافة أن أمنع من الذهب بها ، فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ، ويحى يلحظنى إذ قال للخادم اتنى بذلك الرجل ، فرددت إليه فأمر بصب الدنانير والصينية وما كان فى كفى ، ثم أمرنى بالجلوس ، فجلست فقال لى : ممن الرجل ؟ فقصصت عليه قصتى ، فقال للخادم : اتنى بولدى موسى ، فأتى به فقال له : يا بنى هذا رجل غريب فخذة إليك ، واحفظه بنفسك ، وبنعمتك فقبض موسى على يدى ، وأدخلنى إلى دار من دوره ، فأكرمنى غاية الإكرام ، وأقمت عنده يومى وليلى فى ألد عيش ، وأتم سرور ، فلما أصبح دعا بأخيه العباس ، وقال : إن الوزير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل ، وقد علمت اشتغالى فى دار أمير المؤمنين ، فاقبضه إليك وأكرمه ، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام ، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه أحمد ثم لم أزل فى أيدى القوم يتداولونى عشرة أيام ، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء ؟! فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ، ومعه جماعة من الخدم فقالوا لى : قم فاخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت : واويلاه ! سلبت الدنانير والصينية ، وأخرج إلى عيالى على هذه الحالة ؟! إنا لله وإنا إليه راجعون ! رفع الستر الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لى : مهما كان لك من الحوائج ، فارفعها إلى فىنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ، فلما رفع الستر رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا ، واستقبلنى منها رائحة التند^(٤) والعود ، ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وعيالى يتقبلون فى الحرير والديباج ، وحمل إلى ألف ألف درهم ، وعشرة آلاف دينار ، ومنشورين بضيعتين ، وتلك الصينية التى كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق ، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة ، لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطنعونى ؟! فلما جاءتهم البلية ، ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل ، أجحفتنى عمرو بن مسعدة وألزمنى فى هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفى دخلهما به ، فلما تحامل على الدهر كنت فى أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم ، وأذكر حسن صنيعهم إلى ، وأشكرهم على إحسانهم ، فقال المأمون : على بعمرو بن مسعدة ، فلما أتى به قال له : يا عمرو ، أتعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم . يا أمير المؤمنين ، هو

(١) استمنح: طلب منحة.

(٢) المجمرة: ما يوضع فيه الجمر مع البخور.

(٣) الشار: بتشديد النون المفتوحة: ما تُثر فى حفلات السرور من حلوى أو نقود.

(٤) التند: ضرب من النبات يُتبخّر بعوده.

بعض صنائع البرامكة ، قال : كم ألزمته في ضيعته ؟ قال : كذا وكذا ، قال : رد له كل ما استأديته منه في مدته ، ووقع له بهما ، ليكونا له ولعقبه من بعده ، قال : فعلا نحب الرجل وبكاؤه ، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له : يا هذا قد أحسنا إليك فلم تبكى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، وهذا أيضا من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آت خراباتهم فأبكيهم وأنديهم حتى اتصل خبري بأمر المؤمنين ففعل بي ما فعل ، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين ؟ قال إبراهيم بن ميمون : فلقد رأيت المأمون ، وقد دمعت عيناه ، وظهر عليه حزنه ، وقال : لعمري هذا من صنائع البرامكة ، فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوف ، ولإحسانهم فاذكر .

وقيل : إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوام عهده ، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وتشوقه إلى إخوانه ، وكثرة بكائه على ما مضى من زمانه ؛ قال الشاعر :

سقى الله أطلال الوفاء بكفه فقد درست أعلامه ومنازله !
وقال آخر :

اشدْ يدك بمن بلوت وفاءه إن الوفاء من الرجال عزيز !

وقال مالك بن عماره اللخمي : كنت جالسا في ظل الكعبة أيام الموسم ، عند عبد الملك بن مروان ، وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير ، وكنا نخوض في الفقه مرة ، وفي المذاكرة مرة ، وفي أشعار العرب ، وأمثال الناس مرة فكنيت لا أجد عند أحد ما أجد عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة ، والتصرف في فنون العلم ، وحسن استماعه إذا حدث ، وحلاوة لفظه إذا حدث ، فخلوت معه ليلة فقلت له : والله إنني لمسرور بك لما شهدته من كثرة تصرفك ، وحسن حديثك ، وإقبالك على جليسك ؛ فقال : إن تعش قليلا فسترى العيون طلحة ^(١) ، وإلى ، والأعناق نحوى متطاوله ، فإذا صار الأمر إلى فلعلك أن تنقل إلى ركابك ، فلأملأن يديك ، فلما أفضت إليه الخلافة ، توجهت إليه فوافيته يوم الجمعة ، وهو يخطب على المنبر ، فلما رأيته أعرض عني ، فقلت : لعله لم يعرفني أو أعرفه ، وأظهر لى نكره ، فلما قضيت الصلاة ، ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب ، فقال : أين مالك بن عماره ، فقمت ، فأخذ بيدي وأدخلني عليه ، فمد إلى يده وقال : إنك تراءيت لى فى موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت ، فأما الآن فمرحبا وأهلا ، كيف كنت بعدى ؟ فأخبرته ، فقال لى : أتذكر ما كنت قلت لك ؟ قلت : نعم . فقال : والله ما هو بميراث وعيناه ، ولا أثر روينا ، ولكنى أخبرك بخصال منى سمعت بها نفسى إلى الموضع الذى ترى : ما خنت ذا ود قط ، ولا شمت بمصيبة عدو قط ، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهى حديثه ، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلبذا بها ، فكنيت أو مل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتي وقد فعل ، ثم دعا بغلام فقال له : يا غلام بؤته منزلا فى الدار ، فأخذ الغلام بيدي ، وأفرد لى منزلا حسنا ، فكنيت فى الدار وأنعم بال ، وكان يسمع كلامى ، وأسمع كلامه ، ثم أدخل عليه فى وقت عشائه وغدائه ، فيرفع منزلتي ويقبل على ، ويحدثنى ، ويسألنى مرة عن العراق ، ومرة عن الحجاز ، حتى مضت لى عشرون ليلة فتغديت يوما عنده ، فلما تفرق الناس نهضت قائما فقال : على رسلك ، فقعدت ، فقال : أتى الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة ^(٢) لك فى المعاشرة ، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، فارقت أهلى ولدى على أنى أزور أمير المؤمنين ، وأعود إليهم ، فإن أمرنى أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد ، فقال : لا ، بل أرى لك الرجوع إليهم ، والخيار لك بعد فى زيارتنا ، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار ، وكسوناك وحملناك ، أترانى قد ملأت يديك ، فلا خير فيمن ينسى إذا وعد ، وعُد إذا شئت صحتك السلامة .

ومن ذلك ما روى عن أبى بكار الأعمى ، وكان قد انقطع إلى آل برمك ، قال مسرور الكبير : لما أمرنى الرشيد بقتل جعفر بن يحيى ، دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الأعمى ، يغنيه ، ويقول :

(١) طلحة : واحدة الطلح ، وهو : شجر عظام من شجر البضاه ترعاه الإبل ، أو ما بقى فى الحوض ونحوه من الماء الكبير ، أو المغني والمهزول .

(٢) النصفة : الإنصاف .

فلا تحزن فكل فتى سيأتى عليه الموت بطرق أو يغادى^(١)

فقلت : فى هذا والله قد أتيتك ، ثم أمسكت بيد جعفر ، وأقمتة ، وضربت عنقه ، فقال أبو بكر : ناشدتك الله إلا ألحقتنى به ، فقلت له : ما الذى حملك على هذا ؟ فقال : أغتاني عن الناس ، فقلت : حتى أستمير الرشيد ؛ ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد وأخبرته بخبر أبى بكر ، فقال : هذا رجل فيه مصطنع اضممه إليك ، وانظر ما كان يُجرى عليه جعفر ، فادفعه إليه ، وكان يحيى بن خالد إذا أكد فى يمينه قال : لا ، والذى جعل الوفاء أعز ما يرى .

قال أبو فراس بن حمدان الشاعر :

بمن يتقى الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحر الكريم صحاب ؟
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهن ثياب !!

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره فى الحروب ، فقال : كان - رحمه الله - يفعل كذا وكذا ، فقال المنصور : عليك لعنة الله تطأ بساطى ، وتترحم على عدوى . فقال : إن نعمة عدوك لقلادة فى عنقى ، لا ينزعها إلا غاسلى ! فقال له المنصور : ارجع يا شيخ فإنى أشهد أنك لوفى حافظ للخير ، ثم أمر له بمال فأخذه ، ثم قال : والله لولا جلالة أمير المؤمنين ، وإمضاء طاعته ، مالبت لأحد بعد هشام نعمة ، فقال له المنصور : لله درك . فلو لم يكن فى قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدداً مخلداً !

وخرج سليمان بن عبد الملك ، ومعه يزيد بن المهلب فى بعض جبايين الشام ، فإذا امرأة جالسة على قبر تبكى ، قال سليمان : فرفعت البرقع عن وجهها ، فحككت شمساً عن متون غمامة ، فوقفنا متحيرين ننظر إليها فقال لها يزيد بن المهلب : يا أمة الله ، هل لك فى أمير المؤمنين بعلا ؟ فنظرت إلينا ، ثم أنشأت تقول :

فإن تسألانى هوى فإننه يجول بهذا القبر يا فتيان
وإنى لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه وهو يرانى

ومن ذلك ما روى عن نائلة بنت الفرافصة بن الأخوص الكلبى ، زوج عثمان رضي الله عنه ، أن عثمان لما قتل أصابته ضربة على يدها ، وخطبها معاوية فردته ، وقالت : ما يعجب الرجل منى ؟ قالوا : ثناياك ، فكسرت ثناياها ! وبعثت بها إلى معاوية فكان ذلك مما رغب قريشاً فى نكاح نساء بنى كلب . ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف ، وقال له : انج بهذا ، فأخذه زياد ، ودقه بين حجرين ، وقال : والله لا يتنفع به أحد بعدك ! ولما قدم هدية بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم قالت زوجته : إن لهدية عندى ودیعة ، فأمهله حتى أتيتك بها ، فقال : أسرع فإن الناس قد كثروا . وكان مروان قد جلس لهم بارزاً عن داره ، فمضت إلى السوق ، وأتت إلى قصاب فقالت : أعطني شفرتك ، وخذ هذين الدرهمين ، وأنا أردّها عليك فأخذتها ، وقربت من حائط وأرسلت ملحفتها على وجهها ، ثم جدعت أنفها من أصله ، وقطعت شفيتها ، وردت الشفرة إلى القصاب ، ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس ، فقالت : أترانى يا هدية متزوجة بعد ما ترى ؟! فقال : الآن طابت نفسى بالموت . فجزاك الله من حليلة وفية خيراً .

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاماً هو أوجزها كلاماً ، وأحسنها نظاماً ، وأبينها حكماً وإحكاماً ، وهى قضية جمعت الأمرين : وفاء وغدرا ، وعرفا ونكرا ، وخيراً وشراً ، ونفعاً وضراً ، واشتملت على حال شخصين أحدهما وفى بعهده ففاز ونجا ، وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا ، وغدر الآخر فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجا ، ولم يلق له من ضيق الغدر مخرجاً ، وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم ، وكان مطلعاً على أحوال أحمد بن طولون ، عارفاً بأموره ، عالماً بوروده وصدوره ، فقال ما معناه : إن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلاً مطروحاً ، فالتقطه ورباه ، وسماه أحمد ، وشهره باليتيم ، فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاءً وفطنةً وأحسنهم زياً وصورةً ، فصار يرعاه ويعلمه ، حتى تهذب وتمرن ، فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده أبا الحسن

خمارويه به ، فأخذه إليه ، فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه وقال له : أنت عندى بمكانة أركانك بها ، ولكن عادتى أنى أخذ العهد على كل من أصرّفه فى شىء أنه لا يخوننى ، فعاهده ، ثم حكمه فى أمواله ، وقدمه فى أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام ، حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام ، والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه فلما رأى خدمته متصفة بالنصح ، ومساعيه متسمة بالنجح ، ركن إليه ، واعتمد فى أمور بيوته عليه ، فقال له يوما : يا أحمد ، امض إلى الحجرة الفلانية ، ففى المجلس حيث أجلس سُبحة جوهر ، فانتنى بها فمضى أحمد ، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير ، وحظاياه مع شاب من الفَرَّاشين ، ممن هو من الأمير بمحل قريب ، فلما رآياه خرج الفتى ، وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه ، ودعته إلى قضاء وطره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلى ، وأخذ العهد على ، ثم تركها وأخذ السبحة ، وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه ، وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعد ما أخذ السبحة ، وخرج من الحجرة لثلا يذكر حالها للأمير ، فأقامت أياما لم تجد من الأمير ما غيره عليها ، ثم اتفق أن الأمير اشتري جارية وقدمها على حظاياه ، وغمرها بعطاياه ، واشتغل بها عمن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده ، حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، ولا يراها ، وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة ، الخائنة ، الخائبة ، الغادرة ، العائبة ، العاهرة ، الفاسقة ، الفاجرة ، فلما أعرض عنها اشتغالا بالجارية الجديدة ، الممجدة ، السعيدة المسعدة ، الحامدة المحمودة ، الوصيفة الموصوفة ، الأليفة المألوفة ، العارفة المعروفة ، وصرف لبهجة محاسنها ، وكثرة أدبها وجهه عن ملاعبة أترابها ، وشغلته بعذوبة رُضابها^(١) ، عن ارتشاف^(٢) ضرب أضرابها ، وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأمرة على تأميره ، ولا تخاف من وليه ولا نصيره ، فكَبُرَ عليها إعراضه عنها ، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها ، فدخلت على الأمير ، وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها ، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها ، وقالت : إن أحمد اليتيم راودني عن نفسى ، فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظا وغضبا ، وهم فى الحال بقتله ، ثم عاوده حاكم عقله ، فتأبى فى فعله ، واستحضر خادما يعتمد عليه ، وقال له : إذا أرسلت إليك إنسانا ومعه طبق من ذهب وقلت لك على لسانه : املا هذا الطبق مسكا ، فاقتل ذلك الإنسان ، واجعل رأسه فى الطبق وأحضره مغطى ، ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه ، وأحضر عنده ندماء الخواص ، وأدناهم لمجلس قربه ، وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن فى سربه لم يخطر بخاطره شىء ولا هاجس فى قلبه ، فلما مثل بين يدى الأمير ، وأخذ منه الشراب شرع فى التدبير ، فقال : يا أحمد ، خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له : يقول لك أمير المؤمنين املا هذا الطبق مسكا ، فأخذاها أحمد اليتيم ، ومضى فاجتاز فى طريقه بالمغنين وبقية الندماء والخواص ، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم ، فقال : أنا ماض فى حاجة للأمير أمرنى بإحضارها فى هذا الطبق . فقالوا له : أرسل من ينوب عنك فى إحضارها ، وخذاها أنت وادخل بها على الأمير فأدار عينيه ، فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية ، فأعطاه الطبق وقال له : امض إلى فلان الخادم ، وقال له : يقول لك الأمير املا هذا الطبق مسكا ، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم ، فذكر له ذلك فقتله ، وقطع رأسه ، وغطاه ، وجعله فى الطبق ، وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم ، فأخذه ، وليس عنده علم من باطن الأمر ، فلما دخل به على الأمير ، كشفه وتامله وقال : ما هذا ؟ فقص عليه خبره ، وعوده مع المغنين ، وبقية الندماء ، وسؤالهم له الجلوس معهم ، وما كان من إنفاذ الطبق ، وإرساله مع الفراش ، وأنه لا علم عنده غير ما ذكره ، قال : أتعرف لهذا الفراش خبرا يستوجب به ما جرى عليه . فقال : أيها الأمير إن الذى تمّ عليه بما ارتكبه من الخيانة ، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك ، وأخذ أحمد يحذّثه بما شاهده ، وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره ، لما أنفذته لإحضار السُبحة الجوهر ، فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية ، واستقررها فأقوت بصحة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ، ففعل وازدادت مكانة أحمد عنده ، وعلت منزلته لديه ، وضاعف إحسانه إليه ، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه .

(١) الرضاب : بتشديد الراء المضمومة وفتح الصاد : الرُبُق .

(٢) ارتشاف : ارتشفه ، أي امتصّه .

فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء ، كيف تحمى من المعاطب ، وتنجى من قبضة التلف بعد إمضاء القواضب ، ويفضى بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب ، فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده ، وهو بشر مثله ، وليس فى الحقيقة بعبده ، واطلع الله - عز وجل - على صدق نيته وقصده ، دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده ، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيا فى طاعته بعهده ، كيف لا يفيض عليه من الطاف مواهب بره ورفده ؟! ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته مالا ممسك له من بعده ؟! وقالوا : ليس شئ أوفى من القُمريّة^(١) إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ، ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .



الباب الثامن والثلاثون

فى كتمان السر وتحصينه ، وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ﴾ [يوسف: ٥] الآية فلما أفشى يوسف^(٢) رؤياه بمشهد امرأة يعقوب ، أخبرت إخوته فحل به ما حل . ومن شواهد الكتاب العزيز فى السر قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَىٰ أَلْفَيْ بَصِيرَةٍ ﴾ [التكوير: ٢٤] أى بمتهم .

وفى الحديث : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن ذى كل نعمة محسود »^(٣) . وقال على^(٤) : سر ك أسيرك ، فإذا تكلمت به صرت أسيره . واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجودا من أمناء الأموال ، وحفظ الأموال أسير من كتمان الأسرار لأن أحرار الأموال منبذة بالأبواب والأقفال ، وأحرار الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ، ويشيعها كلام سابق ، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال ، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحملة ، ويمشى به ، ولا يستطيع كتم السر ، وإن الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكرب مالا يلحقه من حمل الأثقال فإذا أذاعه استراح قلبه ، وسكن خاطره ، وكأنما ألقى عن نفسه حملا ثقيلا . وقال عمر بن عبد العزيز^(٥) : القلوب أوعى ، والشفاه أقالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره ، ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزانها كان أوثق لها ، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزانها ، كان أضيع لها ، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ، ومنعه من بلوغ مآربه ، ولو كتمه أمن من سطواته . وقال أنوشروان : من حصن سره فله بتحصينه خصلتان : الظفر بحاجته ، والسلامة من السطوات . وقيل : كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعا . وقيل : انفراد بسر ك ؛ لا تودعه حازما فيزل ، ولا جاهلا فيخون .

وقال كعب بن سعد الغنوى :

ولست بمبدل للرجال سريرتى ولا أنا عن أسرارهم بسئول
وقال أبو مسلم صاحب الدولة :
أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ جهدوا

(١) القُمريّة: مؤنث قمرى، والجمع قمارى: ضرب من الحمام مطوق حسن الصوت.

(٢) وفى الحديث: استعينوا على... إلخ. السيوطي فى الدرر المنتثرة: أخرجه البيهقي فى الشعب، والطبراني فى الأوسط من حديث معاذ بن جبل بلفظ «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان إلخ» وأخرجه الخلعي فى فوائده عن طريق علي رفعه بلفظ «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان» وأورده السيوطي فى جامعه الصغير وضعفه.

والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ونام عنها تولى رعيها الأسد

ما زلت أسعى عليهم في ديارهم
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا
ومن رعى غنما في أرض مسبعة
وأسر رجل إلى صديقه حديثاً ثم قال له :

أفهمت ؟ قال : بل جهلت . ثم قال له : أحفظت ؟ قال : بل نسيت . وقيل لبعضهم : كيف كتمانك للسر ؟
قال : أجدد المخبر ، وأحلف للمستخبر ، وقال المهلب : أدنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما
أسر إليه . ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر :

نسى الضمير بأنها في طيه

ولها سرائر في الضمير طويتها

وقد أجازته الشيخ شمس الدين البدوي فقال :

يوماً بظاهره ولا بخفيه
في حبها برشاده أو غييه
نسى الضمير بأنها في طيه

إنى كتمت حديث ليلي لم أبح
وحفظت عهد ودادها متمسكا
ولها سرائر في الضمير طويتها

وقيل : كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال ، وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها ، فكذلك لا خير في
إنسان لا يمسك سره . قال الشاعر :

عن الحسن خوفاً أن ينم به الحسن
فأودعته من حيث لا يبلغ الحسن

ومستودعي سراً كتمت مكانه
وخفت عليه من هوى النفس شهوة

وقال قيس بن الخطيم :

بسرى عمن سألتني لضنين
كتوم لأسرار العشير أمين

أجود بمكنون التلاد^(١) وإننى
وإن ضيع الأقوام سرى فإننى

وقال جعفر بن عثمان :

لا ترج أن تسمعه منى
كأنه لم يجر فى أذنى !

ياذا الذى أودعنى سره
لم أجره قط على فكرتى

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ما أفشيت سرى إلى أحد قط فأفشاء ، فلمته ، إذ كان صدرى به أضيق . وقال
الأحنف بن قيس : يضيق صدر الرجل بسره ، فإذا حدث به أحداً قال : اكتمه على . قال الشاعر :

ولام عليه غيره فهو أحق
فصدر الذى يُستودع السر أضيق

إذا المرء أفشى سره بلسانه
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه

وقال آخر :

وأفشته الرجال فمن تلوم ؟
وسرى عنده فأنا المعلوم

إذا ما ضاق صدرك عن حديث
وإن عاتبت من أفشى حديثى

وقال صالح بن عبد القدوس : لا تُودع سرّك إلى طالبه ، فالطالب للسر مُذيع ، ولا تُودع مالك عند من يستدعيه ،
فالطالب للوديعة خائن .

وقيل لأعرابي : ما بلغ من حفظك للسر ؟ قال : أفرقه تحت شغاف قلبي ، ثم أجمعه وأنساه ، كأنى لم أسمع .

(١) التلاد : بكسر التاء المشددة وفتح اللام : المال الأصلي القديم .

وكان يقال : أحزم الناس من لا يفشى سره إلى صديقه ، مخافة أن يقع بينهما شر فيفشي عليه . وقال حكيم :
قلوب الأحرار قبور الأسرار . وقيل : الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق . وقال بعضهم :

إذا ما غفرت الذنب يوما لصاحب فلست معيدا ما خيبت له ذكرا
ولست إذا ما صاحب خان هذه وعندي له سر مذيعة له سرا
وأين هذا من القاتل :

ولا تودع الأسرار أذننى فإنما تصبى ماء فى إناء مثلم
أو القاتل :

ولا أكنم الأسرار لكن أذيعها ولا أدع الأسرار تعلو على قلبى
وإن قليل العقل من بات ليلة تقلبه الأسرار جنبا إلى جنب
وقال آخر :

وإنك كلما استودعت سرا أنم من النسيم على الرياض !
وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

أناس أمناهم فنموا حديثنا فلما كتمنا السر عنهم تقولوا !
ولله در المتنبي حيث قال :

وللسر منى موضع لا يناله نديم ولا يفضى إليه شراب
وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

الباب التاسع والثلاثون

فى الغدر والخيانة ، والسرقة والعداوة والبغضاء ، والحسد وفيه فصول

الفصل الأول : فى الغدر والخيانة

قال رسول الله ﷺ : « أَعْجَلُ الْأَشْيَاءِ عُقُوبَةُ الْبَغْيِ » ^(١) . وعن أبى هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ « المكر والخديعة والخيانة فى النار » ^(٢) . قال أبو بكر الصديق ؓ ثلاث من كن فيه ، كن عليه : البغى ، والنكث ، والمكر . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [يونس: ٢٣] وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣] وكم أوقع الغدر فى المهالك من غادر ، وضافت عليه من موارد الهلكات ، فسيحات المصادر ، وطوقه غدره طوق خزى فهو على فكه غير قادر ، وأوقعه فى خطة خسف ^(٣) ، وورطة حتف ^(٤) ، فما له من قوة ولا ناصر ، ويشهد لصحة هذه الأسباب ، ما أحاطت به علوم ذوى الألباب من قصة ثعلبة بن

(١) أعجل الأشياء عقوبة.. إلخ. أورده البخاري فى الأدب المفرد بلفظ «وبابان يعجلان فى الدنيا: البغى وقطيعة الرحم» .

(٢) المكر والخديعة.. إلخ. أورده المتقي الهندي فى كنز العمال [٧٨٢٠] .

(٣) الخسف: الدل، والظلم.

(٤) الحتف: الهلاك.

حاطب الأنصاري ؛ وتلخيص معناها : أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبي ﷺ فجاءه يوماً وقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال له رسول الله ﷺ : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤذى شكره خير من كثير لا تطيقه » . ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال رسول الله ﷺ : « يا ثعلبة ، أمالك في رسول الله أسوة حسنة ؟ ! » والذي نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت » . ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق نبياً لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، وعاهد الله تعالى على ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » . قال : فاتخذ ثعلبة غنماً ، فَنَمَتَ كما ينمو الدودُ ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، ونزل وادياً من أوديتها وهي تنمو كما ينمو الدود ، وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له : حمامة المسجد ، فلما كثرت الغنم ، وتنحى صار يصلى مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ، ويصلى بقية الصلوات في غنمه ، فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة ، فصار لا يشهد إلا الجمعة ، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن المدينة حتى صار لا يشهد جمعة ، ولا جماعة ، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « ما فعل ثعلبة ؟ » . قالوا : يا رسول الله ، اتخذ غنماً ما يسعها وإذ فقال رسول الله ﷺ : « يا ويح ثعلبة » . فأنزل الله تعالى آية الصدقة^(١) ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين : رجل من بنى سليم ، ورجل من جهينة ، وكتب لهما أنصاب الصدقة . وكيف يأخذانها ؟ وقال لهما : « مرا بـثعلبة بن حاطب ، وبرجل آخر من بنى سليم ، فخذوا صدقاتهما » . فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ ، فقال : ما هذه إلا جزية ، أو ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ، ثم عودا إلي فانطلقا ، وسمع بهما السلمي ، فنظر إلى خيار إبله فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ، فلما رأياه قال : ما هذا ؟ قال : خذاه فإن نفسى به طيبة ، فمرا على الناس ، وأخذوا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة ، فقال : أروني كتابكما ، فقرأه ثم قال : ما هذه إلا جزية ، أو ما هذه إلا أخت الجزية ، اذهبا حتى أرى رأيي . قال : فذهبا من عنده ، وأقبلا على رسول الله ﷺ ، فلما رآهما قال قبل أن يتكلما : « يا ويح ثعلبة » . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(٢) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ جَحَلُوا يَدَهُمْ وَتَوَلَّوْاْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِنَّ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبَ ﴿٦٩﴾ [التوبة: ٧٥-٧٨] وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك ، فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة : قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ ، فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : « إن الله تعالى منعه أن أقبل منك صدقة » . فجعل ثعلبة يحشو التراب على رأسه ووجهه ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني » ، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته ، رجع إلى منزله ، وقُبِضَ رسول الله ﷺ ، ولم يقبل منه شيئاً ، ثم أتى إلى أبى بكر الصديق ﷺ حين استخلف فقال : قد علمت منزلتى من رسول الله ﷺ ، وموضعى من الأنصار فاقبل صدقتى ، فقال أبو بكر ﷺ : لم يقبلها رسول الله ﷺ منك ، فلا أقبلها أنا ، فقبض أبو بكر ﷺ ، ولم يقبلها ، فلما ولى عمر ﷺ ، أتاه فقال : يا أمير المؤمنين أقبل صدقتى ، فلم يقبلها منه ، وقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر ﷺ ، فأنا لا أقبلها ، وقبض عمر ﷺ ، ولم يقبلها ، ثم ولى عثمان بن عفان ﷺ ، فسأله أن يقبل صدقته فقال له : لم يقبلها رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر ﷺ ، فأنا لا أقبلها ، ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان ﷺ^(٣) .

فانظر إلى سوء عاقبة غدره . كيف أذاقه وبال أمره . ووسمه بسمه عارٍ قضت عليه بخسره ، وأعقبه نفاقاً بخزيه ، يوم فاقتة وفقره ، فأى خزى أرجح من ترك الوفاء بالميثاق ؟ وأى سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق ؟! وأى عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوئ الأخلاق ؟! وكان يقال : لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن احتمال المكاره ، فى جنب نيل المكارم قال الشاعر :

غدرتُ بأمر كنت أنت جذبتنا إليه وبئس الشيمة الغدرُ بالعهد !

(١) التوبة: ١٠٣ وهي: ﴿ خُذْ مِمَّنْ آمَنَ لِمَتَّ صَدَقَةً . إلخ . »

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره [١٨٩/١٠-١٩٠] وابن أبي حاتم بسند ضعيف كما في تفسير ابن كثير [٧٢٥/٢] والحسن بن سفيان ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، والطبراني ، وابن منده وأبو نعيم كما في الدر المنثور [٢٦٠-٢٦١] .

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام ، وهما وليا عهد ، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول خذلني الله إن خذلت ، فقال : ذلك ثلاث مرات ، فقال الفضل بن الربيع : قال لى الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله ، يا أبا العباس ، أجد في نفسي أن أمري لا يتم ، فقلت له : ولم ذلك - أعز الله الأمير - قال : لأني كنت أحلف وأنا أنوى الغدر ، وكان كذلك لم يتم أمره . وورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاة ، كان ملكا بين دجلة والفرات ، وكان له هناك قصر مشيد يعرف بالجوسق ، وبلغ ملكه الشام ، فأغار على مدينة سابور ذي الأكتاف ، فأخذها وأخذ أخت سابور ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، ثم إن سابور جمع جيوشا ، وسار إلى الضيزن ، فأقام على الحصن أربع سنين ، لا يصل منه إلى شيء ، ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت أى : حاضت فخرجت من الربيض^(١) ، وكانت من أجمل أهل دهرها ، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن ، وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآها ورأته ، فعشقها وعشقتها ، وأرسلت إليه تقول : ما تجعل لى إن دلتك على ما تهدم به هذه المدينة ، وقتل أبى ؟ فقال : أحكمك ، فقالت : عليك بحمامة مطوقة ورقاء ، فكتب عليها بحيض جارية ، ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة فتداعى المدينة كلها ، وكان ذلك طلسم لا يهدمها إلا هو ، ففعل ذلك فقالت له : وأنا أسقى الحرس الخمر ، فإذا صرعوا فاقتلهم ، ففعل ذلك فتداعت المدينة ، وفتحها سابور عنوة ، وقتل الضيزن ، واحتمل ابنته النضيرة ، وأعرس بها فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر ، وتتململ في فراشها ، وهو من حرير محشو بربيش النعام ، فالتمس ما كان يؤذيها ، فإذا هو ورقة آس التصقت بعكبتها^(٢) ، وأثرت فيها ، وقيل : كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها ثم إن سابور بعد ذلك غدر بها ، وقتلها ، قيل : إنه أمر رجلا فركب فرسا جموحا ، وضفر غدائرها بذنبه ، ثم استركضه ، فقطعها قطعا قطع الله ما أغدره !

وتقول العرب : جزاني جزاء سمنار وهو أن يزدجرد بن سابور ، لما خاف على ولده بهرام ، وكان قبله لا يعيش له ولد ، سأل عن منزل صحيح مرى ، فدل على ظهر الجزيرة ، فدفع ابنه بهرام إلى النعمان - وهو عامله على أرض العرب - وأمره أن يبنى له جوسقا^(٣) فامثل أمره ، وبنى له جوسقا ، كأحسن ما يكون ، وكان الذى بنى الجوسق رجلا يقال له سمنار ، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه ، فقال : لو علمت أنكم توفونى أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت ، فقالوا : وإنك لتبنى أحسن من هذا ولم تبته ، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع ، فكانت العرب تقول : جزاني جزاء سمنار .

وممن غدر عبد الرحمن بن ملجم - لعنه الله - غدر بعلى عليه السلام وقتله .

وعمر بن جرموز غدر بالزبير بن العوام عليه السلام وقتله .

وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة - لعنه الله - غدر بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب عليه السلام وقتله .

وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى ثم غدر به وأخره ، وقدم المهدي عليه فقال عيسى :

أينسى بنو العباس ذبى ^(٤) عنهم	بسيفى ونار الحرب زاد سعيها
فتحت لهم شرق البلاد وغربها	فذل مُعاديها وعز نصيرها
أقطع أرحاماً على عزيزة	وأبدى مكيدات لها وأثيرها
فلما وضعت الأمر فى مستقره	ولاحت له شمس تلالاً نورها
دُفعت عن الأمر الذى أستحقه	وأوسق أوساقا ^(٥) من الغدر عيرها

وخرج قوم لصيد فطردوا ضبعة حتى ألجئوها إلى خباء أعرابي فأجارها ، وجعل يطعمها ويسقيها ، فبينما هو نائم

(١) الربيض : الزوجة .

(٢) العُكَّة : ما انطوى وتثنى من لحم الطن سمنًا .

(٣) الجوسق : القصر الصغير .

(٤) ذبى عنهم : أي دفاعي عنهم .

(٥) أوسق ، وأوساق : جمع وسق ، وهو مكيلة معلومة ، وهي ستون صاعًا .

ذات يوم ، إذ وثبت عليه ، فبقرت بطنه ، وهربت ، فجاء ابن عمه يطلبه ، فوجده مُلقًى فتبعها حتى قتلها ، وأنشد يقول :

وَمَنْ يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ
أَعْدَلَهَا لِمَا اسْتَجَارَتْ بَيْتَهُ
وَأَسْمَنَهَا حَتَّى إِذَا مَا تَمَكَّنْتَ
فَقُلْ لِدَوَى الْمَعْرُوفِ : هَذَا جِزَاءُ مَنْ

(وحكى بعضهم) : قال دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة ، وإلى جانبها جُرُودٌ فقالت : أتدري ما هذا ؟ فقلت : لا . قالت : هذا جُرُودٌ أخذناه صغيرا ، وأدخلناه بيتنا ، وربناه ، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى وأنشدت :

بَقَرْتُ شَوِيهَتِي وَفَجَعْتُ قَوْمِي
غُذِيَتْ بِدَرِّهَا وَنَشَأَتْ مَعَهَا
إِذَا كَانَ الطَّبِيعُ طَبِيعَ سَوْءٍ
اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَغْيِ وَأَهْلِهِ ، وَمَنِ الْغَادِرِ وَفَعْلِهِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

الفصل الثاني : في السرقة والسراق

قيل : مر عمر بن عُبيد بجماعة وقوف ، فقال : ما هذا ؟ قيل : السلطان يقطع سارقا . فقال : لا إله إلا الله . سارق العلانية ، يقطع سارق السر . وأمر الاسكندر بصلب سارق ، فقال : أيها الملك ، إني فعلت ما فعلت ، وأنا كاره ، فقال : وتصلب أيضا ، وأنت كاره . وسرق مدني قميصا فأعطاه لابنه يبيعه ، فسُرِق منه ، فجاء له فقال : بكم بيعته ؟ قال : برأس المال . وقال أكتل السلمي - وكان لصا فاتكا - :

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِيَ مِنَ اللَّهِ أَنْ أُرَى
وَأَنْ أَسْأَلَ الْمَرْءَ الدَّنْيَاءَ بِعَيْرِهِ
وَقَالَ الْفِرْزَدَقُ :

وإن أبا الكرشاء^(١) ليس بسارق
ولكن متى ما يسرق القوم يأكل
وكان لعمر بن دويبة البجلي أخ ، قد كَلِفَ^(٢) بنت عم له ، فتسوّر عليها الدار ذات ليلة ، فأخذه إختوها وأتوا به خالد بن عبد الله القسري ، وجعلوه سارقا ، فسأله خالد فصدّهم ليدفع الفضيحة عن الجارية فهم خالد بقطعة ، فقال عمر وأخوه :

أَخَالِدٌ قَدْ وَاللَّهِ أَوْطِئَتْ عَشْوَةٌ
أَقْرَبُ مَالٍ يَأْتُهُ الْمَرْءُ إِنَّهُ
فَعَفَا عَنْهُ خَالِدٌ وَزَوْجُهُ الْجَارِيَةُ :

الفصل الثالث : فيما جاء في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] وقال

(١) الكَرْشَاءُ : القدم التي كثر لحمها واستوى أخمصها وقصرت أصابعها .

(٢) كَلِفَ بنت عم له : أحبها وأولع بها .

تعالى : ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] وقال رسول الله ﷺ : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » ^(١) . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه العداوة تتوارث وقال زياد بن عبد الله :

فلو أنى بليت بهاشمي صبرت على عداوته ولكن
ويث رجل في وجه أبي عبيدة مكروها فأنشأ يقول :

فلو أن لحمي إذ وهى لعبت به
لهون وجدى أو أسلى مصيبتى
وقيل لكسرى : أى الناس أحب إليك أن يكون عاقلا ؟ قال : عدوى . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه إذا كان عاقلا كنت منه فى عافية وأمن . وقيل : كونوا من المرء الدغل ^(٢) أخوف من الكاشح ^(٣) المعلن ، فإن مداومة أهل العلل الظاهرة أهون من مداومة ما خفى وبطن ، وقالوا : إياك أن تعادى . من إذا شاء طرح ثيابه ، ودخل مع الملك فى لحافه ، وقال أبو العتاهية :

تنح عن القبيح ولا ترذه ستلقى من عدوك كل كيد
وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب ، فقتل أخوها زوجها وهى جلى بهجرس بن كليب ، فلما كبر وشب ، قال :

أصاب أبى خالى وما أنا بالذى وأورث جساس بن مرة غصة
ثم قال بعد ذلك :

بالرجال لقلب ما له جلد ثم حمل على خاله فقتله وقال :

ألم ترنى ثارت أبى كليباً غسلت العار عن جسم ابن بكر
وقال الشاعر :

سن العداوة آباء لنا سلفوا ويقال : دار عدوك لأحد أمرين : إما الصداقة تؤمنك ، أو لفرصة تمكنتك .
وكتب سويد إلى مصعب :

فبلغ مصعباً عنى رسولى تعلم أن أكثر من تناجى
وهل تلقى النصيح بكل واد ؟ وإن ضحكوا إليك هم الأعداى !

ويقال : فلان كثير المراق ، مر المذاق . وقال الحجاج لخارجى : والله إنى لأبغضك ! قال : أدخل الله الجنة أشدنا بغضاً لصاحبه .

ولما أراد أنوشروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته ، فأنكروا عليه ، وقال بعضهم : إن أمه

(١) «أعدى عدوك» . الخ رواه البيهقي في الزهد بإسناد ضعيف كما قال العجلوني ، وله شواهد من حديث أنس ، وهذه الرواية هي المشهورة على الألسنة وقد روى «أعدى أعدائك» .

(٢) الدغل : عيب في المرء يفسده .

(٣) الكاشح : العدو المبغض .

تركية ، وقد علمت في أخلاقهم ما علمت ، فقال : إن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، وكانت أم قباذ تركية ، وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم . فقيل : هو قصير ، وذلك يذهب ببهاء الملك ، فقال : إن قصره من رجله ، ولا يكاد يرى إلا جالسا أو راكبا ، فلا يستبين ذلك فيه ، فقيل : هو بغض في الناس فقال : أواه هلك ابني هرمز فقد قيل : إذا كان في الإنسان خير واحد ، ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس ، فلا خير فيه ، وإذا كان فيه عيب واحد ، ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه :

ولست براء عيب ذي الوؤد كله ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تُبدي المساويا
وفي المعنى قيل :

وعين البغض تُبرز كل عيب وعين الحب لا تجد العيوب
وعن أبي حيان قال : قال لقمان : نقلت الصخور ، وحملت الحديد ، فلم أر شيئا أثقل من الدين ، وأكلت الطيبات ، وعانقت الحسان ، فلم أر شيئا ألد من العافية ، وأنا أقول : لو نزحوا البحار ، وكسوا القفار ، لوجدوها أهون من شماتة الأعداء ، خصوصا إذا كانوا مساهمين في نسب ، أو مجاورين في بلد ، اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم ، وسوء الفهم ، وشماتة ابن العم . وقيل لأيوب عليه السلام : أي شيء كان عليك في بلائك أشد ؟ قال شماتة الأعداء ، وأنشد الجاحظ :

تقول العاذلات ^(١) : تسَل عنها وكيف ونظرة منها اختلاسا
وقال ابن أبي جهينة المهلبى :

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الأعداء
وقال الجاحظ : ما رأيت شيئا أنفذ من شماتة الأعداء . وقيل : لما قبض رسول الله ﷺ سمع بموته نساء من كندة وحضرموت ، فخضبن أيديهن ، وضربن بالدفوف ، فقال رجل منهم :

أبلغ أبا بكر إذا ما جثته أن البغايا من بنى مرام
أظهرن في موت النبي شماتة وخضبن أيديهن بالعلم
فاقطع - هُديت أكفهن بصارم كالبرق أومض في متون غمام
فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله فأخذهن ، وقطع أيديهن ^(٣) . ويقال : فلان يتربص بك الدوائر ، ويتمنى لك الغوائل ، ولا يؤمل صلاحا إلا في فسادك ، ولا رفعة إلا في سقوط حالك . وقال حكيم : لا تأمن عدوك وإن كان ضعيفا ، فإن القناة قد تقتل ، وإن عدت السنان ، قال الشاعر :

فلا تأمن عدوك لو تراه أقل إذا نظرت من القراد
فإن الحرب ينشأ من جبان وإن النار تضرم من رماد
وقال الشاعر :

فمن لم يكن منكم مسيئا فإنه يشد على كف المسىء فيجلب
وقال عبد الله بن سليمان بن وهب : وعادة الله في الماضين تكفينا
كفاية الله خير من توقينا

(١) العاذلات : عذله : لأمه ، فهو عاذل ، وهي عاذلة .

(٢) السلو : يقال : أسلى فلانا عن كذا أي جعله يسلو ، وأسلى فلانا من همّه : كشفه عنه .

(٣) لما قبض رسول الله ﷺ إلخ ، لم أعتد إلى من خرج . والعلم : الجثاء .

(٤) القراد : دُويّة متطفلة ذات أرجل كثيرة اغيش على الدواب والطيور .

كاد الأعادي فلا والله ما تركوا
ولم نزد نحن في سر وفي علن
فكان ذاك ورد الله حاسدنا
قولا وفعلنا وتلقينا وتهجيننا
على مقالتنا : يا ربنا اكفيننا
بغيطه لم ينل تقديره فينا

الفصل الرابع: في الحسد

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلٍ ۖ ﴾ [النساء: ٥٤] وقال رسول الله ﷺ : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ؛ فإن كل ذي نعمة محسود »^(١) . وقال علي عليه السلام : الحاسد مغتاز على من لا ذنب له : وقيل : الحسود غضبان على القدر ، ويقال : ثلاثة لا يهنا لصاحبها عيش : الحقد ، والحسد وسوء الخلق .

وقيل : بشس الشعار الحسد ، وقيل لبعضهم : ما بال فلان يبغضك ؟ قال : لأنه شقيقي في النسب ، وجاري في البلد ، وشريكي في الصناعة . فذكر جميع دواعي الحسد . وقال أعرابي : الحسد داء منصف ، يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود ، وهو مأخوذ من الحديث : « قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله »^(٢) . وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي - رحمه الله تعالى - يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود : أولاها : غم لا ينقطع ، والثانية : مصيبة لا يؤثر عليها . الثالثة : مذمة لا يحمد عليها ، الرابعة : سخط الرب . الخامسة : يغلق عنه باب التوفيق .

(ومن ذلك ما حكى) : أن رجلا من العرب دخل على المعتصم ، فقربه ، وأذناه ، وجعله نديمه ، وصار يدخل على حريمه ، من غير استئذان ، وكان له وزير حاسد فغار من البدوي ، وحسده وقال في نفسه : إن لم أحتل على هذا البدوي في قتله ، أخذ بقلب أمير المؤمنين ، وأبعدني منه ، فصار يتلطف بالبدوي ، حتى أتى به إلى منزله ، فطبخ له طعاما ، وأكثر فيه من الثوم ، فلما أكل البدوي منه قال له : احذر أن تقرب من أمير المؤمنين ، فيشم منك رائحة الثوم ، فيتأذى من ذلك فإنه يكره رائحته . ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن البدوي يقول عنك للناس : إن أمير المؤمنين أبخر ، وهلكت من رائحة فمه ، فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين ، جعل كفه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم ، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكفه قال : إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح ، فكتب أمير المؤمنين كتابا إلى بعض عماله يقول له فيه ، إذا وصل إليك كتابي هذا ، فاضرب رقبة حامله ، ثم دعا بالبدوي ، ودفع إليه الكتاب ، وقال له : امض به إلى فلان ، واتنى بالجواب ، فامثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين ، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده ، فبينما هو بالباب ، إذ لقيه الوزير فقال : أين تريد ؟ قال : أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان ، فقال الوزير في نفسه : إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل ، فقال له يا بدوي : ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ، ويعطيك ألفي دينار ؟ فقال : أنت الكبير ، وأنت الحاكم ، ومهما رأيته من الرأي ، افعل . قال : أعطني الكتاب ، فدفعه إليه فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده ، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير ، فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي ، وسأل عن الوزير ، فأخبر بأن له أياما ما ظهر ؛ وأن البدوي بالمدينة مقيم ، فتعجب من ذلك ، وأمر بإحضار البدوي فحضر ، فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها ، فقال له : أنت قلت عني للناس : إنني أبخر ؟! فقال : معاذ الله يا أمير المؤمنين . أن أتحدث بما ليس لي به علم . وإنما كان ذلك مكرًا منه وحسدًا وأعلمه كيف دخل به إلى بيته ، وأطعمه الثوم ، وما جرى له معه ، فقال أمير المؤمنين : « قاتل الله الحسد ، ما أعدله ! بدأ بصاحبه فقتله » . ثم خلع على البدوي ، واتخذ وزيرًا وراح الوزير بحسده . وقال المغيرة شاعر آل المهلب :

(١) «استعينوا... إلخ» قال العجلوني: رواه الطبراني وأبو نعيم بسند ضعيف عن معاذ بن جبل رفعه، وكذا البيهقي وابن أبي الدنيا والعسكري بسند فيه سعيد بن سلام كذبه أحمد ثم قال وله طريق أخرى عند الخلعي في فوائده عن علي رفعه «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان لها».

(٢) «قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله». لم أقف عليه.

آل المُهْلَبِ قَوْمٌ إِنْ مَدَحْتَهُمْ كَانُوا الْأَكْثَارَ أَبَاءً وَأَجْدَادًا
إِنَّ الْعِرَانِينَ^(١) تَلَقَّاهَا مُحْسَدَةً وَلَا تَرَى لِلنَّاسِ حُسَادًا

وقال عمر رضي الله عنه : يكفيك من الحاسد أنه يغمم وقت سرورك . وقال مالك ابن دينار : شهادة القراء مقبولة في كل شيء إلا شهادة بعضهم على بعض ، فإنهم أشدّ تحاسداً من التيوس . وعن أنس رضي الله عنه ورفعته « إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ »^(٢) . وقال منصور الفقيه :

مُنَافَسَةُ الْفَتَى فِيمَا يَزُولُ عَلَى نُقْصَانِ هِمَّتِهِ دَلِيلُ
وَمُخْتَارُ الْقَلِيلِ أَقَلُّ مِنْهُ وَكُلُّ فَوَائِدِ الدُّنْيَا قَلِيلُ

يقول الله - عز وجل - : « الحاسد عدو نعمتي ، متسخط لفعلي غير راض بقسمتي ، التي قسمت لعبادي »^(٣) . قال الشاعر :

أَيَا حَاسِدًا لِي عَلَى نِعْمَتِي أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتُ الْأَدَبَ ؟ !
أَسَأْتُ عَلَى اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ !
فَأَخْزَاكَ رَبِّي بِأَنْ زَادَنِي وَسَدَّ عَلَيْكَ وَجْهَ الْطَلَبِ !

وقال الأصمعي : رأيت أعرابيا قد بلغ عمره مائة وعشرين سنة ، فقلت له : ما أطول عمرك ، فقال : تركت الحسد فبقيت ، وقالوا : لا يخلو السيد من ودود يمدح ، وحسود يقذح ! وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ألا لا تعادوا نعم الله ؟ قيل : وما ومن يعادي نعم الله ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . وقيل : لعبد الله بن عروة : لم لزمت البدو ، وتركت قومك ؟ فقال : وهل بقي إلا حاسد على نعمة أو شامت على نكبة ؟ ! وقال الشاعر :

يَا طَالِبَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَا رَغْدًا بِلَا قَتَرٍ ، صَفْوًا بِلَا رَنْقٍ^(٤)
خَلِّصْ فُؤَادَكَ مِنْ غُلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ فَالْغُلُّ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ الْغُلِّ فِي الْعُنُقِ !

وقال آخر :

اصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الْحَسَوِ ذِ فَإِنْ صَبَرَكَ قَاتَلَهُ
كَالنَّارِ تَأْكُلُ بَعْضُهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ
وَفِي نَوَابِغِ الْحِكْمِ : الْحَسَدُ حَسَكٌ^(٥) ؛ مِنْ تَعَلَّقَ بِهِ هَلَكَ . ول بعضهم :

إِنِّي حُسَدْتُ فَرَادَ اللَّهِ فِي حَسَدِي لَا عَاشَ مِنْ عَاشٍ يَوْمًا غَيْرَ مُحْسُودٍ
وقال نصر بن سيار :

إِنِّي نَشَأْتُ وَحُسَادِي ذُوو عَدَدٍ يَإِذَا الْمَعَارِجُ لَا تُنْقِصُ لَهُمْ عَدَدًا
إِنْ يَحْسُدُونِي عَلَى مَا بِي لِمَا بِهِمْ فَمِثْلُ مَا بِي مِمَّا يَجْلِبُ الْحَسَدَا

وكان عمر رضي الله عنه يقول : نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد . وقيل لأرسطاطاليس : ما بال الحسود أشد غما ؟ قال : لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا ، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) العرانيين : جمع عرّنين ، ويقال : هم شَمَّ العرّانيين : أعزّة أباء ، وعرّانيين القوم : ساداتهم وأشرافهم .

(٢) إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ . . إلخ . قال العجلوني : رواه أبو داود .

(٣) يقول الله عز وجل « الحاسد عدو . . إلخ » . لم أقف عليه .

(٤) بلا قَتَرٍ : بلا ضيق . بلا رَنْقٍ : بلا تكدير .

(٥) الْحَسَكُ : نبات له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل ، ومن الحديد ما يعمل على مثال الحسك ، كان يُلقى حول العنكر ويُبث في مداخل الخيل فينشب في حوافرها .

الباب الأربعون

في الشجاعة وثمرتها ، والحروب وتديبيرها ، وفضل الجهاد
وشدة البأس ، والتحريض على القتال وفيه فصولان

الفصل الأول : في فضل الجهاد في سبيل الله وشدة البأس

قد أثنى الله تعالى على الصابرين في البأساء والضراء^(١) . وحين البأس ، ووصف المجاهدين فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُورٌ ﴾ [الصف: ٤] وندب إلى جهاد الأعداء ، ووعد عليه أفضل الجزاء ، والرأى في الحرب أمام الشجاعة . قال رسول الله ﷺ : « الْحَرْبُ خِذْعَةٌ »^(٢) . وقال ﷺ : « مَا مِنْ قَطْرَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةٍ دَمٍ فِي سَبِيلِهِ أَوْ قَطْرَةٍ دَمْعٍ فِي جَوْفِ لَيْلٍ مِنْ خَشْيَتِهِ »^(٣) . وسمع رجل عبد الله بن قيس ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلِّ السُّيُوفِ »^(٤) . فقال يا أبا موسى . أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال : نعم . فرجع إلى أصحابه ، فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه ، فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو ، فضرب به حتى قتل ، وكتب أبو بكر الصديق ﷺ إلى خالد بن الوليد : أعلم أن عليك عيونا من الله ترعاك ، وتراك فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ، ولا تغسل الشهداء من دمائهم ، فإن دم الشهيد يكون له نورا يوم القيامة ، وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ حين انتهينا إلى خيبر : « اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَنَاءَ صَبَاحَ الْمُنْذِرِينَ »^(٥) . وعنه رفعه « لَفُذُوهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »^(٦) . وعن ابن مسعود رفعه « إِنَّ أَزْوَاجَ الشَّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضِرَ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ »^(٧) .

وقيل : إن أنس بن النضر عم أنس بن مالك ﷺ لم يشهد بدرا ، فلم يزل متحسرا يقول : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه ، فلما كان يوم أحد قال ، وأها لريح الجنة دون أحدٍ فقاتل ، حتى قتل ، فوجد في بدنه بضعة وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته ، الربيع بنت النضر ، فما عرفت أخى إلا بينانه . وعن فضالة بن عبيد رفعه « كل ميت يختم على عمله إلا المرباط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر »^(٨) ، وعن سهل بن حنيف رفعه « مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ »^(٩) . فنسأل الله أن يرزقنا الشهادة ، ويجعلنا من الذين أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة .

(١) في الآية رقم [١٧٧] من سورة البقرة .

(٢) « الحرب خدعة » قال العجلوني : متفق عليه عن أبي هريرة [وخدعة مثلث الخاء والفتح أشهر ، والدال ساكنة فيهن ، ويجوز مع الضم فتح الدال] .

(٣) قال ﷺ : « مَا مِنْ قَطْرَةٍ .. إلخ . انظر : « إتحاف السادة المتقين » للزبيدي [٢١٤/٩] .

(٤) « إن الجنة تحت ظلال .. إلخ » ذكره العجلوني برقم [١٠٨٢] بلفظ « الجنة تحت ظلال السيوف » وقال : رواه الحاكم عن أبي موسى ، وفي رواية البخاري « الجنة تحت بارقة السيوف » وفي رواية له عن أبي أوفى مرفوعا بلفظ « اعلمو أن الجنة تحت ظلال السيوف » . والحديث الذي ذكره المصنف رواه مسلم عن أبي موسى بتمامه .

(٥) وعن أنس .. إلخ . أخرجه البخاري [١٠٥/١] ، ومسلم [١٤٥/٤] ، وأحمد [١٨٥/٥] ، والنسائي [٢٠٤/٧] ، وغيرهم . وانظر : « إرواء الغليل » [٣٠١/١] .

(٦) وعنه رفعه إلخ .. أخرجه البخاري [٢٧٩٦] ، ومسلم [١٨٨٠] ، والترمذي [١٦١٥] ، وأحمد [١٤١/٣] .

(٧) وعن ابن مسعود رفعه « إن أرواح الشهداء .. إلخ » أخرجه مسلم : [١٢١/١٨٨٧] .

(٨) وعن فضالة . إلخ . أخرجه أبو داود [٢٥٠٠] ، والترمذي [١٦٢١] ، والبخاري في « الأدب المفرد » [٩٩٦] ، [٩٩٨] ، [٩٩٩] ، وأحمد [٢٩/٦] ، والحاكم [٧٩/٢] ، وابن حبان [٤٦٢٤] - إحصان .

(٩) وعن سهل بن حنيف رفعه إلخ . أخرجه مسلم [١٩٠٩] ، وأبو داود [١٥٢٠] . والترمذي [١٦٥٣] ، والنسائي [٣٧/٦] ، وابن ماجه [٢٧٩٧] .

الفصل الثاني : فى الشجاعة وثمرتها ، والحروب وتدبيرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل ، ومن فقدوها لم تكمل فيه فضيلة ، ويعبر عنها بالصبر وقوة النفس . قال الحكماء : وأصل الخير كله فى ثبات القلب ، والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : إذا التقى الجمعان وتزاحف العسكران ، وتكالححت الأحداق^(١) بالأحداق برز من النصف إلى وسط المعترك يحمل ويكر ، وينادى : هل من مبارز ؟

والثانى : إذا نشب القوم ، واختلطوا ، ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت ؟ يكون رابط الجأش ، ساكن القلب ، حاضر اللب ، لم يخالطه الدهش ، ولا تأخذه الحيرة ، فيتقلب تقلب المالك لأمواره ، القائم على نفسه .

والثالث : إذا انهزم أصحابه ، يلزم الساقة^(٢) ، ويضرب فى وجوه القوم ، ويحول بينهم وبين عدوهم ، ويقوى قلوب أصحابه ، ويرجى الضعيف ، ويمدهم بالكلام الجميل ، ويشجع نفوسهم ، فمن وقع أقامه ، ومن وقف حملة ، ومن كبابه فرسه حماه حتى يئأس العدو منهم ، وهذا أحمدهم شجاعة ، وعن هذا قالوا : إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم .

(وحكى) سيدى أبو بكر الطرطوشى - رحمة الله تعالى عليه - فى كتابه سراج الملوك قال : كان شيوخ الجند يحكون لنا فى بلادنا قالوا : دارت حرب بين المسلمين والكفار ، ثم افترقوا فوجدوا فى المعترك قطعة خودة قدر الثلث بما حوته الرأس ، فقالوا إنه لم يرقط ضربة أقوى منها ، ولم يسمع بمثلها فى جاهلية ولا إسلام ، فحملتها الروم وعلقتها فى كنيسة لهم ، فكانوا إذا غيروا بانهمزاهم ، يقولون : لقينا أقواما هذا ضربهم ، فيرحل أبطال الروم . إليها ليروها ، قالوا : ومن الحزم أن لا يحتقر الرجل عدوه وإن كان ذليلا ، ولا يغفل عنه ، وإن كان حقيرا فكهم برغوث أسهر فيلا ، ومنع الرقاد ملكا جليلا . قال الشاعر :

فلا تحقرن عدوًا رماك وإن كان فى ساعديه قصر
فإن السيوف تحز الرقاب وتمجز عما تنال الإبر !!

واعلموا أن الناس قد وضعوا فى تدبير الحروب كتبًا ، ورتبوا فيها ترتيبًا ولتصف منها أشياء نبدأ منها أولا : بما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم قال الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] . فقله تعالى : ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ . مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة ، والحيلة وفسر النبى ﷺ : القوة حين مر على أناس يرمون فقال : « أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ »^(٣) . وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملا صالحا ، من صدقة ، وصيام ، ورد المظالم ، وصلة الرحم ، ودعاء مخلص ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وأمثال ذلك .

والشأن كل الشأن فى استجادة القواد ، وانتخاب الأمراء ، وأصحاب الأولوية ، فقد قالت حكماء العجم : أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد ، فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة والنجدة والشجاعة والجرأة ، ثابت الجأش ، صارم القلب ، صادق البأس ، ممن قد توسطت الحروب ومارس الرجال ، ومارسوه ، ونازل الأقران ، وقارع الأبطال عارفا بمواضع الفرص ، خبيرا بمواقع القلب والميمنة والميسرة من الحروب ، فإنه إذا كان كذلك وصدر الكل عن رأيه ، كانوا جميعا كأنهم مثله ، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهًا وإلا رد الغنم إلى الزريبة . واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء . وكان عظماء الترك يقولون : ينبغي للعاقل العظيم القيادة أن يكون فيه عدة أخلاق من أخلاق البهائم : شجاعة الديك ، وبحث الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحيلة الخنزير ، وروغان

(١) تكالححت: تبادل العيوس والمواجهة فى عنف وشدة وكرامية وبغضاء .

(٢) الساقة: من الجيش: مؤخره .

(٣) ألا إن القوة . إلخ . أخرجه مسلم [٣١٧/١٩١٧] ، وأبو داود [٢٥١٤] ، وابن ماجه [٢٨١٣] .

الثعلب ، وصبر الكلب على الجراح ، وحراسة الكركي ^(١) ، وغارة الذئب وسمن نُغَيْر : وهى دويبة تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء .

وكان يقال : أشد خلق الله تعالى عشرة : الجبال ، والحديد ينحت الجبال ، والنار تأكل الحديد ، الماء يطفى النار ، والسحاب يحمل الماء ، والريح تصرف السحاب ، والإنسان يتقى الريح بجناحيه ، والسكر يصرع الإنسان ، والنوم يذهب السكر ، والهيم يمنع النوم . فأشد خلق ريك الهيم . اللهم إنا نعوذ بك من الهيم والحزن .

ومن الحيل فى الحرب أن ييث جواسيسه فى عسكر عدوه ، ليستعلم أخبارهم ، ويستميل قلوب رؤسائهم ، وذوى الشجاعة منهم ، فيدس إليهم ، ويعدهم وعدا جميلا ، ويقوى أطماعهم فى نيل ما عنده من الهبات الفخيمة ، والولايات السنية ، وإن رأى وجها عاجلهم بالهدايا ، وسامهم إما الغدر بصاحبهم ، وإما الاعتزال وقت اللقاء ، ويكتب على السهام أخبارا مزورة ، ويرمى بها فى جيوشهم ، واعلم : أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر ، وأن الدول إذا زالت صارت حياتها وبالأعلى عليها ، وإذا أذن الله تعالى فى حلول البلاء ، كانت الآفة فى الحيلة . وقال الحكماء : إذا نزل القضاء ، كان العطب فى الحيلة ، ويغلب الضعيف بإقبال دولته ، كما يغلب القوى ببقاء مدته . فمن الحزم المألوف عند سؤاس ^(٢) الحروب أن تكون حماة الرجال ، وكُماة الأبطال فى القلب ، فإنه إذا انكسر الجناحان ، كانت العيون ناظرة إلى القلب ، فإذا كانت رأيته تخفق ، طوله تضرب ، كان حصنا للجناحين ، يأوى إليه كل منهزم ، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان ، مثال ذلك : أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه تُرجى عودته ولو بعد حين وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان ، وقُلَّ عسكرُ انكسر قلبه فأفلح أو تراجع ؛ اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش ، فيخلى القلب قصدا وتعمدا ، حتى إذا توسطه العدو واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان ، فقد فعل ذلك رجل من أهل الحروب . ويقال : حُبب إلى عدوك الفرار بأن لا تتبعهم إذا انهزموا ، ويقال : الشجاع محبب حتى إلى عدوه ، والجبان مبغض حتى إلى أمه .

ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه : أما تستعد ؟ قال : عدتى ثبات قلبى ، وإصابة رأى ، ونصل سيفى ، ونصرة خالقي .

وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره ، وعليه درع ، وذلك فى أيام قتال يزيد ابن المهلب فأنشده مسلمة قول الحطيئة :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأظهار !

فقال يزيد : إنما ذاك إذا حاربنا أكفأنا ، وأما مثل هذا ونظرائه فلا ، فقام إليه مسلمة فقبله بين عينيه .

وقيل : لما مات ملك الفرس ، أرادوا أن يملكوا عليهم رجلا من آل ساسان ، فوفد عليهم بهرام جور فقال : اعمدوا إلى أسدين جائعين ، فاطرحوا بينهما التاج ، فمن أخذه فهو الملك ، ففعلوا ، فدنا منهما فأهوى نحوه ، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ، ثم نظم به ، فقتلهما جميعا وشد على التاج ، فأخذه ووضع على رأسه وملكته الفرس عليهم .

وقيل : لم يكن فى العجم أرمى من الملك بهرام ؛ خرج يتصيد يوما وهو مردف ^(٣) حظية له كان يعشقها ، فعرضت له ظباء فقال : فى أى موضع تريد أن أضع هذا السهم ؟ فقالت : أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث وإنائها بالذكور ، فرمى ظبيا ذكرا بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه ، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما فى موضع القرنين ، ثم سأله أن يجمع بين ظلف الطي وأذنه بنشابة فرمى أصل الأذن ببندقة ^(٤) ، ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه .

(١) الكركي: طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أبتز الذئب، قليل اللحم، والجمع كراكي.

(٢) السؤاس: جمع سانس وهم الساسة أصحاب الرأي والتدبير، والكُماة: جمع كَمَى وهو البطل المدمج بالسلاح.

(٣) مردف حظية له: الحظية: وهي المرأة التي تفضل على غيره. وأردفها أركبها خلفه.

(٤) البندقة: كرة في حجم البندقة يرمى بها في القتال. والنشابة واحدة النشاب وهو النبل.

ويقال : إن من أعظم المكاييد في الحرب « الكمين » ، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع ، وحمى الذمار^(١) حتى يلتفت فيرى وراءه بنداً منشورا ويسمع صوت الطبل ، فحينئذ يكون همه خلاص نفسه ، وعليك بانتخاب الفرسان ، واختيار الأبطال ، ولا تنس قول الشاعر :

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عني

بل قد جُرب ذلك فوجد الواحد خيرا من عشرة آلاف ، وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب فمن ذلك لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية بن روميل النصراتي على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس ، وكان العسكران كالمكافئين ، كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل خيل ورجل ، فحدث من حضر الواقعة من الأجناد قال : لما دنا اللقاء قال الطاغية ابن روميل : لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله : استعلم لى من فى عسكر المسلمين ، من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا ؟ ومن غاب منهم ؟ ومن حضر ؟ فذهب ثم رجع ، فقال : فيهم فلان وفلان فعَدَّ سبعة رجال ، فقال له : انظر من فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة ، ومن غاب منهم ، فعَدَّهم فوجدهم ثمانية رجال ، لا يزيدون فقال الطاغية ضاحكا مسرورا وهو يقول : ما أبيضك من يوم ! ثم ثارت الحرب بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم ذُبْرَه ، ولا ترحزح عن مقامه ، حتى فنى أكثر العسكرين ، ولم يفر واحد منهم ، قال : فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة ، ثم حملوا علينا جملة وداخلونا مداخله ، ففرقوا بيننا ، وصرنا شطرين ، وحالوا بيننا وبين أصحابنا ، فكان ذلك سبب وهتنا وضعفنا ، ولم تقم الحرب إلا ساعة ، ونحن فى خسارة معهم ، فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه ، وانكسر عسكر المسلمين ، وتفرق جمعهم ، وملك العدو مدينة وشقة ؛ فليعتبر ذو الحزم والبصيرة من جمع ، يحتوى على أربعين ألف مقاتل ، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرا ، وليعتبر بضمان العُلج بالظفر ، واستبشاره بالغنيمة ، لما زاد فى أبطاله رجل واحد .

(وحكى) : سيدى أبو بكر الطرطوشى - رحمة الله تعالى عليه - قال : سمعت أستاذنا القاضى أبا الوليد يحيى قال : بينما المنصور بن أبى عامر فى بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع ، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وقد ملثوا السهل والجبل ، فالتفت إلى مُقَدِّم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضجعى ، فقال له : كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير ؟ قال : أرى جمعا كثيرا ، وجيشا واسعا كبيرا ، فقال له المنصور : ما ترى ؟ هل يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة ؟ فسكت ابن المضجعى ؛ فقال له المنصور : ما سكوتك ؟ أليس فى هذا الجيش ألف مقاتل ؟ قال : لا . فتعجب المنصور ! ثم قال : فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين ؟ قال : لا . فحقق المنصور . ثم قال : أففيهم مائة رجل من الأبطال ؟ قال : لا . قال : أففيهم خمسون رجلا من الأبطال ؟ قال : لا . قال : فسبه المنصور ، وأغلظ عليه ، وأمر به فاخرج على أسوأ حال ، فلما توسطوا بلاد الروم ، اجتمعت الروم ، وتضاف الجمعان فبرز علج^(٢) من الروم ، بين الصّفين ، شاكى السلاح ، وجعل يكر ويفر ، ويقول : هل من مبارز ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة ، فقتله العُلج ، ففرح المشركون ، وصاحوا واضطرب المسلمون لها ، ثم جعل العُلج يموج بين الصّفين وينادى : هل من مبارز اثنين لواحد ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العُلج ، وجعل يكر ، ويحمل ، وينادى ، ويقول : هل من مبارز ثلاثة : لواحد ؟ فبرز إليه رجل من المسلمين ، فقتله العُلج ، فصاح المشركون ، وذلّ المسلمون ، وكادت أن تكون كسرة ، فقبل للمنصور : مالها إلا ابن المضجعى ، فبعث إليه ، فحضر فقال له المنصور : ألا ترى ما يصنع هذا العُلج الكلب منذ اليوم ؟! فقال : لقد رأيته فما الذى تريد ؟ قال : أن تكفى المسلمين شره . قال : الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى ، ثم قصد إلى رجال يعرفهم فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهوّت أوراكاها هزالا ، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس ، والرجل فى حليته ونفسه غير متصنع ، فقال له ابن المضجعى : ألا ترى ما يصنع هذا العُلج منذ اليوم ؟ قال : قد رأيت فما الذى تريد ؟ قال : أريد أن تكفى

(١) الذمار: العهد، والبند: العلم الكبير.

(٢) العُلج: كل جاف شديد من الرجال، وشاكي السلاح: تام السلاح كامل الاستعداد.

المسلمين شره ، قال : حُبًا وكرامة ، ثم إنه وضع القربة بالأرض وبرز إليه غير مكتثر به ، فتجاولا ساعة فلم ير الناس إلا المسلم خارجا إليهم يركض ولا يدرون ما هناك ، وإذا برأس العليج يلعب بها في يده ، ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور ، فقال له ابن المضجعي : عن هؤلاء الرجال أخبرتك . قال : فرد ابن المضجعي إلى منزله ، وأكرمه ، ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين .

(وحكى) : أنه كان للعرب فارس يقال له : ابن فتحون ، وكان أشجع العرب والعجم في زمانه ، وكان المستعين يكرمه ، ويعظمه ، ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار ، وكانت جيوش الكفار تهابه ، وتعرف منه الشجاعة ، وتخشى لقاءه ، فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له : ويلك لم لا تشرب . هل رأيت ابن فتحون في الماء ؟! فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلة من السلطان ، فوشوا به عند المستعين ، فأبعده ومنعه من عطائه ، ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم ، فتقابل المسلمون والمشركون صفوفًا ، ثم برز عليج إلى وسط الميدان ونادى ، وقال : هل من مبارز ؟ فبرز إليه فارس من المسلمين ، فتجاولا ساعة ، فقتله الرومي ، فصاح المشركون سرورا ، وانكسرت نفوس المسلمين ، وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفيين ، وينادى : هل من اثنين لواحد ، فخرج إليه فارس من المسلمين ، فقتله الرومي ، فصاح الكفار سرورا ، وانكسرت نفوس المسلمين ، وجعل الكلب يجول بين الصفيين ، وينادى ويقول : ثلاثة لواحد ، فلم يجترئ أحد من المسلمين أن يخرج إليه ، وبقي الناس في حيرة ، فقيل للسلطان مالها إلا أبو الوليد بن فتحون ، فدعاه وتلطف به ، وقال له : يا أبا الوليد ، أما ترى ما يصنع هذا العليج ؟ فقال : ها هو بعيني ، قال : فما الحيلة فيه ؟ قال الساعة أكفى المسلمين شره ، فلبس قميص كتان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح ، وأخذ بيده سوطا طويلا ، وفي طرفه عقدة معقودة ، ثم برز إليه فتعجب منه النصراني ، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه ، فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون ، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ، ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج ، ثم انقلب في سرجه ، وحمل على العليج ، وضربه بالسوط فالتوى على عنقه ، فجذبه بيده من السرج ، فاقتلعه وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدي المستعين ، فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون ، فاعتذر إليه ، وأكرمه ، وأحسن إليه ، وبالف في الإنعام عليه ، وردّه إلى أحسن أحواله ، وكان من أعز الناس إليه .

وينبغي لقائد الجيش أن يخفى العلامة التي هو مشهور بها فإن عدوّه قد يستعلم حليته ، وألوان خيله ورايته ، ولا يلزم خيمته ليلا ولا نهارا وليبدل زيه ، ويغير خيمته كي لا يلتصق عدوّه غرة منه ، وإذا سكن الحرب ، فلا يمشى في النفر اليسير من قومه خارج عسكريه ، فإن عيون عدوّه متجسّسة عليه ، وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش إفريقية عند فتحها ، وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار ، فجعل مقدم العدو يمشى خارج عسكريه ، يتميز عساكر المسلمين ، فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرح ، وهو نائم في قبته ، فخرج فيمن وثق به من رجاله ، وحمل على العدو فقتل الملك ، وكان الفتح ، وبمثل هذا قهر إلب أرسلان ملك الترك ، ملك الروم وقمعه ، وقتل رجاله ، وأباد جمعه ، وكانت الروم قد جمعت جيوشًا يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلها ، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل ، كتائب متواصلة ، وعساكر مترادفة ، وكراديس^(١) يتلو بعضها بعضًا لا يدركهم الطرف ، ولا يحصيهم العدد ، وقد استعدوا من الكراع^(٢) ، والسلاح والمجانيق والآلات المعدة للحروب ، وفتح الحصون بما لا يحصى ، وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين الشام والعراق ومصر وخراسان وديار بكر ، ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم ، وأن نجوم السعود قد خدمتهم ، ثم استقبلوا بلاد المسلمين ، فتواترت أخبارهم ، إلى بلاد المسلمين ، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام ، فاحتشد للقائهم الملك إلب أرسلان ، وهو الذي يسمى الملك العادل ، وجمع جموعه بمدينة أصبهان ، واستعد بما قدر عليه ، ثم خرج يؤمهم ، فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين ، وقالوا لإلب أرسلان : غدا يترأى الجمعان ، فبات المسلمون ليلة الجمعة ، والروم في عدد لا يحصيهم إلا الله الذي خلقهم ، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع ، فبقى المسلمون وجلين لما دهمهم ، فلما أصبحوا صباح

(٢) الكراع: الخيل.

(١) الكراديس: جمع كردوس القطعة من الجيش.

يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض ، فهال المسلمين ما رأوا من كثرة العدو ، فأمر إلب أرسلان أن يعدّ المسلمون ، فبلغوا اثني عشر ألفاً ، فكانوا كالشامة البيضاء في الثور الأسود ، فجمع ذوى الرأي من أهل الحرب والتدبير ، والشفقة على المسلمين ، والنظر في العواقب ، واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي ، فشاؤروا برهة ، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء ، فتوابع القوم ، وتحالّلوا ، وناصحوا الإسلام ، وأهله وتأهبوا أهبة اللقاء ، وقالوا لإلب أرسلان : باسم الله نحمل عليهم ، فقال إلب أرسلان : يا معشر أهل الإسلام ، أمهلوا فإن هذا يوم الجمعة ، والمسلمون يخطبون على المنابر ، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها ، فإذا زالت الشمس وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ، ودعوا الله أن ينصر دينه ، حملنا عليهم إذ ذاك ، وكان إلب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم ، وعلامته وزيه ، وزيتته ، وفرسه ، ثم قال لرجاله : لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلى ، ويتبع أثرى ، ويضرب بسيفه ، ويرمى بسهمه ، حيث أضرب بسيفى ، وأرمى بسهمى ، ثم حمل برجاله حملة رجل واحد إلى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها وجعلوا ينادون الروم ، قتل الملك ، قتل الملك ، فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل ، فتبدّدوا ، وتمزقوا كل ممزق ، وعمل السيف فيهم أياما ، وأخذ المسلمون أموالهم ، وغنائمهم ، وأتوا بالملك أسيرا بين يدي إلب أرسلان ، والجبل في عنقه ، فقال له إلب أرسلان : ماذا كنت تصنع بى لو أسرته ؟ قال : وهل تشك أننى كنت أقتلك ؟ فقال له : إلب أرسلان أنت أقل في عيني من أن أقتلك ؟ اذهبوا به فبيعوه لمن يزيد فيه ، فكان يقاد والجبل في عنقه ، ويتأدى عليه ، من يشتري ملك الروم ؟ وما زالوا كذلك ، يطوفون به على الخيام ، ومنازل المسلمين ، وينادون عليه بالدراهم ، والفلوس ، فلم يدفع فيه أحد شيئا ، حتى باعوه من إنسان بكلب فأخذه الذى ينادى عليه ، وأخذ الكلب ، وأتى بهما إلى إلب أرسلان ، وقال : قد طفت به جميع العسكر ، وناديت عليه فلم يبذل أحد فيه شيئا سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب ، فقال : قد أنصفك إن الكلب خير منه ، ثم أمر إلب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه ، وذهب إلى القسطنطينية ، فعزلته الروم ، وكحلوه بالنار . فانظر ماذا يأتى على الملوك إذا عرفوا في الحرب من الحيلة والمكيدة ! اللهم انصر جيوش المسلمين ، وعساكر الموحدين ، وأهلك الكفرة والمشركين ، وانصر المسلمين نصرا عزيزا يرحمك ، يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . والحمد لله رب العالمين .

الباب العاوى والأربعون

فى ذكر أسماء الشجعان ، وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم ، وذكر الجبناء وأخبارهم ، وذم الجبن

● الطبقة الأولى الذين أدركوا الجاهلية والإسلام :

- [١] : حمزة بن عبد المطلب ﷺ ، عم رسول الله ﷺ ، أسد الله ، وأسد رسوله ، قتل فى غزوة أحد ، رماه وحشى ، مولى جُبَيْر بن مطعم ، بحربة فقتله . وكان فارس قریش غير مدافع ، وبطلها غير ممانع ، وعظم قتله على النبى ﷺ ، ونذر أن يقتل به سبعين رجلا من قریش ، وكبر عليه فى الصلاة ^(١) سبعين تكبيرة .
- [٢] : أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ ، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها ، وهو المتقدم على ذوى الشجاعة كلهم بلا مرية ولا خلاف ، روى عنه ﷺ أنه قال : والذى نفسى ابن أبى طالب بيده لألف ضربة بالسيف ، أهون على من موته من على فراش ! وقال بعض العرب : ما لقينا كتيبة فيها على بن أبى طالب ﷺ إلا أوصى بعضنا على بعض .

(١) وعظم قتله على النبى ﷺ الخ . الذى فى «تاريخ الطبرى» أنه قال : «ولئن أنا أظهرنى الله على قریش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم» ، ثم وجدته بلفظ السبعين رجلا عند البزار كما فى «تفسير ابن كثير» [٥٩٢/٢] عن أبى هريرة بسند ضعيف جداً ، فيه صالح المري ، متروك الحديث .

وقال ﷺ لمعاوية : قد دعوت الناس إلى الحرب فدع الناس جانباً واخرج إلى ليعلم أين المران على قلبه ، والمغطى على بصره ، وأنا أبو الحسن قاتل جدك ، وخالك ، وأخيك شدخاً يوم بدر ، وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوى وقيل له ﷺ : إذا جالت الخيل فأين نطلبك ؟ قال : حيث تركتموني ، وقيل له : كيف كنت تقتل الأبطال ؟ قال : لأنني كنت ألقى الرجل فأقدر أني أقتله ، ويقدر هو أني قتله ، فأكون أنا ونفسه عوناً عليه . وقال مصعب ابن الزبير : كان علي ﷺ حذار في الحروب ، شديد الروغان ، لا يكاد أحد يتمكن منه ، وكانت درعه صدرها لا تظهر لها ، فقيل له : أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك ؟ فقال : إذا مكنت عدوى من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقى علي . قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي - لعنة الله تعالى عليه - غدره ، وهو في صلاة الصبح ، وسبب ذلك : أن عبد الرحمن بن ملجم - لعنة الله - تزوج بقطام بنت علقمة ، وكانت خارجية ، فقالت له : لا أقنع إلا بصداق أسقيته : وهو ثلاثة آلاف درهم ، وعبد ، وأمة ، وأن تقتل علي بن أبي طالب ، فقال لها : لك ما سألت إلا علي بن أبي طالب . وكيف لي به ؟ قالت : تغتاله ، فإن سلمت ، أرحت الناس من شره ، وأقمت مع أهلك ، وإن أصبت دخلت الجنة فقال :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المخذم^(١)
فلا مهر أغلى من علي وإن علا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم !

وقيل : إنه طعنه وهو داخل المسجد في الغلس^(٢) ، وذلك في تاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين . كفن ﷺ في ثلاثة أثواب ، ودفن في الرحبة مما يلي باب كندة من أبواب المسجد . قالوا : ولما ضربه ابن ملجم - لعنة الله - ثار الحسن ، والحسين ، وعبد الله بن جعفر ﷺ فاحتضنوه ، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب ، فأخذه ، فأومأ علي ﷺ إلى المغيرة أن صل بالناس ، فصلى بهم الفجر ، وأقبلت همدان فدخلوا علي علي فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى ، فقال : لا تفعلوا إنما النفس بالنفس . قال : ثم إن الحسن ﷺ ، صلى الفجر وصعد المنبر ، فأراد الكلام فخنقته العبرة ، ثم نطق فقال : الحمد لله على ما أحينا وكرهنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ، وإنني أحسب عند الله - عز وجل - مصابى بأفضل الآباء صهر رسول الله القاتل ﷺ : « من أصيب بمصيبة فليستل بمصيبته في فإنها أعظم المصائب »^(٣) . والله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل علي عبده الفرقان ، لقد قبض في هذه الليلة رجل ماسقه الأولون بعد رسول الله ﷺ ، ولا يدركه الآخرون فعند الله نحسب ما دخل علينا ، وعلى جميع أمة محمد ﷺ ، فوالله لا أقول اليوم إلا حقاً ، لقد دخلت مصيبته اليوم ، على جميع العباد والبلاد والشجر والدواب ، ولقد قبض في الليلة التي رفع فيها عيسى بن مريم عليهما السلام إلى السماء ، وقبض فيها موسى بن عمران ، ويوشع بن نون ، وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ ، ولقد كان رسول الله ﷺ يبعثه في السرية ، ويسير جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فما يرجع حتى يفتح الله - عز وجل - على يديه ، وما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم ، أراد أن يتاع بها خادماً لأهله . ألا إن أمور الله تعالى تجري على أحوالها ، فما أحسنها من الله وأسوأها من أنفسكم ، ألا إن قریشاً أعطت أزمته^(٤) شياطينها ، فقادت بها بعتها إلى النار ، فمنهم من قاتل رسول الله ﷺ ، حتى أظهره الله تعالى عليه ، ومنهم من أسر الضغينة حتى وجد علي النفاق أعواناً ، رفع الكتاب ، وجف القلم . وأمور تقضى في كتاب قد خلا . ثم أطرق الحسن ، فبكى الناس بكاء شديداً ، ثم نزل فجرد سيفه ، ودعا بابين ملجم ، فأقبل يخطر واضعاً شعره على أذنيه ، حتى قام بين يديه فقال : يا حسن ، إنني ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به ، عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك ، وقد قتلته فإن تخلى أقتل معاوية ، فإن أنا قتلت أضع يدي على يدك ، وإن أقتل فهو الذي تريد ! فقال الحسن : ﷺ أما والله لا سبيل إلى بقائك ثم قام إليه فضربه بالسيف فاتقاه ابن ملجم بيده ، ثم أسرع السيف فيه فقتله .

(١) المخذم : السيف القاطع ، والجمع مخازم .

(٢) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .

(٣) ذكره ابن السني في عمل اليوم والليلة ، وأبو نعيم عن بريدة بنحوه . كما جاء في جمع الجوامع [٢٠٨٧-٢٠٨٩] بلفظ : « فليذكر مصيبته بي » والطبقات الكبرى لابن سعد .

(٤) الأزمة : جمع زمام ، يقال : هو زمام قومه : قائدهم وصاحب أمرهم .

[٣] ومن الأبطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي رضي الله عنه سيف الله ، وسيف رسوله ﷺ ، بطل مذكور ، وفارس مشهور ، في الجاهلية والإسلام ، قتل مالك نويرة ، وقتل مسيلمة الكذاب - لعنه الله - ، وكان الفتح لخالد يوم اليمامة ، وهو الذي فتح دمشق ، وأكثر بلاد الشام ، وله وقائع عظيمة في الروم ، أيد الله بها الإسلام ، مات على فراشه ، وكان يقول لقد شهدت كذا وكذا زحفا ، وما في جسدي موضع شبر ، إلا وفيه أثر من طعنه ، أو ضربة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشي ، لا نامت عين الجبان ، وكان يُنشد ، ويرتجز ويقول :

لا تُرعبونا بالسيف المبرقة إن السهام بالردي ^(١) مُفَوِّقه
والحرب دونها العقال مطلقة وخالد من دينه على ثقه

[٤] : الزبير بن العوام رضي الله عنه حواري ^(٢) ، رسول الله ﷺ ، وابن عمته ، بطل شجاع لا يمارى ، وشهم لا يجارى ، قتله عمرو بن جرموز ، اغتاله وهو في الصلاة .

[٥] : عمرو بن معد يكرب الزبيدي فارس من فرسان الجاهلية ، وله مواقف مذكورة ، ومواطن مشهورة ، وأسلم ثم ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام ، وشهد حروب الفرس ، وكان له فيها أفعال عظيمة ، وأحوال جسيمة ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه قال : الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمرا . وروى عنه رضي الله عنه أنه سأله يوما فقال له : يا عمرو ، أى السلاح أفضل في الحرب ؟ قال : فعن أيها تسأل ؟ قال : ما تقول في السهام ؟ قال : منها ما يخطئ ويصيب . قال : فما تقول في الرمح ؟ قال : أخوك ، وربما خانك ! قال : فما تقول في الثرس ؟ قال : هو الدائر . وعليه تدور الدوائر ! قال : فما تقول في السيف ؟ قال : ذلك العدة عند الشدة ! وقيل : إنه نزل يوم القادسية على النهر ، فقال لأصحابه : إنني عابر على هذا الجسر ، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور ، وجدتموني وسيفى يبدى أقاتل به تلقاء وجهي ، وقد عرفني القوم وأنا قائم بينهم ، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلا بينهم ، ثم انغمس فحمل على القوم ، فقال بعضهم لبعض : يا بني زبيد ، علام تدعون صاحبكم ؟ والله ما نظن أنكم تدركونه حيا ، فحملوا فانتهوا إليه ، وقد صرع عن فرسه . وقد أخذ برجل فارس رجل من العجم ، فأمسكها والفارس يضرب فرسه ، فلم تقدر أن تتحرك ، فلما رأنا أدركناه رمى الرجل نفسه ، وخلي فرسه ، فركبه عمرو ، وقال : أنا أبو ثور ، كدتم والله تفقدونني ، فقالوا : أين فرسك ؟ فقال : رمى بنشابة ، فغار ، وشب فصرعني ويروى أنه حمل ^(٣) حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قدّمه يزجرجد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين ، فاستقبله عمرو ، وكان رستم على فيل ، فضرب عمرو الفيل ، فقطع عرقوبه ، فسقط رستم ، وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار ، فقتل رستم ، وانهزمت العجم ، وقتل عمرو بنهاوند في وقعة الفرس ، بعد أن عمر حتى ضعف ، وكان من الشعراء المعدودين ، وفيه يقول العباس بن مرداس :

إذا مات عمرو قلت للخيل : أوطئ زبيدًا فقد أودى بنجدتها عمرو

[٦] طلحة الأسدي رضي الله عنه كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلاما ، ثم ارتد وتبأ ، وجمع جمعا عظيما ، فقل ^(٤) خالد ابن الوليد جمعه ، وكان يتكهن ، ثم عاد إلى الإسلام ، وشهد حرب القادسية ، وغيرها من الفتوح .

[٧] المقداد بن الأسود رضي الله عنه كان من أشجع الفرسان ، شديد البأس ، قوى الجنان ، رابط الجاش ، وله في الشجعان اسم مشهور ، ووصف مذكور ، يعجز الواصف عن وصف صفاته ﷺ وأرضاه .

[٨] سعد بن أبي وقاص الزهري الأنصاري رضي الله عنه كان فارسا بطلا راميا ، وهو أول من رمى في سبيل الله بسهم ولما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل ولم يشهد الحرب بعده ، ومات حتف أنفه .

[٩] أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه الذي خرج يتبخر بين الصفين ، فقال : ﷺ إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموضع ^(٥) .

(١) الردي : الهلاك والزيادة .

(٢) الحواري : الصاحب .

(٣) حمل : هجم وكر .

(٤) قل : يقال قلّ السيف ، أي ثلثه وكسره في حده .

(٥) إنها لمشية .. إلخ . أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» [٣/٢٣٤] .

- [١٠] المثنى بن حارثة الشيباني ؓ هو أول من فتح حرب الفرس .
- [١١] أبو عبيد بن مسعود الثقفي ؓ قاتل القوم يوم قس الناطف في حرب القادسية .
- [١٢] عمار بن ياسر ؓ صاحب رسول الله ﷺ الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « الحق يدور مع عمار حيث دار » ^(١) ، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية ^(٢) ، فقتل بصفين مع علي ؓ .
- [١٣] هاشم بن عتبة ؓ من أكابر الشجعان ، صاحب راية علي ؓ بصفين .
- [١٤] مالك بن الحارث النخعي الأشتر ؓ مات مسموماً في شربة من عسل ، فقال معاوية : إن لله جنوداً منها العسل .
- [١٥] القعقاع بن عمرو طاعن الفيل في عشية القادسية ؓ .

✽ [الطبقة الثانية] :

- [١] عبد الله بن الزبير بن العوام ؓ قاتل جرجير ملك إفريقية الذي كان يرى أنه أشجع أهل عصره . قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مليكة : صف لي عبد الله ابن الزبير فقال : والله ما رأيت جُلْدًا قط ركب على لحم ، ولا لحماً على عصب ، ولا عصباً على عظم ، مثل جلده ، ولحمه وعصبه ، ولا رأيت نفساً بين جنبيين ، مثل نفس ركب بين جنبيه ، ولقد قام يوماً إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحييه وصدره ، فوالله ما خشع له بصره ولا قطع له قراءته ، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع ، قتله الحجاج بعد أن حوَّض بمكة ، وأسلمه أصحابه وعشيرته ، وصلبه الحجاج ، ألا إلى الله تصير الأمور .
- [٢] أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية ؓ كان أبوه يلقبه في الوقائع ، ويتقى به العظام ، وهو شديد البأس ، ثابت الجنان قيل له يوماً : ما بال أمير المؤمنين علي ؓ يُقَحِّمُكَ الحروب ، دون الحسن والحسين ؓ ؟ فقال : لأنهما كانا عيني ، وكنت أنا يدي ، فكان يتقى عيني بيديه ، وقيل : إن أباه علياً ؓ اشترى درعاً فاستطالها ، فأراد أن يقطع منها ، فقال له محمد : يا أبتِ عَلمَ موضع القطع ، فعلم على موضع منها ، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها ، وبالأخرى على موضع العلامة ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حده أبوه ! وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه في الشجاعة يحسده على قوته ، وإذا حدث بهذا الحديث غضب . مات حتف أنفه بشغب رَضَوِي .
- [٣] عبد الله بن حازم السلمى ؓ والى خراسان : شجع مضر وفارسها ، في عصره . قتله وكيع بن أبي سويد بخراسان في الفتنة .
- [٤] وكيع ابن أبي سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره شجاع فائق أهوج ، والى خراسان قيل : لما قتل عبد الله بن حازم ، ولم يتم أمره لهوجه ، مات حتف أنفه .
- [٥] مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد بماله وبنفسه ، قتله عبيد الله ابن زياد في الحروب التي كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان .
- [٦] عمير بن الحباب السلمى فارس الإسلام قتله بنو تغلب في الحرب التي كانت بينهم وبين قيس .
- [٧] مسلمة بن عبد الملك بن مروان فحل بنى أمية ، وفارسها ، ووالى حروبها . قيل : إنه جلس يوماً ليقضى بين الناس بمصر ، فكلمته امرأة فلم يُقبل عليها ، فقالت : ما رأيت أقل حياء من هذا قط ! فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات ، فقال لها : هل ترين أثر هذا الطعن ؟ ! والله لو أخرت رجلى قيد شبر ما أصابتني واحدة منهن ، وما منعتني من تأخيرها إلا الحياء ، وأنت تحلينى قلته .
- [٨] المعتصم بطل شجاع فارس صنديد ، لم يكن في بنى العباس أشجع منه ، ولا أشد قلباً . قال ابن أبي دواد :

(١) الحق يدور مع عمار . . إلخ . انظر : «كنز العمال» للهندي [٣٣٥٢٦ ، ٣٧٤١٤] .

(٢) وأخبر أنه تقتله . . إلخ . قال ابن حجر في الإصابة : وتواترت الأخبار عن النبي ﷺ أن عماراً تقتله الفئة الباغية .

كان المعتصم يقول لى : يا أبا عبد الله ، عض على ساعدى ، بأكثر قوتك ، فأقول : والله يا أمير المؤمنين ، ما تطيب نفسى بذلك . فيقول : إنه لا يضرنى ، فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسته ، فكيف تعمل فيه الأسنان . ويقال : إنه طعنه بعض الخوارج ، وعليه درع ، فأقام المعتصم ظهره ، فقصم الرمح نصفين ، وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها ، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً فى العنق .

[٩] إبراهيم بن الأشتر النخعى كان من الشجعان المعدودين ، حارب عبيد الله بن زياد وهو فى أربعة آلاف ، وعبيد الله فى سبعين ألفاً ، فظفر به وقتله بيده ، وهزم جيشه .

[١٠] عبد الله بن الحر الجعفى شجاع شاعر فاتك ، له وقائع عظيمة هائلة ، وأخبار فى الشجاعة مشهورة .

[١١] جحدر بن ربيعة العكلى ، كان بطلاً شجاعاً فاتكاً مغيراً شاعراً قهر أهل اليمامة وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف ، فكتب إلى عامله يوبخه بتغلب جحدر عليه ، ويأمره بالتجرد له حتى يقتله ، أو يحمله إليه أسيراً ، فوجه العامل إليه فتية من بنى حنظلة ، وجعل لهم جُعلاً عظيماً إن هم قتلوا جحدرًا أو أتوا به أسيراً ، فتوجه الفتية فى طلبه ، حتى إذا كانوا قريباً منه ، أرسلوا يقولون له : إنهم يريدون الانقطاع إليه ، والارتفاق به ، فوثق بذلك منهم ، وسكن إلى قولهم ، فبينما هو معهم يوماً إذ وثبوا عليه ، فشدوه وثاقاً ، وقدموا به على العامل ، فوجه به إلى الحجاج معهم ، فلما قدموا به عليه ، ومثل بين يديه ، قال له : أنت جحدر ؟ قال : نعم أصلح الله الأمير . قال : ما جرأك على ما بلغنى عنك ؟ قال : لو ابتلانى الأمير وجعلنى مع الفرسان لرأى منى ما يعجبه . قال : فتعجب الحجاج من ثبات عقله ومنطقه . ثم قال : يا جحدر ، إنى قاذف بك فى حاجر فيه أسد عظيم ، فإن قتلتك كفانا مؤنتك ، وإن قتلت عفونا عنك . قال : أصلح الله الأمير قُربَ الفرج إن شاء الله تعالى ، فأمر به فصفدوه بالحديد ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسداً ، ويحمله إليه فتحيل العامل ، وارتاد له أسداً ، كان كاسراً خبيثاً قد أفنى عامة المواشى ، فتحيلوا حتى أخذوه ، وصيروه فى تابوت ، وسحبوه على عجل ، فلما قدموا به على الحجاج أمر به فألقى فى الحاجر ، ولم يطعم شيئاً ثلاثة أيام ، حتى جاع واستكلب ، ثم أمر بجحدر أن ينزلوه إليه ، فأعطوه سيفاً ، وأنزلوه إليه مقيداً ، وأشرف الحجاج ، والناس حوله ، ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر ، فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض ووثب ، وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال ، وارتاعت أهل الأرض فشد عليه جحدر ، وهو ينشد ويقول :

ليث وليث فى مجال ضنك كلاهما ذو قوة وسفك

وصولة وبطشة وفتك

إن يكشف الله قناع الشك فأنت لى فى قبضتى وملكى !

ثم دنا منه ، وضربه بسيفه ، ففلق هامته ، فكبر الناس ، وأعجب الحجاج ذلك . وقال : لله درك ما أنجبك ! ثم أمر به فأخرج من الحاجر ، وفك عنه قيوده . وقال له : اختر إما أن تقيم معنا ، فنكرمك ، ونقرب منزلتك ، وإما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك ، على أن تضمن لنا أن لا تُحدث بها حدثاً ولا تؤذى بها أحداً . قال : بل أختار صحبتك أيها الأمير فجعله من سماره وخواصه ، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة ، وكان من أمره ما كان .

[١٢] المهلب بن أبى صفرة كان من الشجعان ، ومن الأبطال المعدودة ، وأولاده كلهم أنجاد أبطال ، إلا أن المغيرة من بينهم ، كان أشد تمكناً ، وكان المهلب يقول : ما شهد معى حرباً إلا رأيت البشرى فى وجهه ، وحمل عليه بعض الشجعان - وفى يده شجرة فلما رآها نكس رأسه على قربوس السرج ، وحمل من تحتها ، فبراها بسيفه ، وكان المهلب يقول : أشجع الناس ثلاثة ابن الكلبيّة ، وأحمر قرش ، وراكب البغلة ، فابن الكلبيّة : مصعب بن الزبير ، وأحمر قرش : عمر بن عبيد الله بن معمر ، ما لقى خيلاً قط إلا فرقها وراكب البغلة : عباد بن الحصين ، ما كان قط فى كربة إلا فرجها ، وهو من فرسان الإسلام . وكان للمهلب فى الحروب مكاييد مشهورة وقائعه أبادت الخوارج ، بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين ، وكان سيذاً كريماً ، مات حتف أنفه ، وكذلك ابنة المغيرة وفيه يقول زياد الأعجم :

مات المغيرة بعد طول تعرض للقتل بين أسنة وصفائح
وكان في الخوارج فوارس مشهورة لا تثبت لهم الرجال وذكرهم يطول ، ويخرج عما أردناه .
[١٣] أبو بلال مرداس خرج في أربعين فهزم ألفين .

[١٤] وشبيب الخارجي الذي غرق في الفرات نذرت امرأته « غزالة » أن تصلى في جامع الكوفة ركعتين تقرأ في الأولى البقرة ، وفي الثانية آل عمران ، فعبر بها جسر الفرات وأدخلها الجامع ، ووقف على بابها يحميها حتى وفّت بنذرتها والحجاج في الكوفة في خمسين ألفاً .
[١٥] ومنهم قطري بن الفجاءة كان رأس الخوارج وخطبوه بأمر المؤمنين ، وعظموه وبعجلوه ، وأشعاره في الشجاعة تدل على مكانه منها ، قتل في بعض وقائع الخوارج .

✽ [الطبقة الثالثة] :

[١] معن بن زائدة الشيباني ، قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي .
[٢] الوليد بن طريف الشيباني قتله يزيد بن مزيد .
[٣] عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة ، نقل عنه أنه كان يتصيد فتتبع حمار وحش ، وما زال يركض إلى أن حاذاه ، فجمع رجليه ووثب من على فرسه ، وصار على ظهر حمار الوحش ، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين ، في يده حتى قتله .

[٤] أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي فارس بطل شاعر نديم ، جامع لما تفرق في غيره ، طعن فارسين رديفين فأنفذ الرمح من ظهريهما ، وحمل برمحه أربعة نفر ، وفيه يقول بكر بن النطاح :

قالوا : وينظم فارسين بطعنة يوم اللقاء ولا يراه جليلا
لا تعجبوا لو كان مدّ قناته ميلا إذا نظم الفوارس ميلا
وسأله يوما رجل شيئا ، فقال له : أنسأل وجدك القاتل :

ومن يفتقر منا يعيش بخُسامه^(١) ومن يفتقر من سائر الناس يسأل
وإننا لنلهو بالسيف كما لهت فتاة بعقد أو سُخاب^(٢) قرنفل
فخرج الرجل ، فجرد سيفه ، فلم يصادفه في طريقه ، إلا وكيل لأبي دلف ، ومعه مال جزيل ، فاستلبه منه ، وقتله ، فبلغ الخبر أبا دلف ، فقال : دعوه فإنني علمته على نفسي :

[٥] : بكر بن النطاح بطل شجاع فارس فاتك له أشعار مشهورة وأخبار مذكورة :
(ومما جاء في مدح السيف) : قال رسول الله ﷺ « الخير في السيف ، والخير مع السيف ، والخير بالسيف »^(٣) . وكان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب ، وممن تمثل به نهشل فقال :

أخ ماجد ما خانني يوم مشهد كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه
ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص ، عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال :

خليلي لم أخنه ولم يخني إذا صاب أوساط المعظام
خليلي لم أهبه من قلاه ولكن المواهب للكرام
حبوت به كريمًا من قريش فسربه وصين عن اللئام

(١) الحسام : السيف .

(٢) السُخاب : القلادة تُخذ من قرنفل وسكّ ومخلب ، ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شيء ، والجمع سُخاب .

(٣) الخير في السيف . . إلخ . لم أقف عليه . هذا وقد روى الحاكم : « الجنة تحت ظلال السيوف » كما ذكره العجلوني برقم [١٠٨٢] .

وودعت الصفى صفى نفسى على الصمصام^(١) أضعاف السلام
ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى ، بـمال جزيل لهشام ، وكان قد كتب إليه فيه ، فلم يزل
عند بنى مروان ، ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدي ، فلم يجدوه فجد الهادي فى طلبه حتى ظفر به ، وكان مكتوبا
عليه هذا البيت :

ذكر على ذكر يصول بصارم^(٢) ذكر يمان فى يمين يمانى
وقال ابن الرومى :

لم أر شيئا حاضرا نفعه يقضى له الدرهم حاجاته
وقال زيد بن على عليه السلام :

السيف يعرف عزمى عندهزته إننا لنأمل ما كانت أوائلنا
وقال عبد الله بن طاهر :

يبيت ضجعى السيف طورا وتارة أخو ثقة أرضاه فى الروع صاحبا
وليس أخو العلياء إلا فتى له

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان ، بعد قتل أخيه عبد الله فطلب منه سيف الزبير وقال له : رده على
فإنه السيف الذى أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين ، فقال له عبد الملك : أو تعرفه ؟ قال : نعم . قال : بماذا ؟
قال : أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك : أعرفه بقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم وقال الأجدع الهمداني :

لقد علمت نسوان همدان أننى وأبذل فى الهيجاء^(٦) وجهى وإننى
وقال آخر :

عشرون ألف فتى مامنهم أحد راحت مزادهم^(٧) مملوءة أملا

(ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد) : قال : نزل علينا بنو ثعلب فى بعض السنين ، وكنت مشغوقا
بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها ، فبينما أنا أدور فى بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خبائها ، وهى آخذة بيد
غلام قلما رأيت مثله فى حسنه وجماله ، له ذؤابتان كالسجج المنظوم^(٨) ، وهو تعاتبه بلسان رطب ، وكلام عذب تحن

(١) الصمصام : السيف الصارم لا يشي .

(٢) صارم : سيف قاطع .

(٣) أي الجور والظلم .

(٤) وزر : بفتح الواو والزاي ، أي الملجأ والمعتم .

(٥) الرزوع : الحرب .

(٦) الهيجاء : الحرب .

(٧) مزادهم : المزاد جمع مزود ، وهو وعاء الزاد .

(٨) السجج : خرز أسود ، والذؤابة : شعر مقدم الرأس وطرف العمامة ، وأعلى كل شيء . والمنظوم : كأنه عقد من خرز .

إليه الأسماع ، وترتاح له القلوب ، وأكثر ما أسمع منها ، أئى بُنى ، وهو يتسم فى وجهها ، قد غلب عليه الحياء والخجل ، كأنه جارية بكر لا يرد جوابا ، فاستحسن ما رأيت ، واستحليت ما سمعت ، فدنوت منه ، وسلمت ، فرد على السلام ، فوقفت أنظر إليهما فقالت : يا حَضْرَى ما حاجتك ؟ فقلت : الاستكثار مما أسمع ، والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام ، فقالت : يا حَضْرَى ، إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من نظره فقلت : قد شئت - يرحمك الله - فقالت : حملته والرزق عسر ، والعيش نكد حملا خفيفا ، حتى مضت له تسعة أشهر ، وشاء الله - عز وجل - أن أضعه ، فوضعتة خلقا سويا ، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه ، حتى أفضل الله - عز وجل - وأعطى وأتى من الرزق بما كفى ، وأغنى ، ثم أرضعته حولين كاملين ، فلما استتم الرضاع نقلته من خِرق المهد ، إلى فراش أبيه ، فربى كأنه شبل أسد أقيه برد الشتاء ، وحر الهجير^(١) ، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب ، فحفظه القرآن ، فتلاه ، وعلمه الشعر ، فرواه ، ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده ، فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه ، وكمل خلقه حملته على عتاق^(٢) ، الخليل ، ففرس ، وتمرس ، ولبس السلاح ، ومشى بين بويات الحى الخيلاء ، فأخذ فى قرى الضيف ، وإطعام الطعام ، وأنا عليه وَجَلَةٌ^(٣) ، أشفق عليه من العيون أن تصيبه ، فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب ، فخرج فتيان الحى فى طلب ثأر لهم ، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج ، حتى إذا أمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره ، ونحن آمنون وادعون ما هو إلا أن أدبر الليل ، وأسفر الصباح ، حتى طلعت علينا غر الجياد ، وطلّعت العدو فما هو إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها ، وهو يسألنى عن الصوت ، وأنا أستر عنه الخبر إشفافا عليه ، وضآ به ، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره ، وثار كما يثور الأسد ، وأمر بإسراج فرسه ، ولبس لأمة حرب^(٤) ، وأخذ رمحه بيده ، ولحق حماة القوم ، فطعن أذناهم منه ، فرمى به ولحق أبعدهم منه ، فقتله فانصرفت وجوه الفرسان ، فأروه صبيبا صغيرا لا مرد وراءه ، فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ، ونحن ندعو الله - عز وجل - له بالسلامة ، حتى إذا مدهم وراءه ، وامتدوا فى أثره ، عطف عليهم ففرق شملهم ، وشتت جمعهم ، وقلل كثرتهم ، ومزقههم كل ممزق ، ومرق كما يمرق السهم ، وناداهم : خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به ، أو لأهلكن دونه ، فانصرفت إليه الأقران ، وتمايلت نحوه الفرسان ، وتميزت له الفتيان ، وحملوا عليه ، وقد رفعوا إليه الأسته ، وعطفوا^(٥) عليه بالأعنة فوثب عليهم ، وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل ، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطما ، ولا كتيبة إلا مزقا ، حتى لم يبق من القوم إلا من نجابه فرسه ، ثم ساق المال ، وأقبل به ، فكبر القوم عند رؤيته ، وفرح الناس بسلامته ، فوالله ما رأينا قط يوما كان أسمح صباحا ، وأحسن رواحا ، من ذلك اليوم ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيات الحى هذه الأبيات :

إذا حشرجت نفسُ الجبانِ من الكَرْبِ
من الخوفِ مسلوبُ العزيمة والقلبِ
من السمهرى اللذّن والمرهف^(٦) العضب؟!
سليْلُ المعالى والمكارم والسَّيْبِ^(٧) !
وطرف قوى الظهر والجوف والجنب
الرواسى لا نحططن إلى التراب
وبيت شريف فى ذرى ثعلب الغلب
لكن وأحميكن بالطعن والضرب

تأملن فعلى هل رأيتن مثله
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه
ألم أغط كلاً حقّه ونصيبه
أنا ابنُ أبى هند بن قيس بن مالك
أبى لى أن أعطى الظلامة مرهف
وعزم صحيح لو ضربت بحده الجبال
وعرض نقى أتقى أن أعيبه
فإن لم أقاتل دونكن وأحتمى

(١) الهجير : نصف النهار ، فى القبط خاصة .

(٢) عتاق الخيل : كرامها ، والأصل منها .

(٣) اللأمة : أداة الحرب كلها من رمح ، وبيضة ، ومنفر وسيف ودرع .

(٤) السمهرى : الرمح : الصليب العود ، والمرهف العضب : السيف الرقيق القاطع .

(٥) عطفوا عليه بأعنة الخيل : مالوا وحاصروه واقتربوا منه .

(٦) وجلة : خائفة .

(٧) السَّيْب : العطاء ، والمعروف ، والمعدن .

يهنينه بالفارس البطل النذب

فلا صدق اللاتي مشين إلى أبي

وقال الشاعر :

في الحادثات إذا دجون نجوم
تجلو الدجى^(١) والأخريات رجوم^(٢)

أراؤهم ووجوههم وسيوفهم
منها معالم للهدى ومصباح

وقال آخر :

وليس على غير الرءوس مجال
تشب على أطرافهم فهن ذبال^(٣)

فوارس قوالبون للخيال : أقدمي
بأيديهم سمر العوالي كأنما

وقال آخر :

شُمسًا وِخَلَّتْ وجوههم أقمارا
عدل الزمان عليهم أو جارا
بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

قوم إذا اقتحموا العجاج^(٤) رأيتهم
لا يعدلون برِفْدِهِمْ^(٥) عن سائل
وإذا الصريخ دعاهم لملمة

(ذكر الجبن والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم) : قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن فقال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْخَزَنِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدِّينِ ، وَفَقْرِ الرِّجَالِ »^(٦) ، نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ ، ويكفيك أن يقال في وصف الجبان : إن أحسن بعصفور طار فؤاده ، وإن طنَّتْ بعوضة طال سُهاده ، يفزع من صرير الباب ، ويقلق من طنين الذباب ، إن نظرت إليه شزرا ، أغمى عليه شهرا ، يحسب خفوق الرياح قعقة الريح ، قال الشاعر :

إذا صَوَّتَ العُصفورُ طارَ فؤاده وليتَ حديدُ النابِ عندَ الثرائد^(٧)

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه من الجبناء ، روى عن ابن الزبير أنه قال : كان حسان في قاع أطم مع النساء يوم الخندق ، فاتاهم في ذلك اليوم يهودي ، يطوف بالحصن ، فقالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها يا حسان : إن هذا اليهودي ، كما ترى يطوف بالحصن ، وإنني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءه من اليهود ، فأنزل إليه فاقتله ، فقال : يغفر الله لك يا بنت - عبد المطلب - لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، قال : فاعتجرت^(٨) صفية ، ثم أخذت عمودا ، ونزلت من الحصن ، فضرته بالعمود حتى قتلتها ، ورجعت إلى الحصن ، فقالت : يا حسان ، قم إليه فاسلبه^(٩) ، فإنه ما منعتني من سلبه إلا أنه رجل ، فقال : مالي بسلبه من حاجة .

وقيل : كان لفتى من قریش جارية مليحة الوجه ، حسنة الأدب ، وكان يحبها حباً شديداً فأصابته إضاعة وفاقة ، فاحتاج إلى ثمنها ، فحملها إلى العراق ، وكان ذلك في زمن الحجاج ابن يوسف ، فابتاعها منه الحجاج ، فوَقعت منه بمنزلة ، فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه ، فأنزله قريبا منه ، وأحسن إليه ، فدخل على الحجاج ، والجارية تكبسه^(١٠) ، وكان الفتى جميلاً فجعلت الجارية تسارقه النظر ، ففطن الحجاج بها فوهبها له ، فأخذها وانصرف ، فبانت

(١) الدجى : سواد الليل وظلمته .

(٢) رجوم : مفردا رجم ، والرجم : ما يُرجم به من حجارة وغيرها ، ويقال : صار فلان رجماً ، أي لا يوقف على حقيقته .

(٣) ذبال : مفردا ذبالة ، وهي الفتيلة التي تُسرج .

(٤) العجاج : القفار والدخان ، مفردا عجاجة .

(٥) اللهم إني أعوذ بك إلخ . . ذكره العجلوني في الكشف الجزء الأول [رقم ٥٧٨] وقال رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود .

(٦) الثرائد : جمع ثريدة ، وهي خبز ومرق مع شيء من التوابل .

(٧) اعتجرت : لبست عمامة على رأسها ، وردت طرفها على وجهها كما يفعل الأبطال في الحرب .

(٨) اسلبه : خذ ما معه من آلة الحرب والمال ، ومن قتل قتيلاً في الحرب المشروعة فله سلبه . والقصة في كتب السيرة . انظر البداية والنهاية والطبقات الكبرى .

(٩) تكبسه : تلين جسده بيديها .

معه ليلتها ، وهربت بغلس^(١) ، فأصبح لا يدري أين هي ؟! وبلغ الحجاج ذلك ، فأمر مناديا أن ينادى : برئت الذمة ممن رأى وصيفة من صفتها كذا وكذا ولم يحضرها ، فلم يلبث أن أتى له بها ، فقال لها الحجاج ، يا عدوة الله ، كنت عندى من أحب الناس إلى ، فاخترت لك ابن عمى شابا حسن الوجه ، ورأيتك تسارقينه النظر ، فعلمت أنك شغفت به ، فوهبتك له فهربت من ليلتك فقالت : يا سيدى ، اسمع قصتى ، ثم اصنع بى ما شئت ، قال : هاتى ولا تخفى شيئا ، قالت : كنت للفتى القرشى ، فاحتاج إلى ثمنى فحملنى إلى الكوفة ، فلما قربنا منها دنا منى فوقع على ، فسمع زفير الأسد فوثب ، واختطف سيفه^(٢) ، وحمل عليه وضربه فقتله ، وأتى برأسه ، ثم أقبل على وما برد ما عنده ، ثم قضى حاجته ، وإن ابن عمك هذا الذى اخترته لى لما أظلم الليل ، قام إلى فلما علا بطنى ، وقعت فأرة من السقف ، ففصرط ، ثم غشى عليه ، فمكث زمانا طويلا ، وأنا أرش عليه الماء ، وهو لا يُفِيْق ، فخفت أن يموت فتهمنى به ، فهربت فزعا منك ، فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك ، وقال : ويحك اكنمى هذا ، ولا تعلمى به أحدا ، قالت : على أن لا تردنى إليه . قال لك ذلك . وحدث جار لأبى حنيفة النميرى قال : كان لأبى حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق ، وكان يسميه « لعاب المنية » ، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه وهو واقف على باب بيته ، وقد سمع جسا فى داره وهو يقول : أيها المغترّبنا ، المجترىء علينا ، بشس والله ما اخترت لنفسك خير قليل ، وسيف صقيل ، وهو « لعاب المنية » ، الذى سمعت به ؛ اخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة عليك ، ثم فتح الباب على وجل فإذا كلب قد خرج ، فقال : الحمد لله الذى مسخك كلبا وكفانا حربا .

وخرج المعتصم يوما إلى بعض متصيداته ، فظهر له أسد ، فقال لرجل من أصحابه - أعجبه قوامه وسلاحه ، وتمام خلقه - : أفيك خير يا رجل ؟ قال : لا . فضحك المعتصم ، وقال : قَبِّحَ الله الجبان .

ورأى الإسكندر سميا له لا يزال ينهزم ، فقال له : يا رجل ، إما أن تغير فعلك ، وإما أن تغير اسمك .

ووقع فى بعض العساكر ضجة فوثب خراسانى ، إلى دابته ليجمعها فصير اللجام فى الذنب من الدهش ، وقال يخاطب الفرس : هب جبهتك عُرِضَتْ ، فनावيتك كيف طالت ؟! وخرج أسلم بن زرعة الكلابى فى ألفين لمحاربة أبى بلال مرداس ، وكان مرداس فى أربعين رجلا ، فانهزم أسلم منه ، فلاموه على ذلك وذمه ابن أبى زياد ، فقال : لأن يذمنى ابن أبى زياد حيا ، أحب إلى من أن يمدحنى ميتا ، وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومر بصبيان صاحوا به : أبو بلال وراءك ، فكبر ذلك عليه ، فشكاهم إلى ابن أبى زياد ، فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه ، وفى ذلك يقول بعضهم :

يقول جبانُ القوم فى حال سُكره وقد شرب الصُّهباءُ^(٣) هل من مبارز ؟
وأين الخيول الأعوجيات^(٤) فى الوغى أنازل منهم كل ليث مناهز
ففى السُّكر قيسٌ وابن معدى وعامر وبكى الصُّحو تلقاه كبعض العجائز

وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب ، والحمد لله الكريم الوهاب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه الطاهرين ، والحمد لله رب العالمين .



(١) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت يصبح .

(٢) اختطف سيفه : استله من غمده .

(٣) الصُّهباء : الخمر .

(٤) الأعوجيات : ضرب من حياء الخيل تنسب إلى «أعوج» : حصان لبني هلال .

الباب الثاني والأربعون

في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول : في المدح والثناء

المدح : وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها ، ويكون نعتاً حميداً ، وهذا يصح من المولى في حق عبده فقد قال الله تعالى في حق نبيه أيوب **الْحَمْدُ لِلَّهِ** : **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** [ص: ٤٤] . وقال تعالى لنبيه محمد **وَأَنَّكَ لَكَلِّ خُلُقٍ عَظِيمٍ** [الفلم: ٤] . وقال تعالى : **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** [المؤمنون: ١-٢] إلى آخر الآيات فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة ، وأما قوله **﴿إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَادِحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ﴾** ^(١) . فقد قال العتبي : هو المدح الباطل ، والكذب ، وأما مدح الرجل بما فيه ، فلا بأس به ، وقد مدح أبو طالب ، والعباس ، وحسان ، وكعب ، وغيرهم رسول الله **ﷺ** ، ولم يبلغنا أنه حثا في وجه مادم ترابا ، وقد مدح هو **ﷺ** المهاجرين والأنصار **ﷺ** ، وفي حثو التراب معنيان : أحدهما التغليظ في الرد عليه ، والثاني كأنه يقال له : يكفيك التراب ، وكان أبو بكر الصديق **ﷺ** إذا مدح قال : اللهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، ومدح سارية الديلي رسول الله **ﷺ** ، وهو سارية الذي أمره عمر **ﷺ** على السرية ، وناداه في خطبته بقوله : يا سارية الجبل ^(٢) ، فمن مدحه في رسول الله **ﷺ** قوله :

فما حملت من ناقة فوق ظهرها
وهو أصدق بيت قالته العرب ، ومن أحسن ما مدحه به حسان **ﷺ** قوله :

وأحسن منك لم تر قط عيني
وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء
ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصاري **ﷺ** قوله :

لو لم تكن فيه آيات مبينة
كانت بديهته تُنبئك بالخبر
ولما حججت وزرت **ﷺ** تطلعت على جنبه المعظم ، وامتدحته بأبيات مطولة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة تجاه الصندوق الشريف ، وأنا مكشوف الرأس ، وأبكي من جملتها :

يا سيد السادات جئتُك قاصداً
والله يا خير الخلائق إن لي
وحق جاهك إنني بك مغرم
أنت الذي لولاك ما خلق امرؤ
أنت الذي من نورك البدر اكتسى
أنت الذي لما رفعت إلى السما
أنت الذي ناداك ربك مرحباً
أرجو رضاك وأحتمى بحماكا
قلبا مشوقا لا يروم سواكا
والله يعلم أننى أهواكا
كلا ولا خلق الورى لولاكا
والشمس مشرقة بنور بهاكا
بك قد سمت وتزينت لسراكا
ولقد دعاك لقربه وحباًكا

(١) إذا رأيتم المادحين . إلخ . رواه أحمد والطبراني وقال صاحب فتح القدير قال الهيثمي : رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح . ورمز له السيوطي بالصححة في جامعه الصغير ورواه البخاري في الأدب .

(٢) كشف الخفاء : [٣١٧٢/٢] قال في اللآلئ : وثق رجال الحديث طريقه عن ابن مردويه ، ورواه حرمله في جمعه لحديث ابن وهب وإسناده كما قال ابن حجر - حسن .

أنت الذي فينا سألت شفاعه
 أنت الذي لما توسل آدم
 وبك الخليل دعا فعاذت ناره
 ودعاك أيوب لضُرٍّ مسَّه
 وبك المسيح أتى بشيرا مُخبراً
 وكذلك موسى لم يزل متوسلاً
 والأنبياء وكل خلق في الوري
 لك معجزات أعجزت كل الوري
 نطق الذراع بسمه لك مُغليلاً
 والذئب جاءك ، والغزالة قد أثت
 وكذا الوحوش أنت إليك وسلمت
 ودعوت أشجاراً أنتك مطيعة
 والماء فاض براحتيك وسبحت
 عليك ظللت الغمامة في الوري
 وكذلك لا أثر لمشيك في الثرى
 وشفيت ذا العاهات من أمراضه
 وزدّت عين قتادة بعد العمى
 وكذا حبيب ، وابن عفرا عندما
 وعلى من رمى به داويته
 وسألت ربك في ابن جابر بعدما
 ومست شاة لأُم معبد بعدما
 ودعوت عام المخل ربك مُغليلاً
 ودعوت كل الخلق فانقادوا إلى
 وخفضت دين الكفر يا علم الهدى
 أعداك عادوا في القليب بجهلهم
 في يوم بذر قد أنتك ملائك
 والفتح جاءك يوم فتحك مكة
 هوذ ويونس من بهاك تجملاً
 قد فقت يا طه جميع الأنبياء
 والله يا ياسين مثلك لم يكن
 عن وصفك الشعراء يا مدثر
 إنجيل عيسى قد أتى بك مخبراً
 ماذا يقول المادحون ؟ وما عسى ؟
 والله لو أن البحار مدادهم

ناداك ربك لم تكن لسواكا
 من ذنبه بك فاز وهو أباك
 برداً وقد خمدت بنور سناكا
 فأزيل عنه الضُرُّ حين دعاكا
 بصفات حُسنك مادحاً لعلاكا
 بك في القيامة مرتج لنذاكا
 والرُّسل والأملأك تحت لمواكا
 وفضائل جلت فليس تُحاكي
 والضرب قد لبأك حين أتاك
 بك تستجير وتحتمي بحماكا
 وشكا البعير إليك حين رآكا
 وسعت إليك مجيبة لنذاكا
 صُم الحصى بالفضل في يُمناكا
 والجذع حن إلى كريم لقাকা
 والصخر قد غاصت به قدماكا
 وملأت كل الأرض من جذواكا
 وابن الحصين شفيته بشفاكا
 جرحاً شفيتهما بلمس يذاكا
 في خبير فشفي بطيب لِمَاكا^(١)
 قد مات أحياء ، وقد أرضاكا
 نشفت فدرت من شفا رُقياكا
 فانهل قطر السحب عند دُعاكا
 دعواك طوعاً سامعين نذاكا
 ورفعت دينك فاستقام هناكا
 صرعى وقد حرموا الرضا بجفاكا
 من عند ربك قاتلت أعداكا
 والنصر في الأحزاب قد وفاكا
 وجمال يوسف من ضياء سناكا
 نوراً فسبحان الذي سواكا
 في العالمين وحق من نباكا
 عجزوا وكلوا عن صفات علاكا
 وأتى الكتاب لنا بمدح حلاكا
 أن يجمع الكتاب من معناكا
 والعشب أقلام جملن لذاكا

(١) اللّمْك : بتشديد اللام المضمومة وكسرهما : الجلاء يكحل به العين .

أبدا وما استطاعوا له إدراكا
وحشاشة محشوة بهواكا
وإذا نطقت فمادح غليكا
وإذا نظرت فلا أرى إلأكا
إنى فقير فى الورى لغناكا
جُد لى بجودك وارضى برضاك
لابن الخطيب من الأنام سواكا
فلقد غدا مستمسكا بعراكا
ومن التجال حماك نال وفاكا
فعسى أرى فى الحشر تحت لواكا
ما حن مشتاق إلى مثواكا
والتابعين وكل من والاكا

لم تَقْدِرِ الثقلانِ تجمع دُرّة
لى فيك قلب مغرم يا سيدى
فإذا سكّت ففبك صمتى كلّهُ
وإذا سمعت فعنك قولاً طيباً
يا مالكى كن شافعى من فاقتى
يا أكرم الثقلين يا كنز الورى
أنا طامع فى الجود منك ولم يكن
فعمساك تشفع فيه عند حسابهِ
ولأنت أكرم شافع ومشفع
فاجعل قرائى شفاعاً لى فى غد
صلى عليك الله يا خير الورى
وعلى صحابتك الكرام جميعهم

وماذا عسى أن يقول المادحون فى وصف من مدحه الله تعالى ، وأثنى عليه ، وقد قال عليه السلام : « أنا سيدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرُ » ^(١) . والله لو أن البحار مداد ، والأشجار أقلام ، وجميع الخلائق كُتّاب ، لما استطاعوا أن يجمعوا النزر اليسير من بعض صفاته ، ولكلوا عن الإتيان ببعض بعض وصف معجزاته عليه السلام .

ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له : يا هذا ، إنه قد نهى عن مدح الرجل فى وجهه ؛ فقال : مامدحتك ، ولكن ذكرتكَ نعم الله عليك لتجدد لها شكراً ، فقال له هشام : هذا أحسن من المدح ووصله وأكرمه .

وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان : رأيت نفسى فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، وأيقنت أنى حيث أنتهى من القول منسوب إلى العجز ، مقصر عن الغاية فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك .

وقال الحارث بن ربيعة فى رجل من آل المهلب :

ففى بأسه شطر ، وفى جوده شطرُ
ولا من زئير الحرب فى أذنه وقُرُ

فتى دهره شطران فيما ينوبه :
فلا من بغاة الخير فى عينه قذى

وقال أعرابى لرجل :

ولا يشتكى زمان أنت فيه

لا يُدْمُ بلد أنت تأويه

وكان الحجاج يستقل زياد بن عمرو العكلى ، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال : يا أمير المؤمنين ، إن الحجاج سيفك الذى لا ينبو ^(٢) ، وسهمك الذى لا يطيش ، وخادمك الذى لا تأخذه فيك لومة لائم ، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه . وقال رجل لآخر : أنت بستان الدنيا ، فقال له : وأنت النهر الذى يسقى منه ذلك البستان ! وقال رجل لأبى عمرو الزاهد - صاحب كتاب الياقوتة فى اللغة - أنت والله عين الدنيا ، فقال له : وأنت والله نور تلك العين . وقال القاسم بن أمية بن أبى الصلت الثقفى :

تركوه رب صواهل وقيان ^(٣)
سدوا شعاع الشمس بالفرسان

قوم إذا نزل الغريب بدارهم
وإذا دعوتهم ليوم كريهة ^(٤)

(١) سبق تخريجه .

(٢) لا ينبو : لا يصيب ، ويقال : « لكل سيف نبوة » .

(٣) صواهل : جمع صاهل ، وهو الفرس . وقيان : جمع قين ، وهو العبد .

(٤) يوم كريهة : يوم الحرب .

وقال أوس في حاتم الطائي:

فإن تنكحني ماوية الخير حاتمًا
فتى لا يزال الدهر أكبر همه

وقال ابن حمدون في آل المهلب:

آل المهلب معشر أمجاد
شاد المهلب ما بنى أباه
وكذاك من طابت مغارس نبتة

وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة، فلما سجن، ونقب (٢)
ولما رأيت الأرض قد سدت ظهرها
دعوت الذي ناداه يونس بعدما

فما مثله فينا ولا في الأعاجم (١)
فكأك أسير أو معونة غارم

ورثوا المكارم والوفاء فسادوا
وأتى بنوه ما بناه فشادوا
وبنى له الآباء والأجداد

له السجن، وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق:
ولم يبق إلا بطنها لك مخرجًا
ثوى في ثلاث مظلمات ففرجًا

فقال ابن هبيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق، هجاني أميرًا، ومدحني أسيرًا. وقال سري بن عبد الرحمن الرفاء
في خالد بن حاتم:

يا واحد العرب الذي دانت له
إنى لأرجو إن لقيتُك سالما
وقال كعب بن مالك الأنصاري في آل هاشم:

يا آل هاشم الإله حباكم
قوم لأصلهم السيادة كلها
وقال الحسين بن دعلج الخزاعي:

ملك الأمور بجوده وحسامه
فأطاع أمر الجود في أمواله
وقال آخر:

يلقى السيوف ب صدره وينحره
ويقول للطرف: اضطبر لسنى القنا (٤)
وإذا تراءى شخص ضيف مقبل
أومى إلى الكؤماء هذا طارق

وقال شاعر بني تميم:

إذا لبسوا عمامتهم طووها
يبيع ويشترى لهم سواهم
إذا ما كنت جار بني تميم

وقالت امرأة من بني نمير - قد حضرتها الوفاة، وأهلها مجتمعون - من ذا الذي يقول:
لعمري ما رماح بني نمير

على كرم وإن سفروا أناروا
ولكن بالطعان هم تجار
فأنت لأكرم الثقلين (٥) جار

بطائشة الصدور ولا قصار

(١) ماوية: زوجة حاتم التي كانت كثيرًا ما تلومه على جوده.

(٢) نقب: نقب الجدار ونحوه، أي خرقه.

(٣) الميغفر: زرد يُسج من الدروع على قدر الرأس، يُلبس تحت القلنسوة، والجمع مغافر.

(٤) القنا: الرُمح الأجوف.

(٥) الثقلين: الجن والإنس.

قالوا : زياد الأعجم . قالت : أشهدكم أنّ له الثلث من مالى ، وكان مالا كثيرا . وأثنى رجل على رجل فقال : هو أفصح أهل زمانه إذا حدث ، وأحسنهم استماعا إذا حدث وأمسكهم عن الملاحاة^(١) إذا خولف ، يعطى صديقه النافلة ، ولا يسأله الفريضة ، له نفس عن الفحشاء محصورة ، وعلى المعالي مقصورة ، كالذهب الإبريز الذى يعز كل أوان ، والشمس المنيرة التى لا تخفى بكل مكان ، هو النجم المضى للحيوان ، والمنهل البارد العذب للعطشان . وقال الحسن بن هانئ :

فأنت كما تُثنى وفوق الذى نثنى
لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

إذا نحن أثنيينا عليك بصالح
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة
وله فى الفضل بن الربيع :

ما إن ترى خلفها الأبصار مطرحا
بجود كفك تأسو كل ما جرحا

لقد نزلت أبا العباس منزلة
وكلت بالدهر عينا غير غافلة
وقال زياد الأعجم فى محمد بن القاسم الثقفى :

بمحمد بن القاسم بن محمد
يا قرب سورة^(٢) سؤدد من مولد

إن المنابر أصبحت مختالة
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة
ومن بدائع مدائح المتنبي قوله :

فما كليب وأهل الأعصر الأول
فى طلعة البدر ما يغنيك عن رُحل
فإن وجدت لسانا قائلًا فقل

ليت المدائح تستوفى مناقبه
خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به
وقد وجدت مكان القول ذا سعة

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء ، فأعطاه سبعين ألفا ، وخلع عليه خلعا سنية ، حتى إنه لم يستطع أن يقوم ، فغار الشعراء منه ، فجمعهم وقال : يالله العجب ، ما أشدّ حسد بعضكم لبعض . إن أحدكم يأتينا ليمدحنا ، فيتغزل فى قصيدته بخمسين بيتًا ، فما يبلغنا .

ووفد أبو نواس على الخصب^(٣) بمصر ، فأذن له وعنده الشعراء ، فأشدّ الشعراء أشعارهم ، فلما فرغوا قال أبو نواس : أنشد أيها الأمير قصيدة هى كعصا موسى ، تلقف ما صنعوا ، قال : أنشد فأشده قصيدته التى منها قوله :

فأى فتى بعد الخصيب تزور ؟!
ويعلم أنّ الدائرات تدور
ولكن يسير الجود حيث يسير !

إذا لم تزر أرض الخصيب ركبنا
فتى يشتري حسن الثناء بماله
فما فاته جود ولا ضلّ دونه

فاهتز الخصيب لها طربا ، وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة .

(وحكى) : أن أبا دلف سار يوما مع أخيه معقل ، فرأيا امرأتين تتماشيان ، فقالت إحداهما للأخرى : هذا أبو دلف ؟ قالت : نعم الذى يقول فيه الشاعر :

بين ياديه ومحتضره
ولت الدنيا على أثره

إنما الدنيا أبو دلف
فإذا ولى أبو دلف

فبكى أبو دلف ، حتى جرت دموعه ، فقال له معقل : ما لك يا أخى تبكى ؟ فقال : لأنى لم أقض حق الذى قال هذا . قال : أو لم تعطه مائة ألف درهم ؟ قال : والله ما فى نفسى حسرة إلا لكونى لم أعطه مائة ألف دينار . ويقال : هذه المدحة ، فأين المنحة ؟

(١) الملاحاة: المقارعة والمخاصمة.

(٢) السورة: الوثبة، ويقال: فلان ذو سورة فى الحرب: ذو نظر شديد.

(٣) الخصب: هو أحمد بن عبيد الله (٣٢٨هـ-٩٤٠م) وزير المقتدر والقاهر، أديب وشاعر. عزل ونكب، وتوفى بالسكينة القليلة.

قال بعضهم :

إذا ما الممدوح صار بلا نوالٍ من الممدوح كان هو الهجاء
وامتدح محمد بن السلطان - المعروف بابن جيوش - محمد بن نصر صاحب حلب ، فأجازه بألف دينار ، ثم مات
محمد بن نصر ، وقام ولده نصر مقامه ، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها ، منها :

تباعدت عنكم حرمة لا زهادة وسرت إليكم حين مسنى الضّر
فجاد أبو نصر بألف تصرمت^(١) وإنى عليهم أن سيخلفها نضر

فلما فرغ من إنشادها قال نصر : والله لو قال : سيضعفها نصر لأضعفتها له ، وأعطاه ألف دينار في طبق فضة .
ومدح بعض الشعراء - وقيل : هو البديع الهمداني - إنسانا فقال :

يكاد يحكيه صوب الغيث منسكبا لو كان طلق المحيا يُمطر الذهبا
والدهر لو لم يخن ، والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقال آخر :

أخو كرم يفضي الوري من بساطه إلى روض مجد بالسماح مجود
وكم لجباه الراغبين لديه من مجال سجد في مجالس جود

ويقال : فلان رفيق الجود ودخيله ، وزميل الكرم ونزيله ، وغرة الدهر وتحجيلة^(٢) ، ومواهب الأنواء ، وصدرة
الدهناء ، عونه موقوف على اللهي^(٣) ، وغوثة مبذول للضعيف ، يطفو جوده على موجوده ، وهمته على قدرته ،
ينابيع الجود تنفجر من أنامله ، وربيع السماح يضحك عن فواضله ، إن طلبت كريما في جوده مت قبل وجوده ، أو
ماجدا في أخلاقه مت ولم تلاقه ، باسل تعود الإقدام حيث تزل الأقدام ، وشجاع يرى الإحجام عازا لا تمحوه الأيام ،
له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته ، وصفى كدورته ، خلق كنسيم الأسحار على صفحات الأنهار ، أطيّب من زمن
الورد في الأيام ، وأبهج من نور البدر في الظلام ، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته ، ويؤلف الآراء المتشتتة في
مودته ، هو ملح الأرض إذا فسدت ، وعمارة الدنيا إذا خربت ، يحلّ دقائق الإشكال ، ويزيل جلائل الأشكال ، البيان
أصغر صفاته ، والبلاغة عنوان خطراته ، كأنما أوحى التوفيق إلى صدره ، وحبس الصواب بين طبعه وفكره ، فهو
يعبث بالكلام ويقوده بألين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره ، والمعاني تتغير في الامتثال
لأوامره ، يوجز فلا يُخل ، ويطنب فلا يمل ، كلامه يشتد مرة حتى تقول : الصخر أو أيس ، ويلين تارة حتى تقول :
الماء أو أسلس ، فهو إذا أنشأ وشى^(٤) ، وإذا عبر حبر^(٥) ، وإذا أوجز أعجز ، تاهت به الأيام ، وباهت في يمينه
الأقلام ، له أدب لو تصور شخصا ، لكان بالقلوب مختصا . قال الشاعر :

له خلق على الأيام يصفو كما تصفو على الزمن العقار

وقال آخر :

لو كان يحوى الروض ناضر خلقه ما كان يذبل نوره بشتائه

وقال آخر :

ووجهك بدر في الغياهب مشرق وكفك في شهب السنين غمام
عجيب لبدر لا يزال أمامه سحب ولا يفساه منه ظلام
وأعجب من هذا غمام إذا سطا تلظى مكان البرق منه حسام

(٢) يقال : يوم أغر محجل ، أي مشهور .

(١) تصرمت : صرّمه ، أي قطع .

(٣) اللهي : المظلوم المضطر يستغيث ويتحسر .

(٤) وشى : يقال وشى بنو فلان ، أي كثروا ، ووشت الماشية ، أي فشت وكثرت .

(٥) حبر : حبر الشيء وحبره : أي زينه ونمقه ، يقال : حبر الشعر والكلام .

وقال الحسين بن مطير الأسدي :

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس
فيمطر يوم الجود من كفه الندى
فلو أن يوم البؤس خلى عقابه
ولو أن يوم الجود خلى يمينه
وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

والله ما عجبى لقدرك إنه
إلا لكونك لست تشكو وحشة
ولصفي الدين الحلي :

أثنى فتثنى صفاتك مظهرًا
لو أننى والخلق جمعا ألسن
وللشيخ برهان الدين القيراطى :

أوصافكم تجرى أحاديثها
كما أحاديث الندى عنكم
وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

روت عنك أخبار المعالى محاسنا
فوجهك عن بشر ، وكفك عن عطا
وقال غيره :

من زار بابك لم تبرح جوارحه
فالعين عن قرّة ، والكف عن صلة
ولأبى فراس بن حمدان :

لئن خلق الأنام لحب كأس
فلم يخلق بنو حمدان إلا
وقال آخر :

إن الهبات التى جاد الكرام بها
مازلت تسبق حتى قال حاسدكم
ولمحمد بن مناذر في آل برمك :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك
لهم رحلة فى كل عام إلى العدا
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرق
فما خلقت إلا لجود أكفهم
إذا رام يحيى الأمر ذلت صعابه

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون ، وأنشد :

ليت شعرى أى قوم أجذبوا
نظر الله لهم من بيننا

ويوم نعيم فيه للناس أنعم
ويمطر يوم البؤس من كفه الدم
على الناس لم يصبح على الأرض مجرم
على المال لم يصبح على الأرض معدم

قدر - على باغى مداه - بعيد
فى هذه الدنيا وأنت وحيد

عيا وكم أعيت صفاتك خاطبا !!
ثنى عليك لما قضينا الواجبا

مجرى النجوم الزهر فى الأفق
تسندها الركبان من طرق

كفّ بلسان الحال عن ألسن الحمد
وخلقك عن سهل ، ورأيك عن سعد

تروى أحاديث ما أوليت من منن
والقلب عن جابر ، والسمع عن حسن

ومزممار ، وطنبور ، وعُود
لمجد ، أولبأس ، أولجود

مطروقة ، وندى كفيك مبتكر
له طريق إلى العلواء مقتصر

فيا طيب أخبار وأحسن منظر
وأخرى إلى البيت العتيق المنور
بيحى وبالفصل بن يحيى وجعفر
وأقدامهم إلا لسمعى مظفر
وناهيك من راع له ومُدبّر

فأغيثوا بك من بعد العجف
وحرمناك بذنب قد سلف

وامض مصحوباً فما منك خلف
حيثما صرفه الله انصرف

يا أبا اسحق سر في دعة
إنما أنت ربيع باكر
وقال آخر :

قومٌ لقيـل : اقعدوا يا آل عباس
إلى السماء فأنتم سادة الناس !

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
ثم ارتقوا في شعاع الشمس ، وارتفعوا
وقال آخر :

وحظك في الدنيا جزيـل موفر
رعى الله كفاً فيه بحر وأنهر
فلا زالت الحساد تغبي وتصفر
لأنى فقير والفقير مقصر

ثناؤك في الدنيا من المسك أعطر
وكفك بحر والأنامل أنهر
أعيذك بالرحمن من كل حاسد
لسانى قصير فى مديحك سيدى

الفصل (الثانى) : فى هذا الباب فى شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلائق فشكر القلب ، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله - عز وجل - وأن لا نعمة على الخلق من أهل السموات والأرض ، إلا وبدايتها من الله تعالى ، حتى يكون الشكر لله عن نفسك ، وعن غيرك . والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] ، أى : أيقنوا أنها من الله ، وقيل : الشكر معرفة العجز عن الشكر ، وقد روى أن داود عليه السلام قال : « إلهى كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة من عندك ؟! فأوحى الله تعالى إليه : الآن قد شكرتني » ^(١) ، وفى هذا يقال : الشكر على الشكر أتم الشكر ، ولمحمود الوراق :

على له فى مثلها يجب الشكر
وإن طالت الأيام واتصل العمر ؟!
وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
تضيق بها الأوهام والسر والجهر

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلـه
إذا مس بالسرائر عم سرورها
فما منهما إلا له فيه نعمة

وفى مناجاة موسى عليه السلام إلهى ، خلقت آدم بيدك ، وفعلت وفعلت ، فكيف شكرك؟! فقال : علم ، أن ذلك منى معرفته بذلك شكره لى ^(٢) .

وأما شكر اللسان ، فقد قال الله تعالى فيه ﴿ وَأَمَّا يَتِمُّكَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] ويروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ وَالتَّحَدُّثُ بِالنِّعَمِ شُكْرٌ » ^(٣) . وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تذكروا النعم فإن ذكرها شكر . وأما الشكر الذى على الجوارح فقد قال الله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا مِثْلَ مَا دَاوُدُ شَكَرَ ﴾ [سبأ: ١٣] الآية فجعل العمل شكرًا . وروى أن النبى ﷺ قام حتى تورمت قدماه ، فقيل له : يا رسول الله أتفعل هذا بنفسك ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »! ^(٤) . وقال أبو هارون : دخلت على أبى حازم ، فقلت له : يرحمك الله ، ما شكر العينين ؟ قال : إذا رأيت بهما خيراً ذكرته ، وإذا رأيت بهما شراً سترته ، قلت : فما شكر الأذنين ؟ قال : إذا سمعت بهما خيراً حفظته ،

(١) وقد روى أن داود عليه السلام . إلخ ضعيف : أخرجه أحمد في الزهد [ص ٧٢] ، وابن أبي الدنيا في «الشكر» برقم [٥-ط مكتبة القرآن] ، والبيهقي في «الشعب» [٤١٠١] ، وأبو نعيم في «الحلية» [٥٦/٦] ، وفي سننه صالح المري . ضعيف الحديث .

(٢) وفي مناجاة موسى . إلخ . ضعيف جداً : أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» [برقم ١٢] ، والبيهقي في «الشعب» [٤١١٣] ، وفي سننه عمر بن إسماعيل ، متروك الحديث .

(٣) وروى عن النعمان بن بشير : من لم يشكر . إلخ . أخرجه أحمد [٢٧٨/٤] ، [٣٧٥] .

(٤) وروى أن النبى ﷺ أخرجه البخاري [٤٨٣٧] ، ومسلم [٢٨٢٠] ، وأحمد [١١٦/٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وإذا سمعت بهما شراً نسيته . وفي حكمة إدريس عليه السلام : لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ، ليكون صانعاً إلى الخلق مثل ما صنع الخالق إليه ، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك ، فأدم مواساة الفقراء وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر فقال تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر ، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر فإذا رأينا الغنى يشكر الله تعالى بلسانه ، وماله في نقصان علمنا أنه قد أحل بالشكر إماماً لأنه لا يزكى ماله ، أو يزكيه لغير أهله ، أو يؤخره عن وقته ، أو يمنع حقاً واجباً عليه من كسوة عريان ، أو إطعام جائع ، أو شبه ذلك ، فيدخل في قول النبي ﷺ : « لو صدق السائل ما أفلح من رده »^(١) . قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَتَىكَ اللَّهُ تَبَعٌ فَلَا تُغْنِ مَا يَقُولُ وَتَلْفَيْتَ مَا أَنْفَقْتَ ﴾ [الرعد: ١١] . وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غير الله ما بهم من الإحسان . وقال بعض الحكماء : من أعطى أربعاً لم يمنع من أربع : من أعطى الشكر لم يمنع المزيد ، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ، ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخيرة ، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب . وقال المغيرة بن شعبه : اشكر من أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فإنه لا بقاء للنعم إذا كفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت ، وكان الحسن يقول : ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة ، وأنت مرتهن بها ، كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك ، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها . وروى أن عثمان بن عفان عليه السلام دُعي إلى أقوام ليأخذهم على ربيّة ، فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان ، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجز على يديه فضيحة مسلم . وروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليه السلام : يا نبي الله ، أنا على قدرى أشكرُ لله منك ؟ وكان راكباً على فرس ذلول فخر عنه ساجداً لله تعالى ، ثم قال : لولا أنني أبجلك لسألتك أن تنزع مني ما أعطيتني ! وقال صدقة بن يسار : بينما داود عليه السلام في محرابه إذ مرّت به دودة فتفكر في خلقها ، وقال : ما يعبا الله بخلق هذه ، فأنطقها الله تعالى له ، فقالت : يا داود تعجبك نفسك ، وأنا على قدر ما أتاني الله تعالى أذكرُ لله ، وأشكر له منك على ما آتاك . وقال علي عليه السلام : احذروا نفار النعم ، فما كل شارد مردود . وعنه عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروا اتصالها بقلّة الشكر . وقيل : إذا قصرت يداك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر . وقال حكيم : الشكر ثلاث منازل : ضمير القلب ، ونشر اللسان ، ومكافأة اليد ، قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ، ولساني ، والضمير المحجبا

وقال ابن عائشة : كان يقال : ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا كان حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه ، وأنشد أبو العباس بن عمارة في المعنى :

أعارك ماله لتقوم فيه بواجبه وتقضى بعض حقه
فلم تقصد لطاعته ولكن قويت على معاصيه برزق

وقال محمد بن حبيب الراوية : إذا قلّ الشكر كثرت المنّ . وروى : إذا حجدت الصنعة خسر الامتنان . وسئل بعض الحكماء ما أضيع الأشياء ؟ قال : مطر الجود في أرض سبخة ، لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها ، وسراج يوقد في الشمس ، وجارية حسناء ترف إلى أعمى ، وصنعة تُسدى ، إلى من لا يشكرها . وقال عبد الأعلى بن حماد : دخلت على المتوكل فقال : يا أبا يحيى ، قد هممنا أن نصلك بخير فتدافعت الأمور ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة ، وأنشدته :

لأشكرن لك معروفًا هممت به فإن همك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يمضه قدر فالشر بالقدر المحتوم مضروف

وقال أبو فراس بن حمدان : وما نعمة مكفورة قد صنعتها
سأتى جميلًا ما حبيت فإنني إلى غير ذي شكر تُمانعني أخرى
إذا لم أفد شكرا أفدت به أجرا

(١) لو صدق السائل... إلخ أخرجه العقيلي [٥٩/٣] ، وابن الجوزي في الموضوعات [١٥٥/٢] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من امتطى الشكر ، بلغ به المزيد ، وقيل : من جعل الحمد خاتمة للنعمة جعله الله فاتحة للمزيد . وقال ابن السماك : النعمة من الله على عبده مجهولة ، فإذا فُقدت عُرِفَتْ . وقيل : من لم يشكر على النعمة ، فقد استدعى زوالها . وكان يقال : إذا كانت النعمة وسيمة ، فاجعل الشكر لها تيممة . وقال حكيم : لا تصطنعوا^(١) ثلاثة : اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السبخة ، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشه ، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه ، وإذا اصطنعت الكريم ، فازرع المعروف ، واحصد الشكر ، ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده فقال : ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة :

أمسلمة يا فخر كل خليفة ويا فارس الدنيا ويا جبل الأرض
شكرتُك إن الشكر دين على الفتى وما كل من أوليته نعمة يقضى
وأحييت لي ذكرى وما كان خاملاً ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

وسمعه الرشيد فقال : هكذا يكون شعر الأشراف ، مدح صاحبه ولم يَضَع نفسه . وعن نصر بن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أنعم على رجل نعمة فلم يشكر له ، فدعا عليه استجيب له »^(٢) . ثم قال نصر : اللهم إني أنعمت على بني سام ، فلم يشكروا اللهم اقلهم ، فقتلوا كلهم . وعن علي بن الحسين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن ليشبع من الطعام ، فيحمد الله تعالى ، فيعطيه من الأجر ما يعطى الصائم القائم ، إن الله شاكر يحب الشاكرين »^(٣) . وعن محمد بن علي : ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من الله إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمد عليها ، ولا أذنب عبد ذنباً ، فعلم أن الله قد اطلع عليه إن شاء غفر له ، وإن شاء أخذه قبل أن يستغفره إلا غفر الله له قبل أن يستغفره . وأولى رجل رجلاً أعرابياً خيراً فقال : لا أبلاك الله ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأنشد بعضهم وأجاد :

سأشكر لا أنى أجازيك مُنعماً بشكركى ولكن كى يُزاد لك الشُّكرُ
وأذكر أياماً لدى اصطنعتهَا وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر
وقال آخر :

أوليتنى نعماً أبوح بشكرها وكفيتنى كل الأمور بأسرها
فلأشكرنك ما حييت وإن أمت فلتشكرنك أعظمى فى قبرها
وقال آخر :

أيا رب قد أحسنت عوداً وبدأة إلى فلم ينهض بإحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة فعذرى إقرارى بأن ليس لى عُذرُ
وقال محمود الوراق :

إلهى لك الحمد الذى أنت أهله على نعم ما كنت قط لها أهلاً
إن ازددت تقصيراً تزدنى تفضلاً كأنى بالتقصير أستوجب الفضلاً
وقد أحسن نُصيب فى وصف الثناء والشكر بقوله :

فعاوجوا^(٤) وأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق^(٥)
وقال رجل من غطفان :

الشكر أفضل ما حاولت ملتصماً به الزيادة عند الله والناس

(١) تصطنعوا: اصطنع فلاناً لنفسه، أي اختاره. قال تعالى في مخاطبة سيدنا موسى: ﴿وَأَمَّا نَعْتِكَ لَئِنِّى﴾ [طه: ٤١].

(٢) من أنعم.. إلخ أخرجه العقيلي في الضعفاء [٢٩٩/٤]، وابن الجوزي في الموضوعات [١٧٢/٣].

(٣) إن المؤمن ليشبع.. إلخ لم أقف عليه.

(٤) عاوجاً: أي رجع.

(٥) الحقائق: جمع حقيقة، وهي العجز، وما يُجعل فيه المتاع والزاد، وكل ما يُحمل وراء الرُّخْل.

وقيل : اشكر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ، ومن أخيك المناصحة .

الفصل الثالث : من هذا الباب في المكافأة

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَسَدَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَقْدِرُوا فَادْعُوا لَهُ » ^(١) . ولما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ قام يخدمهم ﷺ بنفسه ، فقبل له : يا رسول الله ! لو تركتنا كفيناك ، فقال : « كانوا لأصحابي مكرمين » ^(٢) ، وقيل : أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال :

أذكر صنيعة إذا فاجاك ذو سفه يوم السقيفة ، والصديق مشغول فقال عمر بأعلى صوته : أذن مني فدنا منه ، فأخذ بذراعه حتى استشرفه الناس ، وقال : ألا إن هذا رد عن سفيها من قومه يوم السقيفة ، ثم حملة على نجيب ^(٣) ، وزاد في عطائه ، وولاه صدقة قومه ، وقرأ ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] وقال رجل لسعيد بن العاص - وهو أمير الكوفة - يدى عندك بيضاء ، قال : وما هي ؟ قال : كتبت بك فرسك ، فتقدمت إليك قبل غلمانك ، فأخذت بعضدك وأركتبك ، وأسقيتك ماء ، قال : فأين كنت إلى الآن ؟ قال : حجبت عن الوصول إليك ، قال : قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم ، وبما يملكه الحاجب إذ حجبت عنا . وقال قطري بن الفجاءة لخارجي أسره الحجاج ثم من عليه فأطلقه : عاود قتال عدو الله ، فقال : هيهات شد يدًا مطلقها ، وأرق رقبة معتقها ، ثم قال :

أقاتل الحجاج عن سلطانه بيد تقر بأنها مولاته ؟
ماذا أقول إذا وقفت إزاءه في الصف واحتجت له فعلاته ؟
أقول جاز علي لا إنى إذا لأحق من جارت عليه ولأئه
وتحدث الأقوام أن صنائعا غرست لدى فحفظت نخلاته
واجتاز الشافعي - رحمه الله تعالى - بمصر في سوق الحدادين ، فسقط سوطه فقام إنسان فأخذه ومسحه وناوله إياه ، فقال لغلامه : كم معك ؟ قال : عشرة دنانير ، قال : ادفعها إليه ، واعتذر له ، واستنشد عبد الملك عامرًا الشعبي فأنشده لغير ما شاعر حتى أنشد لحسان :

من سره شرف الحياة فلم يزل في غصبة من صالحى الأنصار
البائعين نفوسهم لنبيهم بالمشرفى وبالقنا الخطار ^(٤)
الناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الأبصار
فقام أنصارى فقال : يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة ، على له ستون من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها ، فقال عبد الملك : وله عندي ستون ألفا وستون من الإبل .

وعن علي رضي الله عنه أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم . وقال المدائني : رأيت رجلا يطوف بين الصفا والمروة على بغلة ، ثم رأته ماشيا في سفر ، فسألته عن ذلك فقال : ركبت حيث يمشى الناس ، فكان حقا على الله أن يرجلني ^(٥) حيث يركب الناس !

(ومما جاء في المكافأة) : ما حكى عن الحسن بن سهل قال : كنت يوما عند يحيى بن خالد البرمكي - وقد خلا في مجلسه لإحكام أمر من أمور الرشيد - فبينما نحن جلوس ، إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج ،

(١) من أسدى . . إلخ قال العجلوني : رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح بلفظ : « من صنع » .

(٢) ولما قدم وفد النجاشي إلخ . . لم أمتد إليه .

(٣) النجيب : الفاضل على مثله ، التقيس في نوعه .

(٤) المشرفى : سيف يجلب من المشارف ، منسوب إليها والقنا : الرُمح الأجوف ، والخطار : الرُمح .

(٥) يرجلني : يجعلني أمشي على رجلي .

فقضاهما لهم ، ثم توجهوا لشأنهم ، فكان آخرهم قياما أحمد بن أبي خالد الأحول ، فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنه وقال : يا بني ، إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثا ، فإذا فرغت من شغلي هذا فذكرني أحذثك به ، فلما فرغ من شغله وطعم : قال له ابنه الفضل : أعزك الله يا أبي ، أمرتني أن أذكرك حديث أبي خالد الأحول ، قال : نعم . يا بني ، لما قدم أبوك من العراق أيام المهدي ، كان فقيرا لا يملك شيئا ، فاشتد بي الأمر إلى أن قال لي من في منزلي : إنا قد كتمنا حالنا ، وزاد ضررنا ، ولنا اليوم ثلاثة أيام ، ما عندنا شيء نقتات به ، قال : فبكيت يا بني لذلك بكاء شديدا ، وبقيت ولهان حيران مطرقا مفكرا ثم تذكرت منديلا كان عندي ، فقلت لهم : ما حال المنديل ؟ فقالوا : هو باق عندنا ، فقلت : ادفعوه إلي ، فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابي ، وقلت له : بغه بما تيسر ، فباعه بسبعة عشر درهما ، فدفعته إلى أهلي ، وقلت : أنفقوها إلى أن يرزق الله غيرها ، ثم بكرت من الغد إلى باب أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي ، فإذا الناس وقوف على داره ينتظرون خروجه ، فخرج عليهم راكبا فلما رآني سلم علي وقال : كيف حالك ؟ فقلت : يا أبا خالد ، ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلا بسبعة عشر درهما ؟! فنظر إلي نظرا شديدا ، وما أجابني جوابا ، فرجعت إلى أهلي كسير القلب ، وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد ، فقالوا : بشس والله ما فعلت ، توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل ، فكشفت له سره ، وأطلعته على مكنون أمرك ، فأزريت عنده بنفسك ، وصغرت عنده منزلتك ، بعد أن كنت عنده جليلا ، فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين . فقلت : قد قضى الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه ، فلما كان من الغد ، بكرت إلى باب الخليفة ، فلما بلغت الباب استقبلني رجل فقال لي : قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين ، فلم ألتفت لقوله ، فاستقبلني آخر فقال لي كمقالة الأول ، ثم استقبلني حاجب أبي خالد فقال لي : أين تكون ؟ قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين ، فجلست حتى خرج ، فلما رآني دعاني وأمر لي بمركوب فركبت ، وسرت معه إلى منزله فلما نزل قال : علي بفلان وفلان الحناطين فأحضرا ، فقال لهما : ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر ألف ألف درهم ؟! قالا : نعم . قال : ألم أشرط عليكم شركة رجل معكما ؟! قالا : بلى . قال هو هذا الرجل الذي اشترطت شركته لكما ثم قال لي . قم معهما ، فلما خرجنا قالا لي : ادخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون لك فيه الربح الهنيء ، فدخلنا مسجداً فقالا لي : إنك تحتاج في هذا الأمر إلى وكلاء ، وأمناء ، وكيايين وأعوان ، ومؤون لم تقدر منها على شيء فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعمله لك ، فنتنفع به ، ويسقط عنك التعب والكلف ، فقلت لهما : وكم تبذلان لي ؟ فقالا : مائة ألف درهم ، فقلت : لا أفعل ، فما زالا يزيداني ، وأنا لا أرضى إلى أن قالا لي : ثلاثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا ، فقلت : حتى أشاور أبا خالد ، قالا ذلك لك فرجعت إليه ، وأخبرته فدعا بهما ، وقال لهما : هل وافقتماه على ما ذكر ؟ قالا : نعم . قال : اذهبا فأقبضاه المال الساعة ، ثم قال لي : أصلح أمرك ، وتهياً فقد قلدتك العمل ، فأصلحت شأني وقلدني ما وعدني به ، فمازلت في زيادة حتى صار أمري ، إلى ما صار ، ثم قال لولده الفضل : يا بني ، فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل ، وما جزاؤه ؟ قال : حق لعمرى وجب عليك له ، فقال : والله يا ولدي ، ما أجد له مكافأة غير أني أعزل نفسي ، وأوليه ، ففعل ذلك ﷺ وهكذا تكون المكافأة .

(ومن ذلك ما حكى) : عن العباس - صاحب شرطة المأمون - قال : دخلت يوما إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد . وبين يديه رجل مكبل بالحديد - فلما رآني قال لي : يا عباس ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : خذ هذا إليك فاستوثق منه ، واحتفظ به وبكره به إلى في غد واحترز عليه كل الاحتراز ، قال العباس : فدعوت جماعة فحملوه ، ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي : مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي ، فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري ، ثم أخذت أسأله عن قضيته ، وعن حاله ، ومن أين هو ؟ فقال : أنا من دمشق ، فقلت : جزى الله دمشق وأهلها خيرا ، فمن أنت من أهلها ؟ قال : وعمن تسأل ؟ قلت : أتعرف فلانا ؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت وقع لي معه قضية ، فقال : ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه ، فقال : ويحك ! كنت مع بعض الولاة بدمشق ، فبغى أهلها وخرجوا علينا ،

حتى إن الوالى تدلّى في زنبيل^(١) من قصر الحجاج ، وهرب هو وأصحابه ، وهربت في جملة القوم ، فبينما أنا هارب في بعض الدروب ، وإذا بجماعة يَغْدُون خلفي ، فمازلت أعدو أمامهم ، حتى فتحهم ، فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره ، فقلت : أغثنى أغاثك الله ؛ قال : لا بأس عليك ، ادخل الدار ، فدخلت ، فقالت زوجته : ادخل تلك المقصورة ، فدخلتها ، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل ، والرجال معه يقولون ، هو والله عندك ، فقال : دونكم الدار فتشوها ؛ ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة ، وامراته فيها ، فقالوا : هو هاهنا فصاحت بهم المرأة ، ونهرتهم ، فانصرفوا ، وخرج الرجل ، وجلس على باب داره ساعة ، وأنا قائم أرجف ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف ، فقالت المرأة : اجلس لا بأس عليك ، فجلست ، فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف قد صرف الله عنك شرهم ، وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى ، فقلت له : جزاك الله خيرا ، فمازال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها ، وأفرد لى مكانا فى داره ، ولم يحوجنى إلى شىء ، ولم يفتر عن تفقد أحوالى ، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنته ، إلى أن سكنت الفتنة ، وهدأت ، وزال أثرها ، فقلت له : أتأذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى ؟! فلعلى أقف منهم على خبر ! فأخذ على الموائيق بالرجوع إليه ، فخرجت وطلبت غلمانى فلم أر لهم أثرا فرجعت إليه ، وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفنى ، ولا يسألنى ، ولا يعرف اسمى ، ولا يخاطبنى إلا بالكنية ، فقال لى : علام تعزم ؟ فقلت : قد عزمت على التوجه إلى بغداد ، فقال : إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج ، وها أنا قد أعلمتك ، فقلت له : إنك قد تفضلت على هذه المدة ولك على عهد الله أنى لا أنسى لك هذا الفضل ، ولأوفينك مهما استطعت قال : فدعا غلاما له أسود ، وقال له : أسرج الفرس الفلانى ، ثم جهز آلة السفر ، فقلت فى نفسى : أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له ، أو ناحية من النواحي ، فأقاموا يومهم ذلك فى كدّ وتعب ، فلما كان يوم خروج القافلة جاءنى فى السحر وقال لى : يا فلان ، قم فإن القافلة تخرج الساعة ، وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت فى نفسى : كيف أصنع ، وليس معى ما أتزوّد به ، ولا ما أكرى به مركوبا ، ثم قمت فإذا هو وامراته يحملان بقجة من أفر الملباس ، وخفين جديدين ، وآلة السفر ، ثم جاءنى بسيف ومِنْطَقَة فشدهما فى وسطى ، ثم قدّم بغلا فحمل عليه صندوقين ، وفوقهما فرش ، ودفع إلى نسخة ما فى الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم ، وقدم إلى الفرس الذى كان جهزه ، وقال : اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك ، وأقبل هو وامراته يعتذران إلى من التقصير فى أمرى ، وركب معى يشيعنى ، وانصرفت إلى بغداد ، وأنا أتوقع خبره لأفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته ، واشتغلت مع أمير المؤمنين ، فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره ، فلماذا أنا أسأل عنه ، فلما سمع الرجل الحديث قال : لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ، ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ، ولا مؤنة تلزمك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضّر الذى أنا فيه غير عليك حالى ، وما كنت تعرفه منى ، ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب ، حتى أثبت معرفته ، فما تماكنت أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذى أشارك إلى ما أرى ؟! فقال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك ، فثسبت إلى وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد ، وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت ، وقيدت ، وبعث بى إلى أمير المؤمنين ، وأمرى عنده عظيم ، وخطبى لديه جسيم ، وهو قاتلى لا محالة ، وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية ، وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف إلى أهلى بخبرى ، وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد ، فإن أنت فعلت ذلك ، فقد جاوزت حدّ المكافأة ، وقمت لى بوفاء عهدك : قال العباس : قلت يصنع الله خيرا ، ثم أحضر حدّادا فى الليل ، فك قيوده ، وأزال ما كان فيه من الأتكال . وأدخله حمام داره ، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سير من أحضر إليه غلامه ، فلما رآه جعل يبكى ، ويوصيه فاستدعى العباس نائبه ، وقال : على بالفرس الفلانى ، والفرس الفلانى ، والبغل الفلانى ، والبغلة الفلانية ، حتى عدّ عشرة ، ثم عشرة من الصناديق ، ومن الكسوة كذا وكذا ، ومن الطعام كذا وكذا ، قال ذلك الرجل : وأحضر لى بدرة عشرة آلاف درهم ، وكيسا فيه خمسة آلاف دينار ، وقال لنائبه فى الشرطة : خذ هذا الرجل ، وشيعه إلى حدّ الأنبار ، فقلت له : إنّ ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم ، وخطبى جسيم ،

(١) الزنبيل : بتشديد الدال المكسورة وسكون النون : القفّة ، والجمع زناويل .

وإن أنت احتججت بأني هربت ، بعث أمير المؤمنين في طلبى كل من على بابه ، فأرد وأقتل ، فقال لى : انج بنفسك . ودعنى أدير أمرى ، فقلت : والله لا أبرح من بغداد ، حتى أعلم ما يكون من خبرك ؟ فإن احتججت إلى حضورى حضرت ، فقال لصاحب الشرطة : إن كان الأمر على ما يقول فيمكن في موضع كذا ، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته ، وإن أنا قُتلت فقد وقته بنفسى كما وقانى بنفسه ، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم ، وتجهت في إخراجهم من بغداد ، قال الرجل : فأخذنى صاحب الشرطة ، وصيرنى في مكان أثق به ، وتفرغ العباس لنفسه ، وتحنط وجهه له كفنا قال العباس : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا ورسل المأمون في طلبى ، يقولون : يقول لك أمير المؤمنين : هات الرجل معك وقم ، قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين ، فإذا هو جالس ، وعليه ثيابه ، وهو ينتظرنا ، فقال : أين الرجل ؟ فسكت . فقال : ويحك أين الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، اسمع منى ، فقال : لله على عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك ، فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما هرب . ولكن اسمع حديثى وحديثه ، ثم شأنك وما تريد أن تفعله فى أمرى ، قال : قل . فقلت : يا أمير المؤمنين ، كان من حديثى معه كيت وكيت ، وقصصت عليه القصة جميعها ، وعرفته أنى أريد أن أفى له ، وأكافئه على ما فعله معى ، وقلت : أنا وسيدى ومولائى أمير المؤمنين بين أمرين : إما أن يصفح عني ، فأكون قد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلنى فأقيه بنفسى ، وقد تحنطت وها كفى يا أمير المؤمنين ، فلما سمع المأمون الحديث قال : ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيرا . إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ! وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير ؟! هلا عرفتني خبره ! فكنا نكافئه عنك ، ولا نقصر فى وفائك له ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتى ، فإن احتججت إلى حضوره ، حضر . فقال المأمون : وهذه منة أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيب نفسه ، وسكن روعه ، واتنى به ، حتى أتولى مكافأته . قال العباس : فأتيت إليه ، وقلت : له ليزل خوفك إن أمير المؤمنين قال : كيت وكيت ، فقال : الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء سواه ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم ركب ، وجئنا فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه ، وحذته حتى حضر الغداء ، وأكل معه وخلع عليه ، وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستعفى ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها ، وعشرة أبغال بالآتها ، وعشر بدير ، وعشرة آلاف دينار ، وعشرة آلاف ممالك بدوابهم ، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به ، وإطلاق خراجها ، وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى المأمون ، وكلما وصلت خريطة البريد ، وفيها كتابه يقول لى : يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم .

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائبه ، ما أورده محمد بن القاسم الأنبارى - رحمه الله تعالى - أن سوارا صاحب رجة سوار ، وهو من المشهورين قال : انصرفت يوما من دار الخليفة المهدى ، فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام ، فلم تقبله نفسى فأمرت به فرفع ، ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها ، وأشتغل بها ، فلم تطب نفسى فدخل وقت القائلة ، فلم يأخذنى النوم ، فنهضت وأمرت ببيغلة لى فأسرجت ، وأحضرت ، فركبتها ، فلما خرجت من المنزل استقبلنى وكيل لى ، ومعه مال فقلت : ما هذا ؟ فقال : ألفا درهم جبيته من مستغلك الجديد ، قلت : أمسكها معك ، واتبعتى فأطلقت رأس البيغلة حتى عبرت الجسر ، ثم مضيت فى شارع دار الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء ، ثم رجعت إلى باب الأنبار ، وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة ، وعلى الباب خادم ، فعطشت فقلت للخادم : أعندك ماء تسقيته ؟ قال : نعم . ثم دخل ، وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل ، فناولنى فشربت ، وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على الباب ، فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يلتمس ، فقلت : ما تريد يا هذا ؟ قال : إياك أريد . قلت : فما حاجتك ؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى وقال : شممت منك رائحة طيبة ، فظننت أنك من أهل النعيم ، فأردت أن أحذئك بشيء فقلت : قل . قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر ؟ قلت : نعم . قال : هذا قصر كان لأبى فباعه : وخرج إلى خراسان ، وخرجت معه ، فزالت عنا النعم التى كنا فيها ، وعيمت فقدمت هذه المدينة ، فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلنى به ، وأتوصل إلى سوار ، فإنه كان صديقا لأبى ، فقلت : ومن أبوك ؟ قال : فلان ابن فلان ، فعرفته فإذا هو كان من أصدق الناس لى ، فقلت له : يا هذا ، إن الله تعالى قد أذكك بسوار ، منعه من الطعام والنوم والقرار ؛ حتى جاء به فأقعده بين يديك ، ثم دعوت الوكيل

فأخذت الدراهم منه فدفعها إليه وقلت له : إذا كان الغد فسر إلى منزلي ، ثم مضيت ، وقلت : ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هذا فأتيته ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فلما دخلت عليه ، حدثته بما جرى لي ، فأعجبه ذلك ، وأمر لي بألفي دينار ، فأحضرت فقال : ادفعتها إلى الأعمى ، فنهضت لأقوم فقال : اجلس فجلست ، فقال : أعليك دين ؟ قلت : نعم . قال : كم دينك ؟ قلت : خمسون ألفا ، فحدثني ساعة وقال : امض إلى منزلك فمضيت إلى منزلي ، فإذا بخادم معه خمسون ألفا ، وقال : يقول لك أمير المؤمنين ، اقض بها دينك ، قال : فقبضت منه ذلك ، فلما كان من الغد أبطأ عليّ الأعمى ، وأتاني رسول المهديّ يدعوني فجئته فقال : قد فكرت البارحة في أمرك فقلت : يقضى دينه ، ثم يحتاج إلى القرض أيضا ، وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى قال : فقبضتها وانصرفت فجاءني الأعمى ، فدفعته إليه الألفي دينار ، وقلت له : قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافأك على إحسان أبيك ، وكافأني على إسداء المعروف إليك ، ثم أعطيته شيئا آخر من مالي ، فأخذه وانصرف والله سبحانه وتعالى أعلم .

(ومما هو أوضح حسنا ، وأرجح معنى) : ما حكاه القاضي يحيى بن أكثم - رحمة الله عليه - قال : دخلت يوما على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي ، وهو مطرق مفكر ، فقال لي : أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقي وإن طال الزمان به والشّر أخبث ما أوغيت من زاد ^(١)

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّ لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص ، فقال : عليّ بعبيد فلما حضر بين يديه ، قال له : أخبرني عن قصة هذا البيت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، كنت في بعض السنين حاجًا فلما توسطت البادية في يوم شديد الحرّ ، سمعت ضجة عظيمة في القافلة ، ألحقت أولها بآخرها ، فسألت عن القصة ، فقال لي رجل من القوم : تقدم ترّما بالناس ؟ فتقدّمت إلى أول القافلة ، فإذا أنا بشجاع أسود فاغراه كالجدع وهو يخور كما يخور الثور ، ويرغو كرجاء البعير ، فهالني أمره ، وبقيت لا أهدى إلى ما أصنع في أمره ، فعدّلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى ، فعارضنا ثانيا فعلمت أنه لسبب ، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه ، فقلت : أفدى هذا العالم بنفسى ، وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة ، من هذا فأخذت قرية من الماء ، فتقلدتها ، وسللت سيفي ، وتقدمت ، فلما رأيته قربت منه سكن ، وبقيت متوقعا منه وثبة يتلعبني فيها ، فلما رأى القرية فتح فاه ، فجعلت فم القرية في فيه ، وصببت الماء كما يصب في الإناء فلما فرغت القرية تسبب في الرمل ، ومضى فتعجبت من تعرّضه لنا ، وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه ، ومضينا لحجنا ، ثم عدنا في طريقنا ذلك ، وحططنا في منزلتنا تلك في ليلة مظلمة مدلهمة ، فأخذت شيئا من الماء ، وعدلت إلى ناحية عن الطريق ، ففضيت حاجتي ، ثم توضأت وصليت ، وجلست أذكر الله تعالى ، فأخذتني عيني ، فنمت مكاني ، فلما استيقظت من النوم ، لم أجد للقافلة حسا وقد ارتحلوا ، وبقيت منفردا لم أر أحدا ولم أهد إلى ما أفعله ، وأخذتني حيرة ، وجعلت أضطرب وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ، ولا أرى شخصه يقول :

يأبها الشخص المضل مَرَكبه ما عنده من ذي رشاد يصحبه

دونك هذا البكر مَنّا تركبه وبكرك الميمون حقا تجنبه

حتى إذا ما الليل زال غيهبه عند الصباح في الفلا تسيبه

فنظرت فإذا أنا ببكر قائم عندي . وبكرى إلى جانبي ، فأنخته ، وركبته ، وجنبت بكري ، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة ، وانفجر الفجر ، ووقف البكر ، فعلمت أنه قد حان نزولي فتحولت إلى بكري وقلت :

يأبها البكر قد أنجيت من كرب ومن هموم تُضِلّ المدلج الهادي

ألا تخبرني بالله خالقنا من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي ؟!

وارجع حميدا فقد أبلغتنا مِنّا بوركت من ذي سنام رائح غادي

(١) ذكر القصة ابن أبي الدنيا في كتابه الهوائف تحت عنوان هوائف الحيات وقد ورد هذا البيت على لسان «الشجاع» من الحيات مع بيتين قبله وآخر بعده ، وعبيد شاعر جاهلي قتل المنذر بن ماء السماء ولم يعمر حتى عصر هارون الرشيد فلزم التنويه ، ولعل الرشيد طلب من يقص عليه قصة هذا البيت . أو لعل صاحبها غير عبيد حيث يقول فيها «ثم توضأت وصليت» .

(٢) البكر : بفتح الباء وسكون الكاف : الفتى من الإبل ، والجمع أبكر ، وبكرار .

فالتفت البكر إلى وهو يقول :

أنا الشجاع الذي ألفتني رمضا
فجدت بالماء لما ضن حامله
فالخير أبقي وإن طال الزمان به
هذا جزاؤك مني لا أمن به
فعجب الرشيد من قوله وأمر بالقصة والأبيات فكتبت عنه وقال : لا يضيع المعروف أين وضع ! والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .



الباب الثالث والأربعون

في الهجاء ومقدماته

القصد من الهجاء : الوقوف على مُلحه ، وما فيه من ألفاظ فصيحة ، ومعانٍ بديعة ، لا تشفى بالأعراض ، والوقوع فيها ، وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجّو ، ولا صدق الشاعر فيما رماه به ، فما كل مذموم بذميم ، وقد يُهَجَّى الإنسان بهتاناً وظلماً أو عبثاً أو إرهاباً . قال المتوكل لأبي العيّن ، كم تمدح الناس وتذمهم ؟ قال : ما أحسنوا وأساءوا وقد - رضى الله تعالى - على عبد من عبيده فمدحه فقال : ﴿ نَعَمْ أَلَمَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ^(٢) وغضب على آخر فقال : ﴿ مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْمٍ ﴾ ^(٣) عُنْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنٍ ^(٤) قيل : الزنيم الملتصق بالقوم ، وليس منهم ، وقال : دعبل ^(٥) في المأمون : بعد البيعة له وقتل الأمين :

إنى من القوم الذين هُمُوهُمُو
شادوا لذكرك بعد طول خُمُوله
فقال المأمون : ما أبهت ليت شعري متى كنت خاملاً ، وفي حجر الخلافة رُبَيْتُ وببرها غذيت ؟ ! ولما قُتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس ، فقيل له : أتبكي على جعفر وأنت هجوته ؟ فقال : كان ذلك لركوب الهوى ، وقد بلغه والله أنى قلت :

ولست وإن أطنبت في وصف جعفر
فكتب : يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه ! . ومن العبث بالهجو ما روى أن الخطيئة ^(٦) همّ بهجاء فلم يجد من يستحقه فقال :

أبث شفتاي اليوم إلا تكلما
أرى بى وجهاً قبّح الله خلقه
وبعث بأمه فقال :

(١) الصّادي : شديد العطش .

(٢) سورة ص : [٤٤] . والمراد بالعبد هنا « أيوب » ^(١) في الآية رقم [٤١] « وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِيْرِهِم » .

(٣) سورة القلم الآيتان رقم [١٢ ، ١٣] . وجاء في مبهمات القرآن - بتحقيق - قال السدي : نزلت في الأخنس بن شريق ، وقال مجاهد : في الأسود بن عبد يغوث ، أخرجهما مجاهد . وقيل : في الوليد بن المغيرة . حكاها . الكرمانى .

(٤) دعبل [٧٦٥ - ٨٦١ م] شاعر أصله من الكوفة . تخرج في الشعر على مسلم بن الوليد واتصل بالرشيد . وكان يتشيع للعلويين .

(٥) الخطيئة أحد الهجانين ، ولم يرحم أحد من لسانه حتى نفسه وأمه . . انظر إلى كتابنا عنه « اضحك مع الخطيئة » .

تنحني فاجلسي عَنَّا بعيذاً
أغربالاً إذا استودعت سرّاً
حياتك ما غلِمت حياة سُوءٍ
وقال رجل : ما أبالي أهجيت أو مُدِخت ، فقال له الأحنف : أرحت نفسك من حيث تعب الكرام .

وأنا أقول : إنما يخشى من الهجو من يخاف على عرضه ؟ وأما من لا يخاف على عرضه فقد يستوى عنده المدح والذم ، وبش الرجل ذاك . وكان الرجل من تُمير إذا قيل له : ممن الرجل ؟ يقول من نمير ، وأمال بها عنقه فلما هجاهم جرير بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير

صار إذا قيل لأحدهم : ممن الرجل ؟ يقول : من بنى عامر ، وما لقيت قبيلة من العرب يهجو ما لقيت نمير بهجو جرير ، وهجا ابن بسام رجلاً فقال :

يا طلوع الرقيب^(٣) من غير إلف

يا ركودا في وقت غيم وصيف
وقصد : ابن عينة قيصة المهلب ، واستماحه ، فلم يسمح له بشيء فانصرف مغضباً فوجه إليه داود بن زيد بن حاتم فترضاه وأحسن إليه فقال في ذلك :

داود محمود وأنت مذمم

ولرب عود قد يشق لمسجد

فالحش أنت له وذاك بمسجد

هذا جزاؤك يا قبيص لأنه
وله هجاء في خالد :

أبوك لنا غيث يُغيث بونله

له أثر في المكرمات يسرنا

وقال المبرد في حقه : لم يجتمع لأحد من المحدثين في بيت واحد هجاء رجل ، ومدح أبيه إلا له .

ولما قعد حماد عجرد لتأديب ولد الأمين قال بشار بن برد :

قل للأمين جزاك الله سالحة

السخل يعلم أن الذئب أكله

يا أبا الفضل لا تنم

إن حماد عجرد

بين فخذه حربة

إن رأى ثم غفلة

لا يجمع الله بين السخل والذئب

والذئب يعلم ما بالسخل من طيب^(٦)

وقع الذئب في الغنم !

شيخ سوء قد اغتلم

فسي غلاف من الأدم

يجمع الميم بالقلم^(٧)

(١) الكائنون : الذي يجلس حتى يتبين الأخبار والأحداث لينقلها .

(٢) كعب وكلاب قبيلتان معدودتان بين القبائل .

(٣) الرقيب : من يلاحظ أمراً ما ، أمين أصحاب الميسر يرعى حدود اللعب .

(٤) الحش : الكيف .

(٥) الزئبل : المطر الشديد الضخم القطر . وهو مدح لأبيه ويأتي ذم ابنه في أنه كالجراد المنتشر الأبيض ولا يذر فمدح أباه وذم ابنه في بيت واحد .

(٦) السخل والسخلة : الذكر والأنثى من ولد الضأن والماعز ساعة يولد .

(٧) اغتلم : أصابته غلّة ، وهي شدة الشبق والإنعاط والشهوة للجماع . وقوله يجمع الميم بالقلم كناية عن الممارسة الجنسية . ارجع إلى كتابنا

المحقق للتعالي عن الكناية .

فشاعت الأبيات فأمر الأمين بإخراج حماد . وقال : رجل لأخيه لأبويه : لأهجونك هجاء يدخل معك في قبرك ، قال : كيف تهجونى وأبوك أبى وأمك أُمى ؟! قال أقول :

بنى أمية هَبُوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الماء والعود
فدخل يعقوب على المهدي ، فأخبره أن بشاراً هجاء ، فاغتاظ المهدي ، وانحدر إلى البصرة لينظر في أمرهما فسمع
أذانا في ضحى النهار ، فقال : انظروا ما هذا ؟ وإذا به بشار وهو سكران فقال له : يازنديق عجب أن يكون هذا من
غيرك ، ثم أمر به فضربه سبعين سوطاً حتى أثلفه بها ، وألقى في سفينة فقال : عين الشقمق ترانى حيث يقول :
إن بشار بن بُرد تيس أعمى فى سفينته
فلما مات ألقىت جثته فى الماء ، فحملة الماء فأخرجه إلى الدجلة ، فجاء بعض أهله ، فحملوه إلى البصرة ،
وأخرجت جنازته ، فما تبعه أحد ، وتبأشر عامة الناس بموته ، لما كان يلحقهم من الأذى منه .

وخاصم أبو دلامة رجلاً فارتفعا إلى عافية القاضي ؛ فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول :
لقد خاصمتهنى دُهاة الرجال وخاصمتهها سنة وافيه
فما أدخض الله لى حجة ولا خيب الله لى قافيه
ومن خفت من جوره فى القضا ء فليست أخافك يا عافية
فقال عافية لأشكونك إلى أمير المؤمنين ، ولأعلمنه أنك هجوتنى ، قال له أبو دلامة إذا والله يعزلك ، قال : ولم ؟
قال : لأنك لا تعرف الهجاء من المدح قال : فبلغ ذلك المنصور ، فضحك ، وأمر له بجائزة .

ودخل أبو دلامة على المهدي ، وعنده إسماعيل بن على ، وعيسى بن موسى ، والعباس ابن محمد ، وجماعة من
بنى هاشم ، فقال له المهدي : والله لئن لم تهجُ واحداً ممن فى هذا البيت ، لأقطعن لسانك ، فنظر إلى القوم ، وتحير
فى أمره ، وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمره ، بأن عليه رضاه ، قال أبو دلامة فإزددت حيرة فما رأيت أسلم لى من أن
أهجو نفسى ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دلامه فلست من الكرام ولا كرامه
جمعت دمامة وجمعت لؤماً كذاك اللؤم تتبعه الدمامة
إذا لبس العمامة قلت : قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامة
فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازه . وقال ابن الأعرابى : إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن
وهب فى محمد بن هاشم :

لم تئذ كفاك من بذل النوال كما لم يند سيفك مذ قلده بدم
وهجا بعضهم القمر فقال : يهدم العمر ، ويوجب أجرة المنزل ، ويشحب الألوان ، ويقرض الكتان ، ويضل
السارى ، ويعين السارق ، ويفضح العاشق .

ولابن منقذ فى ابن طليب المصرى وقد احترقت داره :

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا قسراً إلى الأقدار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره نارا وكان خرائبها بالنار

وكان : للوجيه بن صورة المصرى دلال الكتب دار بمصر موصوفة بالحسن ، فاحترقت فقال فيها ابن المنجم :

أقول وقد عاينت دار ابن صورة وللنار فيها وهجة تتضرم
فما هو إلا كافر طال عمره فجاءته لما استبطأت جهنم

وقد أحسن الأديب كمال الدين على بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى فى ذم دار كان يسكنها حيث قال :

دار سكنت بها أقبا صفاتها أن تكثر الحشرات فى جنباتها

والشَرْدان من جميع جهاتها
 كم أعدم الأجفان طيب سناتها^(١)
 غنت لها رقصت على نغماتها
 قد قدمت فيه على أخواتها
 عين الشمس ما طربى سوى غناتها
 فينا؟! وأين الأسد من وثباتها؟!
 أبصارنا عن وصف كيفياتها
 مع ليلها ليست على عاداتها
 عنه العتاق الجرد في حملاتها
 أرضها، وعلت على جنباتها
 أردى الكُماة^(٢) الصيد عن شهواتها
 مما يفوت العين كنه ذواتها
 حجارة لبدت على كاساتها
 قد قل ذر الشمس عن ذراتها
 فتعوذوا بالله من لدغاتها
 ورق الحمام سجعن في شجراتها
 حر السموم أخف من زفراتها
 فينا حماناً الله لدغ حُماتها
 ولا حياة لمن رأى حياتها
 والأرض قد نسجت على آفاتها
 وترائها كالرمل في خشناتها
 والدود تبحث في ثرى عرصاتها
 تحكى الخيول الجرد في حملاتها
 وجهنم تغزى إلى لفحاتها
 ورأيت مسطوراً على جنباتها
 تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
 يارب نج الناس من آفاتها
 يتفرق السكان من ساحاتها
 كذب الرواة فأين صدق رواتها
 للنفس إذ غلبت على شهواتها
 فيها وتندب باختلاف لغاتها
 شوق الصباح تسح من عبراتها

الخير عنها نازح متباعداً
 من بعض ما فيها البغوض عديمته
 وتبيت تسعدها براغيث متى
 رقص بتنقيط ولكن قافه
 وبها ذباب كالضباب يسد
 أين الصوارم والقنا من فتكها
 وبها من الخطاف ما هو معجز
 وبها خفافيش تطير نهارها
 وبها من الجردان ما قد قصرت
 وبها خنافس كالطنافس^(٣) أفرشت في
 لوشم أهل الحرب مننن فسوها
 وبنات وزدان وأشكال لها
 أبداً تمص دماءنا فكأنها
 وبها من النمل السليماني ما
 ماراعنى شيء سوى وزغاتها
 سجمت على أوكارها فظننتها
 وبها زنابير^(٤) تظن عقارباً
 وبها عقارب كالآقارب رُتّع
 كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة
 منسوجة بالعنكبوت سماؤها
 فضجيجها كالرعد في جنباتها
 والبوم عاكفة على أرجائها
 والجن تأتيها إذا جن الدجى
 والنار جزء من تلهب حرها
 شاهدت مكتوباً على أرجائها
 لا تقربوا منها، وخافوها ولا
 أبداً يقول الداخلون ببابها
 قالوا: إذا ندب الغراب منازلها
 وبيدارنا ألفا غراب ناعق
 صبراً لعل الله يعقب راحة
 دار تبيت الجحيم تحمى نفسها
 كم بت فيها مفرداً والعين من

(١) السَّنات : جمع سنة وهي مقدمة النوم أو النوم الخفيف .

(٢) الطَّنَافِس : مفردها طَنَفَس : بفتح الفاء وكسرهما : البساط ، والثَّمَرَة فوق الرُّخْل .

(٣) الكُماة : كمي إليه ، أي تقدم ، وكمي نفسه ، أي سترها بالدرع والبيضة ، فهو كام .

(٤) زَنَابِير : جمع زَنَابَر ، وهي حشرة آكلة اللع من الفصيلة الزنبورية ، واحدته زَنَابَرَة .

يا رازقاً للوحش في قلواتها
أخرى هب لي الخلد في جناتها
يا جامع الأرواح بعد شتاتها

وأقول : يارب السموات الغلا
أسكنتني بجهنم الدنيا ففى
واجمع بمن أهواه شملى عاجلا
ولبعضهم فى بلان :

مست أنامله ظهري فأدمانى
ولا يسرح تسريحاً بإحسان

أشكو إلى الله بلأنا بليت به
فلا يدلك تدليكا بمعرفة
وللشيخ شمس الدين البدوى فى بلان أيضا :

به حد الشفار المرهفات
على حلل الستور السابلات^(١)
فأيبسها وكسر فوقحاتى
وذلك من عظيم المهلكات
يفوخ به على كل الجهات
يغسلنى إذا حانت وفاتى !

وبلان له ظفر يباهى
هرى جسمى فألبسه نجيعاً
ورام يلين أعضائى برفق
ولم أنظر له أبداً جميلاً
وأعمى مقلتى بصنان إنط
فلا تجعل إلهى مثل هذا
ولبعضهم فى حمام :

حكى سقرا وفيها المجرمونا
فإن عذنا فإننا ظالمونا^(٢)

وحمام دخلناه لأمر
فيصطرخوا يقولوا أخرجونا

وللشريف أبى يعلى الهاشمى البغدادى فى نظام الملك يهدهد بالهجاء يقول :

أعاود من ذراك^(٣) كما قدمت ؟
بأفواه السقاة وما وردت ؟
ويخبر عن نوالك إن كتمت
وقد عم الورى كرمأ سكت

أجمل يا نظام الملك أنى
وأصدر عن حياضك وهى نهب
يدل على فعالك سوء حالى
إذا استخبرت ماذا نلت منه

وممن عرض بالهجو فى شعره الخوارزمى قال فى أبى جعفر :

ومثلك إن قال قولاً يفى
وإلا هجيت وأدخلت فى
فقط الحديث ولا تكشف

أبا جعفر لست بالمتصف
فإن أنت أنجزت لى ما وعدت
وقد علم الناس ما بعد فى

ومدح السراج الوراق إنساناً فلم يجزه ، فكتب يعرض له بالهجاء ، ويهدهد يقول :

فقد أتعبتني يا مستريح
سواه وقيل لى : هذا صحيح

أعد مدحى على وخذ سواه
ولا تغضب إذا أنشدت يوماً

وله أيضاً يقول :

وقد عوقبت بالحرمان عنه
فلا يصعب عليك الحق منه

أعد مدحاً كذبت عليك فيه
ولكننى سأصدق فيك قولاً

وقال بعضهم فى حجاج قدموا ولم يهدوا إليه شيئاً :

(١) النجيع : الدم المتجلط .

(٢) ضمن بيته بعض الآية الكريمة ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٧] .

(٣) ذراك : ذرا إليه ، أي قصد ، وذرا الريح التراب : أطاره وفرقه .

تكاد لفرط البشر أن توضح السُّبُلَا
فلا مَرَّحِباً بالقادمين ولا سَهْلاً
ولا وضعوا في كف طفل لنا نُقْلاً^(١)

مضوا ليحجوا والوجوه كأنها
وعادوا كأن القار فوق وجوههم
وجاءوا وما جادوا بعود أراكة
وقال آخر :

خلائق قبح عنه لا تتزخزح
بأقبح ما يهجي به المرء يمدح

إذا رمث هجوا في فلان تضدني
تجاوز قدر الهجو حتى كأنه
وهجا بعضهم امرأة فقال :

ووجه كوجه القرد بل هو أقبح
وتعبس في وجه الضجيع وتكلح
إذا ضحكت في أوجه الناس تلفح
تعوذ منها حين يمسي ويصبح

لها جسم برغوث وساق بعوضة
تبرق عينيها إذا ما رأيتها
لها منظر كالنار تحسب أنها
إذا عاين الشيطان صورة وجهها
ولبعضهم في عظيم أنف :

كجدار قد دعموه ببغله
جعلوا نصفه على غير قبله

لك وجه وفيه قطعة أنف
وهو كالقبر في المثال ولكن
أيضاً :

يضاهي في تشامخه الجبالا
فلولا عظمه لرأى الهلالا

رأينا للزكي جدار أنف
تصدى للهلال لكي يراه
ولصفي الدين الحلبي :

قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل
لما نسجتها من جنوب وشمأل

رأى فرسى اصطبل عيسى فقال لي
به لم أذق طعم الشعير كأنني
تقعقع^(٣) من برد الشتاء أضالعي
وله أيضاً :

سواء في المقال وفي المقام
وهذا عاقل من غير لام^(٤)

ليهنك أن لى ولداً وعبيدا
فهذا سابق من غير سين
وله في طبيب يدعى إسحاق :

لها بفناء العالمين كفيل^(٥)
فتغمد حتى يستباح قتيل

مباضع إسحق الطبيب كأنها
معوذة أن لا تسئل نصالها
وله في أحق طويل اللسان :

قنص الأسود وجندل الأبطال^(٦)
أفنى الكنوز وأنفد الأموال

لو أن قوة وجهه في قلبه
أو كان طول لسانه بيمينه
وهجا أعرابي رجلاً ثم مدحه فقال :

(٢) الضجيع : الزوج .

(١) القار : الزفت . وعود الأراكة : السواك . والثقل : البندق والجوز واللوز وما أشبه .

(٣) تقعقع الشيء : تحرك واضطرب ، وأحدث صوتاً عند التحرك .

(٥) مباضع : جمع مبضع ، آلة الجراح .

(٤) سابق من غير سين : أبق وهو الهارب ، وعاقل من غير لام : عاق لأبويه .

(٦) جندل الأبطال : صرعهم وجدلهم .

إنى مدحتك من فساد قريحتي وعلمت أن المدح فيك يضيع
 لكن رأيت المسك عند فسادهِ يُذنى إلى بيت الخلا فيضوع^(١)
 وقيل لبعضهم : ما تقول فى فلان وفلان قال : هما الخمر والميسر إثمهما أكبر من نفعهما وقيل لرجل : كيف وجدت فلاناً ؟ قال : طويل اللسان فى اللؤم ، قصير الباع فى الكرم ، وثاباً على الشر ، مناعاً للخير .
 وسمع أعرابى قوله تعالى : ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] . فانتفض ، ثم سمع قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩] فقال الله أكبر هجاناً ثم مدحنا وكذلك قال الشاعر :
 هجوت زهيراً ثم إنى مدحته وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح
 وقال : أبو زيد العبدى :
 ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت إن الكلاب طويلة الأعمار
 وقال المتوكل لأبى العيناء : ما بقى أحد فى المجلس إلا هجأك وذمك غيرى ، فقال :
 إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على لثامها

الباب الرابع والأربعون

فى الصدق والكذب وفيه فصلان

الفصل الأول : فى الصدق

قال الله تعالى مبشراً للصادقين : ﴿قُلْنَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] . وقال تعالى : ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم^(٢) وقال : عمر ؓ عليك بالصدق وإن قتلك . وما أحسن ما قيل فى ذلك :
 عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد
 وابغ رضا المولى فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد
 وقال إسماعيل بن عبيد الله لما حضرت أبى الوفاة جمع بنيه ، فقال لهم : يا بنى ، عليكم بتقوى الله ، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه ، وعليكم بالصدق ، حتى لو قتل أحدكم قتلاً ثم سئل عنه : أقر به ، والله ما كذبت كذبة قط مذ قرأت القرآن . وعن عائشة ؓ قالت : سألت رسول الله ﷺ : بم يعرف المؤمن ؟ قال : « بوقاره ولين كلامه » وصدق حديثه^(٣) . وقيل . لكل شىء حلية وحلية النطق الصدق . وقال محمود الوراق :
 الصدق منجاة لأربابه وقربة تدنى من الرب
 وقيل : الصدق عمود الدين ، وركن الأدب ، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به . وقال أرسطوطاليس أحسن الكلام ما صدق فيه قائله ، وانتفع به سامعه .
 وقال المهلب بن أبى صفرة : ما السيف الصارم فى يد الشجاع بأعز له من الصدق . وكان يقال على الصدوق : فلان وقف لسانه على الصدق . ويقال : الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعى . ويقال : لو صدق عبد فيما بينه

(١) بيت الخلا : الكنيف والمرحاض ، ويضوع : يفوح .

(٢) إشارة إلى نهاية الآية السابقة ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

(٣) لم أعتد إليه .

وبين الله تعالى حقيقة الصدق ، لاطلع على خزائن الغيب ، وكان أميناً في السموات والأرض . وقيل : من لزم الصدق وعوّد لسانه به وفّق .

ويقال : الصدق بالحر أخرى . وقال عتبة بن أبي سفيان : إذا اجتمع في قلبك أمران لا تدري أيهما أصوب ؟ فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى . وقال أرسطوطاليس : الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب . وكان نقش خاتم ذي يزن وضّع الخدّ للحق عزّ . وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان فأمر له بمائة ناقة فقبل يده وقال : والله ما قبلت يد قرشي غيرك إلا واحداً فقال : أهو المنصور ؟ قال : لا والله ، قال فمن هو ؟ قال الوليد بن يزيد ! قال : فغضب ، وقال : والله ما قبلتها لله تعالى فقال : والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى ! ولكن قبلتها لنفسى ، فقال : والله لا ضرك الصدق عندي ! أعطوه مائة أخرى ! وقال : عامر العدواني في وصيته : إني وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب ، فاصدقوا . يعنى : من لزم الصدق وعوده لسانه وفق ، فلا يكاد ينطق بشيء يظنه إلا جاء على ظنه . وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها : نحن من قد عرفتم كنا عبيدين ، فأعتقنا الله تعالى ، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى ، وكنا فقيرين ، فأغنانا الله تعالى ، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخى فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى ، وإن تردونا فالله أكبر ، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا : بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهده ، ومكانه من رسول الله ﷺ فزوجوا أخاه فزوجوه ، فلما انصرفوا قال له أخوه : يغفر الله لك أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ وترك ما عدا ذلك . فقال : مَلَأَ ، يا أخى صدقت فأنكحك الصدق . وخطب الحجاج فأطال ، فقام رجل فقال الصلاة فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرک فأمر بحسبه ، فأناه قومه وزعموا أنه مجنون ، وسألوه أن يخلى سبيله ، فقال : إن أقر بالجنون خليته فقيل له فقال : معاذ الله : لا أزعم أن الله ابتلاني ، وقد عافاني ، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه ! .

الفصل الثاني : من هذا الباب في الكذب وما جاء فيه

قال الله تعالى في الكاذبين : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠] . وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠] وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّا كُفْرٌ وَالْكَذِبُ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَالْفُجُورُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَتَحْرُوُ الصُّدُقُ فَإِنَّ الصُّدُقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ » (٢) . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا كَذَبَ الْعَبْدُ كَذِبَ تَبَاعَدَ الْمَلَكُانَ عَنْهُ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ تَنْتَنٍ مَا جَاءَ بِهِ » (٣) . ويقال : « رَأَى الْكَذِبَ أَحَدُ الْكَذَّابِينَ » . ويقال : « رَأْسُ الْمَأْتَمِ الْكَذِبُ ، وَعَمُودُ الْكَذِبِ الْبُهْتَانُ » . وقيل « أَمْرَانِ لَا يَنْفَكَانِ مِنَ الْكَذِبِ : كَثْرَةُ الْمَوَاعِيدِ ، وَشِدَّةُ الْاعْتَذَارِ » . وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨] . وهى لكل واصف كذب إلى يوم القيامة . قال الأصمعي قلت لكذاب : أصدقت قط ؟ قال : لولا أنى أخاف أصدق في هذا قلت لك : لا . فتعجب . وقال محمود بن أبي الجنود :

لِي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنْتَمِ وَلَيْسَ فِي الْكَذَابِ حِيلَةٌ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقُو لَفَحِيلَتِي فِيهِ قَلِيلَةٌ

ويقال : فلان أكذب من لمعان السراب ، ومن سحاب تموز . وكان بفارس محتسب يعرف بجاء . سب ، وكان يقول : إن منعت الكذب ، انشقت مرارتي وإنى والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من السرور ما لا أجده بالصدق مع ما يتلاني من نفعه ! . وقال فيلسوف : من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله : ول بعضهم :

حَسْبُ الْكَذُوبِ مِنَ الْبَلَاءِ يَتَبَعُ مَا يُخَكِّي عَلَيْهِ

(١) مه : اسم فعل بمعنى اسكت ، وكُفِّ عن هذا .

(٢) « إياكم والكذب .. » أخرجه البخاري [٦٠٩٤] ، ومسلم [٤٣٩/٢] ، وأبو داود [٤٩٦٨] ، والترمذي [١٩٧١] ، وابن ماجه [٤٦] ، أحمد [٤٣٢/١] ، من حديث ابن مسعود .

(٣) حديث « إذا كذب العبد .. إلخ » ضعيف جداً أخرجه الترمذي [١٩٧٢] ، وفيه عبد الرحيم بن هارون ، ضعيف الحديث جداً .

فمتى سمعت بكذبة من غيره نُسبت إليه
وأضاف صيرفي قوماً فأقبل يحدثهم ، فقال بعضهم : نحن كما قال تعالى : ﴿ سَتُكُونُ لَلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾
[المائدة: ٤٢]. وعن عبد الله بن السدي قال : قلت لابن المبارك : حدثنا حديثاً قال : ارجعوا فليست أحدثكم ، فقليل
له : إنك لم تحلف ، فقال : لو حلفت لكفرت وحديثكم ، ولكن لست أكذب ، فكان هذا أحب إلينا من الحديث .
وقال مجاهد يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أتينه في سقمه . وحتى أن الصبي ليكي فتقول له أمه : اسكت واشترى
لك كذا ثم لا تفعل ، فتكتب كذبة . وقال الفضيل ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً ، ولا
مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً . وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « أعظم الخطايا اللسان
الكذوب »^(١) .
قال الشاعر :

لا يكذب المرء إلا من مهانتة أو فعله السوء أو من قلة الأدب
لبعض جيفة كلب خير رائحة من كذبة المرء في جد وفي لعب

ولما نصب معاوية رضي الله عنه ابنه يزيد لولاية العهد ، أقعده في قبة حمراء ، وجعل الناس يسلمون على معاوية ، ثم
يسلمون على يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال : يا أمير المؤمنين ، أعلم أنك لو لم تول
هذا أمور المسلمين لأضعتها والأحنف ساكت ، فقال معاوية : مالك لا تقول يا أبا بحر ؟! فقال أخاف الله تعالى إن
كذبت ، وأخافكم إن صدقت ، فقال جزاك الله خيراً عما تقول ، ثم أمر له بالوف ، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك
الرجل بالباب ، فقال له : يا أبا بحر إنني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى ، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب
والأقفال فلنسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت ، فقال له الأحنف : يا هذا أمسك ، فإن ذا الوجهين خليف أن لا يكون
عند الله وجيهاً .

وقيل : إن الكذب يحمده إذا وصل بين المتقاطعين ، أو أصلح بين الزوجين ، ويذم الصدق إذا كان غيبة ، وقد رفع
الخرج عن الكاذب في الحرب ، وعن المصلح بين المرء وزوجه . وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه
يقوى بذلك جأشهم ، فكانوا إذا رأوه مقيلاً إليهم قالوا : جاءنا بكذب . وقال يحيى بن خالد رأينا شارب خمر نزع ،
ولصاً أفلح ، وصاحب فواحش رجع ، ولم نر كذاباً صار صادقاً . وكان عمرو بن معديكرب مشهوراً بالكذب وقيل
لخلف الأحمر - وكان شديد التعصب لليمن : أكان ابن معد يكره يكذب ؟ فقال : كان يكذب في المقال ، ويصدق
في الفعال .

وقيل إن بلالاً لم يكذب مذ أسلم رضي الله عنه والحمد لله وحده .



(١) عن ابن مسعود ... « أعظم الخطايا اللسان الكذوب » أورده المتقي الهندي في « كنز العمال » برقم [٨٢٠٣] ، وعزاه لابن لال .

الباب الخامس والأربعون

في بر الوالدين ، وذم العقوق ، وذكر الأولاد ، وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والتقربات وذكر الأنساب وفيه فصول

الفصل الأول : في بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ . [النساء: ٣٦] وقال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] . وقال تعالى : ﴿إِنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْوَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤] وقال تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَنْ أُمٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [٢٣] وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤] . وعن علي عليه السلام : لو علم الله شيئاً في العقوق أدنى من أف لحرمه ، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل ، فلن يدخل الجنة ، وليعمل البار ما شاء أن يعمل ، فلن يدخل النار . وقيل إن رضا الرب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين .

وحكى : أبو سهل عن أبي صالح عن أبي نجيج عن ربيعة عن عبد الرحمن ، عن عطاء ابن أبي مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة ، وكتب له براءة من النار » ^(١) . وقال رسول الله ﷺ : « إياكم وعقوق الوالدين فإن ربح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام ، ولا يجد ربحها عاق » ^(٢) . وكان رجل من النسائك يقبل كل يوم قدم أمه فأبطأ يوماً على إخوته ، فسألوه فقال : كنت أتمرغ في رياض الجنة فقد بلغنا : أن الجنة تحت أقدام الأمهات ^(٣) ، وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام ثلاثة آلاف وخمسمائة كلمة فكان آخر كلامه : يارب أوصني ، قال : « أوصيك بأمر حسن » . قال له سبع مرّات قال : حسبي ، ثم قال : « يا موسى ألا إن رضاها رضاى وسخطها سخطى » ^(٤) . وقال عمر بن عبد العزيز عليه السلام : لابن مهران : لا تأتئ أبواب السلاطين وإن أمرتهم بمعروف ، أو نهيتهم عن منكر ، ولا تخلون بامرأة وإن علمتها سورة من القرآن ، ولا تصحب عاقاً فإنه لن يقبلك وقد عقى والديه .

وقال فيلسوف : من عقى والديه عقه ولده . وقال المأمون لم أر أحداً أبرّ من الفضل ابن يحيى بأبيه ، بلغ من بره له أنه كان لا يتوضأ إلا بماء سُخِّنَ فمَنَعَهُم السَّجَانُ من الوقود في ليلة باردة فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى ققمم نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده إلى الصباح حتى استيقظ يحيى من منامه . وقيل : طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء فلما أتاه بالشربة نام أبوه ، فما زال الولد واقفاً بالشربة في يده إلى الصباح ، حتى استيقظ أبوه من منامه .

وقال رجل لعمر بن الخطاب عليه السلام : إن لى أما بلغ منها الكبر أنها لا تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية ، فهل أدبت حقها ؟ قال : لا لأنها كانت تصنع بك ذلك ، وهى تتمنى بقاءك ، وأنت تصنع وتتمنى فراقها ، وقال ابن المنكدر : بت أكبس رجل أبى ، وبات آخر يصلى ، ولا يسرنى ليلته بليلى . وقيل : إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم

(١) من حج عن والده بعد وفاته كتب الله لوالده حجة ، وكتب له براءة من النار . . . ضعيف : أخرجه البيهقي في « الشعب » [٧٩١٢] ، عن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر ، عن أبيه ، عن جده ، وفى إسناده مجهولان .

(٢) إياكم وعقوق الوالدين . . إلخ ضعيف جداً : أخرجه الطبراني فى الأوسط [٢٨٥٠] ، [٤٢٥٣] مجمع البحرين ، من حديث جابر وفيه : فإن ربح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام وفيه محمد بن كثير ، وجابر الجعفى ، وكلاهما ضعيف جداً .

(٣) بلغنا أن الجنة تحت أقدام الأمهات منكر : أخرجه الطيب فى « الجامع لأخلاق الرواة » [٢/٢٨٩] ، والدولابى فى « الكنى » [١٣٨/٢] ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » رقم [١١٩] من حديث أنس ، وفى مسنده منصور بن المهاجر ، وأبو النضر الأبار ، لا يعرفان ، والحديث منكر .

(٤) وبلغنا أن الله تعالى كلم موسى إلخ . لم أقف على من خرجه .

الأمير الذي لا يتتصف منه . وقيل لعلي بن الحسين عليه السلام إنك من أئمة الناس ، ولا تأكل مع أمك في صحفة . فقال : أخاف أن تسبق يدي يدها إلى ما تسبق عينها إليه فأكون قد عققته .

الفصل الثاني : في الأولاد وحقوقهم ، وذكر النجباء والأذكىاء والبلداء والأشقياء

قال رسول الله ﷺ « الولد ريحانة من الجنة » ^(١) . وقال الفضل : ربح الولد من الجنة وكان يقال : ابنك ريحانتك سبعا ثم حاجبك سبعا ، ثم عدو أو صديق . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلت لسيدى رسول الله ﷺ يا رسول الله هل يولد لأهل الجنة ، قال : « والذي نفسي بيده إن الرجل يشتهي أن يكون له ولد ، فيكون حمله ووضعته وشبابه الذي ينتهي إليه في ساعة واحدة » ^(٢) . وقيل : من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كيلا يفسق . وقال عمر رضي الله عنه : إني لأكره نفسي على الجماع رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبحه وتذكره وقال رضي الله عنه : أكثروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن ترزقون . وقال شبيب بن شبة : ذهب اللذات إلا من ثلاث : شم الصبيان ، وملافة الإخوان ، والخلو مع النسوان . ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال : من هذه يا أمير المؤمنين قال : هذه تفاحة القلب ، فقال : ابنها عنك فإنهن يلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن . قال : لا تقل يا عمرو ذلك فوالله ما مرض المرضي ، ولا نذب الموتى ، ولا أعان على الإخوان إلا هن . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، إنك حبيبتهم إلى . وقيل لرجل : أى ولدك أحب إليك ؟ قال : صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يبرأ وغائبهم حتى يحضر ! وقال ابن عامر لامرأته أمانة بنت الحكم الخزاعية : إن ولدت غلاماً فلك حكمك ، فلما ولدت قالت : حكمي أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان من فالودج ، وأن تعق بألف شاة ، ففعل لها ذلك . وغضب معاوية على يزيد فهجره ، فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ، أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، وبهم نصول على كل جليلة فإن غضبوا فأرضهم ، وإن سألوا فأعطهم وإن لم يسألوا فابتدئهم ، ولا تنظر إليهم شزراً فيملوا حياتك ، ويتمنوا وفاتك . فقال معاوية : يا غلام إذا رأيت يزيد فأقرته السلام واحمل إليه مائتي ألف درهم ، ومائتي ثوب ، فقال يزيد : من عند أمير المؤمنين ؟ فقيل له الأحنف : فقال يزيد بن معاوية على به ، فقال : يا أبا بحر كيف كانت القصة فحكاهما له ، فشكر صنيعه ، وشاطره الصلة .

وحكى : الكسائي أنه دخل على الرشيد يوماً فأمر بإحضار الأمين والمأمون ولديه قال : فلم يلبث قليلاً أن أقبل كوكبي أفق ، يزينهما هدهما وقارهما وقد غضا أبصارهما حتى وقفا في مجلسه ، فسلما عليه بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فاستدناهما ، وأستد محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم أمرني أن ألقى عليهما أبواباً من النحو ، فما سألتهما شيئاً إلا أحسنا الجواب عنه ، فسر ذلك سروراً عظيماً وقال : كيف تراهما ؟ فقلت شعراً : ^(٣)

أرى قمرى أفق وفرعين شامة
سليلى أمير المؤمنين وحائزى
بسدان أنفاق النفاق بشيمة
يزينهما عرق كريم ومحتد
مواريث ما أبقى النبی محمد
يزينهما حزم وسيف مهند

ثم قلت ما رأيت - أعز الله أمير المؤمنين - أحداً من أبناء الخلافة ، ومعدن الرسالة ، وأغصان هذه الشجرة الزلالية - أدب منهما ألسنا ولا أحسن ألفاظاً ، ولا أشد اقتداراً على الكلام روية وحفظاً منهما ؛ أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييداً وعزاً ، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمعاً . وأمن الرشيد على دعائه ثم ضمهما إليه وجمع عليهما يديه ، فلم يسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج ، وقال : كأنكم بهما وقد دهم

^(١) « الولد ريحانة من الجنة » ضعيف : أخرجه الترمذى عن خولة بنت حكيم ، كما فى « تمييز الطبيب » لابن البديع [ص ٢٩٢ - ط . مكتبة القرآن] . وهو فى « ضعيف الجامع الصغير » برقم [٦١٧٩] .

^(٢) وعن أبي سعيد الخدري قال : يا رسول الله . . . إلخ . أخرجه أحمد [٩/٣] ، والترمذى [٢٦٨٩] ، وابن ماجه [٤٣٣٨] ، وابن أبى الدنيا فى « صفة الجنة » برقم [٢٧٣] - إصدار مكتبة القرآن .

^(٣) يقال : كأنهم شامة فى « الناس » أى هم ظاهرون .

^(٤) الزلالية : الزلال الصافى من كل شئ . والمراد التى سقيت بماء صاف طاهر .

القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وقد تشتت أمرهما ، وافترت كلمتهما بسفك الدماء وتهتك الستور . وكان يقال بنو أمية دَنّ خل أخرج الله منه زَقَّ غسل ، يعنى عمر بن عبد العزيز . وسب أعرابي ولده ، وذكر له حقه ، فقال : ياأبتاه ، إن عظيم حَقِّك على لا ييطل صغير حَقِّي عليك . قال سيدي عبد العزيز الديري - رحمه الله تعالى - :

دَفَنْتَ بَنِيَّتِي فِي قَاعِ لَحْدٍ
مَخَافَةَ أَنْ تَذُوقَ الذَّلَّ بِنَفْسِي
أَرَاهَا عِنْدَهُ وَالْهَمُّ عِنْدِي
فِي لَطَمِ خَدِّهَا وَيَسْبُ جَدِّي
وَلَوْ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ عِنْدِي !

وَمَنْ يَحْيَى وَذَاكَ بِهِ خَلِيقُ
فَقَدْ تَسْرَى إِلَى الشَّبهِ الْعَرُوقُ

وَلَا سِيْمَا إِنْ كَانَ مِنْ وَلَدِ الْفَضْلِ

وَالْمَرْءُ يَخْلُقُهُ مِنْ بَعْدِهِ الْوَلَدُ
عَافَ النِّسَاءَ وَلَمْ يَكْثُرْ لَهُ عَدَدُ

مُبَارَكٍ مِنْ وَلَدِ الصَّدِيقِ

أَلْذَهَ كَمَا أَلْذُرِيْقِي

رِيحُ الْخُزَامِيِّ فِي الْبَلَدِ
أَمْ لَمْ يَلِدْ مِثْلِي أَحَدٌ^(٢)

قَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْفَقْرِ ثُمَّ نَالَهُ
إِذَا أَرَادَ بِذَلِكَ بَدَالَهُ

وَكَانَ لِأَعْرَابِي امْرَأَتَانِ فَوَلَدَتْ إِحْدَاهُمَا جَارِيَةً وَالْأُخْرَى غُلَامًا فَرَقَصَتْهُ أُمُّهُ يَوْمًا وَقَالَتْ مَعَايِرَةً لَضَرْتَهَا !
أَنْقَذَنِي الْعَامَ مِنَ الْجَوَالِي^(٣)
لَا تَدْفَعُ الضَّيْمَ عَنِ الْمِيَالِ

تَغْسِلُ رَأْسِي وَتَكُونُ الْغَالِيَهُ
حَتَّى إِذَا مَا بَلَغْتَ ثَمَانِيَهُ

أَحَبُّ بَنِيَّتِي ، وَوَدْتُ أَنِّي
وَمَا بِي أَنْ تَهْوَنَ عَلَيَّ لَكِنْ
فَإِنْ زَوْجَتَهَا رَجُلًا فَقِيرًا
وَأِنْ زَوْجَتَهَا رَجُلًا غَنِيًّا
سَأَلْتُ اللَّهَ بِأَخْذِهَا قَرِيبًا
وَقَالَ هَارُونُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ يَحْيَى الْمَنُجَمُ :

أَرَى ابْنِي تَشَابَهُهُ مِنْ عَلَيٍّ
وَإِنْ يُشَبِّهُهُمَا خُلُقًا وَخُلُقًا
وَقَالَ أَبُو النَّصْرِ مَوْلَى بَنِي سَلِيمٍ :

وَنَفَرِحَ بِالْمَوْلُودِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ
وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ زَيْدِ الْعُلُوِّ :

قَالُوا : عَقِيمٌ وَلَمْ يُوَلِّدْ لَهُ وَلَدٌ
فَقُلْتُ : مَنْ عَلِقَتْ بِالْحَرْبِ هَمَّتْهُ
وَكَانَ الزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَّامِ يَرْقُصُ وَلَدَهُ وَيَقُولُ :

أَزْهَرَ مِنْ آلِ بَنِي عَتِيْقٍ

وَكَانَتْ أَعْرَابِيَةٌ تَرْقُصُ وَلَدَهَا وَتَقُولُ :

يَا حَبِيبًا ذَا رِيحِ الْوَلَدِ
أَهْكَذَا كُلَّ وَلَدٍ

وَكَانَ أَعْرَابِيٌّ يَرْقُصُ وَلَدَهُ وَيَقُولُ :

أَحْبَبُهُ حُبَّ الشَّحِيحِ مَالَهُ
إِذَا أَرَادَ بِذَلِكَ بَدَالَهُ

وَكَانَ لِأَعْرَابِيٍّ امْرَأَتَانِ فَوَلَدَتْ إِحْدَاهُمَا جَارِيَةً وَالْأُخْرَى غُلَامًا فَرَقَصَتْهُ أُمُّهُ يَوْمًا وَقَالَتْ مَعَايِرَةً لَضَرْتَهَا !
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَمِيدِ الْعَالِي
مِنْ كُلِّ شَوْهَاءٍ كَشَنَ بِالِي
فَسَمِعْتُهَا ضَرْتُهَا فَأَقْبَلْتُ تَرْقُصُ ابْنَتَهَا وَتَقُولُ :

وَمَا عَلَيَّ أَنْ تَكُونَ جَارِيَهُ
وَتَرْفَعُ السَّاقِطَ مِنْ خِمَارِيهِ

(١) الدَّنّ : وعاء ضخم . أما الزَّقَّ فهو : وعاء من جلد يجز شعره ولا ينتف للشراب وغيره .

(٢) الدراري في الدراري لابن العديم والخزامي : عشبة طويلة العيدان ، صغيرة الورق ، حمراء الزهر ، طيبة الريح ، لها نور كنوز البنفسج . قال ولم نجد من الزهر زهرة أطيب نفحة من نفحة الخزامي .

(٣) الجوالي : خلقة البنات .

أزرتها بنقبة يمانية أنكحتها مروان أو معاوية
أصهار صدق ومهور غاليه^(١)

قال : فسمعها مروان ، فتزوجها على مائة ألف مثقال ، وقال : إن أمها حقيقة أن لا يكذب ظنها ، ولا يخان عهدها ، فقال معاوية : لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ، ولكن لا تحرم الصلة ، فبعث إليها بمائتي ألف درهم والله أعلم .

❖ ومما جاء في الأولاد البلاء القليل التوفيق :

قيل : نظر أعرابي إلى ولده قبيح المنظر ، فقال له : يا بني إنك لست من زينة الحياة الدنيا ! وأرسل رجل ولده يشتري له رشاء^(٢) للبئر طوله عشرون ذراعاً ، فوصل إلى نصف الطريق ، ثم رجع فقال : يا بئس عشرون في عرض كم ؟ قال في عرض مصيبي فيك يا بني ! . وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة فينما هو يوماً يمشي مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله ، فلم يجبه ذلك الشاب ، فقال : ألا تسمع ؟ فقال : يا عم كلنا عبيد الله ، فأى عبد الله تعنى ؟ فالتفت أبو حمزة إليه وقال : يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب ؟ فلما كان من الغد إذا برجل ينادى شاباً يا حمزة ، فقال حمزة ابن الأعرابي : كلنا حماميز الله ، فأى حمزة تعنى ؟ فقال له أبوه : ليس يعنيك يا من أخمد الله به ذكر أبيه . وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم ، فأرسله في حاجته ، فأبطأ عليه ثم عاد ولم يقضها ، فنظر إليه ثم قال :

عقله عقل طائر وهو في خلقة الجمل
فأجابه :

مشبه بك يا أبى ليس لى عنك مُنتَقَل

❖ ومما جاء في صلة الرحم :

قال رسول الله ﷺ : « صلة الرحم منجاة للولد مَثْرَاةً لِلْمَالِ »^(٣) . وقيل : وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت مكتوب عليه بالعبرانية : (أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمائي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بهتة)^(٤) أى قطعته وقال : رسول الله ﷺ : « أعجل الخير ثواباً صلة الرحم »^(٥) . وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه عن كعب الأحبار أنه قال : والذي فلحق البحر لموسى بن عمران إن في التوراة لمكتوباً يابن آدم اتق ربك ، وبرّ والديك وصل رحمك أزد في عمرك ، وأيسر لك في يسيرك ، وأصرف عنك عسرك . وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفئ غضب الرب ، جل وعلا وصلة الرحم ، تزيد في العمر » وذكر تمام الحديث^(٦) .

الفصل الثالث : من هذا الباب في ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة

قال عمر رضي الله عنه : تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم ، فتصلوها بأرحامكم . وقيل : لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء وتنازع الأكفاء لكان تعلمها من أخزم الرأي ، وأفضل الثواب ، ألا ترى إلى قول قوم شعيب رضي الله عنه :

(١) جاءت هذه الأبيات في محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني ج ١ ص ١٧٥ . وقيل : في رواية « عتبة أو معاوية » وأختان صدقي « بدلا من أصهار صدق .

(٢) الرشاء : الحبل .

(٣) « صلة الرحم منجاة للولد ، مَثْرَاةً لِلْمَالِ » له شاهد من حديث أبي هريرة عند الترمذي برقم [١٩٧٩] والحاكم [١٦١/٤] ، وأحمد [٣٧٤/٢] .

(٤) وجد حجر إلخ . ثبت عن النبي أنه قال : « قال الله - عز وجل - : أنا الله ، وأنا الرحم ، خلقت الرحم » ، الحديث كما هنا ، وهو عند الترمذي [١٩٠٧] ، وأبي داود [١٦٩٤] ، وأحمد [١٩١/١] ، [١٩٤] من حديث عبد الرحمن بن عوف .

(٥) أعجل الخير ثواباً إلخ . أخرجه ابن ماجه [٤٢١٢] من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ : « أسرع الخير .. » ، وسنده ضعيف ، فيه صالح بن موسى ، ضعيف الحديث .

(٦) عن أبي أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال : « صنائع المعروف .. إلخ » قال العجلوني : أخرجه القضاعي عن أبي أمامة مرفوعاً .

حيث قالوا : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود: ٩١] . فأبقوا عليه لرهطه . وقال عمر رضي الله عنه : تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة ، وتعلموا النسب ، فرب رحم مجهولة وقد وصلت بعرفان نسبها . وسئل : عيسى عليه السلام : أى الناس أشرف ؟ فقبض قبضتين من تراب وقال : أى هاتين أشرف ؟ ثم جمعهما ، وطرحهما وقال : الناس كلهم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ^(١) . كان أبو كبشة جدر رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، فلما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم دين قريش قالوا : نزع عرق أبى كبشة حيث خالفهم في عبادة الشعري ، وقال خالد بن عبد الله القشيري : سألت واصل بن عطاء عن نسبه فقال : نسبي الإسلام ، من ضيعه فقد ضيع نسبه ، ومن حفظه فقد حفظ نسبه ، فقال خالد : وجه عبد ، وكلام حر . ومن كلام علي عليه السلام : أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذى به تطير ، فإنك بهم تصول ، وبهم تطول ، وهم العدة عند الشدة ، أكرم كريمهم ، وعُد سقيمهم ، وأشركهم فى أمورك ، ويسر عن معسرهم ، وكان يقال : إذا كان لك قريب ، فلم تمش إليه برجلك ، ولم تعطه من مالك فقد قطعتة . ويقال : حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر وحنو الأكبر على الأصغر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده » ^(٢) . قال بعضهم :

وإذا رُزقت من النوافل ثروة فامنح عشيرتك الأدنى فضلها
واعلم بأنك لا تسود فيهم حتى ترى دمث الخلائق سهلها



الباب السادس والأربعون

فى الخلق وصفاتهم وأحوالهم ، وذكر الحسن والقبح ،
والطول والقصر ، والألوان والثياب ، وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى الحسن ومحاسن الأخلاق

وإلى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتهى الحسن ^(٣) والجمال . كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ربعة من القوم لا بائنا ^(٤) من طول ، ولا تقنحمه عين من قصر ، أبيض اللون مشرباً بحمرة أدعج العينين ^(٥) ، مفلج الشاى ^(٦) ، دقيق المسربة ^(٧) أزهر الجبين ، واضح ^(٨) الخد ، أفنى الأنف ^(٩) كأن عنقه إبريق فضة ظاهر الوضاعة ، يتلألاً وجهه تلالؤ القمر ، شثن ^(١٠) الكفين ، مسيح القدمين ^(١١) ، واسع الصدر ، من لبتة إلى سرتة شعر يجرى كالقضب ^(١٢) ، ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره ، أشعر

(١) وسئل عيسى عليه السلام : إلخ . لم أعتد إليه .

(٢) أورده المتقي الهندي فى كنز العمال [٤٥٤٧٣] وعزاه للبيهقي فى شعب الإيمان لسعيد بن العاص .

(٣) تضمنت كتب الشماثل كثيراً من الأوصاف الخلقية ويقول ابن كثير فى البداية والنهاية ومن أحسن من جمع فى ذلك فأجاد وأفاد الإمام أبو عيسى الترمذى أفرد فى هذا المعنى كتابه المشهور بالشماثل ، وإليك معانى ما يحتاج إلى إيضاح منها .

(٤) ربعة من القوم : يفسره ما بعده ، والربعة معتدل القامة بين الطويل والقصير .

(٥) أبيض اللون مشرباً بحمرة : أى مخلوطاً بحمرة . أدعج العينين : شديد سوادهما مع سعة .

(٦) مفلج الشاى : أى منفرجها وهو خلاف متراص الأسنان . والفلج : فرجة بين الشاى والرباعيات .

(٧) دقيق المسربة : الشعر من وسط الصدر إلى البطن .

(٨) أزهر الجبين واضح الخد : الأزهر الأبيض بياضاً نيراً .

(٩) أفنى الأنف : ليس بأفطس ولا أشم ، فالقنى : طول الأنف ، ودقة أرنبته .

(١٠) شثن الكفين : يميلان إلى الغلظ .

(١١) مسيح القدمين : أى أنه أملس القدمين ليس فيهما تكسر ولا تشقق .

(١٢) من لبتة إلى سرتة شعر يجرى كالقضب : موصول ما بين اللبة والسرة بشعر كالخط ، واللبة : النقرة التى فوق الصدر .

الذراعين والمنكبين ، لم يبلغ شبيه في رأسه ولحيته عشرين شعرة ، ضخم الكراديس ^(١) ، أنور المتجرد ^(٢) ، إذا مشى كأنما ينحط من صلب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، بين كتفيه خاتم النبوة ، كأنه زرجلة . ^(٣) أو بيض حمامة ، لونه كلون جسده ، أبلج الوجه ^(٤) حسن الخلق ، وسيماً قسيماً في جبينه زجج ^(٥) ، وفي عينيه دعج ، وفي عنقه سطع ، وفي لحيته كثافة إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحسنهم وأكملهم من قريب ، كأنما منطقته خرزات نظم ^(٦) . يتحدثون . قال أنس رضي الله عنه : ما رأيت من ذي لمة ^(٧) سوداء ، في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ ومدحه ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه فقال :

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

اللهم صل وسلم عليه ، واجعله شفيعاً لمن يصلى عليه وقال ﷺ : « ما حسن الله خلق عبد وخلقته إلا استحيا أن يطعم لحمه النار » ^(٨) . وقد كان المتوكل - رحمه الله - من أحسن الخلفاء العباسية وجهاً وأبهاهم منظرأ ، وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهاً ، حكى : أنه كان جالساً بفناء داره يوماً بالبصرة إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه ، فقال لها : ما وقوفك يرحمك الله ؟ قالت : طُفِئ مصباحنا فجننا نفتس من وجهك مصباحاً .

وقيل لأعرابية ظريفة : ما بال شفيتك مشقة ؟ فقالت : إن التين إذا حلا تشقق ، والورد يتشقق إذا مسه الندى . وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضي الله عنه من أجمل الناس وجهاً وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، فكانت تقول : ما نظرت وجهي في مرآة مع إنسان إلا رحمت من حسن وجهي ، إلا الوليد فكانت إذا نظرت إلى وجهي مع وجهه رحمت وجهي من حسن وجهه قال الشاعر :

ولو أنها في عهد يوسف قطعت قلوب رجال لا أكف نساء
وقال كثير :

لو أن عزة حاكت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
ومما جاء في محاسن الخلق منظوماً على الترتيب من الفرق إلى القدم : ما قيل في الشعر : كان يقال : من تزوج امرأة أو اتخذ جارية فليستحسن من شعرها فإن الشعر الحسن أحد الوجهين قال بكر بن النطاح :

بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو وجه أشحم ^(٩)
فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم
وللمتنبي :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالى أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معاً
وله أيضاً :

(١) ضخم الكراديس : رهوس العظام ، والمراد : أنه ضخم الأعضاء .

(٢) أنور المتجرد : أي مشرق العضو الذي هو موضع التجرد عن الثوب ، « بفتح الراء » أو مشرف العضو العاري عن الثوب « بكسر الراء » .

(٣) كأنه زر حجلة - عند الجمهور - بيت كالقبة له أزرار وعراو ، وقيل : المراد بالحجلة : الطائر المعروف وزرها : بيضها .

(٤) أبلج الوجه : ينير ، وبلج الإنسان بعد ما بين حاجبيه . والعرب تستملح البلج .

(٥) في جبينه زجج : ما ورد أنه حل كان واسع الجبين ، أي واضحه ، وهو معنى ما في رواية ضلت الجبين ، والجبين ما فوق الصدغ ، ولكل إنسان جبينان ، وبينهما جبهة . وأورد أبو عيسى « أزج الحواجب ، والحاجب الأزج هو المقوس » .

(٦) سبق بيان المعنى في قوله « أدعج العينين »

(٧) ما رأيت من ذي لمة . . أخرجه الحافظ الترمذي في كتاب الشمائل ، واللمة : تطلق عند غير الجمهور على الشعر الواصل للمنكبين .

(٨) حديث « ما حسن الله خلق عبد . . إلخ » ضعيف : أخرجه الطبراني في « الأوسط » [٢٩٨٤ - مجمع البحرين] من حديث أبي هريرة ، وفيه عبد الله بن يزيد البكري ، ضعيف جداً .

(٩) وجه أشحم : وجه أسود .

ولكن كئى يَصُنُّ به الجمالا
ولكن خفن فى الشعر الضللا

ما كان زار ولا أزال سقاما
فغدا على أقدامه يترامى

كحظى حين أطلب منه وصلا
فلم أر مثل ذاك الفرع أصلا

ذوائباً تعبق منها الغوال
واسهري فى ذى الليالى الطوال

متصل بكعبها كما ترى
من الثريا فانتهى إلى الثرى

لها من محيا واضح تحته فجر
وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

عبث النعاس بلحظ مقلته
لما دنت من ورد وجنته

يخفف لدغها ويقل ضرأ
عقارب صدغها تزدد شرأ

ولكن بها قلب المحب يعذب
وأماج ردفه بخصريه تلعب
لواحظه^(٢) تسقى وقلبي يشرب

انظر إلى تلك السوالف تعذر
مسك تساقط فوق خد أحمر

وساعدنى البكاء على اشتهاى

لبسن الوشى^(١) لا متجملات
وضفزن الغدائر لا لحسن
وقال الصفدى :

لولا شفاعت شعره فى صبه
لكن تنازل فى الشفاعة عنده
وقال ابن الصائغ :

ثنى غصنا ومد عليه فرعاً
وبليله على الأرداف منه
وقال آخر :

أرخصى ثلاثاً يوم حمامه
فقلت : والقصد ذواباته
وقال آخر :

بدت ثريا قرطها وشعرها
باعجباً لشعرها لما ابتدى
وقال ابن المعتز :

توارت عن الواشى بليل ذوائب
يغطى عليها شعرها بظلامه
ومما قيل فى الأصداغ : (قال ابن المعتز) :

ريم يتيه بحسن صورته
وكان عقرب صدغه وقفت
وقال العادلى :

وعهدى بالعقارب حين تشتو
فما بال الشتاء أتى وهذى
وقال آخر :

وما ضره نار بخديه ألهمت
عناقيد صدغيه بخديه تلتوى
شربت الهوى صرفاً زلالاً وإنما

ومما قيل فى مدح العذار قال أبو فراس بن حمدان :
يا من يلوم على هواه جهالة
حسن وطاب نسيمها فكأنها
وقال محمد بن وهب :

صدودك والهوى هتكاً استنارى

(١) الوشى : نقش الثوب، ويكون من كل لون.

(٢) لواحظه : لحظه، أي نظر إليه بمؤخر عينه من أحد جانبيه، فهو لاحظ، وهي لاحظته، والجمع لواحظ.

عليك لشقوتي وقع اختياري
لما عاينت من خلع العذار^(١)

فقلوبنا وجدًا عليه رقاق
نفضت عليه سوادها الأحداق

والعين تنظر منه أحسن منظر
فبد العذار دُخان ذاك العنبر

وجمال وجهك للبرية عسكر
بالنصر يقدمها اللواء الأخضر

خطين هاجا لوعةً وبلا بلا
حتى حملت بعارضيك حمائل

بالنمل حيث مقام النحل في فمه !
يطوف سبعاً وسبعاً حول مَنسَمه

سأسلوه وينصرم المزار
حديث الليل يمحوه النهار

عذار أراحك من ضده
خلعت العذار على خده

تري لعيون الناس فيها تزاحماً
فيأحسن ريحان العذار حما جَمَى

فكأنه نشوان من شفتيه
نعمت لواحظه فدب عليه

وطلاوة هامت بها العشاق
فإليكم هذا الحديث يُساق

وكم أبصرث من حسن ولكن
ولم أخلع عذاراً فيك إلا
وقال آخر :

ومَعَذِر رقت حواشي خده
لم يكس عارضه السواد وإنما
وقال آخر :

ومُهْفَهَف رأقت نضارة وجهه
أصلى بنار الخد عنبر خاله
وقال آخر :

أصبحت سلطان القلوب ملاحه
طلعت طلائع وجنتيك مُغيرة
وقال الآخر :

ياذا الذي خط العذار بخده
ما صخ عندي أن لحظك صارم
وقال آخر :

من لا أرى كعبة الحُسن التي خُرس
فليُنظر النمل أضحي فوق عارضه
وقال بدر الدين الدماميني :

تحدث ليل عارضه بأنى
فأشرق صبح غرته ينادى
وقال آخر :

وقالوا : تسلى فقد شانه
فقلت : وهمتم ولكنني
سیدی أبو الفضل بن أبي الوفا :

على وجنتيه جنة ذات بهجة
حَمَى ورد خديه حُماة عذاره
وقال ابن نباتة :

وبمهجتي رشاً^(٢) يَميسُ قوائمه
شَغِفَ العذار بخده ورآه قد
وقال الموصلي :

لحديث نبت العارضين حلاوة
فإذا نهاني المرء قلت : ترفقوا

(١) عذار الغلام: جانب لحيته، ويقال: فلان خلع عذاره: انهك في الغي ولم يستح.

(٢) الرشاً: شجر يسمر فوق القامة.

وقال آخر :

ومَقِيداً من صُدغِه بلسانِه
فخشيت يقتلني وذا من شأنِه

أصبحت مكسوراً بسهم لحاظه
حتى بدا سيف العذار مجردا

ابن نباتة :

يغازل بالألحاظ من لا يغازله
على خدّه فليتنق الله سائله

وضعت سلاح الصبر عنه فما له
وسال عذار فوق خديه سائل

ومما قيل في ذم العذار قال الشاعر :

وكان كأنه قمر منير
لمن يقرأ وجاءكم النذير !

غدا لما التحى ليلاً بهيما
وقد كتب السواد بعارضيه

آخر في ذمه :

منتقياً بعد الضيا بالظلم
ثم انظروا كيف زوال النعم !؟

قلت لأصحابي وقد مر بي
بالله يأهل وُدَى قفوا

ومما قيل في الجبين والحواجب خالد الكاتب :

ومن ناضر الريحان خُصرة حاجب
ومن حالك الحبر اسوداد الذوائب

لها من ظباء الرمل عين مريضة
ومن يانع الأغصان قد وقامة

وقال آخر :

وهب على الجيش من كل جانب
وميمنة تقضى بزج الحواجب

غزاني الهوى في جيشه وجنوده
بميسرة أجنادها أعين المها

وقال آخر :

ويا غصناً يميل مع الرياح
صباح في صباح في صباح

أيا قمرأ تبسم عن أقحاح^(١)
جبينك والمقبل والثنأيا

ومما قيل في العيون : قال الأصمعي ما وصف أحد

العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله :

عينيه أحور من جاذر جاسم
في جفنه سنة وليس بنائم

وكأنما دون النساء أعارها
وسنان أقصده النعاس تلاعبت

وقال ابن المعتز :

سريع بكسر اللحظ والقلب جازع
كما لان متن السيف والحد قاطع

عليه بما تحت العيون من الهوى
فيجرح أحشائي بعين مريضة

وقال الأخطل :

ولا تقرب لها أبداً رجلاً
يكدن يكدن بالحرق الرجالا

ولا تسلّم بدار بنى كليب
تري فيها بوارق^(٢) مرهفات

وقال أبو فراس وأحسن :

هززن سيوفاً واستلن خناجرا

وبيض بالحاظ العيون كأنما

(١) أقحاح: مفردا أقحوان، وهو نبت زهره أصفر أو أبيض، ومنه البابونج، وكثر في الأدب العربي تشبيه الأسنان بالأبيض المؤل منه.

(٢) بوارق: أعلام، أو رايات

فغادرن قلبي بالتصبر غادرا
ومسن غصوناً والتفتن جاذراً

نحو امرئ إلا رماةً بحتفه
والردف يجذب خصره من خلفه

سهامٌ من جفونك لا تطيش
بهن ولا سوى الأهداب ريش
سقيماً لا يموت ولا يعيش
من البلوى أناخ به جيوش

فصبوا عليه الماء من شدة النكس
ولو أنصفوا قالوا به : أعين الإنس

مكحلة ولي عين تباكت
فيالك مقلّة غزلت وحاكت

من لقتلى بين الأنام استحلا
حدنا دون ذاك حاشى وكلا

حسد الأسمر المثقف قده
كلمتني سيوفهن بحده

منى وأن وداده تكلّيف
خبر رواه الجفن وهو ضعيف

فقد أخذت بثّارك
لا تحرقيني بنارك

لها في القلب فتك أي فتك
يموت المستهام بغير شك

خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفي

تصدّين لي يوماً بمنعرج اللوى
سفرن بُدوراً وانتقبن أهلة
وقال آخر :

ومريض جفن ليس يصرف طرفه
قد قلت : إذ أبصرته متميلاً
وقال أبو هتان :

أخو دنف^(١) رمته فأقصدته
فوائك لا يقال سوى احورارى
أصبن فؤاد مهجته فأضحى
كئيباً إن ترحل عنه جيش
وقال آخر :

وجاءوا إليه بالنعماويذ والرقى
وقالوا به من أعين الجن نظرة
عز الدين الموصلى :

لها عين لها غزو وغزل
وحاكت في فمائلها المواضى
برهان الدين القيراطى :

شبه السيف والسنان بعيني
فأتى السيف والسنان وقالوا
وله أيضاً :

بأبى أهيف المعاطف لدن
ذو جفون مذمت منها كلاما
جلال الدين بن خطيب داريا :

شهدت جفون معذبي بملالة
لكنني لم أتأ عنه لأنه
وقال الشيخ عز الدين الموصلى :

يا مقلّة الحب مهلاً
وأنت يا وجنتيه
وقال ابن الصائغ :

لمثلى من لواظها سهام
إذا رامت تشك به فؤادا
وقال الصلاح الصفدى :

يا عاذلى على عين مُحَجَّبة

(١) الدَّنَف: العريض الذي لزمه المرض الشديد.

لا تَرمِ نفسك بين السهم والهدف

فَذِبتَ من هجره وبَينِه
لأنه قاتلى بعمينه

مِبرأة من السلوى زكيه
وأقدرها على قتل البريه !

عليه شامة شرط المحبة
فنقطه بدينار وخَبِه

ومن أنا في الدنيا فأفديه بالمال
وأسكن كل الحسن في ذلك الخال

في العاشقين كما شاء الهوى عَبَثُ
وكان عهدي بأن الخال لا يرث !

ألبستني في الحزن ثوبَ سمائه
علقت بخدك فانطفئت في مائه

نقطة مسكٍ أشتهى شَمُّها
وجدته من حسنِها عَمُّها

باللحظ تُضني وتُسبى ؟!
فصدت طائر قلبي

من معان يحار فيها الضميرُ
وبخدي للدموع غديرُ

وولى منامى وهو كالوصل شارد
وحتام^(٢) يحمي ثغره وهو باردُ

وخذ فؤادى ودعه نُصب مُقلتها
وقال آخر :

بسهم أجفائه رمانى
إن مت مالى سواه خصم
وقال آخر :

سهام الجفن كم قُلتَ لنفس
فما أقوى جفونك وهى مرضى !
ومما قيل فى الخال للصالح الصفدى :

بروحى خذه المحمر أضحى
كأن الحسن يعشقه قديما
لابن الصائغ :

بروحى أفدى خاله فوق خده
تبارك من أخلى من الشعر خده
وللشيخ جمال الدين بن نباتة :

لله خال على خد الحبيب له
أورثته حبة القلب القتيل به
وقال آخر :

ياسالبا قمر السماء جماله
أحرق قلبى فارتضى بشرارة
وقال ابن أبيك :

فى الجانب الأيمن من خدها
حسبته لما بدا خالها
وقال الحسين بن الضحاك :

يا صائد الطير كم ذا
نصبت نقطة خال
ومما قيل فى الخدود : قال ابن المعتز :

صل بخدى خديك تَلَقَّ عَجيباً
فبخديك للربيع رياض
ومما قيل فى الثغور : قال يوسف بن مسعود الصواف :

بروحى من ولى فولى بمهجتي
حمى ثغره منى بنسيف لحاظه^(١)
وقال آخر :

(١) اللُحَاظ : مؤخر العين ممّا يلي الضُدْغ ، والجمع لُحُظ .

(٢) حَتَمُ الأَمْرِ : أَخْكَمَهُ ، فَهُوَ حَتَمٌ ، والجمع حُتُوم .

وجمعت فيه كل معنى شارد
فمضى وراح تغزلى فى البارد

ولم يدر أن اللوم فى خذه يغرى
وأحسن ما كان الرباط على ثغرى

ثلاث شامات غدت فى التئام
فالمنهل العذب كثير الزحام

ولم يكن لى صبر
فأول الغيث قطر

ملاخ أدلتها واضحه
هى : الطعم واللون والرائحة

تعجب رائى الدر حسنا ولاقطه
ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

ملك عزيز قاهر سلطانه
دُر يساقطه إلى لسانه

رجيع وفيما خدثك الطرائف
جاذر وارتجت بهن الروادف
جذال وأعضاء عليها المطارف

فورّد خدّها فرط الحياء
بمعتدل أرق من الهواء
إلى ماء عتيّد فى إناء
على عجل إلى أخذ الرداء
فأسبلت الظلام على الضياء
وظل الماء يقطر فوق ماء

وكان مواصلا فطوى الوصلا
فليت الوصل كان له ذللا

أنفقت كنز مدامعى فى ثغره
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة
وقال آخر :

رأى ثغر من أهوى عذولى فقال لى :
شغلت بهذا وارتبطت بحسنه
وقال ابن ريان :

لاحث على ميسمه المشتهى
لا تعجبوا إن كثرت حوله
وغيره :

رشفت ريقك خلوا
وسوف أحظى بوصول
وقال آخر :

ثلاث تجمعن فى ثغرها
فإن قيل ما هى ؟ قل لى : أقل
ومما قيل فى حسن الحديث : قال البحرى :

ولما التقينا والنقا موعدا لنا
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها
وقال ابن الرومى :

يُمسى ويُصبح مُعرضاً فكأنه
ليست إساءته بشاقصة له
وما أحسن هذه الأبيات وهى من طارف الشعر ووافره وناقده وجيد الكلام وبارع الوصف :
وكل حديث الناس إلا حديثها
جرخن بأعناق الظباء وأعين الـ
رجحن بأرداف ثقال وأسوق
ومما قيل فى رقة البشارة : قال ابن المعتز :

نضت عنها القميص لضب ماء
وقابلت الهواء وقد تعرت
ومدت راحة كالماء منها
فلما أن قضت وطراً وهمت
رأت شخص الرقيب على تدان
فغاب الصبح منها تحت ليل
وقال آخر :

تغير عن مودته وحالا
وعلمه التدلّل كيف هجرى
وقال بشار :

بشيء سوى أطرافها والمحاجر^(١)
يرى وجهه في وجهها كل ناظر

فأبصرت وجهي في وجهه

وفيه مكان الوهم من نظري أثر
ولم أر جسماً قط تجرحه الفكر

به شادن^(٢) كالغصن يلهو ويمرح
وكل إناء بالذي فيه ينضح

وحاز الحسن فهو بلا شبيه
لحمرة خده ما بان فيه

وفاح من عارضيه العنبر العبق
لا ينطفئ في ذا ولا ذا منه يحترق

فقال : ثغري لم يجز لثمه^(٣)
ما قارب الشيء له حكمه

قولوا لمن خبلته
لومات ما قبلته

وخده كالورد لثما ورد
في الخد تقبيلاً يفك الزرد

فلم أدر أيهما أنور ؟!
وهذا قريب لمن ينظر
وما من يغيب كمن يحضر
ونفع الحبيب لنا أكثر

وما ظفرت عيني غداة لقيتها
كحوراء من حور الجنان غريرة
ومن أخذ أبو نواس قوله :

نظرت إلى وجهه نظرة
وقال آخر :

توهمه قلبي فأصبح خده
ومر بفكري جسمه فجرحته
وقال آخر :

سقى الله روضاً قد تبدى لناظر
وقد نضحت خده من ماء ورده
وقال آخر :

وأهيف قده كسرى احمراراً
فلو أخجلته بالقول جهدي
ومما قيل في التقبيل : لمظفر الأعمى :

قبلته فتلظى جمر وجنته
وجال بينهما ماء ولا عجب
وقال آخر :

سألته في ثغره قبله
فهاكها في الخد واقنع بها
وقال صاحب حماة :

قال الذي تيممني
يروم مني قبله
الشيخ عز الدين الموصلي :

كالزرد المنظوم أصداغه
بالغت في اللثم وقبلته
وقال آخر :

رأيت الهلال على وجهه
سوى أن ذاك بعيد المزار
وذاك يغيب وذا حاضر
ونفع الهلال قليل لنا
وقال ابن صابر :

(١) المحاجر : مفردها مخجر ، وهو في العين : ما أحاط به .

(٢) الشادن : ولد الطيبة ، والجمع شوان .

(٣) لثمه : لثم فم المرأة لثماً : قبله .

خَجَلًا وَمَا سَ بَعِطْفَه الْمَيَّاسُ^(١)
عَرَقٌ يَحَاكِي الطَّلَّ فَوْقَ الْأَسَى
مَتَصَاعِدَ الزَّفَرَاتِ مِنْ أَنْفَاسِي

فَازْوَرَّ وَاخْمَرَّ خُذًا
لَقَدْ تَنَازَلْتُ جَدًا
وَلَا تَجْجَاوِزْتُ خُذًا
حَقْوُثُهَا لَا تُؤْدِي

شَمْسًا بَدَتْ بَيْنَ تَشْرِيقٍ وَتَغْمِيمٍ
فَالْوَجْهَ لِلشَّمْسِ وَالْعَيْنَانِ لِلرَّيْمِ^(٢)

بِالْعَمَزِ أَضْحَحْتَ مِثْلَهُ
شَمْسٌ عَلَيْهَا مِظْلَهُ
تَفْوَاقُ نَوْرُ الْأَهْلِيَّةِ

مَا نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَى مِثْلِهِ
إِلَّا سَأَلْتُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ

وَقَوْمِي مَقَامَ الشَّمْسِ قَدْ أَمَّهَا الْفَجْرُ
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّبَسُّمُ وَالشُّغْرُ

فَلَنَا مِنْ وَجْهَهَا عَنْهَا خَلْفٌ
وَهَوَاهُمْ فِي سَوَى هَذَا اخْتَلَفَ

فِي الدِّينِ لَمْ يَخْتَلَفْ فِي الْأُمَّةِ اثْنَانِ

مَنْ دَلَّ عَيْنِيكَ عَلَى قَتْلِي
وَالشَّمْسُ مِنْ نَوْرِكَ تَسْتَمْلِي

فَمَا أَنَا أَدْرِي أَيُّهَا هَاجَ لِي كَرِبِي ؟
أَمْ النُّطْقُ فِي سَمْعِي أَمْ الْحُبُّ فِي قَلْبِي ؟

فلما سمعه إسحاق بن يعقوب الكندي قال : هذا تقسيم فلسفي ، وجعله العلوي خمسة فقال :

قَبِلْتُ وَجَنَّتَهُ فَأَلْفَتْ جِيدَهُ
فَأَنْهَلْتُ مِنْ خَذِيهِ فَوْقَ عِذَارِهِ
فَكَأَنَّني اسْتَقْطَرْتُ وَرْدَ خُدُودِهِ

وقال آخر :

قَبِلْتُ رَجُلٌ حَبِيبِي
وَقَالَ : تَلَثُّمِ رَجُلِي !
فَقُلْتُ : مَا جِئْتُ بِدَعَا
رَجُلٍ سَمِعْتُ بِكَ نَحْوِي

ومما قيل في الوجه الحسن : ابن نباتة :

إِنْ سَيَّةٌ فِي مِثَالِ الْجَنِّ تَحْسَبُهَا
شَقْتُ لَهَا الشَّمْسُ ثَوْبًا مِنْ مُحَاسِنِهَا

عبد الله بن أبي خبيص :

تَضَدَّ مِنْ غَيْرِ عِلَّةِ
كَأَنَّهَا حِينَ تَدْنُو
وَأَنْ أَضَاءَتْ بِلَيْلِ

وقال آخر :

أَقْسَمُ بِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ
وَلَا بَدَا وَجْهَهُ طَالِعًا

وقال آخر :

أَقِيمِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَقْبَلَ الْبَدْرُ
فَفِيكَ مِنَ الشَّمْسِ الْمَنِيرَةِ نَوْرُهَا

عمر بن أبي ربيعة :

ذَاكَ حَسَنٌ إِنْ تَغَبَّ شَمْسُ الضُّحَى
أَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى تَفْضِيلِهَا

أخذ أبو تمام هذا المعنى فردّه إلى المدح فقال :

لَوْ أَنَّ إِجْمَاعَنَا فِي فَضْلِ سُوْدُدِهِ

وقال آخر :

يَا مَفْرَدًا فِي الْحَسَنِ وَالشَّكْلِ
الْبَدْرُ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَوْرُهُ

وقال آخر :

فَفِي أَرْبَعٍ مِثْلِي حَلَّتْ مِنْكَ أَرْبَعُ
أَوْ جِهَكَ فِي عَيْنِي أَمْ الرِّيقُ فِي فَمِي

(١) الميَّاس : صيغة مبالغة من ماس ، أي تبخر واختار .

(٢) الرِّيم : الظبي الخالص البياض .

فريقك منها في فمي طيب الرشف
ونطقك في سمعي وعزفك^(١) في أنفي

من غدا في صفاته القلب ذائب
إن في الليل والنهار عجائب

فكنت على عيني أبهى من الشمس
وشمس الضحى ليست تضيء إذا تمسى

وتكفيك فقد البدر إن غرب البدر

ظبية من مخدرات العراق
أسرت قلب صَبَّها المشتاق
أنا من لطف صنعة الخلاق
قد صبغناه من دم العشاق

في خدها وقد اعتلقت خطابها
قطفت بنور بنفسج عنايبها

عبرائنا عنا بدفع ناطق
وجمعن بين بنفسج وشقائق

مخضبة تحكى عصارة عندهم
يكون جزاء المستهام المتيّم ؟
مقالة من بالود لم يتبرم
بكفى فاحمرت بناني من دمي

ولى عينان بالدم يجريان
ولكن رمن تخضيب البنان

تباهى بالعيون وبالنحور

وفى خمسة منى حلت منك خمسة
ووجهك في عيني ، ولمسك في يدي
ابن نباتة :

أيها العاذل الغبيّ تأمل
وتعجب لطرة^(٢) وجبين
محمود المخزومي :

رأيتك في الشمس المنيرة غدوة
لأنك تزهو إن بدأ الليل بهجة
وقال آخر :

إذا احتجبت لم يكفك البدر وجهها
ومما قيل في البنان المخضب : قال ابن الرومي :
وقفت وقفة بباب الطاق
بننت سبع وأربع وثلاث
قلت : من أنت يا غزال ؟ فقالت :
لا ترم وصلنا فهذا بنان
وقال الراضي بالله :

قالوا : الرحيل فأنشبت أظفارها
فظننت أن بنانها من فضة
وقال آخر :

لما اعتنقنا للوداع وأعربت
فرقن بين محاجر ومعاجر
وقال آخر :

ولما تلاقينا رأيت بنائها
فقلت : خضبت الكف بعدى أهكذا
فقلت : وأذكت في الحشى^(٣) لاعج الجوى^(٤)
بكيت دما يوم النوى فمسحته
وقال آخر :

دنوت عشية التوديع منى
فلم يمسحن إكراماً جفونى
ومما قيل في النحور : قال دبيل :

أتاح لك الهوى بيضا جساناً

(١) العزف: الرائحة مطلقاً، وأكثر ما يستعمل في الطبيعة منها.

(٢) الطرة: اسم الشيء المقطوع، وطرف كل شيء وحرفه.

(٣) الحشى: الخضر.

(٤) اللاعج: الهوى المخرق، ويقال همّ لاعج لحرقة الفؤاد من الحب والجوى: جوى فلان: أي مرض وضاق صدره.

فكيف إذا نظرت إلى الخصور ؟!

مارق للولد الضعيف الوالد
تفأخ صدر ما حوته ناهد

تنشف دمعاً بالزداء الممسك
تسيل على الخدين في حُسن مسلك
بقية طل فوق ورد ممعك^(١)
وصدر به نهض بحق مفلك

قد امتدت عيون الكاشحينا
حصيناً من أكف اللامسينا

وَدَر زائنه حسنُ اتساق
أهذا الحللى من هذى الحقاق ؟
جعلن من الحقاق على وفاق

ببيض مرهفات وهى سود
بسُمر من أسنتها النهود

عجبا ! ولكنى بكيث لخضرها

أقعد الخصر والقوام السويّا
فضعيفان يغلبان قويا

تبدي وأنت نحيل ؟!
ما أنت إلا بخيل

تحت الحنين لعيني
حقاً خيال لخيلى^(٢)

معطلة منه معطرة النشر

نظرت إلى النحور فكدت تقضى
ومما قيل فى نعت النهود : قال العباس بن الأحنف :
والله لو أن القلوب كقلبها
جال الوشاح على قضيب زانه
وقال آخر :

ومحبة عند الوداع رأيتها
وتبكي جدار البين منها بدمعة
فتحسب مجرى الدمع من وجناتها
وقد سمرت عن غرة بابلية
عمر بن كلثوم :

نراك إذا دخلت على خلأ
لنهدي مثل حق العاج حُسنا
وقال آخر :

صدور فوقهن حقاق عاج
يقول الناظرون إذا رأوه :
وما تلك الحقاق سوى بُدى
وقال آخر :

لقد فتكت عيون الغيد فينا
وتطمعنا القدود إذا التقينا
ومما قيل فى الأرداف والخصور : قال ابن الرومى :
وتمايلت فضحك من أردافها
قال الطنبغا المحاربى :

ردفته زاد فى الثقاله حنى
نهض الخصر والقوام وقالوا :
وقال آخر :

يا خصره كم جفاء
يا ردفته ملت عنى
القيراطى :

ببدر روادف بدرى
فقللت : يا بدر هذا
وقال آخر :

أسائلها أين الوشاح وقد سرت

(١) فعك الأديم ونحوه فى التراب : دلكه دلكاً شديداً.
(٢) الحين : بفتح الحاء الهلاك والمحنة، وبكسرهما : الدهر.

فقلت : وأومت للسوار نحلته إلى معصمي لما تلتلق في خصري
وقال آخر :

بدر وليل ، وجنتاه وشعره
وأرق من شكوى المتيم خضره

بيض وسُمرُ مقلتاه ، وقده
أقسي من الحجر الأصم فؤاده
وقال آخر :

جواعل في الثرى قُضباً جذالاً^(١)
وقدأ أبعد ذلك واعتدلاً

رخيمات المقال مدلات
جمعن فخامة وخلوص جيد
ومما قيل في المعاصم : قال عمر بن أبي ربيعة :

ورنوا بنجل^(٢) للقلوب كوالم
فكأنما انتصبت متون صوارم

حسروا الوجوه بأذرع ومعاصم
حسروا الأكمة عن سواعد فضة
ومما قيل في اعتدال القوام قال صلاح الدين الصفدي :

أتزعم أن اللين عند ما ثوى ؟
ليقضى على من مال منا إلى الهوى

تقول له الأغصان مذهر عطفه
فقم نحتكم للروض عند نسيمه

وقيل : ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن النساء من الأوصاف البارعة ، مع جودة السبك ، ورقة اللفظ
ما لذي الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن ، لا من أهل الوبر .

وقال آخر :

في قتل صَبٍّ ما غوى
في النفس يحكم بالهوى

ومحكم عند أعطافه
فاعجب لعادل قده
وقال آخر :

يوماً إلى فصحت من ألم الجوى^(٣)
فأجاب : كيف ، وأنت من أهل الهوى ؟

ومُهْفَهَبٌ عني يميل ولم يمل
لم لا تميل إلى يا غصن النقا ؟
وقال آخر :

كلؤلؤ يبدو لعشاقها
وقامت الحرب على ساقها !

جاءت بساقٍ أبيض أملس
فافتنت فيها جميع الوري
وقال ابن منقذ :

ظبي ولكننه أنيس
فما لأعطافه تميمس ؟

بدر ولكننه قريب
إن لم يكن قده قضيباً
ومما قيل في مشي النساء : قال بعضهم :

هز الشمال ضحى عيدان نسرين^(٤)
أيدى الرجال فزاد الممتن في اللين

يهرزن للمشى أطرافاً مخضبة
أو كاهنزاز رديني^(٥) تداوله

(١) جذال : مفردا جذل ، وهو أصل الشجرة بعد ذهاب فرعها ، ويقال : فلان جذل إبل : يحسن رعايتها والقيام بأمرها .

(٢) نجل : نجل ، أي اتسعت عينه ، فهو أنجل والجمع نجل .

(٣) الجوى : ضيق وآلم في الصدر .

(٤) التشرين : ورد أبيض عطري ، قوي الرائحة ، واحده تسرينة .

(٥) الرديني : الرمح ، نسبة إلى ردينة ، وهي امرأة كانت تقوم الرماح .

وقال آخر :

قَبَّ^(١) البطون رواجح الأكفال^(٢)
يقلعن أرجلهن من أوحال !

وأهون السقم على العائد
تنفست في ليلها البارد
حسبتنا في جسد واحد

وأعرتة من ساعدى وشاحا
وأمال أعطافاً على ملاحا

ولليل في كل فج يد
فلا تدن من ليلتي ياغد !
كما ليلة الهجر لا تنفد !

كواكبُه من بذره المتألق
تميت الهوى ما بين صدر ومرفق

مختلسات جذار مرتقب
من النواطير يانع الرطب

فغصن وأما قذها فقضيب
لتطلع أحياناً له فيغيب
وغصن الهوى غصن النبات رطيب
وأنت الهوى أدعى له فأجيب

ورسفى رُضاباً كالرحيق المسلسل
تنقل فلذات الهوى في التنقل !

سمعت الشافعي رحمه الله يقول : ما رأيت سميناً عاقلاً إلا محمد بن الحسن قال الشاعر :

لكننى أعشق السمر المهازيلاً
يوم الرهان وغيرى يركب الفيلا

يمشين مشى قطا البطاح تأودا
فكأنهن إذا أردن زيارة
ومما قيل فى العناق وطيه لابن المعتز :

ما أقصر الليل على الراقد
كأننى عانقت ريحانة
فلو ترانا فى قميص الدجى
وقال آخر :

وموشح نازعت فضل وشاحه
بات الغيور يشق جلدة وجهه
وقال ابن المعدل :

أقول وجنح الدجى مسبل
أيا غداً إن كنت لى محسنا
وباليلة الوصل لا تقصرى
وقال آخر :

وليل رقيق الطرتين تظلمت
لهونا بغزلان الصريمة تحتها
وقال ابن المعتز :

وكم عناق لنا وكم قبل
نقر العصافير وهى خائفة
وقال ديك الجرن :

ومعدولة مهما أمالت إزارها
لها القمر السارى شقيق وإنها
أقول لها : والليل مرخ سدوله
لأنت المنى يا زين كل مليحة
وقال آخر :

ولم أنس ضمى للحبيب على رضا
ولا قوله لى عند تقبيل خده

لا أعشق الأبيض المنفوخ من سمن
إنى امرؤ أركب المهر المضمهر فى

(١) قب البطون: قب قبياً: دق خصره وضمر بطنه، فهو أقب وهي قباء

(٢) الأكفال: مفردا كفل، وهو من يلقي نفسه وأثقاله على الناس، والذي لا يثبت على ظهر الفرس.

ومما قيل في مدح الألوان والثياب : مدح البياض : قال رسول الله ﷺ : « البياض نصف الحسن »^(١) وكان أبيض أزهر اللون مشرباً بحمرة^(٢) قال الشاعر :

بيض الوجوه كريمه أحسابهم شَم الأنوف^(٣) من الطراز الأول
ومما قيل في مدح السواد : قيل لبعضهم : ما تقول في السواد ؟ قال النور في السواد ! أراد بذلك نور العينين في سوادهما وقال بعضهم :

قالوا : تعشقتها سوداء قلت لهم :
إنى امرؤ ليس شأن البيض مرتفعاً
وقال الحيقطان :

لئن كنتُ جعد الرأس واللون فاحم
فإنى بسيط الكف والعرض أزهر
وإن سواد اللون ليس بضائري
إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر
دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون : فقال إنك لعم الخليفة الأسود ، فقال إبراهيم : نعم ، فتمثل المأمون بيت نصيب فقال :

إن كنتُ عبداً فنفسى حرة كرمًا
ثم قال يا عم أخرجنا الهزل إلى الجد ، فأنشد إبراهيم :
ليس يُزرى السواد بالرجل الشه
إن يكن للسواد فيك نصيب
وقال آخر :

لام العواذل في سوداء فاحمة
وهم في الخال أقوام وما علموا
وقيل لمدنى :

كيف رغبت في السواد؟ فقال : لو وجدنا بيضاء لسودناها !
وقال آخر :

يكون الخال في خد قبيح
فكيف يُلام ذو عشق على من
وقال آخر :

فاستحسنوا الخال في خد فقلت لهم
وكان أبو حاتم المدنى ، ينشد :

ومن يك مُعجَباً ببينات كسرى
وتفاخرت حبشية ورومية فقالت الرومية : أنا حبة كافور ، وأنتِ عدل فحم ، فقالت الحبشية : أنا حبة مسك ، وأنتِ عدل ملح وقد قال الشاعر :

أحب لحبها السودان حتى
وقال آخر :

(٢) وصفة على ﷺ بذلك كما جاء في تحفة العروس .

(١) عزاه صاحب تحفة العروس - بتحقيقى - إلى عائشة رضي الله عنها .

(٣) شَم الأنوف : أي أعزّة ، أبة .

(٤) الغوالي : يُقال : تغوّلت المرأة ، أي تشبّعت بالغل في تلونها .

قائمة في لونه قاعده
أنكما من طينة واحدة

أشبهك المسك وأشبهته
لا شك إذ لونكما واحد
ومما قيل في الصفرة : قال الشاعر :

ليالى كان الود منك مباحا
قباح فلما غبت صرن ملاحا

أصفراء كان الهجر منك مزاحا
كأن نساء الحى ما دمت فيهم
وقال آخر :

فقلت ما ذاك من عيب به نزل
فلست تلقاه إلا خائفاً وجلاً

قالوا : به صفرة شانت محاسنه
عيناه مطلوبة فى ثار من قتلت !

❖ ومما جاء فى عظم الخلقة والطول والقصر :

قيل : خرب القهندر ، فبرزت منه جماجم أموات فتصدعت جمجمة فانثرت أسنانها ، فوزن السن منها فكان وزنها أربعة أرتال ، فأتى بها إلى ابن المبارك ، فجعل يقلبها ، ويتعجب من عظمتها ثم قال :

تصاغر النفس حتى تهون

إذا ما تذكرت أجسامهم

وأراد ملك الروم أن يباهى أهل الإسلام فبعث إلى معاوية رجلين : أحدهما طويل ، والثاني قصير : شديد القوة ، فدعا للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فتزعق قيس سراويله ، ورمى بها إليه فلبسها الطويل ، فبلغت ثدييه ، فلاموا قيساً على نزع السراويل فقال :

سراويل قيس والوفود شهود
سراويل عاد أحرزتها ثمود
وما الناس إلا سيد ومسود

أردت لكيما يعلم الناس أنها
وكى لا يقولوا خان قيس وهذه
وإنى من القوم اليمانيين سيد

ثم دعا معاوية للرجل الشديد فى قوته ، بمحمد بن الحنفية ؛ فخيرته بين أن يقعد فيقيم ، أو يقوم فيقعده ، فغلبه فى الحالتين ، وانصرفا مغلوبين . وقيل : كان سلمة بن مرة الناموسى أسر امرأ القيس بن النعمان اللخمى الملك ، وكان الناموسى قصيراً مُقْتَحِماً واللخمى طويلاً جسيماً فقالت بنت امرئ القيس : يا هذا القصير ، أطلق أبى فسمعها سلمة بن مرة فقال :

قصير وقد أعيا أباه قصيرها
وعانقتة والخيل تدمى نحوورها

لقد زعمت بنت امرئ القيس أننى
ورب طويل قد نزعته سلاحه

وقالوا : عظم اللحية يدل على البله ، وعرضها على قلة العقل ، وصغرها على لطف الحركة ، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد ، والعين المتوسطة فى حجمها تدل على الفطنة ، وحسن الخلق والمروءة والتى يطول تحديقها تدل على الحمق ، والتى تكسر طرفها تدل على خفة وطيش ، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على حمق وهذيان !

ومما قيل فى القبح والدمامة : أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً وخش الصورة^(١) ، بشع المنظر ، فلم يقدر على تحليلته لفرط دمامة . فكتب إلى صاحبه يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره ، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره . ومر أبو الأسود الدؤلى بمجلس لبنى بشير ، فقال بعض فتيانهم كأن وجهه وجه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها ؛ وقال الجاحظ ما أخجلنى قط إلا امرأة مرت بى إلى صائغ فقالت له : اعمل مثل هذا فبقيت مبهوتاً ثم سألت الصانع فقال هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت لا أدرى كيف أصوره ؟ فأتت بك إلى لأصوره على صورتك وفى الجاحظ يقول الشاعر :

(١) الوحش : الردىء من كل شيء .

لو يُمسَخ الخنزير مسخًا ثانيًا
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه
ولو أن مرآة جلت تمثاله
ما كان إلا دون قُبْح الجاحظ
وهو القذَى^(١) في عين كل مُلاحظ
ورآه كان له كأعظم واعظ

وقال الأصمعي : رأيت بدوية من أحسن الناس وجهًا ولها زوج قبيح فقلت : يا هذه أترضين أن تكوني تحت هذا ؟
فقلت : يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه فجعلني ثوابه وأسأت فيما بيني وبين ربي فجعله عذابي أفلا أرضى بما
رضى الله به ، وحج مخنث فرأى رجلًا قبيح الوجه يستغفر ، فقال : يا حبيبي ما أراك تبخل بهذا الوجه على جهنم ،
وقال بعضهم لرجل طلع لى دمل في أقبح المواضع ، فقال له : كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء وخرج رجل قبيح الوجه
إلى المتجر فدخل اليمن فلم ير فيها أحسن منه وجهًا فقال :

لم أر وجهًا حسنًا
فيا شقاء بلدة
مُنْذ دخلت اليمنا
أحسن ما فيها أنا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة فقال لها : قد عرفت أني رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره ، فقلت : لا شك في
احتمالك المكاره مع حملك هذا الأنف أربعين سنة قال الشاعر في رجل كبير الأنف :

لك وجهٌ وفيه قطعة أنف
وهو كالقبر في المثال ولكن
وقال آخر :

لك أنف ذو أنوف
أنت في القدس تُصلّي
وهو في البيت يطوف
أنفت منه الأنوف

ومما جاء في الثقلاء ، قال مطيع بن إياس :

قل لعباس أخينا
أنت في الصيف سَموم^(٢)
أنت في الأرض ثَقِيل
يا ثَقِيل الثقلاء
وجليد في الشتاء
وثَقِيل في السماء

❖ ومما جاء في الملابس وألوانها والعمائم ونحوها :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا يَنْعَمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] ، وقال تعالى : ﴿ يَبْنِيْ مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٧] وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ »^(٣) ، وقال ﷺ : « تَعَمَّمُوا تَزِدَادُوا جَمَالًا »^(٤)
وقال ﷺ : « العمامت تيجان العرب »^(٥) ، وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعليه عمامة صفراء فتزلت الملائكة وعليهم
عمائم صفراء قد أرزخوها^(٦) ، ويعد رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فتخلف عن الجيش وأتى إلى
رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء من خَزَف فنقضها رسول الله ﷺ وعمه بيده وأسدلها بين كتفيه قدر شبر وقال : هكذا أعتَم

(١) القَذَى : جمع القذاة ، وهو ما يتكوّن في العين من رمَص وغَمَص وغيرهما .

(٢) السَّموم : الريح الحارة تهبّ غالبًا بمصر في شهر مايو ، وتكون غالبًا بالنهار .

(٣) قال العجلوني : رواه الترمذي وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه مرفوعًا .

(٤) ضعيف جدًا وهو بلفظ «اعتَمُوا تَزِدَادُوا حِلْمًا» أخرجه الخطيب عن أبي الميخ ، انظر : ضعيف الجامع الصغير [١٠٣١] والأحاديث الضعيفة برقم [٢٨١٩] .

(٥) ضعيف جدًا : أخرجه القضاعي في مسند الشهاب برقم [٦٨] ، وفيه موسى بن إبراهيم المروزي ، متروك . وأخرجه ابن هشام في السيرة [٤٢١/١] بسند ضعيف جدًا فيه مجهول .

(٦) أخرجه ابن عساكر كما في منتخب كنز العامل [١٠٢/٤] هامش المسند عن عبد الله بن الزبير وأخرجه ابن عساكر أيضًا كما في المنتقف [٤/١٠٨] عن أبي جعفر .

يا بن عوف ^(١) وبعث ملك الروم إلى النبي ﷺ جبة ديباج فلبسها ثم كساها عثمان ^(٢) ، وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ، ويدخل المسجد فقيل له في ذلك : فقال إني أجالس ربي ، وقيل : المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة ، وقيل البس البياض والسواد فإن الدهر هكذا بياض نهار وسواد ليل . ومما قيل في لبس السواد قول أبي قيس :

رأيتك في السواد فقلت : بدر بدا في ظلمة الليل البهيم
وألقيت السواد فقلت : شمس مَحَت بشعاعها ضوء النجوم

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمَر العراق ، فباع الجميع إلا السود ، فشكا إلى الدارمي ذلك ، وكان الدارمي قد نسك وتعب ، فعمل بيتين وأمر من يغني بهما في المدينة ، وهما هذا البيتان :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟ !
قد كان شَمَّرَ للصلاة إزاره حتى قعدت له بباب المسجد

قال فشاع الخبر في المدينة أن الدارمي رجع عن زهده ، وتعشق صاحبة الخمار الأسود ، فلم يبق في المدينة مليحة إلا اشترت لها خماراً أسود ، فلما أنفد التاجر ما كان معه ، رجع الدارمي إلى تعبه ، وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها ^(٣) . وقال آخر في لابسة الأحمر :

وشمس من قضيب في كثيب تبدت في لباس جُلَّيَّاري
سقتني ريقها صِرْفاً وحيث بوجنتها فهاجت جُلَّ ناري
وقال آخر في لابسة ثوب خمري :

في ثوبها الخمري قد أقبلت بوجنة حمراء كالجمر
وقال الصنوبري في لابسة أخضر :

وجارية أدبثها الشطارة ترى الشمس من حُسنها مستعاره
بدت في قميص لها أخضر كما ستر الورق الجلَّ ناره
فقلت لها : ما اسم هذا اللباس ؟ فأبدت جواباً لطيف العبارة
شققنا مرائر قوم به فنحن نسميه شق الماراه

وقال حكيم لابنه : إياك أن تلبس ما يديم الملك نظره إليك به ، واعلم أن الوشى ^(٤) ، لا يلبسه إلا الأحمق أو ملك ، وعليك بالبياض . وقيل : لباس البخلاء الإستبرق ، لطول بقائه ، ولباس المترفين السندس ؛ لقلة بقائه ولباس المقتصدين الديباج لتوسط بقائه . وقال بعض الأمراء لحاجبه أدخل على عاقلاً فأثابه برجل ؛ فقال : بم عرفت عقله ؟ فقال : رأيته يلبس الكتان في الصيف ، والقطن في الشتاء ، والملبوس في الحر ، والجديد في البرد ، وقيل : كان لأبريز عمامة طولها خمسون ذراعاً إذا اتسخت ألقاها في النار ، فيحترق الوسخ ، ولا تحترق ! وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة ، وسراويل مجوهر ، وتكة من أنابيب الزمرّد . وقيل : الأقية لباس الفرس ، والقرايط لباس الهند ، والأزر لباس العرب ، وسثل بعض العرب عن الثياب فقال : الصُفر أشكل ، والحرمر أجمل ، والخضر أقبل ، والسود أهول ، والبيض أفضل ، وقال أفلاطون : الصبغ الشقائقى ، والروائح الزعفرانية ، تسكن الغضب ، والصبغ الياقوتى ، والروائح الوردية تحرك السرور ، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العشقية ، وإذا

(١) أخرجه أبو داود [٤٠٧٩] عن عبد الرحمن بن عوف ، وأخرجه الحاكم [٥٤٠/٤] والطبراني في الأوسط [٤٢١٩] - مجمع البحرين [عن عبد الله ابن عمر بإسناد حسن .

(٢) وبعث ملك الروم إلى النبي ﷺ انظر : « أخلاق النبي ﷺ » . لأبي الشيخ [ص ١١٠] .

(٣) نسكه : عبادته وزهده والخمر جمع خمار .

(٤) الوشى : تحلية الثوب بخيوط حريرية وتطريزه .

مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوة الغريزية ، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة ، تحركت الطباع كلها . وكان مصعب بن الزبير يقول : لكل شيء راحة ، وراحة البيت كنسه ، وراحة الثوب طيه ، وقال بعض الأعراب : رأيت بالبصرة بروداً كأنها نسجت بأنواع الربيع ، ودخل بعض العذريين على معاوية وعليه عباءة فازدراه فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباءة لا تكلمك ، وإنما يكلمك من فيها . ومما قيل فيمن رذل لبسه ، وعرف نفسه : قال الأصمعي : رأيت أعرابياً ، فاستشده فأنشدني أبياتاً ، وروى أخباراً فتعجبت من جماله ، وسوء حاله ، فسكت سكته ثم قال :

ت عركئني عرك الأديم^(١)
ت أخاك في طمرئ^(٢) عديم
ت فإنهن على كريم

بفلس لكان الفليس منهن أكثر
نفوس الوري كانت أجل وأكبر
إذا كان غضباً حيث وجهه يرى

وفى أثوابه أسد هصور
فيخلف ظنك الرجل الطرير
فلم يستغن بالعظم البعير
ويحبسه على الخسف الجريز^(٤)
فلا عاز عليه ولا نكير
فإنى في خياركمو كثير

ويقال : كل ما تشتهي نفسك ، والبس ما تشتهي الناس ، وقد نظم من قال :

وعليك من مهن الثياب لباس
واجعل لباسك ما اشتته الناس

وفي هذا القدر كفاية ، والله أعلم بالصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أخى إن الحادثا
لا تنكرن أن قد رأيت
إن كان أثوابي رثا
قال بعضهم : وقيل للشافعي - رحمه الله تعالى - :

على ثياب لو تقاس جميعها
وفيهن نفس لو يقاس ببعضها
وما ضر نصل السيف إخلاق غمده
ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه فأنشده :

تري الرجل الخفيف فتزدره
ويعجبك الطرير^(٣) فتبتليه
لقد عظم البعير بغير لب
يصرفه الصبي بغير وجه
وتضربه الوليدة بالهراوى
فإن أك في شراركمو قليلا

إن الميئون رمتك إذ فاجأتها
أما الطعام فكل لنفسك ما اشتته

(١) الأديم : الجلد ، ويقال : أديم الليل : ظلمته وهو بريء الأديم : متهم بما لم يفعل .

(٢) الطمر : الثوب البالي ، والجمع أطمار .

(٣) الطرير : ذو المنظر والزواء والهيئة الحسنة .

(٤) الجريز : الحبل يُقاد به ، والجمع أجرة .

الباب السابع والأربعون

في التختم والحلى والمصوغ ، والطيب والتطيب ، وما أشبه ذلك

ما جاء في التختم : عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يتختم في يمينه ، وقبض عليه الصلاة والسلام والخاتم في يمينه ^(١) ، قال بعض من مدحه ﷺ :

كف الرسالة ليس يخفى حُسْنُهَا وتَمَامُ حَسَنِ الكَفِّ لبس الخاتم

وذكر السلامي : أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه ، والخلفاء بعده ، فنقله معاوية رضي الله عنه إلى اليسار ، وأخذ الأموية بذلك . ثم نقله السفاح إلى اليمين فبقى إلى أيام الرشيد رضي الله عنه فنقله إلى اليسار ، وأخذ الناس بذلك ، وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « تختموا بخواتيم العقيق ، فإنه لا يصيب أحدكم غم ما دام عليه ذلك » ^(٢) . وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن ابنه اشترى فص خاتم بألف دينار ، فكتب إليه عزمت عليك إلا ما بعث خاتمك بألف دينار ، وجعلتها في بطن جائع ، واستعمل خاتما من ورق ، وانقش عليه رحم الله امرأ عرف نفسه . وكان خاتم علي رضي الله عنه من ورق ^(٣) ، ونقشه نعم القادر الله ، وكان لأبي نواس خاتمان : أحدهما عقيق مرصع ، وعليه مكتوب :

تعاضمني دُئبي فلما قرئته بعفوك ربى كان عفوك أعظما

والآخر حديد صيني عليه : « أشهد أن لا إله إلا الله مخلصا » . وأوصى عند موته أن يغسل الفص ، ويجعل في فمه ، قال جعفر بن محمد رضي الله عنه ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروز ، وقيل : الخواتم أربعة الياقوت للعطش ، والفيروز للمال ، والعقيق للسنة ، والحديد الصيني للجرز ، وقيل : للخوف والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما جاء في الحلى : قيل : إن قُرطى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام ، لم ير مثلهما ، ولم يدر قيمتهما . وقال محمد : بعثنى يوسف بن عمر إلى هشام بياقوتة حمراء ، يخرج طرفاها من كفى ، كانت للرائقة جارية خالد بن عبد الله القسري ، اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار ، وحبّة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحب ، فدخلت عليه بهما فقال : اكتب معك بوزنهما فقلت : يا أمير المؤمنين هما أعظم من أن يكتب بوزنهما ، فقال : صدقت . وبعث معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها طوقاً من ذهب ، فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار ، فقسمته بين أزواج النبي ﷺ ، وكان ملك العرب كلما مرت عليه سنة من سنين ملكه زيدت في تاجه خرزة ، وكان يقال لها خرزات الملك !

ذكر ما جاء في الطيب والتطيب : قال رسول الله ﷺ : « أَطْيِبُ الطَّيْبِ الْمَسْكُ » ^(٤) وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَبِيضِ الطَّيْبِ فِي مَفَارِقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُحْرَمٌ وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ يَرْفَعُهُ : « إِنْ فِي الْجَنَّةِ لِمَرَاغًا مِنْ مَسْكٍ مِثْلَ مِرَاغٍ دَوَائِكُمْ هَذِهِ » ^(٥) . وعن أنس رضي الله عنه قال دخل علينا رسول الله ﷺ ، فنام عندنا فعرق ، فجاءت أُمِّي بِقَارُورَةٍ ، فَجَعَلْتُ تَسْلُتُ الْعَرَقَ فِيهَا ، فَاسْتَيْقِظَ ، وَقَالَ : « يَا أُمَّ سَلِيمٍ مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ ؟ » فَقَالَتْ : هَذَا عَرَقُكَ

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يتختم .. إلخ . ضعيف جداً : أخرجه البزار كما في « كشف الأستار » . برقم [٢٩٩١] ، و [١٢٠٥ - مختصر الزوائد] ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي ﷺ » . [ص ١٣١] ، من حديث عائشة ، وفيه عبيد بن القاسم ، متروك . وانظر : « مجمع الزوائد » . [١٥٣/٥] .

(٢) « تختموا بخواتيم العقيق .. إلخ » ، قال العجلوني : في سننه داود بن سليمان الغازي الجرجاني . كذبه ابن معين ، وقال العجلي : لا يثبت في هذا عن النبي ﷺ شيء وذكره ابن الجوزي في الموضوعات .

(٣) ورق : فضة .

(٤) « أطيب الطيب المسك » . قال العجلوني في الكشف [١/٤٠٣] ، رواه مسلم والنسائي عن أبي سعيد .

(٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى وَبِيضِ الطَّيْبِ .. إلخ » . أخرجه البخاري ، ومسلم [٣٩/١١٩٠] ، والويضي : البريق واللمعان . والمفرق : وسط الرأس حيث يفرق الشعر .

(٦) « إِنْ فِي الْجَنَّةِ لِمَرَاغًا مِنْ مَسْكٍ .. إلخ » . ضعيف : أخرجه الطبراني في « الكبير » . برقم [٥٨٤٥] ، عن سهل بن سعد ، مرفوعاً . وفي سننه : عبد الحميد بن سليمان ، ضعيف الحديث .

نجمه في طيبنا ، وهو من أطيب الطيب^(١) وعن عمر رضي الله عنه قال : لو كنت تاجراً ما اخترت على العطر إن فاتني ربحه ، لم يفتني ريحُه ! وناول المتوكل فتى فارة المسك ، فقال :

لئن كان هذا طيبنا وهو طيب لقد طيبته من يديك الأنامل

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية فسأله كم أنفق عليها ؟ فذكر مالا جزيلاً ، فقال : هذه غالية فسميت بذلك . وشمها مالك بن سليمان بن خارجة من أخته هند بنت أسماء ، فقال : علمني كيف تصنعين طيبك ؟ فقالت : لا أفعل تريد أن تعلمه جواريك هو لك مني ، كلما رددته ، ثم قالت : والله إنني ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول :

أطيب الطيب عرف أم أبان فار مسك بعنبر مسحوق

قال أبو قلابة : كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مر من طيب ربحه ، وعن الحسن بن زيد الهاشمي ، عن أبيه قال : رأيت ابن عباس رضي الله عنه يطلى جسده ، فإذا مر في الطريق قال الناس : أمر ابن عباس ؟ أم مَرَّ المسك ؟ ! وعنه عن أبيه قال : رأيت ابن عباس رضي الله عنه حين أحرم ، والغالية^(٢) على صدغيه كأنها لزقة . وقال أبو الضحى : رأيت على رأس الزبير من المسك ، ما لو كان لي لكان رأس مالي ! وقيل لما بنى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بفاطمة بنت عبد الملك أسرج في مسارجه تلك الليلة بالغالية : وقال الشعبي : الرائحة الطيبة تزيد العقل ، وقال علي رضي الله عنه تشموا النرجس ولو في العام مرة فإن في قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس . وكان الشعبي يقول : إذا ورد الورد ، صدر البرد . وكانت الصحابة رضي الله عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم بالطيب ، وكان من اختلف في طرقات المدينة وجد عرقاً طيباً ، قيل : ولذلك سميت طيبة ! وأقول : والله ما طابت طيبة إلا بالطيب الطاهر صلى الله عليه وسلم ، وما أحسن ما قيل :

إذا لم أطب في طيبة عند طيب به طيبة طابت فأين أطيّب ؟ !

وقيل إن فارة المسك دوية شبيهة بالخشب ، تصاد لسرتها ، فإذا صاها الصياد عصب السرة بعصابة شديدة ، فيجتمع فيها دمها ثم يذبحها ، ثم يأخذ السرة فيدفنها في الشعر حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكاً ذكياً بعد أن كان لا يرام تتناً وقد يوجد جردان سود يقال لها فأزات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها ! وحكى : إن العنبر يأتي على طفاوة الماء ، لا يدرى أحد معدته ، فلا يأكله شيء إلا مات ، ولا ينقره طائر إلا بقى منقاره فيه ، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه ، والتجار والعطارون ربما وجدوا أظفاراً فيه ، وقال الزمخشري - عفا الله عنه - : سمعت ناساً من أهل مكة يقولون : هو من زبد بحر سرنديب ، وأجود العنبر الأشهب ، ثم الأزرق ، وأدونه الأسود . وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه « ليس في العنبر زكاة إنما هو شيء نثره البحر »^(٣) . وأما العود فأجوده المندلي ، وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند ، وأجوده أصليه . وامتحن رطبه أن تطبع فيه نقش الخاتم ، فإن انطبع فرطب وإلا فلا . ومن خصائصه أن رائحته تطبع في الثوب أسبوعاً فلا يقمل ما دامت فيه ، وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور يحزونه بالحديد ، فإذا خرج ظاهراً وضربه الهواء ، انعقد كالصموغ الجامدة على الأشجار . وأما النّد فمصنوع ، وهو العود المستقطر ، والعنبر واللبان قال :

لو كنت أحمل جمرأ حين زرتكم لم ينكر الكلب أنى صاحب الدار

لكن أتيت وريح المسك يقدمني والعنبر النّد مشبوب على النار

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب أيام الورد ، وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرش الورد في مجلسه ، ويطيب جميع آلاته بالورد .

وقال الحسن بن سهل : أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب ، فالنرجس يقوى بالورد ، والورد يقوى بالمسك ،

(١) وعن أنس .. قال : « دخل علينا رسول الله ﷺ .. إلخ . رواه مسلم [ج ٧] ، [ص ٨١] .

(٢) الغالية : أخلاط من الطيب .

(٣) « ليس في العنبر زكاة » . أخرجه البخاري [٣/ ٢٦١] ، مرفوعاً بلفظ « ليس العنبر بركاز » .

والبفسج يقوى بالعنبر ، والريحان يقوى بالكافور ، والنسر ين يقوى بالعود . وقال جالينوس : المسك يقوى القلب ، والعنبر يقوى الدماغ ، والكافور يقوى الرئة ، والعود يقوى المعدة ، والغالية تحل الزكام ، والصندل يحل الأورام . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لَا تَرُدُّوْا الطَّيْبَ فَإِنَّهُ طَيِّبُ الرِّيحِ خَفِيفُ الْمَحْمَلِ » ^(١) . تبخر بعض الأمراء وعنده أعرابي ، ففرطت من الأمير ريح خفيفة ، فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابي أم لا فقال : ما أطيّب هذا المثلث ؟ قال : نعم ولكنك ربعتها . وقال الأحنف : إن شم رائحة المسك يحبى القلب . وقال سلمة لابن عباس وعنده - جعفر بن سليمان - : ما شمت أنفى من ريح مسك شمته من الناس إلا ريح كفك أطيّب ، فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ، ومائة مثقال عنبر ، والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثامن والأربعون

فى الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين ، وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى الشباب وفضله

روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتى العلم عالم إلا شاباً ثم تلا هذه الآية : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠] . وقد أخبر الله تعالى به ثم أتى يحيى بن زكريا الحكمة قال تعالى : ﴿ وَمَا تَنْتَهُنَّ أَلْفَكُم صَبِيحًا ﴾ [مريم: ١٢] . وقال تعالى : ﴿ إِذْ أَوْى الْفَتْنَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ [الكهف: ١٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ [الكهف: ١٣] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ ﴾ [الكهف: ٦٠] وقال أنس رضي الله عنه : « قبض رسول الله ﷺ وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء » ^(٢) . وقد قدّم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حدائه سنة ، وعتاب بن أسيد وولاه مكة ، وبها أكابر قريش ، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم ^(٣) . وقال بعض البلغاء : الشباب باكورة الحياة ، وأطيب العيش وأوائله ، كما أن أطيّب الثمار بواكيرها ، والشباب أبلغ الشفاء عند النساء ، وأكثر الوسائل لقلوبهن ، ولذلك قال الشاعر :

أحلى الرجال مع النساء مواقعاً من كان أشبههم بهن خدوداً
وما بكت العرب على شيء ما بكت على الشباب ، ولو لم يكن هذا الشباب حميداً وزمانه حبيباً لوسامة صورته ، وبهجة منظره ، وجمال خلقته ، واعتدال قامته ، لما جاور الله فى جنات خلده شاب ، كما قال رسول الله ﷺ : « جرداً مُرداً أبناء ثلاثين » ^(٤) . وقد جاء فى ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها .

الفصل الثانى : فى الشيب وفضله

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وفى الخبر أن الله تعالى يقول : « الشيب نورى وأنا أستحي أن

(١) وعن أبي هريرة : « لا تردوا الطيب . . إلخ . أخرجه بهذا اللفظ مسلم فى « مسنده » . عن عمر بن الحكم كما فى « المطالب العالیه » . برقم [٢٦٦٢] ، وسنده ضعيف لأنه مرسل ، ولكن الحديث صحيح : وانظر : صحيح البخارى كتاب اللباس برقم [٥٩٢٩] .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب الشمائل عن عبد الله بن عمر قال : « إنما كان شيب الرسول ﷺ نجواً من عشرين شعرة بيضاء » .

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير . والإصابة لابن حجر .

(٤) قوله ﷺ « جرداً مُرداً أبناء ثلاثين » . قال صاحب الترغيب والترهيب . . إلخ . رواه أحمد ، وابن أبى الدنيا والبيهقى كلهم من رواية على بن زيد بن جدعان عن ابن المسيب .

أحرقه بنارى ^(١) . وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : جاء رجلان إلى النبي ﷺ وشاب ، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ ، فقال ﷺ : « كَبُرَ كَبْرُ » ^(٢) . وبهذه الرواية : « من وقّر كبيراً لكبر سنه آمنه الله من فزع يوم القيامة » ^(٣) . وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : وعزتي وجلالي وفاقة خلقي إلى أنى لأستحي من عبدى وأمتي يشيان في الإسلام أن أعذبهما .. ثم بكى ! . فقيل له : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : « أبكى ممن يستحي الله منه وهو لا يستحي من الله » ^(٤) . وقال : « من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرمه الله على النار » ^(٥) . وقال : « إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله في الأرض تكتب له الحسنات ، وتُمحى عنه السيئات » ^(٦) . وقيل : كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم حتى يبلغ ثمانين سنة ، وقال ابن وهب : إن أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتي سنة ، فبكته الإنس والجن لحداثة سنه ، وقال النخعي : كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه : « من أتى عليه أربعون سنة ثم لم يغلب خيره على شره فليتنجهز إلى النار » ^(٧) . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال ملك الموت لنوح عليه السلام : يا أطول النبين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها . قال : « كرجل دخل في بيت له بابان ، فقام وسط البيت ساعة ؛ ثم خرج من الباب الثاني » ^(٨) . ويقال : أطع أكبر منك ولو بليلة وقال عبد العزيز بن مروان : من لم يتعظ بثلاث ، لم ينته بشيء : الإسلام ، والقرآن ، والشيب قال الشاعر :

يا عامر الدنيا على شيبه فيك أعاجيب ، لمن يفجّب
ما عذر من يعمر بنيائه وعمره منه هدم يخرّب ؟
وقال الشعبي : الشيب علة لا يعاد منها ^(٩) ، ومصيبة لا يعزى عليها . وقال الفرزدق :

ويقول : كيف يميل مثلك للظبا وعليك من عظم المشيب عذار ؟
والشيب ينقص في الشباب كأنه ليل يصيح بمعارضيه نهار
وقال أبو دلف في بياض اللحية :

تكونني هم لبيضاء نابته لها بغضة في مضمرة القلب ثابتة
ومن عجب إنى إذا رمت قصها قصصت سواها وهي تضحك نابته
وقال أيضاً :

أرى شيب الرجال من الغواني بمبلغ شيبهن من الرجال
وقال ابن المعتز :

فظنلت أطلب وصلها بتذل والشيب يغمزها بأن لا تفعل
قيل صاح شاب بشيخ أحذب : بكم ابتعت هذا القوس ياعماء ؟ فقال : يابني إنى أعطيها بغير ثمن . ومرو رجل

(١) وفي الخبر أن الله - تعالى - يقول : « الشيب نوري وأنا أستحي ... » . إلخ ، عزاه المتقي الهندي في « كنزه » . برقم [٤٢٦٨١] ، لأبي الشيخ .
(٢) « عن جعفر بن محمد ... » . إلخ أخرجه ابن ماجه برقم [٣٦٧٧] ، وانظر : « السلسلة الصحيحة » . برقم [١٥٥٥] .
(٣) « من وقّر كبيراً لكبر سنه آمنه الله من فزع يوم القيامة » . لم أقف عليه .
(٤) يقول الله : « وعزتي وجلالي .. » إلخ . ضعيف : أخرجه أبو يعلى كما في « مجمع الزوائد » . [١٥٩/٥] ، وقال الهيثمي : « وفيه نوح بن زكوان وغيره من الضعفاء » .
(٥) « من بلغ ثمانين من هذه الأمة » . إلخ موضوع : أخرجه ابن النجار في « تاريخه » . كما في « اللآلئ المصنوعة » . [١٤٧/١] .
(٦) « إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة .. » إلخ . ضعيف : أخرجه ابن قتيبة في « غريب الحديث » ، وأبو الشيخ الأصبهاني في « فوائد الأصبهانيين » . كما في « اللآلئ » . [١٤٤/١ - ١٤٥] ، وفيه عبد الرحمن بن سليمان مجهول .
(٧) عن ابن عباس . يرفعه . « من أتى عليه أربعون .. » إلخ . موضوع : أخرجه أبو الفتح الأزدي كما في « اللآلئ » . [١٣٧/١] ، وفي سنده جويري هالك ، ورياح بن أحمد ضعيف جداً .
(٨) عن أنس قال : « قال ملك الموت لنوح .. » إلخ . ضعيف جداً : أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الدنيا » . برقم [٢٢٩] - إصدار مكتبة القرآن ، وفيه نافع أبو هرزم ، ضعيف الحديث جداً . انظر : « المجروحين » لابن حبان [٥٧/٣] .
(٩) لا يُعاد منها : أي لا يزار من حلت به كما يزار المريض بإحدى العلل الأخرى .

أشْمَطُ^(١) بامرأة عجيبة في الجمال فقال : ياهذه ، إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه ، وإلا فأعلمينا فقالت : كأنك تخطبني ، قال : نعم . فقالت : إن فتى عيباً قال : وما هو ؟ قالت : شيب في رأسى ، فتنى عنان دابته ، فقالت : على رسلك ، فلا والله ما بلغت عشرين سنة ، ولا رأيت في رأسى شعرة بيضاء ، ولكننى أحبيت أن أعلمك أنى أكره منك مثل ما تكره منى ! فأنشد ويقال : إنه لابن المعتز :

فأعرضن عني بالحدود النواضر !

رأين الغوانى الشيب لاح بمفرقى

وقال آخر :

شيبى ، وقد كنت ذا مالٍ وذأ نَعَم !
لا والذى أوجد الأشياء من عدم
أفى الحياة يكون القطن حَشَوُ قَمِي

سألته قُبْلَةَ يوماً وقد نظرتُ
فأعرضت وتولت وهى قائللة
ما كان لى فى بياض الشيب من أرْبِ

وقال آخر :

كافورة قد أحالتها يدُ الزمن
معادن الطيب أمر غير ممتَهِن
المسكُ للشَمِّ والكافور للكفن

قالت أرى مسكة الشعر البهيم غدت
فقلت : طيبٌ بطيبٍ والتنقل فى
قالت : صدقت وما أنكرتُ ذاك بدا

وقال آخر :

سبترته عنك يا سَمْعَى ويا بَصْرَى
تكاثر الغش حتى صار فى الشعرِ

قالت : أراك خضبت الشيب ؛ قلت لها :
فقهقهت ، ثم قالت من تعجبها :

وقال ابن نباتة :

يُوجبُ سخ الدمع من جفنه
من ضحك الشيب على ذقنه

تبسم الشيب بوجه الفتى
وكيف لا يبكى على نفسه

وقال ابن المعتز :

فكيف به والشيب فى الرأس شامل ؟!

فما أقبح التفريط فى زمن الصبا

وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر :

فريقان : مبيض به وبهيم
فيا حسنَ ليلٍ لاح فيه نجوم

رأت وضحا فى الرأس مئى فراعها
تفاريق شيب فى السواد لوامع

ويقال فى الرجل إذا شاب : ليله عسعس ، وصبحه

تنفس^(٢) !

بسيفيهما فالشيب لاشك غالب

إذا نازع الشيب الشباب فأصلنا

وقال آخر :

وشيب كرام الناس شيب المفارق

ألا إن شيب العبد من نُقْرة القفا

وقال العتبي :

إن الشباب جنونٌ برؤه الكبرُ

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها :

وقال على بن ربيع :

بنى وزالت عن فراشى العقائد

كبرت ودق العظم منى وعقنى

يقودننى بين البيوت الولائد^(٣)

وأصبحت أعشى أخبط الأرض بالعصا

(٢) عسعس الليل : أقبل بظلامه ، وتنفس الصبح أقبل بضيائه ! .

(١) الأشمط : المختلط سواد شعره ببياضه .

(٣) الولائد : مفردها وليدة ، وهى الصبية إلى أن تبلغ .

وقال آخر :

كما يعرى من الورق القضيبُ
فما نفع البكاء ولا النحيبُ
فأخبره بما فعل المشيبُ

عريتُ من الشباب وكنتُ غصناً
ونُحْتُ على الشباب بدمع عيني
فياليت الشباب يعود يوماً

وقال ابن النقيب :

وكم كان من واش لها ورقيب
ولم يحفظوني واكتفوا بمشيبى
عيناك حتى يؤذنا بذهاب
فقد الشباب ، وفرقة الأحباب

وكم كان من عين على وحافظ
فلما بدا شيبى اطمأنت قلوبهم
وقال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - : ما شبهت الشباب إلا كشيء كان في كمي فسقط ! قال الشاعر :
شيئان لو بكت الدماء عليهما
لم يبلغا المعشار من حقيهما :
وقال الجاحظ :

كما قد كنت في زمن الشباب ؟!
دريس^(١) كالجديد من الثياب

أترجو أن تكون وأنت شيخ
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب

ومما جاء في الخضاب : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالْخُضَابِ فَإِنَّهُ أَهْنٌ لَعَذُوكُمْ ، وَأَعْجَبٌ لِنِسَائِكُمْ »^(٢) .
وعن أبي عامر الأنصاري رحمه الله : رأيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يغير بالحناء والكتم^(٣) وقيل : خضاب الحناء يصفى البصر ،
ويذهب بالصداع ، ويزيد في الباه ! .

وليس إلى رد الشباب سبيل
يزن فقال له : لو خضبت شعرك ! فلما رجع إلى مكة

تَسَوَّدَ أعلاها وتأبى أصولها

وقيل : وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذي
اختضب فقالت امرأته نبيلة : ما أحسن هذا لو دام ! فقال :

وكان بديلاً من خليلٍ قد انصرم !
ولابد من موت نبيلة أو هرم

ولو دام لى هذا الخضاب حمدته
تمتعت منه والحياة قصيرة

وقال آخر :

في كل ثالثة يعود
فكأنه شيب جديد
د فلن يعود كما تريد

يا خاضب الشيب الذي
إن الخضاب إذا نضاً
فدع المشيب وما يريـ

وقال محمود الوراق :

إذا سامتك لحيثك الخضابا

فما منك الشباب ولست منه

الفصل الثالث : في العافية والصحة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِلَيْكَ انْتَهتِ الْأَمَانِي يَا صَاحِبَ الْعَافِيَةِ »^(٤) . وعنه رضي الله عنه أنه قال :

(١) ثوب دريس : ثوب خلق بال .

(٢) عليكم بالخضاب .. إلخ . حسن : أخرجه بمعناه ابن ماجه برقم [٣٦٢٥] .

(٣) الكتم : قرية من الآس ، تنبت في المناطق الجبلية بإفريقية والبلاد الحارة المعتدلة ، ثمرتها تشبه الفلفل ، بها بذرة واحدة ، وتسمى فلفل القروء ، كانت تستعمل قديماً في الخضاب ، وصنع المدا .

(٤) إليك انتهت الأمانى .. إلخ . ضعيف : أخرجه الطبراني في « الأوسط » . ٥٠٠٨ - مجمع البحرين ، وفيه رشدين بن سعد ضعيف .

« أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة أن يقال له : ألم أصح بدنك ، وأزوك بالماء البارد » (١) . وقال علي عليه السلام في قوله تعالى : « ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ بِيَوْمِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » [التكاثر: ٨] هو الأمن والصحة ، والعافية ، وعن ابن عباس عليه السلام يسأل الله العباد عن الأبدان ، والأسماع ، والأبصار ، فبم استعملوها ، وهو أعلم بذلك . وقال ابن عيينة : من تمام النعمة طول الحياة في الصحة ، والأمن والسرور . وقالت عائشة رضي الله عنها لو رأيت ليلة القدر ، ما سألت الله إلا العفو والعافية وقال قبيصة بن ذؤيب : كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة في مرضه ؛ يأهل النعم لا تستقلوا شيئاً من النعم مع العافية ، ويقال : البحر لا جوار له ، والملك لا صديق له ، والعافية لا ثمن لها قال ابن الرومي :

إذا ما كساك الدهر سربال صحة ولم تخل من قوت يحل ويقرب
فلا تغبطن أهل الكثير فإنما على قدر ما يعطيهم الدهر يسلب

ويقال صحة الجسم أوفر القسم ، وذكر بعضهم العافية فقال : وأي وطاء وأي غطاء ! وقال حكيم : إن كان شيء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شيء مثل الحياة فالغنى ، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض ، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر ، وقال علي عليه السلام ما المبتلى الذي اشتد به البلاء بأحوج إلى الدعاء من المعافي الذي لا يأمن البلاء . وقيل : إن فارة البيوت رأت فارة الصحراء في شدة ومحنة ، فقالت لها : ما تصنعين هاهنا اذهبي معي إلى البيوت التي فيها أنواع النعيم والخصب ! فذهبت معها ، وإذا صاحب البيت الذي كانت تسكنه قد هيا لها الرصد لبنة تحتها شحمة فاقتحمت لتأخذ الشحمة ، ف وقعت عليها اللبنة فحطمتها ، فهربت الفارة البرية ، وهزت رأسها متعجبة وقالت : أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً ألا وإن العافية والفقر أحب إلى من غنى يكون فيه الموت ، ثم فرت إلى البرية . وكان عند رومي خنزير ، فربطه إلى أسطوانة ، ووضع العلف بين يديه ليسمنه ، وكان بجنبه أتان لها جحش ، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر ، فقال لأمه يأماه ، ما أطيب هذا العلف لو دام ! فقالت له : يا بني لا تقر به فإن وراءه الطامة الكبرى ، فلما أراد الرومي أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضطرب ، وينفخ فهرب الجحش ، وأتى إلى أمه وأخرج لها أسنانه ، وقال : ويحك يأماه انظري هل بقي في خلال أسناني شيء من ذلك العلف فاقلعيه ! فما أحسن القنع مع السلامة ! والله أعلم بالصواب .

الفصل الرابع : في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام

قال الحسن عليه السلام أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر . وقال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « أَطْوَلُكُمْ أَعْمَاراً فِي الْإِسْلَامِ إِذَا سَدُّوا » (٢) . وزعموا أن تَبَعَا الْفَزَارِي كان من المعمرين ، وأنه دخل على بعض خلفاء بني أمية فسأله عن عمره فقال : عشت أربعمئة وعشرين سنة في فترة عيسى ابن مريم عليه السلام في الجاهلية وستين في الإسلام قال له : أخبرني عما رأيت في سالف عمرك قال : رأيت الدنيا ليلة في إثر ليلة ، ويوماً في إثر يوم ، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق ، ومفرق مال مجموع ، وبين قوى يظلم ، وضعيف يُظلم ، وصغير يكبر ، وكبير يهرم ، وحى يموت ، وجنين يولد ، وكلهم بين مسرور بموجود ، ومحزون بمفقود ! وقد قال ابن الجوزي : إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة ، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة ، وعاش ابنه مهلايل ثمانمئة وخمساً وتسعين سنة ، وعاش ابنه إدريس ثلاثمئة وخمساً وتسعين ، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنين وستين سنة ، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة ، وأما ابنه نوح عليه السلام فروى عن عبد الله بن عباس عليه السلام أنه قال : عاش نوح عليه السلام ألفاً وأربعمئة وخمسين عاماً ؛ وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون ، فهو أطول بني آدم عمراً ، وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها ، وعاش أكثم بن صيفي ثلاثمئة وستين وأدرك الإسلام ، وعاش سطيج سبعمئة سنة ، وعاش قس بن ساعدة الإيادي سبعمئة سنة وكان من حكماء العرب ، وعاش ليبد بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة ، وأدرك الإسلام وعاش دريد بن الصمة مائة

(١) « أول ما يحاسب به العبد ... » إلخ . صحيح : أخرجه ابن أبي عاصم في « الأوائل » . برقم [٨٥ ، ١٥٥] ، وانظر تخريجه فيه .

(٢) « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ ... » إلخ . أخرجه بنحوه ابن حبان برقم [١٩٩ - موارد] ، بإسناد حسن .

وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه ، وأدرك الإسلام ولم يسلم . ومن المعمرين ^(١) عدى بن حاتم الطائى وزهير بن جنادة عاشا مائتين وعشرين سنة ومن المعمرين ذو الأصابع العذرى عاش مائتين وعشرين سنة ، وهو أحد حكماء العرب فى الجاهلية . ومن المعمرين : عمرو بن معد يكرب الزبيدى ومن المعمرين عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلثمائة وعشرين سنة ، وأدرك الإسلام . وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية ، وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة ، وأن امرأته بلغت من العمر كذلك ، ولقد رأيت منه ما لم أر من بعض شبان هذا العصر فى القوة وشدة البأس ، ورأيت له ولداً شيخاً ، هو أشد قوة من ولده ، وذلك فى صفر سنة تسع وعشرين وثمانمائة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



الباب التاسع والأربعون

فى الأسماء والكنى والألقاب وما استحسنت منها

فأشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى : ﴿ هَلْ تَقْلَرُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] وعن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : « من رفع قرطاساً من الأرض مكتوباً عليه بسم الله الرحمن الرحيم إجلالا له ولاسمه عن أن يداس كان عند الله من الصديقين ، وخفف عنه ، وعن والديه العذاب ، وإن كانا مشركين » ^(٢) . وعن ابن عباس رضي الله عنه لم يرن إبليس - لعنه الله - قط إلا ثلاث رنات : رنة حين لعن ، وأخرج من ملكوت السموات والأرض ، ورنة حين ولد محمد ﷺ ، ورنة حين أنزلت سورة الحمد وفى أولها ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(٣) . وعن رسول الله ﷺ : « لا يرد دعاء أوله : بسم الله الرحمن الرحيم وإن أمتى يأتون يوم القيامة يقولون : بسم الله الرحمن الرحيم ، فتثقل حسناتهم فى الميزان ، فتقول للأسم : ما أثقل موازين أمة محمد ! فتقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى ، لو وضعت فى كفة الميزان ، ووضعت سيئات الخلق فى كفة لرجحت كفة الأسماء » ^(٤) . وأما الأسماء والكنى : ففى صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أحبُّ أَسْمَاءَكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثُ وَهْمَامٌ ، وَأَقْبَحُهَا خَزْبٌ وَمُرَّةٌ » . وينبغى أن تنادى من لا تعرف اسمه بعبارة لطيفة ، لا يتأذى بها ، ولا يكون فيها كذب كقولك : يافقيه ، يا أخى ، ياسيدى ، ياصاحب الثوب الفلانى ، أو البغل الفلانى ، أو الفرس الفلانى ، أو السيف الفلانى ، وما أشبه ذلك . ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام من ذهب ^(٥) ، فيه ألف مثقال ، فقال له : أسألك عن شىء إن أجبتنى عنه ابتداء من غير أن تفكر فلك الجام بما فيه ، فقال سل ياأمير المؤمنين . قال : أسألك عن شىء له اسم ، ولا كنية له ، وعن شىء له كنية ، ولا اسم له ، قال المنارة وأبو رياح ! فعجب المتوكل ، وأعطاه الجام بما فيه ، وقيل لعثمان : ذو النورين رضي الله عنه لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين فى الإسلام وقيل : لأنه تزوج برقية ثم بأُم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ ، ولم يوجد من تزوج بابنتى نبي غيره ، وكان قتادة بن النعمان الأنصارى رضي الله عنه أصيب فى عينه يوم أحد فسقطت على خده ، فردها رسول الله ﷺ ، فكانت أحسن وأصح من الأخرى ، فكانت تعتل : (أى ترمد) عينه الباقية ، ولا تعتل عينه

(١) ارجع إلى كتاب المعمرين للسجستاني بتحقيقى تجد فيه مزيداً من أخبارهم .

(٢) عن ابن عباس .. « من رفع قرطاساً .. » إلخ . موضوع : أخرجه ابن عدى « ٢٠٢/١ - ٢٠٣ » ، وإسناده موضوع . وانظر : « اللآلئ المصنوعة » . للسيوطى [٢٠٢/١] .

(٣) وعن رسول الله ﷺ « لا يرد دعاء أوله بسم الله الرحمن الرحيم .. » إلخ . لم أقف عليه .

(٤) الجام : إناء للشرب والطعام من فضة ونحوها وهى مؤنثة .

المردودة ، فقيل له : ذو العينين^(١) . وقال أبو هريرة ؓ كُتبت بهرة صغيرة كنت أحملها في حجرى ، فألعب بها ، وكان رسول الله ﷺ يقول يا أبا هريرة ، واختلف فى اسمه فقيل : عبد الرحمن ، وقيل عبد شمس ، وقيل : عمير ، وقيل : سليمان . وقال الشعبي ؓ : كنية الدجال أبو يوسف . ذو الشهرة^(٢) أبو دجانة الأنصارى ؓ كان له شهرة يلبسها بين الصفيين . ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم ، وولى رياسة الجيوش والدواوين ودخل عليه شاعر يوم المهرجان ، وبين يديه الهدايا فقال :

اليوم يوم المهرجان هديتى فيه اللسان
لك دولتان حديثه وقديمة ورياستان
لك فى الورى من هاشم نبت ، وببيت خسروان
علم الخليفة كيف أن ت فصرت فى هذا المكان

فأمر له بجمع الهدايا . المطيئون : بنو عبد مناف ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وزهرة ابن كلاب ، ونعيم بن مرة ، والحرث بن فهر غمسوا أيديهم فى خلوق ثم تحالفوا . شية الحمد عبد المطلب لقب بشية كانت فى رأسه حين ولد . قال حذيفة :

بنو شية الحمد الذى كان وجهه يضىء ظلام الليل كالقمر البدر

وقيل له عبد المطلب : لأن عمه المطلب مر به فى سوق مكة مردوفاً له فجعلوا يقولون : من هذا الذى وراءك فيقول : عبد لى . سيدنا أبو بكر الصديق ؓ اسمه عبد الله ، ولقباه : العتيق والصديق ، لجماله وتصديقه بخبر الإسراء ، أو لأنه أول من صدق رسول الله ﷺ . سيدنا عمر ؓ لقب بالفاروق ؛ لأنه قال يوم أسلم : لا يعبد الله اليوم سراً ، فظهر به الإسلام ، وفرق بين الحق والباطل . الكامل سعد بن عباد ؓ لأنه كان يكتب ، ويحسن الرمى والعموم . طلحة بن عبيد الله ؓ كان يقال له : طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الطلحات ؛ لسخائه . رشع الحجر ، وأبو ذباب ، عبد الملك بن مروان ، لقب بذلك لبخله وبخره . عكة العسل سعيد بن العاص ؓ الحبر عبد الله بن عباس ؓ لقب بذلك لعلمه كان يقال له : مرة الحبر ، ومرة البحر . الأشدق عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق . الفياض عكرمة بن ربيع لقب بذلك لسخائه . المصطلق خزيمه بن سعد الخزاعى قيل له : المصطلق لحسن صوته وشدته ، وكان أول من غنى من خزاعة . راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج ، فيحدث به فإذا رآوه قالوا : راح يكذب . وأصل الغزال كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين ، وكان يتبع العجائز ، فيتصدق عليهم ، ولم يكن غزاًلاً . سليمان التميمى كان داره ومسجده فى بنى تميم ، ولم يكن منهم وهو شيبانى . أبو عمرو الشيبانى لم يكن من بنى شيبان ، وإنما كان يعلم يزيد بن يزيد الشيبانى . اليزيدى كان يعلم يزيد بن منصور الحميرى فنسب إليه . ذو القروح امرؤ القيس ، كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة ، فقرحته ، وقالوا : لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب ، وهى مفاخرهم^(٣) ، وقال بعضهم :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه بالسوء اللقب

وقيل : فى قوله تعالى : ﴿ قَوْلًا لَّهُمْ قَوْلًا لِّئَنَّا ﴾ [طه: ٤٤] أى كُتِبَ ، ولما ضرب موسى ؑ البحر ، ولم ينفلق أوحى الله تعالى إليه أن كنه فقال : انفلق أبا خالد ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم^(٤) .

وأما الألقاب : فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ يَسَّرَ الْإِنْتِمَاءَ الْقُسُوفُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات: ١١] سماه الله -

(١) رد عين قتادة . . قال ابن حجر فى الإصابة : هو قتادة بن النعمان وأخرج الدارقطنى وابن شاهين أن الإصابة كانت يوم أحد ف وقعت على وجهه ، فردها النبي ﷺ فكانت أصح عينه . وساقها ابن إسحاق عن عاصم بن قتادة مطولة مرسله .

(٢) ما جاء فى القاموس المحيط هو « المشهرة » . فرس مهلهل بن ربيعة ، « وذو المشهرة » . أبو دجانة سماك ابن أوس كانت له مشهرة إذا خرج بها يختال بين الصفيين لم يبق ولم يذر . ولعل « المشهرة » . ثوب مُمَيَّز يعرف به .

(٣) ارجع إلى كتابنا إصدار ابن سينا ، اسمك ومعناه . . ولقبك ومعناه ، وأسماء البنات للاستزادة من المعرفة . وكذا نسيك ومعناه .

(٤) ولما ضرب موسى البحر . . إلخ . انظر تفسير ابن كثير [٣/٣٣٦] .

تعالى - فسوقاً ، واتفق العلماء ^(١) على جواز ذلك ، على وجه التعريف ، لمن لا يعرف إلا بذلك كالأعمش ، والأعمى ، والأعرج ، والأحول ، والأفطس ، والأقرع ونحو ذلك . وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم يزل في الأمم كلها يجري في المخاطبات والمكاتبات ، من غير تكبير غير أنها كانت تطلق على حسب الموسومين ، وأما ما استحسنت من تلقيب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل ، وذهب التفاوت ، وانقلب النقص والشرف شرعاً واحداً فمنكر ؛ وهب أن العذر مبسوط في ذلك ، فما العذر في تلقيب من ليس من الدين في دبير ^(٢) ولا قبيل ، ولا له فيه ناقة ولا فصيل ، بل هو محتو على ما يضاد الدين ، وينافي كمال الدين ، وشرف الإسلام ، وهي لعمر الله الغصة التي لا تساغ ، والغبن الذي يعجز الصبر دونه فلا استطاع ، نسأل الله تعالى إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وأن يصلح فسادنا ، ويوقظ غافلنا . الرجل يكنى باسم ولده ، والمرأة كذلك ، وإذا كنوا من لم يكن له ولد ، فعلى جهة التفاؤل ، وبناء الأمر على رجاء أن يعيش ، فيولد له ، وقد يكون بما يلائم المكنى ، من غير الأولاد كقول رسول الله ^(٣) في علي ^(٤) أبو تراب ، وذلك أنه نام في غزوة ذي العشيرة ، فذهب به النوم ، فجاء رسول الله ^(٥) وهو متمرغ في التراب ، فقال له : اجلس أباتراب ^(٦) وكان أحب أسمائه إليه ، وكقولهم أبو لهب لحمرة خديه ولونه . وقال الزمخشري : - رحمه الله تعالى - وسمعتهم يكون الكبير الرأس والعمامة بأبي الرأس ، وأبي العمامة . وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية بأبا الطويلة ، وسمعت عرب البُحيرة يكون بأسماء بناتهم كأبي زهو ، وأبي سلطنة ، وأبي ليلي ، ونحو ذلك ، ولا حرج في ذلك . وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبي فلانة ، منهم سيدنا عثمان بن عفان ^(٧) كان له ثلاث كُنَى : أبو عمرو ، وأبو عبد الله ، وأبو ليلي . ومنهم أبو أمامة وأبو رقية تميم الداري ، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب ، وكثير من الصحابة ومن التابعين - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - أبو عائشة مسروق بن الأجدع ، وكان لأنس أخ صغير وله نُعَيْر يلعب به فمات فدخل رسول الله ^(٨) فرآه حزينا فقال : « ما شأنه ؟ » فقالوا : مات غيره . فقال : « يا أبا عُمَيْرٍ ، ما فعل النُعَيْرُ » ^(٩) . ونظر المأمون إلى غلام حسن في الموكب فسأله عن اسمه فقال لا أدري فقال :

تسميت لا أدري فإنك لا تدري بما فعل الحب المبرح في صدري !

وعن علي ^(١٠) عن النبي ^(١١) : « إذا سميت الولد محمداً فأكرموه ، ووسعوا له في المجلس ، ولا تقبحوا له وجهاً » وعنه « ما من قوم كان بينهم مشورة فحضر معهم من كان اسمه محمداً أو أحمد ، فأدخلوه في مشورتهم إلا كان خيراً لهم ، وما من مائدة وضعت ، فحضر عليها من اسمه محمد أو أحمد إلا قدس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين كل ذلك ببركة هذا الاسم الشريف » . ومما جاء في مدح الأسماء منظوماً : قال بعضهم في مليح اسمه إبراهيم :

وذلك للمهجور مرتبة عليا
وما ضر إبراهيم لو صدق الرؤيا

رأيت حبيبي في المنام معانقي
وقد رق لي من بعد هجر وقسوة
وفيه أيضاً :

وترائبها فوق الجباه وسيم
هذا المقام ، وأنت إبراهيم

لا زال بابك كعبة محجوجة
حتى يُنادى في البقاع بأسرها

(١) الدبير : ما أدبرت به في القتل إلى ركبتيك ، ضد القبيل ، وهو ما أقبلت به إلى حقوق ، ويقال : هو لا يعرف قبيلة من دبير أي لا يدري شيئاً ، ولا يعرف قبيلة من دبيره ، لا يعرف طاعة من معصية . ومثلها في المعنى : ولا له فيها ناقة ولا فصيل ، والفصيل الذي فصل عن أمه وترك الرضاع .

(٢) « اجلس أبا تراب » . . إلخ . رواه مسلم من حديث طويل عن سهل ابن سعد بلفظ « قم أبا تراب . قم أبا تراب » . وذلك في فضائل علي [٧/ ١٢٣ - ١٢٤] .

(٣) « يا أبا عمير ما فعل النُعَيْرُ » ؟ رواه البخاري ومسلم . . إلخ . النعير : تصغير نعر . طائر صغير كالصقور . البخاري : الأدب : باب الانبساط إلى الناس ، رقم « ٥٧٧٨ » ، مسلم : الأدب رقم [٢١٥٠] .

(٤) وعن علي . . عن النبي ^(٥) « إذا سميت الولد محمداً » . . إلخ . موضوع : أخرجه ابن بكير في « فضائل التسمية بأحمد ومحمد » . برقم [٢٨ - الاستدراك] ، وقال السيوطي في « اللآلئ » . [١٠٣/١] ، « الطائي [وهو أحمد بن عامر بن سليمان] ، له عن أهل البيت نسخة باطلة » .

وفيه أيضاً :

فيه من لوعة الغرام جحيم
فيه نار وأنت فيه مقيم !

فؤاد مُضناك بالهجران والبين !
وأبدلوها بعين خيفة العين

حين سموك فقالوا : عمر
أخطئوا ما أنت إلا قمر

وضياؤه حكياً لنا القمرين
فأجابني : عثمان ذو النورين

النجم يشهد لي بأني مدنف^(١)
فامنن علي بزورة^(٢) يا يوسف

وفيه على الهوى بأس شديد
إذا داود لان له الحديد

حوته صوارم الحدق المراض
وآية ذا سواد في بياض
كليم الله في الحقب المواضي

أن فاق في حسنه وتما
بأنه اسم على مسمى

ولمؤلفه : رحمه الله تعالى في قاضى القضاة علم الدين صالح البلقيني :

سكب العلوم كبحر فضل طافح
والعلم يشفى إن يكن من صالح

وتوجهت مرة إلى بلتاج لأجتمع بالحاج خليل بن منصور في ضرورة فلم أجده ، ولم يبق أحد من إخوته بقضاء ما توجهت بسببه فقلت :

وأوصافه تُزرى بكل جميل
ولا خير في الدنيا بغير خليل

يا سمى الخليل إن فؤادى
وعجيب يا قاتلى أن قلبى
ولبعضهم فى ملىح اسمه عمر :

يا أعدل الناس اسماً كم تجور على
أظنهم سرقوك القاف من قمر
وفيه أيضاً :

ما عليهم فى الهوى لو نظروا
أبدلوا قافك عيناً غلطا
ولبعضهم : فى ملىح حامل شمة موقودة اسمه عثمان :

وافى إلى بشمعة وضياؤها
ناديته ما الاسم يا كل المنى ؟
ولبعضهم فى ملىح اسمه يوسف :

يا من سبى الشعراء نمل عذاره
صيرت قلبى من صدودك فاطرا
للصفي الحلى فيمن اسمه داود :

وثقت بأن قلبى من حديد
فلان على هواك ولا عجيب
وله فيمن اسمه موسى :

أتى موسى بآية خال خده
فآية ذا بياض فى سواد
فجاء بضد ما قد جاء موسى
وللقيراطى فى ملىح اسمه بدر :

سموه بدرأ وذاك لما
وأجمع الناس إذا رأوه
ولمؤلفه : رحمه الله تعالى فى قاضى القضاة علم الدين صالح البلقيني :

وعظ الأنام إمامنا الحبر الذى
نشفى القلوب بعلمه وبوعظه

خصال خليل كلهن حميدة
فلا خير فى بلتاج إن لم يكن بها
وقال آخر فى مقبل :

(١) مدنف : أذنب المريض : اشتد مرضه .

(٢) الزورة : قوة المزيمة .

ما زال عنه كل يوم يسأل
ويقال لى : هذا حبيبك مقبل

برتبة من الجمال نالها
وكم دموع فى الهوى أسالها

طويل والهوى عندي مديد
وشوقى فى محبته يزيد

لمرتجى الوصل لها فاطمه
وهى بشوقى والجوى ^(٢) عالمة

فسهام فكرى فى أمورك طائشه
وحبيبتى من بعد موتى عائشه !؟

أكابد من حر الغرام أليمه
ومن أين تدرى الجور وهى حلیمه

ناديت وقلبى تارك من تركه
تغنيك سنين ساعة من بركه

فى كل طريقت
لو كان يفتيق
ما الشرك يفتيق
عن كل صديق

ولو تتبع هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات ، ولكن فيما ذكرته كفاية ، والله الموفق وأسأله العناية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يامن تحجب عن محب صادق
من لى بيوم فيه تسمح باللقا
ولبعضهم فى مليح اسمه محسن :

وأهيف يعملو عُشاقه
واسمه وهو العجيب محسن
صفى الدين الحلى فى اسم حسين :

حبيبى وافر والشوق منى
وأعجب أننى أهوى حسينا
ومما قيل فى أسماء النساء فى فاطمة :

عجبت من فاتنة لم تزل
تنكر ما ألقاه من وجدها ^(١)
ابن مكناس فى اسم عائشة :

يادهر خبرنى بحقك واشفنى
أيحل أنى فى المحبة ميت
شمس الدين البدرى فى اسم حلیمه :

ولما رأتنى فى هواها متيماً
فجادت بطيب الوصل منها ولم تجز
ولبعضهم فى اسم بركة دوييت :

لما نصب الهوى لقلبى شركه
ياقلب أفق ولا تمل للشركه
مردوفاً أيضاً :

لما نصب الهوى لقلبى شركه
ناديت وقلبى تارك من تركه
ياقلب أفق ولا تمل للشركه
تغنيك سنين ساعة من بركه

(١) وجد وجدًا: حزن.

(٢) الجوى: ضيق الألم فى الصدر.

الباب الغمسون

فيما جاء في الأسفار والاغتراب ، وما قيل في الوداع والفراق
والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء في الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان : فقد قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا ﴾ [الملك: ١٥] الآية . وفي الأثر : « سافروا تغنموا » ^(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر وهو ميزان الأخلاق ، إن الله بالمسافر رحيم » ^(٢) . ويقال : الحركة ولود ، والسكون عاقر وقال حكيم : السفر يسفر عن أخلاق الرجال ، وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه ، فقال يوماً :

ألا خَلَنْيَ أمضى لشأني ولا أكن
تهيبني ريب المنون ^(٣) ولم أكن
فلو كنت ذا مالٍ لقُرب مجلسي
فدعني أجول الأرض عمري لعله
على الأهل كلاً ^(٤) إن ذا الشديّد
لأهرب عما ليس منه محيدٌ
وقيل إذا أخطأت أنت رشيدٌ
يسرّ صديقٌ أو يُغاظ حَسودٌ

وقال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بِالذَّلْجَةِ فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى بِاللَّيْلِ ، وَلَا تُطَوَّى بِالنَّهَارِ » ^(٥) . وقال كعب بن مالك رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل في غير رفقة ^(٦) . وقال ﷺ : « الرَّأَكِبُ شَيْطَانٌ ، وَالرَّائِكِبَانِ شَيْطَانَانِ ، وَالثَّلَاثَةُ زَنْبٌ » ^(٧) وقال ﷺ : « إذا خرج ثلاثة في ركب فليؤمروا أحدهم » ^(٨) . وقيل : أغار حذيفة بن بدر على هجان النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وسار في ليلة مسافة ثمانى ليال فضرب به المثل ، وقال قيس بن الخطيم :
هممنا بالإقامة ثم سرنا
وسار ذكوان مولى عمر رضي الله عنه من مكة إلى المدينة في يوم وليلة ، وقال المأمون : لا شيء ألد من السفر في كفاية وعافية ، لأنك تحل كل يوم في محلة لم تحل فيها ، وتعاشر قومًا لم تعرفهم .

ومما قيل في ترك الإقامة بدار الهوان : قال الفرزدق :

وفى الأرض عن دار القلبي متحوّل
وقال آخر :

وما هي إلا بلدة مثل بلدتي
وقال آخر :

وإذا البلاد تغيرت عن حالها
ليس المقام عليك فرضاً واجبا
فدع المقام وبادر التحويلا
وقال الصفي الحلبي :

(١) سافروا تغنموا . ضعيف : أخرجه أحمد [٢/٢٨٠] ، من حديث أبي هريرة . وفيه دراج ضعيف ، ورواه الخطيب في « تاريخ بغداد » . [٣٨٧/١٠] ، عن ابن عمر ، وسنده ضعيف .

(٢) لم أهد إلى من خرج . (٣) الكل : الثقيل لا خير فيه . (٤) المؤمن : الموت .

(٥) صحيح : أخرجه أبو داود [٢٥٧١] ، والحاكم [٢/١١٤] ، والبيهقي [٥/١٥٦] ، والدلج : سيرة الليل كله . اللسان مادة [دلج] .

(٦) كان رسول الله ﷺ يكره . إلخ . لم أهد إليه .

(٧) الراكب شيطان . إلخ . حسن : أخرجه أبو داود [٢٦٠٧] ، والترمذي [١٦٧٤] ، وأحمد [٢/١٨٦] ، والحاكم [٢/١٠٢] ، والبيهقي [٥/٢٦٧] .

(٨) وأورده المتقي الهندي في كنز العمال [١٧٤٩٩] . (٩) القلبي : الكراهية .

ورد كل صاف لا تقف عند منهل
فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل !
مُضِلٌّ ومن ذا يهتدى بمضلل !؟

تنقل فلذات الهوى في التنقل
ففي الأرض أحباب وفيها منازل
ولا تستمع قول امرئ القيس إنه
وقال عبد الله الجعدي :

أجد عنك في الأرض العريضة مذهباً

فإن تجف عني أو تزرني إهانة
ومما قيل في الوداع والفراق والشوق والبكاء : قال جرير :

يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل !
وقيل لعامة بن عقيل بن بلال بن جرير : ما كان جدك صانعاً في قوله : فعلت ما لم أفعل !؟ قال : كان يقطع عينه حتى لا يرى مظنن أحبابه ، ثم أنشد يقول :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم

بساقيه من ماء الحديد كبول
له بعد نومات العيون أليل^(١)
غداة غد أو مسلم فقتيل
فراق حبيبي ما إليه سبيل !

وما وجد مغلول بصنعاء موثق
قليل الموالى مسلم بجزيرة
يقول له الحداد : أنت معذب
بأكبر منى لوعة يوم راعني

وقال الشاعر :

ببلقعة بيداء ظمآن صادياً^(٢)
موله^(٣) حزناً تجوز الفياfia^(٤)
لغلنتها من بارد الماء شافيا
فألفته ملهوف الجوانح طاويا
ونادى منادى البين أن لا تلاقيا

وما أم خشف طول يوم وليلة
تهيم ولا تدري إلى أين تبتغي ؟
أضربها حر الهجير فلم تجد
إذا بعدت عن خشفها انعطفت له
بأوجع منى يوم شدوا حمولهم

وقال عبد العزيز الماجشون ، وهو من فقهاء المدينة قال لى المهدي : يا ماجشون ، ما قلت حين فارقت أحبابك ؟ قال : قلت يا أمير المؤمنين :

قد كنت أحذر هذا قبل أن يقعا
حتى يجرعني من بعدهم جرعا
فدب بالبين فيما بيننا وسعى
فلا زيادة شيء فوق ما صنعا

لله باك على أحبابه جرعا
ما كان والله شؤم الدهر يتركني
إن الزمان رأى إلف السرور لنا
فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهداً

فقال والله لأعينك ، فأعطاه عشرة آلاف دينار . (وقال آخر) :

ولم أودعهم وجداً وإشفاقاً
ومن دموعي إحراقاً وإغراقاً

وقفت يوم الثوى منهم على بُعد
إنى خشيت على الإظعان من نفسى

وقال عمر بن أحمد :

مهج النفوس له عن الأجساد
لم يدرك كيف تفتت الأكباد

أتى الرحيل فحين جد ترحلت
من لم يبت والبين يصدع قلبه

وحكى بعضهم قال : دخلنا إلى دير هرقل ، فنظرنا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له : أحسنت فأوما

(١) أليل : أنين .

(٢) الخشف : ولد الظبية أول ما يولد يطلق على الذكر والأنثى .

(٣) مولهة : يقال : ناقة أو امرأة مولهة لا ينمى لها ولد ، بل يموت صغيراً .

(٤) الفياfia : جمع فياء ، والفياء والفيف بمعنى الصحراء الواسعة ، والطريق بين جبلين .

بيده إلى حجر يرمينا به ، وقال المثلثي يقال : أحسنت ؟ ففررنا منه ، فقال : أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم فإن أنا أحسنت فقولوا أحسنت ، وإن أنا أسأت فقولوا أسأت ، فرجعنا إليه فأنشد يقول :

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهمو وحمّلوها وسارث بالدُمى الإبل
وقلببت بخلال السجف ناظرها يرنو إلى ودمع العين ينهمل
وودعت ببنان زانه عنم ناديت لا حملت رجلاك يا جمل !
يا حادى العيس ^(١) عرج كى أودعهم يا حادى العيس فى ترحالك الأجل
إنى على العهد لم أنقض مودتهم ياليت شعرى لطول البعد ما فعلوا ؟
فقلنا له : ماتوا فقال : والله وأنا أموت ، ثم شهق شهقة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى .
وقال آخر :

لما علمت بأن القوم قد رحلوا وراهب الدير بالناقوس مُشتغل
شبكت عَشْرَى على رأسى وقلتُ له ياراهب الدير هل مرت بك الإبل ؟
فحنّ لى وبكى بل زق لى ورئى وقال لى : يافتى ضاقت بك الحيل ؟
إن الخيام التى قد جئت تطلبهم بالأمس كانوا هنا والآن قد رحلوا
وقال الشيخ الأكبر سيدى محى الدين بن عربى رحمه الله تعالى :

ما رحلوا يوم ساروا البُزْل ^(٢) العيسا إلا وقد حملوا فيها الطواويسا ^(٣)
من كل فاتكة الألحاظ مالكة تحالها فوق عرش الدر بلقيسا
إذا تمشت على صرح الزجاج ترى شمساً على فلك فى جُجر إدريسا
أسقفة من بنات الروم عاطلة ترى عليها من الأنوار ناموسا
وحشية مالها أنس قد اتخذت فى بيت خلوتها للذكر ناوسا
أن أومات تطلب الإنجيل تحسبهم قساقسا أو بطاريقا شماميسا
ناديتُ إذ رحلوا للبين ناقتها يا حادى العيس لا تحدو بها العيسا
غيبت أجناد صبرى يوم بينهم على الطريق كراديسا كراديسا ^(٤)
ساروا وأصبحت أنعى الربيع بعدهم والوجد فى القلب لا ينفك مغروساً
وقال آخر :

ولما تبدت للرحيل جمالنا وجدّ بنا سيرَ وفاضت مدامعُ
تبدت لنا مذعورة من خبائها وناظرها باللؤلؤ الرطب دامعُ
أشارت بأطراف البنان وودعت وأومت بعينيها ، متى أنت راجع ؟
فقلت لها : والله ما من مسافر يسير ويدرى مابه الله صانع
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها فسالت من الطرف الكحيل مدامعُ
وقالت : إلهى كن عليه خليفة فيارب ما خابت لديك الودائع
وقال آخر :

(١) العيس : بكسر العين ، جمع الأغيس ، وهو من الإبل الذي يخالط يياضه شقرة .

(٢) البُزْل : جمع بازل والبازل البعير طلع نابه وذلك فى السنة الثامنة أو التاسعة ، يقال بُزِلَ للجمال وبوازل للنوق .

(٣) الطواويس جمع طاووس ، وهو غير الطائر المعروف ، الجميل من الناس ونحوهم .

(٤) الكراديس : جمع كُردوسة ، وهي طائفة عظيمة من الخيل والجيش .

هل من سبيل إلى لقياك بتفق
ولا وفي لك قلبى وهو يحترق

والبين صعب على الأحباب موقعه
قواه عن حمل ما فيه وأضلعه
من شت شمل الهوى بالبين يجمعه
غريق بحر يرى الشاطى ويمنعه

ولا تعجلا يوماً على من يفارق
ليلتد منها بالتزود عاشق
فإن حبيبى للظعان سائق
ونحن كلانا فى التفكير غارق
تسارقنى فى نظرة وأسارق
ولا تعجبا أنا مشوق وشائق

وعادت منازلها خليات بلقع^(٢)
وسمر العوالى للمنايا تشرع
وحالفت شهدى والخليون هجع
فؤادى أسى من حرها يتقطع
يفيض دماً من مقلتى ليس يذفع
على غير ليلى فهو دمع مضيع

وأخرى على الرمضاء فوق فؤادى
ولا كان ذا التوديع آخر زادى

وطرفى وقلبى دمع وخفق
كأنى سحاب والوشاة بروق

وفى منامى أرى أنى أعانقهم
يا من يعز علينا أن نفارقهم

باللقا حتى ضنيئا
اجمعينا اجمعينا

ياراحلاً وجميل الصبر يتبعه
ما أنصفك دموعى وهى دامية
وقال البغدادى :

قالت : وقد نالها للبين أوجعه
اجعل يديك على قلبى فقد ضعفت
واعطف على المطايا ساعة فعسى
كأننى يوم ولت حسرة وأسى
وقال ابن البديرى :

قفا حادى ليلى فإنى وامق
وزما مطاياها قبيل مسيرها
ولا تزجروا بالسوق أظعان عيسها
ولما التقينا والغرام يذينا
وقفنا ودمع العين يخجّب بيننا
فلا تسألا ما حل بالبين بيننا
وقال أيضاً :

تذكرت ليلى حين شط مزارها^(١)
بكيت عليها والقنا^(٣) يقرع القنا
وخالفت لؤامى عليها وعذلى
ولم أستطع يوم النوى ردّ عبرة
فقال خليلى إذ رأى الدمع دائماً
لئن كان هذا الدمع بجرى صبابه
وقال آخر :

مددت إلى التوديع كفا ضعيفة
فلا كان هذا آخر العهد منكمو
وقال آخر :

ولما وقفنا للوداع عشية
بكيت فأضحكت الوشاة شماتة
ولمؤلفه رحمه الله تعالى :

يا سادة فى سويد القلب مسكنهم
أوحشتمونا وعز الصبر بعدكمو
وقال ابن الوردى :

دهرنا أضحى ضنيننا
باليالى الوصل غودى

(٣) القنا: الرمح الأجوف.

(٢) البلقع: الخالي من كل شيء.

(١) شط مزارها: بعد.

وقال آخر عند ذلك :

قالوا : أترقد إذ غبنا ؟ فقلت لهم :
ما حقّ طرف هداى نحو حُسنِكُمُو

وقال الموصلى :

فَسَدَتْ لَطَوِلْ بِعَادِكُمْ أَحْلَامُنَا
وَالطَّيْفُ قَدْ وَعَدَ الْجَفَوْنَ بِزُورَةٍ

وقال آخر :

ارحِم رُحِمَتْ لِلْوَعْتِى
ودموع عيني لا تسَل

وقال آخر :

إن عيني مَذْغَابُ شَخْصُكَ عَنْهَا
بدموع كأنهن الغواوى

وقال آخر :

يا قَلْبُ صَبْرًا عَلَى الْفِرَاقِ وَلَوْ
وأنت يا دمعُ إن ظَهَرْتَ بِمَا

وقال آخر :

خاض العواذِلُ فى حديثِ مدامعى
فحبسته لأصون سرّ هواكُمُو

وقال ابن المواز :

رحتْ يومَ الفراقِ أَجْرَى دموعى
قيل : كم ذا تجرى دموعك تُعمى

وقال آخر :

لما لبست لبعده ثوب الضئى
أجريت وقفَ مدامعى من بعده

وقال آخر :

ولم أر مثلى غار من طول ليله
وما زلت أبكى فى دُجى الليل صَبْوَةً

وقال الموصلى :

عين أفاضت دموعى
ووجنة الخد قالت

وقال آخر :

وما فارقْتُ ليلى من مراد
بكيكُ نعم بكيكُ وكلّ ألف

نعم وأشفق من دمعى على بصرى !
أنى أعذبه بالدمع والسهري !

وعقولنا وجفا الجفون منام
يا حَبِذا إن صحت الأحلام

وابعث خيالك فى الكرى
عن حالها يا ماجرى !

بأمر السهد^(١) فى كراها^(٢) وينهى
لا تسَلْ ما جرى على الخد منها

رُوعت ممن تحب بالبين
أخفيه من قلبى سقطت من عيني

لما غدا كالبحر سرعة سيره
حتى يخوضوا فى حديث غيره

حسرة إذ قضى الفراق ببيني
أوقف الدمع قلت : 'من بعد عيني ؟ !

وغدوت من ثوب اصطبارى عارىا
وجعلته وقفًا عليه جاريا

عليه كأن الليل يعشقه معى
من الوجد حتى ابيض من فيض أدمعى

لطول صَدِّ وَبَيْنِ
رأيت غسلى بعيني

ولكن شقوة بلغت مَذاها
إذا ماتت حبيبته بكاهها

(٢) الكرى: الثعاس والنوم.

(١) الشهد: الأرق.

وفى بعض الكتب السماوية : إن مما عاقبت به عبادى أن ابتليتهم بفراق الأحبة .
ومما جاء فى الحنين إلى الوطن : أما محبة الوطن فمستولية على الطباع ، مستدعية أشد الشوق إليها ، روى أن أبان قدم على النبى ﷺ فقال : « يا أبان كيف تركت مكة ؟ » قال : تركت الإذخر^(١) ، وقد أعذق^(٢) ، والشمام^(٣) وقد أورك ، فاغرورقت عينا رسول الله ﷺ^(٤) . وقال بلال ؓ :

ألا ليت شعرى هل أبیتن ليلة بواد وحولى إذخر وجليل
وهل أرذن يوماً مياه مَجَنَّة وهل يَبْدُون لى شامةً وطفيل

وقيل : من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها توافقة ، وإلى مسقط رأسها مشتاقة .
ومن حب الوطن : ما حكى أن سيدنا يوسف ؑ أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه ، فمنع أهل مصر أوليائه من ذلك ، فلما بعث موسى ؑ وأهلك الله تعالى فرعون - لعنه الله - حملة موسى إلى مقابر آبائه ، فقبره بالأرض المقدسة . وأوصى الإسكندر أن تحمل رمتة فى تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حباً لوطنه .

واعتل سابور ذو الأكتاف - وكان أسيراً ببلاد الروم - فقالت له بنت الملك - وكانت قد عشقته - ما تشتهى ؟ قال : شربة من ماء دجلة ، وشمة من تراب اصطخر ، فأنته بعد أيام بشربة من ماء ، وقبضة من تراب وقالت له : هذا من ماء دجلة ، ومن تربة أرضك ، فشرب واشتم بالوهم فنفعه من علته ! وقال الجاحظ : كان النفر فى زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه من تربة أرضه فى جراب يتداوى به ! وما أحسن ما قال بعضهم :

بلاد ألفناها على كل حالة وقد يؤلف الشيء الذى ليس بالحسن !
ونستعذب الأرض التى لا هواء بها ولا ماؤها عذب ، ولكنها وطن

ووصف بعضهم بلاد الهند فقال : بحرها دُر ، وجبالها ياقوت ، وشجرها عود ، وورقها عطر . وقال عبد الله بن سليمان فى نهاوند أرضها مسك ، وترابها الزعفران ، وثمارها الفاكهة . وحيطانها الشهد . وقال الحجاج لعامله على أصبهان : وقد وليتك على بلدة حجرها الكحل وذبابها النحل ، وحشيشها الزعفران . وكان يقال : البصرة خزانة العرب ، وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها ، واتخاذ المسلمين بها وطنًا ومركزًا ، وكان أبو إسحاق الزجاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية ، وأنا أقول : مصر كنانة الله فى أرضه ، والسلام . ومما جاء فى ذم السفر : قيل لرجل : السفر قطعة من العذاب ، فقال : بل العذاب قطعة من السفر ، وقال بعضهم :

كل العذاب قطعة من السفر يارب فارددنا على خير الحضر

وقيل لأعرابى : ما الغبطة ؟ قال : الكفاية مع لزوم الأوطان .
ومرّ يباس بن معاوية بمكان ، فقال : أسمع صوت كلب غريب ، فقيل له : بم عرفت ذلك ، قال بخضوع صوته ، وشدة ثباح غيره . وأراد أعرابى السفر فقال لامرأته :

عدى السنين لغيبتى وتَصَبَّرى وذرى الشهور فإنهن قصار
فأجابته :

فاذكر صبابتنا إليك وشوقنا وارحم بناتك إنهن صغار
فأقام وترك السفر .

ويقال : رب ملازم لمهنته فاز ببغيته

وقال ابن الهيثم :

(٢) أي قُطع .

(١) الإذخر : بُنْتُ .

(٣) الشَّام : عشب من الفصيلة النجيلية يسمو إلى مائة وخمسين سنتيمترًا ، فروعه مزدحمة .

(٤) روى أن أبان قدم على النبى ﷺ فقال : يا أبان ، كيف تركت مكة ؟ .. إلخ . أشار إليه ابن الأثير نقلاً عن الهروى فقال : ومنه حديث مكة : «وأعذق إذخرها» . أى صارت له عذوق وشعب ، أو أزهى .

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق
وفيما ذكرته كفاية . وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب العاوي والضمون

في ذكر الغنى ، وحب المال ، والافتخار بجمعه

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦] . وقيل : الفقر رأس كل بلاء ، وداعية إلى مقت الناس ، وهو مع ذلك مسلية للمروءة ، مذهبة للحياة ، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدا من ترك الحياة ، ومن فقد حياته فقد مروءته ، ومن فقد مروءته مقت ، ومن مقت ازدري به ، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له وقال رسول الله ﷺ : « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » ^(١) . وفي الحديث : « لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه ويؤدي به أمانته ، ويستغنى به عن خلق ربه » ^(٢) . وقال علي رضي الله عنه : الفقر الموت الأكبر ، وقد استعاذ رسول الله ﷺ : « من الكفر ، والفقر ، وعذاب القبر » ^(٣) . وقيل : من حفظ دنياه ، حفظ الأكرمين دينه وعرضه . قال الشاعر :

لَا تَلْمَنِي إِذَا وَقَيْتِ الْأَوَاقِي بِالْأَوَاقِي لِمَاءِ وَجْهِهِ وَاقِي

وقال لقمان لابنه : يا بني : أكلت الحنظل ، وذقت الصبر ، فلم أر شيئاً أَمَرَ من الفقر ، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس ، كيلا يتقصوك ، ولكن اسأل الله تعالى من فضله ، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه ، أو تضرع إليه ، فلم يكشف ما به ؟! وكان العباس رضي الله عنه يقول : الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس ، وهو عندهم أعذب من الماء ، وأرفع من السماء ، وأحلى من الشهد ، وأزكى من الورد ، خطؤه صواب ، وسيئاته حسنات ، وقوله مقبول ، يُرفع مجلسه ، ولا يمل حديثه . والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب ، وأثقل من الرصاص ، لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِنْ قَدِمَ ، وَلَا يُسَالُّ عَنْهُ إِنْ غَابَ . إن حضر ازدروه ، وإن غاب شتموه ، وإن غضب صفعوه ، مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة .

وقال بعضهم : طلبت الراحة لنفسى ، فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعينها ، وتوحشت في البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء ، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران ، فلم أر قريناً أغلب للرجل من المرأة السوء ، ونظرت إلى كل ما يذل القوى ويكسره ، فلم أر شيئاً أذل له ، ولا أكسر من الفاقة . قال الشاعر :

وَكُلُّ مُقْبِلٍ حِينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ وَكَانَتْ بَنُو عَمِي يَقُولُونَ مَرْحَباً
إِلَى كُلِّ مَا يَلْقَى مِنَ النَّاسِ مُذْنَبٌ فَلَمَّا رَأَوْنِي مُغْدِماً مَاتَ مَرْحَبٌ
وقال آخر :

الْمَالُ يَرْفَعُ سَقْفاً لَا عِمَادَ لَهُ وَالْفَقْرُ يَهْدِمُ بَيْتَ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ
وقال آخر :

جُرُوحُ اللَّيَالِي مَا لَهَا مِنْ طَبِيبٍ وَحَسْبُكَ أَنْ الْمَرْءُ فِي حَالِ فَقْرِهِ
وَعِيشُ الْفَتَى بِالْفَقْرِ لَيْسَ بِطَبِيبٍ تُحْمِقُهُ الْأَقْوَامُ وَهُوَ لَبِيبٌ

(١) ، (٢) « إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ .. » إلخ . أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » [١٧٣/٢] ، عن سعيد ابن المسيب .

(٣) « وقد استعاذ الرسول ﷺ من الكفر .. » إلخ . ثبت هذا في غير ما حديث ، وانظر : « قرة العين بالمسرة بوفاء الدين » . للحافظ العراقي ، تحقيق الأستاذ / مسعد السعدني وإصدار مكتبة القرآن .

يَبْتَ وهو مغلوبُ الفؤاد سليبُ
إذا قال كل الناس أنت مُصيبُ

ومن يغترر بالحادثات وصرَفها
وما ضرني أن قال أخطأت جاهلُ
وقال آخر :

وقد يسود غير السَّيد المالُ

الفقر يزري بأقوام ذوى حَسَبِ
وقال آخر :

سَنِيًّا^(١) وإن الفقر بالمرء قد يزري
ولا وضع النفس النفيسة كالْفَقْرِ

لعمرك إن المال قد يجعل الفتى
وما رفع النفس الدنية كالغنى
وقال آخر :

وهان على الأدنى فكيف الأبعدُ

إذا قل مال المرء لانت قنائه
وقال ابن الأَختف :

والناس تُغلقُ دونه أبوابها
ويزى العداوة لا يرى أسبابها
خضعت لَدَيْهِ وحركت أذناها
نبحث عليه وكشرت أنيابها

يمشى الفقير وكل شيء ضده
وتراه مبغوضاً وليس بمُذنب
حتى الكلاب إذا رأت ذا ثروة
وإذا رأت يوماً فقيراً عابراً
وقال آخر :

مثل اصفرار الشمس عند المغيب
إذا بُلى بالفقر إلا غريب

فقر الفتى يذهب أنواره
والله ما الإنسان في قومه
وقال آخر :

تكسو الرجال مهابةً وجمالاً
وهى السلاح لمن أراد قتالاً

إن الدراهم في المواطن كلها
فهى اللسان لمن أراد فصاحةً
وقال آخر :

فكلما انقلب يوماً به انقلبوا
يوماً عليه بما لا يشتهى وثبوا

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
يُعظمون أخوا الدنيا فإن وثبت
وقال بعض الفرس : من زعم أنه لا يحب المال فهو عندى كذاب ! .
وقال الكنانى :

فالحمد لله على ذلكا
وما أرى منهم لها تاركاً !

أصبحت الدنيا لنا عبرةً
قد أجمع الناس على ذمها
وقال الزمخشري :

فاحمل صعوبته على الدينار !
حجر يُلين قوة الأحجار

وإذا رأيت صعوبةً فى مطلب
وابعثه فيما تشتهيه فإنه

قال الثوري - رحمه الله تعالى - : لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى
لثيم : وفى هذا المعنى قال الشاعر :

ولا تفرط فيه تبقى ذليل

احفظ عرى مالك تحظى به

(١) سَنِيًّا: أي صار ذا سناء ورفعة وقدر.

وإن يقولوا : باخل بالعطا فالبخل خير من سُؤال البخيل !
واحفظ على نفسك من زلة يرى عزيز القوم فيها ذليل
وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال : فقد قالوا ينبغي لصاحب المال أن يحترز ، ويحفظ عليه من المطمعين ، والمبرطحين ، والمحترفين الموهمين ، والمتنمسين .

فأما المطمعون : فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشر والإكرام ، والتحية والإعظام ، إلى أن يأنسوا بهم ، ويعرفوهم بالمشاهدة ، وربما قضاوا ما قدروا عليه من حوائجهم ، إلى أن يألفوهم ، ويحصل بينهم سبب الصداقة ، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال ، في معرض المقال ، أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته ، ثم يمشى معه في الحديث إلى أن يقول : إنني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات ، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب ، وغرضي التقرب إليك ، ونصحك وخدمتك ، وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر ، بشرط أن لا أضع يدي لك على مال ، بل يكون مالك تحت يدك ، أو تحت يد أحد من جهتك ، ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين ، فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين : إن ائتمنه وجعل المال بيده ، أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الربح ، وطاول به الأوقات ، ودفع إليه في المدة الطويلة الشيء اليسير ، من ماله ، ثم يحتج عليه ببعض الآفات ، ويدعي الخسارة ، فإن لزمه صاحب المال قابحه ، وبرطل^(١) من جملة المال صاحب جاء ، فيدفعه ، ويقول : هذا راباني ، فإن روعي صاحب المال ، وفق بينهما على أن يكتب عليه ببقية المال وثيقة فلا يستوفي ما فيها إلا في الآخرة ، وإن هو لم يَأتمنه وعول أن يكون القبض بيده ، والمتاع مخزوناً لديه ، واطأ عليه البائعين والمشتريين ، وحصل لنفسه ، وعمل ما يقول به ، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أو همه أن مفاتيح الأرزاق بيده ، وإن كسد المشتري أو رخص أحال الأمر على الأقدار ، وقال : ليس لي علم بالغيب . ومن أشد المطمعين المتعرضون لصناعة الكيمياء ، وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنهما ، فيجب أن يحذر التقرب منهم ، والاستماع لهم في شيء من حديثهم ، فإن كذبهم ظاهر ، وذلك أنهم يوهمون الغير أنهم ينيلونهم خيراً ، ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم ، لا لحاجة ، وهذا يستحيل ، ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك إلا عدم الإمكان ، وتعذر المكان ، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنده عدة لها قيمة ، فيأخذها ويتسحب ، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة فيقع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية ، وسيله بعد ذلك إن كان معروفاً قال : فسد على العمل من جهة كيت وكيت ، ويقول للذي يتفق عليه : هل لك في المعاودة ؟ فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض ، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأي سبب كان ، وإن كان منكوراً غافل صاحب المكان ، وخرج هارباً . ومن المطمعين قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ، ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون : إنا نعرف علم كثر فيه من الأمارات كيت وكيت ، ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ، ويقولون : نريد أن تأخذ لنا عدة ، وتنفق علينا ، ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك ، فيوافقهم على ذلك ، ويوطن نفسه على أن المدة تكون قريية ، فيعملون يوماً أو يومين ، فيظهر لهم أكثر الأمارات ، فيزداد طمعاً ، ويعتقد الصحة ، ثم يدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى ، ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء ، وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة في قماشه ، أو في العدة التي معه ، فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ، ومضوا فهذا أمر المطمعين .

وأما المبرطحون : فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً ، وذلك أنهم إذا نذب صاحب المال أحداً منهم لشراء حاجة ، سارع فيها ، واحتاط في جودتها وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ، ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده سرا ، حتى يبيض وجهه عند صاحب المال ، ويعتقد نصحه وأمانته ، وتُجج مساعيه ، وكذلك إن نذبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ، ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقي مقاليد أموره إليه فيستعطفه ، ويفوز به ثم يغير الحال الأول في الباطن ، فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه .

وأما المحترفون الموهمون : فهم الذين يتعرضون لذوى الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ، ويباسطونهم مباسطة

(١) بَرَطْل : يقال برطل فلاناً ، أي : رشاه ، والبِرْطِيل : الرُّشوة .

الأصدقاء ، ويعتمدون جودة اللباس ، ويستعملون كثيراً من الطيب ، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة ، فيما يعانیه ويذكر ذلك مع الغير ، ولا يزال كذلك ، حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثير من المال ، وأنه لا يبالي إذا أفق أو أكل أو شرب ، فتشرب نفس صاحب المال لذلك ، فيقول له - على سبيل المداعبة - يا فلان ، تريد الدنيا كلها لنفسك لم لا تشركنا في متاجرك هذه وأرباحك ؟ فيقول له : أنت جبان يعز عليك إخراج الدينار ، وتظن أنك إن أظهرته تخطف منك ، ولا تدري أنه مثل البازي^(١) إن أرسلته أكل ، وأطعمك ، وإن أمسكته لم يصد شيئاً واحتجت إلى أن تطعمه وإلا مات ، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط لهذا كنت فعلت معك خيراً كثيراً ، ولكن ما كان إلا هكذا ، وما كان لا كلام فيه ، والعمل في المستأنف ، فيشكره صاحب المال ، ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه ، فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه ، فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده ! .

وأما المتنمسون : فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك ، ومجانبة الحرام ، ومواظبة الصلاة والصيام ، لكي يشتهر ذكركم عند الخاص والعام ، ثم يلغون ذوى الأموال بالبشر والإكرام ، والتلطف في المقال ، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهاني بالأعياد ، وربما يأتي معه بأحد الأولاد ، ويظهرون النزاهة والغنى ، ويجعلون الدين سلماً إلى الدنيا ، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال ، وتفوض إليهم الوصايا ، ويجلبهم العوام ، وتقبل شهادتهم الحكام ، وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال ، وهؤلاء أشرف من اللصوص والقطاع ، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع ، تدعو إلى الاحتراز منهم ، وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار بهم ، قال الشاعر :

صَلَّى وصام لأمر كان أمْلَه حتى حواه فما صَلَّى ولا صاماً
وقيل : لا فقير أفقر من غني يأمن الفقر ، قال الشاعر :

ألم تر أن الفقير يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر
وأوصى بعض الحكماء ولده فقال : يابني عليك بطلب العلم ، وجمع المال فإن الناس طائفتان : خاصة وعامة ، فالخاصة تكرمك للعلم ، والعامة تكرمك للمال . وقال بعض الحكماء ، إذ افتقر الرجل اتهمه من كان به واثقاً ، وأساء به الظن من كان ظنه به حسناً ، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ، ذهب بهاؤه ، وما من خلّة هي للغنى مدح إلا وهي للفقير عيب ، فإن كان شجاعاً سمى أهوج ، وإن كان مؤثراً سمى مفسداً ، وإن كان حليماً سمى ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سمى بليداً ، وإن كان لساناً سمى مهذاراً ، وإن كان صموتاً سمى غيباً قال ابن كثير :

الناس أتباع من دامت له نعم والويل للمرء إن زلت به القدم
المال زينٌ ومن قلت دراهمه حتى كمن مات إلا أنه صنم
لما رأيت أخلائي وخالصتي والكل مستتر عني ومحتشم
أبدوا جفاء وإعراضاً فقلت لهم : أذنبت ذنباً؟! فقالوا : ذنبك العدم

وكان « ابن مقلة » وزيراً لبعض الخلفاء ، فزور عنه يهودى كتاباً إلى بلاد الكفار ، وضمنه أموراً من أسرار الدولة ، ثم تحيل اليهودى إلى أن أوصل الكتاب إلى الخليفة ، فوقف عليه ، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودى ، فأعطته درجاً بخطه ، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الخط الذى كان فى الدرج ، فلما قرأ الخليفة الكتاب ، أمر بقطع يد ابن مقلة وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ، ومضى إلى داره وفى موكبه كل من فى الدولة ، فلما قطعت يده ، وأصبح يوم العيد لم يأت أحدٌ إليه ولا توجع له ، ثم اتضحت القضية فى أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودى والجارية ، فقتلها شر قتلة ، ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة ، وخلعاً سنياً ، وندم على فعله ، واعتذر إليه ، فكتب ابن مقلة على باب داره يقول :

(١) البازي: جنس من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم، تميل أجنتها إلى القصر وتميل أرجلها وأذناها إلى الطول.

تحالف الناس والزمان
عاداني الدهر نصف يوم
يأيها المعرضون عني
ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى . قال بعضهم :

فحيث كان الزمان كانوا
فانكشف الناس لي وباتوا
عودوا فقد عاد لي الزمان
وبها يكمل الفتى ويسود
ولئيم تسمى إليه الوفود
والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها اللعب بالدينار ، وشرب الأدوية والمساليق التي يغلي فيها الذهب ، قال الشاعر :

أحرص على الدرهم والعين
فقوة العين بإنسانها
تسلم من الغيلة والذين
وقوة الإنسان بالعَيْن

واعلم : أن القلب عمود البدن فإذا قوى القلب قوى سائر البدن وليس له قوة أشد من المال ، وبالعكس إذا ضعف من الفقر ضعف له البدن .

وحكى : أن ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه ، والشاب يعجز عن ذلك ، فعجب منه فاستحضره فحدثه في ذلك ، فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه .

وقال لقمان لابنه : يا بني شيئا إذا أنت حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما : دينك لمعادك ، ودرهمك لمعاشك ، والكلام في هذا المعنى كثير ، وقد اقتصرت منه على النزر اليسير ، وقد كان في الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخراً . فمن ذلك : ما حكى عن أحمد بن طولون : أنه دخل يوماً بعض بساتينه فرأى النرجس ، وقد تفتح زهره ، فاستحسنه فدعا بغدائه ، فتغدى ، ثم دعا بشرا به فشرب ، فلما انتشى قال : على بألف مثقال من المسك فثره على أوراق النرجس ! ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف .

حكى الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالعجائب والطرف : أن أبا الوليد ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب ، مما كان يهدى للبيت قيمتها ألف ألف ، وتسعمائة ألف ، وتسعون ألف دينار .

وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قتل صاحبها بثمانين ألف دينار ولبس سلبه ، وقيمتها خمسمائة ألف وخمسون ألفاً . وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوض عنها ثلاثين ألف دينار ، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتي ألف . ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريق ذهب مرصعاً بالجواهر فلم يدر أحد ما قيمته ، فقال رجل من الفرس : أنا آخذه بعشرة آلاف دينار ولم يعرف قيمته فذهب به إلى سعد بن أبي وقاص فأعطاه إياه . وقال : لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار ، فباعه سعد بمائة ألف دينار ، ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى في سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها ، فلبست إحدى فردتيه ونسيت الأخرى فأصابها المسلمون ، فقومت بمائتي ألف دينار . ولما فتح قتيبة بن مسلم ببخارى في سنة تسع وثمانين وجد فيها قدور ذهب ينزل إليها بسلالم . ودفع مصعب بن الزبير حين أحس بالقتل إلى زياد مولاه فصاً من ياقوت أحمر وقال له : انج به ، وكان قد قوم ذلك الفص بألف ألف درهم فأخذه زياد ورضه بين حجرين . قال : والله لا يتفجع به أحد بعد مصعب . وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان في ولايته ظهر على كنز فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصبوغة من الذهب ، مرصعة بالدر والجواهر والياقوت الأحمر والأصفر والزربرجد ، فحملها إلى مصعب بن الزبير فخرج من قومها فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار فقال : إلى من أدفعها ؟ فقيل : إلى نساك وأهلك فقال : لا بل إلى رجل قدم عندنا يداً وأولانا جميلاً ادع لي عبد الله بن أبي دريد فدفعها إليه .

ولما صار موجود عماد الدولة في قبضة أمير الجيوش وجد في جملته دملج^(١) ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة ،

(١) الدملج : سوار يحيط بالعضد .

وزنها سبعة عشر مثقالاً فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر ، فقومت بتسعين ألف دينار . ووجد في بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعد له آلة الشرب يوم قتل سبعمائة صينية من ذهب وفضة ، ووجد له مائة ألف مثقال عنبر . وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي ، وعشرة آلاف تكة حرير ، وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل ، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار ، ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم ، وبين الدولة العباسية ووفاة هشام سبع سنين .

ولما قتل الأفضل بن أمير الحموش في شهر رمضان سنة خمسة عشرة وخمسمائة خلف بعده مائة ألف ألف دينار ، ومن الدراهم مائة وخمسين ألفاً . وسبعين ألف ثوب ديباج ، ودواة من الذهب قوم ما عليها من الجواهر والياقوت بمائتي ألف دينار ، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب قيمته مائة دينار ، على كل مسمار عمامة لوناً ، وخلف كعبة عنبر يجعل عليه ثيابه إذا نزعها ، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجواهر الفائق الذي لا يوجد مثله ، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه ، وخلف من الزبادي الصيني ، والبلور المحكم وسق مائة جمل ، وخلف عشرة آلاف ملعة فضة وثلاث آلاف ملعة ذهب ، وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار ، وأربع قدور ذهباً كل قدر وزنها مائة رطل ، وسبعمائة جام ذهباً بفصوص زمرد ، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن الأرباب في كل خريطة عشرة آلاف درهم ، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلى النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى ، وخلف ألف حسكة ذهباً ، وألف حسكة فضة ، وثلاثة آلاف نرجسة ذهب ، وخمسة آلاف نرجسة فضة ، وألف صورة ذهباً ، وألف صورة فضة منقوشة عمل المغرب ، وثلاثمائة تور ذهباً ، وأربعة آلاف تور فضة ، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان ، وداخل قصر الزمرد ، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبنه في كل سنة ثلاثين ألف دينار ، وخلف من الحواصل المملوءة من الجبوب مالا يحصى .

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد ، وجد فيه طبلاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً به ، فلما رآه سخروا منه ، فضرب عليه إنسان فضرط ، فضحكوا منه ، ثم أمسكه آخر وضربه فضرط فضحكوا عليه ، فكسروه استهزاء وسخرية ولم يدروا خاصيته ، وكانت الفائدة فيه أنه : وضع للقولنج فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره . وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى ، وبعد ذلك ماتوا ونفدت ذخائرهم ، وفنيت أموالهم ، فسبحان من يدوم ملكه ويقاؤه قال بعضهم :

أليس مصيرُ ذلك للزوال ؟

هب الدنيا تقاد إليك عفوا

فضمنت أنا هذا البيت وقلت :

وأفنى العمر في قيل وقال !

وجمّع من حرام أو حلال

أليس مصير ذلك للزوال ؟ !

أيا من عاش في الدنيا طويلاً

وأتعب نفسه فيما سيفنى

هب الدنيا تقاد إليك عفوا

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثاني والضمسون

في ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا فَرِحٌ ﴾ [العلق: ٦-٧] على ذم الغنى إن كان سبب الطغيان ، وسئل أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - عن الغنى والفقر فقال : وهل طغي من طغي من خلق الله - عز وجل - إلا بالغنى ، وتلا هذه الآية المتقدمة . والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يرون الفقر فضيلة ، وحدث الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ عَامًا » ^(١) . فقال جليس للحسن : أمن الأغنياء أنا أم من الفقراء ؟ فقال : هل تغديت اليوم ؟ قال : نعم . قال فهل عندك ما تتعشى به ؟ قال : نعم . قال فإذا أنت من الأغنياء ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « يَبِيتُ طَاوِنًا لَيْلًا مَا لَهُ وَلَا لِأَهْلِهِ عِشَاءٌ ، وَكَانَ عَامَّةُ طَعَامِهِ الشَّعِيرُ ، وَكَانَ يَغْصِبُ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ » ^(٢) . وكان رضي الله عنه : « يَأْكُلُ خُبْزَ الشَّعِيرِ غَيْرَ مَنْخُولٍ » ^(٣) . هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض ، فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه . وكان يقول : « اللَّهُمَّ تَوَفَّنِي فَقِيرًا وَلَا تَوَفَّنِي غَنِيًّا وَاحْشُرْنِي فِي زَمَرَةِ الْمَسَاكِينِ » ^(٤) . وقال جابر رضي الله عنه : دخل النبي ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها وهي تطحن بالرحى ، وعليها كساء من وبر الإبل فبكى ، وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة » ^(٥) قال الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى: ٥] . وقال رضي الله عنه : « الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره ، ولا يختاره إلا أولياء الله تعالى » ^(٦) . وفي الخبر : إذا كان يوم القيامة يقول الله - عز وجل - لملائكته : « أدنوا إلى أحبائي ، فتقول الملائكة : وَمَنْ أَحْبَاؤُكَ يَا إِلَهَ الْعَالَمِينَ ؟ فيقول : فقراء المؤمنين أحبائي ، فيدنونهم منه ، فيقول : يا عبادي الصالحين ، إنى ما زويت الدنيا عنكم لهوانكم على ، ولكن لكرامتكم ، تمتعوا بالنظر إلى وتمنوا ما شئتم ، فيقولون : وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنا منها ، ولقد أحسنت بما صرفت عنا ، فيأمر بهم فيكرمون ، ويخبرون ، ويرفون إلى أعلى مراتب الجنان » ^(٧) . وقال رضي الله عنه : « هَلْ تُنْصَرُونَ إِلَّا بِفُقَرَائِكُمْ وَضَعْفَائِكُمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيَدْخُلَنَّ فُقَرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهَا بِخُمْسِمِائَةِ عَامٍ ، وَالْأَغْنِيَاءُ يُحَاسَبُونَ عَلَى زَكَاتِهِمْ » ^(٨) . وقال رضي الله عنه : « رَبِّ أَشَعْتُ أَغْبِرُ ذِي طَمَرَيْنِ ^(٩) لَا يُؤْتِيهِ بِهِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَبْرَةٍ » ^(١٠) . أى : لو قال : اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاء الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئاً . وقال رضي الله عنه : « إِنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلِّ أَشَعْتُ أَغْبِرُ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْتِيهِ بِهِ ، الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأَمِيرِ لَا يُؤْذَنُ لَهُمْ ، وَإِنْ خَطَبُوا النِّسَاءَ لَمْ يَنْكَحُوا ، وَإِذَا قَالُوا لَمْ يَنْصِتْ لَهُمْ ، حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَلَجَّجُ فِي صَدْرِهِ ، لَوْ قَسَمَ نَوْرُهُ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ سَمِعَهُمْ » ^(١١) . وروى عن خالد بن

(١) « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ أُمَّتِي .. » إلخ صحيح : أخرجه مسلم [٢٩٧٩] ، وفيه : « بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه . ورواه ابن حبان [٦٧٧] ، بلفظ : « أَرْبَعِينَ عَامًا » .

(٢) « وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ .. » كان النبي ﷺ . إلخ حسن : أخرجه بنحوه الترمذي [٢٣٦٠] ، [٣٤٤٧] ، وفي الشامل برقم [١٤٦] ، وأحمد [١/ ٢٥٥] ، [٣٧٤] ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي ﷺ » [ص ٢٦٣] .

(٣) الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي . صفة خبزه .

(٤) « وَقَدْ عَرَضَتْ عَلَيْهِ مِفَاتِيحُ كُنُوزِ الْأَرْضِ » إلخ ضعيف : أخرجه ابن عدى [٨٨٤/٣] ، والبيهقي في « شعب الإيمان » برقم [٥٤٩٩] ، وفيه خالد بن يزيد بن أبي مالك ، ضعيف .

(٥) « وَقَالَ جَابِرٌ .. » إلخ لم أهد إليه .

(٦) « وَقَالَ .. » الفقر موهبة .. إلخ لم أهد إليه .

(٧) حديث وفي الخبر - إذا كان يوم القيامة يقول الله - عز وجل - عزاء الهندي في « كنز العمال » [١٦٦٣٠] ، لأبي الشيخ عن أنس .

(٨) قال رضي الله عنه : « هَلْ تُنْصَرُونَ إِلَّا بِفُقَرَائِكُمْ .. » إلخ ثبت في « صحيح البخاري » [٢٨٩٦] ، عن سعد ، مرفوعاً بلفظ . « إِنَّمَا تُنْصَرُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِضَعْفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ » .

(٩) طمرين : مثني طمر ، وهو الثوب البالي .

(١٠) « رَبِّ أَشَعْتُ أَغْبِرُ .. » إلخ قال العجلوني : رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة بلفظ « رَبِّ أَشَعْتُ أَغْبِرُ مَذْفُوعًا بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » وفي النجم عن أنس رب أشعث أغبر ذي طمرين مصفح عن أبواب الناس لو أقسم على الله لأبره .

(١١) « إِنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ .. » إلخ لم أهد إليه .

عبد العزيز أنه قال : كان حيوة بن شريح من البكائين ، وكان ضيق الحال جدا ، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده ، يدعو فقلت له : يرحمك الله ، لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك قال : فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً فأخذ حصاة من الأرض وقال : اللهم اجعلها ذهباً ، فإذا هي تبرة^(١) في كفه ، ما رأيت أحسن منها قال : فرمى بها إلى وقال : هو أعلم بما يصلح عباده ، فقلت : ما أصنع بهذه ؟ قال : أنفقها على عيالك فهبته والله أن أردّها عليه ! وقال عون بن عبد الله صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحداً أكثر مني همّاً ، لأنني كنت أرى ثياباً أحسن من ثيابي ، ودابة أحسن من دابتي ، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك فاسترحت قال بعضهم :

وقد يهلك الإنسان كثرة ماله كما يذبح الطاووس من أجل ريشه
وقال عبد الله بن طاهر :

ألم تر أن الدهر يهديم ما بنى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى ؟!
فمن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً ينال به فقداً
وكان من دعاء السلف : اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر ، وبطر الغنى . وقيل : مكتوب على باب مدينة الرقة :
ويل لمن جمع المال من غير حقه ، ويلان لمن ورّثه لمن لا يحمد ، وقدم على من لا يعذر .

ولما فتحت بلخ في زمن عمر^(٢) وجد على بابها صخرة مكتوب فيها إنما يتبين الفقير من الغنى بعد الانصراف من بين
يدى الله تعالى : أي بعد العرض قال الشاعر :

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل حزيناً على الدينار رهين غبونها
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها
وقال آخر :

ولا ترهبين الفقر ما عشت في غد لكل غد رزق من الله وارد
وقال هارون بن جعفر الطالبي :

بوعدت همتي وقورب مالي ففعالي مقصّر عن مقالي
ما اكتسى الناس مثل ثوب اقتناع وهو من بين ما اكتسوا سربالي
ولقد تعلم الحوادث أني ذو اضطبار على صروف الليالي
وقال أعرابي : من ولد في الفقر ، أبطره الغنى ، ومن ولد في الغنى ، لم يزد إلا تواضعاً ، فما أحسن الفقر وأكثر
ثوابه وأعظم أجر من رضى به ، وصبر عليه اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك ، يأرحم الراحمين ، يارب العالمين ،
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الباب الثالث والخمسون

في التلطف في السؤال وذكر من سئل فجاء

روى الإمام مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم^(٣) أن رسول الله ﷺ قال : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس^(٤) » .

(١) التبرة : واحدة التبر وهو فئات الذهب والفضة قبل أن يصاغ .

(٢) قال العجلوني : رواه مالك في الموطأ مرسل عن زيد بن أسلم . ثم قال : قال ابن حجر في خطبة اللآلئ المتشورة : وهو أحد الأحاديث الخمسة التي قال فيها
على بن المديني : خمسة أحاديث يرونها عن رسول الله ﷺ ولا أصل لها عنه . وهو أحد الأحاديث الأربعة التي تدور على الألسنة في الأسواق عن رسول
الله ﷺ وليس لها أصل على ما نقل ابن الصلاح عن الإمام أحمد . لكن ناقش الحافظ ابن حجر في ثبوت ذلك عن أحمد بالنسبة لحديث السائل .

وما سئل عليه السلام شيئاً قط فقال : « لا » ^(١) . وأتى أعرابي على عليّ ﷺ فسأله شيئاً فقال : والله ما أصبح في بيتي شيء فضل عن قوتي ، فولى الأعرابي وهو يقول : والله ليسألك الله عن موقفى بين يديك يوم القيامة ، فبكى على بكاء شديداً وأمر برده ، وقال : يا قنبر ، اتنتى بدرعى الفلانية ، فدفعها إلى الأعرابي وقال : لا تُخَدَعَنَّ عنها فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ ، فقال قنبر : يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهماً ، فقال : يا قنبر ، والله ما يسرنى أن لى زنة الدنيا ذهباً وفضة فتصدقت به ، وقبل الله منى ذلك ، وأنه يسألنى عن موقف هذا بين يدي . وقال على ﷺ : إن لكل شيء ثمرة ، وثمره المعروف تعجيل السراح . وقال مسلمة لنصيب : سلتنى ؛ فقال : كفك بالعطية أبسط من لسانى بالمسألة ، فقال لحاجبه : ادفع إليه ألف دينار .

وسأل رجل الحسن ﷺ فقال له : ما وسيلتك ؟ قال : وسيلتى أنى أتيتك عام أول فبررتنى ، فقال : مرحباً بمن توسل إلينا بنا ثم وصله وأكرمه . ويقال : الكريم إذا سئل ارتاح ، واللثيم إذا سئل ارتاع .

ولما وفد المهدي من الرى إلى العراق امتدحه الشعراء ، فقال أبو دلامة :

إنى نذرتُ لئن رأيتُك قادماً أرض العراق وأنت ذو وقر ^(٢)
لتُصلين على النبى محمد ولتملأن دراهماً حجري

فقال المهدي صلى الله على محمد ، فقال أبو دلامة : ما أسرعك للأولى ، وأبطأك عن الثانية ! فضحك ، وأمر ببذرة فصبت في حجره .

وسمع الرشيد أعرابية بمكة تقول :

طَحَنَتْنَا كَلَاكِلُ ^(٣) الْأَعْوَامِ وَبَرَّتْنَا طَوَارِقَ ^(٤) الْأَيَّامِ
فَأَتَيْنَاكُمْ نُمْدُ أَكْفَا لَالْتِقَامِ مِنْ زَادِكُمْ وَالطَّعَامِ
فَاظْلَبُوا الْأَجْرَ وَالْمَثْوِيَةَ فِينَا أَيُّهَا الزَّائِرُونَ بَيْتَ حَرَامِ

فبكى الرشيد وقال لمن معه : سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم ، فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كثرة ، وملثوا حجرها دراهم وذنابير وسأل أعرابي بمكة وأحسن في سؤاله ، فقال أخ في الله ، وجار في بلد الله ، وطالب خير من عند الله فهل من أخ يواسينى في الله ؟ قال الشاعر :

لَيْسَ فِى كُلِّ وَهْلَةٍ وَأَوَانِ تَتَهَيَّأُ صَنَائِعُ الْإِحْسَانِ
فَإِذَا أَمَكُنْتَ فَبَادِرْ إِلَيْهَا حَذَرًا مِنْ تَعَذُّرِ الْإِمْكَانِ

وقال البصرى :

أَضَحَّتْ حَوَائِجُنَا إِلَيْكَ مَنَاخَةً مَعْقُولَةٌ بِرَحَابِكَ الْوَصَالِ
أَطْلُقْ - فِدَيْتِكَ - بِالنَّجَاحِ عَقَالَهَا حَتَّى تَشُورَ بِنَا بِغَيْرِ عَقَالِ

وعن على ﷺ قال : يا كميل : مُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَرُوحُوا فِي كَسْبِ الْمَكَارِمِ ، وَيُذْلَجُوا ^(٥) فِي حَاجَةٍ مِنْ هُوَ نَائِمٌ ، فَوَالَّذِى وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ ، مَا مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قَلْبًا سُرُورًا إِلَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ السُّرُورَ لَطْفًا فَإِذَا نَائِبَةٌ جَرَى إِلَيْهَا ، كَالْمَاءِ فِي انْحِدَارِهِ ، حَتَّى يَطْرُدَهَا عَنْهُ ، كَمَا تَطْرُدُ غَرِيْبَةَ الْإِبِلِ وَقَالَ لَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ : يَا جَابِرُ مِنْ كَثْرَتِ نَعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَإِذَا قَامَ بِمَا يَجِبُ فِيهَا فَقَدْ عَرَضَهَا لِلدَّوَامِ وَالْبَقَاءِ ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ بِمَا يَجِبُ فِيهَا عَرَضَ نَعْمِهِ لَزْوَالِهَا . وَكَانَ لَبِيدٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَلَى عَلَى نَفْسِهِ كَلِمَا هَبْتَ الصَّبَا ^(٦) أَنْ يَنْحَرُ وَيُطْعَمَ وَرَبَّمَا

(١) حديث « ما سئل رسول ﷺ عن شيء .. إلخ . تقدم تخريجه .

(٢) الوقر : الحمل الثقيل .

(٣) كلاكيل : جمع كليلة ، وهي الجماعة .

(٤) طوارق : مفردة طارقة ، وهي عشيرة الرجل ، والضايرة بالحصى التكهّن .

(٥) الزّواح : السعى آخر النهار ، والإدلاج : المشى بليل .

(٦) الصّبا : ريح الشمال وهي باردة منعشة بما تحمله معها من روائح الزهر والمحيين .

ذبح العناق^(١) إذا ضاق الخناق ! فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال : قد علمتم ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته ، ثم بعث إليه بخمسة من الإبل وبهذه الأبيات :

أرى الجزارَ يشحذُ مُذَيَّيهِ إذا هبت رياحُ بنى عقيل
طويل الباع أبليج جعفرى كريم الجدد كالسيف النصقيل
وَفَى ابن الجعبرى بما نواه على العِللاتِ^(٢) بالمال القليل
فدعا لبيد بنتاً له خماسية^(٣) وقال : يا بنية إنى تركت قول الشعر فأجيبى الأمير عني ، فقالت :

إذا هبَّت رياح بنى عقيل تداعينا لهبتها الوليدا
طويل الباع أبليج عبشمي أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن رعيبا^(٤) عليها من بنى حمام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنا الشريدا
فعد إن الكريم له معاد وظنى فى ابن عتبة أن يعودا

فقال : لقد أحسنت والله يا بنية لولا أنك سألت ، وقلت : عد ، فقالت : يابنت إن الملوك لا يُستحيا منهم فى المسألة . فقال : والله لأنت فى هذا أشعر منى ؟ . ووفد رجل من بنى ضبة على عبد الملك فأنشده :

والله ما ندرى إذا ما فاتنا طلبٌ إليك من الذى نتطلبُ ؟
ولقد ضربنا فى البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم يُنسبُ
فاصبر لعادتك التى عودتنا أو لا فأرشدنا إلى من نذهب !

فأمر له بألف دينار ، فعاد إليه من قابل ، وقال : يا أمير المؤمنين إن الروى لينازعنى^(٥) ، وإن الحياء يمنعنى ، فأمر له بألف دينار وقال : والله لو قلت حتى تنفذ بيوت الأموال لأعطيتك . وقيل إن رجلاً عرض للمنصور فسأله حاجة ، فلم يقضها ، فعرض له بعد ذلك ، فقال له المنصور : أليس قد كلمتني مرة قبل هذه ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض ، وبعض البقاع أعز من بعض ، فقال : صدقت ، وقضى حاجته ، وأحسن إليه ، وروى : أن أبا ذؤلامه الشاعر كان واقفاً بين يدي السفاح فى بعض الأيام فقال له : سلنى حاجتك ، فقال : كلب صيد ، فقال : أعطوه إياه ، فقال : ودابة أصيد عليها ، فقال : أعطوه دابة ، فقال : وغلاماً يقود الكلب ، ويصيده ، قال : أعطوه غلاماً . قال وجارية تُصلح لنا الصيد وتطعمنا منه ، قال : أعطوه جارية ، فقال هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ، ولا بد لهم من دار يسكنونها ، قال : أعطوه داراً تجمعهم ، قال : فإن لم يكن لهم ضيعة ، فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أقطعتك عشر ضياع عامرة وعشر ضياع غامرة ، فقال : ما الغامرة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما لا نبات فيها ، قال : قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافى بنى أسد ! فضحك ، وقال : اجعلوها كلها عامرة ، فانظر إلى جذقه بالمسألة ، ولطفه فيها ، كيف ابتدأ بكلب صيد ، فسهل القضية ، وجعل يأتى بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة ، حتى سأل ما سألته ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليه .

وحكى عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكثم يوماً : سر بنا نتفرج ، فسارا ، فبينما هما فى الطريق ، وإذا بمقصة^(٦) خرج منها رجل بقصبة للمأمون ، يتظلم له ، فنفرت دابته ، فألقته على الأرض صريعاً ، فأمر بضرب ذلك الرجل فقال : يا أمير المؤمنين إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور ، وهو عالم به ، ويتجاوز حد الأدب ، وهو كاره لتجاوزه ، ولو أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك ، ولأنت على رد ما لم تفعل أقدر من رد ما قد فعلت ! قال : فبكى المأمون وقال : بالله أعد على ما قلت ، فأعاده فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكثم وقال : أما تنظر إلى مخاطبة

(١) العناق : الأئمة من أولاد المعز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول .

(٢) الخماسى من الغلمان : ما طوله خمسة أشبار .

(٣) الرعيب : يقال هو رعيب العين : أي جبان لا ينظر شيئاً إلا فرع منه ، والسَّمين والقصير ، يقال : سنام رعيب : أي ممتلئ سمين .

(٤) الروى : الشعر .

(٥) مقصة : مكان للقصب ، وأرض يزرع فيها .

هذا الرجل بأصغريه^(١) والنبى ﷺ يقول : « المرء بأصغريه قلبه ولسانه »^(٢) والله لا وقفت لك إلا وأنا قائم على قدمي ، فوقف وأمر له بصلة جزيلة ، واعتذر إليه ، فلما هم المأمون بالانصراف قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، بيتان قد حضرائي ، ثم أنشد يقول :

ما جاد بالوفر إلا وهو معتذر ولا عفا قط إلا وهو مقتدر
وكلما قصده زاد نائله كالنار يؤخذ منها وهي تستعر

وقيل : إن بعض الحكماء لزم باب كسرى في حاجة دهرأ فلم يوصل إليه ، فكتب أربعة أسطر في ورقة ، ودفعها للحاجب ، فكان في السطر الأول : العديم لا يكون معه صبر على المطالبة ، وفي السطر الثاني : الضرورة والأمل أقدماني عليك ، وفي السطر الثالث : الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء ، وفي السطر الرابع : أما نَعَمْ ، فمثمرة ، وأما لا فمريحة ! فلما قرأها كسرى دفع له في كل سطر ألف دينار .

وحكى : أن رجلاً كان جاراً لابن عبيد الله ، فأصاب الناس قحطاً بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه ، فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد ، في طلب المعيشة ، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر ، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر قالت له : إذا سافرت من ينفق علينا قال : إن لى على ابن عبيد الله ديناً ومعى به إشهدا عليه شرعى ، فخذى الإشهدا وقدميه إليه فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر ، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الأبيات يقول :

قالت : وقد رأت الأحمال محدجة والبين قد جمع المشكوك والشاكي
من لى إذا غبت فى ذا المحل قلت لها : الله وابن عبيد الله مولاكى

فمضت إليه المرأة ، وحكت له ما قال زوجها ، وأخبرته بسفره ، وناولته الرقعة ، فقرأها وقال : صدق زوجك ، وما زال ينفق عليها ، ويواصلها بالبر والإحسان إلى أن قدم زوجها ، فشكره على فضله وإحسانه !

وحكى : أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة ثم أنشدها بين يديه ، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه فقال : يا مطيع ، إن شئت أعطيتك ، وإن شئت مدحتك كما مدحتنا فاستحيا مطيع من اختيار الثواب ، وكره اختيار المدح ، وهو محتاج ، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين :

ثناء من أمير خير كسب لصاحب نعمة وأخى ثراء
ولكن الزمان بى عظامى ومالى كالدراهم من دواء !

فلما قرأها معن ضحك ، وقال : ما مثل الدراهم من دواء ! وأمر له بصلة جزيلة ، ومال كثير ! قال الشاعر :

هزرتك لا أنى جعلتك ناسياً لأمرى ولا أنى أردت التقاضيا
ولكن رأيت السيف من بعد سله إلى الهز محتاجاً وإن كان ماضيا

وقال آخر :

ماذا أقول إذا رجعت وقيل لى : ماذا لقيت من الجواد الأفضل ؟ !
إن قلت : أعطانى كذبت وإن أقل بخل الجواد بماله لم يخمل

فاختر لنفسك ما أقول فإننى لابد أخبرهم وإن لم أسأل
وقال آخر :

لنوائب الدنيا خباتك فانتبه يانائماً من جملة الثوام
أعلى الصراط تزيل لوعة كربتى أم فى المعاد تجود بالإنعام ؟ !

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب ذكر شىء مما جاء فى ذم السؤال والنهى عنه : روى عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي . قال : كنا عند رسول الله ﷺ تسعة ، أو ثمانية ، أو سبعة ، فقال : « ألا تبايعون رسول الله ﷺ » فبسطنا أيدينا ،

(١) أصغريه : قلبه ولسانه .

(٢) انظر مجمع الأمثال للميداني ولم يشر إلى أنه حديث .

وكنا حديثي عهد بالمبايعة ، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فعلام يا رسول الله نبايعك قال : « أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُوا الصَّلَاةَ الْخُمْسَ ، وَتُطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً وَهِيَ : وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا فَلَقَدْ رَأَيْتَ بَعْضَ أَوْلَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يَنَالُ لَهُ إِيَّاهُ » (١) . رواه مسلم . وقال رجل لابنه : إياك أَنْ تَرِيْقَ مَاءَ وَجْهِكَ عِنْدَ مَنْ لَا مَاءَ فِي وَجْهِهِ ! وَكَانَ لِقَمَانُ يَقُولُ لَوْلَدُهُ : يَا بَنِيَّ إِيَّاكَ وَالسَّوَالُ فَإِنَّهُ يَذْهَبُ مَاءُ الْحَيَاءِ مِنَ الْوَجْهِ ، وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا اسْتِخْفَافُ النَّاسِ بِكَ ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَأَنْ تَدْخُلَ يَدُكَ فِي فَمِ التَّنِينِ إِلَى الْمَرْفِقِ ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَبْسُطَهَا إِلَى غَنَى قَدْ نَشَأَ فِي الْفَقْرِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِي : مَا السَّقَمُ الَّذِي لَا يَبِيرُ ، وَالْجَرَحُ الَّذِي لَا يَنْدَمِلُ ؟ قَالَ : حَاجَةُ الْكَرِيمِ إِلَى اللَّثِيمِ : وَقَالَ أَبُو مَحَلَمٍ السَّعْدِيُّ :

إِذَا مَا رَمَاكَ الدَّهْرُ فِي الضِّيقِ فَانْتَجِعْ قَدِيمَ الْغِنَى فِي النَّاسِ إِنَّكَ حَامِدٌ
وَلَا تَطْلُبِ الْخَيْرَ مِمَّنْ أَفَادَهُ حَدِيثًا وَمَنْ لَا يُوْرِثُ الْمَجْدَ وَالْذَّهْرَ
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ الْفَوَاحِشِ مَا أَحْلَى مِنَ الْفَوَاحِشِ غَيْرُهُ » (٢) . وَقَالَ ﷺ : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ خُبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَغْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ » (٣) . قَالَ الشَّاعِرُ :

مَا اعْتَاضَ بِأَذَلِّ وَجْهِهِ بِسْؤَالِهِ عَوْضًا وَلَوْ نَالَ الْغِنَى بِسْؤَالِ
وَإِذَا السَّوَالُ مَعَ النَّوَالِ وَزَنْتَهُ رَجَحَ السَّوَالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالِ
وَقَالَ أَحْمَدُ الْأَنْبَارِيُّ :

لَمُوتِ الْفَتَى خَيْرٌ مِنَ الْبَخْلِ لِلْغِنَى وَلِلْبُخْلِ خَيْرٌ مِنْ سْؤَالِ بَخِيلِ
لِعَمْرِكَ مَا شِئْ كَوَجْهِكَ قِيَمَةً فَلَا تَلْقَ إِنْسَانًا بِوَجْهِهِ ذَلِيلِ
وَقَالَ سَلَمُ الْخَاسِرِ :

إِذَا أَدْنَى إِلَهٍ فِي حَاجَةٍ أَتَاكَ النُّجَاجُ عَلَى رِسْلِهِ
فَلَا تَسْأَلِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهِمْ وَلَكِنْ سَلِ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ
وَيَقَالُ : أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ مَنْ سَأَلَهُ ، وَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى النَّاسِ مَنْ أَسْأَلَ مِنْ حَاجَتِهِمْ وَسَأَلَهُمْ ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قِيلَ :
لَا تَسْأَلَنَّ بُنَىَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُخَجَّبُ
إِلَّاهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سْؤَالَهِ وَبَنَى آدَمَ حِينَ يَسْأَلُ يَغْضَبُ
وَقَالَ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ :

شَادَ الْمُلُوكُ قَصُورَهُمْ وَتَحَصَّنُوا مِنْ كُلِّ طَالِبِ حَاجَةٍ أَوْ رَاغِبِ
فَارْغَبْ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ وَلَا تَكُنْ يَا ذَا الضَّرَاعَةِ طَالِبًا مِنْ طَالِبِ
وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ :

وَقَائِلَةٌ مَاتَ الْكَرَامُ فَمَنْ لَنَا إِذَا عَضْنَا الدَّهْرَ الشَّدِيدَ بِنَابِهِ !
فَقُلْتُ لَهَا مَنْ كَانَ غَايَةَ قَصْدِهِ سْؤَالًا لِمَخْلُوقٍ فَلَيْسَ بِنَابِهِ
إِذَا مَاتَ مَنْ يُرْجَى فَمَقْصُودُنَا الَّذِي تَرْجِيْنُهُ بَاقٍ فَلَوْذَى بِبَابِهِ
وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْفَضْلِ :

لَمَّا افْتَقَرْتُ لِصَحْبِي مَا وَجَدْتَهُمْ لَجَأْتُ لِلَّهِ لِبَّانِي وَأَغْنَانِي
وَاهَا عَلَى بَذَلٍ وَجْهِي لِلْوَرَى سَفْهًا فَلَوْ بَذَلْتُ إِلَى مَوْلَايَ وَالْآنِي

(١) رَوَى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ . . إلخ . هُوَ كَمَا ذَكَرَهُ الْغَزَالِيُّ فِي الْأَحْيَاءِ : لِعَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ . وَقَالَ الْعِرَاقِيُّ : حَدِيثُ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِهِ وَلَمْ يَقُلْ : « فَقَالَ قَاتِلٌ » . وَهِيَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ وَابْنِ مَاجَةَ كَمَا ذَكَرَهَا الْمُصَنِّفُ .

(٢) « مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنَ الْفَوَاحِشِ » . . إلخ . انْظُرْ : « إِتْحَافُ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ » . لِلزَّيْدِيِّ [٣٠٤/٩] ، وَالْحَاوِيُّ فِي الْفَتَاوَى [٨٨/٢] .

(٣) « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ خُبْلَهُ » . . إلخ . رَوَاهُ مُسْلِمٌ بِأَبْ كَرَاهِيَةِ الْمَسْأَلَةِ لِلنَّاسِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بَلَفَظَ « لَأَنْ يَغْدُو أَحَدُكُمْ يَحْتَطِبُ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ ، وَيَسْتَفْنِي بِهِ عَنِ النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَغْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ » . . إلخ .

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها ، فقال : سألت فلانا حاجة أقل من قيمته ، فردني رداً أقبح من خلقته ! وسأل عروة مُضْعَباً حاجة فلم يقضها ، فقال : علم الله تعالى أن لكل قوم شيخاً يفرعون إليه ، وأنا أفزع منك ، ويقال : لا شيء أوجع للأخيار من الوقوف بباب الأشرار ! وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :

سَوَى مَنْ غَدَا والبخل ملء إهابه
قطعت رجائي منهم بذبابه
ولا ذا يراني قاعداً عند ببابه
وليس الغنى إلا عن الشيء لا به
ولج عتواً في قبيح اكتسابه
سئبدى له مالم يكن في حسابه
يرى النجم تيهها تحت ظل ركابه
أنأخت صروف الحادثات ببابه
ولا حسنات تلتقي في كتابه
وصب عليه الله سوط عذابه

بلوث بنى الدنيا فلم أرَ فيهم
فجرت من غمد القناعة صارماً
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه
غنى بلا مال عن الناس كلهم
إذا ظالم يستحسن الظلم مذهباً
فكله إلى صرف الليالي فإنها
فكم قد رأينا ظالماً متمرداً
فعمّا قليل وهو في غفلاته
فأصبح لا مال ولا جاء يرتجى
وجوزى بالأمر الذي كان فاعلاً
وقال آخر :

فيحول عنك كما الزمان يحول
ما صان عرضك لا يقال قليل
وأخو الحوائج وجهه مملول
ومتى علقت به فأنت ثقیل

لا تسألن إلى صديق حاجة
واستغن بالشيء القليل فإنه
من عف خف على الصديق لقاءه
وأخوك من وفرت ما في كفه
وقال آخر :

قد يهز السؤال غير جواد
لم تذق فيه ذلة الترداد

ليس جوداً أعطيت به سؤال
إنما الجود ما أتاك ابتداءً
وقال آخر :

إنما الموت سؤال الرجال
أخف من ذاك لذل السؤال !

لا تحسبن الموت موت البلاء
كلاهما موت ، ولكن ذا
وقال الشافعي رحمه الله :

وصئت نفسي عن الهوان
فضل فلان على فلان
فلا أبالي إذا جفاني
رأيت به بالتي رأني
رأيت به كامل المعاني

قئفت بالقوت من زمانى
خوفاً من الناس أن يقولوا :
من كنت عن ماله غنياً
ومن رأني بعين نقص
ومن رأني بعين تم

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الرابع والاربعون

في ذكر الهدايا والتحف ، وما أشبه ذلك

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ ﴾ [النساء: ٨٦] فسرّها بعضهم : بالهدية . وقال : ﷺ : « تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحناء » ^(١) . وقال : ﷺ : « الهدية مشتركة » ^(٢) . وقال : ﷺ : « من سألکم بالله فأعطوه ، ومن استعاذکم فأعيذوه ، ومن أهدى إليکم کُرَاعاً ^(٣) فاقبلوه » ^(٤) . وكان : ﷺ : « يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها » ^(٥) . وفي الأثر : « الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر » ^(٦) . ومن الأمثال إذا قدمت من سفر فأهد لأهلك ولو حجراً . وقال الفضل بن سهل ما استرضى الغضبان ، ولا استعطف السلطان ، ولا سلبت السخائم ^(٧) ، ولا دفعت المغارم ، ولا استميل المحبوب ، ولا توقى المحذور بمثل الهدية .

وأتى فتح الموصلى بهدية وهي خمسون ديناراً ، فقال حدثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ رِزْقاً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَرَدَّه فَكَأَنَّمَا رَدَّه عَلَى اللَّهِ تَعَالَى » ^(٨) . وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر فردّها فقال : « يا عمر ، لم رددت هديتي ؟ » فقال : ﷺ : « إني سمعتك تقول : « خيرکم من لم يقبل شيئاً من الناس » . فقال : « يا عمر ، إنما ذاك ما كان عن ظهر مسألة فأما إذا أتاك من غير مسألة فإنما هو رزق ساقه الله إليك » ^(٩) . وقالت أم حكيم الخزاعية سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تهادوا فإنه يضاعف الحب ، ويذهب بغوائل الصدر » ^(١٠) . ويقال : في نشر المهاداة ، طي المعادة ! .

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته ، فأهدى اليسير وكتب معه مكتبة يعتذر بها

أهدى إلى سليمان بن داود ﷺ ثمانية أشياء متباينة في يوم واحد ، فيلة من ملك الهند ، وجارية من ملك الترك ، وفرس من ملك العرب ، وجوهرة من ملك الصين ، وإستبرق ^(١١) من ملك الروم ، ودرّة من ملك البحر ، وجراة من ملك النمل ، وذرة من ملك البعوض ! فتأمل ذلك وقال : سبحان القادر على جمع الأضداد ! . وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية ، فقال المأمون . أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة ! ليعلم عز الإسلام ، ونعمة الله تعالى علينا ، ففعلوا ذلك ، فلما عزموا على حملها قال : ما أعز الأشياء عندهم ؟ قالوا : المسك ، والسّمور ^(١٢) . قال : وكم في الهدية من ذلك ؟ قالوا : مائتا رطل مسكاً ، ومائتا فروة سمور .

(١) « تهادوا » .. إلخ . قال العجلوني في الكشف [١/١٠٢٣] ، رواه الطبراني في الأوسط والحري في الهدايا ، والعسکري في الأمثال عن عائشة مرفوعاً ، وأخرجه مالك في الموطأ عن عطاء الخراساني مرسلاً رفعه بلفظ ، تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا ، وتذهب الشحناء . قال في المقاصد : وهو حديث جيد .

(٢) أخرجه عبد بن حميد بإسناد ضعيف ، وانظر : «فتح الباري» . [٢٦٩/٥] .

(٣) وقال : ﷺ : « من سألکم بالله فأعطوه ، ومن استعاذکم فأعيذوه » .. إلخ . أخرجه الطبراني في « الكبير » . [٤٠١/١٢] . برقم [١٣٤٨٠] .

(٤) الكُرَاع : من البقر والغنم : مستدق الساق العاري من اللحم .

(٥) وكان : ﷺ : « يقبل الهدية ويثيب عليها » .. إلخ . أخرجه البخاري برقم [٢٥٨٥] .

(٦) وفي الأثر : « الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر » . لم أمتد إليه .

(٧) السخائم : جمع سخيمة : الحقد والضغينة .

(٨) « من آتاه الله رزقاً » .. إلخ . أخرج أحمد [٢/٢٩٢] ، قريباً منه بسند صحيح .

(٩) وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر .. إلخ لم أقف عليه .

(١٠) وقالت أم حكيم الخزاعية .. إلخ ذكره العجلوني وقال : رواه الطبراني في الكبير والديلمي وأبو يعلى عن أم حكيم ابنة وداع مرفوعاً . [الكشف : ١/١٠٢٣] .

(١١) الإستبرق : الديباج الغليظ . (١٢) السّمور : حيوان ثديي ليلي يتخذ من جلده فرو ثمين ويقطن شمالي آسية .

وأهدت : قطر الندى إلى المعتضد بالله في يوم نيروز^(١) في سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية كان فيها عشرون صينية ذهب ، في عشرة منها مشام عَبر ، وزنها أربعة وثمانون رطلاً ، وعشرون صينية فضة في عشرة منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلاً ، وخمس خلج وشى ، قيمتها خمسة آلاف دينار . وعملت شمامات^(٢) ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار . وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتضد على الله هدية في بعض السنين ، من جملتها عشرة بازات ، منها باز أبلق^(٣) لم ير مثله ، ومائة مهر ، وعشرون صندوقاً على عشر بغال ، فيها طرائف الصين وغرائب ، ومسجد فضة بدرابزين يصلى فيه خمسة عشر إنساناً ، ومائة رطل من مسك ، ومائة رطل عود هندي ، وأربعة آلاف ألف درهم . وأهدت ثريا بنت الأوباري ملكة أفرنجة وما والاها إلى المكتفى بالله في سنة ثلاث وسبعين ومائتين خمسين سيفاً وخمسين رمحاً وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب ، وعشرين خادماً صقلياً ، وعشرين جارية صقلية ، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع ، وستة بازات وسبع صقور ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح ، يتلون في كل ساعة من ساعات النهار ، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفرنجية إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكرأ وصفقت بأجنحتها حتى يعلم بذلك ، وخرزاً يجذب النصول^(٤) بعد نبات اللحم عليها بغير وجع ، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة في قدر البغل ، وأذانها شبه أذان البغل ، وهي مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقتها . وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المتنصر بالله في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر ، كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية ، قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية .

وحكى : أن الخيزران جارية المهدي كانت أدبية شاعرة ، فعزم المهدي على شرب دواء فأنفذت إليه جامَ بلّور^(٥) فيه شراب اختارته له وصيفة بكر بارعة الجمال وكتبت إليه تقول :

إذا خرج الإمام من الدواء وأعقب بالسلامة والشفاء
وأصلح حاله من بعد شرب بهذا الجام من هذا السلاء
فينعم للتي قد أنفذته إليه بزورة بعد العشاء
فسر بذلك ، ووقعت الجارية منه أعظم موقع وزار الخيزران ، وأقام عندها يومين . وأهدى الصابي إلى عضد الدولة أسطُراً^(٦) في يوم المهرجان وكتب إليه يقول :

أهدى إليك بنو الأملاك واحتفلوا في مهرجان جديد أنت تُبليه
لكنّ عبدك إبراهيم حين رأى سموّ قدرك عن شيء يدانيه
لم يرض بالأرض يهديها إليك وقد أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه
وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب ، وكتب معها : إن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير ، فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن ، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجَلَّتْ كانت أوقع وأنفع . وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة ، ثم لم يزل يذكرها ، وكلما ذكر شيء بهجمال أو سمن ، قال : هو أحسن أو أسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم . وإن ذكر حادث قال : ذلك قبل أن أهدى لكم الدجاجة بشهر ، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية ، ويذكرها قال الشاعر :

وإن امرأ أهدى إلى صنيعة وذَكَرَنيها مرة للئيم !

(١) النيروز أو النوروز : أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية ، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من مارس من السنة الميلادية .

(٢) الشَّمَامَات : ما يُشْتَمُّ من الروائح الطيبة .

(٣) الأَبْلَقُ : الفحل جاء أولاده بَلَقًا ، أي فيها سواد وبياض .

(٤) النصول : جمع نصل : حديدة الرمح والسهم والسكين ، أي له خاصية المغناطيس .

(٥) بلّور : نوع من الزجاج ، وحجر أبيض شفاف .

(٦) الأسطُراب : جهاز استعمله المتقدمون في تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية ومعرفة الوقت والجهة الأصلية .

وقال سفيان الثوري : إذا أردت أن تتزوج فأهدى للأم . وكان سفيان يروي عن ابن عباس رضي الله عنه من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها فأهدى إليه صديق له ثياباً من ثياب مصر ، وعنده قوم فذكروا الخبر ، فقال : إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب ، أما في ثياب مصر فلا . وكتب الحمدوني إلى جارية اسمها « برهان » وقد حج مواليتها فقال :

حجوا مواليك يا برهان واعتمروا وقد أتتك الهدايا من مواليك
فأطرفيني بما قد أطرفوك به ولا تكن طرفتي غير المساويك
ولست أقبل إلا ما جلوت به ثنيثيك وما رددت في فيك

كتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية يسيرة ، يقول :

تفضل بالقبول علىّ إننى بعثت بما يُقبل العبد عندك
وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز وكتب إليه يقول : هذا يوم جرت فيه العادة بالطاف العبيد للسلادة ، وقدر الأمير يجلب عما تحيط به المقدرة ، وفي سؤده ما يوجب التفضل ببسط المعذرة ، وقد وجهت ما حضر علماً بأنه لا يستكثر ما جل ، ولا يستقل لعبده ما قل ، فإن رأى أن يتطول بقبول القليل ، كتطول به بإهداء الجزيل فَعَلَّ وجعل يقول :

رأيت كثير ما يُهدى إليكم قليلاً فاقتصرت على الدعاء !
وبلغ الحسن بن عمار أن الأعمش يقع فيه ، ويقول : ظالم ولّى المظالم ، فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال : الحمد الذي ولّى علينا من يعرف حقوقنا ، فقبل له : كنت تذمه ، ثم الآن تمدحه ؟! فقال : حدثني خيثمة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها » ^(١) وقال عبد الملك بن مروان ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : الكتاب يدل على عقل كاتبه ، والرسول يدل على عقل مرسله ، والهدية تدل على عقل مهديها ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الفاسي والضمير

في العمل والكسب والصناعات والحرف ، وما أشبه ذلك

أما العمل : فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أَفْضَلُ الْعَمَلِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ » ^(٢) . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قليل مدام عليه ، خير من كثير مملول . وفي التوراة : حرك يدك أفتح لك باب الرزق . وكان إبراهيم بن أدهم يسقى ، ويرعى ، ويعمل بالكرا ^(٣) ، ويحفظ البساتين والمزارع ، ويحصد بالنهار ، ويصلي بالليل . وعن علي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما ينفي عني حجة العام ؟ قال : « العمل » ^(٤) . وعنه ﷺ أنه قال : « الْكَثِيرُ مِنْ دَانَ نَفْسُهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ »

(١) « جبلت القلوب على من أحسن إليها » . إلخ قال السيوطي في الدرر المنثورة : أخرجه البيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً . قال : وهو المحفوظ . قال ابن عدي وهو المعروف . وأورده السيوطي في الصغير وضعفه . والكبير وعزاه لأبي نعيم في الحلية عن ابن مسعود ، والعسكري في الأمثال عن ابن عمر .

(٢) أفضل العمل أدومه . . إلخ أخرجه مسلم برقم [٢١٨ - الإيمان] .

(٣) بالكرا : أي بأجر .

(٤) عن علي قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : ما ينفي عني حجة العام ؟ إلخ لم أعتد إليه .

الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ^(١) . وقال الأوزاعي : إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ، ومنعهم العمل . وأنشد يقول :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل

وقال بعض الحكماء : لا شيء أحسن من عقل زانه حلم ، ومن عمل زانه علم ، ومن حلم زانه صدق ، ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له : عظمي ، فقال له الولي : بلغني - رحمك الله - أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى ، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك ؟ فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه ^(٢) ! . وقيل : من جدّ وجد وأنشدوا في المعنى :

إنى رأيت وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جدّ في أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر !

وتقول العرب فلان وثاب على الفرص ، وقال بعضهم :

وإنى إذا باشرت أمراً أريدته تدانت أقاصيه وهان أشدّه

وعن أنس رضي الله عنه : يتبع الميت ثلاث : يرجع اثنان ، ويبقى واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله ^(٣) . وقال بعضهم : العمل سعى الأركان إلى الله ، والنية سعى القلوب إلى الله ، والقلب ملك والأركان جنود ، ولا يحارب الملك إلا بالجنود ، ولا الجنود إلا بالملك . وقيل : الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم ، والعلم كله هباء إلا موضع العمل ، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ، هذا هو العمل .

وأما الكسب : فقد جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] . أي دروع من الحديد ، وذلك أن داود عليه السلام كان يدور في الصحارى فإذا رأى من لا يعرفه تحدث معه في أمر داود ، فإذا سمعه عابه بشيء يصلحه من نفسه ، فسمع يوماً من يقول : إنى لا أجد في داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه ، فعند ذلك صلى داود عليه السلام في محرابه ، وتضرع بين يدي الله تعالى ، وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته ، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله في يده كالشمع ، فاحترقها واستعان بها على أمره وصار يُحكم منها الدروع .

وقال رسول الله ﷺ : « جعل رزقي تحت رمحي » ^(٤) . فكانت حرفته الجهاد ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب العبد المحترف » ^(٥) . وقال عليه السلام : « إن الله تعالى يبغيض العبد الصحيح الفارغ » ^(٦) . وقال عليه السلام : « من اكتسب قوته ولم يسأل الناس لم يعدبه الله تعالى يوم القيامة ، ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل رجلاً شيئاً وهو يجد قوت يومه ، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كسب يده ، إن الله تعالى يبغيض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة » ^(٧) . وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « من بات كالاً في طلب الحلال أصبح مغفوراً له » ^(٨) . وعن الحسن - رحمه الله - كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف . وقيل لمحمد بن مهران : إن هاهنا أقواماً يقولون : نجلس في بيوتنا ، وتأتينا أرزاقنا فقال : هؤلاء قوم حمقى ! إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلا ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يقدعون أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني ،

(١) الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت . . إلخ كشف الخفاء [٢٠٢٩/٢] رواه أحمد وابن ماجه والحاكم والعسكري والقضاعي والترمذي وقال : حسن عن شداد بن أوس مرفوعاً ، وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري .

(٢) بلغني أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم . . إلخ روى الحكيم الترمذي عن والد عبد العزيز بلفظ « تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس على الله - تعالى - ، وتعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة . فيرحون بحسناتهم ، وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً » إلخ .

(٣) وعن أنس رضي الله عنه يتبع الميت ثلاث . . إلخ قال العجلوني : رواه أحمد والشيخان عن أنس .

(٤) « جعل رزقي تحت رمحي » حسن : أخرجه الطبراني في « الكبير » عن ابن عمر كذا في « مجمع الزوائد » للحافظ الهيثمي [٢٦٧/٥] .

(٥) « إن الله يحب العبد » . . إلخ قال العجلوني : أخرجه الطبراني في معجمه الكبير والأوسط وابن عدى في كامله عن ابن عمر مرفوعاً بسند فيه ضعيف ومتروك .

(٦) « إن الله يبغيض العبد الصحيح الفارغ » . . لم أجده بهذا اللفظ ، والمعنى وارد . انظر المقاصد ١٢٦ .

(٧) « من اكتسب قوته ولم يسأل » . . إلخ انظر : « سنن النسائي » [٩٥/٥] .

(٨) « من بات كالاً في طلب الحلال » . . إلخ عزاه الهندي في « كنز العمال » برقم [٩٢١٥] ، لابن عساكر عن أنس .

فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وقال أيضاً : إني لأرى الرجل فيعجبني ، فأقول : أله حرفة ؟ فإن قالوا : لا . سقط من عيني ! واشترى سليمان وسقا من طعام ، وهو ستون صاعاً ، فقيل له في ذلك فقال : إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت . قال بعضهم في السعي :

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة إن الجلوس مع العيال قبيح

وقيل : إن أول من صنع لسان الميزان عبد الله بن عامر ، وكان الناس إنما يزنون بالشاهيني^(١) . وعن أنس^٢ قال : غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله سَعَرْنَا لَنَا . فقال : « إِنَّ اللَّهَ الْخَالِقُ الْقَابِضُ الْمُسَرِّعُ الرَّازِقُ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَلَيْسَ أَحَدٌ يَطْلُبُنِي بِمَظْلَمَةٍ ظَلَمْتُهُ بِهَا فِي أَهْلِ وَلَا مَالٍ »^(٣) .

وأما ما جاء في العجز والتواني : فقد روى عن علي بن أبي طالب^٤ أنه قال : من أطاع التواني ضيع الحقوق ، ومن العجز طلب ما فات ممّا لا يمكن استدراكه ، وترك ما أمكن مما تحمده عواقبه ؛ قال الشاعر :

على المرء أن يسعى ويبذل جهده ويقضي إله الخلق ما كان قاضياً

ومثله قوله :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

وقيل : احذر مجالسة العاجز فإنه من سكن إلى عاجز أعده من عجزه ، وأمله من جزعه ، وعوده قلة الصبر ، ونسأه ما في العواقب ، وليس للعجز ضد إلا الحزم . وقال بعض العلماء من الخذلان مسامرة الأمانى ، ومن التوفيق بغض التواني ، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « باكروا في طلب الرزق والحوائج ، فإن الغدو بركة ونجاح »^(٥) . وقال الإمام الشافعي^٦ : احرص على ما ينفعك ، ودع كلام الناس ، فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة الناس . وقال على^٧ التواني مفتاح البؤس ، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد . وقال حكيم : من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير ، وقال بعض الحكماء : الحركة بركة والتواني هلكة ، والكسل شوم ، وكلب طائف خير من أسد رابض ، ومن لم يحترف لم يعتلف . وقيل : من العجز والتواني تُشَجُّ الفاقة قال هلال بن العلاء الرفاء هذين البيتين من جملة أبيات :

كأن التواني أنكح العجز بنته وساق إليها حين زوجها مَهراً

فراشاً وطيثاً ثم قال لها اتكبي فإنكما لا بد أن تلدا الفقرا

وقال آخر :

توكل على الرحمن في الأمر كله ولا ترغب في العجز يوماً عن الطلب

ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جئته ولكن كل رزق له سبب

وسأل معاوية^٨ سعيد بن العاص عن المروءة فقال : العفة والحرفة . وكان أيوب السخيتاني يقول : يا فتيان ، احترفوا فإنني لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم ، يعنى : الأمراء . وقال رجل للحسن : إني أنشر مصحفى ، فأقرؤه بالنهار كله ، فقال : اقرأه بالغداة والعشى ويكون يومك في صنعتك ، وما لا بد منه . ومَرَّ - رحمه الله تعالى - بإسكاف^(٩) فقال : يا هذا اعمل ، وكل فإن الله يحب من يعمل ويأكل ، ولا يحب من يأكل ولا يعمل ، وقال أبو تمام :

(١) الشَّاهِين : عمود الميزان .

(٢) « غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ » . . إلخ صحيح : أخرجه أبو داود [٣٤٥١] ، والترمذى [١٣١٤] ، وابن ماجه [٢٢٠٠] ، وأحمد [٣/٢٨٦] ، والدارمى [٢٤٩/٢] ، والبيهقى [٢٩/٦] .

(٣) وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « باكروا في طلب الرزق » . . إلخ ضعيف جداً : أخرجه الطبرانى ابن قيس بن سعد بن زيد بن ثابت ، متروك الحديث .

(٤) الإسكاف : الخراز ومصلح الأحذية وصانعها .

وأحسن منه في الملمات ركبهُ
فأهواله العظمى تليها رغائبه
ولو كلف التقوى لكنت مضاربه
ولولا التقى ما أعجزته مذهبهُ
ولا باحتيال أدرك المال كاسبهُ
وَأَعَاذَلْتِي مَا أَحْسَنَ اللَّيْلِ مَرْكَبًا
ذَرِينِي وَأَهْوَالِ الزَّمَانِ أَقَاسَهَا
أَرَى عَاجِزًا يَدْعَى جَلِيدًا لِقِسْمَةِ
وَعَفَا يَسْمَى عَاجِزًا بِعَفَافِهِ
وَلَيْسَ بِعَجْزِ الْمَرْءِ أَخْطَاهُ الْغِنَى
وقال آخر :

فلا تركزن إلى كسل وعجز
يُحيل على المقادر والقضاء
وقال أعرابي : العاجز هو الشاب القليل الحيلة ، الملازم للأمانى المستحيلة . ويقال : فلان يخدعه الشيطان عن
الحزم ، فيمثل له التواني في صورة التوكل ، ويُرِيهِ الهوينا بإحالته على القدر . وقال لقمان لابنه : يا بني إياك والكسل
والعجز فإنك إذا كسلت لم تؤد حقاً ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق ! . قال أبو العتاهية :
إذا وضع الراعى على الأرض صدره فحق على المعزى بأن تتبذدا
فالتواني هو الكسل ، وتضييع الحزم ، وعدم القيام على مصالح النفس ، وترك التسبب والاحتراف ، والإحالة على
المقادير ، وهذا من أفتح الأفعال .

وأما التآني : فإنه خلاف التواني ، وهو الرفق ، ورفض العجلة ، والنظر في العواقب . وقد قيل : من نظر في
عواقب الأمور سلم من آفات الدهور ، ومما جاء في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ
وَحْيُهُ ﴾ [طه: ١١٤] . وقال رسول الله ﷺ : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من الدنيا والآخرة » ^(١) . وقال
لعائشة : « عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ فَإِنَّ الرَّفْقَ لَا يَخَالُطُ شَيْئًا إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يَفَارِقُ شَيْئًا إِلَّا شَانَهُ » ^(٢) . وفي التوراة : الرفق رأس
الحكمة . وقالوا : العقل أصله التثبت ، وثمرته السلامة . ووجد على سيف مكتوباً التآني فيما لا يخاف فيه الفوت
أفضل من العجلة في إدراك الأمل ، وقال بعض الحكماء : إذا شككت فاجزم ، وإذا استوضحت فاعزم ، وقالوا : يد
الرفق تجنى ثمرة السلامة ، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة ، وأنشدوا في ذلك :

قد يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وقالوا : التآني حصن السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة ، وقالوا : إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتآني ، فبماذا يدرك ؟
وقال المهلب : أناة في عواقبها دُرٌّ ^(٣) ، خير من عجلة في عواقبها فوت . وقالوا : من تأنى نال ما تمنى ، والرفق
مفتاح النجاح ، وقال بعض الحكماء : إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة ، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ،
ويجب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويحمد قبل أن يجرب ، ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب
الندامة ، وجانب السلامة .

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها : فقد روى عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « عمل الأبرار من الرجال
الخيطة ، وعمل الأبرار من النساء الغزل » ^(٤) . وكان ﷺ : « يَخِيطُ ثَوْبَهُ ، وَيَخْصِفُ ثَغْلَهُ ، وَيَجْلِبُ شَانَهُ ،
وَيُعَلِّفُ نَاضِحَهُ » ^(٥) . وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان الحكيم خياطاً ، وقيل : كان إدريس عليه السلام خياطاً . ووقف على بن
أبي طالب عليه السلام على خياط فقال له : يا خياط ثكلتك الثواكل ، صلب الخيط ، ودقق الدروز ^(٦) ، وقارب الغروز ، فإني

(١) « من أعطى حظه من الرفق » . . إلخ رواه العسكري والقضاعي عن عائشة مرفوعاً كما قال العجلوني في الكشف .

(٢) رواه مسلم عن عائشة مرفوعاً . وعزاه في اللآلئ لمسند أحمد عن عائشة ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد .

(٣) الدُرُّ : التَّيْبَةُ ، وأسفل كل شيء ذي عُمق .

(٤) عمل الأبرار من الرجال الخيطة وعمل الأبرار من النساء الغزل . موضوع : أخرجه التمام في « الفوائد » . برقم [١٢٥٠] ، وابن عدي [١٠٩٨/٣] ، وأبو
نعيم في « أخبار أصبهان » . [٣٠٣/١] ، والخطيب في « تاريخ بغداد » . [١٥/٩] . وفي سننه أبو داود سليمان بن عمرو ، كذاب .

(٥) وكان ﷺ « يَخِيطُ ثَوْبَهُ وَيَخْصِفُ ثَغْلَهُ » . . إلخ . صحيح أخرجه أحمد [١٢١/٦] ، ١٦٧ ، ٢٤١ ، ٢٦٠ ، وأبو الشيخ في « أخلاق النبي ﷺ » .
(ص ٢٠/١٩) .

(٦) الدُرُّوز : جمع دُرٌّ ، وهو موضع الخيطة .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الخياط الخائن ، وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه » ^(١) . واحذر السقاطات فإن صاحب الثوب أحق بها ، ولا تتخذ بها الأيادي وتطلب المكافأة . وقال فيلسوف : إن من القبيح أن يتولى امتحان الصانع من ليس بصانع . وفي الحديث « أكذب أمي الصواغون والصباغون » ^(٢) . وكذب الدلال مثل . وقالوا : لكل أحد رأس مال ، ورأس مال الدلال الكذب . وقال عبد الرحمن بن شبل : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « التجار هم الفجار » . فقيل : أليس الله تعالى قد أحل البيع ؟ قال : « نعم ولكن يحدثون فيكذبون ، ويحلفون فيحشون » ^(٣) . وقال الفضيل : بخس الموازين سواد في الوجه يوم القيامة ، وإنما أهلكت القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا وعطلوا الحدود ، ونقصوا الكيل والميزان . وقال مجاهد في قوله تعالى : « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » [الشعراء: ١١١] قيل : هم الحاكاة والأساكفة ^(٤) . وقيل : إن حائكا سأل إبراهيم الحربي : ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر ناطفاً ^(٥) ؟ ما الذي يجب عليه ؟ فتبسم إبراهيم ثم قال : يتصدق بدرهمين ، فلما مضى قال : ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق ! وقيل لرجل : هل فيكم حائك ؟ قال : لا . قيل : فمن ينسج لكم ثيابكم ؟ قال : كل منا ينسج لنفسه في بيته . وكان أردشير بن بابك لا يرتضى لمنادته ذا صناعة رديئة : كحائك وحجام ، ولو كان يعلم الغيب مثلاً . وقال كعب : لا تستشروا الحاكاة فإن الله تعالى سلب عقولهم ، ونزع البركة من كسبهم ، لأن مريم - عليها السلام - مرت بجماعة من الحياكين فسألتهن عن الطريق ، فدلوهما على غير الطريق ، فقالت : نزع الله البركة من كسبكم ! . قال أبو العتاهية :

ألا إنما التقوى هي العز والكرم
وليس على عبد تقى نقيصة
وحبك للدنيا هو الذل والسقم
إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم !
وهذا ما أردنا سياقه في هذا الباب ، والله الموفق للصواب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السادس والخمسون

في شكوى الزمان وانقلابه بأهله ، والصبر على المكاره ،
والتسلي عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول : في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : « ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه » ^(٦) . سمعت ذلك من نبيكم ﷺ . وكان معاوية رضي الله عنه يقول : معروف زماننا منكر زمان قد مضى ، ومنكره معروف زمان لم يأت . وكانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق فجاء أعرابي فسبقها فشق ذلك على الصحابة رضي الله عنهم فقال ﷺ : « إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا

(١) عن علي رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الخياط .. إلخ . موضوع : أخرجه الديلمي كما في « تنزيه الشريعة » . [٣٨٨/٢] ، وقال ابن عراق : « وإسناده ظلمات ، فيه الأصبع ابن نباتة ، وعنه سعد بن طريف ، وفيه إسماعيل بن عباد الأرسوفي ، منكر الحديث » .

(٢) « أكذب أمي الصواغون والصباغون » . موضوع : أخرجه ابن ماجه [٢٢٥٢] وأحمد [٢٩٢/٢] ، ٣٢٤ ، ٣٤٥ ، وانظر : « السلسلة الضعيفة » . برقم [١٤٤] ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، وطبعت في « المكتب الإسلامي » .

(٣) « التجار هم الفجار فقيل » .. إلخ . أخرجه الحاكم [٧/٢] .

(٤) الحاكاة : جمع حائك والأساكفة جمع إسكاف والأول الخياط ، والثاني مصلح أحذية كما سبق .

(٥) الناطف : السائل من المائعات ، وضرب من الحلوى يصنع من اللوز والفسق ، ويسمى القيط ، قال أبو نواس :

يسقوول والناطف فسق كفسه من يشتري الحليو من الحليو ؟

(٦) « ما من يوم ولا ليلة » .. إلخ . لم أهد إليه . وهو يلتقى مع الحديث الصحيح « خير الناس قرني » .. إلخ . [البخاري ١٥٠/٣] .

يَرْفَعُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ ^(١) . وحكى عن شيخ من همدان قال : بعثنى أهلى فى الجاهلية إلى ذى الكلاع الحميرى بهدايا فمكثت شهراً لا أصل إليه ، ثم بعد ذلك أشرف إشرافه من كُوة له فخرّ له من حول القصر سجداً ، ثم رأيته بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص ، واشترى بدرهم لحماً . وسمطه خلف دابته ، وهو القائل هذه الأبيات :

أَفَ لِلدُّنْيَا إِذَا كَانَتْ كَذَا أَنَا مِنْهَا فِي بَلَاءٍ وَأَذَى
إِنْ صَفَا عَيْشُ امْرِئٍ فِي صُبْحِهَا جَرَعَتْهُ مَمْسِيًّا كَأْسَ الرَّدَى
وَلَقَدْ كُنْتُ إِذَا مَا قَبِيلَ مِنْ أَنْعَمُ الْعَالَمِ عَيْشًا قَبِيلَ : ذَا !
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ مَيْسَرَةَ : لَا يَأْتِي عَلَيْنَا زَمَانٌ إِلَّا بِكَيْنَا مِنْهُ ، وَلَا يَتَوَلَّى عَنَا زَمَانٌ إِلَّا بِكَيْنَا عَلَيْهِ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :
رَبِّ يَوْمٍ بِكَيْتٍ مِنْهُ فَلَمَّا صرْتُ فِي غَيْرِهِ بِكَيْتٍ عَلَيْهِ !
ومثله :

وَمَا مَرَّ يَوْمٌ أَرْتَجَى فِيهِ رَاحَةً فَأَخْبَرُهُ إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَى أَمْسَى !
ومن كلام ابن الأعرابى :

عَنِ الْأَيَّامِ عُدَّ فَمَنْ قَلِيلٌ تَرَى الْأَيَّامَ فِي صُورِ السَّلِيلِ
وَقَالَ عَلَى ^(٢) : مَا قَالَ النَّاسُ لَشَيْءٍ : طَوْبِي إِلَّا وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سَوْءٍ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهْدَتْهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتُ أَعْهَدُ
وَدَخَلَ دَاوُدُ ^(٣) غَارًا فَوَجَدَ فِيهِ رَجُلًا مَيْتًا ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ لَوْحٌ مَكْتُوبٌ فِيهِ : أَنَا فُلَانُ ابْنِ فُلَانِ الْمَلِكِ ، عَشْتُ أَلْفَ عَامٍ ، وَبَنَيْتُ أَلْفَ مَدِينَةٍ ، وَافْتَضَضْتُ أَلْفَ بَكْرٍ ، وَهَزَمْتُ أَلْفَ جَيْشٍ ، ثُمَّ صَارَ أَمْرِي إِلَى أَنْ بَعَثْتَ زَنْبِيلاً مِنْ الدَّرَاهِمِ فِي رَغِيفٍ ، فَلَمْ يَوْجَدْ ، ثُمَّ بَعَثْتَ زَنْبِيلاً مِنَ الْجَوْهَرِ ، فَلَمْ يَوْجَدْ ، فَذَقْتُ الْجَوَاهِرَ وَاسْتَفَيْتُهَا فَمِتَ مَكَانِي ، فَمِنْ أَصْبَحَ وَلَهُ رَغِيفٌ ، وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَغْنَى مِنْهُ أَمَاتُهُ اللَّهُ كَلِمَاتِي ! . وَذَكَرَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ زِيَادٍ لَمَّا وَلِيَ خِرَاسَانَ ، حَازَ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا قَدَّرَ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ إِنْ عَاشَ مِائَةَ سَنَةٍ يَتَفَقَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ دِرْهَمٍ عَلَى نَفْسِهِ ، أَنَّهُ يَكْفِيهِ فَرَوَى بَعْدَ مَدَّةٍ ، وَقَدْ احْتِاجَ إِلَى أَنْ يَبَاعَ حَلِيَّةٌ مَصْحَفُهُ ، وَأَنْفَقَهَا .

وَقَالَ هَيْثَمُ بْنُ خَالِدِ الطَّوِيلِ : دَخَلْتُ عَلَى صَالِحِ مَوْلَى مَنَارَةٍ فِي يَوْمٍ شَاتٍ وَهُوَ جَالِسٌ فِي قُبَّةٍ مَغْشَاةٍ بِالسَّمُورِ ، وَجَمِيعُ فُرُوشِهَا سَمُورٌ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ كَانُونُ فُضَّةٍ ، يَبْخَرُ فِيهِ بِالْعُودِ ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي رَأْسِ الْجِسْرِ وَهُوَ يَسْأَلُ النَّاسَ .
وَلَمَّا قَتَلَ عَامِرُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ ، وَنَزَلَ فِي دَارِهِ وَقَعَدَ عَلَى فَرْشِهِ ، دَخَلَتْ عَلَيْهِ عُبْدَةُ بِنْتُ مَرْوَانَ فَقَالَتْ : يَا عَامِرُ ، إِنْ دَهْرًا أَتَزَلُ مَرْوَانَ عَنْ فَرْشِهِ ، وَأَقْعِدُكَ عَلَيْهِ ، لَقَدْ أَبْلَغَ فِي عِظَتِكَ ! وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ : مَرَرْتُ بِقَصْرِ تَضَرَّبَ فِيهِ الْجَوَارِي بِالدَّفُوفِ ، وَيَقْلَنُ :

أَلَا يَأْدَارُ لَا يَدْخُلُكَ حَزَنٌ وَلَا يَغْدُرُ بِصَاحِبِكَ الزَّمَانُ
فَنَعَمُ الدَّارُ تَأْوِي كُلَّ ضَيْفٍ إِذَا مَا ضَاقَ بِالضَّيْفِ الْمَكَانُ

ثُمَّ مَرَرْتُ عَلَيْهِ بَعْدَ حِينٍ وَهُوَ خَرَابٌ ، وَبِهِ عَمُوزٌ ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا كُنْتُ رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ ، فَقَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهَ يَغْيِرُ وَلَا يَتَغَيَّرُ ، وَالْمَوْتُ غَالِبُ كُلِّ مَخْلُوقٍ ، قَدْ - وَاللَّهِ - دَخَلَ بِهَا الْحَزَنُ ، وَذَهَبَ بِأَهْلِهَا الزَّمَانُ . وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

لَئِنْ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا بِصِيرًا فَإِنَّمَا بِلَاغِكَ مِنْهَا مِثْلُ زَادِ الْمَسَافِرِ
إِذَا أَبْقَتِ الدُّنْيَا عَلَى الْمَرْءِ دَيْنَهُ فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرٍ !

وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمِيرٍ : رَأَيْتُ رَأْسَ الْحُسَيْنِ ^(٤) بَيْنَ يَدَيِ ابْنِ زِيَادٍ فِي قَصْرِ الْكُوفَةِ ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَأْسَ ابْنِ زِيَادٍ بَيْنَ يَدَيِ الْمُخْتَارِ ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَأْسَ الْمُخْتَارِ ، بَيْنَ يَدَيِ مُصْعَبٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُ رَأْسَ مُصْعَبٍ بَيْنَ يَدَيِ عَبْدِ الْمَلِكِ . قَالَ سَفِيَّانٌ فَقُلْتُ لَهُ : كَمْ كَانَ بَيْنَ أَوَّلِ الرُّءُوسِ وَآخِرِهَا ؟ قَالَ : اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

(١) « وَكَانَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعُضْبَاءُ لَا تَسْبِقُ » . إلخ . أخرجه البخارى [٢٨٧٢] .

إِنْ لِّلذَّهْرِ صَرَعَةٌ فَاحْذَرْنَهَا لَا تَبِيْتَنَّ قَدْ أَمَنْتَ الشُّرُورَا
قَدْ يَبِيْتُ الْفَتَى مُعَافًى فَيَرُدُّ وَلَقَدْ كَانَ أَمْنَا مَسْرُورَا
وكان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره على الدجلة ينظر فإذا هو بحشيش في وسط الماء ، وفي وسطه قصبة على رأسها رقعة ، فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعراً ، وهو للشافعي رحمه الله :

تَاهِ الْأَعْيُوجُ وَاسْتَحْلِي بِهِ الْبَطْر فَقُلْ لَهُ : خَيْرُ مَا اسْتَعْمَلْتَهُ الْحَذْرُ
أَحْسَنْتَ ظَنَّاكَ بِالْأَيِّ إِذَا عَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدْرُ !
وَسَالِمَتِكَ اللَّيَالَى تَنْسَرُّ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالَى يَحْدُثُ الْكَذْرُ
قال : فما انتفع بنفسه مدة ! . وأعجب ما وجد في السير خبرُ القاهر أحد الخلفاء ، وقلعه من الملك ، وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير ظهارة ، ومذَّبه يسأل الناس ، بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض ، فتبارك الله ! يعز من يشاء ويذل من يشاء ! . وقيل : كان لمحمد المهلبى قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف ، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشدته يقول :

أَلَا مَوْتُ يُبَاغُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
أَلَا رَحِمَ الْمَهِيْمُنْ نَفْسَ حَرٍّ تَصَدَّقْ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ
قال : فرثي له رفيقه ، وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه ، وحفظ الأبيات ، وتفرقا ثم ترقى المهلبى إلى الوزارة ، وأخى الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه ، فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها .

أَلَا قُلْ لِلْوَزِيرِ قَدْ نَفْسِي مَقَالًا مَذْكُورًا مَا قَدْ نَسِيهِ
أَتَذَكَّرُ إِذْ تَقُولُ لَضَنَّاكَ عَيْشٍ أَلَا مَوْتُ يُبَاغُ فَأَشْتَرِيهِ
فلما قرأها تذكر ، فأمر له بسبعمئة درهم ، ووقع تحت رقعة : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ﴾ . [البقرة: ٢٦١] ثم قلده عملاً يرتزق منه .

ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان ، فقال له : أى الزمان أدركته أفضل ؟ وأى الملوك أكمل ؟ فقال : أما الملوك فلم أر إلا حامدا وذاماً ، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع آخرين ، وكلهم يذكر أنه يبلى جديدهم ، ويفرق عديدهم ، ويهرم صغيرهم ، ويهلك كبيرهم ، وقال حبيب بن أوس :

لَمْ أَبْكْ مِنْ زَمَنِ لَمْ أَرْضْ خُلَّتْهُ إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَيْهِ حِينَ يَنْصِرُمُ !
وقال آخر :

يَا مَعْرُضًا عَنِّي بِوَجْهِ مَدِيرٍ وَوَجْوهَ دُنْيَاهُ عَلَيْهِ مُقْبِلِهِ
هَلْ بَعْدَ حَالِكَ هَذِهِ مِنْ حَالَةٍ أَوْ غَايَةِ إِلَّا انْحِطَاطُ الْمَنْزِلِ ؟
وقال عبد الله بن عروة بن الزبير :

ذَهَبَ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا بَشُّوا إِلَيَّ وَرَحَبُوا بِالْمُقْبِلِ
وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَأَنَّ حَدِيثَهُمْ وَلَغُ الْكَلَابِ تَهَارِشْتُ^(١) فِي الْمَنْزِلِ
وقال آخر في معناه :

يَا مَنْزِلًا عِبْتُ الزَّمَانَ بِأَهْلِهِ فَأَبَادَهُمْ بِتَفَرُّقٍ لَا يَجْمَعُ
أَيُّنَ الَّذِينَ عَهْدَتُهُمْ بِكَ مَرَّةً كَانَ الزَّمَانُ بِهِمْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ ؟
أَيَّامٌ لَا يَغْشَى لَذَكَرِكَ مَرْبِعَ إِلَّا وَفِيهِ لِلْمَكَارِمِ مَرْتَعُ
ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَ الَّذِينَ حَيَاتُهُمْ لَا تَنْفَعُ

(١) تهاشرت الكلاب: أي تقالت.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

وإني رأيت الدهر منذ صحبتُه محاسنُه مقرونةً ومعايبُه
إذا سررتني في أول الأمر لم أزل على حذرٍ من أن تذم عواقبُه

وقال بعضهم :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والممنكرون لكل أمر مُنكَر
وبقيتُ في خلف يُزين بعضُه بعضاً ليدفعُ مُغور^(١) عن مُغور

وكان يقال : إذا أدبر الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير . وكان يقال : بتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال .
ويقال : زمام العافية بيد البلاء ، ورأس السلامة تحت جناح العطب . وقال بعضهم : نحن في زمن لا يزداد الخير فيه
إلا إدباراً ، والشر إلا إقبالاً ، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً اضرب بطرفك حيث شئت ، هل تنظر إلا فقيراً يكابد
فقراً ، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفراً ، أو متمرداً كأن بسمعه عن سماع المواعظ وقراً ؟ !
وقال آخر : نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حييت القلوب ، وإذا ذكرنا الأحياء ماتت القلوب ، ويؤيد ذلك قوله : « لا
تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول : يا ليتني مكانه »^(٢) . ويقال : لا يقاوم عز الولاية بذل العزل :

ما من مُسِيءٍ وإن طالت إساءته إلا يكفيك يوم من مساعيه
وقال الأمين :

يانفس قد حق الحذر أين المفر من القدر ؟ !
كل امرئ مما يسخا ف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صفو الزما ن يغص يوماً بالسكدر
وقال بعضهم :

وقائلة ما بال وجهك قد نضت محاسنُه والجسمُ بان شحوبه ؟ !
فقلت لها : هاتى من الناس واحداً صفا وقتُه والنائبات تنوبه
وللأمير أبي علي بن منقذ :

أما والذي لا يملك الأمر غيرُه ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً لإعلانها عندي أشد وأعظم
وبى كل ما يبكي العيون أقله وإن كنت منه دائماً أتبسم

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : وإيم الله ما كان قوم قط في خفض عيش ، فزال عنهم ، إلا بذنوب اقترفوها لأن الله
تعالى ليس بظلام للعبيد ، ولو أن الناس حين ينزل بهم الفقر ، ويزول عنهم الغنى ، فرعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرد
عليهم كل شارد ، وأصلح لهم كل فاسد . قال الشاعر :

يقولون : الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان !
وكفى بالقرآن واعظاً . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] . والله سبحانه
وتعالى أعلم .

الفصل الثاني : في الصبر على المكاره ومدح الثبوت ودم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه العزيز في مواضع كثيرة ، وأمر به ، وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر ،

(١) المغور : من الرجال ، أي القبيح السيرة .

(٢) « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل » .. إلخ . أخرجه مالك [٢٣٩/١] ، والبخاري [٦٣/١٣] ، ومسلم [١٨٢/٨] - نووي [، وأحمد [٢/٢٣٦ ، ٥٣٠] ، وغيرهم .

وأثنى على فاعله ، وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه ، وحث على الثبوت في الأشياء ومجانبة الاستعجال فيها ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَوْفَى الْوَعْدَ أَجْرُهُمْ يَبْدَأُ بِالصَّبْرِ ﴾ [الزمر: ١٠] . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤] . وقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبَتْ كَلِمَتَ رَبِّكَ أَنْ تُبَيِّنَ بِإِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: ١٣٧] . وبالجمل ، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز ، في نيف وسبعين موضعاً ، وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ ﴾ . ^(١) وقد روى عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة ؛ فمن ذلك قوله ﷺ : « النصر في الصبر » ^(٢) وقوله ﷺ : « بالصبر يتوقع الفرج » ^(٣) . وقوله : « الأناة من الله تعالى ، والعجلة من الشيطان » ^(٤) . فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته ، والثبوت في حركاته وسكناته ، وكثيراً ما أدرك الصابر مرامه أو كاد ، وفات المستعجل غرضه أو كاد . وقال الأشعث بن قيس : دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال :

اصبر على مضض الإدلاج في السحر
إنى رأيت وفي الأيام تجربة
وقل من جد في أمر يؤمله
وفي الرواح إلى الطاعات في البكر
لصبر عاقبة محمودة الأثر
واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فحفظتها منه ، وألزمت نفسي الصبر في الأمور ، فوجدت بركة ذلك ، وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ ، وَلَا أَدَى ، وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُّهَا إِلَّا حَطَّ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » ^(٥) . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ الْخَيْرَ عَجَلَ لَهُ الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَهُ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ^(٦) . وقال ﷺ : « إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ ، مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السَّخَطُ » رواه الترمذي . وقال : حديث حسن . وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ : « الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر ، والصبر عند الصدمة الأولى ، وعظم الأجر على قدر المصيبة ، ومن استرجع بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها » ^(٧) . وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « احفظوا عني خمساً ، ثنتين ، وثنتين وواحدة لا يخافن أحدكم إلا ذنبه ، ولا يرجو إلا ربه ، ولا يستحي أحد منكم إذا سئل عن شيء ، وهو لا يعلم ، أن يقول : لا أعلم ، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد ، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور ، وأيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات في حبسه مات شهيداً ، فإن ضربه فمات فهو شهيد » . وروى في الخبر لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يَجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يا رسول الله كيف الفرج بعد هذه الآية ؟ فقال رسول الله ﷺ : « غُفِرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَيْسَ تَمْرُضُ ؟ أَلَيْسَ يُصِيبُكَ

(١) الأحقاف : [٣٥] . وبالرجوع إلى المصحف المفهرس نجد أن « الصبر » جاء في نيف وتسعين موضعاً وليس كما ذكر المصنف .

(٢) النصر في الصبر : ضعيف : أخرجه العقيلي [٣/٣٩٧-٣٩٨] والطبراني في « المعجم الكبير » [١٢٣/١١] ، والحاكم [٥٤٢/٣] ضمن حديث طويل لابن عباس ، وفي سنده عيسى بن محمد ، ضعيف .

(٣) « بالصبر يتوقع الفرج » لم أقف عليه .

(٤) الأناة من الله - تعالى - . . . إلخ ذكره العجلوني في كشف الخفاء برقم [١/٩٤٣] بلفظ التاني . أخرجه البيهقي ورواه ابن أبي شيبة وأبو يعلى ، وله شواهد عند الترمذي ، وقال حسن غريب بلفظ « الأناة من الله والعجلة من الشيطان » والعسكري عن سهل بن سعد رفعه لكن ضعفه بعضهم .

(٥) « ما يصيب المؤمن من نصب » . . . إلخ رواه مسلم باب ما يصيب المؤمن من العصب والحزن [مسلم ١٦/٨] بلفظ « ما يصيب المؤمن من نصب ولا نصب وسقم ولا حزن حتى ألهم يهيمه إلا كفر به من سيئاته » .

(٦) « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له » . . . إلخ ضعيف : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » [٣١٣/١١] برقم [١١٨٤٢] ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » [١٠/١٩١-١٩٢] : « وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العزمي ، وهو ضعيف » .

(٧) « الضرب على الفخذ عند المصيبة » . . . إلخ لم أقف عليه .

الأذى ؟ أليس تخزون ؟ » قال : بلى يا رسول الله ! قال : « فَبِهَذَا مَا تُخْزَوْنَ بِهِ » ^(١) يعنى : جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء .

وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند الكعبة ، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس ، فقال أبو جهل : - لعنه الله - أيكم يقوم إلى سلا الجزور فيلقيه على كتفى محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم ، فأخذه وأتى به فلما سجد صلى الله عليه وسلم ، وضع بين كتفيه السلا ^(٢) ، والفرث ، والدم فضحكوا ساعة ، وأنا قائم أنظر ، فقلت : لو كان لى منعة لطرحت عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها فجاءت فطرحت عن ظهره ، ثم أقبلت عليهم فستهم ، فلما قضى صلى الله عليه وسلم الصلاة رفع يديه ، فدعا عليهم فقال : « اللَّهُمَّ عَلَيْنَا بِقَرْنِش » ثلاث مرات فلما سمع القوم صوته ودعائه ، ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، فقال : « اللَّهُمَّ عَلَيْنَا بِأَبَى جَهْلٍ ، وَعُتْبَةَ ، وَشَيْبَةَ ، وَزُبَيْعَةَ ، وَالْوَلِيدِ ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ » . فقال على رضي الله عنه : والذي بعث محمداً بالحق ، رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر ^(٣) . وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب ، لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات ، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثَلَاثٌ مَنْ رَزَقَهُنَّ فَقَدْ رَزَقَ خَيْرَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : الرِّضَا بِالْقَضَاءِ ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ ، وَالِدُّعَاءُ فِي الرِّخَاءِ » ^(٤) .

وحكى أن امرأة من بنى إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة ، فسرقها سارق ، فصبرت ، وردت أمرها إلى الله تعالى ، ولم تدع عليه ، فلما ذبحها السارق ، وتنف ريشها نبت جميعه في وجهه ، فسعى في إزالته ، فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى خبراً من أحبار بنى إسرائيل ، فشكا له ، فقال : لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة ، فأرسل إليها من قال لها : أين دجاجتك ؟ فقالت : سرت : فقال : لقد آذاك من سرقها ، قالت : قد فعل ، ولم تدع عليه ، قال : وقد فجعتك في بيضها ، قالت : هو كذلك ، فما زال بها حتى أثار الغضب منها فدعت عليه ، فتساقط الريش من وجهه ، فقيل لذلك الحبر : من أين علمت ذلك ؟ قال : لأنها لما صبرت ، ولم تدع عليه ، انتصر الله لها ، فلما انتصرت لنفسها ، ودعت عليه سقط الريش من وجهه ، فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ، ويحمد الله تعالى ، ويعلم أن النصر مع الصبر ، وأن مع العسر يسرا وأن المصائب والرزايا إذا توالى أعقبها الفرج ، والفرح عاجلا . ومن أحسن ما قيل في ذلك المنظوم :

عظمت دونه الخطوب وجلت
سئمت نفسك الحياة وملت
فالرزايا إذا تسوالت تولت
كشفت عنك جملة وتخلت

وإذا مسك الزمان بضراً
وأنت بعده نوائب أخرى
فاصطبر ، وانتظر بلوغ الأمانى
وإذا أوهنت قواك وجلت

ولمحمد بن بشر الخارجي :

فالصبر يفتح منها كل ما رتجا
إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

إن الأمور إذا استدت مسالكها
لا تياسن وإن طالت مطالبة

ولزهير بن أبى سلمى :

ويذهل عنها عقل كل لبيب
وفرقة إخوان ، وفقد حبيب !

ثلاث يعز الصبر عند حلولها
خروج اضطرار من بلاد يحبها

وقال بعضهم :

ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا

عليك بإظهار التجلد للعدا

(١) روى في الخبر ... إلخ أخرج بعضه مسلم [١٧٥] ، وأخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » [١/٢٦٦ برقم ٢٠٠] .

(٢) السلا : غشاء رقيق يحيط بالجنتين ويخرج معه من بطن أمه .

(٣) بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند الكعبة ... إلخ رواه الشيخان : البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود .

(٤) « ثلاث من رزقهن » ... إلخ لم أعتد إليه .

وَيُطْرَحُ فِي الْبَيْدَا إِذَا مَا تَغْيِرَا

أَمَا تَنْظُرُ الرِّيحَانِ يَشْمُمُ نَاضِرَا
ولابن نباتة :

ن وَإِنْ أَبَى الْقَلْبُ الْجَرِيحُ
إِمَّا جَمِيلٌ أَوْ قَبِيحٌ

صَبْرًا عَلَى ثُوبٍ^(١) الزَّمَا
فَلِكُلِّ شَيْءٍ آخِرٌ
وقال أبو الأسود وأجاد :

تَقْلِبْ عَصْرِيهِ لَغَيْرِ لَبِيبِ
رَزِيَّةَ مَالٍ أَوْ فِرَاقُ حَبِيبِ

وإن امرأ قد جَرَبَ الدهرَ لم يخف
وما الدهرُ والأَيَّامُ إلا كما تَرَى

ومن كلام الحكماء : ما جوهده الهوى بمثل الرأى ، ولا استنبط الرأى بمثل المشورة ، ولا حفظت النعم بمثل
المواساة ، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر ، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر ، وقال نهشل :

وإن لم يكن نار قيام على الجمر
تفرج أبواب الكريهة بالصبر

ويوم كأن المصطلين بحره
صبرنا له صبرا جميلا وإنما
وقال ابن طاهر :

لَيْسَ يُغْنِي مَنِ الْقَدْرُ
مِثْلُ مَنْ بِحَاحٍ وَاشْتَهَرَ
مَنْ عَلَى مُرِّهِ صَبَرَ
فَازَ بِالصَّبْرِ مَنْ صَبَرَ

حَذَرْتَنِي وَذَا الْحَذَرِ
لَيْسَ مَنْ يَكْتُمُ الْهَوَى
إِنَّمَا يَعْرِفُ الْهَوَى
نَفْسُ يَأْنَفُسُ فَاصْبِرْ

وكان يقال : من تبصر تبصر . وكان يقال : إن نوابغ الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر وكان يقال : لا دواء لدهاء
الدهر إلا بالصبر ، ولله در القائل :

وَالْقَوْتُ أَقْنَعُنِي ، وَالْيَأْسُ أَغْنَانِي
حَتَّى نَهَيْتَ الَّذِي قَدْ كَانَ يَنْهَانِي

الدهر أَدْبَنِي ، وَالصَّبْرُ رَبَّانِي
وَحَنَكْتَنِي مِنَ الْإَيَّامِ تَجْرِبَةً
وما أحسن ما قال محمود الوراق :

فِي السَّنَائِبَاتِ لِمَنْ أَرَادَ مُعْوَلَا
بُعْرَى الْغِنَى فَجَعَلَتْهَا لِي مَعْقَلَا
وَجَعَلْتَ مِنْهُ غَيْرَهُ لِي مَنْزَلَا
فَيَكُونُ أَرْخَصَ مَا يَكُونُ إِذَا غَلَا

إِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ خَيْرَ مُعْوَلٍ
وَرَأَيْتُ أَسْبَابَ الْقِنَاعَةِ أَكْذَثَ
فَإِذَا نَبَا بِي مَنْزِلُ جَاوِزْتُهُ
وَإِذَا غَلَا شَيْءٌ عَلَى تَرْكْتِهِ
وقال بعضهم :

فَأَفْرَغْ لَهَا صَبْرًا وَوَسَّعْ لَهَا صَذْرَا
فَيَوْمًا تَرَى يَسْرًا وَيَوْمًا تَرَى عُسْرَا

إِذَا مَا أَتَاكَ الدَّهْرُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ
فَإِنْ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ عَجِيبَةً
وقال بعضهم :

إِلَى الْمَلِكِ الْجَبَّارِ إِلَّا تَيْسِرَا

وَمَا مَسْنَى عَسْرٍ فَفَوَّضْتَ أَمْرَهُ
وَمَا أَحْسَنَ مَا قِيلَ :

لَا بَدَّ أَنْ يُقْبَلَ أَوْ يُدْبَرَ
فَاصْبِرْ فَإِنَّ الدَّهْرَ لَا يَضْطَرُّ

الدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَالَةٍ
فَإِنْ تَلَقَّاكَ بِمَكْرُوهِهِ

(١) أي النازلة ، أو المصيبة .

ونقل عن محمد بن الحسن - رحمه الله تعالى - قال : كنت معتقلاً بالكوفة فخرجت يوماً من السجن مع بعض الرجال ، وقد زاد همي ، وكادت نفسي أن تزهد ، وضائق على الأرض بما رحبت ، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل على ، ورأى ما أنا فيه من الكآبة فقال : ما حالك ؟ فأخبرته القصة ، فقال : الصبر الصبر فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « الصبر ستر للكروب ، وعون على الخطوب »^(١) . وروى عن ابن عمه علي عليه السلام أنه قال : الصبر مطية لا تُذبر ، وسيف لا يكل ، وأنا أقول :

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجمله عند الإله وأنجاه من الجزع
من شد بالصبر كفاً عند مؤلمة ألوث يده بحبل غير منقطع
فقلت له : بالله عليك زدني ، فقد وجدت بك راحة ، فقال : ما يحضرني شيء عن النبي ﷺ ، ولكني أقول :
أما والذي لا يعلم الغيب غيره ومن ليس في كل الأمور له كفو
لئن كان بدء الصبر مرًا مذاقه لقد يُجتنى من بعده الثمر الحلو

ثم ذهب فسألت عنه ، فما وجدت أحداً يعرفه ، ولا رآه أحد قبل ذلك في الكوفة ، ثم أخرجت في ذلك اليوم من السجن ، وقد حصل لي سرور عظيم بما سمعت منه ، وانتفعت به ووقع في نفسي أنه من الأبدال^(٢) الصالحين ، قيضه الله تعالى لي ، يوقظني ، ويؤدبني ، ويسليني ، وقيل : إن رجلاً كان يضرب بالسياط ، ويجلد جُلداً بليغاً ولم يتكلم ، ويصبر ، ولم يتأوه ، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له : أما يؤلمك هذا الضرب الشديد ؟ فقال : بلى . قال : لم لا تصيح ؟ فقال : إن في هؤلاء القوم الذين وقفوا على صديقاً لي يعتقد في الشجاعة والجلادة ، وهو يرقبني بعينه ، فأخشى أن صُحَّت يذهب ماء وجهي عنده ويسوء ظنه بي ، فأنا أصبر على شدة الضرب ، وأحتمله لأجل ذلك . قال الشاعر :

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه^(٣) ويحمد منه الصبر مما يُصيبه
فمن قل فيما يلتقيه اصطباره لقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها : « يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر ، ولم يكلفني إلا ما كلفوا به فقال عز وجل : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ . وإني والله لأصبرن كما صبروا »^(٤) . فإن النبي ﷺ لما صبر كما أمر ، أسفروجه صبره عن ظفروه ونصره ، وكذلك الرسل ﷺ الذين هم أولو العزم ، لما صبروا وظفروا وانتصروا ، وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة فقال مقاتل رحمه الله : هم نوح ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويونس ، وأيوب عليه السلام . وقال قتادة : هم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليه السلام . ويقال : ما الذي صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولي العزم ؟ فأقول : ذكر ما صبروا عليه . أما نوح عليه السلام : فقد قال ابن عباس عليه السلام : كان نوح عليه السلام يُضرب ، ثم يلف في لبد ، ويُلقى في بيته يرون أنه قد مات ، ثم يعود ، ويخرج إلى قومه ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، ولما آيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير ، يتوكأ على عصاه ، ومعه ابنه فقال لابنه : يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ، ولا يغرك ، فقال له ابنه : يا أبت مكنى من العصا فأخذها من أبيه ، وضرب بها نوحاً عليه السلام شج بهارأسه ، وسال الدم على وجهه ، فقال : « رب قد ترى ما يفعل بي عبادك ، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهداهم ، وإلا فصبرني إلى أن تحكم » . فأوحى الله تعالى إليه : ﴿ وَأَوْحِ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٥) . قال : « يارب وما الفلك ؟ » . قال : « بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجى فيه أهل طاعتي ، وأغرق أهل معصيتي » . قال : « يارب وأين الماء ؟ » قال : « أنا على كل شيء

(١) « الصبر ستر للكروب ، وعون على الخطوب » لم أفق عليه .

(٢) الأبدال : الزهاد عند الصوفية لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك عندهم وقال ابن القيم : أحاديث الأبدال والأقطاب والأغوات والنقباء ، والنجباء ، والأوتاد كلها باطلة على رسول الله ﷺ .

(٣) خطوب : جمع خطب ، وهو الحال والشأن . قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر : ٥٧] .

(٤) يا عائشة : إن الله - تعالى - لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر ، ولما آيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير ، يتوكأ على عصاه ، ومعه ابنه فقال لابنه : يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ، ولا يغرك ، فقال له ابنه : يا أبت مكنى من العصا فأخذها من أبيه ، وضرب بها نوحاً عليه السلام شج بهارأسه ، وسال الدم على وجهه ، فقال : « رب قد ترى ما يفعل بي عبادك ، فإن يكن لك فيهم حاجة فاهداهم ، وإلا فصبرني إلى أن تحكم » . فأوحى الله تعالى إليه : ﴿ وَأَوْحِ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾^(٥) . قال : « يارب وما الفلك ؟ » . قال : « بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجى فيه أهل طاعتي ، وأغرق أهل معصيتي » . قال : « يارب وأين الماء ؟ » قال : « أنا على كل شيء

(٥) أرجع إلى تفسير هذه الآية رقم [٣٦] وما بعدها من سورة هود في ابن كثير والطبري .

قدير « قال : « يارب وأين الخشب ؟ » قال : « اغرس الخشب » فغرس الساج عشرين سنة ، وكف عن دعائهم ، وكفوا عن ضربه إلا أنهم كانوا يستهزئون به ، فلما أدرك الشجر ، أمره ربه فقطعها ، وجففها وقال : « يارب كيف اتخذ هذا البيت ؟ » قال : « اجعله على ثلاث صور » وبعث الله له جبريل فعلمه ، وأوحى الله تعالى إليه أن عجل بعمل السفينة فقد اشتد غضبي على من عصاني ، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله - سبحانه وتعالى - بانتصار نوح ونجاته ، وإهلاك قومه وعذابهم ، إلا من آمن معه ، وفار التور ، وظهر الماء على وجه الأرض ، وقذفت السماء بمطار كأفواه القرب ، حتى عظم الماء ، وصارت أمواجه كالجبال ، وعلا فوق أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً ، وانتقم الله - سبحانه وتعالى - من الكافرين ، ونصر نبيه نوحاً عليه السلام وفي تمام قصته وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه ، فهذا زبدة صبر نوح عليه السلام وانتصاره على قومه .

وأما إبراهيم عليه السلام : فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم أبلغ من إحراقه ، فأخذوه وحبسوه ببيت ، ثم بنوا حائزاً كالحوش ، طول جداره ستون ذراعاً ، إلى سفح جبل عال ، ونادى منادى ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم ، ومن تخلف عن الاحتطاب أحرقه ، فلم يتخلف منهم أحد وفعلوا ذلك أربعين يوماً ليلاً ونهاراً ، حتى كاد الحطب يساوى رؤوس الجبال وسدوا أبواب ذلك الحائز ، وقذفوا فيه النار ، فارتفع لهبها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها ثم بنوا بنياناً شامخاً ، وبنوا فوقه منجنيقاً ^(١) ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان ، ورفع إبراهيم عليه السلام طرفه إلى السماء ودعا الله تعالى وقال : « حسبي الله ونعم الوكيل » . وقيل كان عمره يومئذ ستاً وعشرين سنة فنزل إليه جبريل عليه السلام وقال : « يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ » قال : « أما إليك فلا » ، فقال جبريل : « سل ربك » ، فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالي » ، فقال الله تعالى : « قُلْنَا يَنْتَازُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » ^(٢) . فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه السلام فجلس به على الأرض ، وأخرج الله له ماء عذبةً ، قال كعب : ما أحرقت النار غير كتافه ، وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام ، وقيل : أكثر من ذلك ، ونجاه الله تعالى ، ثم أهلك نمرود وقومه بأخس الأشياء ، وانتقم منهم ، وظفر إبراهيم عليه السلام بهم ، فهذه ثمرة صبره ، على مثل هذه الحالة العظمى ، ولم يجزع منها ، وصبر وفوض أمره إلى الله تعالى في ذلك ، وتوكل عليه ووثق به . ثم جاءت قصة ذبح ولده ، وأمره الله تعالى بذلك ، فقابل أمره بالتسليم والامثال ، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إهمال وقصته مشهورة . وتفصيل القصة في كتب التفسير مسطورة ، فلما ظهر صدقه ورضاه ، ومبادرته إلى طاعة مولاه ، وصبره على ما قدره وقضاه ، عوضه الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه ، واتخذ خليلاً من بين خلقه واجتبه .

وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه صبر على بلية الذبح . وتلخيصها : أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه السلام بذبح ولده قال : إني أريد أن أقرب قرباناً ، فأخذ ولده والسكين والحبل ، وانطلق فلما دخل بين الجبال قال ابنه : أين قربانك يا أبتي ؟ قال : إن الله تعالى قد أمرني بذبحك : « فَأَنْظِرْ مَاذَا فَعَلْتُ قَالَ يَكَابَتِ أَفَعَلْتَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ » [الصفات: ١٠٢] يا أبتي أشدد وثاقي كي لا أضطرب ، واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم ، فتراه أُمي ، فيشتد حزنها ، وأسرع إمرار السكين على حلقى ، ليكون أهون للموت على ، وإذا لقيت أُمي فاقرأ السلام عليها ؛ فأقبل إبراهيم عليه السلام على ولده يُقبّله ويبكى ويقول : نعم العون أنت يا بني ، على ما أمر الله تعالى ! قال مجاهد : لما أمر السكين على حلقه انقلبت السكين ، فقال : يا أبتي اطعن بها طعناً . وقال السدي : جعل الله حلقه كصفحة من نحاس ، لا تعمل فيها السكين شيئاً فلما ظهر فيهما صدق التسليم ، نودي أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك ، فأتاه جبريل عليه السلام بكبش أملح فأخذه ، وأطلق ولده ، وذبح الكبش ؛ فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصبره وامتناله لأمره ! .

وأما يعقوب عليه السلام : فإنه لما ابتلى بفراق ولده ، وذهاب بصره ، واشتداد حزنه قال : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » [يوسف: ٨٣] وكذلك يوسف عليه السلام لما ابتلاه الله تعالى بالقائه في ظلمة الجب ، وبيعه كما تباع العبيد ، وفراقه لأبيه ، وإدخاله السجن ، وحبسه فيه بضع سنين ، وأنه تلقى ذلك كله بصبره ، وقبوله ، فلا جرم أورثهما صبرهما جمع شملهما ،

(١) المنجنيق : آلة من آلات الحصار قديماً . كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها [مؤنثة] .

(٢) الأنبياء : [٦٩] . ارجع إلى ابن كثير في تفسير هذه الآية وما بعدها وإلى الدر المنثور للسيوطي .

واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة . وأما أيوب عليه السلام : فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله ، وتتابع المرض العزم ، والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله .
ولنذكر شيئاً مختصراً من ذلك ؛ وهو أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس ، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم ، وسكت عنه أيوب عليه السلام فلم يكلمه ، ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته ، فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك ؟ ! لأطيلن بلاءك ، فقال إبليس - لعنه الله - : يارب سلطني على أولاده وماله ، فسلطه ، فبث إبليس مردته من الشياطين ، فبعث بعضهم إلى دوابه ورعاتها ، فاحتملوها جميعاً ، وقذفوها في البحر ، وبعث بعضهم إلى زرعهم وجنانه فأحرقوها ، وبعث بعضهم إلى منازلهم ، وفيها أولاده ، وكانوا ثلاثة عشر ولداً ، وخدمه وأهله ، فزلزلوها ، فهلكوا ، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه السلام وهو يصلي ، فتمثل له في صورة رجل من غلمانهم ، فقال : يا أيوب ، أنت تصلي ، ودوابك ، ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة ، وقذفت الجميع في البحر ، وأحرقت زرعك ، وهدمت منازلك على أولادك وأهلك ، فهلك الجميع ! ما هذه الصلاة ؟ ! فالتفت إليه ، وقال : الحمد لله الذي أعطاني ذلك كله ، ثم قبله مني ، ثم قام إلى صلاته فرجع إبليس ثانياً فقال : يارب ، سلطني على جسده فسلطه فنفخ في إبهام رجله ، فانتفخ ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقي أعضاؤه تبيين ، وهو مع ذلك كله صابر محتسب ، مفوض أمره إلى الله تعالى ، وكان الناس قد هجروه ، واستقذروه وألقوه خارجاً عن البيوت من نتن ريحه ^(١) وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق ، قد سلمت فترددت إليه متفقدة ، فجاءها إبليس يوماً في صورة شيخ ومعه سحلة ^(٢) ، وقال لها : يذبح أيوب هذه السحلة على اسمي فيبرأ ، فجاءته فأخبرته ، فقال لها : إن شفاني الله تعالى لأجلدك مائة جلدة ، تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى ؟ ! فطردها عنه فذهبت وبقي ليس له من يقوم به ، فلما رأى أنه لا طعام له ، ولا شراب ، ولا أحد من الناس ، يتفقده خرب ساجداً لله تعالى ، وقال : **وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَتَىٰ مَسْفًى الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** [الأنبياء: ٨٣] . فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى ، طول هذه المدة ، وهى على ما قيل ثمان عشرة سنة ، وقيل : غير ذلك ، وإنه تلقى جميع ذلك بالقبول ، وما شكاً إلى مخلوق ما نزل به عاد الله تعالى بالطفافه عليه ، فقال تعالى : **فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا** [الأنبياء: ٨٤] وأفاض عليه من نعمه ، ما أنساه به بلوى نقمه ، ومنحه من أقسام كرمه ، أن أفتاه في يمينه تحلة قسمه ، ومدحه في نص الكتاب ، فقال تعالى : **وَعَذِّبْنَا يَدَيْكَ فَتَقَاتَلِ يَدَاكَ فَأُصْرِبَ يَدَاكَ وَأَنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** [ص: ٤٤] . فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب . وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوى الحزم ، وسماهم بسبب صبرهم أولى العزم ، وفتح لهم بصيرهم أبواب مرادهم وسؤالهم ، ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم ، فما أسعد من اهتدى بهداهم ، واقتدى بهم ، وإن قصر عن مدهم .

وقيل : المُسْر يعقبه اليسر ، والشدة يعقبها الرخاء ، والتعب يعقبه الراحة ، والضيق يعقبه السعة ، والصبر يعقبه الفرج ، وعند تنهاى الشدة تنزل الرحمة ، والموفق من رزقه صبراً وأجراً ، والشقى من ساق القدر إليه جزعاً ووزراً . ومما شنف السمع من نجاح هذه الإشارة ، وأتحف النفع في نهج هذه العبارة ، ما روى عن الحسن البصري عليه السلام قال : كنت بواسط فرأيت رجلاً كأنه قد نبش من قبر ، فقلت : مادهاك يا هذا ؟ ! فقال : اكتم على أمرى ! حبسنى الحجاج منذ ثلاث سنين ، فكنت فى أضيق حال ، وأسوأ عيش ، وأقبح مكان ، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم فلما كان بالأمس ، أخرجت جماعة كانوا معى ، فضربت رقابهم ، وتحدث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عنقى ، فأخذنى حزن شديد ، وبكاء مفرط ، وأجرى الله تعالى على لساني ، فقلت : إلهى اشتد الضر ، وفقد الصبر ، وأنت المستعان ، ثم ذهب من الليل أكثره ، فأخذتني غشية وأنا بين اليقظان والنائم ، إذ أتاني آت ، فقال لى : قم فصل ركعتين : وقل : يا من لا يشغله شيء عن شيء ، يا من أحاط علمه بما ذرأ وبرأ ، أنت عالم بخفيات الأمور ، ومحصى

(١) مثل هذا الكلام لا يناسب ما أحاط به الله أنبياءه من تكريم فهو رسول الله إلى الناس وللرسول هيته وكرامته ! وارجع إلى تفسير ابن كثير والطبرى لتعرف وجه الصواب فيما يحكى من إسرائيليات وأساطير حول اختباره ومرضه .

(٢) السحلة : الذكر والأنثى من ولد الضأن والمعز ساعة ولد .

وساوس الصدور ، وأنت بالمتزل الأعلى ، وعلمك محيط بالمتزل الأدنى ، تعاليت علواً كبيراً ، يامنيت أغثنى وفك أسرى ، واكشف ضرى ، فقد نفذ صبرى ، فقممت وتوضأت فى الحال ، وصليت ركعتين ، وتلوت ما سمعته منه ، ولم تختلف على منه كلمة واحدة ، فما تم القول حتى سقط القيد من رجلى ، ونظرت إلى أبواب السجن ، فرأيته قد فتحت ، فقممت فخرجت ، ولم يعارضنى أحد ، فأنا والله طليق الرحمن ، وأعقبني الله بصبرى فرجا ، وجعل لى من ذلك الضيق مخرجا ، ثم ودعنى وانصرف يقصد الحجاز . وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه السلام : « يادادود ، من صبر علينا وصل إلينا » . وقال بعض الرواة : دخلت مدينة يقال لها « دقار » فبينما أنا أطوف فى خرابها إذ رأيت مكتوباً بباب قصر خرب ، بماء الذهب واللازورد ، هذه الأبيات :

يامن ألح عليه الهم والفكر
أما سمعت لما قد قيل فى مثل
ثم الخطوب إذا أحداثها طرقت
وكل ضيق سيأتى بعده سعة
ولما حبس أبو أيوب فى السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته ، وقل صبره فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه ، وقلته صبره ، فرد عليه جواب رقعة : يقول :

صبراً أبا أيوب صبر مبرح
إن الذى عقد الذى انعقدت به
صبراً فإن الصبر يعقب راحة
فأجابه أبو أيوب يقول :

صبرتنى ووعظتنى وأنا لها
ويحلها من كان صاحب عقدها
فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أطلق مكرماً وأنشدوا :
إذا ابتليت فثق بالله وارض به
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته
وستنجلي بل لا أقول : لعلها
كرمها به إذ كان يملك حلها
إن الذى يكشف البلى هو الله
لا تياسن فإن الصانع الله
فما ترى حيلة فيما قضى الله !

(الفصل الثالث) : من هذا الباب فى التأسى فى الشدة والتسلى عن نوائب الدهر

قال الثورى - رحمه الله تعالى - لم يفقه عندنا من لم يعد البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة . وقيل : الهموم التى تعرض للقلوب كفارات للذنوب . وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر : لا أراك الله مكروها ، فقال : كأنك دعوت عليه بالموت ، فإن صاحب الدنيا لا بد له أن يرى مكروهاً ! وتقول العرب : ويل أهون من ويلين ! وقال ابن عيينة : الدنيا كلها غموم ، فما كان فيها من سرور فهو ربح ! وقال العتبي : إذا تناهى الغم ، انقطع الدمع ، بدليل أنك لا ترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العنق يبكى .

وقيل : تزوج مغن بنائحة ، فسمعها تقول : اللهم أوسع لنا فى الرزق ، فقال لها : يا هذه ، إنما الدنيا فرح وحزن ، وقد أخذنا بطرفى ذلك ، فإن كان فرح دَعَوْنى ، وإن كان حزن دعوك .

وقال وهب بن منبه : إذا سُلِكَ بك طريق البلاء ، سلك بك طريق الأنبياء ! وقال مطرف : ما نزل بى مكروه قط فاستعظمت إلا ذكرت ذنوبى فاستصغرت .

(١) وفيما يروى عن الله - تعالى - أنه أوحى إلى داود عليه السلام : « يا داود من صبر » .. إلخ . لم أعتد إليه .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه يرفعه : « يودُّ أهل العافية يوم القيامة أن لحومهم كانت تُقرض بالمقاريض ، لما يزون من ثواب الله تعالى لأهل البلاء » ^(١) . روى أبو عتبة عن النبي ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه » قالوا : وما اقتناه ؟ قال : « لا يترك له مالا ولا ولداً » ^(٢) .

ومر موسى عليه السلام برجل كان يعرفه مطيعاً لله - عز وجل - قد مزقت السباع لحمه ، وأضلّاعه وكبده ، ملقاة على الأرض فوقف متعجباً فقال : أي رب عبدك ابتليته بما أرى ، فأوحى الله تعالى إليه أنه سألتني درجة لم يبلغها بعمله ، فأحببت أن أبتليه لأبلغه تلك الدرجة ^(٣) .

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلى ! حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطئ عظماء ، فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب ، فجمع له الوليد الأطباء فأجمع رأيهم على قطع رجله فقالوا له : اشرب مُرْقِداً ^(٤) . فقال : ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى ، فأحمى له المنشار وقطعت رجله ، فقال : ضعوها بين يدي ، ولم يتوجع ، ثم قال : لئن كنت ابتليت في عضو ، فقد عوفيت في أعضاء ، فبينما هو كذلك إذ أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها ، فمات ، فقال : الحمد لله على كل حال ، لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة وقدّم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير ، فسأله عن حاله ، وسبب ذهاب بصره ، فقال : خرجت مع رفقة مسافرين ومعى مالى وعيالى ، ولا أعلم عسبياً يزيد ماله على مالى ، فعرّسنا ^(٥) فى بطن واد ، فطرقنا سبل ، فذهب ما كان لى من أهل ومال وولد غير صبي صغير ، وبغير ، فشرّد البعير ، فوضعت الصغير على الأرض ، ومضيت لأخذ البعير ، فسمعت صيحة الصغير ، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب فى بطنه ، وهو يأكل فيه ، فرجعت إلى البعير فحطم وجهى برجله ، فذهبت عيناى ، فأصبحت بلا عينين ، ولا ولد ، ولا مال ، ولا أهل ! فقال الوليد : اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن فى الدنيا من هو أعظم مصيبة منه .

وقيل : الحوادث الممضة مكسبة لحظوظ جليلة : إما ثواب مذكّر ، أو تطهير من ذنب ، أو تنبيه من غفلة ، أو تعريف لقدّر النعمة ! قال البحرى ، يسلى محمد بن يوسف على حبسه :

فمن منزل رحب إلى منزل ضنك
صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك
لمثلك محبوس على الظلم والإفك
فأل به الصبر الجميل إلى الملك

وما هذه الأيام إلا منازل
وقد دهمت الحادثات وإنما
أما فى نبي الله يوسف أسوة
أقام جميل الصبر فى السجن برهة
وقال على بن الجهم لما حبسه المتوكل :

حبسى ، وأى مهتد لا يُغمَدُ؟ ^(٦)
عن ناظريك لما أضاء الفرقد
لا تصطلى إن لم تشرها الأزند
شنعاء نعم المنزل المتودد
ويزار فيه ولا يزور ويحمد
لا تستذل بالحباب الأعبد
والمال عارية يُعار وَيُنْقَد
أجلى لك المكروه عما يُحمد
خطب رماك به الزمان الأنكد

قالوا حُبِسْتَ فَقُلْتَ : ليس بضائرى
والشمس لولا أنها محجوبة
والنار فى أحجارها مخبوءة
والحبس مالم تغشه لذنية
بيت يجدد للكريم كرامة
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه
غَرَّ الليالى بإديات عود
ولكل حى معقب ولربما
لا يؤيسنك من تفرج نكبة

(١) عن جابر يرفعه : « يود أهل العافية » . حسن : أخرجه الترمذى [٢٤٠٢] .

(٢) « إذا أحب الله عبداً » . إلخ . عزاء المتقى الهندى فى « كنز العمال » . للطبرانى وابن عساكر ، انظر كنز العمال برقم [٣٠٧٩٣] .

(٣) « ومر موسى » . إلخ . لم أقف عليه . (٤) مُرْقِداً : مخدراً . (٥) عَرَّسْنَا : نزلنا آخر الليل للراحة .

(٦) مُهْتَدٌ : السيف المصنوع من حديد الهند .

كم من عليل قد تخطاه الردى صبراً فإن اليوم يعقبه غد
فنجاً ومات طبيبه والعود ويد الخلافة لا تطاولها يد
قال وأنشد إسحاق الموصلى إبراهيم بن المهدي حين حبس :

هي المقادير تجري في أعنتها يوما تريك خسيس الأصل ترفعه
فاصبر فليس لها صبر على حال^(١) إلى العلاء ويوما تخفض العالى

فما أمسى حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون ورضى عنه ، وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب فى إبراهيم بن المدنى حين عزل :

ليهن أبا إسحاق أسباب نعمة شهدت لقد متوا عليك وأحسنوا
مجددة بالعزل والعزل أنبل^(٢) لأنك يوم العزل أعلى وأفضل

وقال آخر :

قد زاد ملك سليمان فعاوده والشمس تنحط فى المجرى وترتفع

وقال أبو بكر الخوارزمي لمعزول : الحمد لله الذى ابتلى فى الصغير وهو المال ، وعافى فى الكبير وهو الحال :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عاراً أن يزول التَّجْمُلُ^(٣)

وقيل : المال حظ ينقص ثم يزيد ، وظل ينحسر ثم يعود .

وسئل بزرجمهر عن حاله فى نكبته فقال : عوّلت على أربعة أشياء : أولها : أنى قلت : القضاء والقدر لا بد من جريانهما . الثانى : أنى قلت : إن لم أصبر فما أصنع ؟ الثالث : أنى قلت : قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا . الرابع : أنى قلت : لعل الفرج قريب ، والله تعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والظهور

ما جاء فى اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة ، والفرج والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فمما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل قوله تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧] وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْعَيْنَ عَنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨] وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ [يوسف: ١١٠] ويروى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لو كان العسر فى جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرج به »^(٤) . وقال ﷺ : « عند تنهاى الشدة يكون الفرج ، وعند تضايق البلاء يكون الرخاء »^(٥) . وقال على رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « أفضل عبادة أمتى انتظارها فرج الله تعالى »^(٦) . وقال الحسن :

(١) الأعتة : جمع عنان وهو سير اللجام الذى تمسك به الدابة وهو طاقان مستويان .

(٢) ليهن : هنيئاً له : وليسرك ما أنت فيه .

(٣) التَّجْمُلُ : تجمل : تكلف الحسن والجمال ، وتَّجْمَلُ : ظهر بما يجمل ، وتَجْمَلُ الفقير : أكل الجميل .

(٤) « لو كان العسر فى جحر لدخل عليه » . إلخ . ذكره ابن كثير فى سورة « الْكَافِرُونَ » . وقال : رواه أبو بكر البزار فى مسنده . ثم قال : لا نعلم من رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح .

(٥) « عند تنهاى الشدة يكون الفرج » . إلخ . لم أقف عليه .

(٦) « أفضل عبادة أمتى » . إلخ . ضعيف أخرجه ابن أبى الدنيا « فى الفرج بعد الشدة » . [ص ١٧] ، وضَعَفَه العراقي كما فى تعليقه على الإحياء [٤/ ٦٩] .

لما نزل قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥-٦] . قال النبي : « أبشروا فلن يغلب عسر يسرين » (١) . ومن كلام الحكماء : إن تيقنت لم يبق هم . وقال أبو حاتم :

إذا اشتملت على البؤس القلوب
وأوطنت المكاره اطمأنت
ولم تر لانكشاف الضر وجهها
أتاك على قنوط منك غوث
وقال آخر :

عسى الهم الذي أمسيت فيه
فيأمن خائف ويغاث عان
وقال آخر :

تصبر أيها العبد اللبيب
وكل الحادثات إذا تناهت
وقال إبراهيم بن العباس :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها
وقال آخر :

لئن صدع البين المشئت شملنا
وللنجم من بعد الرجوع استقامة
وإن نعمة زالت عن الحز وانقضت
فكن واثقا بالله واصبر لحكمه
ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة :

روى أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة أن أخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن - وكان مجبوساً - واضربه في مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط ، فأخرجه إلى المسجد ، واجتمع الناس ، وصعد صالح يقرأ عليهم الكتاب ، ثم نزل يأمر بضربه ، فبينما هو يقرأ الكتاب إذا جاء علي بن الحسين (عليه السلام) فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن ، فقال : يابن العم ، ما لك ؟ ادع الله تعالى بدعاء الكرب يفرج الله عنك ، قال : ما هو يابن العم ؟ فقال : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ، ثم انصرف عنه ، وأقبل الحسن يكررها ، فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ، ونزل قال : أراه في سجنه مظلوماً أخروه ، وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره ، فأطلق بعد أيام ، وأناه الفرج من عند الله تعالى . وقال الربيع لما حبس المهدي موسى بن جعفر ، رأى في المنام علياً (عليه السلام) وهو يقول : يا محمد ﴿ هَلْ عَسَيْتَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ ﴾ . [محمد: ٢٢] قال الربيع : فأرسل المهدي إلى ليلاً فراعني ذلك ، فجتته ، فإذا هو يقرأ هذه الآية ، وكان حسن الصوت ، فقصص عليّ الرؤيا ثم قال : اتنى بموسى بن جعفر ، فجتته به ، فعانقه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقال : يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ عليّ كذا فعاهدني ، أن لا تخرج عليّ ولا علي أحد من ولدي فقال : والله ما ذاك من شأني ، فقال : صدقت ثم

(١) « أبشروا فلن يغلب عسر يسرين » . ذكره ابن كثير في تفسير هذه الآية نقلاً عن ابن جرير أن النبي ﷺ خرج يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول : « لن يغلب عسر يسرين .. لن يغلب عسر يسرين » .

قال : ياربيع ، أعطه ثلاثة آلاف دينار ، وردّه إلى أهله بالمدينة ، قال الربيع : فأحكمت أمره ليلاً فما أصبح إلا على الطريق ، وقال إسماعيل بن بشار :

وكل حُرٌّ وإن طالَّت بليّته يوماً تفرج غمّاه وتنكشف

وقال مسلم بن الوليد : كنت يوماً جالساً عند خياط بإزاء منزلي ، فمرّ بي إنسان أعرفه ، فقلت إليه ، وسلمت عليه ، وجئت به إلى منزلي لأضيفه ، وليس معي درهم بل كان عندي زوج أخفاف ، فأرسلتهما مع جاريتي لبعض معارفي ، فباعهما بتسعة دراهم ، واشترى بها ما قلته لها من الخبز واللحم ، فجلسنا نأكل وإذا بالبواب يطرق ، فنظرت من شق الباب ، وإذا بإنسان يسأل هذا منزل فلان ، ففتحت الباب وخرجت ، فقال : أنت مسلم بن الوليد ؟ قلت : نعم واستشهدت له بالخياط على ذلك ، فأخرج لي كتاباً ، وقال : هذا من الأمير يزيد بن يزيد ، فإذا فيه قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم ، لتكون في منزلك وثلاثة آلاف درهم تتجمل بها لقُدومك علينا فأدخلته إلى داري ، وزدت في الطعام ، واشتريت فاكهة ، وجلسنا فأكلنا ثم وهبت لضيفي شيئاً يشتري به هدية لأهله ، وتوجهنا إلى باب يزيد بالبرقة ، فوجدناه في الحمام فلما خرج استؤذن لي عليه ، فدخلت فإذا هو جالس على كرسي ، ويده مُشط يسرح به لحيته ، فسلمت عليه فرد أحسن رد ، وقال : ما الذي أقعدك عنا ؟ قلت : قلة ذات اليد ، وأنشدته قصيدة مدحته بها ، قال : أتدري لم أحضرتك ؟ قلت : لا أدري ! قال : كنت عند الرشيد منذ ليالٍ أحادثه ، فقال لي : يا يزيد ، من القاتل فيك هذه الأبيات ؟

سلّ الخليفة سيفاً من بني مضر يمضي فيخترق الأجسام والهَامَا
كالدهر لا ينثنى عما بهم به قد أوسع الناس إنعاماً وإرغاماً

فقلت : والله لا أدري يا أمير المؤمنين ، فقال : سبحان الله ! أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله ؟ ! فسألت : فقيل لي : هو مسلم بن الوليد فأرسلت إليك فانهض بنا إلى الرشيد فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه . فقبلت الأرض ، وسلمت فردّ عليّ السلام ، فأنشدته ما لي فيه من شعر فأمر لي بمائتي ألف درهم ، وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم ، وقال : ما ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء ، فانظر إلى هذا التيسير الجسيم ، بعد العسر العظيم وما أحسن ما قيل ! .

الأمن والخوف أياماً مداولة بين الأنام وبعد الضيق تتسع

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ليطلق أهل السجون ، ويقسم الأموال ضيق على يزيد بن أبي مسلم فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ، ولي يزيد بن أبي مسلم إفريقية ، وكان محمد بن يزيد والياً عليها ، فاستخفى محمد بن يزيد ، فطلبه يزيد بن أبي مسلم ، وشدّد في طلبه فأتى به إليه في شهر رمضان عند المغرب ، وكان في يد يزيد بن أبي مسلم عنقود عنب ، فقال لمحمد بن يزيد حين رآه يا محمد بن يزيد ، قال : نعم . قال : طالما سألت الله أن يمكّنني منك ، فقال : وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرني منك ، فقال : والله ما أجارك ولا أعاذك ، وإن سبقني ملك الموت إلى قبض روحك سبقته ، والله لا أكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك ، ثم أمر به فكتف ، ووضع في النطع ، وقام السيف فأقيمت الصلاة ، فوضع العنقود من يده ، وتقدم ليصلي ، وكان أهل إفريقية قد أجمعوا على قتله ، فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله ، وقيل لمحمد بن يزيد اذهب حيث شئت ، فنبهان من قتل الأمير وفك الأسير ! .

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول : أطلق القاتل ، فارتعت لذلك ، ودعوت بالشموع ، ونظرت في أوراق السجن ، وإذا ورقة إنسان ادّعى عليه بالقتل ، وأقر به ، فأمرت بإحضاره فلما رأيته ، وقد ارتاع ، فقلت له : إن صدقتني أطلقتك ، فحدّثني أنه كان هو وجماعة من أصحابه ، يرتكبون كل عزيمة وأن عجوزاً جاءت لهم بامرأة ، فلما صارت عندهم صاحت : الله الله ، وغشى عليها ، فلما أفاقت ، قالت : أنشدك

(١) الهَامُ: جمع هامة، وهي الرأس، وهامة القوم: سيدهم ورئيسهم، وجماعة الناس، ويقال: بنات الهام: أي مُخُ الدِّماغ.

الله في أمري ، فإن هذه العجوز غرتني ، وقالت : إن في هذه الدار نساء صالحات ، وأنا شريفة جدى رسول الله ﷺ وأمى فاطمة ، وأبى الحسين بن على فاحفظوهم فى ، فقممت دونها وناضلت عنها فاشتد على واحد من الجماعة وقال : لابد منها ، وقتلنى فقتلته ، وخلصت الجارية من يده ، فقالت : سترك الله كما سترتنى ، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً ، والسكين بيدي ، فأمسكونى وأتوا بى إليك ، وهذا أمرى ، فقال إسحاق : قد وهبتك لله ولرسوله فقال : وحق للذين وهبتى لهما لا أعود إلى معصية أبداً . وأمر الحجاج بإحضار رجل من السجن ، فلما حضر أمر بضرب عنقه ، فقال : أيها الأمير أخرجنى إلى غد قال : وأى فرج لك فى تأخير يوم واحد ؟ ثم أمر برده إلى السجن ، فسمعه الحجاج وهو راجع إلى السجن يقول :

عسى فرج يأتى به الله إنه له كل يوم فى خليفته أمر

فقال الحجاج : والله ما أخذه إلا من كتاب الله ، وهو قوله تعالى : ﴿ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] وأمر بإطلاقه . وقال بعض جلساء المعتمد : كنا بين يديه ليلة فحقق رأسه بالنعاس ، فقال : لا تبرحوا حتى أغفى سويعة ، فغفا ساعة ، ثم أفاق جزعاً مرعوباً ، وقال : امضوا إلى السجن ، واثبتوني بمنصور الجمال فجاءوا به ، فقال له : كم لك فى السجن ؟ قال : سنة ونصف ، قال : على ماذا ؟ قال : أنا جمال من أهل الموصل ، وضاق على الكسب ببلدى ، فأخذت جملى وتوجهت إلى بلد غير بلدى ، لأعمل عليه ، فوجدت جماعة من الجند ، قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال ، وهم مقدار عشرة أنفس وجدوهم يقطعون الطريق ، فدفع واحد منهم شيئاً للأعوان ، فأطلقوه وأمسكونى عوضه ، وأخذوا جملى فناشدتهم الله ، فأبوا وسجنت أنا والقوم ، فأطلق بعضهم ومات بعضهم ، وبقيت أنا فدفع له المعتمد خمسمائة دينار ، وأجرى له ثلاثين ديناراً فى كل شهر ، وقال : اجعلوه على جمالنا ، ثم قال : أتدرون ما سبب فعلى هذا ؟ قلنا : لا . قال : رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول : أطلق منصور الجمال من السجن ، وأحسن إليه . وأخذ الطاعون أهل بيت ، فسد بابه بفضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد ، ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبة ترضعه ، مع جرو لها فسبحان القادر على كل شيء لا إله غيره ولا معبود سواه . قال الشاعر :

إذا تضايق أمر فانتظر فرجا فأضيق الأمر أدناه إلى الفرج
وقال آخر :

فإن اعتكأ^(١) الليل يؤذن بالفجر فلا تجزعن إن أظلم الدهر مرة
وقال آخر :

لعمرك ما كل التعاطيل ضائرا ولا كل شغل فيه للمرء منفعة
إذا كانت الأرزاق فى القرب والنوى عليك سواء فاغتنم لذة الدعة
فإن ضقت فاصبر فرج الله ما ترى ألا رب ضيق فى عواقبه سعة
وقال الرياشى : ما اعترانى هم فأنشدت قول أبى العتاهية حيث قال :

هـى الأيام والغـيـر وأمر الله ينتظر
أتيسأس أن ترى فرجا فأين الله والقدر ؟!

إلا سرى عنى ، وهبت ريح الفرج . ويروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ، ومنع النوم فأرسل إلى قائد البحر ، وقال له : أنفذ الآن مركباً إلى إفريقية يأتونى بأخبارها فعمد القائد إلى مقدم مركب ، وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب فى موضعه ، كأنه لم يبرح ، فقال الملك لقائد البحر : أليس قد فعلت ما أمرتك به ، قال : نعم قد امتثلت أمرك وأنفذت مركباً فرجع بعد ساعة ، وسيحدثك مقدم المركب ، فأمر بإحضاره فجاء ومعه رجل ، فقال له الملك : ما منعك أن تذهب حيث أمرت ؟ قال : ذهبت بالمركب ، فبينما أنا فى جوف الليل ، والرجال يجدفون ، إذا بصوت

(١) اعتكأ الليل : اشتداد سواده .

يقول : يا الله يا الله ياغيث المستغيثين يكررها مراراً ، فلما استقر صوته في أسماعنا نادينا مراراً لبيك لبيك ، وهو ينادى يا الله يا الله ياغيث المستغيثين ، فجذفنا بالمركب نحو الصوت ، فلقينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب ، وسألناه عن حاله فقال : كنا مقلعين من إفريقية ، ففرقت سفيتنا منذ أيام ، وأشرفت على الموت وما زلت أصبح حتى أثنى الغوث من ناحيتكم فسبحان من أسهر سلطاناً ، وأرقه في قصره لغريق في البحر ، حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الوحدة فسبحانه لا إله غيره ، ولا معبود سواه ! .

وحكى سيدى أبو بكر انه : أخبرنى أبو الوليد الباجى عن أبى ذر قال : كنت أقرأ على الشيخ أبى حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءاً من الحديث فى حانوت رجل عطار ، فبينما أنا جالس معه فى الحانوت ، إذ جاءه رجل من الطوافين ممن يبيع العطر فى طبق يحمله على يده ، فدفع إليه عشرة دراهم ، وقال له : أعطنى بها أشياء سمّاها له من العطر ، فأعطاه إياها فأخذها فى طبقه ، وأراد أن يمضى ، فسقط الطبق من يده ، فانكب جميع ما فيه ، فبكى الطواف ، وجزع حتى رحمنه ، فقال أبو حفص لصاحب الحانوت : لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء : فقال : سمعاً وطاعة ، فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها ، ودفع له ما عدم منها ، وأقبل الشيخ على الطواف يصبره ويقول له : لا تجزع ، فأمر الدنيا أيسر من ذلك ، فقال الطواف : أيها الشيخ ليس جزعى لضياح ما ضاع ، لقد علم الله تعالى أنى كنت فى القافلة الفلانية ، فضاع لى هميان^(١) فيه أربعة آلاف دينار ، ومعها فصوص قيمتها كذلك ، فما جزعت لضياحها ، حيث كان لى غيرها من المال ، ولكن ولد لى ولد فى هذه الليلة ، فاحتجنا لأمه ما تحتاج النساء ، ولم يكن عندى غير هذه العشرة دراهم ، فخشيت أن أشتري بها حاجة النساء ، فأبقى بلا رأس مال ، وأنا قد صرت شيخاً كبيراً لا أقدر على التكبس ، فقلت فى نفسى : أشتري بها شيئاً من العطر ، فأطوف به صدر النهار فعسى أستفضل شيئاً أسدّ به رمق أهلى ويبقى رأس المال ، أتكسب به ، واشترت هذا العطر ، فحين انكب الطبق علمت أنه لم يبق لى إلا الفرار منهم ، فهذا الذى أوجب جزعى ! قال أبو حفص : وكان رجل من الجند جالساً إلى جانبى يستوعب الحديث فقال للشيخ أبى حفص : ياسيدى ، أريد أن تأتى بهذا الرجل إلى منزلى فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئاً قال : فدخلنا إلى منزله ، فأقبل على الطواف ، وقال له : عجب من جزعك فأعاد عليه القصة ، فقال له الجندى : وكنت فى تلك القافلة؟ قال : نعم وكان فيها فلان وفلان فعلم الجندى صحة قوله ، فقال : وما علامة الهميان ؟ وفى أى موضع سقط منك ؟ فوصف له المكان والعلامة . قال الجندى : إذا رأيته تعرفه ؟ قال : نعم ، فأخرج الجندى له همياناً ووضع بين يديه ، فحين رآه صاح ، وقال : هذا هميانى والله ، وعلامة صحة قولى أن فيه من الفصوص ما هو كيت وكيت ، ففتح الهميان فوجده كما ذكر ، فقال الجندى ! خذ مالك بارك الله لك فيه ، فقال الطواف : إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر فخذها وأنت فى حل منها ونفسى طيبة بذلك ، فقال الجندى : ما كنت لأخذ على أمانتى مالا ، وأبى أن يأخذ شيئاً ، ثم دفعها للطواف جميعها ، فأخذها ومضى ، ودخل الطواف وهو من الفقراء ، وخرج وهو من الأغنياء ، اللهم أغن فقرنا ، ويسر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

وحكى أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيأ الأطباء دواؤه ، ولم يجدوا له شفاء فدسوا على قتله ، وأرصدوا له رجلاً ، ومعه خنجر ، فلما كان فى بعض دهاليز القصر ، وثب عليه ذلك الرجل ، وضربه بالخنجر ، فجاءت الضربة أسفل خاصرته ، فلم تُخطِ المعاء الذى فيه القولنج ، فخرج ما فيه من الخلط فعاواه الله تعالى ، وبرئ أحسن ما كان .

وبضد هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشى قال : حدثنا القاضى أبو مروان الداراني بطرطوشة قال : نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك ، فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار واستوقدوا نارهم ، وسوّوا معيشتهم ، وكان فى تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع ، فقال رجل منهم : يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ، ولا يدخلن أحد فى هذه البقعة ، فأبوا إلا دخولها فاعتزلهم ذلك الرجل ، وبات خارجاً عنهم ، ولم يقرب

(١) الهميان : كيس للنفقة يشد فى الوسط .

ذلك المكان فأصبحوا في عافية ، وحملوا على دوابهم ، فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقضى حاجته ، فخر عليه الحائط فمات لوقته .

قال : وأخبرني أبو القاسم بن حبش بالموصل قال : لقد جرت في هذه الدار ، وأشار إلى دار هناك قصة عجيبة قلت : وما هي ؟ قال : كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخز ، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخز في خرج وحمله على حمارة ، وسار مع القافلة فلما نزلت القافلة أراد إنزال الخرج عن الحمارة ، فثقل عليه فأمر إنساناً هناك فأعانه على إنزاله ، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه فسأله عن أمره فأخبره أنه من أهل الكوفة ، وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد ، فقال له الرجل : كن رفيقاً آنس بك ، وتعيني على سفري ، ونفقتك ومؤنتك على ، فقال له الرجل : وأنا أيضاً أختار صحبتك ، وأرغب في مرافقتك ، فسار معه في سفره ، وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت ، فنزل الرفقة خارج المدينة ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم ، فقال التاجر لذلك الرجل : احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه ، ثم دخل المدينة ، وقضى جميع حوائجه ، ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه ، ورحلت الرفقة ، ولم ير أحداً ، فظن أنه لما رحلت الرفقة رحل ذلك الخادم معهم ، فلم يزل يسير ، ويجد السير في المشى إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم ، وتعب شديد ، فسألهم عن صاحبه ، فقالوا : ما رأيناه ، ولا جاء معنا ، ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته ، فكر الرجل راجعاً إلى تكريت ، وسأل عن الرجل فلم يجد له أثراً ولا سمع له خبراً فيئس منه ، ورجع إلى الموصل مسلوب المال ، فوصلها نهراً فقيراً جائعاً عرياناً مجهوداً فاستحى أن يدخلها نهراً فتشمت به الأعداء نعوذ بالله من شمتهم ، وخشى أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة ، فاستخفى إلى الليل ، ثم عاد إلى داره ، فطرق الباب فقيل له : من هذا ؟ قال : فلان يعنى نفسه ، فأظهروا له سروراً عظيماً ، وحاجة إليه ، وقالوا : الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة فإنك أخذت مالك معك ، وما تركت لنا نفقة كافية وأطلت سفرك ، واحتجنا ، وقد وضعت زوجتك اليوم ، والله ما وجدنا ما نشترى به شيئاً للنساء فأتنا بدقيق ودهن نسرج به علينا ، فلا سراج عندنا ، فلما سمع ذلك ازداد غمّاً على غمه ، وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم بذلك ، فأخذ وعاء للدهن ، ووعاء للدقيق ، وخرج إلى حانوت أمام داره ، وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والعسل ، ونحو ذلك ، وكان البياع أطفأ سراجة ، وأغلق حانوته ، ونام فناداه فعرفه ، فأجابه وشكر الله على سلامته ، فقال له : افتح حانوتك ، وأعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن ، فنزل البياع إلى حانوته ، وأوقد المصباح ووقف يزن له ما طلب ، فبينما هو كذلك إذ حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت ، فرأى خرجة الذي هرب به صاحبه فلم يملك نفسه ، أن وثب إليه والتزمه . وقال : يا عدو الله ، اتنى بمالى ، فقال له البياع : ما هذا يا فلان ؟ والله ما علمتك متعدياً ، وأنا أبداً ما جنيت عليك ، ولا على غيرك ، فما هذا الكلام ؟ قال : هذا خرجى هرب به خادم كان يخدمنى ، وأخذ حمارى وجميع مالى ، فقال البياع : والله ما لى علم غير أن رجلاً ورد على بعد العشاء ، واشترى منى عشاء ، وأعطانى هذا الخرج فجعلته في حانوتى وديعة إلى حين يصبح ، والحمارة في دار جارنا ، والرجل في المسجد نائم ، قال له : احمل معى الخرج وامض بنا إلى الرجل ، فرفع الخرج على عاتقه ، ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد ، فوكزه برجله ، فقام الرجل مرعوباً فقال : ما لك ؟ قال : أين مالى يا خائن ؟ قال : هاهو في خرجك ، فوالله ما أخذت منه ذرة ؟ قال : فأين الحمارة وألته ؟ قال : هو عند ذاك الرجل الذى معك ، فعفا عنه ، وخلي سبيله ، ومضى بخرجه إلى داره ، فوجد متاعه سالماً ، فوسع على أهله وأخبرهم بقصته ، فازداد سرورهم ، وفرحهم وتبركوا بذلك المولود ، فسبحان من لا يخيب من قصده ولا ينسى من ذكره .

ولنلحق بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في التهنتة والبشائر : كتب بعضهم إلى أخيه - وقد أتاه خبر استبشر به - سمعت عنك خبراً ساراً ، كتب فى الألواح وامتزج بالأرواح ، وعد فى جملة البشائر العظام ، وجرى فى العروق ، وتمشى فى العظام . وكان خالد بن عبد الله القسرى أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع ، وكان يقول له : إني لأرى فيك آثار الخلافة ، ولا تموت حتى تليها ، فقال له : إن أنا وليتها فلك العراق ، فلما ولى أتاه فقام بين الصفين ، وقال : يا أمير المؤمنين - أعزك الله بعزته - وأيدك بملائكته ، وبارك لك فيما ولاك ، وورعك فيما استرعاك ، وجعل

ولايتك على أهل الإسلام نعمة ، وعلى أهل الشرك نقمة ، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها ، وأنت لها أزين منها لك ، وما مثلها ومثلك إلا كما قال الأحوص هذه الأبيات :

وإن الدر زاد حُسْن وجوه كان للدر حسن وجهك زِينًا
وتزیدن أطيب الطيب طيبًا إن تمسسه أين مثلك أيننا
ودخل على المهدي أعرابي فقال له : فيم جئت ؟ قال : أتيتك برسالة ، قال : هاتها ، قال : أتاني آت في منامي فقال : انت أمير المؤمنين ؟ فأبلغه هذه الأبيات :

لكم إرث الخلافة من قريش تزف إليكمو أبدأ عروسا
إلى هارون تُهدى بعد موسى تميس^(١) ومالها أن لا تميسا
فقال المهدي : يا غلام على بالجواهر فحشا فأه حتى كاد ينشق ، ثم قال : اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها في بخانق^(٢) صبياننا وقال إبراهيم الموصلي في تهنئة الرشيد بالخلافة .

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالاً بملكه فهارون واليها ويحيى وزيرها
وغناه بهما من وراء الحجاب ، فوصله بمائة ألف دينار ، ويحيى بخمسين ألفاً . ودخل عطاء بن أبي صيفى على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهنئة والتعزية فقال : رزئت^(٣) خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، قضى معاوية نجه ، فغفر الله ذنبه ، ووليت الرياسة ، وكنت أحق بالسياسة ، فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، واشكر الله على أعظم العطية . ومرَّ عمر بن هبيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقعة فإذا امرأة من بنى سليم على سطح لها تحادث جارة لها ليلا وهي تقول : لا والذي أسأله أن يخلص عمر بن هبيرة مما هو فيه ما كان كذا ؛ فرمى إليها بضرة فيها مائة دينار وقال : قد خلع الله عمر بن هبيرة ، فطبى نفساً ، وقرى عينا . والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الثامن والخمسون

في ذكر العبيد والإماء والخدم

❁ وفيه فصلان:

الفصل الأول: في مدح العبيد والإماء والاستيلاء بهم خيراً

عن علي^(١) قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يدخل الجنة شهيد ، وعبد أحسن عبادة ربه ، ونصح لسيده »^(٢) . وعن ابن عمر^(٣) رفعه : « إن العبد إذا نصح لسيده ، وأحسن عبادة ربه ، فله أجره مرتين »^(٤) . وكان زيد بن حارثة خادماً لخديجة^(٥) اشترى لها يسوق عكاظ فوهبته لرسول الله ﷺ فجاءه أبوه يريد شراءه منه ، فقال رسول الله ﷺ : « إن رضيت بذلك

(١) تميس: ماس فلان وتميس: أي تبخر واختال، فهو مائس وميَّاس.

(٢) البخانق: جمع بُخْنَق وهو البُرْثَس الصغير .

(٣) رُزئت: رزأته زريئة، أي أصابته مصيبة.

(٤) « أول من يدخل الجنة ... » إلخ . عزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » . ٢٥١٠٨ ، للطبراني في الأوسط ، والخطيب في تاريخه عن أبي هريرة .

(٥) « إن العبد إذا نصح لسيده ... » أخرجه البخاري [٢٥٤٦] ، ومسلم « ١٦٦٤ » ، وأبو داود [٥١٦٩] .

فعلت . فستل زيد ؟ فقال : ذل الرق مع صحبة رسول الله ﷺ أحب إلي من عز الحرية مع مفارقتة ! فقال رسول الله ﷺ : « إذا اختارنا اخترناه » فأعتقه وزوجه أم أيمن ، وبعدها زينب بنت جحش ^(١) وعن علي عليه السلام قال : كان آخر كلام رسول الله ﷺ : « أوصيكم بالصلاة ، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » ^(٢) . وعن أبي هريرة عليه السلام : « لا يقولن أحدكم : عبيدي وأمتي كلكم عبيد الله ، وكل نسايتكم إماء الله ، ولكن ليقل : غلامي وجاريتي ، وفناتي وفناتي » ^(٣) . وعن ابن مسعود الأنصاري قال : ضربت غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً : اعلم أبا مسعود : « أن الله أقدر عليك منك عليه » ، فالتفت فإذا هو النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : « أما إنك لو لم تفعل لفمحتك النار » ^(٤) . وروى عن ابن عمر عليه السلام قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كم تغفون عن الخادم ؟ ثم أعاد عليه ، فصمت ، فلما كانت الثالثة قال له : « أغفوا عنه كل يوم سبعين مرة » ^(٥) . وعن أبي هريرة عليه السلام قال : حدثني أبو القاسم نبي التوبة عليه السلام : « من قذف مملوكه وهو بريء مما قال ، جلد له يوم القيامة حداً » ^(٦) . وقيل : أراد رجل بيع جاريته فبكت ، فقال لها : ما لك ؟ فقالت : لو ملكت منك ما ملكت مني ما أخرجتك من يدي ! فأعتقها وتزوجها . وقال أبو اليقظان : إن قريشاً لم تكن ترغب في أمهات الأولاد ، حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم : علي بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، وذلك أن عمر عليه السلام أتى ببنات يزيد جرد بن شهريار بن كسرى مسيبات ، فأراد بيعهن ، فأعطاهن للدلال ، ينادي عليهن بالسوق ، فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمه شديدة على وجهه ، فصاح واعمره ، وشكا إليه فدعاهن عمر ، وأراد أن يضربهن بالدرة فقال علي عليه السلام يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ قال : « أكرموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر » ^(٧) . إن بنات الملوك لا يبعن ولكن قومهن فقوهن وأعطاهن ثمانهن وقسمهن بين الحسين بن علي ، ومحمد بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمر ، فولدن هؤلاء الثلاثة . وقيل : استبق بنو عبد الملك فسبقوا مسلمة ، وكان ابن أمة فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدى :

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم هجيتا لكم يوم الزمان فيدرك
فتمثر كفاه ، ويسقط سوطه ويخدر ساقاه ، فما يتحرك
وهل يستوى المرآن : هذا ابن حرة وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك ؟
فقال له مسلمة : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي ، ولكن كما قال ابن المعمر هذه الأبيات :

فما أنكحونا طائعين بناتهم ولكن خطبناهم بأرماحنا قسراً
فما زادنا فيها السباء مذلة ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قذراً
وكم قد ترى فينا من ابن سبية إذا لقي الأبطال يطعنهم شزراً
ويأخذ ريان الطعان بكفه فيوردها بيضاً ويصدرها حمراً
فقبل رأسه وعينه ، وقال : أحسنت يا بني ، ذاك والله أنت ، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم .

الفصل الثاني : في ذم العبيد والخدم

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بشن المال في آخر الزمان المماليك » ^(٨) . وقال مجاهد : إذا كثرت الخدم ، كثرت الشياطين وقال لقمان لابنه : لا تأمن امرأة على سير ، ولا تطأ خادماً تريدها للخدمة . ووصف بعضهم عبداً فقال : يأكل فارهاً ، ويعمل كارها ، ويبغض قوما ، ويحب نوما . وقيل لبعضهم : ألك غلام ؟ فقال :

- (١) « وكان زيد بن حارثة خادماً لخديجة » - إلخ . أورده الهيثمي في « مجمع الزوائد » . [٢٧٤/٩] بنحوه ، وقال : « رواه الطبراني وإسناده حسن » .
- (٢) وعن علي عليه السلام كان آخر كلام الرسول ﷺ .. إلخ . عزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » برقم [١٨٨٢٧] ، لابن عساكر .
- (٣) لا يقولن أحدكم عبيدي وأمتي .. إلخ . أخرجه مسلم [٢٢٤٩] .
- (٤) وعن أبي مسعود قال : ضربت غلاماً لي .. إلخ . أخرجه مسلم برقم [٣٥/١٦٥٩] .
- (٥) وروى عن ابن عمر قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ » .. إلخ . أخرجه أبو داود برقم [٥١٦٤] .
- (٦) وعن أبي هريرة قال : حدثني أبو القاسم « من قذف مملوكه » .. إلخ . صحيح : وأخرجه قريباً من هذا اللفظ البخاري [٦٨٥٨] ، ومسلم [١٦٦٠] ، وأبو داود [٥١٦٥] ، والترمذي [١٩٤٧] .
- (٧) « أكرموا عزيز قوم ذل » .. إلخ . لم أعتد إليه .
- (٨) لم أقف عليه .

ومالى غلام فأدعوه به سوى من أبوه أخو عمتى !
وقال أكثم : الحر حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ألسته الدر . ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه ، وله جارية ،
فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة ، فقال :

إذا لم يكن فى منزل المرء حرة رأى خللا فيما تولى الولائد
فلا يتخذ منهم حر قعيدة فهن لعمرُ الله بنس القعائدُ

وكان لرجل غلام من أكسل الناس ، فأرسله يوماً يشتري له عبداً وتينا فأبطأ عليه حتى عيل صبره ، ثم جاء بأحدهما
فضربه ، وقال : ينبغي لك إذا استقضيتك حاجة أن تقضى حاجتين ، فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب ،
فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر ، فسأله عنه ، فقال أما ضربتني ، وأمرتني أن أقضى حاجتين فى حاجة ؟!
فجئتكَ بالطبيب ، فإن شفاكَ الله تعالى وإلا حفر لك هذا قبرك ، فهذا طبيب ، وهذا حفار ! وقيل : كان عمرو
الأعجمي يلى حكم السند ، فكتب إلى موسى الهادي : إن رجلاً من أشرف أهل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة
اشتري غلاماً أسود ، فرباه وتيناه ، فلما كبر وشب ، اشتد به هوى مولاته ، فراودها عن نفسها فأجابته ، فدخل مولاه
يوماً على غفلة منه من حيث لا يعلم ، فإذا هو على صدر مولاته ، فعمد إليه فجب ذكره ، وتركه يتشحط فى دمه ، ثم
أدركته عليه رقة وندم على ذلك ، فعالجه إلى أن برئ من علته ، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثاره من مولاه ،
ويدبر عليها أمراً يكون فيه شفاء غليله ، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل ، والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر ، فغاب
الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبين ، فصعد بهما على ذروة سطح عال فنصبهما هناك ، وجعل
يعلمهما بالمطعم مرة ، وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه ، فرفع رأسه فرأى ابنيه فى شاق مع الغلام ، فقال : ويلك
عرضت ابني للموت ، قال : أجل والله الذى لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذكرك مثل ما جبتني لأرمين بهما ،
فقال : الله الله يا ولدى فى تربيتي لك ، قال : دع هذا عنك فوالله ما هى إلا نفسى ، وإنى لا أسمح بها فى شربة ماء ،
فجعل يكرر عليه ، ويتضرع له وهو لا يقبل ذلك ، ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من ذلك الشاهق ، فقال
أبوهما : ويلك ، فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أردت ، ثم أسرع وأخذ مدية ، فجب نفسه وهو يراه فلما رأى
الأسود ذلك ، رمى الصبين من ذلك الشاهق فتقطعا ، وقال : إن جبك لنفسك ثأرى ، وقتل أولادك زيادة فيه ، فأخذ
الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي ، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام ، وقال : ما سمعت
بمثل هذا قط ، وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود ، فما ترى أردأ من العبيد ، ولا أقل خيراً منهم ، وأكثرهم رداءةً
المولدون ، لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكروه كأن لم ير منك شيئاً وكلما أحسنت إليه تمرد
وإن أسأت إليه خضع وذل ، وقد جربت أنا ذلك كثيراً وما أحسن ما قيل :

إذا أنت أحرمت الكريم ملكته وإن أنت أحرمت اللئيم تمرأدا

وقيل : إن العبد إذا شبع فسق ، وإن جاع سرق وكان جدى لأمى يقول ، شر المال تربية العبيد ، والمولدون منهم
الأم من الزوج ، وأردأ ؛ لأن المولد لا يعرف له أباً وربما يعرف الزنجى أبويه ويقال فى المولد : بغل لأنه مجنس ،
والبغل تكون أمه فرساً وأبوه حمازاً وبالعكس ، فلا تثق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير ، وإن كان فذاك نادر ، والنادر
لا حكم له ، وأنا أستغفر الله العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم .



الباب التاسع والضمسون

في أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر
غرائب من عوائدهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أوابد^(١) وعوائد كانوا يرونها فضلا ، وقد دل على بعضها القرآن العظيم ، وأكذب الله دعاويهم فيها . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا صَيْلَةٍ وَلَا حَاسِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَاتَّكَبُوا بِأَكْثَرِهِمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣] قال أهل اللغة : البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن ، وكان الأخير ذكراً بحروا أذنفاً أي : شقوا أذنفاً ، وامتنعوا من ذكاتها ، ولا تمنع من ماء ولا مرعى . وكان الرجل إذا أعتق عبداً وقال : هو سائبة فلا عقد بينهما ولا ميراث .

وأما الوصيلة ففي الغنم كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم ، وإن ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم .

وأما الحام فالذكر من الإبل كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا : حمى ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْفَرْسُ وَالْبَيْسُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ يَجُوسُ مِنَ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠] . فالخمر ما خامر العقل ، ومنه سميت الخمر خمراً ، والميسر القمار ، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان واحداً نُصِب ، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها أمرني ربي ، وعلى بعضها نهاني ربي ، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً يهتم به ضرب بتلك القداح ، فإذا خرج الأمر مضى لحاجته ، وإذا خرج النهي لم يمش .

ومن أوابدهم وأد البنات أي : دفنهن أحياء ، كانوا في الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأداها ، وإذا بشر بها ضاق صدره ، وكظم وجهه وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء: ٣١] . وقد قيل : إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار ، وبمكة جبل يقال له : أبو دلامة كانت قريش تد فيه البنات . وقيل : إن صعصة جد الفرزدق كان يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بنتا قتي عشرين رجلاً . وفاخر الفرزدق رجلاً عند بعض خلفاء بني أمية فقال : أنا ابن محبي الموتى ، فأكرم الرجل ذلك ، فقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢] .

وأما الرفادة في الحج : فكانت خُرْجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم إلى قصى ، فيصنع به طعاماً للحاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وذلك أن قصياً فرضه على قريش ، فقال لهم حين أمرهم به : يامعشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيوف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحاج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم ، فيدفعونه إليهم .

وقيل : أول من أقام الرفادة عبد المطلب ، وهو الذي حفر بئر زمزم ، وكانت مطمومة ، واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر ، وغير ذلك من الحلى ، وسبعة أسياف ، وخمسة دروع سوابغ ، فضرب من الأسياف باب الكعبة ، وجعل أحد الغزالين الذهب ، صفائح الذهب ، وجعل الآخر في الكعبة .

واعلم : وفقني الله وإياك أنه لم يسمع بعجب أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمي ، وابن سماك الأسدي الذين ضرب بهم المثل . فأما سعيد بن زرارة . فقيل : إنه مرت به امرأة فقالت له : يا عبد الله ، كيف الطريق إلى مكان كذا ؟ فقال لها : يا هَتَّاهُ^(٢) مثلى يكون من عبيد الله . وأما عبد الله بن زياد التميمي فقيل : إنه خطب

(١) الأوابد : جمع أبدة ، والمراد بها هنا الأمر العجيب يستغرب له . وأوابد الكلام : غرائب وعجائبه .

(٢) الهتة : مؤنث الهن ، والهن : الشيء ، وكناية عن الشيء يستعجب ذكره .

الناس بالبصرة ، فأحسن وأوجز ، فنودي من نواحي المسجد : كثر الله فينا مثلك ، فقال : لقد كلفتم الله شططا ! وأما ابن سمالك فإنه أضل راحلته ، فالتمسها ، فلم توجد ، فقال : والله لئن لم يرّد راحلتي عليّ لأصليت له أبداً ! فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر ، فقيل له : قد رد الله عليك راحلتك فصل فقال : إنما كانت يميني يميناً قصداً ! فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر ، وصاروا حديثاً مستبشعاً ، ومثلاً بين العالمين مستشعاً ، نعوذ بالله من الخذلان المؤدى إلى النيران ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

حكى : عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قيل له : كيف وجدت منزلك بالعراق ؟ قال : خير منزل ، إن الله أظفرني بأناس بلغني الأمل فيهم ، وأعانني على الانتقام منهم ، فكنت أتقرب إليهم بدمائهم ، فقيل له من هم ؟ فذكر هؤلاء الثلاثة ، وذكر حديثهم ، ولا محالة أنها من محاسن الحجاج وإن قلت في جنب سيئاته والله تعالى أعلم .

ذكر أديان العرب في الجاهلية : كانت النصرانية في ربيعة وغسان ، وبعض قضاة ، وكانت اليهودية في نمر ، وبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكندة ، وكانت المجوسية في بني تميم ، منهم زرارة بن عدى ، وابنه على ، وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرب بن حابس ، كان مجوسياً ، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة ، وكانت بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنما من حنيس ^(١) ، فعبدوه دهرأ طويلاً ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه ، وقد قيل : إن أول من غير الحنيفة عمرو بن لحي ، أبو خزاعة ، وهو أنه رحل إلى الشام ، فرأى العماليق ، يعبدون الأصنام ، فأعجبه ذلك ، فقال : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها ، قالوا : هذه أصنام نستمطرها ^(٢) فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال : أعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنماً يقال له : هبل ، فقدم به مكة ، فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

وقيل : إن أول ما كانت عبادة الأحجار في بني إسماعيل ، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن ^(٣) من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم ، وتفرقوا في البلاد ، وما من أحد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسّنوه من الحجارة ، ثم خلفت الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال ، وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له : هبل ، وأيضاً اتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم ، فيتحرون عندها ، ويطعمون ، وكان إساف ، ونائلة رجلاً وامراً ، فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين ، واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه فإذا أراد الرجل سفراً تمسح به حين يركب ، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله ، واتخذت العرب الأصنام وانهمكوا على عبادتها ، وكانت لقريش وبنى كنانة العزى ، وكان حجابها بنى شيبه ، وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان حجابها بنى مغيث من ثقيف ، وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم .

وأما يغوث ويعوق ونسر فقليل : إنهم كانوا أسماء أولاد آدم ^(٤) وكانوا أتقياء عبّاداً فمات أحدهم ، فحزنوا عليه حزناً شديداً فجاءهم الشيطان ، وحسّن لهم أن يصوروا صورته في قبلة مسجدهم ، ليذكروه إذا نظروه ، فكرهوا ذلك ، فقال : اجعلوه في مؤخر المسجد ، ففعلوا وصوّروه من صُفر ورصاص ثم مات آخر ، ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم ، فصوروهم هناك ، وأقام من بعدهم على ذلك ، إلى أن تركوا الدين ، وحسّن لهم الشيطان عبادة شيء غير الله ، فقالوا له : من نعبد ؟ قال : ألّهتكم المصورة في مصلاككم ، فعبدوها إلى أن بعث الله نوحاً ^(٥) فنهاهم عن عبادتها ، فقالوا : ما أخبر الله عنهم : ^(٦) لَا تَدْرُكُ إِلَهَكُمْ وَلَا تَذَرُّنَّ وَاً وَلَا سَوَاعَاً ^(٧) [نوح: ٢٣] الآية . ولما عم الطوفان الأرض طمّتها وعلا عليها التراب زماناً طويلاً فأخرجها الشيطان لمشركي العرب ، فعبدوها ، وذكر الواحدى في الوسيط : أن هذه أسماء قوم صالحين ، كانوا بين آدم ونوح ^(٨) فسوّل الشيطان لقومهم بعد موتهم ، أن يصوّروا صورهم ليكون أنشط لهم ، وأشوق للعبادة ، كما رأوهم ففعلوا ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال ، فحسن لهم

(٢) نستمطرها : نطلب منها أن تمطرنا .

(١) الحيس : تمر واقط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثريد .

(٣) يظعن : يسافر ويتنقل .

عبادتها ، وإن من سبقهم من قومهم عبدوها ، فسموها بأسمائهم . وقال الواقدي : كان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر . والله تعالى أعلم أى ذلك كان !! .

ذكر أوابدهم : الرتم : شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه ، فيعقد غصناً منها ، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحل قال : قد خانتني امرأتى ، وإن وجده على حالته قال : لم تخنى ! .
الرتيمة : ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره ، وسدوا عينيها حتى تموت ، يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها .

التمعية والتفقتة : كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً قلع عين الفحل ، يقولون : إن ذلك يدفع عنها العين ، فإذا زادت على الألف فقأ عينه الأخرى .

العز : داء يصيب الإبل شبه الجرب كانوا يكوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبرئ داء العز .

ضرب الثور عن البقر : كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور ، يزعمون أن الجن يركبون الثيران ، فيصدون البقر عن الشرب .

الهامة : كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر ، يسمى الهامة ، وهو كالبومة فلا يزال يصيح على قبره ، اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره . وكان للعرب مذاهب في الجاهلية في النفس ، وتنازع في كيفياتها فمنهم من زعم أن النفس هي الدم ، وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم الإنسان الذى منه نفسه ، وقالوا : إن الميت لا يوجد فيه الدم ، وإنما يوجد في الحياة مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حى فيه حرارة ورطوبة فإذا مات ذهب حرارته ، وحل به اليبس والبرودة . وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل ولا يزال متصوراً في صورة الطائر ، يصرخ على قبره مستوحشاً له ، وفي ذلك يقول بعضهم :

سُلط الموت والمنون عليهم فلهم فى صدى المقابر هام

ثم جاء الإسلام ، والعرب ترى صحة أمر الهام ، حتى قال النبي ﷺ : « لَا عَذْوَى وَلَا طَبِيرَةَ وَلَا صَفْرَ وَلَا هَامَ » ^(١) . وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيراً وكبيراً ، حتى يصير كضرب من البوم ، ويتوحش ويصرخ ، ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ^(٢) ، ومصارع القتلى ، ويزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره ، فتخبر الميت .

الصفير : زعموا إن الإنسان إذا جاع عض على شرسوفه ^(٣) الصفير ، وهى حية تكون في البطن .

تنثية الضربة : زعموا أن الحية تموت في أول ضربة فإذا ثبت عاشت .

الغيلان والتغول : للعرب في الغيلان والتغول أخبار وأقاويل يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات في أنواع الصور ، فيخاطبونها وتخاطبهم ، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشثوم ، وأنه خرج منفرداً لم يستأنس ، وتوحش وطلب القفار ، وهو يشبه الإنسان والبهيمة ، ويتراءى لبعض السقار في أوقات الخلوات ، وفي الليل . وحكى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رآه في سفره إلى الشام ، فضربه بالسيف .

وقال الجاحظ : الغول كل شئ يتعرض للسيارة ، ويتلوى في ضروب من الصور والياب ، وفيه خلاف ، وقالوا : إنه ذكر وأنثى ، إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى .

وأما القُطْرَبُ في قولهم : فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم ، فيظهر في أكناف اليمن ، وصعيد مصر في أعاليه ، وربما أنه يلحق الإنسان فينكحه ، فيدود دبره فيموت ، وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحي التي

(١) لا عذوى ولا طيرة إلخ . قال العجلوني : رواء الشيخان عن أنس وأبي هريرة .

(٢) النواويس : جمع ناووس ، وهو صندوق يضع فيه النصارى جثة الميت . ومقبرة النصارى .

(٣) الشرسوف : الطرف اللين من الضلع مما يلي البطن .

ذكرناها : أمكنوح هو أو مذعور ؟ فإن كان قد نكحه أسوامنه ، وإن كان قد ذعر سكن روعه ، وشجع قلبه ، وإذا رآه الإنسان وقع مغشياً عليه ، ومنهم من يظهر له فلا يكثرث به لشهامته وثبات قلبه .

ذكر الهواتف : أما الهواتف فقد كانت كثرت في العرب ، وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ ، وأن من حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع ، وجسم غير مرئي .

وأما بكاء المقتول : فكانت النساء لا يكيين المقتول حتى يؤخذ بثأره ، فإذا أخذ بثأره بكينه .

وأما رمي السن : فكانوا يزعمون أن الغلام إذا أثغر فرمى سنه في عين الشمس بسببته ، وإبهامه وقال : أبدلني بأحسن منها فإنه يأمن على أسنانه العوج والفلج .

وأما خضاب النحر : فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد ، فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة .

وأما نصب الراية : فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها .

وأما جز النواصي : فكانوا إذا أسروا رجلاً ومنوا عليه ، وأطلقوه جزوا ناصيته .

وأما الالتفات : فكانوا يزعمون أن من خرج في سفر ، والتفت وراءه لم يتم سفره ، فإن التفت تطيروا له .

وكانوا يقولون : من علق كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر ، وذلك أن الجن تهرب من الأرنب لأنها تحيض ، وليست من مطايا الجن .

ويزعمون : أن المرأة إذا أحببت رجلاً وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما . ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ، ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباءها ، ويزعمون أن الحرقوص ، وهو دويبة أكبر من البرغوث ، تدخل في فروج الأبقار فتفتضهن . ويزعمون أن الرجل إذا ضل قلب ثيابه اهتدى . وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت وذكر اسم أمها فإنها تسكن . وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكيها وشرب ما يخرج منها صبر وتسمى السلوان . ونكاح المقت من سننهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فألقى ثوبه على امرأة أبيه ، فورث نكاحها فإن لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض إخوته بمهر جديد ، فكانوا يرثون النكاح ، كما يرثون المال ، ولهم حكايات عجيبة ، وأحوال غريبة ، والله تعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب الستون

في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك

أما الكهانة^(١) : فكانت فاشية في الجاهلية حتى جاء الإسلام فلم يسمع فيه بكاهن ، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها ، وللكهنة أخبار :

فمنهم سطيح ورد عليه عبد المسيح ، وهو يعالج الموت ، وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله ، وذلك أن الموبدان ، رأى إيلا صعباً تقود خيلاً عرباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها ، فلما أصبح ، أعلم كسرى بذلك ، فتصبر كسرى تشجعاً ، ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ، ورؤساء مملكته فلبس تاجه ، وقعد على سريرته ، وجمع وزراءه ، ورؤساء

(١) الكهانة : الإخبار بالغيب ، والكاهن كل من يتعاطى علماً دقيقاً ، ومن العرب من كان يسمى المنجم والطبيب كاهناً . والكهانة : حرفة الكاهن . والكهنوت : وظيفة الكاهن .

مملكته ، فأخبرهم بالخبر ، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران ، وارتجاس^(١) الإيوان ، فازدادوا غما على غمهم ، فكتب كسرى كتابا إلى النعمان بن المنذر : أما بعد فوجه إلى رجلا عالما بما أريد أن أسأله عنه ، فوجه إليه عبد المسيح الغساني فقال له كسرى : أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال : ليخبرني الملك فإن كان عندي علم منه ، وإلا أخبرته بمن يعلمه به ، فأخبره بما رآه الموبذان ، فقال : علم ذلك عند كاهن يسكن مشارف الشام ، يقال له : سطيج قال : فأتته فأسأله عما سألتك ، وأتني بالجواب ، فركب عبد المسيح ، وتوجه إلى سطيج ، فوجده قد أشرف على الضريح ، فسلم عليه وحياه ، ولم يخبره عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعرا يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم ، ولم يذكر له السبب ، فرفع رأسه وقال : عبد المسيح ، على جمل يسبح ، إلى سطيج ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلا صعباً ، تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت الدجلة ، وانتشرت في بلادها ، يا عبد المسيح ، إذا كثرت التلاوة ، وفاض وادي سماوه ، وغاضت بحيرة ساوه ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيج شاماً ، ولا العجم لعبد المسيح مقاماً ، يرتفع أمر العرب ، وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب ، يملك منهم ملوك وملكات ، بعدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قضى سطيج مكانه فسار عبد المسيح إلى راحلته ، وعاد فأخبر كسرى بذلك .

وحكى أن ربيعة بن مضر اللخمي رأى مناماً هالاً ، فأراد تفسيره ، فقال له أهل مملكته : ما يفسره لك إلا شقٌّ ، وسطيج فأحضرهما وقال لسطيج : إني رأيت مناماً هالاً فإن عرفته فقد أصبت تفسيره ، فقال : رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة^(٢) ، فأكلت منها كل ذات جمجمة ، فقال له الملك : ما أخطأت شيئاً فما تفسيره ، قال : ليهبطن بأرضك الحبش ، وتملك بين أبيين إلى جرش . فقال الملك : إن هذا لغائظٌ موجه ، فمتى هو كائن ؟ أفي زمانى أم بعده ؟ قال : بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين ! تمضى من السنين ، ثم يقتتلون بها أجمعين ، ويخرجون منها هارين ! قال : ومن ذا الذي يملك بعدهم ! قال أراه ذا يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فما يترك منهم أحداً باليمن ، قال الملك : فيدوم ذلك أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي من العلى ، قال : ومن يكون هذا النبي ، قال : من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون في قومه الملك إلى آخر الدهر ، قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ويشقى المسيئون ، قال : أو حق ما تخبر ، قال : والشفق والقمر إذا اتسقا ، إن ما أنبأتك به لحق ، ثم دعا بشق فقال : مثل ما قال سطيج ! . ومن ذلك ما حكى أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفارقة ، فقال له هاشم : أفاخرك على خمسين ناقة سود الحديق ، تنحر بمكة ، فرضى أمية بذلك ، وجعلا بينهما الخزاعي الكاهن حكماً ، فخبثوا له شيئاً ، وخرجوا إليه ، ومعهما جماعة من قومهما ، فقالوا : قد خبنا لك خبثاً فإن علمته تحاكمنا إليك ، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك فقال : لقد خبأتكم لى كيت وكيت ، قالوا : صدقت ، احكم بين هاشم بن عبد مناف ، وبين أمية بن عبد شمس أيهما أشرف بيتاً ونسباً ونفساً ، فقال : والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجوّ من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ، ولأمية أواخر . فأخذ هاشم الإبل ونحرها ، وأطعمها من حضر ، وخرج أمية إلى الشام ، وأقام بها عشر سنين ، ويقال : إنها أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية .

وحكى أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة ، وكان الفاكه من فتيان قريش ، وكان له بيت ضيافة خارجاً عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن ، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند ، ثم نهض لحاجة فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رأى هنداً رجع هارباً فلما نظره الفاكه ، دخل عليها فضربها برجله ، وقال لها : من هذا الذي خرج من عندك ؟ قالت : ما رأيت أحداً قط ، وما انتبهت حتى أنبهتني ! قال : فارجمي إلى بيت أبيك ، وتكلم الناس فيها ، فقال أبوها : يابنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام ، فإن يكن الرجل صادقاً دسست عليه من يقتله لينقطع كلام الناس ، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن ، فقالت له : لا والله ما هو على بصادق ، فقال له : يافاكه ، إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم ، فحاكمني إلى بعض كهان اليمن ، فخرج الفاكه في جماعة من بني

(١) ارتجس الإيوان: أي رجف، وفي حديث سطيج «لما ولد ارتجس إيوان كسرى».

(٢) أرض تهمة: منخفضة متصوبة إلى البحر.

مخزوم ، وخرج أبوها في جماعة من بني عبد مناف ، ومعهم هند ونسوة فلما شارفوا البلاد قالوا : غدا نرد على هذا الرجل ، فتغيرت حالة هند ، فقال لها أبوها إني أرى حالك قد تغير ، وما هذا إلا لمكروه عندك ، فقالت : لا والله ، ولكن أعرف أنكم تأتون بشرا يخطئ ويصيب ، ولا آمنه أن يسمني بسيما تكون علي سبة ، فقال لها : لا تخشى فسوف أختبره ، فصفر لفرسه حتى أدلى ، ثم أدخل في إحليله حبة حنطة ، وربطه ، فلما أصبحوا قدموا على الرجل ، فأكرمهم ، ونحر لهم ، فلما تغدوا قال له عتبة : قد جئتلك في أمر ، وقد خباناً لك خبيثة نخبرك بها ، قال خبانم لى ثمرة في كمره ، قال : إني أريد أبين من هذا ! قال : حبة بر ، في إحليل مهر ، قال : فانظر في أمر هؤلاء النسوة ، فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ، ويضرب يده على كتفها ويقول لها : انهضى ، حتى بلغ هنداً فقال : انهضى غير رسحاء^(١) ولا زانية ! وستلدين ملكاً اسمه معاوية ، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده ، وقالت : إليك عني ، فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان ، فولدت منه أمير المؤمنين معاوية !

وأما القيافة : فهي على ضربين : قيافة البشر ، وقيافة الأثر ؛ فأما قيافة البشر ، فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان ، وتختص بقوم من العرب يقال لهم : بنو مدلج ، يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفراً فيلحقه بأحدهم .

وحكى عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكباً على بعيره ، يقوده غلام أسود فمر بهؤلاء القبيلة ، فنظر إليه واحد منهم وقال : ما أشبه الراكب بالقائد ! قال ولد التاجر : فوقع في نفسي من ذلك شيء ، فلما رجعت إلى أمي ذكرت لها القصة فقالت : يا ولدي إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال ، وليس له ولد ، فخشيت أن يفوتنا ماله ، فمكنت هذا الغلام من نفسي ، فحملت بك ، ولولا أن هذا شيء ستعلمه غداً في الدار الآخرة ، لما أعلمتك به في الدنيا .

وأما قيافة الأثر : فالاستدلال بالأقدام والحوافر والخفاف ، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل ، إذا هرب منهم هارب ، أو دخل عليهم سارق ، تتبعوا آثار قدمه حتى يظفروا به ، ومن العجب أنهم يعرفون قدم الشاب من الشيخ ، والمرأة من الرجل ، والبكر من الثيب ، والغريب من المستوطن ، ويذكر أن في قطية ، وثغر البرلس أقواماً بهذه الصفة ، وقد وقعت من قريش حين خرج النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد ، وأحجار صم ، ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام ، فحجبه الله تعالى عن نبيه ﷺ ، بما كان من نسج العنكبوت ، وما لحق القائف من الحيرة ، وقوله : إلى ههنا انتهت الأقدام هذا ومعهم الجماعة من قريش ، وأبصارهم سليمة ، ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الناس فيها يعني في علمها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى . وقيل : إن القيافة لبني مدلج في أحياء مضر ، واختلف رجلان من القافة في أمر بعير وهما بين مكة ومنى ؛ فقال أحدهما : هو جمل ، وقال الآخر هي ناقة ؟ وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر ، فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه أهو ذا ؟ قال : نعم . فوجداه خُشِي فأصابا جميعاً . ومنهم من كان يخط الرمل في الأرض ، ويقول ، فيوافق قوله ما يأتي بعد ، وقال رجل : شردت لى إبل فجئت إلى خراش ، فسألته عنها ، فأمرته أن تخط لى في الأرض ، فخطت ، ثم قامت ، فضحك إلى خراش ، ثم قال : أندري قيامها لأي شيء قلت : لا . قال : قد علمت أنك تجد إبلك ، وتزوجها ، فاستحيت ، ثم خرجت ، فوجدت إبلى ثم تزوجتها .

وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعي غازين ، فمرّا بامرأة وهي تخط للناس في الأرض ، فضحك منها مالك هزواً وقال : ما هذا؟ ، فقالت : أما والله لا تخرجن من سجستان حتى تموت ، ويتزوج عمرو هذا زوجتك ، فكان كما ذكرت .

وأما الزجر والعيافة^(٢) : فأحسنه ما روى أن كسرى أبرويز بعث إلى النبي ﷺ حين بعث زاجراً ومصوراً ، فقال للزاجر : انظر ما ترى في طريقك وعنده ، وقال للمصور : اتنى بصورته ، فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ ،

(١) الرِّسَاء : المرأة الخفيفة العجز .

(٢) الزجر والعيافة : يقال : زجر الطير آثارها ليتيمن يسوقها ، أو يشاءم ببروحها . وكذلك العيافة كما جاء في المعجم الوسيط . أما العيافة : فهي حرفة العزاف وهو المنجم وطبيب العرب والكاهن .

(٣) بعث كسرى إلى النبي ﷺ . إلخ . لم أهد إليه .

فوضعها كسرى على وسادته ثم قال للزاجر : ماذا رأيت ؟ قال : ما رأيت ما أزر به إلا أنه سيعلو أمره عليك ، لأنك وضعت صورته على وسادتك .

وبعث صاحب الروم إلى النبي ﷺ رسولا^(١) ، وقال له : انظر إليه ، ومل إلى جانبه ، وانظر إلى ما بين كتفيه ، حتى ترى الخاتم والشامة فقدم الرسول ، فرأى النبي ﷺ على نَشْرِ عَالٍ واضعاً قدميه في الماء ، وعن يمينه عليٌّ ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال له : « تحوّل ، فانظر ما أمرت به » . فنظر الرسول ، فلما رجع إلى صاحبه ، أخبره الخبر فقال ليعلون أمره وليملكن ما تحت قدمي ، فتفأل بالنشر العلو وبالماء الحياة وقال المدائني : وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان حين أتاها ، فخرج هارباً ونزل بقرية من قرى الصعيد ، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك ابن مروان ، فقال للرسول : ما اسمك قال : طالب بن مدرك ، فقال : أواه ما أظن أني أرجع إلى الفسطاط فمات ، ولم يرجع ! وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية فقال لفاختة بنت قرظة : اذهبي فانظري إليها فذهبت ونظرت فقالت : ما رأيت مثلها ، ولكني رأيت تحت سرتها خلا ليوضعن معه رأس زوجها في حجرها ، فطلقها معاوية ، وتزوجها بعده رجлан : حبيب بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، فقتل أحدهما ، ووضع رأسه في حجرها ، وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذ تصدعت زجاجة من الإيوان ! فوفعت منها الشمس على منكب مروان ، وكان هناك عراف ، وقيل : قياف فقام فتبعه ثوبان مولى مروان ، فسأله فقال : صدع الزجاج ، صدع السلطان ! ستذهب الشمس بملك مروان ، بقوم من الترك أو خراسان ، ذلك عندي واضح البرهان^(٢) ، فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان .

وروى المدائني : أن علياً ﷺ بعث معقلا في ثلاثة آلاف ليقيم بالرقعة ، وذلك في وقعة صفين ، فسار حتى نزل الحديبية ، فبينما هو ذات يوم جالس إذ نظر إلى كبشين ينتطحان ، فجاء رجلان فأخذ كل واحد منهما كبشاً فذهب به ، فقال شداد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر : إنكم لتنصرفون من وجهكم هذا لا تغلبون ، ولا تغلبون ، أما ترى الكبشين كيف انتطحا ، حتى حجز بينهما ، فتفرقا ، ولا فضل لأحدهما على الآخر .

وحكى أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوباً ، فلما رآته قالت له : أيها الملك قد أعطيت ملكاً ذا طول وعرض ، ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت : ستعزل من الملك ، فغضب عند ذلك ، فقالت له : لا تغضب فإنك في المرة الأولى دخلت علي والشقة بيدي أدير طولها وعرضها ، ودخلت علي الآن والشقة في يدي أريد قطعها لأنني قد فرغت من نسجها ، فلا تغضب فإن النفوس تعلم أشياء بعلا مات ، قال الراوي : فكان كذلك ! وحكى أن سيف بن ذي يزن لما استجد كسرى على قتال الحبشة ، بعث إليه بجيش عظيم ، فخرج إليهم ملك الحبشة ، وهو مسروق بن أبرهة في مائة ألف من الحبشة ، وكان بين عينيه ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب ، على تاجه تضيء كالنور ، وهو على فيل عظيم ، قال : وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له : زهير ، فتأمل ذلك منه ثم قال لأميته : اصبر لتنظر ما يكون من أمره ، قال : فتحوّل مسروق من الفيل إلى جمل ، فقال : اصبر فتحوّل بعد ذلك إلى فرس ، ثم إلى بغل ثم إلى حمار ، وكأنه أَيْفَ من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار ، لما أنه استصغروهم ، واستحقروهم ، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى ، وقال : احملوا عليهم ، فإن ملكهم قد ذهب ، فإنه انتقل من كبير إلى صغير ، فحملوا عليهم ، فكسروهم ، وقتل الملك .

وحكى أنه كان عراف من الطريقين ببغداد ، يخبر بما يسأل عنه فلم يخطئ فسأله رجل عن شخص محبوس : هل ينطلق ؟ قال : نعم ويخلع عليه ، قال : فقلت له : بأي شيء عرفت ذلك ؟ فقال : إنك لما سألتني التفت يميناً وشمالاً ، فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ، ففرغها ثم حملها على كتفه ، فأولت الماء بالمحبوس ، وتفرغه بالانطلاق ، ووضعها على كتفه بالخلة ، قال : وكان الأمر كذلك .

وأما الفال : فقد روى أن النبي ﷺ : « كَانَ يُحِبُّ الْفَالَ الصَّالِحَ ، وَالْأَسْمَ الْحَسَنَ »^(٣) . وروى أنه ﷺ لما نزل

(١) بعث صاحب الروم إلى النبي ﷺ إلخ . لم أهد إليه .

(٢) لا يعلم الغيب إلا الله ، ولقد أثبت التجارب كذب المنجمين ولو صدقوا .

(٣) روى أن النبي ﷺ كان يحب الفال .. إلخ . صحيح : أخرجه أحمد [٢٥٧/١] ، ٣٠٤ ، ٣١٩ من حديث ابن عباس .

المدينة على كلثوم دعا غلامين له يابشار ، وياسالم ، فقال ﷺ لأبي بكر ﷺ : « أبشر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار » (١) . وقال الأصمعي : سألت ابن عون عن الفأل فقال : هو أن يكون مريض ، فيسمع : ياسالم ، أو طالب حاجة فيسمع ياواجد ، وما أشبه ذلك .

وأما الطيرة : فقد كان ﷺ يحب الفأل ، ويكره الطيرة (٢) وقيل : ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « من غرض له من هذه الطيرة شيء فليقل : اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » (٣) . وعنه ﷺ أنه قال : « ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له » (٤) . وعن ابن عباس ﷺ رفعه : « من اقتبس علماً من النجوم ، اقتبس شعبة من السحر » (٥) . وعن أبي هريرة ﷺ رفعه : « من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول أو أتى امرأته حائضاً ، أو أتى امرأته في دبرها ، فقد برئ مما نزل على محمد » (٦) . وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول :

إلا كواذب ما يجري به الفال
مضلّلون ودون الغيب أقفال

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبحه
والفال والزجر والكهان كلهم

وقال ليلى :

ولا زاجرات الطير ما الله صانع

لعمري ما تدرى الطوارق بالحصى

وقال آخر :

على متطير وهو الثبور
أحيائنا وباطله كثير

تعلّم أنه لا طير إلا
بلى شيء يوافق بعض شيء

وكانت العرب تطير بأشياء كثيرة : منها العطاس ، وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها ، وكانوا إذا أرادوا سفراً خرجوا من الغلس ، والطير في أوكارها على الشجر ، فيطيرونها فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً ، ومنه قول امرئ القيس :

بمنجرد قيد الأوابد هيكل
كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقد أغتدى والطير في وكناتها
مكر مفر مقبل مدبر مغا

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب ، فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد ، ويسمونه حاتم لأنه يحتم عندهم بالفراق ، ويسمونه الأعور على جهة التطير ، إذ كان أصح الطير بصراً وفيه يقول بعضهم :

ترقق رماك الله ياطير بالبعد
وأبشع في الأبصار من رؤية اللحد

إذا ما غراب البين صاح فقل له :
لأنت على العشاق أقبح منظر

وتبرز في ثوب من الحزن مسود
كأنك من يوم الفراق على وعد

تصيح ببين ثم تعثر ما شيا
متى صحت صبح البين وانقطع الرجا

وأعرض بعضهم عن الغراب ، وتطير بالإبل ، وسبب ذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل ، وفي ذلك قال بعضهم مفرداً وأجاد :

(١) وروى أن ﷺ لما نزل المدينة .. إلخ . لم أهد إليه .

(٢) كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة كما جاء فيما رواه الشيخان عن أنس قال ﷺ « لا عدوى ولا طيرة ويعجنى الفأل الحسن » . والطيرة : التشاؤم وعكسها التفاؤل بالمحسوب .

(٣) ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : .. إلخ . أخرجه أحمد والطبراني عن ابن عمر [التمييز ٢١٣] .

(٤) « ليس منا من تطير .. إلخ » . قال المنذرى : رواه البزار بإسناد جيد ، ورواه الطبراني من حديث ابن عباس دون قوله « ومن أتى » . إلى آخره بإسناد حسن .

(٥) « من اقتبس علماً من النجوم .. إلخ » . قال المنذرى رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهم . والمنهى عنه من علم النجوم ما يدعيه أهله من معرفة الحوادث الآتية كمجيء المطر ، ووقوع الثلج وهبوب الريح وتغير الأسعار ، أما ما يدور عن طريق المشاهدة كجهة القبلة وغيرها فلا .

(٦) « من أتى كاهناً فصدقه .. إلخ » . قال المنذرى : رواه البزار بإسناد جيد قوى . مقتصر على الكاهن دون باقى فقرات الحديث .

زعموا بأن مطيهم سبب النوى والمؤذونات بفرقة الأحباب
وقالوا: من تطير من شيء وقع فيه ! وحكى : عن إبراهيم بن المهدي قال : أرسل إلى محمد بن زبيدة في ليلة
من ليالى الصيف مقمرة يقول : يا عمّ إنى مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا ، فجتته وقد بسط له على سطح زبيدة
وعنده سليمان بن أبى جعفر ، وجاريته نعيم ، فقال لها غنيئا شيئاً فقد سررت بعمومتي ، فغنت وهى تقول هذه
الآيات :

هُمُ قَتَلُوهُ كى يَكُونُوا مَكَانَهُ كَمَا فَعَلْتَ يَوْمًا بِكَسْرَى مَرَايِبُهُ^(١)

بنى هاشم كيف التواصل بيننا وجند أخيه سيفه ونجائبه^(٢)

قال : فغضب وتطير ، وقال لها: ما قصتك ويحك ؟ انتبهى وغنى ما يسرنى ، فغنت تقول :

كُلَيْبٌ لَعْمَرَى كَانَ أَكْثَرُ نَاصِرَا وَأَكْثَرُ حَزْمًا مِنْكَ ضَرْجٌ بِالْإِدْمِ

فقال لها : ويحك ما هذا الغناء فى هذه الليلة ؟ غنى غير هذا ، فغنت تقول هذه الآيات :

مَا زَالَ يَمْدُو عَلَيْهِمْ رَبُّ دَهْرِهِمْ حَتَّى تَفَانُوا وَرَبُّ الدَّهْرِ عَذَاءُ

تبكى فراقهم عيني فأرقها إن التفرق للمشتاق بكاء !

قال فانتهرها وقال لها : قومى إلى لعنة الله فقالت : والله يا مولاي لم يجر لسانى غير هذا ، وما ظننت إلا أنك
تحبه ، ثم إنها قامت من بين يديه ، وكان بين يديه قدح بلور كان أبوه يحبه ، فأصابه طرف رداثها فانكسر ، قال
إبراهيم بن المهدي : فالتفت إلى وقال : يا عمى أرى أن هذا آخر أمرنا فقلت : كلا بل يبيئك الله يا أمير المؤمنين ،
ويسرك ، فسمعت هاتفاً يقول : قُضِيَ الأَمْرُ الذِّى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ، فقال لى : أسمع ما سمعت يا عم ؟ ! فقلت : ما
سمعت شيئاً ، وما هذا إلا توهم ، فإذا الصوت قد علا ، فقال : يا عم اذهب إلى بيتك مُحَالٌ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ هَذَا
اجتماع ! قال : فانصرفت من عنده ، وكان هذا آخر عهده به .

وخرج أبو الشمقمق مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل ، فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه فى أوّل درب
منها ، فتطير لذلك ، فأنشده أبو الشمقمق يقول :

مَا كَانَ مُنْذَقُ اللِّوَاءِ لِرَيْبَةٍ تُخْشَى وَلَا أَمْرٌ يَكُونُ مَبْذَلَا

لكن هذا الرمح ضَعَفَ مَتْنُهُ صَغُرَ الْوَلَايَةُ فَاسْتَقِلَّ الْمَوْصِلَا

فسر خالد ، وأمر لأبى الشمقمق بعشرة آلاف درهم .

ودخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك ، فصعد المنبر فانكسر تحت قدمه لوح ، فعلم أنهم قد تطيروا له
بذلك ، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال : شأنت الوجوه ، وتبّت الأيدي ، وبؤتم بغضب من الله إذا
انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد ، تفاءلتم بالشؤم ، وإنى على أعداء الله تعالى لأنكد من الغراب
الأبقع^(٣) ، وأشأم من يوم نحس مستمر ، وإنى لأعجب من لوط وقوله : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾
[هود: ٨٠] فأى ركن أشد من الله تعالى ؟ أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين ، وقد وليت عليكم أخى
محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذاً فى أهل اليمن فإنه أمره : « أَنْ يَحْسَنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ ،
وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ » . وقد أمرته أن يسئ إلى محسنكم ، وأن لا يتجاوز عن مسيئكم ، وأنا أعلم أنكم تقولون
بعدى لا أحسن الله له الصحابة ، وأنا معجل لكم الجواب لا أحسن الله عليكم الخلافة ، أقول قولى هذا ، وأستغفر
الله العظيم لى ولكم . وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد ، فأول من استقبله أعور فضربه ، وأمر بحبسه ثم ذهب
للصيد فاصطاد صيداً كثيراً ، فلما عاد استدعى بالأعور ، فأمر له بمال ، فقال : لا حاجة لى به ، ولكن ائذن لى فى

(١) مَرَايِبَةُ: جمع مَرَزْبَانٍ، وهو رئيس الفرس، أو الفارس الشجاع، وهو دون الملك فى الرتبة.

(٢) التَّجَائِبُ: مفردا نجبية، والنجبية مؤنث النجيب، وهو الفاضل على يثله النفيس فى نوعه.

(٣) الْغُرَابُ الْأَبْقَعُ: الذي خالط لونه لون آخر.

الكلام ، فقال : تكلم ، فقال : أيها الملك إنك تلقيتني فضربتني وجبستني ، وتلقيتني فصدت ، وسلمت فأينا أشأم صباحاً على صاحبه ، فضحك منه ، وأمر له بصلة ! .

وحكى : أيضاً أن صاحب قرطبة أصابه وجع ، فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهم عن وجعه ، فقالت :
هَذَا اللَّيَالِي عَلِمْنَا أَنْ سَتَطْوِينَا فَشَعَشَعِينَا^(١) بِمَاءِ الْمَزْنِ وَاسْقِينَا
قال فتطير من ذلك ، وأمرها بالانصراف ، ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ، ومات .

وحكى : أن نور الدين محموداً ، وهمام الدين ركباً في يوم عيد ، وخرجا للتفرج ، فتجاولا في الكلام ، ثم قال محمود : يامن درى ! هل نعيش إلى مثل هذا اليوم ؟ فقال له همام الدين قل : هل نعيش إلى آخر هذا الشهر ؟ فإن العام كثير قال : فأجرى الله على منطقيهما ما كان مقدراً في الأزل فمات أحدهما قبل تمام الشهر ، ومات الآخر قبل تمام العام ! .

وأما الفراسة : فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَمْثَلِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] . وقال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمنين ؛ فإنه ينظر بنور الله »^(٢) . وقال على عليه السلام ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وصفحات وجهه . وقيل : أشار ابن عباس عليه السلام على علي عليه السلام بشيء فلم يعمل به ، ثم ندم ، فقال : يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ! .

وحكى : أبو سعيد الخراز أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته ، فأنفنت نفسي منه ، فتفرس ذلك منى ، فقرا : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فندمت واستغفرت الله في قلبي فتفرس ذلك أيضاً فقرا : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ . [الشورى: ٢٥]

وحكى : عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلاً فقال أحدهما : إنه نجار ، وقال الآخر : إنه حداد ، فسألاه عن صناعته فقال : كنت حداداً وأنا الآن نجار ! .

وحكى : أن شخصاً من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له : اجلس فإنني أشم من كلامك رائحة الكفر ، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل ، فوصل إلى القسطنطينية ، فدخل في دين النصرانية ، قال من رآه : ولقد رأيت متكثراً على دكة ويديه مروحة يروح بها عليه ، فقلت : السلام عليك يا فلان ، فسلم علي وتعارفنا ، ثم قلت له بعد ذلك : هل القرآن باق على حاله أم لا ؟ فقال له : لا أذكر منه إلا آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر: ٢] . قال : فبكيت عليه ؛ وتركته ، وانصرفت .

وكان الحسن بن السقاء من موالى بنى سليم ، ولم يكن في الأرض أحرز منه ، كان ينظر إلى السفينة فيحرز ما فيها فلا يخطيء ، وكان حزره للمكيل والموزون والمعدود سواء ؛ كان يقول ، في هذه الرمانة كذا وكذا حبة ، وزنتها كذا وكذا ، ويأخذ العود الأس فيقول : فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطيء ، وقالوا : إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء : ما عند الله خير وأبقى ! فاعلم أن في جواره وليمة ، ولم يدع إليها ، وإذا رأيت قوما يخرجون من عند قاضٍ وهم يقولون : ما شهدنا إلا بما علمنا فاعلم أن شهادتهم لم تقبل ! ، وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله كيف ما تقدمت عليه ؟ فقال : الصلاح خير من كل شيء ، فاعلم أن امرأته قبيحة ! وإذا رأيت إنساناً يمشى ويلتفت ، فاعلم أنه يريد أن يحدث ! وإذا رأيت فقيراً يعدو ويهرول ، فاعلم أنه في حاجة غنى ، وإذا رأيت رجلاً خارجاً من عند الوالى وهو يقول : يد الله فوق أيديهم ؛ فاعلم أنه صفع ! ويقال : عين المرء عنوان قلبه ، وكانوا يقولون : عظم الجبين يدل على البله ، وعرضه يدل على قلة العقل ، وصغره يدل على لطف الحركة ، وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد ، والعين المتوسطة في حجمها دليل الفطنة ، وحسن الخلق والمروءة ، والتي يطول تحديقها يدل على الحمق ، والتي يكسر طرفها تدل على خفة وطيش ، والشعر في الأذن يدل على جودة السمع ، والأذن الكبيرة المنتصبة تدل على

(١) شَعَّ الماء: أي صبّه .

(٢) ذكره العجلوني في الكشف : قال في الدرر : رواه الطبراني والترمذي من حديث أبي أمامة ، وأخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد . وقال في التمييز : رواه الترمذي وقال : غريب .

حمق وهذيان ، وكانت الفرس تقول : إذا فشا الموت في الوحوش دل على ضيقة ، وإذا فشا الفأر ، دل على الخصب وإذا نبق غراب فجاوبته دجاجة عمر الخراب ، وإذا قوت دجاجة فجاوبها غراب ، خرب العمار ، والله أعلم بكل شيء : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦] ﴿ وَعِنْدُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ زَرْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا زَرْقٍ وَلَا يَاسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

وأما النوم والسهر وما جاء فيهما : فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل » ^(١) . وروى أن أم سليمان بن داود عليه السلام قالت له : يا بني لا تكثر النوم بالليل ، فإن صاحب النوم يجيء يوم القيامة مفلساً ، وكان زمعة بن صالح يصلي ليلاً طويلاً ، فإذا أسحر نادى أهله :

يَأْيُهَا الرِّكْبُ الْمُعْرَسُونَ ^(٢) أَكُلَ هَذَا اللَّيْلُ تَرْقِدُونَا ؟!

فيتأثبون بين بالك وداع ومتضرع ، فإذا أصبح نادى . عند الصباح يحمّد القوم السرى ، وأنشدوا :

يَأْيُهَا الرَّاكِدُ كَمْ تَرْقِدُ قُمْ يَا حَبِيبِي قَدْ دَنَا الْمَوْعِدُ
وَحَذَمَ مِنَ اللَّيْلِ وَسَاعَاتِهِ حَظًّا إِذَا مَا هَجَعَ الرَّقْدُ
مَنْ نَامَ حَتَّى يَنْقُضَى لَيْلُهُ لَمْ يَبْلُغِ الْمَنْزِلَ أَوْ يَجْهَدْ
قُلْ لِدَوَى الْأَلْبَابِ أَهْلُ التَّقَى : قَنَطَرَةُ الْحَشْرِ لَكُمْ مَوْعِدُ

وقيل : إن نومة الضحى تورث الغم ، والخوف ، ونومة العصر تورث الجنون وأنشد بعضهم :

أَلَا إِنَّ نَوْمَاتِ الضُّحَى تَوْرَثُ الْفَتَى غَمُومًا وَنَوْمَاتِ الْعَصِيرِ جُنُونُ

وعن العباس بن عبد المطلب ، أنه مر يوماً بابنه وهو نائم نومة الضحى ، فوكزه برجله ، وقال له : قم لا أنام الله عينك ! أأنام في ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد ؟ أو ما سمعت ما قالت العرب ؟ إنها مكسلة مهزلة منسية للحاجة .

والنوم على ثلاثة أنواع : نومة الخرق ، ونومة الخلق ، ونومة الحمق ، فنومة الخرق : نومة الضحى ، ونومة الخلق : هي التي أمر النبي ﷺ بها أمته فقال : « قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ » ^(٣) . ونومة الحمق : النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون . وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده : لا تصطحب بالنوم فإنه شؤم ونكد ، وقال الثوري لطبيب : دلني على شيء إذا أردت النوم جائني ، فقال : ادهن رأسك وأكثر من ذلك ، واتق الله . وكان طاووس يقول : لأن تختلف السياط على ظهري أحب إلي من أن أنام يوم الجمعة والإمام يخطب ، وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحبة على المقل ، ويقول : اللهم إن النار منعتني النوم ، وأنشدوا في المعنى :

غَبِرْتُ مَوْضِعَ مَرْقَدِي يَوْمًا ففارقني السكون
قُلْ لِي : فَأَوَّلُ لَيْلَتِي فِي حَفَرَتِي أَنَّى أَكُون ؟!

وأنشد أبو دلف :

أَمَّا الْكَتَى رَدَى عَلَى رُقَادِيَا وَنَوْمِي فَقَدْ شَرَدْتَهُ عَنْ وَسَادِيَا
أَمَّا تَتَقِينَ اللَّهَ فِي قَتْلِ عَاشِقٍ أَمْتُ الْكَرَى عَنْهُ فَأَحْيَا اللَّيَالِيَا ؟!

وأنشد أبو غانم الثقفي :

رَقِدْتُ رُقَادَ الْهَيْمِ حَتَّى لَوِ اتَّنَى يَكُونُ رُقَادِي مَغْنَمًا لَغَنِيَّتِ

فقيل : لمن هذا ؟ فقال : لِرُقَادِ بْنِ رِقَادِ الْعَرَبِ . وقيل : إن نوم عبود يضرب به المثل ، وكان عبود هذا عبداً أسود

(١) عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « أشرف أمتي . . . » إلخ . موضوع : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » . [١٢٥/١٢] ، برقم [١٢٦١٢] ، وفيه سعد بن سعيد الجرجاني ضعيف ، ونهشل بن سعيد متروك .

(٢) الْمُعْرَسُونَ : مَنْ نَزَلَ مِنَ الْمَسَافِرِينَ آخِرَ اللَّيْلِ لِلرَّاحَةِ فِي مَكَانٍ ، وَهَذَا الْمَكَانُ يُسَمَّى الْمُعْرَسَ .

(٣) « قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ » . رواه البزار عن أنس مرفوعاً كما قال العجلوني وأخرجه الطبراني عن أنس .

قيل : إنه نام أسبوعاً ، وقيل : إنه تماوت ، على أهله ، وقال : اندبوني ، لأعلم كيف تندبوني إذا أنا مت ، فسجى ونام ونذب فإذا هو قد مات ! .

وأما الرؤيا : فقد قيل فيها أقاويل : وهو أنهم قالوا إن النوم هو اجتماع الدم ، وانحداره إلى الكبد ، ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس ، وهدوء الروح ، ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة ، والأغذية والطبائع ، وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط ، وأن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته . فالذي يغلب عليه الصفء يرى بحورا ، وغيونا ومياها كثيرة ، ويرى أنه يسبح ويصيد سمكاً . ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في (١) أمواتاً ، مكفينين بسواد وبكاء وأشياء مفزعة . ومن غلب على مزاجه الدم ، رأى الرياحين ، والياباب المصبغة .

والذي يقع عليه التحقيق أن : « الرؤيا الصالحة - كما قد جاء - جزء من ستين جزءاً من النبوة » (٢) . وكان : « أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » (٣) . والرؤيا على ضربين . فمنهم من يرى رؤيا فتجىء على حالها لا تزيد ولا تنقص ، ومنهم من يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له .

فمن ذلك ما حكى أن النبي ﷺ رأى في الجنة غراً فقال : « لمن هذه ؟ » . فقيل : لأبي جهل بن هشام ، فقال : « ما لأبي جهل والجنة ؟ ! والله لا يدخلها أبداً » . قال : فاتأه عكرمة ولده مسلماً فتأولها به (٤) وكذلك تأول في قتل الحسين لما رأى أن كلباً أبقع يلغ في دمه ، وكان ذلك بعد رؤياه ﷺ بخمسين عاماً (٥) . وكذلك حين قال لأبي بكر : « إني رأيت كأنني رقيت أنا وأنت درجاً في الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف » ، فقال أبو بكر : « يا رسول الله ، أقبض بعدك بستين ونصف فكان كذلك » (٦) . ورأت عائشة ﷺ سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها فأولها أبوها بموته ، وموت النبي ﷺ ، وموت عمر ﷺ ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك (٧) .

وحكى : أن أم الشافعي ﷺ لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها ، وانقض بمصر ، ثم تفرق في كل بلد قطعة ، فأول بعالم يكون بمصر ، ويتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك .

وحكى أيضاً : أن عاملاً أتى عمر ﷺ فقال : رأيت الشمس والقمر اقتلا ، فقال له عمر : مع من كنت ؟ قال : مع القمر ، فقال : مع الآية الممحوة ! والله لا وليت لي عملاً فعزله ، ثم اتفق أن علياً ﷺ وقع بينه وبين معاوية ما وقع فكان ذلك الرجل مع معاوية .

وأما : من مهر في تعبير الرؤيا فهو ابن سيرين ، جاءه رجل فقال له : رأيت كأنني أسقى شجرة زيتون زيتاً ، فاستوى جالساً فقال : ما التي تحتك ؟ قال : علجة اشتريتها ، وفي رواية جارية وأنا أطؤها فقال : أخاف أن تكون أمك ، فكشف عنها فوجدها أمه ! . وجاءه رجل فقال : رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به فروج النساء ، وأفواه الرجال ، فقال له : أنت مؤذن تؤذن بالليل ، فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء . وجاءه رجل فقال : رأيت جارة لي قد ذبحت في بيت من دارها ، فقال : هي امرأة نكحت في ذلك البيت . وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل ، فاغتم لذلك ، ثم بلغه أن الرجل قدم في تلك الليلة ، وجامع زوجته في ذلك البيت .

وجاءه رجل ومعه جراب ، فقال له : رأيت في النوم كأنني أسد الزقاق سداً وثيقاً شديداً فقال له : أنت رأيت هذا ،

(١) الأجداث : مفردا جدث ، وهو القبر .

(٢) الرؤيا الصالحة جزء من ستين جزءاً من النبوة . الذي أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التعبير « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » . قال الحافظ في الفتح : وجاءت في تلك روايات كثيرة أقلها جزء من ستة وعشرين وأكثرها من ستة وسبعين .

(٣) وكان النبي ﷺ أول ما بدئ به الوحي . . . إلخ . رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . . . » .

(٤) ما حكى أن النبي ﷺ رأى في الجنة غراً . . . إلخ . انظر الإصابة ترجمة عكرمة رقم [٥٦٤٢] .

(٥) وكذلك تأول في قتل الحسين . عزاه الهندي في « كنز العمال » . [٣٤٣٢٢] ، لابن عساكر عن الحسين بن علي .

(٦) وكذلك حين قال لأبي بكر . . . إلخ . ذكره السيوطي في الخصائص الكبرى [١١٥/٢] ، وعزاه لابن سعد .

(٧) ورأت عائشة . . . إلخ . عزاه الهيثمي في « مجمع الزوائد » . [١٨٥/٧] ، الطبراني وقال « رجاله رجال الصحيح » .

قال : نعم . فقال لمن حضره : ينبغي أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان ، وربما يكون في جرابه آلة الخنق ، فوثبوا عليه ، وفشوا الجراب فوجدوا فيه أوتاراً وحلقاً ، فسلموه إلى السلطان . وجاءته امرأة وهو يتغدى ، فقالت له : رأيت في النوم كأن القمر دخل في الثريا ، ونادى منادٍ من خلفي أن اتى ابن سيرين ، فقضى عليه ، فتقلصت يده ، وقال : ويلك كيف رأيت هذا ، فأعادت عليه . فقال لأخته : هذه تزعم أنى أموت لسبعة أيام ، وأمسك يده على فؤاده ، وقام يتوجع ، ومات بعد سبعة أيام .

وجاء رجل فقال : رأيت كأنى أخذ البيض وأقشره فأكل بياضه ، وألقى صفاره ، فقال : إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان كذلك .

وحكى أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا ، فجعل يوصى ، وقال : يموت الحسن ، وأموت بعده ، وهو أشرف منى ، فمات الحسن ، ومات بعده بمائة يوم .

وحكى أن رجلاً رأى عيسى عليه السلام فقال له : يابى الله : صلبك حق ؟ قال : نعم ، فعبره على بعضهم فقال : تكذب رؤياك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا قُلُّوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شَيْءٌ مِّمَّ ﴾ [النساء: ١٥٧] . ولكن هو عائد على الراى فكان كذلك . وأتى ابنه مغيث آت في المنام فقال لها :

لـك البـشـيرى بـولد
أشـبـه شـيء بـالأسـد
إذا السـرجـال فـى كـبد
تغـالـبـوا عـلى بـلد
كـان لـه حـظ الأـسـد

فولدت المختار بن أبى عبيد ، وذلك فى عام الهجرة . وقال رجل لسعيد بن المسيب رأيت كأنى بُلت خلف المقام أربع مرات . قال : كذبت لست صاحب هذه الرؤيا . قال : هو عبد الملك ؟ فقال : يلى أربعة من صلبه الخلافة .

وقال الشافعى عليه السلام رأيت علياً عليه السلام فى المنام فقال لى : ناولنى كتبك ، فناولته إياها فأخذها ، وبددها فأصبحت أختا كآبة ، فأثيت الجعد ، فأخبرته فقال : سيرفع الله شأنك ، وينشر علمك ، وعن ابن مسعود عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « مَنْ رَأَى فِى مَنَامِهِ فَقَدْ رَأَى حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمَثَّلُ بِي » (١) . وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وآله فقال : رأيت كأن رأسى قد قطع ، وأنا أنظر إليه فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : « بَأْنَى عَيْنٍ كُنْتَ تَنْظُرُ إِلَى رَأْسِكَ !؟ » (٢) . فلم يلبث رسول الله صلى الله عليه وآله أن توفى ، وأولوا رأسه بنبيه ، ونظروا إليه باتباع سنته . وقال رجل لعلى بن الحسين : رأيت كأنى أبول فى يدى ، فقال : تحتك مَحْرَمٌ فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع . وقال أبو حنيفة عليه السلام رأيت كأنى نبشت قبر رسول الله صلى الله عليه وآله : فضممت عظامه إلى صدرى فهالنى ذلك ، فسألت ابن سيرين فقال : ما ينبغي لأحد من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا قلت : أنا رأيته ، قال : إن صدقت رؤياك لتحين سنة نبيك صلى الله عليه وآله .

وقال النبى صلى الله عليه وآله : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بَشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِ بِمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » (٣) . وعن ابن عمر عليه السلام قال : تضرعت إلى ربى سنة أن يرينى أبى فى النوم ، حتى رأيته ، وهو يمسح العرق عن جبينه ، فسألته فقال : لولا رحمة الله لهلك أبوك ، إنه سألنى عن عقاب بعير للصدقة ، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز ، فصاح ، وضرب بيده على رأسه وقال : فعل هذا بالتقى الطاهر ؟ فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز ؟! صلى الله عليه وآله وسلم .



(١) البخاري فى صحيحه ٤٠٠/١٢ .

(٢) وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وآله فقال : « رأيت كأن رأسى .. » إلخ . لم أهد إليه .

(٣) وقال النبى صلى الله عليه وآله : « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ بَشَارَةٌ .. » إلخ عزاء الهيشى فى « المجمع » . [١٧٣/٧] ، للطبرانى والبزار .

الباب العاوي والستون

في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة ، وهى حسنة ما لم يستبح بها محظور ، وقد سئل بعض الفقهاء عن الحيل فى الفقه ، فقال : علمكم الله ذلك ، فإنه قال : ﴿ وَخُذْ يَدَكَ رِجْلًا فَاصْرِبْ لَهُ وَلَا تَجَنَّبْهُ ﴾ [ص: ٤٤] . وكان ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها ، وكان يقول : « الحرب خدعة » (١) . ولما أراد عمر رضي الله عنه قتل الهرمزان استسقى ماء ، فأتوه بقدر فيه ماء ، فأمسكه فى يده ، واضطرب فقال له عمر ، لا بأس عليك حتى تشربه ، فألقى القدر من يده ، فأمر عمر بقتله ، فقال : أو لم تؤمننى ؟ قال : كيف أمتك ؟! قال : قلت : لا بأس عليك حتى تشربه ! وقولك : لا بأس عليك أمان ، ولم أشربه ، فقال عمر : قاتلك الله أخذت منى أماناً ، ولم أشعر ! . وقيل : كان دهاء العرب أربعة كلهم ولدوا بالطائف : معاوية ، وعمر بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، والسائب بن الأقرع (٢) . وكان يقال : الحاجة تفتح أبواب الحيل . وكان يقال : ليس العاقل الذى يحتال للأمور إذا وقع فيها ، بل العاقل الذى يحتال للأمور أن لا يقع فيها . وقال الضحاك بن مزاحم لنصرانى : لو أسلمت ! فقال : ما زلت محبباً للإسلام إلا أنه يمنعنى منه حبي للخمر ! فقال : أسلم واشربها ، فلما أسلم قال له : قد أسلمت فإن شربتها حذذناك وإن ارتددت قتلناك ، فاختر لنفسك ، فاختر الإسلام ، وحسن إسلامه فأخذه بالحيلة .

وقيل : دليت من السماء سلسلة فى أيام داود عليه السلام عند الصخرة التى فى وسط بيت المقدس ، وكان الناس يتحاكمون عندها ، فمن مد يده إليها وهو صادق نالها ، ومن كان كذاباً لم ينلها ، إلى أن ظهرت فيهم الخديعة فارتفعت . وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهره فخبأها فى مكانه فى عكازة ، ثم إن صاحبها طلبها من الذى أودعها عنده ، فأنكرها فتحاكما عند السلسلة ، فقال المدعى ، اللهم إن كنت صادقاً فلتدن منى السلسلة ، فدنّت منه فمسها فدفع المدعى عليه العكازة للمدعى ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنى رددت الجوهره إليه فلتدن منى السلسلة فدنّت منه ، فمسها فقال الناس : قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم ، فارتفعت بشؤم الخديعة ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام أن احكم بين الناس بالبينه واليمين ، فبقى ذلك إلى قيام الساعة وكان المختار ابن أبى عبيد الثقفى من دهاء ثقيف ، وثقيف دهاء العرب ، قيل : إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد ، ثم دعا برجل من خواصه فدفع إليه حمامة بيضاء ، وقال له : إن رأيت الأمر عليكم فأرسلها ، ثم قال للناس إنى لأجد فى محكم الكتاب ، وفى اليقين والصواب ، أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعب ، تأتى فى صور الحمام تحت السحاب . فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه ، عمد ذلك الرجل إلى الحمامة فأرسلها ، فتصايح الناس الملائكة الملائكة ، وحملوا فانتصروا ، وقتلوا ابن زياد .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خَرَجَتْ امْرَأَتَانِ وَمَعَهُمَا صَبِيَّانِ ، فَغَدَا الذُّئْبُ عَلَى صَبِيٍّ إِخْدَاهُمَا فَأَكَلَهُ ، فَاخْتَصَمَتَا فِي الصَّبِيِّ الْبَاقِي إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ كَيْفَ أَمْرُكُمَا ، فَقَصَصَتَا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، فَحَكَمَ بِهِ لِلْكَبْرَى مِنْهُمَا فَاخْتَصَمَتَا إِلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : اتَّوْنِي بِسَكِينٍ أَشَقُّ الْغَلَامَ نَضْفَيْنِ لِكُلِّ مِنْهُمَا نَضْفٌ ، فَقَالَتِ الصَّغْرَى : أَتَشُقُّ يَأْنِيَّ اللَّهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَتْ : لَا تَفْعَلْ وَنَضْفِي فِيهِ لِلْكَبْرَى ، فَقَالَ : خُذِيهِ ، فَهُوَ ابْنُكِ ، وَقَضَى بِهِ لَهَا » (٣) . وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه السلام وقال : يابنى الله إن لى جيرانا يسرقون إوزى فلا أعرف السارق ، فنادى : الصلاة جامعة ، ثم خطبهم ، وقال فى خطبته : وإن أحدكم ليسرق إوزاً جاره ، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه ، فمسح الرجل رأسه ، فقال سليمان : خذوه فهو صاحبكم . وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة ، وكان شاباً جميلاً ، فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها ، فحضرا ، وجلست بحيث تراهما ، وتسمع كلامهما ، فلما رأى المغيرة ذلك الشاب ، وعان جمالها ، علم أنها تؤثره عليه ، فأقبل على

(١) مسلم فى صحيحه ١٧٣٨/٣ .

(٢) هناك من عدوا رابع الدهاء زياد ابن أبيه وقد فصلت ذلك فى كتابي « دهاء العرب فى الإسلام » .

(٣) وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خرجت امرأتان ... » . إلخ أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الأقضية - باب اختلاف المجتهدين [١٧٢٠] .

الفتى ، وقال : لقد أوتيت جمالاً فهل عندك غير هذا ؟ قال : نعم . فعد محاسنه ، ثم سكت . فقال له المغيرة . كيف حسابك مع أهلك ؟ قال : ما يخفى على من شيء ، وإنى لأستدرك منه أدق من الخردل ، فقال المغيرة ، لكنى أضع البذرة فى بيتى ، فينفقها أهلى على ما يريدون ، فلا أعلم بتفادها حتى يسألونى غيرها ، فقالت المرأة : والله ، لهذا الشيخ الذى لا يحاسبنى أحب إلى من هذا الذى يحصى على مثقال الذرة ؛ فتزوجت المغيرة ! وبلغ عضد الدولة أن قوماً من الأكراد يقطعون الطريق ، ويقيمون فى جبال شامخة ، ولا يقدر عليهم ، فاستدعى بعض التجار ، ودفع إليه بغلا عليه صندوقان ، فيهما حلوى مسمومة ، كثيرة الطيب ، فى ظروف فاخرة ، ودنانير وافرة ، وأمره أن يسير مع القافلة ، ويظهر أن هذه هدية لإحدى نساء الأمراء ، ففعل التاجر ذلك ، وسار أمام القافلة ، فنزل القوم ، فأخذوا الأمتعة والأموال ، وانفرد أحدهم بالبغل ، وصعده به الجبل ، فوجد به الحلوى ، فقبح على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه ، فاستدعاهم ، فأكلوا على مجاعة ، فماتوا عن آخرهم ! وأخذ أرباب الأموال أموالهم . وأتى لبعض الولاة برجلين قد أتتهما بسرقة ، فأقامهما بين يديه ، ثم دعا بشربة ماء ، فحىء له بكوز فرماه بين يديه ، فارتاع أحدهما وثبت الآخر ، فقال للذى ارتاع : اذهب إلى حال سبيلك ، وقال للآخر : أنت أخذت المال ، وتلذذت به ، وتهدده ، فأقر ! فسئل عن ذلك ، فقال : إن اللص قوى القلب ، والبرىء يجزع ، ولو تحرك عصفور لفرغ منه ! وقصده رجل الحج ، فاستدع إنساناً مالا فلما عاد طلبه منه ، فجحده المستودع ، فأخبر بذلك القاضى إياساً فقال : أعلم بأنك جئتني ؟ قال : لا قال : فعد إلى بعد يومين ، ثم إن القاضى إياساً بعث إلى ذلك الرجل ، فأحضره ، ثم قال له : أعلم أنه قد تحصلت عندى أموال كثيرة لأيتام وغيرهم ، وودائع للناس ، وإنى مسافر سرفاً بعيداً وأريد أن أودعها عندك لما بلغنى من دينك ، وتحصين منزلك ، فقال : حُباً وكرامة ، قال : فاذهب وهبىء موضعاً للمال ، وقوماً يحملونه ، فذهب الرجل ، وجاء صاحب الوديعة ، فقال له القاضى إياس : امض إلى صاحبك ، وقل له : ادفع إلى مالى وإلا شكوتك للقاضى إياس ، فلما جاءه وقال له ذلك دفع إليه ماله ، واعتذر إليه ، فأخذه وأتى إلى القاضى إياس ، فأخبره ثم بعد ذلك أتى الرجل ، ومعه الحمالون لطلب الأموال التى ذكرها له القاضى ، فقال له القاضى بعد أن أخذ الرجل ماله منه : بدالى ترك السفر ، امض لشأنك لا أكثر الله فى الناس مثلك ! . ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز قال أبرويز للداخل عليه ليقتله : إنى لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حَقك على ، قال : وما هو ؟ قال : الصندوق القلانى ، فلما قتله ذهب إلى شيرويه ، وأخبره الخبر ، فأخرج الصندوق ، فإذا فيه حق^(١) فيه حَب ، ورقة مكتوب فيها ، من تناول منه حبة واحدة افتض عشرة أبكار ، وكان لشيرويه غرام فى الباه ، فتناول منه حبة فهلك من ساعته ، فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله .

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء ، فقال له الرشيد ، لم تخلفت ؟ فقال : عاقنى عائق ، فقال : اقرأوا عليه كتاب البيعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذه البيعة فى عتقى إلى قيام الساعة ، فلم يفهم الرشيد ما أراد ، وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر ، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس .

وقال المغيرة بن شعبة لم يخذعنى غير غلام من بنى الحارث بن كعب ، فإنى ذكرت امرأة منهم لأتزوجها فقال : أيها الأمير لا خير لك فيها ، فقلت : ولم ؟ قال : رأيت رجلاً يقبلها ، فأعرض عنها فتزوجها الفتى ، فلمته وقلت : ألم تخبرنى أنك رأيت رجلاً يقبلها ؟ ! قال : نعم . رأيت أباه يقبلها . وأتى رجل إلى الأحنف ، فلطمه ، فقال : ما حملك على هذا ؟ فقال : جُعِلَ لى جُعِلَ على أن أطم سيد بنى تميم ، فقال : لست بسيدهم ، عليك بحارثة ابن قدامة ، فإنه سيدهم ، فمضى إليه فلطمه ، فقطعت يده . وقال الشعبى : وجهنى عبد الملك إلى ملك الروم ، فقال لى : من أهل بيت الخلافة أنت ؟ قلت : لا ! ولكنى رجل من العرب ، فكتب إلى عبد الملك رقعة ، ودفعها إلى فلما قرأها عبد الملك قال لى أتدرى ما فيها ؟ قلت : لا . قال فيها العجب لقوم فيهم مثل هذا ، كيف يولون أمرهم غيره ؟ ! قال : أتدرى ما أراد بهذا ! قلت : لا . قال : حسدنى عليك ، فأراد أن أقتلك ! فقلت : إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين ، لأنه لم يرك ، ولم يترك شيئاً إلا سألنى عنه ، وأنا أجيبه ، فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبى ، فقال : لله أبوه ! ما عدا ما فى نفسى ! .

ولما ولى عبد الملك بن مروان أخاه بشراً الكوفة : وكان شاباً ظريفاً غزلاً بعث معه روح ابن زنباع ، وكان شيخاً

(١) الحق : بضم الحاء وتشديد القاف : وعاء صغير ذو غطاء يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما .

متورعاً فثقل على بشر مرافقته ، فذكر ذلك لندمائه ، فتوصل بعض ندمائه إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً في خفية ، فكتب على حائط قريب من مجلسه هذه الأبيات :

ياروخ من لبنيات وأزمنة إذا نعاك لأهل المغرب الناعي ؟

إن ابن مروان قد حانت منيته فاحتل بنفسك ياروخ بن زنباع

فتخوف من ذلك ، وخرج من الكوفة ، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك فاستلقى على قفاه من شدة الضحك ، وقال : ثقلت على بشر وأصحابه ، فاحتالوا لك !

ومن الحيل الظريفة : ما حكى أن النبي ﷺ لما فتح خيبر ، وأعرس بصفية ، وفرح المسلمون ، جاءه الحجاج بن علاط السلمى ، وكان أول ما أسلم في تلك الأيام ، وشهد خيبر فقال : يا رسول الله إن لى بمكة مالا عند صاحبتى أم شيبه ، ولى مال متفرق عند تجار مكة ، فأذن لى يا رسول الله فى العود إلى مكة ، عسى أسبق خبر إسلامى إليهم ، فإنى أخاف إن علموا بإسلامى أن يذهب جميع مالى بمكة ، فأذن لى لعلى أخلصه ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إنى أحتاج أن أقول : فقال له رسول الله ﷺ : « قل وأنت فى حل » ، قال الحجاج : فخرجت فلما انتهيت إلى الثنية ثنية البيضاء ، وجدت بها رجلاً من قريش يتسمعون الأخبار ، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر ، فلما أبصرونى قالوا هذا لعمر الله عنده الخبر ، أخبرنا يا حجاج فقد بلغنا أن القاطع - يعنون محمداً ﷺ - قد سار إلى خيبر ، قال : قلت : إنه قد سار إلى خيبر ، وعندى من الخبر ما يسركم ، قال : فأخذوا حول ناقتى يقولون : إيه يا حجاج ! قال : فقلت : هُزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وأسر محمد ، وقالوا : لا نقله ، حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم ، بمن كان أصاب من رجالهم قال : فصاحوا بمكة ، قد جاءكم الخبر ، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم ، قال : فقلت أعيونى على جمع مالى من غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر ، فأغنى من ثقل محمد وأصحابه ، قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك ، فقاموا معى فجمعوا لى مالى كأحسن ما أحب ، فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر ، أقبل على حتى وقف إلى جانبى ، وأنا فى خيمة من خيام التجار فقال : يا حجاج ما هذا الخبر الذى جئت به ؟ قال : فقلت : وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر ، فقال : نعم ، والله ، قال : قلت استأخر عنى حتى ألقاك على خلاء ، فإنى فى جمع مالى كما ترى ، فانصرف عنى حتى إذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة ، وأجمعت على الخروج ، لقيت العباس ، فقلت له : احفظ على حديثى يا أبا الفضل ، فإنى أخشى أن يتبعونى ، فاكم على ثلاثة أيام ، ثم قل ما شئت ، قال : لك على ذلك ، قال : قلت : والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم ، يعنى : صفية ، وقد افتتح خيبر وغنى ما فيها ، وصارت له ولأصحابه ، قال : أحق ما تقول يا حجاج ؟ قال : قلت : إى والله ، ولقد أسلمت ، وما جئت إلا مسلماً لأخذ مالى خوفاً من أن أغلب عليه ، فإذا مضت ثلاثة فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب ، قال : فلما كان فى اليوم الرابع ، لبس العباس حلة له ، وتخلق بالطيب ، وأخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى الكعبة ، فطاف بها ، فلما رآه قالوا : يا أبا الفضل ، هذا والله هو التجلد لحر المصيبة ، قال : كلا والذى حلفتكم به ، لقد افتتح محمد خيبر ، وترك عروساً على ابنة ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها ، فأصبحت له ولأصحابه . قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مُسْلِماً ، وأخذ ماله ، وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ، ليكون معهم ، قالوا : ثقلت عدو الله ، أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن ، قال : ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك ، فتوصل الحجاج بفطنته واحتياله إلى تخليصه ، وتحصيل ماله .

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق ، وقصدوا المدينة ، وتظاهروا وهم فى جمع كثير وجم غفير من قريش وغطفان ، وقبائل العرب ، وبنى النضير ، وبنى قريظة من اليهود ، ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ، واشتد الأمر ، واضطرب المسلمون ، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ

(١) قصة إسلام الحجاج بن علاط السلمى وما قام به من حيلة لاسترداد أمواله من أهل مكة ذكرها ابن حجر فى ترجمته بالإصابة جزء ثان [رقم ١٦٢٤] ، وقال : الحديث بطوله رواه أحمد وأبو إسحاق عن عبد الرزاق ، ورواه النسائى عن إسحاق وأبى يعلى والطبرانى وابن منده من طريق عبد الرزاق .

جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هَٰذَا الَّذِي أُنْزِلَتْ الْوَحْيُوتُ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب: ١٠-١١]. فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت ؛ فقال له رسول الله ﷺ: « خُذْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ فَإِنَّ الْحَرْبَ خِذْعَةٌ » . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان نديماً لهم في الجاهلية فقال : يا بني قريظة ، قد علمتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، فإن البلد ببلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم عليه ، وأموالهم وأولادهم ونساؤهم بغير بلدكم ، وليسوا مثلكم ، لأنهم إن رأوا فرصة اغتتموها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً قالوا : أشرت بالرأى ، ثم أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب - وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ، ومن معه من كبراء قريش - : قد علمتم ودي لكم ، وفراقى محمداً ، وأنه قد بلغني أمر وأجبت أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموه على . قالوا : نعم . قال : اعملوا أن معشر يهود بني قريظة ، قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرفهم ، فنسلمهم إليك فتضرب رقابهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم ، فنستأصلهم ؟! فأرسل يقول : نعم فإن بعث إليكم يهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً ، ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال لهم : مثل ما قال لقريش ، وحذرهم فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورءوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر فاعتدوا للقتال ، حتى نناجز محمداً ، ونفرغ فيما بيننا وبينه ، فأرسلوا يقولون لهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ولعلنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن دهمتكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تشعروا إلى بلادكم ، وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به ، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق ، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون : إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا ، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل : إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق ، وما يريد القوم إلا أن تقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك شمعوا إلى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم ، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم ، فخذل الله تعالى بينهم ، وأرسل عليهم الريح ، ففترقوا وارتحلوا ، وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة ، وهدها إلى اليقظة التي عم نفعها ، وحسن^(١) وقعها ! .

وأما ما جاء في التيقظ والتبصر في الأمور : فقد قالت الحكماء : من أيقظ نفسه ، وألبسها لباس التحفظ آيس عدوه من كيد له ، وقطع عنه أطماع الماكرين به ، وقالوا : اليقظة حارس لا ينام ، وحافظ لا ينسام^(٢) ، وحاكم لا يرتشى ، فمن تدرع بها أمن من الاختلال والغدر ، والجور والكيد والمكر .

وقيل : إن كسرى أنوشروان كان أشد الناس تطلعاً في خفايا الأمور ، وأعظم خلق الله تعالى في زمانه تفحصاً وبحثاً عن أسرار الصدور ، وكان يبيت العيون ، على الرعايا والجواسيس في البلاد ، ليقف على حقائق الأحوال ، ويطلع على غوامض القضايا ، فيعلم المفسد ، فيقابله بالتأديب ، والمصلح فيجازيه بالإحسان ، ويقول : متى غفل الملك عن تعرف ذلك ، فليس له من الملك إلا اسمه ، وسقطت من القلوب هيئته .

(١) نعيم بن مسعود يكنى أبا سلمة الأشجعي صحابي مشهور ترجم له ابن حجر وقال : له ذكر في البخاري أسلم ليالي الخندق وهو الذي أوقع الخلف بين الحيين : قريظة وغطفان في وقعة الخندق فخالف بعضهم بعضاً ورحلوا عن المدينة . أما الحديث : « الحرب خدعة » . فقد قال المجنونى : رواه ابن ماجه عن عائشة أنها قالت : إن نعيم بن مسعود قال : « يا نبى الله أسلمت . . . » إلخ ورواه العسكرى أيضا .
(٢) نسم الشيء : تغير طعمه ، وناسمه ، حادثه وسارّه .

وروى : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ليلة من الليالي يطوف يتفقد أحوال المسلمين ، فرأى بيتاً من الشعر مضروباً ، لم يكن قد رآه بالأمس ، فدنا منه ، فسمع فيه أنين امرأة ، ورأى رجلاً قاعداً ، فدنا منه وقال له : من الرجل ؟ فقال له : رجل من البادية ، قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله قال : فما هذا الأنين ؟ قال : امرأة تتمخض ! قد أخذها الطلق ! قال : فهل عندها أحد ؟ قال : لا . فانطلق عمر والرجل لا يعرفه ، فجاء إلى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، بنت فاطمة الزهراء رضي الله عنها : هل لك في أجر قد ساقه الله تعالى لك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة تتمخض ليس عندها أحد ، قالت : إن شئت ! قال : فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدّهن ، واثنين بقدر وشحم وحُبوب ، فجاءت به فحمل القدر ، ومشت خلفه ، حتى أتى البيت فقال : ادخلي إلى المرأة ثم قال للرجل : أوقد لى ناراً ففعل ، فجعل عمر ينفخ النار ، ويضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته ، حتى أنضجها ، وولدت المرأة فقالت أم كلثوم رضي الله عنها بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام ، فلما سمعها الرجل تقول : يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل ، وقال : واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين ، أهكذا تفعل بنفسك ؟ قال : يا أخا العرب من ولى شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره ، فإنه عنها مسئول ، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة ، ثم قام عمر رضي الله عنه وأخذ القدر من على النار ، وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة ، فلما استقرت ، وسكنت طلعت أم كلثوم فقال عمر رضي الله عنه للرجل : قم إلى بيتك وكل ما بقى في البرمة ^(١) ، وفي غدِ أثبت إلينا فلما أصبح جاءه فجبهه بما أغناه به ، وانصرف . وكان ^(٢) من شدة حرصه على تعرف الأحوال ، وإقامة قسطاس العدل ، وإزاحة أسباب الفساد ، وإصلاح الأمة يعس ^(٣) بنفسه ، ويباشر أمور الرعية سراً في كثير من الليالي ، حتى أنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه ، فرأى في بعض البيوت ضوء سراج ، وسمع حديثاً ، فوقف على الباب يتجسس ، فرأى عبداً أسود قدماه إناء فيه مزر ^(٤) ، وهو يشرب ومعه جماعة ، فهم بالدخول من الباب ، فلم يقدر من تحصين البيت ، فتسوّر على السطح ، ونزل إليهم من الدرجة ومعه الدرة ، فلما رآوه قاموا وفتحوا الباب وانهزموا ، فمسك الأسود فقال له ، يا أمير المؤمنين ، قد أخطأت وإني تائب فاقبل توبتي ، فقال : أريد أن أضربك على خطيئتك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كنت قد أخطأت في واحدة ، فأنت قد أخطأت في ثلاث : فإن الله تعالى قال : **وَلَا تَجَسَّسُوا** [الحجرات: ١٢] . وأنت تجسست ، وقال تعالى : **وَأَتَوُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَيْبَاهَا** [البقرة: ١٨٩] . وأنت أتيت من السطح ، وقال تعالى : **لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهَا** [النور: ٢٧] . وأنت دخلت ، وما سلمت ، فهب هذه لهذه ، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود فاستابه واستحسن كلامه ، وله رضي الله عنه وقائع كثيرة مثل هذه .

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك ، وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه في حاجة له ، وجعل يتعرف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه فقال : أنا فلان ابن فلان ، فتبسم زياد وقال له : أنت تعرف إلى وأنا أعرف بك منك بنفسك ؟! والله إني لأعرفك ، وأعرف أباك ، وأعرف أمك ، وأعرف جدك وجدتك ، وأعرف هذه البردة التي عليك ، وهي لفلان ، وقد أعارك إياها فبهت الرجل ! وارتعد حتى كاد يغشى عليه ، ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم ، وهو عبد الملك بن مروان والحجاج ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق ، واقتفى آثار ذلك الفريق إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس ، ولى الخلافة بعد أخيه السفاح ، وهي في غاية الاضطراب ، فنصب العيون ، وأقام المتطلعين ، وبث في البلاد والنواحي من يكشف له حقائق الأمور والرعايا فاستقامت له الأمور ودانت له الجهات ، ولقد ابتلى في خلافته بأقوام نازعوه ، وأرادوا خلعه ، وتمردوا عليه ، وتكاثروا فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ، ماثبت له في الخلافة قدم ، ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم ، لكنه بث العيون ، فعرف من انطوى على خلافه ، فعالج به بإتلافه ، واطلع على عزائم المعاندين فقط رءوس عنادهم بأسيافه ، وكان لكمال يقظته يتلقى المحذور بدفعه دون رفعه ، ويعاجل المخوف بتفريق شمله قبل جمعه ، فذلت له الرقاب ، ولانت لخلافته الصعاب ، وقرر قواعدها ، وأحكمها بأوثق الأسباب . فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله

(١) البرمة : بضم الباء القدر من الحجارة . وجمعها برم وبرام .

(٢) يعس : يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الرية .

(٣) المزز - بكسر الميم - نبيذ الذرة خاصة .

عنه عقبة الأزدي قال : دخلت مع الجند على المنصور فارتابني ، فلما خرج الجند أدناني ، وقال لي : من أنت ؟ فقلت : رجل من الأزدي وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر ابن حفص ، فقال : إني لأرى لك هية ، وفيك نجابة ، وإني أريدك لأمر وأنا به معنى ، فإن كفييتيه رفعتك فقلت : إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين في ، فقال أخف نفسك ، واحضر في يوم كذا قال : فغبت عنه إلى ذلك اليوم ، وحضرت فلم يترك عنده أحدا ثم قال لي : اعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا ، واغتياله ، ولهم شعبة بخراسان ، بقرية كذا يكاتبونهم ، ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم ، وألطف بلادهم فخذ معك عينا من عندي ، وألظافا وكتبا ، واذهب حتى تأتي عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فاقدم عليه متخشعا والكتب على السنة أهل تلك القرية ، والألظاف من عندهم إليه ، فإذا رآك فإنه سيردك ، ويقول : لا أعرف هؤلاء القوم ، فاصبر عليه ، وعاوده ، وقل له : قد سيروني سرا ، وسيروا معي ألظافا وعينا وكلما جبهك ، وأنكر اصبر عليه وعاوده ، واكشف باطن أمره قال عقبة : فأخذت كتبه ، والعين ، والألظاف ، وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن ، فلقيته بالكتب ، فأنكرها ، ونهرني ، وقال : ما أعرف هؤلاء القوم ! قال عقبة فلم أنصرف ، وعاودته القول : وذكرت له اسم القرية ، وأسماء أولئك القوم ، وأن معي ألظافاً وعينا ، فأنس بي ، وأخذ الكتب ، وما كان معي ، قال عقبة : فتركته ذلك اليوم ثم سألته الجواب ، فقال : أما كتاب فلا أكتب إلى أحد ، ولكن أنت كتابي إليهم ، فأقرتهم السلام ، وأخبرهم أن ابني محمداً وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا ، قال عقبة : فخرجت من عنده وسرت حتى قدمت على المنصور ، فأخبرته بذلك ، فقال لي المنصور : إني أريد الحج ، فإذا صرت بمكان كذا وكذا ، وتلقاني بنو الحسن ، وفيهم عبد الله فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه ، وأحضر الطعام فإذا فرغ من أكله ، ونظرت إليه فتمثل بين يدي وقف قدامه ، فإنه سيصرف وجهه عنك ، فدر حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينه منك ، ثم انصرف عنه ، وإياك أن يراك وهو يأكل ، ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن ، فأجلس عبد الله إلى جانبه ، وحادثه فطلب الطعام للغداء ، فأكلوا معه ، فلما فرغوا أمر برفعه ، فرفع ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال : يا أبا محمد ، قد علمت أن مما أعطيتني من العهود والمواثيق أنك لا تريدني بسوء ، ولا تكيد لي سلطاناً ، قال : فإنا على ذلك يا أمير المؤمنين ، قال عقبة : فلحظني المنصور بعينه ، فقمت حتى وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن ، فأعرض عني فدرت من خلفه ، وغمزت ظهره بإبهام رجلي ، فرفع رأسه وملأ عينه مني ، ثم وثب حتى جثا بين يدي المنصور ، وقال : أقلني يا أمير المؤمنين أقالك الله ، فقال له المنصور : لا أقالني الله إن لم أقتلك ، وأمر بحبس ، وجعل يتطلب ولديه : محمداً وإبراهيم ، ويستعلم أخبارهما .

قال علي الهاشمي ، صاحب غدائه ، دعاني المنصور يوما فإذا بين يديه جارية صفراء وقد دعاها بأنواع العذاب ، وهو يقول لها : ويلك اصدقيني ، فوالله ما أريد إلا الألفة ، ولئن صدقتيني لأصلن رحمي ، ولأتابعن البرّ إليه وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن ابن علي بن أبي طالب ، وهي تقول : لا أعرف له مكانا ، فأمر بتعذيبها ، فلما بلغ العذاب منها أغمى عليها فقال : كفوا عنها فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال : ما دواء مثلها ؟ قالوا : شمس الطبيب ، وصب الماء البارد على وجهها ، وأن تسقى السويق^(١) ، ففعلوا بها ذلك ، وعالج المنصور بعضه بيده ، فلما أفاقته سألتها عنه ، فقالت : لا أعلم ، فلما رأى إصرارها على الجحود قال لها : أتعرفين فلانة الحجامة ؟ فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت : نعم يا أمير المؤمنين تلك في بني سليم ، قال : صدقت هي والله أمتي ابتعتها بمالي ، ورزقي يجري عليها في كل شهر ، وكسوة شتائها وصيفها من عندي ، سيرتها وأمرتها أن تدخل منازلكم ، وتحجمكم ، وتتعرف أحوالكم وأخباركم ، ثم قال لها : أتعرفين فلاناً البقال ؟ قالت : نعم يا أمير المؤمنين ، هو في بني فلان ، قال : صدقت هو والله غلامي ، دفعت إليه مالا وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأطعمة ، وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء وحوائج ، فقال لها : ما تصنعين بهذا ؟ قالت : كان محمد بن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع ، وهو يدخل الليلة وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه

(١) السويق : بفتح السين المشددة : طعام يُتخذ من مدقوق الحنطة والشعير ، سُمي بذلك لانسياقه في الحلق .

عند دخول أزواجهن من المغيب ، فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف ، وأذعنت له بالحديث ، وحدثته بكل ما أراد . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثاني والستون

في ذكر الدواب والوحوش والطيور والهوام والحشرات ،
وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم

حرف الهمزة

[الأسد] : من السباع والأنتى أسدة ، وله أسماء كثيرة : فمن أشهرها أسامة ، والحارث وقصور ، والغضنفر ، وخيذرة ، والليث ، والضرغام ، ومن كناه : أبو الأبطال ، وأبو شبل ، وأبو العباس ، وهو أنواع : منها ما وجهه وجه إنسان ، وشكل جسده كالبحر ، وله قرون سود ، نحو شبر ، ومنها ما هو أحمر كالغتاب ، وغير ذلك ، وتلد أمه قطعة لحم ، وتستمر تحرسه ثلاثة أيام ، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه ، فتفترج أعضاؤه ، وتشكل صورته ، ثم ترضعه وتستمر عيناه مغلقة سبعة أيام ، ثم تفتح ، ويقيم على تلك الحالة بين أبيه وأمّه إلى ستة أشهر ، ثم يتكلف الكسب بعد ذلك ، وله صبر على الجوع والعطش ، وعنده شرف نفس يقال : إنه لا يعاود فريسته ، ولا يأكل من فريسة غيره ، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب ، وفي ذلك يقول بعضهم :

سأترك حُبَّكم مِنْ غير بُغْضٍ وذاك لكثرة الشُّركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهيه
وتجنب الأسدُ ورودَ ماءٍ إذا كان الكلاب يلفن فيه

وإذا أكل نهش نهشاً ، وريقه قليل جداً ، ولذلك يوصف بالبخير^(١) ، وعنده شجاعة وجبن وكرم ، فمن شجاعته : الإقدام على الأمور ، وعدم الاكتراث بالغير ، ومن جنبته أنه يفر من صوت الديك ، والسَّور ، والطَّست ، ويتحير عند رؤية النار ، ومن كرمه أنه لا يقرب المرأة خصوصاً إذا كانت حائضاً ، وقيل : أربع عيون تضيء بالليل : عين الأسد ، وعين الثير ، وعين السَّور ، وعين الأفعى .

وروى أنه لما تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَالْبَخِرُ إِذَا هَوَىٰ ﴾^(٢) . قال عتبة بن أبي لهب : كفرْتُ بربِّ التَّجم ، يعني نفسه ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ينهشه » . فخرج مع أصحابه في غير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له : الزرقاء زار الأسد ، فجعلت فرائضه ترتعد ، فقالوا له : من أي شيء ترتعد فرائضك ، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء ؟ فقال : إن محمداً دعا عليّ ووالله ما أظلت السماء من ذي لهجة أصدق من محمد ، ثم وضعوا العشاء ، فلم يدخل يده فيه ثم جاء النوم فحاطوا أنفسهم بمتاعهم وجعلوه بينهم ، وناموا فجاء الأسد يتهمس ، وشمهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه فضغطة ضغطة كانت إياها فسمع وهو بأخر رفق يقول : ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس ؟! ولبعضهم في الأسد :

(١) البَخِرُ : بناث بخير : سحاب رقاق بيض يأتي قُبُل الصيف .

(٢) الآية الأولى من سورة النجم . وذكر القصة ابن كثير عن ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب من طريق محمد بن إسحاق ، وساق الحديث « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » .

عبوس شموس^(١) مُضْلَخْد مَكَابِدْ
برائثُه شَثْنٌ^(٢) وعيناه في الدُّجَى
جَرى على الأقران لسَلِقَرْن قَاهِرْ
كجمر الغَضَى في وجهه الشرّ ظاهر
بديل بأنياب حدادٍ كأنها
إذا قلص الأشداق عنها خناجر

فائدة : قيل : إن بختنصر رأى في نومه أن هلاكه يكون على يدى مولود ، فجعل يأمر بقتل الأطفال ، فخافت أم دانيال عليه فجاءت إلى بثر فألقته فيه ، فأرسل الله له أسداً يحرسه ! وقيل : إن بختنصر توهم ذلك في دانيال فضرى له أسدين ، وجعلهما في الجب ، وألقاه عليهما فلم يؤذياه ، وصارا يبصبسان حوله ، ويلجسانه ، فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم ، ثم اشتهى الطعام والشراب ، فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشام أن اذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا بمكان كذا ، قال أرمياء : فسرت إلى ذلك الموضع ، فلما وقفت على رأس ذلك الجب ناديته ، فعرفنى فقال : من أرسلك إليّ ؟ قلت : أرسلنى إليك ربك بطعام وشراب ، فقال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، والحمد لله الذى لا يخيب من قصده ، والحمد لله الذى من وثق به لا يكله إلى غيره ، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحساناً ، وبالصبر نجاة وغفرانا ، والحمد لله الذى يكشف ضرنا بعد كربنا ، والحمد لله الذى هو ثقتنا حين تسوء ظنوننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا ، قال : ثم صعد به أرمياء من الجب ، وأقام عنده مدة ثم فارقه ورجع^(٣) .

وحكى أن يحيى بن زكريا عليه السلام مرّ بقبر دانيال عليه السلام فسمع منه صوتاً يقول : سبحان من تعزز بالقدرة ، وقهر العباد بالموت . قال بعض الصالحين : من قال هذه الكلمات استغفر له كل شيء .

وحكى أن إبراهيم بن أدهم كان فى سفره ، ومعه رفقة ، فخرج عليهم الأسد فقال لهم : قولوا : اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام واحفظنا بركتك الذى لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا فلا نهلك ، وأنت رجاؤنا يا الله يا الله يا الله ، قال : فولى الأسد هارباً .

وقيل : لما حمل نوح عليه السلام فى سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه : كيف نظمتم ومعنا الأسد ، فسلط الله عليه الحمى ، وهى أول حمى نزلت فى الأرض ، ثم شكوا إليه العذرة ، فأمر الله تعالى الخنزير فعضط ، فخرج منه الفأر ، فلما كثر وزاد ضرره ، شكوا ذلك لنوح عليه السلام فأمر الله - سبحانه وتعالى - الأسد فعضط ، فخرج منه الهر ، فحجب الفأر عنهم . ويحرم أكل السبع لنهيهِ عليه السلام : « عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ وَكُلِّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ »^(٤) .

خواصه : فمن خواصه أن صوته يقتل التماسيح ، وشحمه من طلى به بدنه لم يقربه سبع ، ومرارة الذكر منه تحل المعقود ، ولحمه ينفع من الفالج ، وإذا وضعت قطعة من جلده فى صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة ، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره ، وهو من الحيوان الذى يعيش ألف سنة على ما ذكر ، وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه .

الإبل : ما خلق الله شيئاً من الدواب خيراً من الإبل ، إن حملت أثقلت وإن سارت أبعدت ، وإن حلبت أروت ، وإن نحرت أشبعت . وفى الحديث : « الإبل عزٌّ لأهلها ، والغنم بركة ، والخيول معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة »^(٥) . وهى من الحيوان العجيب ، وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس ، وقد أطاعها الله للآدمى وغيره حتى قيل إن قطاراً كان ببعض جبله دهن ، فمرت فأرة فجذبت فسار معها القطار بواسطة جذبها له ، وهى مراكب البر ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر : ٨٠] . ولما كانت مراكب البر والبر فيه ما مؤه قليل ، وما مؤه كثير جعل الله تعالى له صبراً على العطش حتى قيل : إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر وفى الحديث : « لا تسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى »^(٦) أى : مما يوسع به على الناس . والذى يعرف « لَا تَسْبُوا

(١) الشُّوس : الثُّور الغير الصلبة .

(٢) الشَثْن : الغليظ الخشن .

(٣) كثيرة هى الحكايات التى تحكى من الإسرائيليات . وللأنبياء معجزات . (٤) رواه مسلم عن ابن عباس .

(٥) « الإبل عز لأهلها .. » إلخ قوله : « الإبل عز لأهلها . » وقيل « الغنم بركة » . أخرجه الحارث بن أبى أسامة برقم [٤١٩ - زوائد طدار الطلائع] ، بسند ضعيف جداً كما قال محققه . وأخرجه أيضاً ابن ماجه [٢٣٠٥] ، وغيره عن عروة .

(٦) « لا تسبوا الإبل .. » . إلخ لم أهد إليه . قال الدميرى : حكاه ابن سيده .

الرَّيحَ فَإِنَّهَا مِنْ نَفْسِ الرَّحْمَنِ ^(١) . قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان : ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه فإنه يسوء خلقه ، فيظهر زبده ، ويقل رغاؤه فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل ، ويقل أكله ، ويخرج له عند رغاؤه شقشقة ^(٢) لا تعرف من أي شيء هي من أجزائه ؟ وهو من الأحرار حتى قيل : إنه لا ينزو على أمه ، ولا على أخته ، حتى قيل : إن بعض العرب ستر ناقة بثوب ، ثم أرسل عليها ولدها ، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله فأكله ، ثم حقد على صاحبه حتى قتله ، وليس له مرارة ، ولذلك كثر صبره ، وقيل : يوجد على كبده شيء رقيق يشبه المرارة ، ينفع الغشاوة في العين كحلاً ، وفي معدته قوة ، حتى إنها تهضم الشوك وتستطيعه ويحل أكله بالنص والإجماع . وأما تحريم يعقوب ^(٣) أكلها فباجتهاد منه ، وذلك أنه كان يسكن البوادي ، فاشتكى عرق النسا فلم يجد ما يلائمه إلا ترك أكل لحومها فلذلك حرمها . وأما انتقاص الوضوء بأكل لحمها ، فاختلف العلماء في ذلك فذهب الأكثرون إلى أنه لا ينقض ، وعليه الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبي ، وابن عباس ، وأبو الدرداء ، وأبو طلحة ، وعامر بن ربيعة ، وأبو أمامة وجماهير التابعين ، وبه أخذ مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم ، وخالف في ذلك أحمد ، وإسحاق ، ويحيى بن يحيى ، وابن المنذر ، وابن خزيمة واختاره البيهقي ، وهو مذهب الشافعي القديم . خواصه : قال ابن زهر وغيره : أكل لحمه يزيد في الباه ، وفي الإنعاز ، بعد الجماع ، وبوله يفيت السكران ، ووبره إذا أحرق وذّر على دم سائل قطعه ، وقراده إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه .

الأرضة : - بفتح الهمزة والراء - دوية صغيرة ، كنصف العدسة ، تأكل الخشب والورق ، ولما كان فعلها في الأرض أضعاف اسمها إليها ، قال القزويني : إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان ، تطير بهما ، ويقال : إنها الدابة التي دلت الجن على موت سليمان ^(٤) . ومن شأنها أنها تبني لنفسها بيتاً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطاً من أسفله إلى أعلاه ، وله في إحدى جهاته باب مربع ، ومنه تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم ، والنمل عدوها وهو أصغر منها فيأتي من خلفها ، ويحتملها ، ويمشي بها إلى جحره ، لأنه إذا أتاها مستقبلاً لا يغلبها .

الأرنب : حيوان شبه العنّاق ، قصير اليدين ، طويل الرجلين ، يطأ الأرض على مؤخر قدميه ، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى ، وله شدة شبق ، وربما تسفد ^(٥) وهي حبلى ، ويكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى . ومن عجائبها أنها تنام وعيناها مفتوحتان ، فيأتي الصياد فيظنها مستيقظة ، قبل من رأى أرنباً عند خروجه من بيته أول ما يخرج ، أو رآه عند قيامه من نومه ، واصطبح به لم تقض له حاجة في ذلك اليوم ، ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة ، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفاً على أولادها من الإنسان ، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية ، حتى إنها تخرب الجدران ، وعند ولادتها يتحل شعرها ، وهي تحضن الأولاد إلى عشرين يوماً ، ومن طبعه أنه أبله ، وفيه قوة وشدة وفي سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالسنانير ، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة ، وعند سفاده تدير له وجهها فإذا ملكها بعد ذلك ، فإنها تجرى به وهو راكب عليها ويجرى معها .

فائدة : ذكر ابن الأثير في الكامل : أن صديقاً له اصطاد أرنباً وله أنثيان وذكر وفرج .

وقيل التقطت الأرنب ثمرة فاختلسها الثعلب ، فأكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضب فقالت الأرنب : يا أبا جسل فقال : سمياً دعوت ، قالت : أتيناك لنختصم ، قال : عادلاً حكمتما ، قالت : فاخرج إلينا ، قال في بيته يؤتى الحكم . قالت : إني وجدت ثمرة حلوة ، قال : فكليها ، قالت : قد اختلسها الثعلب ، قال : لنفسه بغى الخير ، قالت : فلطمته ، قال : بحقك أخذت ، قالت : فلطمني ، قال : اقتص . قالت : فاقض بيننا ، قال : قد قضيت . فذهبت أقواله أمثالاً . ومن ذلك ما حكى أن عدى بن أرطاة أتى شريحاً القاضي في مجلس حكمه ، فقال له : أين أنت ؟ قال : بينك وبين الحائط قال : فاسمع مني ، قال : للاستماع جلست ، قال : إني تزوّجت امرأة ، قال : بالرفاء والبنين . قال : فشرط أهلها أن لا أخرجها من بينهم ، قال : أوف لهم بالشرط ، قال : فأنا أريد الخروج ،

(١) « لا تسبوا الريح فإنها .. » . إلخ [كشف الخفاء ٢٨٠/٢] ، قال العجلوني رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ « لا تسبوا الريح فإنها من روح الله » .

(٢) شَقَشَقَ الجمل: هَدَرَ وهَاَجَ .

(٣) سَفِدَ: أي نَزَا .

قال : الشرط أملك ، قال : أريد أن أذهب ، قال : في حفظ الله . قال : فاقض بيننا ، قال : قد فعلت ، قال : فعلى من قضيت ؟ قال : على ابن أملك . قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالك .

الخواص : قال الجاحظ : من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر ، وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش العارض من البرد ، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر ، ولدت ذكراً ، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى ، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل ، والأرنب البحري من السموم فلا يحل أكله .

سقتقور : دابة شكلها كالوزغة^(١) ، إذا أخذت ، وسلخت وملحت ، وشرب منها مثقال زاد في الباه ، وهو من الأشياء النفيسة عند أهل الهند يقال : إنه يهدى إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب ، ويحشونه من ملح مصر ، فإذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أو بيض نفع نفعاً عظيماً .

الأفعى : الأنثى من الحيات والذكر أفعوان ، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال ، ويعرف بالشجاع والأسود ، وهو أشر الحيات وأشرها حيات وأفاعي سجستان ، ومن أعجب ما يحكى عنها أنها لدغت إنساناً في رجله فانصدعت جبهته . وحكى أنها نهشت ناقة وفصيلها يرتضع فمات قبل أمه ، وقيل : لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له : يا شبيب أدخلت سجستان ؟ فقال له : نعم . قال : صف لي أفاعيها ، قال : يا أمير المؤمنين ، هي دقاق الأعناق ، صغار الأذنان ، مقلصة الرؤوس رُقش^(٢) برش ، كأنما كُسيْنَ أعلام الحبرات ، كبارهن حُتوف ، وصغارهن سيوف . وقيل : إنها تندفن في التراب أربعة أشهر في البرد ، ثم تخرج وقد أظلمت عيناها ، فتمر بشجر الرزايانج وهو الشمر الأخضر ، فتحك عيناها به ، فيرجع إليها بصرها ، فسبحان من ألهمها ذلك . وقال الزمخشري : إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ، ألهمها الله تعالى أن تأتى البساتين وتلقى نفسها على هذه الشجرة ، وتحك عيناها بها ، فتبصر ، وقيل : إذا قطع ذنبها عاد كما كان ، وإذا قلع نابها عاد بعد ثلاثة أيام ، وهي أعدى عدو للإنسان .

وقال بعضهم : رأيت حية قد ابتلعت كبشاً عظيم القرنين ، فجعلت تضرب به الحجارة يميناً ويساراً حتى كسرت القرنين ، وابتلعتة وقرنيه . والله تعالى أعلم . وقيل : إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر ، وقيل : إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها ، وقيل : إن جلدها ينسلخ عنها في كل سنة مرة . وقيل : إن الجلد لا ينسلخ وإنما الذى ينسلخ قشر فوق الجلد ، وغلاف يخلق لها كل عام ، وهى تبيض على عدد أضلاعها أى ثلاثين بيضة فيجتمع عليها النمل ، فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً . ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء ، ولا تريده ، ولكنها إذا شممت رائحة الخمر فلا تكاد تصبر عنه ، مع أنه سبب هلاكها ، لأنها إذا شربت سكرت فتعرضت للقتل ، والذكر لا يقيم في الموضع ، وإنما تقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة فإذا قويت أخذتهم وانسابت ، فأى جحر وجدته دخلت فيه ، وأخرجت صاحبه منه ، وعينها لا تدور ، وإذا قلعت عادت . ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان ، وتفرح بالنار ، وتقرب منها وتحب اللبن حبا شديداً ، وإذا دخلت بصدرها فى جحر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه ، ولو قطعت قطعاً ، وليس لها قوائم ولا أظفار ، وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها . وحكى عمر بن يحيى العلوى قال : كنا فى طريق مكة ، فأصاب رجلاً منا استسقاء فاتفق أن العرب سرقوا منا قطار جمال على أحدها ذلك الرجل ، قال : ثم بعد أيام جمعنا المقادير ، فوجدته قد برئ ، فسألناه عن حاله ، فقال : إن العرب لما أخذوني ، جعلوني فى أواخر بيوتهم ، فكنت فى حالة أتمنى فيها الموت ، وبينما أنا كذلك إذا أتوا يوماً بأفاعى اصطادوها وقطعوا رءوسها وأذنانها وشووها بعد ذلك ، فقلت فى نفسى : هؤلاء اعتادوها فلا تضرهم ، فلعلنى إن أكلت منها مت ، فاسترحت ، فاستطعمتهم ، فأطعموني واحدة ، فلما استقرت فى بطنى أخذنى النوم ، فنمت نوماً ثقيلاً ، ثم استيقظت ، وقد عرقت عرقاً شديداً ، واندفعت طبيعتى نحو مائة مرة فلما أصبحت وجدت بطنى قد ضمير ، وقد انقطع الألم فطلبت منهم مأكولاً فأكلت وأقمت عندهم أياماً ، فلما نشطت ، ووثقت من نفسى بالحركة ، أخذت فى الطريق مع بعضهم ، وأتيت الكوفة .

فائدة : قيل : إن الريحان الفارسى لم يكن قبل كسرى ، وإنما وجد فى زمانه ، وسببه أن كسرى كان ذات يوم

(٢) أى فيه نقوش ونُقط مختلفة الألوان.

(١) الوزغة : سام أبرص .

جالسًا في بعض متفرجاته ، إذ جاءت حية فانسابت بين يديه ، وتمرغت وصارت تتقلق مثل الذي يشتكى ، فأراد بعض الجند قتلها فمنعهم الملك ، ثم قال لهم : انظروا أمرها فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه ، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذي تريده ، قال : فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه ، قال : فنظروا فإذا فيه حية عظيمة ، وعلى ظهرها عقرب أسود ، فنخسها بعضهم برمح فقتلها وتركوها ، ورجعوا فأخبروا الملك بذلك ، فلما كان الغد جاءت الحية للملك وفي معها بزر ، فنثرته بين يدي الملك ، وذهبت ، فقال الملك : إنها أرادت مكافأتنا بجعلوه في الأرض لننظر ما يكون من أمره ، قال : ففعلوا ذلك فطلع منه الريحان ، قال : فلما انتهى أمره أتوا به إلى الملك قال : وكان به زكام فشمه فبرئ .

لطيفة : من غريب ما اتفق لعماد الدولة ، أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه ، وطلبوا منه مالا ، ولم يكن عنده ما يرضيهم به ، فاغتم لذلك ، ونام مستلقيا على قفاه مفكراً في ذلك ، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ، ودخلت في سقف آخر ، قال : فطلب سُلماً وصعد لينظر المكان الذي خرجت منه ، فلما رآه وجد كوة فنظر في داخلها فإذا هي مطمورة ، فدخلها فوجد فيها صندوقاً فيه خمسمائة ألف دينار فأمر بإخراجه وإنفاقه على عسكره . ومن ألطف ما اتفق له أيضاً : أنه كان بتلك البلد خياط أطروش ^(١) ، وكان الملك الذي قبله قد أودع وديعة مال ، قال : فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذي يخيط للملوك ، قال : فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة ، فلما حضر بين يدي عماد الدولة قال له : إن فلاناً الملك لم يدع عندي سوى اثني عشر صندوقاً ، ولم أدر ما فيها ، فأمر بإحضارها ، فأحضرها فأخذها عماد الدولة ، ووسع بها على جنده ، وتعجب من هاتين القضيتين ، فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له .

وأمر النبي ﷺ بقتل الحيات ^(٢) بعد أن تنذر ثلاث مرات ، وقيل : ثلاثة أيام ، وأما سكان البيوت فالإنذار لها متعين ، وفي الحديث : « مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَكَأَنَّمَا قَتَلَ مُشْرِكًا ، وَمَنْ لَيْسَ خُفًا فَلْيَنْقُضْهُ ، وَمَنْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْظِفْهُ » ^(٣) .

الخواص : يقال : إن دمها يجلو البصر ، وقلبها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر ، وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن ، الأيمن للأيمن ، والأيسر للأيسر ، ولحمها قال بقراط الحكيم : من أكله أمن من الأمراض الصعبة .
الأنيس : وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم ، وهو طير له لون حسن ، غذاؤه الفاكهة ، ومأواه الأنهار والبساتين والغياض ، وله صوت حسن كالقُمُرَى .
الإوز : طير يحب السباحة ، وفراخه تخرج من البيضة تسبح .

الخواص : في جوفه حصاة تنفع المبطون ، ودهنه ينفع من ذات الجنب ، وداء الثعلب إذا طلى به ، ولسانه ينفع لقطار البول ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم .

الإيل : - بتشديد الياء المكسورة - ذكر الوعل ، وله أسماء باختلاف اللغات ، وهو يشبه بقر الوحش ، وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ، ولا يتضرر بذلك ، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر ، فأكل السرطان فيشفى .

خواصه : أن السمك يحب رؤيته ، وهو يحب ذلك ، ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر ، والصيداؤون يعرفون ذلك ، فيلبسون جلده ، ليراهم السمك فيأتي لهم ، وهو مولع بأكل الحيات ، وربما لسعته فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه ، حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك ، ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع ، فتؤخذ وتجعل دواء للسم ، وهو الذي يسمى بالبنزهر الحيواني ، وأجوده الأصفر ، وأكثر ما يكون ببلاد الهند والسند وفارس ، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها وإن وضعه الملسوع في فيه نفعه ، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد سنتين ، وينبتان في أول الأمر مستقيمين ، ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب ، ولا يزال يزيد إلى ست سنين ، فحينئذ يصيران كخنثيتين ، ثم بعد ذلك يلقيهما في كل سنة مرة ثم ينبتان ، قال أرسطو : وهذا النوع يصاد بالصفير والأصوات المطربة ، فإنه يحب

(١) أطروش : الأطرش ، الأصم .

(٢) من قتل حية . . . إلخ انظر مسند أحمد (١/ ٣٩٥ ، ٤٢١) .

(٣) وأمر النبي ﷺ بقتل الحيات . انظر مسند أحمد (٣/ ٤٥٢) .

الطرب ، والصيادون يشغلونه بذلك ، ويأتونه من ورائه ، فإذا رأوه قد استرخت أذناه ، وثبوا عليه ، وقرنه مصمت ، وإحليله من عصب لأعظم فيه ، ولا لحم ، وهو من الحيوان الذي يزيد في السمن ، فإذا حصل له ذلك فر من مكانه خوفاً من الصيادين ، وحكمه : حل أكله .

الخواص : إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التي فيه ، وإذا أحرق واستاك به الذي به صفرة الأسنان زال ذلك عنه ، ومن علق عليه شيء منه ذهب نومه ، ومن خواصه أن دمه يقتت الحصاة التي بالمثانة شرباً والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

[حرف الباء الموحدة]

باز : كنيته أبو الأشعث : وهو من أشد الحيوان تكبراً ، وأضيقتها خلُقاً ، قال القزويني . إنها لا تكون إلا أنثى وذكرها من غيرها إما من جنس الحدأة أو الشواهين ، ولأجل ذلك تختلف ألوانها : وهو أصناف : منها البازي ، والباشق ، والشاهين ، والبيدق ، والصقر ، والبازي أحرها مزاجاً لأنه لا يصبر على العطش ، فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة ، والظل الظليل ، وهو خفيف الجناح ، سريع الطيران ، تكثر أمراضه من كثرة طيرانه ، لأنه كلما طار انحط لحمه ، وهزل ، وأحسن أنواعه ما قل ريشه ، واحمرت عيناه مع حدة فيهما . قال الشاعر :

لو استضاء المرء في إدلاجهِ بعينه كفشهُ عن سراجهِ

ودونه الأزرق الأحمر العينين ، والأصفر دونهما . ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، شديد الانحطاط من الجوّ ، غليظ الذراعين مع قصر فيهما .

لطيفة : من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد ، فأرسل بازا فغاب قليلاً ، ثم أتى وفي فمه سمكة ، فأحضر الرشيد العلماء ، وسألهم عن ذلك ، فقال مقاتل : يأمر المؤمنين ، رويانا عن جدك ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : إن الجو معمور بأسم مختلفة الخلق ، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك ، لها أجنحة ليست بدوات ريش ، فأجاز مقاتلاً على ذلك وأكبره .

باله : سمكة عظيمة . قال القزويني : يقال : إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع ، وقال غيره : خمسون ، ويقال لها : العنبر ، وهي تظهر في بعض الأحيان لأصحاب المراكب ، فإذا رأوها طلبوا بالطبول ، حتى إنها تنفر لأن لها جناحين كالقناطر ، إذا نشرتهما أغرقتهما ، فإذا بغت على حيوان البحر ، وزاد شرها ، أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع ، تلتصق بأذننها ولا خلاص لها منها ، فتتزل إلى قعر البحر ، وتضرب رأسها به حتى تموت ، ثم تطفو بعد ذلك ، فيقذفها الريح إلى الساحل ، فيأخذها أهله ، ويشقون جوفها ، ويستخرجون منها العنبر .

بيفاء : هي أصناف كثيرة منها الأخضر ، والرمادي والأصفر ، والأبيض ، يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها وصوتها وفصاحتها . حكى أنه أهدى لمعز الدولة درة بيضاء ، سوداء الرجلين والمنقار ، ويقال : إن نوعاً منها يقرأ القرآن .

الخواص : من أكل لسانها تفصح ، وإذا جفف دماها ، وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة ، وزيلها يخلط بماء الحصرم ، ويكتحل به ينفع من الرمذ ، وظلمة البصر .

بجع : طائر أبيض اللون يميل إلى صفرة ، طويل المنقار كبير البطن ، أكثر أكله السمك .

بح : طائر لطيف ، يأوى أطراف الماء وهو خلقة شريفة لم يوجد غالباً إلا اثنين فقط .

براق : هو الدابة التي ركبها النبي ﷺ ، وهو دون البغل ، وفوق الحمار أبيض اللون .

برذون : نوع من الخيل ، دون الفرس العربي ، وفي الحديث « أن النبي ﷺ ركبهُ » ^(١) . وكذا عمر رضي الله عنه فلما ركبهُ عمر جعل

(١) وفي الحديث أن النبي ﷺ ركبهُ . جاء في المواهب اللدنية أنه عليه السلام كان له من البغال : دُلْدُلٌ ، وكانت شهباء ، وفضة ، وأخرى أهداها له صاحب أيلة ، وأخرى من ذومة الجندل ، وأخرى من عند النجاشي .

يتخلخل به ، فنزل عنه ، وضرب وجهه ، وقال : لا علم الله من علمك هذه الخيلاء ، ولم يركب برذونا قبله ولا بعده ، وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه ، وأنشد السراج الوراق في ذم البراذين يقول :

لصاحب الأحباس برذونة بعيدة العهد عن القرط
إذا رأته خيلاً على مربوط تقول : سبحانك يا معطى
تمشى إلى خلف إذا ما مشت كأنما تكتب بالقبطى

الخواص : إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبداً ، وزبله يخرج المشيمة والجنين الميت ، وإذا جفف وذّر منه على من به الرعاف انقطع رُعاؤه وكذا الجرح .

برغوث : تفتح منه الباء وتضم وكنيته أبو طامر ، وأبو عدى ، وأبو وثاب ، وهو يشب إلى ورائه .

وحكى : أنه يعرض له الطيران كالنمل ، وهو يطيل السفاد ، ويبيض ، ويفرخ ، وأصله أولاً من التراب لاسيما في الأماكن المظلمة ، وسلطانه في أواخر الشتاء ، وأول فصل الربيع ، ويقال : إنه على صورة الفيل ، وله أنياب وخرطوم ، وقال بعضهم : ديبها من تحت أشد من عضها ، وليس ذلك بديب ، ولكن البرغوث خبيث ، يستلقى على ظهره ، ويرفع قوائمه ، فيزغزغ بها فيظن من لا علم له أنه يمشى تحت جنبيه ، وكان أبو هريرة رضي الله عنه يفلى ثوبه فيلتقط البراغيث ، ويدع القمل ، فقال له أنس في ذلك فقال : أبداً بالفرسان ، وأكر على الرجالة وأنشد أعرابي :

ليل البراغيث أعيانى وأنصبنى لا بارك الله فى ليل البراغيث
كأنهن وجلدى إذ خلون به قضاة سوء أغاروا فى المواريث
وقال أبو الرماح الأزدي :

تطاول بالفسطاط ليلى ولم يكن بوادى الغضى^(١) ليلى على يطول
تورقنى حذب^(٢) قصار أذلة وإن الذى يؤذينه لذليل
إذا جلت بعض الليل منهن جولة تعلقن فى رجلى حيث أجول
إذا ما قتلناهن أضعفن كثرة علينا ولا ينمى لهن قتيل
ألا ليت شعرى هل أبستن ليلة وليس لبرغوث على سبيل ؟
وقال ابن أبيك الصفدى :

أشكو إلى الرحمن ما نالنى من البراغيث الخفاف الثقال
تمصّبوا بالليل لما دروا أنى تقنعت بطيف الخيال

ولا يُسب البرغوث لما ورد أن النبى ﷺ سمع رجلاً يسب برغوثاً فقال : « لا تسبه فإنه أيقظ نبيا إلى صلاة الفجر »^(٣) .
فائدة : سئل مالك عن البرغوث ، من يقبض روحه ؟ فقال : أله نفس ؟ قيل : نعم . قال : ﷻ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﷻ [الزمر: ٤٢] .

ولقد شكّا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام ، فكتب إليه إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليقرأ : ﷻ وما لنا ألا نتوكل على الله ﷻ [إبراهيم: ١٢] الآية . وقال حنين بن إسحاق : الحيلة فى دفع البرغوث ، أن تأخذ شيئاً من الكبريت فتدخن به فى البيت فإنها تفر من ذلك . وقيل : يرش البيت بماء السذاب ، وقيل : مشاق المراكب يحرق فى البيت مع قشور النارج .

بعوض : قيل : إنه على خلقة الفيل ، إلا أنه أكثر أعضاء منه ، فإن للفيل أربعة أرجل ، وللبعوض ستة ، ويزيد

(١) الغضى : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب ، وأهل الغضى : أهل نجد لكثرة هناك .

(٢) حذب : جمع أخذب ، وحذب الرجل : ارتفع ظهره فصار ذا خذبة ، وحذب ظهره .

(٣) لما ورد أن النبى ﷺ سمع رجلاً يسب برغوثاً . . . إلخ قال النجم : أخرجه الطبرانى فى الدعاء .

عليه بأربعة أجنحة ، وله خرطوم مجوف نافذ فإذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه ، فهو له كالبلعوم والحلقوم ، ومما ألهمه الله تعالى أنه إذا جلس على عضو إنسان يتبع مسام العروق ، فإنها أرق وأسرع له في إخراج الدم ، وعنده شره في مصه حتى قيل : إنه لا يمص شيئاً فيتركه باختياره ، إلى أن ينشق أو يطار . ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع ، فيتركه طريحاً . وقال الجاحظ : من علم البعوض أن وراء جلد الجاموس دماً ؟ وأن ذلك الدم غذاء لها ؟ وأنها إذا طعنت في ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ، ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رقيقة الحد لانكسرت فسبحان من رزقها على ضعفها بقوة وقدرته ! قال بعضهم :

أقول لنازل البستان طوبى
يُمَلِّمُ لهُ فليس له قرار
حماء قرصه وطنينه أن
كأنك حين تهدي بالأغاني
لعيشك لم تشك فيه البعوض
ويشخنه فليس له نهوض
يبيت وعينه فيها غموض
تكرر في مسامعك العروض

ومن الحكم التي أودعها الله تعالى إياه أن جعل الله فيها قوة الحافظة والفكر ، وحاسة اللمس والبصر والشم ، ومنفذ الغذاء ، وجوفا ومخا ، وعروفاً وعظاماً ، فسبحان من قدر فهدى ولم يترك شيئاً سدى ، وقال الزمخشري في تفسير سورة البقرة في ذلك :

يامن يرى مد البعوض جناحها
ويرى مناط عروقها في نحرها
ويرى خريز الدم في أوداجها
ويرى وصول غذا الجنين ببطنها
ويرى مكان الوطء من أقدامها
ويرى ويسمع حسن ما هو دونها
امنن على بتوبة تمحوبها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
والمخ من تلك العظام النحل
متنقلاً من مفصل في مفصل
في ظلمة الأحشا بغير تمهل
في سيرها وحديثها المستعجل
في قاع بحر مظلم متهول
ما كان منى في الزمان الأول

بغل : معروف ، وكنيته أبو قموص ، وأبو حرون ، وله كنى غير ذلك كثيرة وهو مركب من الفرس والحمار ، ولذلك صار له صلابة الحمار ، وعظم الخيل ، وهو عقيم لا نسل له ، روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي بن أبي طالب أنها كانت تتناسل ، فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع في نقل الحطب لنار المنجنيق ، فقطع الله نسلها . وهو أشر الطباع لأنه تجاذبه الأعراق المتضادة ، والأخلاق المتباينة ، والعناصر المتباعدة ومن العجيب أن كل عضو فرضته منه كان بين الفرس والحمار .

الخواص : يقال : إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرد الفأر إذا بخر به البيت ، وإذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بدهن الأس ، وجعل على رأس الأقرع نبت شعره ، وزيله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكر .

بقر : حيوان شديد القوة ، خلقه الله تعالى لمنفعة الإنسان ، وهو أنواع : منها الجواميس ، وهي أكثر ألباناً ، وكل حيوان إنائه أرق أصواتاً من ذكوره إلا البقر ، وأثناء يضربها الفحل في السنة مرة ، وإذا اشتد شبقها تركت المرعى ، وذبحت ، وإذا طلع عليها الفحل التوت تحته إذا أخطأ المجري لشدة صلابة ذكره . قال المسعودي : رأيت بالرتى البقر تحمل كالبعير فبرك على ركبتها ثم تثور بالحمل .

عجبية : حكى في الإحياء أن شخصاً كان له بقرة ، وكان يشوب لبنها بالماء ، ويبيعه ، فجاء السيل في بعض الأودية وهي واقفة ترعى ، فمر عليها ففرقها ، فجلس صاحبها يندبها ، فقال له بعض بنيه : يابأت لا تندبها فإن المياه التي كنا نخلطها بلبنها اجتمعت ففرقتها .

فائدة : ذكر ابن الفضل في كتابه عن وهب بن منبه أنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينة ، فخلق الله تعالى ملكاً في نهاية العظم والقوة ، وأمره أن يدخل تحتها ، ويجعلها على منكبيه ، فدخل وأخرج يداً من المشرق ، ويداً من المغرب ، وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ، ثم لم يكن لقدميه قرار فخلق الله

تعالى صخرة من ياقوتة حمراء في وسطها سبعة آلاف ثقب ، فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ، ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمي الملك ، ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً يقال له : كيواء له أربعة آلاف عين ، ومثلها أنوف وأذان وأفواه وألسنة وقوائم ، ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام ، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة وحملها على ظهره وقرونه ، ثم لم يكن للثور قرار فخلق الله تعالى حوتاً يقال له : يهموت ، ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته ، ثم جعل الحوت على ماء ، ثم جعل الماء على الهواء ، ثم جعل الهواء على ماء ، أيضاً ، ثم جعل الماء على الثرى ثم الثرى على الظلمة ، ثم انقطع علم الخلائق ^(١) .

الخواص : شحم البقر إذا قرنها إذا سحق وجعل في طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى ! ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء وإذا طلى به على الأثر الأسود في البدن أزاله ، وخصية الفحل إذا جففت وسحقت وجعلت في عسل ، وأكلت فإنها تزيد في الباه ^(٢) وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان ، وإذا خلط مع السكنجيين وشرب نفع من الطحال على ما ذكر .

بومة : وكنيتها أم الخراب ، وأم الصبيان ، ومن طبعها أن تدخل على كل طير في وكرة وتأكل أفراخه ، ولمعاداة الطيور لها يجعلها الصيادون في أشراكهم حتى يقع عليها الطير ، ونقل المسعودي عن الجاحظ أن البومة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظن أنها حسناء ، وهي أصناف وكلها تحب الخلو بنفسها .

الخواص : من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها ، والأخرى مفتوحة ، فإذا أخذت المفتوحة ، وجعلت تحت فصوص خاتم فمن لبسه لم ينم ما دام في يده ، وعكسها ، المغموضة ، وإذا أردت معرفة ذلك فألقهما في الماء فالراسبة للنوم ، والطافية لليقظة ، وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة وهي نائمة تحدثت بجميع ما فعلته في نومها .

بوقير : طير أبيض يأتي منه في كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد ، يقال له : جبل الطير فيه كوة فتدخل من تلك الكوة ، فيمسك منها شيء ، فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب ، وإن أمسكت ثنتين كان كثير الخصب ، وإن لم تمسك شيئاً كانت السنة مجدبة ، وأهل تلك الناحية تعرف ذلك ، وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ .

[حرف التاء]

تمساح : حيوان عجيب ، على صورة الضب ، له فم واسع ، وفيه ستون ناباً ، وقيل : ثمانون وبين كل نابين سن صغيرة ، وهي أنثى في ذكر ، إذا أطبق فمه على شيء لا يفلته حتى يخلعه من موضعه ، وله لسان طويل ، وظهر كالسلفاة ، ولا يعمل الحديد فيه ، وله أربعة أرجل وذنب طويل ، وهو لا يوجد إلا بنيل مصر ، وقال المسافرون ، إنه يوجد ببحر الهند ، وطوله في الغالب ستة أذرع ، إلى عشرة في عرض ذراعين أو ذراع ، ويقوم في البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر ، وذلك في زمن الشتاء ، ويتغوط من فيه في الغالب ، ويحصل في فيه الدود فيؤذيه ، فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ، ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيراً يقال له : القطقاط فيدخل في فيه فيأكل ما فيه من الدود ، فيحصل له راحة ، فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى في جناحيه ، كريشة الفصاد فيؤلمه ، فيفتح فاه ، فيخرج ، ولذلك يضرب به المثل ، فيقال : جازاه مجازاة التمساح ! وزعم بعض الباحثين عن أحوال التمساح أن له ستين ناباً ، وستين عرقاً ، ويسفد ستين مرة ، ويبيض ستين بيضة ، ويحضن ذلك ستين يوماً ، ويعيش ستين سنة ، فإذا أفرخ فما صعد الجبل صار وراً ^(٤) ، وما نزل البحر صار تمساحاً ، فكه الأسفل

(١) علم ذلك عند ربى ، ومثل هذه الأخبار من الإسرائيليات التي لا أساس لها .

(٢) الباه : القدرة على الجماع .

(٣) الإنعاظ : تحرك الشهوة في قوة .

(٤) الوزل : حيوان من الزحافات ، طويل الأنف والدنّب ، دقيق الخصر ، أطول من الضب وأقصر من التمساح يكون في البر والماء ، يالك العقارب الحيات .

لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظماً متصلاً بصدره ، وإذا أراد السفاد أخذ أنثاء وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها فإذا قضى حاجته قلبها ثانياً لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت ، وما ذلك إلا أنها لا تستطيع الانقلاب ليؤسـة ظهرها وصلابته ، وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان ، وهو كلب الماء يقال : إنه يتلبط بالطين ويغافل التماسح ، ويقذف بنفسه في فيه فيبتلعه لنعومته ، فإذا حصل في جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مراق بطنه فيقتله .

الخواص : عينه تشدّ على من به رمد اليمنى لليمنى ، واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر في أذن من به صمم نفعه .
تين : ضرب من الحيات وهو طويل كالنخلة السحوق ، وجسده كالليل ، أحمر العينين لهما بريق . واسع الفم والجوف ، ويبتلع الحيوان ، وأول أمره يكون حية متمرده ، ثم تطغى وتسلط على حيوان البر ، فيستغيث منها فيأمر الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها في البحر ، فتقيم فيه مدة ثم تسلط على حيوانه أيضاً ، فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بالقاءها في النار ، فيعذب بها الكافرين ، وقيل : يأمر الله تعالى بالقاءها ، على يأجوج ومأجوج ، وروى ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَسْلُطُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِ فِي قَبْرِه تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ تَيْئَانًا تَنْهَشُهُ وَتَلْدَغُهُ ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَلَوْ أَنَّ تَيْئَانًا مِنْهَا نَفَخَ عَلَى الْأَرْضِ مَا أَثْبَتَ فِيهَا خَضِرَاءٌ »^(١) .

[حرف الثاء]

ثعلب : وهو معروف ذو مكر وخديعة ، وله حيل في طلب الرزق . فمن ذلك أنه يتماوت وينفخ بطنه ، ويرفع قوائمه حتى يظن أنه مات ، فإذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده ، وجيلته هذه لا تتم على كلب الصيد . ومن حيلته : أنه إذا تعرض للقنفذ نفش القنفذ شوكة فيسلح هو عليه ، فيلم شوكة فيقبض على مراق بطنه ، ويأكله ، وسلحه أمتن من سلاح الجباري . ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه ، وجعلها في فيه ونزل في الماء والبراغيث تطير قليلاً حتى تجتمع في تلك الصوفة فيلقبها في الماء ، ويخرج . وفروه أذفا الفراء ، وفيه الأبيض ، والرمادي ، وغير ذلك . وذكر في عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبي منصور السمانى ثعلب له جناحان من ريش إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد ألصقهما .

لطيفة : ذكر ابن الجوزي في آخر كتاب الأذكىاء ، والحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء عن الشعبي أنه قال : مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ، ما خلا الثعلب ، فتم عليه الذئب ، فقال الأسد : أين كنت يا أبا الفوارس ؟ قال : كنت أطلب لك الدواء ! قال : وأى شيء أصبته ؟ قال : قيل لى خرزة فى عرقوب أبى جعد ! قال : فضرب الأسد بيده فى ساق الذئب فأدماه ، ولم يجد شيئاً فخرج ودمه يسيل على رجله ، وانسل الثعلب فمر به الذئب فناده يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالأمانات . وقيل : خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش ، وضباً ، وغزالاً ، ثم جلسوا يقتسمون ، فقال الأسد للذئب : اقسم علينا فقال : حمار الوحش لى ، والغزال لأبى الحارث ، والضب للثعلب ، فضربه الأسد فى رأسه فرضخها فقال الثعلب : أنا أقسم حمار الوحش لأبى الحارث يتغذى به ، والغزال لأبى الحارث يتعشى به ، والضب لأبى الحارث يتنقل به فيما بين ذلك . فقال له الأسد : لله درك من قرضى ! ما أعلمك بالفرائض ، من علمك هذا ؟ قال : علمنى التاج الأحمر الذى ألبسته هذا وأشار إلى الذئب .

وحكى : أن الثعلب مر فى السحر بشجرة فرأى فوقها ديكاً فقال له : أما تنزل نصلى جماعة ؟! فقال : إن الإمام نائم خلف الشجرة فأيقظه فنظر الثعلب فرأى الكلب فضرب وولى هارباً فناده أما تأتى لنصلى ؟! فقال : قد انتقض وضوئى ، فاصبر حتى أجدد لى وضوءاً وأرجع . ومن العجيب فى قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله ، والثعلب يصيد القنفذ فيأكله ، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها ، والأفعى تصيد العصفور ، والعصفور يصيد الجراد ،

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٣٨/٣] وعبد بن حميد والدارمى .

والجراد يصيد الزنابير ، والزنابير تصيد النحل ، والنحل تصيد الذباب ، والذباب يصيد البعوض ، والبعوض يصيد النمل ، والنمل يأكل كل ما تيسر من صغير وكبير ، فتبارك الله الذي أتقن ما صنع .

الخواص : رأسه إذا ترك في برج حمام هرب الحمام منه ، ونابه يشد على الصبي يحسن خلقه ، ومرارته يجعل منها في أنف المصروع يبرأ ، ولحمه ينفع من اللقوة^(١) والجذام ، وخصيته تشد على الصبي تنبت أسنانه ، وفروه أنفع شيء للمربوط ، ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون بلوغ ، وطحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ .

ثعبان : هو الكبير من الحيات ذكراً كان أو أنثى ، وهو عجيب الشأن في هلاك بني آدم ، يلتوى على ساق الإنسان ، فيكسرها ، وليس له عدو إلا النمس ، ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر .

لطيفة : قيل : إن عبد الله بن جدعان كان في ابتداء أمره صعلوكاً ، وكان شريراً يفتك ، ويقتل ، وكان أبوه يعقل عنه ، فضجر من ذلك ، وأراد قتله ، فخرج هارباً على وجهه ، فتوصل لجبل فوجد فيه شقاً فدخل فيه فوجد في صدره شيئاً كهية الثعبان ، فدنا منه وقال : لعله يشب عليّ فيقتلني وأستريح ، قال : فدنا منه فوجده مصنوعاً من ذهب ، وعيناه ياقوتتان ، ثم وجد من داخله بيتاً فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة ، وعند رؤوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم ، وإذا بهم رجال من جرحهم ، وفي وسط البيت كوم من الياقوت الأحمر والزمرد ، والذهب والفضة ، واللؤلؤ فأخذ منه قدر ما يحمل ، وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم ، ورجع فلم يدر مكان الشق ، قال رسول الله ﷺ : « لقد كنت أستظل بجفنة عبد الله بن جدعان من الهجير » قالت عائشة : يا رسول الله ، هل ينفعه ذلك شيئاً ؟ قال : « لا . لأنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »^(٢) .

[حرف الجيم]

جراد : حيوان معروف ، وليس له جهة مخصوصة ، وإنما يكون هائماً هارباً ، وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور ، فضربها بذنبه ، فتفرج له فيلقى بيضه فيها ، وله ستة أرجل ، وطرفا أرجله كالمنشار وهو ألوان عديدة ، وفيه خلقة عشرة من الجبابرة وجه فرس ، وعينا فيل ، وعنق ثور ، وقرنا أيل ، وصدر أسد ، وبطن عقرب ، وجناحا نسر ، وفخذاً جمل ، ورجلاً نعامة ، وذنب حية ، وهو من الحيوان الذي يتقاد إلى رئيسه كالعسكر إذا ظعن أميره تتابع خلفه وفي الحديث إن جرادة وقعت بين يدي رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية ، نحن جند الله الأكبر ، ولنا تسعة وتسعون بيضة ، ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها ، فقال ﷺ : « اللهم أهلك الجراد ، اللهم اقتل كبارها وأمث صغارها ، وأفسد بيضها ، وسد أفواهها ، عن مزارع المسلمين ، وعن معاشهم إنك سميع الدعاء » . قال : فجاء جبريل فقال : إنه قد استجيب لك في بعضها^(٣) . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى خلق ألف أمة ستمائة منها في البحر ، وأربعمائة في البر ، وإن أول هلاك هذه الأمة الجراد فإذا هلك الجراد تابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه »^(٤) . قيل : كان طعام يحيى بن زكريا عليه السلام الجراد ، وقلوب الشجر ، وكان يقول : من أنعم منك يا يحيى ؟! وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه ، ومن خواصه أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول .

جرو : - بكسر الجيم وفتحها وضمها - وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع ، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب وسببه أن جبريل عليه السلام وعده لياثيه ، فتأخر ، قال : فلقية النبي ﷺ بعد ذلك فقال : « مَا أَخْرَكَ عَنْ وَعْدِكَ ؟ » فقال : ما تأخرت ولكن لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب ، فأمر بقتلها^(٥) . وروى مسلم والطبراني عن خولة بزيادة ولفظها : أن

(١) اللقوة : داءٌ يعرض للوجه يعوجُّ منه الشدق .

(٢) قال رسول الله ﷺ : « لقد كنت أستظل .. » كذا قاله الشَّهْلِيُّ في الروض الأنف كما ذكر الدميري .

(٣) وفي الحديث « أن جرادة .. » إلخ موضوع : أخرجه ابن ماجه [٣٢٢١] ، وفيه موسى بن محمد ، منكر الحديث .

(٤) وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق ألف أمة .. » إلخ منكر : أخرجه ابن عدي في « الكامل » . [٣٥٢/٥] ، [٢٤٥/٦] ، والخطيب في « تاريخ بغداد » . [٢١٧-٢١٨] ، وأبو الشيخ في « العظمة » . برقم [٩٤٢] ، [١٣٠٨] ، وانظر تعليق محققه عليه .

(٥) « وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب ... » إلخ انظر : « فتح الباري » . [٤٠٦/١٠] - ط السلفية .

جروا دخل تحت سرير في بيته ﷺ ، فمات فمكث النبي ﷺ أياماً لا يأتيه الوحي ، قال : « لَعَلَّهُ خَذْتُ فِي الْبَيْتِ شَيْئاً ، فَخَرَجَ لِلْمَسْجِدِ ، فَتَزَلَّ عَلَيْهِ الْوَحْيُ » . قالت خولة : فقممت البيت فوجدت الكلب تحت السرير .

عجيبة : حكى أن رجلاً لم يولد له ولد ، فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم ، فنهته زوجته عن ذلك وقالت : يؤاخذك الله بذلك ، فقال : لو أخذ لفعل في يوم كذا ، وصار يعدد أفعاله لها ، فقالت له : إن صاعك لم يمتلي ، ولو امتلاً أخذك . قال : فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ، ودخل البيت فقتلهما ، وطردهما الجرو قال : فطلبهما أبوهما ، فلم يجدهما فانطلق إلى نبي لهم فأخبره بذلك ، فقال : ألهما لعبة كانا يلعبان بها ؟ قال : جرو كلب ، قال : اثنتي به ، فأتاه به ، فجعل خاتمه بين عينيه ، ثم قال له : اذهب خلفه فأى بيت دخله ادخل معه ، فإن أولادك فيه ، قال : فجعل الجرو يجوز الدروب والحارات حتى دخل بيت القاتل ، فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما ، وهو قائم يحفر لهما مكاناً يدفنهما فيه ، فأمسكوه وأتوا به لنبيهم ، فأمر بصلبه ، فلما رآته زوجته على الخشبة قالت : ألم أحذرك هذا اليوم ؟! وتقول ما تقول ؟! الآن امتلاً صاعك ! وسيأتى الكلام على الكلب في حرف الكاف إن شاء الله تعالى .

جُفَلُ : دويبة معروفة تسمى أبا جعران والزعقوق . يَعَصُّ البهائم في وجهها فتهرب منه ، وهو أكبر من الخنفساء ، شديد السواد ، في بطنه لون حمرة للذكر قرنان ، يوجد كثيراً في مراح البقر والجاموس ، قيل : إنه يتولد من أخثانها^(١) ، ومن شأنه جمع الروث وادخاره ، ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات ، ويعيش بَعَوْدِهِ للروث ، وله جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار ، وله ستة أرجل وسنام مرتفع جداً ، وهو يمشى القهقري ، ومن طبعه أنه يحرس النيام فإذا قام أحدهم يتغوط تبعه ليأكل من رجليه ، وذلك من شدة شهوته للغائط .

[حرف الحاء]

حجل : طير فوق الحمامة ، أغبر اللون ، أحمر المتقار والرجلين ، يسمى دجاج البر ، وهو صنفان : نجدى ، وتهامى ؛ النجدى أغبر ، والتهامى أبيض ، وله شدة الطيران ، وإذا تقاتل ذكران تبعته الأنثى الغالب ، وله شدة شبق ، وأفراخه تخرج من البيض كاسية ، ويعمر في الغالب عشرين سنة ، وإذا قوى على غيره أخذ بيضه فحضنه ، ومن سر الله تعالى أنه إذا أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التي باضته ، ومن طبعه أنه يخدع غيره في قرقرته ، ولذلك يتخذ الصيادون في أشراكهم .

غريبة : قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمى الأكراد فأتى على سماطه بحجلتين مشويتين ، فلما رآهما ضحك ، فقال : مم تضحك ؟ قال : كنت أقطع الطريق في عتفوان شبابي فمرّ بي تاجر فأخذته ، فلما أردت قتله تضرع إلى فلم أقتله ، فلما علم أنه لا بد لي من قتله التفت يميناً وشمالاً فرأى حَجَلَتَيْنِ كانتا بقرنا ، فقال : اشهدا لي أنه قاتلي ظلما ، فقتلته ، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حمقه في استشهاديه بهما فقال أبو نصر : والله لقد شهدا عليك عند من أقادك بالرجل ، ثم أمر به فضربت عنقه .

الخواص : لحمها جيد معتدل الهضم ، ومرارتها تنفع الغشاوة في العين ، وإذا سعط^(٢) بها إنسان في كل شهر مرة جاد ذهنه ، وقل نسيانه وقوى بصره .

حدأة : - بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة - أخس الطير ، وتبيض بيضتين ، وربما باضت ثلاثاً ، وتحضن عشرين يوماً ومن ألوانها الأسود والرمادي ، وهي لا تصيد إلا خطفاً ، وفي طبعها أنها تنقف في الطيران وهي أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل أفراخ جاراها ، ويقال : إنها طرشاء ، وفي طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى ، لأنها عسراء وهي سنة ذكر ، وسنة أنثى ، كالأرنب .

عجيبة : روى الحافظ النسفى في فضائل الأعمال : أن عاصم بن أبى النجود شيخ القراء في زمانه قال : أصابتني

(٢) سَطَطَ : أدخله في أنفه .

(١) الأَخْثَاءُ : جمع الخَثِي ، وهو ما يرمى به البقر أو الفيل .

خصاصة^(١) ، فبحث إلى بعض إخواني فأخبرته بأمرى ، فرأيت في وجهه الكراهة ، فخرجت من منزله إلى الجبابة ، فصليت ما شاء الله ، ثم وضعت رأسى على الأرض وقلت : يا مسبب الأسباب ، يافتح الأبواب ، يا سامع الأصوات ، يا مجيب الدعوات ، ياقاضى الحاجات ، اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغنى بفضلك عمن سواك . قال : فوالله ما رفعت رأسى حتى سمعت وقعة بقربى ، فإذا بحدأة قد طرحت كيساً أحمر ، فقممت فأخذه فإذا فيه ثمانون ديناراً ، وجوهرة ملفوفة فى قطن ، قال : فاتجرت بذلك ، واشتريت لى عقاراً ، وتزوجت .

الخواص : مرارتها تجفف فى الظل ، وتنقع فى إناء زجاج فمن لسع قطر منها فى ذلك الموضع ، واكتحل مخالفاً لجهة اللسع ثلاثة أميال أبرأته ، ودسمها إذا خلط بقليل من المسك ، وماء الورد ، وشرب على الريق ، نفع من ضيق النفس ، وإذا وضع فى بيت لم تدخله حية ولا عقرب .

حرباء : دوية صغيرة على هيئة السمك ، ورأسها تشبه رأس العجل ، إذا رأت الإنسان انتفشت وكبرت ، ولها أربعة أرجل وسنام كهية الجمل ، ولها كنى كثيرة منها أم قرة ، ويقال لها : جمل اليهود ، وهى أبدا تطلب الشمس ، فمن أجل ذلك يقال : إنها مجوسية ، وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت ، فإذا غابت الشمس أخذت فى كسبها ومعاشها ، ويقال : إن لسانها طويل نحو ذراع ، وهو مطوى فى حلقها ، فلذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب ، وتبتلعها ، والأنثى من هذا النوع تسمى أم حنين ، ويقال : إن الصبيان ينادونها : أم حنين انشرى برديك ، إن الأمير ناظر إليك . وضارب بسوطه جنينك ، فإذا زادوا عليها نشرت جناحيها ، وانتصبت على رجلها ، فإذا زادوا عليها أيضاً نشرت أجنحة أحسن من تلك ملونة ، وإذا مشت تطأى برأسها ، وتتلون ألواناً ولذا يقال : يتلون كالحرباء .

حمار أهلى : معروف ليس فى الحيوان من ينزو على غير جنسه إلا هو والفرس ، ونزوه بعد تمام ثلاثين شهراً ، وكنيته أبو محمود ، وأبو جحش ، وغير ذلك وهو أنواع ، فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة ، ومنه ما هو بضد ذلك ، ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق .

لطيفة : فى الحديث عن النبى ﷺ : أنه لما فتح خير أصاب حماراً أسود فكلمه فقال : « ما اسمك ؟ » . فقال : يزيد بن شهاب ، أخرج الله تعالى من نسل جدى ستين حماراً كلها لا يركبها إلا نبى ، ولم يبق من الأنبياء غيرك ، وكنت أتوقعك لتركبنى ، وأنا عند يهودى يجيع بطنى ، ويضرب ظهرى ، وكنت أعثر به عمداً ، فسماه النبى ﷺ يعفوراً ، وقال له : « أنتهى الإناث ؟ » . قال : لا . وكان ﷺ يركبه فى حوائجه ، وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضى حاجته ، فلما مات النبى ﷺ ذهب إلى بئر كانت لأبى الهيثم فتردى فيها جزعاً على النبى ﷺ ، فكانت قبره وقيل هذا الحديث منكر ، وقد ذكره السهيلي فى التعريف والإعلام^(٢) . وللناس فى ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض . فمن مدحه أن أبا صفوان وجد ركباً على حمار فقيل له فى ذلك فقال : عيّر هنى ، من نسل الأكراد ، يحمل الرجل ! ويبلغ العقبة ، ويمنعنى أن أكون جباراً فى الأرض . وقال آخر : هو أقل الدواب مثونة وأكثرها معونة ، وأخفها مهوى ، وأقربها مرتعاً . وكان حمار أبى يسارة مثلاً فى الصحة والقوة ، وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة . وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشى يختاران ركوب الحمار ، ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة . ومن ذمه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال : لا تركبوا الحمار ؛ فإنه إن كان فارهاً أتعب يدك ، وإن كان بليداً أتعب رجلك . وقيل : ما ينهى لمركب الدجال ، أن يكون مركباً للرجال ! وقال أعرابى : الحمار بنس المطية إن أوقفته أدلى ، وإن تركته ولى ، كثير الروث ، قليل الغوث ، سريع إلى الفرارة ، بطيء فى الغارة ، لا توقى به الدماء ، ولا تمهر به النساء ، ولا يحلب فى الإناء قال الزمخشري :

إن الحمارَ ومن فوقه حماران شرهما الراكب

ومن العرب من لا يركبه أبداً ، ولو بلغت به الحاجة والجهد ، قيل : كان لرجل بالبادية حمار ، وكلب ، وديك ،

(١) الخصاصة : الفقر وسوء الحال .

(٢) قال الإمام الحافظ أبو موسى : هذا حديث منكر جداً إسناداً ومتناً لا يحل لأحد أن يرويه إلا مع كلامى عليه .

فالدب يوقظه للصلاة ، والكلب يحرسه إذا نام ، والحمار يحمل أثاثه إذا رحل قال فجاء الثعلب فأكل الدب ، فقال : عسى أن يكون خيراً ، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عسى أن يكون خيراً ، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال : عسى أن يكون خيراً . قال : ثم إن جيرانه من الحي أغبر عليهم فأخذوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلت فقيل له : إنما أخذوا بأصوات دوابهم ، فقال : إنما كانت الخيرة في هلاك ما عندي ! فمن عرف لطف الله رضى بفعله ! .

حمام : هو أنواع كثيرة والكلام في الذي ألف البيوت وهو قسمان : أحدهما برى ، وهو الذي يوجد في القرى ، والآخر أهلى ، وهو أنواع وأشكال ، فمنه الرواعب ، والمراعيش ، والشداد ، والغلاب ، والمنسوب ، ومن طبعه أنه يطلب وكره ، ولو كان في مسافة بعيدة ، ولأجل ذلك يحمل الأخبار ، ومنه ما يقطع عشرة فراسخ في يوم واحد ، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين ، وهو على ثبات عقله ، وقوة حفظه ، حتى يجد فرصة ، فيطير ويعود إلى وطنه ، وسباع الطير تطلبه أشد الطلب ، وخوفه من الشاهين أشد من غيره ، وهو أطير منه ، لكن إذا أبصره يعتريه ما يعتري الحمار إذا رأى الأسد ، والشاة إذا رأت الذئب ، والفأر إذا رأى الهر ، ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره ، إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما ، ويحب الملاعبة والتقبيل ، ويسفد لتمام أربعة أشهر ، ويحمل أربعة عشر يوماً ويبض بيضتين ، ويحضن عشرين يوماً ، ويخرج من إحدى البيضتين ذكر ، والأخرى أنثى ، واتخاذها في البيوت لا بأس به غير أنه ، لا يجوز تطييرها ، والاشتغال بها ، والارتقاء بها على الأسطحة ، وعليه حمل أهل العلم قوله ﷺ : « شيطان يتبع شيطانه » ^(١) . حين رأى شخصاً يتبع حمامة فإن لم يحصل شيء مما ذكر جاز اتخاذها . قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا الحمام في بيوتكم فإنها تلهي الجن عن صبيانكم ، واللعب بها من عمل قوم لوط » ^(٢) . وقال النخعي : من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر ، ولم يوجد شيء أبله من الحمام ، فإنه تؤخذ أفراسه فتذبح في مكان ، ثم يعود في ذلك المكان ، ويبض فيه ويفرخ ، وقال الجاحظ : وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تتباع بخمسمائة دينار ، ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير غيره ، وهو الهادر الذي جاوز الغاية ، قالوا : ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة ، ولو حدثت أن برذونا أو فرساً بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمرا ، وقد تباع البيضة الواحدة من بيض ذلك الحمام بخمسة دنائير ، والفرخ بعشرين ، فمن كان له زوج منه قام في الغلة مقام ضيعة ، وأصحابه يبنون من أثمانه الدور والحوانيت وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق .

الخواص : دمه ينفع الجراحات العارضة للعين ، والغشاوة ، ويقطع الرعاف ، ويرى حرق النار إذا خلط بالزيت منه ، وزبل الأحمر ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه ، وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صيني نفع من الحصاة .

[حرف الخاء]

الخُطاف ^(٣) : أنواع كثيرة ، فمنه نوع دون العصفور ، رمادي اللون ، يسكن ساحل البحر ، ومنه ما لونه أخضر ، وتسميه أهل مصر الخطار ، ونوع طويل الأجنحة رقيق يألف الجبال ، ونوع أصغر منه يألف المساجد يسميه الناس السنونو ، وزعم بعضهم أنه الطير الأبايل ، ويقال : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض حصل له وحشة فخلق الله له هذا الطير يؤنسه ؛ فلأجل ذلك لا تجدها تفارق البيوت ، وهي تبنى بيتها في أعلى مكان بالبيت ، وتحكم بنيانه ، وتطينه ، فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرغت في التراب والماء وأنت فطنته وهي لا تزبل داخله ، بل على حافته أو خارجاً عنه ، وعنده ورع كثير ، لأنه وإن ألف البيوت لا يشارك أهلها في أقواتهم ، ولا يلتمس منهم شيئاً ، ولقد أحسن واصفه حيث يقول :

(١) « شيطان يتبع شيطانه » . حين رأى شخصاً يتبع حمامة أبو داود : كتاب الأدب باب [٦٥] ، وابن ماجه كتاب الأدب باب [٤٤] ، وأيضاً البخاري في الأدب المفرد ، والبيهقي في السنن كما جاء في المقاصد الحسنة نفس الموضع [كتاب المنهيات للترمذي] .

(٢) قال ﷺ : « اتخذوا الحمام في بيوتكم فإنها تلهي الجن . . » . إلخ موضوع : أخرجه ابن عدى [١٢٤١/٦] ، والخطيب في « تاريخ بغداد » . [٥/٢٧٩] ، وفيه محمد بن زياد الشكري كذاب ووضع للأحداث .

(٣) الخُطاف : [بضم الخاء] ، السنونو ضرب من الطيور القواطع ، عريض المنقار ، دقيق الجناح طويله ، منتفش الذيل والجمع خطاطيف .

كن زاهداً فيما حوته يدُ الوري تبقى إلى كل الأنام حبيباً
وانظر إلى الخطاف حرم زادهم أضحي مقيماً في البيوت ربباً

ومن شأنه أنه لا يُفرخ في عش عتيق ، بل يجدد له عشا ، وأصحاب اليرقان يلطخون أفراخه بالزعفران ، فيذهب ، فيأتي بحجر اليرقان ، ويلقيه في عشه ، لتوهمه أن اليرقان حصل لأولاده ، وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس ، فعند ذلك يأخذه مَنْ به اليرقان ويحكه ، ويستعمله . ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد ، وإذا عمى ذهب إلى شجرة يقال لها : عين شمس ، فيتمرغ فيها فيفיק من غشاوته ، ويفتح عينيه .

لطيفة : قيل : إن خطافاً وقف على قبة سليمان ، وتكلم مع خطاته ، وراودها عن نفسها فامتنت ، فقال لها تتمنين مني ؟ ! ، ولو شئت قلبت هذه القبة ، قال : فسمع سليمان ، فدعاه وقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال : يانبي الله ، إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم .

الخواص : مرارته تسود الشعر ، ولحمه يورث السهر ، وقلبه يهيج الباه إذا أكل جافاً ، ودمه يسكن الصداع .
خفاش : طير يوجد في الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب ، وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهاراً ولا في ضوء القمر ، وقوته البعوض ، وهذا الوقت هو الذي يخرج فيه البعوض أيضاً لطلب رزقه ، فيأكله الخفاش ، فيتسلط طالب رزق على طالب رزق ، وهو من الحيوان الشديد الطيران ، قيل : إنه يطير الفرسخين^(١) في ساعة ، وهو يعمر مثل النسر ، وتعاذيه الطيور فقتله ، لأنه قيل : إن عيسى - عليه الصلاة والسلام - لما سأله النصارى في طير لا عظم فيه ، صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى ، فهي تكرهه لأنه مبين لخلقها ، ومن طبعه الحنو على ولده حتى قيل : إنه يرضعه وهو طائر .

خنزير : حيوان معروف ، وله كنى كثيرة ، ومنها أبو جهم ، وأبو زرعة ، وأبو دلف ، وهو مشترك بين البهيمة والسبع ، لأنه ذو ناب ، ويأكل العشب والعلف وهو كثير الشبق حتى قيل : إنه يجامع الأنثى وهي سائرة ، فيرى في مشيها ستة أرجل فيتوهم الرائي أنه حيوان بستة أرجل ، وليس كذلك ، والذكر منها يطرد الذكر مثله ، فمن غلب استقل بالتزو على الأنثى ، وتحرك أذنانها في زمن هيجانها ، وتطأطأ رأسها ، وتغير أصواتها ، وتحبل من نزوة واحدة وتحمل ستة أشهر ، وتضع عشرين ولداً ، وينزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر ، وقيل أربعة باختلاف البلاد ، وقيل ثمانية ، وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل ، وهذا الجنس أفسد الحيوان ، والذكر أقوى الفحول ، وليس لذوات الأربع ما للخنزير في نابه من القوة ، حتى قيل : إنه يضرب به السيف والرمح فينقطع مالاقيه ، وإذا التقى نابه من الطول مات لأنهما حينئذ يمتعان من الأكل ، ومن عجيب أمره أنه يأكل الحيات ، ولا يؤثر فيه سمها وإذا عض كلباً سقط شعره ، وإذا مرض وأطعم السرطان^(٢) يفيق ، ومن عجيب أمره أنه إذا ربط على ظهر حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات ، ولا يسليخ جلده إلا بالقلع مع شيء من لحمه على ما ذكروا .

خنفساء : دوية تتولد من عفونات الأرض ، وبينها وبين العقرب مودة ، وكنيتها أم فسو لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة .

فائدة : قيل : إن رجلاً رأى خنفساء ، فقال : ما يصنع الله بهذه ؟ فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها ، فبينما هو ذات يوم وإذا بطرقى يقول : من به وجع كذا إلى أن قال : من به قرحة ، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به قال : اتنوني بخنفساء ، فضحك منه الحاضرون ، فقال : اتنوه بالذي يطلب ، فأثوه بها فأخذها فأحرقها وأخذ رمادها ، وجعل منه على تلك القرحة ، فبرئت فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئاً سدى ، وأن في أخس المخلوقات أهم الأدوية ، فسبحان القادر على كل شيء ! .

الخواص : إذا قطعت رءوس الخنافس ، وجعلت في برج الحمام كثر الحمام في ذلك البرج والاحتحال بما في

(١) الفرسخ : مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال . ويقدر الميل بأربعة آلاف ذراع . وهو برى وبحرى فالبرى يساوى [١٦٠٩] ، من الأمتار ، والبحرى يساوى [١٨٥٢] ، من الأمتار .

(٢) السرطان : حيوان بحرى من القشريات العشرييات الأرجل .

جوفها من الرطوبة يحدّ البصر ، ويجلو الغشاوة واليباض ، وإذا بخر المكان بورق الدّلب^(١) هربت منه الخنافس على ما ذكر .

خيل : جماعة الأفراس ، وسميت بذلك لأنها تختال في مشيتها ، وهي من الحيوان المشرف ، ولقد مدحها الله تعالى ، ووصى بها النبي ﷺ فقال : « الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِي الْخَيْلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(٢) . وقال : « عليكم بإناث الخيل فإن ظهورها عزّ وبطونها كنز »^(٣) . وروى عن ابن عباس أو على ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « لما أراد الله تعالى خلق الخيل ، أوحى إلى الريح الجنوب وقال : إني خالق منك خلقاً فاجتمعى ، فاجتمعت ، فأتى جبريل فأخذ منها قبضة ، فخلق منها فرساً كميّاً وقال : خلقتك عربياً وفضلتك على سائر البهائم ، فالرزق بناصيتك ، والغنائم تقاد على ظهرك ، وبصهيلك أرهب المشركين ، وأعز المؤمنين ، ثم وسمه بغرة وتحجيل ، فلما خلق الله تعالى آدم قال له : يا آدم ، اختر أئى الدابتين ، الفرس أو البراق فقال : الفرس يارب ، فقال الله تعالى : اخترت عزك ، وعز أولادك »^(٤) . وفى الحديث : « مامن فرس إلا ويقول فى كل يوم : اللهم من جعلتنى له ، فاجعلنى أحب أهله إليه »^(٥) . وقيل : الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وهى المغزو عليها ، وفرس لك ، وهى التى تسابق عليها ، وفرس للشيطان وهى التى جعلت للخيلاء وفى الحديث : « إن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللهو إلا فى مسابقة الخيل ، وملاعبة الرجل أهله »^(٦) . ولقد سبق النبي ﷺ على الخيل^(٧) وقيل : إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى ، ولا يرد علينا ركوب جبريل فى قصة موسى وفرعون الأنثى ، لأن ذلك من حكمة الله تعالى حتى تبعها أحصتهم فأغرقوا لأن الحصان إذا رأى الأنثى تبعها ، وقيل : إن الله تعالى أمر نبيه موسى ﷺ أن يعبر البحر فعبه وهم خلفه ، فأعمى أعينهم عن الماء ، فكانوا يرون بلقعا ، والخيل تراه ماء ، فلولا دخول جبريل البحر بفرسه ، لما دخلت خيلهم ، وهى أصناف : منها الصافات ، وهى التى إذا ربطت فى مكان وقفت على إحدى رجليها ، وقلبت بعض الأخرى فى الوقوف ، وقيل : غير ذلك ، وكانت الصافات ألف فرس لسليمان عليه السلام ، فعرضها يوماً ، ففاته الصلاة قيل : صلاة العصر فأمر بقرها ففوضه الله عنها الريح ، فكانت فرسه ، وقيل : إنما عقرها على وجه القربى كالهدى ، وقيل : إن الفرس لا يحب الماء الصافى ، ولا يضرب فيه بيده كما يضرب بها فى الماء الكدر ، فرحاً به فإنه يرى شخصه فى الماء الصافى ، فيفرغه ، ولا يراه فى الماء الكدر ، وقد قيل فى الحث على حب الخيل :

أحبوا الخيل واصطبروا عليها
إذا ما الخيل ضيعها أناس
فإن العز فيها والجمالاً
نقاسمها المعيشة كل يوم
ربطنها فأشركت العيالا
وتكسبنا الأباغر^(٨) والجمالاً

[حرف الدال]

دابة : اسم لكل ما دب على الأرض ، وأما التى ذكرها الله تعالى فى سورة سبأ^(٩) فقيل : الأرضة ، وقيل : السومة ، وسبب ذلك أن سليمان عليه السلام كان قد أمر الجن ببناء صرح ، فبنوه ، ودخل فيه ، وأراد أن يصفو له يوم واحد

(١) الدّلب : جنس شجر للتزيين ، وهو من الزهريرات ، يحب الماء .

(٢) قال النجم : رواه أحمد والشيخان والنسائي وأبو داود وابن ماجه بلفظ « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

(٣) « عليكم بإناث الخيل .. » . إلخ لم أهد إليه .

(٤) « لما أراد الله خلق الخيل ... » . إلخ موضوع : عزاء المتقى الهندى فى « كنز العمال » . [١١٣٨٢] ، للحاكم فى تاريخه ، والثعلبى فى تفسيره والديلمى ، عن على .

(٥) ما من فرس إلا ويقول فى كل يوم : « اللهم ... » . إلخ لم أقف عليه .

(٦) وفى الحديث : « إن الملائكة ... » . إلخ أورده المتقى الهندى فى « كنز العمال » . برقم [٤٠٦٣٣] ، للحاكم فى الكنى عن أبى أيوب .

(٧) ولقد سبق النبي ﷺ على الخيل . لم أهد إليه . وفى النهاية قال ابن الأثير : « وفى الحديث أنه أمر بإجراء الخيل وسبقها ثلاثة أعذق » وعزاه لأبى موسى .

(٨) الأباغر : جمع بعير ، وهو الجميل ، أو الناقة .

(٩) إشارة إلى ما جاء فى الآية الكريمة رقم [١٤] ، « فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ .. » . إلخ .

من دهره فدخل عليه شاب فقال له : كيف دخلت من غير استئذان ؟ فقال : أذن لي رب البيت ، فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى ، وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه ، فقال : سبحان الله ! هذا اليوم طلبت فيه الصفاء ، فقال : طلبت ما لم يخلق ، قال : وكان قد بقي من بناء المسجد الأقصى بقية ، فقال له : يا أخى يا عزرائيل أمهلنى حتى يفرغ ! قال : ليس فى أمر ربى مهلة ، قال : فقبض روحه ، وكان من عادته الانقطاع فى التعبدين شهرين وثلاثة ، ثم يأتى فينظر ما صنعت الجن ، فلما قبض ، كان متوكئاً على عصاه ، واستمر ذلك مدة ، والجن تتوهم أنه مشرف عليها فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام ، حتى أراد الله ما أراد فسلط على العصا الأرضية ، فأكلتها فخر ميتاً ففرقت الجن عنه ، وقيل : إن واحداً منهم مر عليه ، فسلم فلم يجبه ، فدنا منه ، فلم يجد له نفساً ، فحركه ، فسقطت العصا فإذا هو ميت . قال وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة ، والعصا التى اتكأ عليها من خرنوب . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبا: ١٤] قال : فشكرت الجن الأرضية حتى قيل : إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت .

وأما الدابة التى من أشراط الساعة^(١) فاختلف فى أمرها فقيل : تخرج من الصفا ، وهو الصحيح ، وقيل : من الطائف ، وقيل : من الحجر ، وطولها ستون ذراعاً ذات قوائم وهى مختلفة الألوان ، وذلك فى ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى ، أو سائر إلى منى ، ومعها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، تلحق المؤمن فتضربه بالعصا ، فتكتب فى وجهه مؤمن ، وتترك الكافر فتسمه بالخاتم ، وتكتب فى وجهه كافر^(٢) ، وروى أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقيل الخير .

داجن : هو ما يربيه الناس فى البيوت من صغار الغنم والحمام والدجاج ، وغير ذلك ، وفى حديث الإفك : « ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن ، تعجن ، وتنام فتأتى الداجن فتأكل العجين » .

دب : من السباع وكنيته أبو جهينة ، وأبو جهل ، وغير ذلك ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء ، وإذا جاع يمص يديه ورجليه ، فيندفع جوعه ، وهو كثير الشبق ، وينعزل بأنثاه ، وتضع جرواً واحداً ، وتصد به إلى أعلى شجرة خوفاً عليه من النمل ، لأنها تضعه قطعة لحم ، ثم لا تزال تلحسه ، وترفعه فى الهواء أياماً ، حتى تنفجر أعضاؤه وتخش ، ويصير له جلد ، وفى ولادتها صعوبة ، وربما ماتت منها ، وقد تلده ناقص الخلق شوقاً منها للسفاد ، وهى من الحيوان الذى يدعو الإنسان للفعل به . وقيل : إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز ، ثم يصعد فىرمى بالجوز إليها إلى أن تشبع ، وربما قطع من الشجرة الغصن العتل الضخم ، الذى لا يقطع إلا بالفأس والجهد ، ثم يشد به على الفارس ، فلا يضرب أحداً إلا قتله .

دجاجة : وكنيتها أم ناصر الدين ، وأم الوليد ، وغير ذلك ، وإذا هرمت لم يبق لبيضها مح ، وتوصف بقلة النوم ، قيل : إن نومها بقدر ما تنفس ، وعندها خوف فى الليل ، ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكاناً عالياً ، وتخشى الثعلب ، قيل : إنها إذا رأت ألفت نفسها إليه من شدة الخوف ، ولا تخشى من بقية السباع ، وقيل : يعرف الذكر من الأنثى بإمساك متقاره ، فإن تحرك فذكر وإلا فأنثى ، ومن الدجاج ما يبيض فى اليوم مرتين وهو من أسباب موتها ويستكمل خلق البيضة فى بطن الدجاجة فى عشرة أيام ، وفى الحديث أن النبى ﷺ : « أمر باتخاذ الغنم للأغنياء ، وباتخاذ الدجاج للفقراء »^(٣) . ومن العجيب فى صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض ، وجعل الصفار غذاء له ، كما خلق الطفل من المني ، وجعل دم الحيض^(٤) غذاء له ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

(١) جاء ذكرها فى سورة [النمل الآية رقم ٨٢] ، ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. ﴾ .

(٢) لم يصح فى أمرها إلا ما أورده القرآن .

(٣) وفى الحديث أن النبى ﷺ : « أمر باتخاذ الغنم للأغنياء وباتخاذ .. » . [البخ رواه ابن ماجه فى سننه ٢ : ٧٣٣] ، وفى سننه ضعيفان : وقال ابن القيم : ليس فى أحاديث اتخاذ الدجاج حديث صحيح .

(٤) المراد : ما كان يتحول منه إلى دم حيض عند افتتاح الرحم .

الخواص : لحم الدجاج الفتى يزيد في العقل ، ويصفى اللون ، ويزيد في المنى ، ويقيم الباه والمداومة عليه تورث التفرس والبواسير على ماذكر .

دج : طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيرا وبالقرب من الإسكندرية ، والناس يصطادونه ويأكلونه .

دود : اسم جنس ، ومنه دود القز ، ويقال لها الهندية ، ومن عجيب أمرها أنها تكون أولا مثل بزر التين ، ثم تصير دودا ، وذلك في أوائل فصل الربيع ، ويكون عند خروجه مثل الذر في قدره ولونه ، ويخرج في الأماكن الدافئة إذا كان مصرورا في حق ، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصرته فيخرج ، وغذاؤه ورق التوت الأبيض ، قال : ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر أصبع ، ويتقل من السواد إلى البياض ، وكل ذلك في مدة ستين يوما ، قال : ثم يأخذ في النسج بما يخرج من فيه ، إلى أن ينقد ما في جوفه ، ثم يخرج شيئا كهية الفراش له جناحان لا يسكنان من الاضطراب ، وعند خروجه يهيج إلى السفاد^(١) ، ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتحمان مدة ، ثم يفترقان . قال : ويكون قد فرش لهما خرقة بيضاء ، فينشران البزر عليها ، ثم يموتان هذا إذا أريد منهما البزر . وإن أريد الحرير تركا في الشمس بعد فراغهما من النسج ، فيموت ، وهو سريع العطب حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والعطاس ، ومس المرأة الحائض ، والرجل الجنب ، ورائحة الدخان والحر الشديد ، والبرد الشديد ، ونحو ذلك . قال أبو الفتح البستي :

ألم تر أن المَرءَ طَوَّلَ حَيَاتِهِ مَعْنَى بِأَمْرٍ لَا يَزَالُ يَعَالَجُهُ
كَذَلِكَ دُودُ الْقَزِّ يَنْسِجُ دَائِمًا وَيَهْلِكُ غَمًا وَسُطْمًا هُوَ نَاسِجُهُ

وقال آخر :

يفنى الحريص بجمع المال مدته وللحوادث ما يبقى وما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهلكها وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

ديك : وكنيته أبو حسان ، وأبو حماد ، وغير ذلك ، ويسمى الأنيس ، والمؤانس ، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة ، وهو أبله الطبيعة ؛ لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدي إلى الرجوع إليه ، وفيه من الخصال الحميدة مالا يحصر ؛ منها أنه يساوى بين أزواجه في الطعمة ويذكر الله تعالى في الليل ، حتى قيل : إنه ليوقته ويقسمه ، وربما لا يخرم في توقيته ، وفي الصحيح^(٢) : « إِذَا سَمِعْتُمْ صِنَاحَ الذِّيكِ فَادْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ يَصِيحُ بِصِنَاحِ ذِيكَ الْعَرْشِ » . وروى الغزالي عن ميمون بن مهران « أن لله ملكاً تحت العرش على صورة الديك فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وقال : ليقيم المسلمون ، فإذا مضى الثلث الثاني ضرب بجناحيه وقال : ليقيم الذاكرون ، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحيه وقال : ليقيم الغافلون ، وعليهم أوزارهم »^(٣) . وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : « إن لله ديكاً أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، ورأسه تحت العرش ، وقواتمه في الهواء ، فإذا كان ثلث الليل الأول خفق بجناحيه وقال : سبحان الملك القدوس ، فإذا كان الثلث الثاني خفق بجناحيه وقال : قدوس قدوس ، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحيه وقال : ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو »^(٤) . وروى الثعلبي بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال : « ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى : صوت الديك ، وصوت قارئ القرآن ، وصوت الاستغفار بالأسحار »^(٥) . وفي الحديث « لَا تَسْبُوا الذِّيكَ فَإِنَّهُ يُؤَقِّتُ لِلصَّلَاةِ »^(٦) . وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب في أهله وماله .

(١) السفاد : اللقاء الجنسي والمعاشرة بين الحيوانات والطيور .

(٢) وفي الصحيح .. إلخ أخرجه بنحوه مسلم [٢٧٢٩] ، عن أبي هريرة . (٣) وروى الغزالي ... إلخ لم أعتد إليه .

(٤) « إن الله ديكاً .. » . إلخ إسناده ضعيف . أورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة [٦٢/١] ، نقلا عن أبي الشيخ وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان [٣١٥/٢] .

(٥) « ثلاثة أصوات .. » . إلخ عزاه المتقي الهندي برقم [٣٥٢٨٥ - كنز العمال] ، للدليعي عن أم سعد بنت زيد بن ثابت .

(٦) « لا تسبوا الديك .. » . إلخ رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد بلفظ « فإنه يوقظ » . بدل « يؤقت » .

نادرة : قيل : كان لإبراهيم بن مزيد ديك ، وكان كريماً عليه ، فجاء العيد وليس عنده شيء يضحي عليه ، فأمر امرأته بذبحه ، واتخاذ طعام منه ، وخرج إلى المصلى فأرادت المرأة أن تمسكه ففرّ ، فتبعته ، فصار يخترق من سطح إلى سطح ، وهى تتبعه فسألها جيرانها وهم قوم هاشميون عن موجب ذبحه ، فذكرت لهم حال زوجها فقالوا : ما نرضى أن يبلغ الاضطراب بأبى إسحاق إلى هذا القدر ، فأرسل إليه هذا شاة ، وهذا شاتين ، وهذا بقرة ، وهذا كبشا حتى امتلأت الدار ، فلما جاء ورأى ذلك قال : ما هذه ؟ فقصت عليه زوجته القصة فقال : إن هذا الديك لكريم على الله فإن إسماعيل نبي الله فُدى بكبش واحد ، وهذا فدى بما أرى ! .

[حرف الذال]

ذباب : وكنيته : أبو جعفر ، وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة ، ومن عجيب أمره أنه يلقي رجليه على الأبيض يسود ، وعلى الأسود يبيض ، ولا يقعد على شجرة الدباء ، وفي الحديث : « إِذَا وَقَعَ الذَّبَابُ فِي إِنَاءٍ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ، فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءٌ وَفِي الْآخَرِ دَوَاءٌ ، وَإِنْ مِنْ طَبْعِهِ أَنْ يَلْقَى نَفْسَهُ بِالْجَنَاحِ الَّذِي فِيهِ الدَّاءُ » ^(١) وحكى أن المنصور كان جالساً فألح عليه الذباب حتى أضجره ، فقال : انظروا من بالباب من العلماء فقالوا : مقاتل بن سليمان ، فدعا به ثم قال له : هل تعلم لأى حكمة خلق الله الذباب ؟ قال : ليُذِلَّ به الجبابرة ! قال : صدقت ! ثم أجازته ! ومن خصائص النبي ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب ^(٢) قط . وقال المأمون : قالوا : إن الذباب إذا ذلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه ، فلسعنى زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن له ألم فقالوا : هذا كان حتماً قاضياً ، ولولا هذا العلاج لقتلك ! وقال الجاحظ : من منافع الذباب ، أنها تحرق ، وتخلط بالكحل ، فإذا اكتحل المرأة كانت عينها أحسن ما يكون ، وقيل : إن المواشط تستعمله ، ويأمرن به العرائس ، وقيل : إن الذباب إذا مات وألقى عليه برادة الحديد عاش ، وإذا بخر البيت بوزق القرع هرب منه الذباب .

ذئب : حيوان معروف ، وكنيته أبو جعدة ، وأبو جاعد ، وأبو ثمامة ، لونه رمادى ، وهو من الحيوان الذى ينام بإحدى عينيه ، ويحرس بالآخرى ، حتى تمل ، فيغمضها ، ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وإذا أراد السفاد اختفى ويطول فى سفاده كالكلب ، وإذا جاع عوى ، فتجتمع الذئاب حوله ، فمن هرب منها أكلوه ، وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه ، وليس فى الأرض أسد يعض على عظم إلا ويسمع لتكسيه صوت بين لحييه إلا الذئب فإن لسانه يبرى العظم ، برى السيف ، ولا يسمع له صوت . وقيل : إذا أدماه الإنسان فشم الذئب رائحة الدم ، لا يكاد ينجو منه ؛ وإن كان أشد الناس قلباً ، وأتمهم سلاحاً ، كما أن الحية إذا خدشت ، طلبها الذر فلا تكاد تنجو منه ، وكالكلب إذا عض الإنسان يطلبه الفأر ، فيبول عليه ، فيكون فى ذلك هلاكه ، فيحتال له بكل حيلة ، قيل : ولا يعرف الالتحام عند السفاد إلا فى الكلب ، والذئب ، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلهما كيف شاء والله أعلم .

[حرف الراء]

رُخ : طير عظيم الخلقة ، يوجد بجزائر الصين ، قال أبو حامد الأندلسى ، ذكر لى بعض المسافرين فى البحر أنهم أرسوا بجزيرة ، فلما أصبحوا ، وجدوا فى طرفها لمعانا وبريقاً ، فتقدموا إليه ، وإذا هم بشيء مثل القبة ، قال : فجعلوا يضربون فيه بالفئوس ، إلى أن كسروه فوجدوه كهية البيضة ، وفيه فرخ عظيم ، قال : فتعلقوا بريشه ، وجروه ، ونصبوا القدور ، وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطباً يقال له حطب الشباب ، فلما أكلوا ذلك الطعام اسودّت لحية

(١) « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم ... » إلخ أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، باب إذا وقع الذباب فى الشراب .

(٢) « ومن خصائص النبي ﷺ أنه ... » إلخ لم أهد إليه .

ولمة^(١) كل ذى شيب . قال : فلما أصبحوا جاءهم الرخ فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا فذهب وأتى فى رجليه بحجر عظيم ، وتبعهم بعد ما ساروا فى البحر ، وألقاه على سفينتهم فسبقت السفينة ، وكانت مشرعة بتسعة قلوب ، ووقع الحجر فى البحر فنجاهم الله تعالى منه وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم . قال : وقد كان بقى معهم أصل ريشة قيل : إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قرية فسبحان الخالق الأكبر ! .

رُخْم : طير أغبر أصفر المنقار معروف ، وهو من أشر الطيور ، ويقال : إنها صماء ، وسبب ذلك ما قيل فى بعض الحكايات : إن موسى عليه السلام لما مات تكلمت بموته ، وكانت تعرف مكانه ، فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحداً إلى موضعه .

[حرف الزاى]

زرافة : حيوان غريب الخلقة ، ولما كان مأكولها ورق الشجر ، خلق الله تعالى يديها أطول من رجليها ، وهى ألوان عجيبة يقال : إنها متولدة من ثلاث حيوانات : الناقة الوحشية ، والبقرة الوحشية ، والضبع ، فينزو الضبع على الناقة تأتى بذكر ، فينزو ذلك الذكر على البقرة ، فتولد منه الزرافة ، والصحيح أنها خلقة بذاتها ذكر وأنثى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا بحكمة .

زنبور : حيوان فوق النحل له ألوان ، وقد أودعه الله حكمة فى بنيانه بيته ، وذلك أنه بينه مربعاً له أربعة أبواب ، كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربع ، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض ، ويبقى إلى أيام الربيع ، فينفخ الله تعالى فيه الروح ، فيخرج ويطير ، وفى طبعه التهافت على الدم واللحم ، ومن خاصيته أنه إذا وضع فى الزيت مات ، وفى الخل عاش ، ولسعته تزال بعصارة الملوخية .

[حرف السين]

سُعْلَاة : نوع من المتشيطنة ، قال السهيلي : هو حيوان يترأى للناس بالنهار ، ويقول بالليل ، وأكثر ما يوجد بالغياض^(٢) ، وإذا انفردت السُعْلَاة بإنسان وأمسكتة صارت ترقصه ، وتلعب به كما يلعب القط بالفأر ، قال : وربما صادها الذئب ، وأكلها وهى حيثئذ ترفع صوتها وتقول : أدركونى ، فقد أخذنى الذئب ، وربما قالت : من يتقذنى منه ، وله ألف دينار ؟ وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك فلا يلتفتون إلى كلامها ! .

سَمَنْدَل : حيوان يوجد بأرض الصين ومن عجيب أمره أنه يبيض فى النار ، ويفرخ فيها ، ويؤخذ وبره فينسج ، ويجعل منه المناشف ، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت فى النار ، فتأكل النار وسخها ، ولا تحرقها ، حكى أن شخصاً بل واحدة ، من هذه المناشف بالزيت ، وجعلت فى النار ، وأوقدت ساعة ولم تحترق .

سَنَجَاب : حيوان كهية الفأر يوجد فى بلاد الترك على قدر اليربوع ، إذا أبصر الإنسان هرب منه ، وشعره كشعر الفأر ، وهو ناعم فيؤخذ ويسلخ جلده ، ويجعل فروا يلبس ، وطبعه موافق لكل طبع ، وأحسنه الأزرق .

سنور : حيوان متواضع ألوف ، خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات ، كناه وأسماءه كثيرة .

حكى : أن أعرابياً صاد سنوراً فرآه شخص ، فقال : ما تصنع بهذا القط ؟ ولقيه آخر فقال : ما تصنع بهذا الخيدع ؟ ولقيه آخر فقال : ما تصنع بهذا الخيطل ؟ ولقيه آخر . فقال : ما تصنع بهذا الهر ؟ قال : أبيعه قال له : بكم ؟ ، قال : بمائة درهم . فقال : إنه يساوى نصف درهم قال : فرمى به ، وقال : لعنه الله ما أكثر أسمائه وأقل قيمته ! وهذا الحيوان يهيج فى زمان الشتاء فى شهرين منه ، وتراهن يترددن صارخات فى طلب السفاد ، فكم من حرة خجلت ! وذى غيرة هاجت حميته ! وعزب تحركت شهوته ! وطيب فم السنور كطيب فم الكلب فى النكهة ، وقيل : إن الهرة تحمل

(١) اللُمة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

(٢) الغياض : جمع غيضة وهى موضع الشجر الكثيق الملفف .

خمسین يوماً ، وهو يجمع بين العض بالناب ، والخمش بالمخلاب ، وليس كل سبع كذلك ، وهو يناسب الإنسان في بعض الأحوال فيعطس ، ويتمطى ، ويغسل وجهه بلعابه ، ويلطخ وبر ولده بلعابه ، حتى يصير كأن الدهن يسرى في جلده . وقيل : إذا بال الهر شَم بوله ودفنه ، قيل : لأجل الفأر فإذا شمه علم أن هناك هراً فلم يخرج ، وأما سنور الزباد فهو بأرض الهند ، ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذه .

سوس : هو دود الحبوب والفاكهة . ومن الفوائد التي تكتب في الحبوب فلا تسوس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم فقال :

ألا كل من لا يقتدى بأئمة فقسمته ضيزى عن الحق خارجه
فخذهم عبید الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجه

[حرف الشين]

شادهوار : حيوان يوجد بأرض الترك يقال : إن له قرناً عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوفة ، فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش ! وربما قيل : إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن ، وأخرى تورث الفرح والضحك ، وإنه أهدى إلى بعض الملوك شيء من شعبها فرأى فيه ذلك . ويقال : إن من الحيوان شيئاً يوجد بالغياض في قصبة أنفه اثنا عشر ثقباً إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمار ، فتأتيه الحيوانات لتسمعه فتدهش ، فيغفل بعضها ، من الطرب ، فيشب عليه فيأخذه ويأكله ، وهى تعلم ذلك منه وتحترز فإذا لم يمسك منها شيئاً ضاق خلقه ، وصاح بها صيحة فتهرب ، وتركه .

شاهين : طير يكون كهيئة الصقر إلا أنه عظيم الهامة ، واسع العينين ، ومزاجه أيسر من مزاج الصقر ، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى ، ولذلك ينقض على الطير بشدة ، وربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة فيموت ، وقيل أول من صاد به قسطنطين ، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار ، فاتفق في بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه ، وسار ، قال : فطار واحد منها ، وانقض على صيد ، فأخذه ، فأعجب الملك ذلك وصار يتصيد به .

شُخْرُور : طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات عجيبة مطربة .

[حرف الصاد]

صُرْد : حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء ، له جناحان ، ويقال له الصوام لأنه أول طير صام يوم عاشوراء .
صعو : طير من صغار العصافير أحمر الرأس .

[حرف الضاد]

ضأن : نوع من الحيوانات ذوات الأربع وهو من الحيوانات المباركة ، تحمل الأنثى منه بواحد واثنين ، وفيها البركة ، وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة ، وليس فيها بركة ، وإذا رعت زرعاً نبت عوضه ، وذلك لبركتها بخلاف ذوات الأربع ، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت الذئب تخور وتخاف منه ، ولا تخاف من سائر السباع ، قال بعض القصاص : مما أكرم الله تعالى به الكباش أن خلقه مستور العورة ، من قبل ومن دبر ، ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك الستر مكشوف العورة من قبل ودبر ، ويقال : الضأن من دواب الجنة ، وهى صفوة الله من البهائم ، ويقال فى المدح ، هو كبش من الكباش ، وفى الذم هو تيس من التيوس وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال :

تقول لى الإخوان حين طبختها أظنبح شطرنجاً عظاماً بلا لحم !؟

ومن العجب ، أنه يأتي غنم من الهند للكباش منها ألية فى صدره ، وأليات فى كتفيه ، وألية على ذنبه ، وربما تكبر

آلية الضأن حتى تمنعه من المشى ، ومن عجب أمرها أنها إذا تسافتت وقت المطر لا تحمل ، وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكراً أو جنوبية حملت أنثى والله أعلم .

ومن خواصها : أن لحمها ينفع للسوداء ويزيد فى المنى والباه ، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع حبلها ، وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه ، وإذا دفن قرن كبش تحت شجرة ، كثر حملها على ما ذكر ، والله أعلم .

ضب : حيوان يجعل جحره فى الأرض الصلدة وعنده بلم^(١) ، وربما لا يهتدى لجحره إذا خرج منه ، فلذلك لا يحفره إلا بقرب كودية أو إشارة ، وهو من الحيوان الذى يعمر : قيل : إنه يعيش سبعمائة سنة ، ومن طبعه أنه يصبر على الماء ، يقال : إنه لا يشرب ، فإنه يبول فى كل أربعين يوماً قطرة ، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر ، وتجعلها فى الأرض وتتعاهدا فى كل يوم إلى أربعين يوماً ، فيخرج . ويبيضها قدر يبيض الحمام ، وهذا الحيوان شديد الخوف من آدمى ، ولذلك يجعل العقارب فى جحره ، حتى يمتنع بها ، ويخرج من جحره كليل البصر فيستقبل الشمس فيحصل له بذلك حدة فى بصره ، وإذا عطش تشقّ النسيم ، فيروى ، بينه وبين الأفاعى مناسبة ، وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء .

فائدة : قيل : إن أعرابياً أتى النبى ﷺ وفى كفه ضب قد صاده وقال : لولا أن تسمينى العرب عجولاً لقتلتك ، وسررت الناس بقتلك ، فقال : عمر دعنى يا رسول الله أقتله ، فقال ﷺ : « مهلاً يا عمر ، أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً »^(٢) . قال : ثم أقبل الأعرابى على النبى ﷺ وقال : والله لا آمنت بك إلا يؤمن بك هذا الضب ، وأخرجه من كفه ، قال : فعند ذلك قال النبى ﷺ « يا ضب » ، فأجابه بلسان فصيح : لييك وسعديك يا رسول رب العالمين ، فقال : « من تعبد » قال الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عذابه ، فقال : « من أنا يا ضب ؟ » قال : رسول رب العالمين ، قد أفلح من صدقك ، وخاب من كذبك ، قال : فقال الأعرابى عند ذلك ياويلاه ! ضب اصطدته ييدى من البرية يشهد لك بالرسالة ؟! أنا أولى منه بذلك ، هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله حقاً ، ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضاً منى إليك ، ولقد صرت الآن أذهب من عندك وما على وجه الأرض أحد أكثر محبة منى إليك ، ولأنت الساعة أحب إلى من أهلى وولدى ، وما تملك يدى ، فقد آمن بك شعرى وبشرى ، ودأخلى ، وخارجى ، وسرى وعلايتى ، فقال النبى ﷺ : « الحمد لله الذى لهذا الدين الذى يعلو ولا يُغلى عليه ، ولكن لا يقبله الله إلا بصلاة ، ولا يقبل الصلاة إلا بقراءة » ، قال : فعلمنى يا حييى ، قال : فعلمه « سورة الفاتحة ، وسورة الإخلاص » . وقال : « من قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن » ، قال : « إلهنا يقبل اليسير ، ويعفو عن الكثير » ، ثم سأله : « ألك مال ؟ » فقال : يا حييى ليس فى بنى سليم أفقر منى ، فقال : « لأصحابه : « أعطوه » فأعطوه حتى أثقلوه » ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله عندى ناقة عشارية ، أعطيتها له ، فقال : « إن الله يعطيك ناقة فى الجنة من درة قوائمها من الزبرجد الأخضر ، وعيناهما من الياقوت الأحمر ، وعليها هودج من السندس ، تخطفك من الصراط كالبرق » ، قال : فخرج الأعرابى من عنده ، فلتقاه ألف فارس من المشركين ، كلهم يريدون قتل النبى ﷺ فأخبرهم بقصته ، فأسلموا عن آخرهم ، وأمر النبى ﷺ خالد بن الوليد عليهم ، وهذه القصة ذكرها الدارقطنى : بتمامها والبيهقى والحاكم ، وابن عدى .

الخواص : قلبه يذهب الحزن والخفقان ، وشحمه يُطلى به الذكر يزيد فى الباه ، وكعبه يشد على وجع الضرس ييراً ، وإذا جعل عليه وجه الفرس لا يسبقه شئ ، وبغرة البرص والكلف طلاء ، ومن أكل لحمه لا يعطش زماناً طويلاً .

(١) أي غليظ الشفتين .

(٢) قال فى المواهب اللدنية : ذكر الحديث القاضى عياض فى الشفاء ، وارجع إلى البداية والنهاية لابن كثير .

ضئع : حيوان معروف ، ومن كناه أم عامر ، ومن طبعه حب لحم الآدمي ، حتى قيل : إنه ينبش القبور ، وإذا مر بإنسان نائم حفر تحت رأسه ، ووثب عليه ، وبقر بطنه ، وشرب دمه .

الخواص : من شرب دمه ذهب وسواسه ، ومن علق عليه عينه أحبه الناس ، وإذا جعلها في خل سبعة أيام ، ثم جعلها تحت فص الخاتم ، فكل من كان به سحر وجعل الخاتم في قليل ماء وشربه زال سحره .

ضفدع : حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجرى ، ومن العفونات ، وعقب الأمطار ، وأول ما يظهر مثل الحب الأسود ، ثم ينمو ثم تتشكل له الأعضاء ، وإذا نق جعل فكه الأسفل في الماء والأعلى من خارج ، وفي صوته حدة . قال سفيان : ليس من الحيوان أكثر ذكراً لله تعالى من الضفدع ، وفي الآثار أن داود عليه السلام قال لأسبجن الله تعالى بتسييح ما سبحه أحد قبلي ، فنادته ضفدعة : ياد داود تمنّ على الله تعالى بتسييحك ، وأنا لى تسعون سنة ماجف لساني عن ذكر الله تعالى ؟ قال : فما تقولين في تسييحك ؟ قالت : أقول سبحان من هو مُسَبِّح بكل لسان ، سبحان من هو مذكور بكل مكان ، فقال داود : وما عسى أن أقول ! وقال بعضهم : إنها كانت تأخذ الماء بفيها ، وتجعله على نار إبراهيم الخليل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

[حرف الطاء]

طاوس : طير مليح ذو ألوان عجيبة ، وعنده الزهو في نفسه ، والعجب ، ومن طبعه العفة ، وهو من الطير كالفرس من الحيوان ، والأنثى تبيض حين يمضى لها من العمر ثلاث سنين ، وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذكر ، ويتم لونه وتبيض الأنثى مرة واحدة في كل شهر ، ففي السنة اثنتا عشرة بيضة ، أو أقل أو أكثر ، ويسفد الذكر في أيام الربيع ، ويرمى ريشه في أيام الخريف ، كالشجر فإذا بدا طلوع الورق ، طلع ريشه ، ومدة حضنه ثلاثون يوماً .

فائدة : قيل : إن آدم لما غرس الكرمة ^(١) ، جاء إبليس لعنه الله فذبح عليها طاوساً فشربت دمه ، فلما طلعت أوراقها ، ذبح عليها قرداً ، فشربت دمه ، فلما طلعت ثمرتها ، ذبح عليها أسداً فشربت دمه ، فلما انتهت ثمرتها ، ذبح عليه خنزيراً ، فشربت دمه ، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه ، ويميس عجباً كالطاوس ، فإذا جاء مبادئ السكر لعب وصفق يديه كالقرد ، فإذا قوى سكره قام وعريد كهية الأسد ، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير ، ثم يطلب النوم والناس تشاءم بإقامته بالدور ؛ قيل : لأنه كان سبباً لدخول إبليس الجنة ، وخروج آدم منها والله على كل شيء قدير .

[حرف الظاء]

ظبي : واحد الغزلان ، وهو ثلاثة أصناف : الأول الأرام وهي ظباء الرمل ، ولونها رمادي وهي سميت العنق ، والثاني العُفر ولونها أحمر ، وهي قصيرة العنق ، والثالث الأدم وهي طويلة العنق ، وتوصف بحدة البصرة ، وقيل : إن الظبي يقضم الحنظل قضمًا ، ويمضغه مضغاً وماؤه يسيل من شذقيه ، ويرد الماء المالح فيشرب الأجاج ، ويغمس خرطوميه فيه كما تغمس الشاة لحبيها في الماء العذب ، فأى شيء أعجب من حيوان يستعذب ملح البحر ؟ ويستحلى مرارة الحنظل ؟ !

الخواص : لسانه يجفف ، ويطعم للمرأة السليطة تزول سلاطتها وبعره وجلده يحرقان ، ويسحقان ويجعلان في طعام الصبي يزيد ذكاؤه ، ويصير فصيحاً ذلقاً حافظاً .

ظربان : دويبة فوق جرو الكلب ، منتنة الريح ، ترعم العرب أن من صاها وفست في ثوبه لا تزول الرائحة منه ، حتى يبلى الثوب . وحكى من شؤمها أنها تأتي بيت الظبي فتفسو فيه ثلاث مرات ، فتقتل ما فيه وتأكله بعد ذلك .

(١) أي شجرة العنب

[حرف العين]

عجل : حيوان معروف وهو ذكر البقر ، وسمى بذلك لاستعجال بنى إسرائيل بعبادته ، والسبب في ذلك أن موسى عليه السلام وقت الله له ثلاثين ليلة ، ثم أتمها بعشر ، وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامري ، في قلبه من حب عبادة البقر شيء فابتلى الله به بنى إسرائيل ، فقال : اتنوني بحلى قال : فأتوه بجميع حليهم ، فصنع منه عجلاً جسداً وألقى عليه قبضة من التراب الذي كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار كما أخبر الله تعالى (١) ، فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى ، وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ، ويتواجدون فيخرج منه تصويت كهينة الكلام ، فيتعجبون من ذلك ، ويظنون أنه تكلم ، وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يطغيهم ! .

فائدة : نقل القرطبي عن سيدي أبي بكر الطرطوشي - رحمهما الله - أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان فقراء من القرآن ، ثم ينشد لهم الشعر فيرقصون ، ويطربون ، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة (٢) ، هل الحضور معهم حلال أم حرام ؟ فقال : مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة . وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأما الرقص والتواجد ، فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذوا العجل ، فهذه الحالة هي حالة عباد العجل ، وإنما كان النبي ﷺ مع أصحابه في جلوسهم ، كأنما على رؤوسهم الطير ، مع الوقار والسكينة ، فينبغي لولاة الأمر وفقهاء الإسلام ، أن يمنعوهم من الحضور في المساجد ، وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب الشافعي ، وأبي حنيفة ، ومالك ، وأحمد بن حنبل - رحمهم الله تعالى - .

عقرب : هو من الحشرات قال الجاحظ : إنها تلد من فيها مرتين ، وتحمل أولادها على ظهرها ، وهم كهينة القمل كثير العدد ، وقال غيره : إذا حملت تسلط عليها أولادها ، فأكلوا بطنها ، وخرجوا كهينة الذر ، ثم يكبرون ويطوفون بالأرض ، ولها ثمانية أرجل ، ومن عجيب أمرها أنها لا تضرب النائم ، إلا إذا تحرك شيء منه ، والخنافس تأوى إليها ، وربما لسعت التنين العظيم فقتلته .

غريبة : قال ذو النون المصري : بينما أنا في بعض سياحتي إذ مررت بشاطئ البحر ، فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء شاطئ البحر ، فظننت أنه يشرب ، فممت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء ، وأتاه فحمله ، على ظهره ، وذهب به إلى ذلك الجانب . قال ذو النون : فاتزرت بمزري ، وعُمت خلفه حتى إذا صعد من ذلك الجانب ، صعدت ، وسرت وراءه ، فما زال حتى جاء إلى شجرة فوجدت تحتها غلاماً نائماً من شدة السكر ، قد أقبل عليه تنين عظيم ، قال فلصقت العقرب برأس التنين ، ولسعته فقتلته ، ثم رجعت إلى ظهر الضفدع ، فعبر بها إلى الماء وسار بها إلى المكان الذي جاءت منه ، قال ذو النون : فتعجبت من ذلك ، وأنشدت :

ياراقدا والجليل يحفظه من كل سوء يكون في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك يأتيك منه فوائد النعم ؟

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك قال : فلما سمع ذلك قال : أشهدك على أني قد تبت عن هذه الخصلة ، ثم جرينا ذلك التنين ، ورميناه في البحر ، ولبس ذلك الغلام مسحاً (٣) ، وساح إلى أن مات - رحمة الله تعالى عليه - ، وما أحسن ما قال بعضهم :

إذا لم يسالمك الزمان فحارب وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب
ولا تحتقر كيد الضعيف فربما تموت الأفاعي من سُموم العقارب

(١) في الآية رقم [١٤٨] ، من سورة الأعراف ﴿وَأَخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَنِيهِمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُمُ خُورٌ ۚ﴾ .

(٢) الشبابة : نوع من المزمار وتسميها العامة « منجيرة » .

(٣) المسح كساء من شعر ، وثوب الراهب .

فقد هذ قدماً عرش بلقيس هدهد
إذا كان رأس المال عمرك فاحترز
وخرب فأر قبل ذا سد مأرب
عليه من التضييع في غير واجب
يكر علينا جيشه بالعجائب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك

فائدة : إذا لدغ أحد فاقراً عليه هذه الكلمات وهي : سلام على نوح في العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد في المرسلين ، من حاملات السم أجمعين ، لا دابة بين السماء والأرض إلا ربي أخذ بناصيتها ، كذلك يجزى عباده المحسنين ، إن ربي على صراط مستقيم ، نوح قال لكم : من ذكرني لا تلذغوه ، إن ربي بكل شيء عليم ، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم .

وقال بعض العلماء : من قال عقدت زبانا العقرب ، ولسان الحية ويد السارق بقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أمن من العقرب ، والحية والسارق ، وفي البخاري : أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتنى البارحة ؟ فقال له النبي ﷺ : « أما إنك لو قلت إذا أمسيت ، أعود بكلمات الله الثمات من شر ما خلق لم تضرك » وروى الترمذي أن من قال حين يمسي : « أعود بكلمات الله الثمات من شر ما خلق » ثلاث مرات ، ثم قال : « سلام على نوح في العالمين » لم تضره الحية والعقرب . والسر في ذكر نوح دون غيره هو أنه لما ركب في السفينة سأله الحية والعقرب أن يحملهما معه ، فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك .

الخواص : من بخر البيت بزرنخ أحمر ، وشحم بقر هربت منه العقارب ، ومن شرب مثقالين من حب الأترج أبرأه من سمها ، ومن علق عليه شيء من ورق الزيتون برئ أيضاً لوقته .

عقشق : طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب ، وجناحه أكبر من جناحي الحمامة ، وهو لا يأوى إلا الأماكن العالية ، وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب^(١) خوفاً عليه من الخفاش ، ولا يفسده .

الخواص : دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل والشوكة الغائبة في البدن أخرجه .
علق : دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيل والآدمي ، فإذا علقت بك فرش عليها ماء وملحاً ، وإذا علقت بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه .

ومن خواصه : أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البق ، والبعوض ، وإذا جفف وسحق قلع الشعر وطللى به مكانه منع نباته .

عنقاء : اختلف فيها فقال بعضهم : هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان ، وفيه من كل حيوان لون ، وقال بعضهم هو طير غريب الشكل بيض بيضا كالجمال ، ويبعد في طيرانه ، وسميت بذلك لأنه كان في عنقها طوق أبيض . قال القزويني : إنها تخطف الفيلة لعظمها ، وكبر جثتها كما تخطف الحداة الفأر . قال : وكانت في قديم الزمان بين الناس إلى أن خطفت عروساً بحليها فذهب أهلها إلى نبي ذلك الزمان ، فشكوا إليه ، فدعا عليها فذهب بها إلى بعض الجزائر التي خلف خط الاستواء ، وهي جزيرة لا يصل إليها أحد ، وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع ، كالفيل والكركد وغير ذلك ، وقال أصحاب التواريخ إن هذا الطير يعمر حتى قيل : إنه يعيش ألفي سنة ، ويتزوج إذا مضى عليه خمسمائة .

وحكى : الزمخشري في ربيع الأبرار أن الله تعالى خلق في زمن موسى ﷺ طيراً يقال له : العنقاء ، له وجه كوجه الإنسان ، وأربعة أجنحة من كل جانب ، وخلق له أنثى مثله ، ثم أوحى الله تعالى إلى موسى : إني خلقت خلقاً كهينة الطير ، وجعلت رزقه الوحوش والطير التي حول بيت المقدس ، قال : فتناسلا وكثر نسلهما فلما توفي موسى ﷺ انتقلت إلى نجد والعراق فلم تزل تأكل الوحوش ، وانقرضت .

(١) الدلب : جنس شجر للترين ، وهو من الزهرات .

عنكبوت : دُوبية لها ثمانية أرجل ، وستة عيون ، وهى من الحيوان الذى صيده الذباب ، وولده يخرج قوياً على النسج من غير تعليم ولا تلقين ، ويخرج أولاده دوداً صغيراً ثم يتغير ويصير عنكبوتاً ، وتكمل صورته .

فائدة : نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع : على غار النبى ﷺ ، وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعثه النبى ﷺ لخالد الهذلى فقتله ، وحمل رأسه ، - ودخل به فى غار - خوفاً من أهله ، ونسج على عورة زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب ﷺ لما صلب عرياناً ، وقيل : إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه .

الخواص : نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها ، ويجلو الفضة إذا دلكت به ، والذى يوجد من نسجها فى بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به .

ابن عرس : حيوان معروف ، وهو بأرض مصر كثير ، ويسمى العرسة ، وهو عدو للفأر ، وعنده الحيل ، قيل : إنه عدا خلف فأر فصعد منه على شجرة ، فصعد خلفه ، وأمر أنثاه أن تقف تحت الشجرة ثم قطع الغصن الذى كان عليه الفأر ، فسقط فأخذه أنثاه . ومما يحكى عنه أنه يحب الذهب فيسرقه ، ويلد عليه .

عجبية : قيل إن رجلاً صاد فرخاً من أولاده ، وحبسه تحت طاسة ، فجاء أبوه فوجده ، فذهب وأتى بدينار فوضعه ، فلم يفلته ، ثم ذهب وأتى بآخر ، وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنانير ، فلم يفلته ، ثم أتى بخرقه فلم يفلته ، فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله^(١) به ، فلما علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شيء فأقلته له .

[حرف الغين]

غراب : وكنيته أبو حاتم ، وله كنى غير ذلك ، وهو أنواع كثيرة : منها الأكل ، وغراب الزرع والأزرق ، وهذا النوع يحكى جميع ما سمعه . والعرب تتفاهل بصياح الغراب فتقول : إذا صاح مرتين فشر ، وإذا صاح ثلاثة فخير ، وهو كالإنسان عند الجماع ، وفى طبعه الاستتار عن الناس عند مجامعته ، والأنثى تبيض ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، وتحضن ذلك ، والأب يسعى فى طعمتها إلى أن تفرخ ، فإذا فرخت خرجت أفراخها قبيحة المنظر فتتفرق منها ، وتتركها وتغيب ، فيرسل الله لها البعوض فتفتذى به ، ثم لا تزال تتعاهدها حتى ينبت لها الريش فتأتيها ، ومنه قول الحريري :

يارزاق النُّعَاب^(٢) فى عَشِه وجابر العظم الكسير المهيض

ومن طبعه : أنه لا يتعاطى الصيد بل إن وجد رمة أكل منها ، ويقم من الأرض ما وجد ، ويسمى بالفاسق ، لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء ، فوجد فى طريقه رمة ، فسقط عليها ، وترك ما أرسل إليه ، ويسمى بالبين ، لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه ، وزعق فى أثرهم . ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب ألفة ، وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط ، وأكل منها معه ، والذئب لا يضره .

الخواص : إذا غمس الغراب فى الخل ، ثم جفف وسحق ريشه ، وطلّى به الشعر سوده ، وإذا علق متقاره على إنسان زالت عنه العين ، وزبل الغراب الأبقع ينفع الخوائيق والخنازير طلاء ، وإن صرّ فى خرقه على من به السعال زال .

غُرغُر : دجاج بنى إسرائيل ، يقال : إن فرقة من بنى إسرائيل كانت بتهامة ، فطغت ويغت ، وتجبرت وكفرت ، فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القرود ، وكلابهم الأسود وعنبهم الأراك ، وجرزهم المقل ، ودجاجهم الغرغر ، وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه ، لرائحته الكريهة ، وهذا مشاهد فى زماننا هذا الآن على ما نقل . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) رطله : قدمه ودفعه أشبه ما يكون بالريشة

(٢) النُّعَاب : وح عراب

[حرف الفاء]

فاختة : طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت ، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها ، وفي طبعها الأنس ، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها في البيوت ، وهي من الحيوان الذي يعمر ، وقد ظهر منها ما عاش خمسا وعشرين سنة .

الخواص : دمها ينفع . ^(١) حين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها .

فارة : وكنيتها أم خراب ، وغير ذلك ، وتسمى بالقويسقة ، وذلك أن النبي ﷺ انتبه ليلة فوجدها قد جذبت الفتيلة ، وأحرقت طرف سجادته ، فقتلها ، وأمر بقتلها ^(٢) . . وهي التي قطعت جبل سفينة نوح ، وأذاها لا يكاد ينحصر ، ومنه : أنها تأتي إلى إناء الزيت فتشرب منه ، فإذا نقصت صارت تشرب بذهنها ، فإذا لم تصل إليه ذهبت ، وأتت في فيها بماء وأفرغته فيه حتى يعلو لها الزيت فتشربه ، وربما وضعت فيه حجراً فكسرتة ، ويقال : إنها من بقايا الممسوخين الذين كانوا يهودا ، ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة في إناء ، فإن لم تشربه فهي منهم .

الخواص : عينه تشد على الماشى يسهل تبعه ، وإذا بخر البيت بزيل الذئب أو الكلب ذهب منه الفار .

فرس البحر : حيوان يوجد بالنيل ، أفطس الوجه ، ناصيته كالفرس ورجلاه كالبقر ، وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير ، وجلده غليظ ، ووجهه أوسع من وجه الفرس ، يصعد البر ، ويرعى الزرع ، وربما قتل الإنسان وغيره .

فهد : حيوان شرس الأخلاق ، قال أرسطو ، هو متولد من الأسد والنمر ، وفي طبعه مشابهة بطبع الكلب ، ونومه ثقيل ، وفي طبعه الحنو على أنثاه ، وقيل : أول من صاد به كليب بن وائل ، وأول من حملة على الخيل يزيد بن معاوية ، وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراساني .

فيل : حيوان يوجد بأرض الهند ، وكنيته أبو الحجاج ، والأنثى أم سبل ، وهو يتزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين ، وتحمل أنثاه ستين ، ثم تضع ، ولا يقربها الذكر في مدة حملها ، ولا بعده بثلاث سنين ، ولا يلقح إلا ببلاده ، وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجلها لا يشتيان فتخاف عليه ، والذكر يحرسها خوفاً على ولده من الحيات ، فإنها تأكله ، وهو عند شدة غلمته ^(٢) كالجمال ، ويهيج في زمن الربيع ، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب ، ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه ، وقيل : إن نديه في صدره كالإنسان ، وهو أضخم الحيوان ، وأعظمه جرماً ، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة سن وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم رشيق ، وربما مر الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد ، فلا يشعر برجله ، ولا يحس بمروره لخفة همسه ، واحتمال بعض جسده لبعض ، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل قرناه يخرجان مستبطين ، حتى يخرقان ، وخرطوم الفيل أنفه ويده ، وبه يتناول الطعام إلى جوفه ، وبه يقاتل ، وبه يصيح ، وصياحه ليس في مقدار جرمة ، وقيل : إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطومه ، كما يغيب الجاموس جميع بدنه إلا منخره ، ويقوم خرطومه مقام عنقه ، والخرق الذي في خرطومه لا ينفذ ، وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو ماء أولجه في فيه ، لأنه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى ، وأهل الهند تجعله في القتال ، وهو أيضاً يقاتل مع جنسه ، فمن غلب دخلوا تحت أمره ، وقيل : جعل الله في طبع الفيل الهرب من السنور .

حكى : عن هارون مولى الأزدي ، أنه خبا معه هراً ، ومضى بسيف إلى الفيل ، فلما دنا منه ، رمى بالهر في وجهه ، فأدبر هارباً ، وكبر المسلمون ، وظنوا أنه هرب منه قال أبو الشمقمق :

يا قوم : أنتي رأيت الفيل بعدكم - تبارك الله - في رؤية الفيل

(١) « وذلك أن النبي ﷺ انتبه ليلة » الخ أخرجه ابن ماجه في كتاب المناسك

(٢) غلمته : تاجع الشهوة عنده

رأيت بيتاً له شيء يحركه فكدت أفعل شيئاً في السراويل !
وقيل : إذا اغتلم الفيل لم يكن لسواسه هم إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه . ومن عجيب أمره أن سوطه الذي به يُحَث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه في جبهته ، والآخر في يد راكمه ، فإذا أراد شيئاً غمز به في لحمه ، وأول شيء يؤديون به الفيل يعلمونه السجود للملك .

قيل : خرج كسرى أبرويز لبعض الأعياد وقد صَقَّوا له ألف فيل ، وأحرق به ثلاثون ألف فارس فلما رآته الفيلة سجدت له ، فما رفعت رءوسها حتى جذبت بالمحاجن^(١) ، وراضتها الفيالون . وتزعم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقاً غليظاً سائلاً أطيب من رائحة المسك ، ولا يعرض ذلك العرق إلا في بلادها خاصة ، وإن عظام الفيل كلها عاج ، إلا أن جوهر نابه أكرم وأثمن ، ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة في قوله : نحن أكثر منك عاجاً وساجاً ، وديباجاً وخراجاً ، وقيل : إن الفيلة لا تتسافد في غير بلادها .

فائدة : من قرأ سورة الفيل ألف مرة في كل يوم ، عشرة أيام متوالية ثم جلس على ماء جار : وقال اللهم أنت الحاضر ، المحيط بمكنونات الضمائر ، اللهم عزّ الظالم ، وقلّ الناصر ، وأنت المطلع العالم ، اللهم إن فلانا ظلمني وأساءني ، ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكة فأهلكه . اللهم سربله سربال الهوان ، وقمصه قميص الردى ، اللهم اقصفه (ست مرات) اللهم اخفضه (مرتين) فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله وافي ، فإن الله يستجيب له ما لم يكن ظالماً .

الخواص : جلده إذا بخر به بيت هرب بقه ، وإذا سقى إنسان من وسخ أذنه نام نومة طويلة ، وإذا علق من نابيه شيء على شجرة لم تثمر ، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس .

[حرف القاف]

قَام : دُوِّيَّة تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجاً ، وهو أبيض يقق^(٢) ، وجلده أعز قيمة من السنجاب .
قاوئد : طير يكون بساحل البحر يبيض في الرمل ويحضن بيضه سبعة أيام ، ثم تخرج أفراخه بعد ذلك ، فيزقها بعد سبعة أيام ، ويقال : ما يمسك الله البحر في هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكراماً له لأنه يقال : إنه يبر والديه .
خواصه : أنه يقيم المقعد ، ويحلل البلاغم المزمنة ، وينفع الأمراض الباردة ، وأوجاع الأعصاب .

قرد : حيوان معروف ، وكنيته أبو خالد ، وغير ذلك ، وهو قبيح المنظر ، مليح الذكاء ، سريع الفهم يتعلم الصنائع ، قيل : إنه أهدي للمتوكل قرد خياط ، وآخر صائغ ، وأهل اليمن يعلمون القردة البيع والجلوس في الدكاكين ، حتى قيل : إنه يخرز النعل ، ويصر القرطاس ، وهو ذو غيرة ، وعنده لواط حتى قيل : إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة ، والتفت ابن الرومي يوماً إلى أبي الحسن الأخفش وهو يحاكي مشية القرد فقال :

هنيئاً يا أبا الحسن المفدى بلغت من الفضائل كل غاية
شركت القرد في قبح وسخف وما قصرت عنه في الحكاية

قُفُّذ : - بالذال المعجمة - وكنيته أبو سفيان ، ومن عجيب أمره أنه يصعد الكرم ، فيرمى العنقود ، ثم ينزل فيأكل منه ما أطاق فإن كان له أفراخ تمرغ في الباقي ، فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده ، وهو مولع بأكل الأفاعي فإذا لدغته لا يؤثر فيه سمها لدفع ذلك بشوكه ، وإذا تأذى منها ذهب فأكل السعتر البري ، فيزول أذاها ، وهو من الحيوان الذي يسفد مباطنة كالرجل وله خمسة أرجل .

(١) المحاجن : جمع محجن وهو كل معوج الرأس كالصولجان .

(٢) يقق : أي شديد البياض ، ناصعه .

[حرف الكاف]

كركد^(١): حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة ، وهو دون الجاموس ، وله قرن واحد عظيم لا يستطيع رفع رأسه منه لثقله ، وهو مصمت قو يقاتل به الفيل فيغلبه ، ولا تعمل ناباه شيئاً معه ، وعرض قرنه شبران ، وليس بطويل جداً ، وهو محدد الرأس شديد الملاسة ، وإذا نشر قرنه ظهرت في معاطفه صور عجيبة كالطواويس والغزلان ، وأنواع الطير والشجر وبنى آدم ، ولذلك يتخذ منه صفائح الأسرة والمناطق للملوك ، ويتغالبون في ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف أو أكثر ، والأنثى تحمل ثلاث سنين ويخرج ولدها نابت الأسنان والقرون ، قو الحافر ويقال : إنها إذا قارت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها ، وصار يرعى أطراف الشجر ، فإذا شبع أدخل رأسه بطن أمه ، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئاً حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هيبه له ، وهرباً منه ، ويسمى الحمار الهندي ، وهو شديد العداوة للإنسان يتبعه إذا سمع صوته فيقتله ولا يأكل منه شيئاً .

كزوان : طير معروف لا ينام غالب الليل ، خصوصاً في القمر ، وعنده ذكاء قيل : إنه يتكلم بجميع ما يبصره ، ولا يحتمل المغابنة .

كزكى : طير محبوب للملوك ، وله مشى ومصيف ، فمشته بأرض مصر ، ومصيفه بأرض العراق ، وهو من الحيوان الرئيس ، قيل : إنه إذا نزل بمكان اجتمع حلقة ونام ، وقام عليه واحد يحرسه ، وهو يصوت تصويماً لطيفاً حتى يفهم أنه يقظان ، فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته . قال القزويني : وإذا مشى وطئ الأرض بإحدى رجليه ، وبالأخرى قليلاً خوفاً من أن يُحسَّ به ، وإذا طار سار سطرأ يقدمه واحد كهيئة الدليل ، ثم تتبعه البقية .

كلب : معروف وهو نوعان : أهلى وسلوقى ، وهذان النوعان سواء إلا أن أنثى السلوقى أسرع فى التعلم من ذكره ، وهذا الحيوان حلیم وعنده رياضة وفى طبعه إكرام الأجلاء من الناس .

حكى : أن رجلاً عزم جماعة ، فتخلف شخص منهم فى منزله ، ودخل على زوجة صاحب المنزل ، فضايعها فوثب الكلب عليهما فقتلها ، فرجع صاحب المنزل فوجدتهما قتيلين ، فأنشد يقول :

وما زال يرعى ذمتى ويحوطنى ويحفظ عهدى والخليل يخون
فواعجباً للخل يهتك حرمتى وواعجباً للكلب كيف يصون ؟!

وحكى : أبو عبيدة قال : خرج رجل إلى الجبانة ، ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس ، فتبعه كلب له ، فضربه ورماه بحجر فلم ينته ولم يرجع ، فلما قعد ربض الكلب بين يديه ، فجاء عدو له فى طلبه ، فلما رآه خاف على نفسه ، فإذا بثر هناك قرية القعر فنزل فيها ، وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب ، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سبيلهما وصار الكلب ينبح حوله ، فلما انصرف العدو أتاه الكلب ، فما زال ييحث فى التراب إلى أن كشفه عن رأسه ، فتنفس الرجل ، ومر به أناس فتناولوه ، وردوه إلى أهله ، فلما مات ذلك الكلب عمل له قبراً ودفنه فيه ، وجعل عليه قبة ، وسمى ذلك قبر الكلب ، وفى ذلك قيل :

تفرق عنه جاره ، وشقيقه وما حاد عنه كلبه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً قتل ودفن وكان معه كلب ، فصار يأتى كل يوم إلى الموضع الذى دفن فيه وينبح وينبش ، ويتعلق برجل هناك ، فقال الناس : إن لهذا الكلب شأنًا ، فكشفوا عن ذلك ، وحفروا ذلك الموضع ، فوجدوا قتيلًا ، فقبضوا على ذلك الرجل الذى ينبح عليه الكلب ، وضربوه فأقر بقتله ، فقتل . وهو من الحيوان الذى يعرف الحسنة ، وقيل : إن الأنثى تحيض فى كل شهر سبعة أيام ، وأكثر ما تضع اثنا عشر جروا ، وذلك فى النادر ، والغالب خمسة أو ستة ، وربما ولدت واحداً ، ويعيش الكلب فى الغالب عشر سنين ، وربما بلغ عشرين سنة . وصف

(١) قال صاحب الحيوان : وسماه الجاحظ : الكركدن .

للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد ، فأرسل من جاء به إليه فجوع أسداً وأطلقه عليه فتهاشأ وتواثباً ، حتى وقعا ميتين . وقيل : كلب الصياد يشبه به الفقير المجاور للغنى ، لأنه يرى من نعمته ويؤس نفسه ما يفتت كبده ! وقيل : لرجل ما بال الكلب يرفع رجله إذا بال ؟ قال : يخاف أن يلوث ذراعيه ! قيل : أو للكلب ذراعان ؟ قال : هو يتوهم ذلك .

فائدة : حكى أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سمع أن شخصاً من وراء النهر يروى أحاديث مثلكة فسار إليه ودخل عليه : فوجده يطعم كلباً وهو مشغل به ، قال الإمام أحمد : فأخذت في نفسي وأضمرت أن أرجع إذ لم يلتفت الرجل إلي ثم قال حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قطع رجاء من ارتجاء قطع الله رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة » ^(١) . وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب ، وقد قصدني هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه قال : فقال الإمام أحمد - رحمه الله - هذا الحديث يكفيني ! ثم رجع قافلاً إلى أهله ! . فائدة أخرى : قال الترمذى لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض ، سلط عليه إبليس السباع وكان أشدها الكلب ، قال : فنزل عليه جبريل عليه السلام وأمره أن يضع يده عليه ، ففعل واطمأن إليه ، وألفه وصار يحرسه ، وبقيت الألفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة ، وقيل : إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليه السلام وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل فيفسدون ما صنعه في السفينة بالنهار ، فأمره الله أن يتخذ كلباً حارساً ففعل ، قال : فكان الكلب إذا أتاه مفسد قام عليه فيتيقظ نوح عليه السلام فيدفعه . فائدة أخرى : قيل : كان كلب أهل الكهف أسمر ، واسمه قطمير ، وقيل : أصفر ، وقيل خلنجي اللون ، وليس في الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو ، وكبش إسماعيل ، وناقة صالح ، وحمار العزيز ، وبراق النبي ﷺ فائدة أخرى : إذا نبج عليك كلب ، وخفت منه فاقراً : يَنْمَشَرُ الْكَلْبُ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ [الرحمن: ٣٣] وقل بعد ذلك لا إله إلا الله ، فإنك تكفاه .

[حرف اللام]

لغلق : طير معروف ، قيل : إنه من طيور الفواخت ، ويأتي إلى أرض مصر في أيام الشتاء ، فيأكل ما قسم الله له من الرزق ، ويأكل منه من له فيه رزق ثم يرحل إلى بلاده .

[حرف الميم]

مالك الحزين : طير يوجد بالضحضاح ^(٢) ، غذاؤه السمك ، وسمى بذلك لأنه قيل : إنه لا يشرب حتى يروى خوفاً من أن ينقص الماء ، وإذا نشف الضحضاح حزن ، لأنه لا يستطيع العوم ، ونظيره دويبة بأرض فارس معروفة عندهم يقال : إن غذاها التراب فإذا أكلت لا تشبع خوفاً من أن يفرغ .

[حرف النون]

نمل : قال ﷺ : « ألا تنظرون إلى صغير ما خلق الله ، كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر ، وسوى له العظم والبشر ؟! انظروا إلى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها لا تكاد تُنال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفكر ، كيف دبت على الأرض ، وسعت في مناكبها ، وطلبت رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، تجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدرها ، لا يغفل عنها المنان ، ولا يحرمها الديان ! ولو فكرت في مجارى أكلها في علوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً ، وللقيت من

(١) قال العجلوني في الكشف [٢/٥٧٣] ، عزاه بعضهم لأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً ، لكن قال السخاوي : هو مختلق على الإمام أحمد ، وأقول : المشهور على الألسنة « استرجاه » . بدل « ارتجاء » .

(٢) الضحضاح : رمل أو صخر يتجمع قريباً من سطح الماء في بحر أو نهر .

وصفها تعباً ، فتعالى الذي أقامها على قوائمها ، وبنّاها على دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يعنه على خلقها قادر ، لا إله إلا هو ولا معبود سواه ^(١) . وقيل : إذا خافت على حبيبها أن يعفن أخرجه إلى ظهر الأرض ليحف ، وقيل : إنها تفلق الحبة نصفين خوفاً من أن تنبت فتفسد إلا الكزبرة ، فإنها تفلقها أربعاً لأنها من دون الحب ينبت نصفها ، وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا فسبحان من ألهمها ذلك ! وقيل : إنها تشم رائحة الشيء من بعيد ، ولو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة ، وإذا عجزت عن حمل شيء استعانت برفقتها ، فيحملونه جميعاً إلى باب جحرها ، وقيل : إذا انفتح باب قرية النمل ، فجعلت فيه زرينخاً أو كبريتاً هجرتها والله أعلم .

نحل : حيوان ليس له نظر في العواقب ، وله معرفة بفصول السنة وأوقاتها وأوقات المطر ، وفي طبعه الطاعة لأميره ، والانقياد له ، ومن شأنه في تدبير معاشه أنه يبنى له بيتاً من الشمع شكلاً مسدساً ، لا يوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة ، وإذا طار ارتفع في الهواء وحط على الأماكن النظيفة ، وأكل نوار الزهر والأشياء الحلوة ، وشرب من الماء الصافي ، وأتى فأخرج ذلك ، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء ثم العسل ، وقيل : إنه يقسم الأعمال فبعضه يعمل البيوت ، وبعضه يعمل الشمع ، وبعضه يعمل العسل ، وفي طبعه النظافة فيجعل رجليه خارج الخلية ، وما مات منه أخرجه ورماه وعنده الطرب ، فيحب الأصوات اللذيذة ، وله آفات تقطعه كالظلمة والغيم ، والريح ، والمطر ، والدخان ، والنار ، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة ، وغيم الشك ، وريح الفتنة ، ودخان الحرام ، ونار الهوى .

فائدة : قيل : مرض شخص فقال : اتنوني بماء وعسل فأتوه بذلك ، فخلط الجميع وشربه فشفي ، وروى أن شخصاً شكاً للنبي ﷺ بطن أخيه فأمره بشرب العسل ، فشربه ، ثم جاء ثانياً فأمره بشربه ، ثم جاء في الثالثة ، فقال يارسول الله إن بطني لم يزل ، فقال رسول الله ﷺ : « صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ » ، اسْقِهِ عَسَلًا فَسَقَاهُ الثَّالِثَةُ فَشَفِيَ ^(٢) .

نادرة : قيل : إن بعضهم حضر مجلس المنصور ، فقال بعض الحاضرين : المراد من قوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » [النحل : ٦٩] . أهل البيت فإنهم النحل ، والشراب القرآن ، فقال له بعض من حضر من اللطفاء : جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم ! فضحك الحاضرون عليه وأبهته !

الخواص : إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص ، واكتحل به ، نفع من نزول الماء في العين ، والتلطخ به يقتل القمل ، ولعقه علاج لعضة الكلب ، والمطبوخ منه نافع للمسموم .

نسر : هو سيد الطيور ، ويعمر طويلاً قيل : إنه يعيش ألف سنة ، وله قوة على الطيران ، حتى قيل : إنه يقطع من المشرق إلى المغرب في يوم ، وجثته عظيمة حتى قيل : إنه يحمل أولاد القبيلة ، وله قوة حاسة الشم حتى قيل : إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ ، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هية له حتى يفرغ من الأكل ، وعنده شره قيل : إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إمساكه في تلك الحالة أمسكه ، وإذا باض ذهب وأتى بورق الدلب فجعله في عشه خوفاً من الخفاش أن يفسد بيضه ، وهو لا يحضن البيض ، وإنما يبيض في الأماكن العالية ، ويلقيه في الشمس ، فتكون حرارتها له بمنزلة الحضن ، ومن طبعه إنه لو شم الطيب مات ، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل : إنه ليموت كمدأ ويقال : للأنثى منه أم قشعم . وفي الحديث : أتاني جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، لكل شيء سيد ، فسيد البشر آدم ، وسيد ولد آدم أنت ، وسيد الروم صهيب ، وسيد فارس سلمان ، وسيد الحبش بلال ، وسيد الطيور النسر ، وسيد الشهور رمضان ، وسيد الأيام الجمعة ، وسيد الكلام العربي ، وسيد العربي القرآن ، وسيد القرآن سورة البقرة ^(٣) .

(١) قال ﷺ : « ألا تنظرون إلى صغيرة ما خلق الله .. » . إلخ لم أفق عليه .

(٢) وروى أن شخصاً شكاً للنبي ﷺ بطن أخيه .. . إلخ رواه البخاري ومسلم في صحيحهما من رواية قتادة وذكره ابن كثير في تفسير آية النحل .

(٣) وفي الحديث : « أتاني جبريل .. » . إلخ ذكره المتقي الهندي في « كنز العمال » . [٣٥٣٤٤] ، عن علي .

الخواص : إذا أخذ قلب النسر وجعل في جلد ذئب ، وعلق على شخص كان مُهاباً عند الناس ، مقضى الحاجة ، وإذا عسر على المرأة الوضع ، جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها .

نعام : يذكر ويؤنث ، وتسمى الأنثى بأم البيض ، والذكر بالظليم ، ومن عجيب أمرها أنها تبيض بيضاً طويلاً متساوية القدر ، وتجعلها أثلاثاً : ثلثاً للحضن ، وثلثاً تأكله في حضنها ، وثلثاً تكسره وتفتحها ، فيتعفن ويدود فيكون منه غذاء أولادها ، وعندها الحمق يقال : إنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها ، فتحضنه وترك بيض نفسها .

فائدة : روى كعب الأحبار رضي الله عنه أن الله تعالى لما خلق القمح ، وأنزله على آدم ، كان على قدر بيض النعام ، وقال له : هذا رزقك ورزق أولادك ، قم فاحرث وازرع ، قال : ولم يزل الحب على ذلك مدة ثم نزل إلى بيض الدجاجة ، ثم الحمامة ، ثم النبق ، وكان في زمن العزيز على قدر الحمص ، وقيل : كل حيوان إذا كسرت رجله مشى بالأخرى إلا النعام فإنه يترك إلى أن يموت ، وخلق الله تعالى له قوة الشم البالغ حتى قيل : إنه يشم رائحة القناص من مسيرة نصف ميل ، وهي لا تشرب الماء كالضب ، ويقال : إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها في شيء إما شعب أو جحر تظن أنها قد استترت منه ، ولها معدة قوية تقطع الحديد ، والصوّان ، والجمر ، وفي طبعها الأذى يقال : إنها تخطف الحلق من أذن الصغير ، وقيل : إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه ما دام الأبوان حاضرين ، لأنهما إذا رآياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ، ولا يزالان به حتى يقتلاه ، أو يعجزهما هرباً . وقيل أشد ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح ، وتقول العرب : صنفان من الحيوان أصمان لا يسمعان : النعام والأفاعى ، وسأل أبو عمرو الشيباني بعض العرب عن الظليم : هل يسمع ؟ فقال : يعرف بعينه وأنفه ، ولا يحتاج معهما إلى سمع .

نمر : حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب ، وهو صنفان : صنف عظيم الجثة صغير الذنب ، والآخر بالعكس . قال الجاحظ : وهو يحب الشراب ، وعنده شراسة في خلقه ، ويقال : إن أنثاه لا تدع ولدها إلا مطوقاً بحية ولا يضره نهشها ، وذلك لأجل الصياد حتى لا يظفر به ، وإذا مرض أكل الفأر فيبرأ ، وفي طبعه عداوة الأسد ، وعنده شرف في نفسه يقال : إنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره ، ولا يملك نفسه عند الغضب ، وأدنى وثبته عشرون ذراعاً ، وأكثرها أربعون .

الخواص : من حمل جلده شيئاً صار مُهاباً عند الناس ، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت بواسيره .

[حرف الهاء]

هدهد : طير معروف ، وهو من رسل سليمان عليه السلام ، وعنده حدة البصر حتى قيل : إنه يرى الماء تحت الأرض ، وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه السلام حين سأل عنه ولم يجده ، هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا فذهب لينظره ، فدخلت الشمس من مكانه ، فرأها سليمان عليه السلام فتفقده ، وطلبه ، فلما حضر قال : يابى الله ، إنى رأيت كيت وكيت ، وقص عليه القصة ^(١) ، ويقال : إنه قال لسليمان عليه السلام لما أراد تعذيبه ، يابى الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى ، فارتعد سليمان من هذا الكلام ، وأطلقه .

الخواص : إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام عنه ، وعينه إذا علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه ، وريشه إذا حملة إنسان وخاصم غلب خصمه ، وقضيت حاجته ، وظفر بما يريد ، ولحمه إذا أكل مطبوخاً نفع من القولنج ، وإن بخر بمخه برج حمام لم يقربه شيء يؤذيه ، ومن علق عليه لحيه الأسفل أحبه الناس . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) جاءت قصته في سورة النمل ابتداء من الآية رقم [٢٠] ، حتى الآية رقم [٤٤] .

[حرف الواو]

وَرَشَان : طير يتولد بين الحمام والفاخنة ، وهو حسن شديد الحنو ، يقال : إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدة حنوه . قال بعضهم : إنه يقول في صياحه : لدوا^(١) للموت ، وابنوا للخراب . والهدهد يقول : إذا نزل القضاء عمى البصر ، والفاخنة تقول : ليت هذا الخلق ما خلُقوا ، وليتهم إذا خلُقوا علموا لماذا خلُقوا ، وليتهم عملوا لما علموا والخطاف يقول : قدموا خيراً تجدوه عند ربكم ، والحمامة تقول : سبحان ربى الأعلى ، والبازي يقول : سبحان ربى وبحمده ، والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان . والدراج يقول : الرحمن على العرش استوى ، والعقاب يقول : البعد عن الناس رحمة ، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ، ويمد صوته في الضالين كالقاريء ! .

[حرف الياء]

يأجوج ومأجوج : سموا بذلك لكثرتهم ، وقيل : بل هو اسم أعجمي غير مشتق قال مقاتل : هم ولد يافث بن نوح عليه السلام . وقول من قال : إن آدم نام ، فاحتلم فالتصق منه بالتراب ، فتولد منه هذا الحيوان مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم السلام - وفي الحديث : « يأجوج ومأجوج أمة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة » انتهى . وهم أصناف منهم ما طوله عشرون ذراعاً ، وما طوله ذراع وأقل وأكثر ، وعن علي بن أبي طالب عليه السلام : أن لهم مخالباً الطير ، وأنياب السباع ، وتداعى الحمام ، وتسافد البهائم ، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد ، وإذا مشوا في الأرض كان أولهم بالشام ، وآخرهم بخراسان ، يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية ، ويمنعهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة ، وبيت المقدس ، ويأكلون كل شيء يمرون به ، ومن مات منهم أكلوه ، ويقال : إن صنفاً منهم له أذانان : إحداهما صلدة ، والأخرى وبرة فهو يلتحف بإحدهما ، ويفترش الأخرى ، وفي الحديث أنه عليه السلام سئل هل بلغتهم الدعوة ؟ فقال عليه السلام : « دعوتهم ليلة أسرى بى ، فلم يجيبوا فهم خلق النار »^(٢) . وفي الحديث أيضاً : أن الله - عز وجل - إذا كان يوم القيامة قال : « يآدم ، أرسل بعث النار ، فيقول : يارب وما بعث النار فيقول الله تعالى : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار ، وواحد للجنة » ، قال : فاشتد الأمر على المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ، ومنكم واحداً »^(٣) . وفي الحديث أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بالردم فقال : « صفه » فقال يارسول الله انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه ، فدخلت في بيت ، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعتنى ، فارتعدت منها : قال : فقال صاحب البيت ، لا بأس عليك إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم ، أتريد أن تنظر إليه ؟ فإذا لبنه^(٤) مثل الصخرة ، ومساميره مثل جذوع النخل ، كله من حديد كأنه البُرْد المحبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى من رأى الردم ، فليُنظر هذا الرجل »^(٥) قال المفسرون وهذا هو السد الذى بناه ذو القرنين ، وهذه الأمة خلفه ، تطلب المعجىء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم ، فيعيده الله كما كان إلى أن يقضى الله أمره ، ثم يسلط الله عليهم بعد ذلك دوداً يطلع في حلاقيمتهم ، فيهلكهم الله به ، والأخبار في ذلك كثيرة .

(١) لَدَّ: اشتدت خصومته .

(٢) قال ابن كثير : وهذا قول غريب جداً لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل .

(٣) « يأجوج ومأجوج أمة ... » . إلخ قال ابن كثير : هذا حديث غريب بل منكر ضعيف . وانظر : « مجمع الزوائد » . للهيثمي [٦ / ٨] .

(٤) اللَّيْن : المضروب من الطين يُنْبئ به .

(٥) وفي الحديث : « أنه عليه السلام سئل هل بلغتهم ... » . إلخ لم أمتد إليه .

يحمور : دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر ، وقيل : هو كالإيل يلقي قرنيه في كل ستة ، وهما صامتان ، وقال الجوهري : هو الحمار الوحشى .

نادرة : قيل : ترافق رجلان في طريق ، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر : قد صار لى عليك حق ، وإنى رجل من الجان ، ولى إليك حاجة ، قال : وما هى ؟ قال : إذا وصلت إلى المكان الفلانى من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك ، فاشتره منها واذبحه ، فقال له الآخر : وأنا أيضاً لى إليك حاجة ؟ قال : وما هى ؟ قال : إذا ركب الجنى إنساناً ما يعمل له ، قال : تشد إبهاميه بسير من جلد اليحمور وتقطر فى أذنيه من ماء السذاب فى اليمنى أربعا ، وفى اليسرى ثلاثاً ، فإن الراكب له يموت ، ثم تفرقا ودخل الإنسانى ففعل ما أمره به الجنى ، من شراء الديك وذبحه ، فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة ، وقالوا له : أنت ساحر ، ومن حين ذبحت الديك سلبت من صبية عندنا عقلها ، فلا نفلتك إلا إلى صاحب المدينة ، قال : فقلت لهم اتنوني بسير من جلد اليحمور ، وقليل من ماء السذاب ، ودخلت على الصبية فربطت إبهاميهما ، وقطرت ماء السذاب فى أذنيها ، فسمعت صوتا يقول : آه علمتك على نفسى ، ثم مات من ساعته ، وشفى الله تلك الشابة .

[فصل فى خواص الطير والحيوان على الإجمال]

الضبب والخنزير : لا يلقيان شيئاً من أسنانهما أبداً ، وكل حيوان يعوم بالطبع إلا الإنسان والقرد ، وكل ذى عين فإن أهداب عينه فى الجهة العليا فقط إلا الإنسان فإنه من الجهتين . والفرس لا طحال له ، والبعر لا مرارة له ، والظليم لا مخ لعظمه ، والحيات لا ألسنة لها ، والسمكة لا رئة لها لأنها تتنفس من كبدها ، وكل حيوان لا حافر له فله قرن ، وما لا قرن له فله حافر ، والحيوان المتهم باللواط القرد ، والخنزير ، والحمار ، والسنور ، والعيون التى تضىء بالليل عين الأسد ، والنمر ، والأفعى ، والسنور ، والذى يذخر القوت من الحيوان الإنسان والفأر ، والغراب ، والنحل ، والنمل ، والذى يحيض من الحيوان الإنسان ، والفرس ، والكلب ، والأرنب ، والضبع ، والخفاش ، ويقال : أيضاً الرعاد من السمك ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وهذا آخر ما قصدت إيراده فى هذا الباب ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .



الباب الثالث والستون

فى ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودى فى كتابه ، عن بعض العلماء : أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الأرض قبل آدم ثمانيا وعشرين أمة ، على خلق مختلفة ، وهى أنواع : منها : ذوات أجنحة وكلامهم قرقرة ، ومنها : ماله أبدان كالأسود ورووس كالطير ولهم شعور وأذنان ، وكلامهم دوى ، ومنها : ماله وجهان : واحد من قبله ، والآخر من خلفه ، وأرجل كثيرة ، ومنها : ما يشبه نصف الإنسان بيد ، ورجل وكلامهم مثل صياح الغرائق . ومنها : ما وجهه كالآدمى ، وظهره كالسحفاة ، وفى رأسه قرن ، وكلامهم مثل عواء الكلاب ، ومنها ماله شعر أبيض ، وذنوب كالبحر ، ومنها : ماله أنياب بارزة كالخناجر ، وآذان طوال ، ويقال : إن هذه الأمم تناكحت ، وتناسلت ، حتى صارت مائة وعشرين أمة ، ولم يخلق الله تعالى أفضل ، ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان ، وقال عمر بن الخطاب : خلق الله تعالى ألف أمة وعشرين أمة ، منها ستمائة فى البحر ، وأربعمائة وعشرون فى البر ، وفى الإنسان من كل خلق ، فلذلك سخر الله له جميع الخلق ، واستجمعت له جميع اللذات وعمل بيده جميع الآلات ، وله النطق والضحك والبكاء والفكرة والفطنة

واختراعات الأشياء ، واستنباط جميع العلوم ، واستخراج المعادن ، وعليه وقع الأمر والنهي والوعد والوعيد والنعيم والعذاب ، وإياه خاطب ، وله قرب ، وخلق الله تعالى إسرائيل عليه السلام على صورة الإنسان وهو أقرب الملائكة إليه ، وفي الحديث : « لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرائيل »^(١) وآيات الله تعالى في البشر أكثر من أن تحصر فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب تحفة الألباب : دخلت إلى باشقرد ، فرأيت قبور عاد ، فوجدت سن أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران ، وكان عندي في باشقرد نصف ثنية أخرجت لي من فك أحدهم الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ألفا ومائتي مثقال ، وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعاً ، وطول عظم عضد أحدهم ثمانية أذرع ، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام قال : ولقد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد رجلا طويلا طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً كان يُسمى دنقى أو دبقى ، كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير ، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس ، ويقطع جلده ، وأعضاؤه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة ، وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل ، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله ، وكان خيراً متواضعا كان إذا لقيني يسلم عليّ ، ويرحب بي ، ويكرمني وكان رأسى لا يصل إلى ركبته - رحمة الله تعالى عليه - ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة ، وكانت له أخت على طوله ، ورأيتها مرات في بلغار ، وقال لي قاضي بلغار يعقوب بن النعمان : إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها ، وكان اسمه آدم ، وكان أقوى أهل بلغار قيل : إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته .

وروى عن وهب بن منبه في عوج بن عنق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم إلا أنه كان لا يوصف طوله ، قيل : إنه كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبته ، ويقال : إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً ، وكان يجتاز بالمدينة فيخطاها كما يتخطى أحدهم الجدول الصغير . وعمره الله دهرا طويلاً حتى أدرك موسى عليه السلام وكان جباراً في أفعاله يسير في الأرض برّاً وبحراً ، ويفسد ما شاء ، ويقال : إنه لما حصر بنو إسرائيل في التيه ، ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم ، فبعث الله طيراً في منقاره حجر مدور ، فوضعه على الحجر الذي على رأسه فانثقب من وسطه وانخرق في عنقه ، وأخبر الله - عز وجل - نبيه موسى عليه السلام بذلك ، فخرج إليه وضربه بعصاه فقتله ، ويقال : إن موسى عليه السلام كان طوله عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ، وقفز في الهواء عشرة أذرع ، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه ، فتبارك الله أحسن الخالقين ! . ومن ذلك ما قيل عن أمه عنق بنت آدم عليه السلام وكانت مفردة بغير أخ ، وكانت مشوّهة الخلقة لها رأسان ، وفي كل يد عشرة أصابع ، ولكل إصبع ظفران كالمنجلين . وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : هي أول من بغى في الأرض ، وعمل الفجور وجاهر بالمعاصي ، واستخدم الشياطين وصرفهم في وجوه السحر ، وكان قد أنزل الله تعالى على آدم عليه السلام أسماء عظيمة تطيعها الشياطين ، وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحتز بها ، فغافلتها عنق ، وسرقتها واستخدمت بها الشياطين ، وتكلمت بشيء من الكهانة ، فدعا عليها آدم وأمنت على ذلك حواء ، فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل ، فهجم عليها ، وقتلها ، وذلك بعد ولادتها عوجاً^(٢) بستين . ومن ذلك ما حكى عن بعض فقهاء الموصل أنه شاهد ببلاد الأكراد المحمدية في جبل من جبال الموصل إنساناً طوله تسعة أذرع ، وهو صبي لم يبلغ الحلم ، وكان يأخذ بيده الرجل القوى ، ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه ، فقبل له في عقله خبل ، فتركه ! .

وروى عن الإمام الشافعي عليه السلام أنه قال : دخلت بلدة من بلاد اليمن ، فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن

(١) « لا تضربوا الوجوه ... » . إلخ لم أهد إليه بهذا اللفظ ، وانظر : « مسند أحمد » . [٤/٤٤٧ ، ٥/٥٠٣] ، والدر المشور [١/٢٧٦] .

(٢) ذكر أبو الشيخ في كتابه « العظمة » . قصة عوج بن عنق في أكثر من حديث وكلها موضوعة الإسناد ، وقال ابن القيم من علامات بطلان الحديث قيام الشواهد الصحيحة على بطلانه كحديث عوج بن عنق .

واحد ، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ، وجهين ، وأربع أيد ، وهما يأكلان ، ويشربان ويتقاتلان ، ويتلاطمان ويصطللحان قال ثم غبت عنهما قليلا ، ورجعت فقيل لى : أحسن الله عزاءك فى أحد الشقين ! فقلت : وكيف صنع به ؟ فقيل : ربط فى أسفله حبل وثيق وترك حتى ذبل ، ثم قطع ، ورأيت الجسد الآخر بالسوق ذاهبا وراجعا . ومنه ما أرسله بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة ، وهو رجلان فى جسد واحد ، فأحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر ، فسألوهما : هل تجوعان معاً ، وتعطشان معاً ؟ قالوا : نعم . فقالوا له : لا يمكن فصلهما ، ويقال : إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما ، فأخبر أنهما يختصمان فى بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما . ومن ذلك ما ذكر أنه أهدى إلى أبى منصور السامانى فرس له قرنان ، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما ، وإذا بعد الصقهما .

وذكر القاضى عياض - رحمة الله تعالى عليه - أنه ولد له مولود على أحد جنبيه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهذا لا يبعد فإنه يوجد كثيراً فى السنور الدبرى . وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل ، ومثلها أيد ، وذكر أنه كان لبعض ولاية مصر مملوك يدعى طقطر فولاه قوص من أعمال الصعيد ، فتزوج بها ، وولد له ولد ، ثم انقلب امرأة فتزوج بها ، وولدت ولدين . وأما كبش بأربعة قرون ودجاجة بأربعة أرجل ، وحيوان برأسين ، والمخرج واحد فكثير ، وعجائب الله تعالى فى مصنوعاته غير متناهية ، فله الحمد على ما أنعم به علينا لا نحصى ثناء عليه . ومن ذلك : إنسان الماء ، وهو حيوان يشبه الأدمى ، وفى بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء ، ويستبشر الناس برؤيته فى تلك السنة بالخصب .

ومن ذلك : بنات الماء وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ، ذوات شعور وثدى وفروج ، وهن حسان ، ولهن كلام لا يفهم ، وضحك ولعب ولهن رجال من جنسهن ، ويقال : إن الصيادين يصطادونهن ويجامعنهن فيجدون لذة عظيمة لا توجد فى غيرهن من النساء ، ثم يعيدونهن إلى البحر ثانياً . ويقال : إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد^(١) على ما ذكر .

وحكى عن الشيخ أبى العباس الحجازى ، قال : حدثنى بعض التجار أنه فى سنة من السنين ، خرجت إليه سمكة عظيمة فثقبوا أذننها وجعلوا فيها الجبال ، وأخرجوها ، ففتحت أذننها ، فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء ، سوداء الشعر : حمراء الخدين . كحلاء العينين ، من أحسن ما يكون من النساء ، ومن سرتها إلى نصف ساقها شىء كالشوب يسترقبها ودبرها ودائرها عليها كالإزار فأخذها الرجال إلى البر فصار تلمظ وجهها ، وتنف شعورها وتعض يدها ، وتصيح ، كما تصيح النساء ، حتى ماتت فى أيديهن ، فآلقوها فى البحر فتبارك الله أحسن الخالقين !

وحكى القزوينى عن بعض البحرين أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار وأنهار فأقاموا بها مدة وكانوا إذا جاء الليل يسمعون بها همهمة وأصواتاً وضحكاً ولعباً ، فخرج من المركب جماعة وكمنوا فى جانب البحر ، فلما جاء الليل خرج بنات الماء على عادتهن ، فوثبوا عليهن ، فأخذوا منهن ثنتين فتزوج بهما شخصان ، فأما أحدهما فوثق بصاحبه فأطلقها فوثبت فى البحر ، وأما الآخر فبقى مع صاحبه زماناً وهو يحرسها حتى ولدت له ولداً ، كأنه القمر ، فلما طاب الهواء ، وركبوا البحر وثق بها ، فأطلقها ، فأغفلته وألقت نفسها فى البحر ، فتأسف عليها تأسفاً عظيماً فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر ، ودنت من المركب ، وألقت لصاحبها صدفاً فيه درّ وجوهر ، فباعه وصار من التجار . ونظير هذه الحكاية ما ذكره ابن زولاق فى تاريخه : أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء ، صاد جارية منهن حسناء الوجه ، سوداء الشعر ، حمراء الخدين ، نجلاء العينين ، كأنها البدر ليلة التمام ، كاملة الأوصاف ، فأقامت عنده سنين ، وأحبها حباً شديداً ، وأولدها ولداً ذكراً ، وبلغ من العمر أربع سنين ، ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه ووثق بها ، فلما توسطت البحر أخذت ولدها ، وألقت نفسها فى البحر ، فكاد أن يلقى نفسه خلفها حسرة عليها ، فلم يمكنه

(١) لم نجد من صيادى عصرنا من أسعده الحظ بإحداهن ! فى قرنا العشرين وما أكثر ما يحكى !!

الشمس كلهم ، ولو بسطت المقال في ذلك لاتسع المجال . وقد اقتصرت في ذلك على ما ذكرت ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الرابع والستون

في خلق الجن وصفاتهم

روى عن الشيخ عبد الله صاحب « تحفة الألباب » أنه قال : قرأت في بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء - رحمهم الله تعالى - أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجن ، خلق نار السموم ، وخلق من مارجها خلقاً سماه « جَانًا » كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ خَلْقُهُ مِنْ تَارِ السُّمُورِ ﴾ [الحجر: ٢٧] وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴾ [الرحمن: ١٥] وقيل : إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار ، والجان من لهبها ، والشياطين من دخانها . وقد جاء في بعض الأخبار أن نوعاً من الجن في قديم الزمان قبل خلق آدم عليه السلام كانوا سكاناً في الأرض قد طبقوها برأ وبحراً ، سهلاً وجبلاً ، وكان فيهم الملك ، والنبوة ، والدين ، والشرعة ، وكانوا يطيرون إلى السماء ، ويسلمون على الملائكة ، ويستعلمون منهم خبر ما في السماء ، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطغوا وتركوا وصايا أنبيائهم ، فأرسل الله تعالى عليهم جنداً من الملائكة ، فحصل بينهم مقتلة عظيمة ، وغلبوا الجن ، وطردهم إلى أطراف البحار ، وأسروا منهم أمماً كثيرة . وذكر المسعودي أن الفرس واليونان قالوا : كان الجن بالأرض قبائل : منهم من يسترق السمع ، ومنهم من ينط مع لهب النار ، ومنهم من يطير ، ولكل قبيلة ملك ، وكان من جملتهم إبليس - لعنه الله - ثم بعد خمسة آلاف سنة افترقوا ، وملكوا عليهم ملوكاً ، وأقاموا على ذلك مدة طويلة ، ثم تحاسدوا على الملك ، وأغار بعضهم على بعض وجرت بينهم وقائع وحروب . وكان إبليس - لعنه الله - يصعد إلى السماء ، ويختلط بالملائكة ، فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة ، فهزم الجن ، وقتلهم ، وتملك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه السلام ، واتفق له معه ما اتفق ، وأهبط آدم إلى الأرض ، وعظم شأنه ، فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط ، وسكن هناك ، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد ، لكنه يلقي كالطير ، ويبيض ويفرخ ، قيل : إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان ، فيسلطهم على الخلق وأقربهم إليه وأدناهم منه ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق ، وفي الحديث : « أن إبليس - لعنه الله - قال : يارب ، أنزلتني إلى الأرض ، وطردتني ، وجعلتني رجيماً ، فاجعل لي مسكناً ، قال : مسكنك الأسواق . قال : فاجعل لي طعاماً ، قال : ما لم يذكر اسمي عليه ، قال : فاجعل لي شرباً ، قال : كل مسكر ، قال : فاجعل لي مؤذناً ، قال : المزامير ، قال : فاجعل لي صيداً أو قال : مصايد : قال النساء » (١)

[فصل في مكايده - لعنه الله -]

منها : أنه كان في بني إسرائيل عابد يدعى برصيصاً ، وله جار له بنت ، فحصل لها مرض ، فقال له جيرانه : لو حملتها إلى جارك برصيصاً ليدعو لها قال : فجاء إبليس إلى العابد وقال : إن لجارك عليك حق الجوار ، وإن له بنتاً مريضة فما ضرك لو جعلتها عندك ، في جانب البيت ، ودعوت الله لها عقب عبادتك ، فغشى أن تشفى من مرضها ؟ قال : فلما أتاه جاره بالبيت قال له العابد : دعها وانصرف ، قال : فتركها عنده مدة حتى شفيت ، فجاء

(١) وفي الحديث : أن إبليس - لعنه الله - قال : ضعيف : أخرجه ابن أبي الدنيا في « مكائد الشيطان » [برقم ٤٣ - تحقيق مجدى السيد] ، والطبراني في « الكبير » في [٧٨٣٧] عن أبي أمامة . وانظر تعليق المحقق والكتاب مطبوع بمكتبة القرآن بمصر .

له إبليس ، ووسوس له حتى وطئها ، فحملت منه ، فلما حملت ، جاء له إبليس - لعنه الله - فقال له : اقتلها لئلا تفتضح ، قال : فقتلها ، ودفنها ، قال : فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها ، وأعلمهم بذلك ، فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته ، ثم أخذوه ، ومضوا ليقتلوه ، فعارضه إبليس اللعين في الطريق ، فقال له : إن سجدت لى خلصتك منهم ، فسجد له ، فعند ذلك تبرأ منه ، ومات الرجل كافراً ، اللهم اعصمنا من مكاييد الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين .

ومن ذلك : ما اتفق أن بنى إسرائيل اتخذوا شجرة ، وكانوا يعبدونها ، فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها فعارضه إبليس - لعنه الله - وقال له : تركت عبادتك ، وجئت لشيء لا يعود عليك نفعه ، ولم يزل به حتى تقاتل معه فصرعه العابد ، وجلس على صدره ، ثم رجع ، ولم يزل يعمل معه ذلك فى كل يوم إلى ثلاثة أيام ، فلما رآه لا يرجع قال له : اترك قطعها وأنا أجعل لك فى كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك ، وعاهده على ذلك ، فرجع ، قال : فجعل له تحت وسادته دينارين ، ثم دينارين ، ثم دينارين ، ثم قطع ذلك عنه ، فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة ، فعارضه إبليس فى الطريق ، وتحاور معه ، وتجاذبا فصرعه إبليس وجلس على صدره ، وقال له : إن لم ترجع عن قطعها ، وإلا ذبحتك ، فقال له العابد : خل عنى ، وأخبرنى كيف غلبتنى ؟! فقال له : لما غضبت لله غلبتنى ، ولما غضبت لنفسك غلبتك .

ومنها أشياء كثيرة : ليس هذا محل استيفائها قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِىَ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

[فصل فى المتشيطنة وهم أنواع كثيرة]

منها : الولهان ، يوجد فى جزائر البحار على صورة الإنسان .

حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعمة يريد أخذ المركب ، وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجوههم ، وأخذ بعض من فى المركب .

ومنها : السعلاة يحكى أن صنفاً منها يتزيا بزي النساء ويتراءى للرجال . وحكى أن بعضهم تزوج امرأة منهم ، وهو لا يعلم ، فأقامت معه مدة ، وولدت منه أولاداً ذكوراً وإناثاً ، فلما كان ذات ليلة صعدت معه السطح ، فنظرت فرأت ناراً من بعد عند الجبانة فاضطربت ، وقالت : ألم تر نيران السعالى ؟ وتغير لونها : وقالت : بنوك ، وبناتك أوصيك بهم خيراً ، ثم طارت ، ولم تعد إليه .

ومنها : نوع يقال له المذهب ، يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم ! حكى أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها ، فأناه شخص بسراج وطعام ، فتعجب العابد من ذلك ، فقال له شخص بالصومعة إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتى ، والله إنى لأعلم أنه شيطان ، وقال بعض الصوفية المذهب أصناف : منهم من يحمل الفانوس بين يدى الشيخ ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك ، ومنهم من ينشد الشعر .

وقال بعض المسافرين : أبى لى غلام^(١) فخرجت فى أثره ، فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق وجريز ، قال : فدنوت منهم وسلمت عليهم فقالوا : ألك حاجة ؟ قلت : لا ، فقال بعضهم تريد غلامك ؟ قلت : وما أعلمك بغلامى ؟ قال : كعلمى بجهلك ، قلت : أو جاهل أنا ؟ قال : نعم ، وأحمق ، قال : ثم غاب ، وأتانى بالغلام مقيداً فلما رأيته غشى على ، فلما أفقت قال : انفخ فى يده ، ففعلت ، فانفج القيد عنه ، وصرت لا أنفخ فى شيء من ذلك ولا فى وجع من الأوجاع إلا برىء ، وخلص صاحبه .

ومنها نوع يقال له : العفريت يختطف النساء ، يقال : إن رجلاً اختُطفَ ابنته فى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) أبى : هرب .

وقال بعض المسافرين : بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لى قضاء الحاجة ، فانفردت عن رفقتى ، وضللت عنهم ، فبينما أنا سائر فى أثرهم إذ رأيت ناراً عظيمة ، وخيمة ، فجئت إلى جانبها ، وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها ، فسألتها عن حالها فقالت : أنا من فزارة ، اختطفنى عفريت يقال له : ظليم ، وجعلنى هاهنا ، فهو يغيب عنى بالليل ، ويأتينى بالنهار ، فقلت لها : امضى معى ، فقالت : أهلك أنا وأنت فإنه يتبعنا ، ويأتينا فيأخذنى ، ويقتلك ، فقلت لا يستطيع أخذك ولا قتلى ، وما زلت أرددها الحديث ، حتى رَضِيتُ فأنخت لها ناقتى فركبتها ، وسرت بها ، حتى طلع الفجر ، فالتفت فإذا أنا بشخص عظيم مهول ، قد أقبل ورجلاه تخطان فى الأرض ، فقالت : هاهو قد أتانا فأنخت ناقتى ، وخططت حولها خطأ ، وقرأت آيات من القرآن وتعوذت بالله العظيم ، فتقدم وأنشأ يقول :

يا ذا الذى للحين يدعوه القدر خل عن الحسناء رسلا ثم سر
وإن تكن ذا خبرة فينا اصطب

قال فأجبهته :

يا ذا الذى للحين يدعوه الحمق خل عن الحسناء رسلاً وانطلق
ما أنت فى الجن بأول من عَشَق

قال فتبدى لى فى سورة أسد ، وجاذبنى وجاذبته ساعة ، فلم يظفر أحدنا بصاحبه ، فلما أيس منى قال : هل لك فى جز ناصيتى ، أو أحد ثلاث خصال ؟ قلت : وما هن ؟ قال : مائتان من الإبل ، أو أخدمك أيام حياتى ، أو ألف دينار الساعة وخَلْ بينى وبين الجارية ، فقلت لا أبيع دينى بدنباى ، ولا حاجة لى بخدمتك ، فاذهب من حيث أتيت ! قال : فانطلق وهو يتكلم بكلام لا أفهمه ، وسرت بالجارية إلى أهلها ، وتزوجت بها ، وجاءنى منها أولاد .

وقيل : لما سخر الله تعالى الجن لسليمان عليه السلام نادى جبريل عليه السلام أيها الجن والشياطين ، أجيئوا نبي الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى ، قال : فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والغيران ، والأودية والفُلُوات والآجام ، وهم يقولون لبيك لبيك ، والملائكة تسوقهم سوق الراعى للغنم ، حتى حشرت بين يدى سليمان عليه السلام طائفة ذليلة ، وكانوا إذ ذاك أربعاً وعشرين فرقة فنظر إلى ألوانها فإذا هى سود ، وشقر ، ورقط وبيض ، وصفر ، وخضر ، وعلى صور جميع الحيوانات ، ومنهم من رأسه رأس الأسد ، وبدنه بدن الفيل ، ومنهم من له خرطوم وذنب ، ومنهم من له قرون وحوافر وغير ذلك من الأنواع ، قال : فعند ذلك تعجب نبي الله سليمان عليه السلام من هذه الأشكال ، وسجد شكراً لله تعالى وقال : إلهى ألبسنى هيئة من عندك ، وجعل يسألهم عن طباعهم وعن طعامهم وشرابهم ، وهم يجيبونه ، ثم فرقهم فى الصنائع ، من قطع الصخور والأشجار والغوص فى البحار ، وأبنية الحصون ، وفى استخراج المعادن والجواهر ، قال الله تعالى : **هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِمَقَرِّ حَاسِبٍ** . [ص: ٣٩] ونكتفى من ذلك بهذا القدر اليسير والله المستول فى تيسير كل عسير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الخامس والستون

في ذكر البحار وما فيها من العجائب
وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

الفصل الأول : في ذكر البحار

روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا الله - سبحانه وتعالى - ثم نظر إليها بعين الهيبة ، فذابت ، وصارت ماء فاضطرب الماء ، فخلق الريح ، ووضع عليها الماء ، ثم خلق العرش ، ووضع على متن الماء ، وعليه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [هود: ٧] . وأعلم : أن بحر الظلمات لا يدخله شمس ولا قمر ، وأن بحر الهند خليج منه ، وبحر اللاذقية خليج منه ، وبحر الصين خليج منه ، وبحر الروم خليج منه ، وبحر فارس خليج منه ، وكل هذه البحار التي ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذي يقال له : البحر المحيط ، وأما بحر الخزر ، وبحر خوارزم ، وبحر أرمينية ، والبحر الذي عند مدينة النحاس ، وغير ذلك من البحار الصغار ، فهي منقطعة عن البحر الأسود ، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد . وقيل : سئل النبي ﷺ عن الجزر والمد فقال : « هو ملك عال قائم بين البحرين ، إن وضع رجله في البحر ، حصل له المد ، وإذا رفعها حصل له الجزر » ^(١) . وقيل : إنما سمي البحر الأسود لأن ماءه في رأى العين كالحرير الأسود ، فإن أخذ منه الإنسان في يده شيئاً رآه أبيض صافياً إلا أنه أمر من الصبر ، مالح شديد الملوحة ، فإذا صار ذلك الماء في بحر الروم ، تراه أخضر كالزنجار ^(٢) والله تعالى يعلم لأى شيء ذلك . وكذلك يرى في بحر الهند خليج أحمر كالدم ، وبحر أصفر كالذهب ، وخليج أبيض كاللبن ، تغير هذه الألوان في هذه المواضع والماء في نفسه أبيض صاف ، وقيل : إن تغير الماء بلون الأرض . وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره فقد روى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر ، وأمر علينا أبا عبيدة رضي الله عنه تتلقى غير قریش ، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره ، فكان أبو عبيدة يعطينا ثمرة تمره نمصها ثم نشرب عليها الماء ، فتكفينا يومنا إلى الليل فأشرفنا على ساحل البحر ، فرأينا شيئاً كهيشة الكثيب الضخم ، فأتيناه فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر ، فأقمنا شهراً نأكل منها ، ونحن ثلاثمائة ، حتى سمنا ، ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذي في وقب عينيها بالقلال ، ونقطع منه القطعة كالتور ، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب ^(٣) عينيها وأخذ ضلعاً من أضلاعها فأقامها ، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها ، وتزودنا من لحمها ، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله ﷺ ذلك فقال : « هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم شيء من لحمها فطعمونا ؟ » فأرسلنا له منه ، فأكله وقيل : « يخرج من البحر سمكة عظيمة ، فتتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها فتفترق منها إلى مجمع البحرين ، فتتبعها فيضيق عليها مجمع البحرين لعظمتها وكبرها ، فتزجج إلى البحر الأسود ، وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ ، فتبارك الله رب العالمين » ^(٤) . وقال صاحب تحفة الألباب : ركبت في سفينة مع جماعة فدخلنا إلى مجمع البحرين ، فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم ، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى ، فكاد قلبي ينخلع ، وسقطت على وجهي أنا وغيرى ، ثم ألقت السمكة نفسها في البحر ، فاضطرب البحر اضطراباً شديداً ، وعظمت أمواجه ، وخفنا الغرق ، فنجانا الله تعالى بفضلته وسمعت الملاحين يقولون : هذه سمكة تعرف بالبغل . قال : ورأيت في البحر سمكة كالجبل العظيم ، ومن رأسها إلى ذنبها

(١) وقيل : سئل النبي ﷺ عن الجزر والمد ... إلخ لم أعتد إليه .

(٢) الزنجار : نقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء ، أو هو نحو البثر .

(٣) الزقب : نقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء ، أو هو نحو البثر .

(٤) ذكره ابن كثير في تفسير الآية رقم [٩٦] . من سورة المائدة ﴿ أَيْلَ لَكُمْ مَسِيْدُ الْبَحْرِ ﴾ وقال : رواه الإمام مالك ثم قال : وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله طرق عن جابر وهذه رواية مسلم من رواية أبي الزبير عن جابر .

عظام سود كأسنان المنشار ، كل عظم أطول من ذراعين ، وكان بيتنا وبينها في البحر أكثر من فرسخ ، فسمعت الملاحين يقولون : هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها نصفين .

ولقد سمعت أنا من يقول : إن جماعة ركبوا سفينة في البحر ، فأرسوا على جزيرة ، فخرجوا إلى تلك الجزيرة فغسلوا ثيابهم ، واستراحوا ثم أوقدوا ناراً ليطبخوا فتحركت الجزيرة ، وطلبت البحر وإذا بها سمكة ! فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه ! ، وقيل : إن في البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها ، يقال : إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة فتلقى نفسها عليها ، فتحطمها وتهلك من فيها ، فإذا أحس بها أهل السفينة صاحوا ، وكبروا ، وضجوا ، وضربوا الطبول ، ونقروا الطسوت والسطول^(١) والأخشاب ، لأنها إذا سمعت تلك الأصوات ربما صرخوا الله تعالى عنهم بفضلهم ورحمته ! وقال الشيخ عبد الله : صاحب تحفة الألباب كنت يوماً في البحر على صخرة ، فإذا أنا بذنب حية صفراء ، متقطعة بسواد ، طولها مقدار باع ، فطلبت أن تقبض على رجلى ، فتباعدت عنها ، فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت تلك الصخرة ، فسالت خنجراً كبيراً كان معي ، فطعنت به رأسها فغار فيه ، فلم أقدر على خلاصه منها ، فأمسكت نصابه بيدي جميعاً ، وجعلت أجره حتى ألصقتها بباب الجحر ، فتركت الجحر ، وخرجت من تحت الصخرة فإذا هي خمس حيات في رأس واحد ، فتعجبت من ذلك ، وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية ؟ فقال : هذه تعرف بأسم الحيات ، وذكروا أنها تقبض على الأدمى في الماء ، فتمسكه حتى يموت ، وتأكله ، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعاً ، وأنها تقلب الزوارق ، وتأكل من قدرت عليه من أصحابها ، وأن جلدها أرق من جلد البصل ، ولا يؤثر فيها الحديد شيئاً ، قال : ورأيت مرة في البحر صخرة عليها شيء كثير من النارج الأحمر الطرى الذي كأنه قطع من شجرة ، فقلت في نفسي : هذا قد وقع من بعض السفن ، فذهبت إليه ، فقبضت منه نارنجة فإذا هي ملتصقة بالحجر ، فجذبتها ، فإذا هي حيوان يتحرك ويضرب في يدي ، فلففت يدي بكم ثوبي ، وقبضت عليه وعصرته فخرج من فيه مياه كثيرة ، وضمر فلم أقدر أن أقبله من مكانه ، فتركته عجزاً عنه ، وهو من عجائب خلق الله تعالى ، وليس له عين ولا جارحة ، إلا الفم ، والله سبحانه وتعالى أعلم لأى شيء يصلح ذلك . قال : ولقد رأيت يوماً على جانب البحر عنقود أسود كبير الحب ، أخضر العرجون ، كأنما قطف من كرمه ، فأخذته وكان ذلك في أيام الشتاء ، وليس في تلك الأرض التي كنت فيها عنب ، فرمت أن أكل منه ، فقبضت على حبة منه وجذبتها ، فلم أقدر أن أقبلها من العنقود حتى كأنها من الحديد قوة وصلابة ، فجذبتها جذبة أقوى من الأولى فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب ، وفي داخلها عجم كعجم العنب ، فسألت عن ذلك فقيل لى : هذا من عنب البحر ، ورائحته كرائحة السمك ! وفي البحر أيضاً حيوان رأسه يشبه رأس العجل ، وله أنياب كأنياب السباع ، وجلده له شعر كشعر العجل ، وله عنق وصدر وبطن ، وله رجلان كرجلى الضفدع ، وليس له يدان يعرف بالسمك اليهودي ، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر ، ويلقى نفسه في البر ولا يتحرك ولا يأكل ، ولو قتل ، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد ، فحينئذ يدخل البحر ، ولا تلحقه السفن لخفته وقوته ، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس ، فلا يجد له ألماً ما دام ذلك الجلد عليه ، وهو من العجائب . وقيل إن في بحر الروم سمكاً طويلاً طول السمكة مائة ذراع ، وأكثر ، وله أنياب كأنياب الفيل ، تؤخذ وتباع في بلاد الروم ، وتحمل إلى سائر البلاد ، وهي أحسن وأقوى من أنياب الفيل ، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجبية ، ويسمونه الجواهر ، ويتخذون منه نصلاً للسكاكين ، وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص ، وفي البحر أيضاً سمك يسمى الرعاد إذا دخل في شبكة فكل من جر تلك الشبكة أو وضع يده عليها أو على جبل من حبالها ، تأخذه الرعدة حتى لا يملك من نفسه شيئاً كما يرعد صاحب الحمى ، فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة ، فإذا أعادها عادت إليه الرعدة ، وهذا أيضاً من العجائب ، فسبحان الله جلّت قدرته . وقال صاحب تحفة الألباب ، حدثني الشيخ أبو العباس الحجازي قال : حدثني رجل يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد : أنه ركب سفينة في بحر الهند فرأى طائوساً قد خرج من البحر ، أحسن من طائوس البر وأجمل ألواناً قال : فكبرنا لحسنه ، فجعل يسبح ، وينظر لنفسه ، وينشر أجنحته ،

(١) السطول : جمع سطل ، وهو إناء من معدن كالبرجل .

وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص في البحر ، وفي البحر دابة يقال لها الدرفين تنجى الغريق ، لأنها تدنو منه حتى يضع يده على ظهرها فيستعين بالاتكاء عليها ، ويتعلق بها ، فتسبح به حتى ينجيه الله بقدرته فسبحان من دبر هذا التدبير اللطيف ، وأحكم هذه الحكمة البالغة . وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن ، ويصبو لسماعه ، وربما قيل : إن بعض الصيادين يحفرون في البحر حفائر ثم يجلسون فيضربون بالمعازف وآلات الطرب ، فيجتمع السمك ويقع في تلك الحفائر ، وقيل : إن الدرفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر ، وقيل : إن خيل البحر توجد بنيل مصر ، وهى صفة خيل البر ، وقيل : إنها تأكل التماسيح ، وربما خرجت فرعت الزرع ، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها - قيل ينتهى فى طلوعه إلى ذلك المكان . وقيل : إن فى البحر المحيط شيئاً يترأى كالحصون فيرتفع على وجه الماء ، ويظهر منه صور كثيرة ويغيب ، ومن عجيب ما حكى أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة ، وهى كثيرة الأمطار ، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه ، قلعة طلوع الشمس عندهم ، ويجعلونه فى بيت ويوقدون حوله النيران ، حتى يجف وعجائبه لا تحصى ولا يمكن حصرها . يقال : إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مرّ بجزيرة بها أمة رءوسهم مثل رءوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل لهب النار ، وخرجوا إلى مراكبه ، وحاربوه ، ثم تخلص منهم ، وسار فرأى صوراً متلوّنة بألوان شتى ، وسمكاً طوله مائة ذراع وأكثر ، وأقل ، فسبحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه ! ، ويقال : إنه مر فى بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء ، وحولها قناديل لا تطفأ . ومن جزائر البحر جزيرة القمر يقال : إن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع ، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً ، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان ، يلتحفون بورق الشجر ، وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم ، ويقال : إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر ، وإن هذه الأمة التى بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعى رحمته الله وهم فى غاية اللطافة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبالقرب منهم معدن الذهب والياقوت ، وبها الفيلة البيض ، وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها ، وبها العود القمارى ، والأبنوس ، والطواويس ، وبها مدن كثيرة ، ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال لها : اصطفيون داخل البحر الجنوبى ، ويقال : إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة ، وإن بعض المسافرين وصل إليها ودخلها ، ورأى هذا الملكة وهى جالسة على سرير ، وعلى رأسها تاج من ذهب ، وحولها أربعمائة وصيفة كلهن أبكار ، وفى هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز ، وخيار الشنبر ، ويحمل حملاً كهية الإنسان فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق ، ثم يسقط ، وهذه الجزيرة كثيرة الذهب ، حتى قيل : إن سلاسل خيلهم ومقاود كلابهم ، وأطواقها من الذهب . ومنها جزيرة الصين يقال : إن بها ثلاثمائة مدينة ونيقا سوى القرى والأطراف ، وأبوابها اثنا عشر باباً ، وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة ، وهذه الجبال تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام ، وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت فى ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذى تريده ، وفيها من الأودية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه ، فتبارك الله رب العالمين . وقيل : إن الإسكندر لما فرغ من بناء سدّه حمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم نام وإذا بحيوان عظيم سعد من البحر إلى أن علا وسد الأفق فظن من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم ، ففرزوا فأنبته ، فقال : مالكم ؟ فقالوا : انظر ما حل بنا . فقال : ما كان الله ليأخذ نفساً قبل انقضاء أجلها ، وقد منعنى من العدو فلا يسلط على حيواناً من البحر ، قال : فإذا بالحيوان قد دنا من الملك ، وقال : أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر ، وقد رأيت هذا السد بنى وخرب سبع مرات ، ولم يزد على ذلك ، ثم غاب فى البحر ، فتبارك من له هذا الملك العظيم لا إله إلا هو العزيز الحكيم . وقيل : إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين ، وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر ، وطولها نحو ستة فراسخ ، وهى حصينة ذات كروم ونخيل وأشجار وغير ذلك ، وإذا أراد إنسان الدخول فيها حتى فى وجهه التراب ، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع ، وقيل : إنها معمورة بالجان ، وقيل : بخلق من النسناس ، ويقال : إنهم من بقايا عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم ، وكل واحد منهم شقّ إنسان . ونقل عن بعض المسافرين أنه قال : بينما نحن سائرون إذا أقبل علينا الليل ، فبتنا بواد ، فلما أصبح الصباح سمعنا قانلاً يقول من الشجرة : يا أبا بجير ، الصبح قد أسفر ، والليل قد أدبر ، والقناص قد حضر ، فالحذر الحذر ! قال فلما ارتفع النهار ، أرسلنا كليبن كانا معنا نحو الشجرة ، فسمعت صوتاً يقول : ناشدتك ، قال : فقلت

لرفيقي دعهما . قال : فلما وثقا منا نزلا هاربيين ، فتبعهما الكلبان وجداً في الجرى فأمسكا شخصاً منهما قال : فأدر كناه وهو يقول :

الويل لى مما به دهانى دهري من الهموم والأحزان
قفا قليلاً أيها الكلبان إلى متى إلى تجريان ؟!

قال : فأخذناه ورجعنا فذبحه رفيقى وسواه ففقتة ولم آكل منه شيئاً فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه ! لا إله إلا هو ولا معبود سواه ! .

الفصل الثاني : في ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ . [الزمر: ٢١] قال المفسرون : هو المطر ، ومعنى سلكه أدخله في الأرض ، وجعله عيوناً ومسائيل ، ومجارى كالعروق في الجسد ، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجمعة ، ولهذا ينقطع عند فراغ مادته ، ومنها ما ينبع من الأرض ، وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ وأقصره عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة وبين ذلك ، وكلها تبتدئ من الجبال ، وتنتهي إلى البحار والبطائح ^(١) ، وفي مرها تسقى المدن والقرى ، وما فضل منها ينصب في البحر الملح ، ويختلط به ولا يمكن استيفاء عددها لكنا نشير إلى بعضها فنقول :

النيل المبارك : ليس في الأنهار أطول منه ، لأنه مسيرة شهرين في بلاد الإسلام وشهرين في بلاد النوبة ، وأربعة في الخراب ، وقيل : إن مسافته من منبعه إلى أن ينصب في البحر الرومي ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخاً ، قال ذلك صاحب : « مباحج الفكر ، ومناهج العبر » ، واختلف في زيادته قليل : إن الأنهار والعيون تمده في الوقت الذي يريده الله تعالى ، وفي الحديث : « أنه من أنهار الجنة » ^(٢) . وقال أهل الأثر : إن الأنهار التي من الجنة تخرج من أصل واحد ، من قبة في أرض الذهب ، ثم تمر بالبحر المحيط وتشق فيه ، قالوا : ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل ، وأطيب رائحة من الكافور !

نهر الفرات : يوجد بأرض أرمينية ، فضائله كثيرة ، والنيل أصدق حلاوة منه ، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قطاراً بالدمشقي ، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن تأتي إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخاً وفي وسطه مدن وجزائر تعد من أعمال الفرات .

جيحون : نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة ، ويمر على مدن كثيرة ، حتى يصل إلى خوارزم ، ولا ينتفع به شئ من البلاد سوى خوارزم ، لأنها متسفلة عنه ، ثم ينصب في بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام ، وهو يجمد في الشتاء خمسة أشهر والماء يجري من تحت الجمد فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها ، وإذا اشتد جموده مروا عليه بالقوافل ، والعجل المحملة ، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق ، ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين .

سيحون : نهر عظيم قيل : إن مبدأه من حدود الترك ، ويجرى حتى يتصل ببلاد الفرغانة ، وربما يجتمع مع جيحون في بعض الأماكن .

الدجلة : نهر بغداد وله أسماء غير ذلك ، وماؤه أعذب المياه بعد النيل ، وأكثرها نفعاً ، قيل : مقداره ثلاثمائة فرسخ ، وفي بعض الأوقات يفيض حتى قيل : إنه يخشى على بغداد الغرق منه ، وهو نهر مبارك كثيراً ما يتنجو غريقه . حكى أنه وجد به غريق فيه الروح فلما أفاق سأله عن حاله فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأن أحداً يحمله

(١) أي الأماكن المتسعة ، ومنه أبطح مكة .

(٢) وفي الحديث : « أنه من أنهار الجنة » ذكره أبو الشيخ في العظمة باب صفة النيل وذكره السيوطي في الجامع الصغير [١٨٠٦] وضعفه الألباني وذكره المتقي الهندي في كنز العمال [٣٥٣٣٦] .

ويعصده به ، وروى في الأثر أن الله تعالى أمر دانيال عليه السلام أن يحفر لعباده ما يستقون منه ويتنفعون به ، فكان كلما مر بأرض ناشده أهلها أن يحفر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات ، وأما الأنهار الصغار فكثيرة ، ولكننا نذكر منها طرفاً فنقول :

نهر حصن المهدي : قال صاحب تحفة الألباب : إنه بين البصرة والأهواز ، وأنه يرتفع منه في بعض الأوقات شيء يشبه صورة الفيل ، ولا يعرف أحد شأنه .

نهر أذربيجان : قيل : إن بالقرب منه نهرا يجري فيه الماء ستة ، ثم ينقطع ثمان سنين ، ثم يعود في التاسعة . وقيل : إنه يعقد حجرا ، ويستعمل منه اللبن ^(١) ويبنى به ، وقيل : إن في تلك الأرض بحيرة تجف ، فلا يوجد فيها ماء ولا سمك ولا طين سبع سنين ، ثم يعود الماء والسمك والطين فتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير !

نهر صقلاب : يجري فيه الماء يوماً واحداً في كل أسبوع ، ثم ينقطع ستة أيام .

نهر العاصي : بأرض حماة ، وقيل بحمص ، وهو نهر معروف وفيه يقول بعضهم :

مدينة حمص كعبة القصف أصبحت يطوف بها الداني ، ويسعى لها القاصي
بها روضة من حسناتها سندسية تعلق في أكشاف أذيالها العاصي

نهر العمود : بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد ، وقيل : من نحاس ، وتحتها عمود من نحاس ، وقيل : من حديد ، طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع ، وعرضه ذراع ، وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محدودة ، وعنده رجل يقرأ كتاب الله ، ويقول : يا عظيم البركة ، طوبى لمن صعد هذه الشجرة ، وألقى بنفسه على هذا العمود ، فيدخل الجنة ، وقال أهل تلك الناحية ، من يريد ذلك فيصعد على تلك الشجرة ، ويلقى نفسه فيقطع .

نهر باليمن : قال صاحب تحفة الألباب : إنه عند طلوع الشمس يجري من المشرق إلى المغرب ، وعند غروبها يجري من المغرب إلى المشرق .

نهر بيلاد الحبشة والسودان : يجري إلى المشرق يشبه النيل في زيادته ونقصانه ، وأرضه بها الخصب والبركة ، وبها شجر كالأراك يحمل ثمرأ كالبطيخ ، داخله شيء يشبه القند ^(٢) في الحلاوة ، ولكن فيه بعض حموضة ، وهذا النهر يجري في بلادهم ثمانية أشهر ، ثم ينصب في البحر المحيط ، فسبحان من دبر هذا التدبير ، وأحكم هذه الصنعة لا إله إلا هو الحكيم الخبير !

الفصل الثالث: في ذكر الآبار

قال مجاهد : كنت أحب أن أرى كل شيء غريب ، فسمعت أن بابل بئر هاروت وماروت فسرت إليها فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتا ، فدخلت في بعضها فوجدت شخصاً فسلمت عليه ، فرحب بي ، وسألني عن حاجتي فذكرت له غرضي ، فأمر يهودياً يذهب معي ، فيوقني على البئر ، ويطلعني على الملكين ، قال : فسرنا إلى البئر ففتح سرداباً ، ونزلنا فأمرني أن لا أذكر اسم الله تعالى ، قال : فلما رأيت الملكين رأيت شيئاً كالجبليين العظيمين منكسين ، على رؤوسهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما قال مجاهد : فلما رأيت ذلك ذكرت الله تعالى . قال : فاضطربا اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان السلاسل . قال : ففر اليهودي ، فتعلقت به ، فقال : أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى ، كدنا - والله - نهلك !

(١) اللبن : المضروب من الطين يبنى به .

(٢) القند : عسل قصب السكر إذا جمّد .

بئر برهوت : بقرب حضر موت ، وهى التى قال النبى ﷺ : « إنها مجمع أرواح الكفار »^(١) . وقال على عليه السلام : أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود منتن تأوى إليها أرواح الكفار ، والموكل بها ملك يسمى دومة .
بئر عسفان : ماؤها يستشفى به قيل : إن النبى ﷺ : تفل فيها ، قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق عليه السلام : كنا نغسل المريض منها فيعافى^(٢) . وقيل : إن النبى ﷺ : توضأ منها .

بئر معروفة بأرض حلب : خاصيتها : أنها إذا شرب منها المكلوب زال كلبه ، ما لم يجاوز الأربعين . وينسابور آبار كثيرة وهى معادن الفيروزج ، وإنما يمنع الناس عنها لكثرة عقاربها ، وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء فى وقت من السنة فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ، ويجرى ، فينتفع به فى سقى الزرع ، ثم يعود إلى ما كان ، وعجائب الله كثيرة لا تكاد تنحصر لا إله إلا هو ولا معبود سواه ! .



الباب السادس والستون

فى ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

الفصل الأول : فى ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه عليه السلام عن النبى ﷺ أنه قال : « إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا منها عالم واحد ، وما العمران فى الخراب إلا كخردلة فى كف أحدكم »^(٣) . وقال رواة الأثر : إن لله - عز وجل - دابة فى مرج من مروجه ، فى غامض علمه ، رزقها فى كل يوم بقدر رزق العالم بأسره ، وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة ، وخمسمائة وست وخمسون مدينة ، وقيل : غير ذلك . وأقاليم الأرض سبعة : الإقليم الأول : الهند . الثانى : الحجاز ، الثالث : إقليم مصر . الرابع : إقليم بابل . الخامس : إقليم الروم والشام ، السادس : إقليم الترك . السابع : إقليم الصين . وأوسط الأقاليم إقليم بابل ، وهو أعمرها وفيه جزيرة العرب ، وفيه العراق الذى هو سرّة الدنيا ، وبغداد فى وسط هذا الإقليم فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله ، فسلموا من شقرة الروم ، وسواد الحبشة ، وغلظ الترك ، وجفاء أهل الجبال ، ودمامة أهل الصين . والممالك المشهورة التى ضببطت عدتها فى زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة ، أوسعها ثلاثة أشهر ، وأضيقتها ثلاثة أيام . وقال أهل الهيئة : إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان ، وصيفان ، وخريفان ، وشتاءان فى سنة واحدة ، وإنه يكون فى بعض البلاد ستة أشهر ليل ، وستة أشهر نهار ، وبعضها حر وبعضها برد ، فسبحان من خلق كل شىء فأتقنه ، لا إله إلا هو ولا معبود سواه .

(١) ذكر ابن الأثير عن أبى موسى فى حديث على « سر بئر فى الأرض برهوت » أخرجه الهروى عن على ، وأخرجه الطبرانى فى المعجم عن ابن عباس عن النبى ﷺ .

(٢) قال ابن الأثير ، وفى الحديث ذكر عسفان ، وهى قرية جامعة بين مكة والمدينة . والتفل : النفخ معه أدنى بزاق وقد تكرر ذكره فى الحديث ولم أعتد إلى هذا الحديث .

(٣) رواه أبو الشيخ فى العظمة [٩٥١] ذكره السيوطى فى الدر المنثور مختصراً وعزاه لأبى الشيخ فى العظمة وإسناده موضوع فيه عبد المنعم ووالده من الضعفاء .

الفصل الثاني: في ذكر الجبال

قيل : إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت ، فخلق الجبال ، وأرساها بها ، فاستقرت ، ومجموع ما عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً ، فمنها ما طوله عشرون فرسخاً ، ومنها ما طوله مائة فرسخ إلى ألف فرسخ ، ولنذكر منها ما هو مشهور ومعروف بين الناس : فمن أعجبها :

جبل سرنديب : وطوله مائتان ونيف وستون ميلاً ، وفيه أثر قدم آدم عليه السلام حين أهبط ، وحوله الياقوت ، وفي أوديته الماس الذي يقطع به الصخور ، ويثقب به اللؤلؤ ، وفيه العود والفلفل ، ودابة المسك ودابة الزباد .

جبل الروم : الذي فيه السد طوله سبعمائة فرسخ ، وينتهي إلى بحر الظلمات .

جبل أبي قبيس : سمي بذلك لأن آدم عليه السلام كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس ، وقيل : غير ذلك .

جبل القدس : جبل شريف مبارك فيه غار يضيء بالليل من غير سراج ، ويזורه الناس .

جبل أروند : بهمدان برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة في السنة ، تقصد من كل وجه ، يستشفى بها .

جبل بالشام : لونه أسود كالفتح ، وترابه أبيض تبيض به الثياب .

جبل الأندلس : فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلتها فيه أوقدت ، وبها جبل به عينان : إحداهما باردة ، والأخرى حارة ، والمسافة التي بينهما مقدار شبر ، وجبل به معدن الكبريت ، والزئبق ، والزنجفر .

جبل سمرقند : يقطر منه ماء في الصيف يصير جليداً ، وفي الشتاء يحرق من حرارته .

جبل الصور : بكرمان ، يكسر حجره ، فيخرج منه كصور الآدميين ، قائمين وقاعدين ، ومضطجعين ، وإذا سحق وطرح في الماء يرى كذلك .

جبل الأزجان : بطبرستان ، يقطر منه ماء ، كل قطرة تصير حجراً مسدساً أو مثمناً .

جبل هرمز : ينزل منه ماء إلى وهدة^(١) ، فإن صاح إنسان صيحة وقف ، فإن ثنى جرى .

جبل الطير : بإقليم الصعيد ، يجتمع عنده الطير في كل سنة مرة ، ويدخل في كوة هناك ، فتمسك الكوة على واحدة ، وتطير البقية ، ويكون ذلك علامة الخصب في تلك السنة ، ولتقتصر على ذلك ، ومن أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرآة الزمان .

الفصل الثالث: في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ ، ونقله الأخبار : إن أول بناء بني على وجه الأرض الصرح الذي بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام . ويقعته بكوثر من أرض بابل ، وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات ، قالوا : وكان طوله خمسة آلاف ذراع ، بناه بالحجارة والرصاص والشمع واللبان ، ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان ، فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة ، فتبلبلت بها ألسنة الناس ، فسميت أرض بابل .

إرم ذات العماد : التي لم يخلق مثلها في البلاد . حكى الشعبي في كتاب سير الملوك : أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا ، وكان قومه قوم عاد الأولى ، زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا : من أشد منا قوة ؟ قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا الَّذِي خَلَقْنَاهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبياً عليه السلام فدعاهم إلى الله تعالى ، فقال له شداد : إن آمنت بإلهك فماذا لي عنده ؟ قال يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب ويواقيت ولؤلؤ ، وجميع أنواع الجواهر ، قال شداد أنا أبني مثل هذه الجنة ، ولا أحتاج إلى ما تعدني به ، قال : فأمر شداد ألف أمير من

جبابرة قوم عاد ، أن يخرجوا ، ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء ، طيبة الهواء ، بعيدة من الجبال ، ليبنى فيها مدينة من ذهب . قال : فخرج أولئك الأمراء ، ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه ، فساروا في الأرض ، حتى وصلوا إلى جبل عدن ، فأروا هناك أرضاً واسعة ، طيبة الهواء ، فأعجبهم تلك الأرض ، فأمرؤا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجانب ، دورها أربعون فرسخاً ، من كل جهة عشرة فراسخ فحفروا الأساس إلى الماء ، وبنوا الجدران بحجارة الجزع اليماني ، حتى ظهر على وجه الأرض ثم أحاطوا به سوراً وارتفاعه خمسمائة ذراع ، وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس ، وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا ، فاستخرج منها الذهب ، واتخذ له بنا ، ولم يترك في يد أحد من الناس في جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه ، واستخرج الكنوز المدفونة ، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب ، طول كل عمود مائة ذراع ، وأجرى في وسطها أنهاراً ، وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل ، وجعل حصاها من الذهب ، والجواهر واليواقيت ، وحلّى قصورها بصفائح الذهب والفضة ، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار ، جذوعها من الذهب ، وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللائي ، وطلّى حيطانها بالمسك والعنبر ، وجعل فيها جنة مزخرفة له ، وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت ، وسائر أنواع المعادن ، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرد وغير ذلك ، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة فلما كمل بناؤها أمر في مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطاً وستوراً وفرشاً من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف ، وأمر باتخاذ أواني الذهب والفضة ، فاتخذوا جميع ما أمر به ، فلما فرغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت في أهل مملكته ، وقصد مدينة إرم ذات العماد ، فلما أشرف عليها ورآها قال : قد وصلت إلى ما كان هود يعدني به بعد الموت ، وقد حصلت عليه في الدنيا ، فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً فصاح بهم صيحة الغضب ، وقبض ملك الموت أرواحهم في طرفة عين ، فخروا على وجوههم صرعى ! قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ [النجم: ٥٠] . وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم ، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس ، فكانوا يرون بالليل في تلك البرية التي بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضيء كالمصابيح ، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً . وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له : عبد الله بن قلابة الأنصاري ، دخل إليها وذلك أنه ضلت له إبل فخرج في طلبها ، فوصل إليها فلما رآها دهش وبهت ، ورأى ما أذهله وحيره ، وقال في نفسه : هذه تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين في الآخرة ، فقصد باباً من أبوابها فلما وصل إليه أناخ راحلته ، ودخل المدينة فرأى تلك القصور والأنهار والأشجار ، ولم ير في المدينة أحداً فقال : أرجع إلى معاوية ، وأخبره بهذه المدينة وما فيها ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر واليواقيت في وعاء ، وجعله على راحلته وعلم على المدينة علامة ، وقال : قربها من جبل عدن كذا ، ومن الجهة الفلانية كذا ، ثم انصرف عنها بعد ما ظفر بإبله ، ثم دخل على معاوية رضي الله عنه بدمشق ، وأخبره بجميع ما رآه ، فقال له معاوية في اليقظة رأيتها أم في المنام ؟ قال : بل في اليقظة ، وقد حملت معي من حصبتها ، وأخرج له شيئاً مما حملة من الجواهر واليواقيت ، فتعجب معاوية من ذلك ، ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضي الله عنه فلما دخل عليه قال له معاوية : يا أبا إسحاق ، هل بلغك أن في الدنيا مدينة من ذهب ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وقد ذكرها الله - عز وجل - في القرآن لنبينا ﷺ بقوله - عز من قائل - : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَعَادٍ ﴾ [إرم ذات العماد: ٧] ﴿ أَلَيْسَ لِمَنْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي أَلْيَدٍ ﴾ [الفجر: ٦-٨] وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس ، وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري ، ثم التفت فرأى عبد الله ابن قلابة فقال : ها هو يا أمير المؤمنين ، وصفته واسمه في التوراة ، ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة . وقيل : إن ذلك كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإن الرجل الذي دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ، ولا من كان حاضراً بل قال : إن النبي ﷺ قال : « يدخلها بعض أمتي »^(١) . والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

(١) قال : إن النبي ﷺ قال : « يدخلها بعض أمتي » ذكر ابن كثير في تفسيره أن الثعلبي وغيره حكوا قصة عبد الله بن قلابة في زمان معاوية . . وأن الناس ذهبوا ليروا ما رآه فلم يروا شيئاً ، ثم قال وهذا مما يقطع بعدم صحته .

ومن المباني العجيبة الخورنق : الذى بناه النعمان بن امرئ القيس ، وهو النعمان الأكبر ، بناه فى عشرين سنة فلما انتهى أعجبه ، فخشى أن يبنى لغيره مثله فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه فألقوه ، ففتقطع ، واسم بانيه سينمار فصارت العرب تضرب به المثل يقولون : جزاه جزاء سنمار قال الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يُجزى سنمار

ومن المباني العجيبة الأهرام : وهى بالجانب الغربى من مصر مُشاهدة فى زماننا هذا ، قيل : إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة ألفا ذراع ، من كل جهة خمسمائة ذراع ، وعلوه خمسمائة ذراع ، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر ، وفتح منها هرمًا ، وتعجب من بنائها وصفتها ، قيل إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعاً فى عرض عشرة أذرع ، وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته ، ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه ، وهى من عجائب الدنيا ، قال بعضهم :

أين الذى الهرمان من بنيانه ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟!

تتخلف الآثار عن سكانها حيناً ويدركها الفناء فتضرع

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام ، أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم ، كما تميزوا عنهم فى حياتهم ، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور ، وتراخى العصور . ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بنقبها فنقب أحدها بعد جهد شديد ، وعناء طويل فوجد داخله مزالق ، ومهاوى يهول أمرها ، ويعسر السلوك فيها ، ووجد فى أعلاه بيت ، وفى وسطه حوض من رخام مطبق ، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية ، فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه ! ويقال : إن الذى بناها اسمه سوريد بن سهرق بن سرياق لرؤيا رآها ، وهى آفة تنزل من السماء ، وهى الطوفان ، فقالوا : إنه بناها فى ستة أشهر ، وقال : قل لمن يأتى بعدنا يهدمها فى ستمائة سنة ، والهدم أيسر من البناء ، وكسوناها الديباج الملون فليكسها حصراً ، والحصار أهون من الديباج ، والأمر فيها عجيب جداً ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

ومن المباني العجيبة منارة الإسكندرية : التى بناها ذو القرنين ، قيل : إنها كانت مبنية بحجارة مهندمة ، مغموسة فى الرصاص ، فيها نحو من ثلاثمائة بيت ، تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت ، وللبيت طاقات ، تطل على البحر ، ويقال : إن طولها كان ألف ذراع ، وفى أعلاها تماثيل من نحاس ، منها تماثيل رجل قد أشار بيده إلى البحر ، فإذا صار العدو على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدو فيستعدون له ، ومنها تماثيل كلما مضى من الليل ساعة صوت صوتاً مطرباً ، ويقال : إنه كان بأعلاها امرأة من الحديد الصينى ، عرضها سبعة أذرع ، كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرص ، وقيل : كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم ، فإن كانوا أعداء تركوهم ، حتى يقربوا من المدينة ، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرأة مقابلة الشمس ، واستقبلوا بها السفن ، فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن ، فتحرق فى البحر ، ويهلك كل من فيها ، وكانت الروم تؤدى الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن ، ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك . قال المسعودى قيل : إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد ، وأظهر أنه يريد الإسلام ، وأرسل إليه تحفاً وهدايا ، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده ، أن يبلاده دفائن ، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه ، وأرسل معهم أموالاً قيل : إنهم حفروا بقرب المنارة ، ودفنوا تلك الأموال ، وقالوا للوليد : إن تحت المنارة كنوزاً لا تنفذ ويازائها خبية بها كذا وكذا ألف دينار ، فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة ، فإن كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها ، فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم ، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة ، واستخراج ما تحتها فهدموها ، فلم يجدوا تحتها شيئاً وهرب أولئك القسيسون ، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه ، فندم على ذلك غاية الندم ، ثم أمر ببنائها بالآجر ، ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة ، فلما أتموها نصبوا عليها المرأة كما كانت فصدت ، ولم يروا فيها شيئاً مثل ما

كانوا يرون أولاً وبطل إحراقها فندموا على ما فعلوا ، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقد عملت الجن لسليمان بن داود ﷺ في الإسكندرية مجلساً على أعمدة من الجوز اليماني المصقول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشى خلفه لصفائها ، وفي وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وإحدى عشرة ذراعاً ، وفي تلك الأعمدة عمود واحد يتحرك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه . وفي مدينة حمص مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا فيها من عجائب البنيان والبيوت والغرف والماء الجاري ، في كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى . وعند حوران مدينة عظيمة يقال لها اللجأة فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه ألسنة العقلاء كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت ، ليس في الدار خشبة واحدة ، بل أبوابها وغرفها وسقوفها وبيوتها من الصخر المنحوت ، الذي لا يستطيع أحد أن يعمل من الخشب ، وفي كل دار بئر وطاحون ، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى ، وكل دار كالقلعة الحصينة إذا خاف أهل تلك النواحي من العدو دخلوا إلى تلك المدينة ، فينزل كل إنسان في دار بجميع عياله وخيله وغنمه وبقره ويغلق بابه ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه ، وفي هذه المدينة أكثر من مائتي ألف دار فيما يقال ، ولا يعلم أحد من بناها وسمتها العرب اللجأة لأنهم يلجئون إليها عند الخوف .

ومن المباني العجيبة إيوان كسرى أنوشروان : بناه سابور ذو الأكتاف في نيف وعشرين سنة ، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين ، بناه بالآجر والجص ، وجعل طول كل شرفة^(١) من شرايفه خمس عشرة ذراعاً ، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان ، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً . وحكى أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه وأن يجعل آله في بنائه ، فقليل له : إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع ، وهدم شرافة وحسب ما أنفق عليها فوجد الأمر كذلك . وقيل : إن بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه : هو آية الإسلام فلا تهدمه ! . والله سبحانه وتعالى أعلم وقد اقتضت من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) الشرفة: أعلى الشيء، ومن البناء: ما يوضع في أعلاه يُحلى به.

الباب السابع والستون

في ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لا تكاد تحصى ، لكن منها ما يعرفه الناس ، ومنها ما لا يعرفونه ، وهي مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب ، والذي اشتهر بين الناس من المعادن سبعة وهي : الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والأسرب ، والخاصصيني .

ولنبداً أولاً بذكر الذهب : فقليل : طبعه حار لطيف ، ولشدة اختلاط أجزائه المائية بالترابية قليل : إن النار لا تقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق ولا يبلى ، ولا يصدأ ، وهو لين براق ، حلو الطعم أصفر اللون ، فالصفرة من ناريته ، والليونة من دهنيته ، والبراقة من صفاء مائه .

خواصه : يقوى القلب ، ويدفع الصرع تعليقاً ، ويمنع الفزع والخفقان ، ويقوى العين كحلاً ، ويجلوها إذا كان ميلاً ، ويحسن نظرها وإذا ثقت به الأذن ، لم تلتحم ، وإذا كوى به لم ينفط ، ويبرأ سريعاً ، وإمساكه في الفم يزيل البخر .

الفضة : قريبة منه وتصدأ وتحترق ، وتبلى بالتراب ، وإذا أصابها رائحة الرصاص والزئبق تكسرت ، أو رائحة الكبريت اسودت .

ومن خواصها : أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه ، وإذا أذيت مع الزئبق وطلت بها البدن نفع ذلك من الحكة ، والجرب وعسر البول .

النحاس : قريب منها لكنه أبيض وأغلظ في الطبع ، ومن خواصه إذا صدئ وطلت بالحامض زال صدؤه ، والأكل في آنيته يولد أمراضاً لا دواء لها .

الحديد : كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلا وله فيها مدخل .

ومن خواصه : أنه يمنع غطيظ النائم إذا علق عليه ، وحمله يقوى القلب ، ويزيل الخوف ، والأفكار والأحلام الرديئة ، ويسر النفس وصدؤه ينفع أمراض العين كحلاً ، والبواسير تحملاً .

القصدير : صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض ومن خواصه ، أنه إذا ألقى في قدر لم ينضج ما فيها . الأسرب : هو الرصاص ، ومن خواصه أنه يكسر الماس .

ومن خواص الماس : الدخول في كل شيء وإذا شد من الرصاص قطعة على الخنازير ، والغدد أبرأتها .

الخاصصيني : حجر لونه أسود يعطى حمرة .

ومن خواصه : إذا عمل منه مرآة ونظر فيها في الظلمة نفعت للقوة وإذا نتف الشعر بملقاط منه لم ينبت .

الأحجار الجوهريّة : أصل الجواهر - وهو الدر على ما قيل - أن حيواناً يصعد من البحر على ساحله وقت المطر ، ويفتح أذنه يلتقط بها المطر ، ويضمها ويرجع إلى البحر فينزل إلى قراره ، ولا يزال طابقاً أذنه على ما فيها خوفاً أن يختلط بأجزاء البحر ، حتى ينضج ما فيها ، ويصير درّاً ، فإن كانت القطرة صغيرة ، كانت الدرة صغيرة ، وإن كانت كبيرة فكبيرة ، فإن كان في بطن هذا الحيوان شيء من الماء المرّ ، كانت الدرة كدرة ، وإن لم يكن كانت صافية . وقيل غير ذلك . والدرّ نوعان : كبير وصغير ، قيل : إنه تصل الواحدة إلى مثقال .

خواصه : أنه يفرّج القلب ، ويبسط النفس ، ويحسن الوجه ، ويصفى دم القلب ، وإذا خلط مع الكحل شدّ عصب

العين .

الياقوت : سيد الأحجار ، وأصول ألوانه أربعة : الأحمر ، والأصفر ، والأزرق والأسمانجوني ، ويتولد منها ألوان كثيرة ، وأعدّلها الأحمر الخالص الرماني الشبيه بحب الرمان الأحمر ، ودونه الأحمر المشرب ببياض ، ثم الوردى ، ثم الخمرى ثم العصفرى ، وأردؤه الأزرق الذى لونه يشبه زهر السوسن ، وأقله قيمة الأبيض .

خواصه : أنه لا يعمل فيه الفولاذ ، ولا حجر الماس ، ولا تندسه النار ويورث لابسها مهابة ، ووقارا ، ويسهل قضاء الحوائج ، ويدبر الريق فى الفم ، ويقطع العطش ، ويدفع السم ، ويقوى القلب ، وجميعه ينفع للمصروع تعليقاً ، والأبيض منه ييسط النفس ، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل .

البلخش : هو مقارب للياقوت فى القيمة ودونه فى الشرف .

ومن خواصه : أنه يورث قبض النفس ، وسوء الخلق والحزن ، وهو ألوان أحمر وأخضر وأصفر .

البنقش : أصناف : أحمر مفتوح اللون صاف ، وأحمر قوى الحمرة ، وأسود يعلوه حمرة مطووسة بزرقة خفيفة ، ثم أصفر مفتوح اللون .

عين الهر : حجر يتكوّن من معدن الياقوت ، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط ، ومائته رقيقة شفافة ، وفى مائته سِرٌّ إذا حرك يميناً تحركت يساراً وبالعكس .

ومن خواصه : إذا علق على العين أمن عليها من الجدرى على ما قيل .

الماس : يوجد بواد بالهند يقال : إنه مشحون بالحيات ، فيأتى من يريد استخراجها من ذلك الوادى ، فيضع فى الوادى مرآة كبيرة ، فتأتى الحيات فتتنظر إلى خيالها فى المرآة فنفّر من ذلك الجانب ، فيتزلّ فيأخذ ماله فيه رزق . وقيل : إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها فى ذلك الوادى فيلتصق الماس وغيره باللحم ، فتأتى الطير فتختطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم ، وتترك الحجر ، فيأخذها صاحب اللحم . وقيل : إن الحيات لها مشتى ستة أشهر فى مكان ، ومصيف ستة أشهر فى مكان آخر ، فإذا ذهبت إلى مشتها ومصيفها أخذ الحجر فى غيبتها ، والله أعلم بصحة ذلك . ومن عجب أمره أنه إذا أريد كسره جعل فى أنبوبة قصب ، وضرب فإنه يتفتت ، وكذا إذا جعل فى شمع أو قار وإذا جعل عليه دم تيس ، وقرب من النار ذاب .

ومن خواصه : أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه ، وهو من السموم القاتلة القطعة الصغيرة منه إذا حصلت فى الجوف ، ولو بقدر السمسة خرقت الأمعاء ، ومن خواصه الجليلة أنه يعرق عند وجود السم أو الطعام المسموم .

الزمرّد : ويسمى الزبرجد ، وهو ألوان : أخضر ، وزنجارى وصابونى ، ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل ، وأقل . ومن خواصه : أنه يدفع العين ، ويفرّج القلب ، ويقوى البصر ، ويصفى الذهن ، وينشط النفس .

الفيروزج : نوعان : إسحاقى وخلنجى ، وأجوده الإسحاقى الأزرق الصافى .

خواصه : النظر فيه يجلو البصر ويقويه ، وينشط النفس ، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه ، ولا يزال كذلك حتى ينطفئ .

العقيق : معدن بأرض صنعاء باليمن وهو ألوان ، ويوجد عليه غشاوة ، ويحمى عليه بعر الإبل ، ثم يبرد ، ويكسر وقيل : يوجد بالهند ولكن اليمنى أجود ، خواصه التختّم به وحمله يورث الحلم والإنابة ، وتصويب الرأى ، ويسر النفس ويكسب حامله وقاراً وحسن خلق ، ويسكن الحدة عند الخصومة قال رسول الله ﷺ : « من تختّم بالعقيق لم يزل فى بركة »^(١) .

الجزغ : هو حجر أيضاً يؤتى به من اليمن والصين وألوانه كثيرة ، ويثقل اللسان إذا سحق وشرب ماؤه .

(١) ذكر ابن القيم من الأحاديث الباطلة أحاديث التختّم بالعقيق .

البلور : هو صنف من الزجاج ، يحكى أن بيلاد كيسان جبلين : أحدهما بلور ، وإذا أريد قطع البلور فى ذلك الموضع قطع فى الليل ، لأنه فى النهار يكون له شعاع عظيم .

خواصه : النظر فيه يشرح القلب ، ويسيط النفس ، ويسكن وجع الضرس .

المرجان : هو واسطة بين النبات والمعدن ، لأنه بتشجره يشبه النبات ، وبتحجره يشبه المعدن ، ولا يزال ليناً فى معدنه ، فإنه فارقه تحجر وييس .

خواصه : النظر فيه يشرح الصدر ، ويسيط النفس ، ويفرح القلب ، ويذهب بالداء المحتبس فى العين ، ويسكن الرمد ، وسحاقتة المخلوطة بالخل تجلو قلع الأسنان ، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ ، وأنواعه كثيرة ، أحمر وأزرق وأبيض ، وأصله من البحر قيل : إنه شجر ينبت ، وقيل : إنه من حيوانه .

حجر الماطليس : هو حجر هندي لا يعمل فيه الحديد ، والبيت الذى يكون فيه لا يدخله السحر ، ولا الجن ولأجل ذلك كان الإسكندر يجعله فى عسكره .

الحجر الماهاني : من تختم به أمن من الروع والهم والحزن والغم ، ولونه أبيض وأصفر ويوجد بأرض خراسان .

الدهنج : خاصيته : أنه إذا سقى إنسان من محكة يفعل فعل السم ، وإذا سقى شارب السم منه نفعه وإذا مسح به موضع اللدغ سكن ، وينفع من خفقان القلب ، وإذا طلى بحكاكته بياض البرص أزاله ، وإن علق على إنسان غلب عليه الباه .

السَّبج : خواصه : أنه يقوى النظر الضعيف من الكبر ، أو نزول الماء ، ولبسه ينفع عسر البول ، وإدمان النظر فيه يحد البصر ، وسحاقتة تجلو البصر ، وإذا علق على من به صداع زال عنه .

المغناطيس : يوجد فى بحر الهند ، وهناك لا يتخذ فى السفن حديد ، ويوجد بيلاد الأندلس أيضاً ، وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب إلى حمرة .

خواصه : الاكتحال بسحاقتة يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه ، ويسهل الولادة تعليقاً ، وإذا سحق وشرب من سحاقتة من به سم بطل سمه ، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته . وإذا غسل بالخل عاد إلى حالته ، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد .

حجر الخطاف : الخطاف يوجد فى عشه حجران : أحدهما أحمر ، والآخر أبيض ، فالأحمر إذا علق على من يفزع فى نومه زال فزعه ، والأبيض إذا علق على من به صرع زال عنه .

حجر الزاج : إذا دخن البيت بسحاقتة هرب منه الفأر والذباب .

حجر الزنجفر : أصله من الزئبق واستحال .

وخاصيته : أنه يدمل الجراحات ، وينبت اللحم .

حجر الملح : هو أنواع وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط ، وقد جعله الله قواماً للعالم ، ومن خاصيته أن يحسن الذهب ، ويزيد فى صفوته ، وعن النبى ﷺ أنه قال : « يا على ، ابدأ بالملح ، واختم به فإن فيه شفاء من سبعين داء » (١) .

حجر النظرون : قال أرسطو ينفع للأرحام التى غلبت عليها الرطوبة ، ينشفها ويقويها وإذا ألقى فى العجين طيبه ويبيضه ونشفه ، وهو نوعان : أبيض وأحمر .

حجر اللازورد : مشهور قال أرسطو من تختم به عظم فى أعين الناس ، وينفع من السهر والله أعلم . ومن أراد التعمق فى ذلك فعليه بالكتب الموضوعة له ، ولكن قد ذكرنا ما هو معروف ، والحمد لله على كل حال ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) يا على : ابدأ بالملح . . إلخ تقدم تخريجه .

الباب الثامن والستون

في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ، ومن كرهه ومن استحسنة

وما ذكرت ذلك إلا لأني كرهت أن يكون كتابي هذا بعد اشتماله على فنون الأدب والتحف والنوادر والأمثال عاطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع ، ومرتع النفس وربيح القلب ، ومجال الهوى ، ومسلة الكتيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ، لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذه بمجامع النفس .

[فصل في الصوت الحسن]

قال بعض أهل التفسير : في قوله تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ١] هو الصوت الحسن وعن النبي ﷺ أنه قال : « أندرون متى كان الحذاء ؟ » قالوا : لا بأينا أنت وأما يا رسول الله . قال : « إن أباكم مضر خرج في طلب مال له ، فوجد غلاماً له قد تفرقت إبله ، فضربه على يده بالعصا ، فعدا الغلام في الوادي ، وهو يصيح : وا يده ! فسمعت الإبل صوته ، فعطفت عليه ! فقال مضر : لو اشتق من الكلام مثل هذا لكان كلاماً تجتمع عليه ، فاشتق الحذاء » (١) . وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري : لما أعجبه حسن صوته : « لَقَدْ أُوتِيتُ بِمَزَامِرَا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » (٢) . وقيل : إن داود عليه السلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً في الأسبوع ، وتجتمع عليه الخلق ، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة ، وكان له جاريتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديداً خيفة أن تتخلع أوصاله ، مما كان ينتحب ، وكانت الوحوش والطيور تجتمع لاستماع قراءته . قال مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش ؛ فيقول : « يا داود ، مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم » . وقال سلام الحادي للمنصور : - وكان يضرب المثل بحدائه - مر يا أمير المؤمنين بأن يظمنوا إبلاً ثم يوردوها الماء ، فإني آخذ في الحذاء ، فترفع رءوسها وتترك الشرب ، وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق ، فيصفو له الدم ، وتنمو له النفس ، ويرتاح له القلب ، وتهتز له الجوارح ، وتخف له الحركات ؛ ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على إثر البكاء حتى يرقص ويضطرب ، وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقى من النطق ، لم يقدر اللسان على استخراجها فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع ، فلما ظهر عشقته النفس ، وحنّت إليه الروح ، ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملاة والفطور على أبدانهم ترنموا بالألحان ، واستراحت إليها أنفسهم ، وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو يضطرب من صوت نفسه ، ويعجبه طنين رأسه ، ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكّل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاياة على البدن ، وتعب على الجوارح ، ما خلا السماع فإنه لا معاياة فيه على البدن ، ولا تعب على الجوارح ، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيري الدنيا والآخرة ، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الأرحام ، والذبّ عن الأعراض ، والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكي الرجل بها على خطيئته ، ويتذكر نعيم الملكوت ، ويمثله في ضميره ، وكان أبو يوسف القاضي يحضر مجلس الرشيد وفيه الغناء ، فيجعل مكان السرور به بكاء ، كأنه يتذكر نعيم الآخرة ، وقد تحن القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهائم ، وكان صاحب الفلاحات يقول : إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء ، قال الشاعر :

والطير قد يسوقه للموت إصفاؤه إلى حنين الصوت

(١) أندرون متى كان الحذاء ؟ لم أفق عليه .

(٢) وقال الرسول ﷺ لأبي موسى : لقد أوتيت ... إلخ متفق عليه من حديث أبي موسى - كما قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء .

وزعموا أن في البحر دواب ، ربما زمرت أصواتاً مطربة ولحوناً مستلذة ، يأخذ السامعين الغشى من حلاوتها فاعتنى بها وضعة الألحان بأن شبهوا بها أغانيهم ، فلم يبلغوا ، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطاقة وصوله إلى الدماغ ، ومما زجته للقلب ألا ترى إلى الأم كيف تنأى ولدها ؟! فيقبل بسمعه على مناغاتها ، ويتلهى عن البكاء ! والإبل تزداد في نشاطها وقوتها بالحداء ، فترفع آذانها ، وتلتفت يمنة ويسرة ، وتبخر في مشيتها ، وزعموا أن السماكين ينواحي العراق يبنون في جوف الماء حفائر ، ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك في الحفائر ، فيصيدونه ، وقد نبهت على ذلك في باب ذكر البحار ، وما فيها من العجائب ، والراعى إذا رفع صوته ونفخ في يراعتة ، تلتقه الغنم بأذانها ، وجدت في رعيها ، والدابة تعاف الماء فإذا سمعت الصفير بالغت في الشرب ، وليس شيء مما يستلذ به أخف مؤنة من السماع ، قال أفلاطون من حزن فليسمع الأصوات الحسنة فإن النفس إذا حزنت خمدت نارها فإذا سمعت ما يطردها ويسرها اشتعل منها ما خمد ، وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع ، وتعلل به المريض ، وتشغله عن التفكير ، ومنهم أخذت العرب ، حتى قال ابن غيلة الشيباني :

وسماع مسمعة يُعلّلنا حتى ننام تنام المعجم

وحكى أن البعلبكي مؤذن المنصور رجع في آذانه ليلة ، وجارية تصب الماء على يد المنصور ، فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها ، فقال له المنصور : خذ هذه الجارية فهي لك ، ولا تعد ترجع هذا الترجيع ! وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمارة في قبنة :

ألم ترها لا أبعد الله دارها إذا رجعت في صوتها كيف تصنع ؟!
تدير نظام القول ثم تردّ إلى صلصل من صوتها يترجع

وبعد : فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب : وأشدّ اختلاساً للعقول من الصوت الحسن ؟! لا سيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر :

رب سماع حسن سمعته من حسن
مقرب من فرح مُبْقِد من حزن
لا فارقنا نى أبداً فى صحبة من بدن

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغنى بقول جرير :

قل للجبان إذا تأخر سَرْجُه هل أنت من شرك المنية ناجى ؟!

إلا شاش ، وشجعت نفسه ، وقوى قلبه ؟! أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوماً يغنى بقول حاتم الطائي :

يرى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى فى ماله سُبُلاً

إلا انبسطت أنامله ، ورشحت أطرافه ؟!

واختلف الناس في الغناء ، فأجازة عامة أهل الحجاز ، وكرهه عامة أهل العراق ، فمن حجة من أجازها ما روى : أن النبي ﷺ قال لحسان : « شن الغطاريف على بنى عبد مناف ، فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام » (١) . واحتجوا في إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها : « أهديتم الفتاة إلى بعلها ؟ » . قالت : نعم . قال : « فبعثتم معها من يغنى ؟ » قالت : لم نفعل . قال : « أو ما علمت أن الأنصار قوم يُعْجِبُهُمُ الْقَوْلُ ؟ أَلَا بَعَثْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَقُولُ » (٢) :

(١) « شن الغطاريف » .. إلخ لم أهدأ إليه ، وأخرج مسلم [٢٤٩٠] أن النبي ﷺ قال لحسان : « اهجع قريشا ، فإنه أشد عليهم من رشق النبل » .

(٢) حديث عائشة رضي الله عنها . رواه البخاري وأحمد وغيرهما « يا عائشة ما كان معكم لهُو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهُو » وفي بعض الروايات : « فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغنى ؟ قالت عائشة » . ماذا تقول ؟ قال : أتيناكم » .. إلخ [فقه السنة - السيد سابق] .

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ
فَحِثُّونَا نَحِثُّكُمْ
وَلَوْلَا الْحَبِيبَةُ السَّمَرَا
لَمْ نَحْلُلْ بِوَادِيكُمْ

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرّم ، ولا يكره السماع عند العرس ، والوليمة ، والعقيقة ، وغيرها ، فإن فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح ، أو مندوب ، ويدل عليه ما روى ^(١) من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبي ﷺ حيث قلن :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا
مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوُدَاعِ
وَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا
مَا دَعَا لَلَّهِ دَاعِ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا
جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ

ويدل عليه ما روى عائشة رضي الله عنها أنها قالت : رأيت النبي ﷺ يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحيشة يلعبون في المسجد الحرام ، حتى أكون أنا التي أسامه ^(٢) . ويدل عليه أيضاً ما روى في الصحيحين من حديث عقيل ، عن الزهري ، عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر دخل عليها ، وعندها جارتان في أيام منى ، يدفقان ويضربان ، والنبي ﷺ متغش بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي ﷺ عن وجهه ، وقال : « دَغُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ » . وعن قرّة بن خالد ابن عبد الله بن يحيى قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنابغة الجعدي : أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من هَنَاتِكَ ، فأسمعه كلمة ، فقال له : وإنك لقائلها ؟ قال : نعم . قال : طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب . وعن عبد الله بن عوف قال : أتيت باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسمعتة يغني بالركابية يقول :

فَكَيْفَ ثَوَاتِي ^(٣) بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ مَا قَضَى وَطَرًا مِنْهَا جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ ؟!

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر ، قال : فلما استأذنت عليه ، قال لي : أسمعت ما قلت ؟ قلت : نعم : إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم . وقد أجازوا تحسين الصوت في القراءة والأذان ، فإن كانت الألحان مكروهة ، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها ، وإن كانت غير مكروهة ، فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن ، وما جعلت العرب الشعر موزوناً إلا لمد الصوت ، والدندنة ، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنشور .

ومن حجة من كره الغناء أنه قال : إنه يفرّ القلوب ، ويستفز العقول ، ويبعث على اللهو ، ويحض على الطرب ، وهذا باطل في أصله . وتأولوا في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ [لقمان: ٦] . وأخطأ من أوّل هذا التأويل ، إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير والأحاديث القديمة ، ويضاهون بها القرآن ويقولون : إنها أفضل منه ، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً ، وقال رجل للحسن البصري : ما تقول في الغناء يا أبا سعيد ؟ فقال : نعم العون على طاعة الله تعالى ، يصل الرجل به رحمه ، ويواسي به صديقه . قال : ليس عن هذا أسألك ، قال : وعم سألتني ؟ قال أن يغني الرجل . قال : وكيف يغني ؟ فجعل الرجل يلوى شذقيه ، ويفتح منخريه ، فقال الحسن والله يابن أخى ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه ، وتعويج فمه ! وسمع ابن المبارك سكران ، يغني هذا البيت :

أَذْلَنِي الْهَوَى فَأَنَا الذَّلِيلُ
وَلَيْسَ إِلَيَّ الذِي أَهْوَى سَبِيلُ !

قال : فأخرج دواة وقرطاساً وكتب البيت ، فقيل له : أنكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران ؟! فقال : أما سمعتم المثل : رب جوهرة في مزبلة ! . وكان لأبي حنيفة جار من الكياليين مغرم بالشراب ، وكان يغني بقول العرجي :

(١) ما روى من إنشاد النساء بالدف والألحان . . إلخ حديث إنشاد النساء وعند قدوم رسول الله ﷺ : طلع البدر . . إلخ ضعيف : أخرجه البيهقي في دلائل النبوة معضلاً وليس فيه ذكر للدف والألحان كما قال العراقي في تخريج أحاديث الأحياء .

(٢) حديث عائشة رضي الله عنها : « رأيت النبي ﷺ يسترنى بردائه » . . إلخ قال العراقي : رواه مسلم .

(٣) ثواني: ثوى بالمكان، أي أقام واستقر فيه . قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ قَارِبِينَ ﴾ وَأَمَّا أَهْلِي مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿ القصص: ٤٥ ﴾ .

أضاعوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

قال فأخذه العسس ليلة وجسه ، ففقد أبو حنيفة صوته ، واستوحش له ، فقال لأهله : ما فعل جارنا الكيال ؟ قالوا : أخذه العسس ، وهو فى الحبس ، فلما أصبح أبو حنيفة ، توجه إلى عيسى بن موسى ، فاستأذن عليه ، فأسرع إذنه - وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتى أبواب الملوك - فأقبل عليه عيسى بن موسى ، وسأله عما جاء بسببه ، فقال : أصلح الله الأمير إن لى جاراً من الكياليين ، أخذه عسس الأمير ليلة كذا ، فوقع فى حبسه ، فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من فى الحبس إكراماً لأبى حنيفة ، فأقبل الكيال على أبى حنيفة يشكر له ، فلما رآه أبو حنيفة قال له : هل أضعناك يا فتى ؟! يعرض له بشعره الذى ينشده ! قال : لا والله ، ولكنك بررت وحفظت . وكان عروة بن أذينة ثقة فى الحديث روى عنه مالك ابن أنس ، وكان شاعراً مجيداً لبقاً غزلاً ، وكان يصوغ ألحان الغناء ، على شعره وينحلها للمغنين ؛ قيل : إنه وقفت عليه امرأة يوماً ، وحولها التلامذة ، فقالت له : أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح ؟! وأنت تقول :

إذا وجدت أوار الحب فى كبدي عمدت نحو سقاء القوم أبترد

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تنقد ؟!

وكان « عبد الملك » الملقب بالقسّ عند أهل مكة بمنزلة « عطاء بن أبى رباح » فى العبادة ، قيل إنه مر يوماً بسلامة وهى تغنى ، فأقام يسمع غنائها فرأه مولاها ، فقال له : هل لك أن تدخل وتسمع ، فأبى ، فلم يزل به حتى دخل ، فغنته فأعجبته ، ولم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شُغِف بها فلما شعرت بلحظه إياها غنته :

رُب رسولين لنا بلأفا رسالة من قبل أن نبرحها

الطرف للطرف بعثناهما فقضيا حاجا وما صرّحاً

قال : فأغنى عليه ، وكاد يهلك ، فقالت له : إني والله أحبك . قال : وأنا والله أحبك ، قالت : وأحب أن أضع فمى على فمك ، قال : وأنا والله كذلك قالت : فما يمنحك من ذلك ؟ قال : أخشى أن تكون صداقة ما بينى وبينك عداوة يوم القيامة ! أما سمعت قوله تعالى : ﴿ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُهُمْ لَئِقَاصٌ عَذُّوْا إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ . [الزخرف: ٦٧] ثم نهض ، وعاد إلى طريقته التى كان عليها وأنشأ يقول :

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها فاعجب لما تأتى به الأيام !

فاليوم أعذرهم وأعلم أنما سبل الضلالة والهدى أقسام

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام ، فأنزله فى دار عياله ، وأظهر من إكرامه ما يستحقه ، ففاظ ذلك فاخته بنت قرظة زوج معاوية ، فسمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله بن جعفر ، فجاءت إلى معاوية فقالت : هلم فاسمع ما فى منزل الذى جعلته من لحكمك ودمك ، وأنزلته بين حرمك ، فجاء معاوية فسمع شيئاً حركه وأطربه ، فقال : والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تخز له ، ثم انصرف ، فلما كان فى آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر ، وهو قائم يُصَلِّي فنبه فاخته ، وقال لها اسمعى مكان ما أسمعتنى ! هؤلاء قومى ملوك بالنهار ، ورهبان بالليل ، ثم إن معاوية أرق ذات ليلة فقال لخادمه : اذهب ، فانظر من عند عبد الله بن جعفر ، وأخبره أنى قادم عليه ، فذهب وأخبره ، فأقام عبد الله كل من كان عنده ، فلما جاء معاوية لم ير فى المجلس غير عبد الله ، فقال : مجلس من هذا ؟ قال عبد الله : هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد ، قال : مجلس من هذا ؟ قال مجلس رجل يداوى الأذان يا أمير المؤمنين ، قال : إن أذننى عليلاً فمره أن يرجع إلى مجلسه ، وكان مجلس بديح المغنى ، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه ، فقال له معاوية ذأو أذننى من علتها ، فتناول العود وغنى ، وقال :

ودع سعداً فإن الركب مُرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟

قال : فحرك عبد الله بن جعفر رأسه ، فقال له معاوية ، لم حركت رأسك يا بن جعفر ؟! قال : أريحية أجدها

يا أمير المؤمنين ، لو لقيت لأبليت ، ولو سئلت لأعطيت ، وكان معاوية قد خضب قال : فقال ابن جعفر ، لبديح هات غير هذا ، وكان عند معاوية جارية أعز جواريه عليه وكانت تتولى خضابه ، فغنى بديح وقال :

أليس عندك شكر للتي جعلت ما ابيض من قدامات الرأس كالحمم ؟ !
وجدت منك ما قد كان أخلقه صرف الزمان ، وطول الدهر والقدم !

فطرب معاوية طرباً شديداً ، وجعل يحرك رجله ، فقال له ابن جعفر : يا أمير المؤمنين إنك سألتني عن تحريك رأسي فأجبتك وأخبرتكَ ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك ، فقال : كل كريم طروب ، ثم قام وقال : لا يبرح أحد منكم حتى يأتي له إذني ، ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب من خاصة كسوته ، وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب . وحدث ابن الكلبي ، والهيثم بن عدي قالا : بينما عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء ، فأصغى إليه ، فإذا صوت رقيق لقينة تغنى ، وتقول :

قل للكرام ببابنا يلجوا ما في التصابي^(١) على الفتى حرج !

فتزل عبد الله عن دابته ، ودخل على القوم بلا إذن ، فلما رأوه قاموا إجلالا له ، ورفعوا مجلسه ، فأقبل عليه صاحب المجلس ، وقال : يابن عم رسول الله ﷺ أتدخل مجلسنا بلا إذن ، وليس هذا من شأنك ؟ ! فقال عبد الله : لم أدخل إلا بإذن ، قال : ومن أذن لك ؟ قال : قينتك هذه سمعتها تقول :

قل للكرام ببابنا يلجوا

فولجنا فإن كنا كراما فقد أذن لنا ، وإن كنا لثاماً خرجنا مذمومين ، فقبل صاحب المنزل يده ، وقال : جعلت فداك ! والله ما أنت إلا من أكرم الناس ! فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه ، فحضرت ، ودعا بشاب وطيب فكسا القوم ، وطيبهم ووهب الجارية ، لصاحب المنزل ، وقال : هذه أحذق بالغناء من جاريتك ! .

أصل الغناء ومعدنه : قال أبو المنذر هشام : الغناء على ثلاثة أوجه : النصب ، والسناد ، والهزج فأما النصب : فغناء الفتيان والركبان^(٢) . وأما السناد فالثقل الترجيع ، والكثير النغمات . وأما الهزج : فالخفيف كله ، وهو الذي يستفز القلوب ، ويهيج الحليم . وقيل : كان أصل الغناء ومعدنه ، في أمهات القرى فاشياً ظاهراً ، وهي المدينة ، والطائف وخيبر ، وفدك ، ووادي القرى ، ودومة الجندل ، واليمامة ، وهذه القرى مجامع أسواق العرب . ويقال : إن أول من صنع العود لأمك بن قابن بن آدم وبكى به على ولده ، ويقال : إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى ؛ وهو كتاب اللحن الثمانية . والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك . وحسبنا الله ونعم الوكيل . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) التصابي : تكلف الصبأ .

(٢) وهو نوع من الغناء رقيق .

الباب التاسع والستون

فى ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء ، فى مجالس الرؤساء

قيل إن أول من غنى "ان-ان-ان" للنعمان ، يقال : لهما الجرادتان ، ومن غنائهما :

ألا يا قين ويحد سم فهينم لعل الله يسقينا غماماً^(١)
وإنما غننا هذا حين حبس الله عنهم المطر .

وقيل : أول من غنى فى الإسلام الغناء الرقيق طويس ، وهو الذى علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى ، وكان يكنى أبا عبد النعيم ، ومن غنائه - وهو أول صوت غنى به فى الإسلام - هذا البيت :

قد برانى الشوق حتى كدت من وجرى أذوب !

ثم نجم بعد طويس « ابن طنبور » وأصله ، من اليمن ، وكان أهرج^(٢) الناس ، وأخفهم غناء . وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم « إبراهيم الموصلى » وابن جامع السهمى وغيرهما وكان له زامر يقال له : برصوما ، وكان إبراهيم أشدهم تصرفاً فى الغناء . وابن جامع أحلاهم نغمة ، فقال الرشيد يوماً لبرصوماً : ما تقول فى ابن جامع ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، وما أقول فى العسل الذى من حيثما ذقته فهو طيب !؟ قال : فإبراهيم الموصلى ؟ قال : بستان فيه جميع الأزهار والرياحين ، وكان ابن محرز يغنى كل إنسان بما يشتهي ، كأنه خلق من قلب كل إنسان . وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثنى على كبدي من خشية أن تصدعاً
فليست عشيائ الحمى برواجه عليه ولكن خل عينيك تدمعاً
بكت عيني اليسرى فلما نهيتها عن الجهل بعد الحلم أنبلتاً معاً

قال فاستخف الرشيد الطرب ، فأمر له بمائة ألف درهم .

وحدث ابن الكلبي عن أبيه قال : كان ابن عائشة من أحسن الناس غناء ، وأنبههم فيه ، وكان من أضييق الناس خلقاً إذا قيل له : غن قال : لمثلنى يقال غن ؟! على عتق رقبة إن غنيت يومى ! فلما كان فى بعض الأيام سأل وادى العقيق ، فلم يبق فى المدينة مخبأة ، ولا مخدرة ، ولا شاب ، ولا كهل إلا خرج يبصره ، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغنى : وهو معتجر^(٣) بفضل رذاته ، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ؑ وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق ، وبين يديه عبدان أسودان ، كأنهما ساريتان ، يمشيان أمام دابته فقال لهما : أقسم بالله إن لم تفعلما ما أمركما به لأنكلن بكما ، فقالا : يامولانا قل : ما تأمرنا به ، فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا ، قال : اذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل رذاته ، فأمسكاه فإن لم يفعل ما أمره به ، وإلا فاقذفا به فى العقيق ، قال : فمضينا والحسن يقفوهما فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بمناكبهما ، فقال : من هذا ؟ فقال له الحسن : أنا هذا يابن عائشة ، فقال : لبيك وسعديك ، بأبى أنت وأمى ، قال : اسمع منى ما أقول لك ، واعلم أنك مأسور فى أيديهما ، وقد أقسمت إن لم تغن مائة صوت ليطر حانك فى العقيق ، قال : فصاح ابن عائشة واويلاه ! وإعظم مصيبتاه ! فقال له الحسن : دعنا من صياحك ، وخذ فيما ينفعنا ، قال : اقترح ، وأقم من يحصى ، ثم أقبل يغنى ، فترك الناس العقيق ، وأقبلوا عليه ،

(١) هينم : قال كلاماً لا يفهم ، والهينة الصوت الخفى .

(٢) أهرج الناس : ينظم فى بحر الهزج ، أو فى صوته ترنم خفيف مطرب .

(٣) معتجر : يلف فضل رذاته على رأسه ، ويرد طرفه على وجهه .

فلما تمت أصواته مائة ، كبر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض ، وقالوا للحسن : صلى الله على جدك حيا وميتاً ، فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت ! فقال له الحسن : ما فعلت هذا بك يابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة ! فقال ابن عائشة : والله ما مرت بي شدة أعظم من هذه لقد بلغت أطراف أعضائي ، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له : ما أشد يوم مرّ عليك يقول : يوم العقيق .

وحدث أبو جعفر البغدادي قال : حدثني عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبي عكرمة قال : خرجت يوماً إلى المسجد الجامع ، فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل ، فإذا على بابه المشدود ، وهو أحذق خلق الله تعالى بالغناء ، فقال : أين تريد يا أبا عكرمة ؟ قلت : المسجد الجامع لعلني استفيد حكمة أكتبها ، فقال : ادخل بنا إلى أبي عيسى . قلت : أمثل أبي عيسى في قدره وجلالته يدخل عليه بلا إذن ؟! فقال للحاجب : أعلم أمير المؤمنين بمكان أبي عكرمة ، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إلى ، فحملوني حيلاً فدخلت إلى دارٍ ما رأيت أحسن منها بناء ولا أظرف منها هيئة ، فلما نظرت إلى أبي عيسى قال لي : ما يعيش من يحتشم ، اجلس ، فجلست ، فأتينا بطعام كثير ، فلما انقضى أتينا بشراب ، وقامت جارية تسقيناً شراباً كالشعاع في زجاجة كأنها كوكب دري ، فقلت : أصلح الله الأمير ، وأتم عليه نعمه ، ولا سلبه ما وهبه قال : فدعا أبو عيسى بالمغنين وهم : المشدود ، ودبيس ، ولم يكن في ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء ، فابتدأ المشدود وغنى ، يقول :

لما استقل بأرداف تجاذبه
وأشرق الورد من نسرين وجنته
كلمته بجفون غير ناطقة
ثم سكت وغنى دبیس :

الحب حلو أمرته عواقبه
أستودع الله من بالطرف ودعني
ثم سكت وغنى رقيق :

بدر من الأنس حفته كواكبه
إن يوعده الوعد يوماً فهو مخلقه
ثم أقبل أبو عيسى على المشدود وقال له غن لي شعري ، فغناه :

يا لجة الدمع للغمض مرجوع ؟
ما حيلتي وفؤادي هائم ذئف ؟
لا والذي تلبفت نفسي بفرقة
ما أرق العين إلا حب مبتدع

قال أبو عكرمة ، فوالله لقد حضرت من المجالس مالا يحصى عدده إلا الله تعالى ، فما حضرت مثل ذلك المجلس ، ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا . وحكى عن الرشيد أنه قال يوماً للفضل بن الربيع ، من الباب من الندماء ؟ قال : جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بني أمية ، وأمير المؤمنين يشتهي سماعه ، قال : فأذن له وحده ، فدخل ، فقال : هات يا هاشم ، فغناه جميل حيث يقول :

إذا ما تراجعنا الذي كان بيننا
فياويح نفسي حسب نفسي الذي بها
جری الدمع من عيني بثينة بالكحل
وياويح عقلي ما أصبت به أهلي !

(١) الذئف : من أدنفه الحب وأسقمه ، وعقرب الصدغ الشعر الملتوي على الصدغ وعلى خدود الملاح ويسمى « واوات الأصداغ » .

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حُب قاتله قبلى ؟!

قال : فطرب الرشيد طرباً شديداً ، وقال : أحسنت ، له أبوك ! ثم قلده ! عقداً نفيساً فلما رآه هاشم ترقرت عيناه بالدموع ، فقال له الرشيد : ما يبكيك يا هاشم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لهذا العقد حديثاً عجيباً إن أذن لي أمير المؤمنين حدثته به ، قال : قد أذنت لك قال : يا أمير المؤمنين قدمت يوماً على الوليد ، وهو على بحيرة طبرية ، ومعه قِيتان لم ير مثلهما جمالاً وحسناً ، فلما وقعت عينه على قال ! هذا أعرابي قد ظهر من البوادي ادعوا به ، ففسخر به ! فدعاني فصرت إليه ، ولم يعرفني ، فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لي ، فأخطأته الجارية فقلت لها : أخطأت يا جارية فضحكت ثم قالت : يا أمير المؤمنين ، ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابي ؟! يعيب علينا غناءنا ، فنظر إليّ ، كالمنكر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أبين لك الخطأ ، فلتصلح وتر كذا ، ووتر كذا ، ففعلت ، وغنت شيئاً ما سمع منها إلا في هذا اليوم ، فقامت الجارية مكبة على ، وقالت : أستاذي هاشم ورب الكعبة ؟ فقال الوليد : هاشم بن سليمان أنت ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، وكشفت عن وجهي ، وأقيمت معه بقية يومنا ، فأمر لي بثلاثين ألف درهم ، فقالت الجارية ، يا أمير المؤمنين ، أأذن لي في برّ أستاذي ؟ فقال الوليد : ذلك إليك ، فحلت يا أمير المؤمنين ، هذا العقد من عنقها ، ووضعته في عنقي ، وقالت : هو لك ، ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه ، فركب في السفينة ، وطلعت معه إحدى الجاريتين ، واتبعتها صاحبتي فأرادت أن ترفع رجلها ، وتطلع السفينة فسقطت في الماء ، فغرقت لوقتها ، وطلبت فلم يقدر عليها ، فاشتد جزع الوليد عليها ، وبكى بكاء شديداً ، وبكيت أنا عليها أيضاً بكاء شديداً ، فقال لي : يا هاشم ، ما نرجع عليك بما وهبناه لك ، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به ، فبعتني إياه فعوضني عنه ثلاثين ألف درهم ، فلما وهبتي العقد يا أمير المؤمنين تذكرت قضيته ، وهذا سبب بكائي ، فقال الرشيد ، لا تعجب فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم . وقال علي بن سليمان التوفلي : غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يوماً ، فأنشده :

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا كفسى لمطايانا برؤياك هادياً
ذكرتك بالديرين يوماً فأشرقنت بنات الهوى حتى بلغن التراقيا
إذا ما طواك الدهر يأمم مالك فشان المنايا القاضيات وشانيا

قال : فطرب الرشيد طرباً شديداً ، واستعاده منه مرات ، ثم قال له : تمنّ على ، قال : أتمنى الهنىء ، والمرء ، وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار في كل سنة ، فأمر له بهما ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، إن هاتين الضيعتين من جلالتهم يجب أن لا يسمح بمثلهما ، فقال الرشيد لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت ، ولكن احتالوا في شرائهما منه ، فساوموه فهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار فرضى بذلك ، فقال الرشيد ، ادفعوا له ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، في إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن ، ولكن نقطعها له ، فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاهما . ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلي قال : كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء ، وكان يضع الألحان العجيبة ، ويغني بها شعره وشعر غيره ، فقال له يوما : يا أبا محمد ، لقد فقت أهل العصر في كل شيء ؟ فغنتي شعراً أرتاح إليه وأطرب عليه يومي هذا قال إسحاق ، فغنيته هذه الأبيات :

ما كنت أعلم ما في البين من حرق حتى تنادوا بأن قد جىء بالسفن
قامت تودعني والدمع يغلبها فهمهمت بعض ما قالت ولم تبين
وأعرضت ، ثم قالت وهى باكية ياليت معرفتي إياك لم تكن !

قال : فخلع على خلعة كانت عليه ، وأمر لي بمائة ألف درهم ، قال وغنيته يوما :
قفي ودعينا ياسعداً بنظرة فقد حان منا ياسعداً رحيل
فياجنة الدنيا وياغاية المنى وياسؤل نفسي هل إليك سبيل ؟!
وكننت إذا ما جئت جئت لعلة فأفانيت علاتي فكيف أقول ؟!

فما كل يوم لى بأرضك حاجةً ولا كل يوم لى إليك وصول

فقال : والله لا سمعت يومى غيره ، وألقى على خلعة من ثيابه ، وأمر لى بصلة ما أمر لى قبلها بمثلها .

ومن حكايات الخلفاء ومكارم أخلاقهم : ما حكى عن إبراهيم بن المهدي قال : قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندمائه : إني قد استأذنت أمير المؤمنين فى الخلوة غداً ، فهل من مساعد ؟ فقلت : جُعلت فداءك أنا أسعد بمساعدتك ، وأسر بمشاهدتك ؟ فقال : بكر بكور الغراب ، قال فأتيته عند الفجر ، فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه ، وهو ينتظرنى فى الميعاد ، فما زلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى ، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام ، وأطيبه ، فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم خلعت علينا ثياب المنادمة ، وضمخنا^(١) بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ، ومدت الستائر ، وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم ، ثم إنه داخله الطرب ، فدعا بالحاجب ، وقال له : إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له ، ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه ، فاتفق بالأمر المقدر أن عم الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا فى ذلك الوقت ، وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعة ، وعنده من الورع والزهد والعبادة مالا يزيد عليه ، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهُو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه ، فلما قدم دخل به الحاجب علينا ، فلما رأيناه رمينا ما فى أيدينا ، وقمنا إجلالاً له ، نقبل يده وقد ارتعنا لذلك ، وخجلنا وزاد بنا الحياء ، فقال : لا بأس عليكم ، كونوا على ما أنتم عليه ، ثم صاح بغلام فدفع له ثيابه ، ثم أقبل علينا ، وقال : اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم قال : فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خز معلم ، وقدمت إليه موائد الطعام والشراب ، فطعم وشرب الشراب لساعته ، ثم قال : خففوا عني فإنه شئ والله ما فعلته قط ، قال : فتهلل وجه جعفر ، ثم التفت إلى عبد الملك فقال له : جُعلت فداءك قد علوت علينا ، وتفضلت ، فهل من حاجة تبلغها مقدرتى ، وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت ، قال : بلى إن فى قلب أمير المؤمنين بعض تغير على ، فتسأله الرضا عني ، فقال جعفر : قد رضى عنك أمير المؤمنين ، قال : وعلى عشرة آلاف دينار ! فقال جعفر : هي حاضرة لك من مالى ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها قال : وأريد أن أشد ظهر ابني إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين ، قال : قد زوجه أمير المؤمنين بابته الغالية ، قال : وأحب أن تخفق الأولوية على رأسى ، قال : وقد ولاء أمير المؤمنين مصر ، فانصرف عبد الملك بن صالح ، وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك ، من غير استئذان ، وقلت : عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى ما سأله من الولاية ، والمال ، والرضا عنه ، إلا المصاهرة قال : فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد ، لأنظر ما يكون من أمرهم ، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ، ثم بإبراهيم بن عبد الملك بن صالح ، فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد ، وعقد له على مصر ، والرايات والألوية تخفق على رأسه ، وخرج كل من فى القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح ، قال : ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال : أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح ، وأحببتم سماع ذلك . قلنا : هو كما ظننت ، قال : لما دخلت على أمير المؤمنين ، ومثلت بين يديه قال : كيف كان يومك يا جعفر بالأمس ؟ فقصصت عليه القصة ، حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح ، فكان متكئاً فاستوى جالساً ، وقال : لله أبوك ! ما سألك ؟ قلت : سألتى رضاك عنه يا أمير المؤمنين ! قال : بم أجبت ؟ قلت : قد رضى عنك أمير المؤمنين ، قال : قد رضيت عنه ، ثم ماذا ؟ قلت : وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار ، قال : فبم أجبت ؟ قلت : قد قضاها عنك أمير المؤمنين ، قال : وقد قضيتها عنه ، ثم ماذا ؟ قلت : ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه ، قال : فبم أجبت ؟ قلت : قد زوجه أمير المؤمنين بابته الغالية قال : قد أجبت إلى ذلك ، ثم ماذا ؟ قلت : قال : وأحب أن تخفق الأولوية على رأسه ، قال : فبم أجبت ؟ قلت : قد ولاء أمير المؤمنين مصر ، قال : قد وليته إياها ، ثم نجز له جميع ذلك من ساعته . قال إبراهيم المهدي : فوالله ما أدرى أى الثلاثة أكرم وأعجب فعلاً ؟! ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة ، ولم يكن فعل ذلك قط ، أم إقدام جعفر على الرشيد ؟ أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر ، فهكذا تكون مكارم الأخلاق . . وحكى أبو العباس عن

(١) وضمخنا بالخلوق : تعطرنا ، ووضعنا الروائح الطيبة على أجسامنا .

عمر الرازي قال : أقبلت من مكة أريد المدينة ، فجعلت أسير في جمد من الأرض فسمعت غناء لم أسمع مثله ، فقلت : والله لأتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود ، فقلت له : أعد علي ما سمعت ، فقال : والله لو كان عندي قرى أفريكه لفعلت ، ولكني أجعله قراك ، فإني والله ربما غنيت بهذا الصوت ، وأنا جائع فأشبع ، وربما غنيت وأنا كسلان فأنشط ، أو عطشان فأروى ، ثم اندفع يغنى ويقول :

وكننت إذا ما جئت سُعدى أزورها أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفريات البيض وذجليسها إذا ما انقضت أخذوة لو تُعيدها^(١)
قال عمر : فحفظته منه ثم تغنيت به على الحالات التي وصفها لى فإذا هى ، كما ذكر والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب والسبعون

فى ذكر العشق ، ومن بلى به ، والافتخار بالعضاف ،
وأخبار من مات بالعشق ، وما معنى ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى وصف العشق

قال الجاحظ : العشق اسم لما فضل عن المحبة ، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود . وقال أعرابي : العشق خفى أن يرى ، وجلى أن يخفى ، فهو كامن ككمون النار فى الحجر ، إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى . وقيل : أول العشق النظر ، وأول الحريق الشرر ، وقيل لأعرابي : ما بلغ من حبك لفلانة ؟ قال : إنى لأذكرها ، وبينى وبينها عقبة الطائف ، فأجد من ذكرها رائحة المسك . وقيل : رأى شبيب أخو بشينة جميلا عندها ، فوثب عليه وآذاه ، ثم إن شيباً أتى مكة وجميل فيها فقيل لجميل : دونك شيباً ، فخذ بشارك منه ، فقال :

وقالوا : يا جميل أتى أخوها فقلت : أتى الحبيب أخو الحبيب
وأشد الأخص الحداد يقول :

مطارق الشوق منها فى الحشى^(٢) أثر يطرقن سندان قلب حشوة الفكر
ونار كور الهوى فى الجسم موقدة ومبرذ الحب لا يُبقى ولا يذر
وفى « المجلس الأنيس » لأبى العالية الشامى قال : سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكنم عن العشق ما هو ؟ فقال : هو سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه ، وتؤثرها نفسه ، وقال ثمامة : العشق جليس مُمتع ، وأليف مؤنس ، وصاحب ملك مسالكه ضيقة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأعطى عنان طاعتها ، وقوة تصرفها ، توارى عن الأبصار مدخله ، وخفى فى القلوب مسلكه . وكان شيخ بخراسان ، له أدب وحسن معرفة بالأمور ، قال لسليمان بن عمرو ومن معه : أنتم أدباء ، وقد سمعتم الحكمة ، ولكم خداء ونغم ، فهل فيكم عاشق ؟ قالوا : لا ، قال : اعشقوا فإن العشق يُطلق اللسان ،

(١) الخفريات : الحيات .

(٢) الحشى : الخضر .

ويفتح جبلة البليد والبخيل ، ويبعث على التلطف ، وتحسين اللباس ، وتطيب المطعم ، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة ، وقال المجنون !

قالت : جننت على ذكرى فقلت لها : الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

قال ذو الرياستين : إن بهرام جور كان له ابن ، وكان قد رشحه للأمر من بعده ، فنشأ الفتى ناقص الهمة ، ساقط المروءة ، خامل النفس ، مسيء الأدب ، فغمه ذلك ، فوكل به المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه ، وكان يسألهم عنه ، فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه ، وقلة أدبه ، إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً فقال له المؤدب ، قد كنا نخاف سوء أدبه ، فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه ، قال : وما ذاك الذي حدث ؟ قال : رأى ابنة فلان المرزبان فعشقها ، فغلبت عليه فهو لا يهدأ إلا بها ، ولا يتشاغل إلا بها ، فقال بهرام : الآن رجوت فلاحه ، ثم دعا بأبى الجارية فقال له : إني مسر إليك سرّاً فلا يعدوك ، فضمن له ستره ، فأعلمه أن ابنة قد عشق ابنته ، وأنه يريد أن ينكحها إياه ، وأمره أن يأمرها بإطاعه في نفسها ومراسلته ، من غير أن يراها وتقع عينه عليها ، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره ، فإن استعلمها أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك ، ثم لتعلمني خبرها وخبره ، ولا تطلعهما على ما أسره إليك ، فقبل أبوها ذلك منه ، وقال للمؤدب الموكل بأدبه : حضه وشجعه على مراسلة المرأة ، ففعل ذلك ، وفعلت المرأة كما أمرها أبوها فلما انتهت إلى التجنى عليه ، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب ، وطلب الحكمة ، والعلم ، والفروسية والرماية ، وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك ، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب ، والآلات ، والمطاعم والملابس ، والندماء ، وما أشبه ذلك فسر الملك بذلك ، وأمر له بما طلب ، ثم دعا مؤدبه فقال له : إن الموضع الذي وضع به ابني نفسه من خبر هذه المرأة لا يدري به ، فتقدم إليه ومُرّه أن يرفع أمرها إلّئ ، ويسألني أن أزوجه إياها ، ففعل المؤدب ذلك ، فرفع الفتى ذلك لأبيه ، فدعا بأبيها وزوجه إياها ، وأمر بتعجيلها إليه ، وقال له : إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك فلما اجتمعا صار إليه فقال : يا بني لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك ، وليست في خباثك ، فإني أمرتها بذلك ، وهي أعظم الناس منة عليك بما دعيتك إليه ، من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك ، حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدى ، فزدها من الشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك ، ففعل الفتى وعاش مسروراً بالجارية ، وعاش أبوه مسروراً به ، وأحسن ثواب أبيها ، ورفع منزلته لصيانة سره ، وأحسن جائزة المؤدب لامثال ما أمره به ! وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية فزارته يوماً ، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق ، فحان وقت الظهر ، فناده إنسان : الصلاة يا أبا الحسن ! فقال : رويدك حتى تزول الشمس ! أي حتى تقوم الجارية . وقالت ليلي العامرية في قيسها :

لم يكن المجنون في حالة إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى وإننى قد دُبت كتماننا
وقال أحمد بن عثمان الكاتب :

وإنى ليرضيني الممر ببابها وأقنع منها بالشتيمة والزجر !
وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل :
أيها العاشق المعذب صبرا فخطايا أخى الهوى مغفوره
زفرة في الهوى أحط لذنب من غزاة وحجة مبروره

وقال عمر بن أبي ربيعة : كنت بين امرأتين : هذه تساررنى ^(١) ، وهذه تعضنى ، فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه ! وأنشد شيبان العذرى يقول :

لو حُزَّ بالسيف رأسى فى محبتها لطار يَهْوَى سريعا نحوها راسى
وقال يحيى بن معاذ الرازى : لو أمرنى الله أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً ! .

الفصل الثانى : من هذا الباب فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف

روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من عشق فعف فمات فهو شهيد » ^(٢) . وقال ﷺ : « عفوا تعف نساؤكم » ^(٣) . وقال بعضهم : رأيت امرأة مستقبلة البيت فى غاية الضعف والنحافة رافعة يديها تدعو ، فقلت لها : هل من حاجة ؟ فقالت : حاجتى أن تنادى فى الموقف بقولى :

تزود كل الناس زاداً يقيهم وما لى زادٌ والسلام على نفسى !
فناديت كما أمرتنى ، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إلى ، فقال : أنا الزاد ، فمضيت به إليها فما زاد على النظر والبكاء ، ثم قالت له : انصرف بسلام ، فقلت : ما علمت أن لقاء كما يقتصر على هذا ! فقالت أمسك يا هذا ، أما علمت أن ركوب العار ، ودخول النار شديد ؟! قال إبراهيم بن محمد المهلبى :

كما قد ظفرت بمن أهوى فيمنعنى منه الحياء وخوف الله والحدز
وكم خلوت بمن أهوى فيقنعنى منه الفكاهة والتأنيس والنظر
أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم وليس لى فى حرام منهم وطر
كذلك الحب لا إتيان معصية لا خير فى لذة من بعدها سقر
وقال بعض بنى كلب :

إن أكن طامح اللحاظ فإننى والذي يملك الفؤاد عفيف
ونحو ذلك قول القائل :

فقالت : بحق الله إلا أتيتنا إذا كان لون الليل شبه الطيالس ^(٤)
فجئت وما فى القوم يقظان غيرها وقد نام عنها كل واش وحارس
فبتنا بليل طيب نستلذه جميعاً ولم أقلب لها كف لأمس

ونزل رجل على صديق له مستتراً خائفاً من عدو له ، فأنزله فى منزله وتركه فيه ، وسافر لبعض حوائجه ، وقال لامراته أوصيك بضيفى هذا خيراً ، فلما عاد بعد شهر ، قال لها : كيف ضيفنا ؟ قالت : ما أشغله بالعمى عن كل شىء ، وكان الضيف قد أطبق عينيه ، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه ، ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره ! وكان عمر بن أبى ربيعة عفيفاً ، يصف ويعف ويحوم ولا يرد . ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها : يا بثينة ، ما أرى فيك شيئاً مما كان يقوله جميل ! فقالت : يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلى بعينين ليستا فى رأسك ! قال : فكيف رأيته فى عشقه ! قالت : كان كما قال الشاعر :

(١) أي تناجبني .

(٢) « من عشق ... » . إلخ قال ابن القيم فى المنار : موضوع على رسول الله ﷺ . وقد توسع المؤلف فى بيان بطلان هذا الحديث أيما توسع فى كنه : « زاد المعاد » . [٣٢٤ : ٣٢٦] ، و « روضة المحبين » ص ١٨٠ - ١٨٢ ، والجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى [ص ٣٥٣ - ٣٥٤] .

(٣) « عفوا تعف نساؤكم » ... إلخ ذكره العجلونى فى الكشف برقم [١٧٣٨/٢] وقال : رواه الطبرانى عن جابر والديلمى من على مرفوعا .

(٤) الطيالس : جمع الطيلسان ، وهو العجمي .

لا والذي تسجد الجبابة له مالي بما تحت ذيلها خبر
ولا بففيها ولا هممت بها ما كان إلا الحديث والنظر

وقد قدمت هذين البيتين في الجزء الأول فيما جاء في الكتابة على سبيل الرمز . وعن أبي سهل الساعدي قال : دخلت على جميل وبوجهه آثار الموت فقال لي : يا أبا سهل ، إن رجلاً يلقي الله ، ولم يسفك دماً ، ولم يشرب خمراً ، ولم يأت فاحشة ، أفترجو له الجنة ؟ قلت : إي والله ، فمن هو ؟ قال : إني لأرجو أن أكون ذلك ، فذكرت له بئنة ، فقال : إني لفي آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة ، لآلتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي بريئة قط ! . وعن عبد الله بن عبد المطلب أبي النبي ﷺ أنه دعت به إلى نفسها ، وبذلت له مالا ، وكانت تتكهن ، وتسمع بإتيان النبي ﷺ وكانت جميلة فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبي ﷺ منها للنور الذي رآته بين عينيه ، فأبى وقال :

أما الحرام فالحمام^(١) دونه والجل لا نابى ونستديئه
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

وقال آخر :

وأحور مخضوب البنان محجب دعاني فلم أعرف إلى ما دعا وجهها
بخلت بنفسى عن مقام يشينها ولست مريدا ذاك طوعاً ولا كرها

ورأود شاب ليلي الأخيلية عن نفسها فاشمأزت وقالت :

وذى حاجة قلناله لا تبح بها فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب و خليل

وقال ابن ميادة :

موانع لا يعطين حبة خردل وهن دوان^(٢) فى الحديث أوانس
ويكرهن أن يسمعن فى اللهوريبة كما كرهن صوت اللجام الشوامس

وقال آخر :

حور حرائر ما هممن بريبة كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواسقا ويصدهن عن الخنى^(٣) الإسلام

وكان الأصمعى يستحسن بيتي العباس بن الأخنف :

أتأذنون لصب فى زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يظهرو الشوق إن طال الجلوس به عف الضمير ولكن فاسق النظر !

واختفى إبراهيم بن المهدي فى هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر ، فوكلت بخدمته جارية لها اسمها « ملك » وكانت واحدة زمانها فى الحسن والأدب ، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم ، فهويها إبراهيم ، وكره أن يراودها عن نفسها فغنى يوماً وهى قائمة على رأسه :

يا غزالا لى إليه شافع من مقلتيه
أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليه !

(١) الحمام : قضاء الموت وقدره .

(٢) دوان : اللذن : الخسيس الحقيق .

(٣) الخنى : الفحش فى الكلام .

ففهمت الجارية ما أراد ، فحكّت ذلك لمولاتها ، فقالت : اذهبي إليّ فأعلميه أنّي قد وهبتك له ، فعادت إليّ ، فلما رآها أعاد البيتين ، فأكبت عليه ، فقال لها : كفى فلست بخائن ، فقالت : قد وهبتي لك مولاتي ، وأنا الرسول ، فقال : أما الآن فنعم ، وأنشد المبرد :

ما إن دعاني الهوى لفاحشة إلا نهاني الحياء ، والكرم
فلا إلى فاحش مددت يدي ولا مشيت بي لزلّة قدم
وقال آخر :

يقولون : لا تنظر فذاك بليّة بلى كل ذي عينين لا بد ناظر
وهل باكتحال العين بالعين ريبّة إذا عف فيما بينهن السرائر

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه ، أن لا ينشد شعرا ، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة ، قال : فينما هو في الطواف يوما ، إذ نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه ، فقال له : يا هذا اتق الله ، أفى مثل هذا المكان ؟ فقال : يا أمير المؤمنين والله ما ذاك الخنى ، ولكنها ابنة عمي ، وأعرّ الناس على ، وإن أباه منعني من تزوّجها لفقرى وفاقتي ، وطلب مني مائة ناقة ، ومائة أوقية من الذهب ، ولم أقدر على ذلك ! قال : فطلب الخليفة أباه ، ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه ، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها ، ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم ببيت من الشعر ، فقالت له جارية من حظاياه أراك اليوم يا مولاي تنشد الشعر ! أفنسيّت ما نذرت ، أم نراك قد هويت ؟ ! فأنشد هذه الأبيات يقول :

تقول وليدتي لما رأتنى طربت وكنت قد أسليت حيناً
أراك اليوم قد أحدثت عهداً وأورثك الهوى داءً دفيناً
بحقك هل سمعت لها حديثاً فشاقك أو رأيت لها جبيناً ؟
فقلت : شكاً إلى أخ محب كم مثل زماننا إذ تعلمينا
وذو الشجوة القديم وإن تمرّى محب حين يلقي العاشقين

ثم عد الأبيات فإذا هي خمسة أبيات ، فأعتق خمس رقاب ، ثم قال : لله درك من خمسة أعتقت خمسا ، وجمعت بين رأسين في الحلال . وروى عن عثمان الضحاك قال : خرجت أريد الحج ، فنزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة ، فأعجبني حسنها ، فتمثلت بقول نصيب :

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقل : لا تملينا فما ملك القلب

فقلت : يا هذا ، تعرف قائل هذا البيت ؟ قلت : بلى هو نصيب ، فقالت : أتعرف زينبه ؟ قلت : لا . قالت : أنا زينبه ، قلت : حياك الله وحباك ، قالت : أما والله إن اليوم موعده وعدني العام الأوّل بالاجتماع في هذا اليوم ، فلعلك أن لا تبرح حتى تراه ، قال : فينما هي تكلمني إذ أنا براكب ، قالت : ترى ذلك الراكب ؟ قلت : نعم . قالت : إني لأحسبه إياه فأقبل ، فإذا هو نصيب ، فنزل قريبا من الخيمة ، ثم أقبل فسلم ، ثم جلس قريبا منها ، فسألته أن ينشد لها ، فأنشدها ، فقلت في نفسي : محبان قد طال التناهي^(١) بينهما ، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ، فقممت إلى بعير لأشد عليه ، فقال : على رسلك إنني معك ، فجلست حتى نهض معي ، فسرنا ، وتسامرنا ، فقال لي : أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ؟ قلت : نعم . قد كان ذلك ، قال : ورب هذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا ، فتعجبت لذلك ، وقلت : والله هذه هي العفة في المحبة ! وعن محمد بن يحيى المدني قال : سمعت بعض المدنيين يقول : كان الرجل

إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حَوْلًا ، يفرح أن يرى من يراها ، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار ، واليوم هو يشير إليها وتشير إليه ، وَيَعْدُهَا وتعهده ، فإن التقيا لم يتشاكيا حبا ، ولم يتناشدا شعرا ، بل يقوم إليها ويجلس بين شعبتيها ، كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة !

وقيل لرجل : وقد زفت عشيقته على ابن عم لها أيسرك أن تظفر بها الليلة قال : نعم . والذي أمتعني بحبها ، وأشقاني بطلبها . قيل : فما كنت صانعا بها ؟ قال : كنت أطيع الحب في لثمها ^(١) ، وأعصى الشيطان في إثمها ، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره ، وينشر قبيح أخباره ، إني إذن للثيم ، لم يلدني كريم . ومرو سيدنا عمر ^(٢) ليلة في بعض سكك المدينة فسمع امرأة تقول :

ألا طال هذا الليل وأزور ^(٣) جانبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه
مخافة ربى والحياء يعفنى
وليس إلى جنبى خليل ألاعبه
لحرك من هذا السرير جوانبه
وإكرام بعلى أن تنال مراتبه

قال : فسأل عمر ^(٤) عنها فقيل له : إنها امرأة فلان ، وله في الغزاة ثمانية أشهر ، فأمر عمر ^(٥) أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر . ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب « تلقيح فهوم الأثر » عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمى عن أبيه عن جده قال : بينما عمر بن الخطاب ^(٦) يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها
إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل
نميه أعراق صدق حين ننسبه
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج
سهل المحيا كريم غير ملجأ
أخى وفاء عن المكروب فراج

فقال عمر ^(٧) لا أرى معى بالمدينة رجلا تهتف به العواتق في خدورهن ، على بنصر بن حجاج ، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج ، فإذا هو من أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم شعرا ، فقال عمر : عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك ، فأخذ من شعره ، فخرج من عنده وله وجتان كأنهما شقتا قمر ، فقال له : اعتم فاعتم فافتن الناس بعينه ، فقال له عمر : والله لا تساكنتي في بلدة أنا فيها ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ذنبى ؟ قال : هو ما أقول لك ، ثم سيره إلى البصرة ، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يدر من عمر إليها شيء فدست إليه المرأة ألياً وهي :

قل للإمام الذى تُخشى بوادره
لا تجعل الظن حقاً أن تبينه
إن الهوى زَمَّ بالتقوى فتحبسه
مالي وللخمر أو نصر بن حجاج
إن السبيل سبيل الخائف الراجي
حتى يقر بالجم وإسراج

قال فبكى عمر ^(٨) وقال : الحمد لله الذى زَمَّ الهوى بالتقوى ، قال : وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة ، فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرضة لعمر ، فإذا هو قد خرج في إزار ورداء ويده الدرة ، فقالت له : يا أمير المؤمنين ، والله لأقفن أنا وأنت بين يدي الله تعالى ، وليحاسبنك الله ، أيبئت عبد الله وعاصم إلى جنبيك ؟ وبينى وبين ابني الفياثى والأودية ؟ فقال لها : إن ابني لم تهتف بهما العواتق في خدورهن ^(٩) ، ثم أرسل عمر إلى البصرة بريدأ إلى عتبة بن غزوان ، فأقام أياماً ثم نادى عتبة ، من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فإن البريد خارج ، فكتب نصر بن حجاج : بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليك يا أمير المؤمنين أما بعد فاسمع مني هذه الأبيات :

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني
وما نلت من عرضي عليك حرام

(١) لَثَمَ فَمِ الْمَرْأَةِ لَثْمًا: قَبَّلَهُ.

(٢) أَزْوَرُ: مَالَ وَانْحَرَفَ.

(٣) الْعَوَاتِق: الْكَرَائِم.

فأصبحت منفياً على غير ريبة
لئن غنت الذلفاء^(١) يوماً بمنية
ظننت بي الظن الذي ليس بعده
فيمنعني ما تقول تكرمي
ويمنعها مما تقول صلاتها
فهاتان حالنا فهل أنت راجعي

قال : فلما قرأ عمر هذه الأبيات قال : أما ولي السلطان فلا ، وأقطعه داراً بالبصرة في سوقها ، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثالث : من هذا الباب في ذكر من مات بالحب والعشق

حدث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال : حدثني أبي قال : كانت بالمدينة قتيبة من أحسن الناس وجهاً ، وأكملهم عقلاً ، وأكثرهم أدباً ، قد قرأت القرآن ، وروت الأشعار ، وتعلمت العربية ، فوعدت عند يزيد بن عبد الملك ، فأخذت بمجامع قلبه ، فقال لها ذات يوم : ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه ، وأسدي إليه معروفاً ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، أما قرابة فلا ، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاي ، وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه ، فكتب إلى عامله بالمدينة في إحضارهم إليه ، وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم في الدخول عليه ، فأذن لهم ، وأكرمهم غاية الإكرام ، وسألهم عن حوائجهم ، فأما اثنان منهم فذكر حوائجهم فقضاهما ، وأما الثالث فسأله عن حاجته ، فقال : يا أمير المؤمنين مالي حاجة ، قال : ويحك أولست أقدر على حوائجك ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن حاجتي ما أظنك تقضيها فقال : ويحك فاسألني فإنك لا تسألني حاجة أقدر عليها إلا قضيتها قال : فلى الأمان يا أمير المؤمنين ، قال : نعم . قال : إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة التي أكرمتنا بسببها أن تغني ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال ، فافعل . قال : فتغير وجه يزيد ، ثم قام من مجلسه ، فدخل على الجارية ، فأعلمها فقالت : وما عليك يا أمير المؤمنين ، فأمر بالفتى فأحضر ، وأمر بثلاثة كراسي من ذهب ، فنصبت ، ففعد يزيد على أحدها ، والجارية على الآخر ، والفتى على الثالث ، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب ، فوضعت ثم أمر بثلاثة أرطال ، فملئت ثم قال للفتى ، سل حاجتك فقال : تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر :

لا أستطيع سُلُوًا عن مودتها
أدعو إلى هجرها قلبي فيسعدني

فأمرها فغنت ، وشرب يزيد ، وشرب الفتى ، وشربت الجارية ، ثم أمر بالأرطال فملئت ، وقال للفتى : سل حاجتك فقال : يا أمير المؤمنين مرها أن تغني بهذا الشعر :

تخيرت من نعمان عود أراكة
ألا عرجا بي - بارك الله فيكما

فأمرها ، فغنت وشرب يزيد وشرب الفتى ، وشربت الجارية ، ثم أمر بالأرطال فملئت ، ثم قال للفتى : سل حاجتك ، قال : تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر :

منى الوصال ومنكم الهجر
والله لا أسلوكمو أبدا

حتى يُفَرَّق بيننا الدهر
ما لاح بدر أو بدا فجر

(١) الذلفاء : ذلف ، أي صغر ودق ، وغلظ ، فهو أذلف وهي ذلفاء ، والجمع ذلف .

فأمرها فغنت ، قال : فلم تتم الآيات حتى خر الفتى مغشياً عليه ، فقال يزيد للجارية : قومي انظري ما حاله ، فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت فقال لها يزيد : ابكيه ، فقالت : لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حي ، فقال لها : ابكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك ، فبكت الجارية وبكى أمير المؤمنين ، وأمر بالفتى فجهز ودفن وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل ، وماتت ! وحكى عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عليه السلام أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره ، فتذاكر الغناء والجواري المغنيات ، والعشق ، فقال عبد الملك لعبد الله : حدثني بأمر ما مر لك في هذه الأغاني ، وما رأيت من الجواري ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اشتريت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم ، وكانت حاذقة مطبوعة ، فوصفت ليزيد بن معاوية ، فكتب إلى في شأنها ، فكتبت إليه : والله لا تخرج مني بيع ، ولا هبة فأمسك عني ، فكانت عندي على تلك الحالة لا أزداد فيها إلا حبا ، فبينما أنا ذات ليلة إذ أتتني عجوز من عجائزنا فذكرت لي أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه ، ويرأها وتراه ، وأنه يجيء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب ، فيسمع غناها ، ويبكى شغفا وحباً فراعيت ذلك الوقت الذي قالت عليه العجوز ، فإذا به قد أقبل مقنعا رأسه ، وقد مستخفياً فلم أدع بها في تلك الليلة ، وجعلت أتأمل موضعها ، وموضعه ، فإذا بها تكلمه ويكلمها ، ولم أر بينهما إلا عتبا ، ولم يزا إلا كذلك حتى ابيض الصبح ، فدعوت بها ، وقلت لقيمة الجواري ، أصلحي فلانة بما يمكنك ، فأصلحتها وزيتها ، فلما جاءت بها قبضت على يديها ، وفتحت الباب ، وخرجت فبحثت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً فقلت لا بأس عليك ، ولا خوف ، هي هبة مني إليك ، فدهش الفتى ولم يجبن ، فدنوت إلى أذنه ، وقلت قد أظفرك الله تعالى بغيثك . فقم وانصرف بها إلى منزلك ، فلم يرد جواباً فحركته ، فإذا هو ميت ، فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره قال عبد الملك : لقد حدثتني بعجب ، فما صنعت الجارية ؟ قلت ماتت والله بعده بأيام بعد نحول عظيم ، وتعليل وماتت كمدأ ووجداً على الغلام . وذكر محمد بن واسع الهيثي أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد : إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته ، فسير لي ثلاث جوار مولدات أكاراً يكون إليهن المنتهى في الجمال ، واكتب لي بصفة كل جارية منهن ، ومبلغ ثمنها من المال ، فلما ورد الكتاب على الحجاج ، دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين ، وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض ، وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كل الجهات فساروا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين ، فلم يزلوا من بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ، ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ، ليس لهن مثل . قال : وكان الحجاج فصيحاً ، فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن ، ومبلغ ثمنها فوجدهن لا يقام لهن بقيمة ، وإن ثمنهن ثمن واحدة منهن ، ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه : بعد الثناء الجميل وصلني كتاب أمير المؤمنين ، أمتعني الله تعالى ببقائه ، يذكر فيه أني اشتري له ثلاث جوار مولدات أكاراً وأن أكتب له صفة كل واحدة منهن وثنمها ، فأما الجارية الأولى - أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين - فإنها جارية عطاء السوالم ، عظيمة الروادف كحلأ العينين ، حمراء الوجنتين ، قد انهدت نهذاها ، والتفت فخذاها ، كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل :

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعي^(١) كأنها فضة قد شابها ذهب

وثنمها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم ، وأما الثانية فإنها جارية فائقة الجمال ، معتدلة القد والكمال ، تشفى السقيم بكلامها الرخيم ، وثنمها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم . وأما الثالثة فإنها جارية فاترة الطرف ، لطيفة الكف ، عيمة الردف ، شاكرا للقليل ، مساعدة للخليل ، بديعة الجمال ، كأنها خشف الغزال ، وثنمها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ، ثم أطلب في الشكر والثناء على أمير المؤمنين ، وطوى الكتاب ، وختمه ، ودعا النخاسين فقال لهم : تجهزوا للسفر بهؤلاء الجواري إلى أمير المؤمنين ، فقال أحد النخاسين : أيد الله الأمير إني رجل كبير ضعيف عن السفر ، ولي ولد ينوب عني أفأذن لي في ذلك ؟ قال : نعم ، فتجهزوا وخرجوا ففى بعض مسيرهم

(١) دعت العين : اشتد سوادها وبياضها واتسعت ، ودعت المرأة فهي دُعْجاء .

نزلوا يوماً ليستريحوا في بعض الأماكن ، فنامت الجوارى ، فهبت الريح فانكشف بطن إحدها وهي الكوفية فبان نور ساطع ، وكان اسمها مكتوم ، فنظر إليها ابن النخاس ، وكان شاباً جميلاً ففتن بها لساعته ، فأناها على غفلة من أصحابه وجعل يقول :

أمكتوم عيني لا تمل من البكا وقلبي بأسهام الأسى يترشق
أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى وقلبي رهين كيف لا أتعشق !
فأجابته تقول :

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا ليلاً إذا هجعت عيون الحسد

قال فلما جن الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه ، وأتى نحو الجارية ، فوجدها قائمة تنتظر قدومه ، فأخذها ، وأراد أن يهرب ففطن به أصحابه ، فأخذوه وكتفوه وأوثقوه بالحديد ، ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان ، فلما مثلوا بالجوارى بين يديه ، أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجوارى ، ولم توافق الثالثة ورأى في وجهها صفرة وهي الجارية الكوفية ، فقال للنخاسين ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التي ذكرها الحجاج في كتابه ؟ وما هذا الاصفرار الذي بها والانتحال ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين ، نقول ولنا الأمان ؟ قال : إن صدقتم أمتم ، وإن كذبتهم هلكتم ، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى ، وهو مصفد بالحديد ، فلما قدموه بين أيدي أمير المؤمنين بكى بكاء شديداً ، وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول :

أمير المؤمنين أتيت رغماً وقد شدت إلى عنقي يديا
مقرراً بالقبيح وسوء فعلى ولست بما رميت ، به برىا
فإن تقتل ففوق القتل ذنبى وإن تعفو فمن جود عليا

فقال عبد الملك : يا فتى ما حملك على ما صنعت ، أستخفاف بنا ، أم هوى الجارية ؟ قال : وحق رأسك يا أمير المؤمنين ، وعظم قدرك ما هو إلا هوى الجارية . فقال : هي لك بما أعددت لها ، فأخذها الغلام بكل ما أعد لها أمير المؤمنين من الحلوى والحلل ، وسار بها فرحاً مسروراً إلى نحو أهلها حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلاً فتعانقا وناما ، فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نبهوهما ، فوجدوهما ميتين ، فبكوا عليهما ، ودفنوهما بالطريق ، ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما ، وتعجب من ذلك !

ومن ذلك ما روى عن النبي ﷺ أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومي ﷺ إلى مشركى خزاعة قال خالد : فأخرجني إليهم رسول الله ﷺ في عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس . قال : فجد بنا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر ، فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديداً ، حتى تعالى النهار ، وطار الشرار ، وهاجت الفرسان ، وتلاحمت الأفران ، فلولا أن الله تعالى أيدنا بنصره ، لكادت الدائرة أن تكون علينا ، ولكن تداركنا الله برحمته منه ، فهزمناهم ، وقتلناهم قتلاً ذريعاً ، ولم ندع لهم فارساً إلا قتلناه ، ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسبينا ، فلما هدأ القتال والنهب ، أمرت أصحابي بجمع السبايا لنقدم بهن على النبي ﷺ ، فلما خرجنا وأحصيناهم ، خرج منهم غلام لم يراهق الحلم ، ولم يجز عليه القلم ، وهو فاسك بشابة جميلة ، فقلنا له : يا غلام ، انعزل عن النساء ، فصاح صيحة مزعجة ، وهجم علينا ، فوالله لقد قتل منا في بقية نهارنا مائة رجل ، قال خالد : فرأيت أصحابي قد كرهوا قتاله ، وتأخروا عنه ، فملك منهم جواداً ، وعلا على ظهره ، ونادى البراز يا خالد ، قال : فبرزت إليه بنفسى بعد أن أنشدت شعراً : فوالله لم يمهلني ، حتى أيتم شعري ، بل حمل على ، فتطاعنا حتى تكسرت القنا ، وتضاربنا بالسيوف حتى تفللت ، فوالله لقد اقتحمت الأهوال ، ومارست الأبطال فما رأيت أشد من حملاته ! ولا أسرع من هجماته ! فبينما نحن نعتك إذ كبا به فرسه فصار بين قوائمه ، فوثبت عليه وعلوت على صدره ، وقلت له : أفد نفسك بقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأنا أردك من حيث جئت ! قال : يا خالد ما أنصفتني ! أتركني حتى أجد من نفسى القوة ، قال خالد : فتركته ، وقلت : لعله أن يسلم ثم شدته وثاقاً ، وصفدته بالحديد ، وأنا أبكى إشفاقاً على حسن شبابه ، ثم أوثقته على بعير لى

فلما علم أن لا خلاص له قال : يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمي على ناقة أخرى إلى جانبي ، قال خالد : فأخذتها وشددتها على ناقة أخرى إلى جانبه ، ووكلت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح ، وسرنا فلما استقامت مطاياهما جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار ، ويبيكان إلى آخر الليل ، فسمعتة يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذكر أن لا يسلم أبداً فأخذت السيف وضربت فرميت رأسه ، فصاحت الجارية ، وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة ، فأبركنا الأباعر ، وحفرنا ودفناها ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحدثه بعجيب ما رأينا مع الغلام ، فقال : لا تحدثوني شيئاً أنا أحدثكم به ، فقلنا من أعلمك به يا رسول الله ؟ قال : أخبرني جبريل عليه السلام ، وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهما ، وموافقة أجلهما ^(١) ! . ومن ذلك : ما حكاه الثوري قال : حدثني جبلة بن الأسود - وما رأيت شيئاً أصبح ولا أضح منه - قال : خرجت في طلب إبل لي ضلت ، فما زلت في طلبها إلى أن أظلم الظلام ، وخفيت الطريق ، فصرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدها ، فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً ، وبكاء شديداً فشجاني ، حتى كدت أسقط عن فرسي ، فقلت : لأطلبن الصوت ، ولو تلفت نفسي ، فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً فإذا راع قد ضم غنماً له إلى شجرة ، وهو ينشد ويترنم :

وكننت إذا ما جئت سعادى أزورها أرى الأرض تطوى لى ويدنو بعيدها
من الخففات البيض وذجليسها إذا ما انقضت أحداثه لو تعيدها

قال : فدنوت منه ، وسلمت عليه ، فرد على السلام وقال : من الرجل ؟ فقلت : منقطع به المسالك ، أذاك يستجير بك ، ويستعينك قال : مرحباً وأهلاً أنزل على الرحب والسعة ، فعندى وطاء وطيء ، وطعام غير بطيء ، فترلت فتزع شملته وبسطها تحتي ، ثم أتاني بتمر وزبد ولبن وخبز ، ثم قال : اعذرني في هذا الوقت ، فقلت : والله إن هذا لخير كثير ، فمال إلى فرسي فربطه وسقاه وعلفه ، فلما أكلت ، توضأت وصليت واتكأت ، فإني لبين النائم ، واليقظان إذ سمعت حس شيء وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادي ، فضحت الشمس حسنا ، فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها ، وجعل يتحادثان فقلت : هذا وجل عربي ، ولعلها حرمة له ، فتناومت وما بي نوم ، فما زالا في أحسن حديث ولذة مع شكوى وزفرات ، إلا أنهما لا يهم أحدهما لصاحبه بقيق ، فلما طلع الفجر عانقها ، وتنفسا الصعداء ، وبكى وبكت ، ثم قال لها : يابنة العم ، سألتك بالله لا تبطئي عني ، كما أبطأت الليلة ، قالت : يابن العم أما علمت أني أنتظر الواشين والرقباء حتى يناموا ، ثم ودعته ، وسارت وكل واحد منهما يلتفت نحو الآخر ويكي ، فبكيت رحمة لهما ، وقلت في نفسي : والله لا أنصرف حتى أستضيفه الليلة ، وأنظر ما يكون من أمرهما ، فلما أصبحنا قلت له : جعلني الله فداءك « الأعمال بخواتيمها » ^(٢) وقد نالني أمس تعب شديد ، فأحب الراحة عندك اليوم ، فقال : على الرحب والسعة ، لو أقمت عندى بقية عمرك ما وجدتنى إلا كما تحب ، ثم عمد إلى شاة فذبحها ، وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلي ، فأكلت وأكل معي ، إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل ، فلم أزل معه نهاري ذلك ، ولم أر أشفق منه على غنمه ، ولا ألين جانباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان ، ولم أعلمه بشيء مما رأيت ، فلما أقبل الليل ، وطأت وطائي فصليت ، وأعلمته أني أريد الهجوع لما مربى من التعب بالأمس ، فقال لي : نم هنيئاً فأظهرت النوم ولم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل ، فأبطأت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً وزاد عليه الأمر ، فبكي ، ثم جاء نحوي فحركني ، فأوهمته أني كنت نائماً ، فقال : يا أخي هل رأيت الجارية التي كانت تعهدني وجاءتني البارحة ؟ قلت : قد رأيته . قال : فتلك ابنة عمي ، وأعز الناس علي ، وإني لها محب ، ولها عاشق ، وهي أيضاً محبة لي أكثر من محبتي لها ، وقد منعني أبوها من تزويجها لي لفقرى وفاقتي ، وتكبر علي ، فصرت راعياً بسببها ، فكانت تزورني في كل ليلة وقد حان وقتها الذي تأتى فيه ، واشتغل قلبي عليها ، وتحدثني نفسي أن الأسد قد افترسها ثم أنشأ يقول :

(١) قصة خالد بن الوليد حين خرج إلى مشركي خزاعة وما حدث للجارية والغلام وإخبار جبريل النبي بما حدث . . إلخ لم أهدأ إليها .

(٢) أخرجه الطبراني عن علي في حديث ، ورواه أحمد وابن منيع وأبو يعلى في مسانيدهم والترمذي وصححه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أنس مرفوعاً .

ما بال مية لا تأتى كعادتها أعاقها طرب أم صدها شغل
نفسى فداؤك قد أحللت بى سقما تكاد من حره الأعضاء تنفصل

قال : ثم انطلق فغاب عنى ساعة ، وأتى بشيء فطرحة بين يدى ، فإذا هى الجارية قد قتلها الأسد وأكل أعضائها وشوه خلقتها ثم أخذ السيف فأبطأ هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطرحة ثم أنشأ يقول :

ألا أيها الليث المدل بنفسه هلكت لقد جريت حقالك الشرا
وخلفتنى فرداً وقد كنت آنسا وقد عادت الأيام من بعدها غبرا

ثم قال بالله يا أخى إلا ما قبلت ما أقول لك ، فإننى أعلم أن المنيّة قد حضرت لا محالة ، فإذا أنا مت فخذ عيائى هذه فكفنى فيها ، وضم هذا الجسد الذى بقى منها معى ، وادفنا فى قبر واحد ، وخذ شويهاى هذه ، وجعل يشير إليها فسوف تأتىك امرأة عجوز هى والدتى فأعطاها عصاى هذه وثيابى وشويهاى ، وقل لها : مات ولدك كمدأ بالحب ، فإنها تموت عند ذلك ، فادفنها إلى جانب قبرنا ، وعلى الدنيا منى السلام ، قال : فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح صيحة ، ووضع يده على صدره ، ومات لساعته ، فقلت : والله لأصنعن له ما أوصانى به فغسلته ، وكففته فى عيائه ، وصليت عليه ، ودفنته ، ودفنت باقى جسدها ، إلى جانبه وبنت تلك الليلة باكياً حزينا ، فلما كان الصباح ، أقبلت امرأة عجوز ، وهى كالولہانة ، فقالت لى : هل رأيت شاباً يرعى غنماً ؟ فقلت لها : نعم ، وجعلت ألتطف بها ثم حدثتها بحديثه ، وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي ، وأنا ألأطفها إلى أن أقبل الليل ، وما زالت تبكى بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هى مكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك ، فحركتها فإذا هى ميتة فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبنت الليلة الرابعة ، فلما كان الفجر قمت فشدت فرسى ، وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول :

كنا على ظهرها والدَّهرُ يجمعُنا والشملُ مجتمعٌ والدارُ والوطنُ
فمزق الدهرُ بالتفريقِ ألفتنا وصار يجمعنا فى بطنها الكفنُ

قال : فأخذت الغنم ، ومضيت إلى الحى لبنى عمهم ، فأعطيتهم الغنم ، وذكرت لهم القصة ، فبكى عليهم أهل الحى بكاء شديداً ، ثم مضيت إلى أهلى ، وأنا متعجب مما رأيت فى طريقى . ومن ذلك ما حكى أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كثير الخبر ، فقال : والله لأحجن لعلى أفوز من عزة بنظرة ، قال فبينما الناس فى الطواف إذ نظر كثير لعزة ، وقد مضت إلى جملة فحيته ، ومسحت بين عينيه ، وقالت له : حييت يا جمل ، فبادر ليلحقها ففاتته ، فوقف على الجمل ، وقال :

حيّتك عزة بعد الحج وانصرفت فحى ويحك من حيّاك يا جمل
لو كنت حييتها ما كنت ذا سرف عندى ولا مسك الإدلاج والعمل

قال : فسمعه الفرزدق فتبسّم : وقال له : من تكون يرحمك الله ؟ قال : أنا كثير عزة ، فمن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا الفرزدق بن غالب التميمى ، قال : أنت القاتل :

رحلت جمألهم بكل أسيلة تركت فؤادى هائماً مخبولا
لو كنت أملكهم إذا لم يرحلوا حتى أودع قلبى المئبولا^(١)
ساروا بقلبى فى الحدوج وغادروا جسمى يُعالج زفرةً وعويلا

فقال الفرزدق : نعم . فقال كثير : والله لولا أنى بالبيت الحرام لأصيحن صيحة أفزع هشام بن عبد الملك ، وهو على سرير ملكه ، فقال الفرزدق : والله لأعرفن بذلك هشاماً ، ثم توادعا وافترقا ، فلما وصل الفرزدق إلى دمشق ، دخل إلى هشام بن عبد الملك ، فعرفه بما اتفق له مع كثير ، فقال له : اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها

(١) المئبول : ثبله الحب ، أى أسقمه وذهب بعقله ، فهو مئبول .

ونزوجه إياها ، فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق ، فلما خرج من حيه ، وسار قليلاً رأى غراباً على بانه^(١) ، وهو يفلّ نفسه وريشه يتساقط ، فاصفر لونه ، وارتاع من ذلك ، وجدّ في السير ، ثم إنه مال ليسقى راحلته من حى بنى فهد ، وهم زجرة الطير فبصر به شيخ من الحى ، فقال : يابن أخى أرايت فى طريقك شيئاً فراعك ؟! قال : نعم ياعم ، رأيت غراباً على بانه يتفلى ، ويتف ريشه ، فقال له الشيخ : أما الغراب فإنه اغتراب ، والبانه بين ، والتفلى فرقة فازداد كثير حزناً على حزنه ، لما سمع من الشيخ هذا الكلام ، وجد فى السير إلى أن وصل إلى دمشق ، ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على جنازة فتزل وصى معهم ، فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كثير عن هذا اليوم ! فقال : ما هذا اليوم يا سيدى ؟! فقال : إن هذه عزة قد ماتت ، وهذه جنازتها ، فخر مغشياً عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

فما أعرف الفهدى لا دَرَّ درّه وأزجره للطير لا عزّ ناصره
رأيت غراباً قد علا فوق بانه ينتف أعلى ريشه ويطايـره
فقال : غراب اغتراب من النوى وبانه بين من حبيب تعاشره

ثم شق شهقة فارقت روحه الدنيا ، ومات من ساعته ، ودفن مع عزة فى يوم واحد .

وحكى : الأصمعى قال : بينما أنا أسير فى البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت :

أيا معشر العشاق بالله خبروا إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع ؟
فكتب تحته :

يُدارى هواؤه ثم يكتُم سرّه ويخضع فى كل الأمور ويخضع !
ثم عدت فى اليوم الثانى فوجدت مكتوباً تحته :
فكيف يُدارى والهوى قاتل الفتى وفى كل يوم قلبه يتقطع ؟!
فكتب تحته :

إذا لم يجد صبراً لكتمان سرّه فليس له شىء سوى الموت أنفع !
ثم عدت فى اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقاً تحت ذلك الحجر ميتاً ، فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وقد كتب قبل موته :

سمعنا أطمعنا ثم متنا فبلغوا سلامى على من كان للوصل يمنع !
وحكى أيضاً عن الأصمعى - رحمه الله تعالى - أنه قال بينما أنا نائم فى بعض مقابر البصرة إذ رأيت جارية على قبر تندب وتقول :

بروحى فتى أوفى البرية كلها وأقواهم فى الحب صبراً على الحب ..
قال : فقلت لها : يا جارية بم كان أوفى البرية ؟ وبم كان أقواها ؟ فقالت : يا هذا إنه ابن عمى هوبنى فهويته ، فكان إن باح عنفوه ، وإن كتم لأموه ، فأنشد بيتى شعر ، وما زال يكررها إلى أن مات ، والله لأندبته حتى أصير مثله فى قبر إلى جانبه ، فقلت لها : يا جارية ؟ فما البيتان ؟ قالت :

يقولون لى : إن بحثُ قد غرك الهوى وإن لم أبخ بالحب قالوا تصبرا
فما لامرئ يهوى ويكتُم أمره من الحب إلا أن يموت فيمذرا

ثم إنها شهقت شهقة فارقت روحها الدنيا - رحمة الله تعالى عليها - والحكايات فى ذلك كثيرة وفى الكتب مشهورة ، ولولا الإطالة والخوف من الملالة ، لجمعنا فى هذا المعنى أشياء كثيرة ، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) البانه: ضرب من الشجر، لثين، ورقه كورق الصفصاف، يشبه به الجسان فى الطول واللّين.

الباب العاوي والسبعون

فى ذكر رقائق الشعر والموايا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل
والحماق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك

❁ وفيه فصول:

الفصل الأول: فى الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام : مُرْقَص كقول أبى جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس .
والشمس لا تشربُ خمر الندى فى الروض إلا من كئوس الشقيق
ومطرب : كقول زهير :
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
ومقبول : كقول طرفة بن العبد :
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتىك بالأخبار ما لم تزود
ومسموع : ما يقام به الوزن دون أن يمجّه الطبع كقول ابن المعتز :
سقى المطيرة ذات الظل والشجر ودير عيبدون هطالاً من المطر
ومتروك : وهو ما كان كلاً على السمع والطبع كقول الشاعر :
تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشى قلاقل هم كلهن قلاقل
وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب ، حسبما يوّب أبو تمام فى الحماسة ، وقال عبد العزيز بن أبى الإصبع : الذى
وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فنا وهى : غزل ، ووصف ، وفخر ، ومدح ، وهجاء ، وعتاب ، واعتذار ، وأدب ،
وزهد ، وخمريات ، ومراث ، وبشارة ، وتهانى ، ووعيد ، وتحذير ، وتحريض ، ومُلح ، وباب مفرد للسؤال
والجواب . ولنذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل المذكور :
ابن نباتة :

وأقمار تَمَّ ما تضمُّ الغلائلُ
وسمر دقاق أم قدود قوائل
لها هدف منى الحشى والمقاتل
غدوتُ وبى شغل من الوجد شاغل
يجور علينا قدّه وهو عادل
وناظره الفتانُ فى القلب عامل
فوقّع يجرى فهو فى الخد سائل
وجد بقلبى حبّه وهو هازل
مديدُ التجنى وافرُ الحسن كامل
فيبدو وللإعراب فيه دلائل
وينصب هجرى عامداً وهو فاعل

أغصانُ بانٍ ما أرى أم شمائلُ
وبيضُ رقاق أم جفون فواتر
وتلك نبال أم لحاظ رواشق
بروحى أفدى شادناً قد ألفتّه
أميرُ جمالٍ والملاح جنودّه
له حاجب عن مقلتى حجب الكرى
رفعت إليه قصة الدمع شاكياً
شكوت فما ألوى ، وقلت فما صغى
طويل التوانى دله متواتر
أطارحه بالنحنو يوماً تعللاً
ويرفع وصلى وهو مفعول فى الهوى

خبيراً بأحكام الخلاف يجادل
بوصلك فافعل بى كما أنت فاعل
بعشقتك لا أصغى وإن قال قائل

تفقهت فى عشقى له مثل ما غدا
فيا مالكى ما ضر لو كنت شافعى
فإنى حنيفى الهوى متحنبل
كمال الدين بن النيه :

كم تحت لَمَّة^(١) ذا التركى من عجب !
والخد يجمع بين الماء والذهب
وافتر مبسمه الشهدى عن حجب
بل فى جنى فمه أو ريقه الشنب
بدر رمى عن هلال الأفق بالشهب
والهائم الصب منها غير مقترب
فمى ويلثمها^(٢) سهم من الخشب
لا عن رضا معرض عنى بلا غضب
وليس لى فى قيام العذر من سبب

الله أكبر كل الحسن فى العرب
صُبْحُ الجبين بليل الشعر منعقد
تنفست عن عبير الراح ريقته
لا فى العذيب ولا فى بارق غزلى
كأنه حين يرمى عن حنيتة
يا جاذب القوس تقرباً لوجنته
أليس من نكد الأيام يُخرمها
من لى بأغيد^(٣) قاسى القلب مبتسم
فكم له فى وجود الذنب من سبب
البهاء زهير :

وأحلف لا كلمته ثم أحنث
فيا معشر العشاق عنا تحدثوا
ويكسر جفنا هازئاً بى ويعبث
وكنا خلونا ساعة نتحدث
وحتام أبقى فى الغرام وأمكث !
أموت مراراً فى النهار وأبعث
ومنظر لطفاً من الله يحدث
خلائقك الحسنى أرق وأدمث
أحاديث فيها ما يطيب ويخبث
ويسأل عنى من أراد ويبحث

يعاهدنى لا خاننى ثم ينكث
وذلك دأبى لا يزال ودأبى
أقول له : صلنى يقول : نعم غدا
وما ضر بعض الناس لو كان زارنى
أمولأى إنى فى هواك معذب
فخذ مرة رُوحى تُرخنى ولا أرى
فإنى لهذا الضيم منك لحامل
أعيذك من هذا الجفاء الذى بدا
تردد ظن الناس فى فأكثروا
وقد كُرمت فى الحب منى شمائل
النابلسى :

أن المسامع كالنواظر تغشوق
وكذاك أسباب المحبة تعلق
إن لم يكن لى للدوام تطرق
ويغص بالماء الكثير ويشرق
وجها يكاد الحسن فيه ينطق

ما كنت أعلم والضمائر تصدق
حتى سمعت بذكركم فهو يتكم
ولقد قنعت من اللقاء بساعة
قد ينعش العطشان بلة ريقه
فعسى عيونى أن ترى لك سيدى
أبو الحسن الجزار :

(١) اللمة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

(٢) لثم فم المرأة: قبلة.

(٣) الأغيد: المائل العنق المثني فى نعومة.

وبى لتشويش ذاك الصدغ تشويش
عما حوته من النبل التراكيش
وإن تبدى فطرف البدر مدهوش
أعمى فإنى عما قلت أطروش
والبرق رايته ، والرعد جاويش
لأنه ببديع الزهر مفروش

أفديه من قمر بدا سغده
وترددت فضلاته فى خده
نيران أحشائي عليه ووجده
روى العوالى عن مثقف قده
عيناك فوق الردف مسبل جفده
وعلمت أن ضلاله فى رشد
وحياة مبسمه الشهى وبزده
خلع القلوب ببرقه وبرغده
القاء من جور الحبيب وبعدة
خبرى فصف فعل الغرام وأيده

بأى ذنب - وقاك الله - قد قتلت ؟!
ما قدمت من أسى قلبى وما علمت
والسحر يوهم طرفى أنها كسلت
فى الأفق وصل دجا الظلماء لاتصلت
أما تراها إلى كل القلوب حلت
وكم ثياب ضنى حاكت وكم غزلت !
هذى محاسنها تزهو وذى ذبلت
حتى المرافى منه باللمى كحلت
وكلما رمت تجديد الوصال قلت
إلى الملام ولا والله ما قبلت

والعمر فى كلف بكم قضيته
داع وكننت بحفرتى لبئته
حب بأيام الشباب شربته
يزداد نكسا كلما داويته

فى خده من بقايا اللثم تخميش^(١)
ظبى من الترك أغنته لواظته
إذا تشنى فقلب الغصن منكسر
يا عاذلى إن تكن عن حسن صورته
والغيث كالجيش يرتج الوجود له
فى مجلس ضحكت أرجاؤه طربا
القاضى مجد الدين بن مكانس :

أهدى تحيته وجاد بوعده
بدر جرى ماء الحياة بثغره
أسكنته قلبى فأعدت خده
من لى به خلو الشمائل أهيف
يا عاذلى فى حبه لو أبصرت
لعذرت كل متيم فى حبه
فوحق موتى فى هواه صباية
ما جاد غيث الدمع إلا من هوى
قم يارسول ، وأبلغ العشاق ما
وإذا سألتك أن تؤدى فى الهوى
عز الدين الموصلى :

نفس عن الحب ما أغفت وما غفلت
دعها ومدمعها الجارى لقد لقيت
أفديك من ناشط الأجفان فى تلقى
وأوضح الحسن لو شاءت ذوائبه
معسل بنعاس فى لواظته
من لى بالحاظ ظبى يدعى كسلا
وحمرة فوق خديه ومرشفه
أما كفانى تكحيل الجفون أسى
أستودع الله أعطافا شوت كبدي
ومهجة لى كم ألفت بمسمعها
غيره للفاضل :

شرح الشباب بحبك أفنيته
وأنا الذى لو مر بى من نحوكم
كيف التعرض للسلا وحبككم
لله داء فى الفؤاد أجننه

قاس على العشاق قلت : فديته
لا والذي بطحاء مكة بيته
من لذة الذكرى به سميته

مذ تصدى جللاه رحت قتيلا
وهو ما زال من قديم عليلا
فأرانا مع الخفيف ثقيلا
بالهوى نحو وصلنا لن يميلا
فيه عاذلى مديدا طويلا
أتلف العاشقين إلا قليلا
فاتر اللحظ بكرة وأصيلا
من سبيل ؟ فقال لى سل سبيلا

ما بت من ألم الجوى أتألم
من ناظريك وفى فؤادى أسهم
ماء يرق عليه نار تضرم
فعلام يكسر عندما تتكلم
والدهر سمح والحوادث نؤم

وزود فؤادى نظرة فهو راحل
وحسبك معدوم لديه المماثل
وظل عذاريه الدجا والأصائل
وهاتيك للبدر المنير منازل
فهلا رفعت الهجر والهجر فاعل

خجلاً ومال بعطفه الميأس^(١)
عرق يحاكى الطل فوق الآس
بتصاعد الزفرات من أنفاسى

بهلال أو ببدر ظلّمه
قد تعديت وأسرفت فمه ؟!

قالوا : حبيبك فى التجنى مُسرف
أأروم من كلفى عليه تخلصا
ولو استطعت بكل اسم فى الورى
للشيخ بدر الدين الدمامنى :

سل سيفاً من الجفون صقيلا
صَحَّ عن جفنه حديث فتور
مر أبدى لنا من الخصر ردفا
ذو قوام كأنه الغصن لكن
كامل الحسَنَ وافِرُ ظل وجدى
فاتك الجفن ذو جمال كثير
قلت إذ لاح طرفه ولماه
كيف حالى ؟ وهل لصب إليه
وقال آخر :

لو أن قلبك لى يرق ويرحم
ومن العجائب أننى لا سهم لى
ياجامع الضدين فى وجناته
عجبنى لطرفك وهو ماض لم يزل
ومن المروءة أن تواصل مدنفاً
وقال آخر :

تصدق بوعد إن دمعى سائل
فخذك موجود به التبر دائما
أيا قمرأ من شمس طلعة وجهه
تنقلت من طرف لقلب مع الهوى
جعلتك للتمييز نصبا لخاطرى
وقال ابن صابر :

قبلت وجنته فألفت جيده
فأنهل من خديه فوق عذاره
فكأننى استقطرت ورد خدوده
وقال آخر :

وغزال كل من شبّهه
قال : إذا قبلت وهما فمه
وقال آخر :

(١) الميأس : الميختر فى مشيته .

مُنْذُ جَاذَلِي بِسَلَامِهِ وَكَلَامِهِ
أَبَدًا وَصَدَغَ مَا رَأَيْتُ كَلَامِهِ

صَبَّ عَلَى عَرْشِ الْغَرَامِ قَدْ اسْتَوَى
مَهْمَا جَرَى ذِكْرُ الْعَقِيقِ مَعَ اللَّوَى
فَهَنَّاكَ يَنْشُرُ مِنْ هَوَاهُ مَا انْطَوَى
فِيهِ الْمَلَامُ وَقَدْ حَوَى مَا قَدْ حَوَى
وَفَتُورَ عَيْنِيهِ وَهَلْ مَوْتِي سَوَى ؟!
خَجَلًا وَلَا غَصْنَ النِّقَا إِلَّا التَّوَى
يَاطِيبُ مَا نَقَلَ الْأَرَاكَ وَمَا رَوَى

وَسَرَى الْحَيَاءُ بِخَذِّهِ فَتَوَرَدَا
لَمَّا غَدَا بِجَمَالِهِ مَتَفَرَدَا
تَالَلِهُ قَدْ ظَلَمَ الْمَشَبَّهَ وَاعْتَدَى
إِلَى قُلُوبِ فِي الْهَوَى مُثْعَبِهِ
صَفْحَةَ خَذِّ بِالسَّنَا مَذْهَبِهِ
مِنْهُ وَقَدْ أَلْسَعْنِي عَقْرَبِهِ
وَبِالذَّكَ الْلَفْظَ مَا أَعَذَّبَهُ
وَكُلَّ الْفَظَاظِكَ مَسْتَعَذَّبَهُ
وَمَذْ رَأَيْتُ مَيْتًا أَعْجَبَهُ
وَحَبَبَهُ إِيَّايَ قَدْ أَتَمَعَبَهُ
قَتَلِي لَهُ لَمْ أَدْرِ مَا أَوْجَبَهُ

وَيَخْجَلُ بَدْرُ الثَّمِّ عِنْدَ شُرُوقِهِ
وَمَا فِيهِ شَيْءٌ بَارِدٌ غَيْرُ رَيْقِهِ

فَلَمَّا رَأَى ذَلِي ثَنَى عِطْفَهُ ذَلَا
وَأَفْقَدَنِي صَبْرًا وَأَعْدَمَنِي عَقْلًا
وَأَعْرَضَ مُزَوَّرًا فَسَلَ الْحَشَى سَلًا
يَنَادِيهِ فَرَطُ الْعَجَبِ مِنْ عِطْفِهِ كَلَا

بَيْنَ الْعَذِيبِ وَبَيْنَ شَطْطِي بَارِقُ
فَأَجَابَنِي عَنْهَا بِوَعْدٍ صَادِقُ

بِأَبِي غَلَامٍ لَسْتُ غَيْرَ غَلَامِهِ
ذُو حَاجِبٍ مَا إِنْ رَأَيْتُ كَنُوزِهِ
وَقَالَ جَمَالُ الدِّينِ بْنِ مَطْرُوحٍ :

ذَكَرَ الْحَمِي قُصْبًا وَكَانَ قَدْ ارْعَوَى ^(١)
تَجْرَى مَدَامَعُهُ وَيَخْفِقُ قَلْبُهُ
وَإِذَا تَأَلَّقَ بَارِقٌ مِنْ بَارِقِ
وَبِمَهْجَتِي رَشَا أَطَالَتْ عُذْلِي
قَالُوا : أَفِيهِ سَوَى رَشَاقَةٍ قَدِهِ
مَا أَبْصَرْتَهُ الشَّمْسُ إِلَّا وَاكْتَسَبَ
يُرَوِّى الْأَرَاكَ مُحَاسِنًا عَنْ ثَغْرِهِ
وَقَالَ آخَرُ :

عَبَثَ النَّسِيمُ بِقَدِّهِ فَتَأَوَّدَا
رَشَا تَفَرَّدَ فِيهِ قَلْبِي بِالْهَوَى
قَاسُوهُ بِالْغَصَنِ الرُّطِيبِ جِهَالَةً
يَا أَحْسَنًا مَالِكَ لَمْ تُحَسِّنْ
رَقَمْتَ بِالْوَرْدِ وَبِالسُّوسَنِ
وَقَدْ أَبَى خَدَّكَ أَنْ أَجْتَنِي
يَا أَحْسَنَهُ إِذْ قَالَ : مَا أَحْسَنِي ؟
قُلْتَ لَهُ : كُلِّكَ عِنْدِي سَنَا
فَفَوْقَ السَّهْمِ وَلَمْ يَخْطُطْنِي
وَقَالَ : كَمْ مِنْ عَاشِقٍ حَبَنِي
يَرْحَمُهُ اللَّهُ عَلَى أَنْنِي
وَقَالَ آخَرُ :

مَلِيحٌ يَغَارُ الْغَصْنَ عِنْدَ اهْتِزَازِهِ
فَمَا فِيهِ مَعْنَى نَاقِصٌ غَيْرُ خَصْرِهِ
وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ :

ذَنَا هَاجَرِي نَحْوِي بِمَقْلَتِهِ الْكَحْلَا
فَتَيْمَنِي شَوْقًا وَأَنْحَلَنِي أَسَى
شَكُوتُ فَمَا أَلْوَى وَوَلَّى وَمَا لَوَى
إِذَا مَا دَعَاهُ فَرَطُ سَقَمِي لَزُورَةٍ
وَقَالَ أَيْضًا :

بِأَبِي غَزَالًا غَاظَلْتُهُ مُقْلَتِي
وَسَأَلْتُ مِنْهُ زُورَةً تُشْفِي الْجَوَى

بتنا ونحن من الدجا في خيمة
لما رأيتُ الليل آخر عمره
ودعت من أهوى وقلت : تأسفا
وقال ابن نباتة :

بدا ورئتُ لواحظه دلالا
وأسفر عن سنا قمر منير
صقيل الخد أبصر من رآه
وممنوع الوصال إذا تبدى
عجبت لشغره البسام أبدى
شهدت بشهد ريقته لأنى
فباعجبا لحسن قد حواه
سأشكو الحسن ما بقيت حياتي
القاضي فخر الدين بن مكانس :

يا غصنا في الرياض مالا
يارائحا بعد أن سبانى
وله أيضا :

أجارك الله قد رثت لي
وعاذلي مذ رأى ضلوعي
ابن رفاعه :

يقولون : هل من الحبيب بزورة
فقالوا لنا : غوصوا على قدّه وما
الشيخ برهان الدين القيراطي :

ووردي خذ نرجسى لواحظ
وواوات صدغيه حكن عقاربا
ووجنته الحمرا تلوح كجمرة
وودي له باق ولست بسامع
ووالله ما أسلو ولو صرت رمة
وللشيخ برهان الدين القيراطي أيضا :

شبه السيف والسنان لعيني
فأبى السيف والسنان وقالوا
وقال أيضا :

بأبى أهيف المعاطف لدن

ومن النجوم الزهر تحت سُرّادق
قد شاب في ليم له ومفارق
صعب على بأن أراك مفارقي !

فما أبهى الغزالة والغزالا
ولكن قد وجدتُ به الضلالا
سواد العين فيه فخال خالا
وجدت له من الألفاظ لالا
لنا ذرا وقد سكن الزلالا
رأيت على سوائفه نمالا^(١)
وقد أهدي إلى قلبي الوبالا
وأشكر من صنائعه الجمالا

حملتني في هواك مالا
حسبك رب السما تعالي

مما ألقى عدا وحسد
تعد سقما بكى وعدد

ومناكم المطلوب قلنا لهم : منا
يحاكى إذا ما اهتز قلنا لهم : غصنا

مشايخ علم السحر عن لحظه رووا
من المسك فوق الجلنار^(٢) قد التوا
عليها قلوب العاشقين قد اکتوا
لقول حسود والمعواذل إذ عوا
فكيف وأحشائي على حبه انطوا

من لقتلي بين الأنام استحلا
حدنا دون ذاك حاشى وكلا

حسد الأسمر المثقف قدّه

(١) الثمال : جمع الثملة، الحشرة المعروفة، وجمعها أيضا ثمل كما نعلم.

(٢) الجلنار : زهر الرمان.

كلمتني سيوفهن محده

ذو جفون مذرمت منها كلاما

وقال آخر :

من الهند معسول اللمى أهيف القد
خذو حذرکم قد سل صارمه الهندي^(١)

تملك رقى شادن قد هويته
أقول لصحبي حين يرنو بطرفه

ومما قيل في الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديري :

وطيفها عن عياني غير محتجب
والقلب ما زال عنها غير منقلب
ولا لواش خلئ بات يلعب بي
ومر هجرانها أحلى من الضرب
تشيب فيه الليالي وهو لم يشب
وغير طاعته في الحب لم يجب

خيال سلمى عن الأجفان لم يغب
وذكرها أنس روى وهى نائية
لم أصغ فيها للاح راح يعذلني
عذابها في الهوى عذب أذبه
فإن نأت أو دنت وجدى كما علمت
دعها فأمر هوى المحبوب متبع

وقال عفا الله عنه :

وحياه من دمعى مذاب وجامد
وأرض نأت عنها قفار جلامد
ولو كدرت منها على الموارد
وظلت لياليه بسلمى تساعد
ويقظان طرف البين عنى راقد
وأوقاتنا بالوصل خضر أمالد
ونحن كأننا في الحقيقة واحد
ولم يطرد فينا من البين طارد
تلوح علينا للغرام شواهد
ولم نحسب الأيام فينا تعاند
كما كنت لى أم حاد بالقلب حائد ؟
على عادة الأيام منك العوائد
وأنساك حفظ الود هذا التبعاد
وقولك لا عاش الخئون المعاهد
وهل أنت أحللت الذى أنا عاقد ؟
وفيك يقينى بالوفا منك شاهد ؟
ولا اختلفت فيما عملت العوائد
وكيف سلوى والحبيب مبعاد ؟
فودى طريف فى هواك وتالد^(٣)

سقى طللا حلتى سلمى معاهد
فربغ به سلمى مصيف ومزبع
وحيث ثوت أرضا فأعذب مورد
رعى الله دهرا سألتمنى صروفه
وقد غفل الواشون عنى ولم أزل
وأيامنا بالقرب بيض أزاهر
وأرواحنا ممزوجة وقلوبنا
وكم قد مرجنا فى مروج صباية
تجر ذبول اللهو فى قمص الهوى
ولم يخطر التفريق منا بخاطر
فهل أنت يا سلمى وقد حكم الهوى
وهل ودنا باق وإلا تغييرت
وهل محيت آثار رسم حديثنا
وهل تذكرين العهد إذ نحن باللوى
وهل أنت غيرت الذى أنا حافظ ؟
وهل بدلت منك المودة بالجفا
وإنى ما بدلت عهدك فى الهوى
ولا بت مسرورا وعيشك ليلة
فإن كنت حبل الود صرمت^(٢) طرفه

(١) أي سيف مصنوع من حديد الهند.

(٢) صرمت : قطعت.

(٣) التالد : المقيم.

لعمري وجدى بالحشاشة راقدا
فبى يضرب الأمثال من هو وارد
صبور على البلوى شكور وحامد
وفيك لقد هانت على الشدائد
لقاد زمامى نحو حبك قائد
فكيف خلاصى والهوى منك صائد؟!
وهل يسلى ذا الأشجان هذا التباعد؟!
وسوق سلوى فى المحبين كاسد
إذا عظم المطلوب قل المساعد

وتوعدنى بتفريقى وصد
تهدى جلى به وتذيب جلى
فتضمنينى وتضمنينى وتردى
تذيب حشاشتى كمدا وكبدى
يفيض دما على صفحات خدى
وأذكر فى هواك ولو بضد

وحبى فيك صار مع الركاب
ووجدى فيك أيسره عذابى
وما لسواد قلبى من حجاب
هزرت إليك أجنحة التصابى

وأنحلنا بعد البعاد أكارها
فأظلم بالنأى المشت نهارها
بمقلتها يصمى القلوب احوارها
ويحسن منها صدها ونفارها
إذا مال فوق الغصن منها خمارها
وما هو إلا حجلها^(١) وسوارها
عن العين مثواها ففى القلب دارها
وأكثر ما يضمنى النفوس افتكارها
وما خمدت بالدمع منى نارها
تهاتف شجوا لا يقر قرارها
وعينى فاضت بالدموع بحارها

وإن قلت : إن الحب غيره النوى
وإن أوردوا يوما صباوبة عاشق
فما شئت كونى إننى بك مدنف
ومنك تساوى عندى الوصل والجفا
ولو رمت ألى عن هواك أعنتى
نصبت شراك الحب صدت حشاشتى
بعدت وقلت : البين يسلى أخا الهوى
وما غير التفريق ما تعهدينه
وجل منأى القرب منك وإنما

وقال عفا الله عنه :

تهددنى بتبريح وبين
وتحلف لى لتلبسنى سقاما
وترمينى بنبل من جفون
وتحرقنى بنار الصدد حتى
فقلت لها : ودمعى فى انسكاب
ومن لى أن يقال قتيل وجيد

وقال عفا الله عنه :

سلوى عنك شىء ليس يروى
ولم يمرر سواك على ضميرى
ومالك عن سواد العين يوما
وما اخضرت دواعى الشوق إلا

وقال عفا الله عنه :

قفا نيك بدار شط عنا مزارها
وعوجا بأطلال محتها يد النوى
فقدنا بها ربما من الإنس إن رنت
تصيد قلوب العاشقين أنيسة
ويهزأ بالأغصان لين قوامها
وليس لبدر التم قامة قدها
منازلها منى الفؤاد وإن نأى
يمثلها بالوهم فكرى لناظرى
وهيج دمعى حر نار صبابتى
وساعدنى بالأليك ليلا حمائم
بكين ولم تسفح لهن مدامع

(١) الحجل : بفتح الحاء وكسرهما، هو القيد، والخلخال.

ولمؤلفه - رحمه الله تعالى - وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله ستر ما يراه من عيوبه وأن يدعو له بمغفرة ذنوبه .

بلطف وقل عن حال صبك سائلي
قريح جفون من دموع هوامل
حليف الضنى لم يصغ يوما لعاذل
يئن غراما فارحميه وواصل
وهاجت بتبريح الغرام بلائلي
فلم يخط قلبى والحشى ومقاتلي
بسر فباحث أدمعى برسائلي
فقد عاد لى حال له رق عاذلى
بوعد وبعد الوعد إن شئت ما طلى
فبالسقم أعضائى وهت ومفاصلى
وعظم أنينى لا يرانى مسائلي
وفاضت على حالى عيون عواذلى
وما فزت فى الأيام منك بطائل
ضنى جسدى فالوجد لاشك قاتلى
نبي له فضل على كل فاضل

نسيم الصبا بلغ سليمى رسائلي
فقد صار بالأسقام صبا معذبا
صبورا على حر الغرام وبرده
يبيت على جمر الغضى^(١) متقلبا
ألا يا سليمى قد أضربى الهوى
رميت بسهم من لحاظك قاتل
كتمت غرامى فى هواك ولم أبح
سليمى سلى ما قد جرى لى من النوى
لعل تجودى للكئيب وتسمحى
عسى تنطفئ بالوعد نارى وأشتفى
خفيت عن العواد لولا تأوى
فرقى فقد رقت عداى لذلتي
قطعت زمانى فى عسى ولعلها
فما آن أن ترضى على وترحمى
توسلت بالمختار فى جمع شملنا
وله رحمه الله - تعالى - :

حتى قتلت بفرط الهجر مضناكى
من فى الورى يا ترى بالقتل أفتاكى
فى النوم طيف خيال من مُحياكى
أضحى عليلا حزينا لم يزل باكى
فهل ترى تسمحى يوما برؤياكى
فالله يعلم أنا ما نسيناكى
أضحى فؤادى أسيرا لحظ عيناكى
ولا عذاب نفوس قبل أهواكى
أمسى أسيرا سوى فى حسن معناكى
ولا تُطيلى بحق الله جفواكى
ومهجة تلفت يا هند ما أقساكى
وأنت يا هند لا ترثى لمضناكى
ولو فنيت غراما لست أنساكى

يا ربة الحسن من بالصد أوصاكى
ويافتاة بفتان القوام سبت
لقد جننت غراما مذ رأى نظرى
ومذ رآه جفا طيب المنام وقد
عذبتنى بالتجنى وهو يعذب لى
إن كنت لم تذكرينا بعد فرقتنا
ما آن أن تعطفى جودا على فقد
ما كنت أحسب أن العشق فيه ضنى
حتى تولع قلبى بالغرام فما
رقى لعبدك جودا واعطفى وذرى
يا هند رفقا بقلب ذاب فيك أسى
رق العذول لحالى فى الهوى ورثى
والله لو مت ما أسلاك يا أملى
قال آخر :

(١) الغضى: شجر من الأثل، خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمنا طويلا لا ينطفئ، واحدته غضاة، وأهل الغضى: أهل نجد، لكثرة هناك.

يسير أمام العيس^(١) وهو ذليل
فؤادى سرى فى الركب وهو عجول
لتعلم ما هذا إليه يئول
فمن باب أولى أن يجد رحيل
وما زال ليل العاشقين طويل
فقلت : وجسم العاشقين نحيل
بيوم وداع ما إليه سبيل
لكى لا أرى يوما على ثقل

مالى ومالك قد أطلت شهادى^(٣)
أبعدتنى ولقد سكنت فؤادى
روحي وقلبي والحشى وقيادى
قلبي أسيرا ما له من فادى
فلكم صرعت بها من الآساد^(٤)
والحسن منها عاكف فى بادى
وذعى السيوف ثقر فى الأغمار
ولقد فنى صبرى وعاش شهادى
يا حبيذا لأراك من عؤادى
من خدك المسترقق الوقاد
مالى سواك ولو حرمت مرادى
وبه سألقى الله يوم معادى

أنوح كما نوح الحمام المطوق
وتحتى بحار بالجو تتدفق
تفك الأسارى دونه وهو مؤثق
ولا أنا ممنون عليه فيعتق

ليلي إذا ما الليل ألقى المراسيا^(٥)
فما للنوى^(٦) يرمى بليلى المراميا
وقد عشت دهرا لا أعد اللياليا
أحدث عنك النفس بالليل خاليا

كأن فؤادى يوم سرت دليل
فصرت عقيب الظاعنين^(٢) لكى أرى
وقائلة لى كيف حالك بعدنا
فقلت لها : قدمت قبل ترحلى
وقلت : فليلى طال هما فأنشدت
فقلت : وجسمى لم يزل مترجفا
فقلت لها : لو كنت أدري فراقنا
قلعت عينى فى هواك بأصبعى
وقال الوأواء الدمشقى عفا الله عنه :

يا من نفت عنى لذيذ رقادى
فبأى ذنب أم بأية حالة
وصددت عنى حين قد ملك الهوى
ملكك لحاظك مهجتي حتى غدا
لا غرو أن قتلت عيونك مغرما
يا من حوت كل المحاسن فى الورى
رفقا بمن أسرت عيونك قلبه
ماتت - أطال الله عمرك - سلوتى
ومن المنى لو دام لى فيك الضنى
واجيل منك نواظرى فى ناظر
وأقول : ما شئت اصنعى يا منيتى
إلا مديح المصطفى وهو عمدتى
وقال البهاء زهير :

إذا جن ليلى هام قلبي بذكركم
وفوقى سحاب يمطر الهم والأسى
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها
فلا أنا مقتول ففى القتل راحة
مجنون ليلى :

وقد خبرونى أن تيماء منزل
فهذى شهور الصيف عنا ستنقضى
أعد الليالى ليلة بعد ليلة
وأخرج من بين البيوت لعلنى

(٢) الظاعنين : ظعن ظعنًا أي سار واتجول.

(٤) لا غرو : لا عجب .

(٦) النوى : البعد .

(١) العيس : الجمال .

(٣) السهاد : السهر .

(٥) ألقى المراسيا : خل على الكون بظلامه .

علينا فقد أمسى هوانا يمانيا ^(١)
 شمالا ينازعني الهوى عن شماليا
 إذا علم من أرض ليلى بداليا
 قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا
 فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا ؟
 ودارى بأعلى حزموت اهتدى ليا
 يزاد لها في عمرها من حياتيا
 وأخلص منه لا على ولا ليا
 فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا ^(٢) ؟
 وتخرس حتى لا تجيب المناديا

بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
 وقلت : قف عن ورود الماء لم يرد
 يابرد ذاك الذي قالت على كبدي !

وسمرة مسكة اللعس الشهي ^(٣)
 وأعطشني وصالك بعد ربي
 يبوح بمضمرة السر الخفي
 فويل للشجي من الخلى ^(٤)

وأنتك تحت مذارع الظلماء
 وكذا الدواء يكون بعد الداء
 ضنت بها فقضت على الأحياء
 دُر بباطن خيمة زرقاء
 من بعدها فيه يدُ البرحاء
 جزعا وما نظرت جراح حشائي
 ما أخطأته أسنة الأعداء ؟
 أضعاف ما عاينت في الأعضاء ؟
 نجلاء أو من مقللة نجلاء

فما أنا من يحيا إلى حين نلتقى

ألا أيها الركب اليمانون عرجوا
 يمينا إذا كانت يمينا فإن تكن
 خليلي لا والله لا أملك الهوى
 خليلي لا والله لا أملك الذي
 قضاه لغيري وابتلاني بحبها
 ولسو أن واش باليمامة داره
 وددت على حبي الحياة لو أنه
 على أننى راض بأن أحمل الهوى
 إذا ما شكوت الحب فقالت : كذبتني
 فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشى
 وقال آخر :

قالت لطيف خيال زارني ومضى
 فقال : خلفته لومات من ظمأ
 قالت : عهدت الوفا والصدق شيمته
 كمال الدين بن النبيه :

أما وبياض مبسمك النقى
 لقد أسقمت بالهجران جسمي
 إلى كم أكتم البلوى ودمعي
 وكم أشكو للاهية غرامى
 صفى الدين الحللى :

أبت الوصال مخافة الرُقباء
 أضفتك من بعد الصدود مودة
 أحييت بزورها النفوس وطالما
 أمت بليل والنجوم كأنها
 آبت إلى جسدي لتنظر ما انتهت
 ألقت به وقع الصفاح فراعها
 أمصيبة منا بنبل لحاظها
 أعجبت مما قد رأيت وفي الحشا
 أمسى ولست بسالم من طعنة
 وله رحمه الله - تعالى - :

قفى ودعينا قبل وشك التفرق

(١) عرجوا علينا : انزلوا بأرضنا .

(٢) أى لم يظهر عليه أثر الحب من نحول وغيره ، فما زالت أعضاؤه يكسوها اللحم !

(٣) اللعس : سواد مستحسن فى باطن الشفة .

(٤) الشجى : من شجاه الهم ونحوه ، والخلى فارغ البال من الهم ، وقد ضمن الشاعر بيته المثل القائل : « ويل للشجى من الخلى » .

وشبث وما حلّ البياض بمفرقى
ولم تفرقى بين المنعم والشقى
ومزقت شمل الوصل كل مُمزق
وأحببت قول الهجر من غير مشفق
عشية زُمت^(٢) للترحل أينقى^(٣)
ولا تدممي أفعاله وترفقي

فعمطرت سائر الأرجاء بالأرج^(٤)
في ظلمة الليل أغنتنا عن الشرج^(٥)
بحارس من نبال الفُنج والذعج
فكان غفرانها يغني عن الحجج
فما على إذا أذنبت من حرج
كفى فذاك جوى لولاك لم بهج
والصمت في الحب أولى بي من اللهج
ولذة الحب جور الناظر الفنج^(٦)

وأقبلت في الدجى تسعى على حذر
وكان أبخل من تموز بالمطر
شبت فلم تبق من قلبى ولم تذر
والبدر ساه إليها سهو معتذر
في ظل جنحين من ليل ومن شعر
في ليلة الوصل بل في غرة القمر

بكاء المحب لبعده الديار
بقية طلّ على جلنار

إما غدا زعموا أو لا فبعد غد
وردا وعضّت على العُنان^(٩) بالبرّد

قضيت وما أودى الحمام^(١) بمهجتي
قنعت أنا بالذل في مذهب الهوى
قرنت الرضا بالسخط والقرب بالنوى
قبلت وصايا الهجر من غير ناصح
قطعت زمانى بالصدود وزرتنى
قضى الدهر بالتفريق فاصطبرى له
وقال عفا الله عنه :

جاءت لتنظر ما أبقت من المهج
جلت علينا مُحيا لو جلته لنا
جورية الخد تحمى ورد وجنتها
جزت إساءة أفعالي بمغفرة
جادت لعرفانها أنى المريض بها
جست يدى لترى ما بى فقلت لها
جفوتنى فرأيت الصبر أجمل بى
جارت لحاظك فينا غير راحمة

وقال ابن نباتة :

رقت لنا حين هم السّفر^(٧) بالسفر
راض الهوى قلبها القاسى فجاذلنا
رأت غداة النوى نار الكلیم وقد
رشيقة لو تراها عندما سفرت
رأيت بدريّن : من وجهه ومن قمر
راق العتاب وأبدت لى سرائرها

وقال آخر :

بكت للفراق وقد راعها
كأن الدموع على خدّها

الوواء الدمشقى (تضمين) :

قالت : متى الظعن^(٨) ياهذا ؟ فقلت لها
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت

(١) الحمام : بكسر الحاء وفتح الميم : قضاء الموت وقدره .

(٢) زُمت : زعم الجمل ، أي شدّ عليه الزّمام .

(٣) الأئنيق : الثّوب .

(٤) الأرجاء : النواحي جمع رَجَا ، أما الأرج فهو الرائحة العطرة .

(٥) الشرج : جمع سراج .

(٦) الفنج : الارتحال .

(٧) السّفر : ذى الدلال والركة .

(٨) الظعن : السفر .

(٩) العُنان : بفتح النون المخففة هو الجبل الطويل المستدير ، وبتشديد النون المفتوحة شجر شائك من الفصيلة السّدرية ، ويُطلق على ثمره أيضًا ، وهو أحمر حلو لذيق الطعم .

لابن نباتة :

على غيداء مثل البدر تمّا
ولى أذن عن الفحشاء صمّا

عذولى لست أسمع منه قولاً
له طرف ضرير عن سناها

وقال آخر :

أراعى نجوم الليل فيها إلى الفجر
رويت أحاديث السهاد عن الزهر^(١)

ورب ليال فى هواها سهرتها
حديثى عال فى السهاد لأننى

السراج الوراق :

ما يعلم الشوق إلا ولا الصبابة إلا

يالائمنى فى هواها أسرفت فى اللوم جهلا

وقال آخر :

وأنت فى النهار تسحب ذيلاً
كيف صدقت أن ترى الشمس ليلاً

وعدت أن تزور ليلاً فألوت
قلت هلا صدقت فى الوعد قالت

لعز الدين الموصلى :

ذات وجه بها الجمال تفتن
ودفعنا بالتي هى أحسن^(٢)

قد سلونا عن الغزال بخود^(٣)
ورجعنا عن التهتك فيه

وقال آخر :

ساد بفسيفها على الأراك
قلت لها : ذاقه سواكى

قالت - وناولتها سواكا
سواى مذاق طعم ريقى

وقال آخر :

قالت : محب دعوه يسعذر
وأحسن السكر المكرر

سألته أن تُعيد لفظاً
حديثها سكر شهى

ابن نباتة :

أثر السقام بجسمى المنهاض
أنا بالسقام وأنت بالإعراض

وملومة فى الحب لما أن رأت
قالت : تغيرنا فقلت لها نعم

وقال أبو الطيب المتنبى :

اللابسات من الحرير جلابيا^(٤)
وجناتهن الناهبات الناهبا^(٥)

بأبى الشמוש الجانحات غواربا
المنهبات عيوننا وقلوبنا

ت المبيدات من الدلال غرائب
فوضعن أيديهن فوق ترائب

الناعمات القتالات المحيا
حاولن تفديتى وخفن مُراقباً

من حر أنفاسى فكنت الذائب

ويسمن عن برد خشيت أذيبه

(١) إذا كان الحديث مروياً عن فقيه كمحمد بن شهاب الزهرى وسفيان الثورى ومالك بن أنس كان عالياً ، وفى البيت تورية وتضمن .

(٢) الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخلق ، والجمع خود وخودات .

(٣) ضمن البيت لفظاً الآية الكريمة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . [المؤمنون : ٩٦] .

(٤) قال هذه القصيدة يمدح على بن منصور الحاجب وكنى بالشموس عن النساء ، وكنى بالغروب عن بعدهن ! وقال أبو الفتح : غبن عنك فى الخدور .

(٥) يقول : أنهبتنا وجناتهن ، فلو نظرن إلينا نهين عقولنا وقلوبنا . ثم وصف الوجنات بأنها تنهب الناهب ، أى الرجل الشجاع المغوار .

وإد لثمت به الغزالة كاعبا^(١)
من بعد أن أنشبن فى مخالبا

غفلان عنا ظلت أبكى وتبسم
ولم تر قبلى ميتا يتكلم

ومعنبر وممسك ومضئذ^(٢)
جودى وقال دلالتها : لا تفعللى

غصنا يمس به النسيم مهفهف
وردا جنيا باللواحظ يقطف
ويعير ناظرها الحسام الأوطف
أجفانك المرضى ولا تستعطف
ولنذكر إن شاء الله - تعالى - فى هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب :
للشيخ شمس الدين بن البديوى :

وأيقنت أنى بالغرام أدوب
ليطفنى ضرام فى الحشا ولهيب
لمن هو فى الأولى إلى حبيب

وقلت لقلبى : هذه هى زينب
فأضربت نارا فى الحشا تتلهب
تمسك بالموج الذى يتقلب

وهل عند الفؤاد لها التفات ؟!
فقلت : الحب فيه تقلبات
ويعتاد المحب تغيرات
فتفضحك التصابى الواردات
وتنحلك ، الوعود الكاذبات
فما يغنىك إن فات الفوات

يا حبذا المتجملون وحبذا
كيف الرجاء من الخطوب تخلصا
وله أيضا من جملة قصيدة :

ولما التقينا والنوى ورقبنا
فلم أزد بذرا ضاحكا قبل وجهها
الشرى الرضى :

وتميس بين مزرعفر ومعضفر
وإذا سألت الوصل قال جمالها
ابن إسرائيل :

وتخال بين البدر منها والنقا
يابانة قد أطلعت أغصانها
وغزالة يحكى الغزالة وجهها
ما تأمرين لمغرم تسطوبه
ولنذكر إن شاء الله - تعالى - فى هذا الباب نبذة من ملح النظم ورقائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب :
للشيخ شمس الدين بن البديوى :

ولما نأت سلمى وشط بها النوى
علقت بأخرى غيرها متلاها
وكان هيامى والهوى وصبايتى
وله فى المعنى :

تلاهيت عنها فى الغرام بغيرها
وقبلت فاما مبردا لصبايتى
فكنت كمن أضحى غريقا بلجة
وقال أيضا :

سألت القلب هل ميل لليلى
فقال : الآن لا لكن تأنى
فإن الحب يهجم بعد يأس
فلا تظهر لها يوما سلوا
وتزمنى بالصدود وبالتجنى
فكن جلدا ولا تك ذا لجاج^(٣)

وقال البيطار :

(١) الغزالة من أسماء الشمس ، يريد أنه لثمتها فى حال ما كانت كاعبا .

(٢) تميس فى أثوابها التى صبغت بألوان زاهية ، وطيت بألوان الطيب .

(٣) لجاج : لج ، أى تمادى فى الخصومة .

دنت بك أرض نحوها وسماء
إذا هو لم يوصل إليه سواء

حبيباً آخر تحيا سميذا
وخان فكيف آتمن الجديداً ؟!

ووجهها مشرق في حندس الظلم^(١)
لتقرعن على السن من ندم

قلقا أبل ملابسى بدموعى
وأبيت منك بليلة المملسوع

وقعت فما لى من يديه خلاص^(٢)
بمعينيه قلبى والجروح قصاص

وأرى المحب وما يقول فأعجب
من كان يتهم الهوى فيجرب

وسواد حظى من سواد عيونه
واليوم أقنع بالخيال ودونه

تهزى بقدرى أو تريد مزاحاً ؟
حتى توهمت المساء صباحاً

قامر القلب هواه فقممر^(٣)
وهواه غير مقلوب قمر

من فوق خد مثل قلب العقرب
وتسترت عنى بقلب العقرب

مدامعى بدم من كثرة السهر

يقولون : هذى أم عمرو قريبة
إلا إنما قرب الحبيب وبعده
وقال غيره :

وقالوا بع حبيبك وابغ عنه
إذا كان القديم هو المصافى
وقال آخر :

لم أنس إذ قلت من وجدى لها غلطا
سلوت عنك فقالت وهى ضاحكة
وقال آخر :

أمن المروءة أن أبيت مسهدا
وتبيت ريان الجفون من الكرى
وقال آخر :

إلى الله أشكو جور أهيف شادن
جرحت بمعينى خده وهو جارح
وقال آخر :

قد كنت أسمع بالهوى فأكذب
حتى رُميت بحلوه وبمره !
وقال آخر :

يا من سقامى من سقام جفونه
قد كنت لا أرضى الوصال وفوقه
وقال آخر :

صباحته عند المساء فقال لى
فأجبتة إشراق وجهك غرنى
أبو عبد الله الغواص :

من عذيرى من عذول فى رشا
قمر لم يبق منى حسنه
وقال آخر :

جاذبتها والريح تجذب برقعاً
وطفقت ألثم ثغرها فتحجبت
وقال آخر :

لومت من كثرة الأشواق وانبدلت

(١) الجندس : بكسر الحاء . الليل الشديد الظلمة ، وأسود حندس : شديد السواد .

(٢) الجور : الظلم . والأهيف : دقيق الخصر ضامر البطن . والشادن : ولد الظبية إذا ترعرع واستغنى عن أمه .

(٣) عذيرى : عاذرى وناصرى . والرشا : ولد الظبية إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه وأصله « رشا » .

- ما اخترت عنك سلواً ولا نظرت
إبراهيم بن العباس :
- تمر الصبا صفحا بساكن ذى الغضى
قريبة عهد بالحبيب وإنما
وقال النوفلى :
- إذا اختلجت عيني رأيت من تحبه
وقال آخر رحمه الله - تعالى :
- يا ذا الذى زار وما زارا
قام بباب الدار من تيهه
وقال آخر :
- ولقد جعلتُك فى الفؤاد محدثى
فالكل منى للجليس مؤانس
أمين الدين بن أبى الوفاء :
- يا نازلا منى فؤادا راحلا
أضمرت قلب متيم أهلكته
وقال آخر :
- يا عاذلى فى هواه إذا بدا كيف أسلو
الحاجبى :
- ملاث فؤادى من محبة فاتن
وقلت لقلبي : قم لتعشق شادنا
وقال ديك الجن (٣) :
- ولى كبد حرى ونفس كأنها
كأن على قلبى قطاة (٤) تذكرت
وقال عبد الله بن طاهر :
- أقام ببليدة ورحلت عنه
أقل الناس فى الدنيا سرورا
وقال آخر :
- ما اخترت ترك وداعكم يوم النوى
لكن خشيتُ بأن أموت صباية
- عيني لغير محيا وجهك القمر
ويضرع قلبى إذ يهب هبوبها
هوى كل نفس أين حل حبيبها
- فدام لعيني ما حيث اختلاجها (١)
- كأنه مقنَّبس نارا
ما ضره لو دخل الدارا
- وأبحث منى ظاهري لجليسى
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى
- ومن العجائب نازلا فى راحل
وسكنته والنار مثوى القاتل
- يمر بى كل وقت وكلما مر يحلو
- أميل إليه وهو كالظبى رائغ (٢)
- سواه فقال القلب : ما أنا فارغ
- بكف عدو ما يريد سراحها
على ظمأ وردا فهزت جناحها
- كلانا بعد صاحبه غريب
محب قد نأى عنه الحبيب
- والله لا مللا ولا لتجنب
فيقال : أنت قتلت فتقاد بى (٥)

(١) خلع الشئ : بمعنى تحرك واضطرب .

(٢) رائغ : زائغ .

(٣) ديك الجن : اسمه عبد السلام بن رغبان [٧٧٧-٨٤٩م] ، ولد فى حمص وهو من الشعراء المجيدين .

(٤) القَطَاة : واحدة القَطَا ، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء ، يطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة .

(٥) فتقاد بى : أى فيقتص منك لى . ويسمى « القَوْد » .

وقال ابن المعتز :

وانف عنها سهادها
كنت فيها سوادها
كنت دهرًا فسادها

هب لعميني رقادها
وارحم المقللة التي
كنت صلاحاً لها كما

وقال آخر :

ونم فالليل مُسوّد الجناح
أفرق بين ليلي والصبح !؟

وقالوا : دع مراقبة الثريا
فقلت : وهل أفاق القلب حتى

وقال آخر :

طار اشتياقاً إلى لُقياً مُعذّبه
أعز من نفسه شيء فذاك به

ولى فؤاد إذا طال النزاع به
يفديك بالنفس صبّ لو يكون له

وقال آخر :

قلّتك ولا أن قلّ منك نصيبها
بقول إذا ما جئت : هذا حبيبها

وما هجرتك النفس يا مئ أنها
ولكنهم يا أحسن الناس أولعوا

وقال المحاربي :

بأهل الهوى فافقد حبيباً وجرب
بأنضج من كي الغضى المتلهب^(١)

إذا أنت لم توقن بما صنع الهوى
تري حركات يلدغ القلب حرّها

وقال الأفرع بن معاذ :

بمكة والأنضاء ملقى رحالها
أضر بجسمي منذ مر خيالها ؟
من الله بلوى في الزمان تنالها
سريع على جيب القميص انهمالها
مناها وإن كانت قليلاً نوالها

أقول لمفت ذات يوم لقيته
بحقك أخبرني أما تأثم التي
فقال : بلى والله أو سيصيبها
فقلت : ولم أملك سوابق عبدة
عفا الله عنها كل ذنب ولقيت

وقال آخر :

وعاتباه لعل العتب يعطفه
ما ضر لو بوصال منك تسعفه ؟
ما بال عبدك بالهجران تتلفه ؟
فغالطاه وقولا ليس نعرفه

بالله ربكما عوجاً على سكني
وعرضاً بي وقولا في حديثكما
فإن تبسم قولاً عن ملاطفة
وإن بدا لكما من سيدي غضب

وقال عبد الله بن أبي الشيص :

تخال لحاظها للضعف مَرَضِي
فما مني بغير الهجر تَرْضِي

ومعرضة تظن الهجر فرضاً
كأنني قد قتلت لها قتيلاً

وقال الحسين بن الضحاك :

(١) الغضى : شجر شديد الاشتعال ولذا يقال : جمر الغضى .

والبعض أضحى بالدموع غريقاً
إلا ظننتك ذلك المعشوقاً

وقال آخر :

ك بلا لسان ناطق
من غير قلب صادق

وقال آخر :

حتى إذا ظفروا به قملوه
إن العزيز على الذليل يتيه
لولا تقلب طرفه دفنوه
فأنا الهوى وحليفه وأخوه

وقال أحمد بن طاهر :

وداؤ عليل صبرك بالسُّلُو
ألذ من الشماتة بالعدو

وبالهجران قبلكم بدأت
علني إذا أسأت كما أسأت

ووالله ما أدري لهم كيف أنعت ؟!
ونوم على عيني قليل مفوت
له وضع كفى فوق خدي وأسكت

أكنى بأخرى أسميها وأعنيك
أو سهم غيران يرميني ويرميك
قبلت فاك وقلت : النفس تفديك
إلا شهادة أطراف المساويك
بالله لا تجعلها بيضة الديك^(١)

أحبك حبا مستكنا وباديا
من الناس أعداء لجر التصافيا

وثغر الهنا في روضة الحسن ضاحك
وأصبحت يوماً والجفون سوافك

بعضى بنار الهجر مات حريقاً
لم يشك عشقاً عاشقاً فسمعه

وقال آخر :

وأجيل فكري في هوا
أدعو عليك بحرقه

وقال آخر :

يا ويح من خبل الأحبة قلبه
عزوا ومال به الهوى فأذله
انظر إلى جسد أضرب به الهوى
من كان خلوا من تباريح الهوى

وقال أحمد بن طاهر :

تقول العاذلات تسأل عنها
فكيف ونظرة منها اختلاسا

وقال إسحاق مولى المهلب :

هبيني يا معذبتى أسأت
فأين الفضل منك فدتك نفسي

وقال أبو العتاهية :

يقول أناس لو نعت لنا الهوى
سقام على جسمي كثير موسع
إذا اشتد ما بي كان أفضل جيلتي

وقال بشار :

يا قرة العين إنى لا أسمىكي
أخشى عليك من الجارات حاسدة
لولا الرقيب إن ذودعت غادية
يا أطيب الناس ريقاً غير مختبر
قد زرتنا مرة في الدهر واحدة

وقال آخر :

ألم تعلمي يا أحسن الناس أننى
أحبك ما لو كان بين قبائل

وقال آخر :

سقى الله ربعا كنت أخلو بوجهكم
أقمنا زمانا والعيون قريرة

(١) يضرب المثل ببيضة الديك في الندرة .

وقال آخر :

أظلل إذا لم أُسَقِّ ماءك صاديا ؟
من الوجد أستبكي الحمام بكى ليا

ألم تعلمي يا عذبة الماء أنني
وما زلت بي يا بئس حتى لو أنني
أبو العباس الشهير بالنفيس :

هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ولا وفي لك قلبي وهو يحترق

يا راحلا وجميل الصبر يتبعه
ما أنصفتك جفوني وهي دامية
الوزير ظهير الدين الملقب بأبي شجاع :

فيها بكت بالدمع أو فاضت دما
حتى يعود على الجفون محرما
لؤلؤ لم تكن نظرت لكنت مسلما
وهي التي بدأت فكانت أظلما

لأعذب العين غير مفكر
ولأهجرن من الرقاد لذيله
هي أوقعتنني في حبال فتنة
سفكت دمي فلأسفحن دموعها
وقال العتي :

أسفا عليك وفي الفؤاد كلوم
إلا عليك فإنه مذموم

أضحت بخدي للدموع رسوم
والصبر يحمدي في المواطن كلها
الرفاء الأندلسي :

تتحير الألباب عند لقائه
عرقا فقلت : الورد رش بمائه

ومهفهف كالغصن إلا أنه
أضحى ينام وقد تكلل خده
وقال آخر :

فصار كالنرجس المضعف
بشعر أصدغسه مغلّف
كأنه لؤلؤ منصف

أخضر وأصفر لاعتلال
كأن نسرين وجنتيه
يرشح منه الجبين ماء
وقال آخر :

طورا وحاول أن يسعى فلم يُطَق
فعل النسيم بغصن البانة الورق

وقام يخطرُ والأرداف تُقعده
فعائل فعلت فعل الشمول^(١) به
وقال آخر :

وفي الكون أسرار وفيه لطائف
جياذا ولكن الليالي صيارف^(٢)
يرى امتحاناتي وما أنا زائف
فيا ذهبى اللون إنك حائف^(٣)

بأركان هذا البيت إنى لطائف
رعى الله أياما وناسا عهدتهم
وبى ذهبى اللون صيغ لمحنتي
يذيب فؤادا وهو لا غش عنده
ومما قيل في الرقاء :

(١) الشمول: الخمر.

(٢) صيارف: جمع صيرف، والصيرفي هو الذي يعد النقود ويتاجر في العملة.

(٣) حائف: من الحيف وهو الظلم.

وملكت بسط الأمر فى التعذيب
ولكنك أقلع كل عين رقيب

ولا كالكلّم من عين الرقيب^(١)
مكان الكاتبين من الذنوب
نسلم كالغريب على الغريب
كما يشكو المحب إلى الحبيب

فحياته فيها حياة غريب
لا أنت لا بل عين كل رقيب

كأننى جئت بأمر عجيب
بليت فيها بملام الرقيب
إن البكا حسن بكل غريب

ولكن شقوة بلغت مداها^(٢)
إذ بانك حبيبته بكاهها

فقلت لها : ياعلو هذا الذى بقى
فشابت دموعى عندما شاب مفرقى
ولم يبق إلا لوعتى وتحرقى

فقد بكيت لفرط النازحين دما
فكيف وهى التى لم تبلغ الحُلما

وابعث خيالك فى الكرى
عن حالها ياما جرى !

فرأيت من هجرانكم ما لا أرى
يجرى به دمعى دما وكذا جرى

يأمر السهد فى كراها وينهى

لو أن فى الحب أمرا نافذا
لقطعت ألسنة العواذل كلها
وقال أعرابى :

بسهم الحب كلّم فى فؤادى
تمكن ناظراه به وأضحى
ومن حذر الرقيب إذا التقينا
ولولاه تشاكينا جميعا
وقال آخر :

من عاش فى الدنيا بغير حبيب
عين الرقيب غرقت فى بحر العمى
وقال أحمد بن أبى سلمة :

يعذلنى فيه جميع الورى
أظن نفسى لو تعشقتها
وأنا الغريب فلا ألام على البكا
وقال آخر :

وما فارقت سمدى عن قلاها
بكيت نعم بكيت وكل ألف
وقال آخر :

وقائلة ما بال دمعى أبىض ؟
ألم تعلمى أن البكا طال عمره
وعما قليل لا دموع ولا دما
وقال آخر :

يا نازح الطيف من نومى يعاونى
أوجبت غسلا على عينى بأدمعها
وقال آخر :

أرحم رحمت للوعتى
ودموعى عينى لا تسئل
وقال آخر :

أملت أن تنعطفوا بوصالكم
وعلمت أن فراقكم لا بد أن
وقال آخر :

إن عينى مذ غاب شخصك عنها

لا تسل ما جرى على الخد منها

بنار أسي من حبة القلب تقدح
فكل وعاء بالذى فيه ينضح

بدم على عيش تصرم وانقضى
لما تصاعد صار يقطر أبيضاً

لقلت : معذبي بالله زدنى
أغار عليك منك فكيف منى ؟!

ومنك ومن مكانك والزمان
إلى يوم القيامة ما كفانى

نعم وأشفق من دمعى على بصرى
أنى أعذبه بالدمع والسهرة !

وعقولنا وجفا الجفون منام
يا حبذا إن صحت الأحلام

بقية البدر فى أولى تسايره
من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

مشمم الذيل منسوب إلى القصر
فأطلع الشمس من غيظ على القمر

وكل يشتكيه بكل حال
ويشكو قصره أهل الوصال

قد صيرانى جميعاً فى الهوى مثلاً
بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

تطوى وتُنشرُ بينها الأعمارُ
وطوالهن مع السُرور قصارُ

بدموع كأنهن الفغواذى
وقال آخر :

يقولون لى والدمع قرح مقلتى
أدمعك جمر قلت : لا تتعجبوا
وقال البدر الذهبى :

قالوا : تباكى بالدموع وما بكى
فأجبتهم هو من دمي لكنه
وقال ابن مطروح فى الغيرة :

ولو أمسى على تلفى مصرا
ولا تسمح بوصلك لى فإنى
وقال آخر :

أغار عليك من نظرى ومنى
ولو أنى خبأتك فى جفونى
وقال آخر :

قالوا أترقد مذ غبنا ؟ فقلت لهم :
ما حق طرف هدانى نحو حسنكم
عز الدين الموصلى :

فسدت لطول بعادكم أحلامنا
والطيف قد وعد الجفون بزورة
ومما قيل فى السهر وطول الليل ونحو ذلك : قال الشاعر :

ورب ليل سهرناه وقد طلعت
كأنما أدهم الظلماء حين نجا
وقال آخر :

ليل المحبين مطوى جوائبه
ما ذاك إلا لأن الصبح نَم بنا
وقال غيره :

فلم أر مثل ليل ذوى التصابى
فيشكو طولَه أهل التجافى
وقال آخر :

ليلى وليلى سواء فى اختلافهما
يجود بالطول ليلى كلما بخلت
وقال آخر :

إن الليالى للأنام مناهل
فقصارهن مع الهموم طويلة

وقال غيره :

حظ عيني فيه دمع وسهر
صحت يا ليلي أما فيك سحر^(١) ؟!

رب ليل لم أذق فيه الكرى
كلما هيج ليلي حرقى

وقال آخر :

لابد لي من سهرك
ما بت أرعى قمر^(٢)

ياليل طل أو لا تطل
لوبات عندي قمرى

وقال بشار بن برد :

وما بال ضوء الصبح لا يتوضح ؟
أم الدهر ليل كله ليس يبرح ؟

خليلي ما بال الدجى لا يزخرح
أضل إليها المستنير طريقه

وقال آخر :

ليعلم طال الليل أم قد تعرضا^(٣)
يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا ؟

كأن الثريا راحة تشبر الدجى
فليل تراه بين شرق ومغرب

وقال ابن منقذ :

والقطب قد ألقى عليه سُبَاتَا^(٤)
أيقنت أن صباحهم قد ماتا^(٥)

لما رأيت النجم ساه طرفه
وبنات نعش فى الحداد سوافر

وقال آخر فى ليلة ممطرة :

وأدمع الغيث فى انسفاح
قد بات يبكى على الصباح

أقول والليل فى امتداد
أظن ليلي - بغير شك -

ومما قيل فى فانوس لابن تميم :

دُرِفْتُ على فقد الحبيب دموعه
وتعد من تحت القميص ضلوعه

انظر إلى الفانوس تلق متيما
يبدو تلهب جسمه لنحوه

فيه لابن قزل :

دِنْفُ براه شوقه وسهاده
وجرت مدامعه وذاب فؤاده

وكأنما الفانوس فى غسق الدجى
أضلاعه خفيث ورق أديمه^(٦)

ولبعضهم فى شمعة :

وإن كنت صبًا دونها متوجعا
وصبرا وصمتا واحتراقا وأدمعا

حكنتى وقد أودى بى السقم شمعة
ضننى وسهادا واصفرازا ورقة

ومما قيل فى الربيع والرياح والبساتين والمياه والنواوير^(٧) ونحو ذلك : قال الشاعر :

متجاوب فى أيكه أطيّاره

هذا الربيع وهذه أزهاره

(٢) أرعى قمر: يستهر القمر والنجوم، والكواكب، وكأنه يرعاها.

(٤) السبات: النوم.

(١) السحر: آخر الليل، ويريد: أما لهذا الليل من آخر؟

(٣) الراحة: باطن الكف، وتشبر: تقيسه بالشبر لتعلم طوله من قصره.

(٥) بنات نعش: سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شبهت بحملة النعش.

(٦) الأديم: أديم كل شيء: ظاهره، والأديم: الجلد، ويقال: أديم الليل أي ظلمته.

(٧) النواير: جمع ناعورة: الساقية.

والورد يضحك بينها وبهارة

وبدا البنفسج والشقائق مُونقٌ

وقال غيره :

سُحَيْرًا وأوداج الأباريق تُسْفِكُ
من النور^(١) يجرى دمه وهو يضحك

غدونا على الروض الذي طلّه الندى
فلم نر شيئاً كان أحسن منظراً

وقال آخر :

بخضرة واكتسى بالنور عاريها
وللربيع ابتسام فى نواحيها

أما ترى الأرض قد أعطتك زهرتها
فللسماء بكاء فى جوانبها

غيره :

لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر
إلا إذا رمدت من شدة المطر

إن السماء إذا لم تبك مقلتها
والأرض لا تنجلي أنوارها أبداً

وقال ابن قرناص :

جنونى فنوناً بأفنانها
لتقبيل أقدام أغصانها

أيا حسنها من رياض غدا
مشى الماء فيها على رأسه

وقال ابن تميم :

طرقي برؤتي حُسْنِها مَذْهُوشٌ
فكأنما هو مَغْصَمٌ مَنقُوشٌ

وحديقة ينساب فيها جدولٌ
يبدو خيال غصونها فى مائه

وقال أيضاً عفا الله عنه :

وأظّل منها تحت ظلّ ضافى ؟
والماء وافانى بقلب صافى

لم لا أهيّم إلى الرياض وحسنها
والزهر حيانى بثغر باسم

وقال آخر :

قد حباننا باللفظ والإكرام
أخرجتها لنا من الأكمام

قد سعيننا نبغى زيارة دُوح^(٢)
ناولتنا أيدي الغصون ثماراً

ومما قيل فى الأزهار والثمار قال بعضهم فى الورد :

فى روضة القصف والأطيّار تنتحب^(٣)

ياراقدا ونسيم الصبح منتبه

وقال بعضهم :

ويقول : وهو على البنفسج يحنق
من بينكم فهو العدو الأزرق

ولقد رأيت الورد يلطم خده
لا تقربوه وإن تضوّع نشره

ومما قيل فى البنفسج : وقال ابن المعتز :

بين الرياض على زُرق البواقيت
أوائل النار فى أطراف كبريت

ولا زودية وافت برؤرتها
كأنها فوق طاقات صففن بها

ولبعضهم فى الورد :

(١) النور: الزهر والنوار يتساقط منه الندى وقد تفتح فبدا كضاحك يتساقط دمه!

(٢) دُوح: جمع دَوْحَة، وهي الشجرة العظيمة المتعشبة ذات الفروع الممتدة. والمظلة العظيمة.

(٣) القصف: اللهو واللعب والافتنان فى الطعام والشراب، وتنتحب: تعلن البكاء.

أن البنفسج أزكى منه في المهج
آثار قرص يد في خذ ذي غنج

يرتاح صدري له وينشرح
بأن ضيق الأمور ينفسح

عيون لم تذوق طعم الغماض^(٤)
فنكست الرءوس إلى الرياض

لزهـور الأرض سـت
أن أوراقك سـت

إلى وللنمام حولي إمام
علينا وحتى في الرياحين نمام

وراح من إعجابه برأس
واصفر من غيظ به النرجس

نسيمه يشبه نشر الحبيب
حتى إذا الشمس دنت للمغيب
وغاص في البركة خوف الرقيب

فقلت : ما شأنك وسط البرك ؟
وصادني ظبي الفلا بالشرك
فيك وما هذا الذي غيرك ؟
صفر ولو ذقت الهوى صفرك

وعن قليل تسام الحرا
قد قلب الفز إلى برا

للورد فضل على زهر الربيع سوى
كأنه وعيون الناس ترمقه
وقال آخر :

يامهديا لي بنفسجا أرجا^(٢)
بشرنى عاجلا مصحفه^(٣)
وقال غيره في النرجس :

وقضب زمرد تملو عليها
توهمت الغمام لها رقيبا
وقال آخر :

أنت يا نرجس روض
ودليل القول فيك
وقال آخر :

أقول وطرف النرجس الغض شاخص
أيا رب حتى في الحقائق أعين
وقال أيضا فيه :

لما تمادى الورد في زهره
تلون المنثور مما به
ومما قيل في اللينوفر^(٥) لابن المعز المصري :

وبركة تزهو بلينوفر
مفتح الأجفان في نومه
أطبق جفنيه على خده
وقال تميم بن المعز المصري :

رأيت في البركة لينوفرا
فقال لي : غرقت في أدمعي
فقلت ما بال اصفرار بدا
فقال لي : ألوان أهل الهوى
ومما قيل في البان :

قد أقبل الصيف وولى الشتا
أما ترى البان بأغصانه
وقال آخر فيه :

(٢) أرجا: أي طيب الرائحة.

(١) ذي غنج: ذي دلال.

(٣) مصحفه: مجموع من الصحف في مجلد واحد.

(٤) الغماص: غمست العين، كان بها غمص، وهو ما سال من العين من وسخ أبيض جامد يجتمع في موق العين.

(٥) اللينوفر: نوع من أنواع الزهور.

كل الغصون بقذه المياس
يختال في السنجاب والبرطاس

ورأى الرقيب فشق ذاك عليه
أضعاف ما حملت يدای إليه

أحداق نرجسها إلينا تنظر
بات النسيم بذيله يتمثر

ولرب أخرس نباطق
فأنا الشقيق الصادق

كأنما صيغ من دُر وعقبان
هذا هو العيش إلا أنه فاني

كالدر والياقوت في نظمه
ومخ من يشنأك مثل اسمه

في روضة للزهر فيها معرك
مع أقحوان وصفه لا يدرك
ترنو إليه وثغر هذا يضحك

والأفق يسفر تارة ويقطب
والياسمين لها طراز مذهب

وقد أهدي إلى الياسمين
ولا تياس فإن اليأس مین^(٢)

بعد الهدوء بها قرع النواقيس
على الميادين أذئاب الطواويس

أما ترى البان الذي يزهو على
وافى يبشر بالربيع وقربه
وقال في الشقيق :

حييته بشقائق في مجلس
فاحمر من خجل فأنبت خده
وقال آخر :

لو لم أعانق من أحب بروضة
ما انشق جيب شقيقها حسدا ولا

وقيل : إن ابن الرومي الشاعر زار قبر أخيه يوما فوجد

قالت شقائق قبره
فارقته ولزمته
ومما قيل في المنثور :

تخال منشورها في الدوح منتثرا
والطير ينشد في أغصانه سحرا
وقال آخر :

قد أقبل المنثور يا سيدي
ثناك لازال كأنفاسه
ولبعضهم فيه :

ولقد خلوت مع الأحبة مرة
ما بين منشور أقام ونرجس
هذا يشير بأصبع وعيون ذا
ومما قيل في الياسمين :

والأرض تبسم عن ثغور رياضها
وكان مخضر الرياض ملاءة
وقال آخر :

رأيت الفأل بشرني بخير
فلا تحزن فإن الحزن شين^(١)
ومما قيل في السوسن للأهوازي :

سقيًا لأرض إذا ما نمت نبهني
كأن سوسنها في كل شارقة
ومما قيل في الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربي :

(١) الشين : العيب والقيح .

(٢) المين : الكذب .

بأفحوان يحاكي ثغر ملتسم
لثما وأرشف من ريق له شيم^(١)

بثغر حبك واستولى به الطرب
لقد حكيت ولكن فاتك الشنب^(٢)

كأنه في غصنه أحمره وأصفره
في خرقه مصفرة

غصنا نضيرا ناعما من آس
وكأنما تحكيه في الأنفاس

نما بين غصني نرجس وشقائق
شمائل معشوق وذلة عاشق

إذا ما بدا للعين لون الزبرجد
عذارا تبدى في سوايف أغيد

تشابهت منكم الأخلاق والخلق
حملا ونشرا وطاب العود والورق^(٤)

ناعمة مقدودة غضه
وجسمها الناعم من فضه

كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

حلو المقبل ألمى بارد الشنب
واستودعوها غلافا صيغ من ذهب

أفدى الذی زارنی سرّاً فأتحفنی
فبت من فرحی أفنى مقبله
ول بعضهم فيه :

إن فاه ثغر الأفاحي^(٢) في تشبهه
فقل له عندما يحكيه مبتسما
ومما قيل في الجلنار :

وجلنار مشرق على أعالي شجره
قراضة من ذهب
ومما قيل في الآس :

أهديتُ مُشبه قَدك الميَّاس
فكأنما يحكيك في حركاته

ومما قيل في الريحان :

وغصن من الريحان أخضر ناضر
يُريك إذ أكف الصبا عبثت به
وقال آخر :

قضيّب من الريحان شاكل لونه
فشبهته لما بدا متجعدا
ومما قيل في الفواكه والثمار على اختلافهما : في الأترج

كل الخلال التي فيكم محاسنكم
كأنكم شجر الأترج طاب معا
ول بعضهم فيه :

حياك من تهوى بأترجه
فجلدها من ذهب أصفر
وقال آخر :

يا حبذا أترجة تحدث للنفس الطرب
في الليمون قول أبي الحسن رئيس الرؤساء :

يا حسن ليمونة حيا بها قمر
كأنها أكرة من فضة خرطت
في النازج لعبد الله بن المعتر :

(١) شيم: بارد.

(٢) الأفاحي: مفردا أفحوان، وهو نبت زهرة، ورقه مؤلّل كأسنان المنشار.

(٣) الشنب: جمال الثغر، وصفاء الأسنان.

(٤) الأترج: شجر ثمره كالليمون الكبار وهو ذهبي اللون ذكي الرائحة حامض الماء.

كجمرة نار وهى باردة اللمس
فشبهتها المريخ فى دارة الشمس

على غصن رطب كقامة أغيد
بدت ذهباً فى صولجان زبرجد

ومنه ما نرى كالصولجان
غلائلها ضِبْغَنٌ بزعفران

حقاق عقيقٍ قد مُلِثن من الدر
قدود عذارى فى ملاحفها الخضر
فهاجت له الأشجان من حيث لا يدري

ومن جُلَنارِ نصفُها وشقائق
بها خد معشوق إلى خد عاشق

من لم يزل يجنّيه من خدّه
قد عطف المولى على عبده

محيا شجاء للحبيب فراق
بريح حبيب لذّ منه عناق
كريق حبيب طاب منه مذاق

شهى جاء من دوح الجنان
مغبرة بلون الزعفران

كطعم الشهد شيب بماء ورد
نهود السمر فى معنى وقد

على غض أغصان من الروض مُتَيْدٍ^(١)
جلاجل تبر فى قباب زبرجد

نظرت إلى نارنجة فى يمينه
فقربها من خده فتألفت
وقال آخر :

ونارنجة بين الرياض نظرتها
إذا ميلتها الريح مالت كأكرة
وقال آخر :

ونارنج يلوح على غصون
أشبهها ئدياً ناهدات
وقال آخر :

وأشجار نارنج كأن ثمارها
نطالعها بين الغصون كأنها
أتت كل مشتاق برئاً حبيب
وقال آخر فى تفاحة :

وتفاحة من سندس صيغ نصفها
كأن الهوى قد ضم من بعد فرقة
وفيه أيضا :

أهدى لنا التفاح من كفه
وخط بالمسك على بعضها
وقيل فى السفرجل :

سفرجلة صفراء تحكى بلونها
إذا شمها المشتاق شبه ريحها
وطيبة عند المذاق فطعمها
وقيل فى الكمثرى :

وكمثرى لذىذ الطعم حلو
مناكير الطيور إذا اقتتلنا
ابن برغش متغزلا :

وكمثرى سبانى منه طعم
لذيد خلقه لما أتانا
ومما قيل فى المشمش :

بدا مُشمش الأشجار يذكو شهابه
حكى وحكت أشجاره فى اخضراره
ما قيل فى الإجاص :

أغصانه ثمرا ناهيك من ثمر
كما اختبى الزنج في خضر من الأز^(١)

منظره منظر أنيق
معناه في مثلها دقيق
بهجتها التبر والعقيق
فزال عن بعضها الخلق

لها ثمرا يبدو بحسن مجرد
زها بمعمان زينت بتجرد
وأحشاء ياقوت وقلب زبرجد

كأنما النبق فيها وقد خلا في العيون
قد علققت في الغصون

نعم الهدية إذ وافتك من يده
كأن طيبهما من طيب محتده
وأسود العين يحكى لون أسوده

بل لأكل ومض لُب وزشف
باعتدال وحسن قَدْ ولطف

ببطيخة صفراء في لون عاشق
من الشمس ما بين النجوم ببارق

إلينا غلام فاق كل غلام
يقطعها بالبرق بدر تمام

وقد لاح في خديه شبه شقيق
وفرقتها ما بين كل صديق
مرصعة فيها فصوص عقيق

انظر إلى شجر الإخاص قد حملت
تراه في أخضر الأوراق مستترا
ما قيل في الخوخ :

أهدى إلى الصديق خوفا
من كل مخصوصة بحسن
حمراء صفراء مستعير
كوجنة مشها خلوق
ما قيل في الفستق :

تفكرت في معنى الثمار فلم أجد
سوى الفستق الرطب الجنى فإنه
غلالة مرجان على جسم فضة
ومما قيل في النبق :

وسدرة كل يوم من حسننها في فنون
جلجل من نضار
في العنب لبعضهم :

هدية شرفتنا من أخ ثقة
نوعان من عنب جاء على طبق
فأبيض العين يحكى لون أبيضه
في قصب السكر :

ورماح لغير طعن وضرب
كملت في استوائها واستقامت
ومما قيل في البطيخ الأصفر :

أنا غلام فاق حسنا على الورى
فشبهته بدرا يقدر أهلة
وقال آخر :

وبطيخة وافى بها فوق كفه
فخيل لى شمس الأصيل أهلة
ومما قيل في البطيخ الأخضر :

وظبى أتى فى الكف منه بمدية
فمال إلى بطيخة ثم شقها
صفائح بللور بدت فى زبرجد
وقال آخر :

(١) الأرز: شجر عظيم صلب دائم الخضرة، تُصنع منه السفن، وأشهر أنواعه أرز لبنان.

أُتَانَا بِهَا فَارْتَاخَ ذُو الْهَمِّ وَابْتَهَجَ
فَرَى طَرَفَهُ السَّاجِيَ الْقُلُوبَ مَعَ الْمَهْجِ

مِنَ الزَّمَرْدِ خَضِرًا مَا لَهَا وَرَقٌ
وَصَارَ فِي عَكْسِهِ إِنِّي بِكُمْ أَثَقُ

أَوْكَارِهِ خَمَلُ الرَّبِيعِ الْمُبَكَّرِ
فَاسْتَوْدَعْتَهُ حَوَاصِلًا مِنْ عَنَبَرٍ

نُورًا مِنَ الشَّمْسِ فِي حَافَاتِهَا طُلَعًا
شَهَبَ سَمَاوِيَّةَ فَارْتِخٍ وَالتَّمَعَا
كَفَ الْكَمَى إِلَى ضَرْبِ الْكَمَاةِ سَعَى

وَالْأَنْسَاتِ إِذَا لَاحَتْ مَعَانِيهَا
قَالَتْ : هِيَ الصَّرْحُ تَمْثِيلًا وَتَشْبِيهَا
مِنَ السَّبَائِكِ تَجَرَّى فِي مَجَارِيهَا
مِثْلَ الْجَوَاشِينِ ^(٢) مُضْغُولًا حَوَاشِيهَا
وَرَوْنَقَ الْغَيْثِ أَحْيَانًا يَبَاكِهَا
لَيْلًا حَسِبْتَ سَمَاءَ رَكِبْتَ فِيهَا

فِي غَايَةِ الْحَسَنِ وَالصَّفَاءِ
فِي الْأَرْضِ جَنْزَاءَ مِنَ السَّمَاءِ

وَعَلَيْهِ مِنْ صَبْغِ الْأَصِيلِ طِرَازٍ
عَكَنَ ^(٣) الْخُصُورَ تَهْزَاهَا الْأَعْجَازُ

وَلِكُلِّ وَقْتٍ مَسْرَةٌ قَصْرُ
وَكَأَنَّمَا دَارَتْهُ سُرُرُ

وَلَكِنْ فِيهِ لِلرَّائِي مَسْرَةٌ
كَأَنَّهُمْ نَجُومٌ فِي مَجْرَةٍ

وَبَطِيخَةُ خَضِرَاءَ فِي كَفِّ أَغْبَدٍ
وَأَقْبَلَ يَفْرِيهَا بِمَدِيدَتِهِ وَقَدْ
وَمِمَّا قِيلَ فِي الْقَتَاءِ :

انْظُرْ إِلَيْهَا أَنْابِيْبًا مَنْضُدَةً
إِذَا قَلْبْتَ اسْمَهَا بَانَتْ مَلَاَحَتُهَا
وَمِمَّا قِيلَ فِي الْبَاذَنْجَانِ :

وَكَأَنَّمَا الْأَبْذَنْجُ سَوْدُ حَمَائِمٍ
نَقَرْتَ مَنَاقِرَهُ الزَّمَرْدَ سَمْسَمًا
وَمِمَّا قِيلَ فِي الْأَنْهَارِ وَالْبَرْكِ وَالنَّوَاغِيرِ :

أَمَّا تَرَى الْبَرْكَهَ الْغُرَاءَ قَدْ كُسِيَتْ
وَالنَّهْرَ مِنْ فَوْقِهِ يَلْهِيكَ مَنْظَرُهُ
كَأَنَّهُ السَّيْفُ مَصْقُولًا يَقْلِبُهُ
وَقَالَ آخَرُ فِي بَرْكَهَ :

يَا مَنْ يَرَى الْبَرْكَهَ الْحَسَنَاءَ رُؤْيَتْهَا
فَلَوْ تَمَرَّ بِهَا بَلْقَيْسٌ عَنْ عَرْضِ
كَأَنَّمَا الْفُضَّةُ الْبَيْضَاءُ سَائِلَةٌ
إِذَا عَلَتْهَا الصُّبَا بَدَتْ لَهَا حُبُكًا ^(١)
فَحَاجِبُ الشَّمْسِ أَحْيَانًا يَضَاحُكُهَا
إِذَا النُّجُومُ تَرَاءَتْ فِي جَوَانِبِهَا
وَقَالَ آخَرُ :

وَبَرْكَهَ لِلْمَعْيُونِ تَبْدُو
كَأَنَّمَا إِذْ صَفَتْ وَرَاقَتْ
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَارَةَ الْمَغْرِبِي :

النَّهْرُ قَدْ رَقَّتْ غَلَالَةُ صَبْغِهِ
تَتَرَقَّرِقُ الْأَمْوَاجُ فِيهِ كَأَنَّمَا
وَقَالَ آخَرُ :

يَوْمَ لَقَا بِالنَّيْلِ مَخْتَصِرُ
فَكَأَنَّمَا أَمْوَاجُهُ عُكُنُ
وَقَالَ آخَرُ فِي نَهْرِ يَسْبِغُ فِيهِ الْغُلَمَانُ :

خَلِيجٌ كَالْحَسَامِ لَهُ صَقَالُ
رَأَيْتُ بِهِ الْمِلَاحَ تَجِيدُ عَوْمًا

(١) حُبُكُ : مفردُها حَبِيكَةٌ، وهِيَ الطَّرِيقَةُ فِي الرَّمْلِ أَوْ الْمَاءِ، وَمَسَرُّ النُّجُومِ.

(٢) الْجَوَاشِينُ : جَمْعُ جَوْشَنٍ، وَهُوَ الصَّدْرُ، وَالذَّرِّي.

(٣) عَكَنَ الشَّيْءُ : تَجَمَّعَ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ وَانْتَشَى، وَالْعُكْنَةُ مَا انْطَوَى وَتَشَّى مِنْ لَحْمِ الْبُطْنِ بَيْمَنًا.

وقال آخر في النيل :

إذ قال ملء مسامعي
عم البلاد منافع
قلعتها بأصابعي

النيل قال وقوله
في غيظ من طلب العلا
وعيونهم بعد الوفا

وقال آخر :

لما يبدو لعين الناس منه
ويمضي حين يستغنون عنه

كأن النيل ذو فهم ولب
فيأتي عند حاجتهم إليه

وقال آخر :

وطفت وطافت في البلاد
ما ذى أصابع ذى أيادي

وفت أصابع نيلنا
وأنت بكل مسرة

وقال آخر :

طرا فكل قد غدا مسرورا
عنه البشائر إذ غدا مكسورا

سدّ الخليج بكسره جبر الوري
والماء سلطان فكيف تواترت

وقال آخر :

غدت طوعا له في كل أمر
إليه بها فيأخذها ويجري

ونهر خالف الأهواء حتى
إذا عصفت على الأغصان ألقت

وقال آخر في ناعورة :

فغدت تنوب عن الغمام الهامع^(١)
ومسير مشتاق وأنة جازع

وكريمة سقت الرياض بدرها
بلسان محزون ومدمع عاشق

وقال آخر :

وأضلعها كادت تعد من السقم
وأما دموعي فهي تجري على جسمي

وناعورة قالت وقد حال لونها
أدور على قلبي لأنني فقدته

وفيها أيضا :

يفيض لها دمع كمنتثر العقد
فليس لنا من ذلك الفعل من بد
وأبكي بإفراط الصبابة والوجد
ودمعي من عيني يفيض على خدي

وحنانة من غير شوق ولا وجد
أحن إذا حنت وأبكي إذا بكت
ولكنها تبكي بغير صبابة
وأدمعها من جدول مستعمارة

وفيها أيضا قال الخطيري :

فارقته فقد غدت لي تحكي
وعلى إلها تدور وتبكي

رب ناعورة كأن حبيبًا
أبدا هكذا تثن بشجو

ابن تميم :

(١) أغمع الماء ونحوه: أي سال، وسحاب وهيم، أي ماطر.

ودمعهما بين الرياض غدير
فأصبح ذا يجرى وذاك يدور

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى
كأن نسيم الجوّ قد ضاع منهما

فصل في ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك

لابن عفيف في قاض مليح :

يعرب عن منطلق لذيد
قلنا له : دائم النفوذ

ورب قاض لنا مليح
إذا رنالى بسهم لحظ
وقال في فقيه مليح :

وهو المهذب في الرشاقة والخور
لكن وجيز الخصر منه المختصر

وبمهجتي ظبياً غدا متفقهها
أمسى بسيط الشعر منه مطولا
وقال في محدث مليح :

شرد عن جفني الوسن^(١)
كلاهما عندي أحسن

علقته محدثا
حديثه ووجهه
وقال في الإمام :

يخجل البدر في ليالي السعود
حين يومي بوجهه للسجود

جاء يسمي إلى الصلاة بوجه
فتمنيت أن وجهي أرض
ابن الرومي وأجاد :

موتني فيه حياة
فأعالت فأعالت

بى عروضى مليح
عازلاتى فى هواه
فى مؤذن مليح :

لكنه بالوصل أى شحيح
من بعد ذاك أعيش بالتسبيح

ومؤذن أضحى كريم وجهه
أبدا أموت بهجره لكننى
لابن عربى :

لم يفدنى شكوى الغرام إليه
واضع أصبعيه فى أذنيه

وبنفسى مؤذن قد سباني
كيف يصفى لما يقول حبيب
وقال آخر فى مريد :

مخبأ فى الزوايا
ففى الزوايا خبايا

مراد قلبى مريد
وليس ذا بعجب
وفى فقير مليح :

بسنا وجه منير
فغرامى بالفقير

بى فقير يتفنى
لا تلمنى فى افتضاحى
فى أمير شكار لابن دانيال :

(١) الوسن : وبينَ وسَنًا وسِنَةً، أي أخذ في الثعاس.

وجد يذيب الجوارح
حننت إليه الجوارح

وغدا يلين لحسنه الجلمود
وإذا شدا فكأنه داود

أمسى به قلبي المضنى على خطر
فراحت الروح بين السهم والوتر

بديعاً ما رأينا منه أجمل
بوجنته غدا دمعي مسلسل

فيه تسزايد عشقي
لكان مالك رقي

قد راق في التقبيل عندي ورق
ما أحسن الأغصان بين الورق

لمطلقك بالوصال يكاد يبلى
محب يسأل الوراق وصلا

أمسى بعميد الدار فاقد إلفه
قد مئت من جور الزمان وصرفه

ولا يرضى ببدر التم نائب
وأصبح راكباً تحت العصائب^(١)

وزاد صداً وطال هجراً
فقال لما عشقت فرا

بالهجر والصد أنوعاً من القُصص
أيضا تقص علينا أحسن القصص

بى من أمير شكار
لما حكى الظبى حسنا
فى مليح مغن :

أضحى يخر لوجهه قمر الدجا
فإذا بدا فكأنما هو يوسف
فى مليح عواد :

غنى على العود ظبى سهم ناظره
دنا إلى وجست كفه وتراً
فى مليح كاتب :

بروحى كاتباً كالبدور حسنا
على ربحان عارضه المفدى
غيره :

وراقنا ذا الممفدى
فلو يجود بوصل
وفيه أيضا :

يا حُسنَ وراق أرى خذّه
تميل فى الدكان أعطافه
للسيد الشريف صلاح الدين الأسيوطى فيه أيضا :

فديتك أيها الوراق قلبى
وقد طلب الوفاء وغير بدع
فى مليح صيرفى :

يا سائلاً عن حالتى ما حال من
بى صيرفى لا يرق لحالتى
فى مليح بخانقى :

تسلطن فى الملاح بخانقى
وقد صفت له الأتراك جندا
فى مليح فراء :

قلت لفرا قرى أديمى
قد فرنومى وفر صبرى
فى مليح قصاص :

أشكو إلى الله قصاصاً يجرعنى
إن تحسن القص يُمناه فمقلته

(١) العصائب: مفرداً عصابة وعِصَاب، وهي الجماعة من الناس أو الخيل أو الطير، وبمعنى العمامة، والتاج.

في ملبح صباد :

يـمـمـدُّها وشـراك
تـصـيد ؟ قال : كـراكـي

ومـولـع بـفـخـاخ
قـالـت لـه الـعـيـن : ما ذا

في ملبح رامى بندق :

طائر قلبى عليه واجب
يرمى إلى البدر بالكواكب

وأهـيـف الـقـد ذى دلال
كـالـشـمـس هـه هـلال

القيراطى فى ملبح طحان :

بـلـحـاظ وبـقـامـه
يـجـعـل الـغـمـز عـلامـه

حُـسـنُ طـحـان سـبـانـي
خـاف مـن وائـ فـأـضـحـي

القاضى بدر الدين البلقينى فى تراب :

أورث القلب عذابا

رـب تـرـاب مـلـيـح

وقال آخر فى ملبح عوام :

يـبـخـل بـالـوـصـل لـمـن هـامـا

يا حـسـن عـوام كـفـصـن النـقا

وله أيضا :

و نـشـرك كـافـور وذكـرك عـنـبر
وخلـقـك رـيـحـان ولفـظـك جـوهر

ومـن عـجـب تـدـعـى لـلـطـفـك سـنـبـلا
وسـعـدك إقـبال وحـسـنك مـرشد

وقال آخر فيمن به صفرة :

فـقـلت : ما ذا كـ من عـيب بـه نـزلا
فـلـست تـلقـاه إـلا خـائـفا وجـلا

قـالـوا : بـه صـفـرة شـانت مـحـاسـنـه
عـيـناه مـطـلـوبـة فـى ثـار مـن قـتـلت

للشيخ شهاب الدين بن حجر فى ملبح اسمه زائد :

لـلـطـرف يـا طـرف شـاهـد
تـيـها عـلى بـزائـد

وزائـر قـال قـلـبـي
مـدـحـته فـتـجـنـي

وقال آخر فى ملبح أرمد :

لـواحـظـه مـن الـفـتـكـات فـيـنا
فـقـلت : نـعم لـقـتل العـاشـقـيـنا

شـكا رـمـدا فـقـلت : الـآن كـلـت
وقـالـوا : سـيـف مـقـلتـه تـصـدى

لمجد الدين بن مكانس فيه :

وبـات يـشـكو لـهـيـب الـقـلب والألـما
فـيـالـه مـن حـبـيب قـد شـكا ورمـا

تـورمـت مـقـلة المـحـبـوب مـن رَمَدِ
وبـات يـرمـى مـحـبـيه بـأسـهـمـه

لابن أبى حجلة فى أعور :

مـقـلـوعـة بـمـحـاسـن مـتـزايـدة
ما ظـل يـنـظـرهم بـعـيـن واحـدة

ما شـان مـن أهـواه عـيـن أصـبـحت
لـولا اسـتـخـف العـالـمـيـن بـأسـرهم

القيراطى فى ملبح اسمه بدر :

أـن فـاق فـى حـسـنـه و تـمـا
بـأنـه اسـم عـلى مـسـمـى

سـمـوه بـدرا وذاك لـمـا
وأجـمـع النـاس إذ رآوه

آخر في مليح اسمه حمزة :

ويرث لى وينظر فى بلائى
وأجمع بين حمزة والكسائى

متى يبدو لحمزة ما بقلبى
وأشقى بالمبرد من لماء
وقال آخر :

غزال قد تحكم فى قيادى
وفى معسول فيه وفى فؤادى

كلفت به ولم أبلغ مرادى
فتصحيف اسمه فى وجنتيه
فى مليح سروجى :

به قد ذبت وجدا من ضجيجى
يلذ لى الركوب على السروج

فتنت به سروجيا بديعا
إذا جذب الغرام له عنانى

وقال آخر فى مليح محموم :

أنا الذى كنت فى جمائه السببا
فأثرت فيه تلك النار فالتهبنا

قالوا : حبيبك محموم فقلت لهم
عانقته ولهيب النار فى كبدى
وقال فى مليح خباز :

فى حشا الصب من جفاه كُلموم
وهو بدر والخبز فيه نجوم

إن خبازنا المليح المفدى
خلت دكانه البديع سماء
وقال فى مليح حائك :

كالبدر فى كفيه ماسوره
عاينت فى كفيه ماسوره

وحائك يا صاح أبصرته
فلم أرح إلا وروحى لما
فى مليح خياط :

بديع حسن فريد شكل
لما جفانى وكف وضلى

خياطنا الفاتن المفدى
فضّل للجسم ثوب سُقم
الصفى الحلى فى مليح قلع ضره :

وجاء لقلع ضرسك بالمحال
وسلط كلبتين على غزال

لحا الله الطبيب لقد تعدى
أعاق الظبى فى كلتا يديه
وقال فى مليح سلم عليه :

به قوم وعمهم الضلال
وقالوا إن معجزه محال
إلى وقيل : كلمه الغزال

تنبأ فيك قلبى فاسترايت
وصدهم الهوى أن يؤمنوا بى
ومذ سلمت سلمت البرايا
وقال فى مليح يرمى بالسهام :

بقوس رمى فى النقع^(١) وحشا بأسهم
هلال رمى فى الليل جنا بأنجم

وظبى بشعر فوق طرف مفوق
كبدر بأفق فوق برق بكفه

(١) النَّقْعُ : الماء المجتمع في الغدير، ونَقَعَ البئر : الماء المجتمع فيها قبل السَّقْيِ، والغبار الساطع.

وقال في مليح يضرب بالعود :

شاد تجمعت المحاسن فيه
وكأن ما بيمينه في فيه

فتن الأنام بعوده وبشده
حتى كأن لسانه بيمينه

وقال أيضا فيه :

نغما أصح به القلوب وأمرضا
نال الرفاق بسخطها عين الرضا

وأغن قد أبدى لنا من عوده
بيد إذا سخطت على أوتاره

وقال في مليح مشبب :

من رقدة السكر لا من رقدة الحفر
فكان فيك مراد السمع البصر
ضمنت نايتك ناى الهم والفكر
إذ جئت في اللفظ والمعنى على قدر

يا نافخ الصور بل يا باعث الصور
قرنت حسنك بالإحسان فيه لنا
ضمنت للصحب إقبال السرور كما
صوت بسيط به أرواحنا انبسطت

وقال أيضا في رسول مليح أتاه من عند من يحبه :

كان الجواب قبوله
جاء الصباح دليله
إلا ارتقت وصوله
بل الفؤاد غليله

من كنت أنت رسول
ياطلعة الشمس الذى
لم يبد وجهك قبله
فلذاك إذ واجهتنى

في مليح قارئ :

يوم الزيارة قارئاً فى المصحف
تسبى وتضنى كل صب مدنف
وحلا محيا مثل صورة يوسف

نفسى الفداء لشادن شاهدته
فتن الأنام ببهجة وبلهجة
فتلا ملياً جل سورة يوسف

وقال آخر في مليح مكتمل العذار :

فصدنى وازور من قبلتى
وأنت ما تفكر فى لحيتى ؟!

وكامل المعارض قبلته
وقال كم أنهاك عن مثل ذا

وقال آخر في مليح حجام :

فغدا على سفك الدماء يواطى
منه اللحاظ كليلة المشراط

كلفت بحجام تحكم طرفه
أضحى كثير الاشتطاط ولم تكن

[فصل فى الألفاظ]

[١] فى غزال :

ظاهـر فى حروفه
زال باقى حروفه ؟!

اسم من قد هويته
فإذا زال ربـعه

[٢] فى كوز فقاع :

له فى السجن ثوب من رصاص
يقبل فاك من فرح الخلاص

ومحبوس بلا ذنب جناه
إذا أطلقته وثب ارتفاعا

[٣] في زرموزة :

تحمله وهو لها حامل
لا تشرب الدهر ولا تأكل

مطية فارسها راجل
واقفة بالباب مزبولة

[٤] وقال في طاحون :

تراها مدى الأيام تمشى ولا تتعب
وتأكل مع طول المدى وهي لا تشرب
ولا تلت ثمن من ذراع ولا أقرب

ومسرة في سيرها طول دهرها
وفي سيرها ما تقطع الأكل ساعة
وما قطعت في السير خمسة أذرع

[٥] في دواة :

لها لبن ما لذّقط لشارب
وأولادها مدخورة للنبوائب

ومرضعة أولادها بعد ذبحهم
وفي بطنها السكين والشدي رأسها

[٦] في قلم :

يترجم عن ذي منطق وهو أبكم
ويضحى بليغا وهو لا يتكلم

وأهيف مذبوح على صدر غيره
تراه قصيرا كلما طال عمره

[٧] وفيه أيضا :

لسان ولا قلب وهو سامع
إليه إذا ما حركته الأصابع

بصير بما يوحى إليه وماله
كان ضمير القلب باح بسرّه

[٨] وفيه أيضا :

يشتت شمل الخطب وهو جموع
به الأسد في الغابات وهو رضيع

وأصفر عار أنحل السقم جسمه
خمن الجيش مفظوما كما كان تحمي

[٩] وفيه أيضا :

أعمى بصير دمه جار
مجتهد في طاعة الباري

وذى نحول راكع ساجد
ملازم الخمس لأوقاتها

[١٠] في مرملة^(١) :

حزينة ما تراها قط تبتسم
تبكي دماء على ما سطر القلم

معشوقة لذوات العز قد صنعت
كأنها من صروف الدهر خائفة

[١١] في كتاب :

بسرّ وذو الوجهين للسر يظهر
فتسمعها بالعين ما دمت تبصر

وذى أوجه لكنّه غير بائح
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه

[١٢] في سلطان حسن لابن أبي حجلة :

حسن الحروف يجود بالإحسان
صحفت أحرفه بحسن بيان
نلت المراد وعشت بالسلطان

ما اسم محبب للقلوب لأنه
تصحيّفه أمسى حبيبا كلما
لوجاد لي يوم برؤية وجهه

(١) المرملة: ما يوضع فيه الرمل لتجفف به الكتابة.

[١٣] في شباة :

تزينها النضارة والشباب
مُنقبة وليس لها نقاب
أحاديث تَلَذُّ وتُستطاب
وليس لاسعد ولا الرباب

وما صفراء شاجية ولكن
مكتبة وليس لها بنان
تصيح .. لها إذا قبِلتْ فاهها
ويحللو المدح والتشبيب فيها
[١٤] في دملج^(١) :

وعندهن يوجَدُ
والقلب منه جُلُمَدُ

إلى النساء يلتجى
الجسم منه فضة
[١٥] في خلخال :

يفه بكلام قط في ساعة الضرب
على أنه أضحى يدور على الكعب

أيا عجباً من صابر صامت ولم
أقام ولم يبرح مكاناً ثوى به
[١٦] في شعر اللحية :

جميل على كحل الملاح له حق
وفى قلب هارون له الهلك والمحق

وذى عدد كالرمل سام محله
يحاذر من موسى ويرهب باسمه
[١٧] في التين :

كيف لا يبدو وضوحاً

أى شيء لذ طعماً ناعم اللمس ولين
وهو فى التصحيف بين ؟!

[١٨] فى الموز :

تلقاه عند الناس موزونا
واوا ونونا صار موزونا

ما اسم لشيء حسن شكله
تراه معدوداً فإن زدتَه
[١٩] فى حمزة :

أزرى بغصن البان ليناً قدّه
وبقلب عاشقه لشدة صدّه

من لى بمعتد القوام مهفهِف
فى فيه تصحيف اسمه وبخده
[٢٠] وفيه أيضاً :

وطول دهرى أخشى من تجنيه
يبدو وفى خده أيضاً وفى فيه

اسم الذى أنا أهواه وأعشقه
تصحيفه فى فؤادى دائماً أبداً
[٢١] فى ساقه :

أشاهدها تجرى وليس لها رجل
وليس لها ثدى وليس لها بغل

وجارية لولا الحوافر ما جرت
وتُرضع أطفالاً ولا هى أمهم
[٢٢] وفيها أيضاً :

بلا ألم فيها ولا ضرب ضارب
وما كان شنق القوم إلا بواجب

وجارية تبكى إذا الليل جثها
عليها رجال شنقوا بعد حرقهم

(١) الدملج: سوار يحيط بالعضد والحجر الأملس.

[٢٣] في رواية :

وإن شئت تسقيك من فرد يد
وثنتاهما واحد في العدد
وفى ساعة يضعان الولد

وسوداء تشرب من رأسها
ولوّن لها مثل لون أختها
وتحبّل في الوقت هي وأختها

[٢٤] في فيل :

وهو ذو أربع تعالى إليه
لم يكن عند جوعه يرعاه
رمت عكسا يكون لى ثلاثه

أيما اسم تركيبه من ثلاث
حيوان والقلب منه نبات
فيك تصحيفه ولكن إذا ما

[٢٥] في بجع :

يلوح للناس عجب
والعين منه فى الذنب

ما طائر فى قلبه
منقاره فى بطنه

[٢٦] فى نار :

له طلعة تغنى عن الشمس والقمر
وليس له سمع وليس له بصر
ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكر
ويأكل ما يلقي من النبت والشجر
ولا فنم عنها ونّبّه لها عمر

وما اسم ثلاثى به النفع والضرر
وليس له وجه وليس له قفا
يمد لسانا يختشى الرمح بأسه
يموت إذا ما قمت تسقيه عامدا
فيا قارئ الأبيات دونك شرحها

[٢٧] وفيها أيضا :

لها الأشجار والحيوان قوت
وإن أسقيتها ماء تموت

وأكلة بغير فم وبطن
إذا أطعمتها انتعشت وعاشت

[٢٨] فى يد الهاون :

منتصب القامة طول الزمان
مفيشل الرأس قوى الجنان
ويظهر الصفق بأعلى مكان

قل لى فما شىء يرى ناعما
أطول من شبر له خزة
يسمع فى القعر له رنة

[٢٩] فيه أيضا :

أوسع ما فيه فمه
يرفسه ويلكمه
ولم يجد من يرحمه !

خببرونى أى شىء
وابننه فى بطنه
وقد علا صياحه

[٣٠] فى كوز زير :

له قلب بلا لب
فقل ما شئت فى الصب

وذى أذن بلا سمع
إذا استولى على صب

[٣١] فى اسم على :

أوليه فى ناظره
فإن لى فى آخره

اسم الذى أعشقه
إن فاتننى أوليه

[٣٢] في موسى للصفدي :

يكلّم من يلامسه بحقه
وهذا الرأس صارت تحت حلقه

وما شيء له حدّ وخدّ
وكل حلقه من تحت رأس

[٣٣] في حلب لابن الفارض رحمه الله تعالى :

تصحيفه أخرى بأرض المعجم
وجدته طيرا شجى النغم

ما بلدة بالشام قلب اسمها
وثلثه إن زال من قلبه

[٣٤] وقال في سمرقند :

ترى فيه أجزاء تدم وتشكر
وثلث مع الكتاب يطوى وينشر
على مدد الأيام نشر معطر
حديث شهى فى الليالى يذكر
إلى النار للتحليل والعقد سكر
فليس على ذى العقل لغز معسر

وما اسم سداسى إذا مالمحتة
له ثلث يأتى به الموت فجأة
وثلث رعاك الله يا صاحبي له
وفى نصفه لما تحرك بعضه
وفى نصفه الثانى إذا ما أعدته
ففسر لنا ذا اللغز إن كنت ذا حجى

[٣٥] وقال في كمون :

عن اسم شيء قلّ فى سومك
كما ترى بالقلب فى نومك

يأيها العططار أعرب لنا
تراه بالعينين فى يقظة

[٣٦] وقال فى قالب الطوب :

ولقمته أضعاف أضعاف وزنه
سوى لحظة أو لحظتين ببطنه

وما أكل فى قعدة ألف لقمة
إذا نزل المأكول جنبه لم يقم

[٣٧] فى العين :

وتسبق ما يطير ولا تطير
وتجرّع أن يباشرها الحرير

وبأسطة بلا عصب جناحا
إذا ألقتها الحجر اطمأنت

ويكفى من ذلك ما أشرت إليه ، وما نهت من هذا الفن عليه ، وقد مضى القول من الفنون السبعة ، على فن الشعر القريض ، وما فيه من الفنون المتقدم ذكرها (ولنذكر) إن شاء الله - تعالى - بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار ، والفنون المذكورة عند الناس هى : الشعر القريض ، والموشح ، والدويبة ، والزجل ، والمواليات ، والكان وكان ، والقوما ، ومنهم من جعل الحماق من السبعة ، وفى ذلك اختلاف وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبدا لا يغتفر اللحن فيها ، وهى : الشعر القريض ، والموشح ، والدويبة . ومنها ثلاثة ملحونة أبدا وهى : الزجل ، والكان وكان ، والقوما . ومنها واحد وهو البرزخ بينهما يحتمل الإعراب واللحن وهو المواليا ، وقيل : لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة ، وبعضها ملحونة ، وإن هذا من أقبح العيوب التى لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعا بمفرده ، ويكون الملحون فيه ملحونا لا يدخله الإعراب ، وقد أوضح قاعدة الجميع أو أمثلتها صفى الدين أبو المحاسن الجلى فى ديوانه ، وسماه بالعاطل الحالى ، والمرخص الغالى ، ولو بسطت المقال ، لاتسع المجال ، وكثر القول ، ولكن الاختصار يذهب الأوجال والحمد لله رب العالمين على كل حال .

[فصل في بيان الفن الثاني وهو الموشح^(١)]

لابن المبارك :

قد أنحل الجسمَ أسمر أكحل وأو حل القلبَ فيه مُذ حلّ

دور :

أميل له فلا يميل يحول وعنه لا أحول
أقول إذا زاد بي النحول أماحل عقد الصدود ينحل
ويرحل عن نجم المرحل

دور :

كم أبعد وكم أبيت مكمد^(٢) ويعمد بهجره لأفقد
وأجهد لارتصاد من قد تحمل والحاسدون رحل
تمحل^(٣) والوعد منه ما حل

دور :

متوج بالحسن هذا الأبلج مدبج عذاره البنفسج
مفلج وطرفه ذا الأدعج مكحل وثغره منحل
مخلخل بمنبر معجل

دور :

برغمي من يستحل ظلمي ويرمي بحربه لسلمي
وجسمي من التزام سقمي منحل وقد غدا مرحل
فمن حل سفك دمي وما حل

دور :

قلاني واشتط ذا الفلاني غزاني بطرفه اليماني
تراني أنشد لمن يراني قد أنحل الجسمَ أسمر أكحل
وأو حل القلبَ بفيه مذ حل

دور : لابن سناء الملك

كليلي يا سخبُ تيجانَ الربا بالحلي واجعلني سوارك المنعطف الجدول

دور :

أزهرت ليلتنا بالوصل مذ أسفرت أصدرت بزورة المحبوب إذ بشرت

(١) الموشح : فن من فنون الشعر استحدثت في العصور المتأخرة . وقد تناوله الشعراء واستطرقوه ، ووجدوا النظم فيه أيسر وأهون من التزام طرق النظم القديمة ، وقد كان من الممكن أن تعد الموشحات حدثاً جديداً وثورة في الشعر العربي لولا أن ما بها من جدة لا يعدو الوزن والقافية ، أما موضوعات الموشحات ومعانيها ، فتكاد تكون نفس المعاني والموضوعات التي طرقها الشعراء الأقدمون . [الدكتور إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر] .

(٢) مكمد : كمد الرجل ، أي كتم حزنه ، أو حزن حزناً شديداً .

(٣) تمحل : احتال . ويقال محل فلاناً ، أي قواه ، وتماحل المكان : تباعد .

أخرت فقلت للظلماء مذ قصرت طولى ياليلة الوصل ولا تنجلي
وأسبلى سترك فال محبوب فى منزلى

دور :

من ظلم فى دولة الحسن إذا ما حكم فالألم يجول فى باطنه والندم
والقلم يكتب فيه عن لسان الأمم من ولى فى دولة والحسن لم يعدل
بعمزى لألحاظ الرشاشا الأكحل

وله أيضا :

ترى هل يشتفى منك الغليل ويشفى من صبابته العليل

دور :

لقد أسرفت فى هجرى وصدى بلا سبب سوى كلفى ووجدى
وماذا فى سلو عنك يجدى خضاب الوجد ليس له فصول
وأسياف الهوى فىنا تصول

دور :

لئن شحيت عنى بالسلام وطيفك قد جفا لجفا المنام
فقد جادت بأربعة سجام^(١) جفون بالبكا كادت تحول
على خد أسف به النحول

دور :

لقد أرسلت فى طى النسيم حديث هوى عن الوجد القديم
فعادت وهى عاطرة الشميم تخبر أن ظعنهم نزول
بدار لا يللم لهانزيل

دور :

تلقتة الموالى والموالى بألحاظ وزرق من نصال
وأعطاف وسممر من عوالى فكم بطل هناك وكم قتيل
بسيف من لواظفه قتيل

وله أيضا :

شمس المحيا أم القمر أم بارق الثغر يا بشر
أم البها حفه الخفر بطرز خديك مستطر
قم تباهابما تباهابها ولا تلاها

سلسلة :

قفلة :

فكل أحببنا حضروا والعمود يشجيك والوتر

الدور :

(١) سجم الدمع والمطر : سال قليلاً أو كثيراً، وسجم العين الدمع : أسالته.

أفديك بالسمع والبصر يا أهيف وصله وطري
بدر بدا في دجى الشعر قد لذ في حبه سهرى
سلسلة : إذا تجلى وقد تحلى عليك يجلى
قفلة :

والعقل والسمع والنظر تحير في وصفه الفكر
وقال رحمه الله تعالى :

وأنسيم السحر هل لك خبر وأرقونى ولم أقض الوطر
قلت : يا قلب صبرًا ما صبر ما كتمت الهوى إلا ظهر
دور :

ليش تمنع وصالك يا حبيب راقب اللة وارجع من قريب
لست ألقى لدائى من طبيب لو رأى حالى المعاذل عذر
دور :

يا قمر فوق غصن من نقا (٢) يا رعى الله لويلات اللقا
ليتها يا خل يومالى تعود ليلة السعد ما فيها شقا
كيف تشقى وطالها سعود !؟ صفوها لا يمازجه كدر
غيره :

وجدا مضى العمر وهو باقى حملت مذ سارت الحمول
دور :

جسمى مقيم على المساكن ساروا وسار الفؤاد لكن
مالى إلى وصله وصول وعنى الحب صار ظاعن
لو سرت بالبرق والبراق

دور :

وغادة كالقضيبي قذا والورد والياسمين خذا
كأنها البدر إذ تبدى وشعرها أسود طويل
كأنه ليلة الفراق

دور :

هونا أتتنا تميل ميلا سحابة كالسحاب ذيلا

(١) العريب : يقال ما بالدار عريب، أي ما بالدار أحد.

(٢) نقي الشيء : نَقَفَ، فهو نَقِيٌّ. أمَّا النَّقَا، فهو العظم ذو المنخ، والكثيب من الرمل.

فقلت : شمس تزور ليلا وما درى كاشح عذول
فذاك من أعجب اتفراق

فصل فى الفن الثالث وهو الذوييت^(١)

لسيدى شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى :
أهوى قمرًا له المعانى رق
تدرى بالله ما يقول البرق
وقال أيضا :

من صُبِحَ جبينه أضاء الشرق
ما بين ثناياه وبينى فرق

مذ عاينه تصبّرى ما لبثا
سبحانك ما خلقت هذا عبثا

أهوى رشا كبل الأسى لى بعثا
ناديت وقد فكرت فى خلقتة
وقال أيضا :

واذكر خبر الغرام واسنده إلى
قل مات ولم يحظ من الوصل بشى

عرج بطونى لعل فلى ثم هوى
واقصص قصصى عليهم وابك على
وقال أيضا :

يا مؤنس وحدثى إذا الليل هذا
لا أسفر بعد ذاك صبح أبدا

روحى لك يا زائرا فى الليل فدا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا
وقال آخر :

ساعات وصالك كلّها أفراخ
ماتوا كمدا وبالهوى ما باحوا

يا شمس ضحى جبينه وضاح
عشاقك لو فعلت ما شئت بهم
وقال آخر :

كالبدر يجلّ حسنه عن وصف
يا ربّ عسى تكون واو العطف

أهواه مَهْفَهْفًا ثَقِيلَ الرَدْف
ما أحسن واو صُدْغِهِ حين بدت
وقال التلعفري :

ما الصبر على معادكم عادته
لا كان فراقكم ولا ساعته

قلبى ذهب لبغدكم راحتة
بنتم فرئى لما به شامتة
وقال المشد :

لا أذكر بعد خالقى إلا هو
مولاي خليفتى عليك الله

إحسانك طول الدهر لا أنساه
إن أبعدك الزمان عنى حسدا
وقال الآخر :

فاذكر ولهى وما جنأ البغد
ياليتهم عادوا وعاد الصّد

إن جئت ربّا الحمى ولاحت نجد
قد كنت أقاسى الصّد حتى رحلوا

(١) الذوييت : هذا وزن يكاد الرواة يجمعون على أنه . . . صالح لنظم اللغة الفارسية ، واستعاره بعض الناطقين باللغة العربية الفصيحة فى النادر من الأحيان ، ولهذا النظم خصائص بعضها يتعلق بالوزن والبعض بالقافية ، وقد وصف العروضيون وزنه بأنه : فَعْلُن متفاعلن فعولن فَعْلُن وقد جاءت التفعلية الأخيرة كالأولى فى بعض الأحيان .

فصل في الفن الرابع وهو الزجل^(١)

دور للغباري :

يقصصروا ذا الننفار
مرعى وفؤادي قفار

قل لغزلان وادي مصر والشام
لهم أجعل حشاشتي

دور :

بالمحاسن تسود
لوعيون نجل سود
ويصيد الأسود
وقد الأغصان جهار
وذا شمس الننهار

مصر والشام فيها ملاح أقمار
ذا أبيض وذا أحمر وذا مليح أسمر
وذا غزال صار يفوق على الغزلان
وذا غصن بان أهيف قوام قد
وذا بدر الكمال قد ظهر في الليل

دور :

بمعد ذاك الصددود
واعتبدال القددود
فوق بياض الخددود
والحسود راح بنار
منكم إلا الخيار

تدر بالله أيش قالت مليح الشام
قد سميننا بصحة الأبدان
وتخضب تفاحنا الأحمر
وأنتم يا عشاق لكم قلنا
أنتم التفاح وما نقصد

دور :

ب الوجوه الملاح
في الخلائق مباح
وشموس الصباح
ليس لنا حد صار
واكتسبنا الفخار

وملاح مصر قالت احنا أصحابا
والحلاوة وطيبة الأخلاق
احنا أقمار واحنا بدور الليل
وفي الألفاظ والظرف والمعنى
وورثنا الحسن من يوسف

دور :

في السمع لاه
فاق ملاح الملاح
بجفاه الصلاح
نافررد جفني بنار
جسمي خلطوا بالصفار

حسن حبي الفرارجي فرحه بدر
فرخ ناجب خرج من القشرة
كلما عمل على رضاه يفسد
ومن البيضة قد خرج
وجفاني وخد بياض

دور :

هندي وبراني جفاه

فهو عطار عندو شراب

(١) يرى ابن خلدون في مقدمته كيف انتقل النظم من الموشحات إلى الأزجال فيقول : « ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلسته ، وتنسيق كلامه ، وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا واستحدثوا فنا سموه بالزجل ، ومن هذا نرى أن الزجل شعر نظم بلغة العامة ولهجة كلامهم لا يراعى فيه قواعد الإعراب ، ولا الصيغ الصحيحة للكلمات » .

يلتقى فيه شفاه
شبهه خال في صفاه
قلبي والكبار والصفار
وكل من حب غار

كل من مص من لسانو ريقو
ورد خذو وحببتو سودا
جبل آس عارضوا أسر
في المحبًا غاروا على حسنو

دور :

ونصصوا نصصوص
في هواهم خصوص
مثل نقش الفصوص
خلف له همه ولو اصطبار
والمحبة قمار

دوروني الملاح على كعبي
بلا دعوى التف لف اليسير
وعليا صار نقشهم قاعد
والبساط انطوى وحين ما رأوا
قمروني في عشق هذا القمر

دور :

والشفيفات عقيق
غير نبات الشقيق
ووصفنا عن حقيق
تحت أهداب غزار
عند خلع المعذار

لحبيبي ثغر من جوهر
وعوارض ما ضرهم عارض
وخدود ورد من غير نمش
يحرس الورد خال عنبر
في صفاء وجهه أنزه طرفي

دور :

قابلتها صفوف
موصول وورقها دفوف
لو من الموج كفوف
طار أعلى مطار
صاح على عود وطار

في رياض صفوف من الأزهار
كيف لا ترقص والنسيم بها
وأعجب من النهر إذ صفق
والغيوم نقطت وحين جا النسيم
باختلاف الألحان سحر في الروض

دور :

والهدي والضلال
والحرام والحلال
تحقيق نبع الماء الزلال
والمداد الببحار
كل كاتيب وحرار

أشرف الخلق بين الإسلام
والشرايع والحق والباطل
نبي من بين أصابعه
ولو أن النبات جميعه أقلام
والخلايق تكتب مديحو تاه

دور :

ذاق عذاه الممنون
عقل زايد جنون
في جميع الفنون
فوق رؤوس الكبار
للغباري غبار

خلف أستاذ في الفن ما ينطاق
ما يعيبو في الفن غير ناقص
شيخ مصدر لبيب قيم
باتضاعو مع الصفار مرفوع
وأهل الفنون تجري وما تلحق

غيره لناصر الغيطي :

يا خليع قم فى دجى الأسحار
فوق فصوص غرائب النوار

كنز روضى طالبو يسعد
تلتقى در الندى يرهج

دور :

والخلائق بعضهم يعشق
ودا محبوبو عليه يشفق
والوصال من الملاح يشفق
وسط روضا زهرها معطار
والعذول مسكين صبح فى نار

الفراق نار والوصال جنة
دا حبيب قلبو عليه راضى
ولهيب الهجر يتوقد
والمليح عندى وأنا مطمئن
فى نعيم مع حور ومع ولدان

دور :

بين الأغصان والزهور انقام
والخليع من كثر وجدو هام
وأقبل الريحان بحال أعجام
لو طريق بين الأزاهر طار
فكانو ناي أو مزمار

وعمل فى الروض سماع باكر
والنسيم شيب والغدير صفق
والنخيل باكمامها ترقص
والمصافير شيخهم زقزق
والبلبل بالغنا يشجى

دور ناصر الغيطى :

أنكر الصحبة وعادانى
والإله بالفضل أسمانى
يشكرونى ساير أقرانى
فى جميع الأرض لو تذكرا
ما يحصل شىء مع الشطار

يا خلايا صحبت إنسان
وبغضنى حين بقيت مسمى
فى بلاد قبلى وأرض الشام
والشجيه الشاطر المذكور
والبلط يوقع لو تعلق

للغبارى :

حايـجـور أو يـزـيد
ويكون الرشيد

جار حبيبى فقلت ذا الحجاج
لو عدل عشت بو مسرور

دور :

والدموع فى انحدار
ليس لها من قرار
غرتو ذى السبحار
بحر عشقك يـزـيد
من غرق مات شهيد

اقلع القلب فى هوى العشاق
وبحور الهوى إذا هاجت
كنت أحسب قلبى مغور ريس
صحت لما وحلت يا محبوب
خفت فيه الفرق فقال افرح

دور :

على شط الغدير
شب صياد صفيـر
ما لحسنو نظير
بالجمال المصيد
وكراكى يصيد

أنا يوم فى الغبوق باتفرج
إذ رأيت عالشط واحد واقف
نظرت مقلتى إلى منظر
قلت : يا عين إن غرك الصياد
بوقعك فى فخاخ شباك عشقو

دور :

ليس لهما من مثال
كان وكان يا غزال
يا عزيز الدلال
بالزجل والنشيد
وأنت بيت القصيد

لك عوارض في الخد مرقومه
وجفاك صار حماق وباب وصلك
وانت دوبيت موشح القاما
ولك ألفاظ صارت مواليا
وبشعرك متوج القاما

دور :

ونفطر بالثمار
ينذهب الاصفار
وكذا الجلل نار
فيه تعاليق عقيد
صار يقيد فيه وقيد

عن محرم شرابنا صمنا
حين وجدنا سفرجل البستان
وغنا الطير به الجماد يطرب
في ربيع حين رأى الثمر قاعد
حسب الروض النص من شعبان

دور :

لللهيب ما طففى
ما جرى لى كفى
والبسماد والجففا
جايجور أو يزيد
ويكون الرشيد

من لهيب مدمعى جرى الطوفان
وانا هو الغبارى فى العشاق
حين عليا بالصد والهجران
جار حبيبى فقلت ذا الحجاج
لو عدل عشت بو مسرور

غيره :

أمسى من بعدك الحزين فرحان
ما جرت فيه يابن عين سلوان

حين سكنت القلب يا عيسى
وتقدس بك وليكنو

دور :

غرت من وجدى بقيت حائر
أحرسو وكون عليه ناظر
النقى المعارض وهو داير
جيت لطرفو قلت : يا كسلان
قال لى : اعذرني أنا نعسان

عارضو لما عشق خدو
جيت إلى طرفو وناديت لو
بعد حين نظرت فى خدو
وعليه قد دب بالسرقه
هكذا فى عادة الحراس

دور :

فى بروج السعد لاح نجومو
اطلقو واجراه على رسمو
فالحزين قلبو المشوم قسمو
دايمفלט قول بالهتان
ليش أصوم يا بدر فى شعبان

بدر شعبان منيتى لما
قلت لو اقضى بفيض دمعى
قلت لو دام الله اطلاقك
أيش قد أذنب حين قطرتو
قال لى : صوم عن الوصال ناديت

دور :

باخضرار المعارض اسبانى

حين تدبج احمرار خدو

واسوداد شعري وأبكاني
أشعث أغبر في هواه عاني
وقد أبصر مدمعي طوفان
في هواك ذقت الهوان ألوان

ضحك فابيض واتبسم
وحين أضحيت باصفار لوني
قال لي : لونك قد صبح حایل
ذقت تبريح الغرام ناديت

دور :

لله كن لي يا رشيد مهدي
وتجري اليوم على خدي
أنت ما عندك نظر بعدي
على الخدود قال لو أيافتان
راقب الله فيا يا إنسان

قلت : لو حين عنى تخلف
قد تلون دمعى من بعدك
دار إلى إنسان مقلتي قال : لو
ما ترى ما قد جرى منك
جرى الماتحت من بعدك

للصفي الحلبي :

زيننة المال والبنيين
ويعيدك على السنين

أنت يا قبللة الكرام
الله يعطيك فوق ذا المقام

دور :

الله يحرس شمايلك
نعميش في فواضلك
لما تنشر فضايلك
والخلايق تقول آمين
الله يحييك طول السنين

أنت يا شامبا بين الأنعام
ويزيدك بالمدام كى
ما ينطوى ذكر الكرام
ونهنيك لكل عام
قد بقينا بك في أمان

دور :

من ندى كفك أعم
تقول له : سوى نعم
ضاعف الله لك النعم
وسمأك فوق ماردين
عم كل السائلين

ما رأينا تحت ذا القفلك
كل من جاليسالك ليس
أملاك أنت أو ملك
أنت في الجود كالغمام
در غيثك في انسجام

دور :

ذا السحور فيك والهناء
ينشر الذكر والثنا
بالغ القصد والمنى

لا عدمنا كل صوم
كل ليلة وكل يوم
الله يحييك من خير قوم

دور :

ويليه باقى السنين
بمين ولدان وعين

حتى تقضى ذا الصيام
وتعيش يا ذا الهمام

غيره :

من غير قاف ولا ميم
نور وعين وميم

خال عبد الزحيم نقطة حبر
ثغر معشوقى الفتان

عـيـن ولام ومـيـم
صـاد وبـا وبـا
ظـا وبـا وبـا
قـاف وبـا وبـا
غـيـن وصـاد وصـاد
نـون وقـاف وصـاد
خـاء ولام وصـاد
عـيـن ودال ومـيـم
سـيـن ونـون ودال
نـون وفـا ودال
بـا وعـيـن ودال
مـن ظـا ولام ومـيـم

شال السعد فوق راسو
دالى قد هواه قلبى
مليح ما رأيت مثله
ما احلاه عندما يلبس
ذقت من صدود حبيبى
لما رأيت ببرى
النوم من جـرن عيني
وأصبحت وجود فكري
قلت يوماً لمن كان لى
اعدل فى الذى صبرو
ولا تهجر المشاق
ما أفلح قط يا ناس

جمل فى الألفاظ

المطلع فى العين :

وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح
يصول بين جناحين سود كبيض الصفا

وما طير أكلو الحجر يا كرام
ولمس الحرير يؤذيه وريش النعام
دور فى السراج :

وينقص ولا هو خوض ولا هو غريق
لها جوهرة فى فمها يا رفيق
ويخفى ويظهر كل يوم عن حقيق
تشوفو بضىء بين الوجوه الصباح
قتيل الهوى بين الربا والبطاح

وما بحر ما هو ما وفى الليل يزيد
وفيه شىء صفات حيه بلا وكر استفيد
بلا شك ينظره القريب والبعيد
يغيب فى النهر لكن إذا جاء الظلام
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام
دور فى جوزة الكتافة :

وما مثل ذاك فسر لنا يا خبير
وتحمل وتوضع كل يوم فى السعير
يشيلو أودها الكبير والصغير
يحادى سراها فى المجى والرواح
وذا للغز قلتو من غير مزاح

وما هى التى تركيب على ستين ألف
مليحة وقصيفه وتلبس ترف
لها عشرة أعوان حالهم مختلف
لها فحل يخدمها - عليه السلام
وأكثر تعبها فى ليالى الصيام
دور فى الغربال :

ولا يعتلم ضوء الظلام والضيا
رميت وهو يحيى أصول الحيا
ولا حد يعوض موضعه لو عيا
مكابد عجاجة فى المساء والصباح
على شان فنه نه ده الفنه : صلاح

وما هو الذى يا سعد كله عيون
وهو بين خشب مصلوب لتلك النون
إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون
وكم من رقيص فى صنعته باهتمام
ويحتاج له الناس كل يوم فى الدوام

الفن الخامس في المواليا وله وزن واحد وأربع قواف^(١)

فمن تلك الأربعة واحدة لصفى الدين الحلبي :

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت
هواطل السحب من كفيك قد غارت
وقال أيضاً :

سل مقلتيك الكحال عمن سلاسلها
وعارضيك التي مدت سلاسلها
وقال آخر :

قد أوعدونا الغضابا أننا نخلو
والطل من فوقنا قد بلنا نخلو
وقال :

البارحة ريت بعيني في الدجا جيين
ناديتهم فين كنتم يا خفا جيين
وقال :

قد زدت هجرك فجذ بالعفو عن صبك
يكيفك تهجر تكدر قلب من حبك
غيره حربي :

لك يا إمام الوغا في كل موقع حرب
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب
الصفى الحلبي في المدح :

أغنت وأقنت كفوفك في الندي والحرب
وفيض جودك وسيفك بالعطا والضرب
وقال أيضاً :

من قال جودة كفوفك والحيث مثلين
ما جدت إلا وثغرك مبتسم يا زين
وقال في التهنته :

رأيت ذا العيد أول يوم في عصرك
وريت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك
في المعاتبة :

عنى تسليت وأسياف الجفا سليت
لما تمليت بالأعمال لى مليت

والمخصب الربع والأمواه قد غارت
والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

ومرشفيك من رشف منها سلاسلها
كم من أسود ضواري في سلاسلها

في ظل بستان حافف بالتمر نخلو
ومن كلام الأعادي قط ما نخلو

اثنين مثل البدوره في الدجى جيين
قالوا لمن قد وعدنا في الخفا جيين

وارحم خضوعي وخف في قتلتي ربك
ما ظن في الناس أقسى قلب من قلبك

سماع يطرب له السامع وينفى الكرب
سيوف تفنى وكفك لا يمل الضرب

في القرب والبعد من في شرقها والغرب
ذا الكرب فرج وهذا قد رمى في الكرب

أخطا القياس وفي قوله جمع ضدين
وذاك ما جاد إلا وهو باكي العين

وريت ذا اليوم مع ذا الشهر في نصرك
والكل بالكل أول مبتدا عمرك

ومذ توليت عن طرق الوفا وليت
إذا تخليت تعرف قدر من خليت

(١) وقد ذكروا في سبب نشأة هذا الفن أن الرشيد حين نكب البرامكة أمر ألا يذكرهم شاعر في شعره ، فرثهم جارية لهم بهذا الوزن ، وجعلت تنشد وتقول يا مواليا ، يكون في ذلك منجاة لهم من الرشيد ، لأنها لا ترثيهم بالشعر المنهى عنه ، ويظهر أن ما سموه بالمواليا هو نفس النوع المعروف في الشعر العامي بالموال لأن أمثله قد جاءت مزيجاً بين ألفاظ معربة ، وأخرى غير معربة .

وقال أيضا :

فخن وإن هم قسوا فاقسا وإن لانوا
فبن وكن لى معاهم كيما كانوا

يا قلب إن غدروا فـ'در وإن خانوا
فلن وإن قربوا فاقرب وإن بانوا

وقال آخر :

وصد عني وأقسم ما يطاوعني
إن كنت أنا المطلق لا يراجعني

حلف عليا حكاره أن يقاطعني
كم ذا يصدّ وكم يرجع يُصدّ عني

وقال آخر هجوا :

والحق يصفع أبو بنتك أو ابن أمك
وإن كنت تسكت يبول الكلب في فمك

قطع قفا ابن اخت خالك وابن اخو عمك
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك

وقال آخر :

لا تياسن ولا تقنط ولا تمرح
وإن ضاق صدرك ففكر في ألم نشرح

إن ردت تسلم بطول الدهر ما تبرح
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرح

وقال آخر :

ادفع أذاك وهات خيرك ودع شرك
ناديه بأيها الإنسان ما غرك

إن كنت عاقل وربك بالتقى برك
وإن تعدى حسودك والحسد ضرّك

وقال آخر :

عنو وعن قصة السلوان لا تخبر
فإن والله ما خاب الذي يصبر

يا قلب إن خانك المحبوب لا تدبر
واستعمل الصبر دائم للعدا تقهر

الفن السادس كان وكان^(١)

وله وزن واحد قافية واحدة ولكن الشطر الأوّل من البيت أطول من الثاني فمنه هذه الوعظيات :

قد لانت الأحجار
تقلع عن الإصرار
تحسب من الحضار^(٢)
تحجب عن الأبصار
غوامض الأسرار
كلا ولا إنكار

يا قاسي القلب مالك تسمع وما عندك خبر ومن حرارة وعظي
أفنيّت مالك وحالك في كل ما لا ينفعك ليتك على ذي الحاله
تحضر ولكن قلبك غائب وذهنك مشغول فكيف يا متخلف
ويحك تنبه فتني وافهم مقالي واستمع ففي المجالس محاسن
يحصي دقائق فعلك وغمز لحظك يعلمه وكيف تعزب عنه
تلوت قولي ونصحي لمن تدبر واستمع ما في النصيحة فضيحة

الصفى الحلّى :

وقمت حتى أنصب شرك
يفرح الصياد
لوردت مثله ما حصل

شاهدت في الليل طيري
ما كل صيد يحصل
طيري الذي كان إلفي

(١) هذا نظم لو قدر له أن يرقى إلى مستوى الأوزان القديمة لصح أن يسمى تطورا في الأوزان الشعرية ولكنه - كما يقول مؤرخو الأدب - قد اتخذ قالباً لنظم الحكايات والخرافات ، ولم يطرقه من الشعراء المشهورين أحد ، وإنما كان ميزان الأدب الشعبي ، وقد ارتقى حين نظمت منه الحكم والمواعظ في القرن السادس والسابع الهجري .

(٢) الحضار : جمع حاضر ، وهو المقيم في الحضر .

وهو على معبود
قد كان شرطى وخلقى
كأننا فى الصحبه
من قبل ما أبصص له
وأنا أرصده فى مطاره
وقال آخر :

ما ذقت عمرى جرعة أمر من طعم الهوى الله يصبر قلبى
الناس تعلم منى حال الجلادة والقوى وما أطيق التجلد
لى حب مثل الخوخة لها لون وطعم وريحه ما أكثر مغابن حببى
أنا عرفتو حظى وكل ما أحسن لو يسىء لو كنت أعشق ظلى
وله فى الفراقيات :

يا سادة هجرونى وهم نزول بخاطرى لا أوحش الله منكم
أو حشتم العين منى وأنسكم فى خاطرى والقلب فى النور منكم
قد انتهى الصبر منى وما بقى فىا رفق هيهات أنى أحبا
لم يبق غير خيالى يلوح كالشبح الخفى أعد بين الأحياء
ودعتمونى وسرتم والقلب يتبع ركبكم أيش ضر لو كان جسمى
ما مر ماريت ضدى يقول لى من فرحته هنا تشق المرائير
لو لم أسلى روحى وأرض نفسى بالمنى لكان قلبى تقطع
وقفت لما رحلت حيران بين أظعانكم أخفض جناح المذلة
طول الليالى أساهر كى أريد الكيميا أقطر الدمع منى
ما أطول ليالى جفاكم ساعاتها مثل السنة وما أقصر أيام وصلّى
مالى أرى حسنات بالسيئات تبدلت وسيئات الأعادى
خالفتمونى وعمرى ما زلت أتبع أمركم كذا العبيد تتابع
أسكت وأصبر عنكمو ويفعل الله ما يشاء والدهر من عاداته

الفن السابع فى القوما^(١)

قيل : أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ، والصحيح أنه مخترع من قبله ، وكان الناصر يطرب له ، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر فى نظم القوما ، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليحجبه على مفروضه فتعذر عليه ذلك ، فصبر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ اتباع والده من المسحرين ، ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة ، وغنى القوما بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة إليه وطرب له ، فكان أول ما قاله قوله :

يا سيد السيادات لك بالكرم عاداد

(١) المرائير : مخفّف المرائر ، وهي جمع المرير بمعنى الأرض التي لا شيء فيها ، وما لطف وطال واشتد فتله من الجبال ، وبمعنى العزيمة ، ورجل مرير أي قوي ذو عزم ، وهي جمع المريرة أيضا بمعنى عزة النفس .

(٢) هذا نظم غير معرب ، ولا تراعى فيه قواعد اللغة كما وصفها النحاة ، وقد وصف مؤرخو الأدب هذا الوزن فقالوا : إنه «مستعلن» . ولو قد تحركت النون فعلا لأصبح الوزن مجزوء الرجز ، ولهذا نرجح أن هذا الوزن لا يعدو أن يكون مجزوء الرجز تغيرت فيه «مستعلن» الثانية إلى «مستعل» . ثم سكن آخره لينسجم مع ما شاع فى هذه العصور من التخلص من حركات الإعراب .

أنا بنى ابن نقطه
فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار فاستحضره ، وخلع عليه ، وفرض له ضعفى ما كان لأبيه . ومنها للصفى الحلى :
من كان يهوى البذور
بالبيض والصفير يسخو
من حبّ بيض الخدور
يسمح وإلا فيبقى
كم بين سحف^(١) الخدور
يرعى الكواكب لعلو
بين الحلال والخدور
إشراقها فى المعاجز
قد كنت فوق الصدور
فصرت أحسد من أبصر
نوائب الممقذور
من بعد طيب الخواطر
غيرى يلازم الصدور
واصطفى الصدف وأنا
وقال أيضا :

حال الهوى مخبور
يصبون سيرة وإلا
من كان هواه مستور
ومن هتك سر حبو
أبذل لبيض النحور
إن ردت تملك وتظفر
قم فابذل الممدخور
تريد هذى المحبة
كم حول تلك الحدود
مثل الدواليب تجرى
من يركب الممحذور
يظفر بحبه ويبلغ
كن بالهوى مسرور
واجمل تراب أعتابهم
طرق المحبة وعور
من فتك بيض السوالف

يريد جلد صبور
يبقى من أهل القبور
يحظى برفع الستور
يمحى من الدستور
أموال مثل البحور
ولدانهم والحدور
وفى المعطال التجور
قلوب مثل الصخور
من عاشق مغدور
دموعها وتودور
هو فى الهوى معذور
قصده ويوفى النذور
ولا تبليت مفرور
لأجفان عينك درور
كم بينهما مذعور
على سواد الشعور

(١) السحف: بفتح السين المشددة وكسرها وسكون الجيم: أحد الشترين المقرونين بينهما فُرجة.

فى حب بيض الثغور
مدامعه ما تغور
كالظبي أنس نفور
أيش ما عمل مغفور

كم عاشق مذعور
يفار قلبه ولكن
كم بينهم يعفور
من أهل بدر فديته

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسر بعض الخلفاء فى رمضان :

دائم وجدك سميد
بكل صوم وعيد
وفى صفاتك وحيد
وأنت بيت القصيد
ولطف رأيه سيد
بقلب مثل الحديد
فى الصوم والتعديد
بكل عام جديد
بقولنا والنشيد
على خيول البريد
ما فوق جودك مزيد
قريبنا والبعيد
تحتلى بجد سميد
وافر وظلك ميد
وظل جودك ميد
كما يوقى الوليد
على أقل المعيد
مننا كحبيل الوريد
دائم وبأسك شديد
فى صوم فطر وعيد

لا زال سمكك جديد
ولا برحت مهني
فى الدهر أنت الفريد
والخلق شفر منقح
يا من جنابه شديد
ومن يلقى الشدايد
لا زلت فى تأييد
ولا برحت مهني
نحن لذكرك نشيد
ونبعت أوصاف مدحك
ظلك علينا ميد
وكم غمرت بفضلك
لا زلت فى كل عيد
عمرك طويل وقدرك
لا زال قدرك مجيد
ولا برحت موقى
ما زال برك يزيد
وما برح جودك
لا زال برك يزيد
ولا غدينا نوالك

ومما قيل فى فن الحماق :

لجسمى لكى ينظف
على الماء ولا يوقف
ودمعى يسابقها
له أحباب فارقها

أنا ما عبورى الحمام
إلا لدمع جارى
وديك المجارى تجرى
تقول الأنعام فى الحمام

وقال آخر :

علينا يقيم أنفه
وسد الطريق خلفه
وزاد بى الهوى والذل
لأهل القبور الكل

ترى كل من نعيشقو
فاسلاه واترك هواه
وإن زاد على عشقو
تركته ولو كان يحيى

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة وذكرت منها ما تبهج به النفوس ، وتقر به العيون ، واختصرت ذلك إلى الغاية ، فجاء بتوفيق الله في الحسن نهاية وأسأل الله التوفيق بمنه وكرمه ، والمزيد من بره ونعمه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثالث والسبعون

في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول

الفصل الأول : في النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ﴾ [النساء: ٣] . الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ [النور: ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] الآية . وقال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ^(١) . وقال رسول الله ﷺ : « استنصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم » ^(٢) . وقال رسول الله ﷺ : « تزوجوا الودود الولود فإنني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » ^(٣) . وقال ﷺ : « سوداء ولود خير من حسناء عقيم » ^(٤) . وقال رسول الله ﷺ : « أحسن النساء بركة أحسنهن وجهاً وأرخصهن مهراً » ^(٥) . فينبغي للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب في ذات الدين ، وأن يختار الشرف والحسب ، كما حكى أن نوحاً ابن مريم قاضى مرو ، أراد أن يزوج ابنته فاستشار جارا له مجوسياً ، فقال : سبحان الله ! الناس يستفتونك ، وأنت تستفتيني ؟! قال : لا بد أن تشير على ، قال : إن رئيسنا كسرى كان يختار المال ، وقصر الروم كان يختار الحسب والنسب ، ورئيسكم محمد كان يختار الدين ، فانظر أنت بأيهم تقتدى ؟! وقال رجل للحسن : إن لى ابنة فم ترى أن أزوجه لها ؟! قال : زوجها ممن يتقى الله عز وجل ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها ، وقيل لرجل من الحكماء ، فلان يخطب فلانة ، فقال : أموسر من عقل ودين ؟ فقالوا : نعم . قال : فزوجه إياها . ويستحب أن يختار البكر لقوله ﷺ : « عليكم بالابتكار فإنهن أطيب أفواها وأنتن أرحاما » ^(٦) . وقالوا : أشهى المطى ما لم يركب ، وأحب اللآلىء ما لم يثقب ، وأنشد بعضهم :

قالوا : نكحت صغيرة فأجبتهم
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة
أشهى المطى إلى ما لم يركب
نظمت حبة لؤلؤ لم تثقب
فأجابه امرأة :

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) إلخ رواه البخارى في كتاب النكاح باب الوصية بالنساء فتح البارى [٥١٨٥] ، ومسلم في كتاب الرضاع باب الوصية .

(٣) أخرجه النسائي كتاب النكاح باب كراهية تزويج العقيم .

(٤) ذكر العجلونى بلفظ « خير من حسناء لا تلد » . وقال : ذكره الغزالي في الإحياء . وقال العراقي : أخرجه ابن حبان في الضعفاء ولا يصح ، وذكره ابن الأثير في النهاية بهذا اللفظ ورفع الأزهرى ، وأخرجه غيره عن عمر موقفا .

(٥) لم أقف عليه . إلخ .

(٦) إلخ رواه ابن ماجه بنحوه في كتاب النكاح باب تزويج الأبتكار حديث رقم [١٨٦١] ، وابن الجوزى في غريب الحديث [٣٨٩/١] ، والبيهقى في السنن [٨٠/٧] ، وجاء في النهاية : أنتن أرحاما أى أكثر أولاداً ، يقال للمرأة الكثيرة الولد : نائق لأنها ترمى بالأولاد رميا .

إن المطمية لا يلد ركوبيها
والدر ليس بنافع أربابه
قال خالد بن صفوان :

عليك إذا ما كنت في الناس ناكحا بذات الثنايا الغر والأعين النجل^(١)

وقيل : استشار رجل داود عليه السلام في التزويج ، فقال له : سل سليمان ، وأخبرني بجوابه ، فصادفه ابن سبع سنين - وهو يلعب مع الصبيان راكباً قصبه - فسأله ، فقال : عليك بالذهب الأحمر ، أو الفضة البيضاء ، واحذر الفرس لا يضربك ، فلم يفهم الرجل ذلك ، فقال له داود عليه السلام : الذهب الأحمر : البكر ، والفضة البيضاء الثيب الشابة ، ومن وراءهما كالفرس الجموح ! وقال عليه السلام : « تخيروا لنطفكم »^(٢) . وقال عليه السلام : « انظر في أي شيء تضع ولدك ؟ فإن العزق دسّاس »^(٣) . وقال عليه السلام : « إياكم وخضراء الدمن ! » . قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : « المرأة الحسناء في المنبت السوء »^(٤) . وأنشدوا فيه :

إذا تزوجت فكن حاذقاً
واسأل عن الفصن وعن منبته
وقال بعضهم :

وأول خبث الماء خبث ترابه
وأول خبث القوم خبث المناكح

وعن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « لا تسترضعوا الحمقاء ، ولا العمشاء ؛ فإن اللبن يعمد »^(٥) . وقيل : إن جعفر بن سليمان بن علي عاب يوماً على أولاده ، وأنهم ليسوا كما يحب ، فقال له ولده أحمد بن جعفر : إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة ، وإماء الحجاز فأوعيت فيهن نطفك ، ثم تريد أن ينجبن ، وإنما نحن كصاحبات الحجاز ! هلا فعلت في ولدك ما فعل أبوك فيك ، حين اختار لك عقيلة قومها فتزوجها لك ؟! وأنشدوا :

صفات من يستحب الشرع خطبتها
صبيّة ذات دين زانه أدب
غريبة لم تكن من أهل خاطبها
فيها أحاديث جاءت وهي ثابتة
وقال آخر :

مطيات السرور فوق عشر
فإن جزت المسير فيسر قليلاً
وقال آخر :

فإياك إياك المعجور ووطأها
فما هو إلا مثل سُم الأراقم

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة ، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى عسرتها ، ولا تقر العيون برويتها . وفي حكمة سليمان بن داود عليه السلام المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها ، والمرأة السفهية تهدمه ! . وروى أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله صلى الله عليه وآله على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ومعه بنو هاشم ، ورؤساء

(١) نجل نجلًا: أشتت عينه وحسنت، فهو أنجل، وهي نجلاء، والجمع نجل.

(٢) إلخ أخرجه الدارقطني في سننه كتاب النكاح باب المهر حديث [١٩٨] ، وابن ماجه في سننه كتاب النكاح باب الأكفاء حديث [١٩٦٨] ، والحاكم في المستدرک [١٦٣/٢] ، وصححه . وتعقبه الذهبي بقوله : الحارث متهم ، وعكرمة ضعفوه ، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر [٣٧٧/٣] .

(٣) لم أعتد إليه .

(٤) رواه الدارقطني ، والرامهرزي في الأمثال . قال الدارقطني تفرد به الواقدي حديث رقم [٢٧١] .

(٥) ضعيف : عزاه الهيثمي في « مجمع الزوائد » [٢٦٢/٤] ، للطبراني في الصغير والبيزار وقال : « وإسنادهما ضعيف » . أه .

مضر ، خطب فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمة ، وجعل لنا بيتا محجوجا ، وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم أن محمداً بن عبد الله ، ابن أخى ، من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به برأ وفضلا ، وكرما ومجداً ونبلا ، فإن كان فى المال قُل ، فالمال ظل زائل ، ورزق حائل ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها من الصداق ما عاجله وآجله من مالى كذا وكذا ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل . ولما خطب عمرو بن حجر الكندى إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم إياس ، وأجابه إلى ذلك أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها ، فكان مما أوصتها به أن قالت : أى بنية ، إنك مفارقة بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى منه درجت ، إلى رجل لم تعرفه ، وقرين لم تألفه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشراً ، يكن لك ذخراً ؛ فأما الأولى ، والثانية : فالرضا بالقناعة ، وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة ، والرابعة ، فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح ، وأما الخامسة ، والسادسة ، فالتفقد لوقت طعامه ومنامه ، فإن شدة الجوع ملهبة ، وتنغيص - النوم - مغضبة ، وأما السابعة ، والثامنة فالإحراز لماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، وأما التاسعة ، والعاشرة ، فلا تعصى له أمراً ، ولا تفشى له سراً ، فإنك إن خالفت أمره ، أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره ، لم تأمنى غدره ! وإياك ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والكآبة لديه إذا كان فرحاً ، فقبلت وصية أمها فأنجبت ، وولدت له الحارث بن عمرو جد امرئ القيس ، الملك الشاعر . وعن الهيثم بن عدى الطائى ، عن الشعبي قال : لقينى شريح فقال لى : يا شعبي ، عليك بنساء بنى تميم ، فإنى رأيت لهن عقولاً ، فقلت : وما رأيت من عقولهن ، قال : أقبلت من جنازة ظهراً فمررت بدورهن ، وإذا أنا بعجوز على باب دار ، وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجوارى ! ، فعدلت إليها ، واستسقيت ، وما بى عطش ! فقالت لى : أى الشراب أحب إليك ؟ قلت : ما تيسر ، قالت : ويحك يا جارية اتيه بلبن فإنى أظن الرجل غريباً ، فقلت للعجوز : ومن تكون هذه الجارية منك ؟ قالت : هى زينب بنت جرير إحدى نساء بنى حنظلة ، قلت : هى فارغة أم مشغولة ؟ قالت : بل فارغة ، قلت : أتزوجينها ؟ قالت : إن كنت كفاء ولم تقل كفوا وهى لغة بنى تميم فتركته ، ومضيت إلى منزلى لأقيل فيه ، فامتنعت منى القائلة ^(١) ، فلما صليت الظهر ، أخذت بيد إخوانى من العرب الأشراف علقمة ، والأسود ، والمسيب ، ومضيت أريد عمها ، فاستقبلنا وقال : ما شأنك أبا أمية ؟ قلت : زينب ابنة أخيك ، قال : ما بها عنك رغبة ، فزوجنيها ، فلما صارت فى حبالى ندمت ، وقلت : أى شيء صنعت بنساء بنى تميم ؟! وذكرْتُ غِلظَ قلوبهن ، فقلت : أطلقها ثم قلت لا ، ولكن أدخل بها فإن رأيت ما أحب ، وإلا كان ذلك ، فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهدينها ، حتى أدخلت على ، فقلت : إن من السنة : « إِذَا دَخَلَتِ الْمَرْأَةُ عَلَى زَوْجِهَا أَنْ يَقُومَ وَيُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ وَيَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ خَيْرِهَا وَيَتَعَوَّذُ مِنْ شَرِّهَا » ^(٢) . فتوضأت فإذا هى تتوضأ بوضوئى ، وصليت فإذا هى تصلى بصلاتى ، فلما قضيت صلاتى أتتنى جواريتها فأخذن ثيابى ، وألبسنى ملحفة قد صبغت بالزعفران ، فلما خلا البيت دنوت منها ، فمددت يدي إلى ناصيتها فقالت : على رسلك أبا أمية ، ثم قالت : الحمد لله أحمدته وأستعينه وأصلى على محمد وآله ، أما بعد ، فإنى امرأة غريبة ، لا علم لى بأخلاقك فبين لى ما تحب فأتيه ، وما تكره فأجتنبه ، فإنه قد كان لك منكح فى قومك ، ولى فى قومى مثل ذلك ، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً ، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله تعالى به ، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولك ولجميع المسلمين . قال : فأحوجتنى والله يا شعبي إلى الخطبة فى ذلك الموضع ، فقلت : الحمد لله أحمدته وأستعينه ، وأصلى على محمد وآله أما بعد ، فإنك قد قلت كلاماً إن ثبت عليه يكن ذلك حظاً لى ، وإن تدعيه يكن حجة عليك . أحب كذا ، وأكره كذا ، وما رأيت من حسنة فابثيها ، وما رأيت من سيئة فاستريها . فقالت : كيف محبتك لزيارة الأهل ؟ قلت : ما أحب أن يملنى أصدارى . قالت : فمن تحب من جيرانك يدخل دارك أذن له ، ومن تكرهه أكرهه ؟ قلت : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء ، قال : فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة ، ومكثت معى حولا لا أرى منها إلا ما أحب ، فلما كان رأس الحول جثت من مجلس القضاء ، وإذا

(١) القائلة : وقت القيلولة حيث يستريح الناس بعيدا عن حر الشمس ، وامتنعت منى : لم أتم ولم أهدأ .

(٢) هذا صحيح ، وتبت هذا كما فى المصنف لابن أبى شيبة وانظر : « آداب الزفاف » . للشيخ الألبانى [ص ٨ - ١٠] .

أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهى ، قلت : من هذه ؟ قالوا : فلانة أم حليتك ، قلت : مرحباً وأهلاً وسهلاً ، فلما جلست أقبلت العجوز فقالت : السلام عليك يا أبا أمية ، فقلت : وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً . قالت : كيف رأيت زوجتك ؟ قلت : خير زوجة ، وأوفق قرينة ، لقد أدبت فأحسنت الأدب ، وريضة فأحسنت الرياضة ، فجزاك الله خيراً ؛ فقالت : أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالا منها في حالتين ؛ قلت : وما هما ؟ قالت : إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها ، فإن رابك مريب ، فعليك بالسوط ، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشراً من الروعاء^(١) المدللة ، فقلت : والله لقد أدبت فأحسنت الأدب ، وريضة فأحسنت الرياضة . قالت : كيف تحب أن يزورك أصهارك ؟ قلت : ما شاءوا فكانت تأتينني في رأس كل حول ، فتوصيني بتلك الوصية ، فمكثت معي ياشعبي عشرين سنة لم أعب عليها شيئاً وكان لى جار من كندة يفزع امرأته ، ويضربها فقلت في ذلك :

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلت يميني يوم تُضرب زينب
أضربها من غير ذنب أتت به فما العدل منى ضرب من ليس يذنب
فزنب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على ألفي ألف في السر وخمسمائة ألف في العلانية ، فأجابه إلى ذلك ، وحملها إلى العراق ، فأقامت عنده ثمانية أشهر ، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافداً نزل بدمشق ، فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ، ومعه الناس ، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب فقال له الوليد : لكنت أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً . قال : مهلاً يا بن أخي ، فليست أهلاً لهذه المقالة منك ، قال : بلى والله ، ويشراً منها . قال : وفيه ذلك ؟ قال : لأنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب ، وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها لعبد ثقيف يتفخذها ! قال : وفي هذا عتبت على يا بن أخي ؟ قال : نعم . فقال عبد الله ! والله ما أحق الناس أن لا يلومني في هذا إلا أنت وأبوك ؛ لأن من كان قبلكم من الولاة يصلون رحمى ، ويعرفون حقى ، وإنك وأباك متعتمانى رفدكما ، حتى ركبني الدين ، أما والله لو أن عبداً حبشياً مجدعاً^(٢) أعطانى بها ما أعطانى عبد ثقيف لزوجه منى منه ، إنما فديت بها رقبتى ، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ، ومضى حتى دخل على عبد الملك فقال : مالك يا أبا العباس قال : إنك سلطت عبد ثقيف ، وملكته حتى يفخذ نساء بني عبد مناف ، فأدرت عبد الملك غيره ، فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل . قال : ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا ، وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى مات ، وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده غير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف . وحكى أن المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة ، سار إلى دير هند بنت النعمان ، وهى فيه عمية مترهبة ، فاستأذن عليها فقالت : من أنت ؟ قال : المغيرة بن شعبة الثقفى ، قالت : ما حاجتك ؟ قال : جئت خاطباً ، قالت : إنك لم تكن جئتني لجمال ولا مال ، ولكنت أردت أن تشرف في محافل العرب فتقول : تزوجت بنت النعمان بن المنذر ، وإلا فأى خير في اجتماع عمية وأعور ؟ وكان عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضي الله عنه قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل ، وكانت من أجمل نساء قريش ، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهاً ، وأبرهم بالديه ، فلما دخل بها غلبت على عقله ، وأحبها حباً شديداً فثقل ذلك على أبيه ، فمر به أبو بكر يوماً وهو فى غرفة له ، فقال : يا بنى ، إنى أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك ، وغلبت على عقلك ، فطلقها ، قال : لست أقدر على ذلك فقال : أقسمت عليك إلا ما طلقتها ، فلم يقدر على مخالفة أبيه ، فطلقها فجزع عليها جزعاً شديداً وامتنع من الطعام والشراب ، فقيل لأبى بكر : أهلكك عبد الرحمن ، فمر به يوماً وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع فى الشمس ، ويقول هذه الأبيات :

فوالله ما أنساك ما ذر شارق وما ناح قمرى الحمام المطوق
فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها فى غير شئ يُطلق

(١) أي الجميلة ، يقال : راعني جماله ، فهو رائع ، وهي رائعة .

(٢) مجدعاً : جذع جذعاً ، أي قُطع طرف من أطرافه ، فهو أجدهع ، وهي جدعاء . وفي المثل : «أنفك منك وإن كان أجدهع» .

لها خلق غفٍّ ودين ومحتد . وخلق سوى في الحياء ومنطق
فسمعه أبوه ، فرق له ، وقال له : راجعها يابني فراجعها ، وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف مع رسول
الله ﷺ ، أصابه سهم فقتله ، فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه :

فأليت لا تنفك نفسي حزينه عليك ولا ينفك جلدی أغبراً
فتى طول عمري ما أرى مثله فتى أكر وأحمى فى الهياج وأصبراً
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها إلى القرن^(١) حتى يترك الرمح أحمرأ

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب ؓ ، في خلافته ودعا الناس إلى وليمته ، فأتوه فلما فرغ من الطعام ، وخرج
الناس ، قال له على بن أبي طالب ؓ ، يا أمير المؤمنين ائذن لى فى كلام عاتكة ، حتى أهنئها ، وأدعو لها بالبركة ،
فذكر عمر ذلك لعاتكة فقالت : إن أبا الحسن فيه مزاح ، فائذن له يا أمير المؤمنين فأذن له فرفع جانب الخدر فنظر إليها
فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق^(٢) ، فقال لها ياعاتكة ألسنت القائلة :

فأليت لا تنفك نفسي حزينه عليك ولا ينفك جلدی أغبراً ؟!

وقيل : إن عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعاً شديداً ، وتزوجت بعده الزبير بن العوام ، وكان رجلاً غيوراً ،
وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها ، فشق ذلك عليه ، وكان يكره أن ينهأها عن الخروج إلى الصلاة لحديث
رسول الله ﷺ : « لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ »^(٣) . فعرض لها ليلة فى ظهر المسجد ، وهى لا تعرفه ، فضرب بيده
عجيزتها ، ثم انصرف ، فقعدت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد ، وكان يقول لها : ألا تخرجين ياعاتكة ؟!
فتقول : كنا نخرج إذا الناس ناس ، وما بهم من باس ، وأما الآن فلا . ثم قُتِلَ عنها الزبير قتله عمرو بن جرموز بوادي
السباع ، وهو نائم ، ثم تزوجها بعده محمد بن أبي بكر ، فقتل عنها بمصر ، فقالت ، لا أتزوج بعده أبداً إنى لأحسبني
أنى لو تزوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم ! .

وحكى : عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان : أترى أنى أخطب إلى أحد فيردنى ؟
قال : نعم . قال : ومن هو ؟ قال أوس بن حارثة بن لام الطائي . قال : اركب بنا إليه ، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن
حارثة فى بلاده ، فوجدناه فى فناء منزله ، فلما رأى الحارث بن عوف ، قال : مرحباً بك يا حارث ، ثم قال : ما جاء
بك ؟ قال : جئت خاطباً . قال : لست هناك فانصرف ولم يكلمه ، فدخل أوس على امرأته مُغَضِّباً فقالت له : من
الرجل الذى سلم عليك ؟ فلم تطل معه الوقوف ، ولم تكلمه ؟ فقال : ذلك سيد العرب الحارث بن عوف ، فقالت :
مالك لا تستنزله ؟ قال : إنه استهجننى ، قالت : وكيف ؟ قال : لأنه جاءنى خاطباً قالت : ألسنت تزعم أنه سيد
العرب ؟ قال : نعم . قالت : إذا لم تزوج سيد العرب فى زمانه فمن تزوج ؟! قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارك
ما كان منك . قال : فيماذا ؟ قالت : بأن تلحقه فترده ، قال : وكيف وقد فرط منى إليه ما فرط ؟ قالت : تقول له :
إنك لقيتنى وأنا مغضب لأمر فلك المعذرة فيما فرط منى ، فارجع ولك عندى كل ما طلبت قال : فركب فى أثرهما .
قال خارجة بن سنان ؟ فوالله إنا لنسير إذ حانت منى التفاتة فرأيتة فقلت للحارث - وهو ما يكلمنى - هذا أوس فى أثرنا
فقال : ما أصنع به ؟ فلما رأنا لا نقف قال : يا حارث ، أربع على ، فوقفنا له ، وكلمه بذلك الكلام ، فرجع
مسروراً . قال خارجة بن سنان : فبلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته : ادعى لى فلانة أكبر بناته فأتته ، فقال لها
أى بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، جاءنى خاطباً ، وقد أردت أن أزوجه منه ، فما تقولين ؟
قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأن فى خلقى رداءة ، وفى لسانى حدة ، ولست بابنة عمه فيراعى رحمى ،
ولا هو بجار لك فى البلد فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ! فيكون على بذلك مسبة ، قال لها :
قومى ، بارك الله فيك ، ثم دعا بنته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها ، فأجابته بمثل جوابها ، فقال لها : قومى بارك

(١) القرن : القرن للإنسان مثله فى الشجاعة والشدة والعلم والقتال . . . ويقال : هي قُرُن أيضاً ، والجمع أقران .

(٢) الخُلُوق ، والخلاق : ضربٌ من الطَّيْب ، أعظم أجزائه الزعفران .

(٣) « لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ . . . » إلخ أخرجه مسلم [١٣٦ - كتاب الصلاة] .

الله فيك ، ثم دعا بالثالثة - وكانت أصغرهن سنا - فقال لها مثل ما قال لأختها فقالت له : أنت وذاك ، فقال لها . إني عرضت ذلك على أختيك فأبتاه ، ولم يذكر لها مقالتهما ، فقالت له : والله إني الجميلة وجهها ، الرفيعة خلقاً ، الحسنة رأياً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه فقال لها : بارك الله فيك ، ثم خرج إليه فقال : زوجتك يا حارث بابنتي هنيئة ، قال : قد قبلت نكاحها وأمر أمها أن تهيئها له ، وتصلح شأنها ثم أمر بيوت ف ضرب له ، وأنزله إياه ثم بعثها إليه ، فلما دخلت عليه لبث هنيئة ثم خرج إلى فقلت له : أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : لما مددت يدي إليها قالت : مه أعند أبي وإخوتي هذا ؟ والله لا يكون ، ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا وسرنا ما شاء الله ، ثم قال لي : تقدّم فتقدمت ، فعدل عن الطريق فما لبث أن لحقني فقلت : أفرغت منه شأنك ؟ قال : لا والله ، قلت : ولم ؟ قال : قالت تفعل بي كما يفعل بالأمه السيئة الأخيذة ؟! لا والله حتى تنحر الجزر والغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي ، فقلت : والله ، إني لأرى همة وعقلا ، فقال : صدقت قال : وأرجو الله أن تكون المرأة النجيبة ، فوردنا إلى بلادنا فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ، ثم دخل عليها وخرج إلى فقلت أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله . قلت : ولم ذلك ؟ قال : دخلت عليها أريدها فقلت لها : قد أحضرت من المال ما تريدين قالت : والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك ، قلت : ولم ذلك ، قالت : أتستفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟! وكان ذلك في أيام حرب عيس وذبيان ، قلت : فماذا تقولين ؟ قالت : اخرج إلى القوم فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد ، فقلت : والله إني لأرى عقلا ورأياً سديداً ، قال : فأخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم ، فمشينا بينهم بالصالح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ، ثم تؤخذ الدية ، فحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاث آلاف بعير ، فانصرفنا بأجمل ذكر ، ثم دخل عليها فقالت له : أما الآن فنعم ، فأقامت عنده في الد عيش ، وأطيه ، وولدت له بنين وبنات ، وكان من أمرهما ما كان . والله أعلم بالصواب .

وحكى الفضل أبو محمد الطيبي قال : حدثنا بعض أصحابنا أن رجلاً من بني سعد مرت به جارية لامية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال ، وكان شجاعاً فارساً فلما رآها قال : طوبى لمن كان له امرأة مثلك ، ثم أتبعها رسولاً يسألها ألها زوج ؟! ويذكره لها ، وكان جميلًا فقالت للرسول : وما حرفته ؟ فأبلغه الرسول ذلك فقال : ارجع إليها وقل لها :

وسائلة ما حرفتي ؟ قلت : حرفتي
إذا عرضت خيل لخييل رأيتني
أصبر نفسي حين لم أر صابراً
فلحقها الرسول : فأنشدها ما قال ، فقالت له : ارجع إليه وقل له : أنت أسد ، فاطلب لك لبوة فلست من نسائك ، وأنشدته تقول :

ألا إنما أبغى جواداً بماله
فتى همة - مذ كان - خود خريدة^(١)
وحدث يحيى بن عبد العزيز ، عن محمد بن عبد الحكم ، عن الإمام الشافعي رحمه الله قال تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة فكانت جارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول :

وما يستوى الرجلان : رجلٌ صحيحةٌ
ثم تعود وتقول :

وما يستوى الثوبان ثوب به البلى
فمرت جارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت :
نقل فؤادك ما استطعت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول

(١) الخريدة: المرأة الحبيبة، والمرأة لم تُمس.

وحنينه أبداً لأول منزل

كم منزل في الأرض يألّفه الفتى
وقال عمرو بن العلاء ، وكان أعلم الناس بالنساء :

بصير بأدواء النساء طبيب
فليس له في ودهن نصيب

فإن تسألوني بالنساء فإنني
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله

ومثل المغيرة بن شعبة عن صفة النساء ، فقال : بنات العم أحسن مواساة ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رءوس الأقران مثل ابن السوداء . وقال عبد الملك بن مروان : من أراد أن يتخذ جارية للمتعة ، فليتخذها بربرية ، ومن أراد أن يتخذها للولد ، فليتخذها فارسية ، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها رومية . قال الشاعر :

أم من الروم أو سوداء عجماء
مستودعات وللأنساب آباء

لا تشتمن امرأ ممن يكون له
فإنما أمهات القوم أوعية

وقال الأصمعي : أتاني رجل من قرش يستشيرني في امرأة يتزوجها . فقلت : يابن أخى ، أقصيرة النسب أم طويلة ؟ فلم يفهم عني ! فقلت : يابن أخى أما القصيرة النسب ، فالتى إذا ذكرت أباه اكتفت به ، والطويلة النسب فهى التى لا تعرف حتى تطيل فى نسبها ، فإياك أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم ، فتضيع نسبك فيهم . وخرج رجل من أهل الكوفة فى غزاة فكسب جارية وفرساً وكان مملكاً على ابنة عمه فكتب إليها يغيرها ويقول :

غنيما وأغنتنا الغطارفة الثجد^(١)
وبيضاء كالتمثال زينها العقد
لحاجة نفسى حين ينصرف الجند

ألا بلغوا أم البنين بأننا
بعيد مناظ المنكبين إذا جرى
فهذا لأيام العدو وهذه

فلما ورد عليها كتابه ، وقرأته قالت : يا غلام ، هات الدواء ، وكتبت جوابه تقول :

غنيما وأغنتنا غطارفة المرد
ونازعته فى ماء معترض الورد
إلى عكن ملساء ، أو كفّل نهدي
شهودا فتقضوها على النأى والبعد
منانا ولا ندعوك الله بالرد
وزادك رب الناس بعدا على بعد

ألا فاقره منى السلام وقل له
إذا شئت أغناني غلام مرجل
وإن شاء منهم ناشيء مد كفه
فما كنتم تقضون حاجة أهلكم
فمجل إلينا بالسراح فإنه
فلا قّل الجند الذى أنت فيهم

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس ، وأردف الجارية خلفه ، ولحق بابنة عمه ، فكان أول شيء بدأها به بعد السلام أن قال لها : بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك ؟ فقالت له : الله فى قلبى أعظم وأجل ، وأنت فى عيني أذل وأحق من أن أعصى الله فيك ! فكيف ذقت طعم الغيرة ؟ فوهب لها الجارية وانصرف إلى الغزاة والله تعالى أعلم بالصواب .

الفصل الثانى : فى صفات النساء المحمودّة

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن اخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، شريفة فى قومها ، ذليلة فى نفسها ، مؤاتية لبعْلِها ، فكتب إليه قد أصبتها لولا عظم ثديها ! فكتب إليه لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها ، فتدفع الضجيع ، وتروى الرضيع . وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان صف لى أحسن النساء قال : خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ، ردماء الكعبين^(٢) ، ناعمة الساقين ، ضخماء الركبتين ، لقاء

(١) الثجد : جمع نجيد ، وهو الأسد ، والشجاع الماضي فيما يُعجز غيره ، وجمع تجود ، وهى المرأة العاقلة النبيلة ، وناقاة نجود ، أى طويلة العنق مرتفعة .

(٢) أى لينة الكعبين .

الفخذين ، ضخمة الذراعين ، رخصة الكفين ، ناهضة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلأ العينين ، زجاء^(١) الحاجبين ، لمياء^(٢) الشفتين ، بلجاء الجبين ، شماء العينين ، شنباء^(٣) الثغر ، محلولة^(٤) الشعر ، غيداء العنق ، مكسرة البطن ، فقال : ويحك وأين توجد هذه ؟ قال : تجدها في خالص العرب ، وفي خالص فارس ، وقال حكيم : عليكم بمن تربت في النعيم ، ثم أصابتها فاقة فأثر فيها الغنى ، وأدبها الفقر ، وقال رجل لخاطب : ابغ لي امرأة لا تؤنس جاراً ، ولا توطن داراً ، يعني لا تدخل على الجيران ولا تدخل الجيران عليها وفي مثل هذه قال الشاعر :

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلفٌ عيطاء غامضة الكعبين معطارٌ
خود من الخفريات البيض لم يرها بساحة الدار لا بعمل ولا جار

وقال الأعشى :

لم تمش ميلاً ولم تركب على جمل ولم تر الشمس إلا دونها الكليل^(٥)
وكانت امرأة عمران بن قحطان من أجمل الناس وجهاً ، وكان هو من أقيح الناس وجهها فقال لها يوماً : أنا وإياك في الجنة إن شاء الله تعالى : فقالت له : وكيف ذلك ؟ فقال : لأنني أعطيت مثلك فشكرت ، وأعطيت مثلي فصبرت ، والصابر والشاكر في الجنة . وقال بعضهم : رأيت في طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهاً ، فقعدت أنظر إليها ، وأتعجب من جمالها فجاء شيخ قصير ، فأخذ بردائها ، وسار بها ، ومضى ، فلقيتها مرة أخرى ، فقلت لها : من هذا الشيخ ؟ قالت : زوجي . قلت : كيف يرضى مثلك بمثله ؟ فأشدت :

أياعجباً للخود يجرى وشاؤها تزف إلى شيخ بأقبح تمثال
دعاني إليه أنه ذو قرابة يعز علينا من بنى العم والخال

وسمع بعضهم قائلًا يقول شعراً :

ومن لا يُرد مدحى فإن مدائحى توافق عند الأكرمين نوامى^(٦)
نوافق عند المشتري الحمد بالثدى نفاق بنات الحارث بن هشام
فقال : يابن أخى ، ما بلغ من نفاق بنات الحارث بن هشام ؟ قال : كن من أجمل الناس وجوهاً ، وكان أبوهن إذا تزوجهن يسوقهن ومهورهن ، إلى بعولتهن ، فقال : يابن أخى لو فعل هذا إبليس بيناته لتنافست فيهن الملائكة المقربون . وقال عبد الملك لابن أبي الرقاع : كيف علمك بالنساء ؟ قال : أنا والله أعلم الناس بهن ، وجعل يقول :

قضاعية الكعبين كندية الحشا خزاعية الأطراف طائية الفم
لها حكم لقمان وصورة يوسف ومنطق داود وعفة مريم

وقالوا : الوجه الحسن أحمر ، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكن ، والتضخم بالطيب . وقالوا : إن الوجه الرقيق البشرة ، الصافى الأديم إذا خجل يحمر ، وإذا فرق يصفر ، ومنه قولهم : ديباج الوجه يريدون تلونه من رفته قال على بن زيد في وصفه :

حمرة خلط صفرة في بياض مثل ما حاك حائك ديباجا
وقال على بن عبدربه :

بيضاء يحمر خذاها إذا خجلت كما جرى ذهب في صفحتي ورق
وقالوا : إن الجارية الحسناء تلون بتلون الشمس ، فهي بالضحى بيضاء ، وبالعشى صفراء ، وقال ذو الرمة :

بيضاء صفراء قد تنازعها لوان من فضة ومن ذهب

(١) زجّ الحاجب: دق في طول وتقوس.

(٢) شنباء الثغر: دقة الأسنان وبياضها.

(٣) شنباء الثغر: دقة الأسنان وبياضها.

(٤) محلولة الشعر: شديدة سواد الشعر.

(٥) الكليل: جمع كلة: بيت من نسيج كالستائر [الناموسية].

(٦) نوافق: جمع نافقة: أى رائجة ومشهورة ونوامى: متنامية. جمع نامية.

قالوا : ليس المرأة الجميلة التي تأخذ بصرك جملة على بعد ، فإذا دنت منك لم تكن كذلك بل ، الجميلة التي كلما كرت بصرك فيها زادتك حسنا . وقالوا : إن أردت أن ينجب ولدك فأغضبها ، ثم قع عليها ، قال الشاعر :

ممن حملن وهن عواقد حبك النطاق فعاش غير مُهَبَّل
حملت به في ليلة مزورة كرهاً وعقد نطاقتها لم يُخلل

الفصل الثالث : في صفة المرأة السوء - نعوذ بالله تعالى منها

في حكمة داود عليه السلام أن المرأة السوء ، مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضى الله تعالى عنه . وقيل : المرأة السوء غُلّ يلقيه الله تعالى في عنق من يشاء من عباده . وقيل لأعرابي كان ذا تجربة للنساء : صف لنا شر النساء ، فقال : شرهن النحيفة الجسم ، القليلة اللحم ، المحياض ^(١) الممراض ، المصفرة الميشومة ، العسرة الميشومة ^(٢) ، السلطة البطرة ، النفرة السريعة الوثبة ، كأن لسانها حربة ، تضحك من غير عجب ، وتبكي من غير سبب ، وتدعو على زوجها بالحرب ، أنف في السماء ، واست في الماء ، عرقوبها حديد ، متفخة الوريد ، كلامها وعيد ، وصوتها شديد ، تدفن الحسنات ، وتفشي السيئات ، تعين الزمان على بعلها ، ولا تعين بعلها على الزمان ، ليس في قلبها عليه رافة ، ولا عليها منه مخافة ، إن دخل خرجت ، وإن خرج دخلت ، وإن ضحك بكت ، وإن بكى ضحكت ، كثيرة الدعاء ، قليلة الإرعاء ^(٣) ، تأكل لَمًا ^(٤) ، وتوسع ذمًا ، ضيقة الباع ^(٥) ، مهتوكة القناع ، صبيها مهزول ، وبيتها مزبول ، إذا حدثت تشير بالأصابع ، وتبكي في المجامع ، بادية من حجابها ، نباحه عند بابها ، وتبكي وهي ظالمة ، وتشهد وهي غائبة ، قد دلى لسانها بالزور ، وسال دمعها بالفجور ، ابتلاها الله بالويل والثبور ، وعظائم الأمور . ويقال : إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورائه ، وإن كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه قال بعضهم :

لقد كنت محتاجاً إلى موت زوجتي ولكن قرين السوء باقٍ معمر
فياليتها صارت إلى القبر عاجلاً وعذبها فيه نكير ومنكر

وقال داود عليه السلام : المرأة السوء على بعلها كالجمل الثقيل على الشيخ الكبير ، والمرأة الصالحة كالنجم المرصع بالذهب ، كلما رآها قرت عينه ، برؤيتها ، والله أعلم .

الفصل الرابع : في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن

في حكمة داود عليه السلام وجدت في الرجال واحداً في ألف ، ولم أجد واحدة في جميع النساء ! وقيل : إن عيسى عليه السلام لقي إبليس يسوق أربعة أحمر ، عليها أحمال ، فسأله ، فقال : أحمل تجارة ، وأطلب مشتري ، فقال : ما أحدها قال : الجور قال : من يشتريه ؟ قال السلاطين . قال : فما الثاني ؟ قال الحسد ، قال : فمن يشتريه ؟ قال : العلماء قال : فما الثالث ؟ قال الخيانة . قال : فمن يشتريها ؟ قال : التجار . قال : فما الرابع ؟ قال : الكيد . قال : فمن يشتريه ؟ قال : النساء . وقال حكيم : النساء شر كلهن وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن ، وقالت الحكماء : لا تثق بامرأة ، ولا تغتر بمال ، وإن كثر ، وقال : النساء حبال الشيطان . قال الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن جزو عا إذا بانست فسوف تبين
وخنها وإن كانت تفي لك إنها على قدم الأيام سوف تخون
وإن هي أعطتك اللبان فإنها لغيرك من طلابها ستلين

(١) المحياض : كثير الحيض .

(٢) الميشومة : كثيرة الأكل حتى التخمه .

(٣) قليلة الإرعاء : قليلة الإصغاء والاستماع للكلام .

(٤) تأكل لَمًا : أي تأكل إسرائيلاً .

(٥) الباع : مسافة ما بين الكفين إذا انبسطت الذراعان ، وطويل الباع : طويل الجسم .

وإن حلفت أن ليس تنقض عهدها
وإن سكبت يوم الفراق دموعها
وقال ابن بشار :

رأيت مواعيد النساء كأنها
ومنتظر الموعد منهم كالذي
وقال بعض الحكماء : لم تُثَّ المرأة عن شيء قط إلا فعلته . وقال الغنوي :

إن النساء متى يُنهين عن خلق
وقال النخعي : من اقترب الساعة طاعة النساء ، ويقال : من أطاع عرسه ، فقد أضاع نفسه . وقال علي عليه السلام : إياك ومشاورة النساء ، فإن رأيهن إلى أفن^(٢) ، وعزمهن إلى وهن ، أكف أبصارهن بالحجاب ، فإن شدَّ الحجاب خير لهن من الارتياح ، وليس خروجهن بأضر من دخول من لا يوثق به عليهن ، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل . وقال السمعاني :

لا تأمنن على النساء ولو أخوا
إن الأمين وإن تحفظ جهده
وقال غيره :

لا تركئن إلى النساء
فرضاؤهن جميعهن
وقال علي عليه السلام : لا تطلعن النساء على حال ، ولا تأمنوهن على مال ، ولا تذروهن إلا لتدبير العيال ، إن تركن وما يردن أوردن المهالك ، وأفسدن الممالك ، ينسين الخير ويحفظن الشر ، يتهافتن في البهتان ، ويتمادين في الطغيان . وقال أبو بكر عليه السلام : ذل من أسند أمره إلى امرأة . وقيل إن صيادا أتى أبرويز بسمكة فأعجبه حُسْنُها ، وسَمَّتها فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فخطأته سيرين زوجته فقال لها : ماذا أفعل ؟ فقالت له : إذا جاءك ، فقل له : أذكرا كانت أم أنثى ؟ فإن قال لك ذكر ، فاطلب منه الأنثى ، وإن قال لك أنثى ، فاطلب منه الذكر ، فلما أتاه سأله فقال : كانت أنثى ، فقال : اتنتي بذكرها فقال : - عمر الله الملك - كانت بكرا لم تتزوج ، فقال : زه ، وأمر له بشمانية آلاف درهم ، وقال : اكتبوا في الحكمة : الغدر ، ومطوعة النساء يؤديان إلى العُرم الثقيل . وقال حكيم : اعص النساء وهواك ، وافعل ما شئت . وقال عمر عليه السلام : أكثروا الهن من قول : لا فإن « نعم » تغريهن على المسألة وقال : استعيذوا بالله من شرار النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر ! .

ومما قيل في الباءة : ذُكِرَ الجماع عند الإمام مالك بن أنس عليه السلام قال : هو نور وجهك ، ومخ ساقدك ، فأقلل منه أو أكثر . وقال معاوية عليه السلام : ما رأيت نهما في النساء إلا عرفت ذلك في وجهه . وخلا تمام بجارية له فعجز عنها فقال : ما أوسع حرك فأنشأت تقول :

أنت الفداء لمن قد كان يملؤه
وقال آخر :

شفاء الحب تقبيل ولمس
ورهب تذرّف المينان منه
وقالت امرأة من أهل الكوفة : دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها ، فقيل : هي مع زوجها في القيطون ،

(١) مخضوب البنان : كناية عن النساء هنا ، ولنا مع الشاعر فيما يدعو إليه .

(٢) الأفن : فناء .

فسمعت شهيقاً وشخيراً لم أسمع مثله ، ثم خرجت إلى وجبتها يتصب عرقاً ، فقلت لها : ما ظننت حرة تفعل هذا بنفسها !! فقالت : إن الخيل تشرب بالصفير . وعاتبت امرأة زوجها على قلة إتيانها فأجابها يقول :

أنسا شيخ ولى امرأة عجوزاً تراودنى على ما لا يجوز
وقالت : رق أيرك مذكبرنا فقلت : بلى قد اتسع القفيز !

وكان لرجل امرأة تخاصمه ، وكلما خاصمته قام إليها فواقعها ، فقالت : ويحك كلما تخاصمنى تأتينى بشفع لا أقدر على رده ، وأتى رجل إلى على بن أبى طالب عليه السلام وقال : إن لى امرأة كلما غشيتها تقول : قتلتنى ! فقال : اقتلها بهذه القتلة وعلى إثمها ! وقاس عليه السلام جماعه فهو أصبح بدنا ، وأنقى جلدا ، وأطول عمراً ، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان ، وذلك أنه ليس فى الحيوان أطول أعماراً من البغال ، ولا أقصر أعماراً من العصافير ، وهى أكثر سفاداً ^(١) ، والله تعالى أعلم بالصواب .

الفصل الخامس : فى الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخى الأصمعى قال : قال عمى للرشيد ، فى بعض حديثه ، يا أمير المؤمنين ، بلغنى أن رجلاً من العرب ، طلق فى يوم واحد خمس نسوة ، قال : وكيف ذلك ، وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة . قال : يا أمير المؤمنين ، كان متزوجاً بأربعة ، فدخل عليهن يوماً فوجدهن متنازعات ، وكان شريراً ، فقال : إلى متى هذا النزاع ؟ ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة لامرأة منهن ، اذهبي فأنت طالق ، فقالت له صاحبته عجلت عليها بالطلاق ، ولو أدبتها بغير ذلك لكان أصلح ، فقال لها : وأنت أيضاً طالق ، فقالت له الثالثة : قبحك الله ، فوالله لقد كانتا إليك محستتين ، فقال لها : وأنت أيضاً أيتها المعدة أيديهما طالق ، فقالت الرابعة : وكانت هلالية ضاق صدرك إلا أن تؤدب نساءك بالطلاق ، فقال لها وأنت طالق أيضاً فسمعتة جارة له ، فأشرفت عليه ، وقالت له : والله ما شهدت العرب عليك ، ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم أبيت إلا طلاق نساءك فى ساعة واحدة ، فقال لها : وأنت أيتها المتكلمة فيما لا يعينك طالق إن أجازنى بعلك ، فأجابه زوجها قد أجزت ذلك ، فعجب الرشيد من ذلك . وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال لها : اسمعى ، وليسمع من حضر أنى والله اعتمدتكم برغبة ، وعاشتكم بمحبة ، ولم أجد منك زلة ، ولم يدخلنى عنك ملة ، ولكن القضاء كان غالباً ، فقالت المرأة جزيت من صاحب ومصحوب خيراً فما استقلت خيرك ، ولا شكوت ضيرك ، ولا تمنيت غيرك ، ولا أجد لك فى الرجال شبيهاً ، وليس لقضاء الله مدفع ، ولا من حكمه علينا ممنوع . وقال رجل لابن عباس عليه السلام ما تقول فى رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء ؟ فقال : يكيفه من ذلك عدد نجوم المجوزاء ^(٢) .

ذكر من طلق امرأته فتبعها نفسه : قال الهيثم بن عدى كانت تحت ابن الغربان بن الأسود بنت عم له ، فطلقها فتبعها نفسه ، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع فكتبت إليه تقول :

إن كنت ذا حاجة فاطلب لها بدلاً إن الغزال الذى ضيعت مشغول !
فكتب إليها يقول :

إن كان ذا شغل فالله يكلؤه فقد لهونا به والحبل موصول
وقد قضينا من استظرافه وطراً ^(٣) وفى الليالى وفى أيامها طول

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى ، فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه ، فدخل عليه أشعب فقال له : هل لك أن تبلغ سعدى عنى رسالة ، ولك عشرة آلاف درهم ؟! قال أقبضنيها فأمر له بها ، فلما قبضها قال له هات رسالتك قال : انتهت فأنشدها :

(١) سفاداً : معاشره جنسية ونزواً .

(٢) المجوزاء : برج من بروج السماء .

(٣) وطراً : حاجة .

أسعدى هل إليك لنا سبيل ولا حتى القيامة من تلاق
بلى ولعل دهرًا أن يؤاتى بموت من خليلك أو فراق

قال : فاتأها أشعب ، فاستأذن عليها . فأذنت له . فدخل فقالت له : ما بدا لك فى زيارتنا يا أشعب ؟ فقال : يا سيدتى أرسلنى إليك الوليد برسالة ، ثم أنشدها الشعر فقالت : لجواربها : عليكن بهذا الخبيث ، فقال : يا سيدتى إنه دفع إلى عشرة آلاف درهم ، فهى لك وأعتقنى لوجه الله ، فقالت : والله لا أعتقك أو تبلغ إليه ما أقول لك ، قال : يا سيدتى فاجعلنى لى جُعلاً^(١) . فقالت : لك بساطى هذا ، قال : قومى عنه ، فقامت فأخذه وألقاه على ظهره : وقال : هاتى رسالتك فقالت :

أتبكى على سعدى وأنت تركتها فقد ذهبت سعدى فما أنت صانع ؟!

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأخذته كظمة فقال لأشعب : اختر منى إحدى ثلاث : إما أن أقتلك وإما أن أطرحك من هذا القصر ، وإما أن ألقيك إلى هذه السباع ، فتفترسك ، فتحير أشعب وأطرق مليًا ، ثم قال : يا سيدى ، ما كنت لتعذب عينا ، نظرت إلى سعدى ، فتبسم وخلقى سبيله . وممن طلق امرأته ، فتبعها نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوار ، ثم ندم على طلاقها وقال :

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقاً نوار
فأصبحث الغداة ألوم نفسى بأمر ليس لى فيه اختيار
وكانت جنتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أنى ملكت بها يمينى لكان على للقدر الخيار

وممن طلق امرأته فتبعها نفسه فندم قيس بن ذريح ، وكان أبوه أمره بطلاقها ، فطلقها وندم على ذلك فأنشد يقول :

فنى صبرى وعادنى رداعى وكان فراق لبنى كالخداع
تكنفنى الوشاة فأزعجونى فيالللناس للواشى المطاع !
فأصبحث الغداة ألوم نفسى على أمر وليس بمستطاع
كمغبون يعض على يديه تبين غبئه عند البياع

وحدث العتبى قال : جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم ، وهو على الكوفة ، فقال : إن امرأتى هذه شجتنى^(٢) فسألها عبد الرحمن ، فقالت : نعم يا مولاي غير متعمدة لذلك ، كنت أعالج طيباً فوق الفهر من يدى على رأسه ، وليس عندى علم ، ولا يقوى بدنى على القصاص ، فقال للرجل : علام تمسكها ، وقد فعلت بك ما أرى ؟! فقال : يا مولاي إن صداقها على أربعة آلاف درهم ، ولا تطيب نفسى بفراقها ، قال : فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها قال : نعم . قال : هى لك ، قال : فهى إذن طالق : فقال لها عبد الرحمن احبسى علينا نفسك ، وأنشأ يقول :

يا شيخ يا شيخ من ذاك بالغزل قد كنت يا شيخ عن هذا بمعتزل
رُضت الصعاب فلم تحسن رياضتها فاعمد لنفسك نحو القرز الدل

والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) جُعلاً : مقدار من المال مقابل ما أقوم به .

(٢) شجته : شق جلد رأسه أو وجهه .

الباب الرابع والسبعون

في تحريم الخمر ، وذمها والنهي عنها

وقد أنزل الله تعالى في الخمر ثلاث آيات^(١) : الأولى قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية فكان من المسلمين من شارب ، ومن تارك إلى أن شرب رجل فدخل في الصلاة فهجر ، فنزل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فشربها من شربها من المسلمين ، وتركها من تركها حتى شربها عمر رضي الله عنه فأخذ بلحى بعير ، وشج به رأس عبد الرحمن بن عوف ، ثم قعد ينوح على قتلى بدر ، بشعر الأسود بن يعفر يقول :

وكائن بالقليب قليب^(٢) بذر
أيوعدنى ابن كبشة أن سنحياً
ألا من مبلغ الرحمن عني
فقل لله يمنعنى شرابى
من الفتيان والعرب الكرام
وكيف حياة أصداء وهام
بأنى تارك شهر الضياع
وقل : يمنعنى طعامى

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج مغضباً يجرد رداءه ، ورفع شيئاً كان في يده فضربه به ، فقال : أعود بالله من غضبه وغضب رسوله فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩١]^(٣) فقال عمر رضي الله عنه انتهينا انتهينا ، ومن الأخبار المتفق عليها في تحريمها ، قول سيدنا رسول الله ﷺ « لا يدخل الجنة مذموم خمر »^(٤) وقوله ﷺ : « أول ما نهانى ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر ، وملاحاة الرجال »^(٥) ، ومن تركها في الجاهلية عبد الله بن جُدعان ، وكان جواداً من سادات قريش ، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبى الصلت الثقفى ، فضربه على عينه ، فأصبحت عين أمية مخضرة ، يخاف عليها الذهاب ، فقال له عبد الله : ما بال عينك ؟ فسكت ، فألح عليه ، فقال : ألسنت ضاربها بالأمس ؟! فقال : أبلغ منى الشراب ما أبلغ معه إلى هذا ؟ لا أشربها بعد اليوم ! ثم دفع له عشرة آلاف درهم ، وقال : الخمر على حرام ، لا أدوقها بعد اليوم أبداً ! ومن حرمها في الجاهلية أيضاً قيس بن عاصم ، وذلك أنه سكر ذات ليلة فقام لابنته أو لأخته ، فهربت منه ، فلما أصبح سأل عنها ، فقيل له : أو ما علمت ما صنعت البارحة ؟! فأخبر بالقصة ، فحرم الخمر على نفسه . ومن حرمها في الجاهلية أيضاً العباس ابن مرداس ، وقيس بن عاصم ، وذلك أن قيساً شرب ذات ليلة ، فجعل يتناول القمر ، ويقول والله لا أبرح حتى أنزله ، ثم يشب الوثبة بعد الوثبة ، ويقع على وجهه ، فلما أصبح وفاق قال : مالى هكذا ؟ فأخبروه بالقصة ، فقال : والله لا أشربها أبداً ! وقيل للعباس بن مرداس : لم تركت الشراب ، وهو يزيد في سماحتك ؟ فقال أكره أن أصبح سيد قومي ، وأمسى سفيهم ، ودخل نضيب على عبد الملك بن مروان ، فأنشده ، فأعجبه إنشاده وشعره ، ووصله ، ثم دعا بالطعام ، فطعم منه ، فقال له عبد الملك : يا نصيب ! هل لك فيما ينادم عليه ؟! قال : يا أمير المؤمنين جلدى أسود ، وخلقى مشوه ، ووجهى قبيح ، وتكفينى مجالستك ومؤاكلتك ، ولم يوصلنى إلى ذلك إلا عقلى ، وأنا أكره أن يدخل عليه ما ينقصه ، فأعجبه كلامه ، ووصله . وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وفدها عليه : هل لك في الشراب ؟! فقال : يا أمير المؤمنين ، لا خلاف لما أمرت ، ولكن أنا أمتنع أهل عملى منه ، وأكره أن أمتنعهم عن شيء ، ولا أمتنع منه ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِنِّي مَا أَتَاهُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] وقال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا النَّاسَ إِلَهًا وَيَتَسَوَّنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] .

(١) كما جاء في الحديث الذى رواه أبو داود الطيالسى فى مسنده عن ابن عمر ، « نزل فى الخمر ثلاث آيات ... » . إلخ .

(٢) القليب : البر . (٣) وانظر أسباب النزول للسيوطى والنيسابورى . والدر المشور .

(٤) رواه ابن ماجه عن أبى الدرداء كما جاء فى الجزء التاسع « المنتخب من السنة » .

(٥) أخرجه ابن أبى شيبه فى « المصنف » . [٨/٤ ، ١٤/١٠٣] ، والبيهقى فى « السنن الكبرى » . [١٠/١٩٤] .

وقيل لأعرابي : لم لا تشرب النبيذ ؟ فقال : لا أشرب ما يشرب عقلي ! وقال الضحاك ابن مزاحم لرجل : ما تصنع بشرب النبيذ ، قال يهضم طعامي ، قال : أما إنه يهضم من دينك وعقلك أكثر ! وقال ابن أبي أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر :

ألا بالقومى ليس فى الخمر رفعة
فإنى رأيت الخمر شينا ولم يزل

وقال الحسن : لو كان العقل يشتري لتغالى الناس فى ثمنه ، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده ! وقال عيسى ابن مريم ^(١) : « حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنساء حبال الشيطان ، والخمر داعية إلى كل شر » وقال بعضهم :

بلوث نبيذ الخمر فى كل بلدة
إذا دارت الأبطال أرضوك بالمنى

وقال حكيم : إياك وإخوان النبيذ ، فيينا أنت متوج عندهم مخدوم مكرم معظم ، إذ زلت بك القدم ، فجروك على شوك السلم ، فاحفظ قول القائل فيه :

وكل أناس يحفظون حريمهم
فإن قلت هذا لم أقل عن جهالة
(وللأعرج الطائي) :

تركت الشعر واستبدلت منه
كتاب الله ليس له شريك
(وقال الصفي) :

دع الخمر فالراحات فى ترك راحها
وكم ألبست نفس الفتى بعد نورها

(نكتة) : اجتمع نصراني ومحدث فى سفينة ، فصب النصراني خمرا من زق كان معه فى شربة ، وشرب ثم صب فيها ، وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة ، فقال النصراني : جعلت فداك إنما هى خمر . قال : من أين علمت أنها خمر ؟ قال : اشتراها غلامى من يهودى ، وحلف أنها خمر ، فشربها المحدث عن عجل ، وقال للنصراني : يا أحمق ، نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة ، ويزيد بن هارون ، أنفصدق نصرانيا عن غلامه ، عن يهودى والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد ^(٢) ، ومن المجون فى ذلك ما حكى أن سكرانا استلقى على طريق ، فجاء كلب فلحس شفتيه ، فقال : خدمك بنوك ، ولا عديموك ، فبال على وجهه ، فقال : وماء حارا أيضا بارك الله فيك ! وقيل : حالة السكارى ثلاثة قرد حرك رأسه فرقص ، وكلب هارش ^(٣) فنيح ، وحية زويت فنامت . ومر عقاب الناسك بمرداس بن خدام الأسدى ، فاستسقاء لبنا ، فصب له خمرا ، وعلاه بلبن فشربه ، وسكر ، ولم يتحرك ثلاثة أيام ، فقال :

سقيت عقالا بالعشبة شربة
قرعت بأم الخل حبة قلبه

(١) رواه البيهقى فى الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصرى رفعه مرسل ، وذكره الديلمى فى الفردوس ، وتبعه ولده بلاسند عن على رفعه . وقال ابن الغرس : الحديث ضعيف ، ورواه البيهقى أيضا فى الزهد ، وأبو نعيم من قول عيسى ابن مريم وفى رواية لوالد أحمد بلفظ « رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حبال الشيطان ، والخمر مفتاح كل شر » . قاله العجلونى . وهذه هى الرواية التى ذكرها المصنف .

(٢) فى مثل هذه « النكتة » سخوية لازعة من أصحاب الحديث ، وفيهم من سما قدره ، وعلا شأنه واتصف بالصدق والعدالة ، أما الوضعاؤون والكذبة فليسوا من أصحاب الحديث ، ولا يعد كلامهم حديثا .

(٣) هارش الكلب الكلب : قاتله ، وتهاارشت الكلاب : تقاتلت .

ويقال : الخمر مصباح السرور ، ولكنها مفتاح الشرور . اللهم تب علينا وعلى العصاة والمذنبين . برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .



الباب الفاسس والسبعون

في المزمح والنهي عنه وما جاء في الترخيص فيه
والبسطة والتنعم وفيه فصول

الفصل الأول : في النهي عن المزاح

قال رسول الله ﷺ : المزاح استدراج من الشيطان ، واختلاع من الهوى ^(١) . وعن علي : ما مزح أحد مزحة إلا مج الله من عقله مجة . وعنه : إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكا ، وإن حكيت ذلك عن غيرك . وكتب عمر ﷺ إلى عماله : امنعوا الناس من المزاح ، فإنه يذهب بالمروءة ، ويوغر الصدور ، وقال بعض الحكماء : تجنب سوء المزح ، ونكد الهزل ، فإنهما بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد غم . وقال آخر : لكل شيء بذر ، وبذر العداوة المزاح . وعن محمد بن المنكدر قال : قالت لى أمى : لا تمازح الصبيان تهن عندهم . وخرج أعرابي بالليل ، فإذا بجارية جميلة ، فراودها ، فقالت : أما لك زاجر من عقلك ، إذا لم يكن لك واعظ من دينك ؟ فقال : والله ما يرانا إلا الكواكب ، فقالت له : يا هذا ، وأين مكوكبها ؟ فأخجله كلامها ، فقال لها : إنما كنت مازحا ، فقالت :

فإياك إياك المزاح فإنه
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه

وقال الأحنف : كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئا عرف به . ومما روى عن الصحابة ﷺ أنهم كانوا يتحدثون ، ويتناشدون الأشعار فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم ، كأنهم لم يعرفوا أحدا .

الفصل الثاني : فيما جاء في الترخيص في المزاح والبسطة والتنعم

لا بأس بالمزح ، ما لم يكن سفها ، والله تعالى وعد في اللطم بالتجاوز والعفو فقال : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّطَمَ ﴾ [النجم: ٣٢] ، وقيل : إن يحيى بن زكريا لقي عيسى ﷺ فقال : مالي أراك لا هيئا كأنك آمن ؟! فقال له عيسى : مالي أراك عابسا كأنك آيس ؟! فقال : لا تبرح حتى ينزل علينا الوحي فأوحى الله إليهما : ﴿ إِنَّ أَحْبَبَ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ ظَنًّا بِي ﴾ ويروى : ﴿ إِنَّ أَحْبَبَ إِلَيَّ الطَّلُقُ الْبَسَامُ ﴾ ^(٢) . وقال عمر بن الخطاب ﷺ لجارية : خلقتني خالق الخير ، وخلقتك خالق الشر ، فبكت الجارية ، فقال ، لا بأس عليك فإن الله خالق الخير والشر قال الشاعر :

إن الصديق يريد بسطك مازحا
وترى العدو إذا تيقن أنه

وكان رسول الله ﷺ : « يمزح ولا يقول إلا حقا » ^(٣) . فمن مزحه ﷺ : « أنه جاء رجل فقال : يا رسول الله احملني على جمل ، فقال ﷺ : لا أحملك إلا على ولد الناقة » فقال : يا رسول الله إنه لا يطيقني ، فقال له الناس : ويحك وهل الجمل إلا ولد

(٢) لم أهد إليه .

(١) الخ لم أهد إليه

(٣) جاء في الشماثل لأبي عيسى الترمذي بروايته قال : يا رسول الله ، إنك تداعبنا ، قال : « إني لا أقول إلا حقا » . الشماثل لأبي عيسى الترمذي « باب مزاح رسول الله ﷺ » .

الناقة ؟ وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار «الحقى زوجك ففى عينيه بياض» ، فسعت إلى زوجها مرعوبة ، فقال لها : ما دهالك قالت : إن النبى ﷺ قال لى : إن فى عينيك بياضا ، فقال : نعم . والله ^(١) وسواداً وأتته أيضا عجوز أنصارية فقالت : يا رسول الله : ادع الله أن يدخلنى الجنة ، فقال لها : يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز ، فولت المرأة تبكى ، فتبسم ﷺ وقال لها : أما قرأت قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِثَةً ۖ فَمَعْلَنَهُمْ أَبْكَارًا ۖ عُرْيًا تَرَابًا ۖ ﴾ ^(٢) وقالت عائشة رضي الله عنها : سأقت رسول الله ﷺ فسبقته ، فلما كثر لحمى سابقته ، فسقنى ، فضرب بكتفى وقال : « هذه بتلك » ^(٣) ، وعنهما أيضا قالت : « كان رسول الله ﷺ يدخل وأنا أَلْعَبُ مع صويحباتى ولا يعيب على » ^(٤) . وسئل النخعي : هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون ؟ قال نعم والإيمان فى قلوبهم مثل الجبال الرواسى ، . وكان نعيمان الصحابى من أولع الناس بالمزاح والضحك ، قيل : إنه يدخل الجنة ، وهو يضحك ، فمن مزحه أنه مر يوما بمخرمة بن نوفل الزهرى ، وهو ضريز ، فقال له : قُذْنى حتى أبول ، فأخذيده حتى أتى به إلى المسجد فأجلسه فى مؤخره ، فصاح به الناس : إنك فى المسجد ، فقال : من قاذنى ؟ قالوا : نعيمان ، قال : لله على نذر أن أضربه بعضاى هذه إن وجدته ، فبلغ ذلك نعيمان ، فجاء إليه وقال له : يا أبا المسور ، هل لك فى نعيمان ؟ قال : نعم . قال : ها هو قائم يصلى ، وأخذيده ، وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلى ، قال : هذا نعيمان فعلاه بعضاه ، فصاح الناس ، أمير المؤمنين ، فقال : من قاذنى ؟ قالوا : نعيمان ، فقال والله لا تعرضت له بسوء بعدها . وقال عطاء بن السائب : كان سعيد بن جبير يقص علينا حتى يبكينا ، وربما لم يقم حتى يضحكنا ! وكان رجل يسمى تاج الوعظ يعظ الناس ، ويقص عليهم حتى يبكاهم ، ثم لم يقم حتى يضحكهم ، ويسقط آمالهم ، فمن لطائفه : أنه حكى يوما بعدما فرغ من ميعاده قال : سمعت الناس يتكلمون فى التصحيف ، وكنت لا أعرفه ، فوقع فى قلبى أن أنعلمه ، فدخلت فى سوق الكتبية ، واشترت كتابا فى التصحيف فأول ما تصفحته وجدت فيه سكبا ^(٥) تصحيفه شك تاج ، فرميت الكتاب من يدي وحلفت أنى لا أشتغل به أبدا فضحك الناس ، حتى غشى عليهم . ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان ، فوجده يتأوه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب ، ويأسطك استرحت ، فقال لست بصاحب لهو ، فقال : ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين ؟ قال : هاجبى عرق النساء فى ليلتى هذه فبلغ منى ما ترى ، فقال : إن بديحا مولاي أرقى الخلق منه ، فأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه ، قال له عبد الملك : يا بديح ارق رجلى ، فقال يا مولاي : أنا أرقى الناس لها ، ثم وضع يده عليها ، وجعل يقول ما لا يسمع ، فقال عبد الملك : قد وجدت راحة بهذه الرقية ، أين فلانة اتتوني بها تكتبها لثلا يهيج بى الوجع بالليل ، فقال بديح ، الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتعجيل جائزتى ، فأمر له بأربعة آلاف درهم ، فقال يا أمير المؤمنين ، الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جائزتى إلى بيتى ، قال : تحمل ، فحملت ، فقال يا أمير المؤمنين ، الطلاق يلزمه : ما رقيت رجلك إلا بماسطة بقول نصيب حيث قال :

ألا إن ليلى العامرية أصبحت على البُعد منى ذنب غيرى تنقم

فقال : ويلك ، ما تقول ؟ فقال : الطلاق يلزمه ما رقيت إلا بها ، فقال : اكتمها على ، فقال : كيف وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر ، فضحك حتى فحص برجليه ، وأعجبه هذا البسط . وروى أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر :

أنبت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول !
ثم يضحك حتى يسيل لعابه .

(ومما جاء فى الشطنرج واللعب به والنهى عنه والترخيص فيه) : أما النهى عنه فقد قيل : إن عليا رضي الله عنه مر بقوم

(١) رواه أبو حاتم وغيره من حديث عبد الله بن سهم الفهرى . وقد ذكره القاضى عياض فى الشفاء بغير إسناد .

(٢) الواقعة : [٣٥ - ٣٧] ، وقد روى القصة أبو عيسى الترمذى فى الشمائل .

(٣) أخرجه النسائى فى كتاب عشرة النساء ، وأخرجه ابن ماجه فى سننه : النكاح ، باب حسن معاشره النساء . بلفظ « هذه بتلك » . [١٩٧٩] .

(٤) رواه النسائى فى كتاب عشرة النساء « باب إباحة الرجل للعب لزوجته بالبنات » . بلفظ كنت ألعب بالبنات ، فربما دخل على رسول الله ﷺ وصويحباتى عندى ، فإذا راين رسول الله ﷺ فرون ، فيقول رسول الله ﷺ « كما أنت وكما أنتن » . وفى حديث آخر : وكان رسول الله ﷺ يسرهن إلى فيلبن معى .

(٥) السكبا : طعام يعمل من اللحم والخل مع توابل ، والقطعة منه سكباجة .

يلعبون بالشطرنج ، فقال لهم : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟! وكان أبو القاسم الكسروى يقول : لا ترى شطرنجيا غنيا إلا بخيلا ، ولا فقيرا إلا طفيليا ، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج ، واحتَضِرَ شِطْرُنْجِيٌّ^(١) .
فصار يقول : « شاه مات شاه مات » مكان الشهادتين حتى مات ! وأما الترخيص فيه فقد سئل الشعبي عن اللعب بالشطرنج ؟ فقال : لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر ، وتبادل ، وقال بعضهم : كنا فى السجن مع ابن سيرين ، فكان يرانا ونحن نلعب بالشطرنج ، فيقوم فيأتى ويقول : ارفع الفرس : ارفع كذا ، ارفع كذا ، ولا يعيب علينا ! وعن سعيد بن المسيب قال : كنت ألعب بالشطرنج مع صديقى فى بيته ، حين خفت^(٢) الحجاج . ومما قيل لعلى بن الجهم فى الشطرنج ، وقيل للمأمون :

أرض مربعة حمراء من آدم ما بين حرين معروفين بالكرم
تذكر الحرب فاحتالا لها فطنا من غير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحزم لم تنم
فانظر إلى همم جاشت بمعركة فى عسكريين بلا طبل ولا علم

قالوا : إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون بقتال ، فإذا تنازع ملكان فى كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج ، فيأخذها الغالب من غير قتال ، وقيل : إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر القطعة منه بثلاثة آلاف دينار .

(ومما جاء فى لعب الغلمان) : ما حكى أن غلامانا من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة^(٣) ، وأسقف البحرين قاعد ، فوقعت الأكرة على صدره ، فأخذها فجعلوا يطلبونها منه ، فأبى ، فقال غلام منهم سألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا ، فأبى - لعنة الله - وسب رسول الله ﷺ ، فأقبلوا عليه بصوالجهم ، فما زالوا يخطونه حتى مات - لعنة الله عليه - فرفع ذلك إلى عمر رضي الله عنه فوالله ما فرح بفتح ولا غنيمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف ، وقال : الآن عز الإسلام إن أطفالا صغاراً شتم نبيهم فغضبوا له ، وانتصروا وأهدر دم الأسقف والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب السادس والسبعون

فى النوادر وفيه فصول

الفصل الأول : من هذا الباب فى نوادر العرب

خرج المهدي يتصيد فغار به فرسه حتى وقع فى خباء أعرابى ، فقال : يا أعرابى ؟ هل من قِرَى^(٤) فأخرج له قرص شعير ، فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبن ، فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ فى زكوة فسقاه ، فلما شرب ، قال : أتدرى من أنا ؟ قال : لا . قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة ؟ قال : بارك الله لك فى موضعك ، ثم سقاه مرة أخرى ، فشرب ، فقال : يا أعرابى ، أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال : لا أنا من قواد

(١) اختَضِرَ : حضرته الوفاة .

(٢) خَفَتَ : سَكَنَ وسَكَتَ ، ويعنى مات فجأة .

(٣) الصوالجة : جمع صولجان وهو مضرب كالعصا معقوف طرفها يضرب بها الفارس الكرة ، قال الشاعر :

* كرة ضُرِبَتْ بصوالجة فتلقفها رجل رجل *

(٤) هل من قِرَى : هل من طعام يقدم للضيف !؟

أمير المؤمنين ، قال : رُحِبَ بلادك وطاب مرأذك ، ثم سقاه الثالثة ، فلما فرغ ، قال : يا أعرابي أتدري من أنا ؟ قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال : لا . ولكني أمير المؤمنين ، قال : فأخذ الأعرابي الزكوة^(١) فوكأها وقال : إليك عنى ، فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله ! فضحك المهدي حتى غشى عليه ، ثم أحاطت به الخيل ، ونزلت إليه الملوك والأشراف ، فطار قلب الأعرابي ، فقال له : لا بأس عليك ، ولا خوف ، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل . ووجد أعرابي يأكل ، ويتغوط ، ويفلى ثوبه ، فقيل له في ذلك ، فقال : أخرج عتيقاً^(٢) ، وأدخل جديداً ، وأقتل عدوا . وقيل لبعض الأعراب : إن شهر رمضان قدم ، فقال : والله لأبددن شمله بالأسفار^(٣) ، وسمع أعرابي قارئاً يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى : ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ . [التوبة: ٩٧] فقال : لقد هجانا ثم بعد ذلك سمعته يقرأ : ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩] . فقال : لا بأس هجا ، ومدح هذا كما قال شاعرنا :

هجوْتُ زهيراً ثم إنى مدحته وما زالت الأشرافُ تهجى وتمدحُ

وحضر أعرابي على مائدة يزيد بن يزيد بن مزيّد فقال لأصحابه : افرجوا لأخيكم ، فقال الأعرابي : لا حاجة لي بإفراجكم ، إن أطنابي^(٤) طوال (يعني سواعده) فلما مد يده ضرط فضحك يزيد فقال يا أبا العرب أظن أن طنبا من أطنابك قد انقطع . ورؤى أعرابي يغطس في البحر ، ومعه خيط ، وكلما غطس غطسة عقد عقدة فقيل له : ما هذا ؟ قال : جنابات الشتاء أفضيها في الصيف .

وسرق أعرابي غاشيةً من على سرج ، ثم دخل المسجد يصلى ، فقرأ الإمام : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] . فقال : يا فقيه ، لا تدخل في الفضول^(٥) ، فلما قرأ : ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَنِيعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢] قال : خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهي ، لا بارك الله لكم فيها ، ثم رماها من يده وخرج ! وحضر أعرابي مجلس قوم فتذكروا قيام الليل ، فقيل له ، يا أبا أمانة ، أتقوم الليل ؟ فقال : نعم . قالوا : ما تصنع ؟ قال : أبول ، وأرجع أنا . وسرق أعرابي صرة فيها دراهم ، ثم دخل المسجد يصلى ، وكان اسمه موسى ، فقرأ الإمام : ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَتُوسُ﴾ [طه: ١٧]^(٦) فقال الأعرابي : والله إنك لساحر ! ثم رمى الصرة وخرج .

(وحكى) : الأصمعي قال : ضلّت لى إبل فخرجت في طلبها ، وكان البرد شديداً فالتجأت إلى حي من أحياء العرب ، وإذا بجماعة يصلون ، وبقرهم شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد وينشد :

أيا رب إن البرد أصبح كالخا وأنت بحالى يا إلهى أعلم

فإن كنت يوماً فى جهنم مُدْخِلِي ففى مثل هذا اليوم طابت جهنم

قال الأصمعي : فتعجبت من فصاحته ، وقلت له : يا شيخ أما تستحي تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير ؟! فأنشد يقول :

أيطمع ربي أن أصلى عارياً ويكسو غيرى كسوة البرد والحر ؟!

فوالله لا صليت ما عشت عارياً عشاء ولا وقت المغيب ولا الوتر

ولا الصبح إلا يوم شمس دفيئة وإن غيمت فالويل للظهر والعصر !

وإن يكسنى ربي قميصاً وجبةً أصلى له مهما أعيش من العمر !

(١) الزكوة : إناء صغير من الجلد يشرب فيه ، فوكأها : فسدّها وغطاها بغطائها .

(٢) العتيق : القديم .

(٣) بالأسفار جمع سفر . وقد رخص للمسافر بالفطر .

(٤) الأطناب : جمع طُنْب : حبل يشد به الخباء والسرادق ونحوهما ، وعصب الجسد الذى يتصل بالمفاصل ويشدها [على التشبيه] . والمراد يداه وساعده .

(٥) غاشية الفرس : الغطاء أما الغاشية فى الآية فيراد بها يوم القيامة .

(٦) فيما ليس من شأنك . .

(٧) ومثل هذه النوادر القرآنية مما لا ينبغي تردها تأدياً حتى ولو كانت قد حدثت .

قال فأعجبني شعره وفصاحته ، فنزعت قميصاً وجبة كانا على ، ودفعتهما إليه وقلت له : البسهما ، وقم فصل ، فاستقبل القبلة ، وصلى جالسا وجعل يقول :

إليك اعتذارى من صلاتي جالسا
فمالي ببرد الماء يا رب طاقة
ولكنني أستغفر الله شاتياً
وإن أنا لم أفعل فأنت محكم
على غير طهر مومياً نحو قبلتي
ورجلای لا تقوى على ثنى ركبتی
وأقضيکها يا رب فی وجه صيفتي
بما شئت من صفعی ومن نتف لحيتي !

قال : فعجبت من فصاحته وضحكته عليه وانصرفت وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك ، يسمى مرزبان ، فظهر له من الملك جفوة ، فلما زاد ذلك عليه ، تعلم نباح الكلاب ، وعواء الذئب ، ونهيق الحمير : وصهيل الخيل ، وصوت البغال ، ثم احتال حتى دخل موضعاً يقرب خلوة الملك ، وأخفى أمره فلما خلا الملك بنفسه ، نبح نباح الكلاب ، فلم يشك الملك في أنه كلب فقال : انظروا ما هذا فعوى عواء الذئب ، فنزل الملك عن سريره فنهق نهيق الحمير ، فمضى الملك هارباً ، ومضت الغلمان يتبعون الصوت ، فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل ، فاقحموا عليه ، وأخرجوه عريانا ، فلما وصلوا به إلى الملك ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكاً شديداً ، وقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : إن الله عز وجل مسخني كلباً ، وذنباً ، وحماراً ، وفوساً ، لما غضب على الملك ، قال : فأمر الملك أن يخلع عليه ، وأن يرد إلى مرتبته الأولى .

الفصل الثاني : في نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال : كنا في دهليز عثمان بن شبة ، فخرج إلينا فقال : ﴿ تَ وَالْقَلْبِ ﴾ . [القلم: ١] في أي سورة ؟ ومرو بعضهم بقارئ يقرأ ﴿ اَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ ﴿ فِي اَدْنَى الْاَرْضِ ﴾ . [الروم: ١-٣] . فقال له : « الروم » فقال له : كلهم أعداؤنا قاتلهم الله ! وكان جماعة يجلسون إلى أبي العيئة وفيهم رجل لا يتكلم ، فقيل له يوماً : كيف علمك بكتاب الله ؟ قال : أنا عالم به ، فقيل له : هذه الآية في أي سورة ؟ « الحمد لله لا شريك له » . فقال له : في سورة الحمد فضحكوا عليه . وجاء رجل إلى فقيه فقال : أفطرت يوماً في رمضان ، فقال : اقض يوماً مكانه ، قال : قضيت ، وأتيت أهلي ، وقد عملوا مأمونية فسبقتني يدي إليها فأكلت منها ، فقال : اقض يوماً آخر مكانه قال : قضيت ، وأتيت أهلي ، وقد عملوا هريسة ، فسبقتني يدي إليها ، فقال : أرى أن لا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عتقك . وجاء رجل إلى بعض الفقهاء فقال له : أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل ، وإنني توضأت ، وصليت فينما أنا في الصلاة ، إذا أحسست بببل في سراويلي يتلرق ، فشمتته فإذا رائحته كريهة خبيثة ، قال الفقيه ، عافاك الله خريت بإجماع المذاهب ! وجاء رجل إلى فقيه قال : أنا رجل أفسو في ثيابي حتى تفوح روائحي ، فهل يجوز لي أن أصلي في ثيابي ؟ قال : نعم . لكن ، لاكثر الله في المسلمين مثلك ، ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة ، فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما ، فدخل إليها وقال : إن أبا محمد شيخ كبير ، فلا يزهدك فيه عمش عينيه ، ودقة ساقيه ، وضعف ركبتيه ، وتنن إبطيه ، وبخر فيه ، وجمود كفيه ، فقال له الأعمش ، قم قبحك الله فقد أريتها من عيوبى ما لم تكن تعرفه . وسكن بعض الفقهاء في بيت سقفه يقرقع في كل وقت ، فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة فقال له : أصلح السقف فإنه يقرقع ، قال : لا تخف فإنه يسبح الله تعالى ، قال : أخشى أن تدركه رقة فيسجد !

الفصل الثالث : في نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة ، فقراً يوماً في المصحف : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْاَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ . [هود: ٦] . فقال لغلامه : أطلق البغلة ورزقها على الله ، فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكل قشور الباذنجان ، وقشور الرمان ، وقشور البطيخ ، وقمامات الطريق ، فماتت ، فأمر الغلام بإحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة ، فأحضرهم

فطلبوا من القاضي عشرة دراهم أجرة حملها ، وقالوا : ليس لنا شيء نرتزق منه إلا من مثل هذا ، وسيدنا رجل غني ، وله أشياء كثيرة العدالة ، والتزويج ، والعقود ، والوراقة ، والسجن ، والإطلاق وجامكية الحكم ، وأجرة اليمين ، والتدريس ، والأوقاف . فقال القاضي ، ألمثلني يقال هذا ، وأنتم لكم اثنا عشر بابا من المنافع : منها الوسخ ، والهلع ، وبيت النبذة ، وشركة النفوس ، وجباية الأسواق ، وحرق النار ، وسلب الشطار ، ولكم الصياح ، وثمان الإصلاح ، وما تروحوا من هذه البغلة بلا شيء جلدها للدباغين ، وذنبها للغرابلية ، ومعرفتها للشعار ، وتطبيقتها للبطار ؟! قال : فتقدم أحدهم إليه ، وقال : بحق من تاب عليك ، ورد عاقبتك إلى خير ، وأراحك من هذا المعاش ، تصدق علينا بشيء ولا تدعنا نروح بلاش ، تفسير هذه الألفاظ : والوسخ المراحض ، والهلع جباية الأسواق ، وبيت النبذة محل المزور ، وشركة النفوس كل من حمل ميتا ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه وسلب الشطار كل من شفقوه لهم سلبه . وولى يحيى بن أكثم قاضيا على أهل جبلة ، فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة فقال لأهل جبلة : إذا اجتاز الرشيد فاذكروني عنده بخير ، فوعده بذلك فلما جاء الرشيد تقاعدوا عنه ، فسرح القاضي لحيته ، وكبر عمته ، وخرج فرأى الرشيد في الحراقة ، ومعه أبو يوسف القاضي فقال : يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضى جبلة ، عدل فينا وفعل كذا وكذا ، وجعل يشي على نفسه ، فلما رآه أبو يوسف عرفه فضحك فقال له الرشيد : مم تضحك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين المثنى على القاضي هو القاضي ، فضحك الرشيد حتى فحس برجله الأرض ، ثم أمر بعزله فعزل . وتحاكم الرشيد وزبيدة إلى أبي يوسف القاضي في الفالوج ، واللوزنج ، أيهما أطيب ؟ فقال أبو يوسف : أنا لا أحكم على غائب ، فأمر الرشيد بإحضارهما ، وقدا بين يدى أبي يوسف ، فجعل يأكل من هذا مرة ، ومن هذا مرة ، حتى نصف الجامين ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت أعدل منهما ؛ كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته . وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدين ، فجعل القاضي يميل إليها بالحكم ، فقال الرجل : أصلح الله القاضي ! حجتى أوضح من هذا النهار ، فقال له القاضي : اسكت يا عدو الله فإن الشمس أوضح من النهار ، قم لا حق لك عليها ، فقالت المرأة : جزاك الله عن ضعفى خيرا ، فقد قويته ، فقال الرجل : لا جزاك الله عن قوتى خيرا فقد أهويتها ! ورفعت امرأة زوجها إلى القاضي تبغى الفرقة ، وزعمت أنه يبول فى الفراش كل ليلة ، فقال الرجل للقاضي : يا سيدى لا تعجل على حتى أقص عليك قصتى ! إنى أرى فى منامى كأنى فى جزيرة فى البحر ، وفيها قصر عال ، وفوق القصر قبة عالية ، وفوق القبة جمل ، وأنا على ظهر الجمل ، وأن الجمل يطأطأ برأسه ليشرب من البحر ، فإذا رأيت ذلك قلت من شدة الخوف ، فلما سمع القاضي ذلك بال فى فراشه وثيابه ، وقال : يا هذه أنا قد أخذنى البول من هول حديثه ، فكيف بمن يرى الأمر عيانا ؟!

(الفصل الرابع : فى نواذر النحاة)

وقف نحوى على يئاع يبيع أرزا بعسل ، ويقلا يخل ، فقال : بكم الأررز بالأعسل ، والأخلل بالأقل ؟ فقال : بالأصفع فى الأروس ، والأضرط فى الأذن ، ووقع نحوى فى كنيف^(١) فجاءه كناس ليخرجه ، فصاح به الكناس ليعلم أهو حى أم لا ؟ فقال له النحوى : اطلب لى جبلا دقيقا وشدنى شدا وثيقا ، واجذبني جذبا رفيقا ، فقال الكناس : امرأته طالق إن أخرجك منه ، ثم تركه وانصرف . وكان لبعضهم ولد نحوى يتقعر فى كلامه فاعتل^(٢) أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت ، فاجتمع عليه أولاده وقالوا له : ندعو لك فلانا أخانا ، قال : لا إن جاءنى قتلنى ، فقالوا : نحن نوصيه أن لا يتكلم ، فدعوه ، فلما دخل عليه وقال له : يا أبت قل لا إله إلا الله تدخل بها الجنة ، وتفوز من النار ، يا أبت والله ما أشغلنى عنك إلا فلان فإنه دعانى بالأمس فأهرس ، وأعدس ، واستبذج ، وسكيج ، وطهيج ، وأفرج ، ودجج وأبصل ، وأمضر ولوزج ، وافلوزج ، فصاح أبوه : غمضونى فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحى ! وجاء نحوى يعود مريضا فطرق بابيه ، فخرج إليه ولده فقال : كيف وجدت أباك ؟ قال : يا عم ورمت رجليه ، قال : لا تلحن . قل : رجلاه ، ثم ماذا ؟ قال : وصل الورم إلى ركبته ، قال : لا تلحن : قل إلى ركبته ، ثم ماذا ؟ قال : مات وأدخله الله فى بظر^(٣) عيالك وعيال سيبويه ، ونفطويه ،

(٢) اعتل : مرض وأصابته علة .

(١) كنيف : محل قضاء الحاجة . . المرحاض .

(٣) البظر : نتوء فى وسط الشفة العليا .

وجحشويه . ودعا بعضهم نحوياً فقال : ما الذى تشكوه ؟ قال : حمى جاسية ، نارها حامية منها الأعضاء واهية ، والعظام بالية ، فقال له : لا شفاك الله بعافية ، ياليتها كانت القاضية .

الفصل الخامس : فى نوادر المعلمين

قال الجاحظ : مررت بمعلم صبيان وعنده عصاً طويلة وعصاً قصيرة ، وصولجان ، وكرة ، وطبل ، وبوق ، فقلت : ما هذه ؟ فقال : عندى صغار أوباش ^(١) ، فأقول لأحدهم اقرأ لوْحَك ، فيصفر لى بضربة ، فأضربه بالعصا القصيرة ، فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة ، فيفر من بين يدي ، فأضع الكرة فى الصولجان ، وأضربه فأشجه ^(٢) ، فتقوم إلى الصغار كلهم بالألواح ، فأجعل الطبل فى عنقي ، والبوق فى فمى ، وأضرب الطبل ، وأنفخ فى البوق ، فيسمع أهل الدرب ذلك ، فيسارعون إلى ويخلصونى منهم !

(وحكى) الجاحظ أيضاً قال : مررت على خربة فإذا بها معلم ، وهو ينبج ثباح الكلاب ، فوقفت أنظر إليه وإذا بصبي قد خرج من دار فقبض عليه المعلم ، وجعل يلطمه ويسبه ، فقلت : عرفنى خبره . قال : هذا صبي لثيم ، يكره التعليم ، ويهرب ، ويدخل الدار ولا يخرج ، وله كلب يلعب به ، فإذا سمع صوتى ظن أنه صوت الكلب ، فيخرج فأمسكه . وقال الجاحظ رأيت معلماً فى الكتاب وحده ، فسألته فقال : الصغار داخل الدرب يتصارعون ، فقلت : أحب أن أراهم ، فقال : ما أشير عليك بذلك ، فقلت : لا بد ، قال : فإذا جئت إلى رأس الدرب ، اكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك ، حتى تعمى ! وقال بعضهم : رأيت معلماً وقد جاء صغيран يتماسكان ، فقال أحدهما : هذا عض أذننى ، فقال الآخر : لا والله يا سيدنا هو الذى عض أذن نفسه ، فقال المعلم : يابن الزانية ، هو كان جملاً يعض أذن نفسه ؟ ! وقال بعضهم : رأيت معلماً ، وهو يصلى العصر فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه ونظر إلى الصغار وهم يلعبون ، وقال : يابن البقال قد رأيت الذى عملت وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة .

(وحكى) عن الجاحظ أنه قال : ألفت كتاباً فى نوادر المعلمين ، وما هم عليه من التغفل ، ثم رجعت عن ذلك ، وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب ، فدخلت يوماً مدينة ، فوجدت فيها معلماً فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه ، فرد على أحسن رد ، ورحب بى فجلست عنده وباحثته فى القرآن فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته فى الفقه ، والنحو ، وعلم المعقول ، وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب ، فقلت : هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب ، قال : فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته فإذا بالكتاب مغلق ، ولم أجده ، فسألته عنه فقيل : مات له ميت فحزن عليه ، وجلس فى بيته للعزاء ، فذهبت إلى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت إلى جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيدك ، فدخلت وخرجت ، وقالت باسم الله فدخلت إليه ؟ وإذا به جالس ، فقلت : عظم الله أجرك ، **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** [الأحزاب: ٢١] . **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** [الأنبياء: ٥٧] . فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا ، قلت فوالدك ، قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتي ! فقلت فى نفسى : هذه أول المناחס ، فقلت : سبحان الله ، النساء كثير ، وستجد غيرها ، فقال : أتظن أنى رأيتها ؟ ! قلت : وهذه منحسة ثانية ، ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : اعلم أنى كنت جالساً فى هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه بُرد وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردى على فؤادى أينما كانا

لا تأخذين فؤادى تلعبين به فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ، وما قيل فيها هذا الشعر . فعشقتها ، فلما كان منذ يومين ، مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار !

(١) الأوباش : الأخلاط والسفلة من الناس جمع وبش بسكون الباء أو بفتحها .

(٢) أشجه : أصيبه فى رأسه بجرح .

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست في الدار ، فقلت : يا هذا إني كنت ألقت كتابا في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبك ، عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويت عزمي على إبقائه وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى !

(الفصل الساس : في نوادر المتنبين

ادّعى رجل النبوة في أيام الرشيد ، فلما مثل بين يديه قال له : ما الذي يقال عنك ؟ قال : إني نبي كريم ، قال : فأى شيء يدل على صدق دعواك ، قال : سل عما شئت ، قال : أريد أن تجعل هذه الممالك المرد^(١) لقيام الساعة بلحي ، فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه ، وقال : كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد بلحي ، وأغير هذه الصور الحسنة ، وإنما أجعل أصحاب هذه اللحى مردا في لحظة واحدة ! فضحك منه الرشيد ، وعفا عنه ، وأمر له بصلة . وتنبأ إنسان ، فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة ، فقال : أطرح لكم حصاة في الماء فتدوب ، قالوا : رضينا ، فأخرج حصاة معه ، وطرحتها في الماء فذابت ، فقالوا : هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا ودعها تدوب ، فقال : لستم أجل من فرعون ، ولا أنا أعظم حكمة من موسى ، ولم يقل فرعون لموسى : لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندى ، تجعلها ثعبانا ، فضحك المأمون ، وأجازه . وتنبأ رجل في أيام المعتصم ، فلما حضر بين يديه ، قال : أنت نبي ؟ قال : نعم . قال : وإلى من بعثت ؟ قال : إليك . قال : أشهد أنك لسفيه أحمق ، قال : إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم ، فضحك المعتصم وأمر له بشيء .

وتنبأ رجل في أيام المأمون ، وادّعى أنه إبراهيم الخليل ، فقال له المأمون : إن إبراهيم عليه السلام كانت له معجزات وبراهين ، قال : وما براهينه ؟ قال أضمرت له نار ، وألقى فيها ، فصارت عليه بردا وسلاما ، ونحن نوقد لك نارا ، ونطرحك فيها فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك ، قال : أريد واحدة أخف من هذه ، قال : فبراهين موسى ، قال : وما براهينه ؟ قال : ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى ، وضرب بها البحر فانفلق ، وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء قال : وهذه على أصعب من الأولى . قال : فبراهين عيسى قال : وما هي ؟ قال إحياء الموتى ، قال : مكانك قد وصلت أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم ، وأحييه لكم الساعة ، فقال : يحيى أنا أول من آمن بك وصدق . وتنبأ آخر في زمن المأمون ، فقال المأمون : أريد منك بطيخا في هذه الساعة ، قال : أمهلني ثلاثة أيام ، قال : ما أريده إلا الساعة ، قال : ما أنصفتني يا أمير المؤمنين إذا كان الله تعالى الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ما يخرج به إلا في ثلاثة أشهر ، فما تصبر أنت على ثلاثة أيام ؟! فضحك منه ووصله . وتنبأ آخر في زمن المأمون فلما مثل بين يديه قال له : من أنت ؟ قال : أنا أحمد النبي قال : لقد ادعيت زورا ، فلما رأى الأعوان قد أحاطت به ، وهو ذاهب معهم ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحمد النبي فهل تدمه أنت ؟ فضحك المأمون منه ، وخلي سبيله ، وتنبأ آخر في زمن المتوكل ، فلما حضر بين يديه قال له : أنت نبي ؟ قال : نعم قال : فما الدليل على صحة نبوتك ؟ قال : القرآن العزيز ، يشهد بنبوتى في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ . [النصر: ١] وأنا أسمى نصر الله . قال فما معجزتك ؟ قال اثنوني بامرأة عاقر أنكحها تحبل بولد يتكلم في الساعة ، ويؤمن بى ، فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى ، أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته ، فقال الوزير : أما أنا فاشهد أنه نبي الله ، وإنما يعطى زوجته من لا يؤمن به ، فضحك المتوكل ، وأطلقه . وادّعى رجل النبوة في زمن خالد بن عبد الله القسرى ، وعارض القرآن ، فأتى به إلى خالد ، فقال له : ما تقول ؟ قال : عارضت القرآن ، قال : بماذا ؟ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكِتَابَ ﴾ [الكوثر: ١] الآية وقلت : إنا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر ، ولا تطع كل ساحر ، فأمر به خالد فضرب عنقه ، وصلب فمر به خلف بن خليفة الشاعر ، فضرب بيده على الخشبة ، وقال : إنا أعطيناك العود ، فصل لربك من قعود وأنا ضامن لك أن لا تعود . وأتى المأمون برجل ادعى النبوة فقال له : ألك علامة ؟ قال : علامتى أنى أعلم ما فى نفسك . قال : وما فى نفسى ؟ قال فى نفسك أنى كاذب قال : صدقت ، ثم أمر به إلى السجن فأقام فيه أياما ، ثم

(١) المزد : جمع أمرد : من لا لجة له .

أخرجه ، فقال : هل أوحى إليك بشيء ؟ قال : لا . قال : ولم ؟ قال : لأن الملائكة لا تدخل الجبوس^(١) ، فضحك منه ، وخلق سبيله . وأتى بامرأة تنبأت في أيام المتوكل ، فقال لها : أنت نبية ؟ قالت : نعم . قال : أتؤمنين بمحمد ؟ قالت : نعم . قال : فإنه **قال** : « لا نبى بعدى »^(٢) قالت : فهل قال لا نبية بعدى ؟ فضحك المتوكل ، وأطلقها . وتنبأ رجل يسمى نوحا ، وكان له صديق نهاه ، فلم يقبل ، فأمر السلطان بقتله ، فصلب ، فمر به صديقه ، فقال له : يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصارى^(٣) !

الفصل السابع : فى نوادر السؤال^(٤)

وقف أعرابى بباب يسأل ، فقال له صغير من باب الدار : بورك فيك ، فقال : قبح الله هذا الفم ، لقد تعلمت الشر صغيرا ، ووقف سائل على باب فقال : يا أصحاب المنزل ، فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال : فتح الله عليك ، فقال السائل : يا قرنان^(٥) ، كنت تصبر لعلى جئت أدعوك إلى وليمة . وقال أبو عثمان الجاحظ : وقف سائل بقوم فقال : إني جائع ، فقالوا له : كذبت ، فقال : جربونى برطلين من الخبز ، ورطلين من اللحم . ووقف سائل على باب فقالوا : يفتح الله لك ، فقال : كسرة ، فقالوا : ما نقدر عليها ، قال : فقليل من بر أو فول أو شعير ، قالوا : لا نقدر عليه ، قال : فقطعة دهن ، أو قليل زيت ، أو لبن ، قالوا : لا نجده ، قال : فشربة ماء ، قالوا : وليس عندنا ماء ، قال : فما جلوسكم ههنا ؟ قوموا فاسألوا ، فأنتم أحق منى بالسؤال .

الفصل الثامن : فى نوادر المؤذنين

قيل لمؤذن^(٦) : ما نسمع أذانك ، فلو رفعت صوتك ، فقال : إني أسمع صوتى من مسيرة ميل . وقال بعضهم : رأيت مؤذنا أذن ثم غدا يهرول ، فقلت له : إلى أين ؟ فقال : أحب أن أسمع أذانى أين بلغ .

الفصل التاسع : فى نوادر النواتية

حكى أن بعض النواتية^(٧) تولى أحد الكراسى السلطانية ، لما ساعده الزمان ، فبينما هو جالس فى داره إذ سمع صوتا ، وراء الباب ، فقال لزوجته : إني أسمع غاغة فى البرّ جلىّ قلوعى ، واعملى اسفيرتى على جامورى^(٨) ، وقدمى إلّى اسقالة الرجل ، وقيمى بمدره^(٩) ، فامتثلت كلامه فنزل وجلس على مصطبة ، وقد علت مرتبته ، واصطفت المقدمون بين يديه ، ووقفت الحبرية حواله ، وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة ، وعمامته فى حلقة ، والدم نازل من أنفه ، وهو يصيح بصوت عالى : أنا بالله^(١٠) وبإلوالى ، فقال له : تعال يا شيخ ، ما لى أرى أرطمونك فى حلقك ؟! وشابورتك مكسورة ، وأنت بتزلع ماء متغير ، وتقيم الهللا فى الساحل دخل عليك شرد غربى ، وإلا دخلت على بواجى . فقال الشيخ ، والله ياسيدى بعض نواتية البحر عمل بى هذا ! فقال : يا أولاد جيبوا غريمو بخنسوا عدته ، وقشطوا ظهره ، وجروه على مقدمه ، فامتثلوا كلام الأمير ، وجاءوا بالغريم ، فلما مثل بين يديه قال له : ويلك هو أنت بغنوس بسفر البحر ، أنت الذى قطعت القلس ، وخرجت فى الشعب حتى لقيت هذا الرجل ، نطحت مخطمته ، وكسرت إسقالته ، لو انصلح كنت عملتك فى بدراوة ، وعلقتك فى الصارى ، فلما سمع الرجل كلام إلوالى علم أنه من أولاد المعيشة ، فقال له بهمتره النواتية : والله ياخوند هو كارزنى فى معاشى ، اجبصطن على

(١) الجبوس : جمع حبس وهو السجن . (٢) قوله : « لا نبى بعدى » . من حديث طويل تفرد به الإمام أحمد .

(٣) الصارى يقصد الخشبة التى صلب عليها فهى بصارى السفينة أشبه .

(٤) السؤال : جمع سائل وهو من يسأل الناس أعطوه أم تركوه .

(٥) القرنان : نعت سوء للرجل الذى ليس لديه غيره على أهله .

(٦) صحيح أن المؤذن بشر غير معصوم ولكن المؤذنين يرفعون كلمة الله عالية فى الفضاء ولهم منزلتهم عند رب الأرض والسماء فلا ينبغى النيل منهم !

(٧) النواتية : الملاحين الذين يديرون السفن الواحد نوتى ، والجمع نواتية .

(٨) الجامور : القبر ، والرأس . (٩) المدرّة : القرية المبنية بالطين واللبن . (١٠) أى أنا مستجير بالله وبإلوالى .

الوحسة ، وأنا عايم فى الليل ، إلا وشرد جانى من الشرق كابس هز أطرافى ، وكسر شابورتى ، وقطع لبانى ، وها هو بحمد الله على بر السلامة ، وإن كان انصلح فيه شىء فأنا بمرسوم الأمير أجيب له القلطا أسد فتحه ، وأعيد له وسقه ، وأخليه يروح فى طريقه ، فقال له والى : أنت بتقذف فى وجهى ، وتطرح مقاديفك حتى تعبر على الحجر ، يا رجالة الصارى سلسلوا أطرافه ، وعروا مقاديفه ، وبلوا شينة اللبان ، وانزلوا عليه ، وأوسقوه الجنين والظهر ، حتى تلعب الميه على بطونسته ، هيا قوامك ، خلوا جنب برا ، وجنب جوا قدام الخن ، وراء الصارى ، فأكل علقه من كعبه إلى أذنه ، فقالت النواتية يا خوندا هو خفتست عليه الطمية البحرية قال : مدارتين وقيموه ، فلما أقاموه باس يد الأمير وقال : ياخوند سألئك بهبوب الرياح ، وطيب النسيم الرب لا يبليك بجر اللبان فى الحلافى ، وأنت حافى ، فى الصيافى ، ويكفيك شر الأربعينات ، قال : فرق عليه قلب الأمير ، وقال له : وحق من ضرب القلع باللبان الحلقا ، عند بخسة الريح ، وفروغ الزاد ، بعيد من البلاد ، وعياط الركاب عند قيام الموجة ، وبعد البر فى أيام النيل ، لولا شفاعة الركاب ، لكنت أهدأ أسقالتك ، وأقعد فى زوايدك ، حتى أخلى ظهرك جيفة ، فقال له : والله ياخوند ما بقى جنبى يحمل هذا الوسق العظيم ، ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه اخسف من أضلاعى لوح ، وغرقنى بالقيام ، فقال له الأمير : احمد الله على السلامة ، واخرج فى دى الطيابة ، وكتب له مرسوم ، وعلم عليه علامة الرياسة البحرية للنواتية : الله لك الله لى يا عملات على أبوس .

الفصل (العاشر) : فى نوادر جامعة

سمعت امرأة فى الحديث « أَنْ صَوْمُ يَوْمٍ عَاشُورَاءَ كَفَّارَةٌ سَنَةٍ »^(١) ، فصامت إلى الظهر ثم أفطرت وقالت : يكفينى كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان ، وأسلم مجوسى فى شهر رمضان فقتل عليه الصيام ، فنزل إلى سرداب وقعد يأكل ، فسمع ابنه حسه فقال : من هذا ؟ فقال أبوك الشقى يأكل خبز نفسه ، ويفزع من الناس . وسئل بعض القصاص عن نصرانتي قال : لا إله إلا الله لا غير ، إذا مات أين يدفن ؟ بين مقابر المسلمين والنصارى ، ليكون مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وأهدى إلى سالم القصاص خاتم بلا فص ، فقال : إن صاحب هذا الخاتم يعطى فى الجنة غرفة بلا سقف . وبنى بعض المغفلين نصف الدار ، وبنى رجل آخر النصف الآخر فقال المغفل يوما : قد عوّلت على بيع النصف الذى لى ، وأشتري به النصف الآخر لتكمل لى الدار كلها . وسئل جامع الصيدلانى عن عمر ابنته فقال : لا أدري إلا أن أمها ذكرت أنها ولدتها فى أيام البراغيث . وقيل لطفيلى ، أى سورة تعجبك فى القرآن ؟ قال : المائدة ، قال : فأى آية ؟ قال : ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا ﴾ [الحجر: ٣] ، قيل ثم ماذا ، قال : ﴿ إِنَّا غَدَاءَنَا ﴾ [الكهف: ٦٢] ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴾ [الحجر: ٤٦] ، وقيل : ثم ماذا ؟ قال : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]^(٢) . وقيل لعثمان بن دراج الطفيلي يوما . كيف تصنع بدار العرس ، إذا لم يدخلك أصحابها ؟ قال : أنوح على بابهم فيطيطرون من ذلك فيدخلونى ، وقيل له : أتعرف بستان فلان ؟ قال : أى والله إنه الجنة الحاضرة فى الدنيا ، وقيل : لم لا تدخله ، وتأكل من ثماره ، وتستظل بأشجاره ، وتسبح فى أنهاره ؟ قال : لأن فيه كلبا لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال ! وقيل له يوما : ما هذه الصفرة التى فى لونك ؟ قال : من الفترة بين الصحنين^(٣) . وقال : مرت بنا جنازة يوما ومعى ابنى ، ومع الجنازة امرأة تبكى . تقول : الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه ، ولا غطاء ، ولا وطاء . ولا خبز ولا ماء ! فقال ابنى : يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون !

(وحكى) عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقا شديدا ، فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكى : إنى أرق فى هذه الليلة ، وضاق صدرى ، ولم أعرف ما أصنع ، وكان خادمه مسرور واقفا أمامه فضحك فقال له : ما يضحكك ؟ أستهزاء بى ، أم استخفا ؟ فقال : وقرابتك من سيد المرسلين ﷺ ، ما فعلت ذلك عمدا ولكن خرجت بالأمس أتمشى

(١) « أَنْ صَوْمُ عَاشُورَاءَ كَفَّارَةٌ سَنَةٍ » . [مسلم ٥١/٨] ولفظه « يكفر السنة الماضية » .

(٢) [الحجر : بعض الآية رقم [٤٨] ، هذا ومثل النوادر مما ينبنى علينا - نحن المسلمين - أن نكون عنها بمنأى .

(٣) عندما ينتهى صحن ، ويؤخذ ليؤتى بغيره مكانه .

بظاهر القصر إلى أن جثت إلى جانب الدجلة ، فوجدت الناس مجتمعين ، فوقفت فرأيت رجلا واقفا ، يضحك الناس ، يقال له : ابن المغازلي ، فتفكرت الآن في شيء من حديثه ، وكلامه ، فضحكك ، والعفو يا أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : اتنتي الساعة به ، فخرج مسرورا إلى أن جاء إلى ابن المغازلي ، فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة ، فقال له : بشرط أنه إذا أنعم عليك بشيء يكون لك منه الربع ، والبقية لي ، فقال له ، بل اجعل لي النصف ولك النصف ، فأبى فقال : الثلث لي ولك الثلثان ، فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم ، فلما دخل على الرشيد سلم ، فأبلغ وترجم فأحسن ، ووقف بين يديه ، فقال له أمير المؤمنين : إن أنت أضحككتني أعطيتك خمسمائة دينار وإن لم تضحككني أضربك بهذا الجراب ثلاث ضربات ، فقال ابن المغازلي في نفسه وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب ، وظن في نفسه أن الجراب فارغ فوقف يتكلم ويتمسخر ، وفعل أفعالا عجيبة تضحك الجلمود ، فلم يضحك الرشيد ، ولم يتبسم ، فتعجب ابن المغازلي ، وضجر وخاف فقال له الرشيد : الآن استحققت الضرب ، ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها رطلان ، فضربه ضربة ، فلما وقعت الضربة في رقبة صرخ صرخة عظيمة ، وافتر الشريط الذي شرطه عليه مسرورا ، فقال : العفو يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمتين . قال : قل ما بدا لك قال : إن مسرورا شرط على شرط ، واتفقت أنا وإياه على مصلحة ، وهو أن ما حصل من الصدقات يكون له فيه الثلثان ، ولي فيه الثلث ، وما أجابني إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم ، وقد شرط على أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصيب منها واحدة ، ونصيب منها اثنان ، وقد أخذت نصيبي ، وبقي نصيبه ، قال : فضحك الرشيد ، ودعا مسرورا ، فضربه ، فصاح وقال : يا أمير المؤمنين ، قد وهبت له ما بقي ، فضحك الرشيد ، وأمر لهما بألف دينار ، فأخذ كل واحد منهما خمسمائة ، ورجع ابن المغازلي شاكرا والله سبحانه وتعالى أعلم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباب السابع والسبعون

في الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول

الفصل الأول : في الدعاء وآدابه

قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ، اختلف في سبب نزولها ^(١) : فقال مقاتل : إن عمر بن الخطاب ؓ واقع امرأته بعد ما صلى العشاء في رمضان ، فندم على ذلك ، وبكى ، وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، ورجع مغتما ، وكان ذلك قبل الرخصة ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ . وروى الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : قالت اليهود كيف يسمع ربنا دعاءنا ، وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام ، وغلظ كل سماء مثل ذلك ؟! فنزلت هذه الآية ، وقال الحسن : إن قوما قالوا للنبي ﷺ : أقرب ربنا فتناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟! فنزلت هذه الآية . قوله تعالى : ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ . أي أقبل عبادة من عبدني ، فالدعاء بمعنى العبادة . والإجابة بمعنى القبول . وقال قوم : إن الله تعالى يجيب كل الدعاء ، فإذا أن يعجل الإجابة في الدنيا ، وإذا أن يكفر عن الداعي ، وإذا أن يدخر له في الآخرة لما رواه أبو سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِيْثْمٌ وَلَا قُطِيعَةٌ رَّجِمَ ، إِلَّا أَغْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخَرَ لَهُ ثَوَابُهَا ، وَإِمَّا أَنْ يَكْفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ بِمِثْلِهَا » ^(٢) .

(١) ارجع إلى أسباب النزول للسيوطي والنيسابوري . وما أورده ابن كثير والسيوطي في الدر المنثور حول سبب النزول .

(٢) إلخ أخرجه أحمد والبخاري وأبو يعلى عن أبي سعيد ؓ وأخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

حاجتين فيفقى إحداهما ويرد الأخرى " وقال العرافى : « لم أجده مرفوعا وإنما هو موقوف على أبى الدرداء » .

الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً ، وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة . وذلك وقت السحر ووقت الفطر ، وما بين الأذان والإقامة وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وفي الثلث الأخير من الليل ، لما جاء في الحديث « إن في الليل ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ ، يسأل الله شيئاً إلا أعطاه »^(١) . وفي حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء »^(٢) . وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء وأوقات الاضطراب ، وحالة السفر والمرض هذا كله جاءت به الآثار قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : « دعا رسول الله ﷺ في مسد » . أيام يوم الاثنين ، ويوم الثلاثاء ، واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين ، فعرفت السرور في وجهه »^(٣) . قال جابر : ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة ، فأدعو فيها فأعرف الإجابة ، وفي بعض الكتب المنزلة ، يا عبادي ، إذا سألت فاسألني ، فإني غني ، وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فإني قوي ، وإذا أفسدت شرك ، فافشه إليّ وفني ، وإذا أقرضت فأقرضني فإني مليء^(٤) ، وإذا دعوت فادعني فإني خفي . وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له »^(٥) ؟ وقال وهب بن منبه بلغني أن موسى عليه السلام مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلاً ، فقال موسى : يارب ، أما تستجيب لعبدك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ، لو أنه بكى حتى تَلَفَتْ نفسه ، ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له ! قال : يارب لم ذلك ؟ قال : لأن في بطنه الحرام . ومريم ابنة عمران بن آدم بسوق البصرة ، فاجتمع الناس إليه وقالوا : يا أبا إسحاق ، مالنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ قال : لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء : الأول : أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه ، الثاني : زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سنته ، الثالث : قرأتم القرآن ولم تعملوا به ، الرابع : أكلتم نعمة الله ، ولم تؤدوا شكرها ! الخامس : قُلتُم : إن الشيطان عدوكم ووافقتموه . السادس : قُلتُم : إن الجنة حق فلم تعملوا لها . السابع : قُلتُم : إن النار حق ولم تهربوا منها . الثامن : قُلتُم إن الموت حق فلم تستعدوا له . التاسع : انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس ، وتركتم عيوبكم . العاشر : دفتُم موتاكم ولم تعتبروا بهم . وكان يحيى بن معاذ يقول : من أقر لله إسمائه ، جاد الله عليه بمغفرته ، ومن لم يمن على الله بطاعته أوصله إلى جنته ، ومن أخلص لله في دعوته ، من الله عليه بإجابته . وقال علي رضي الله عنه : ارفعوا أفواج البلاء بالدعاء ! وعن أنس رضي الله عنه يرفعه : « لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد »^(٦) .

الفصل الثاني: في الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح - رحمه الله - : اللهم إني أسألك الجنة بلا عمل عملته ، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته ! ودعت أعرابية عند البيت فقالت : إلهي لك أدل ، وعليك أدل ، وكان من دعاء بعض الصالحين : اللهم إن كنا عصيانك ، فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك ، وهو الإشراك ، وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك ، فقد تمسكنا بأحبها إليك ، وهو شهادة أن لا إله إلا أنت ، وأن رسلك جاءت بالحق من عندك . ومن دعاء سلام بن مطيع : اللهم إن كنت بلغت أحداً من عبادك الصالحين درجة يبلاء فبلغنيها بالعافية ! وقيل لفتح الموصلي : ادع الله لنا فقال اللهم هبنا عطاءك ، ولا تكشف عنا غطاءك . وكان من دعاء بعض السلف : اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشراً ما عندي ! فإن لم

(١) ذكره العلامة المناوي في فتح القدير برقم [٢٣٣١] ورمز له بالصحة وعزاه لأحمد في مسنده عن جابر ، ومسلم في صحيحه .

(٢) أخرجه مسلم وفي رواية « فادعوا ربكم في سجدكم » .

(٣) لم أهد إليه .

(٤) الملي : الزمان الطويل .

(٥) في الصحيحين وغيرهما ، ونزول الرب - سبحانه وتعالى - لا يعلمه إلا هو ، لا نزول حلول ولا تجسيم ، فليس كمثله شيء .

(٦) ضعيف جداً : أخرجه ابن حبان برقم [٢٣٩٨ - موارد] . وأبو نعيم في « أخبار أصبهان » . [٢/٢٣٢] ، والحاكم في « المستدرک » . [١/٤٩٣ - ٤٩٤] ، وانظر : السلسلة الضعيفة « للشيخ الألباني » . برقم [٨٤٣] .

تقبل تعبى ونصبى ، فلا تحرمنى أجر المصاب على مصيئته ! اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ، ولا إلى الناس فنضيع . وقال الحسن : من دخل المقابر فقال : اللهم ربّ الأرواح الفانية ، والأجساد البالية ، والعظام النخرة ، التى خرجت من الدنيا ، وهى بك مؤمنة أدخل عليها روحا من عندك ، وسلاما منى كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات !

(وحكى) عن معروف القاضى : أن الحجيج كانوا يجتهدون فى الدعاء ، وفيهم رجل من التركمان ساكت ، لا يحسن أن يدعو ، فخشع قلبه ، وبكى فقال بلغته : اللهم إنك تعلم أنى لا أحسن شيئا من الدعاء فأسألك ما يطلبون منك ، بما دعوا ، فرأى بعض الصالحين فى منامه أن الله قبل حج الناس بدعوة ذلك التركمانى لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة ! وقال الأصمعى : حسدتُ عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت وهى : اللهم إن ذنوبى وإن كثرت وجلّت عن الصفة ، فإنها صغيرة فى جنب عفوك ، فاعف عني ، وركب إبراهيم ابن آدم فى سفينة ، فهاجت الريح ، وبكى الناس ، وأيقنوا بالهلاك ، وكان إبراهيم نائما فى كساء ، فاستوى جالسا وقال : أريتنا قدرتك فأرنا عفوك ؛ فذهب الريح وسكن البحر ! وقال الثورى : كان من دعاء السلف : اللهم زهدنا فى الدنيا ، ووسّع علينا فيها ، ولا تزوِّها عنا ، ولا ترغبنا فيها . وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه قال : اللهم إنى أكفر بكل ما كفر به محمد ، وأؤمن بكل ما آمن به ، ثم يضع رأسه . وسمعت بدوية تقول فى دعائها : يا صباح ، يا مناح ، يا مطعم ، يا عريض الجفنة ^(١) ، يا أبا المكارم ، فزجرها رجل فقالت : دعنى أصف ربي ، وأمجد إلهى بما تستحسنه العرب ! وقال الزمخشري فى كتابه ربيع الأبرار : سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليمانى : يا أبا المكارم ، يا أبيض الوجه ! وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم ، والنزاهة عن القبيح ، على طريق الاستعارة ، لأنه لا فرق عندهم بين الكريم وأبى المكارم ، ولا بين الجواد والعريض الجفنة ، ولا بين المتزّه والأبيض الوجه ! وقيل : لأعرابى : أتحسن أن تدعوك ربك ؟ قال نعم . ثم قال : اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك ، فلا تحرمنا الجنة ، ونحن نسألك . وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى ، فيدعو فتنطق عنه الإجابة ، فقال : بلغنى أن الله تعالى فيقول : كيف أرحمه من شيء به أرحمه ^(٢) ؟! وقال طاوس : بينما أنا فى الحجر ذات ليلة إذ دخل علىّ على بن الحسين فقلت : رجل صالح من أهل بيت الخير لأسمعن دعاءه ، فسمعت يقول : عَيْدُكَ بَفَنَّاكَ ، مسكينك بفنائك ، فقيرك بفنائك ، فما دعوت بها فى كرب إلا فرج عني ! ودعا أعرابى فقال : اللهم إنا نبات نعمتك ! وقال ابن المسيب : سمعت من يدعو بين القبر والمنبر : اللهم إنى أسألك عملا باراً ، ورزقا داراً ^(٣) ، وعيشا قاراً ^(٤) ، فدعوت به فما وجدت إلا خيرا . ودعت أعرابية بالموقف فقالت : أسألك سترك الذى لا تزيله الرياح ، ولا تخرقه الرماح . وقيل : اتقوا مجانيق الضعفاء ، أى : دعواتهم . ودعا أعرابى فقال : اللهم امح ما فى قلبى من كذب وخيانة ، واجعل مكانه صدقا وأمانة ! وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك ، وبادر القيام ، فجذب ثوبه وقال : أما لك إلى ربك حاجة ؟! وقال سفيان الثورى : سمعت أعرابيا يقول : اللهم إن كان رزقى فى السماء ، فأنزله ، وإن كان فى الأرض فأخرجه ، وإن كان بعيدا فقربه ، وإن كان قريبا فيسره ، وإن كان قليلا فكثره وإن كان كثيرا فبارك لى فيه ، (وقال أبو نواس) :

أحببتُ من شِغْرِ بشارٍ وكلمته بيتاً لهجتُ ^(٥) به من شِغْرِ بشارٍ
يا رحمة الله جلى فى منازلنا وجاورينا فدتك النفس من جار

وكان بشار يعنى بذلك جارية بصرية ، كان يحبها ويتغزل فيها ، ونعنى بها هنا رحمة الله ، التى وسعت كل شيء . وسمع على بن أبى طالب عليه السلام رجلا يقول - وهو متعلق بأستار الكعبة - يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلظه المسائل ، ولا يبرمه إلحاح الملحّين ، أدقنى برد عفوك ، وحلاوة مغفرتك ، فقال علىّ : والذى نفسى بيده ، لو

(١) الجفنة . وعاء الطعام والثريد ، وعرضها كناية عن سعتها وكثرة ما تضمّه من طعام ورزق حلال . مما يدل على الكرم .

(٢) لم أهدأ إلا . (٣) رزقا دارا : أي دائم لا ينقطع . (٤) عيشا قارا : أي مستقرا .

(٥) لهجتُ به : أولعت به .

قلتها ، وعليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك ، ومن دعائه ﷺ اللهم صُنْ وجهي باليسار ، ولا تبدل
جاهي بالإقتار فأسترزق طامعا رزقك من غيرك ، وأستعطف شرار خلقك ، وأبتلى بحمد من أعطاني ، وأقتن بزم من
منعني ، وأنت من وراء ذلك كله ولّتي الإجابة والمنع ! وعن ابن عباس ؓ عن النبي ﷺ قال : « ما انتهيت إلى الركن
اليمني قط ، إلا وجدت جبريل قد سبقني إليه يقول : قل يا محمد : اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر والفاقة »^(١) .
وهي من مواقف الخزي وهبط جبريل على يعقوب فقال : يا يعقوب ، إن الله تعالى يقول لك : قل : « يا كثير
الخير ، يا دائم المعروف ، رد عليّ ابني » . فقالها : فأوحى الله تعالى إليه : « وعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما
لك »^(٢) . وكان أبو مسلم الخراساني إذا نابه أمر قال : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين . وقال جعفر بن
محمد : ما المبتلى الذي اشتد بلاؤه ، بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن وقوع البلاء ! وكان الزهري يدعو بعد
الحديث بدعاء جامع فيقول : اللهم إني أسألك من خير ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة ، وأعوذ بك من شر ما
أحاط به علمك في الدنيا والآخرة ، وعن عقبه بن عبد الغافر ، دعوة في السر أفضل من سبعين دعوة في العلانية .
واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات ، هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات . وعن أبي الدرداء قال :
صلى بنا رسول الله ﷺ العصر ، فمر بنا كلب ، فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتا ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته
قال : « من الداعي على الكلب أنفا » قال رجل من القوم : أنا يا رسول الله قال : « لقد دعوت الله باسمه الذي إذا
دعي به أجاب »^(٣) ، وإذا سئل به أعطى ، كيف دعوت الله ؟ قال : قلت : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت
المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام . وقيل : إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة ،
فعالجها الأطباء فلم يقدروا عليها ، حتى وصلت إلى صماخه ، فأتى إلى رجل من أصحاب الحسن ، فشكا له ما أصابه
من الحصاة ، فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمي وهو : يا علي يا عظيم ، يا حليم يا عليم . قال الراوي : فما برحنا
حتى خرجت الحصاة من أذنه ، ولها طنين حتى ضربت الحائط ، وعن أنس : « إذا قال العبد : يارب يارب يارب يقول
الله - عز وجل - : لبيك عبي »^(٤) . وعنه قال : مر رسول الله ﷺ برجل وهو يقول : يا أرحم الراحمين ، فقال له
رسول الله ﷺ « سل حاجتك فقد نظر الله إليك »^(٥) . وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا فتح الله على عبد
الدعاء ، فليكثر فإن الله يستجيب له »^(٦) ، وروى عن علي بن أبي زفر عن أخ له - وكان فاضلا صالحا - فقال :
دعوت الله أن يريني الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب فقامت ليلة أصلى ، فسمعت قعقعة في سقف البيت ثم هبط
نور ، حتى صار تلقاء وجهي ، وإذا مكتوب بالنور فقرأته يا أله ، يا رحمن ، يا ذا الجلال والإكرام . ومن دعاء الكرب
ما روى عن وهب أن ابن عباس ؓ قال له : هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب ؟ قال : نعم
اللهم إني أسألك يا من يملك حوائج السائلين ، ويعلم ضمير الصامتين ، فإن لكل مسألة منك سمعا حاضرا ، وجوابا
عتيدا ، ولكل صامت منك علما ناطقا محيطا بأسألك بمواعيدك الصادقة ، وأياديك الفاضلة ، ورحمتك الواسعة ، أن
تفعل بي كذا وكذا ، فقال ابن عباس : هذا دعاء علمته في النوم ما كنت أرى أن أحدا يحسنه ! وعن وهب أيضا قال :
لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة ، فهبط إليه جبريل وقال : يا آدم هل
أعلمك شيئا تنفع به في الدنيا والآخرة ؟ قال : بلى قال : قل : اللهم أتمم النعمة حتى تهينني المعيشة ، اللهم اختم
لي بخير حتى لا تضرنني ذنوبي ! اللهم اكفني مثونة الدنيا وكل هول في القيامة حتى تدخلني الجنة معافي^(٧) . وعن
معروف الكرخي قال : اجتمعت اليهود - أخزاهم الله - على قتل عيسى عليه السلام بزعمهم ، وأهبط الله تعالى عليه
جبريل ، وفي باطن جناحيه مكتوب : اللهم إني أدعوك باسمك الأجل الأعز ، وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد ،

(١) ضعيف : أخرجه أبو حنيفة في « مسنده » . [ص ٨٨] .

(٢) أورده السيوطي في « الدر المنثور » . [٣٢/٤] ، وعزاه للطبراني وابن راهويه .

(٤) ذكره المناوي في فتح القدير [برقم ٧٧٧] ، ابن أبي الدنيا في الدعاء عن عائشة . ضعيف .

(٥) إلخ لم أهد إليه .

(٦) ذكره المناوي في فتح القدير [برقم ٧٠٣] ، والترمذي عن ابن عمر . قال المناوي وفيه عبد الرحمن بن أبي مليكة . قال في الكشف : ضعيف .

(٧) أخرج بنحو منه أبو نعيم في « الحلية » . [٣٨٢/٥] .

وأدعوك اللهم باسمك العظيم الوتر ، وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعالي الذي ملأ الأركان كلها ، أن تكشف عني ضرر ما أصبحت وأمسيت فيه ، فأوحى الله - عز وجل - إلى جبريل أن ارفع عبيدِي إِلَيَّ ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « عليكم بهذا الدعاء ولا تستبطئوا الإجابة فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » ^(١) .

إسناد هذا متصل إلى معروف الكرخي ثم هو منقطع .

ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافياً في قبوله والعمل به . حدث عبد الله بن أبان الثقفي رحمه الله قال : وجهني الحجاج بن يوسف في طلب أنس ابن مالك ، فظننت أنه يتوارى عني ، فأتيت بخيلي ورجلي فإذا هو جالس على باب داره ، ماداً رجله ، فقلت له : أجب الأمير فقال : أي الأمراء ؟! فقلت : أبو محمد الحجاج ، فقال غير مكترث به : قد أذله الله ، ما أراني أعزه لأن العزيز من عز بطاعة الله ، والدليل من ذل بمعصية الله ، وصاحبك قد بغى وطغى واعتدى ، وخالف كتاب الله والسنة ، والله ليتنقم الله منه ، فقلت له : أقصر عن الكلام ، وأجب الأمير ، فقام معنا حتى حضر بين يدي الحجاج ، فقال له : أنت أنس بن مالك ؟ قال : نعم . قال : أنت الذي تدعو علينا وتسبنا ؟! قال : نعم . قال : ومما ذاك ؟ قال : لأنك عاص لربك ، مخالف لسنة نبيك ، تُعز أعداء الله ، وتُذل أولياء الله ، فقال له : أتدري ما أريد أن أفعل بك ؟ قال : لا . قال : أريد أن أقتلك شر قتلة ! قال أنس : لو علمت أن ذلك بيدك . لعبدتك من دون الله ! قال الحجاج : ولم ذاك قال : لأن رسول الله ﷺ علمني دعاء وقال : « من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل » . وقد دسوت به في صباحي هذا فقال الحجاج : علمنيه ، فقال : معاذ الله أن أعلمه لأحد ، ما دمت أنت في الحياة ، فقال الحجاج : خلوا سبيله ! فقال الحجاج : أيها الأمير لنا في طلبه كذا وكذا يوماً ، حتى أخذناه ، فكيف نخلى سبيله ؟! قال : رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواههما ! ثم إن أنسا ﷺ لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم الله خير الأسماء ، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ، باسم الله على نفسي وديني ، باسم الله على أهلي ومالي ، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربي ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر ، الله ربي ولا أشرك به شيئاً ، عز جارك ، وجل ثناؤك ، وتقدست أسماؤك ، ولا إله غيرك ، اللهم إني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد ، وشیطان مرید ، ومن شر قضاء السوء ، ومن شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم » ^(٢) . وهذا دعاء مشهور الإجابة ، وله شرح طويل تركناه لطوله وهو : اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك ، وعلانية القول كالسر في علمك ، وانقاد كل شيء لعظمتك ، وخضع كل ذي سلطان لسلطانك ، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك ، لا بيد غيرك اجعل لي من كل هم وغم وأصبحت أو أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً ، إنك على كل شيء قدير ، اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي ، وسترك على قبيح عملي ، أطمعني أن أسألك ما لا أستجبه منك مما قضيته لي ، أدعوك آمناً ، وأسألك مستأنساً لا خائفاً ، ولا وجللاً لأنك أنت المحسن إلي ، وأنا المسيء إلى نفسي ، فيما بيني وبينك ، تتوعد إلي بالنعم ، مع غناك عني ، وأنبغض إليك بالمعاصي ، مع فقرى إليك ، فلم أر مولى كريماً أعطف منك على عبد لثيم مثلي ، لكن الثقة بك حملتني على الجراءة على الذنوب ، فأسألك بجودك وكرمك وإحسانك وطولك أن تصلي على محمد وآله ، وأن تفتح لي باب الفرج بطولك وتحبس عني باب الهم بقدرتك ، ولا تكن لي إلى نفسي طرفة عين ، فأعجز ، ولا إلى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين . وروى الحافظ النسفي بإسناده عن الزهري عن أبي مسلمة عن أبي هريرة قال : مر رسول الله ﷺ برجل ساجد وهو يقول في سجوده : اللهم إني أستغفرك ، وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلي فأياها عبد من عبادك أو أمة من إمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه في مال أو بدن أو عرض ، علمتها أو لم أعلمها ، ولم أستطع أن أتخللها فأسألك أن ترضيه عني بما شئت وكيف شئت ، ثم تهيبها لي من لدنك إنك واسع المغفرة ، ولديك الخير كله ، يا رب ما تصنع بعذابي ورحمتك وسعت كل

(١) إشارة إلى الآية الكريمة رقم [٣٦] ، من سورة الشورى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ .

(٢) لم أقف عليه .

شيء ؟ ! فلتسعن رحمته ، فإنني لأشئ ، وأسألك يارب أن تكرمني برحمتك ، ولا تهني بذنوبي ، وما عليك أن تعطيني الذي سألتك يارب ، يا الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ارفع رأسك ، فقد غفر الله لك ، إن هذا دعاء أخى شعيب عليه السلام » . وقال صالح المري : قال لي قاتل في منامي : إذا أحببت أن يستجاب لك فقل : « اللهم إني أسألك باسمك المخزون ، المكنون ، المبارك ، الطيب ، الطاهر ، المطهر ، المقدس » فما دعوت بها في شيء إلا تعرفت الإجابة .

(وقيل) : إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو : بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إني أسألك بالعزة التي لا ترام ، والملك الذي لا يضام ، والعين التي لا تنام ، والنور الذي لا يطفأ ، وبالوجه الذي لا يبلى ، وبالديمومية التي لا تفنى ، وبالحياة التي لا تموت ، وبالصمدية التي لا تقهر ، وبالربوبية التي لا تستذل أن تجعل لنا في أمورنا فرجا ومخرجا ، حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين ! وقال سعيد بن المسيب : دخلت المسجد في ليلة مقمرة ، وأظن أنني قد أصبحت ، وإذا الليل على حاله ، فقممت أصلي ، وجلست أدعو ، وإذا بهاتف يهتف من خلفي : يا عبد الله ، قل : قلت : ما أقول ؟ قال : قل : اللهم إني أسألك بأنك ملك ، وأنت على كل شيء قدير ، وما تشاء من أمر يكون . قال سعيد : فما دعوت به قط في شيء إلا رأيت نجاهه . وعن الشيخ كمال الدين الدميري قال : روي عن قاضي القضاة عز الدين بن جماعة قال : أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزاري خطيب دمشق قال : أنبأنا الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسي بقرأتى عليه قال : أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبي محمد ابن الحافظ أبي القاسم علي ابن الحسين بن هبة الله بن عساكر قراءة عليه ، وأنا أسمع ، قال : رويت بالإسناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعي الجليل محمد بن سيرين قال : نزلنا بنهر تيرا فأتانا أهل ذلك المنزل ، فقالوا لنا ارحلوا فإنه لم ينزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه ، فرحل أصحابي وتخلفت فلما أمسينا قرأت آيات فما تمت ، حتى رأيت أقواما قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتي أكثر من ثلاثين نفرا ، وقد جردوا سيوفهم فلم يصلوا إلي ، فلما أصبحت رحلت ، فلقيني شيخ على فرس ، ومعه قوس عربية ، فقال لي : يا هذا إنسى أنت أم جنى ؟ فقلت : بل أنا من بني آدم . قال : فما بالك لقد أتيناك في هذه الليلة أكثر من سبعين مرة ، وفي كل ذلك يحال بيننا وبينك بسور من حديد قلت : حدثني ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قرأ في ليلة ثلاثا وثلاثين آية لم يضره في تلك الليلة لص طار ، ولا سبع ضار ، وعوفي في نفسه وأهله وماله حتى يصبح » (١) ، فنزل عن فرسه ، وكسر قوسه ، وأعطى الله تعالى عهدا أن لا يعود لهذا الأمر وهذه الآيات وهي : أن تقرأ بعد الفاتحة ﴿ آتَى الْكِتَابَ ﴾ إلى قوله ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١-٥] ، وآية الكرسي ، إلى قوله ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، و﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، إلى آخر السورة و﴿ إِذْ رَكَرُكَ اللَّهُ الَّذِي ﴾ ، إلى قوله ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الاعراف: ٥٤-٥٦] ، و﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ [الإسراء: ١١٠] ، إلى آخر السورة ﴿ وَالصَّبَّغَاتِ صَبَا ﴾ [الصافات: ١] ، إلى قوله تعالى ﴿ لَا زَيْبَ ﴾ ، و﴿ يَنْتَقِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [الرحمن: ٣٣] ، إلى قوله ﴿ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴾ ، و﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشْيَعًا ﴾ [الحشر: ٢٤] ، إلى آخرها ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَى جَدُّ رَبِّنَا ﴾ ، إلى قوله ﴿ شَطَطًا ﴾ [الجن: ٣-٤] زاد البوني إلى قوله ﴿ شَهَابًا رَّصَدًا ﴾ (٢) ، ﴿ وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي رَأْيِهِمْ مَحِيطًا ﴾ [البروج: ٢٠] ، إلى قوله ﴿ تَحْقُوطٍ ﴾ ، قال محمد بن سيرين فذكرت الحديث لشعيب بن حرب فقال كنا نسمة آيات الحرز ، ويقال : إن فيها شفاء من مائة داء ، وعدوا منها الجذام وغير ذلك . قال محمد بن علي قرأتها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى عنه ذلك الفالج ، قال البوني هذه الآيات شرفها مشهور ، وفضلها مذكور ، لا ينكرها ، إلا غبي أو غيور ، وقد جربها المشايخ ، وعرف سرها من له في العلم قدم راسخ ، وقدر شامخ ، وهي على ما رويناه بل ما رأينا أولها الفاتحة ، ثم أول البقرة إلى آخر الآيات .

وقال أبو العباس أحمد القسطلاني ، سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول : سمعت أبا زيد القرطبي يقول في بعض الآثار : من قال لا إله إلا الله سبعين ألف مرة ، كانت فداءه من النار ، فعملت ذلك رجاء بركة الوعد ، ففعلت منها لأهلي ، وعملت أعمالا ادخرتها لنفسى ، وكان إذ ذاك بيت معنا شاب يكشف بالجنة والنار ، وكانت الجماعة

(١) عزاه المتقي الهندي في « كنز العمال » . [٢٤١٢] ، للدليمي عن ابن عمر .

(٢) من الآية رقم [٣] ، من سورة الجن إلى الآية رقم [٤] ، على الرأي الأول ، وحتى نهاية الآية رقم [٩] ، على القول الثاني .

تري له فضلا على صغر سنه ، وكان في قلبى منه شيء فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله فنحن نتناول الطعام والشاب معنا إذ صاح صيحة منكرة ، واجتمع في نفسه وهو يقول : يا عم هذه أمى في النار ، ويصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر ، فلما رأيت ما به من الانزعاج قلت : اليوم أجرب صدقه ، فألهمنى الله -تعالى- السبعين ألفاً ، ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى ، فقلت في نفسى : الأثر حق ، والذين روه لنا صادقون ، اللهم إن هذه السبعين ألفاً فداء أم هذا الشاب من النار ، فما استتمت هذا الخاطر في نفسى أن قال يا عم هذه أمى أخرجت من النار ، والحمد فحصل عندى فائدتان : امتحاننى لصدق الأثر وسلامتى من الشاب ، وعلمى بصدقه ، ومن خاف إنساناً فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ، ثم يضع جبهته على التراب ويقول يا شديد المحال ، يا عزيز أذللت بعزتك جميع من خلقت ، صل على محمد وآله واكفى فلاناً بما شئت - كفاه الله تعالى شره . وروى الثقفى - رحمه الله تعالى - بإسناده إلى محمد بن على بن الحسين رضى الله عنه أنه كان يقول لولده : يا بنى من أصابته مصيبة فى الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ ، وليحسن الوضوء ، وليصل أربع ركعات ، أو ركعتين ، فإذا انصرف من صلاته يقول : يا موضع كل شكوى ، ويا سامع كل نجوى ، ويا شاهد كل بلوى ، ويا منجى موسى والمصطفى محمد ، والخليل إبراهيم عليهم السلام ، أدعوك دعاء من اشتدت فاقته ، وضعفت حركته ، وقلت حيلته ، دعاء الغريب الغريق الفقير الذى لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، قال على بن الحسين رضى الله عنهما : لا يدعو به مبتلى إلا فرج الله عنه . وقيل الاسم الأعظم هو بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إني أسألك يا مؤنس كل وحيد ، يا قريباً غير بعيد ، يا شاهداً غير غائب ، يا غالباً غير مغلوب ، يا حى يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم الذى عنت له الوجوه ، وخشعت له الأصوات ، ووجلت له القلوب أن تصلى على محمد وعلى آله ، وأن تعطينى كذا وكذا إنك على كل شيء قدير ، وهذه أبيات الفرج لأحمد بن حمزة البونى قيل : إن فيها اسم الله الأعظم وهى هذه :

أقول : إن قيل : متى ذاك متى ؟!

جوداً وأن يُمطر ما كان خوى^(١)

ورُبما قَدَّر ما كان لوى^(٢)

والشئ يرجى كشفه إذا انتهى

كلمحة الطرف إذا الطرف رمى

وكم سرور قد أتى بعد الأسى

من كل ما يخشى ونال ما رجا

ولم يزل مهما هفا العبد عفا

جلاله من العطا لذي الخطا

إنى لأرجو عطفة الله ولا

لا بد أن ينشر ما كان طوى

وربما ينشر ما كان زوى

وكل شئ ينتهى إلى مدى

لطائف الله وإن طال المدى

كم فرج بعد إياس قد أتى

من لا ذباله نجا فيمن نجا

سبحان من نهفو ويعفو دائماً

يعطى الذى يخطى ولا يمنعه

ومن المنتظوم أيضاً :

أنت المعد لكل ما يُتَوَقَّعُ

يا من إليه المشتكى والمفرغ

امنن فإن الخير عندك أجمع

فبالافتقار إليك فقرى أدفع

فلئن رددت فأى باب أقرع

يا من يرى ما فى الضمير ويسمع

يا من يرجى للشدائد كلها

يا من خزائن رزقه فى قول كن

مالى سوى فقرى إليك وسيلة

مالى سوى قرعى لبابك حيلة

(١) خوى : خلا ممّا كان فيه .

(٢) لوى : لوى عليه انتظر ، ويقال : مرّ لا يلوى على أحد ، أى لا يقيم عليه ولا ينتظره .

إن كان فضلك عن فقيرك يُمنع
الفضل أجزل والمواهب أوسع
خير الأنام ومن به يتشفع

ومن الذى أدعو وأهتف باسمه
حاشا لجودك أن تقتط عاصيا
ثم الصلاة على النبى وآله
وقال آخر :

قد قال فى محكم التنزيل : ادعونى
يا جاعل الأمر بين الكاف والنون
بصبر أيوب يا ذا اللطف نجينى
نجيت من ظلمات البحر ذا النون
ثم يقرأ : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَّاهُ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ

يا خالق الخلق يا ربّ العباد ومن
إنى دعوتك مضطرا فخذ بيدي
نجيت أيوب من بلواه حين دعا
واطلق سراحى وامنن بالخلاص كما
ثم يقرأ : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَّاهُ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ

مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ، قال بعضهم :

وقد تجدد بى ما أنت تعلمه
فمن سواك لهذا العبد يرحمه ؟!

يا رب ما زال لطف منك يشملنى
فاصرفه عنى كما عودتنى كرما
وقال آخر :

عُقد النوائب والشدائد
وإليه أمر الخلق عائد
صمد تنزه عن مضاد
د وأنت فى الملكوت واحد
عك والمذل لكل جاحد
م جيوشها نحوى تطارد
يا من له حسن المعوائد
ن به على الزمن المعاند
والمسهل والمساعد
يا إلهى لا تباعد
من الأقارب والأباعد
وآله الغفر الأمجاد
ما خسر للرحمن ساجد

يا من تُحلُّ بذكره
يا من إليه المشتكى
يا حى يا قيوم يا
أنت الرقيب على العبا
أنت الممزمز لمن أطا
إنى دعوتك والهممو
فافرّج بحولك كربتى
فخفى لطفك يستعنا
أنت الميسر والمسبب
يسر لنا فرجا قريبا
كن راحمى فلقيدئست
ثم الصلاة على النبى
وعلى الصحابة كلهم

(دعاء عظيم مأثور) : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى قوى ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك ، فلك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يا رب العالمين » ^(١) .

(ومما جاء فى أدعية الناس بعضهم لبعض) : دعا رجل لآخر فقال : سرك الله بما ساءك ولا ساءك فيما سرك . ودعا رجل لآخر فقال : لا أخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ، ودعاء صالح واق . ودعا أعرابى لآخر فقال : رَحْبَ واديك ، وعَزَّ ناديك ، ولا أَلَمَ بك أَلَمٌ ، ولا طاف بك عدم ، وسلمك الله ولا أسلمك ، وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول : سلمك الله تعالى من الرّهق والرّهق ، وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل ، وسلمك الله من

(١) فيض القدير [رقم ١٤٨٣] ، الطبرانى عن عبد الله بن جعفر ويسمى دعاء الطائف . وقد رمز له المصنف بالحسن ، وهو ضعيف .

الشاردات والواردات ، وسلمك الله بين الأعنة والأسنة^(١) ، ودعا أعرابي لعبد الله بن جعفر عليه السلام فقال : لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك ، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك ، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار ، وتناسخت الظلم والأنوار . ودعا بعضهم لآخر فقال : زدك الله تعالى الأمن في مسيرك ، والسعد في مصيرك ولا أخلاك من شهر تستجده ، وخير من الله تعالى تستمده . وعزى شبيب بن شبة يهوديا فقال : أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحدا من أهل ملتك .

(ومما جاء في الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم) : دعا أعرابي على ظالم فقال : لا ترك الله لك سفرا ، ولا ظفرا أى : عينا ولا يدا . ومن دعاء العرب فته الله فتا ، وحته حتا ، وجعل أمره شتى . وخرج أعرابي إلى سفر - وكانت له امرأة تكرهه - فأبغته نواة وقالت : شط نواك ، ونأى سفرك ، ثم أتبعته روثة وقالت : رثك أهلك ، وورث خيرك ، ثم أتبعته حصاة وقالت : حاص رزقك ، وحص أثرك . ودعا أعرابي على آخر فقال : أطفأ الله ناره ، وخلع نعليه ، أى : جعله أعمى مقعدا . ودعا أعرابي على آخر فقال : سقاء الله دم جوفه ، أى : قتل ابنه وأخذ ديتة فشرب لبنها . ودعا أعرابي على آخر فقال : بعث الله عليه سنة قاشورة ، تحلقه كما يحلق الشعر بالنورة^(٢) . ودعا رجل على أمير فقال :

أزال الله دولته سريعا فقد ثقلت على عُنُق الليالى
(وقالت امرأة من بنى ضبة فى زوجها) :

وما دعوت عليه حين ألعنه إلا وأخريته تلوه بآمين
فليته كان أرض الروم منزله وليتنى قبله قد صرت للصين

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته يوم الأحزاب : « اللهم اكُلْ سلاحهم ، واضرب وجوههم ، ومزقهم فى البلاد تمزيق الريح للجراد »^(٣) . ودعا رجل فقال : اللهم اكفنا أعداءنا ، ومن أردنا بسوء فلتحط به ذلك سوء ، إحاطة القلائد بترائب الولايد ، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو : اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك ، وعرفتنا فى بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدسك ، ونعمتنا بذكرك وأنسك . إلهى إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عَمَتْ وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت ، والعجز شامل ، والحصر حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم . إلهى ما عصيتك جهلا بعقابك ، ولا تعرضا لعذابك ، ولكن سؤلتها نفوسنا ، وأعانتنا شقوتنا ، وغرنا سترك علينا ، وأطمعنا فى عفوك برك بنا ، فالآن من عذابك من ينقذنا ، وبجبل من نعتم من قطع حبلك عنا ! واخجلناه غدا من الوقوف بين يديك ، وافضيحتنا إن عرضت فعالنا القبيحة عليك ! اللهم اغفر ما علمت ولا تهتك ما سترت . إلهى إن كنا عصيانك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا ربا يغفر لنا ولا يبالى . إلهى أتحرق بالنار وجهنا كان لك مصليا ، ولسانا كان لك ذاكرا وداعيا ، لا بالذى دلنا عليك ، وأمرنا بالخشوع بين يديك ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم أنبيائك ، وسيد أصفياك ، فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك ، كما أن منزلته لديك أشرف المنازل ، سيد خلقك ، ومعدن أسرارك ، صلِّ يا رب على محمد وآله وأصحابه ، وارحم عبادا غرهم طول إمهالك ، وأطمعهم كثرة إفضالك ، فقد ذلوا لعزك وجلالك ، ومدوا أكفهم لطلب نوالك ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك ، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



(١) بين الأعنة والأسنة : أى فى ميادين القتال . والأعنة جمع عنان وهو مقود الفرس ، والأسنة جمع سنان وهى للرمح والسيوف .

(٢) النورة : مزيل للشعر كان يستخدم قديما .

(٣) كانت هذه الخطبة فى شوال سنة خمس هجرية وفبراير سنة [٦٢٧م] ، وأكل سلاحهم أى اجعله غير قاطع وقد جاءت هذه الفقرة ضمن خطبة طويلة من كتاب « خطب المصطفى » . [ومصدرها مفتاح الأفكار ص ٥٩] .

الباب الثامن والسبعون

في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجري في العالم من حركة وسكون ، وخير وشر ، ونفع وضر ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية ، فكل بقضاء الله وقدره ، وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه ، ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه ، ولا تطن بعوضة ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشئته ، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به ، واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة ، كما أن ما في علم الله تعالى يكون ، فهو كائن قريب ، وما قدر الله وصوله إليك بعد الطلب ، فهو لا يصل إليك إلا بالطلب ، والطلب أيضا من القدر ، فإن تعسر شيء فبتقديره ، وإن اتفق شيء فبتيسيره ، فمن رام أمرا من الأمور ، ليس الطريق في تحصيله أنه يغلق بابه عليه ، ويفوض أمره لربه ، ويتنظر حصول ذلك الأمر ، بل الطريق أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرعه له فيه ، وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين ، واتخذ خندقا حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب ، يحترس به من العدو ، وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد ، وكان يلبس لأمة^(١) الحرب ، ويهيئ الجيوش ، ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم ، واسترقى ، وأمر بالرقية ، وتداوى وأمر بالمداواة ، وقال : « الذي أنزل الداء أنزل الدواء »^(٢) . فإن قيل : قد روي أن النبي ﷺ قال : « من استرقى ، أو اكتوى فهو بريء من التوكل »^(٣) . قلنا : أليس قد قال : « اغفلها وتوكل »^(٤) . فإن قيل : فما الجمع بين ذلك ؟ قلنا : معناه من استرقى أو اكتوى متكلا على الرقية أو الكي ، وأن البرء من قبلهما خاصة ، فهذا يخرج عن التوكل ، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله ، وقد أمرنا بالكسب والتسبب ، ألا ترى أن الله قال لمريم - عليها السلام - ﴿ وَهَزَيْ إِلَيْكَ بِمِخْصَ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم: ٢٥] فهلا أمرها بالسكون ، وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا في ذلك :

ألم تر أن الله قال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جنته ولكن كل شيء له سبب

وقد تقدم هذا الشعر في باب الكسب والتسبب ، ولهذا قال رسول الله ﷺ « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا »^(٥) ، فلم يحمل أرزاقها إليها في أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح ، وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا : إنهما كالعدلين على ظهر الدابة إن حمل في واحد منهما أرجح مما في الآخر سقط حمله ، وتعب ظهره ، وثقل عليه سفره ، وإن عادل بينهما سلم ظهره ، ونجح سفره ، وتمت بغيته ، وضربوا فيه مثالا عجيبا فقالوا إن أعمى ومقعدا كان في قرية بقر وضرب ، لا قائد للأعمى ، ولا حامل للمقعد ، وكان في القرية رجل يطعمهما قوتهما في كل يوم احتسابا لله تعالى ، فلم يزايا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا بعده أياما ، واشتد جوعهما ، وبلغ الضر منهما جهده ، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد ، فيدله المقعد على الطريق يبصره ، فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ، ويدور به ويرشده إلى الطريق ، وأهل القرية يتصدقون عليهما ، فنجح أمرهما ، ولولا ذلك لهلكا ، فكذلك القدر سببه الطلب ، والطلب سببه القدر ، وكل واحد منهما معين لصاحبه ، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ، ثم قعد في بيته لم يطأ زوجته ، ولم يذر أرضه ، معتمدا في ذلك على الله واثقا به أن تلد امرأته من غير موافقة ، وأن ينبت الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجا ، ولأمر الله كارها .

(١) ذكره صاحب الكشف [برقم ٦٩١] ، بلفظ تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء !! وقال : رواه القضاة عن أبي هريرة رفعه ، ورواه أحمد والأربعة وابن حبان والحاكم بلفظ آخر .

(٢) الأئمة : أداة الحرب كلها من : رمح ومغفر وسيف ودرع ، والجمع لأثم ، ولؤم .

(٣) عزاء العراقي للترمذي ولفظه « من اكتوى أو استرقى .. » . إلخ وقال النسائي « ما توكل من اكتوى أو استرقى » .

(٤) قال في الكشف : رواه الترمذي عن أنس وقال : غريب ونقل يحيى بن القطان أنه منكر ، ورواه الطبراني « قيدها وتوكل » .

(٥) أخرجه أحمد في المسند [٥٢/١] ، ولفظه « لو أنكم توكلتم .. » . وقال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - إسناده صحيح .

قال الغزالي: أما المغيل فلا يخرج عن حد التوكل ، بادخار قوت سنة لعياله جبر الضعفاء ، وتسكيناً لقلوبهم ، وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة ، ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً . وقال : « أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا » ^(١) . وقال عبد الله بن الفرّج اطلعت على إبراهيم بن أدهم ، وهو في بستان بالشام ، فوجدته مستلقياً على ففاه ، وإذا بحية في فمها باقة نرجس ، فما زالت تذب عنه حتى انتبه ، فحسبك توكل يؤدي إلى هذا . وعن عبد الله الهروي قال : كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبي قبيس ، فقال : لو أن رجلاً صدق في توكله على الله ، ثم قال لهذا الجبل : اهتز لاهتز ، فوالله لقد رأيت الجبل اهتز وتحرك ، فقال له الفضيل - رحمه الله - لم أغنيك رحمك الله فسكن . وفي الإسرائيليات : أن رجلاً احتاج إل أن يقترض ألف دينار ، فجاء إلى رجل من المتمولين ، فسأله في ذلك ، وقال له : تمهل عليّ بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني ، فإني لى مالا آتيك به ، وأوفيك منه ، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا وكذا ، فقال له : هذا غرر فانا ما أعطيك مالى إلا أن تجعل لى كفيلاً إن لم تحضر طلبته منه ، فقال الرجل : الله كفيلاً بمالك ، وشاهد على أن لا أغفل عن وفائك ، فإن رضيت فافعل ، فدخل الرجل خشية الله تعالى ، وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ، ومضى إلى البلد الذى ذكره ، فلما قرب الأجل الذى بينه وبين صاحبه جهز المال ، وقصد السفر فى البحر ، فحسر عليه وجود مركب ، ومضت المدة وبعدها أيام ، وهو لا يجد مركباً ، فاغتم لذلك وأخذ الألف دينار ، وجعلها فى خشبة ، وسمر عليها ، ثم قال : اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها ، وقد تعذر عليّ وجود مركب ، وعزمت على طرحها فى البحر ، وتوكلت عليك فى إيصالها إليه ، ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال ، وطرحها فى البحر بيده ، وأقام فى البلد مدة بعد ذلك إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال ، فابتدأه ، وقال : أنت سירת الألف دينار فى خشبة صفتها كيت وكيت ، وعليها منقوش كذا وكذا ، قال : نعم قال : قد أوصلها الله تعالى إلّى ، والله نعم الكفيل ! فقال : فكيف وصلت إليك ! قال : لما مضى الأجل المقدر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرنى عنك ؟ فوقفت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إلى ، ولم أر لها طالباً ، فأخذها الغلام ليجعلها حطباً ، فلما كسرهما وجد ما فيها ، فأخبرنى بذلك ، فقرأت ما عليها ، فعلمت أن الله تعالى حقق أملك ، لما توكلت عليه حق التوكل . وقيل : إن سبب بداية ذى النون المصرى - رحمه الله - أنه رأى طيراً أعمى بعيداً عن الماء ، والمرعى ، فبينما هو يتفكر فى أمر ذلك الطائر فإذا هو بسُكَّرَجَتَيْنِ برزتا من الأرض : إحداهما ذهب ، والأخرى فضة هذه فيها ماء والأخرى فيها قمح ، فلقط القمح ، وشرب الماء ثم غابا بعد ذلك ، فذهل ذوالنون ، وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت .

(وحكى) أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد فى صناعة الصباغة ، وكان أُوحد أهل زمانه ، فساء حاله ، واقتقر بعد غناه ، ففكر الإقامة فى بلده ، فانتقل إلى بلد آخر ، فسأل عن سوق الصباغة ، فوجد دكاناً لمعلم السلطنة ، وتحت يده صناع كثيرة ، يعملون الأشغال للسلطنة ، وله سعادة ظاهرة ، ما بين ممالك وخدم وقماش ، وغير ذلك ، فتوصل الصانع الغريب إلى أن بقى من أحد الصناع الذين فى دكان هذا المعلم ، وأقام يعمل عنده مدة ، وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة ، وتكون أجرة عمله تساوى عشرة دراهم ، فيكسب عليه ثمانية دراهم فى كل يوم ، فاتفق أن الملك طلب المعلم ، وناولوه فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص فى غاية من الحسن ، قد عملت فى غير بلاده كانت فى يد إحدى محاضيه فانكسرت ، فقال له : الحمها فأخذها المعلم ، وقد اضطرب عليه فى عملها ، فلما أخذها وأراها للصانع الذين عنده وعند غيره ، فما قال له أحد : إنه يقدر على عملها ، فازداد المعلم لذلك غماً ، ومضت مدة وهى عنده لا يعلم ما يصنع ، فاشتد الملك على إحضارها وقال : هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة ، ولا يحسن أن يلحم سواراً ، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال فى نفسه : هذا وقت المروءة أعملها ولا أؤاخذ به بخله علّى ، وعدم إنصافه ولعله يحسن إلى بعد ذلك ، فحط يده فى درج المعلم ، وأخذها وفك جواهرها وسبكها ، ثم صاغها كما كانت ، ونظم عليها جواهرها ، فعادت أحسن ما كانت ، فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً ، ثم مضى بها إلى الملك فلما رآها استحسناها ، وادعى المعلم أنها صنعتها فأحسن إليه ، وخلع عليه خلعة سنّية ، فجاء وجلس

(١) رواه البزار من حديث ابن مسعود وأبى هريرة وبلال ، قال العراقى : وكلها ضعيفة ، وذكره بلفظ : أنفق بلالا .

مكانه فبقى الصانع يرجو مكافأته عما عامله به ، فما التفت إليه المعلم ، ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئاً فما مضت إلا أيام قلائل ، وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة ، فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه ، وأكد عليه في تحسين الصنعة وسرعة العمل ، فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك ، فامثل مرسومه ، ولم يزل منتصباً إلى أن عمل الزوجين ، وهو لا يزيده شيئاً على الدرهمين في كل يوم ، ولا يشكره ولا يعده بخير ، ولا يتجمل معه ، فرأى المصلحة أن ينقش على زوج منهما أبياتا يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك ، فنقش في باطن أحدهما هذه الآيات نقشا خفيا يقول :

مصائب الدهر كُفِّي إن لم تكفي فـعـفـي
خرجت أطلبُ رزقي وجدت رزقي تُوفـي
فلا برزقي أحظي ولا بصنعة كُفـي
كم جاهل في الثريا وعالم متخفـي !

قال : وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الآيات للمعلم شرح له ما عنده ، وإن غم عليه ، ولم يرها كان ذلك سبب توصله إلى الملك ، ثم لفهما في قطن ، وناولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة ، ولما سبق له في القضاء ، فأخذهما المعلم ، ومضى بهما فرحا إلى الملك ، وقدمهما إليه فلم يشك الملك في أنهما صنعته ، فخلع عليه وشكره ، ثم جاء فجلس مكانه ، ولم يلتفت إلى الصانع وما زاده في آخر النهار شيئاً على الدرهمين ، فلما كان اليوم الثاني خلا خاطر الملك ، فاستحضر الحظية التي عمل لها السوارين الذهب ، فحضرت وهما في يديها ، فأخذهما ليعيد نظره فيهما ، وفي حسن صنعتهما ، فقرأ الآيات فتعجب ! وقال : هذا شرح حال صانعهما ، والمعلم يكذب ، فغضب عند ذلك : وأمر بإحضار المعلم ، فلما حضر قال له : من عمل هذين السوارين ؟ قال : أنا أيها الملك ، قال : فما سبب نقش هذه الآيات : قال : لم يكن عليهما أبيات . قال : كذبت . ثم أراه النقش وقال : إن لم تصدقني الحق لأضربن عنقك فأصدقه الحق ، فأمر الملك بإحضار الصانع ، فلما حضر سأله عن حاله ، فحكى له قصته ، وما جرى له مع المعلم ، فرسم الملك بعزل المعلم ، وأن تسلب نعمته ، وتعطى للصانع ، وأن يكون عوضا عنه في الخدمة ، ثم خلع عليه خلعة سنية ، وصار مقدما سعيدا ، فلما نال هذه الدرجة وتمكن عند الملك تطف به ، حتى رضى عن المعلم الأول ، وصارا شريكين ، ومكثا على ذلك إلى آخر العمر ، ورحم الله من قال :

إذا كان سعد المرء في الدهر مقبلاً تدانت له الأشياء من كل جانب
وقال آخر :

ما سلم الله هو السالم ليس كما يزعمه الزاعم
تجرى المقادير التي قدرت وأنف من لا يرتضى راغم
وقال كعب بن زهير :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سغى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لأمر ليس يدركها والنفس واحدة والههم منتشر
والمرء ما عاش ممدود له أمل لا ينتهي ذاك حتى ينتهي العمر

روى في الإسرائيليات : أن نبيا من الأنبياء ﷺ مر بفخ منصوب وإذا بطائر قريب منه ، فقال له الطائر : يا نبى الله ! هل رأيت أقل عقلا ممن نصب هذا الفخ ليصيدني به وأنا أنظر إليه ؟! قال : فذهب عنه ذلك النبى ﷺ ، ثم رجع وإذا بالطائر فى الفخ ، فقال له : عجباً لك ! ألسن القائل : كذا وكذا أنفا ؟! فقال : يا نبى الله إذا جاء الحين ، لم يبق أذن ولا عين . ويروى أن رجلا قال لبزرجمهر : تعالى تتناظر فى القدر . قال : وما تصنع بالمناظرة ؟ قال : رأيت شيئا ظاهراً استدلت به على الباطن ، رأيت جاهلاً ميروراً ، وعالماً محروماً ، فعلمت أن التدبير ليس للعباد . ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك ، قال له يزيد بن المهلب : أنت أدهى الناس ، وأعلمهم ، فكيف طرحت نفسك فى يد سليمان ؟! فقال : إن الهدد ينظر إلى الماء فى الأرض على ألف قامة ،

ويبصر القريب منه ، والبعيد على بعد في التخوم ، ثم ينصب له الصبي الفخ بالدودة أو الحبة ، فلا يبصره حتى يقع فيه ! وأنشدوا في ذلك :

وإذا خشيت من الأمور مقدراً وفررت منه فنحوه تتوجه
وقال آخر :

أقام على المسير وقد أنيخت مطاياها وغرد حاديهاها^(١)
وقال : أخاف عادية الليالي على نفسي وأن ألقى رداها
مشيناها خطأ كتبت علينا ومن كتبت عليه خطأ مشاها
ومن كانت منيئته بأرضي فليس يموت في أرض سواها

(ولما) قتل كسرى بزرجمهر ، وجد في منطقته كتاب فيه : إذا كان القضاء حقاً فالحرص باطل ، وإذا كان الغدر في الناس طباعاً ، فالثقة بكل أحد عجز ، وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حق . وقال ابن عباس ، وجعفر بن محمد عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ [الكهف: ٨٢] ، إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . « عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن ؟! وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب ؟! وعجبت لمن يوقن الموت ، كيف يفرح ؟! وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل ؟! وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ؟! لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

(وحكى) الطرطوشى - رحمه الله تعالى - في كتابه « سراج الملوك » قال : من عجيب ما اتفق بالإسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الإسكندرية ، غاب عن خدمته أياماً ، ففي بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة ، وحمله إلى دار النائب ، فانفلت في بعض الطرق ، وترامى في بئر ، والمدينة إذ ذاك مسرودة بسرداب يمشى الماشى فيه قائماً ، فما زال الرجل يمشى إلا أن لاحت له بئر مضيئة ، فطلع منها فإذا البئر في دار النائب ، فلما طلع أمسكه النائب وأدبه ، فكان فيه المثل السائر ، الفار من القضاء الغالب كالمنقلب في يد الطالب . وأنشدوا فيه :

قالوا تقيم وقد أحأ ط بك العدو ولا تفر
لا نلت خيراً إن بقيت ولا عداننى الدهر شر
إن كنت أعلم أن غير الله ينفع أو يضر

الباب التاسع والسبعون

في التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة ، وأمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] ووعد بالقبول فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [الشورى: ٢٥] ، وفتح باب الرجاء فقال : ﴿ قُلْ يَجِبَادِ الَّذِينَ آسَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] ، وروى في الصحيح عن ابن عمر عليهما السلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ »^(٢) ، وروى أحمد بن عبد الرحمن البيهقي قال : اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ

(١) الحادي : الذي يسوق الإبل بالفناء .

(٢) صحيح مسلم عن أبي بردة عن الأغر عن ابن عمر .

من عبده قبل أن يموت بيوم . فقال الثاني : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم » . فقال الثالث : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضجعة » أو قال بضجعة ، فقال الرابع أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : وأنا سمعته يقول : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »^(١) . وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل بأرض دوية مهلكة ، معه راحلته ، فنام واستيقظ ، وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتى إذا أذركه الموت قال : أرجع إلى المكان الذي ضللتها فيه ، وأموت ، فأتى مكانه ، فغلبته عينه ، فاستيقظ وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه ، وزاده وما يصلحه ، فالحق أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده »^(٢) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والله إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »^(٣) ، رواه البخاري . وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يسقط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويسقط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »^(٤) ، رواه مسلم . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه »^(٥) ، رواه مسلم . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : « كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راحب ، فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ قال : لا ، فقتله وكمل به المائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم ، فأتاه وقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ قال : نعم . ومن يحول بينك وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى كان نصف الطريق ، أذركه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاءنا تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي ، فحكّمهم بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو أقرب لهما ، ففاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة ! » متفق عليه . وفي الصحيحين : « فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشبر ، فجعل من أهلها »^(٦) ، وعن أبي نجيذ - بضم النون وفتح الجيم - عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنه : « أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حنلى من الزنا فقالت : يا رسول الله أصبت خطأ فاقم عني ، فدعا نبي الله ﷺ ، فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال عمر : يا رسول الله ، تضي على عليها وقد زنت ؟ قال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل ممن جادبت بنفسها لله عز وجل »^(٧) ، رواه مسلم . وعن أبي نضرة قال : لقيت مولى لأبي بكر رضي الله عنه فقلت له ، سمعت من أبي بكر شيئاً قال : نعم . سمعته يقول : قال رسول الله ﷺ « ما أصر من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة »^(٨) .

(وحكى) : أن نبهان التمار ، وكنيته أبو مقبل ، أته امرأة حسناء ، تشتري تمرا ، فقال لها : هذا التمر ليس بجيد ، وفي البيت أجود منه ، فذهب بها إلى بيته ، وضمها إلى نفسه ، وقبلها ، فقالت له اتق الله ، فتركها وندم على ذلك فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً ﴾ [آل عمران: ١٣٥]^(٩) إلى آخر الآية . وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال : سمعت علياً يقول : إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله حديثاً ينفعني الله منه بما

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة رقم [١٥٠] . إسناده ضعيف ، وأخرجه أحمد [٤٢٥/٣] .

(٢) في الصحيحين عن ابن مسعود ، وقال ابن تيمية هذا حديث متواتر عن النبي ﷺ في كتاب الدعوات باب التوبة . ومسلم في كتاب التوبة باب الحظ على التوبة والفرح بها ، وأحمد في مسنده حديث رقم [٣٦٢٧] ، طبعة المعارف .

(٣) رواه البخاري في كتاب الدعوات باب استغفار النبي ﷺ في اليوم واليلة .

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة كتاب الذكر والدعاء باب استجاب الاستغفار .

(٥) ذكره المنذري بتمامه في الترغيب في التوبة وقال : رواه البخاري ومسلم وابن ماجه بنحوه .

(٦) ذكره المنذري في الترغيب في التوبة وقال : رواه مسلم .

(٨) ضعيف : أخرجه الترمذي [٣٦٣٠] ، وقال : « هذا حديث غريب ، إنما نعرفه من حديث أبي نصيرة ، وليس إسناده بالقوى » .

(٩) وقد ذكر النيسابوري في أسباب النزول قصة نبهان التمار وذهابه إلى رسول الله ﷺ ثم ذكر رواية ابن عباس ، ورواية الكلبي .

شاء ينفعني ، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لي صدقته ، وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَذْنِبُ ذَنْبًا ، فَيُحْسِنَ الطَّهْرَ ، وَيُصَلِّيَ ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ » ^(١) ، وروى في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا فَقَالَ ، يَا رَبِّ ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا ، فَأَغْفِرْهُ لِي ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ فَغَفِرَ لَهُ ، ثُمَّ إِذَا مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَأَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : يَا رَبِّ ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَأَغْفِرْهُ لِي ، قَالَ رَبُّهُ : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ » ^(٢) . وكان قتادة رضي الله عنه يقول : القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، أما دواؤكم : فلاستغفار ، وأما دواؤكم فالذنوب . وكان علي رضي الله عنه يقول : العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة قيل : وما هي ؟ قال : الاستغفار ، وقال رسول الله ﷺ « من قال عشرين حين يصبح ، وحين يمسى : استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب ، غفرت ذنوبه ، ولو كانت مثل رمل عالج ، ومن قال : سبحانه ظلمت نفسي ، وعملت سوءًا فأغفر لي ذنوبي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ، ولو كان مثل ديب النمل » ^(٣) . وقال أبو عبد الله الوراق : لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر ، وزيد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار وهو هذا : اللهم إني أسألك ، وأستغفرك من كل ذنب ، تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك من كل ما وعدتك ، من نفسي ، ثم لم أوف لك به ، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك ، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستعنت بها على معصيتك . يقول الله - عز وجل - لملائكته : وريح ابن آدم يذنب الذنب ، ثم يستغفرني ، فأغفر له ، ثم يذنب الذنب فيستغفرني فأغفر له ، لا هو يترك الذنب من مخافتني ولا يئأس من مغفرتي ، أشهدكم يا ملائكتي أنني قد غفرت له . وقال بشر الحافي : بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين : ترفقوا عليه سبع ساعات ، فإن استغفرني فلا تكتبوها ، وإن لم يستغفرني فاكتبوها . (نكتة) ، قيل : انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام حتى احترق النبات ، وهلك الحيوان ، فخرج موسى عليه السلام في بني إسرائيل ، وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله تعالى ، قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم ، وقربوا قربان تذللهم وخشوعهم ، ودُئِمَ عليهم تجرى على خدودهم ثلاثة أيام ، فلم تمطر لهم ، فقال موسى : اللهم أنت القائل : ادعوني أستجب لكم ، وقد دعوتك ، وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى : إن فيهم من غداؤه حرام ، وفيهم من ييسط لسانه بالغيبة والنميمة ، وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي ، وأنت تطلب لهم الرحمة ، كيف يجتمع موضع الرحمة ، وموضع العذاب ؟! فقال موسى : ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا ؟! فقال الله تعالى : يا موسى ، لست بهتاك ولا نمام ، ولكن يا موسى توبوا كلكم بقلوب خالصة فعساهم يتوبون معكم ، فأجود بإنعامي عليكم ، فنادى منادى موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا ، فاجتمعوا ، فأعلمهم موسى عليه السلام بما أوحى إليه ، والعصاة يسمعون ، فذرفت أعينهم ، ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا : إلهنا جثناك من أوزارنا هارين ، ورجعنا إلى بابك طالبين ، فارحمنا يا أرحم الراحمين ، فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى : اللهم تب علينا ، وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين . أوحى الله إلى داود عليه السلام يا داود ، لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقاً إلي ، وتقطعت أوصالهم من محبتي . يا داود ، هذه إرادتى في المدبرين عنى ، فكيف إرادتى بالمقبلين علي ؟! ولقد أحسن من قال :

وَأَعَصَى فَيُولِينِي بَرًّا وَإِمَهَالَا
وَأُبْعَدُ عَنْهُ وَهُوَ يَبْدُلُ إِصْصَالَا ؟!
وَلَا حَالُ عَنْ سِتْرِ الْقَبِيحِ وَلَا زَالَا

أَبْسَىءُ فَيَجْزَى بِالْإِسَاءَةِ إِفْضَالَا
فَحَتَّى مَتَى أَجْفُوهُ وَهُوَ يَبْرُنِي
وَكَمْ مَرَّةً قَدْ زَغَتَ عَنْ نَهْجِ طَاعَةِ

وهذا آخر ما يستره الله تعالى في هذا الباب ، والله أعلم بالصواب .

(١) أخرجه أحمد [١٠/١] .

(٢) قال العراقي : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « إن عبداً أصاب ذنباً فقال : أي رب أذنبت ذنباً فأغفر لي . . الحديث » . وفي رواية « أذنب

عبد ذنباً فقال : . . الحديث » . (٣) لم أقف عليه .

الباب الثمانون

فيما جاء في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء
وما جاء في السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الأمراض والعلل ، وما جاء في ذلك من الأجر والثواب

روى عن عبد الله بن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم ؟ فقالوا : كلنا يا رسول الله ، قال : أتحبون أن تكونوا كالحمير الصوّالة ؟ ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا ، وأصحاب كفّارات ، والذي بعثني بالحق نبيا إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة ، فلا يبلغها بشيء من عمله ، فيبتليه الله تعالى ليلبغ درجة لا يبلغها بعمله ^(١) . وقال ﷺ : « ما من مُسلم يمرض مَرَضًا إِلَّا حَطَّ اللَّهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقُهَا ^(٢) . وكان يقول : « لا تزال الأوصاب ^(٣) ، والمصائب بالعبد ، حتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة ^(٤) » ، وقيل : إن الناس قد حُتموا في فتح خبير فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس إن الحمى رائد الموت ، وسجن الله في الأرض ، وقطعة من النار ، فإذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء في الشنان ، ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء ، ففعلوا ذلك فزالت عنهم ^(٥) » ، عن أنس رضي الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو في الموت ، فقال له : كيف تجدك ؟ فقال : أرجو الله ، وأخاف ذنوبي ، فقال ﷺ : هما لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف ^(٦) . وعن عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة - رحمها الله تعالى - أنها سمعت رجلا يقول : ما أشد العمى على من كان بصيرا ! فقالت له : يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا ، والله لوددت أن الله وهب لي كنه معرفته ، ولم يبق مني جارحة إلا أخذها ! وكتب مبارك لأخيه سفيان الثوري يشكو إليه ذهاب بصره ، فكتب إليه أما بعد : فقد فهمت كتابك فيه شكاية ربك ، فاذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام . وقيل لعطاء في مرضه : ما تشتهي ؟ قال : ما ترك خوف جهنم في قلبي موضعا للشهوة . وأصاب ابن أدهم داء بطن ، فتوضأ في ليلة سبعين مرة ، وقيل : لأعرابي في مرضه ما تشتهي ؟ قال : الجنة ، فقيل : أفلا ندعو لك طبيبا ؟ قال : طيبى هو الذى أمرضى !

الفصل الثاني: من هذا الباب في ذكر العلل كالبخر والعرج والعمى والصمم والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة

قيل : تسار أبخر وأصم ، فقال له : الأصم ، قد فهمت ، ثم فارقه فسأله رجل ، فقال : والله لا أدري ! غير أنه فسا في أذني . وقيل : إن عبد الملك بن مروان كان أبخر ، فعرض يوما على تفاعحة ، ورمى بها إلى زوجته ، فدعت بسكين ، فقال ما تصنعين بها ؟ قالت : أميط الأذى عنها ، فسق عليه ذلك منها ، فطلقها . وسار أبو الأسود الدؤلي سليمان بن عبد الملك ، وكان أبو الأسود أبخر ، فستر سليمان ، أنفه بكمه ، فعبر أبو الأسود وهو يقول : لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البخر ! وقيل : طول انطباق الفم يورث البخر ، وكل رطب الفم سائل اللعاب سالم منه . وقيل : إن الزنج أطيب الناس

(١) إلخ لم أهد إليه . (٢) أخرجه البخارى في الأدب المفرد برقم [٥٠٨] . وانظر : « مجمع الزوائد » . للهيثمي [٣٠٠/٢] .

(٤) لم أهد إليه .

(٣) الأوصاب : الأوجاع .

(٥) ضعيف : أخرجه الطبراني كما في « مجمع الزوائد » . للهيثمي كتاب الطب ، باب ما جاء في الحمى وإبرادها بالماء [٩٥/٥] ، وقال : « وفيه المحبر بن هارون ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات » .

(٦) قال العراقي : رواه الترمذى ، وقال : غريب . والنسائي في الكبرى ، وابن ماجه من حديث أنس . وقال النووي : إسناده جيد .

أفواها ، والسباع موصوفة بالبحر ، والمثل مضروب بالأسد والصقر في البحر ، والكلب من بينهما طيب الفم ، وليس في البهائم أطيب أفواها من الطّباء .

(وحكى) : أن أبخر تزوج بامرأة ، فلما ضاجعها عافته ، وتولت عنه بوجهها ، ثم أنشدت تقول :

يا حب والرحمن إن فاكأ أهلكنى فولنى قفاكا
إذا غدوت فاتخذ مشواكا من عَزَفِطِ إن لم تجد أراكا
لا تَقْرَبْنى بالذى سواكا إنى أراك ماضفا خراكا

وفى ديوان المشور : كم من ذى عرج فى درج المعالى عرج ، وكم من صحيح قدم ليس له فى الخير قدم . وقيل : إن من الصم من يسمع السر ، فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه ! ورأيت من العمش من لا ينظر صورة الإنسان من قريب ، ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشى . وقيل : إن طريفا الشاعر مدح عمرو بن هداى ، وكان أبرص ، فلما انتهى إلى قوله :

أبرص فياض اليدين مهذب

صاح به الناس وقالوا : قطع الله لسانك ، فقال عمرو : مَهْ إن البرص مما تتفاخرون به العرب ، أما سمعتم قول سهل حيث قال :

أيشتمنى زيد بأن كنت أبرصا وكل كريم لا أبالك أبرص
وقال :

كفى حزنا أنى أعاشر معشراً يخوضون فى بعض الحديث وأمسك
وما ذاك من عى ولا من جهالة ولكنه ما فى للصوت مسلك
فإن سُدَّ منى السمع فالله قادر على فتحه والله للعبد أملك

(ومما جاء فى العمى) : روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من عدم إحدى كريمته ضمنت له على الله الجنة » ^(١) وكان أبو عبد الرحمن بن حرث بن هشام يطعم الطعام ، وكان أعور فجعل أعرابى يطيل النظر إليه حابسا نفسه عن طعامه ، فكلمه المغيرة فى ذلك ، فقال له : والله إنى ليعجبنى طعامك ، وتريبنى عينك ، قال : فما يريك من عيني ؟ قال : أعور وأراك تطعم الطعام ، وهذه صفة الدجال ! فقيل له : إن عينه أصيبت فى فتح الروم ، فقال : إن الدجال لا تصاب عينه فى سبيل الله ! وعن أنس ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال : « من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار » ^(٢) وقال على ﷺ : ربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده ! وقال أبو على البصير :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
لقد يستضىء القوم بى فى وجوههم ويخبو ضياء العين والقلب ثاقب
وقال :

إذا عدمت طلبة العلم مالها من العلم إلا ما تسطر فى الكتب
غدوت بتشميمير وجد عليهم ومحبرتى سمعى وهما دفتري قلبى
وقال :

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففى لسانى وسمعى منهما نور
فهى ذكى ، وقلبى غير ذى غفل وفى فمى صارم كالسيف مشهور

(١) ضعيف : رواه أبو يعلى ، وفيه سعيد بن سليم الضبي ، ضعفه الأزدي ، وذكره ابن حبان فى الثقات وقال : يخطئ ، كذا فى « مجمع الزوائد » . للهمثى (٢/٣١٠ - كتاب الجنائز) .

(٢) ضعيف : أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » . [١٥٨/٣] ، وانظر : « كنز العمال » . برقم [٤٣١٣٥] .

وقال :

عزاءك أيها العين السُّكُوبُ وحَقَّقْكِ أَنهَانُوبُ تَنُوبُ
وكنْتَ كَرِيْمَتِي وَسَرَاجَ وَجْهِي وكانت لى بك الدنيا تطيبُ
على الدنيا السلام فما لشيخ ضرير العين فى الدنيا نصيب !
يموت المرء وهو يُعَدُّ حَيَا ويخلف ظَنُّه الأملُ الكذوب
إذا مات بعْدَ نَسْكِكَ فإن البعض من بعض قريب !
(وحكى) : أن ربيعة رَسِلَ إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول :

عينا ربيعة رَمَدَاوَانِ فاحتسبى بنظرة منك تشفيه من الرمد
إن تكتحل بك عيناه فلا رمد على ربيعة يُخشى آخر الأمد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبي ﷺ أنه قال : « داء الأنبياء الفالج ، واللَّقْوَةُ » (١) ، قال الجاحظ : ومن المفاليج سيدنا إدريس عليه السلام وأكثر ما يعترى المتوسطين من الناس ، لأن الشاب كثير الحرارة ، والشيخ كثير اليبس ، وقيل : إن أبان بن عثمان كان أفلاج ، حتى صار مثلاً ، فكانت الناس تقول : لا رماك الله بفالج ابن عثمان ! وكان معاوية ألوق ، وعبد الملك بن مروان أبخر ، وحسان أعمى ، وابن سيرين أصم ، وممن فلاج ابن أبى دوداد قضاة المعتصم ، كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة ، قد ضرب المثل بفالجه . قال الشاعر فى رجل ضرب غلامه :

أُتْضِرِبَ مِثْلُهُ بِالسُّوْطِ عَشْرًا ضُرِبْتُ بِفَالَجِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ !

وشجّة عبد الحميد كانت مثلاً فى الحسن ، وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وكان بارعاً فى الحسن والجمال ، فزادته حسناً إلى حسنه حتى إن النساء كن يخططن فى وجوههن شجة عبد الحميد ، وكان يقال لعمر بن عبد العزيز : أشج بنى أمية ، وكان عمر بن الخطاب . يقول : إن من ولدى رجلاً بوجهه أثر فى جبهته ، قال أصبغ : الله أكبر هذا أشج بنى أمية يملأ الأرض عدلاً . وقال أعور لأبى الأسود : ما الشئ ونصف الشئ ولا شئ فقال : أما الشئ فالبصير كأنا ، وأما لا شئ فالأعمى وأما نصف الشئ فأنت يا أعور . اللهم اكفنا شر العاهات برحمتك ومنك وكرمك آمين .

الفصل الثالث : من هذا الباب فى التداوى من الأمراض والطب

قال رسول الله ﷺ : « تَدَاوَوْا فَإِنَّ الَّذِي أَنْزَلَ الدَّاءَ أَنْزَلَ الدَّوَاءَ » (٢) ، وقال ﷺ : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ ، وَجَهْلُهُ مَنْ جَهْلُهُ » (٣) ، وسئل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقى هل يردان شيئاً من قضاء الله تعالى ؟ قال : « هُمَا مِنْ قَدْرِ اللَّهِ تَعَالَى » (٤) ، وقال عبد الله بن عكرمة عجب لمن يحتمى من الطعام خوف الداء ، ولا يحتمى من الذنوب خوف النار ، وقيل إن الربيع بن خيثم لما مرض ، قالوا له : ألا ندعو لك طبيباً ؟ فقال لهم : إن مرضى من الطبيب ، وإنه متى أراد عافانى ، ولا حاجة لى بطبيكم وأنشد :

فأصبحت لا أدعو طبيباً ليطبّه ولكننى أدعوك يا مُنْزِلَ القطرِ
وعاد الفرزدق مريضاً فقال :

يا طالِبَ الطَّبِّ من داء تَخَوُّفُهُ إن الطبيب الذى أبلاك بالداء
فهو الطبيب الذى يُرجى لعافية لا من يذيب لك الترياق بالماء

(١) موضوع : أخرجه سعيد بن منصور عن أبى هريرة كما فى « الطب النبوى للسبوتى » . [ص ٣٣٠ - ٣٣١] .

(٢) ذكره ابن القيم فى زاد المعاد وعزاه أمسند أحمد من حديث زياد بن علاثة عن أسامة بن شريك .

(٣) زاد المعاد كما فى الصحيحين عن عطاء عن أبى هريرة .

(٤) زاد المعاد كما فى المسند والسنن عن أبى خزيمة .

قال : ولما مرض بشر الحافي - رحمه الله تعالى - قالوا : ندعو لك طبيباً ؟ فقال : إني بعين الطبيب ؛ يفعل بي ما يُريد ، فألح عليه أهله ، وقالوا : لا بد أن ندفع ماءك إلى الطبيب ؛ فقال لأخته : ادفعي إليهم الماء في قارورة ، وكان بالقرب منهم رجل ذمي ، وكان حاذقاً في الطب ، فأتوه بمائه في القارورة ، فلما رآه قال : حركوه فحركوه ، ثم قال ضموه ، ثم قال : ارفعوه : فقالوا له : ما بهذا وصفت لنا ؟ قال : وبم وصفت لكم ؟ قالوا : بالحدق والمعرفة ، قال : هو كما تقولون ، غير أن هذا الماء إن كان ماء نصراني فهو راهب ، قد فتت كبده العبادة ، وإن كان مسلماً فهو ماء بشر الحافي فإنه أوحده أهل زمانه في السلوك مع الله تعالى ، فقالوا : هو ماء بشر الحافي ، فأسلم النصراني ، وقطع زَنَازَه ، فلما رجعوا إلى بشر قال لهم : أسلم الطبيب ، قالوا ومن أعلمك ؟ قال : لما خرجتم من عندي هتف بي هاتف ، وقال : يا بشر ببركة مائك أسلم الطبيب ، وصار من أهل الجنة . وفلج الربيع بن خيثم فليل له : هلا تداويت . فقال : قد عرفت أن الدواء حق ، ولكن عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيراً كانت فيهم الأوجاع كثيرة ، والأطباء أكثر ، فلم يبق المداوي ، ولا المداوي ، وقد أبادهم الموت ثم قال هذا المفرد :

هلك المداوي والمداوي والذي جلب الدواء وباعه والمشتري

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة : أما تتعالج ؟ فقال : إذا كان الداء من السماء ، بطل الدواء من الأرض ، وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المريبوب . ومرّ قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات متطيبات ، وهن من أجمل الناس ، فأحبوا أن يروهن ، فحكوا ساق أحدهم حتى آدموها ، ثم قصدوهن فقالوا : هذا جريح مريض ، فهل من طبيب ؟ فخرجت صغراهن ، وهي كأنها الشمس الطالعة ، فلما رأت جرحه ، قالت : ليس هو بمريض ، بل خدشه عود ، بالت عليه حية ! فإذا طلعت الشمس مات ، فكان الأمر كما قالت . وقيل : دواء كل مريض بعقاقير أرضه ، فإن الطبيعة تتطلع لهوائها . وقالوا : من قدم إلى أرض غير أرضه ، وأخذ من ترابها ، وجعله في مائها ، وشربه لم يمرض فيها ، وعوفى من وبائها . واحتذى أحمد بن المعدل لعله أصابته ، فبرىء فقال : الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا ، تبرئهم من المرض ، ولأهل الآخرة تبرئهم من النار . وقيل : إن الأبدان المعتادة بالحمية ، أفنها التخليط والمعتادة بالتخليط أفنها الحمية لأن الحكماء تقول : عودوا كل جسد بما اعتاد . وكان كسرى أنوشروان يمسك عما تميل إليه شهواته ، ولا ينهمك عليه ، ويقول : تركنا ما نجه ، لنستغنى عن العلاج ، بما نكرهه ! وقال لقمان : لا تطيلوا الجلوس على الخلاء ، فإنه يورث الباسور ، وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحُشوش ، أي : الكُفّ . وقيل : كفى بالمرء عارا أن يكون صريح مأكله ، وقتيل أنامله :

فكم أكلة أكلت نفس حرّ وكم أكلة جلبت كل ضرّ

وقيل : من غرس الطعام أثمره الأسقام ، وعن بعض أهل البيت النبوي ﷺ أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم ، والعسل ، واستوهم من مهر أهله شيئاً ، وكان يقول : قال الله تعالى : ﴿ وَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ [ق: ٩] ، وقال تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل: ٦٩] ، وقال ﷺ : « ماء زمزم لما شرب له »^(١) ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ طِبَّنْ لَكُمْ عَنْ سَيِّئِهِ مَنَّهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء: ٤] ، فمن جمع بين ما بورك فيه ، وبين ما فيه شفاء ، وبين الهنيء المرىء ، يوشك أن يلقي العافية . وقيل : خمسة من المهلكات : دخول الحمام على الشبع ، والمجاعة على الشبع ، وأكل القديد^(٢) ، وشرب الماء البارد على الريق ، ومجاعة المرأة العجوز ! وقالوا : لا تنكح العجوز ، ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجها ! وقال الإمام علي عليه السلام :

توقى مدى الأيام إدخال مطعم	على مطعم من قبل هضم المطاعم
وكل طعام يُعجز السن مضغه	فلا تقربنه فهو شرّ لبطاعم
ووفر على الجسم الدماء فإنها	لقوة جسم المرء خير الدعائم
وإياك أن تنكح طواعن سنهم	فإن لها سماً كسم الأراقم ^(٣)

(١) قال العجلوني : رواه ابن ماجه بسند جيد ، وكذا ابن أبي شيبة والبيهقي عن جابر ورواه أحمد . . . لما شرب منه .

(٢) القديد : من اللحم ما قصع .

(٣) الأراقم : جمع الأرقم ، وهو ذكر الحيات ، أو أخبثها .

وفى كل أسبوع عليك بقيئة تكن آمنة من شر كل البلاغم

ومما يورث الهزال : النوم على غير وطاء ، وكثرة الكلام برفع الصوت . وقال النظام : -رحمه الله تعالى - ثلاثة تخرب العقل : طول النظر فى المرأة : وكثرة الضحك ، والنظر إلى النجوم . وفى الحديث « اَحْتَجِم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فى أم مُغِيثٍ » وهى وسط الرأس « وَكَانَ ﷺ يَحْتَجِمُ فى الْأَخْدَعَيْنِ » ^(١) ، « وَنَهَى عَنِ الْحِجَامَةِ فى نقرة القفا فإنها تورث النسيان » ^(٢) ، « وأمر بالاستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور » ^(٣) ، وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكو من السعال ، فقال فى آخر خطبته : من كان يشكو سعالا فليتناو بالخل ففعلوا فعا فاهم الله ، وقال بعض الحكماء : إياك أن تطيل النظر فى عين أرمد ، وإياك أن تسجد على حصى جديدة قبل أن تمسها بيدك ، فرب شظية حقيرة قلعت عينا خطيرة . وقيل : كانت الأدوية تنبت فى محراب سليمان ﷺ ويقول كل دواء : يا نبي الله ، أنا دواء لكذا وكذا . وقال جالينوس ، البطنة تقتل الرجال وتورث الفالج والإسهال الذريع ، والإقعاد ، وصنفا من الجذام يقال له : الفهد لا يسمع صاحبه ، ولا يبصر ، نسأل الله العفو والعافية . وقيل البطنة تورث الصداع ، والكمنة فى العينين ، والضربان فى الأذنين ، والقولنج فى البطن . فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى ، واتق الليل وطعامه جُهدك ، وقال جالينوس : الغم المفرط يُميت القلب ، ويجمد الدم فى العروق ، فيهلك صاحبه ، والسرور المفرط يلهب حرارة الدم ، حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه ، وقيل : إنه وضع على مائدة المأمون فى يوم عيد أكثر من ثلاثين لونا ، فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته ، فقال يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين ، إن خضنا فى الطب ، فأنت جالينوس فى معرفته ، أو فى النجوم فأنت هرمس فى صناعته ، أو فى الفقه فأنت على بن أبى طالب ﷺ فى علمه ، أو فى السخاء فأنت حاتم فى كرمه ، أو فى الحديث فأنت أبو ذر فى صدق لهجته ، أو فى الوفاء فأنت السموأل بن عادياء فى وفائه . فسّر بكلامه ، وقال : يا أبا محمد ، إنما فضل الإنسان على غيره بالعقل ، ولولا ذلك لكانت الناس والبهائم سواء ، وقال طيب الهند : إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر ، وقال سفيان بن عيينة : أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام . وقالوا : إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع فى البر ، وقيل : الشرب فى آنية الرصاص أمان من القولنج ^(٤) . وعرض رجل على طبيب قارورته فقال له : ما هى قارورتك ؟ لأنه ماء ميت ، وأنت حى تكلمنى فما فرغ من كلامه ، حتى خر الرجل ميتا . وقيل : إن ملكا من الملوك حصل عنده صداع فى رأسه ، فأحضر الطبيب ، فأمره أن يضع قدميه فى الماء الحار ، وكان عنده خصى فقال : أين القدمان من الرأس ؟ فقال له الطبيب : وأين وجهك من خصيتيك نزعنا فذهبت لحيتك ؟! وقيل : إن المأمون حصل له صداع بطرسوس فأحضر طبيبا كان عنده فلم ينفعه علاجه ، فبلغ قيصر ، فأرسل إليه قلنسوة وكتبه له : بلغنى صداعك فضعها على رأسك ، يزل ما بك ، فخاف أن تكون مسمومة ، فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شيء ، ثم إنه أحضر رجلا به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به فتعجب المأمون ! ثم إنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوبة فيها « بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة لله تعالى فى عرق ساكن ، وغير ساكن ، حمعسق لا يصدعون عنها ولا يتزفون . من كلام الرحمن . خمدت النيران ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » . وقال على ﷺ : اذهنوا بالنفسج فإنه حار فى الشتاء ، بارد فى الصيف . وقال أيضا ﷺ عليكم بالزيت فإنه يذهب البلغم ، ويشد العصب ، ويحسن الخلق ، ويطيب النفس ، ويذهب الغم . وعنه ﷺ : إن لم يكن فى شيء شفاء ففى شرطة حاجم ، أو شربة من غسل . وقال الحجاج لطيبه ، أخبرنا بجوامع الطب فقال : لا تنكح إلا فتاة ، ولا تأكل من اللحم إلا فتيا ، وإذا تغذيت فتم ، وإذا تعشيت فامش ، ولو على الشوك ، ولا تدخلن بطنك طعاما حتى تستمرى ما فيه ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء . وكل الفاكة فى إقبالها ، ودزها فى إدبارها . وأوصى حكيم خليفته وصية ووعده أنه إذا لازمها لا يمرض إلا

(١) قال ابن القيم فى زاد المعاد : وفى الصحيحين عن أنس « كان رسول الله ﷺ يحتجم ثلاثا : واحدة على كاهله ، واثنين على الأخدين » وفى الصحيح أنه احتجم وهو محرم فى رأسه لصداع كان به ، (وأم مغيث هى الرأس) .

(٢) موضوع : أخرجه الديلمى عن أنس ، وانظر : المقاصد الحسنة [ص ٤٤٢] ، والفوائد المجموعة للشوكانى [ص ٢٣١] .

(٣) موضوع : أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه عمار بن هارون ، وهو متروك . انظر : « مجمع الزوائد » للحافظ الهيثمى [٥/ ١٠٠ - كتاب الطب] .

(٤) القولنج مرض مقيوي مؤلف يصعب معه خروج البراز والريح ، وسببه التهاب القولون .

مرض الموت فقال : إياك أن تدخل طعاماً على طعام ، ولا تمش حتى تريا ، ولا تجامع عجوزاً ، ولا تدخل حماماً على شبع ، وإذا جمعت فكن على حال وسط من الغذاء ، عليك في كل أسبوع بقية ، ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها ، ولا تأكل القديد من اللحم ، وإذا تغذيت فتم ، وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة ، ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينهضم ما فيها ، وتستريح الكبد من حرارة المعدة ، ولا تنم على يمينك فيبطيء الهضم ، ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع ، ولا تنم ليلاً حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتج ، واقعد على الطعام وأنت تشتهي ، وقم عنه وأنت تشتهي ، وقال بعضهم :

شره النفوس على الجسوم بلية
ما من فتى شرهت له نفس وإن
وقال أبو الفيض القضاعي يمدح الفضل وقد فسد :
أرقت دماً لو تسكب المزن^(١) مثله
دماً طيباً لو يطلق الشرع شربه
فتعوذوا من كل نفس تشره
نال الفنى إلا رأى ما يكره
لأصبح وجه الأرض أخضر زاهياً
لكان من الأسقام للناس شافياً

الفصل الرابع : فيما جاء في العيادة وفضلها

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة في ظل العرش : عائد المريض ، ومشيع الموتى ، وطائع والديه »^(٢) ، وفي رواية « ومعزى الثكلى » . ومن السنة تخفيف الجلوس في العيادة . مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنده ، فقال : المريض يُعاد ، والصحيح يزار قال الشاعر :

يَعُدُّنْ مريضاً هن هيجن داءه
وقيل : إذا دخل العواد على الملك ، فحقهم أن لا يسلموا عليه ، فيحجوه إلى رد السلام ، ويتعبوه ! فإذا علموا أنه لاحظهم دعوا له وانصرفوا . قيل . مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه : كشف الله عنك ما بك من السقم ، وطهرك بالعله من الخطايا ، ومتعك بأنس العافية ، وأعقبك دوام الصحة . ومرض إنسان فكتب إليه صديقه :
بإخوانك الأدنىين لابل كل ما
فكل امرئ منهم بقدر احتماله
وقال الآخر :

بى السوء والمكروه لا بك كلما
وقال عبد الله بن مصعب :

مالى مرضت فلم يعدنى عائد
فسمى بعد ذلك عائد الكلاب . وعاد مالك بن أنس

عادنى مالك فلست أبالى
وقال على بن الجهم :

أراقد الليل مسرورا عدمت إذا
الله يعلم أنى قد نذرت له

وقال آخر :

(١) المزن : السحاب يحمل الماء ، قال تعالى : ﴿ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٩] والواحدة مزنة ، وحُبُّ المزن : اليزد .

(٢) لم أفق عليه . هذا ولثلاثة أجرهم عند ربهم .

إذا مرضتم أتيناكم نعودكمو وتذنبون فنأتيكم ونعتذر
وقال آخر :

أعاذك الله من أشياء أربعة : الموت والعشق والإفلاس والجرب
وقيل إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر :

قالت : مرضتُ فعدتها فتبرمت فهي الصحيحة والعليل العائذُ
والله لو أن القلوب كقلبها مارق للولد الصغير الوالدُ
وعلى الثاني قول بعضهم :

حق العيادة يوم بعد يومين وجلسة مثل خلس اللحظ بالعين
لا تُبرمَنْ عيلاً في مُسألة يكفيك من ذاك تسأل بحرفين

وفضل العيادة مشهورة ، وشرفها مذكور ، وبها تعظم الأجور ، وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب ، والله الموفق للصواب .



الباب العاوي والثمانون

في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات لأحدكم ميت فأحسنوا كفنه ، وعجلوا إنجاز وصيته ، وأعمقوا له في قبره ، وجنبوه جار السوء . وقيل : يا رسول الله ، وهل ينفع الجار الصالح في الآخرة ؟ قال : « هل ينفع في الدنيا ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك في الآخرة » ^(١) ، ومن وصية على رضي الله عنه لأبي ذر : زُرِ القبور تذكر بها الآخرة ، ولا تزرها بالليل ، وغسل الموتى يتحرك قلبك ، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك ، فإن الحزين في ظل الله تعالى . ويقال : جزعك في مصيبة صديقك ، أحسن من صبرك ، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك . ونظر فيلسوف إلى ميت يُحمل إلى قبره فقال : حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد ! ودخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على معاوية في مرضه مرضها ، فقال له : أعائد أنت أم شامت ؟! فقال له عمرو : لم تقول هذا ؟! والله ما كلفتني رهقاً ، ولا أصدتني زلقاً ، ولا جرعتني علماً ، فلم أستطل حياتك ، ولم أستبطئ وفاتك ، فأنشد معاوية يقول :

فهل من خالدين إذا هلكننا وهل في الموت بين الناس عار ؟!

ولما مرض معاوية رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه وفد إليه الناس يعودونه ؟! فقال لأهله : مهدوا لي فراشا وأسندوني ، وأوسعوا رأسي دهانا ، ثم أكلوا عيني بالإثمد ، ثم ائذنوا للناس يدخلوا ويسلموا على قياماً ، ولا تجلسوا عندي أحداً ، ففعلوا ذلك ، فلما خرجوا من عنده أنشد يقول :

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعع !

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع !

وقيل : لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت :

هو الموت لا منجى من الموت والذي نحاذر بعد الموت أدهى وأنظع !

(١) موضوع : أورده السيوطي في « اللآلئ المصنوعة » [٤٣٩/٢] ، وعزاه للماليني في المؤلف والمختلف عن ابن عباس .

قال : ثم رفع يديه وقال : اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وعُد بحلمك على من لم يرجُ غيرك ، ولا يثق إلا بك ، فإنك واسع المغفرة ، وليس لدى خطيئة منك مهرب ، ومات رحمه الله تعالى . وذكر أبو العباس الشيباني : قال : وفد على أبي دُلف عشرة من أولاد علي ابن أبي طالب عليه السلام في العلة التي مات فيها ، فأقاموا ببابه شهرا لا يؤذن لهم ، لشدة العلة التي أصيب بها ، ثم أفاق فقال لخادمه بشر : إن قلبي يحدثني أن بالباب قوما لهم إلينا حوائج ، فافتح الباب ، ولا تمنع أحدا ، قال فكان أول من دخل آل علي عليه السلام فسلموا عليه ، ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال : أصلحك الله ، أنا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفينا من ولده ، وقد حطمتنا المصائب ، وأجحفت بنا النوائب ، فإن رأيت أن تجبر كسيرا ، وتغني فقيرا لا يملك قطميرا فافعل ، فقال لخادمه ، خذ بيدي وأجلسني ، ثم أقبل معتذرا إليهم ، ودعا بدواة وقرطاس ، وقال ليكتب كل منكم بيده أنه قبض مني ألف دينار ، قالوا : فبقينا - والله - متحيرين ، فلما أن كتبنا الرقاع ، ووضعناها بين يديه قال لخادمه : على بالمال ، فوزن لكل واحد منا ألف دينار ، ثم قال لخادمه : يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع في كفني ، فإذا لقيت محمدا صلى الله عليه وآله في القيامة كانت حجة لي أنني قد أغنيت عشرة من ولده ، ثم قال : يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف درهم ينفقها في طريقه ، حتى لا يتفق من الألف دينار شيئا حتى يصل إلى موضعه ، قال : فأخذناها ودعونا له ، وانصرفنا ثم مات رحمه الله . وقيل لما دفن عمر بن عبد العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء ، فوجدوا بردة مكتوبا فيها بالنور : بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار . وقيل لأعرابي : إنك تموت ! قال : وإلى أين أذهب ؟ قالوا : إلى الله تعالى . قال : لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه . وبكى الخولاني عند موته فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لطول السفر ، وقلة الزاد ، وقد سلكت عقبة ، ولا أدري إلى أين أهبط ؟ وإلى أي مكان أسقط ؟ ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له : من أنت ؟ قال : أنا الذي لا يهاب الملوك ، ولا تمنع منه القصور ، ولا يقبل الرشا ، فقال : إذن أنت ملك الموت ، وإنني لم أستعد بعد ! فقال له : يا داود أين فلان جارك ؟ أين فلان قريبك ؟ قال : ماتا . قال : أما كان لك في موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ؟ ثم قبضه عليه السلام . وفي الخبر من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « إن الملائكة تكتنف العبد ، تحتسيه ، ولولا ذلك لكان يعدو في الصحراء والبراري ، من شدة سكرات الموت » ^(٢) . وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم ، فليكن المرء على أهبة من ذلك . وقيل : بينما حسان جالس ، وفي حجره صبي يطعمه الزبد بالعسل ، إذ شرق الصبي فمات ، فقال :

اعمل وأنت صحيح مطلق فرح ما دمت ويحك يا مغرور في مهل
يرجو الحياة صحيح ربما كمنت له المنية بين الزبد والعسل

وقيل : إن المأمون لما قربت وفاته ، دخل عليه بعض أصدقائه ، فوجده قد فرش له جلد دابة ، وبسط عليه الرماد ، وهو يتمرغ فيه ويقول : يا من لا يزول ملكه ؛ ارحم من زال ملكه ! (ولما) : احتضر عمرو بن العاص دعا بغُلّ وقيد وقال : ألبسوني إياهما فإنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إن التوبة مقبولة ما لم يغرر ابن آدم بنفسه ، ثم استقبل القبلة وقال : اللهم إنك أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقام العائذ بك ، فإن تعف فأنت أهل العفو ، وإن تعاقب فما قدمت يداي ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ثم مات ، وهو مغلول مقيد ، فبلغ ذلك الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام فقال : استسلم الشيخ ، ولعلها تنفعه ! (ولما) : احتضر المعتصم ، جعلوا يهونون عليه ، فقال : هان على النظارة ما يمرّ بظهر المجلود . وسمع أبو الدرداء رجلا في جنازة يقول : من هذا ؟ فقال : أنت ، فإن كرهت فأنا . وقيل : مات عكرمة مولى ابن عباس عليه السلام وكثير عزة في يوم واحد ، فقال الرجل : اللهم كما جمعتهم في زيارة القبور ، فلا تفرق بينهما يوم النشور ، فما بقى في المدينة أحد إلا استحسّن كلامه ! (ولما) : احتضر إبراهيم الخليل عليه السلام قال : هل رأيت خيلا يقبض روح خليله ؟ ! فأوحى الله إليه : هل رأيت خيلا يكره لقاء خليله ؟ قال : فاقبض روحي الساعة . وقيل : إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها . وقال بعضهم :

إذا ما حمام^(١) المرء كان ببلدة دعتة إليها حاجة فيطير

(وحكى) : أن شابا تقيا من بنى إسرائيل ، كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه ، فبينما هو عند سليمان فى مجلسه ، إذ دخل ملك الموت عليه ، فلما رآه الشاب اصفر لونه ، وارتعدت فرائضه ، وقال : يا نبي الله ، إنى خفت من هذا الرجل ! فمر الريح أن تذهب بى إلى الهند ، فأمر سليمان الريح ، فذهبت به ، فما كان إلا قليل ، حتى دخل ملك الموت على سليمان ، وهو متعجب ! فقال له سليمان : مم تعجب ؟ قال : أعجب أنى أمرت بقبض روح الشاب الذى كان عندك بأرض الهند ، ودخلت عليك فوجدته عندك ، فصرت متعجبا ، ثم توجهت إلى الهند فرأيت هناك ، وقبضت روحه ، فهذا عجبى ! فقال له سليمان : إنه لما رآك خاف وانزعج ، وطلب منى أن تحمله الريح إلى الهند ، فأمرتها فحملته ، وفى ذلك المعنى قال محمد بن الحسن :

ومتعب الروح مرتاح إلى بلد والموت يطلبه فى ذلك البلد

وقيل : إن الإنسان يحصل له عند الموت قوة حركة ، نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه ، من حركة سريعة ، وضياء ساطع ، وتسميها الأطباء « النعشة الأخيرة » والله أعلم .

وقيل : إن الرشيد ماتت له جارية ، وكانت من خواص محاطية ، فجزع عليها جزعا شديدا . فقال لبعض أصدقائه : أما ترى ما بليت به ؟! ما أحببت أحدا إلا مات ! فقال : يا أمير المؤمنين أحببني ، فقال : ويحك ! إن الحب ليس هو شئ يصنع ، إنما هو شئ يقع فى القلب تسوقه الأسباب ، فقال : قل : أنا أحبك ، قال : نعم أنا أحبك ، قال : فحُم من وقته ومات . وفى الحديث المرفوع « كَسُرْ عَظْمَ الْمَيِّتِ كَكُسْرِهِ فِي حَيَاتِهِ »^(٢) ، وقال يزيد بن أسلم : لقد كان يمضى فى الزمن الأول أربعمئة سنة ما يسمع فيها بجنائز . وعن ميمون بن مهران قال : شهدت جنازة ابن عباس عليه السلام بالطائف فلما وضع ليصلى عليه ، جاء طائر أبيض حتى وقف على أكفانه ، ثم دخل فيها ، فالتمسناه ، فلم نجده ولما سوينا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ، ولا يرى شخصه ، يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨] ، الآية وقال ابن عباس عليه السلام : إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بمنى . وقال عطاء : بلغنى أن قبره تحت المنارة التى وسط الخيف . وكان عثمان بن عفان عليه السلام إذا وقف على قبر بكى مالا يبيكه عند ذكر الجنة والنار ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الْقَبْرِ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَا الْعَبْدُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ »^(٣) . وعن معاذ بن رفاعة الزرقى قال : أخبرنى رجل من رجال قومي : « أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جوف الليل معتجرا بعمامة من استبرق ، فقال : يا محمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء ، واهتز له العرش ؟ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يجر ثوبه مبادرا إلى سعد بن معاذ عليه السلام فوجده قد قبض^(٤) ، وقال الحسن عليه السلام ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات ، فمن رآه على لهو ولعب أو معصية أو ضاحكا حرك رأسه ، وقال له : مسكين هذا العبد ، غافل عما يراى به ، ثم يقول له : اعمل ما شئت فإن لى فيك غمزة أقطع بها وتينك^(٥) ! وقال عمر بن عبد العزيز عليه السلام لرجاء بن حيوة : يا رجاء ، إذا وضعت فى لحدى ، فاكشف الثوب عن وجهى ، فإن رأيت خيرا فاحمد الله ، وإن رأيت غير ذلك ، فاعلم أن عمر قد هلك : قال رجاء : فلما دفناه كشفت عن وجهه ، فرأيت نوراً ساطعا ، فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير . وقال أيضا : دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو محتضر ، فقال : يا رجاء ، إنى أرى وجوها كراما ليست بوجوه إنس ولا جان ، وهو يقلب طرفه يمينا وشمالا ، ثم رفع يده فقال : اللهم أنت ربى أمرتنى ، فقصرت ، ونهيتنى فعصيت ، فإن غفرت فقد مننت ، وإن عاقبت فما ظلمت . ألا إنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبداً ورسولك المصطفى ، ونيك المرتضى ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة فعليه السلام والرحمة ، ثم قضى نحبه - رحمه الله - وعن أسماء بنت عميس

(١) الحمام : بكسر الحاء وفتح الميم : قضاء الموت وقدره .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود [٣٢٠٧] ، وابن ماجه [١٦١٦] ، وأحمد [٥٨/٦] ، [١٦٨] .

(٣) حسن : أخرجه الترمذى [٢٣٠٩] ، وابن ماجه [٤٢٦٧] .

(٤) وعن معاذ بن رفاعة . إلخ اهتزاز العرش لموت سعد بن معاذ ثابت وصحيح ، وانظر : « الإصابة » لابن حجر ترجمة سعد بن معاذ .

(٥) وتينك : الوتين هو : الشريان الرئيسى الذى يغذى جسم الإنسان بالدم التقي الخارج من القلب .

قالت : كنت عند أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام ، بعدما ضربه ابن ملجم ، إذ شهِقَ شهقة بعد أن أغمى عليه ، ثم أفاق ، وقال : مرحباً « الحمد لله الذي صدقنا وعده . وأورثنا الأرض تنبؤاً من الجنة حيث نشاء » ^(١) ، فقيل له : ما ترى ؟ قال : هذا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهذا أخى جعفر ، وعمى حمزة وأبواب السماء مفتحة ، والملائكة ينزلون على يثرونى بالجنة ، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصائفها الحور العين ، وهذه منازل لى لمثل هذا فليعمل العاملون ! (ولما) : احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد : إذا أنا مت إياك أن تجلس ، وتعصر عينيك كالمرأة الكعاء ، لكن اتنزر وشمر والبس جلد النمر ، وضعنى فى حفرتى ، وخنلى وشأنى ، وعليك شأنك ، وادع الناس إلى بيعتك . فمن قال برأسه هكذا ، فقل له بسيفك هكذا ، ثم بعث إلى محمد وخالد ابني يزيد بن معاوية ، فقال : هل عندكما ندامة فى بيعة الوليد ؟ فقالوا : لا نعرف أحداً أحق منه بالخلافة ، فقال : أما إنكما لو قلتما غير هذا لضربت الذى فيه أعينكما ، ثم رفع كنار فراشه ، فإذا تحته سيف مسلول تحت يمينه ، كل هذا وروحه تردد فى حنجرته وهو يقول : الحمد الذى لا يبالى أصغيراً أخذ أم كبيراً لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم بعد ساعة نفدت روحه ، فدخل عليه الوليد ومعه بناته ليكون فتمثل بقول الشاعر :

ومستخبر عتاً يُريد بنا الردى ومستخبرات والعيون سواكب
وقال محمد بن هارون :

كأنى بإخوانى على جنب حفرتى يهيلون فوقى والعيون دما تجرى
فيايها المذرى على دموعه ستعرض فى يومين عنى وعن ذكرى

وكان يزيد الرقاشى يقول : من كان الموت موعده ، والقبر بيته ، والثرى مسكنه ، والدود أنيسه ، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف تكون حالته ؟ ثم يبكى حتى يغشى عليه ؟ فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره ، ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل ، ولا يغتر بالأمل فإن من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ، ويوفقنا لاتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأن يجعل الموت خيراً غائب نتظره وأن يختم لنا بالخير ، وأن يتغمدنا برحمته إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثانى والثمانون

فى الصبر والتأسى والتعازى والمرأى ونحو ذلك وفيه فصول

الفصل الأول : فى الصبر

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسِّرْ لِلْضَّالِّينَ ﴾ ^(١) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٥-١٥٦] ، وقال صلى الله عليه وآله : « ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قلَّ عهدُها فأخذت استرجاعاً ، إلا أخذت الله له مثله ، وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أُصيب بها » ^(٢) . وعن أنس ابن مالك رضي الله عنه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أصبح حزينا أصبح ساخطا على ربه ، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله ، ومن تواضع لغنى سأل ما فى يده ، أحبط الله ثلثى عمله ، ومن أعطى القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار ، أبعد الله عن رحمته لأنه هو الذى فعل ذلك بنفسه ، حيث لم يعرف حرمة

(١) سورة الزمر : بعض الآية رقم [٧٤] وأولها : ﴿ وَقَالُوا الْحَسْبُ لِلَّهِ ۖ ﴾ .

(٢) ما من مسلم يصاب بمصيبة - وإن قلَّ عهدُها - فأخذت استرجاعاً . . . إلخ أخرجه ابن ماجه برقم [١٦٠٠] .

القرآن^(١) ، وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « من مات له ثلاثة من الولد لم يلج النار إلا تحلة القسم »^(٢) ، يعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَنْتَكِرْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: « من أصيب بمصيبة فقال - كما أمر الله - ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ اللهم أوْجِرْنى فى مصيبتى ، وأعقبنى خيراً منها ، إلا فعل الله به ذلك »^(٣) . وروى « أنه لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ ذرقت عيناه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ، ألم تته عن البكاء؟ قال: إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين ، والنذب ، ولكن هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوبنا ومن لا يرحم لا يرحم ، فإن القلب يخشع والعين تدمع وإنا بك يا إبراهيم لمخزونون ، ولا نقول إلا ما يرضى الله ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون »^(٤) . وقال ابن عباس رضي الله عنه « أول شيء كتبه الله فى اللوح المحفوظ: إني أنا الله لا إله إلا أنا ، محمد عبدى ورسولى ، من استسلم لقضائى ، وصبر على بلائى ، وشكر نعمائى ، كتبه صديقاً ، وبعثته مع الصديقين ، ومن لم يستسلم لقضائى ، ولم يصبر على بلائى ، ولم يشكر نعمائى فليتخذ رباً سواى »^(٥) . وقال ابن المبارك إن المصيبة واحدة ، فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان ، لأن إحداها المصيبة بعينها ، والثانية ذهاب أجره ، وهو أعظم من المصيبة! وعن العلاء بن عبد الرحمن « أن النبى ﷺ لما حضرته الوفاة ، بكت فاطمة ، فقال: لا تبكى يا بنتاه ، قولى إذا مت: إن الله وإنا إليه راجعون ، فإن لكل إنسان مصيبة معوضة قالت: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومنى »^(٦) ، وعن عطاء بن رباح قال: قال رسول الله ﷺ: « من أصابته مصيبة فليذكر مصيبته بى فإنها أعظم المصائب »^(٧) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: « من أخذت حبيبتاه - يعنى عينيه - فصبر واحتسب أدخله الله الجنة »^(٨) . وقيل: إن امرأة أيوب عليه السلام قالت له: « لو دعوت الله تعالى أن يشفيك ، فقال: لها ، ويحك كنا فى النعماء سبعين عاماً ، أفلا نصبر على الضراء مثلها؟! فلم يلبث إلا يسيراً أن عوفى »^(٩) . وقيل: الصبر مفتاح الفطر ، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح . وقيل: من لم يلق نوائب الدهر بالصبر ، طال عتبه عليه ، وقيل: إن معاوية رضي الله عنه خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرارَةَ الكلبي وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب ، فقال له معاوية: يا عبد العزيز ، أتانى نعى سيد شباب العرب ، فقال له: ابنى أو ابنك؟ قال: بل ابنك ، قال: للموت تلد الوالدة . ومما قيل: اصبر لحكم من لا تجد معولاً إلا عليه ، ولا مفرعاً إلا إليه . وقال سويد السدوسي :

بتقوى الذى أعطاكما وبراكما
وصبر لأمر الله فيما ابتلاكما

فأوصيكما يا ابنى سدوس كلاكما
بشكر إذا ما أحدث الله نعمته

وقال :

وترقى إلى العلياء غير مزاحم
فما صابر فيما يروم بنادم

أيا صاحبي إن رمت أن تكسب العلا
عليك بحسن الصبر فى كل حالة

وقال آخر :

فصبرا على مكروهه وتجلداً

هو الدهر قد جربته وبلوته

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعد ما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقالت: نضر الله وجهك ، وشكر صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مدلاً بإدبارك عنها وللآخرة معداً بإقبالك عليها ، ولئن كان رزؤك^(١٠) أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ ، وأكبر الأحداث بعده ، فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر فى المصيبة ، وأنا تابعة له فى الصبر

(١) ضعيف جداً : أورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » [٢٤٨/١٠] وقال : « رواه الطبرانى فى الصغير ، وفيه وهب بن راشد البصرى ، صاحب ثابت ، وهو متروك » .

(٢) صحيح : رواه أحمد [٢٧٦/٢] .

(٣) قال المنذرى رواه مسلم وأبو داود والترمذى . ورواه ابن ماجه بنحو الترمذى والآية رقم [١٥٦] من سورة البقرة .

(٤) صحيح : أخرجه مسلم كتاب الفضائل - باب - رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك [٦٢] . وأحمد [١٩٤/٣] .

(٥) لم أعتد إليه . (٦) لم أعتد إليه .

(٧) ضعيف : أورده المتقى الهنذى فى « كنز العمال » [ج ٣ برقم ٦٦٥٣] ، وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن عطاء بن رباح مرسلأ .

(٨) تقدم . (٩) لم أعتد إليه . (١٠) الرزء: المصيبة .

فأقول: إن الله وإنا إليه راجعون، ومستعيزة بأكثر الاستغفار لك، فسلام الله عليك، توديع غير قالية لحياتك، ولا رازة على القضاء فيك! (ولما): مات ذرّ الهمداني، جاء أبوه فوجده ميتا، وكان موته فجأة، وعياله يكون عليه، فقال: مالكم والله، ما ظلمناه، ولا قهرناه، ولا ذهب لنا بحق، ولا أصابنا فيه ما أخطأ من كان قبلنا في مثله، ولما وضعه في حفرته قال: رحمك الله يا بني، وجعل أجرى فيك لك، والله ما بكيت عليك، وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بي بارًا، ولي نافعًا، وكنت لك محبًا، وما بي إليك من وحشة، وما بي إلى أحد غير الله من فاقة، وما ذهبت لنا بعزة، وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك. ياذرّ لولا هول المطلاع لتمنيت ما صرت إليه، فليت شعري ماذا قلت؟ وماذا قيل لك؟ ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك، اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من الأجر إلى ذر صلة مني له، فلا تحرمي، ولا تعرفه قبيحا، وتجاوز عنه فإنك رحيم بي وبه، اللهم قد وهبت لك إساءته لي، فهب لي إساءته إليك، فإنك أجود مني وأكرم. اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقا، وجعلت لي عليه حقا قرنته بحقك فقلت: ﴿أَشْكُرُ لِي وَلَوْلَاكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. [لقمان: ١٤] اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من حق، فاغفر له ما قصر فيه من حقك، فإنك أولى بالجود والكرم. فلما أراد الانصراف قال: ياذرّ قد انصرفنا، وتركناك، ولو أقمنا عندك ما نفعناك! وفي الحديث «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي عِنْدَ قَبْضِ رُوحِ وَلَدِهِ، وَثَمَرَةُ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: إِلَهْنَا، حَمْدُكَ، وَاسْتَرْجَع، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَشْهَدُكُمْ يَا مَلَائِكَتِي، أَنِّي بَنَيْتُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمَّيْتُهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»^(١). وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه دفن ابنا له، وضحك عند قبره، فقيل له: أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان، فينبغي للعبد أن يتفكر في ثواب المصيبة، فتسهل عليه، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها، حتى يودّ لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله، لينال ثواب المصيبة، وقد وعد الله تعالى في المصيبة ثوابا عظيما إذا صبر صاحبها، واحتسب وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ وَنُكَرَّ الْفَاصِدِينَ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] الآية اللهم رَضْنَا بِقَضَائِكَ، وَصَبَرْنَا عَلَى بَلَائِكَ، واغفر لنا، ولوالدينا، ولكل المسلمين يا رب العالمين.

الفصل الثاني: من هذا الباب في التعازي والتأسي

روى الترمذي في كتاب السنن للبيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَزَى مُصَابًا فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ» وروينا في كتاب الترمذي أيضا بسند متصل إلى رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عَزَى ثُكْلِي كُسِي بِرِذَاءٍ فِي الْجَنَّةِ» وروينا في سنن ابن ماجه والبيهقي بإسناد حسن عن عمرو بن حزم عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعْزِي أَخَاهُ بِمُصِيبَتِهِ إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ مِنْ حُلَلِ الْكَرَامَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (واعلم): أن التعزية هي التصبير، وذكر ما يسلى صاحب الميت، ويخفف حزنه، ويهون مصيبته، وهي مستحبة، فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهي أيضا داخلة في قوله تعالى: ﴿وَتَمَازُوا عَلَى الْآلِ وَالْقَوَى﴾ [المائدة: ٢]، وهي من أحسن ما يستدل به في التعزية، وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»، واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن، وبعده، وتركه بعد ثلاثة أيام، لأن التعزية لتسكين قلب المصاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام، فلا يجدد الحزن، هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعي رحمته الله وقيل: إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا في صورتين: وهما إذا كان المعزى أو صاحب المصيبة غائبا حال الدفن، فاتفق رجوعه بعد الثلاثة وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه، فبأي لفظ عزاه حصلت، واستحب أصحاب الشافعي أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم: عظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وغفر لميتك. وفي المسلم بالكافر: عظم الله أجرك وأحسن عزاءك. وفي الكافر بالكافر أخلف الله عليك، ولا نقص لك عدد. روى «أن النبي ﷺ فقد بعض أصحابه فسأل عنه، فقالوا: يا رسول الله، بنيه الذي رأيته هلك، فلقية النبي ﷺ فسأل عن بنيه، فقال: يا رسول الله هلك، فعزاه فيه، ثم قال: يا فلان، أيما كان أحب إليك؟ أن تتمتع به عمرك، أو لا تأتي غدا بابا من أبواب الجنة

(١) قال المنذري: رواه الترمذي وحسنه، وابن جبان في صحيحه.

إلا وجدته وقد سبقك إليه فيفتحه لك؟ فقال: يا رسول الله سبَّه إلى باب الجنة أحب إلي من التمتع به في دار الدنيا . قال : ذلك لك » (١) . وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي - رحمه الله - أن الشافعي قد بلغه أن عبد الرحمن ابن مهدي مات له ابن ، فجزع عليه جزعا شديدا ، فبعث إليه الشافعي - رحمه الله - يقول : يا أخى ، عز نفسك بما تعزى به غيرك ، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك ، واعلم أن أمض المصائب ، فقد سرور وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر؟! ألهمك الله عند المصائب صبرا ، وأجزل لنا ولك بالصبر أجرا . وروى عن ابن المبارك قال : مات لى ابن فمر بى مجوسى ، وقال : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال : اكتبوها منه . وعن معاذ بن جبل أنه قال : « مات لى ابن فكتب إلى رسول الله ﷺ من محمد ﷺ إلى معاذ بن جبل : سلام عليكم فإننى أحمد الله الملك الذى لا إله إلا هو أما بعد : فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك الشكر . ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية ، وعواريه المستودعة ، يمتعنا بها إلى أجل معدود ، ويقبضها لوقت معلوم ، ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى ، والصبر إذا ابتلى ، وكان ابتك من مواهب الله الهنية ، وعواريه المستودعة ، متعك الله به فى غبطة وسرور ، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت ، فاصبر واحتسب ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ، ولا يطرد حزننا » (٢) . وروى أن أبا بكر ﷺ كان إذا عزى مَرَزًا قال : ليس مع العزاء مصيبة ، ولا مع الجزع فائدة ، والموت أشد مما قبله ، وأهون مما بعده ، فاذكر مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك . وعزى الإمام الشافعي ﷺ صديقا له فقال :

إننا نعزيك لا أنا على ثقة
فما المعزى بباق بعد ميتة
من الحياة ، ولكن سنة الدين
ولا المعزى ولو عاشا إلى حين

وكتب بعضهم إلى أخ له يُعزِّيهِ : أنت يا أخى - أعزك الله - عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء ، وأنها لم تعط إلا أخذت ، ولم تسر إلا أحزنت ، وإن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين ، لا دافع عنه ، ولا مؤخر لما قضى الله - عز وجل - منه ، وإن الله وإنا إليه راجعون . وعزى رجل بعض الخلفاء بابن له فكتب إليه يقول :

تعرأ أمير المؤمنين فإنه
هل الابن إلا من سلاله آدم
لما قد ترى يغدو الصغير ويولد
لكل على حوض المنية مورد
وكتب بعضهم إلى صديق له ، وقد ماتت ابنته فقال :
الموت أخفى سواة للبنات
أما رأيت الله سبحانه
ودفنها يُروى من المكرمات
قد وضع النعش بجانب البنات !

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه ، ويسليه : ما تصنع يا أخى ، والقضاء نازل ، والموت حكم شامل ، وإن لم تلذ بالصبر ، فقد اعترضت على مالك الأمر ، وأنت تعلم أن نوائب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر ، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة ، والدمعة الساكنة ، حاجبا من فضلك ، وحاجزا من عقلك ، ودافعا من دينك ، ومانعا من يقينك ، فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر ، كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر ، فصبر صبيرا ، ففحول الرجال لا تستفزه الأيام بخطوبها ، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها ، فعزى على أن أخاطب مولاي معزيا وأكاتيه مسلما ، عن كبير أو صغير ، مما يتعلق بخدمته ، أو ينتمى إلى جملته ، فكيف بالصنو (٣) الأكرم ، والذخر الأعظم ، والركن الأشد ، والسهم الأسد ، والشهاب الأسطع ، والحسام الأقطع ، لكن التعزية سير سائرة ، وسنة ماضية غابرة ، وقدر الله هو المقدر ، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولولا أن الذكرى تنفع ، والتعزية يستوى فيها الأشرف والأوضع ، لأجلت مولاي أن أفاتحه معزيا ، وأخاطبه مسلما ، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم ، والسابق لا يتقدم ، فبمولاي يُقتدى فى الصبر على النوائب ، وينوره يُهتدى فى مشكلات المذاهب ، وكل ما كان من الرزء أوجع ، كان الأجر عليه أوسع ، وجعل الله مولاي من الصابرين على المصيبة ، وأعظم أجره وجعل الجنة نصيبه . وعزى رجل فتى عن أبيه

(٣) الصُّنو: التظهير والمثل.

(٢) أخرجه الحاكم وابن مردويه .

(١) لم أهد إليه .

فلم يجده كما أحب ، فقال : يابئني سوء الخلف أضرب علينا من فقد السلف . ومات لبعض ملوك كندة ابنة فوضع بين يديه بذرة من المال وقال : من بالغ في تعزيتي ، فهي له : فدخل عليه أعرابي وقال : عظم الله أجر الملك ، كفيته المؤنة ، وستر العورة ، ونعم الصهر القبر ، فقال : قد أبلغت وأوجزت ! ثم دفعها له . وعزت أعرابية قوما فقالت : جافي الله عن ميتكم الثرى ، وأعانه على طول البلى ، وأجركم ورحمه ! وكان لعلى بن الحسين جليس مات له ابن ، فجزع عليه جزعا شديدا ، فعزاه على بن الحسين - رحمه الله - ووعظه فقال : يابن رسول الله ، إن ابني كان مسرفا على نفسه ، فقال : لا تجزع فإن من ورائه ثلاث خلال : أولهن شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن سيدنا محمد رسول الله ، والثانية : شفاعة جدى ^(١) ، والثالثة : رحمة الله التي وسعت كل شيء ، فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال ؟! وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة : إن في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة فقال عمر : اذكر الله يا أمير المؤمنين ، وعليك بالصبر ، فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته ، فقال رجاء : أفضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس ، لقد دمت عينا رسول الله ^(٢) على ابنه إبراهيم ، وقال : « إِنَّ الْعَيْنَ لَتَذْمَعُ وَإِنَّ الْقَلْبَ لَيَخْشَعُ ، وَلَا تَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ ، وَإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَخْرُوثُونَ » ^(٣) ، فأرسل سليمان بن عيينة حتى قضى أربه ، ثم أقبل عليهم ، وقال : لولا نزلت هذه العبرة لانصدع كبدي ، ثم إنه لم يلبك بعدها . وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل : إذا وصل إليك كتابي هذا فاجمعي أهل بلدك ، وأعدى لهم طعاما ، ووكلني بالأبواب من يمنع من أصابته مصيبة في أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد ففعلت : فلم يدخل إليها أحد ، فعلمت أن الإسكندر عزها في نفسه . ولما قتل الفضل بن سهل ، دخل المأمون على أمه يعزيها فيه ، فقال لها : يا أماه ، لا تحزني على الفضل ، فأنا خلف منه ، فقالت : كيف لا أحزن على ولد عوضني عنه خليفة مثلك ؟! فعجب المأمون من جوابها ، وكان يقول : ما سمعت قط أحسن منه ، ولا أجلب للقلوب ، فقال لها : عليك بالصبر ، فإن فيه مزيد الأجر . ومن جزع على ولده جعفر بن علي ، لما قتله الحارث قام نساء الحي يبكين عليه ، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقة فذبحه وألقاها بين أيديها ، وقال لها ابكين معي على جعفر ، فما زالت النوق ترغو والشياه تيعر ، والنساء يصرخن ويبكين ، وهو يبكي معهن ، فلم ير ماتم كان أوجع منه ! وقال يحيى بن خالد التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن ، والتهته بعد سنة تجدد الفرح !

(ومما قيل في التأسى والتسلى بالخلف عن السلف) : قيل عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية في والده فقال :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة ^(٤)
لا رزء أصبح في الأيام نعره
وقال الآخر :

لا بُدَّ من فقد ومن فاقد
وقال آخر :

تبصروا أن البكا رة هالكا
وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم في والدهم فقال :

فلو كان فيض الدمع ينفع باكيا
فإن غاب بدر فالنجوم طوالع
يُغاث بها في ظلمة الليل حائر
لعلمت غرب الدمع كيف يسيل
ثوابت لا يقضى لهن أفول
ويُسرى عليها بالرفاق دليل

(ودخل) : عبد الملك بن صالح على الرشيد ، وقد مات له ولد وولد له في تلك الليلة ولد ، فقال : سرى الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرى ، وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر . وقال بعضهم : أليس لهذا صار آخر أمرنا فلا كانت الدنيا القليل سرورها ؟!

(١) سبق تخريجه في نفس هذا الباب . (٢) ويرى « ذامق » . و « جباء الذي » بدلا من « إلهك من » .

فلا تعجبي يا نفسُ مما ترينه فكلُ أمور الناس هذا مصيرها !
وسئل الأصمعي عن قول الخنساء في نعيها صخرًا حين مات ، ونعته فقالت :
يذكرني طلوع الشمس صخرًا وأندبه لكل غروب شمس
فقالوا له : لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب ؟ فقال : لكونه كان يركب عند طلوع الشمس ، يشن الغارات ، وعند غروبها يجلس مع الضيفان فذكرته بهذا مدحًا لأنه كان يُغير على أعدائه ، ويتقيد بضيفه ، وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها :

ألا يا نفسُ لا تنسيه حتى ولولا كثرة الباكين حولى
وما يبكون مثل أخى ولكن وقال آخر :
ولولا الأسى ما عشتُ في الناس ساعة
ولكن إذا ناديتُ جابني مثلى وقال آخر :
وهوّن وجدى عن خليلي أننى وإذا شئتُ لاقيتُ الذى أنا صاحبه
ومما يؤدينى إلى الصبر والعزّا وتردُّ فكري فى عموم المصائب !

الفصل الثالث : فى المراثى

لما توفي رسول الله ﷺ رثاه جماعة من أصحابه ، وآله بمراتب كثيرة ، منها ما روى عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه فإنه كان أقرب الناس إليه ، وهو أول من رثاه فقال :

لما رأيت نبينا متجندلاً (٢)
فارتاع قلبى عند ذاك لموته
أعتيق ويحك إن خلك قد ثوى
يا ليتنى من قبل مهلك صاحبي
فلتحدثن بدائع من بعده
وقال :

فقدت أرضنا هناك نبياً
خلقاً عالياً وديناً كريماً
وسراجاً يجلو الظلام منيراً
حازماً عالماً حليماً كريماً
إن يوماً أتى عليك ليوم
فعليك السلام منا جميعاً

ورثاه صلى الله عليه وسلم أبو سفيان بن الحارث فقال :

أرقتُ فبات ليلى لا يزول
وليل أخى المصيبة فيه طول

(٢) الصواب : مجدلاً . يقال : جدله : أى صرعه .

(١) الرّأس : القبر مستويًا مع وجه الأرض .

(٣) أعتيق : ينادى نفسه فهذا هو اسمه .

وأسمعذني البكاء وذاك فيما
لقد عظمتم مصيبتنا وجلت
وأضححت أرضنا مما عراها
فقدنا الوحي والتنزيل فينا
وذاك أحق ما سالت عليه
نبي كان يجلو الشك عنا
ويهدينا فلا نخشى ملأنا
أفاطم إن جزعت فذاك عذر
فقبر أبيك سيد كل قبر
(ولما) : مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال :

فعليك يا دنيا السلام
فالعيش بعدهم حرام
والطفل يؤلمه القطام
ورثي بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال :

سألت الندي والجود ما لي أراكما
وما بال ركن المجد أمسى مهذما
فقلت : فهلا متما بعد موته
فقالا أقمنا كي نعزي بفقده
وقال آخر :

ولا أرتجى في الموت بعدك طائلا
وفي المعنى لبعضهم :
لقد آمنت نفسي المصائب بعده
فما أتقى للدهر بعدك نكبة
ورثي أشجع السلمي عبد الله بن سعيد فقال :

مضى ابن سعيد حيث لم يبق مشرق
وما كنت أدري ما فواضل كفه
وأصبح في لحد من الأرض مَيِّتًا
سأبكبك ما فاضت دموعي فإن تفض
وما أنا من رزء وإن جل جازع
لئن حسنت فيك المرائي بذكرها
وقال آخر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى
أخلأى لو غير الحمام أصابكم
وقال العباس بن الأحنف :

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا

أصيب المسلمون به قليل
عشية قيل : قد قبض الرسول
تكاد بنا جوانبها تميل
يروح به ويغدو جبرئيل
نفوس الناس أو كادت تسيل
بما يوحي إليه وما يقول
علينا والرسول لنا دليل !
وإن لم تجزعي فذاك السبيل
وفيه سيد الناس الرسول

فعليك يا دنيا السلام
فالعيش بعدهم حرام
والطفل يؤلمه القطام

تبدلتما عزا بذل مؤيد ؟
فقالا : أصبنا بابن يحيى محمد
وقد كختما عبديه في كل مشهد ؟
مسافة يوم ثم نتلوه في غد

ولا أتقى للدهر بعدك من خطب
فأصبحت منها آمنة أن أروعا
ولا أرتجى للعيش بعدك مرتعا !

ولا مغرب إلا له فيه مراح
على الناس حتى غيبته الصفائح
وكان به حيا تضيق الصحاح
فحسبك منى ما تكين الجوانح
ولا بسرور بعد فقدك فارح
فقد حسنت من قبل فيك المدائح

أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب
عتبت ولكن ما على الدهر مغترب

أجاب البكا طوعا ولم يجب الصبر

سابقى عليك الحزن ما بقى الدهر

فإن ينقطع منك الرجاء فإنه

وقال آخر يرثى صديقه :

إليك وما تزداد إلا تنائيا
فديتك مسرورا بنفسى وماليا
فحال قضاء الله دون رجائيا
عليك من الأقدار كان جذاريا

خليلى ما أزداد إلا صبابا
خليلى لو نفس فدت نفس ميت
وقد كنت أرجو أن تعيش وأن أمت
ألا فليمت من شاء بعدك إنما

أخذها بعضهم فقال :

يبكى عليك الناظر
فعلبك كنت أحاذر

كنت السواد لمقلتى
من شاء بعدك فليمت

وقال آخر يرثى بعض أولاده :

فلما تقضى شطره عاد فى شطرى
سبقتك إذ كنا إلى غاية نجرى
فأصبحت لا يخشون نابى ولا ظفرى

وقاسمنى دهرى بنى مشاطرا
ألا ليت أمى لم تلدنى وليتنى
وقد كنت ذا نابٍ وظفر على العدا

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخنساء : أخبريني بأفضل بيت قلته فى أخيك ، فقالت :

فأنت على من مات بعدك شاغله
يُدمون للأسف الأكف عضاضا
من حزنها لبست عليه بياضا

وكنت أعيرُ الدمع قبلك من بكى
لأبى المحاسن الشواء فى صديق له مات ، وسقط الثلج عقيب موته :

ولكنه أصلاب قوم تقصفوا
ولكنه ذاك الثناء المخلف

لم أنسه وبنو الملوكة أمامه
والثلج قد غطى الربا فكأنها

وقال آخر :

ولكنه أصلاب قوم تقصفوا
ولكنه ذاك الثناء المخلف

وليس صرير النعش ما تسمعونه
وليس نسيم المسك ريثا حنوطه

وقال مقاتل بن عطية يرثى الوزير نظام الملك :

يتيمة صاغها الرحمن من شرف
فردها عند ما عزت إلى الصدف

كان الوزير نظام الملك لأولوة
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها

وقال آخر :

بأبى وأمى وجهك المقبور
والقبر منك مشيد معمور
فى كل بيت رنة وزفير
فى جوفها جبل أشم كبير

وقبرت وجهك وانصرفت مودعا
وأرى ديارك بعد وجهك قفرة^(١)
فالناس كلهم لفقدك واجد
عجبا لأربع أذرع فى خمسة

وكان رجل توفى ولده فى يوم عيد فقال :

ولبست حزن أبى الحسين جديدا
فيه ألا بُعدا لذلك عيدا
لا كان ذاك بقا ولا تخليدا

لبس الرجال جديدهم فى عيدهم
أيسرنى عيد ولم أر وجهه
فارقته وبقيت أخلد بعده

(١) القفرة: الفقر من الأرض، وهو الخلاء من الأرض لا ماء فيه ولا ناس ولا كلاً، ودار قفر، أي خالية.

فهو الخئون مودة وعهودا
من بعده ذا لوعة مكمودا^(١)
حذرا عليه وجفنها تسهيدا
فيبيت مكلوئا بها مرصودا
لأبى الحسين وقد لطمن خدودا
لما رأيت جمالك المفقودا
وعلى فراقك لم أجد تجليدا
أجلا وإن لم أحصه معدودا
فهناك لا أتجاوز المحدودا
يوما على هذا وذاك مزيدا
أصبحت بعدك بالأسى مهدودا
وكذاك أنك لم تكن مولودا
بفراق من يهوى وكان سعيذا
فعليك جفني لم يزل محمودا
تنسى الأنام كُثيرا ولبيدا
ولدا له أو صاحبا مفقودا

لأعلم ما لاقى فقالت جوانبه
بإحسانه إخوانه وأقاربه
وقال الإمام السبكي - رحمه الله تعالى - يرثي فضل الله العالم :

لذي الألباب إذ فقد الشهابُ
كنوزاً نحوها يسعى الركابُ
فكم علم له ضمّ الترابُ
ثناها وهي عاصية صعبُ
شهابُ الدين ما فيه ارتيابُ
له من كل رضوان رُضابُ^(٢)

الله يوليك عُفرانا وإحسانا
في كل يوم أذوق الموت ألوانا

أسفا عليك وفي الفؤاد كلوم
إلا عليك فإنه مذموم

من لم يمت جزعا لفقد حبيبه
مِثْ مَغْ حبيبك إن قدرت ولا تعيش
ما أُمْ خُشِفَ قد ملا أحشاءها
إن نام لم تهجع ، وطافت حوله
مِنَى بأوجعٍ إذ رأيت نوائحا
ولقد عدمتُ أبا الحسين جِلادتي
كنت الجليدَ على الرِّزَايا كلها
ولئن بقيت وما هلكت فإن لي
لا موت لي إلا إذا الأجلُ انقضى
حزني عليك بقدر حبك لا أرى
ما هُذِرَكني بالسنين وإنما
يأليت أني لم أكن لك والدا
فلقد شقيت وربما شقى الفتى
من ذم جفنا باخلا بدموعه
فلأنظمن مرثيا مشهورة
وجميع من نظم القريض^(٣) مفارق

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصري :

سألت رسوم القبر عمن ثوى به
أتسأل عمن عاش بعد وفاته

وقال الإمام السبكي - رحمه الله تعالى - يرثي فضل الله العالم :

مصائب ليس يشبهه مُصابُ
إمامٍ قد حوى من كل علم
ليبكي كل ذي علم عليه
وكم كلم موانع قد أتته
فسلطان البلاغ بغير شك
سقى الله الكريم سراه صوباً

وقال الصديقي :

يا غائباً في الثرى تبلى محاسنه
إن كنت جُرغَتْ كأس الموت واحدة

وقال محمد بن عبد الله العتبي يرثي ابنا له :

أضحّت بخذي للدموع رسوم
والصبرُ يحمّدُ في المواطن كلها

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثي بنتا له فقال :

(٢) الفريض: الشُّغْر.

(١) مكمودا: كمد الرجل: حزن حزناً شديداً، أو كتم حزنه.

(٣) الرُّضاب: الرُّيق، والبَرْد، وفُتات المسك، ويقال: ماء رُضاب، أي غُذِب.

وتخطت عبد الحميد أخاكا
فقدنا هذه ورؤية ذاك !

فطوبى لمن كفاه منها تفرغا
بأيام دهر ما رعى حق يلبغا

من الناس قد أفنى الحمام خيارها
ما على النعش من عفاف وجود

وقضت بصحة ذلك الأيام
أسفا عليك وشقت الأقلام

سقتك الغواصي مزيغا ثم مربعا
من الأرض خطت للسماحة مضجعا
وقد كان منه البر والبحر مترعا
ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
أناس لهم بالبر قد كان أوسعا
وأصبح عرنيين المكارم أجدها

وقد كنت أبكيه دما وهو غائب

ولكن دعاني اليأس منك إلى الصبر

على رزتهن الباقيات الحواسر
من الموت أعياء وزدهن المصادر
بدار المنايا والقنا متشاجر
لهدت ولكن محمل الرزء عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسين ، وحمل رأسه ، إلى المنصور ، وأنفذها المنصور مع الربيع إلى عميه إدريس ومحمد ، وكانا في حبسه ، وكان أبوه قائما يصلى ، فقال له محمد ، أوجز فأوجز ، وسلم ، فلما أتاه ، وضع الرأس في حجره ، فقال : أهلا وسهلا يا أبا القاسم ، تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى في حقهم : ﴿ الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِمَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ أَلِيمَتَهُ ﴾ [الرعد: ٢٠] ، ثم قبله بين عينيه وأنشد يقول :

فتى كان يحميه من العار سيفه ويكفيه سوات الأمور اجتنابها

ثم قال للربيع : قل لصاحبك المنصور : قد مضى من بؤسنا أيام ، ومن نعمتك أيام ، والملتقى غدا بين يدي الله تعالى : فكان ذلك فالأعلى المنصور ، ولم ير بعد ذلك اليوم راحة ، وقيل لحسان ما بالك لم ترث رسول الله ﷺ ؟

عجبا للمنون كيف أنتها
شملتنا مصيبتان جميعا
وله يرثي الأمير يلغا :

ألا إنما الدنيا غرور وباطل
وما عجبي إلا لمن بات واثقا
وقال آخر :

إلى الله أشكو من قبيلة
وقال رجل يرثي صديقا له توفى وكان من الكرماء :
ما درى نعيشة ولا حاملوه
ولبعض الكتاب في ابن مقلة :

استشعر الكتابُ فقدك سالفا
فلذلك سؤدت الدواة كآبة
وقال الحسن بن مطير الأسدي يرثي معن بن زائدة رحمه الله تعالى :

هلما إلى معن وقولا لقبيره
فياقبر معن كنت أول حفرة
وياقبر معن كيف وارىت جوده
بلى قد وسعت الجود والجود ميت
فتى عاش في معروفه بعد موته
ولما مضى معن مضى الجود كله
وقال آخر :

عجبت لصبري بعده وهو ميت
وقال آخر :

فديتك لم أصبر ولى فيك حيلة
وقالت ربيعة بنت عاصم :

وقفت فأبكتني ديار عشيرتي
غدوا كسيوف الهند وزاد حومة
فوارس حاموا عن حريمي وحافظوا
ولو أن سلمى نالها مثل رزئنا

قال : لم أر شيئاً إلا رأيته يقصر عنه ! والله أعلم بالصواب . وإليه المرجع والمآب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الثالث والثمانون

في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ دُنِيَ الْقَلِيلُ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء: ٧٧] ، فوصف سبحانه تعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل ، وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلاً ، ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ [الحديد: ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ، فلا تبغ أيها العاقل حياة قليلة ، تفنى ، بحياة كثيرة تبقى ، كما قال ابن عياض : لو كانت الدنيا ذهباً يفنى ، والآخرة خزفاً يبقى لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفنى ! ثم تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما أوتى سليمان عليه السلام حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا . من إنس وجن ، وسخر له الريح والطير والوحوش ، ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩] ، فوالله ما عدها نعمة مثل ما عدتموها ، ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم ، فقال : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠] ، وهذا فصل الخطاب لمن تدبر هذا ، وقد قال لك ولجميع أهل الدنيا : ﴿ قُورَيْبُكَ لَسْتَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الحجر: ٩٢-٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ يَتَقَالَّ جَبَّوْنًا مِنْ حَرْدَلٍ أَلَيْسَ بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبَةً ﴾ [الأنبياء: ٤٧] ، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرَنُّنٌ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحُ بُعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »^(١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلَا أُرِيكَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا ؟ قُلْتُ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَخَذَ بِيَدِي وَأَتَى إِلَى وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْمَدِينَةِ ، فَإِذَا مَزْبَلَةٌ فِيهَا رِءُوسُ النَّاسِ ، وَعِذْرَاتٌ وَخُرْقٌ بَالِيَةٌ ، وَعِظَامُ الْبِهَائِمِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، هَذِهِ الرِّءُوسُ كَانَتْ تَحْرُسُ حُرُصَكُمْ ، وَتَأْمَلُ آمَالَكُمْ ، وَهِيَ الْيَوْمَ صَارَتْ عِظَامًا بِلَا جِلْدٍ ، ثُمَّ هِيَ صَائِرَةٌ عِظَامًا رَمِيمًا ، وَهَذِهِ الْعِذْرَاتُ أَلْوَانُ أَطْعَمْتَهُمْ اِكْتَسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ اِكْتَسَبُوهَا فِي الدُّنْيَا ، فَاصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامَوْنَهَا ، وَهَذِهِ الْخُرْقُ الْبَالِيَةُ رِيَاشُهُمْ أَصْبَحَتْ وَالرِّيَاحُ تَصْفَقُهَا ، وَهَذِهِ الْعِظَامُ عِظَامُ دَوَابِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَتَجَمَعُونَ عَلَيْهَا أَطْرَافَ الْبِلَادِ ، فَمَنْ كَانَ بَاكِيًا عَلَى الدُّنْيَا فَلْيَبْكْ قَالَ : فَمَا بَرَحْنَا حَتَّى اِشْتَدَّ بِكَأُونَا »^(٢) . وروى « أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ وهو على سرير من الليف وقد أثر الشريط في جنبه ، فبكى عمر رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : تَذَكَّرْتُ كَسْرِي وَقِصْرِي ، وَمَا كَانَا فِيهِ مِنْ سَعَةِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَقَدْ أَثَرُ الشَّرِيطَ بِجَنْبِكَ فَقَالَ ﷺ : « هَؤُلَاءِ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طَبِيبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا ، وَنَحْنُ قَوْمٌ أَخَّرَتْ لَنَا طَبِيبَاتُنَا فِي الْآخِرَةِ »^(٣) ، وروى عن الضحَّاك قال : لَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ وَحَوَّاءَ إِلَى الْأَرْضِ ، وَوَجَدَا رِيحَ الدُّنْيَا ، وَفَقَدَا رِيحَ الْجَنَّةِ ، غَشِيَ عَلَيْهِمَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ نَتْنِ الدُّنْيَا^(٤) ! وعن ابن معاذ قال : الْحِكْمَةُ تَهْوِي مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْقُلُوبِ ، فَلَا تَسْكُنُ فِي قَلْبٍ فِيهِ أَرْبَعُ خِصَالٍ : رُكُونٌ إِلَى الدُّنْيَا ، وَهَمٌّ عَدُوٌّ ، وَحَسَدٌ أَخٌ ، وَحُبٌّ شَرَفٌ . وعن النبي ﷺ أنه قال لعلي : يَا عَلِيُّ أَرْبَعُ خِصَالٍ مِنَ الشَّقَاءِ : جُمُودُ الْعَيْنِ ، وَقَسْوَةُ الْقَلْبِ ، وَبَعْدُ الْأَمَلِ ، وَحُبُّ الدُّنْيَا »^(٥) . وروى ابن عباس رضي الله عنهما

(١) ذكره العجلوني وعزاه إلى أبي نعيم عن ابن عباس بلفظ « لو وزنت الدنيا عند الله » . . إلخ . ورواه الترمذي والطبراني وأبو نعيم عن سهل بن سعد يرفعه وقال الترمذي صحيح غريب .

(٢) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء . هذا الحديث لم أجد له أصلاً .

(٣) حسن : أخرجه أحمد [٣٠١/١] ، وابن ماجه [٤١٥٣] ، والحاكم [١٠٤/٤] .

(٤) (٥) لم أعتد إليه .

أنه قال : يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء ، زرقاء ، العينين ، أنيابها بادية ، مشوهة الخلق ، لا يراها أحد إلا هرب منها ، فتشرف على الخلائق أجمعين ، فيقال لهم : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : لا . نعوذ بالله من معرفة هذه : فيقال : هذه الدنيا التي تفاخرتم بها ، وتقاتلتم عليها^(١) وعن الفضيل بن عياض أنه قال : جعل الخير كله في بيت واحد ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا ، وجعل الشر كله في بيت واحد وجعل مفتاحه حب الدنيا . وقيل : إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فر ، وإن تركته تبعك . وفيه قال بعضهم :

يُشبه الظل الذي يمشى معك
وهو إن وليت عنه تبعك

إنما الرزق الذي تطلبه
أنت لا تدركه متبعاً

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال :

لمن كان في علم الحقائق راقى
لبعض وأشكالا بغير وفاق
وتفنى جميعاً والمحرك باقى

رأيت خيال الظل أعظم عبرة
شخصاً وأصواتاً يخالف بعضها
تجىء وتمضى بآلة بعد بآلة
وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك :

بنعمة أوفى من العافية
فإنه في عيشة راضيه
على الفتى لكنه عاريه
مع خشنها غدارة فانيه

ما أنعم الله على عبده
وكل من عوفى في جسمه
والمال حلو حسن جيد
ما أحسن الدنيا ولكنها
وتوفى رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات :

أن الحمام بكم علينا قادم
أن المفرط في التزود نادم
تبنون والموت المفترق هادم
حيث المخدم واحد والخادم

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا
لو تنزلون بشغبنا لعرفتمو
لا تستعزوا بالحياة فإنكم
ساوى الردى ما بيننا في حفرة
وقال آخر :

وتقول الرفاق : هذا فلان
وجفاه الأصحاب والخلان

عن قليل أصير كوم تراب
صار تحت التراب عظماً رميماً
وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر :

فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فكل أمور الناس هذا مصيرها

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا
فلا تعجبي يا نفس مما ترينه
وقال شرف الدين بن أسد :

حملت نفسك آثاماً وأوزاراً
إلا كطيف خيال في الكرى زاراً

يا من تملك ملكاً لا بقاء له
هل الحياة بذى الدنيا وإن عذبت
وقال بعضهم :

ويعقبها الأحزان والهم والندم
ورحمة رب الناس والجود والكرم

وغاية هذى الدار لذة ساعة
وهاتيك دار الأمن والعز والثقى

وقال غيره :

حسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
وسالمتك الليالي فاعتررت بها

وقال آخر :

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

ابن آدم ، أين الأولون والآخرون ؟! أين نوح شيخ المرسلين ؟! أين إدريس رفيع رب العالمين ؟! أين إبراهيم خليل الرحمن ؟! أين موسى الكليم من بين سائر النبيين ؟! أين عيسى روح الله وكلمته رأس الزاهدين ، وإمام السائحين ؟! أين محمد خاتم النبيين ؟! أين أصحابه الأبرار ؟! أين الأمم الماضية ؟! أين الملوك السالفة ؟! أين القرون الخالية ؟! أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان ؟! أين الذين قهروا الأبطال والشجعان ؟! أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب ؟! أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب ؟! أين الذين تاهوا على الخلائق كبرا وعتيا ؟! أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشيا ؟! أين الذين اغتروا بالأجناد ؟! أين أصحاب الوزراء والقواد ؟! أين أصحاب السطوة والأعوان ؟! أين أصحاب الإمرة والسلطان ؟! أين أصحاب الأعمال والولايات ؟! أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات ؟! أين الذين قادوا الجيوش والعساكر ؟! أين الذين عمروا القصور والديساكر ^(١) ؟! أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف ؟! أين الذين أمنوا بسطوتهم كل خائف ؟! أين الذين ملثوا ما بين الخافقين ^(٢) فخرا وعزا ؟! أين الذين فرشوا القصور حريرا وقزا ؟! أين الذين تضعضعت لهم الأرض هبة وعزا ؟! هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟! أفناهم الله مفنى الأمم ، وأبادهم مبيد الرمم ! وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور ، تحت الجنادل والصخور ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، لم ينفعهم ما جمعوا ، ولا أغنى عنهم ما اكتسبوا ، أسلمهم الأحياء والأولياء ، وهجرهم الإخوان والأصفاء ونسيهم الأقرباء والبعداء ، لو نطقوا لأنشدوا :

مقيم بالحجون رهين رمس
كأنى لم أكن لهمو حبيباً
فموجوا بالسلام فإن أبيتم
وأهلى راحلون بكل واد
ولا كانوا الأحبة فى السواد
فأوموا بالسلام على البعاد

وقالوا : لافخر فيما يزول ، ولا غنى فيما لا يبقى ، وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين ، قدر يغلى ، وكيف يُملى ؟! وفى هذا المعنى قال الشاعر :

ولقد سألت الدار عن أخبارهم
حتى مررت على الكنيف فقال لى :
فتبسمت عجباً ولم تبدى !
أموالهم ونوالهم عندي !

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال للرشد : لما قال له عظمى ، وكان بيده شربة ماء ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم . قال : يا أمير المؤمنين ، لو شربتها ، وحبست عن الخروج ، أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم . فقال له : لا خير فى ملك لا يساوى شربة ولا بولة !! وقال ابن شبرمة : إذا كان البدن سقيماً ، لم ينفعه الطعام ، وإذا كان القلب مغرماً لم تنفعه الموعظة له . وروى أن أبا العتاهية مرَّ بذكران وراق ، وإذا بكتاب فيه :

لا ترجع الأنفس عن غيِّها

فقال : لمن هذا البيت ؟ فقيل : لأبى نواس ، وقاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال وعشق الملاح ، فقال : وددت أنه لى بنصف شعري ! (ومن) : استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا ، وتقضيها ، وزوالها إبراهيم بن أدهم بن منصور كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ ، لما زهد الدنيا زهد فى ثمانين سريراً ،

(١) الدساكر : جمع دسكرة ، وهي الأرض المستوية ، وبناء كالقصر حول بيوت للأعاجم فيها الشراب والملاهي يكون للملوك ، والقرية العظيمة .

(٢) الخافقان : المشرق والمغرب .

قال ابن بشار : سألت إبراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك ؛ حتى صرت إلى هذا ؟ فقال : كان أبى من ملوك خُراسان ، وكان قد حُبب إلى الصيد ، فبينما أنا راكب فرسى وكلبى معى ، إذ رأيت ثعلباً أو أرنباً ، فحركت ، فرسى نحوه فسمعت نداء من ورائى : يا إبراهيم ، ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت ! فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر شيئاً ، فقلت : لعن الله الشيطان ، ثم حركت فرسى ، فسمعت نداء أعلى من الأول ، يا إبراهيم ما لهذا خلقت ! ولا بهذا أمرت ! فوقفت أنظر يمنة ، ويسرة فلم أر شيئاً ؛ فقلت : لعن الله الشيطان ، ثم حركت فرسى ، فسمعت النداء من قريوس سرجى ، يا إبراهيم ، ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمرت ! فوقفت وقلت : هيهات جاءنى النذير من رب العالمين ، والله لا عَصِيْتُ رَبِّى ما عصمنى ، بعد يومى هذا ، فتوجهت إلى أهلى ، وخلفت فرسى وجئت إلى بعض رُعاة أبى فأخذتُ جَبَّتَهُ ، وكِسَاءَهُ ، وألقيت إليه ثيابى ، فلم أزل أرض تُقَلِّنى ، وأرض تضعنى حتى صرْتُ إلى العراق ، فعملت بها أياماً ، فلم يصف لى شىء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فقال : عليك بالشام ، قال : فانصرفت إلى بلد يقال لها : المنصورية ، فعملت بها أياماً ، فلم يصف لى شىء من الحلال ، فسألت بعض المشايخ ، فقال : إن أردت الحلال ، فعليك بطرسوس فإن المباحات بها ، والعمل فيها كثير ، فانصرفت إليها قال : فبينما أنا قاعد على باب البحر إذ جاءنى رجل ، فاكرتاني أنظر له بستاناً ، فتوجهت معه فأقمت فى البستان أياماً ، كثيرة ، فإذا خادم له قد أقبل ، ومعه أصحاب له ، ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرت ، فقعدي فى مجلسه ، ثم قال : ياناطورنا^(١) فأجبت ، قال : اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه ، وأطيه فأتيته برمان ، فكسر الخادم واحدة ، فوجدها حامضة ، فقال : يا ناطورنا أنت منذ كذا وكذا فى بستاننا تأكل من فاكهتنا ، وورماننا ، ولا تعرف الحلوى من الحامض فقلت : والله ما أكلت من فاكهتك شيئاً ولا أعرف الحلوى من الحامض ، قال : فغمز الخادم أصحابه ، وقال : ألا تعجبون من هذا ؟! ثم قال لى : لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة . قال : ثم تحدث الناس بذلك ، وجاءوا إلى البستان ، فلما رأيت كثرة الناس ، اختفيت ، والناس داخلون ، وأنا هارب منهم . وكان يأكل من كسب يده ، وكان يحصد ، ويحفظ البساتين ، ويعمل فى الطين ، فبينما هو يوماً يحرس كرماً إذ مر به جندي ، فقال : أعطنا من هذا العنب ، فقال له : إن صاحبه لم يأذن لى ، فضربه بالسوط ، فطأ رأسه ، وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله يا سيدى الجندى ، فاستحى الرجل وتركه ومضى ! وروى أن داود عليه السلام بينما هو يسيح فى الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة ، من بنى آدم ، مُلْقَى على ظهره ، وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه : أنا دوسيم الملك ، تملك ألف عام ، وفتحت ألف مدينة ، وهزمت ألف جيش ، وافترضت ألف بكر من بنات الملوك ، ثم صرت إلى ما ترى ، التراب فراشى ، والحجر وسادى ، فمن رأتى فلا تغره الدنيا كما غرتنى ، وقال وهب بن منبه : خرج عيسى عليه السلام ذات يوم مع أصحابه ، فلما ارتفع النهار ، مروا بزرع قد أفرك ، فقالوا : يا نبي الله ، إنا جياع ، فأوحى الله تعالى إليه ، أن ائذن لهم فى قوتهم ، فأذن لهم ، فتفرقوا فى الزرع يفركون^(٢) ، ويأكلون ، فبينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول : زرعى وأرضى ، ورثتها من أبى وجدى ، فيأذن من تأكلون يا هؤلاء ؟ قال فدعا عيسى ربه ، أن يبعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة ، فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة ، يقولون : أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا ، ففر الرجل منهم ، وكان قد بلغه أمر عيسى ، ولكن لا يعرفه ، فلما عرفه قال : معذرة إليك يا نبي الله ، إنى لم أعرفك ، زرعى ومالى حلال لك ، فبكى عيسى عليه السلام وقال : ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ، ثم ارتحلوا عنها ، وأنت مرتحل عنها ، ولاحق بهم ، ليس لك أرض ولا مال ، ولما مات إسكندر قال أرسطاطاليس : أيها الملك لقد حركتنا بسكونك ، وقال بعض الحكماء من أصحابه : لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أعظم منه أمس ، أخذه أبو العتاهية فقال :

كفى حزننا بدفنك ثم إنى نفضت تراب قبرك من يدَيَّ
وكانت فى حياتك لى عظام وأنت اليوم أوعظ منك حياً

(١) الناطور : الناطر ، وهو حافظ الكرم (العنب) ونحوه .

(٢) فَرَكَ الشَّيْءُ : حَكَّهُ ، يقال : فَرَكَ الحَمْصُ : حَكَّهُ ليزيل ما عليه من الشقر .

وقال عبد الله بن المعتز :

نسير إلى الآجال في كل ساعة فأيامنا تُطوى وهنّ مراحل
ولم أر مثل الموت حتى كأنه إذا ما تخطته الأمانى باطل
وما أقبح التفريط في زمن الصبا فكيف به والشيب في الرأس شاعل ؟
ترحل من الدنيا بيزاد من التقى فعمرك أيام تعدّ قلائل

(وقال) : عبد الله بن المعلم : خرجنا من المدينة حجاجا فإذا أنا برجل من بني هاشم من بني العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا وأقبل على الآخرة ، فجمعتني وإياه الطريق ، فأنست به ، وقلت له : هل لك أن تعادلني ؟ ! فإن معي فضلا من راحلتى ، فجزاني خيرا ، وقال : لو أردت هذا لكان سهلا ، ثم أنس إليّ فجعل يحدثني ، فقال : أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة وكنت ذا كبر شديد ونعمة طائلة ومال كثير وبذخ زائد ، فأمرت يوما خادما لي أن يحشو لي فراشا من حرير ، ومخدة بوردي نثير ، ففعل فإني لنائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم ، فقممت إليه فأوجعته ضربا ، ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة ، فهزني ، وقال : أفق من غشيتك ، وانتبه من رقدتك ، ثم أنشأ يقول :

يا خلل إنك إن توسد ليننا وسدت بعد اليوم صمّ الجنادل
فأمهّد لنفسيك صالحاً تسعد به فلتندم غدا إذا لم تفعل
فانتبهت مرعوبا وخرجت من ساعتى هاربا إلى ربي ، كما تراني ثم أنشأ يقول :

من كان يعلم أن الموت يُدركه والقبر مَسْكَنُه والبعث يُخرجه
وأنه بين جنات مُزخرفة يوم القيامة أو نارٍ ستنضجه
فكل شيء سوى التقوى به سمج ومن أقام عليه منه أسمعجه
تري الذي اتخذ الدنيا له وطنا لم يدر أن المنيا سوف تزعجه

قال وهب بن منبه : وجدت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذى يزن بأرض صنعاء اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوبا بالقلم المسندي ، فترجم بالعربي فإذا هي أبيات جلييلة وموعظة عظيمة جميلة : وهي هذه الأبيات :

باتوا على قُلل الأجيال تحرّشهم غلب الرجال فلم تنفعهم القُلل
واستنزلوا من أعالي عزّ معقلهم فأسكنوا حُفرةً يا بئس ما نزلوا
ناداهموا صارخ من بعد ما دُفنوا أين الأسرة والتيجان والحُلل
أين الوجوه التي كانت محجّبة وكان من دونها الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

وروي أن عيسى عليه السلام كان معه صاحب في بعض سياحاته ، فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية ، فقال عيسى عليه السلام لصاحبه : انطلق فاطلب لنا طعاما من هذه القرية ، وأعطاه ما يشتري به ، فذهب الرجل ، وقام عيسى عليه السلام يصلي فجاء الرجل بثلاثة أرغفة ، ففقد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة ، فأبطأ عليه ، فأكل رغيفا ، وكان عيسى عليه السلام رآه حين جاء ، ورأى الأرغفة ثلاثة فلما انصرف من صلاته ، لم يجد إلا رغيفين فقال له أين الرغيف الثالث ؟ فقال الرجل : ما كانا إلا رغيفين ، فأكلاهما ، ثم مرا على وجوههما ، حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه السلام واحدا منها فجاءه ، فذكاه ، وأكلا منه ، فقال له عيسى : بالذي أراك هذه الآية ، من أكل الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا اثنين ، ثم مرا على وجوههما حتى جاء قرية فدعا عيسى ربه أن يُنطق له من يخبره عن حال هذه القرية ، فأنطق الله له لَبَنَةً فسألها عيسى : فأخبرته بكل ما أراد ، وصاحبه يتعجب مما رأى ، فقال له عيسى : بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كان إلا اثنين ، فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج ، فأخذ عيسى صلوات الله عليه بيد الرجل ، ومشى به على الماء حتى جاوز النهر ، فقال الرجل : سبحان الله : فقال عيسى عليه السلام : بالذي أراك

هذه الآية مَنْ صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : ما كانا إلا اثنين ، فمرا على وجوههما ، حتى أتيا قرية ، عظيمة خربة ، وإذا قريب منها ثلاثة لبنات عظام ، وقيل : ثلاثة أكوام من الرمل ، فقال لها : كوني ذهبا بإذن الله فكانت ، فلما رآها الرجل قال : هذا مال ، فقال عيسى : نعم واحدة لى ، واحدة لك ، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ، فقال الرجل : أنا صاحب الرغيف الثالث ! فقال : هي لك كلها ، ثم فارقه عيسى ، وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه ، فمر ثلاثة نفر ، فقتلوه ، فقال : اثنان منهما للثالث : انطلق إلى القرية ، فأتنا بطعام فانطلق ، فلما غاب قال أحدهما للآخر : إذا جاء قتلناه ، واقتسمنا المال بيننا ، فقال الآخر : نعم ، وأما الذى ذهب ليشتري الطعام فإنه أضمر لصاحبيه السوء وقال : أجعل لهما فى الطعام سما ، فإذا أكلاه ماتا ، وأخذ المال لنفسى فوضع السم ، فى الطعام ، وجاء فقاما إليه فقتلاه وأكلا الطعام فماتا ، فمر بهم عيسى عليه السلام وهم مصرعون حولها ، فقال : هكذا الدنيا تفعل بأهلها ! وقال الهيثم بن عدى : وجد غار فى جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مُسَجَّى على سرير من الذهب ، وعند رأسه لوح من الذهب أيضا مكتوب فيه بالرومية أنا سبأ بن نُوَاس ، خدمت عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب ، الأكبر ، وعشت بعده دهرا طويلا ، ورأيت عجبا كثيرا ، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت ، وهو يرى مصارع آبائه ، ويقف على قبور أحبائه ، ويعلم أنه صائر إليهم ، ثم لا يتوب ، وقد علمت أن الأجلاف الجُفافة يستنزلوننى عن سريرى ، ويتولونه ، وذلك حين يتغير الزمان ، ويكثر الهذيان ، ويترأس الصبيان ، فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلا ، ومات ذليلا . وعن عمرو بن ميمون أنه قال : افتتحنا مدينة بفارس ، فدلُّنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب ، عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه : أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشا ، وأقساهم قلبا ، وأطولهم أملا ، وأحرصهم على الدنيا ، قد ملكت البلاد ، وقتلت الملوك ، وهزمت الجيوش ، وأذللت الجبابرة ، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلى ، ولم أستطع أن أفندى به من الموت إذ نزل بى . ويروى فى الإسرائيليات : أن عيسى عليه السلام بينا هو فى سياحته إذ مر بجمجمة نخرة ، فسأل الله فى أن تتكلم ، فأنطقها الله له ، فقالت : يا نبي الله أنا بلوان بن حفص ، ملك اليمن ، عشت ألف سنة ، ورزقت ألف ولد ، واقتضضت ألف بكر ، وهزمت ألف جيش ، وفتحت ألف مدينة ، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم ، فمن سمع قصتى فلا يغتر بالدنيا ، فبكى عيسى عليه السلام بكاء شديدا حتى غشى عليه ! ووجد مكتوبا على قصر قد خربت أركانه ، وبادت أهله ، وأظلمت نواحيه هذه الآيات :

يُوفُونَ بِالْعَهْدِ مُذْ بِالْعَهْدِ كَانُوا وَبِالْذِّمِّ
تَرْتُمُ الْمَجْدَ بَيْنَ الْجُودِ وَالْكَرَمِ

هَذِي مَنَازِلُ أَقْوَامٍ عَهْدَتْهُمْ
تَبْكِي عَلَيْهِمْ دِيَارُ كَانَ يُطْرِبُهَا

وقيل فى المعنى :

قد كان أعمر باللذات والطرب
وصاح من بعده بالويل والحرب

بالله ربك كم قصر مررت به
نادى غرابُ المنايا فى جوانبه

وفيه :

أَيْهَا الرَافِعُ الْبِنَاءُ رُوِنْدَا لَا يَرُدُّ الْمَنُونُ عَنْكَ الْبِنَاءُ

(وحكى) : أن رجلين تنازعا فى أرض ، فأنطق الله تعالى لبنَةً من جدار تلك الأرض : فقالت : إني كنت ملكا من الملوك ، ملكت الدنيا ألف سنة ، ثم صرت ريميا ألف سنة ، ثم أخذنى خزاف ، وعملنى إناء فاستعملت ألف سنة ، حتى تكسرت وصرت ترابا ، فأخذنى طَوَّاب وعملنى لَبَنًا ، وأنا فى هذا الجدار كذا وكذا سنة فلم تتنازعا فى هذه الأرض ، وأنتم زائلون ؟ وإلى غيرها منقلبون ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وروى أن ملكا بنى قصرا وقال : انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه ، فقال رجل : أرى فيه عيبين فقالوا له : وما هما ؟ قال : يموت الملك ، ويخرب القصر قال : صدقت ، ثم أقبل على الله وترك القصر ، والدنيا ؟ وقيل سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه فى الدنيا : مع طول سياحته وقطعه للقفار والفلوات ، فقال : أعجب شيء رأيته أنهى مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها فسألت بعض أهلها : متى بنيت هذه المدينة ؟ فقالوا : سبحانه الله ! لم يذكر أبائنا ولا أجدادنا متى بنيت ؟ وما زالت كذلك من عهد الطوفان ، ثم غبت عنها خمسمائة سنة ، ومررت بها فإذا هى خاوية على عروشها ، ولم أر أحدا أسأله ، وإذا رعاة غنم فدنوت منهم ،

فقلت: أين المدينة التي هاهنا؟ فقالوا: سبحان الله! لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان هاهنا مدينة، ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها، وإذا موضع تلك المدينة بحر، وإذا غواصون يُخرجون منه شبه الحلية فقلت للغواصين: منذ كم هذا البحر هاهنا؟ فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان؟ فغبت خمسمائة سنة، وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه، وإذا مكانه غِيضة، وصيادون يصيدون فيها السمك في زوارق ضغار، فقلت لبعضهم: أين البحر الذي كان هاهنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان هاهنا بحر فغبت خمسمائة عام، ثم جئت إلى ذلك فإذا هو مدينة على الحالة الأولى، والحصون والقصور، والأسواق قائمة فقلت: لبعضهم أين الغيضة التي كانت هاهنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا: سبحان الله! لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان، فغبت عنها نحو خمسمائة سنة، ثم أتيت إليها فإذا عاليها سافلها وهي تدخن بدخان شديد، فلم أر أحدا أسأله، ثم أتيت راعيا فسألته أين المدينة؟ قال: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي! فسبحان ميد العباد، ومفنى البلاد، ووارث الأرض ومن عليها، وباعث من خلق منها بعد رده إليها (ولبعضهم):

تبكى الأحبة حسرة وتشوقا
عن حالها مترخما أو مشفقا
فارقت من تهوى وعز الملتقى

قف بالديار فهذه آثارهم
كم قد وقفت بها أسائل أهلها
فأجابني داعي الهوى في رسمها
ولبعضهم:

كان عيننا ثم أضحى أثرا
خبرن عنهم سقيت المطرا
رَحَلُوا واستودعوني عبرا

أيها الربيع الذي قد دثرا
أين سكانك ماذا فعلوا
فلقد نادى منادى دارهم

وقال عيسى عليه السلام أوحى الله إلى الدنيا مَنْ خَدَمَنِي فَاخْدُمْنِي، ومن خدَمَك فاستخدميه، يادنيا مرى على أوليائي، ولا تحلى لهم ففتيتهم. وقال بعض الحكماء: الدنيا كالماء المالح، كلما ازداد صاحبها شربا ازداد عطشا، أو كالكأس من عسل وفي أسفله سم، فلذائق منه حلاوة عاجلة، وفي أسفله الموت، أو كحلم النائم يفرح في منامه، فإذا استيقظ زال فرحه، أو كالبرق يضيء قليلا ثم يذهب. ولما بنى المأمون قصره الذي ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلا يقول:

بقاؤك فيها إن عقلت قليل
لمن كل يوم يقتضيه رحيل

أتبني بناء الخالدين وإنما
لقد كان في ظل الأراك كفاية
قال: فلم يلبث بعدها إلا قليلا ومات، وقال:

على الماء خائنه فروج الأصابع

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض
ووجد مكتوبا على قصر باد أهلّه:

في خفض عيش نفيس ماله خطر
إلى القبور فلا عين ولا أثر

هذه منازل أقوام عهدتهم
صاحت بهم نائبات الدهر فانقلبوا

ولو قيل للدنيا: صفى نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وذو نسب في الهالكين عريق
له عن عدو في ثياب صديق

وما الناس إلا هالك وابن هالك
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

وروى أن علي بن أبي طالب عليه السلام لما رجع من صفين، ودخل أوائل الكوفة رأى قبرا فقال: قبر من هذا؟ فقالوا: قبر خباب بن الأرت، فوقف عليه، وقال: رحم الله خبابا أسلم راغبا، وهاجر طائعا، وعاش مجاهدا، وابتلى في جسمه آخر، ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ثم مشى فإذا هو بقبور، فجاء حتى وقف عليها وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المفقرة، أنتم لنا سلف، ونحن لكم تبع، وبكم عما قليل لاحقون،

اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله تعالى ، ثم قال : يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قُسمت ، وهذا ما عندنا فما عندكم ؟ ثم التفت إلى أصحابه وقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .



الباب الرابع والثمانون

فيما جاء في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وهو آخر الأبواب ، وبه يختم الكتاب

ولنذكر أربعين حديثاً في فضل الصلاة على النبي ﷺ

- (الحديث الأول) : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من صلى على صلت عليه الملائكة ، ومن صلى الله عليه ، لم يبق شيء في السموات ولا في الأرض إلا صلى عليه » ^(١) .
- (الحديث الثاني) : قال رسول الله ﷺ « من صلى على صلاة واحدة أمر الله حافظه أن لا يكتب عليه ذنباً ثلاثة أيام » ^(٢) .
- (الحديث الثالث) : قال رسول الله ﷺ « من صلى على مرة خلق الله من قوله ملكاً له جناحان : جناح بالمشرق وجناح بالمغرب رأسه وعنقه تحت العرش ، وهو يقول : اللهم صل على عبدك مادام يصلي على نبيك » ^(٣) .
- (الحديث الرابع) : قال رسول الله ﷺ « من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشراً ، ومن صلى على عشراً صلى الله عليه بها مائة . ومن صلى على مائة صلى الله عليه بها ألفاً ، ومن صلى على ألفاً لم يعذبه الله بالنار » ^(٤) .
- (الحديث الخامس) : قال رسول الله ﷺ « من صلى على مرة كتب الله له عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات » ^(٥) .
- (الحديث السادس) : قال رسول الله ﷺ « أتاني جبريل يوماً وقال : يا محمد جئت بك بشارة لم آت بها أحدا قبلك وهي : أن الله تعالى يقول لك : من صلى عليك من أمتك ثلاث مرات ، غفر الله له إن كان قائماً قبل أن يقعد ، وإن كان قاعدا غفر له قبل أن يقوم ، فعند ذلك خر ساجدا لله شاكراً » ^(٦) .
- (الحديث السابع) : قال رسول الله ﷺ « من صلى على في صباح عشراً مُحييت عنه ذنوب أربعين سنة » ^(٧) .
- (الحديث الثامن) : قال رسول الله ﷺ « من صلى على ليلة الجمعة ، أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئته ثمانين سنة » ^(٨) .
- (الحديث التاسع) : قال رسول الله ﷺ « من صلى على ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة قضى الله له مائة حاجة ، ووكل الله به ملكاً حين يدفن في قبره ، يبشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية » ^(٩) .

(٢) الحديث الثاني : لم أهد إليه .

(١) الحديث الأول : لم أهد إليه .

(٤) الحديث الرابع : لم أهد إليه .

(٣) الحديث الثالث : أورده السخاوي في القول البديع : « وهو حديث منكر . . »

(٥) الحديث الخامس : رواه الإمام أحمد في المسند عن أبي نعيم ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرک .

(٧) الحديث السابع : لم أهد إليه .

(٦) الحديث السادس : لم أهد إليه .

(٩) الحديث التاسع : انظر المرجع السابق .

(٨) الحديث الثامن : موضوع وانظر : « القول البديع » . للسخاوي [ص ١٩٧] .

- (الحديث العاشر): قال رسول الله ﷺ: «من صلى على في يوم مائة مرة، قضيت له في ذلك اليوم مائة حاجة» ^(١).
- (الحديث الحادي عشر): قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني مجلسا أكثركم على صلاة» ^(٢).
- (الحديث الثاني عشر): قال رسول الله ﷺ: «من صلى على ألف مرة بشر بالجنة قبل موته» ^(٣).
- (الحديث الثالث عشر): قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل عليه السلام وقال لي: يا رسول الله، لا يصلي عليك أحد إلا ويصلي عليه سبعون ألفا من الملائكة» ^(٤).
- (الحديث الرابع عشر): قال رسول الله ﷺ: «الدعاء بعد الصلاة على لا يرد» ^(٥).
- (الحديث الخامس عشر): قال رسول الله ﷺ: «الصلاة على نور على الصراط»، وقال ﷺ: «لا يلج النار من يصلي على» ^(٦).
- (الحديث السادس عشر): قال رسول الله ﷺ: «من جعل عبادته الصلاة على قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة» ^(٧).
- (الحديث السابع عشر): قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة على أخطأ طريق الجنة» ^(٨).
- (الحديث الثامن عشر): قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة في الهواء بأيديهم قراطيس من نور لا يكتبون إلا الصلاة على، وعلى أهل بيتي» ^(٩).
- (الحديث التاسع عشر): قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبدا جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا، ولم تكن فيها الصلاة على ردت عليه ولم تقبل منه» ^(١٠).
- (الحديث العشرون): قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بي أكثرهم على صلاة» ^(١١).
- (الحديث الحادي والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «من صلى على في كتاب لم تزل الملائكة تصلي عليه ما لم يندرس اسمي من ذلك الكتاب» ^(١٢).
- (الحديث الثاني والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني الصلاة على من أمتي فأستغفر لهم» ^(١٣).
- (الحديث الثالث والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «من صلى على كنت شفيعه يوم القيامة، ومن لم يصل على فأنابريء منه» ^(١٤).
- (الحديث الرابع والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق قالوا: يا رسول الله، ولم ذلك؟ قال: سمعوا اسمي ولم يصلوا على» ^(١٥).
- (الحديث الخامس والعشرون): قال رسول الله ﷺ: «يؤمر برجل إلى النار فأقول: ردوه إلى الميزان، فأضع له شيئا كالأنملة معي في ميزانه وهو الصلاة على فترجح ميزانه، وينادي: سعد فلان» ^(١٦).

(١) الحديث العاشر: موضوع: انظر المرجع السابق.

(٢) الحديث الثاني عشر: لم أهد إليه.

(٣) الحديث الحادي عشر: لم أهد إليه.

(٤) الحديث الثالث عشر: لم أهد إليه.

(٥) الحديث الرابع عشر: لم أهد إليه.

(٦) الحديث الخامس عشر: لم أهد إليه.

(٧) الحديث السادس عشر: لم أهد إليه.

(٨) الحديث السابع عشر: رواه الطبراني في معجمه، ورواه ابن ماجه في سننه عن جبراة بن مغلس، قال البخاري: مضطرب الحديث، وهذا الحديث من منكره.

(٩) الحديث الثامن عشر: لم أهد إليه.

(١٠) الحديث التاسع عشر: لم أهد إليه.

(١١) الحديث العشرون: أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود، وقال حسن غريب.

(١٢) الحديث الحادي والعشرون: أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في الثواب، والمستغفر في الدعوات، بسند ضعيف.

(١٣) الحديث الثاني والعشرون: قال ابن القيم في جلاء الأفهام رواه النسائي وهذا بإسناد صحيح، ورواه ابن حاتم بن حبان في صحيحه.

(١٤) الحديث الثالث والعشرون: لم أهد إليه.

(١٥) الحديث الرابع والعشرون: لم أهد إليه.

(١٦) الحديث الخامس والعشرون: لم أهد إليه.

(الحديث السادس والعشرون) : قال رسول الله ﷺ : « ما اجتمع قوم في مجلس ، ولم يصل على فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغسلوه » ^(١) .

(الحديث السابع والعشرون) : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى وكل بقبري ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلها ، فلا يصلي على أحد إلى يوم القيامة إلا بلغني اسمه وقال : يا رسول الله إن فلان ابن فلانة صلى عليك » ^(٢) .

(الحديث الثامن والعشرون) : عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : « الصلاة على النبي ﷺ أمحي للذنوب من الماء لسواد اللوح » ^(٣) .

(الحديث التاسع والعشرون) : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك ، ومن روحك لجسدك ، فأكثر الصلاة على النبي الأمي ﷺ » ^(٤) .

(الحديث الثلاثون) : قال رسول الله ﷺ : « إن ملكاً أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها ، فرحمها ذلك الملك ولم يبادر إلى اقتلاعها ، فغضب الله عليه وكسر أجنته ، فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله ، فسأل الله فيه ، فأمره أن يصلي على النبي ﷺ ، فصلى عليه ، فغفر الله له ، ورد عليه أجنته ببركة الصلاة على النبي ﷺ » ^(٥) .

(الحديث الحادي والثلاثون) : عن عائشة رضي الله عنها قالت : « من صلى على رسول الله ﷺ عشر مرات ، وصلى ركعتين ، ودعا الله تعالى تقبل صلاته ، وتقضى حاجته ، ودعاؤه مقبول غير مردود » ^(٦) .

(الحديث الثاني والثلاثون) : عن زيد بن حارثة قال : « سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فقال ﷺ : « صلوا علي ، واجتهدوا في الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » ^(٧) .

(الحديث الثالث والثلاثون) : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنْ صَلَّيْتُمْ عَلَيَّ زَكَاةَ لَكُمْ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ » ^(٨) .

(الحديث الرابع والثلاثون) : عن سهل بن سعد الساعدي أن النبي ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يصل علي نبيي ﷺ » ^(٩) .

(الحديث الخامس والثلاثون) : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي » ^(١٠) .

(الحديث السادس والثلاثون) : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : جزى الله عنا محمداً خيراً ، وجزى الله نبينا محمداً بما هو أهله ، فقد أتعب كاتبه » ^(١١) .

(الحديث السابع والثلاثون) : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا علي فإن صلَّيْتُمْ عَلَيَّ حَيْثُمَا كُنْتُمْ » ^(١٢) .

(الحديث الثامن والثلاثون) : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا رَزَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ » ^(١٣) .

(١) الحديث السادس والعشرون : لم أهد إليه .

(٢) الحديث الثامن والعشرون : لم أهد إليه .

(٣) الحديث الثلاثون : لم أهد إليه .

(٤) الحديث الحادي والثلاثون : لم أهد إليه .

(٥) الحديث الثاني والثلاثون : لم أهد إليه .

(٦) الحديث الثالث والثلاثون : لم أهد إليه .

(٧) الحديث الرابع والثلاثون : لم أهد إليه .

(٨) الحديث الخامس والثلاثون : لم أهد إليه .

(٩) الحديث السادس والثلاثون : لم أهد إليه .

(١٠) الحديث السابع والثلاثون : لم أهد إليه .

(١١) الحديث الثامن والثلاثون : لم أهد إليه .

(١٢) الحديث التاسع والثلاثون : لم أهد إليه .

(١٣) الحديث العاشر والثلاثون : لم أهد إليه .

(١) الحديث السادس والعشرون : لم أهد إليه .

(٢) الحديث الثامن والعشرون : لم أهد إليه .

(٣) الحديث الثلاثون : لم أهد إليه .

(٤) الحديث الحادي والثلاثون : لم أهد إليه .

(٥) الحديث الثاني والثلاثون : لم أهد إليه .

(٦) الحديث الثالث والثلاثون : لم أهد إليه .

(٧) الحديث الرابع والثلاثون : لم أهد إليه .

(٨) الحديث الخامس والثلاثون : لم أهد إليه .

(٩) الحديث السادس والثلاثون : لم أهد إليه .

(١٠) الحديث السابع والثلاثون : لم أهد إليه .

(١١) الحديث الثامن والثلاثون : لم أهد إليه .

(١٢) الحديث التاسع والثلاثون : لم أهد إليه .

(١٣) الحديث العاشر والثلاثون : لم أهد إليه .

(١) الحديث السادس والعشرون : لم أهد إليه .

(٢) الحديث الثامن والعشرون : لم أهد إليه .

(٣) الحديث الثلاثون : لم أهد إليه .

(٤) الحديث الحادي والثلاثون : لم أهد إليه .

(٥) الحديث الثاني والثلاثون : لم أهد إليه .

(٦) الحديث الثالث والثلاثون : لم أهد إليه .

(٧) الحديث الرابع والثلاثون : لم أهد إليه .

(٨) الحديث الخامس والثلاثون : لم أهد إليه .

(٩) الحديث السادس والثلاثون : لم أهد إليه .

(١٠) الحديث السابع والثلاثون : لم أهد إليه .

(١١) الحديث الثامن والثلاثون : لم أهد إليه .

(١٢) الحديث التاسع والثلاثون : لم أهد إليه .

(١٣) الحديث العاشر والثلاثون : لم أهد إليه .

(الحديث التاسع والثلاثون) : قال رسول الله ﷺ : « أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أكثركم على صلاة »^(١) .
 (الحديث الأربعون) : نقل الشيخ كمال الدين الدميري رحمه الله تعالى عن شفاء الصدور لابن سبع أن النبي ﷺ قال : « من سره أن يلقي الله وهو عليه راض فليكثر من الصلاة على فإنه من صلى على في كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبداً ، وهدمت ذنوبه ، ومحيت خطايا ، ودام سروره ، واستجيب دعاؤه ، وأعطى أمله ، وأعين على عدوه ، وعلى أسباب الخير ، وكان ممن يرافق نبيه في الجنان »^(٢) ، اللهم صل على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، ورسول رب العالمين ، الذي أنزل عليه في محكم الكتاب العزيز تعظيماً له وتوقيراً : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الدَّاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِآذِنِهِ وَسِرَاجاً مُبِيناً] وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَأْنِ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَثِيراً [الأحزاب: ٤٥-٤٧] ، فهذا خطاب خاص الخاص ولم يخاطب الله أحداً من المرسلين ولا من الأنبياء بالرسالة ولا بالنبوة إلا سيد خلقه محمد ﷺ ، فإن الله تعالى نادى أبا البشر يا آدم ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [الأعراف: ١٩] ، ﴿ قِيلَ يَتُوحُّ أَهْبَظْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ [هود: ٤٨] ، ﴿ يَكْذِبُهُمْ عَنْ هَذَا ﴾ [هود: ٧٦] ، و ﴿ يَدَّأُوذُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦] ، ﴿ يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة: ١١٠] ، وقال لمحمد ﷺ : ﴿ يَأْتِيهَا أَرْسُولٌ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ، ﴿ يَأْتِيهَا أَرْسُولٌ لَا يَحْزَنُكَ ﴾ [المائدة: ٤١] ، ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٦٤] ، ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ [الأنفال: ٦٥] ، ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [التحریم: ٩] ، ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَعَتِ النِّسَاءُ ﴾ [الطلاق: ١] ، ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَ عَمْرٍ ﴾ [التحریم: ١] ، ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهُ ﴾ [الأحزاب: ١] ، ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الدَّاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِآذِنِهِ وَسِرَاجاً مُبِيناً] [الأحزاب: ٤٥-٤٦] ، وما ذكره باسمه ﷺ كغيره إلا في أربعة مواضع : اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ .

الأول : قوله - عز وجل - : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد : قد قتل محمد ، وكان ما كان ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ولو قال : وما رسولي لقال الأعداء ليس هو محمداً فذكره ، باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمد .

الثاني : قوله - عز وجل - : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] .

الثالث : قوله - عز وجل - : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيُنُهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ [محمد: ١-٢] ، فلو قال : وآمنوا بما نزل على رسولي لقال الأعداء : ليس هو ، فعرفه باسمه محمد ﷺ .

الرابع : قوله - عز وجل - : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩] ، والحكمة في ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [الصف: ٩] ، فكان من الأعداء من يقول من هو رسوله الذي أرسله ؟ فعرفه باسمه فقال : محمد رسول الله ، وسماه تعالى باسمه أحمد في موضع واحد ، وله حكمته ، وهى : أن الله تعالى لما أرسل عيسى ابن مريم ﷺ قال لقومه من بنى إسرائيل : ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ [الصف: ٦] ، التى أنزلت على موسى ﷺ ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] ، لأنهم كانوا يعرفونه فى التوراة أحمد ، فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد ، ولا أحمد ، وإنما ذكر ذلك إعلاماً به ، وتعريفاً له ، وما ناداه إلا بالنبوة والرسالة ، فقال : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الدَّاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِآذِنِهِ وَسِرَاجاً مُبِيناً] [الأحزاب: ٤٥-٤٦] ، أى : شاهداً بالإيمان للمؤمنين ، ومبشراً لأهل التمجيد ، ونذيراً لأهل التجحيد وقيل : شاهداً لأهل القرآن ، ومبشراً لهم بالغفران ، ونذيراً لأهل الكفر والعصيان ، وقيل : شاهداً لأمتك ومبشراً بشفاعتك ؟ ونذيراً لمن ارتكب مخالفتك ، وقيل : شاهداً بالمنة ، ومبشراً بالجنة ، وقوله : وداعياً إلى الله بإذنه ، أى يدعو الناس ، بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله قال تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩] ، وسمى رسول الله ﷺ

(١) الحديث التاسع والثلاثون : منكر وأخرج البيهقي فى « حياة الأنبياء » . برقم [١٤] . حديثاً قريباً منه . وانظر الخير الكثير فى الصلاة على البشير النذير لزين الدين الشافعى ، تحقيق الأستاذ / طارق الطنطاوى ، وطبع مكتبة القرآن .

(٢) الحديث الأربعون : لم أهد إليه .

نفسه داعيا فقال : « أنا الداعي إلى الله »^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٦] ، أى : يهتدى به كما يهتدى بالسراج فى ظلمة الليل ، فإن قلت ما الحكمة فى قوله تعالى وسراجا منيرا ؟ ولم يقل قمرا منيرا ، فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر ، لأن المراد بالسراج هنا الشمس ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٦] ، والشمس أعم نفعا ونورا من القمر ، وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ ، السراج الذى يقتبس منه ، لأنه القمر لا تصل إليه الأيدي حتى يقتبس منه ، والسراج إذا كان فى بلد يملأ ذلك البلد نورا ، لأن كل من جاء يقتبس منه ، والقمر ليس كذلك ، ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته ظلاما ، فلما ولد ظهر سراج دينه ، بمكة فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الشباب على ، ومن الموالى زيد ، ومن العبيد بلال . أجمعين ، وجاء سلمان من أرض فارس فاقتبس ، وصهيب من الروم ، وبلال من الحبشة ، ووفد الوفود واقتبسوا ، وأبو لهب إلى جانب البيت ، ولم يقتبس ، واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاريها ، حتى امتلأت الأرض من نور سراجيه فهو أعظم الأنبياء ، وأكرم المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين ، لم يخلق الله أحسن ، ولا أجمل ، ولا أكمل ، ولا أفضل ، ولا أفصح ، ولا أرجح ، ولا أسمح ، ولا أصبح ، ولا أجل ، ولا أعظم ، ولا أسخى ، ولا أكرم ، ولا أبهى ، ولا أنصف ، ولا أعدل منه . فلو أن البحار مداد ، والنبات أقلام ، وجميع الخلق تكتب معجزاته لعجزوا عن وصف نزر النزر من معجزاته ، اللهم اجعلنا من خالص أمته ، واحشرنا فى زمرة ، وأمتنا على محبته ، ولا تخالف بنا عن ملته ، ولا عما جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

(١) حديث « أنا الداعي إلى الله » . لم أقف عليه .

فهرس المحتويات

٣	 مقدمة التحقيق
٣	 المؤلف وعصره وكتابه
٧	 مقدمة المؤلف
١١	 الباب الأول: في مباني الإسلام، وفيه خمسة فصول
١١	 الفصل الأول: في الإخلاص لله تعالى والثناء عليه
١٢	 الفصل الثاني: في الصلاة وفضلها
١٤	 فضل السواك والأذان
١٥	 الفصل الثالث: في الزكاة وفضلها
١٨	 الفصل الرابع: في الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب
١٩	 الفصل الخامس: في الحج وفضله
٢١	 الباب الثاني: في العقل والذكاء، والحق وذمه، وغير ذلك
٢١	 الباب الثالث: في القرآن وفضله، وحرمة، وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم، والأجر
٢٥	 الجسم
٢٨	 الباب الرابع: في العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم
٣٥	 الباب الخامس: في الآداب والحكم وما أشبه ذلك
٣٨	 الباب السادس: في الأمثال السائرة وفيه فصول
٣٨	 الفصل الأول: فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم، وأحاديث النبي الكريم ﷺ
٤٠	 الفصل الثاني: في أمثال العرب
٤١	 الفصل الثالث: في أمثال العامة والمولدين
٤١	 الفصل الرابع: في الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم
٤٧	 الفصل الخامس: في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم
٥٢	 أمثال النساء
٥٦	 الباب السابع: في البيان والبلاغة والفصاحة، وذكر الفصحاء من الرجال والنساء، وفيه فصول
٥٦	 الفصل الأول: في البيان والبلاغة
٥٧	 الفصل الثاني: في الفصاحة
٦٢	 الفصل الثالث: في ذكر الفصحاء من الرجال
٦٧	 من حكايات الفصحاء ونوادر البلقاء

٧١	ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن
٧٥	الباب الثامن: في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك
	الباب التاسع: في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات
٧٩	الأمجاد
٧٩	فصل في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم
٨٤	مما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد
	الباب العاشر: التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم، والقناعة وذم الحرص والطمع، وما
٨٥	أشبه ذلك وفيه فصول
٨٥	الفصل الأول: في التوكل على الله تعالى
٨٨	الفصل الثاني: في القناعة والرضا بما قسم الله
٩٢	الفصل الثالث: في ذم الحرص والطمع وطول الأمل
٩٣	مما جاء في الطمع وذمه
٩٤	الباب الحادي عشر: في المشورة والنصيحة والتجارب، والنظر في العواقب
٩٨	مما جاء في النصيحة
٩٩	الباب الثاني عشر: في الوصايا الحسنة، والمواظب المستحسنة، وما أشبه ذلك
	الباب الثالث عشر: في الصمت، وصون اللسان، والنهي عن الغيبة، والسعي بالتميمة، ومدح العزلة،
١٠٤	وذم الشهرة، وفيه فصول
١٠٤	الفصل الأول: في الصمت وصون اللسان
١٠٥	الفصل الثاني: في تحريم الغيبة
١٠٦	الفصل الثالث: في تحريم السعاية بالتميمة
	الباب الرابع عشر: في الملك والسلطان وطاعة ولاية أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما
١١٠	يجب لهم عليه
١١٢	الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان، والتحذير من صحبته
١١٤	الباب السادس عشر: في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم، وما أشبه ذلك
١١٥	الباب السابع عشر: في ذكر الحجاب والولاية، وما فيها من الغرر والخطر
	الباب الثامن عشر: فيما جاء في القضاء، وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم، وما
١٢٠	يتعلق بالديون، وذكر القصاص، والمتصوفة وفيه فصول
١٢٠	الفصل الأول: فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم
١٢٢	الفصل الثاني: في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون
١٢٣	الفصل الثالث: في ذكر القصاص والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك
١٢٤	الباب التاسع عشر: في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك
١٢٧	الباب العشرون: في الظلم وشؤمه، وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم، وغير ذلك

الباب الحادى والعشرون:	فى بيان الشروط التى تؤخذ على العمال، وسيرة السلطان فى استجباء الخراج، وأحكام أهل الذمة وفيه فصلان	١٣٢
الفصل الأول:	فى سيرة السلطان فى استجباء الخراج والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال	١٣٢
الفصل الثانى:	فى أحكام أهل الذمة	١٣٥
الباب الثانى والعشرون:	فى اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء الحوائج للمسلمين وإدخال السرور عليهم	١٣٧
الباب الثالث والعشرون:	فى محاسن الأخلاق ومساوئها	١٣٩
الباب الرابع والعشرون:	فى حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة وما أشبه ذلك	١٤٣
الباب الخامس والعشرون:	فى الشفقة على خلق الله تعالى، والرحمة بهم، وفضل الشفاعة، وإصلاح ذات البين، وفيه فصلان	١٥١
الفصل الأول:	فى الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم	١٥١
الفصل الثانى:	فى الشفاعة وإصلاح ذات البين	١٥١
الباب السادس والعشرون:	فى الحياء والتواضع ولين الجانب، وخفض الجناح، وفيه فصلان	١٥٣
الفصل الأول:	فى الحياء	١٥٣
الفصل الثانى:	فى التواضع، ولين الجانب، وخفض الجناح	١٥٣
الباب السابع والعشرون:	فى العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك	١٥٤
الباب الثامن والعشرون:	فى الفخر والمفاخرة، والتفاضل والتفاوت	١٥٥
الباب التاسع والعشرون:	فى الشرف والسؤدد وعلو الهمة	١٦٢
الباب الثلاثون:	فى الخير والصلاح، وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين	١٦٤
الباب الحادى والثلاثون:	فى مناقب الصالحين وكرامات الأولياء	١٧٣
الباب الثانى والثلاثون:	فى ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش، والوقاحة والسفاهة	١٨١
الباب الثالث والثلاثون:	فى الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق، واصطناع المعوف وذكر الأمجاد، وأحاديث الأجواد	١٨٣
الباب الرابع والثلاثون:	فى البخل والشح، وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم	١٩٨
الباب الخامس والثلاثون:	فى الطعام وآدابه، والضيافة وآداب المضيف والمضيف، وأخبار الأكلة، وما جاء عنهم، وغير ذلك	٢٠٥
الباب السادس والثلاثون:	فى العفو، والحلم، والصفح، وكظم الغيظ، والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب وما أشبه ذلك	٢١٧
الباب السابع والثلاثون:	فى الوفاء بالوعد، وحفظ العهد، ورعاية الذمم	٢٢٨
الباب الثامن والثلاثون:	فى كتمان السر وتحصينه، وذم إفشائه	٢٣٦
الباب التاسع والثلاثون:	فى القدر والخيانة، والسرقه والعداوة والبغضاء، والحسد وفيه فصول	٢٣٨
الفصل الأول:	فى القدر والخيانة	٢٣٨

٢٤١	الفصل الثاني: في السرقة والسراق
٢٤١	الفصل الثالث: فيما جاء في العداوة والبغضاء
٢٤٤	الفصل الرابع: في الحسد
	الباب الأربعون: في الشجاعة وثمرتها، والحروب وتدبيرها، وفضل الجهاد وشدة البأس، والتحريض على القتال وفيه فصولان
٢٤٦	الفصل الأول: في فضل الجهاد في سبيل الله وشدة البأس
٢٤٧	الفصل الثاني: في الشجاعة وثمرتها، والحروب وتدبيرها
	الباب الحادي والأربعون: في ذكر أسماء الشجعان، وذكر الأبطال وطبقاتهم أخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن
٢٥١	الطبقة الأولى الذين أدركوا الجاهلية والإسلام
٢٥٤	الطبقة الثانية
٢٥٦	الطبقة الثالثة
٢٦١	الباب الثاني والأربعون: في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول
٢٦١	الفصل الأول: في المدح والثناء
٢٦٨	الفصل الثاني: في شكر النعمة
٢٧١	الفصل الثالث: في المكافأة
٢٧٦	الباب الثالث والأربعون: في الهجاء ومقدماته
٢٨٢	الباب الرابع والأربعون: في الصدق والكذب وفيه فصولان
٢٨٢	الفصل الأول: في الصدق
٢٨٣	الفصل الثاني: في الكذب وما جاء فيه
	الباب الخامس والأربعون: في بر الوالدين، وذم العقوق، وذكر الأولاد، وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقربات وذكر الأنساب وفيه فصول
٢٨٥	الفصل الأول: في بر الوالدين وذم العقوق
٢٨٦	الفصل الثاني: في الأولاد وحقوقهم، وذكر النجباء والأذكىاء والبلداء والأشقياء
٢٨٨	الفصل الثالث: في ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة
	الباب السادس والأربعون: في الخلق وصفاتهم وأحوالهم، وذكر الحسن والقبح، والطول والقصر، والألوان والثياب، وما أشبه ذلك وفيه فصول
٢٨٩	الفصل الأول: في الحسن ومحاسن الأخلاق
٣٠٨	الباب السابع والأربعون: في التختيم والحلى والمصوغ، والطيب والتطيب، وما أشبه ذلك
٣١٠	الباب الثامن والأربعون: في الشباب والصحة والعافية وأخبار المعمرين، وما أشبه ذلك وفيه فصول
٣١٠	الفصل الأول: في الشباب وفضله

٣١٠	الفصل الثاني، في الشيب وفضله
٣١٣	الفصل الثالث، في العافية والصحة
٣١٤	الفصل الرابع، في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام
٣١٥	الباب التاسع والأربعون: في الأسماء والكنى والألقاب وما استحسنت منها
٣٢٠	الباب الخمسون: فيما جاء في الأسفار والاعتراب، وما قيل في الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه
٣٢٦	الباب الحادي والخمسون: في ذكر الفنى، وحب المال، والافتخار بجمعه
٣٣٢	الباب الثاني والخمسون: في ذكر الفقر ومدحه
٣٣٣	الباب الثالث والخمسون: في التلطف في السؤال وذكر من سئل فجاد
٣٣٩	الباب الرابع والخمسون: في ذكر الهدايا والتحف، وما أشبه ذلك
٣٣٩	ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته، فأهدى اليسير وكتب معه مكاتبة يعتذر بها ..
٣٤١	الباب الخامس والخمسون: في العمل والكسب والصناعات والحرف، وما أشبه ذلك
٣٤٥	الباب السادس والخمسون: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله، والصبر على المكروه، والتسلى عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول
٣٤٥	الفصل الأول: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله
٣٤٨	الفصل الثاني: في الصبر على المكروه ومدح التثبت وذم الجزع
٣٥٥	الفصل الثالث، في التأسى في الشدة والتسلى عن نوائب الدهر
٣٥٧	الباب السابع والخمسون: ما جاء في ليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة، والفرح والسرور ونحو ذلك
٣٦٣	الباب الثامن والخمسون: في ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان
٣٦٣	الفصل الأول: في مدح العبيد والإماء والاستيلاء بهم خيراً
٣٦٤	الفصل الثاني: في ذم العبيد والخدم
٣٦٦	الباب التاسع والخمسون: في أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم وذكر غرائب من عوائلهم وعجائب من أكاذيبهم
٣٦٩	الباب الستون: في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية وما أشبه ذلك
٣٧٩	الباب الحادي والستون: في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر
٣٨٥	الباب الثاني والستون: في ذكر الدواب والوحوش والطيور والهوام والحشرات، وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم
٤١٨	فصل في خواص الطير والحيوان على الإجمال
٤١٨	الباب الثالث والستون: في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم
٤٢٢	الباب الرابع والستون: في خلق الجن وصفاتهم
٤٢٢	فصل في مكايدهم - لعنه الله

٤٢٣	فصل في التشيطنة وهم أنواع كثيرة
	الباب الخامس والستون في ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه
٤٢٥	فصول
٤٢٥	الفصل الأول: في ذكر البحار
٤٢٨	الفصل الثاني: في ذكر الأنهار والآبار والعيون
٤٢٩	الفصل الثالث: في ذكر الآبار
	الباب السادس والستون في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البتيان وفيه
٤٣٠	فصول
٤٣٠	الفصل الأول: في ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب
٤٣١	الفصل الثاني: في ذكر الجبال
٤٣١	الفصل الثالث: في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها
٤٣٥	الباب السابع والستون في ذكر المعادن والأحجار وخواصها
	الباب الثامن والستون في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه، ومن كرهه ومن
٤٣٨	استحسنه
٤٣٨	فصل في الصوت الحسن
	الباب التاسع والستون في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء، في
٤٤٣	مجالس الرؤساء
	الباب السبعون في ذكر العشق، ومن بلى به، والافتخار بالعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما معنى
٤٤٧	ذلك وفيه فصول
٤٤٧	الفصل الأول: في وصف العشق
٤٤٩	الفصل الثاني: فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف
٤٥٣	الفصل الثالث: في ذكر من مات بالحب والعشق
	الباب الحادي والسبعون في ذكر رقائق الشعر والموايا والدوبيت وكان وكان والموشحات والزجل
٤٥٩	والحماق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول
٤٥٩	الفصل الأول: في الشعر
٤٨٩	فصل في ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك
٤٨٩	فصل في الألغاز
٤٩٣	فصل في بيان الفن الثاني وهو الموشح
٥٠١	فصل في الفن الثالث وهو الدوبيت
٥٠٢	فصل في الفن الرابع وهو الزجل
٥٠٨	الفن الخامس في الموايا وله وزن واحد وأربع قواف
٥٠٩	الفن السادس كان وكان

٥١٠	الغن السابع فن القوما
	الباب الثالث والسبعون في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد ويذم من
٥١٣	عشرتهن وفيه فصول
٥١٣	الفصل الأول: في النكاح وفضله والترغيب فيه
٥١٩	الفصل الثاني: في صفات النساء المحموده
٥٢١	الفصل الثالث: في صفة المرأة السود نعوذ بالله تعالى منها
٥٢١	الفصل الرابع: في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن
٥٢٣	الفصل الخامس: في الطلاق وما جاء فيه
٥٢٥	الباب الرابع والسبعون في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها
	الباب الخامس والسبعون في المزح والنهي عنه وما جاء في الترخيص فيه والبسط والتنعيم وفيه
٥٢٧	فصول
٥٢٧	الفصل الأول: في النهي عن المزاح
٥٢٧	الفصل الثاني: فيما جاء في الترخيص فيما لمزاح والبسط والتنعيم
٥٢٩	الباب السادس والسبعون في النوادر وفيه فصول
٥٢٩	الفصل الأول: في نوادر العرب
٥٣١	الفصل الثاني: في نوادر القراء والفقهاء
٥٣١	الفصل الثالث: في نوادر القضاة
٥٣٢	الفصل الرابع: في نوادر النحاة
٥٣٣	الفصل الخامس: في نوادر المعلمين
٥٣٤	الفصل السادس: في نوادر المتنبيين
٥٣٥	الفصل السابع: في نوادر السؤال
٥٣٥	الفصل الثامن: في نوادر المؤذنين
٥٣٥	الفصل التاسع: في نوادر النواتية
٥٣٦	الفصل العاشر: في نوادر جامعة
٥٣٧	الباب السابع والسبعون في الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول
٥٣٧	الفصل الأول: في الدعاء وآدابه
٥٣٩	الفصل الثاني: في الأدعية وما جاء فيها
٥٤٧	الباب الثامن والسبعون في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل
٥٥٠	الباب التاسع والسبعون في التوبة والاستغفار
	الباب الثمانون فيما جاء في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء في السنة من العيادة
٥٥٣	وما أشبه ذلك وفيه فصول

٥٥٣	الفصل الأول: في الأمراض والعلل، وما جاء في ذلك من الأجر والثواب
٥٥٣	الفصل الثاني: في ذكر العلل كالبحر والعرج والعمى والصمم والرمم والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة
٥٥٥	الفصل الثالث: في التداوى من الأمراض والطب
٥٥٨	الفصل الرابع: فيما جاء في العيادة وفضلها
٥٥٩	الباب الحادي والثمانون: في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله
٥٦٢	الباب الثاني والثمانون: في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي ونحو ذلك وفيه فصول
٥٦٢	الفصل الأول: في الصبر
٥٦٤	الفصل الثاني: في التعازي والتأسي
٥٦٧	الفصل الثالث: في المراثي
٥٧٢	الباب الثالث والثمانون: في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها
٥٧٢	الباب الرابع والثمانون: فيما جاء في فضل الصلاة على رسول الله - وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب

